موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

التربية الإسلامية

مدراج السالكين
في منازل
إياك نعبد و إياك نستعين

www.nabulsi.com info@nabulsi.com

بسم ا   الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون .... انطلاقاً من قول النبي عليه الصلاة والسلام : " **من عرف نفسه، عرف ربه** "

فالإنسان من دون جميع المخلوقات يتمتع بما وهبه ا   عز وجل بقوة إدراكية ، فإذا غفل عن سر وجوده وعن حقيقة وجوده وعن مهمته في الدنيا فقد ضل سواء السبيل ، ا   سبحانه وتعالى يقول :

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾

(سورة الكهف)

يجب أن نقف قليلاً عند كلمة الأخسرين ، إنها جمع الأخسر والأخسر اسم تفضيل .. الأشد خسارة ، الإنسان في الدنيا قد يخسر ماله ويعوضه ، قد يخسر مركزه ويعوضه ، ولكن الإنسان في الآخرة حينما يكتشف أنه ضل سواء السبيل ، وحينما يكتشف أن أمامه شقاء أبدياً، لا يقال له خاسر . يقال له أخسر، خسر نفسه وخسر الآخرة الأبدية وضيعها من أجل لعاعة من الدنيا كما وصف النبي عليه الصلاة والسلام الدنيا .

إذا : " **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سيعهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** " .

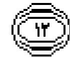
فالناس مختلفون : (من منهم من يدري ويدري أنه يدري فهذا عالم فاتبعوه ، ومنهم من يدري ولايدري أنه يدري فهذا غافلٌ فنبهوه، ومنهم من لايدري ويدري أنه لايدري فهذا جاهلٌ فعلّموه ، ومنهم من لايدري ولايدري أنه لايدري فهذا شيطان فاحذروه).

إذاً الإنسان دون جميع المخلوقات زوده ا   بقوة إدراكية .. إذا قلت لكم إن أعظم شيء خلقه ا   في الأرض أو في الكون هو العقل البشري لا أكون مبالغاً ، الإنسان به يرقى ، وبه ينحط . الإنسان هل هو إلا عقل يدرك وقلب يحب ، والعلاقة بين العقل والقلب كما ورد في الحديث الشريف : " **أرجحكم عقلاً أشدكم   حباً** "

كلما رجح عقلك ازداد حبك ، وانطلاقاً من أنه من عرف نفسه فقد عرف ربه يجب أن نعرف أنفسنا من نحن ..؟ ماهويتنا ..؟ لئلا تستهلكنا الحياة ، الحياة تستهلك الناس من عملٍ إلى نومٍ إلى راحة إلى متعة إلى ندوة إلى سهرة إلى نزهة إلى لقاء إلى خصومة إلى مجادلة

ويأتي الأجل وقد ضيع الإنسان كل شي . فمن أجل أن لاتستهلكنا الدنيا ومن أجل أن لانكون ضحية الجهل ا سبحانه وتعالى يقول :

ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا



(سورة الطلاق)

كأن علّة وجودنا في هذه الأرض أن نعلم ، ويبدو أن العلم إذا كان كما أراد ا عز وجل ينقلب إلى عمل ، وإذا صح العمل سعِد الإنسان في الدنيا والآخرة . لذلك .. قال ا عز وجل :

وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦

(سورة الذاريات)

العبادة في الأصل غاية الخضوع إلى ا عز وجل ، غاية الاستسلام ، غاية المحبة ، غاية التوجه . والإنسان يتوجه إلى ا ، ويعبده ويحبه ويستسلم له ، .. إذا عرفه ... وإذا توجه إليه .. يسعد لقربه ولذلك خلقه .

و يقول ا عز وجل " **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** " أنت أيها الإنسان مهمتك الأولى أن تعبد ا عز وجل.

و الإنسان ..؟ هو المخلوق الأول .. لأنه قبِلَ حمل الأمانة سخّر ا له مافي السماوات والأرض . حملُ الأمانة مأخوذ من قوله تعالى :

إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢

(سورة الأحزاب)

هذه الأمانة عرضت على جميع المخلوقات في عالم الأزل، أشفقن منها وحملها الإنسان ....ز لأنه حملها استحق أن يسخّر له مافي السماوات ومافي الأرض وتعلمون أن

المسخّر له أقرب دائماً من المسخّر . المسخّر له وهو الإنسان أكرم على ا من المسخّر ، لذلك ا عز وجل يقول :

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

(سورة الإسراء)

أنت المخلوق الأول في هذا الكون ، المخلوق المكرم ، أنت مكلّفٌ بالأمانة ، مكلّفُ بهذه النفس التي بين جنبيك ... أنت كائن لك جسد ولك نفس ولك روح . في أرجح الأقوال .. ذاتك .. ذاتك التي وصفها ا عزوجل بأنها ذات الصدور وا عليم بذات الصدور .

﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾

(سورة الفجر)

ذاتك التي هي موضع الأمر والنهي ، وهي التي تؤمن وتكفر ، وهي التي تسعد وتشقى ، وهي التي ترضى وتغضب ، وهي ذات الإنسان التي خلقها ا عز وجل لتبقى في أبد الآبدين .. إنها نفسك ...

لك جسد وا سبحانه وتعالى بطريقة أو بأخرى ربط الجسد بالنفس ، هذا الجسد وعاء لها ، حاملٌ لها ثوب لها ، رداء لها ، وهذا الجسد شيء مؤقت ينتهي عند الموت . فالذي يبالغ في إمتاع جسده والعناية به ويهمل نفسه وهذا حال أهل الأرض تعيس تعيس - ماذا قال بعض زعمائهم ؟ ملكنا العالم ولم نملك أنفسنا . سيطروا على الطبيعة على حدِ زعمهم ولكن ماسيطروا على هذه النفس نفسهم لم تسعد ، تمتعت أعضاؤهم ، تمتعت حواسهم ، ولكن نفوسهم لاتسعد لأن فِطرة ا عز وجل التي فطر الإنسان عليها لاتسعد إلا بقربه .. الدليل :

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

(سورة الروم)

أن تقيم وجهك للدين حنيفاً وأن تُقبل على ربك وأن تلتزم أمره ونهيه هو الوضع الطبيعي للنفس البشرية " ، **فأقم وجهك للدين حنيفاً** " .

المفارقة أن أهل الغرب اعتنوا بأجسادهم ولكن هذه النفس الغالية التي كرمها ا عز وجل وضعوها في الوحول وضعوها في الشهوات الخسيسة.

أنت لك نفس .. هذه النفس تذوق الموت ولاتموت ، هي خالدةٌ إما في جنة يدوم نعيمها أو في نارٍ لاينفذ عذابها . هذه النفس تسعد بقربها من ا وتشقى ببعدها عنه قال ا عز وجل:

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾

(سورة طه)

لن تجد إنساناً واحداً على وجه الأرض سعيداً وهو بعيد عن ا عز وجل فهذه الحالة مستحيلة . بعض المفسرين تساءلوا حول هذه الآية : مابال الملوك ، مابال الأغنياء ، ليس عندهم ولامشكلة .. الأمور كلها موفورة لديهم . فأجاب بعضهم بأنه ضيق القلب .. ضيق القلب هو الذي عناه ا عز وجل من قوله تعالى " **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكاً** " .

وجه اهتمامك إلى هذه النفس التي بين جنبيـ ـك ، وانتبه لها ، يقول سيدنا عمر : / تعاهد قلبك / فالإنسان إذا أصاب عينـ ـه عارض ، يقلق قلقاً شديداً ويذهب إلى أمهر الأطباء ويبذل مئات الليرات ليطمئن .. هذا الحـ ـ ـرص على سلامة العين ، وعلى أن تتمتع بها طوال حياتك..هو كحرص الدعاة إلى ا بل هم أشد حرصاً على أنفسهم وعلى طهارتها وعلى سلامتها وعلى اصطباغها بالكمال من حرصهم على أعينهم إذا أصابها عارض .

لذلك .. الإنسان : نفس وجسد وروح . الروح في رأي بعضهم قوة ا أودعها ا في الإنسان فالعين ترى بالروح ، .. هذا الكبد الذي له خمسة ألاف وظيفة دون روح لا قيمة له ، أما بالروح له وظائف يعجز عن إدراكها العلماء فضلاً عن معرفة كنهها . هذا الكظر ، هذا البنكرياس ، هذه الأمعاء ، هذه العين العين بإمكانها أن ترى الفرق بين لونين بينهما واحد من ٨٠٠ ألف درجة لو أننا درجنا اللون الأخضر ثمانمائة ألف درجة .. العين البشرية تفرق بين درجتين .

العين ترى بالروح ، والأذن تسمع بما أودع ا في هذه الأذن فيما يبدو قوة السمع فإذا

ذهبت الروح أصبح الإنسان جثة هامدة . فالروح قوة ا عز وجل يستردها عند الموت ، والجسد يبلى ، النفس هي التي تبقى ، هنيئاً لمن اعتنى بنفسه .. نظر إلى أمراضها .. نظر إلى عللها .. نظر إلى ما يسعدها .. نظر إلى ما يشقيها ..

الإنسان نفس هي ذات الإنسان هي المعنية بالخطاب هي التي تؤمن ، هي التي تكفر ، هي التي ترضى ، هي التي تسخط ، هي التي تسعد ، هي التي تشقى ، وله وعاء هو الجسد وفيه قوة محركة هي الروح ، والإنسان حينما قَبِلَ الأمانة استحق أن تسخر له السماوات والأرض وا سبحانه وتعالى من عليه بهذا العقل . العقل قوة إدراكية يميز بها الإنسان عما سواه من المخلوقات ، أعطاه فِطرة .. هذا الفطرة ربنا عز وجل قال :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الشمس)

هناك تفسير لهذه الآية يتصل بفطرة الإنسان .. يعني .. الإنسان إذا فعل شيئاً مخالفاً لفطرته يتألم ، إذا خرج عن قواعد فطرته يشعر بالضيق ، حتى أن الأجانب حينما يصفون الأمراض النفسية من جملة هذه الأمراض الشعور بالكآبة .. هذا مرض يعقب الانحراف لو أن هذا الإنسان ماوصله الحق ولابلغه الحق .. إن فطرته وحدها كفيلة كي تنبهه إذا انحرف . هذه هي الفطرة ..

لذلك : " **ألهمها فجورها** " هذه النفس لأنها فُطرت فِطرةً عالية جداً إذا هي انحرفت تشعر بانحرافها وتضيق بهذا الانحراف هذا معنى ألهمها فجورها وألهما تقواها وإذا اتقت ا عز وجل وكانت عند الأمر والنهي وكانت مطيعةً له ترتاح هذه النفس وتسعد هذا معنى " **ألهمها فجورها وتقواها** " .

أعطانا الكون وأعطانا العقل ميزاناً ولكن أتمنى على إخوتنا الأكارم أن يعلموا أن هذا الميزان يشبه إلى حد كبير العين . مهما دقت العين تحتاج إلى ضوء لترى به ، والعقل مهما نما ومهما رجح يحتاج إلى نورٍ إلهي يهتدي به ، العقل وحده يضل والعقل دون نورٍ رباني يزل .

العقل قوة إدراكية وهو ميزان والشرع ميزان على الميزان ، أعطانا كوناً وأعطانا عقلاً وأعطانا فِطرةً والفِطرة ميزان نفسي والعقل ميزان علمي وأعطانا بعد كل هذا حرية الإختيار كي تُثمن أعمالنا وأعطانا شهوات نرقى بها إلى ا صابرين وشاكرين وأعطانا فيما يبدو لنا قوةً نحقق بها إرادتنا هذا فيما يبدو أما في الحقيقة الفِعلُ فِعلُ ا عز وجل . هذه المقومات .. مقومات التكليف يجب أن تكون ماثلةً بين أيدينا .

أولاً أنت كائن لك نفس وروح وجسد ، ثانياً أنت مكلّف .. مكلّفٌ ومكرم ، ومخلوق أول ، مكلّفٌ بنفسك والدليل قوله تعالى :

قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

(سورة الشمس)

ا سبحانه وتعالى بعد أن خلقنا هدانا في القرآن الكريم آية تقول:

قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

(سورة طه)

" **فمن اتبعَ هدايَ فلا يضل ولا يشقى** ".والهدى على أربعة مراحل : أولاً : ا سبحانه وتعالى أعطاك الحواس الخمس هذه هداية تشترك فيها مع كل المخلوقات .

قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾

(سورة طه)

هداه بالعينين بالسمع بالإدراك بالحركة بالشم .. بحواسه الخمس . هداه بعقله . ولكن الهدى الثاني هو هدى الوحي أنت كمخلوق رحمة ا بك واسعة ، و حرصه عليك شديد ،

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾

(سورة المؤمنون)

أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾

(سورة القيامة)

بلا أمر وبلا نهي . حينما أنزل ا الكتب على أنبيائه ، هذا هو الهدى هدى الوحي :

﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣﴾

(سورة الكهف)

هدى التوفيق . إذا آمنت با عز وجل ينقلك من حالٍ إلى حال ومن مقامٍ إلى مقام ، يلهمك فِعلَ الخيرات وترك المنكرات يمكنّك من الدعوة إلى ا ، يعطيك مالاً تنفقه في سبيل ا ، هذه المقومات مقومات الأعمال الصالحة عند بعض العلماء هدى التوفيق ، الهدى العام، هدى الوحي ، والهدى الأخير هو الهدى إلى الجنة . سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم.

مخلوق أنت كي تعبد ا عز وجل ، الإنسان قد يأخذ وقد يعطي ، المخلوق لايستطيع أن يأخذ إلا بقدر استيعابه لكن الإنسان حينما جاء إلى الدنيا جاء ليعمل الصالحات وبهذه الصالحات وهذه المؤثرات وهذه التضحيات يشعر أن ا يحبه ، بهذا الشعور الدقيق يقبل عليه، بإقباله عليه يأخذ أكثر مما يعطى غيره ... هذا هو سِر حمل الأمانة .. يعني أنت جئت إلى الدنيا لتؤاثر ا على كل شيء.

﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾

(سورة النازعات)

أنت لك طبع وعندك تكليف ، وغالباً الطبع يتناقض مع التكليف ... أنت مكلفٌ أن تغض بصرك وطبعك يدعوك إلى النظر ، أنت مكلفٌ أن تصلي الفجر في وقته وطبعك يدعوك إلى النوم ، أنت مكلفٌ أن تصمت عند الغيبة والنميمة وطبعك يدعوك إلى ذكر هذه القصص الغريبة ، أنت مكلفٌ أن تنفق المال وطبعك يدعوك إلى كسب المال ، " **فأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى** " .

إذاً من هذا التعارض بين الطبع وبين التكليف يرقى الإنسان ، لكن في الشهوات يرقى مرتين يرقى صابراً ويرقى شاكراً ، إذا غض بصره عن محارم ا ، إذا امتنع عن أكل المال الحرام يرقى صابراً أما إذا أنفق أو إذا مارس هذه الشهوة وفق القناة التي سمح ا بها يرقى شاكراً . فأنت ترقى مرتين بالشهوة ترقى صابراً وترقى شاكراً . عليك أن تعبد ا عز وجل

وهذا سر وجودك ، " **وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** " ، مقامك أن تعبده ولن تعبده إلا إذا عرفته ولكن كيف تعرفه..؟.

الحقيقة هناك مصادر عِدة لمعرفة ا عز وجل : أولاً جاءك خطاب منه وهو القرآن الكريم فإذا قرأت القرآن وتدبرته أو جلست في مجلس علمٍ وتعلمت تفسيره وأحكامه فهذا باب كبير من أبواب معرفة ا عز وجل وهناك باب آخر جاء في القرآن الكريم .. إذا تأملت في خلق السماوات والأرض رأيت عظيم الصنعة ودقة الصنعةِ والحكمة والعلم ، كأن هذا الكون مظهر لأسماء ا الحسنى وصفاته الفضلى . معك القرآن مصدر لمعرفة كلامه والكون مصدر آخر وأفعاله مصدر ثالث ولكن الإمام الغزالي رحمه ا تعالى فرق بين أنواع ثلاثة قال : هناك من يعرفه ، وهناك من يعرف أمره ، وهناك من يعرف خلقه . فخلقه .. العلوم العصرية .. الرياضيات ، الفيزياء ، الكيمياء ، الجيولوجيا ، الفلك ، الفيزياء النووية ، الفيزياء الكيميائة ، الكيمياء العضوية ، الكيمياء المعدنية هذه كلها فروع معرفة خلقه العلم في هذه الموضوعات نما نمواً مذهلاً .. .. إذا تأملت في خلق السماوات والأرض ترى دقة الصنعة ، ترى الاتقان ، ترى الإعجاز ، ترى أن هذه الصنعة تكشف عن علمٍ وعن حكمة وعن تقديرٍ وعن رحمة وعن إكرامٍ ، فأشياء كثيرة خُلقت خصيصاً لك .

وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾

العلم الثاني : العلم بأمره ، ا عز وجل له أمر وله نهي وهذا الأمر مأخوذ من كتاب ا أولاً ومن سنته ثانياً ومن الإجماع والقياس ثالثاً ورابعاً والعلم بأمره يقتضي الدراسة والاستماع والمطالعة والحفظ والتذكر .. يعني .. الطريقة المدرسية لابد من أن تقرأ ولابد من أن يعلمك معلم ولابد من أن يثقفك مثقف ولابد من أن تسأل ولابد من أن تجاب ولابد من أن تحفظ ولابد من أن تتذكر .. هذا العلم بأمر ا ، أما العلم با شي آخر وربما الباعث لهذا الدرس أن تزداد معرفتنا با عز وجل .. العلم با طبيعته ليست من طبيعة العلم بأمره وخلقه ، العلم بأمره وخلقه هذان الاثنان يحتاجان إلى الطرق المعروفة في اكتساب العلم .. الطرق المعروفة .. الدراسة ، القراءة ، المتابعة ، الحفظ ، التذكر . ولكن العلم با عز وجل هذا له طبيعة خاصة الإمام الغزالي لخصها بكلمتين قال : " جاهد تُشاهد " . والنبي عليه الصلاة والسلام لخصها في الحديث قال : " **من عَمِلَ بما عَلم (من طبق الشرع تماماً) أورثه ا علمَ مالم يعلم** " .

يعني أنت أمام معرفة ا عز وجل لاتحتاج إلى قراءة كمعرفة أمره وخلقه ، تحتاج إلى غض بصرٍ وإلى تحرير دخلٍ ، وإلى ضبط نفسٍ ، وإلى صيانة الجوارح عن المعاصي ،

وإلى الإحسان ، وإلى البذل، وإلى العطاء ، كلما ازددت قرباً من ا عز وجل قذف ا في قلبك النور ، ازداد قربك من ا وازداد قلبك إشراقاً .

و المعولُ عليه ، قوله تعالى " **قد أفلح من زكاها** .. مؤمن يكذب ، مؤمن يتساهل يفعل بعض المعاصي .

لن تنعقد الصلة بينه وبين ا أبداً ، ومالم تنعقد هذه الصلة لاتقطف ثمار الدين ، الدين يصبح حركات، الصلاة تصبح طقوساً ، الصلاة والصوم والحج تنقلب إلى طقوس ، والمعلومات تنقلب إلى ثقافات ، والثقافة تُملّ والطقوس تُملّ لهذا وصف ا المنافقين بأنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسالى يراؤون الناس ولايذكرون ا إلا قليلاً . في الدين ثمرات يانعات ، هذه السعادة سعادة أبدية ، وطمأنينة نفسية ، وشعور بأن ا يحبك ، بأن ا راضٍ عنك ، وسمو في النفس ، وبعد عن سفاسف الأمور ، فجوانح المؤمن نقية طاهرة لاتحقد ، لاتبغض ، لاتنتقم ، لاتتزلف لاتتنافق ، لاتخنع، هذه النفس الأبية التي جاء وصفها في القرآن الكريم لن تستطيع أن تمتلكها إلا إذا اتصلت با عز وجل .

جاهد تُشاهد .. يمكن أن تعرف أمر ا إذا كنت ذكياً ولك ثقافة جيدة وعندك المراجع الكافية يمكن أن تقرأ قراءةً متقنةً وأن تلّخص وأن تراجع وأن تذاكر وأن تؤدي امتحاناً وأن تنال شهادةً ... هذا بإمكانك .. لكنه لن يتجلى ا على قلبك إلا إذا كنت مستقيماً ، إلا إذا كنت عند الأمر والنهي فالسر سر أن تسعد بالدين أن تُقبل على ا ربِ العالمين وا لايقبل إلا طيباً . إن ا طيب ولايقبل إلا طيباً وإن ا أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين .

نحن أمام علمٍ با ، هذا العلم با طبيعته غير طبيعة العلم بأمره والعلم بخلقه بعضهم قال النبي عليه الصلاة والسلام أقواله شريعة وأفعاله طريقة وأحواله حقيقة.

أقواله شريعة : كل شيء أمر به فهو تشريع ، كل شيء نهى عنه فهو تشريع ، كل شيء أقره فهو تشريع ، كل شيء سكت عنه فهو تشريع و أفعاله كيف صلى .... نحن أمام فقيه أمام عالم بالشريعة وعالم بالطريقة ، عالم الشريعة يقول يجب أن تستقبل القِبلة ..، ويجب أن تكـ ـون طاهراً ، طاهر البدن وطاهر الثوب وأن يكون المكان طاهراً ، ويجب أن تقف منتصب القامة ، ويجب أن تقرأ الفاتحة وسورةً أو ثلاث آيات وأن تركع مطمئناً ... هذه الشروط والأركان والواجبات والسنن والمستحبات .. هذه حركات الصلاة الظاهرة ، هذه يعرفها علماء الشريعة معرفة يقينية ، أما علماء الطريقة ... يقولون لك يجب أن تستقيم على أمر ا حتى تصلي يجب أن تغض البصر ، أن تحرر الدخل ، يلزمونك بالاستقامة كي تنعقد لك الكرامة .. هذا من عمل علماء الطريقة .

أما أن تتقلب في معرفة ا ـ من حالٍ إلى حال ، ومن مرتبة إلى مرتبة ، ومن منزلة إلى منزلة ، فهذا من اختصاص علماء الحقيقة .

هذا العلم با كما قال الإمام الغزالي : جاهد تُشاهد ... هذا العلم با في كلمة قالها أعجبتني (ثمنه من غير طبيعة) .. الشيء المعروف أن العلم يحتاج إلى كتاب وإلى قراءة وإلى تلقي وإلى تعلم ولكن العلم با يحتاج إلى استقامة .. وكأن النبي عنى هذا المعنى حينما قال:

.......عَنْ مسْلِمٍ عَنْ مَسْرُوق قَالَ كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْما أَنْ يَخْشَى اللهَ وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلا أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِه *

(سنن الدارمي)

" كفى بالمرء علماً أن يخشى ا "

يقول الإمام الغزالي : "إن هذا العلم با ثمنه باهظ ونتائجه باهرة" ..

يقرأ إنسان كتاباً وهو مقيم على معصية ، يعطي نفسه ماتشتهي يفعل مايريد ويقرأ وهو ذكي الحافظة ، ذكي الفكر ، قوي الحافظة .. يستوعب ..وهذا الثمن بسيط ، ولكن ثمن العلم با ثمن باهظ .. إذا كان هناك شهوةً تقيم عليها ، إذا كان هناك معصيةً تصر عليها ، فالطريق إلى ا مسدود لن يسمح لك أن تقترب ، لن يسمح لك أن تسعد به ، لن يلقي على قلبك من نوره ومن تجلياته ومن جلاله إلا إذا آثرته على كل شهواتك وعلى كل خلقه .. لذلك حينما قال ا عز وجل:

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

(سورة المؤمنون)

قالوا اللغو : كلُ ما سوى ا . وحينما قال النبي عليه الصلاة والسلام :

........عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأشْعَرِيِ قَالَ قَالَ رَسولُ الله صَلى الله عَلَيْه وَسَلمَ الطهور شَطْر الإيمَانِ وَالْحَمْد لِله تَمْلأ الْميزَانَ وَسبْحَانَ الله وَالْحَمْد لِله تَمْلأنِ أَوْ تَمْلأ مَا بَيْنَ السمَاوَات وَالأرْضِ .....*

(صحيح مسلم)

الإمام الغزالي قال : "هناك أربعة مستويات لفهم هذا الحديث ".

المستوى الأول أن تُطّهر أعضاءك من النجاسات والقاذورات ، المؤمن نظيف بالمعنى المادي . وأن تُطّهـ ـ ـ ـر جوارحك من المعاصي والآثام ، وأن تُطّهر نفسك من الأخلاق المذمومة.. الغضب ، الكبر ، الحسد ، وأن تُطّهـ ـ ـر قلبك مما سوى ا .. أربع مستويات لطهارة البدن .. ثمنها باهظ .

ألا إن سلعة الله غالية . إنسان يطـ ـ ـ ـوف حول الكعبة ويقول ياربي هل أنت راضٍ عني..؟.. كان وراءه الإمام الشافعي قال هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك .. ؟ قال ياهذا من أنت ..؟. قال : أنا محمد ابن إدريس . قال : وكيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه..؟.. قال : إذا كان سرورك بالِنقمةِ كسرورك بالِنعمةِ فقد رضيت عن الله .

الثمن باهظ .. أن تضع كل الشهوات تحت قدمك ، أن تضع كل الرغبات تحت قدمك ، أن تقول إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ﴾

(سورة التوبة)

أنفسهم وأموالهم " في أكثر آيات القرآن قدم الله المالَ على النفس لسهولةِ إنفاقه أمام النفس ، الإنسان ينفق الأسهل فالأصعب ، إنفاق المال أسهل من إنفاق النفس إلا في هذه الآية.. قدم النفس على المال لأنه هو الأصل .. لأن النفس هي الأغلى والجود بالنفسِ أقصى غاية الجودِ ..

نحن الأن على مستوى الحياة الدنيا .. إنسان ينال دكتوراه وهو نائم مسترخ مستلق في فراشه دائماً مع رفاقه يمضي الساعات الطِوال في القيـ ـ ـ ـل والقال وفي المزاح ويأخذ الدكتوراه مستحيل ..!! . لابد من أن ينقطع ، لابد من أن يؤثر الدراسة على كلِّ شيء ، من أجل شهادة دنيوية .. أتريد مقاماً عند الله ..؟.. أتريد مقعد صدق عند مليك مقتدر ..؟.. أتريد أن يحبك خالق الكون ..؟.. هذا يحتاج إلى بذل ، إلى انضباط الثمن باهظ جداً ... الثمن أن تضع كل الرغبات تحت قدمك . الوقت كله لله عز وجل ...

الشيء الثاني .. قال له ياسيدي كم الزكاة ..؟. قال له عندكم أم عندنا ..؟ ماعندكم وما عندنا ..؟. قال عندكـ ـم ربع العشر ، أما عندنا العبد وماله لسيده . وقتك ومالك وطاقاتك وذكاؤك وفكرك وعضلاتك وبيتك دائماً لله عز وجل .

الكلمة الثانية للإمام الغـ ـزالي : والنتائج باهرة جداً .إذا علمت أمر الله فقط .. هذه الأوامر والنواهي والدقائق والتفصيلات والأدلة والقواعد الأصولية كلها محشوةٌ في الدماغ ،

تجد عنده قدرة رائعة جداً للإجابة عن أي سؤال ومع ذلك إذا مرت امرأة في الطريق على جانبٍ من الجمال .. ملأ منها عينيه . غريب ..!! هذا عالم بأمر ا .

وليس عالماً با عز وجل .. إن عصيت ا لاتعرفه .. أنت لاتعرفه لاتنظر إلى صِغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت .. لو أنك تعرفه حق المعرفة لما اجترأت على معصيته إطلاقاً . أنت تعرف أمره ولاتعرفه ، لو عرفته لما عصيته .. هذا ماعناه النبي عليه الصلاة والسلام " : **كفى بالمرء علماً أن يخشى ا** "

فالمعلومات التي تنالها من كتاب وتحفظها جيداً وتؤدي بها امتحاناً وتنجح .. هذه كلها محشوةٌ في الدماغ ، لكن النفس في واد آخر قد تشتهي المعصية ، قد تشتهي العمل الذي لا يرضي ا .

يقول الإمام الغزالي : النتائج باهرة جداً .. يعني .. العلم با يشيع في النفس الإنسانية فيسمو بها ، كيف تُحس بهذا ..؟.. إنك إن جلست مع إنسان من أهل الدنيا .. ترى دناءته ، ترى سخافة عقله ، ترى تعلّقه بالسفاسف ، ترى أنانيته ، تُحس أن بينك وبينك دور شاسع .. دور كبير

العلم با يحتاج إلى طاعة وإلى بذل .. ماذا قال النبي .. سئل عن الإيمان قال عليه الصلاة والسلام: " **الإيمان عفةٌ عن المطامع عفةٌ عن المحارم**

الإيمان : الصبر والسماحة . إذا جاءك شيء بالأمر التكويني مزعج ، عليك الرضا لأن الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين إذا جاءك أمر ا التكويني ترضى به .. الصبر .. وإذا جاءك الأمر التكليفي تنفق، فأنت بين صبرٍ وبين بذلٍ ، الصبر تلقي والبذل عطاء . فالإيمان الصبر والسماحة ، يجب أن نضع أيدينا على جوهر الدين .. قصة أقولها كثيراً . هذا البدوي الراعي الذي قال أين ا حينما أغراه سيدنا عمر أن يعطيه الشاة ويأخذ ثمنها دون علم صاحبها .

وما ذاق طعم الإيمان إلا من استقام على أمر ا ، وماذاق طعم الإيمان إلا من أقبل عليه ، وماذاق طعم الإيمان إلا من ائتمر بأمره . الإمام الجنيد سئل : من ولي ا ..؟.. أهو الذي يمشي على وجه الماء .؟. أم الذي يطير في الهواء .؟. قال لا ، الولي ُكلُ الولي الذي تجده .. عند الأمر والنهي . هذا ولي ا .

فالعلم بخلقه الجامعات كلها في أنحاء العالم تُعلّم الناس القوانين والقواعد التي أودعها ا في هذا الكون و حتى هذه القوانين يمكن أن تكون طريقاً إلى ا عز وجل .. يمكن .. الطبيب إذا أراد أن يعرف ا عز وجل من خلال الدقائق التي يقرؤها يمكن أن يكون عِلم الخليقةِ باباً إلى ا الطبيب الذي يتمنى أن يكون طبيباً ذائع الشهرة ويكسب الآلاف المؤلفة هذا لايرى في آيات ا شيئاً يقرأ ولايرى شيئاً ، لكن الطبيب الذي يريد أن يعرف ا من خلال

عِلمه يصبح عِلم الخليقةِ باباً إلى ا ويصبح أي عِلمٍ من العلوم الأرضية العصرية الكونية باباً إلى ا عز وجل ، متعلّق بمشيئة الطالب . طالب العلم . عِلم الخليقةِ يحتاج إلى مدارسة .. نُلخص القراءة والمذاكرة والتلخيص والحفظ وأداء الامتحانات بكلمة مدارسة .. عِلم الخليقةِ يحتاج إلى مدارسة وتبقى نتائجه في الدماغ والعلم بأمر ا يحتاج إلى مدارسة وتبقى نتائجه في الدماغ .. الفكرة هي تُفسر لكم أن إنساناً يعرف أن هذا حرام ويفعله .. هذا عِلم الأمر ولم يعرف ا عز وجل ، عرفَ أمره ولم يعرفه . فالنبي عليه الصلاة والسلام بدأ بمرحلتين ... المرحلة المكية والمرحلة المدنّية .

المرحلـة المكية : تعريفٌ با ِ عـز وجل ، والمرحلـة المدنية : تعريفٌ بأمره . وأيةُ دعوة إلى ا تتجاهل هذا الترتيب وتبدأ بتعريف الناس بالأمر قبل تعريفهم با ِ عز وجل هي دعوةٌ ليست ناجحة .. تنشأ الحيل الشرعية مادام عرفَ أمره ولم يعرفه يحتال على تطبيق أمره .

موضـ ـوع الحيل الشرعية .. في أغلبه بعد عن ا ، هذا الموضـوع أساسه إذا وضعت زكاة مالك في رغيف وقدمته إلى فقير وقلتَ له خذه هِبةً مني ، وبعد أن أخذه سألته أتهبني إياه وخذ مائة ليرة ..؟.. الرغيف فيه خمسة آلاف ..... من يفعل هذا عرفَ الأمر ولم يعرف الآمر ، مشكلتنا يجب أن نعرف الآمر قبل الأمر ، يجب أن نعرف ا قبل أن نعرف أمره ، وإذا عرفنا ا وأمره معاً لامانع ، أما أن نبدأ بأمره فقط دون أن نعرفه .. أغلب الظن أن الذي عرفَ أمره لايطبقُ أمره ، بل يحتال على هذا الأمر كي لايطبقه ، فالعِلم بالأمرِ ، والعِلم بالخلق ، والعِلم با ِ أساسه طاعةُ ا ِ عز وجل ويجب أن يكون الحديث الشريف : "

من عَملَ بما عَلم ورثه ا علمَ مالم يعلم "

يعني أنت إذا اتقيت ا عز وجل طبقت أمره كله عندئذ يأتيك العلم الذي نتحدث عنه في هذا الدرس وفي دروس قادمة إن شاء ا تعالى .

والحمد رب العالمين

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم .... ا سبحانه وتعالى يقول :

إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾

(سورة الزمر)

العبادة تمام الخضوع ـِ عز وجل ، أما مخلصاً إعرابها حال يعني إذا عبدت ا عز وجل يجب أن تكون حالك المرافقة لهذه العبادة هي الإخلاص ، إذا عبدت ا عز وجل واستسلمت لأمره وتوجهت إليه ينبغي أن تكون حالك التي ترافق هذه العبادة حالة الإخلاص .

في الإنسان شيء ظاهر هذه الجوارح ، وشيء باطن .. القلب . للجوارح عبادة ، وللقلب عبادة . حينما سأل سيدنا داوود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، حينما سأل ربه قال ياربي أي عبادك أحب إليك ..؟.. (الحديث معروف) حتى أحبه بحبك قال أحب العباد إلي نقي القلبِ نقي اليدين ، لايمشي إلى أحد بسوء أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي .. قالَ ياربي إنك تعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى خلقك ..؟.. قالَ ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي . فالآلاء من أجل أن يشعر القلب بعظمة ا ، والنعماء من أجل أن يشعر القلب بمحبة ا ، والبلاء من أجل أن يشعر القلب بالخوف من ا .

القلب له عبادة ، يجب أن يمتلئ القلب تعظيماً ـِ عز وجل ، إنما يخشى ا من عباده العلماء ، يجب أن يمتلئ القلب حباً با ـِ عز وجل ..

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾

(سورة البقرة)

يجب أن يمتلئ القلب خوفاً من ا تعالى . ..لابد من التعظيم ، ولابد من الخوف ،

ولابد من المحبة .. هذا الدرس له هوية خاصة هذا القلب الذي بين جوانحنا ، هذه النفس التي هي ذاتنا .. التي أمرنا ا عز وجل أن نزكيها أين نحن من تزكيتها .. أين وصلنا ..؟.. ماذا قطعنا ..؟.. كم بقي أمامنا ..؟.. محور هذا الدرس إن شاء ا تعالى تزكية النفس وسلامة القلب وأن يكون القلب مفعماً بالمشاعر التي أرادها ا عز وجل .

الحقيقة لو استعرضتم كتاب ا عز وجل لوجدتم أنه أكثر من مئة آية أو تزيد تتحدث عن الحب .. الحب مادته في القاموس حبب .. .. ميلُ القلب فقلب المؤمن لابد من أن يميل إلى ا عز وجل .

لابد من أن يميل إلى ا .. لو أن الإنسان طبق الأشياء الظاهرة ولم يجد في قلبه ميلاً إلى ا لم يجد في قلبه ُأنساً با .. يجب أن يراجع نفسه .. أحياناً تفعل شيء وترى أن هذا الشيء الذي فعلته لم يحقق الهدف .. تُراجع نفسك فنحن نريد في هذا الدرس أن يراجع الإنسان نفسه قلبه هل سليم كما أراد ا عز وجل ..؟..

يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

(سورة الشعراء)

هل أنا أشد حباً ..؟..

قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

(سورة التوبة)

كلمة .. أحب ، ويحب .. مادة الحب في القرآن تزيد عن مئة آية . فما الحب ..؟ ..

أول فكرة في الموضوع هناك مقولةٌ شهيرة أن الرب رب والعبد عبد . ا سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء ..لا يشبه عباده ... حاشا وكلا كلُ ماخَطَر في بالك فا سبحانه وتعالى خلاف ذلك.

الرب رب والعبد عبد . ولا نسبة بينهما ، ليس بمتجزئ ولا بمتبعضٍ ولا صورة ولا متلونٍ ولا يسألُ عنه بأين هو لأنه خالقُ المكان ، ولا بمتى هو لأنه خالقُ الزمان ، وكل ماخَطَر ببالك فا خلاف ذلك ، علم ماكان وعلم ما يكون وعلم مالم يكون لو كان كيف كان

يكون .. كلام سيدنا علي .

نسبة بين العبد وبين الرب ... قال العلماء : إنه الحب .. هناك علاقةٌ بين العبد وبين الرب العبد يحب ا عز وجل وا سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم قال :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

(سورة المائدة)

وا سبحانه وتعالى يحب المؤمنين والمؤمن أشد حباً .

هناك علاقةٌ بين العبد وبين الرب .. إنها علاقة المحبة . لذلك ! قال بعض العلماء : " إن الكون كله دليل أن ا سبحانه وتعالى قاهر .. إرادته هي القاهرة :

يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾

(سورة الرحمن)

فاتجاه الإنسان إلى ا ِ وحبه له دليلٌ أن ا سبحانه وتعالى أسماؤه حسنى . .. المخلوقات جاءته مقهورة ، أما الإنسان جاءه محباً ، وشتان بين أن يأتي المخلوق مقهوراً وبين أن يأتي محباً . هو الاختيار .. أنت تأتي ربك طائعاً ، مختاراً ، مستسلماً ، طواعيةً ، فتنتسب إليه .

۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

(سورة الزمر)

وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾

(سورة الإسراء)

هذا تشريف .. علماء البلاغة يقولون هذه نسبةُ تشريف .. عبادي .. ُأضفنا إلى ذاته العظيمة ، ُأضفنا إلى ذاته إضافة تشريف وتكريم . " **قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن** " ، هذه الفكرة الأولى .

أما الفكرة الثانية : العبادة التي من أجلها خُلقنا ، ا سبحانه وتعالى يقول : " **يامعشر الجن والإنس** "

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

(سورة الذاريات)

العبادة لو فقدت معنى الحب ليست عبادة .. لو فقدت العبادة معنى الحب أصبحت طاعة ، وقد تطيع من لاتحبه ، قد تحب من لاتطيعه ، أما إذا أحببته وأطعته فقد عبدته ، من تعريف العبادة غاية الخضوع مع غاية الحب . هذه هي الفكرة الثانية في موضوع الحب .

الفكرة الثالثة : الإسلام له مظهر .. في صلاة .. نتوضأ ونقف ونقرأ ونركع ونسجد ، في صيام ، في حج ، في زكاة ، في تعامل .. تعامل يومي ، أحكام الزواج ، أحكام الطلاق ، أحكام المواريث ، أحكام البيوع ، هذا كله أحكام ظاهرة ، هذه الأحكام روحها محبة ا عز وجل ، فإذا خلا الدين من الحب أصبح الدين جسداً بلا روح ... الحب محرك والعقل مقود . أنت بالعقل تقود نفسك إلى الطريق الصحيح أو إلى الهدف الصحيح ، أو أنت بالعقل تحافظ على بقائك على الطريق ولاتَزِلُّ بك القدم ولكنك بالحب تتحرك ، تسير ، تنطلق .

المعلومات و دقائق العلم و الأفكار الدقيقة و اللّفتات العقلية و الثقافات مهما تعمقت ، والكتب مهما .. .. كان لها شهرةٌ ذائعة ، قوامها الحب فإذا خلا العلم من الحب أصبح جسداً بلا روح . المنافقون ..

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾

(سورة النساء)

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾

(سورة الأحزاب)

نحن نتحدث عن موضوع الحب لأنه أصلٌ في الإيمان ... لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه (ميلُ قلبه) تبعاً لِما جئت به ، والآية التي قلتها قبل قليل " **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب** ".

لابد من أن تُحب ا ورسوله قبل كل شيء . ياعمر كيف أصبحت ..؟.. قال وا ِ يارسول ا أصبحت أحبك أكثر من أهلي وولدي والناسِ أجمعين إلا نفسي التي بين جنبي .. قال ياعمر لما يكمل إيمانك بعد .... إلى أن قال له مرةً ثانية : الآن يارسول ا أحبك أكثر من أهلي وولدي والناسِ أجمعين حتى نفسي التي بين جنبي . قال الآن ياعمر .

يعني .. الآيات والأحاديث الصحيحة الثابتة وأقوال أصحاب رسول ا المتعلقة بالحب كثيرةٌ جداً جداً .

بعض الأحاديث ... الضعيفة " : **ألا لاإيمان لمن لامحبة له** "

ألا لا إيمان لمن لامحبة له . ألا لاإيمان لمن لامحبة له . قال : أهل الحب فازوا بشرف الدنيا والآخرة معاً .. الحقيقة أن الإنسان لابد من أن يحب . الإنسان عقلٌ يدرك وقلب يحب .. و البطل الذي يعرف من يحب .

قد تُحب امرأةً ، قد تُحب مسكناً ، تُحب مهنةً ، تُحب متعةً ، تُحب لذّةً ، تُحب صديقاً ، تُحب أخاً ، تُحب بلداً ، تُحب مكاناً ، تُحب زماناً ، ولكن المؤمن نَظَر فرأى كلَ من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام فأحب ا ، إما أن تُحب شيئاً فانياً وإما أن تُحب الباقي على الدوام .

الإنسان لما يموت (هكذا جاء في الأحاديث الشريفة) يخاطبه ا عز وجل في الليلة الأولى في قبره يقول : (عبدي رجعوا وتركوك) أول يوم الحزن شديد ، ثم يخف الحزن ، الثريات كانت مغطاة بقماش .. أزيح القماش ، الصور قلبوها أعادوها كما كانت ، بعد أسبوع صار يضحك ويبتسم في البيت ، بعد أسبوعين (أولم وليمة) ، بعد شهر ذهب يتنزه ، أين الميت ..؟ . نسوه قال له : (عبدي رجعوا وتركوك وفي التراب دفنوك ولو بقوا معك مانفعوك ولم يبقَ لك إلا أنا وأنا الحي الذي لايموت) .

أتحب الشيء الفاني !! أم تُحب الباقي ..؟.. لذلك .. قال: أهلُ الحب ذهبوا بخير الدنيا

والآخرة ، بل ذهبوا بشرف الدنيا والآخرة ؟ ... لِقول النبي عليه الصلاة والسلام " : **المرء مع من أحب** " .

ألايكفينا هذا الحديث ..؟.. المرء مع من أحب .. المؤمن مع ا .

ا سبحانه وتعالى يرزق عباده جميعاً . قال له : عبدي لي عليك فريضة ولك علي رزق فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك ... فأنت تأكل وتشرب ليس معنى هذا أن ا يحبك ، أن تُوفقَ في تجارتك ليس معنى هذا أن ا يحبك ، أن تكون صحتك طيبة قوية ليس معنى هذا أن ا يحبك ، أن تكون غنياً ليس معنى هذا أن ا يحبك ، قارون .. آتاه ا من الكنوز ماإن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ، أن تكون قوياً ليس معنى هذا أن ا يحبك . فرعون قال أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي .

الحب شيء والرحمة شيء آخر ، لذلك ! علماء التوحيد قالوا " محبة ا لعباده صفةٌ زائدة على رحمته ". أنت قد ترحم إنساناً سيئاً ، قد ترحم إنساناً جاهلاً ، قد ترحم إنساناً لئيماً . مثل يعني .. الأب يطعم أولاده جميعاً ولكن الأب أحياناً قلبه يتجه إلى أحد أولاده فاتجاه قلب الأب إلى أحد أولاده هذه صفة زائدة على رحمته بهم . ا سبحانه وتعالى يرزق عباده جميعاً، يرحم عباده جميعاً ، يعطي عباده جميعاً .

كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا



(سورة الإسراء)

ولكن ا سبحانه وتعالى لايحب إلا المؤمنين الصادقين.

إذاً : الحب شيء ثمين جداً ، الحقيقة سلعةُ ا غالية ،

أحبابنا اختاروا المحبة مذهـــباً — و ماخالفوا في مذهب الحب شرعنا

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي — رأوه لما وليت عنّا لغيرنا ،

ولو سمعت أذناك حسن خطابنـــا — خلعت عنك ثياب العجبِ وجئتنا

ولو ذُقت من طعمِ المحبة ذرةً — عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

ولو نسمت من قربنا لك نسمــةٌ — لمتَ غريباً واشتياقاً لقربنا

فما حبنا سهلٌ وكل من ادعـــى — سهولته قلنا له قد جهلتنا .

فأيسر مافي الحب للصب قتلـــه — وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

فالحب ثمنه باهظ لذلك قال : ألا إن سلعةَ ا   غالية لكن المشكلة ُأناساً كثيرون يدعون الحب خاضوا بحار الهوى ومابتلوا . قضية سهلة .. كلٌ يدعي وصلاً بليلى وليلى لاتُقر لهم بذاكا .

إدعاء الحب سهلٌ جداً لذلك لما أعرض بعض المدرسين عن الخوض في موضوعات الحب ، موضوعات القلب سببه أن كل إنسان مما هب ودب يدعي أنه محب   عز وجل الدعوة سهلة يقول لك أنا أحب ا   . فقال لما كثُر مدعو المحبة طولبوا بإقامة البينة . إذا توفي رجل وله أموال فطرق الباب طارق وقال أنا لي عنده مائة ألف .. فيعطى المبلغ ، وإذا طرق الباب طارق وقال أنا لي عنده نصف مليون أيعقل أن يعطي الورثة كلّ من يدعي أن له عند الميت مبلغاً ..؟.لا بد من سؤاله : أمعك إيصال ، معك سند ، هل هناك شهود ، أمعك بينة ، أمعك دليل ..؟..

دعوى الحب عريضة جداً وواسعة جداً .. لما كثُر الأدعياء طولبوا بإقامة الدليل والبينة . والدليل طبعاً قيل لو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرقةَ الشجي ..لما كثُر مدعو المحبة طالبهم ا   بالدليل .. قال :

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾

(سورة آل عمران)

تعصي الإله وأنت تُظهر حبه   ذاك لعمري في المقام بديع .
لو كان حبك صادقاً لأطعتـه   إن المحب لمن يحب يطيع .

أتمنى على كل أخ مؤمن أن لايسمح لنفسه ، أن لايسمح لخاطره أن يقول : أنا أحب ا   وهو مقيم على مخالفة أمره . هذه وقاحة ، هذه دعوى كاذبة ، هذا سوء أدب ، هذا ذنب يضيفه إلى ذنوبه . لو أن أباً تناولَ أطيب الطعام أمام أولاده والأولاد ساكتون ... وقال لهم أنا أحبكم ياأولادي .. هذه الكلمة ذنب جديد يضافُ إلى ذنوبه لأن فعله يتناقض مع قوله.

فلذاك .. لاأحد يدعي ولاأحد يقول أنا أحب ا   إذا كان مقيماً على معصية لأنك إذا أقمت على معصية معنى ذلك أن اللّذةَ التي تأتيك من هذه المعصية أغلى عليك من ا   عز وجل ، أغلى عليك من رضوان ا   .

و معنى " **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم** "... إذا أطعت

زوجتك وعصيتَ ربك فإنك محب لزوجتك أكثر من حبك لربك ، قولاً واحداً بالدليل القطعي : إذا آثرت بيتاً على طاعة ا في الإقامة فيه شُبهة ، في اقتنائه شُبهة ، إذا آثرت مسكناً ، آثرت تجارةً مشبوهة على طاعة ا عز وجل ، آثرت طريقة في كسبِ المال على طاعة ا عز وجل ، آثرت أن تكون مع ابنك على غير ما يرضي ا ، آثرت أن تُرضي جارك آثرت أن ترضي شريكك على حسابِ طاعتك لربك بالدليل القطعي إنك تُحب هذا الذي آثرته أكثر مما تُحب ا . أما المؤمنون " **والذين آمنوا أشد حباً** "

وكل من يتبع النبي عليه الصلاة والسلام محب .

ا عز وجل يقول يصف المؤمنين بأنهم يجاهدون في سبيل ا ولايخافون لومة لائم أنت قد تطيع ا ومع ذلك تخاف لومة لائم أما في مستوى أعلى من هذا المستوى .. الطاعة محبة... أن لاتخافَ في ا لومةَ لائم هذه محبةٌ أعلى ، أن تجاهد في سبيل ا نفسك وهواك ، أن تضع كل شيء في سبيل ا هذه محبةٌ أعلى ، أن تبيع نفسك ووقتك وجهدك وخبرتك واختصاصك وكُلَ ما تملك هذه محبةٌ أعلى ... الطاعة درجة والجهاد درجة أعلى والبيع درجة أعلى لكنك إذا بعتَ كل شيء نلتَ كل شيء . ا سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين ، إذا بعته كل شيء أعطاك كل شيء وزيادة . لذلك .. الحديث

وا الذي لاإله إلا هو لو أردده آلاف المرات لاأشبع منه .

"**من شَغَلَه ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين** "

إذا كنت مشغولاً بذكر ا ، وطاعته مشغولاً بالتقرب إلى ا ، وخدمة خلقه مشغولاً بإرضاء ا ، تأتيك الدنيا وهي راغمة ... هم في مساجدهم وا في حوائجهم ، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد ، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك ، من أحبنا أحببناه ومن طلَبَ منّا أعطيناه ومن اكتفى بنا عم لنّا كنّا له ومالّنا .

إذا بعت ا عز وجل وقتك وجهدك وخبرتك وطاقتك وعضلاتك بعته كل شيء نلتً كل شيء ياربي ماذا فَقَد من وجدك ..؟.. وماذا وجد من فقدك ..؟.. ماذا فَقَد من وجدك.. وا ـ ما وجد شيئاً.

إذا سلّمت لي في ما أريد كفيتك ماتريد وإن لم تُسلّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تُريد ثم لايكون إلا ما أريد الحقيقة .. الحديث عن المحبة موضوع شاق .... لو قلتُ لك صفّ لي العسل .. ماذا تقول ؟ العسل حلو الطَعم والسكر حلو الطَعم ، أنا آتيك بعشرات الأصناف بمئة صنف كلها حلوة الطعم .أريد العسل تقول لي حلو الطَعم لزج القوام . والقطر لزج القوام هل تستطيع اللغة أن تصف بدقة بالغة طعم العسل ..؟.. لو أن إنساناً كَتَب مجلداً عن طعم العسل يغني عن هذا المجلّد أن تلعق لعقة عسلٍ واحدة

وا ـ أريد أن ألقي عليكم أمثالاً لاحباً بطرح الأمثال لأن لها محاذير بصراحة ولكن بين

إدعاء الحب وبين أن تكون محباً مسافة كبيرة جداً ... من قال خمسمائة مليون ليرة سورية أي إنسان يستطيع أن يقول خمسمائة مليون ليرة وقد لايملك ثمن رغيف خبز ولكن شتان بين من يقول هذا الرقم وبين من يملكه كم هي المسافة كبيرة بين من يقول خمسمائة مليون وبين من يملك هذه الملايين الخمسمائة .

وا الذي لاإله إلا هو يكاد الفرق نفسه ، بين من يدعي المحبة وبين من يحب . يعني مثلاً كل إنسان بإمكانه أن يدعي الحب ولكن يدعي الحب وهو من أشقى الأشقياء ، يدعي الحب وقلبه مقفر ، يدعي الحب وهو خائف ، يدعي الحب وهوقلق ، يدعي الحب وهو ممزق، يدعي الحب وهو ضائع .. ولكنك إذا أحببت ا فعلاً وألقى ا نوره في قلبك وأطلقَ لسانك بالحكمة هذه المشاعر لاتُقدر بثمن .

قلت لكم مرةً أن أكثر الأمراض أسبابها حالات نفسية صعبة .. فالحالة النفسية مهمة جداً الإنسان يرتفع بحالته النفسية وينخفض بحالته النفسية .

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

(سورة آل عمران)

لذلك هناك إدارات بكاملها : إدارة التوجية المعنوي لرفع الحالة المعنوية للجنود.

إذا كنت تنطوي على قلبٍ متصلٍ با مفعمٍ بالحب لك حالةٌ معنويةٌ طيبةٌ جداً .. هذه لها ثمن.

على كُلٍ كلمة الحب إذاأردنا أن نبحث في اشتقاقاتها اللغوية إلى أي الأبوابِ تعود ..؟..

قال بعض العلماء : الحب مأخوذٌ من الصفاء والبياض تقولُ حبب الأسنانِ أي بياض الأسنان ، فالحب فيه صفاء وفيه بياض والبياض له معانٍ كثيرة في المجتمعات ، والحب بمعنى العلّو والظهور شيء عالٍ ، سامٍ ، صارخ ، ظاهر ، تقول : حبب الماء فقاعات الهواء التي تعلو الماء .. والحب اللزوم والثبات .

﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

(سورة الأحزاب)

يعني أنت عاهدت ا عز وجل في المنشط والمكره ، في السراء والضراء ، في الغنى والفقرِ ، في الصحة والمرضِ ، في إقبال الدنيا وإدبارها ، في الراحة وفي التعبِ ، في

كل شيء تُعاهد خالقَ الكون.

فمن معاني الحب اللزوم والثبات .. تقولُ مثلاً : حب البعير أي برك ولم يقم .

المعنى الرابع : الحب بمعنى اللب . قال بعضهم : الحب لباب الدين . اللب . وبالدين مظاهر يجب أن نؤديها كاملةً ويجب أن نحترمها ولكن لب الدين هو أن تُحب ا عز وجل ، (الإيمان أن تُحب ا عز وجل كما قال النبي عليه الصلاة والسلام) .

والمعنى الخامس : الحب هو الحفظُ والإمساك ومنه حب الماء أي وعاء الماء ، الصفاء والبياض ، العلو والظهور ، اللزوم والثبات ، اللباب ، الحفظُ والإمساك . هذه كُلها المعاني المستفادة من كلمة الحب .

الحقيقة .. الحب شعور داخلي لايظهر ، له مظاهر مادية كل شيء في داخل النفس له مايؤكده في خارجها . العلماء تنوعت تعريفاتهم للحب قال بعضهم : المحبة هي الميل الدائم للقلب الهائم . في ميل إلى ا أما أهل النفاق ينسون ا ، يغرقون في دنياهم ، يغرقون في مشكلاتهم ، يتيهون في الحياة ، لكن أهل الإيمان يذكرون ا كثيراً لأنهم يحبونه كثيراً ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره .. قاعدة .. لو فرضنا إنساناً قدم لك خدمة ثمينة راقب نفسك بأول لِقاء تحكي عنه ، تأتي للبيت تحكي عنه ، تلتقي مع صديق تتكلم عنه ... راقب نفسك خلالَ أسبوعين أو أكثر كلما التقيت بإنسان تحدثتَ عنه من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

إذاً : علامة حبِ ا عز وجل أن تُكثر من ذكره . وقيلَ في الحب إيثار المحبوب على جميع المصحوب . جلسةٌ ممتعةٌ وذكر ـ عز وجل ، نُزهةٌ رائعةٌ ومجلس علمٍ ـ عز وجل طعام نفيس وخدمةٌ لإنسانٍ طيب .

إذا كنت محباً دائماً وأبداً تؤثر مرضاة ا عز وجل على حظوظ نفسك حتى المباح. لكن الإنسان إذا أخذَ من الدنيا نصيبه دون أن تشغله عن طاعة أو عن أداء صلاة أو عن مجلسِ علمٍ أو عن قضاء واجبٍ .. فهذا ليس من الدنيا لأن الدنيا قوام الحياة لقول النبي عليه الصلاة والسلام :

" **ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ولامن ترك آخرته لدنياه إلا أن يأخذَ منهما معاً فإن الأولى مطيةٌ للثانية** " .

وقيلَ الحب موافقة الحبيب في المشهد والمغيب ، الإنسان يصلي في المسجد يتقن صلاته حفاظاً على مكانته لكن إذا كان وحده خالياً يصليها سريع ، إذا كنتَ أمام مشهد ممن يعجبون بك لك موقف فإذا كنتَ وحدك لك موقف ، إذا كنت في بلدك لك موقف ، إذا كنت في بلد أجنبي لك موقف ، إذا كنت في موضعٍ مراقبٍ فيه لك موقف ، إذا كنت في موضعٍ لستَ مراقباً فيه لك موقف ...

لذلك .. ورد في بعض الأحاديث " : **من لم يكن له ورع يصده عن معصية ا إذا**

خلا لم يعبأ ا بشيء من عمله " .

دخَلَ في النفاق من علامات الحب استكثار القليل من ذنوبك واسقلال الكثير من طاعتك . المحبون ـ عز وجل مهما قلت ذنوبهم يخشونه ومهما كثُرت طاعاتهم يستقلونها ، أما المنافقون لو فعلَ عملاً صالحاً يملأ الدنيا صخباً وضجيجاً وينم به ويقول فعلتُ كذا وكذا . من علامات المحب أنه يستكثر القليل من ذنوبه ويستقلُ الكثير من طاعته . دائماً خائف . لذلك قيلَ ذنب المؤمن كأنه جبلٌ جاثم على صدره وذنب المنافق كأنه ذبابة لاقيمة لها .

وقيلَ الحب معانقة الطاعة ومباينة المخالفة . دائماً مع الطاعة، دائماً مبتعد عن المعصية ، مع الطاعة مقترب من الطاعة مبتعد من المعصية . هذه من علامات الحب.

ومن علامات الحب أن تَهب كُلَّك لمن أحببت فلا يبقى لك منه شيء ، سيدنا الصديق أعطى ماله كله لسيدنا رسول ا ، قالَ ياأبا بكر ماذا أبقيتَ لنفسك ..؟.. قال : ا ورسوله . هذا ليس حكماً شرعياً ، هذا موقف لأن ا سبحانه وتعالى جعل المال قوام الحياة ، أما لو إنسان غَلَبه حبه وأنفقَ جزءاً كبيراً من ماله ، ا سبحانه وتعالى يقبل اجتهاده ويكافئه على هذا الكثير بأكثر منه .

بعضهم قالوا أن تَهب إرادتك وعزمك وأفعالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحب وتجعلها جميعاً حبساً في مرضاته ومحابه فلاتأخذُ منها إلا ماأعطاك هو ، سمح لك بالزواج تزوجت ، سمح لك أن تأكل أكلات ، لا تأخذ من الدنيا من كل هذا الذي تملكه إلا ماسمح لك هو أن تأخذه فقط دون زيادة دون إسراف دون كبر .

قال جرت مساءلة في مكة المكرمة بين علماء كُثر وكان الجنيد أصغرهم ، الإمام جنيد هذا الذي قيل له : من ولي ا قالَ الذي تجده عند الحلال والحرام . فلما تحاوروا وسألَ بعضهم بعضاً وكان الجنيد أصغرهم سناً فقالوا هات ماعندك ياعراقي فأطرقَ رأسه ودمعت عيناه ثم قال : عبد ذاهب عن نفسه ، متصلٌ بربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، فإن تكلم فبا ، وإن نطقَ فعن ا ، وإن تحرك فبأمر ا ، وإن سكن فمع ا ، فهو با ـ و ـ ومع ا .

قالَ : فبكوا جميعاً وقالوا ماعلى هذا مزيد . عبد ذاهب عن نفسه نفسه تحتَ قدميه يخضعها لطاعة ا يحملها على مرضاة ا لايثأر لها أبداً . ذاهب عن نفسه ، متصلٌ بربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إلى ا بقلبه ، إن تكلم فبا ، وإن نطقَ فعن ا ، وإن تحرك فبأمر ا ، وإن سكن فمع ا ، فهو با ـ و ـ ومع ا .

أهل الحب ، أهل الإيمان ، أهل الإحسان ، أهل التقوى ، أهل القرب ، بينوا أن للحب وسائل . فا عز وجل من رحمته جعل إليه طرائق . أحياناً جهة من الجهات ليس لك إليها سبيل الطريق مغلق ، مهما حاولت ، لكن ا سبحانه وتعالى جعلَ الطرائقَ إلى الخالق كما

يقال بعدد أنفاس الخلائق .

فقيل من الطرائق أن تكون محبوباً عند ا عز وجل:

أولاً : قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أُريد به ، قالوا تؤخذُ ألفاظه من حفاظه وتؤخذُ معانيه ممن يعانيه ، قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أُريد به يجب أن تقرأه وأن تفهمه وأن تُطبقه كما أراد ا عز وجل . وقد قالَ العكبري : تؤخذُ ألفاظه من حفاظه وتؤخذُ معانيه ممن يعانيه .

ثانياً : التقرب إلى ا بالنوافل ،

.........عنْ أَبِي هرَيْرةَ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله علَيْه وسلم إِن الله قَالَ منْ عادى لِي وليا فَقَدْ آذَنْتُه بِالْحرْبِ وما تَقَرب إِلَي عبْدي بِشَيْء أَحب إِلَي مما افْتَرضْتُ علَيْه وما يزالُ عبْدي يتَقَرب إِلَي بِالنوافل حتى أُحبه .... *

(صحيح البخاري)

في الصلوات ، في الصيام ، في الإنفاق ، في المال حقٌ سوى الزكاة ، بالأعمال الصالحة ، بخدمة الخلق ، بدوام ذكره.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾

(سورة الأحزاب)

الأمر منصب على الذكر الكثير ، لاعلى الذكر فقط ، على كل حالٍ باللسان والقلب ، والعمل والحركة ، نصيبك من محبة ا ِ على قدرِ نصيبك من الذكر.

الرابع : أن تؤثر محابه على محابك عند غلبات الهوى . أحياناً ينشأ صراع ، إذا آثرت مايحب على ماتُحب فأنتَ المحب ، أما إذا غَلَبتك نفسك وآثرت ماتُحب على مايحب فقد ضعفَ حبك .

مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ، التأمل في الآيات ، تذّكر النعم ، تأمل العطايا ، يعني النبي الكريم كان إذا أفرغَ ماعنده قال : (الحمد الذي أذاقني لذّته وأبقى في قوته وأذهب عني أذاه . كلما تحرك الحمد الذي أذهب عني ما يؤذيني) .

كانت تعظم عنده النعمةُ مهما دقت فهذا من علامات الحب .. إذا شربت كأس ماء ، إذا استيقظتَ صباحاً نشيطاً : الحمد ، إذا تمتعتَ بسمعك وبصرك وقوتك : الحمد . دائماً أنتَ مع النعم وأنتَ شاكر لهذه النعم.

قال أيضاً من علامات الحب انكسار القلب بكليته إلى ا ، أبواب ا كثيرة . هناك باب واسع وسريع ليس عليه ازدحام إنه باب الإنكسار، الإنكسارِ إلى ا ِ عز وجل كلما إزداد

حبك جئته منكسراً معلناً عن فنائك في ذاته .

من علامات حبك قال مجالسة المحبين الصادقين لاتُحب إلا المحبين ، إذا مالَ قلبك إلى أهلُ الدنيا وأردتَ أن تكون معهم وأن تُقيم علاقات وشيجة معهم وهم بعيدون سرعان ما تعود.. وا ـِ علامة البعد عن ا عز وجل كلما كنتَ محباً تمنيت أن تكون مع المحبين في مجالسهم ، في جلساتهم ، في خلواتهم . مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطيب ثمرات كلامهم كما تُنتقى أطايب الثمر ..

كنت محباً ـِ عز وجل فكلُ شيء يقطعك عن ا عز وجل تَفر منه فرارك من وحشٍ كاسر ، نظرةٌ تبعدك عن ا فبالغ في غض البصر ، شبهة في لقمة ابتعد عنها ، النبي عليه الصلاة والسلام .. تأخّر عليه الوحي فقالَ ياعائشة لعلّي أكلتُ تمرةً من تمرِ الصدقة وأنا لاأدري . هذه بعض الأشياء التي إذا فعلتها كانت هذه الأشياء وسيلةً إلى أن تنالَ حب ا ـِ عز وجل وإذا ذقتَ طعم الحب يعني كما قالَ الشاعر :

لايعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

والحمد رب العالمين

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم .... انتهينا في الدرس الماضي إلى عشرة وسائل تقرب الإنسان مـن ا عز وجل وقد تدخله منزلة المحبة من هذه الوسائل قراءة القرآن الكريم ، ا سبحانه وتعـالى يقول :

يا أَيها الذين آَمنُوا اتقُوا الله وابتَغُوا إِليه الْوسيلَةَ وجاهدوا في سبِيله لَعلَّكُم تُفْلحون

(سورة المائدة)

العلماء فسروا الوسيلة تفسيرات شتى ، فالعلم وسيلة ، والعمل الصالح وسـيلة ، وعلمـاء القلوب يبينون أن من وسائل القرب إلى ا عز وجل ، من وسائل أن تبلغَ منزلة المحبة أن تقـرأ القرآن متدبراً متفهماً مطبقّاً . هذه وسيلة ومن وسائل بلوغ محبة ا عز وجل أن تقوم بالنوافل :

.........عن أَبِي هريرةَ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إِن الله قَالَ من عادى لِي وليا فَقَد آذَنْتُه بِالْحربِ وما تَقَرب إِلَي عبدي بِشَيء أَحب إِلَي مما افْتَرضتُ عليه وما يـزالُ عبـدي يتَقَرب إِلَي بِالنوافل حتى أُحبه .... *

(صحيح البخاري)

والحديث واضح .

ومن وسائل بلوغ العبد محبة ا عز وجل أن يكثر من ذكره لقول ا عز وجل :

يا أَيها الذين آَمنُوا اذْكُروا الله ذكْراً كَثيراً

(سورة الأحزاب)

ومن وسائل بلوغ محبة ا عز وجل المداومة على ذكره وإيثار محابه علـى محابـك ، الإنسان قد يقع في ظروف صعبة ، قد ينشأ عنده صراع ، إما أن يرضي ا عز وجل وإمـا أن

يرضي نفسه ، إما أن يبتغي الدار الآخرة وإما أن يبتغي الدنيا ، إذا آثرتَ محاب ا ـ على محابك فقد سرتَ في طريق المحبة.

ومن وسائل بلوغ محبة ا عز وجل تنفيذاً لقول ا تعالى " : **ياأيها الذين آمنوا اتقـوا ا وابتغوا إليه الوسيلة** " أن يجولَ قلبك في أسماء ا الحسنى وصفاته الفضلى ، يعني أن يملأ اسم ا عز وجل قلبك ، أن تُشغَلَ به عما سواه ، لذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول :

قَد أَفْلَح الْمؤْمنُون  **الذين هم في صلاتهم خَاشعون**

(سورة المؤمنون)

قالَ علماء التفسير " الخشوع في الصلاة من فرائض الصلاة لا من فضائلها ،

الوسيلة الأخرى لبلوغ محبة ا ـ عز وجل مشاهدة بره وإحسانه أن تُفكّر دائماً بالنعم التي أنعم ا بها عليك . نعمةُ الوجود ، نعمةُ الإيمان نعمةُ الصحة ، نعمـةُ الأهـل والأولاد ، نعمـةُ المأوى ، نعمةُ معرفة ا ـ عز وجل ، ومن وسائل بلوغ محبة ا عز وجل أن تأتيـه مـن بـاب الانكسار.

لذلك .. قال علماء القلوب : إن أبواب ا ـ كثيرة ، إن أسرعها وأوسعها وأقلّهـا ازدحامـاً باب الإنكسار ، أنا عند المنكسرة قلوبهم . ويدخل النار من كان في قلبه مثقالَ ذرة من كبر . لأن الكبر يتناقض مع العبودية عز وجل .

والثامنة : إكثار مجالس الخلـــوة مع ا عز وجل ، إذا أردتَ أن تُحدثَ ا عز وجل فادعوه ، وإذا أردتَ أن يحدثّك ا عز وجل فاقرأ القرآن . إذا أردتَ أن تُحدثَ ا عـز وجـل فادعوه أكثر من دعائه، لذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام في كل أطواره وأحوالـه يـدعو ا عز وجل ، إذا دخلَ بيته ، إذا خرج من بيته ، إذا واجه مشكلةً ، إذا أصابته سراء ، إذا أصـابته ضراء ، إذا تناولَ طعاماً ، إذا دخلَ بيتَ الخلاء ، إذا ارتدى ثوباً جديداً ، إذا لاح شبح مصـيبة ، إذا لاحت بشائر الرحمة .

لذلك .. كتاب الأذكار للإمام النووي رحمه ا تعالى ينبئكم كيفَ كان النبي عليه الصـلاة والسلام يذكرا في كل أحواله.

ومن وسائل بلوغ محبة ا عز وجل مجالسة المحبين الصادقين لقول ا عز وجل :

يا أيها الذين آمنُوا اتقُوا الله وكُونُوا مع الصادقين

(سورة التوبة)

أتلاحظون ... مامن توجيه من هذه التوجيهات إلا مدعومٍ بأية أو حديث صحيح...

والعاشر : أن تبتعد عن كل مامن شأنه أن يبعدك عن ا عز وجل أو أن يقطعك عنه ورأس الحكمة مخافة ا ، رأس الحكمة أن تخافَ على هذه الصلة أن تنقطع . لذلك تبتعد عن المخالفات والمعاصي ابتعاداً كبيراً جداً وقلبك فارغٌ خوفاً من أن تقع في مشكلة أو معصية أو مخالفة أو صغيرة تحجبك عن ا عز وجل .

هذه العشرةُ بنود والعشرةُ وسائل تنفيذٌ لقول ا عز وجل " **ياأيها الذين آمنوا اتقوا ا وابتغوا إليه الوسيلة** " القرآن وسيلة ، قراءةً ، فهماً ، تدبراً ، عملاً . النوافل وسيلة : صلاة الضحى . الصدقات التي فوق حق ا عز وجل في المال حقُ سوى الزكاة ، كثرة ذكره برِئَ من النفاق من أكثَر من ذكر ا ، برِئَ من الشح من أدى زكاة ماله ، برِئَ من الكبر من حملَ حاجته بيده . أن تؤثر في كل الأحوال.

والذين تَبوءوا الدار والإيمان من قَبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجةً مما أُوتُوا ويؤْثِرون على أَنفُسهم ولو كان بهم خَصاصةٌ ومن يوقَ شُح نَفْسه فَأُولَئِك هم الْمفْلحون

(سورة الحشر)

أن تؤثر جانب ا على جانبك ، محاب ا على محابك ، الآخرة على الدنيا ، العملَ الصالح على النفع ، وأن تجولَ في أسماء ا الحسنى وصفاته الفضلى وأن ترى بره وإحسانه وأن تأتيه منكسر القلب وأن تُكثِّر من خلواتك مع ا عز وجل ، تُحدثه بالدعاء ويحدثك بتلاوة القرآن ، وأن تُجالس المحبين الصادقين ، وأن تبتعد عن كل مامن شأنه أن يقطعك عن ا عز وجل .

يا أيها الأخوة الكرام ... هذه البنود العشرة لو حاولتم أن ترسخوها في أذهانكم ، وكلما أردتم أن تستذكروا أنكم في دارِ عمل وأنكم في وقت عصيب ، بمعنى أن كل ثانية من حياتكم لها شأن خطير في آخرتكم ، لو أننا آثرنا العملَ على الإعجاب بهذه البنود مهما أُعجبتم بها ، مهما تأثرتم بها تأثراً شكلياً مالم تكونوا في مستواها لن تقطفوا ثمارها ، لذلك العملَ العمل.

أيها الأخوة الأكارم ... الكلام في منزلة المحبة له طرفان ، ا سبحانه وتعـالى يحـب عباده والمؤمنون الصادقون يحبون ا عز وجل هذا شيئٌ ثابتٌ عند كل العلمـاء والـدليل أن ا سبحانه وتعالى يقول:

يا أَيها الذين آمنُوا من يرتَد منْكُم عن دينه فَسوفَ يأْتي الله بِقَومٍ يحبهم ويحبونَه أَذلة على الْمؤْمنين أَعزة على الْكَافرِين يجاهدون في سبِيلِ الله ولَا يخَافُون لَومةَ لَائِمٍ ذَلِك فَضلُ الله يؤْتيه من يشَاء والله واسع عليم

(سورة المائدة)

بعضهم فسر المحبةَ بالإحسان ، يعني محبة ا للمؤمن أن يحسن إليه أن يرحمه ، ولكـن العلماء المتعمقين يرون أن محبةَ ا لعباده المؤمنين صفةٌ زائدةٌ على رحمته وإحسانه إليهم . أنتَ قد ترحم إنساناً ولاتحبه ، قد تشفقُ عليه ولاتحبه ، قد تعطف عليه ولاتحبه ، قد تحسن إليه وأنـتَ لاتحبه ، ولكن محبة ا لعباده المؤمنين صفةٌ زائدةٌ على رحمته وإحسـانه ، فمـا كـل رحمـة وإحسانٍ حب من ا لعبده المؤمن .. .. هذا الخطأ الكبير الذي يتوهمه بعض الناس مـن أن ا سبحانه وتعالى إن أعطى الإنسان صحةً أو مالاً أو جاهاً ، أو شأناً ، فإنه يحبه يقول لـك ربـي يحبني ، والمقولة : إذا ا أحب عبده أراه ملكه . كلام لامعنى له .

يا أيها الأخوة الأكارم ... هل تصدقون أن الخلقَ خلقُ ا لهذا الكـون وأن الأمـر الكتـب السماوية وأن الثواب وأن العقاب هي في الأصل تنبع من محبة ، الحب أصلُ الكـونِ ، الخلـقُ والأمر والثواب والعقاب أساس كل ذلك محبة ا سبحانه وتعالى لخلقه .

نحن أمام مجموعة آيات ومجموعة أحاديث تتعلق كلها بالمحبة . إذاً يمكن أن يكـون هـذا الدرس تفسيراً لكتاب ا ولسنّة نبيه صلى ا عليه وسلم ولكن من زاوية موضوعٍ واحد.

ا سبحانه وتعالى يقول:

يوم لَا ينْفَع مالٌ ولَا بنُون  **إِلَّا من أَتَى الله بِقَلْبٍ سليمٍ**

(سورة الشعراء)

"**إلا من أتى ا بقلبٍ سليم** " وأحد العارفين توفاه ا عز وجل ورآه أحد تلامذته في الرؤيا فقالَ : ياسيدي مافعلَ ا بك ..؟.. فأجاب إجابةً تنخلع لها القلوب . قالَ يـابني : طاحـت تلـك العبارات ، وذهبت تلك الإشارات ، ولم يبق إلا ركيعات ركعناها في جوف الليل .

قد تؤلف ، قد تدعو ، قد يلمع اسمك ، قد يعلو نجمك ، .... ولكن الذي ينفعك في القبـر هذه الركيعات وهذا الاتصالُ با ـ عز وجل وهذا القلب السليم وتلـك المحبـة الصـادقة وهـذا الإخلاص الشديد.

لذلك .. إنطلاقنا في هذا الدرس لا من ظواهر الدين ، لا من عباداته المشروعة ، لا مـن أعماله التي ألزم عباده بها ، ولكن من هذا القلب الذي قالَ ا عنه " **يوم لاينفع مالٌ ولابنـون إلا من أتى ا بقلبٍ سليم** " .

الحقيقة .. الدين

له لُب ، كلٌ منكم يأكل الفاكهة أطيب ما فيها لُبها وقشورها لها وظيفةٌ مهمةٌ جداً ولكنك لاتأكلها . القشر له وظيفة واللُب له وظيفة ، تعهد القلب ، سلامة القلب ، تزكية النفس ، أن يمتلئَ القلب حباً ، أن يمتلئَ إخلاصاً أن يمتلئَ توكلاً ، أن يمتلئَ استسلاماً ، أن يمتلئَ رضى بقضاء ا وقـدره ، أن يمتلئَ طمأنينةً ، أن يمتلئَ ثقةً بعدالة ا .. هو القلب السليم .

ننطلق من قول ا ـ عز وجل:

قَد أَفْلَح من زكاها  **وقَد خَاب من دساها**

(سورة الشمس)

أنا لاأحب أبداً أن أُحدثَ في الإسلامِ مصطلحات جديدة لأن ا سبحانه وتعالى يقول :

حرمتْ عليكُم الْميتَةُ والدم ولحم الْخنْزِيرِ وما أُهلَ لِغَيرِ الله بِه والْمنْخَنقَةُ والْموقُوذَةُ والْمتَردية والنطيحةُ وما أَكَلَ السبع إِلا ما ذَكيتُم وما ذُبِح على النصبِ وأَن تَستَقْسموا بِالْأَزلَامِ ذَلكُم فسقٌ الْيوم يئِس الذين كَفَروا من دينكُم فَلَا تَخْشَوهم واخْشَونِ الْيوم أَكْملتُ لَكُم دينَكُم وأَتْممتُ علَيكُم نعمتي ورضيتُ لَكُم الْإِسلَام ديناً فَمنِ اضطُر في مخْمصة غَير متَجانف لِإِثْمٍ فَإِن الله غَفُور رحيم

(سورة المائدة)

فالمنهج الإلهي من قرآنٍ وسنة صحيحة منهج كاملٌ كمالاً مطلقاً يوصلُ الإنسـان إلـى أعلى الدرجات ولسنا بحاجة إلى منهجٍ آخر ولسنا بحاجة إلى إضافات جديدة ولكن أن تُحـب ا عز وجل شيء ثابت في الكتاب والسنة :

......عن أَنَسٍ قالَ قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لا يؤْمن أَحدكُم حتى أَكُون أَحب إِليه من مالِه وأَهله والناسِ أَجمعين *

(سنن النسائي)

الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة التي تتحدثُ عن الحب كثيرةٌ جداً وأساسيةٌ جداً.

كما أن النبي عليه الصلاة والسلام ذكر في الحديث الصحيح عن الإسلام أن تشهد أنه لاإله إلا ا وأن تقيم الصلاة وأن تؤتي الزكاة وأن تصوم رمضان وأن تحج البيت إن استطعتَ إلى ذلك سبيلاً وأن الإيمان أن تؤمن با وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وتحدثَ عن الإحسان وهي مرتبةٌ فوق الإسلام وفوق الإيمان .

الإحسان أن تعبد ا كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . هذا هو الإحسان .فالحديث عن الإحسان عن مرتبة فوقَ مرتبة الإسلام الإنصياع ـ عز وجل ، وفوق مرتبة الإيمان الإقبال على ا عز وجل إنها مرتبة الإحسان أن تعبد ا كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

حديثنا عن مرتبة الإحسان ، عن تزكية النفس " **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** " عن القلبِ السليم " **يوم لاينفع مالٌ ولابنون** " عن جوهرِ الدين .

ياأيها الأخوة الأكارم ... ا سبحانه وتعالى يقول:

ومن الناس من يتخذُ من دونِ الله أَنْداداً يحبونَهم كَحب الله والذين آمنُوا أَشَد حباً لِله ولو يرى الذين ظَلَموا إِذْ يرون الْعذَاب أَن الْقُوةَ لِله جميعاً وأَن الله شَديد الْعذَابِ

(سورة البقرة)

هذه الآية الأولى " **ومن الناس من يتخذ من دون ا** " من دون ا .. من عباده أنداداً ياتُرى هل هذا العبد الذي اتخذته نداً ـ عز وجل هو إله ..؟.. لا.. وماقال من اتخذه أنه إله ، ماقالَ أحد أن هناك إله آخر ، أو رب آخر ، أو خالقٌ آخر ، ولكنك إذا اتخذتَ من دونِ ا ـ جهةً ، شخصاً ، إنساناً .. تحبه كحبِ ا . أي كما ينبغي أن يحب ا عز وجل بالذل له ، وبالتعظيم ، و بالطاعة ، و بالدعاء ، بالذل بين يديه ، فقد اتخذته إلهاً وأنتَ لاتدري . اتخذته محبوباً ، وسنداً، و ملجأً ، ومرجعاً ، اتخذته ولياً ، ليس معنى هذا أن تدعو إلهاً آخر مع ا .. لا .. وأنتَ لك طابع إسلامي ، وأنتَ مسلم فيما يعرفُ الناس عنك ، وأنتَ لك زي ديني ، وأنتَ لك صلاتك وصيامك وحجك وزكاتك وأنتَ معدود بين المسلمين

ومن الناس "هذه من للتبعيض " ومن الناس من يتخذُ من دون ا أنداداً : يتخذُ نداً لاف ـي الخلق ، فالكفار قالوا : مانعبدهم إلا ليقربونا إلى ا ـ زلفى ، إبليس قال : ربي فبعزتك ما أنكر أن له رباً ماقال ليس لي رب قال ربي فبعزتك .

ليس معنى ذلك أن تُنكر وجود ا ولا أن تتخذَ إلهاً آخر تعبده من دون ا ـ ، أما أن تُحب ، أن تتذللَ ، أن تُعظم ، أن تدعو ، أن تطيع غير ا ـ فقد اتخذتَ هذا نداً من دون ا ، وأحببته كما ينبغي أن يحب الخالق ، كما ينبغي أن يحب الإله ، كما ينبغي أن يحب الرب ، لكن ا س ـبحانه وتعالى يقول :

ومن الناس من يتخذُ من دونِ الله أَنْداداً يحبونَهم كَحب الله والذين آَمنُوا أَشَد حباً لِله ولَو يرى الذين ظَلَموا إِذْ يرون الْعذَاب أَن الْقُوةَ لِله جميعاً وأَن الله شَديد الْعذَابِ

(سورة البقرة)

الذين آمنوا أشد حباً ـ : من حبِ هؤلاء الذين اتخذوا من دون ا أنداداً ، حب ه ـؤلاء الذين اتخذوا من دونِ ا ـ أنداداً لأندادهم أقل بكثير من حب المؤمنين ـ عز وجل .

تَالله إِن كُنا لَفي ضَلَالٍ مبِينٍ  **إِذْ نُسوِيكُم بِرب الْعالَمين**

(سورة الشعراء)

هذا موقفٌ عصيب في جهنم " **تا ـ إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين** " من لوازم العبودية التشريع ، من لوازم الألوهية أن تعبده وحده ، من لوازم الربوبية التشريع ، ف ـإذا قَبِلتَ شرعاً غير شرع ا ـ عز وجل ، إذا ُأعجبتَ بنظامٍ وضعيٍ غيرِ نظام ا ـ ع ـز وج ـل ، إذا رأيتَ أن الإنسان قادر على أن يشرع ، على أن يضع نظاماً صحيحاً ، جامعاً مانعاً ، فقد س ـويته برب العالمين ، هذا الذي وضع النظام ، وهذا الذي وضع التشريع ، وهذا الذي وضع لك منهج ـاً تسير عليه منهج أرضي لاعلاقةَ له بمنهج السماء ، هذا كأنك اتخذته رباً مشرعاً . " **تا ـ إن كن ـا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين** " .

اليهود اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون ا . حتى رجال الدين لهم حجمهم يج ـب أن لايكبر حجمهم عن الحجم الذي وضعهم ا فيه ، ينقلون لك عن رسول ا سنته المطه ـرة ، ينقلون لك مافي كتاب ا من أحكام ومن توجيهات ولايسطيع واحد كائن من كان أن يضيفَ شيئاً

على منهج القرآن ومنهج النبي العدنان ، هذا الحجم الحقيقي ، إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق ، إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد ولد آدم يقول :

قُلْ إِنِي أَخَافُ إِن عصيتُ ربي عذاب يومٍ عظيمٍ

(سورة الزمر)

قُلْ لا أَملك لِنَفْسي نَفْعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كُنْتُ أَعلم الغَيب لاستَكْثَرتُ من الخَيرِ وما مسني السوء إِن أَنَا إلا نَذير وبشير لِقومٍ يؤْمنُون

(سورة الأعراف)

هذا حجم النبي وهو سيد ولد آدم فهل هناك إنسان آخر يعلم الغيب ..؟.. هل هناك إنسان آخر يملك لك نفعاً وضراً ..؟.. هل هناك إنسان آخر يملك لك أن يرفعك أو أن يخفضك ..؟..

أيها الأخوة الأكارم .... الآية الثانية التي تقصم الظهر ،

كلٌ يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر

بذاك لما كثُر مدعو المحبة

طولبوا بالدليل. سؤالٌ محرج :

قُلْ إِن كُنْتُم تُحبون الله فَاتبِعوني يحبِبكُم الله ويغْفر لكُم ذُنُوبكُم والله غَفُور رحيم

(سورة آل عمران)

لا تستطيع أن تدعي أنك تُحب ا عز وجل وأنتَ مخالفٌ لسنة النبي عليه الصلاة والسلام، لا تستطيع أن تدعي أنك محب عز وجل وفي بيتك ، وفي تصرفاتك ، وفي بيعك وشـرائك ، وفي تعاملك ، وفي علاقاتك ، وفي جِدك ، وفي لَهوك، وفي مرحك ، وفـي طعامـك وشـرابك ونزهاتك وأفراحك وأتراحك شيء مخالفٌ لسنّة النبي . فهذه الآية فيها علاقة ترابطيـة إن كنـتَ محباً عز وجل اتبعتَ سنّةَ النبي عليه الصلاة والسلام ، وإن اتبعتَ سنّةَ النبي عليـه الصـلاة والسلام نقلتك إلى محبة ا ، إن شئتَ أن تأخذَ هذه الآية صعوداً أو نزولاً ، إن اتبعتَ سنّةَ النبي عليه الصلاة والسلام نقلتك إلى محبة ا وإن أحببتَ ا فعلاً كما تدعي من لوازم محبتك عز

وجل أن تتبع سنّة النبي عليه الصلاة والسلام ، " **قل إن كنتم تحبون ا فاتبعون** " اتبعوا سـنّتي جاء الجواب " **فاتبعوني يحببكم ا ويغفر لكم** " معنى يحببكم جواب الطلب ، فياتُرى مـاالمعولُ عليه ..؟.. أن تحبه أم أن يحبك .؟.

الإنسان الظالم قد يحب قاضياً عادلاً ولكن القاضي العادل لايحب هـذا الخصـم الظـالم ، الإنسان الناقص قد يحب الكامل ولكن هذا الكامل لايحب الناقص ، الإنسان البخيل قد يعظّم الكريم ولكن هذا الكريم لايحب البخيل ، إذاً ليس المعولُ عليه أن تُحب ا عز وجل بقدر ماالمعولُ عليه أن يحبك ا عز وجل . يجب أن يحبك .

لذلك... لأنه إذا أحبك أسعدك إلى الأبد ، أما إذا رحمك في الدنيا وأحسن إليـك وانتهـت الدنيا وجدت المصير المشؤوم.

ويسألُونَك عن المحيض قُلْ هو أَذًى فَاعتَزلُوا النساء في المحيض ولا تَقْربوهن حتى يطْهرن فَإِذَا تَطَهرن فَأْتُوهن من حيثُ أَمركُم الله إِن الله يحب التوابِين ويحب المتَطَهرِين

(سورة البقرة)

فمحبة ا عز وجل لها مفتاح مفتاحها ، غُض بصرك واستقامتك على أمر ا وصدقك .

ولاتنسوا أيها الأخوة الأكارم أن الإمام الشافعي رحمه ا تعالى استنبطَ إستنباطاً ذكياً جداً من قول ا عز وجل:

وقَالَت الْيهود والنصارى نَحن أَبنَاء الله وأَحباؤُه قُلْ فَلم يعذبكُم بِذُنُوبِكُم بلْ أَنْتُم بشَر ممن خَلَقَ يغْفر لمن يشَاء ويعذب من يشَاء ولله ملْك السماوات والْأَرض وما بينَهما وإِلَيه الْمصير

(سورة المائدة)

إدعاء ... إذ كلُ يدعي وصلاً بليلى ، فأجابهم ا عز وجل :

" قل فلم يعذبكم بذنوبكم "

المعنى المخالف لهذه الآية : لو أن ا عز وجل أقركم على حبكم له وحبه لكم لما عذّبكم، فاستنبطَ الإمام الشافعي رحمه ا تعالى أن ا لايعذب أحداً ، فكيف بكم إذا عـرفتم أن حـب ا عز وجل ينجيكم من كل عذاب ، وحق ا على عباده .... أن يعبدوه ، وحقهـم عليـه ... أن لا

يعذبهم ، و ضمانة من الخالق أن تعيش حياةً مباركةً خيرةً ناعمةً لك فيها عملٌ طيب ، لك فيهـا إقبالٌ على ا ، لك فيها استسلامك له.

الأن .. آية ثالثة من آيات المحبة:

يا أيها الذين آمنُوا من يرتَد منْكُم عن دينه فَسوفَ يأْتي الله بِقَومٍ يحبهم ويحبونَه أَذلة على الْمؤْمنين أَعزة على الْكَافرِين يجاهدون في سبِيلِ الله ولَا يخَافُون لَومةَ لَائِمٍ ذَلِك فَضلُ الله يؤْتيه من يشَاء والله واسع عليم

(سورة المائدة)

أحياناً يمن إنسان على ا بأنه أدى ما عليه.

يمنون علَيك أَن أَسلَموا قُلْ لَا تَمنوا علَي إِسلَامكُم بلِ الله يمن علَيكُم أَن هداكُم لِلْإِيمانِ إِن كُنْتُم صادقين

(سورة الحجرات)

من السهل أن يقبلَ الإنسان على الدين ، شيء جيد وطيب لكن البطولة الاستمرار ، الإنسان أحياناً يتوب إلى ا عز وجل النقلّة المفاجئة من الكفر من الضياع من المعصية من الشتات مـن اللؤم من وحول الدنيا من الأعمال السيئة من المعاصي والآثام .. النقلة المفاجئـة إلـى الطاعـة والطُهر والعفاف والاستقامة نقلة مسعدة جداً ، ولكن هذه السعادة المتألقة هذه السعادة لها وقتٌ ثـم يضعف تأثيرها لوجودها باستمرار ، يضعف تأثيرها باستمرارها ، هناك أناس يملّـون يسـأمون ينتكثون يعودون إلى ماكانوا عليه .

و من علامة الإيمان أن يكره المؤمن أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه ا منه كما يكره أن يلقى في النار ، فالبطولة بالثبات والاستمرار.

كما تعرفون جميعاً في معركة الخندق لما اليهود نكثوا عهدهم مع رسـول ا والأحـزاب جاءتهم من كل جانب وأصبح الإسلام قضية ساعات ليس غير .. قال بعضهم :

وإِذْ يقُولُ الْمنَافقُون والذين في قُلُوبِهِم مرض ما وعدنَا الله ورسولُه إِلَّا غُروراً

(سورة الأحزاب)

أما المؤمنون الصادقون "**من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً** " أنتَ تُعارض خالق الكون ، الذي أتمناه على كل مؤمن هذا العهد الغليظ :

وكيفَ تأخُذُونَه وقد أفْضى بعضكُم إلى بعض وأَخَذْن منْكُم ميثَاقاً غَليظاً

(سورة النساء)

في السراء ، في الضراء ، أثناء الامتحانات ، بعد الامتحانات ، في مواسم البيع والشراء ، في الصحة ، في المرض ، في الغنى ، في الفقر ، في الطمأنينة ، في الخوف ، في ربيع العمر ، في وسط العمر ، في خريف العمر ، عاهدتَ خالقَ الكون وبعته بيعاً قطعياً . لذلك " **ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعـزة على الكافرين** " .

الآية الثالثة في علامات الحب ، إذا كان الله يحبك فهذه صفتك " **أذلةٌ علـى المـؤمنين** " متواضع لهم ، في خدمتهم ، تعطف عليهم ، تشفق عليهم ، إذا عز أخوك فهم أنت ، أمـا الحسـد والضغينة و تُحطيم من نافسك ومن فاقك ومن وفقه الله في الدعوة إلى الله ، هذا ليس من أخـلاق المؤمنين " **أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين** " .

السؤال اللطيف اللغوي : لماذا قالَ الله عز وجل : أذلة على..؟.. باللغـة لا يوجـد أذلـة على!! في اللغة يوجد : أذلة لي ، فلان ذليل لفلان ، هذا بحث في اللغة رائع اسمه التضـمين إذا عدينا فعلَ ذل بـ على ضمناه معنى أشفقَ ، فهذا الذليل للمؤمن يعني يحبه ، ويتواضع له ويشـفق عليه .

لذلك ... يقول عليه الصلاة والسلام :

.......عن عمرو بن شُعيبٍ عن أبيه عن جده قالَ قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يرحم صغيرنَا ويعرفْ حق كبيرنَا *

(مسند الإمام أحمد)

" **أذلة على المـؤمنين** " قالَ بعض العلماء في تفسير هذه الآية " للمـؤمنين كالوالـد لوالـده وكالعبد لسيده وعلى الماكرين كالسبع على فريسته عزيز ... لاتأخذه في الله لومةُ لائم " ... الآية " **ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلـة علـى**

المؤمنين أعزة على الكافرين " بالعكس والعياذُ با ، قوي على المؤمن يراه ضعيفاً لاسـند لـه يقوى عليه ، وأما الأقوياء يهابهم ويخضع لهم ويتذلل لهم ويستجزي منهم وينـافق لهـم ، أمـا المؤمنون هو متأكد أنهم ضعاف مستضعفون لذلك يقوى عليهم . إن كنتَ تقوى علـى المـؤمنين وتستعدي عليهم وتخنع أمام الأقوياء فتأكد أنك لستَ محباً ورسوله .

العلامة الأولى أن تكون مع المؤمنين كالولد للوالد ، كالعبد للسيد ، تذللاً وخضوعاً وشـفقةً وعطفاً ومحبةً ومعاويةً ومؤاثرةً ... وأن تكون على أهل الإعراضِ والكفرِ قوياً.

العلامة الثانية .. يجاهدون في سبيل ا بأنفسهم ، بـأموالهم ، بأوقـاتهم ، بعضـلاتهم ، بخبراتهم ، بكل مايملكون . ومعنى يجاهدون : يبذلون أقصى الجهد ، ربناعز وجل قال :

فلا تُطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً

(سورة الفرقان)

فهم كتاب ا والغوص في معانيه وتوضيحها للناس أحد أنواع الجهاد ، ضبط النفسِ أحد أنواع الجهاد ، المؤاثرةُ أحد أنواع الجهاد ، جهاد العدوِ أحد أنواع الجهاد .

العلامة الثانية .. يجاهدون في سبيل ا بالنفسِ واليد واللسان والمال ، وهذا يؤكد حب ا عز وجل.

الثالثة .. ولا يخافون في ا ِ لومةَ لائم ، ناس أخافونني ، لوم .. واحد لامك فصرفك عن مجالس العلم ، إنسان لامك صرفك عن طاعتك ، إنسان أخافك صرفك عن هذا العمل الصـالح ، إنسان حذّرك أخافك ، ثلاث علامات : أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهـدون فـي سبيل ا ، ولايخافون في ا لومةَ لائم . هذه علامات صادقة ثلاث على حبك ِ وحب ا ِ لك .

معنى لاتأخذه في ا ِ لومة لائم : فسرها العلماء : لاتأخذه عن ا عن طريق حـب ا ، عن طريق طاعة ا ، عن طريق العلم ، عن طريق البذل ، عن طريق العطاء ، عـن طريـق القربِ ، عن طريق مجالس العلم ، لاتُذهبه عن هذه الطاعات لومةُ لائم.

أمن تذكر الجيران بذي سلمٍ يا لائمِ في

الهوى العذري معذرة كف الملام

فلو أنصفتَ لم تُلَمِ

لو أنصفتَ لم تُلَمِ.

قالَ يا قَومِ أَرأَيتُم إِن كُنْتُ على بينَة من ربي وآتَاني رحمةً من عنْده فَعميتْ عليكُم أَنُلْزِمكُموها وأَنْتُم لها كَارِهون

(سورة هود)

هذا الذي يلومك ماذاق الذي ذقته .... هذا الذي يلومك ماذاق طعم قربك ... هـذا الـذي يلومك ماذاق طعم توفيق ا لك ..؟.. هذا الذي يلومك ماذاق طعم أن ا نور قلبك بالإيمان ..؟.. هذا الذي يلومك ماذاق طعم طهارة القلب ..؟.. ماذاق طعم .. طهارة النفس ، ما ذاقَ شـيئاً مـن هذا ، مقاييسه كلها مادية بالدرهم والدينار لذلك قالَ عليه الصلاة والسلام :

......عن أَبِي هريرةَ رضي الله عنْه قالَ قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تَعس عبد الدينَارِ والدرهم والْقَطيفَة والْخَميصة إِن أُعطي رضي وإِن لَم يعطَ لَم يرض*

(صحيح البخاري)

ثلاث علامات : أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهـدون فـي سـبيل ا ، ولايخافون في ا لومةَ لائم إذا كانت فيك فأنتَ من أهل الحب ا يحبك وأنتَ تحبـه ، هـؤلاء الذين عبِدوا من دونِ ا : السيد المسيح ، سيدنا العزير .

الآية الخامسة :

أُولَئك الذين يدعون يبتَغُون إِلى ربهِم الْوسيلَةَ أَيهم أَقْرب ويرجون رحمتَه ويخَافُون عذَابه إِن عذَاب ربك كَان محذُوراً

(سورة الإسراء)

هنالك في الآية مقامات ثلاث : المقام الأول : الحب يعني ابتغاء القرب ، من المعلوم قطعاً أنك لا تتنافس إلا في قربِ من تحب قربه ، شخص لاتحبه ، لئيم ، هل أنتَ حريص على زيارته، على أن تكون إلى جانبه ، على أن تتنزه معه ، على أن تسهر معه ... مستحيل ... مـن الثابـت قطعاً أنك لاتحب قُرب إلا من ترجو قُربه من تحب قُربه ، وحب قُربه هو في الأصل حب لذاته، بل محبة ذاته أوجبت محبة المؤمنين ، إذ في محبة ا عز وجل حيـاة القلـوب ونعـيم الأرواح وبهجة النفوس وقرةُ العيون وأعلى نعيم الدنيا والآخرة .

فهذا الذي قال : مساكين أهلُ الدنيا ، وا ِ الذي لاإله إلا هو لو ذاقَ الإنسان طعم الحـب لسعد سعادة لا تساويها سعادة إنسان يملك أموال الدنيا كلها وما عرفَ ا يقول مسكينا ، جاء إلى

الدنيا وخرج منها وما ذاقَ أجملَ مافيها ، إن أجملَ مافيها أن تكون مـن ا ِ قريبـاً ، لـذلك .. " **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة** " ، يوجد وسائل كثيرة ، أي هذه الوسائل تقربـه إلى ا أكثر يبادر إليها .

إنفاق المال .. يبادر إلى إنفاق المال ، حضور مجالس العلم .. يبادر إلى حضور مجـالس العلم .. تعلّم القرآن .. يتعلّم القرآن .. قراءة السنّة .. يقرؤها .. خدمة الضعفاء والمساكين يسارع إليها .

علامة هؤلاء الصادقين يرجون رحمة ا ، يخافون عذابه ، يبحثون عن وسـيلة يبتغـون القرب من ا عز وجل ، هذه آية خامسة تتعلق بالحب .

آية سادسة:

ولا تَطْرد الذين يدعون ربهم بِالْغَداة والْعشي يريدون وجهه ما علَيك من حسابِهم من شَيء وما من حسابِك عليهم من شَيء فَتَطْردهم فَتَكُون من الظالِمين

(سورة الأنعام)

وما لِأَحد عنْده من نعمة تُجزى  **إِلا ابتغَاء وجه ربه الْأَعلَى**  **ولَسوفَ يرضى**

(سورة الليل)

ليس في قلبه إلا هم واحد ... أن يكون ا راضياً عنه ، إلهي أنتَ مقصـودي ورِضـاك مطلوبي ، ياربي ماذا فَقَدَ من وجدك ، وماذا وجد من فقدك ...

آية سابعة دقيقة جداً موجهةٌ إلى نساء النبي عليه الصلاة والسلام

وإِن كُنْتُن تُردن الله ورسولَه والدار الْآخرةَ فَإِن الله أَعد لِلْمحسنَات منْكُن أَجراً عظيماً

(سورة الأحزاب)

معنى ذلك أن هناك إرادتان " ، **وإن كنتن تُردن ا ورسوله والدار الآخرة** " إرادة الدار الآخرة ليست عين إرادة ا عز وجل

وإرادة ا عز وجل ليست عين الدار الآخرة والدليل : العطف والعطف يحتوي المفارقة والتغاير ، أعطني قلماً ودفتراً ، القلم غير الدفتر ، العطف يقتضي التغاير . " **وإن كنتن تُردن ا ورسوله والدار الآخرة** " قال هذا الذي يبتغي الدار الآخرة من أجل ما فيها من حورٍ عين ، ومن عسـلٍ مصفى ، ومن لبنٍ لم يتغير طعمه ، ومن جنات تجري من تحتها الأنهار المؤمنون يبتغون رشـد ا عز وجل والدليل أن الإمام علي كرم ا وجهه قال في العباد ثلاثة العبيد وهم يعبدونه خوفـاً من ناره ، والتجار يعبدونه طمعاً في جنته ، والأحرار عرفوا أن لهم رباً فأطاعوه .

وما مقصودهم جنات عدنٍ ولا الحور الحسان ولا الخيـام سـوى نظـر الحبيـب فـلا منافه وهذا مقبض القولِ الكرام.

تقبل دعوة إنسان عظيم جداً دعاك إلى تناول طعام الغذاء ، دخلت .. تفضـل .. وجـدت الطعام النفيس والطنافس .. أين الداعي ..؟.. وا مشغول تفضل وكُلْ .. كُلْ.

إذاً " **وإن كنتن تُردن ا ورسوله والدار الآخرة فإن ا أعد للمحسـنات مـنكن أجـراً عظيماً** " إذاً يجب أن تبتغي وجه ا ، لذلك أعظم مافي الجنة رؤية وجه ا ، أعظم عقابٍ فـي النار حجبهم عن ربهم .

كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون

(سورة المطففين)

وجوه يومئذ نَاضرةٌ  إلى ربها نَاظرةٌ

(سورة القيامة)

يرى المؤمن ربه كما يرى القمر في ليلة البدر ، ويغيب من نظرة واحدة خمسين ألف عامٍ من خشية النظر .

إذاً " **وإن كنتن تُردن ا ورسوله والدار الآخرة** " في مرتبة الإيمان مرتبة تفوق الخوف من العقاب والسعي إلى الثواب ، هؤلاء عاملون أجراء ، أما المحسـنون مرتبـة الإحسـان ... إسمعوا الأن ..

وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين  الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين

(سورة آل عمران)

يوجد صنف آخر:

والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون  أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين

(سورة آل عمران)

هؤلاء عاملون بأجر وهؤلاء محسنون وشتان بين الفريقين ، مرتبة الإحسان شيء ومرتبة الإسلام والإيمان شيء آخر.

جاء في الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام قال

.......حدثنا عطاء بن السائب عن أبيه قال صلى بنا عمار بن ياسر صلاة فأوجز فيها فقال له بعض القوم لقد خففت أو أوجزت الصلاة فقال أما على ذلك فقد دعوت فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام تبعه رجل من القوم هو أبي غير أنه كنى عن نفسه فسأله عن الدعاء ثم جاء فأخبر به القوم اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرا لي وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب وأسألك القصد في الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع وأسألك الرضاء بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين *

(سنن النسائي)

الناس يخافون من الموت ، المؤمن يقول له يارب إذا كانت الحياة خيراً لي فأحيني وإذا كان الموت خيراً لي فأمتني . دعاء رائع جداً

ترى وجهاً مقبلاً على الله تقول له كالبدر ، تحار في جماله ، تحار في تألقه ، فكيف لو نظرتَ إلى وجه النبي عليه الصلاة والسلام ، فكيف إذا نظر المرء في الجنة إلى وجه الله عز

وجل ، أسألك لذة النظر إلى وجهك وأسألك الشوقَ إلى لقائك من غيرِ ضراء مضـرة ولا فتنـة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة له .

من الأحاديث الصحيحة :

.......عن أَنَس بن مالِك رضي الله عنْه عن النبِي صلى الله عليه وسلم قالَ ثلاثٌ من كُن فيـه وجد حلاوةَ الإيمانِ أَن يكُون الله ورسوله أَحب إِليه مما سواهما وأَن يحب المرء لا يحبه إِلا لِله وأَن يكْره أَن يعود في الكُفْرِ كما يكْره أَن يقْذَفَ في النارِ *

(صحيح البخاري)

أمر ا وسنّة النبي أن تكون أحب إليه مما سواه ، تجد نفسك بحفلة ، في تقاليد معينـة ، طقوس جديدة استحدثت وسنّة النبي معطلة .. لا .. " **أن يكون ا ورسوله أحب إليه مما سـواه وأن يحب المرء لايحبه إلا** " ، لامصلحة ولاعلاقة ولا نسب ولاقرابـة ولا شـراكة . ثـلاث علامات : أن يكون ا ورسوله أحب إليه مما سواه ، وأن يحب المرء لايحبه إلا ، وأن يكـره أن يعود للكفرِ بعد إذ أنقذه ا منه كما يكره أن يلقى في النار .

عن أبو هريرة رضي ا عنه : أن رسولَ ا صلى ا عليه وسلم قال : ' قـال ا تعالى : من عادى لي وليا ، فقد آذَنتُه بحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مـن أداء ما افترضتُ عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى ُأحبه ، فإذا أحببتُه كُنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني أعطَيتُه ، وإن استَعاذَ بي أعذْتُه ، وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله ، ترددي عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءتَه ' . أخرجه البخاري .

يقال إن لحوم العلماء مسمومة ، لا أحد يتحدث عن العلماء هؤلاء مصابيح الدنيا وسـرد الآخرة فليس من شأنك أن تقيمهم ولاأن تبحثَ في شأنهم ... دعهم في ربهم ... عليك أن تُطبـقَ سنّة النبي عليه الصلاة والسلام .

بالصدقات ، بقيام الليل ، بصلاة الضحى ، بخدمة الضعفاء والمساكين ، بحل مشـكلات الناس ببذل كلَ ما أتاه ا عز وجل من قوة في سبيل مرضاته ..

وإذا أحب ا العبد دعا جبريل فقالَ إني أحب فلاناً فأحبه

ينادى له في الكونِ أنّى يحبنّه فيسمع من في الكونِ أمر محبنا يعني إذا أحبك ا ألقى حبك في قلبِ الخلق فأحبك أعداؤك ، وإذا أبغضك ا عز وجل ألقى بغضك في قلبِ أقربِ الناس إليك.

إني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء إن ا   يحب فلاناً فـأحبوه فيحبـه أهل السماء ثم يوضع له القَبول في الأرض .

والدعاء الشريف :

......عن أبي الدرداء قالَ قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كان من دعاء داود يقُولُ اللهـم إني أسأَلُكَ حبكَ وحب من يحبكَ والعملَ الذي يبلغُني حبكَ اللهم اجعلْ حبكَ أَحب إِلَي من نَفْسـي وأَهلي ومن الْماء الْبارِد ....*

(سنن الترمذي)

تحب المال أعطاك المال ، تحب زوجة تروق لك أعطاك إياها ، تحب بيتاً واسعاً بلّغـك إياه ، تحب منصباً رفيعاً أعطاك إياه ماذا ستفعل به ..؟.. قال : اللهم مارزقتني مما أحب فاجعله قوةً لي فيما تحب ياربي اجعلني أسخّر هذا المال لمرضاتك ، وأسخر هذا البيتَ للـدعوة إليـك، وأسخر هذه المركبة لخدمة عبادك ، أسخر هذا المنصب لنُصرة الضعفاء والمساكين . ... اللهم مارزقتني مما أحب فاجعله عوناً لي فيما تحب ، وما زويتَ عني ماأحب مثلاً الزوجة وسط لـو أنها أفضل من هذه لشغلتك عن ا   عز وجل .

وما زويتَ عني ماأحب فاجعله فراغاً لي فيما تُحب ، الدخل محدود .. نعمـة .. معناهـا متفرغ   عز وجل ، لو أنه أعطاك كما تريد لضاقت أوقاتك عن حضور مجلس علم ...

والحمد   رب العالمين .

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم .... مع الدرس الرابع من سلسة دروس تعبد القلب بما ينبغي له أن يكون عليه من رضوان ا تعالى ، في درسين سابقين تحدثنا عن موضوع المحبة وكيف أن المحبة هي روح الدين ، واليوم ننتقل إلى موضوع جديد ألا وهو الإخلاص.

أيها الأخوة الأكارم ... ربنا سبحانه وتعالى يقول:

وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

(سورة البينة)

أمروا أن يعبدوا ا مخلصين ، الحالة الداخلية هي الإخلاص والحالة الخارجية هي العبادة ، وآية أخرى يقول ا سبحانه وتعالى:

إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾

(سورة الزمر)

وفي آية ثالثة :

قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾

(سورة الزمر)

وفي آية رابعة :

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

(سورة الملك)

الفضيلُ رحمه ا تعالى فسر " أيكم أحسن عملاً " أن يكون العمل صواباً وخالصاً ، صواباً وفق السنّة ، وخالصاً ما ٱُبتغي به وجه ا .

وفي آية أخرى :

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

(سورة الكهف)

الإشراك هنا إشراك في النية" فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولايشرك بعبادة ربه أحداً " لايشرك في قصده ولانيته أحداً مع ا عز وجل.

وفي آية أخرى يقول ا عز وجل :

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾

(سورة النساء)

فإسلام الوجه عز وجل إسلام القصد والعمل ـ عز وجل، والإحسان متابعة النبي عليه الصلاة والسلام.

آيات كثيرة ... كلها حولَ محورٍ واحد : ٱُمرتَ أن تعبد ا وأن تكون هذه العبادة في

إخلاصٍ   عز وجل ، إنطلقت من هذا الموضوع من قول النبي عليه الصلاة والسلام " : يامعاذُ أخلص دينك يكفك القليلُ من العمل " ، وانطلقت في هذا الموضوع من قوله تعالى:

وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾

(سورة الفرقان) .

عملٌ عظيم بلا إخلاص يجعله ا   هباء منثوراً وعملٌ قليلٌ مع الإخلاص يتقبّله ا   عز وجل وربما كان هذا العمل مع الإخلاص سبباً لنجاة صاحبه من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرى .

يقول عليه الصلاة والسلام يخاطب سيدنا سعد بن أبي وقاص :

(ياسعد إنك لن تُخلَّفَ فتعملَ عملاً تبتغي به وجه ا   تعالى إلا إزددتَ به خيراً ودرجةً ورفعةً) .

ما من عملٍ تعمله تبتغي وجه ا   تعالى إلا إزددتَ به خيراً ودرجةً ورفعةً ، وقد يسألُ سائل كيفَ أعرفُ ما إذا كنت مخلصاً أو غير مخلص .. هناك إجابات عديدة أبرزها أن يستوي عندك مدح الناس وذمهم هذه علامةٌ طيبة .. أن تبتعد عن الرياء معنى الرياء أن تُرائي الناس ، علامةٌ ثالثة :

بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾

(سورة القيامة) .

لِحكمةٍ أرادها ا   عز وجل جعلَ الإنسان مطلّعاً على نفسه يعرف سرها ونجواها ، يعرف انحرافها واستقامتها ، يعرف إخلاصها ورياءها ، يعرف أمانتها وخيانتها ، هذا سر من أسرارِ هذه النفسِ البشرية.

وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾
وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

(سورة الليل)

......عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود يحدثُ عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم

قالَ نَضر الله امرأً سمع مقالتي فَوعاها وحفظَها وبلغَها فَرب حامل فقْه إلى من هو أَفْقه منْه ثلاثٌ لا يغل عليهن قلب مسلمٍ إخْلاص العمل لله ومناصحةُ أَئمة المسلمين ولُزوم جماعتهم فَإن الدعوةَ تُحيطُ من ورائهم *

(سنن الترمذي)

فإذا أخلصتَ العملَ ونصحتَ ولاة الأمور ولزمتَ جماعة المسلمين لايمكن أن ينطوي قلبك على غل لأحد .

النبي عليه الصلاة والسلام أعطانا بعض المقاييس قالَ : **برئ من الكبر من حملَ حاجته بيده .. " مقياس ..**

وقالَ عليه الصلاة والسلام " : **وبرئ من النفاق من أكثر من ذكر ا " ، مقياس** آخر .. **"وبرئ من الشُح من أدى زكاةَ ماله" ، هذا مقياس رابع " .. وبرئ من الغل من أخلص في العمل ونصح ولاةَ الأمر ولزم جماعة المسلمين"**

إذا لزمتَ جماعة المسلمين ماذا يعني لك هل عندك دليلٌ على أن جماعة المسلمين على حق.. ؟ ..دائماً ما عليه مجموع المسلمين ، حق عليه أهلُ السنّة والجماعة حق ، ما أجمع عليه المسلمون حق ..الدليل : قول النبي عليه الصلاة والسلام : لا تجتمع أمتي على خطأ.

الأمة بمجموعها معصومة ، والنبي عليه الصلاة والسلام بمفرده معصوم ، " **لا تجتمع أمتي على خطأ. "**

إذا كنتَ مع جماعة المسلمين مع مجموع المسلمين مع ماهم عليه المسلمون مع جمهور العلماء فقد برئ قلبك من الغلّ.

سئلَ عليه الصلاة والسلام عن الرجل يقاتل رياء ويقاتل شجاعةً ويقاتل حميةً أي ذلك في سبيل ا .. ؟ ..فقالَ عليه الصلاة والسلام :

......عن أَبي وائلٍ عن أَبي موسى قالَ جاء رجلٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فَقالَ يا رسولَ الله ما القتَالُ في سبيل الله فَإن أَحدنَا يقَاتلُ غَضبا ويقَاتلُ حميةً فَرفَع إليه رأْسه قالَ وما رفَع إليه رأْسه إلا أَنه كان قائما فَقالَ من قاتَلَ لتَكُون كلمةُ الله هي العلْيا فَهو في سبيل الله عز وجل *

(صحيح البخاري)

موتٌ على حمية وموتٌ على رياء وموتٌ على شجاعة كلها ليست في سبيل ا ، من قاتلَ لتكون كلمة ا هي العليا فهو في سبيل ا والشيء المخيف أن النبي عليه الصلاة والسلام أخبر عن أول من تُسعر بهم النار يوم القيامة ، قالَ عليه الصلاة والسلام : قارئ القرآن إن راءئَ بقراءة القرآن ، والمجاهد الذي يجاهد حميةً أو شجاعةً أو رياء ، والمتصدقُ بماله الذي يبتغي من صدقته أن يقول الناس فلان فعلَ كذا وكذا.

الذين فعلوا ذلك ليقال هذا قارئٌ وفلان شجاع وفلان متصدق ولم تكن أعمالهم خالصة لوجه ا ... لماذا اخترتُ موضوع الإخلاص..؟ ..لأنه موضوع خطير جداً ، قد يكون لك عملٌ كالجبال ولكن تبتغي به الدنيا تبتغي به السمعة تبتغي به الوجاهة تبتغي به أن تصرفَ وجوه الناس إليك تبتغي به المديح تبتغي به الرفعة .

موضوع المحبة موضوع خطير وموضوع الإخلاص موضوع أخطر ، ا سبحانه وتعالى في بعض الأحاديث القدسية يقول :

أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عملَ عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك فيه وأنا منه بريئ. "

يعني هذا العمل أكثره وقليل منه لزيد أو عبيد ، ا سبحانه وتعالى كل هذا العمل لايقبله سهمين من مائة لزيد أو عبيد و ٩٨ سهم هذا العمل عند ا كله مرفوض.

إن ا طيب ولا يقبل إلا طيباً والطيب هنا ما كان العملُ خالصاً لوجه ا تعالى . لذلك القصد أن ننتبه لقلوبنا ، أن نتفحص أعمالنا ، أن ندققَ في نوايانا ، أن نتفحص نفوسنا ، أن نتأملَ الغايات البعيدة التي وراء أعمالنا.

في حديثٍ قدسيٍ آخر يقول ا عز وجل للمرائي يوم القيامة

"إذهب فخذ أجرك ممن عملتَ له لا أجر لك عندنا " ، أنتَ عملتَ لمن.. ؟ ..لفلان .. خذ أجرك منه.

وفي الحديث الصحيح يقول عليه الصلاة والسلام:

.......عن أَبِي هريرةَ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لا تَحاسدوا ولا تَنَاجشُوا ولا تَباغَضوا ولا تَدابروا ولا يبِع بعضكُم على بيعِ بعضٍ.........

(صحيح مسلم)

إِن الله لا ينْظُر إِلى أَجسادكُم ولا إِلى صورِكُم ولكن ينْظُر إِلى قُلُوبِكُم وأَشَار بِأَصابِعه إِلى صدره

(صحيح مسلم)

إنسان وسيم الطلعة ، عريض المنكبين ، ضخم الجثة ، لا ينظر ا إليه كلكم يعلم حديثَ الأحنف بن قيس الذي وصفه الواصفون فقالوا : كان قصير القامة ، أسمر اللون ، أحنفَ الرجل ، مائلَ الذقن ناتئَ الوجنتين ، غائر العينين ، شيء من قُبحِ المنظر وهو مع ذلك سيد قومه إن غَضب غَضب لغضبته مئة ألف سيفٍ لا يسألونه فيما غضب . وكان إذا علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه.

"**إن ا لاينظر إلى أجسامكم ..**" مهما يكن جسمك ، مهما يكن وصفك ، مهما يكن طولك ، مهما يكن لونك ، مهما تكن عيناك واسعتين، مهما يكن شكلك جذاباً ، مهما يكن لباسك

أنيقاً ، مهما تكن العطور منك فواحة ، " **إن ا لاينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم.** "

بعض العلماء قال " : يدخل في الصرر بيتكم ، مركبتكم ، أثاث البيت" ، الحاجات الثمينة التي تقتنيها ، الإمام علي كرم ا وجهه يتحدث عن علامات آخر الزمان يكون فيه قيمة المرء متاعه . لاقيمة المرء ما يحسن " **إن ا لاينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم** "أعمالكم في الظاهر وقلوبكم في الباطن.

يجب أن يكون القلب مفعماً بالإخلاص عز وجل ، أثر مروي عن ا عز وجل في حديثٍ قدسي:

"الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببته من عبادي"

سر من أسرار الحق ، لذلك .. غير المخلص بحاجة ملحة إلى أن يستجدي الثناء.. أما المخلص تشعر أنه لا يحتاج ثناءك لأن إخلاصه أكسبه صلةً مسعدةً مع ا عز وجل فهو لن يستجدي ثناء الناس ومديحهم ، هذا الذي يهتم اهتماماً كبيراً لثناء الناسِ في إخلاصه شائبة ، في إخلاصه خلل ... ماذا قالَ العلماء عن الإخلاص. ؟ .أحاديثُ قدسية وأحاديثُ صحيحة وآياتٌ قرآنية تجعلُ الإخلاص نصف العمل العمل له ظاهر وله باطن في الظاهر ينبغي أن يكون وفقَ السنّة وفي الباطن ينبغي أن يكون مخلصاً .

قال بعض العلماء " الإخلاص إفراد الحق سبحانه وتعالى بالقصد في الطاعة الإنسان يدخل المسجد ليصلي كان مع أصدقائه يدخل معهم ليصلي ويصلي لكن ما أفرد ا عز وجل في هذه الطاعة .. صلّى حياء ، صلّى مجاملةً ، صلّى مسايرةً ، صلّى ليجلب مدح الناسِ له ، فأي عملٍ يفعله الإنسان يستجلب به مديح الناس هذا عملٌ بعيد عن الإخلاص ، الإخلاص : إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة . من تعريفات الإخلاص الأخرى تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين ، من رآني.. ؟ ..رآني فلان .. يعني حينما ينشأ في قلبِ الإنسان رغبة أن يطلّع الناس على عمله . يرتاح راحةً كبرى هذه الراحة من ضعف الإخلاص . بعضهم قال الإخلاص : التوقي من ملاحظة الخلق على نفسك .. لا يعنيك أمر الخلق لاحظوا أو لم يلاحظوا . بعضهم قال : من شَهِد في إخلاصه الإخلاص فإخلاصه يحتاج إلى إخلاص .

مرةً ثانية : من أخطر موضوعات الدعوة إلى ا عز وجل موضوع الإخلاص لأن النبي عليه الصلاة والسلام في حديثٍ صحيح متواترٍ يعد أصلاً من أصول الدين:

.......سمعتُ عمر بن الْخَطَّابِ رضي الله عنْه على الْمنْبرِ قَالَ سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقُولُ إِنما الأعمالُ بِالنيات وإِنما لِكُل امرِئٍ ما نَوى فَمن كَانَتْ هجرتُه إِلَى دنْيا يصيبها أَو إِلَى امرأَة ينْكحها فَهجرتُه إِلَى ما هاجر إِلَيه *

(صحيح البخاري) .

قيمة العمل تنبع من نيتك.

كما قال بعض إخوتنا الأكارم : الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن . من لم يكن له ورع يصده عن معصية ا   إذا خلا لم يعبأ ا   بشيءٍ من عمله . العمل يستوي في الظاهر وفي الباطن والرياء أن يكون الظاهر خيراً من الباطن ، والصدق في الإخلاص أن يكون الباطن خيراً من الظاهر إذا استوى الظاهر مع الباطن ، إذا استوت عبادتك في خلوتك كعبادتك في جلوتك ، إذا استوى عملك في السر كعملك في العلانية ، إذا استوى ظاهرك مع باطنك فأنت مخلص . الحد الأدنى الأساسي أن يستوي الظاهر مع الباطن ، السريرة مع العلانية ، قال بعضهم : الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الحق مشغولٌ با   عما سواه ، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقطَ من عين ا   . ولئن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتنحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين ا   .

قيل لأحد العلماء واسمه سهل التستري : أي شيء أشد على النفس. ؟ قالَ الإخلاص لأنه ليس للنفس فيه نصيب ، ليس هناك شهوة الإخلاص يرويها ، ليس هناك حظُ نفسٍ الإخلاص يحققه ، الإخلاص عبء على النفس ربما أمرك الإخلاص أن تفعلَ شيئاً مخالفاً لرغبة النفس النفس ترغب أن ترتفع الإخلاص يأمرك أن تبتعد عن مواطن الرفعة .

الإخلاص أن لاتطلب لعملك شاهداً غير ا   عز وجل . مادام ا ُ قد رآك هذا شيء كاف .ماالذي يحصل مع الناس. ؟ .الإنسان يتمنى أن يراه الناس في أحسن حالاته ، إذا صلّى صلاةً خاشعة وشعر أن الناس رأوه يبكي ترتاح نفسه معنى ذلك هو يبتغي السمعة ، إذا عمل عملاً صالحاً وشعر أن أحداً علم هذا العمل ترتاح نفسه . قال الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهداً غير ا   عز وجل ولا مجازياً سواه ، أن لاتطمع بشاهد ولا مجاز .. هذا هو الإخلاص ..

قال أحد العلماء " ما أخلص عبد قطُ أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة في قلبه وأجراها ا   على لسانه " أربعون يوماً في إخلاصٍ شديد ترى أن ا   سبحانه وتعالى أنطقك بالحكمة ، سدد خطاك ألهمك الصواب ، عمر قلبك بالإيمان ، غمَسك في سعادةٍ لا يعلمها إلا ا

قال بعض العلماء "**إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء**" ندخل في موضوع آخر ألا وهو تعريف الإخلاص ، ذكرنا آيات وأحاديث صحيحة وأحاديث قدسية وأقوال بعض العلماء عن الإخلاص وكيف أن الإخلاص هو نصف الدين ، الدين عمل وحال ، الحال الداخلي يجب أن يكون إخلاصاً   عز وجل والظاهر هو العمل.

قال : الإخلاص ، تصفية العمل من كل شائبة ، تقول هذا الحديد نسبة الشوائب فيه مرتفعة إذاً سعره متدنٍ ، قد ينكسر ، كلما قلّت نسبة الشوائب في الحديد ارتفع ثمنه ، وكلما زادت هذه النسبة قلّت قيمته.

الإخلاص تصفية العمل من كل شائبة ، قال بعضهم أن لا يمازج العمل ما يشوبه من

شوائب النفس إما طلب التزين في قلوب الخلق ، أو طلب مدحهم ، أو الهرب من ذمهم ، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم ، أو طلب خدمتهم ومحبتهم ، أو طلب قضاء حوائجه ، أو غير ذلك من العلل والشوائب أن تريد ما سوى الله بعملك.

درجات الإخلاص : الدرجة الأولى أن لا ترى لك عملاً قد يكون لك عملٌ عظيم ، و مادمت تراه لك عملاً ضخماً فهذا من عدم الإخلاص لأنك رأيت لك عملاً مستقلاً عن الله عز وجل والشيء الثابت أن العملَ الصالح بتوفيق الله وأنتَ في الصلاة تقرأ كل يوم إياك نعبد وإياك نستعين ولاحولَ عن معصية الله إلا بالله ولاقوة على طاعته إلا به.

الإنسان إذا نظر إلى عمله واستعظم عمله وعرفَ حجم عمله وباهى بعمله وألقى الأضواء على عمله ومن الناس بعمله وقال أنا فعلتُ كذا وكذا ، رؤية العمل ضخماً نوع من ضعف الإخلاص .

النبي عليه الصلاة والسلام قالَ في بعض أدعيته :

(اللهم أنا بك وإليك ، أنا قائم بك ، كل ما عندي من فضلك ، وإليك قصدي كله إليك).

هذا الدعاء : اللهم أنا بك وإليك يعني أنتَ قائم بالله ذكاؤك خبراتك أعمالك توفيقاتك إنفاقك دعوتك ... هذه كلها بالله ويجب أن تكون لله كن به وله . فإذا قلت : أنا بما عندي .. هذه قالها قارون قال إنما أوتيته على علمٍ عندي . دعاء مختصر اختصاراً شديداً . اللهم أنا بك وإليك الله سبحانه وتعالى يقول:

وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾

(سورة الإنسان) .

لولا أن الله سبحانه وتعالى سمح لك أن تكون هكذا ماكنت ، لولا أن الله سبحانه وتعالى أمدك بهذا العمل لما كنت ، لولا أن الله سبحانه وتعالى جمعك مع أهل الحق ماكنتَ هكذا ، لولا أنه أعطاك قوة وأعطاك مالاً ماكنتَ هكذا .

حينما تنظر إلى عملك فهذا ضعفٌ في إخلاصك ، أما إذا فنيتَ عن رؤية عملك ورأيت أن هذا العمل العظيم الذي أجراه الله على يديك إنما هو محض فضلٍ من الله عز وجل .... هذا بعض ما في الإخلاص من معنى .

يقول عليه الصلاة والسلام في بعضِ الأحاديث الشريفة : " **إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلقَ الفضلَ ونَسبه إليك.** "

واحد قالَ كلمة أعجبتني قال : المؤمن صفيحة ذهب فإذا ظن أنه ممتلئٌ ذهباً أُفرغت هذه الصفيحة من الذهب فبقيت صفيحة فإذا عزى الفضل إلى صاحبه وهو الله سبحانه وتعالى بقي هذا

الذهب في هذه الصفيحة وكان ثميناً جداً . يعني أنتَ بفضل ا لا بفضلك ، بقوة ا لا بقوتك ، بعلم ا لا بعلمك . ماذا قال ا عز وجل تأكيداً لهذا المعنى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١ ﴾

(سورة النور)

آية واضحةٌ كالشمس " ولولا فضل ا عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحدٍ أبداً ولكن ا يزكّي من يشاء " أخلاقك العلية الرضية صلاتك المتقنة ، تهجدك ، إقبالك ، ذكرك ، عملك الصالح ، دعوتك إلى ا ، قوة تأثيرك في الناس ، هذا فضلٌ من ا عز وجل ، فإذا رأيته منك فهذه الرؤيا فيها ضعفٌ في الإخلاص ، آية ثانية:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١ ﴾

(سورة الأعراف) .

هذا دعاء النبي عليه الصلاة والسلام.

وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧

(سورة الحجرات)

إنسان له عمل ، ا عز وجل أجرى على يده الخير ، وكان هذا العمل صالحاً ، ورأى هذا العمل من جهده ومن ذكائه فقد ضعفَ إخلاصه قال : كمن يرى أنه جميل الصورة هو لم يخلقَ نفسه .. لا .. هذا من فضل ا عليه.

الإنسان مما يضعفُ إخلاصه أن يطالب ا بجزاءٍ على عمله : يا رب هكذا فعلت يا رب ..أين الجزاء ، أين الثواب، أين رحمتك ... مثل لطيف وإن كان مبالغ به ، دائماً في الأمثلة ينبغي أن تكون الأمثلة حادةً أحياناً والقصة وقعت : إنسان ذهب ليلقي قمامته في الحاوية فإذا في الحاوية كيس أسود فيه حركة أطل على هذا الكيس وأمسكه فإذا غلام صغير ولد لتوه ... أخذه من الحاوية وتوجه به إلى مستشفى ووضعه في حاضنة واعتنى به عنايةً فائقة ثم جلبه إلى البيت وأحسن رعايته وتربيته إلى أن صار هذا المولود طفلاً وكبر الطفلُ وأدخله في أفضل دار حضانة ونقّله إلى مدرسة ابتدائية ثم إلى إعدادية وثانوية وأنفقَ عليه حتى حصلَ أعلى شهادات وصار طبيباً ولم يكتف أن يكون طبيباً أرسله إلى بلادٍ غربيةٍ وحصلَ أعلى شهادات الطب وفتح هذا الطبيب عيادةً وأقبلَ الناس عليه ونما دخله كثيراً واشترى بيتاً فخماً ومركبة فارهة وصار له اسم لامع وصيتٌ ذائع ومرةً شعر ولي نعمته الذي رباه الذي التقطه من الحاوية شعر بألم في أمعائه فتوجه إلى هذا الطبيب الذي رباه وعالجه الطبيب وشخّص له المرض ووصفَ له الدواء وخطر في بال هذا الطبيب أن يأخذَ أجراً من سيده ومولاه وربيب نعمته ، أليس تفكير هذا الطبيب أن يأخذَ أجرةً من هذا الإنسان بالذات جريمة.. ؟ ..فهذا الذي يطالب ا بجزاء عمله .. ضعف إخلاصه.

هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١

(سورة الإنسان)

يؤكّد هذا أن النبي عليه الصلاة والسلام في معركة مؤته أرسلَ إليها جيشاً وعلى رأسه زيد بن ثابت فإذا قُتلَ زيد فالقائد جعفر فإذا قُتلَ جعفر فالقائد عبد ا بن رواحة ماالذي حصل حينما دارت رحا المعركة سريعاً ماسقطَ سيدنا زيد شهيداً أخذَ الراية منه سيدنا جعفر وسريعاً

ماسقطَ شهيداً جاء دور سيدنا عبد ا   بن رواحة وكان شاعراً ورأى صاحبيه تساقطا تباعاً بسرعةٍ بالغة ... يبدو أنه تردد وقال:

يانفس إلا تُقتلي تموتي   هذا حمام الموت قد صليت
إن تفعلي فعلهما رضيت   وإن توليت فقد شقيت

ثم أخذَ الراية فقاتلَ بها حتى قُتل.

نريد من هذه القصة أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما بلغه النبأ جمع أصحابه وقالَ لهم :أخذَ الراية أخوكم زيد وقاتلَ بها حتى قُتل وإني لأرى مقامه في الجنة ، ثم أخذَ الراية أخوكم جعفر فقاتلَ بها حتى قُتل وإني لأرى مقامه في الجنة وسكتَ النبي عليه الصلاة والسلام ، فلما سكتَ النبي عليه الصلاة والسلام قلقَ أصحابه على عبد ا   بن رواحة قالوا يارسول ا   مافعلَ عبد ا   .. ؟ ..قالَ ثم أخذَ الراية أخوكم عبد ا   فقاتلَ بها حتى قُتل وإني لأرى في مقامه إزوراراً عن صاحبيه.

مرتبته هبطت درجة لأنه تردد ثلاثين ثانية ، تردد ... لافي إنفاق ماله ، لافي أن يذهب معك ليخدمك في موضوعٍ ما ، ماتردد ليستقبلك في بيته ، تردد في بذل نفسه في سبيل ا   ، ومع ذلك هبطت مرتبته درجة

لذلك .. هذا الذي يريد من ا   تعويضاً على استقامته ، وعلى إخلاصه ، وعلى عمله ، وعلى دعوته ، وعلى بذله .. إذا أردتَ تعويضاً من ا   عز وجل على عملك فهذا يقدح في إخلاصك .. هي نقطة ثانية : أنتَ في خدمة خلق ا   عز وجل لأنك عبد له.

الإنسان حينما يرضى عن نفسه ، وحينما تُعجبه نفسه ، وحينما يرتاح لها ، وحينما يثني عليها وحينما ينزهها ، وحينما يعتقد فيها العصمة ، وحينما يعتقد فيها الكمال ، هنا قد قُدح في إخلاصه .. لأن الناس جميعاً عدا النبي عليه الصلاة والسلام ليسوا معصومين ، ما من واحدٍ إلا وله نقطة ضعفٍ والدليل أن أحد التابعين رضوان ا   عليهم قالَ التقيتُ بأربعين صحابياً مامنهم واحد إلا وهو يظن نفسه منافقاً . هؤلاء أصحاب رسول ا   الذين رضي ا   عنهم والذين كانوا مع رسول ا   في السراء والضراء ، في المنشط والمكره ، الذين ذللوا الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس ، ومع ذلك قالَ أحد التابعين : التقيتُ بأربعين صحابياً مامنهم واحد إلا وهو يظن نفسه منافقاً لِعظمِ حق ا   عليهم . فإذا رضي الإنسان عن نفسه وأعجبته نفسه وأثنى على نفسه ورأى نفسه إنساناً متفوقاً .. هذا مما يقدح في إخلاصه.

أشياء ثلاثة تقدح في إخلاص الإنسان ، الشيء الثالث أن تعجبه نفسه ، أن يثنى عليه ، أن يبرئها أن لا يتهمها ، وأما السلفُ الصالح فكانوا يتهمون أنفسهم ويحسنون الظن بغيرهم ... هذه

أخلاق المؤمن إن رأيتُ قد ألمت بأخي مصيبة ٌأحسن الظن به وأقولُ هذه مصيبة رفعٍ ، وإن ألمت بي مصيبة أتهم نفسي أما العكس ... العكس غير صحيح ، إن ألمت بي مصيبة ٌأبرئ نفسي ، وإن ألمت مصيبةٌ بأخي أتهمه .. هذا ليس من الدين في شيء.

والشيء الثاني أن تُطالب الله بأجرةٍ على عملك وكأنك لاتعرفُ فضله عليك " **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً** والشيء الأول أن تلاحظَ عملك أن تكون معتداً به مفتخراً به ، عملك بارز أمامك ، تثني عليه أو تنتظر الثناء عليه.

هذه الأشياء الثلاثة تقدح في إخلاصِ العبد مع ربه سبحانه وتعالى.

الحقيقة قد نقف مشدوهين أمام عمر ثاني الخلفاء الراشدين ، سيدنا عمر عملاق الإسلام ، سيدنا عمر حينما كان مع عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما في المدينة يطوفان في أسواقها في الليل ، رأيا قافلةً قد حطت رحالها في بعض أطراف المدينة قالَ ياعبد الرحمن تعالَ نحرس هذه القافلة لوجه الله تعالى فوقفا يحرسانها يبدو أن طفلاً صغيراً بكى فتوجه عمر إلى أمه وقال ياأمة الله َ أرضعي طفلك ، بعدئذٍ بكى مرة ثانية توجه إليها وقالَ ياأمة الله أرضعي طفلك ، بكى مرة ثالثة فغضب وكان غضوباً حاداً ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول : **(الحدةُ تعتري خيار أمتي)** .

توجه إلى هذه المرأة وقالَ ياأمةَ السوء أرضعي ولدك فقالت دعنا يارجل ما شأنك بنا ..؟ ..إنني أفطمه ، قالَ ولِم تفطمينه.. ؟ ..قالت لأن عمر لايعطينا العطاء إلا بعد الفطام ، " المعاش التقاعدي .. التعويض العائلي " لايستحق عند عمر إلا بعد الفطام إني أفطمه . قال يروي التاريخ أن عمر ابن الخطاب صاح صيحة صعقَت الناس ، قال ويحك يا ابن الخطاب كم قتلتَ من أطفال المسلمين . وقال لها تعالي غداً وأصدر أمراً أن العطاء للأطفال يصرفُ عند الولادة لا بعد الفطام.

ويروي أصحابه ... أنه صلّى بهم الفجر فما استطاعوا أن يفهموا الآيات التي قرأها لشدة بكائه وكان يقول لربه : هل قَبِلتَ توبتي فأُهنئ نفسي أم رددتها فأُعزيها.. ؟ ..ولما جاءه رسولٌ من أذربيجان هذا الرسول كما تعلمون كره أن يطرقَ بابه ليلاً فتوجه إلى المسجد فإذا في المسجد رجلٌ يصلي ويبكي قالَ من أنتَ يرحمك الله .. ؟ ..قالَ أنا عمر قالَ ياأمير المؤمنين ألا تنام الليل ..؟ ..قالَ أنا إن نمتُ ليلي كله أضعتُ نفسي أمام ربي وإن نمتُ نهاري أضعتُ رعيتي .. بقي معه حتى أذّن الفجر وصلّى معه وأخذه إلى البيت وقال ماالذي أقدمك إلينا ؟ قال ياأمير المؤمنين معي هدية من عاملك على أذربيجان فتحها عمر فإذا بها طعام نفيس أكلَ لُقمة واحدة ، قالَ ياهذا هل يأكلُ عندكم عامةُ المسلمين هذا الطعام.. ؟ ..قالَ لا هذا طعام الخاصة . فقال حرام على بطنِ عمر أن يذوقَ حلوى لايطعمها فقراء المسلمين . والقصص التي تروى عن هذا الخليفة الراشد كثيرة جداً.

مرةً جاءه ملك .. جبلة ملك في الجزيرة ملك غساني جاءه مسلماً ، طبعاً رحب به وأسلم هذا الملك وطافَ بالكعبة فجاء بدوي داس طرفَ إزاره فلما داس طرفَ إزاره وهو لايدري ولا يقصد انخلع عن كتفه إزاره فالتفتَ إلى هذا البدوي الملك جبلة وضربه ضربةً هشمت أنفه هذا البدوي ليس له إلا عمر توجه إليه وقالَ ياأمير المؤمنين فلان لطمني هذه اللطمة وهشم أنفي خذّ لي الحقَ منه ، طلبه عمر في إنسان صاغ هذا الموقف صياغةً أدبيةً قال له أصحيح ما إدعى هذا الفذاري الجريح.. ؟ ..قالَ هذا البدوي قالَ جبلة لست ممن يكتم شيئاً أنا أدبتُ الفتى أدركتُ حقي بيدي ، قالَ عمر أرضي الفتى له عندك حق لابد من إرضائه مازال ظفرك عابثٌ بدمائه أو يهشمن الأن أنفك وتنالَ مافعلته كفك ، قالَ كيفَ ذاك يأمير المؤمنين هو سوقةٌ وأنا عرشٌ وتاج ، كيفَ ترضى أن يخر النجم أرضاً ، فقالَ عمر نزوات الجاهلية ... هذا الكلام نزوات الجاهلية ورياح العنجرية قد دفناها أقمنا فوقها صرحاً جديداً وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً ، فقالَ جبلة : كان وهماً ما جرى في خَلدي أنني عندك أقوى أعز أنا مرتد إذا أكرهتني ، فقالَ عمر عنُقُ المرتد بالسيف تُحز عالم نبنيه كل صدعٍ فيه بشبى السيف يداوى وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى ... هذا موقف.

ولما امتحن أحد ولاته وقالَ يافلان ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارقٍ أو ناهب قالَ أقطع يده قالَ إذاً فإن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك إن ا قد استخلفنا عن خلقه لنسد جوعتهم ونستر عورتهم ونوفّر لهم حرفتهم فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها إن هذه الأيدي خُلقت لتعمل فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً فأشغلها بالطاعة قبلَ أن تَشغلك بالمعصية.

طبعاً .... هذه بعض المواقف وله مواقف لايعلمها إلا ا كان عملاق الإسلام ليس هذا الموضوع هذا الموضوع تعرفونه ولكن علاقة هذه القصص بهذا الدرس : كيف يقول عمر ليتَ أم عمر لم تلد عمر ليتها كانت عقيمة ، كيف يقول عمر أتمنى أن أقدم على ربي لا لي ولا علي .. كيف .. لأنه كان مخلصاً .. لأنه رأى عظم حق ا عليه ، عظم حق ا عليه مهما عبده ، مهما أخلص له ، مهما بذلَ من وقته ، مهما بذلَ من جهده ، مهما بذلَ من ماله ، لايؤدي شيئاً من حق ا عليه.

هذا الذي يمن على ا عز وجل ما عرفَ ما ذاقَ طعم الإخلاص

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

(سورة الحجرات)

إذا أطلق ا لسان الإنسان بالحق إن كان مخلصاً يقول ياربي لك الحمد الذي سمحت لي أن أقولَ عنك كلاماً طيباً ، ياربي لك الحمد سمحتَ لي أن أكون من عبادك الصالحين ، ياربي لك الحمد والشكر على أن قيضت لي من يهديني سواء السبيل .. هذا المخلص ، أما الذي يدل بعمله يقول أنا فعلت ...هذا بعيد عن أن يكون مخلصاً عز وجل.

الذي يعنينا أن نكون مخلصين عز وجل في كل أعمالنا لأن ا عز وجل طيب ولا يقبلُ إلا طيباً وإن ا أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين.

ومرةً ثانية : علامة الإخلاص أن يستوي العمل في السر والعلانية في الباطن والظاهر العلامة الثانية أن يستوي المدح والذم عندك

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليتَ الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الوصل فالكل هين وكل الذي فوقَ الترابِ تراب

العلامة الثالثة ألا تطلب شهوداً على عملك إلا ا وألا تطلب الجزاء على عملك إلا ا لست محتاجاً لمن يشهد لك عملك .. أحدهم ذهب إلى المسجد عنده مال وينوي أن يذهب إلى الحج فقال أدخل المسجد وأتفحص وجوه المصلين أيهم كان أشد خشوعاً أدفع له هذا المال وقف في زاوية وتأملَ وجوه المصلين فرأى أحدهم يعصر نفسه ويغمض عينيه ويتطامن أعجبه خشوعه فتوجه إليه بعد الصلاة وقال أنا وا ـ أحببت صلاتك ومعي مالٌ أريد أن أودعه عندك لأنني ذاهب إلى الحج قالَ له وأنا أيضاً صائم سيدي فقال له صيامك لم يعجبني.

أنا ألبي رغبة كل إخواننا يصر بعضهم ألايدفع مبلغاً للمسجد حتى توضع رخامة باسمه ، المحسن الكبير فلان الفلاني . أنا أعاني هذا .. لايقبل إلا بلوحةٍ عليها اسمه .. هذا ضعفٌ في الإخلاص ، ا عز وجل رآك ماذا فعلت وعلم فعلك وما تفعل من خيرٍ يعلمه ا .

العلامة الرابعة : أن تؤثره على كل ما سواه ، العلامة الخامسة : الخلق كلهم عنده سواسية وا سبحانه وتعالى هو قصده ومبتغاه.

والحمد رب العالمين

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون .... مع الدرس السادس من دروس جامع العثمان ، نـدخل الآن في موضوعٍ جديد أو منزلة جديدة من منازل إياك نعبد وإياك نستعين ولاأبالغ إذا قلت إنها من أرقى المنازل ، إنها منزلة العلم .

ا سبحانه وتعالى ما اعتمد في قرآنه الكريم إلا قيمة العلم ، هناك قيمة المال وقيمـة القوة وقيمة الصحة وقيمة الغنى وقيمة الجمال كل هذه القيم ما اعتمدها ا عز وجل للترجيح بين خلقه، لكن قيمة العلمِ وحدها كانت معتمدةً في القرآن الكريم حيث قال ا عز وجل :

أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾

(سورة الزمر)

إنها من أرقى المنازل ...هذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدمٍ يضعها علـى طريق الإيمان حتى تنتهي به الطريق فهو على غير طريق .. إن شـبهنا طريـق الإيمـان بطريق معبدة وطريق غير الإيمان : طريقٌ ترابية فما لم يعتمد سالك طريق الإيمـان العلـم والعلم وحده فهو على غير الطريق .

.. يجب أن نؤمن أن هناك طريقاً إلى ا ليس هناك طريقٌ أخرى إنها طريقُ العلم لأن ا سبحانه وتعالى يقول مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام يقول :

فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

(سورة طه)

ماقالَ زدني مالاً ، ولا زدني شأناً ، ولا زدني وجاهةً " ، **وقل ربي زدني علماً** " .

الإمام الجنيد من كبار أئمة الدين مشهود له بالعلم والفضل له كلمـةٌ دقيقـة يقـول : الطرقُ كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار رسولَ ا صلى ا عليـه وسـلم . يعني أي طريق إلى ا عز وجل دون أن تقتفي أثر النبي عليه الصلاة والسلام هذه الطريـق ليست سالكة إنها مسدودة . ويقولُ أيضاً : مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنّة .

أنتَ معك كتاب ومعك سنّة ، هما منهجاك إلى ا عز وجل . توزن أفعالك وأحوالك بالسنة ، هذا الفعل مطابقٌ للسنّة ، أقره النبي ، فعله النبي ، أم لم يفعله يجب أن تتخـذ مـن السنّة ميزاناً لأفعالك.

هذا الشعور بأنني غير هؤلاء الناس ، أنا فوقهم ، هذا الشعور سوي ..؟.. هذا الشعور صحي ؟ أم شعور مرضي ..؟.. يجب أن تزين أفعالك وأحوالك بالكتاب والسـنّة ، إذا كنـتَ حريصاً على آخرتك إذا كنتَ حريصاً على سعادتك ، على نجاتك .

كيف تزين أفعالك وأحوالك بالكتاب والسنّة إن لم تعرف الكتاب والسـنّة ..؟.. همـا الميزان.

فمعرفة الكتاب والسنّة شرطٌ أساسي لتستخدم هذا الكتاب والسنّة ميزاناً فـي أفعالـك وأحوالك

ومن لم يتهم خواطره فلا يعد في ديوان الرجال ، يعني ما كلُ خاطرٍ يأتيـك حـق ، ماكلُ خاطر يرِد عليك موافقٌ للكتاب والسنّة ، يجب أن تزين الخواطر ، أن تزين الأقـوال ، أن تزين الأفعال ، أن تزين الأحوال ، الأفعالُ والأحوالُ والأقوالُ والخواطر ، و من شروط التوبة العلم. كيف تعرفُ أن هذا ذنب ..؟.. كيف تتوب من ذنبٍ لاتعرفه ذنبـاً .. مسـتحيل إنسان يتوب من ذنب لايعرفه أنه ذنب .

أولُ مرحلة من مراحل التوبة العلم ، أن تعلم الحلال والحرام ، مايجوز وما لايجـوز ، ما ينبغي وما لاينبغي ، ما يصح وما لايصح ، ما هو مقبول عند ا وما هو غير مقبول.

يقول بعض العلماء " كل فعلٍ يفعله العبد بغيرِ اقتداء فهو عيش النفسِ "، إما أن تكون مع رسول ا وإما أن تكون مع هواك ، إذا فعلت ، تصرفت ، فكرت ، جاءتك الخـواطر ، جاءتك المشاعر ، ولم تزنها بالكتاب والسنّة فهذه من رعونات النفس ومن حظوظ النفس ... جهتان لاثالثَ لهما : إما أن تكون مع الكتاب والسنّة مع منهج ا عز وجل وإما أن تكون مع هواك . فكل فعلٍ يفعله العبد بغيرِ اقتداء فهو عيش النفسِ ، .. أنتَ مع حظوظ نفسـك ، مـع رعونات نفسك، مع مطالبِ نفسك . ويقول بعض العلماء : من عملَ عملاً بـلا اتبـاعِ سـنّة فباطلٌ عمله .

يتضح من هذه الأقوال أنه لابد من معرفة السنّة ، لابد من قراءة سـيرة النبـي عليـه الصلاة والسلام ، لأن كل موقف من مواقفه وكل تصرف من تصرفاته إنما هو تشريع لنـا ،

فأقواله وأفعاله وأحواله وإقراراته هذه كلها العلم بها فرض عين لأنها المنهج .

قالَ بعضهم : الصحبة مع ا عز وجـل بحسـن الأدبِ ودوام الهيبـة والمراقبـة ، والصحبة مع رسول ا باتباع سنّته ولزومِ ظاهر العلمِ ، والصحبة مع أوليـاء ا بـالاحترام والخدمة ، ومع الأهل بحسن الخلق ، ومع الإخوان بدوام البشر ، ومع الجهال بالـدعاء لهـم بالرحمة ، ومع الحافظين بإكرامهما واحترامهما ، ومع النفسِ بالمخالفـة ، ومـع الشـيطان بالعداوة .

قالَ بعضهم : من أمر السنّة على نفسه قولاً وفعلاً نطقَ بالحكمة ومن أمـر الهـوى قولاً وفعلاً نطقَ بالبدعة ، إذا أمرتَ الهوى وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ، يؤكـد هذا قول ا عز وجل:

﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾

(سورة النور)

آيةٌ قطعية الدلالة " **إن تطيعوه تهتدوا** " ، يعني طاعة النبي عليه الصلاة والسلام هي الهدى.

بعضهم قال : العلم قائد والخوفُ سائق ، الخوف يدفعك إلى بابِ ا والعلم يقودك إلى ا ، والنفس حرون بين ذاك وذاك ، النفس حرون وجموح وخداعة ورواغة فاحذرها وراعها بسياسة العلم وسقها بتهديد الخوف يتّم لك ما تريد .

الإنسان إذا قاده العلم إلى ا أراحه ا من المصائب فإن لم يقده العلم إلى ا سـخّر ا له بعض المصائب كي تدفعه إلى باب ا يعني إما أن تأتيه طوعاً وإما أن تأتيه كرهـاً ، إما أن تأتيه بدافعٍ من إيمانك به وإما أن تأتيه بدافعٍ من خوفك منه ، إن أتيته بدافعٍ من إيمانك هذا أرقى لك عند ا عز وجل من أن تأتيه بدافعٍ من خوفك .

وكما يقول بعض العلماء " صيدلية ا عز وجل أدويتها كثيرةٌ جداً جداً جداً .. مـن ملايين الأبواب يمكن أن تصبح الحياة جحيماً لا يطاق، لذلك الإنسان حينما يقـوده العلـم ا سبحانه وتعالى يطمئنه فإذا اطمأن على جهله واطمأن على انحرافه عندئذ يدفعه الخوف إلـى باب ا عز وجل .

بعضهم يقول : مالنا وللعام ، نحن نأخذُ علمنا من الحي الذي لايموت وأنتم تأخذونـه من حي يموت ، علمنا من ا مباشرةً وعلمكم من أشخاصٍ يموتون ، علمنا علم نبعٍ وعلمكـم

علم جمع.

قيلَ لأحدهم ألا ترحلوا حتى تسمع من عبد الرزاق فقالَ وما يصنع بالسماع من عبـد الرزاق من يسمع من الخلاّق .

هناك أشخاص يحتقرون معرفة الكتاب والسنّة ، ما أفعل بهذا ؟ أنا لي مشرب مباشـر من ا عز وجل أستقي منه علمي.

هناك من يقول إن هذا الكلام جهلٌ وكلام شيطاني فلولا هؤلاء الذين نقلوا لك أحاديثَ رسول ا صلى ا عليه وسلم هل كنتَ تعرف سنّته ، هذه العبادات التي بينها النبي وفصلّها أنّى لك أن تعرفها لولا أنها نُقلت إليك ورويت لك . فهذا الذي يقول أنا أستغني عن كل علـمٍ ظاهري وأنا قلبي موصولٌ با عز وجل هذا كلام غير صحيح .

لذلك قالوا : من أحالك على غير من " أخبرنا وحدثّنا " فقد أحالك إمـا علـى خيـال صوفيٍ أو على قياسٍ فلسفيٍ أوعلى رأيٍ نفسي . أنتَ ماذا تريد ..؟.. تريد دين ا عز وجل تريد شرعه تريد قرآنه تريد سنّة نبيه فإذا ألغيتَ الكتاب والسنّة أنتَ مع من ..؟.. مع خيـال مع طيف مع تجاوز مع قياس فلسفي مع رأي نفسي وأنتَ لستَ مع الكتابِ والسنّة وا سبحانه وتعالى يقول :

فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾

(سورة يونس)

هناك علم وهناك حال ، العلم أن تعرف ا عز وجل ، أن تعرف ربوبيته ، أن تعـرف ألوهيته ، أن تعرف وحدانيته ، أن تعرف أسماءه الحسنى ، أن تعرف صفاته الفضلى، هذا هو العلم ، أن تعرف أمره ونهيه ، أن تعرف حدوده ، أن تعرفَ في كل موقف ماذا ينبغي لك أن تفعل ، هذا هو العلم . وأما الحال أن تشعر بمشاعر مسعدة .

أيهما خير العلم أم الحال ..؟.. أجابوا عن هذا السؤال بأن نفع الحال لايتعدى صـاحبه هو مسرور وحده ، لكن ربنا عز وجل قال:

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾

(سورة النحل)

بين أن تكون في قلوبِ الآلاف بين أن يكون أثرك في قلوبِ المئات والآلاف المؤلفـة

بين أن يكون علمك قد انتشر بين الناس كلهم فاستفادوا منه ، وبين أن تستمتع وحدك ولا أحد معك بهذا الحال.

فقالوا : الحالُ لايتعدى صاحبه ، أما العلم كالغيث يقع على الوديان والآكـام ومنابـت الشجر، العلم عام بينما الحال خاص ، خاص بك وحدك لاينتقل إلى أهلك ولا إلى أولادك ولا إلى جيرانك ولا إلى أية جهة أخرى ، لكن العلم نفعه عميم . ويقولون أيضاً : دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة أما دائرة الحال تضيق عن غير صاحبها وربما ضاقت عنه .

سمي الحالُ حالاً لأنه يتحول ... ليس مضموناً ليس ثابتاً لاتستطيع أن تنقله للآخرين و لاتستطيع أن تصرفه ولا يمكن أن تبيعه ولا أن تقدمه شيء خاص بك ، لكن الـذي يـتعلم يؤتيه ا حالاً لأن الحال ثمرة من ثمار طاعة ا عز وجل . إذا أطعته طاعة تامـة " : **مـن عملَ بما علم أورثه ا علم مالم يعلم** " .

إذا أطعتَ ا عز وجل في كل شؤونك ، في كل حركاتك وسكناتك ، عندئذ يتوج ا لك هذه الطاعة بحالٍ طيب تسعد به أما إذا بحثتَ عن الحال وحده وسعيتَ إليه وأهملـتَ مـا سواه من العلم والمعرفة والعمل فهذا الحال لاينفعك ولا يغنيك من ا شيئاً .

ويقولون أيضاً : العلم هاد والحال الصحيح مهتدي به ، كلّ إنسان إذا حقق هدفه يشعر بحال مسعدة حتى أن اللص لو سرقَ مالاً كثيراً ورأى أن هذا العمل عاد عليه بمبلـغ كبيـر يشعر بنشوة .

الحال في تعريفه الدقيق : حينما تصبو إلى شيء وتحققه تشعر براحة ، هذه الراحـة ميزانها .... العلم . إذا صبوتَ إلى حق وحصلّته وارتحتَ مع الحق فالعلم يقول لك هذا حال طيب أما إذا فعلتَ شيئاً منكراً وحققته بالتمام والكمال وشعرت براحة الإنجاز ... هذا الحـال غير صحيح هذا حال غير حالَ أهل الإيمان .

يعني انتَ بالعلم تعرف ما إذا كان هذا الحال رحمانياً أو شيطانياً ، أما أن يأتي الإنسـان حالة سرور هذه ممكنة ، إذا جاءت حركتك اليومية موافقةً لمهمتك تشعر براحة ، إذا سافرت إلى بلد أجنبي لتعقد صفقة رابحة ورأيت البضاعة مناسبةً وسعرها مناسباً جداً ووقعتَ العقد ، ساح خيالك بالأرباح الطائلة التي سوف تجنيها من هذه البضاعة تشعر براحة كبيرة ، تشـعر بسرور ، هذا السرور يقيم ... بالعلم .

والعلم تَرِكةُ الأنبياء وتراثهم ، الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً ولكن ورثوا هذا العلم فمن أخذَ منه أخذَ بحظ وافر .

العلم تراثُ الأنبياء ، والذي يتعلم العلم هو من أهلهم ومن عصبتهم ومـن مـراتهم ، سلمان منّا آلَ البيت ، نعم العبد صهيب لو لم يخف ا يعصه ، من هم أهل ا ..؟.. الـذين تعلموا القرآن وعرفوا عظمته وعرفوا أحكامه ، العلم حياة القلوب ، القلب لا يحيا إلا بالعلم ،

العلم نور البصائر ، الله عز وجل سمى كتابه نوراً مبيناً ، العلم شفاء للصدور ، إذا عرفـتَ هذا الحكم ، إذا عرفتَ أن هذا العمل يرضي الله .. هذا لايرضيه .. تشعر براحـة ، مـادام عملك يقع موافقاً لمنهج الله عز وجل هناك راحة كبيرة ، العلم رياض العقول ، الإنسان عقـل ونفس وجسد ، العقل غذاؤه العلم ، والجسد غذاؤه الطعام والشراب ، والقلب غذاؤه الحب فإذا لم تتعلم حصل هناك .. عرج.. اختلال في التوازن ، العلم لذّةُ الأرواح من ذاقه عرف ما من شيء أحب إلى المؤمن من مذاكرة العلم ، العلم أُنس المستوحشين ، العلم دليل المتحيـرين ، العلم هو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال ، العلم هو الحاكم المفـرق بـين الشك واليقين والغي والرشاد والهدى والضلال ، بالعلم يعرفُ الله ، بالعلم يعبـد الله ، بـالعلم يذكر الله ، بالعلم يوحد الله ، بالعلم يحمد ، بالعلم يمجد ، بالعلم اهتدى إلى الله السالكون ، من طريق العلم وصلَ إليه الواصلون ، من باب العلم دخلَ عليه القاصدون .

أنا أقول لكم ما من عملٍ والله الذي لا إله إلا هو أجل وأعظم وأخطر في حيـاتكم مـن طلب العلم ، وأي علمٍ هذا ..؟.. معرفة الله عز وجل ، وكيف تعرف الله عز وجل ..؟.. يجب أن تعرف القرآن الله عز وجل يقول :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

الكتاب يعدل خلقَ السماوات والأرض ، الكون كله في كفة والكتاب في كفة ، لذلك إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالبِ العلم رضىً بما يصنع ، بالعلم تُعرف الشرائع والأحكام ، بالعلم تميز الحلال من الحرام بالعلم تصل الأرحام ، بالعلم تعرف مراضي الحبيب ، بـالعلم تكـون إلى الله قريب ، العلم هو كل شيء ، الطريق السالك الوحيد إلى الله عز وجل أن تعلـم ، أن تعرفه ، أن تعرف كتابه ، أن تعرفَ سنّة نبيه ، أن تعرف الأحكام الشرعية ، أن تعرف سيرة سيد المرسلين ، لذلك حينما تتكشف الحقائق وحينما يكشف الغطاء لايندم الإنسان فـي حياتـه كلها إلا على ساعة مضت لم يتعرف إلى الله فيها ، وقلت لكم دائماً إن أبواب الدنيا مغلّقة ولا تدخلها إلا بمبلغٍ كبير لكن أبواب الحق مفتّحة لكل داخل وبلا أجر وبلا صعوبات وبلا عقبات .

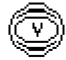
العلم إمام والعمل مأموم ، لايمكن أن يصح عملك إلا إذا صح علمـك ، لايمكـن أن يصلح عملك إلا إذا صلحت عقيدتك ، العلم إمام والعمل مأموم ، العلم قائد والعمـل تـابع ،

العلم هو الصاحب في الغربة إذا كنت في مكانٍ غريب ومعك شيء مـن كتـاب ا فـاقرأه تدرسه تحدث به الصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة والأنيس في الوحشة والكاشف عـن الشبهة .

واحد أقرض إنساناً مبلغاً من المال لشراء بيت ، صاحب البيت قال له سأعطيك أجرة إن ساهمتَ معي في شراء هذا البيت ولك هذه الأجرة ، أخذها وفرح بها فحينما انتهـت مـدة القرض أعاد المبلغ إلى صاحبه وقطع عنه الأجرة . هو أكل الربا وهو لايدري .. هذه الشُبهة شُبهة أنها أجرة ..لا .. هذا ربا أما الأجرة أن تتملك هذا البيت وتأخذ أجرة حصتك منه فـإذا أردتَ أن تسترد ثمن حصتك يقيم البيتُ تقييماً جديداً وإذا هلك البيت فعليك لا علـى سـاكنه فالعلم يكشف لك الشبهات، والغنى الذي لافقر على من ظَفر بكنزه بعده ، والكنـف الـذي لا ضيعةَ على من آوى إلى حرزه ، هو غنىً وملجأ ، مذاكرته تسبيح ، البحثُ عنه جهاد ، حينما تأتي من مكانٍ بعيد لتتعلم العلم الصحيح فهذا السير إلى هذا المكان أو إلى أي مكان آخر جهاد ، طلبه قُربى ، بذله صدقة ، بذله ومدارسته تعدل بالصيام والقيام ، والحاجة إليه أعظـم مـن حاجتك إلى الطعامِ والشراب .

الإمام أحمد يقول : الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعامِ والشراب لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشرب في اليوم مرة أو مرتين أما حاجته إلى العلم بعدد أنفاسه ، إن الرجلَ يتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً .. كلمة .. نظـرة .. نظـرةٌ فيهـا عدوان وكلمةٌ فيها سخرية ونظرة فيها استهزاء ومشاعر شيطانية ماالذي يكشف لك هـذا ..؟ العلم .

الإمام الشافعي رحمه ا تعالى يقول: طلب العلم أفضلُ من الصلاة النافلـة . وأبـو حنيفة يرى هذا الرأي . وقالَ ابن وهبٍ : كنتُ بين يدي الإمام مالك رضي ا عنه فوضعت ألواحي يعني دفاتري وقمت لأصلي فقال الإمام مالك إمام دار الهجرة : ماالـذي قمـت إليـه بأفضل مما قمتَ عنه ..؟..

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَـٰبَ مِنۡهُ ءَايَـٰتٌ مُّحۡكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٲسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَـٰبِ 

(سورة آل عمران)

في بعض الآراء يجوز أن نقف عند قوله تعالى " **والراسخون في العلـم** " بـل الـرأي المتوازن أنك أردتَ بتأويل الآيات المتشابهات أو الآيات التي تتحدث عن ذات الله عز وجـل يجب أن تقف عند " **ومايعلم تأويله إلا الله** " أما إذا أردتَ القرآن الكريم ماهو واضح الدلالـة لك أن تقول وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم .

العلم كما نُقلَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث المعروف يحمل هذا العلـم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وتأويل المبطلين ، تحريف الغالين:

قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِى دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٍ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

(سورة المائدة)

هناك من يغلو في الدين ، فالعلماء الصادقون ينفون عن العلم تحريف الغالين وتأويل المبطلين . هو حجةُ الله في أرضه ونوره بين
عباده وقائد العباد إلى الله عز وجل ودليلهم إلى جنته ويكفي من شرفه أن فضلَ أهلـه علـى العباد كفضل القمر ليلة البدرِ على سائرِ الكواكب ، فضلُ العالم على العابد كفضل القمر ليلـة البدرِ على سائرِ الكواكب .

ولقد رحلَ كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام في طلب العلم هو وفتاه حتى مسـهما النصب في سفرهما في طلبِ العلم حتى ظَفر بثلاث مسائل وهو من أكرم الخلـق علـى الله وأعلمهم. ويكفي شرفاً لمن يطلب العلم أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه الكريم فقال : **وقل ربي زدني علماً** لكن العلم نوعان : نوع جلي ونوع خفي .

النوع الجلي على أنواعٍ ثلاثة أحدها علم تتعلمه بالحواس الخمس سماه بعض علمـاء العقيدة: اليقين الحسي ، أنتَ ترى بعينك هذه المصابيح متألقة وهذا المسجد نظيف أنتَ تُحـس أن هذا الجو معتدل تسمع أن هذا الصوت صوت فلان ، هناك معارف جلية تتوارد إليك عـن طريق الحواس هذه سماها العلماء اليقين الحسي ، وهناك معارف تتوارد إليك عـن طريـق التعلّم ، طريقة السمعيات أن تلقي السمع .

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾

(سورة ق)

فالأذن مسلك من مسالك العلم ، يعني إما أن تتأمل وإما أن تأخذَ الحقـائقَ جـاهزة ، والنوع الثالث هو العلم الذي يأتيك عن طريق الإستدلال العقلي وهذا يسـمى أيضـاً اليقـين الإستدلالي ، فيقين إخباري ويقين إستدلالي ويقين حسي ، يقين حسي عن طريـق الحـواس الخمس ، يقين إستدلالي عن طريق العقل ، يقين إخباري عن طريق الأذن ، رأيتُ أو سمعتُ أو فكرتُ ، حتى أن بعض المفسرين يقول : إذا جاءت كلمة الفؤاد بعد السمع والبصر فإنمـا تعني الفكر ،

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

(سورة الإسراء)

عندك علم جلي وعلم خفي ، العلم الجلي ماجاءك عن طريق الملاحظـة عـن طريـق الحواس الخمس أو ما جاءك عن طريق السماع أو ماجاءك عن طريق الإستدلال العقلي وقـد يأتيك العلم عن طريق المشاعر وقد يأتيك عن طريق الإستنباط أو عن طريق الإستنتاج هناك طرائق كثيرة يأتيك العلم منها هذا هو العلم الجلي الذي قالَ عنه النبي عليه الصلاة والسلام : " **من عملَ بما علـم** "، تعلمت من مجلس علمٍ أن النظرة إلى النساء محرمة ، تعلمت في مجلس العلم أن نقلَ الكلام إلى جهة قيلَ الكلام فيه نميمة وهذا محرم هذا إذا عملتَ بما علمت .

الآن : علمك ا علم مالم تعلم ، قال والعلم الثاني هو العلم الخفي علم القلب والحديثُ عنه شيق ، العلم الجلي يحتاج إلى مدارسة يحتاج إلى مطالعة يحتاج إلى حفـظ يحتـاج إلـى سماع لكن إذا طبقّتَ كل ماعرفته عن ا عز وجل هناك شيء ثمين جداً يتوارد إليك .

قال : هذا العلم الخفي ينبت في القلوب الطاهرة .. من بعض معاني هذه الآية :

لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾

(سورة الواقعة)

هذا العلم الخفي الذي يكرم ا به بعض العباد هذا ثمنه القلب الطاهر ، عبدي طهـرتَ منظر الخلق سنين أفلا طهرتَ منظري ساعة .؟. ما هو منظر ا عز وجل ..؟.. هو القلب :

يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾

(سورة الشعراء)

هذا العلم لاينبت إلا في القلوب الطاهرة التي في الأبدان الزكية ، معنى الزكية التي مـا أكلت حراماً قط ، (ياسعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، قلب طاهر نقي علـى بـدنٍ زكي) .

غُذي بالحلال ما أكلَ حراماً . وهذا العلم يحتاج إلى رياضـة خالصـة ، الرياضـة تدريبات شاقة من ذكرِ عز وجل من صلاة النوافل من قيام الليل من تلاوة القرآن من خدمة الخلق هذه سماها بعض علماء القلوب الرياضة قلب طاهر وبدن زكي ورياضة خالصة وهمةٌ علية وأسماع صاغية هذه بعض شروط العلم الخفي الذي نوه به النبي عليه الصلاة والسـلام فقال " : **من عملَ بما علم أورثه ا علم مالم يعلم** " هذا معنى قوله عز وجل " **واتقوا ا** "

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

(سورة الأنفال)

مالفرقان ..؟.. النور ، هذا النور يقذفه ا في القلب وثمنه تقوى ا عز وجل ، وتقوى ا طاعته ، إن تطيعوا ا عز وجل يقذف ا في قلوبكم نوراً ترون به الخير خيراً والشـر شراً .

هذا العلم الخفي يسميه العلماء تارة المعرفة ويسميه العلماء تارةً الإلهام ويسميه العلماء تارةً البصيرة ويسميه تارة الحكمة ، فالحكمة والبصيرة والإلهام والمعرفة أسماء لمسمى واحد .

إما أن يكون العلم كسبياً أو إشراقياً ، العلم الكسبي ثمنه المدارسة وثمنه طاعة ا عز

وجل ، أما العلم الإشراقي هو الذي سنتحدثُ عنه قليلاً في هذا الدرس .

طبعاً .. كما قلتُ قبل قليل قلب فيه غلّ فيه حقد فيه حسد فيه كبر فيه استعلاء هذا القلب لن يقذف ا به نوراً أبداً ، لن يتجلى عليه أبداً ، لن يتحفَ صاحبه بمعرفة إشراقية ، أبداً ... طهر قلبك ليكون بيتَ الرب ، طهر قلبك ليكون أهلاً أن يقذف ا به نوراً .

الأبدان الزكية ، استقم في عملك المال الذي في حوزتك هذا من كسبك كيف كسبتَ هذا المال..؟.. هل كسبتَ هذا المال من طريق مشروع أو غير مشروع ..؟.. إذا كان كسب المال مشروعاً والقلب طاهراً والبدن زكياً ، هل تقربتَ إلى ا بالنوافل :

....عنْ أَبِي هرَيْرةَ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله علَيْه وسلم إِن الله قَالَ منْ عادى لِي وليا فَقَدْ آذَنْتُه بِالْحرْبِ وما تَقَرب إِلَي عبْدي بِشَيْء أَحب إِلَي مما افْتَرضْتُ علَيْه وما يزالُ عبْدي يتَقَرب إِلَي بِالنوافلِ حتى أُحبه فَإِذَا أَحْبَبْتُه كُنْتُ سمْعه الذي يسْمع بِه وبصره الذي يبْصر بِه ويده التي يبْطشُ بِها ورِجْلَه التي يمْشي بِها وإِنْ سأَلَني لأُعْطينه ولَئِنِ اسْتَعاذَني لأُعيذَنه وما تَرددْتُ عنْ شَيْء أَنَا فَاعلُه تَرددي عنْ نَفْسِ الْمؤْمنِ يكْره الْموْتَ وأَنَا أَكْره مساءتَه *

(صحيح البخاري)

من كانت له هذه الرغبة الجموح وهذا الإلحاح الصادق في أن يصلَ إلى شيء من العلم الخفي الذي عبر ا عنه بالحكمة تارةً وبالبصيرة تارةً وبالمعرفة تارةً وبالإلهام تارةً ، إذا أردت هذا العلم فدونك الثمن قلب طاهر بدن زكي رياضةٌ خالصةٌ عز وجل ، لا ليعرف الناس أنك صليتَ قيام الليل ، لا ليعرف الناس أنك أحسنتَ إلى فلان ، .. لا .. رياضةٌ خالصةٌ ِ عز وجل وبعد هذا وذاك همةٌ علية ، المنافقون وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، وأسماع صاغية يعني عندئذ يسمعك ا عز وجل ما لا يسمع الآخرين ، يريك ما لا يري الآخرين .

قال ياصاحب رسول ا نافقت ، قالَ كيف ذلك ياحنظلة ..؟.. قال : أكون مع رسول ا ونحن والجنة كهاتين فإذا عافسنا الأهلَ ننسى قالَ انطلق بنا إلى رسول ا ، ماذا قالَ عليه الصلاة والسلام :

......سمع أَبا هرَيْرةَ يقُولُ قُلْنَا يا رسولَ الله إِنا إِذَا رأَيْنَاك رقتْ قُلُوبنَا وكُنا منْ أَهْلِ الآخرة وإِذَا فَارقْنَاك أَعْجبتْنَا الدنْيا وشَممْنَا النساء والأَوْلاد قَالَ لَوْ تَكُونُون أَوْ قَالَ لَوْ أَنكُمْ تَكُونُون علَى كُلِّ حالٍ علَى الْحالِ التي أَنْتُمْ علَيْها عنْدي لَصافَحتْكُم الْملائِكَةُ بِأَكُفهِمْ ولَزارتْكُمْ في بيوتكُمْ ولَوْ لَمْ تُذْنبوا لَجاء الله بِقَوْمٍ يذْنبون كَيْ يغْفر لَهمْ ....*

(مسند الإمام أحمد)

قلب سليم من البغضاء من الحسد من التعالي من الكبر من الأنانية ، بدن زكي من المال الحرام مطهر كسب حلال ، رياضةٌ خالصة همةٌ علية آذان صاغية ، عندئذ تنالُ شيئاً من هذا

العلم الخفي الذي خص الله به أحبابه .

قالَ : همةُ الأنبياء تعلّقت في شيئين ، تعلّقت بالعلي الأعلى وهو الله سبحانه وتعـالى وتعلّقت بصلاح الخلق كلما ارتقت مرتبتك اتسعت دائرة اهتمامك.

مثل حسي : إصعد إلى هذا الجبل كلما صعدت مسافة اتسعت دائرة الرؤيا فإذا وصلتَ إلى قمة الجبل رأيتَ دمشقَ كلها . كلما ارتفعتَ نحو الأعلى اتسعت دائرة الرؤيا وكلما ارتقيت إلى الله عز وجل اتسعت دائرة اهتمامك وكلما هبطت المرتبة ضاقت دائرة اهتمامك . أجـد طعامي وشرابي وبيتي وأهلي وأولادي فأنا بخير وعلى الدنيا السلام ، أما النبي عليه الصـلاة والسلام قال:

.....عنْ أَبِي ذَر قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله علَيْه وسلم إِني أَرى ما لا تَروْن وأَسْمع ما لا تَسْمعون أَطت السماء وحق لَها أَنْ تَئِط ما فيها موْضع أَرْبع أَصابِع إِلا علَيْه ملَك ساجِد لَـوْ علمْتُم ما أَعْلَم لَضحكْتُمْ قَليلا ولَبكَيْتُمْ كَثيرا ولا تَلَذذْتُمْ بِالنساء على الْفُرشَات ولَخَرجْتُمْ علَـى أَوْ إِلَى الصعدات تَجْأَرون إِلَى الله قَالَ فَقَالَ أَبو ذَر والله لَوددْتُ أَني شَجرةٌ تُعْضد *

(سنن الترمذي)

"قال : اللهم إهد قومي إنهم لايعلمون " .

فإذا لم تشعر بعاطفة نحو كل مخلوق فالمرتبة مضطربة.

الإلهام هو ما يعنيه العلم الخفي .. الإلهام هو فهم خاص ، هو ثمـرة مـن ثمـرات العبودية لله عز وجل ، الإلهام جزاء الصدق مع الله .

الإلهام كما ورد في قول الإمام علي كرم الله وجهه حينما سئل هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء دون الناس ياآل بيته.؟. فقال الإمام علي كرم الله وجهه .. لا .. ما خصنا بشيء ، والذي فلقَ الحب وبرأ النسمة إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

(سورة يوسف)

هذا عطاء عظيم أن تفهم كتاب الله ، أن تفهم حقيقة الآيات مراميها البعيدة مـدلولاتها الصحيحة ، هذا شيء عظيم جداً ... من العلم الخفي الذي يعد نتيجةً لتطبيق العلم الجلي .

كل هذا الدرس وإلى دروسٍ كثيرة إن شاء الله محور هذه الدروس " : **من عملَ بمـا**

علم أورثه الله علم ما لم يعلم ". لا تطمع بهذه المعرفة، لا تطمع بهذا الإلهام ، لاتطمع بهـذه البصيرة، ولابالحكمة ، إلا إذا دفعتَ الثمن والثمن أن تتعلم العلم الجلي وأن تُطبقـه ، أحكـام الصلاة ، أحكام الصيام ، أحكام الحج ، أحكام البيوع ، أحكام الـزواج ، أحكـام الطـلاق ، العارية ، الوكالة ، الكفالة، هذه العلاقات الإجتماعية لابد من أن تكون وفقَ الشرع ، إذا طبقتَ الشرع من الله عليك بشيء آخر .

هذا العلم الخفي يسمى بصيرة ، والدليل قول الله عز وجل :

قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

(سورة يوسف)

فكل من يدعو إلى الله عز وجل بلا بصيرة فهو في نص هذه الآية غير متبع لرسـول الله ، " **أدعو إلى الله على بصيرة** " إذا كنتَ متبعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيجـب أن تدعو على بصيرة .

معنى بصيرة أن تعرف المراد أن تعرف فكرة دقيقة عن فلسفة الوجود عن سر الحياة عن سر وجود الإنسان في الدنيا .... هكذا يقولون نظرية الكون والحياة والإنسان ، أين كنـت إلى أين المصير ، ما جدوى الحياة الدنيا ما أفضل شيء تفعله في الدنيا ... هذه البصـيرة . أما الحكمة فلنا عندها وقفةٌ متأنية ... الحكمة يقول الله عز وجل:

يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

(سورة البقرة)

بنص القرآن الكريم " **ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً** " قال الحكمـة فـي كتاب الله نوعان : قد تأتي مفردةً وقد تأتي مع الكتاب :

رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

(سورة البقرة)

إن جاءت مفردةً فلها معنى وإن جاءت مع الكتاب فلها معنى آخر ، قال الحكمة منفردة هي النبوة أو هي علم القرآن أو هي كما قال ابن عباسٍ رضي ا عنهما علم القرآن ناسـخه ومنسوخه محكمه ومتشابهه مقدمه ومؤخره حلاله وحرامه وأمثاله .... الحكمة منفردة النبوة ، أن يعلمك ا القرآن بكلّ ماتعني هذه الكلمة . وقال الضحاك الحكمة هي القرآن والفهم فيـه ، وقال مجاهد هي القرآن والعلم والفقه ، وقالَ بعض العلماء : هي الإصابة في القول والعمل . أن يأتي قولك صحيحاً مصيباً وعملك صحيحاً مصيباً ، وقال بعض العلماء : " هي معـاني الأشياء وفهمها "، وقال الحسن : الورع في الدين .. هذه مؤداها .

أما إذا جاءت الحكمة مع الكتاب فتعني السنّة " ، **يعلمهم الكتاب والحكمة** " أي السـنّة لأن ا عز وجل يقول :

مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾

(سورة الحشر)

ا سبحانه وتعالى بين أن النبي عليه الصلاة والسلام من مهمته الأساسـية أن يبـين للناسِ ما نُزلَ إليهم ، فحيثُ ما جاءت الحكمة مع الكتاب فهي السـنّة . كـذلك قـال الإمـام الشافعي : أجمل ما قيل في الحكمة هو قول الإمام مجاهد : إنها معرفة الحـق والعمـل بـه والإصابة بالقول والعمل ، والحكمة حكمتان : حكمة علميةٌ وحكمةٌ عملية فالحكمة العلمية أن تطلّع على بواطن الأمور ، أن تعرف الخلفيات ، أن تعرف ما بـين السـطور ، أن تعـرف المدلولات ، أن تعرف القصد البعيد ، أن تعرف المؤدى ... هذه حكمةٌ علمية .

وأما الحكمة العملية فهي أن تضع الأمر في موضعه ، أن تضعه فـي حجمـه وفـي موضعه وفي أوانه دون زيادة أو نقصان أو تعجيل أو تأخير أحياناً تقول لفلان وا ِ ما أحكمك بحجمه وفي وقته وفي مكانه دون زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير . من طلب الشيء قبـلَ أوانه عوقب بحرمانه ... ما كل ما يعلم يقال وما كل ما يقال له رجال ولا إذا وجِد الرجـال آن الأوان هناك ما يعلم ولا يقال ، وهناك ما يقال لكن لا لكل الناس ، في شيء يقال لزيـد لا

في هذا الظرف ... في ظرف آخر . فيجب أن تعرف ماذا ينبغي أن تقول ولمن تقول وفـي أي وقت تقول ... هي الحكمة ... يقابل الحكمة الطيش والحمق ...

لذلك ... فسروا الحكمة بقولهم : الحكمة فعلُ ماينبغي على الوجه الـذي ينبغـي فـي الوقت الذي ينبغي ،

الحقيقة هذا الدرس ليس هدفه أخذَ العلم لا وا ، هدفه الحفز.. يعني أن يندفع الإنسان إلى طلبِ المزيد لا أن يكتفي بأنه صلّى وصام وفعلَ ما أُمر بشكلٍ شكلي مفرغ أجوف لاينبغي أن يبقى على هامش الدين أن يغوص في أعماقه . فإذا عملتَ بماعلمت علّمك ا علم ما لـم تعلم ، وعلم ما لم تعلم هو الحكمة .

ا عز وجل أعطى فرعون الملك وهو لا يحبه ، وأعطى قارون المال وهو لا يحبه ، ولكن هؤلاء الذين يحبهم ماذا أعطاهم ..؟ ..

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾

(سورة يوسف)

هذا الثمن ..... كن محسناً يؤتك ا حكماً وعلماً.

بالمناسبة : أي شيء تفتخر بملكه تتركه عند الموت ، لكن العلم والحكمة .. يستمران معك إلى مابعد الموت وإلى أبد الآبدين .

قرأت كلمةً في إحدى المدارس من أقدم الثانويات في دمشق بخط خطاط مشهور فـي مدخل الثانوية كلما وقعت عيني على هذه اللوحة أشعر بخشوع خاص / رتبـةُ العلـمِ أعلـى الرتب /، أعلى رتبة تصلها أن تعرف ا عز وجل فإذا عرفته عرفت كل شـيء ، ابـن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدتَ كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كـل شيء .

ياربي مافقد من وجدك ..؟.. النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا أراد أن يصلي قيـام الليل ترفع السيدة عائشة رجليها ، قال لأن غرفته الصغيرة لا تتسع لصلاته ونومها ، ماذا قال سيدنا علي ..؟.. قال : فلينظر ناظر بعقله أن ا أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الـدنيا فإن قالَ أهانه فقد كذب وإن قال أكرمه فقد أهان غيره حيثُ أعطاه الدنيا .

النبي عليه الصلاة والسلام تزوج السيدة خديجة هو في الخامسة والعشرين وهي فـي الأربعين ... وبقي معها خمساً وعشرين عاماً .. ربع قرن .. ما فكّر في أخـرى ، الإنسـان الآن تكون سنّه مقاربة لسن زوجته يندب حظه دائماً .. يقول لك تزوجتها كبيرة .. يجـب أن تعرف ما هو المقصود .... النبي عليه الصلاة والسلام عاش بدخل محدود ، سكن في بيـت

صغير ، كان حجمه المالي قليلاً ، ياربي ماذا فَقَد من وجدك ، وماذا وجد من فَقَدك .؟.

قرأتُ مرةً كلمة قال : مساكين أهلُ الدنيا جاؤوا إلى الدنيا وخرجوا منها وما عرفـوا أجملَ مافيها ، إن أجملَ مافيها معرفة ا عز وجل والأُنس به والقُرب منه .

فيا أيها الأخوة الأكارم .... ليس القصد من هذا الدرس أخذُ العلم ، القصد هو الحفـز إلى ا ، أبواب مفتحة ، أبواب الجنة مفتّحةٌ على مصارعها ، أبواب جهنم ليست مفتّحـة ... أبواب جهنم باهظة ثمها باهظ ، أما أبواب الجنة مفتوحة ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

"اشتقتُ لأحبابي قالوا أولسنا أحبابك ..؟.. قال : لا أنتم أصحابي . أحبابي أُناس يأتون في آخر الزمان القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر أجرهم كأجر سبعين ، قالوا منّا أم منهم..؟.. قال بل منكم ، قالوا ولِم ..؟.. قال لأنكم تجدون على الخير معواناً ولايجدون " .

والحمد رب العالمين

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون .... مع الدرس الثامن من دروس جامع العثمان وعدتكم في لقاء سابق أن يكون هذا الدرس في موضوع الإستقامة وكنت قد قلت لكم حينما تحدثنا في موضوع الحب أو منزلة المحبة أن الحب أصلٌ من أصول الدين وحينما تحدثنا عن الإخلاص قلت لكم إن الإخلاص هو كل شيء وحينما تحدثنا عن العلم قلت لكم العلم أساس الدين وأنا اليوم أقول لكم الإستقامة عين الكرامة لأن كل ثمار الدين وكل ما في الدين من سعادة وسكينة واطمئنـانٍ وتوفيق وشعورٍ بالأمن وشعورٍ بالتفوق وشعورٍ بالفوز خطيرة وثمينة لا يقطفها الإنسان إلا إذا استقام على أمر ا فبين الذي يستمع كثيراً ولا يطبق وبين الذي يستمع ويطبق بون شاسع .

ماذا ورد في القرآن الكريم عن الاستقامة ، ربنا سبحانه وتعالى في سورة فُصلّت الآية الثلاثون يقول:

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠

(سورة فصلت)

ربنا ا هذه ليست كلمة تُقال ، لكنها بحثٌ ذاتي ، بحثٌ طويل ، الإيمـان لايتـأتى بكلمة تقولها ولكن ببحث ذاتيٍ طويل تبحثه فنهاية المطاف ونهاية هذا البحث ونهايـة التأمـل ونهاية التفكر ونهاية التدبر أن تقولَ ربي ا .

" **إن الذين قالوا ربنا ا ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون** " ذكر ا عز وجل في هذه الآية ثمرتين من ثمار الاسـتقامة ، ألا تخافوا ولا تحزنوا وقد يخاف الناس وقد ينخلعُ قلبُ الناس لخطرٍ داهمٍ وقد يقلقون وقد يُقهرون ، أما ربنا سبحانه وتعالى يصف هؤلاء المستقيمين بأنهم يتمتعون بشـيئين " **ألا تخـافوا ولا تحزنوا** " لاتخافوا مما هو آت ولاتحزنوا على ما فات ، وهل مـن شـعورٍ يـدمر السـعادة الانسانية كالخوف أو الندم ..؟..

إن من أمض المشاعر ومن أشدها إيلاماً أن تندم على شيء فات وأن تقلقَ للمستقبل ، القلق والندم صفتان ملازمتان للمنحرفين دائماً يندم على ما فات ودائماً يقلق لِمـا هـو آت . فالمستقيم كما وعد ا عز وجل " **إن الذين قالوا ربنا ا ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكـة ألا تخافوا ولا تحزنوا** " لما قالوا ربنا ا ثم استقاموا ، تكونت قناعاتهم بأن ا سبحانه وتعالى هو الرب وهو الرب وحده يجب أن تؤمن بأن ا هو الخالق وأنه لا خالقَ سواه وأنـه هـو الرب وأنه لارب سواه وأنه هو المُسير وأنه لامُسير سواه .

عبر علماء التوحيد عن هذه الحقائق بقولهم : وحدة الخلق ، وحدة الربوبيـة ، وحـدة الألوهية . الآية الثانية في سورة الأحقاف :

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ

(سورة الأحقاف)

الذي أتمناه على إخوتي الكرام أن ينزِعوا من أذهانهم هذا المفهوم الخـاطئ المفهـوم الساذج، كلما طالبتهم بالاستقامة يقول لك أحدهم (أخي أنا لست نبياً ..) ومن قـال لـك إن الاستقامة خاصة بالأنبياء ... من قال لك ذلك ..؟.. إليك الدليل القطعي ، القطعي في ثبوتـه والقطعي في دلالته .

فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

﴿١١٢﴾

(سورة هود)

استقم : فعلُ أمرٍ يفيد الوجوب " **فإستقم كما أمرت ومن تاب معك** " النبي عليه الصلاة والسلام فسر هذه الآية فقال : (إن ا أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين) .

كلما دعوتَ إنساناً إلى أن يستقيم رفع عقيرته وقال : (أخي أنا لست نبياً .. لا تكلفني ما لا أطيق) هذا كلام فيه ضلالٌ كبير وفيه زيغُ خطير " . **فاستقم كما أمرت ومن تاب معك** " هذه الآية وردت في سورة هود ، لذلك حينما قالَ عليه الصلاة والسلام شيبتني هود يعنـي سورة هود ، والذي شيب النبي فيها هذا الأمر الخطير ، أنتَ أيها الأخُ الكريم تطلب مـن ا الكرامة ، تطلب من ا أن ينصرك ا على أعدائك ، أن يوفقك ، أن يرفع شأنك أن يستخلفك

في الأرض ، أن يمكّن لك دينك ، وهو يطلب منك الاستقامة إذا أردتَ أن تكون أكرم النـاس فاتق ا أي استقم على أمر ا .

ماالاستقامة ..؟.. قال بعضهم : إنها ضدُ الطغيان ، مامعنى طغى ؟ خرج عن الخـط المستقيم ، طغى خرج عن المنهج ، طغى القطار إذا خرج عن سـكته ، طغـت السـيارة إذا خرجت عن الطريق المعبد إلى واد سحيق ، وا سبحانه وتعالى حينما خلق الإنسان خلقَ لـه منهجاً وقالَ ا عز وجل :

ٱلرَّحۡمَـٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾

(سورة الرحمن)

قدم ا تعليم القرآن على خلق الإنسان ، هذا التقديم ليس تقديماً زمنياً لأيُعقلُ أن يعلّـم القرآن ثم يُخلق هذا مستحيل لكن هذا التقديم تقديم رُتبي فماقيمة الإنسان بلا مـنهج ، ماقيمـة هذه الآلة المعقدة بلا تعليمات ماقيمة هذه الجامعة بلا نظامٍ داخلي

الاستقامة أن تلزم المنهج الإلهي أن تلزم أمر ا وسُنّة نبيه والطغيان أن تحيد عن هـذا المنهج في عقيدتك في تصرفاتك في كسبِ المال في إنفاق المال في علاقاتك في جِـدك فـي لهوك في إقامتك في سفرك في علاقاتك الداخلية في علاقاتك الخاصة جداً في علاقاتك العامة .

أيها الأخوة الأكارم ... متى تخرج عن منهج ا ؟ لابد من أن تعرف هذا المنهج حتى تعرف ما إذا كنتَ قد خرجتَ أو لم تخرج ، كيف تعرف أنك خرجت عن هذا المنهج إن لـم تعرف المنهج ، إذاً طلب العلمِ فريضة طلبُ الفقه حتم واجب على كل مسـلم ، طلـب العلـم أساس الاستقامة وطلب العلم أساس التوبة كيف تتوب من ذنبٍ قبل أن تعرفَ أنه ذنب وكيـف تستقيم على منهج ا قبلَ أن تعرف منهج ا عز وجل.

الخطوة الأولى ، الحركة الأولى ، الموقف الأول ، الهم الأول ، الاهتمام الأول ، أن تعرف منهج ا عز وجل ، أمره ونهيه.

قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾

(سورة فصلّت)

هنا أضيف معنى جديداً : استقيموا إليه قد تستقيم إلى زيد أوعُبيد قد تستقيم لتنالَ مكانة عند فلان قد تتسلمُ عملاً ذا عائد كبير ودخلٍ كبير من حرصك على هذا الدخل تستقيم في هذا العمل ولكن استقامتك من أجل أن يرضى صاحب العمل فأنت استقمتَ لا إلى ا عز وجـل استقمتَ إلى زيد أو عُبيد هنا في معنى جديد " **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكـم إله واحد فاستقيموا إليه** " هذا يشبه قول ا عز وجل :

وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾

(سورة المدثر)

قد توضعُ في ظرف تؤمر أمراً تعسفياً وأنتَ ضعيف وليس في إمكانك أن تقولَ لا إنك تصبر ولكن تصبر وأنتَ مقهور ليس هذا الصبر هو الذي أراده ا عز وجل ، ا عز وجل يقول " **ولربك فاصبر**"

بالمناسبة : كلما تذللتَ إلى ا رفعك ا ، وكلما صبرتَ أعزك ا ، وكلما كنـتَ خاضعاً أخضع ا الآخرين إليك ، وكلما هبتَ ا هابك الناس ، وكلما نُزعت مـن قلبـك هيبة ا نُزعت من الناس هيبتك . قواعد ... قوانين ...الإنسان لو أنه يفهم ماقاله النبي عليـه الصلاة والسلام فهماً عميقاً إذا فهم ماقاله النبي على أنه قواعد ثابتة قوانين مثلاً : عفّوا تعـفُ نساؤكم ، كلما غضضتَ بصرك عن محارم ا سبحانه وتعالى حفظَ لك زوجتك مـن أن تَزِل قدمها ، بروا آباءكم تبركم أبناؤكم الأبناء يبرون أباءهم ، ماأكرم شاب شـيخاً لسـنه إلا سخّر ا له من يكرمه عند شيخوخته ، من أرضى ا بسخط الناس رضي عنه ا وأرضى عنه الناس... هذه قواعد لو عرفتَ أن هذه القواعد حتمية واقعةٌ لا محالة لأنها من عند خـالق البشر من عند خالق الكون ، القضية أن تقف من هذا الأمر أو هذه القاعدة موقـف المصـدق موقف المهتم ، والطريق إلى ذلك كلما عظُم عندك ربك كلما عظُم أمرك .

إذا تفكرتَ في خلق السماوات والأرض وازدادت خشيتك عز وجل تُعظِّمُ أمـر ا عز وجل ، لهذا قال أحد أصحاب رسول ا أظنه سيدنا بلال ، لا تنظر إلى صـغر الـذنب ولكن انظر على من اجترأت .

" **فاستقيموا إليه** " يجب أن تكون استقامتك خالصة إليه قد يأتي أمر إلهي متوافقٌ مـع أمـرٍ وضعي فالسرقةُ حرام في شرع ا وحرام في قوانين الناس فالذي يمتنع عن السرقة لا تدري أهو خوفٌ من عقاب البشر أم خوفٌ من عقاب خالق البشر ..؟.. القضية هنا مختلطة ، أمـا هناك أوامر ينفردُ بها الدين وحده ... أمرك بغض البصر فحينما يستجيب المؤمن لهذا الأمـر مع أنه ليس في الأرض كلها قانون أو أمر يحظّرُ عليك أن تنظر إلى امرأة فـي الطريـق ،

حينما تنفذُ أمراً ينفرد به الدين هذا يؤكد لك أنك مخاص عز وجل ، غض البصر مدرسة.. لأن كل من يغضُ بصره عن محارم ا يشعر في قرارة نفسه أنه لايبتغي بهذا الغض إلا وجه ا لأن الناس لايعنيهم هذا الأمر ولا يوجهون هذا التوجيه .

و معنى جديد الاستقامة:

وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

(سورة الجن)

الطريقة مستقيمة إذا استقاموا عليها إذا تابعوا هذا السير المستقيم " **لأسـقيناهم مـاءاً غدقاً لنفتنهم فيه** " أول ثمار الاستقامة أن تكون في بحبوحة هذا كلام خالق الكون ، كلام ا عز وجل، هذه الأمطار الشحيحة المعدلات المتدنية انحباس ماء السماء ، هذه الظاهرة إلهيـة ..؟.. الحقيقة إن ا عز وجل حينما يقول في كتابه الكريم " **وأن لو استقاموا عل الطريقـة لأسقيناهم ماءاً غدقاً لنفتنهم فيه** " الناس لو استقاموا على أمر ربهم لانهمرت السماء بمائها ، لذلك كلما قل ماء الحياء قل ماء السماء وكلما رخُص لحم النساء غلا لحم الضأن ، علاقـات ثابتة ، وكلما هان ا على الناس هانوا عليه .

الإنسان حينما لايبالي أكان دخله من حلالٍ أم من حرام بعد عن الاستقامة ، كلما هـان أمر ا على الناس هانوا عليه ، ماذا قال ا عز وجل :

قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

(سورة الأنعام)

هذه البراكين والصواعق وما يشبه الصواعق .. القذائف ما أقسى بأسها " .. **قل هو القادر على أن يبعثَ عليكم عذاباً من فوقكم** .. " أو من تحت أرجلكم الزلازل .. ما أقصـى بأس الإنسان :

وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾

(سورة الشعراء)

... هذا عقاب من ا عز وجل.

" **وأن لو استقاموا عل الطريقة لأسقيناهم ماءاً غدقاً لنفتنهم فيه** " من ثمار الاستقامة مـن خلال هذه الآيات ألا تخاف مما هو آت وألا تحزن على ما قد فات ، أنتَ في منجاة من القلق ومن الندم، والقلق والندم حالتان نفسيتان تدمران الصحة النفسية .

يجب أن تستقيم على أمر ا كما أُمر النبي أن يستقيم على أمر ا ، أنتَ بهذا الأمـر واحد، ... الاستقامة يجب أن تكون في سبيل ا ابتغاء مرضاة ا لا ابتغاء زيد أو عُبيـد ، والاستقامة من ثمارها أن ا سبحانه وتعالى يفرجُ عنك يزيلُ عنك كل كرب كل هم كل حزن كل ضيق كل قلق .

إلى الخلفاء الراشدين الهادين المهديين ، الذين حدثنا عليه الصلاة والسلام عنهم قال:

........عن عرباض بن سارية قَالَ صلى لنَا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الْفَجر ثُم أَقْبـلَ علينَا فَوعظَنَا موعظَةً بليغَةً ذَرفَتْ لها الأعين ووجِلَتْ منْها الْقُلُوب قُلْنَا أَو قَالُوا يـا رسـولَ الله كَأَن هذه موعظَةُ مودعٍ فَأَوصنَا قَالَ أُوصيكُم بِتَقْوى الله والسمع والطاعة وإِن كَان عبدا حبشيا فَإِنه من يعشْ منْكُم يرى بعدي اخْتلَافًا كَثيرا فَعلَيكُم بِسنتي وسنة الْخُلَفَاء الراشـدين الْمهديين وعضوا عليها بِالنواجِذ وإِياكُم ومحدثَات الأمور فَإِن كُل محدثَة بِدعةٌ وإِن كُل بِدعة ضلَالَةٌ *

(سنن أبي داوود)

ماذا قالَ سيدنا الصديق عن الاستقامة ..؟.. قالَ ألا تُشرك با شيئاً ، تطيـع إنسـاناً وتعصي ربك فقد أشركتَ به ، رأيتَ طاعته أغلى من طاعة ا ، أن تتبع هواك وتعصي أمر ا عز وجل أشركتَ نفسك مع ا .

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

(سورة الجاثية)

هذا فهم عميقٌ جداً للاستقامة ، الاستقامة عند هذا الصحابي الجليل عند سيد الصحابة

والتابعين عند من لم تطلع شمس على رجلٍ خيرٍ منهُ ...و سيدنا عمر لما كان مـع أصـحابه الكرام أحدهم أراد أن يتقرب منه ... قالَ وا ِ ما رأينا أحداً أفضلَ منك بعد رسول ا ..فما كان من هذا الخليفة العظيم إلا أن نظر في أصحابه محدقاً ومستنكراً ، أحدهم قال لا وا لقـد رأينا من هو خير منك ... قال ومن هو ..؟.. قال أبو بكر الصديق رضي ا عنه ، فقـال عمر رضي ا عنه : لقد كذبتم جميعاً وصدق ، جعلَ سكوتَ هؤلاء جميعاً كذباً .

قال : كنتُ أضل من بعيري وكان أبو بكرٍ أطيب من ريح المسك ... سيدنا الصـديق يقول: الاستقامة ألا تُشرك با ِ شيئاً .. اعلم علم اليقين أن تعصي ا عز وجل فتجد في هذه المعصية أنها مغنم .. هنا الشرك ، رأيتَ هذا الإنسان إذا أطعته وعصـيتَ ا وقعـتَ فـي الشرك وأنتَ لا تدري.

سيدنا عمر ... عملاق الإسلام قالَ عن الاستقامة أن تستقيم على الأمـر والنهـي .. أن يجدك حيثُ أمرك وأن يفتقدك حيثُ نهاك ولا تراوغ روغان الثعلب .. الحل يعقد على فتاة صغيرة في سن الرضاع ثم تأتي زوجة أخيه فترضعها فإذا هي أم زوجته من الرضـاع ثـم يطلّقُ هذه الفتاة الرضيع ، زوجة أخيه هي أم زوجته على التأبيد له الحق أن يراها ... هـذا اسمه روغان الثعلب كما قال سيدنا عمر .. حيلة شرعية .. وكأن ا لا يدري ما يحصـل ، وكأن ا عالمُ السر والنجوى لا يدري .

سيدنا عثمان ماذا قال عن الاستقامة ..؟.. قال : استقاموا أي أخلصـوا العمـل ، سيدنا عثمان ألقى الأضواء على الإخلاص بالاستقامة سيدنا عمر على العمل ، سيدنا الصديق على العقيدة ، التركيز عند الصديق كان على الشرك ، المنحرف مشرك ، سيدنا عمر التركيز على العمل ، سيدنا عثمان على الإخلاص ... وكلهم من رسول ا ملتمسون

أما سيدنا علي رضي ا عنه وابن عباس قالوا : استقاموا أي أدوا الفرائض ، من أين جاء بها ..؟.. الحديث الشريف " : **ما عبد ا بافضـلَ ممـا افترضـه علـيكم** " .. أداء الفرائض مُقدم على كل شيء اتق المحارم تكن أعبد الناس وارضِ بما قسمه ا لك تكن أغنى الناس .

سيدنا الحسن قال : استقاموا على أمر ا عملوا بطاعته واجتنبوا معصيته ، اجتنبـوا معصيته أي تركوا بينهم وبينها هامشَ أمان .

بعض العلماء يقول " إستقاموا أي إستقاموا على محبته و عبوديته "، كما قلـت لكـم دائماً العبودية غاية الخضوع مع غاية الحب ، هذا معنى استقاموا

سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام كما ورد في صحيح مسلم :

........عن سفْيان بن عبد الله الثقفي قَالَ قُلْتُ يا رسولَ الله قُلْ لِي في الإسلامِ قَولا لا أَسأَلُ عنْه أَحدا غَيرك قَالَ أَبو معاوِيةَ بعدك قَالَ قُلْ آمنْتُ بِالله ثُم استَقم *

(مسند الإمام أحمد)

قل آمنت با ثم استقم ... هذا هو الدين كله.

إذا الإنسان آمن با ولم يستقم ... لم يفعل شيئاً ... مع أن الاستقامة لابد لهـا مـن إيمانٍ بالل إنسان على وشك الموت عطشاً .. عرفَ أن في هذه الجهة نبع فياض فيه ماء نمير زُلال ، لم يذهب إليه، هذه المعرفة ماقيمتها ..؟ ..ماتَ عطشاً .. هذه حقيقة .. هـذا ملخـص الملخص.

لهذاربنا عز وجل يقول " **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إلـه واحـد فاستقيموا إليه فمن كان يرجو لقاء ربه "**

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَـٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

(سورة الأنفال)

ماقيمة إيمانك ... ما قيمة كل قناعاتك ... كلّ الحقائق التي عرفتها إن لم تتخذ موقفـاً عملياً، إن لم تنته ، إن لم تأتمر ، إن لم تفعل، إن لم تصل ، إن لم تقطع ، إن لم تغضب ، إن لم ترض ، إن لم تعط إن لم تمنع ، لا قيمة لكل قناعاتك.

النبي عليه الصلاة والسلام في حديث صحيحٍ رواه الإمام أحمد في مسنده يقول :

.......عن ثوبان قالَ قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم استَقيموا ولن تُحصوا واعلموا أَنَّ خَير أعمالِكُم الصلاةُ ولن يحافظَ على الوضوء إلا مؤْمنٌ *

(رواه الإمام أحمد)

النبي عليه الصلاة والسلام كما قالَ عن نفسه أوتي جوامع الكلم استقيموا ولن تحصوا .. لك أن تفهم هذا الحديث فهمين : الأول أنك إذا

استقمتَ على أمر ا لن تحصي الخيرات التي تتأتى من هذه الاستقامة .. سـعادة نفسـية ، توفيق في العمل ، سرور ، طمأنينة شعور بالراحة ، شعور بالتفوق ..... هذا كله من لوازم الاستقامة، من علامات الاستقامة أن يقول المستقيم : ليس في الأرض من هو أسـعدُ منـي ، المؤمن مُبتلى ، المؤمن قد تأتيه بعض المكاره ولكن ليس معنى هذا أنه ليس بسعيد .. سعادته

داخلية .. شعوره أن الله يحبه هذا مُسعد ، شعوره أن الله راضٍ عنه هذا مُسعد ، شعوره أنه على منهج الله هذا مُسعد ، شعوره أن الله وعده بالجنة هذا مُسعد . فالإنسان المؤمن سعيد في داخله ولا يمنع أن يُبتلى في ظاهره .. يبتلى ..

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

(سورة البقرة)

الإنسان لابد من أن يُبتلى:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

(سورة الملك)

استقيموا ولن تحصوا ...وللحديث معنى آخر في حالات إذا الإنسان دخل بالوسواس فالقضية صعبة جداً ، فيمكن أن يُفهم هذا الحديث أن الإنسان لا يدخل في حالة الوسواس يشك .. توضأ .. أم .. لم يتوضأ ، الماء تبلّغ .. أم .. لم يتبلّغ ، أعاد الوضوء مرة ثانية وثالثة ورابعة دخل بما يسمى الوساوس ، فهذا المعنى الآخر قد يكون من هذا الباب .

الاستقامة هي السداد ، السداد يعني أن تصيب الهدف وفي حالات قد لا تستطيع شيء فوقَ طاقتك ، إذاً لابد من المقاربة ... المقاربة كما قالَ عليه الصلاة والسلام :

......حدثنَا موسى بن عقْبةَ قالَ سمعتُ أَبا سلمةَ بن عبد الرحمنِ بنِ عوف يحدثُ عن عائِشةَ زوجِ النبِي صلى الله عليه وسلم أَنها كَانَتْ تَقُولُ قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سددوا وقاربوا وأَبشروا فإِنه لن يدخلَ الْجنةَ أَحدا عملُه قالُوا ولا أَنْتَ يا رسولَ الله قالَ ولا أَنَا إِلا أَن يتَغَمدني الله منْه بِرحمة واعلموا أَن أَحب الْعملِ إِلى الله أَدومه وإِن قَلَ .....

(صحيح البخاري)

أهون الشرين . أحياناً الإنسان يُفرض عليه وضعان عليه أن يختار أهونهما ، أهون الشرين سماها النبي عليه الصلاة والسلام : مقاربة .. له أخت ليست ملتزمة على أمر الله .. هل يقاطعها أم يصلها ..؟.. إن قاطعها تزداد انحرافاً ، وإن وصلها لا تصلي، نقول له صلها

إنك إن وصلتها لعلها تهتدي ، يقول لك ليست مستقيمة ، أهون الشرين أن تصـلها . أحيانـاً أنتَ مضطر أن تفعل ما هو قريب من الاستقامة لا في الأحكام الشرعية ولكن في المعاملات.

" سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن ينجو أحداً منكم بعمله قالوا ولا أنتَ يارسول ا ..؟.. قالَ ولا أنا إلا أن يتغمدني ا برحمة منه وفضله "

إذا أعطيناك مفتاح بيت ثمنه ثلاثين مليوناً ... المفتاح ثمنه عشرون ليرة ... ظننت أن البيت ملكُك ... انتَ أخذتَ مفتاح البيت ولم تدفع ثمن البيت ، البيت فضلٌ من ا عز وجـل ... مثل للتقريب ... أنتَ حينما تستقيم على أمر ا دفعتَ ثمن الجنة أم دفعتَ ثمـن مفتـاح الجنة .. اشتريتَ مفتاح الجنة .. ولم تشترِ الجنة بكاملها .. الجنة محضُ فضلٍ مـن ا عـز وجل ، فرقٌ بين أن تشتري المفتاح وبين أن تشتري الجنة ، فالجنة برحمة ا كما قالَ عليـه الصلاة والسلام

.. حتى أخواننا الكرام ما يقعوا في تناقض بين هذا الحديث الصحيح الذي خرجه علماء الحديث وبين آيات كثيرة تقول :

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾

(سورة النحل)

نوفق بين هذه الآيات وبين هذا الحديث التوفيق سهل جداً ، كنتُ قد ضربتُ لكم مثلاً من قبل أن شاباً في الصف العاشر توفي والده ، والده فقير له عم غني .. قالَ العمُ لابن أخيه: ابن أخي إن أردتَ أن تدرس فأنا أنفقُ عليك وعلى أهلك ، هذا الشاب ونال أعلى شهادة بالطـب عاد فتح عيادة ، تألقَ اسمه وذاع صيته وكبر دخله ، وصار في بحبوحة التقى العم مع ابـن الأخ فقال العم لابن أخيه : يالبن أخي وا لقد نلتَ مانلتَ بجهدك وسعيك واجتهادك وعرقـك وكد يمينك وعرق جبينك .. هذا الكلام صحيح ..؟.. قال له ابـن الأخ : وا يـاعمي لـولا فضلك وا لما كنتُ بهذا المقام . هو العم لو أن ابن أخيه لم يجتهد ماتابع الإنفاقَ عليه ولو أنّه كان مجتهداً ولم يتوافر له عم ينفقُ عليه لما نالَ هذه المرتبة فنقول إن ماحصـله مـن هـذه المرتبة الاجتماعية والعلمية سببها مفتاحها اجتهاده والفضلُ فيها لعمه ...

فإذا قالَ عليه الصلاة والسلام " : **سددوا وقاربوا وإعلموا أنه لن ينجـو أحـد مـنكم بعمله قالوا ولا أنتَ يارسول ا ..؟.. قالَ ولا أنا إلا أن يتغمدني ا برحمة منه وفضـله "**

فالعمل مهما كان مستقيماً ، مهما كان البذلُ كبيراً لا يكفي لدخول الجنة .. هو مفتاح للجنة ..

ربنا عز وجل جعل الاستقامة والأعمالَ الصالحة .. مفتاحاً لدخول الجنة أمـا دخـول الجنـة بفضل ا ِ عز وجل .

مثل آخر للتوضيح : إذا أب وعد ابنه بدراجة غالية الثمن إذا هو نالَ الدرجة الأولـى على رفاقه .. هذا الطالب نالَ الدرجة الأولى حملَ الجلاء وتوجه مـن فـوره إلـى بـائع الدراجات قال له أعطني هذه الدراجة وهذا الجلاء تفضل .. أيعطيه إياها ..؟.هل قال له الأب : خذ الدرجة الأولى وخذ هذه الدراجة من عند هذا البائع .. لابد من دفع الثمن من قبل الأب ..

أيها الأخوة الأكارم ... الاستقامة بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات . قال عليه الصلاة والسلام:

......عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لَا يستَقيم إِيمان عبد حتى يستَقيم قَلْبه ولا يستَقيم قَلْبه حتى يستَقيم لِسانُه ولا يدخُلُ رجلٌ الْجنةَ لا يأْمن جاره بوائِقَه *

(مسند الإمام أحمد)

شطر كبير من الاستقامة .استقامة اللسان . لكن بعض العلماء قال " الإسـتقامة فيهـا ستة شروط والمعنى دقيق جداً . قالَ : اجتهاد في العمل ، واقتصاد فيه ، ووقوفٌ عند حـدود العلم ، وإخلاص للمعبود ، ومتابعةٌ للسُنّة ".

اجتهاد في العمل .. أحياناً الإنسان يعمل عملاً شكلياً .. صلى .. هذه الصـلاة التـي أرادها ا عز وجل .. صام .. هذا الصيام الذي أراده ا عز وجل .. تصدق .. دفع زكـاة ماله .. بالعكس عنده بضاعة فاسدة قدمها إلى جمعية وقال أخي : هذه زكـاة مـالي .. فـي بضائع الناس ليسوا بحاجة لها ، الناس بحاجة إلى طعام وشراب أحياناً ، لاحظـت ملاحظـة بالجمعيات الخيرية بارك ا بها جميعاً .. لكن كل شيء كسد عند التجـار يقدمونـه لهـذه الجمعيات من حسابِ زكاة أموالهم .. هذا اجتهاد بالعمل . لا وا ليس اجتهاداً ، تطاولَ بعض التجار على ا عز وجل وعد الضريبة من الزكاة .. شعر براحة عظيمة ، طعام كرهته نفسه فقدمه للفقراء .. هذا لايجوز أبداً ، الاجتهاد أن تبذلَ غاية الجهد لهذا قالَ ا عز وجل:

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾

(سورة التغابن)

استنفذوا كل استطاعتكم فهموها فهماً آخر معاكساً يعني بعض الجهد . ا سبحانه وتعالى يقول:

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾

(سورة التغابن)

أنتَ تريد أن تصلي .. فصل في غرفة خاصة .. لو صليت في غرفة الجلوس لابـد من أن تنصرف ِلما يقال حولك فلو صليتَ في غرفة خاصة بعيدة عن الأصوات معنى ذلـك أنك بذلتَ جهداً في هذه العبادة ، لو صليتَ وأن حاقن .. أيةُ صلاة هذه ..؟.. صـليت وأنـت جائع .. فهمتك أن تنتهي من هذه الصلاة ..

المقصود بذلُ الجهد في العمل ، زكاة مالك دفعتها لأول مسـتحق دون اجتهـاد .. يجب أن يُدفع المال لمن هو يستحقه تماماً .. ففي دفع الزكاة .. بالحج أخذت الرُخص كلها .. ارتحت .. قالَ حججنا صليت العصر بجدة يوم عرفة ركبنا السيارة .. الطرقات فارغة إلى مكة طفنا طواف القدوم وسعينا .. الحمد ا لا ازدحام خرجنا من مكة إلى عرفات الطريـق فارغ . أول ما وجدنا الازدحام توقفنا ، الشمس ما غابت بعد غادرنا والطرقات فارغة ، هـذا هو الجهد ياترى ..؟ بالصلاة مثلاً بغض البصر ..

قالَ العلماء " من تصيد الرُخص من كل المذاهب رق دينه ".. يتبع اي مذهب بشرط أن يكون فيه رخصة .

بالاستقامة أيها الأخوة : الاقتصاد ... الاقتصاد أن تسلك بين طرفي الإفراط والتفريط . أن لا تتعنتَ في الدين، أن تغلو في الدين . العوام تقول : لا إفراط ولا تفريط ...

مثلاً : أنتَ ورع جداً .. غيور جداً على زوجتك ما شاء ا ، مـن غيرتـك علـى زوجتك رفضتَ أن تأخذها إلى الطبيب .. أنت أخذتَ جانب الغلو في الدين . أنتَ أورعُ مـن سيد المرسلين..؟.. أنتَ أشدُ ورعاً من العلماء العاملين ..؟.. فالانحراف عن الاسـتقامة لـه مظهرين : إما الإفراط أو التفريط .

الاستقامة أول شرط من شروطها أن تبذلَ غاية الجهـد ، وثانيـاً أن تقـفَ الموقـف المعتدل بين الطرفين .. أنت زاهد أعرضتَ عن الدنيا إعراضاً كلياً .. زوجة شكت زوجهـا لسيدنا عمر أن زوجها كان صواماً قواماً يبدو أنه لم ينتبه لقولها قال لها بارك ا في زوجـك ، أحد الصحابة انتبه أنها تشكوه ولا تثني عليه .. قال إنها تشكو زوجها قال فاحكم أنتَ بينهما فحكم أن يعطيها كل أربعة أيام يوماً لأنه لو عنده أربع زوجات للواحدة منهن حق يوم.

الاستقامة أن تعطي لكل ذي حق حقه ، أن تؤدي الحقوق تمامـاً ، لا أن تُفـرط ولا أن

تُفرط.

مرة قال لي أخ طُلب منه أن يصنع أبيات مصاحف رفض وهو في أشد الحاجة إلـى المال لماذا رفض .؟. قال لأن الذي كلّفه بهذا العمل ليس مسلماً من أهل الكتاب .. من قـال لك إن هذه استقامة ؟ لك أن تتعاملَ معه شراء أو بيعاً !!! .

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١

(سورة النساء)

من الانحراف عن الاستقامة أن تُفرط أو أن تُفرط ، مـادام الشـرع سـمح للطبيـب الأجنبي أن يرى المرأة المسلمة أما إذا في طبيبة أولى ... طبيبان مسلم وغير مسلم .. المسلم أولى . أما حينما يكون المرض خطيراً وفي طبيب متخصص بهذا المرض ، فلا حرج سيدنا رسول ا في الهجرة اختار خبيراً للطريق ليس مسلماً .. أحياناً الخبرة لابد منها .. .

الصفة الثانية الاقتصاد أي السلوك بين طرفي الإفراط وهو الجـورُ علـى النفـوس والتفريط بالاضاعة . النبي ماذا قال عليه الصلاة والسلام .. قال : " **روحوا القلوب سـاعةً بعد ساعة فإن القلوب إذا كلّت عميت** " .

سيدنا معاذ صلى بأصحاب رسول ا فأطال الصلاة فقالَ أفتّان أنتَ يامعاذ ..؟ .. إذا صلى النبي وحده أطالَ الصلاة أما إذا صلى إماماً كان أخفهم في تمام صلاته .

في كسب المال .. يقول لك العمل عبادة .. أين الصلاة ..؟.. ترك صلاته أو أهمـل صلاته وأهمل دروس العلم كلها لم يعد يقرأ القرآن .. أخي العمل عبادة .. أفرط .. أو تـرك العمل من أجل العبادة .. (قال من يطعمك قالَ أخي ، فقال أخوك أعبدُ منـك .) .... لهـذا الجسد عليك حق ولأهلك عليك حق ولأولادك عليك حق ولعملك عليك حق فأعط كل ذي حق حقه أحياناً الشيطان:

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾

(سورة الأعراف)

يأتيك عن اليمين .. افعل هذا ، دع هذا العمل فيه شبهة ، دع هذا ....فتبقى بلا شغل ، بلا دخل .. ضاع ، أفتى حرم الحلال ، بلا مال ، ثم جاءه الشيطان قال له أنت مستقيم وا لم يعطك شيئاً.

أيام في حالات انتكاس خطيرة جداً ، السبب أنه لم يأخذ المنهج المعتدل ، لما ترك العمل عاش أزمات مالية تفاقمت في ساعات ضعفه

وقوفاً مع ما يرسمه العلم ، ما معنى الأمر والنهي الأمر أن لا تفعل كذا والنهي أن تفعل كذا ، أراد أن يصوم صياماً طويلاً . لما صام تعطل عن عمله فاضطرب نفسياً النبي الكريم أمر بالصيام اثنين وخميس أو ثلاثة أيام في الشهر ، فلما زاد ذلك انعكس على حالته النفسية .

هذه الاستقامة .. عملٌ مع بذل الجهد ، اقتصاد بين الإفراط والتفريط ، متابعةٌ لرسول ا صلى ا عليه وسلم ، إخلاص في هذا العمل ، وقوفٌ عند الأمر والنهي .

السلف الصالح كانوا يُركزون على أصلين خطيرين الاقتصاد في الأعمال والاعتصام بالسُنّة . قالَ بعض السلف : ما أمر ا بأمرٍ إلا وللشيطان فيه نزغتان إما إلى تفريط وإما إلى إفراط شخصاً ولا يبالي الشيطان بأيهما ظَفر زيادةً أو نقصاناً .

النبي عليه الصلاة السلام يقول لعبد ا بن عمرو بن العاص :

"يا عبد ا بن عمرو إن لكل عاملٍ شرةً " .

شرةً .. هي الفورة .. الإنسان حينما يؤمن ينتقل من الضياع إلى الهدى ، من الشقاء إلى السعادة ، من التفلت إلى الإنضباط ، ما كان يصلي وجد في الصلاة سعادة كبيرة ، لما غض بصره شعر بسعادة ثانية، لما حضر مجالس علم شعر بسعادة ، هذه سماها النبي .. الشرة .. يعني فورة .. هذه الفورة رائعة جداً لكن لها خطران ، ولكل شرة فترة .. بعد هذه الفورة فترة كما قال سيدنا الصديق : بكينا حتى جفت مآقينا . فكل مؤمن له فترة " : **ياعبد ا بن عمر إن لكل عاملٍ شرةً ولكل شرة فترةً فمن كانت فترته إلى سنّة أفلح ومن كانت فترته إلى بدعة خاب وخسر** ". فالإنسان وهو في الفورة يجب أن ينضبط بالشرع .. لو فرضنا بالفورة دفع كل ماله فلما جاءت الفترة ندم على ذلك فامتنع عن دفع الصدقات انتهى إلى بدعة .

كل الخير كما قالَ بعض العلماء " في اجتهاد باقتصاد واخلاصٍ باتبـاع " اقتصـاد بين الإفراط والتفريط مع الاجتهاد والاخلاص مع الاتباع . يعني اقتصاد في سبيلٍ وسُنّة خير من اجتهاد في خلاف سبيلٍ وسُنّة قال : فاحرصوا على أن تكون أعمالكم على منهج الأنبيـاء عليهم السلام .

الآن : ما الذي يُخرجُ من الاستقامة ..؟.. قال الرياءُ في الأعمال يخرج من الاستقامة .. الرياء والفتور والتواني . على المستقيم أن يفرقَ دائماً بين الأمر والنهي والثواب والعقاب والموالاة والمعاداة وبين ما يحبه ا وبين ما يبغضه وبين ما يرضيه وبين ما يسخطه .

.. مناسبة نتحدث حديثاً سريعاً عن الحيل الشرعية لأنه الموضوع بالاستقامة . أولاً بعضـهم يحتج بفعل سيدنا يوسف لما وضع في رحل أخيه صواع الملك وقـال : أيتهـا العيـر إنكـم لسارقون والقصة معروفة عندكم بهذه الحيلة احتجز أخاه عنده ، فبعض الذين يسلكون الحيـل الشرعية يحتجون بهذا الموقف مع أن هذا الموقف هو حيلة ولكن كي يـأتي بأبيـه وإخوتـه ليسكنوا عنده في مصر .. ليكرمهم .. إذا إنسان لايأخذ إطلاقاً منك شيئاً وأنتَ احتلتَ على أن تعطيه على شكل قرض مثلاً هذه حيلة .. مقبولة .. في حيل رائعة جداً .

إنسان متنعتناً وعليك مساعدته قد تساك معه حيلةً كي تساعده فالحيلـة فـي أصـلها مشروعةٌ إن كانت لجلبِ خيرٍ أو لدفع شرٍ. أما إذا كانت الحيلة للتحال من بعضِ أوامر ا عز وجل فهذه حيلةٌ شيطانيةٌ مرفوضة ... مثلاً من الحيل الشائعة أنتَ معك نصاب المال قبـل أن يحولَ الحول تَهبُ جزءاً منه لابنك .. تتفق معه بعد شهرين يعيد المال لك ..
يهبُ جزءاً من ماله لشخص قبلَ أن يأتي الحول ، النصاب ماتم ، بعـد أن يمضـي الحـول يسترجع هذه الهبة .. هذه حيلة .

الحيلة الثانية : يشتري حاجة من بائع ثم يردها له بعد مجيء الحول ، هذه حيلة فـي إسقاط الزكاة . في حيلة في التعامل بالربا بيع العينة .. العينة أن تضع حاجة أمامـك تبيعهـا ديناً بسعر ونقداً بسعر ... تبيعها للشاري ديناً بمائة ليرة ثم تشتريها منه بثمانين ليرة نقداً هـذا بيع العينة هذا ربا لكن بشكل بيع وشراء.

أحياناً تطلّقُ المرأة طلاقاً فيه بينونة كبرى من زوجها فيقوم زواج شكلي هذا التـيس المستعار يعقد زواجاً شكلياً ثم يطلّق ثم تعود لزوجها الأول . أحياناً يُرهنُ العقار والـرهن لا يستعمل ثم يهبُ لك صاحبُ العقار منفعته .. أنت أقرضته مبلغاً وضع عندك عقـاراً رهنـة فأنت سكنت بالعقار هذا القرض جر نفعاً .. هو على شكل رهن والرهن لا يستعمل صـاحب العقار وهبك الانتفاع به عملت حيلة كسبتَ فائدةً من هذا القرض وهكذا .. كل هـذه الحيـل حرام لأنها احتيالٌ على الشرع للتفلت من أوامر ا عز وجل ولكن الحيل الجائزة لجلبِ الخير أو لدفع الشر لجلب الخير كما فعل سيدنا يوسف احتال على أخيه عن طريق وضـع صـواع

الملك في رحله ثم فُتشَ هؤلاء وظهر صواع الملك في رحل أخيه فاحتجزه من أجل أن يـأتي بأبيه وأخوته ويكرمهم في مصر .

كل حيلة تنتهي بصاحبها إلى التفلت من أوامر الشرع هي حيلةٌ باطلةٌ حرام ، أما الحيلة التي تجلب الخير وتدفع الشر فهي حيلةٌ مقبولةٌ في الشرع .

والحمد   رب العالمين

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم .... مع الدرس الخامس من دروس مدارج السالكين .. منزلة اليوم منزلة الخُلُق .. وقبل أن نقفَ عند بعض الآيات الكريمة التي تتعلق بالخُلُق منطلقةً من قول ا عز وجل واصفاً نبيه صلى ا عليه وسلم :

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

(سورة القلم)

أود أن أمهدَ لهذا الموضوع بتمهيد قصير ...

كما أقول لكم دائماً مطلب ثابتٌ عندكم جميعاً وعندي وعندَ كل إنسانٍ علـى وجـه الأرض أن يَسلمَ وأن يَسعد ، ونحن في عصرٍ ما أكثرَ الآراء وما أكثرَ المذاهب ومـا أكثـرَ التفسيرات وما أكثرَ الاتجاهات ففي زحمة تماوج الأفكار واضطرابها وتـداخلها فـي هـذه الزحمة .. ما من نعمة .. أعظم من أن تكتشف الحقيقة التي أرادها ا عز وجل لتكونَ لـكَ منهاجاً . نعم كثيرة .. قد تنعم بالصحة ، قد تنعم بوفرة المال قد تنعم بالمكانة ، قد يكون لكَ أهلٌ وأولاد على ما تريد ... ولكن تأكد كل شيء أنتَ تعتز به في الدنيا ينتهي عنـدَ المـوت ولكنَ الشيء الذي لا يقدر بثمن ولا يعلو عليه ولا أثمن منه أن تعرف الحقيقة لأنكَ إذا عرفتَ الحقيقة عَملتَ وفقها فإذا عَملتَ وفقها سَعدتَ في دنياكَ وأُخراك .

النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

عنْ أَبِي مويْهبةَ موْلى رسول الله صلى الله عليْه وسلم قَالَ بعثَني رسولُ الله صلى الله عليْه وسلم منْ جوْف اللّيْل فَقَالَ يا أَبا مويْهبةَ إِني قَدْ أُمرْتُ أَنْ أَسْـتَغْفر لأَهْـل الْبقيـع فَانْطَلقْ معي فَانْطَلَقْتُ معه فَلَما وقَفَ بيْن أَظْهرِهمْ قَالَ السلام علَيْكُمْ يا أَهْلَ الْمقَابِرِ لِيهْنِ لَكُمْ ما أَصْبحْتُمْ فيه مما أَصْبح فيه الناس لَوْ تَعْلمون ما نَجاكُم الله منْه أَقْبلَت الْفـتَن كَقطَـع اللّيْل الْمظْلمِ يتْبع أَولُها آخرها الآخرةُ شَر من الأولى ...*

" **أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم** "، كل شيء يمكن أن يزور ، ويبـدل و يغيـر ، فالإنسان في زحمة هذه الفتن وفي تضارب الآراء واختلاف التفسيرات وتعاكس التوجهات ... كل يدعي وصلاً بليلى ... كل يدعي أنه على حق .. في هذه الزحمة لا شيء أثمـن مـن أن

تكونَ على حق فعلاً ، لا شيء أثمن من أن تكونَ على حق حقيقةً ، لذلك العمل أساس السعادة وأساس صواب العمل أن تعرف الحقيقة .

فيا أيها الأخوة الأكارم ... أضرب لكم هذا المثل وكنتُ قد ضربته لكم سابقاً ... لو دخلتَ إلى غرفة وفيها ألفُ قطعة صفراء اللون بعضها من الذهب الخالص ، بعضـها مـن الذهب بأعيرة متفاوتة بعضها من النُحاس الملبس بالذهب ، بعضها من النُحـاس الملمـع ، بعضها من أخس المعادن .. معادن كثيرة ألا ينبغي لكَ أن تنتقيَ ما كان ذهباً خالصاً.

يا أيها الأخوة الأكارم ... في زحمة تضارب الآراء واختلاف التوجهات وظهـور الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أولها آخرها .. لابد من معرفة الحقيقة .. من هي الجهـة فـي الكون الوحيدة التي معها الحقيقة .؟. معها الحقيقة المطلقة ، معها الحقيقة التي لا زيغَ فيها ، لا خلل ، لا اضطراب ، لا شائبة .... إنها ا .... أيةُ جهة أرضية تخطئ وتصيب تفلح وتُخفق ، تستقيم وتنحرف ، تعطي ما هو صحيح وما هو مغلوط ، ما هو مقبول وما هو مرفـوض ، ولكن ا وحده الحق المبين ، ولكن ا وحده الذي خلقَ الكون وخلقَ الحياة وخلـقَ الإنسـان وسوفَ نعود إليه ولن نَسعدَ إلا إذا كُنّا على منهجه .

فلذلك .. ليسَ غريباً ، وليس شططاً أن يقفَ الإنسان ليراجع حساباته ، ليراجع أفكاره ، ليراجع تصوراته ، ليراجع ممارساته اليومية، ليراجع سلوكه .

يا أيها الأخوة الأكارم ... أن نعرفَ الحقيقة ، أن نعرفَ المنهج أن نعرفَ القانون الحقيقي الذي هو يتحكم بالمخلوقات ، هو سر السعادة .

.. أنت أمام باب عليه أقفال شديدة تصور لو أردتَ أن تكسرَ هذه الأقفال أو أن تخلـعَ هذا الباب أو أن تهدمَ هذا الحائط.. كم تحتاج من جهد ومن طاقة ومن ضجيج ومن خصومات .. لو جئت بمفتاح صغير وزنه عشرين غراماً وضعته في القفل المحكم فضغطتَ هكذا ففُـتحَ الباب أليسَ هذا العمل أذكى وأرقى وأنجى وأنجح وأربح وأريح كل شيء له مفتاح .. السعادة لها مفتاح ، التوفيق له مفتاح، أن تُحقق الهدف الذي خُلقتَ من أجله له أسباب .. فلما الإنسان يتقص الحقائق ، يتعرف إلى خالق الكون ، ألف سؤال وسؤال .. أحياناً تقرأ آية :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

(سورة الروم)

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

(سورة يونس)

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ
وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ
الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

(سورة النساء)

.. هذه الآية إذا رأيتَ الواقع يخالفها فأنتَ أمام تفسيرين : إما أن تُكذّب القرآن وإمـا أن تقول هذا الكلام لا معنى له .. هذا كلام غير واقعي .. غير مطبق . وقعتَ في الكُفر وأنتَ لا تدري . وإما أن تسأل هذه الآية " ولن يجعلَ ا للكافرين على المؤمنين سبيلاً " ما تفسيرها ..؟

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي
الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي
ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي
شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

(سورة النور)

إن رأيتَ الواقع على خلاف هذه الآية .. بِمَ تُفسر هذا ..؟.. تقول القرآن شيء غير واقعي !! لا يتحقق !! كأنه ليسَ كلامَ الله !! وقعتَ في الكفر ، أم أن تقـول لابـدَ أن هنـاكَ شرطاً لم يتحقق : **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كمـا استخلف الذين من قبلهم وليمكّنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ليبدلنّهم من بعد خوفهم أمنـاً يعبدونني** : كل إنسان قال أنا مسلم هو مسلم ..؟.. كل إنسان قال أنا مؤمن هو مـؤمن ..؟.. كل إنسان قال أنا أفعلُ كذا هو يفعلُه ؟ لئلا تقعَ في مشكلة خطيرة وهي أن تَشُك في مصـداقية القرآن يجب أن تتنور ، يجب أن تتحق ، يجب أن تتبصر ، يجب أن تقف عندَ المعنى الدقيق للآية ، يجب أن تسأل ....

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾

(سورة النحل)

يجب أن تتحقق .. لأن أخطر ما في الحياة أن تَشُكَ في عقيدتك أخطر مافي الحيـاة أن تهتز عندكَ المثل ، أخطر ما في الحياة أن تَشُكَ في أن هذا الكلام ليسَ كلامَ الله ، أو أنـه كلام الله ولكن الواقع ما أكده ... هذه مشكلة خطيرة جداً ، قلتُ لكم سابقاً : أكبر مصيبة هـي أصغر من أن يصاب الإنسان بعقيدته أو بدينه .. فلهـذا بعيـداً عـن تـداخل الآراء ، عـن اضطراب الآراء ، عن اضطراب التفسيرات ، أريد الحقيقة الخالصة ، أريد المنهج الصـحيح الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام .. نبع عذب كالماء الزلال عذب فرات سارَ هذا النبع .. جاءه عدو من الروافد رفدته رافد نقي ورافد غير نقي ورافد فيه ماء آسـنٍ ورافـد فيـه فضلات .. وصلنا إلى نهاية هذا النهر فإذا هو مياه سوداء . ما العقلُ ..؟.. العقلُ أن أذهـبَ إلى النبع .

ويا أيها الأخوة الأكارم ... لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صَلَحَ به أولها . قلت لكم مرة سيارة توقفت .. هذا السائق لو خرجَ من السيارة وملأ الجوَ صخباً وضجيجاً وصـياحاً وتوسلاً وبكاءاً وعويلاً ودعاءاً .. يا رب أنا انقطعت .. السلوك علمي ..؟..لا والله ، السلوك العلمي أن تفتح غطاء المحرك وأن تنظر أينَ الخلل .

في مشكلة في العالم الإسلامي .. دائماً نشكو .. لماذا نشكو ..؟.. الله .. تخلّى عنّا ..؟.. هل تخلّى الإله عنّا .؟.. غير معقول !!

إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٤﴾

(سورة يونس)

إذاً هناك خلل في حياتنا ، في فهمنا للدين ، في استقامتنا ، في سلوكنا ، مثلاً : لو أن طالباً على موعد مع امتحانٍ خطير .. هناك عشر مواد لو أنه أتقنَ المواد التسعة وأهملَ مادة ولم ينجح ، نحن مع احترامنا لجهده واجتهاده وتفوقه في هذه المواد التسعة لكنه لأنه أهملَ المادة الأخيرة العاشرة .. هذه الدراسة ذهبت أدراج الرياح ، هذا الجهد الذي بذله في أثناء العام الدراسي تلاشى ....

مثل آخر .. هذه المركبة من أجل أن تسير لابد لها من أجهزة أهملتَ أحدَ الأجهزة بقيت في مكانها ، ماذا أفادكَ اعتناؤك بها..؟.. ما أفادكَ شيئاً ..

.. الإسلام مشكلته إما أن تأخذه كله وإما لن تقطفَ ثماره .. هي المشكلة .. فكل فرد مبدئياً عليه أن يراجع نفسه .. على المستوى الفردي وجد الطريق مسدوداً ، هنا لم يوفق ، هنا لم ينجح ، هنا لم يتحقق الهدف ، بقيت نفسه كنفوس الآخرين لم ترق نفسه في هذا المجال .. في خلل .. دين الله ينبغي أن يكونَ واضحاً وينبغي أن يكونَ متقناً .. في قواعد .. سبحان الله يهمل الناس هذه القواعد ويحسبون أنفسهم مسلمين وكأنهم يعاتبون الله عز وجل إذا بدا لهم أنه تخلى عنهم .. ماذا نفذتَ أنتَ من الإسلام ..؟.. هل طبقتَ الإسلام في بيتك ، هل حررتَ دخلكَ من كل شُبهة ، هل ضبطت مشاعرك ، هل كنتَ كما يريد الله حتى تطالبه أن يكون لكَ كما تريد ، هل أنت على منهجه ، هل أنتَ في مرضاته ، هل أنتَ أخذتَ دينه جملةً وتفصيلاً ، هل طبقّتَ أوامره بحذافيرها ... إن لم تكن كذلك لا ينبغي أن تعتب ولا ينبغي أن تقول لِمَ يكون هكذا .. لِمَ يحدث هكذا .. أينَ الله عز وجل .. هذه أسئلة كبيرة جداً إن لم تملك الجواب الصحيح عليها فأنتَ في مشكلة . أنتَ تُعامل خالقَ الكون .. لو عاملتَ إنساناً يقول لكَ لا أستطيع، إمكانياتي محدودة ، هذه ليست بيدي ، مع هذا الإنسان ألف عذرٍ وعذر أن لا ينجدكَ . أما إذا عاملتَ الخالق هو مطلق كن فيكون .. زل فيزول كل شيء بيده .. و خاضع له .. بيده ملكوت السماوات والأرض .. لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء .

فإذا دعوتَ ا أن يغيثكَ بالمطر ولم يغثك بالمطر معناها في خلل.. تقنين ا عـز وجل ليس تقنين عجز بل تقنين تأديب ..أريد أن يأخذ الإنسان الإسلام مأخذاً جِدياً ، أن يأخذه كمعادلات رياضية أن يأخذه كقوانين حتمية ، أن يأخذه كسنّة كونيـة ، أن يأخـذه كمـنهج تفصيلي ، أن يأخذه كقواعد قطعية ، إذا فهمتَ الدينَ هكذا .. قطفتَ ثمارَ الدين وكنتَ أسـعدَ الناس بهذا الدين وشعرت بمعنى اسم السلام الذي تحدثنا عنه في الدرس الماضـي شـعرت بالطمأنينة وملكتَ التفسير الصحيح ِلما يجري ... الإنسان أحياناً بحاجـة ماسـة لأن يملـكَ التفسير الصحيح ِلما يجري حوله لأن الدين متكامل ، الدين يغطي كل شؤون الحياة يغطي كل نشاطات الحياة ، يغطي كل مناحي الحياة ، فالدين ليسَ أن تصومَ وأن تُصلي فقط ، وليسَ أن تبحثَ عن أحكام البيوع وأحكام كذا ، الدين يقدم لكَ تفسيراً دقيقاً للكون والحياة والإنسان .

فلهذا : يعني .. سؤال .. سؤال كبير جداً . .. القرآن الكريم إذا درسـناه يجـب أن ندرسه دراسةً متأنية ، يجب أن نتدبره ، ارجعوا إلى كتاب ا في كل شيء .. منهج :

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

(سورة المائدة)

يعني مثلاً : حينما يتوجه المسلمون إلى أن الدين أن تؤدي هذه العبادات من صـوم وصلاة وحجٍ وزكاة .. ويغفلُ المسلم عن أن الدين هو في استقامة الجـوارح وفـي اسـتقامة اللسان وفي طلبِ الأسباب والتوكل على ا عز وجل .. هل يعقلُ أن يكونَ الـدين مظهـراً للضعف .. لا وا .. هل يعقل أن يكونَ الدين مظهراً للخنوع ، مظهـراً للكسـل ، مظهـراً للقعود .. لا وا .. لذلك نحن إذا طبقّنا أكثرَ أوامر الدين وأغفلنا بعض الأوامر ما قطفنا ثمار

الدين إطلاقاً ، وأخطر ما في الأمرِ أن يعزوَ الإنسان خطأه إلى ربه ا عـز وجـل كتابـه واضح :

وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾

(سورة العنكبوت)

۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

(سورة الحج)

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾

(سورة محمد)

فالإنسان في زحمة الفتن وفي زحمة اضطراب الأفكار والمقـاييس وفـي زحمـة اختلاط الأوراق وفي زحمة تداخل التفسيرات عليه أن يعودَ إلى النبع ... إلى كتـاب ا وأن يقرأه وأن يشعرَ بمصداقيته لأن كل كلمة قالها ا عز وجل حقيقة قطعيةٌ ثابتةٌ الوقائع دائمـاً تؤكدها ... وهذا الكلام أنا متأكد أن كل واحد منكم معه عليه أدلةٌ من حياته اليومية ، ما مـن مصيبة أصابته إلا بسببٍ وجيه ، ولأمرٍ خطير ولعلاجٍ سريع ، فإذا بدأ يفهم علـى ا عـز وجل لماذا كانَ هذا الأمر ولماذا لم يكن ، لماذا وفقتُ إلى هذا الأمر ولماذا لم أُوفق إلى هـذا الأمر ، عندئذ يشعر أن الدين أعطاه الحقيقة المطلقة التي هي أثمن ما في الوجود .. أثمن ما في الوجود أن تعرف الحقيقة .. انعكاس الحقيقة على حياتك الخاصة ، على حياتك العامـة ، وعلى حياتك البيتية ، وعلى مهنتكَ .... انعكاس رائع .... وعلى مجموع الأمة .

.. يلفتُ نظري سيدنا جعفر سأله النجاشي : حدثنا عن هذه الدعوة التي جـاءَ بهـا نبيكم . وقفتُ عندَ هذا الكلام ملياً وأُعيده كثيراً . يقول أيها الملك كُنّا قوماً أهلَ جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكلُ الميتة ونأتي الفواحش ، ونُسيء الجِوار ويأكل القوي منا الضعيف ، حتـى بعثَ ا فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونَسبه ، فدعانا إلى ا لنعبده ولنوحده ولندعَ ما كانَ يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصـلة الـرحم

والكف عن المحارم والدماء .... بربكم سيدنا جعفر هذا الصحابي الجليل ماذا فهم من الإسلام ..؟.. مكارم الأخلاق ... فهمَ الدين خُلق ، فهمَ الدين استقامة ، فهمَ الدين صدق ، فهمَ الـ دين إخلاص ، فهمَ الدين رحمة ، فهمَ الدين وقوف عندَ حدود ا ، فهمَ الدين توحيد هـ ذا الـ ذي يأكل مالاً حراماً ويتجاوز حدود ا عز وجل ويلبي نداء المؤذن كلما أذّن هـ ذا الإنسـ ان ألا يزور الدين ..؟.. ألا يشوه حقيقته ..؟..أذكر قول الإمام علي كرمَ ا وجهه أن قـ وام الـ دين والدنيا أربعة رجال عالم مستعملٌ علمه وجاهلٌ لا يستنكف أن يتعلم ، قلت إذا ضـ يعَ العـ الم علمه استنكفَ الجاهل أن يتعلم .. .. أنت كمسلم بصراحة أقولها .. أنت عند أهلـ ك ، عنـ د والدك ووالدتك ، عند زوجتك ، عند أولادك ، عند إخوتك ، عند جيرانك ، عند من هم دونك ، عند من هم فوقك ، عند أصحابك ، عند زملائك ، عند مجتمعك ، عند بلدتك ، عند أمتك ، أنت محسوب على المسلمين أنت مسلم .... الناس لا يعبؤون بصلاتك ولا بصيامك ،يعبؤون بمعاملتك ، بذمتك ، بصدقك ، بعفتك ، بطهارتك ، بخلقك ، بتواضعك ، بعفوك ، فإذا ما أحب الناس الإسلام من خلال سلوكك فأنتَ لستَ مسلماً ، إذا ما عشقَ الناس الدين من خلالك أنـ ت لستَ مؤمناً ، إذا ما قالَ الناس هذا هو الدين يا ا ما أروع الدين أهذه تربية المسلمين .. أهذه تربية الدين ، إن لم تكن كذلك فلستَ مسلماً ، لعلك رأيته يصلي في المسجد قال له نعـ م قـ ال أنت لا تعرفه ... هل جاورته ، هل حاككته بالدرهم والدينار ، هل سافرت معه ، وا الـ ذي لا إله إلا هو بإمكانك أن تكون أكبرَ داعية إلى هذا الدين وأنت ساكت .. ليرى الناس منـ كَ العفاف .. فبعث ا فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونَسبه ، أنتَ إذا ذهبتَ إلى مقـ ام النبي عليه الصلاة والسلام ماذا ترى ..؟.. ترى أناساً يبكون أمام مقامه .. يا ربي هؤلاء مـ ا رأوه ، ما عاملوه ، ما أخذوا منه شيئاً ، ما أعطاهم شيئاً ، لماذا هم يبكون أمامـ ه ..؟.. لأن هذا النبي العظيم ما قالَ شيئاً خالفه في سلوكه ، ما تكلّمَ كلمةً فعلَ عكسها ، كانَ صـ ادقاً مـ ع نفسه ، كانَ رحيماً بالناس ، كانَ مثلاً أعلى ، كانَ قدوةً صالحة ...

الإنسان حضرَ مجالسَ العلم واستمع إلى إلقاء المحاضرة وتأثرَ بها ولم يطبق ما سمع .. هذه حالة مرضية .. يقسو قلبه .. يتعود على السماع بصير .. سماعاً.. لكن ليسَ مطبقاً لِما يسمع ، لا يقطف ثمارَ ما يسمع ، ثم يملّ أعطه سيارة لا تسير.. يوم غسلها ، يوم لمعها ، يوم نظفّها ، ما قطف ثمارها ثم يملّ منها ، أما إذا رَكبها ونقلته إلى مكان جميل هوَ وأهله قطفَ ثمارها .. شعرَ بقيمتها .. أنا الذي أريده أن تذوقَ طعم القرب ، أن تذوق طعمَ الحب ، أن تذوق طعمَ الصلة با عز وجل ، أن تشعرَ أن الدين نقلكَ من الجحيم إلى النعيم ، أن تشعرَ أن الدين نقلك من الضياع إلى الُلقيا ، أن تشعرَ أن الدين نقلك من الهموم التي بعضها فوق بعض إلى الإشراقات التي يلي بعضها بعضاً ، يعني .. إن لم تكن أسعدَ الناس فما قيمة هذا الدين ، أنت مع خالق الكون ، لا يحزن قارئ القرآن .

فلذاك : .. يجب أن يكون شعارنا أيةُ آية قرآناها ، أو أيةُ آية فهمنا تفسيرها ، أو أي حديث فهمنا معناه ينبغي أن يكون شُغلنا الشاغل أن نطبقه كي نقطفَ ثماره ، لو حدثّتَ الناس آلاف المرات بل عشرات آلاف المرات أن الصدق ينجي وأنتَ لم تكن كذلك تمل من هذا الكلام لكن دائماً كن صادقاً حتى مع الحيوان ، هذا المحدثُ الشهير الذي قصدَ البصرة من المدينة فلما رأى الرجل الذي جاء ليأخذَ عنه الحديث قد كذبَ على فرسه سكت وعاد إلى حيثُ كان . هذا الذي يكذب على فرسه ليسَ أهلاً أن يكونَ محدثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

... أنا أقولها لكم بصراحة يجب أن يكونَ بيتك جنّة .. جنّة .. كيف فعل النبي كان إذا دخلَ بيته بساماً ضحاكاً ، هدفه الأكبر أن يهدي أولاده ، أن يهدي أهله ، يجب أن يكون .. عملك خلية نحل .. يجب أن يتعلم الناس من تعاملك التجاري الصدق والاستقامة والرحمة والنزاهة والأمانة .. هذا الذي نعولُ عليه .. سمعنا كلاماً كثيراً خُطباً رنانة كتابات رائعة ، بلاغة ناصعة ، أفكاراً منظمة ، ولكنَ التطبيق هو الذي نحن نُقصر فيه .

لذاك .. ترى المساجد ملأ المساجد ملأى وهناك من يشكو الكذب والاحتيال وأن تأخذَ ما ليسَ لكَ وأن تبغي على شريككَ على خليقكَ .. يجب أن يكون البيت جنّة والعمل في نزاهة وفي كلّ مكان صحيح ..

نقيم الناس فنصف بعضهم بالغنى ، وبعضهم بالقوة ، والآخر بالذكاء ، ورابعهم بالحنكة والسياسة فلان نَصفه بالجمال ، أو بالصحة ، أو بتحصيل أعلى الشهادات ، ولكن هذا النبي الإنسان الأول .. المخلوق الأول .. وصفه ربه ..

" **وإنك لعلى خُلق عظيم** " فسرَ هذه الآية وإنكَ لعلى دينٍ عظيم .. يعني جعل الخُلق هو الدين وجعلَ الدين هوَ الخُلق وكلاهما يعني شيئاً واحداً .. أنتَ أخلاقي أنتَ مؤمن أنتَ مؤمن أنتَ أخلاقي ... هذا تفسير ابن عباس والإمام مجاهد وإنّكَ لعلى دينٍ عظيم بأن هذا الدينَ كله مكارم أخلاق سيارة ألغينا محركها .. الأبواب ممتازة ، المقاعد وثيرة ، العدادات متألقة ، الطلاء لماع ، المحرك من السيارة .. يعني ألغينا السيارة . في طيارة عند الشيخ رسلان هذه طائرة ..؟.. هذه مطعم وليست طيارة لأنها لا تطير .. الطيارة تطير ..

.. أقول لكم إذا ألغينا الأخلاق ، إذا ألغينا الخُلق الحسن ، إذا ألغينا السموَ النفسي ، إذا ألغينا الطهارة القلبية ، من الدين فقد ألغينا الدين كله . أروع تفسير للإمام مجاهد وابن عباس " وإنكَ لعلى خُلق عظيم " وإنكَ لعلى دينٍ عظيم . الدين هو الخُلق والخُلق هو الدين . هذه أول آية .

الإمام الحسن قالَ " **وإنك لعلى خُلق عظيم** " وإنكَ لعلى آدابِ القرآن، القرآن بينَ أيديكم قال لك:

﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ
وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ ﴾

(سورة فُصلّت)

هذه الآية ليست كي تقرأها وتأتي بأحكامها .. لا .. كي تدفعَ بالتي هي أحسن

﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا
وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ
٨٣ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ ﴾

(سورة الأعراف)

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ ﴾

(سورة الفرقان)

يجب أن تقرأ القرآن قراءةً تستنبط منها آيات الأخلاق . مرة حدثناكم أتمنى على كل أخٍ كريم أن يقرأ القرآن ليستنبطَ من هذه القراءة الأوامر والنواهي ، وأن يقرأ القرآن ليستنبطَ

من هذه القراءة القوانين والسنـن ، وأن يقرأ القرآن ليستنبطَ منه مكارمَ الأخلاق . هذا الـذي أتمناه على كل أخٌ كريم أن يجعلَ هذا القرآن وما فيه من قيمٍ أخلاقية دستوره ... زوجتك :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾

(سورة النساء)

افتح التفسير : ليست المعاشرة بالمعروف أن تمتنع عن إيقـاع الأذى بهـا بـل أن تحتمل الأذى منها هذا دينك .. دينك مع زوجتك أن تحتمل الأذى منها ، دينك مـع أولادك أن تُحسنَ إليهم ، دينك مع والديك :

وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾

(سورة العنكبوت)

دينك مع جارك ، دينك مع السائل ، دينك مع الفقير .

.. درسنا **الآن** " **إنك لعلى خُلق عظيم** " إنكَ لعلى آداب القرآن . مـا هـذا الأدب ..؟.. (قالَ أدبني ربي فأحسنَ تأديبي) .

وتأديب ا للنبـي عليه الصلاة والسلام توجيهاته في القرآن الأخلاقية ، والسـيدة عائشة تقول كانَ خُلُقه القرآن . .. الإله عادل ، إذا الناس أفلحوا جميعاً جاء الخير للمجموع ، وإذا أبو جاء الشر .. عَجِبَ ربكم من قومٍ يساقونَ إلى الجنة بالسلاسل ، من أطـاعني دخـلَ الجنة ومن عصاني فقد أبى ، أنا أدعو إلى ا أنصح الناس ولكن إذا رأيتُ إعراضاً من الناس وتفلتاً وانكباباً على حطام الدنيا وتشبثاً بالشهوات ماذا أفعل ..؟.. أنغمس معهـم ..؟.. لا وا .. هذا الذي أتمناه على كل أخ ، إن يئستَ من مجتمعك فعليكَ بنفسك ، إن يئستَ ممن حولـك

فعليكَ بخاصة نفسك ودع عنك أمرَ العامة ، إذا رأيتَ شُحاً مطاعاً وهوى متّبعاً وإعجابَ كل ذي رأيٍ برأيه .. فعليك بنفسك كل إنسان يره نفسه محور العالم .. كل إنسان متشبث .. كل إنسان مادي وشهواني .. وأناني وأنا هذا رأيي وأنا صحيح وأنت غلطان .... حينما ترى الأمور اختلطت وتداخلت والفتن استعرت عليكَ بخاصة نفسك بمعنى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

(سورة المائدة)

إنكَ لن تستطيعَ أن تفعلَ شيئاً قبلَ أن تُصلحَ نفسك . لا تقدر أن تؤثّر بمخلوق كائناً من كان قبلَ أن تكون أنتَ في المستوى المطلوب . علينّا أن نهتم بأنفسنا ، نهتم بزوجاتنا ، ببناتنا ، بأولادنا ، ببيوتنا إذا كلّ واحد منكم جعلَ بيته إسلامياً هذا الطريق الصحيح ، لأنه الضجيج والعويل والصراخ لا يفعل شيئاً كالذي وقفت سيارته فجعلَ يصرخ ويستغيث ويعاتب الأقدار ويتألم ويبكي .. افتح غطاء المحرك وانظر أين العطل وهذا المجتمع أساسه البيوت ، أساسه الأسرة ، الأسرة هي اللّبنةُ الأولى ، إذا أردتَ أن تنجوَ من عذاب ا ، إذا أردتَ أن تنجوَ من الفتن إذا أردتَ أن تنجوَ من المحن ، إذا أردت أن تنجو من البلاء.

وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

(سورة فُصلّت)

سيدنا يونس :

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ
أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا
لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾

(سورة الأنبياء)

هذه الآية الكريمة " **وإنك لعلى خُلُق عظيم** " إنكَ لعلى دينٍ عظيم ، والمعنى الثاني إنكَ على آدابِ القرآن .

.... عنْ سعْد بْنِ هشَامِ بْنِ عامرٍ قَالَ أَتَيْتُ عائِشَةَ فَقُلْتُ يا أُمَّ المؤْمنين أَخْبِرِيني بِخُلُقِ رسول الله صلى الله علَيْه وسلم قَالتْ كان خُلُقُه القُرْآن أَما تَقْرأُ القُرْآن قَوْلَ الله عز وجل (وإِنك لعلى خُلُقٍ عظيمٍ) قُلْتُ فَإِني أُرِيد أَنْ أَتَبتلَ قَالتْ لا تَفْعلْ أَما تَقْرأُ (لقَدْ كان لكُمْ في رسول الله أُسْوةٌ حسنَةٌ) فَقَدْ تَزوج رسولُ الله صلى الله علَيْه وسلم وقَدْ وِلد له *

يا أخوان وا في نقطة دقيقة .. نسمع دروساً عشرين سنة ، في كتب ، في أشرطة ، في مؤلفات ، في خُطب ، يعني في ذخيرة إسلامية لا يعلمها إلا ا ومع ذلك هناك تقصير ، هناك تفلت هناك تسريب لبعض الشهوات ، تجد مستودعاً فيه ثقب مهما تملؤه تجده فارغـاً اسمع مليون خطبة فالعبرة بالتطبيق ، العبرة بالانضباط ، ادخل إلى البيت وافتح دفتـرك ، أين المخالفات .. المخالفات المتعلقة بالزوجة في خروجها ، في مظهرها ، في الاختلاط ، في العلاقات ، بالبنات ، بالأولاد ، بعملك، بكسبك في ذممك ، في واجباتك **(يـا سـعد أطـب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ..) .**

أطب مطعمك .. أفضل شيء أن نعود إلى التطبيق .. كي يتجلّى ا على قلوبنـا ، كي نشعر بنعيم الدين ، كي نشعر بلذّة القرب ، كي نشعر باطمئنان الحب قال الآية الكريمة " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين " ، قال هذه الآية جمعت مكارم الأخلاق كلهـا خذ العفو : أنظر لكلمة خذ، أنت معقول أن تعطي إنساناً شيئاً مؤذياً .. خذ .. خذ هذه الساعة هذه الكترونية ، خذ هذا القلم ، خذ هذه القطعة من الذهب ، خذ هذه القطعة من الماس ، كلمة خذ من خالق الكون ... الملك ماذا يعطي المتفوق أو البطل يعطيه قلم رصاص ؟ الملـك .. يعطيه بيتاً ، يعطيه سيارة ، كلمة خذ من ا معناها شيء عظيم جداً ماذا تأخذ ..؟.. خذ العفو ..

موقف شديد الإيلام عندما ذهب النبي إلى الطائف ودعا أهلها فسَخروا منه ، كـذبوا دعوته ، ردوه رداً قبيحاً ضربوه بالحجارة .. ماذا قال : اللهم إهد قومي .لم يتخـل عـنهم ..؟.. لم يقل اهد هؤلاء .. لا .. **(اللهم إهد قومي فإنهم لا يعلمون)** .

ثلاثة أشياء بالدعاء : لم يتخل عنهم ، واعتذرَ عنهم ، ودعـا لهـم ، أنـت عنـدك الإمكانية أن تفعل هذا ..؟.. إذا أصابك شر من إنسان تتمنى أن تقطعه إرباً .. ألـيسَ كـذلك ..؟..

" **خذ العفو وأُمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** " أُعفُ عمن ظلمك ، أُعفُ عمـن أساء إليك ترق .. تعل . يقولون أن هذه الآية الكريمة .. النبي عليه الصلاة والسلام وقـفَ عندها فسألَ جبريل ما هذا ..؟.. قالَ جبريل لا أدري حتى أسأل ، فسألَ جبريل ربه ثـمَ رجعَ إليه فقالَ يا محمد إن ا يأمركَ .. أن تصلَ من قطعك ، وأن تعطيَ من حرمك وأن تعفوَ عمن ظلمك ، هذه خذ العفوَ ، هذا الذي قطعكَ زره في بيته ، هذا الذي حرمكَ أعطـه ، هذا الذي ظلمكَ اعف عنه ، هذه الآية جمعت مكارم الأخلاق كُلها . إذا قُلنـا كُلهـا .. علـى الأخلاق لأن كلمة مكارم جمع وأخلاق جمع .جمعت مكارم الأخلاق . إذا قلنـا كُلّهـا علـى المكارم ، إذا قلنا كُلها على الأخلاق .

وأُمر بالعرف ، العرف ما جاء به القرآن .. ما جاء به الشرع ، أنت كمؤمن لـن تستطيع أن تدعوَ إلا إلى الشرع . لأن الشرع شرع خالق الكون ، الشرع تعليمات الصـانع ، الشرع تعليمات هذه الآلة فإذا أحببت نفسكَ وأُمر بالعرف .

لكَ أعداء كثيرون ، قال له يا ربي .. سيدنا موسى بالمناجاة .. يا ربي لا تبق لي عدواً ، قالَ يا موسى هذه ليست لي .... لكَ أعداء ، لكَ خصوم ، لكَ حاسدين ، لكَ ناس منتقدين **..** " **وأعرض عن الجاهلين** " ارتفع عن هذه المرتبة اصعد إلى مستوى أرقى لا تكن في هذا المستوى .

" **وإنك لعلى خُلق عظيم** " **،** " **خذ العفو وأُمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** " **.**

سيدنا رسول ا قال ، قال أنس رضي ا عنه : كانَ رسول ا صـلى ا عليـه وسلم أحسنَ الناس خُلقاً .

حكي لنا عن رجل كان مفتي قبل خمسين عاماً في هذه البلدة وكان من الصـالحين الأتقياء قال : كان قاضياً دخلت عليه امرأةٌ ..يبدو أنها وهي تصعد الدرج خرجَ منها صـوتٌ قبيح ، فاحمر وجهها وخَجِلت خجلاً شديداً وقالت لأختها (سمعنا القاضي) وتألمت كثيـراً ، فلما وصلت إليه سألها عن اسمها فأجابته ، قالَ ما سمعت ارفعي صوتك يا أختي أنا لم أسمع ، رفعت صوتها فقالَ لها أنا ما سمعت أنا لا أسمع . قالت لها(شايفة معناها مـا سـمعنا) .

خُلق هذا ، خُلق عظيم . خجلت .. لا تحرجها ، كلما ارتقى مستواك لا تُحمر وجه أحـد ، لا تُحرج أحداً .

النبي عليه الصلاة والسلام لما كان مع أصحابه وقد تناولوا لحمَ جَـزور وأصـحابه كلهم أعلام فظهرت رائحة كريهة وكانوا جميعاً قد توضأوا وصلّوا الظهر وتناولوا الطعام وها قد أذن العصر .. من هذا الذي سيقوم ليتوضأ .. هذا يتمنى أن تنشق الأرض وأن تبتلعه فقالَ عليه الصلاة والسلام : كل من أكل لحمَ جزورٍ فليتوضأ .... فقالوا كُلنا أكلنـا .. قـالَ كلكـم فليتوضأ . ما هذا .. من أين تأتي بهذا الخُلق ..؟.. تجد بعض الناس يهمـه أن يحـرج غيره ، يضايقه ، يكذبه ، أمام الناس .. أوقعه في موقف حرج .

هذا الخُلق .. فالإنسان أحياناً .. من جاءه أخوه متنصلاً فليقبل منه محقـاً كـان أم مبطلاً . كإنسان مؤمن يقول لك أنا لم أتكلم هذه الكلمة .. على العين والرأس فعلاً أنـتَ لـم تتكلمها وأنا قَبِلت .. من جاءه أخوه متنصلاً فليقبل منه محقاً كان أم مبطلاً .. لا يوجد شيء يرفعكَ إلا أن تكونَ أخلاقياً .

.... عنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ قالَ كان رسولُ الله صلى الله عليْه وسلم أَزْهر اللوْنِ كان عرقُـه اللؤْلُؤَ وكان إذا مشى تكفأ وما مسسْتُ ديباجا قط ولا حريرا ولا شيْئًا قط أَلين منْ كف رسول الله صلى الله عليْه وسلم ولا شممْتُ رائحةً قط مسْكةً ولا عنْبرةً أَطْيب منْ ريحه *

يعني أيام تمسك يد شخص تجدها خشنة كالمبرد ، في أشخاص لهم عمل بالأقمشة فتجد يده ناعمة .. يعني عنده حساسية بالغة ..

" قال سيدنا أنس : مامسست ديباجاً ولا حريراً ألينَ من كف رسول ا ، ولا شممت رائحة قط أطيبَ من رائحة رسول ا " ، ولقد خدمت رسول ا صلى ا عليه وسلم عشـرَ سنين فما قالَ لي قط أف .. تجد أناساً يطرقون يغضبون يكسرون الصحون ويسبون ويشتمون . .. ولقد خدمت رسول ا صلى ا عليه وسلم عشرَ سنين فما قالَ لي قـط أف ومـا قـالَ لشيء فعلته لِمَ فعلته ولا لشيء لم أفعله الا فعلتَ كذا .. .. متفقٌ عليه .. هذه أخلاق رسـول ا .

يا ترى أنت مع الناس هكذا ..؟.. مع إخوانك ، مع أولادك ، مع جيرانـك ، مـع زملائك ، عندك هذا اللين ، الرحمة ، العطف يسألون .. أنت من شيخك ..؟.. أيـن تحضـر ..؟.. خذنا معك .. الآن بالعكس : يقول لك هذا الذي علّمك شيخك .. ؟ عندما تغلـط معـه يقول هذا الذي تعلمته بالجامع .. هكذا الدين .. ، يجب أن يشتهي الناس أن يكونوا مثلك . قال عليه الصلاة والسلام :

.... عنِ النواس بْنِ سمْعان الأنْصاري قالَ سأَلْتُ رسولَ الله صلى الله عليْه وسلم عنِ الْبِر والإِثْم فقَالَ الْبِر حسْن الْخُلُق والإِثْم ما حاك في صدْرِك وكرِهْتَ أَنْ يطلع عليْه الناس *

(رواه مسلم)

هل لاحظتم في كل حياتكم إنساناً يمزج الماء وبالحليب أمـام المشـتري.. لا أحـد يعملها . أين يضعون الماء بالحليب .. بالمنزل يعملون هذه العملية . فكل شيء تكره أن يطّلعَ عليه الناس فهو إثم المؤمن يصل لدرجة ما في عنده ازدواجية أبداً .. داخله مثل خارجـه .. بمنزله مثل الطريق .. سريرته كعلانيته .. ما في قلبه على لسانه .. ما في لسانه في قلبـه ، لن تكونَ مؤمناً صادقاً إلا بالتوحد أما الازدواجية موقفين ، لسانين ، موقف معلـن ، موقـف حقيقي ..؟.. هذا الموقف الازدواجي ، وهذا الموقف التمثيلي ، وهذا الموقف الخُلّبي ، وهذه تتكلمها وتخاف بها وأنتَ لستَ كذلك .. ليسَ هذا من الدينِ في شيء . " البِر حسـن الخُلـق والإثم ماحاكَ في صدركَ وكرهتَ أن يطّلعَ عليه الناس ".. هذا مقياس ..

وفي الترمذي عن أبي الدرداء عن رسول ا صلى ا عليه وسلم أنه قال :

.........عنْ أَبِي الدرْداءِ أَن النبِي صلى الله علَيْه وسلم قـَالَ ما شَيْء أَثْقـَلُ فـي ميـزانِ الْمؤْمنِ يوْم الْقيامة منْ خُلُق حسنٍ وإِن الله ليبْغض الْفَاحشَ الْبذيء ..... *

(رواه الترمذي)

إذا بالغ الإنسان في الاستقامة وبالغ بالتمسك بمكارم الأخلاق ، يصل لدرجة يشعر أن ا يحبه .. هذا الشعور لا يقدر بثمن .. كأنه غالٍ على ا . يشعر عندما قال ا فإنكَ بأعيننا كأنه كذلك .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾

(سورة مريم)

أن يكون له مودة مع أعلى إنسان بالبلد .. شيء عظيم يدخل عليه متى شاء .. تجده يخوف الناس كُلّهم . فما بالك إذا كان خالق الكون يحبك ، يرضى عنك ..

۞لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾

(سورة الفتح)

ألا تغار من الصحابة الكرام ..؟.. والباب مفتوح أن يرضى ا   عنك ، مفتوح الآن في هذا العصر ، ليس لكَ زوجة ، ليسَ لكَ أقرباء ، ليسَ لكَ أخوات ، ليسَ لكَ أم ، ليسَ لـكَ أب ، ليسَ لكَ جيران ، ليسَ لكَ مهنة تكون نصوحاً فيها .. صادقاً فيها .. كريماً .. رحيمـاً . ... أيام تدخل امرأة فقيرة على صيدلية ينقصها ليرتين .. يقول اذهبي وأحضريهما ، ليرة أيام .. إذهبي وأحضريها ، تكون امرأة عجوز .. أليس عندكَ رحمة قل سامحتك ..

فكلما ارتقى الإنسان ينشأ في قلبه رحمة ، ينشأ تسامح ، ينشأ عطف ، وهذا كله من الخُلق ، تقل مبالغ في الموضوع ..

كتاب قرأته قراءة متينة جداً وحفظته تناقش فيه كلّ الناس لا تظن أن ا   راضٍ عنك ، العلم ضروري جداً والعالم على العين والرأس ، أما لو كان الذي قرأ الكتاب وحفظه وفهمه أخلاقه سيئة ما أُفلح .

.........عنْ أَبِي هريْرةَ قَالَ سئِلَ رسولُ الله صلى الله عليْه وسلم عنْ أَكْثَرِ ما يدْخلُ الناس الْجنةَ فَقَالَ تَقْوى الله وحسْن الْخُلُقِ وسئِلَ عنْ أَكْثَرِ ما يدْخلُ الناس النار فَقَالَ الْفَم والْفَـرْج ......*

هذا اللسان .. الكذب ، الغيبة ، النميمة ، السخرية ، الفحش ، البـذاءة ، الـدجل ، التزوير ، التدليس سباب ، شتائم ، هذا اللسان .. الفم .. أهم شيء الداخل مـن لقمـة حـرام والخارج من كلمة سوء ، أكثر ما يدخل الناس النار الفم والفرج . شهوة الطعام وشهوة الفرج ، وأكثر ما يدخل الناسَ الجنة تقوى ا   وحسن الخُلق .

...... عنْ عائِشَةَ رحمها الله قَالَتْ سمعْتُ رسولَ الله صلى اللـه عليْـه وسـلم يقُـولُ إِن الْمؤْمن ليدْرِك بِحسْنِ خُلُقه درجةَ الصائِمِ الْقَائِمِ *

صام يوم عاشوراء وخلقه ضيق .. وآخر لم يصم ، الأخلاقي الذي خلقه حسن لو لم يصم سبق الصائم ، واحد صلى قيام الليل وفي اليوم الثاني يوم خلقه ضـيق ويسـب ويشـتم والذي لم يصل قيام الليل وبقي نائماً وفي اليوم الثاني خلقه حسن أفضلُ منه ، أما الأفضل من هذا وذاك من صلى قيام الليل وكان خلقه حسناً .. هذا أفضل طبعاً ..

..........عنْ جابِرٍ أَن رسولَ الله صلى الله عليْه وسلم قَالَ إِن منْ أَحبكُمْ إِلَي وأَقْرِبِكُمْ مني مجْلسا يوْم الْقيامة أَحاسنَكُمْ أَخْلَاقًا وإِن أَبْغَضكُمْ إِلَي وأَبعدكُمْ منـي مجْلسـا يـوْم الْقيامـة الثرْثَارون والْمتَشَدقُون والْمتَفَيهقُون قَالُوا يا رسولَ الله قَدْ علمْنَا الثرْثَارون والْمتَشَدقُون فَما الْمتَفَيْهقُون......*

هناك جبابرة المتكبرون مقطوعون عن ا   عز وجل .

هذا الموضوع طويل إن شاء الله يحتاج إلى درس قادم .. على كُلٍ مـن الأخـلاق الأساسية : الصبر ، والعفة ، والشجاعة ، والعدل ، ومن أساسيات الانحرافات الأخلاقيـة : الجهل ، والظلم ، والشهوة ، والغضب . وأساس الأخلاق أن تكونَ بين الإفراط والتفـريط ، هذه كلها موضوعات إن شاء الله نأخذها في درس قادم .

على كلٍ ليس لهذه الدروس من قيمة إطلاقاً إلا إذا تجسدت فـي السـلوك ، إلا إذا طُبقت في البيوت إلا إذا طُبقت في الطريق ، إلا إذا طُبقت في الحوانيت ، في الدوائر ، فـي المعامل ، في المصانع، في المتاجر ، في المزارع .... إلا إذا طبقتَ هذه الأخلاقَ في حياتكَ اليومية، عندئذ تقطفُ ثمارها .

والحمد لله رب العالمين

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم .... مع الدرس الثامن من دروس مدارج السالكين .. منزلة اليـوم هي منزلة السماع .. الإنسان أيها الأخـوة لـه نشاطات أساسية ، فهو يتكلم فهنـاك أحكـام كثيرة جداً ذكرهـا النبي عليـه الصلاة والسلام متعلقـ ـةً بـالكلام : الغيبـة ، والنميمـة ، والفُحش ، والبذاءة ، والتغرير ، والكبر ، وما شاكلَ ذلك ... وحسبكم قول النبي عليه الصلاة والسلام :

........عنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ قَالَ ، قَالَ رسولُ الله صلى الله علَيه وسلم لا يسْتَقيم إِيمان عبْد حتى يسْتَقيم قَلْبه ولا يسْتَقيم قَلْبه حتى يسْتَقيم لِسانُه ولا يدْخُلُ رجلٌ الْجنةَ لا يأْمن جاره بوائِقَه *

الحديث والكلام نشاطٌ أساسي من أنشطة الإنسان . النظر أيضاً نشاط من أنشطة العين . لذلك وردت آياتٌ وأحاديث تتعلق بموضوع النظر ، لكن منزلة اليوم هي منزلة السماع.

كلكم جميعاً أيها الأخوة الأكارم أتيتم إلى بيت مـن بيـوت ا ، أتيـتم لمـاذا .. كـي تأكلوا..؟.. لا وا ، كي تتكلموا ..؟.. لا .. كلكم يسمع . إذاً السماع نشاط .. نشاطٌ أساسـي أن تستمع ، هناك أماكن لهو يأتيها الناس من كل جانب ليستمعوا إلى الموسيقى ، هناك أماكن أخرى يأتيها الناس من كل جانب ليستمعوا إلى حوار بين الممثلين ، هناك أماكن يأتيها الناس من كل جانب يستمعون فيها إلى الغناء .

هذه الأذن لها نشاطات عديدة ، أما أن تأتي بيتَ ا عز وجل لتستمع إلى الحـق فهـذا نشاطٌ أثنى ا على فاعليه . على كُلٍ قبلَ أن نَخوض في الموضوع أريد أن أضع بين أيـديكم هذا المثل، يعني أنت إما أن تأتي إلى بيت فيه طبخٌ نفيس فتأكلَ من الطعام ما لذ وطـاب دون أن تبذلَ جهداً إطلاقاً .. تجلس على المائدة ، توضع لك المقبلات ، ألوان الطعام الفاخر ، تأكل ، تتذوق ، تشعر باللذة ، تُحس بالشبع ، وإما أن تذهب إلى السوق وأن تختار الخضار ، وأن تغسلها ، وأن تُقطّعها، وأن تطبخها ، وأن تنتظر الساعات الطويلة كي تنضج ، يعني إمـا أن تصنع طعاماً أنت وإما أن تأكله جاهزاً ، فإذا أردتَ أن تُفكّر أنتَ في الكـون ، أن تسـتخدم عقلك في الكون ، أردتَ أن تتأمل أردتَ أن تبحثَ بحثاً ذاتياً فهذا نشاط .. هذا نشاط العقـل ، أو أن تستمع إلى الحق جاهزاً :

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾

(سورة ق)

سنأتي بعد قليل على مرتبة السماع ، أتكفي وحدها ..؟.. أم أنها مفتاح العلم ... بعد قليـل يتضح كل هذا . على كُلٍ السماع اسم مصدر كالنبات ، ا سبحانه وتعالى أمر به .. أنتم الآن تُنفذون أمر ا عز وجل .. ا سبحانه وتعالى أمر به في كتابه وأثنى على أهله وأخبـر أن البشرى لهم.

نحن اليوم في منزلة السماع .. عبادةٌ من أرقى العبادات أن تأتي إلى بيت من بيـوت ا وتُلقي أذناً صاغية.

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾

(سورة البقرة)

ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾

(سورة الزمر)

هذه آية خبر لكنه جاء في معرض الأمر.

آية ثالثة:

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

(سورة مريم)

صيغة أسمع بهم .. هذه صيغة تعجب ، تقول ما أعدلَ القاضي أعدلّ به ، مـا أجمـلَ

القمر أجملّ به ، فصيغة أجملّ به هذه صيغة من صيغ التعجب .. يعني ما أشد صممهم في الدنيا وما أشد سمعهم في الآخرة . " **أسمع بهم وأبصر** "

إذا قرأت القرآن لا تظن أن الأمر أن تصوم وأن تصلي وأن تحج وأن تُزكي ، أية صيغة أمرٍ في القرآن تقتضي الوجوب ، مرتبتها كمرتبة الصلاة ، إذا قرأتَ القرآن ومرت بك صيغة أمر .. فعل أمر .. أو فعل مضارع قبله في لام الأمر أو صيغة خبرية جاءت في معرض الأمر مثلاً :

۞وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

(سورة البقرة)

يعني .. أيتها الوالدات أرضعن أولادكن ، يجب أن تعرفَ معنى الأمر في البلاغة ، في أمر وجوب وأمر ندب وأمر تهديد وأمر استحسان وأمر إنكار .. إلى آخره ، لكن يجب أن تعرف أن هذا أمر إلهي يقتضي الوجوب . إذا تلوتَ قوله تعالى ، قالَ تعالى :

ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

(سورة المائدة)

اسمعوا : فعل أمر " ، **واتقوا ا واسمعوا** " وقال تعالى :

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ
وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦

(سورة التغابن)

وقال تعالى:

مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا
وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ
قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن
لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ٤٦

(سورة النساء)

وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ
ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ
أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ
١٨

(سورة الزمر)

وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤

(سورة الأعراف)

السماع هنا غير الانصات ، السماع شيء والإنصات شيء آخر قد تنصت وعقلك يجول في موضوعات شتى ، أما الأمر أن تستمع وأن تُنصت ، يعني أن تسكت وأن تُعملَ فكرك في هذا الذي تسمعه ، أن تتدبر هذا الذي تسمعه " .. **وإذا قُرئَ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** " وقال

:

وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾

(سورة المائدة)

يعني أنت إذا ارتديت ثيابك وأتيتَ بيتَ ا عز وجل لتمارس عبادةً اسمها السماع فأنتَ في عبادة وأنتَ في ذمة ا والملائكة تضع أجنحتها لك يا طالب العلم وهم في مساجدهم وا في حوائجهم ، ست آيات أنتَ مأمور أن تستمع .

أما البشارة التي سأزفها لكم هو أن الإسماع من ا والسماع من العباد دليلٌ قطعي على أن ا علم في الإنسان الخير ، مادام قد أسمعك الحق ، مادام قد سمح لك أن تأتي إلى بيت ا ، مادام قد أنطق المتكلّم بالحق وجعلك تستمع الحق فهذه بشارةٌ لك . الدليل :

الإسماع من ا والسماع من الإنسان دليل خيرية الإنسان .. دليل قطعي .. يعني ما دام ا عز وجل ساقك إلى بيت ا وأنطقَ المتكلّم بالحق وجعلك تستمع إليه ، قبلَ أن تفعلَ شيئاً مادام هذا قد حدث فهذا دليلٌ قطعي على أن ا :

وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾

(سورة الأنفال)

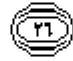
الآية هذه فيها دليل قطعي حينما ساقك إلى سماع الحق وحينما أنطقَ المتكلّم بالحق فهذا دليلٌ قطعي وبشارةٌ أزفها إليكم جميعاً والدليل القرآن الكريم " **ولو علم ا فيهم خيراً لأسمعهم** "

طيب .. لو أنه أسمعهم وليس فيهم الخير ماذا يحدث ..؟.. أسمعته الحق وليس فيه الخير ماذا يحدث ..؟ " ..**ولو علم ا فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون " .**

أعرضوا ، استهزؤوا ، سخروا ، سئموا ، ملّوا ، استكبروا ، هذا كلام نعرفه ، هذا كلام ليس لهذا الزمان ، مشغولون ، عندنا أعمال كثيرة جداً " .. **ولو علم ا فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ".**

ا سبحانه وتعالى أخبر عن أعدائه أنهم هجروا السماع .. . فقالَ تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ



(سورة فُصلت)

بينوا أخطاء ، بينوا تناقضات " ، **لا تسمعوا لهذا القرآن** " هؤلاء الذين ينهون عن السماع هم أعداء ا عز وجل ، فكلّ إنسان يصرفك عن مجالس العلم ، يثنيك عن حضورها ، يزهدك فيها ، يقللُ شأنها في نظرك ، يبعدك عنها ، يدعوك إلى سمر إلى طرب إلى نزهة على حساب هذه المجالس ... هذا من أعداء ا عز وجل بالآيات القرآنية القطعية .

أيها الأخوة ... العلماء يقولون " إن السماع رسول الإيمان إلى القلب "، السماع رسول وداعيه ومعلّم ، وكم في القرآن من قوله " **أفلا يسمعون**"

أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

(سورة الحج)

ربما كانت النجاة في سماع الحق .. الإنسان قد يبلغُ صدقه درجةً يبحثُ هو عن الحق بدافعٍ ذاتي ، يتأمل ، يفكر، يبحث ، يناقش ، يحاور ، هذا الحق ..هذا الصدق في طلب الحق ، إذا بلغَ مرتبةً عاليةً صار صاحبه يبحثُ ذاتياً عن الحق .. ذاتياً .. مبادرةً منه .. في درجة أقل أنك إذا سمعتَ الحق تُسر به ، جاءك الحق جاهزاً .. كما قلتُ قبل قليل إما أن تأكل طعاماً طيباً لذيذاً نفيساً دون جهد ولا دفع ثمنٍ ولا طول وقت ولا معاناة ولا مشقة وإما أن تصنع أنتَ الطعام.

هناك وضع يجمع بين الشيئين .. أنا الذي أراه أن البحثَ الذاتي لا يقدر بثمن ومن أخذ البلاد بعد حرب يهون عليه تسليم البلاد كلّ شيء يأتيك بلا جهد تنساه سريعاً ، تزهد به كثيراً ، يتفلتُ منك ، أما الذي يأتيك بجهد جهيد لا تنساه أبداً .. هل هناك حلٌ للجمع بين ميزة السماع السهلة البسيطة وبين ميزة التأمل الصعبة ..؟.. قدر ا عليك أن تستمع إلى الحق لا أن تصنعه ، لا أن تؤلفه ، طيب هل هناك من حالة بالإمكان أن أجمع بين ميزات السماع وميزات العقل والتأمل ..؟.. أن أحضر مجالس العلم وأن أتأمل فيما قيل وان ُأناقش وأن ُأدقق

وأن ُأحقق وأن أسأل وأن أستوضح وأن ُأقيم وأن ُأثمن وأن ُأحاور و أن أكتب وأن أقـول .. عندئذ تتبنى هذه الأفكار .

لذلك .. لابد للأخ الكريم من جلسة في الأسبوع ، إما وحده أو مع صديق له ، يتذكر ما قيل ، يناقش فيما قيل ، يرسخُ ما قيل ، هل حولَ هذا التوجيه دليلٌ قرآني .. يعني أنت مـأمور بعد ما حضرت مجالس علم وتعبت .. مأمور أن تقعد مع أخيك ، أو مع زوجتـك ، أو مـع صديقك ، أو مع من يلوذ بك وتقول له تعالَ ندرس ماذا قيلَ في هذا الدرس.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾

(سورة سبأ)

من رسول ا ، في هذا القرآن ، في هذه السنّة " . **ما بصاحبكم من جنة** "

نحن بحاجة إضافةً إلى سماع مجالس العلم .. إلى جلسة ، إلى تأمل ، إلى تحقق ، إلى تبصر، إلى تدقيق ، إلى سؤال ، إلى جواب ، إلى محاورة ، إلى تفحص ، إلى تفنيد هذه كلها من دواعي أن يرسخَ العلم .

لو فرضنا أنك تحضر مجالس علم منذ عشر سنوات ، لو كنتَ في سهرة في نـدوة فـي احتفالٍ في نزهة وأنت مظنة صلاح وأنت طالب علم وأنت من تلاميذ فلان وأنت مـن رواد المساجد يقولون لك .. أخي حدثّنا تفضل .. .. يجد نفسه لا يستطيع أن يقولَ شيئاً . طيب أين هذه الدروس ؟ أين إعجابك ؟ أين تأثرك ؟ أين بكاؤك ..؟.. هذه مشاعر آنية رافقت الدرس . أما إذا جلستَ جلسةً متأنية تأملّتَ فيما قيل ، راجعتَ ما قيل ، تبصرت فيما قيـل ، دققـت ، تحققت ، سألت، أجبت ، ذاكرت ، هذه الحقائق تملكها . هناك شيء تسـمعه ويتفلـتُ منـك وهناك شيء تملكه. الذي أراه أنك إذا تأملّتَ فيما سمعت وحدك أو مع أخيك فهذا من أسـباب أن تملك الذي سمعته .

تقرأ كتاباً ممتعاً جداً ، تقرؤه خلال أربعة أيام ، وأنتَ في غاية المتعة ، قرأته وانتهـى الأمر ، لو قالَ لك إنسان ماذا فهمتَ من هذا الكتاب ..؟.. تقول له وا ِ كتاب رائع ، كتـاب ممتع، كتاب لطيف ، استمتعتُ به .. ماذا تذكر من أفكاره ..؟.. هنا تقع في حرج .. وا يا أخي لا أتذكر شيئاً . هذه القراءة بهذا الجهد البسيط لا تجدي ولا تُقدم ولا تؤخّر ، أما لو كلما قرأتَ فكرةً وقفتَ عندها وتأملتها ولخصتها .. ملكتَ الكتاب .. ملكته .. وأنتَ في الطريـق ، وأنتَ مع صديق، وأنتَ في سهرة ، وأنتَ في نزهة ، وأنتَ في سهرة ، وأنتَ فـي جلسـة ، بإمكانك أن تقول قال المؤلف كذا وكذا وجاء بالدليل الفلاني وبين رأيه كذا .

لذلك .. أي سماع دون جهد فإن هذا المسموع سريعاً ما تنساه . لذلك قالوا : إن ثلاثـاً وتسعين بالمئة مما تقرؤه تنساه بعد سبعة أيام ، لابد من التحقق ، لابد من المدارسـة ، أنـتَ ومن تُحب على مستوى صديقين ، على مستوى قريبين ، على مستوى جارين ، على مستوى بلدة ، على مستوى قرية ، على مستوى حي ، على مستوى مهنة ، على مستوى حرفة ، لابد من المذاكرة حتى يرسخَ هذا العلم وإذا رسخَ هذا العلم ملكته فإذا ملكته حدثّتَ به ، فإذا حدثّتَ به زكا ... العلم يزكو على الإنفاق ... قال له يا بني العلم خير من المال لأن العلم يحرسـك وأنتَ تحرس المال والمال تُنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق .. يزداد على الإنفاق ..

قال : السماع أصل العقل .والكفر أنواع ثلاثة : كفر جهلي ، وكفر جحـودي ، وكفـر حكمي . إذا الإنسان أمسك بالمصحف ورماه على الأرض فهذا كافر ولم يتكلم ولا كلمـة .. هذا كافر حكماً ، أما إنسان مصالحه بالكُفر ذكي إلاّ أن مصالحه مرتبطة بالكفر فهو يرد الحق جحوداً واستكباراً .. هذا اسمه كفر جحودي أو عنادي . لكن الكفر الجهلي : الإعراض عـن التأملُ في خلق السماوات والأرض والإعراض عن سماع ما يقوله العلمـاء فـي الـدين .. إعراض عن سماع أهل الحق أو الإعراض عن التأمل في خلق السماوات الأرض .

عدم السماع طريقٌ إلى الكفرِ الجهلي . عدم السماع ، الإعراض عن السماع الإنصراف عن السماع ، طريقٌ إلى الكُفرِ الجهلي.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾

(سورة يوسف)

.. وما أنتَ بمصدق لنا .. الإنسان يصدق ماذا شيئٌ يعرفه . كل خبـرة عشـتها ، كـل تجربة ألمت بك ، إذا قرأتَ عنها تتفاعل معها . لو فرضنا امرأةٌ لا تنجـب عنـدها مشـاعر مؤلمة ، عندها طموحات ، عندها تمزقات ، عندها شعور بالقلق ، عندها اضطراب ، .... لو أن هذه المرأة قرأت قصةً تُعالج مثيلاتها لتفاعلت معها ولبكت . الإنسان متى يبكـي ..؟.. إذا قرأ قصته ، إذا قرأ مأساته ، إذا قرأ مشاعره . لماذا في عقود القران يقف المنشدون وينشدون عن رسول ا صلى ا عليه وسلم ، لماذا ترى إنساناً يبكي ويذوب بكاءاً وإنسـان عينـه لا تدمع..؟.. هذا الذي يبكي عاشَ هذه المعاني التي قالها المنشدون فحركت فيه المشاعر ، أمـا هذا الذي لم يبك بعيد عن هذه المعاني ، لهذا قالَ بعض الحكماء قـال: " الشـعر والإنشـاد مصباح كمصباح علاء الدين يكشفُ لك عن كنوزك أنت المخبوءة في أعماق نفسك ولكنه ليس

بالكيس المملوء الذي يفرغُ في خزائنك الخاوية ".

الذي عنده حب إذا سمع شعراً يصفُ الحب عز وجل ذاب قلبه شوقاً ، فمشاعرك متعلقة بخبراتك ، فأي شيء حرك لك هذه الخبرات نقل لك هذه المشاعر.

.. مثلاً رثاء ولد .. في شعر عباسي أموي رائع جداً في رثاء الأولاد ، من الذي إذا قرأ القصيدة يبكي ويجهش في البكاء هو إنسان فَقَد ابنه وقرأ هذه القصيدة .. إذاً يتجاوب معها .. يشعر..

السماع أصلُ العقل وأساس الإيمان الذي انبنى عليه وهو رائد الإيمان وجليسه ووزيره ، أما المشكلة في المسموع .. تسمع ماذا .. لا يوجد سهرة على مستوى الأرض إلا وفيها كلام .. تسمع أحياناً حديثاً فيه غيبة ، حديثاً ساقطاً عن النساء .. طُرفاً لائقة وغير لائقة ، أخباراً معينة ، حكايات ، قصصاً مسلية ، فالإنسان يسمع دائماً لكن البطولة تسمع ماذا ..؟. قال أصحاب السماع هؤلاء الذين يسمعون أصناف ثلاثة : قال صنفٌ منهم يسمع بطبعه ونفسه وهواه .. هذا يحب الغناء يعشق هذا المغني أو هذه المغنية يعشق هذه المسرحية أو هذه التمثيلية هذه القصة ... هكذا يسمع بشهوته ، يسمع بطبعه ، يسمع بهواه ، هذا سماعه متعلقٌ بشهوته ، لذلك إذا أدمن السماع انتهى كإنسان . في إنسان قال بعض المآسي العامة للشعوب سببها انغماس الناس في الغناء ، يعيشون سكارى في الغناء أصبحوا يلهون بعد أن كانوا جادين .

النوع الثاني : قال هناك من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله لا يسمع إلا القرآن ، لا يسمع إلا أقوال الصحابة ، لا يسمع إلا الحق ، لا يسمع إلا العلم ، هذا يسمع بعقله لا بشهوته ، الشهوة تحتاج لغناء ولطُرف ولأعمال فنية وتمثيليات ومسرحيات ومسلسلات ... هذه شهوة الإنسان . أما بعقله فيسمع الحق ، يسمع كتاب ا عز وجل . لا يجتمع في الإنسان قرآن وغناء لأن كُلاً منهما يطرد الآخر ، القرآن يطرد الغناء والغناء يبعد القرآن ، فهؤلاء الذين يدمنون سماع الغناء يسأمون من القرآن ، يملّون منه ، يضجرون منه . لا يجتمع غناء وقرآن وقد قالَ عليه الصلاة والسلام :

.....عنْ أَبِي هريْرةَ قَالَ ، قَالَ رسولُ الله صلى الله علْيه وسلم لَيْس منا منْ لَمْ يتَغَن بِالْقُرْآنِ وزاد غيْره يجْهر بِه *

النوع الثالث : منهم من يسمع با لا يسمع بغيره كما في الحديث القدسي " : **فبي يسمع وبي يبصر** " .

يعني يبصر بنور ا ويسمع با عز وجل . هذا أرقى أنواع السماع ، يعني عندئذ يسمع ما لا يسمعه الآخرون . النبي عليه الصلاة والسلام دخلَ بستان أنصاري فرأى جملاً ، هذا الجمل لما رأى النبي عليه الصلاة والسلام حن يعني ذرفت عيناه ، تقدم منه النبي ومسح

ذفرتيه وآنس الجمل وقال من صاحب هذه البهيمة ، إئتوني به .. بعد قليل جـاء فتـى مـن الأنصار قالوا هذا صاحب الجمل . قالَ يا هذا ألا تتقي ا في هذه البهيمة التي ملّكك ا إياها فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتُدئبه .. شكا إلي .. هذه مرتبة السماع تسمع با ، أحيانـاً تسـمع الأصوات العذبة وكأنها تُسبح ا عز وجل ، في وقت الفجر تسمع صوتَ العصافير هناك من يسمع صوتَ العصافير وهناك من يسمع تسبيحاً ـ من خلال هذه الأصوات .

في شيء يقوله عامة العلماء ثلاثة في الطريق وإنسان يبيع زعتر بري ، واحد سـمع انظر ترى بِري وواحد سمع الآن ترى بِري وواحد سمع ما أعظم بِري .. أنت سمعت كمـا أنتَ على الشيء لا كما هو عليه لأن مرتبتك سمت . قالَ عليه الصلاة والسلام :

(أعرف حجراً بمكة كان يسلّم عليّ وأسلّم عليه . ولما انتقل من جذع النخلة إلى المنبر حـن إليه الجذع فكان يقفُ على المنبر ويضع يده على الجِذع إكراماً له) ، لأنه حن إليه .

ينشأ أيام بينك وبين الطبيعة مشاركة وجدانية كلما شفّت النفس قال عليه الصلاة والسلام:

......عنْ حنْظَلَةَ الأسيدي قالَ قُلتُ يا رسولَ الله صلى الله علَيْه وسلم إِنا إِذَا كُنا عنْـدك كُنـا فَإِذَا فَارقْنَاك كُنا على غَيْرِ ذَلِك فَقالَ والذي نَفْسي بِيده لوْ كُنتُمْ تَكُونُون علـى الْحـال الـذي تَكُونُون علَيْها عنْدي لصافَحتْكُم الملائِكَةُ ولأظَلَتْكُمْ بِأَجْنحتها *

أصحاب السماع ثلاثة : منهم من يسمع بشهوته..

وهناك من يسمع بعقله .. من مجلس علم إلى مجلس علم من قرآن إلى حديث إلى سيرة إلى سير الصحابة إلى موضوع علمي .. يسمع بعقله .. هذا ينمو .. نمواً كبيراً جداً.

أما النوع الثالث هؤلاء يسمعون با .. هي كرامات هي ..

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

(سورة النمل)

إذا شفّت نفسه وضعت يتفاعل مع المخلوقات أحد الشعراء يركب فرسـه أثنـاء الحـرب وجاءت السهام إلى صدر الفرس فازور من وقع القنا بلبانه ، وشكا إلـي بعبـرة وتحسـم .. إزور تألم هذا الفرس ..لو كان يدري

ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلّمي

يضرب إنسان هـرة تبتعد عنـه وتنظر إليه وكأنهـا تخاطبـه .. ماذا فعلتُ لك .. لماذا ضربتني..؟.. فكل ما ارتقت مشاعر الإنسان يحس على الآخرين ما يدور في خَلَدهم .

يا أخي أُطمئنك ... المؤمن يرى ما لا يراه الآخرون ، ويسمع ما لا يسمعون ، ويعقـل ما لا يعقلون ، ويفكر بما لا يفكرون ، ويشتهي ما لا يشتهون ، ويخاف ما لا يخافون ... هذا مؤمن عرفَ ا ، عرفَ الدنيا ، عرفَ حقيقتها ، عرفَ مهمته فيها ، له أفكاره ، له مشاعره ، له أحاسيسه ، له قيمه ، له طموحاته .

أما المسموع قال مسموع يحبه ا ويرضاه ، يحبه ويرضاه وأمر به عباده وأثنـى علـى أهله ورضي عنهم به . كان الشيخ بدر الدين .. رحمه ا .. هذا كان شيخ الشام من أشـهر المشاهير كان لا يستطيع أحد أن يقول كلمةً عن إنسان في مجلسه .. يعني أول كلمة اسكت .. اسكت أظلم قلبي .. فكل ما كان مجلسك مجلس علم ووقار وحلم ، مجلس دعـوة إلـى ا ، مجلس بيان عن ا عز وجل ، مجلس إرشاد ، مجلس أمر بالمعروف ونهي عـن المنكـر ، كلما كنتَ في درجة أرقى .

قال : مسموع يحبه ا ويرضاه وأمر به عباده وأثنى على أهله ورضـي عـنهم بـه ، ومسموع يبغضه ويكرهه ونهى عنه ومدح المعرضين عنه ، ومسموع مباح .. أخي كم اليوم الحرارة .. وا ٣/٨ خير إن شاء ا .. كم كانت كمية المطر في بلدكم ٢٣ ميلي متـر .. هذا مسموع لا حرام ولا حلال .. ما أسعار الخضار اليوم .. في مسموع مباح مسموع يحبـه ا ويرضاه ، مسموع يبغضه ويكرهه ، قال هذا المسموح مباح مـأذون فيـه لا يحبـه ولا يبغضه . النبي الكريم دخل إلى مسجد رأى رجلاً تحلّقَ الناس حوله قال من هذا ..؟.. قـالوا هذا نسابة فالنبي بأسلوب تربوي قال : وما نسابة ..؟.. يعني من هو ..؟.. فقـالوا هـذا يـا رسول ا يعرف أنساب العرب . قالَ : هذا علم لا ينفع من تعلّمه و لا يضر من جهلَ بـه . في أشياء لا تُقدم ولا تؤخّر والإنسان وقته ثمين . قال حكمه حكم سائر المباحات من المناظر والمشام والمطعومات والملبوسات ، .. إذا أنت في مجلس وتكلم أحدهم في موضوع .. وقـع .. أخي أنهي لنا الحديث .. أنت أهنته ، لم يتكلم شيئاً حراماً ، لم يتكلم غيبـة ولا نميمـة ولا كذباً ، لما أنت أسكته فقد أهنته ، هذا مباح لا إثم فيه ، بالعكس كان النبي يسمع ، يسمع مـن التجار ويحدثهم بالتجارة أولاً ثم عن ا ثانياً .

فمن أساليب الدعوة إذا أنت بمجلس .. في موضوع عن المياه عن الأمطار عن البركان الفلاني عن الخبر الفلاني .. أنت ليس لك حق أن تُعرض عنه ، تشمئز من حديثه .. مـا دام مباحاً، ما دام مباحاً استمع معهم كُن أديباً في استماعك وتراه يصغي للحديث بسمعه وبقلبـه ولعله أدرى به اسمع معهم ثم دلّهم على ا عز وجل ، هناك أشخاص .. يعني .. متزمتون لا يسمح أن تتكلم كلمة هو يتكلم أو كما يريد هو .. اسمعوا الآية الكريمة :

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

(سورة آل عمران)

من هو ، الحديث عن من ، عن رسول ا . هذا سيد الخلق ، هذا الذي يوحى إليه ، هذا المعصوم ، ومع ذلك " **ولو كنتَ فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** " فمن أنت إذاً ..؟.. أنت لا يوحى إليك ، ولا في معك معجزة ، ولست بمعصوم ، ولستَ على خُلق عظيم ، فإذا كـان الذي على خُلق عظيم ويوحى إليه والمعصوم وسيد الخلق أمره ا عز وجل قال له :

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

(سورة آل عمران)

" **ولو كنتَ فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** "

أنت من أنت ليس معك سلطة أن تعمل شيئاً . الذي معه سلطة مـأمور بـاللطف والإنسـانية والحلم والمغفرة والعفو .. فأنتَ لا تملك شيئاً .

قال : فمن حرم هذا النوع الثالث فقد قالَ على ا ما لا يعلم الذي يحرم .. كلاماً مباحـاً لا حراماً ولا حلالاً .. قالَ على ا ما لا يعلم وحرم ما أحلّه ا ، ومن جعله ديناً وقربـةً ؟ يقول لك الشغل عبادة .. يتكلم للساعة الواحدة بالشغل والأسعار والصفقة الفلانية وفلان ربـح كذا وفلان لم يربح وفلان ضرب فلاناً . فقد كذب أيضاً وشرع ديناً لم يأذن به ا وضـاهى

بهذا المشرك . في كلام يحبه ا ، وكلام لا يحبه ا ، وكلام مباح .

عندنا السماع الإيماني ، نريد السماع المطلوب ، أنت جلست جلسة ، كنت بحفلة بنزهة بسهرة بجلسة باجتماع راكب مركبة عامـة إلى حلب خمس ساعات بجانبك رجل .. يهمـك أن تعرف السماع ما حكمه .. قال السماع الذي مدحه ا في كتابه وأمر بـه وأثنـى علـى أصحابه وذم عنه المعرضين ولعنهم وجعلهم أضل من الأنعام قال تعالى:

وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾

(سورة الملك)

السماع طريقٌ للنجاة ، طريقٌ للنعيم " ، **لو كنّا نسمع ما كنـا فـي أصـحاب السـعير** " الإعراض عن سماع الحق طريقٌ إلى جهنم ، وسماع الحق طريقٌ إلى الجنة .

قال : هو سماع آياته المتلوة ، سماع القرآن الكريم .. هذا المنهج هذا الكتاب المقـرر ، هذه تعليمات الصانع ، هذا الكتاب الذي فيه قوانين ا عز وجل ، إذا واحد أحـب أن يفـتح شركة تجارية في دولة أجنبية أول شيء يطلب نظام التجارة في هذا البلد ، فأنت في كون ا أول شيء يجب أن تعرفه قانون ا في أرضه : الحلال ، الحرام ، المكـروه ، المنـدوب ، المباح ، الواجب ، الشيء المجدي ، غير المجدي ، الحق ، الباطل ، الخير ، الشر .....

قال : هذا السماع ثلاثة أنواع : سماع إدراك ، وسماع فهمٍ وعقلٍ وسماع إجابة وقبول . أنت مثلاً جالس في محاضرة وتكلّم المًحاضر عن بعض أمراض القلب ، أحياناً وأنت جـالس سمعت بأدب وسمعت ناقل أو حكى عن أعراض الدخان عن مضار الدخان .. هذا المحاضـر .. محاضرة دقيقة بليغة فيها حقائق علمية عرض عليك صور عمليات جراحية بالرئتين آثارها بالقلب بالأوردة بالشرايين ... أما محاضرة رائعة وهذا الإنسان السامع يدخن سمعها وفهمهـا لكن لم يترك التدخين . ما نقول لهذا السماع نقول هذا سماع إدراك ، أدرك هذه المحاضـرة وفهمها .. لكن لأنه لم يقلع عن التدخين نقول أنتَ استمعتَ إليها سماعاً بـدائياً مـن الدرجـة الأولى ، يأتي إنسان ثانٍ يسمع المحاضرة .. معناها الدخان يرفع لـي التـوتر الشـرياني ، والدخان يرسب المواد الدهنية بالشرايين ، والدخان يقرب أجلي . عن الدخان يضيق الدسامات ، والدخان يسبب احتمال سرطان بالشفتين والرئتين ....

معقول أن أكون عبداً لهذا الدخان ، معقول أن يكون مسيطراً علي هنا سـمع وتـدبر ، وعقل، هذا سمع المحاضرة بمستوى أرقى .. الأول سمع وفهم فقط .. هذا سمع وفهم وأجرى محاورة ، أجرى مناقشة ، أجرى تقييم ، ثمن الأفكار ، وازنها ، نظر إلى وضعه ، إلى سنه ،

إلى دخله ، أولاده ، قيمة صحته ، يا ترى صحتي أغلى أم الدخان أغلى ..؟.. لما دخل التأمل والتدبر هذا سماع من نوع ثانٍ .

أما عندما أمسك بعلبة الدخان ووضعها في سلة القمامة وقال : يا ربي عهداً لـك أن لا أذوقَ هذه بعد اليوم .. هذا السماع المطلوب.

سموا العلماء أول سماع سماع فهمٍ والثاني سماع تدبر والثالث سماع استجابة . في آيـة قرآنية تؤكد هذا المعنى .. أنه سمع هذه المحاضرة ولكن كأنه لم يسمعها .. إذا مشى رجل في طريق ببستان على كتفه عقرب .. قال له أحدهم يا أخي انتبه على كتفك في عقرب وخطيـر فقال له شكراً جزيلاً وأنا شاكر جداً لهذه الملاحظة .. ا خبرني من أين أنت ؟ .. والعقـرب على كتفه.. أنا وا شاكر اك ، يا ترى سمع ما حكى له ..؟.. لا .. هو سمع لكن إما لم يفهم ، أو لغته غير عربية ، أو لا يعرف ما العقرب ، لو أنه فهم عليه وتأملَ معنى كلامه كان قفز مباشرة ولم يكلّمه ولا كلمة . جاءت آية أثبتَ ا لهم السماع ونفى عنهم السماع مثل سـورة الروم .

وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

(سورة الروم)

وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾

(سورة الأنفال)

" **ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون** " هم لا يسمعون ماذا أراد ا بالسماع .. ماذا أراد ..؟.. التطبيق .. الإجابة قال وسماع فهمٍ و سماع عقلٍ وسماع استجابة .

الآن : إلى الآيات .. سماع الفهم:

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾

(سورة الجن)

قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾

(سورة الأحقاف)

سماع الإدراك:

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾

(سورة النمل)

" **إنك لا تُسمع الموتى** " الموتى سمعوا لكن باعتبار لم يتحركوا، لم يتدبروا ، لم يتأملوا ، فكأنهم لم يسمعوا .

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾

(سورة فاطر)

وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

(سورة الأنفال)

سماع الاستجابة : هذا أرقى أنواع السماع .. انظر إلى الناس .. ألف مليون مسلم يوجد سؤال : هل هؤلاء من أمة سيدنا محمد ؟

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾

(سورة آل عمران)

نحن خير أمة وا جميل ، أخي نحن أعظم الأمم هناك جواب علمي يعطيك التفريق العلمي بينهما ..؟..

الجواب الدقيق ، العلماء قالوا : هناك أمةُ الدعوة وهناك أمةُ الاستجابة ، كل إنسان مسلم دعاه ا إلى الإسلام ، وأنزلَ على النبي القرآن ليكون منهجاً له ، فكل منتمٍ إلى المسلمين ولو بالهوية .. هذا أمةُ الدعوة .. أما الذي طبق .. فأمةُ الاستجابة .. فأنتَ إذا بلّغتَ الدعوة دخلتَ في نطاق أمة محمد أمة التبليغ ، أما إذا طبقّتَ أوامر ا عز وجل دخلتَ في نطاق الاستجابة

"**فكنتم خير أمة** " ليس المقصود أي انتماء للنبي ، هذه أمةُ الاستجابة والدليل : ما علةُ هذه الخيرية ، " **تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون با** " فلو لم تؤمنوا بـا ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر أنتم لستم معنيين بهذه الآية .. الآية ليست لكم .. فأنتَ اسأل نفسك أنا من أمة التبليغ أم من أمة الاستجابة ..؟.. فرقٌ كبير بين أمة التبليغ وبين أمة الاستجابة .

يعني أب غني ومقتدر مادياً وعالم عنده خمس أولاد ، عرض عليهم جميعاً أن يدرسوا حتى أعلى شهادة في العالم .. بورد .. العرض للكل والأب غني ، إلا أن واحداً من الأبناء قَبِلَ هذا العرض ودرس وتفوق . نقول أولاده كلهم دعوا إلى هذه الشهادة ولكن بعضهم استجاب . فالبطولة ليس أن يعرض عليك الإسلام ، ولا أن تكون من أمة محمد بالشكل أو بالإبلاغ ، البطولة أن تكون من أمته المستجيبين لدعوته .

فالإنسان ما لم يكن مطبقاً لأوامر ا ليتأكد أنه ليس من أُمة محمد . حيث ما وردت الأمةُ المحمدية في القرآن.

هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾

(سورة الجمعة)

هؤلاء أمة الاستجابة . إذاً الآيات هنا تُبين أن هناك سماع إدراك ، سماع تدبر، سـماع استجابة .

الآية الأخيرة :

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾

(سورة البقرة)

" **سمعنا وأطعنا** " هذه الآية متعلقة بالاستجابة . وكلّ الجوامع بالعالم الإسلامي بعد الخطبـة ، بعد الصلاة يقولون سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . ومعهم مخالفاتهم ، تقصيراتهم ، الغيبة، النميمة ، كسب المال الحرام ، ما هذه سمعنا وأطعنا ..؟.. أما اليهود قالوا :

مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾

(سورة النساء)

فاليهود سمعوا وعصوا ربهم .

في فقرتين أخيرتين : قال المؤمن يسمع الآيات لا يسمع الأبيات سـماع للقـرآن ، لا سماع لمزامير الشيطان ، سماع كلام رب الأرض والسماء لا سماع قصائد الشعراء ، سـماع للمراشد لا للقصائد ، سماع للأنبياء والمرسلين لا سماع للمغنين والمطربين .

أنتَ تمارس نشاطاً خطيراً بالحياة : السماع . قال:

السماع حاد يحدو القلوب إلى جوار علاّم الغيوب

أحياناً تسمع حديثاً قدسياً .. فيقول لك .. فعلَ في نفسي فعلَ السـحر ، حـديث قدسـي يحملك على التوبة وعلى الإقلاع عن ذنبٍ قال :

السماع حاد يحدو القلوب إلى جوار علاّم الغيوب

سائقٌ يسوق الأرواح إلى ديار الأفـراح

محرك يثير ساكن العزمات إلى أعلى المقامات

مناد ينادي للإيمـــــــــان

رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾

(سورة آل عمران)

دليلٌ يسير بالركبِ في طريق الجنان

داعٍ يدعو القلوب بالمساء والصباح

من قبل فالق الإصباح حي على الفلاح حي على الفلاح

موضوع السماع موضوع دقيق جداً . ندخل في السماع المذموم . قال هذا السماع يبغضه ا تعالى . يبغضه ويكرهه ويمدح المعرض عنه وهو سماع كل ما يضر بالعبد في قلبه ودينه ، أي شيء تسمعه أضر بدينك وقلبك فهذا السماع لا يجوز أن يكون كسـماع الباطـل إلا إذا تضمن رده وإبطاله وقصد أن يتعلم ضده ، وكسماع اللغو الذي مدح التاركين لسـماعه قـال تعالى :

وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

(سورة القصص)

وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾

(سورة الفرقان)

ما هو اللغو .. تعريف اللغو ..؟.. قال محمد ابن الحنفية هذا من أحفاد سـيدنا علـي ،

اللغو هنا الغناء.

وقالَ الحسن وغيره : أكرموا أنفسهم عن سماعه " ، **وإذا مروا باللغو مروا كراماً** " فـإذا كنت مؤمناً فعلاً لا تقبل أن تستمع إلى الباطل ولا إلى غيبة ولا إلى نميمة ولا إلى فُحـش ولا إلى بذاءة ولا إلى تغرير ولا إلى قصة ساقطة .. ولا تقرأ أيضاً .. .

قالَ ابن مسعود : الغناء ينبتُ النفاقَ في القلب .. كما ينبتُ الماء البقلـة ، وهـذا كـلام عارف بأثر الغناء وثمرته ، فإنه ما اعتاده أحد إلا نافقَ قلبه وهو لا يشعر ...

الدين بالاستقامة أنتَ تطلب من ا الكرامة وهو يطلب منك الاستقامة .. قال فإنـه مـا اجتمع في قلبِ عبد قط محبة الغناء ومحبة القرآن الشيئان اللذان لا يجتمعان ..؟.. الضـدان . مثالٌ ذلك : الظلمةُ والنور، وجود النور ينفي الظُلمة ووجود الظلمة ينفي النـور ، الأبـيض والأسود ضدان ..؟.. لا .. متعاكسان ، التعاكس غير الضد ، يجوز أن يكون عندك لوحة فيها أبيض وأسود . فهناك شيئان متعاكسان وشيئان ضدان متناقضان ، معنى متناقضـان يعنـي أحدهما ينقض وجود الآخر .. فلان عالم جاهل .. مستحيل هذا فهو إما عالم وإما جاهل . إذا هذه الغرفة مضيئة مظلمة .. كلام غلط هذا إما مضيئة وإما مظلمة .

احفظوا هذه القاعدة : القرآن والغناء ضدان متناقضان أحدهما ينقض وجـود الآخـر . سيدنا ابن مسعود قال : الغناء ينبت النفاقَ في القلب كما ينبت الماء البقل.

لا يليق بمؤمن أن يسمع غناء إطلاقاً ، لكن حتى لا أكـون قاسـياً علـى الأخـوان .. الاستماع شيء والسماع شيء ... إذا كنت راكباً سيارة عامة وفي مذياع وفي غناء هذا لـيس اسمه استماع هذا سماع .. الحديث الشريف : من استمع إلى صوت قينة . جلـس بإرادتـه ، باختياره ، بالبيت ، حضروا لنا القهوة ، إفتح يا بني لنسمع ... هذا الاستماع . لكـن راكـب سيارة عامة والسائق له ذوق خاص .. تقول اللهم إن هذا منكر لا أرضى به ، أما إذا قـدرت أن تُسكته لك أجر .

قال : فإنه ما اجتمع في قلبِ عبد قط محبة الغناء ومحبة القرآن إلا طـردت إحـداهما الأخرى ، قال وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقلُ القرآن على أهل الغناء وسماعه . أبداً أهل الغنـاء أثقل شيء عليهم القرآن إذا وضعوا القرآن ربع ساعة ..يقول لك طويلة ربع يكفـي خمـس دقائق كانت نصف ساعة صارت ربع ساعة ، عشر دقـائق ، دقيقتـين ، ... أهـلُ الغنـاء يستثقلون القرآن

.

لذلك .. في أشخاص .. إذا الإمام قرأ آية زائدة لا يتحمل .. دقـائق .. تجـده يضـيع ساعات طويلة وهو واقف في كلام فارغ أما آية زيادة .. لا يتحمل .. بعض الشعراء قال:

ثَقُلَ الكتاب عليهم لما رأوا تقييده بأوامرٍ ونواه

الغناء لا أوامر فيه ولا نواهي ، أما هنا في :

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾

(سورة النور)

هو ينظر ويأخذ حريته ، ثقيلة هذه الآية عليه.

ثَقُلَ الكتاب عليهم لما رأوا تقييده بأوامر ونواه

وعليهم خف الغناء لما رأوا إطلاقه في اللهو دون مناهي

يا فرقةً ما ضر دين محمد وجنى عليه وملّه

سمعوا له برقاً ورعداً إذ حوى زجراً وتخويفاً بفعل مناه

ورأوه أعظم قاطعٍ للنفس عن شهواتها يا ويحها المتناهي

وأتى السماع موافقاً أغراضها فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه

عندنا أهلُ القرآن وأهلُ الغناء وهما يتناقضان ، وعندنا السماع المذموم ، والسماع المشكور ، والسماع المشكور ثلاث أنواع : سماع فهمٍ ، وسماع عقلٍ ، وسماع استجابة .

و الحمد رب العالمين

الدرس ٠٩ - الذكر

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم .... مع الدرس التاسع من دروس مدارج السالكين في مراتب إياك نعبد وإياك نستعين .. منزلة اليوم .. منزلة الذكر . الحقيقة أن ا سبحانه وتعالى في القرآن الكريم يأمرنا فيقول :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴿٤٤﴾

(سورة الأحزاب)

قال بعض العلماء " كل جارحة من جوارح الإنسان لها عبادة " ، فعبادة العين أن تَغُض بصرك عن محارم ا وأن تنظر بها إلى ملكوت السماوات والأرض مفكراً ومتعظاً ، الأذن لها عبادة ، اليد لها عبادة ، أما عبادة القلب فهي الذكر ، ففي كل جارحة من جوارح الإنسان عبادة مؤقتة والذكر عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة ، عبادة القلب الذكر لذلك ربنا عز وجل قال:

إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾

(سورة طه)

يا أيها الأخوة الأكارم ... الذكرُ منشور الولاية ، الذي من أُعطيه اتصل ، ومن مُنعه عُزل ، من أُعطي الذكر اتصل با عز وجل ومن مُنعه عُزل ، وهو قوت القلوب التي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً . القلب دون ذكر عز وجل الجسم قبر له ، ميتٌ في ميت ، الذكرُ عمارة الديار .. دارك لا تحيا إلا بذكر ا فإذا انعدم منها الذكرُ أصبحت داراً ميتةً كالقبر التي إذا تعطلت صارت بوراً ، الذكر سلاح المؤمن الذي يقاتل به قُطّاع الطريق

فإذا خلا من سلاحه أصبح عُرضةً للقتل من قبل قطاع الطريق ، بالذكر تطفئ حريق الشـوق إلى ا عز وجل، بالذكر يكون الذكرُ دواء لقلبك اللهفان .

الذي أريد أن أقوله لكم : إن ذكر ا ـ حياةٌ للقلوب وا سبحانه وتعالى يقول :

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ



(سورة الرعد)

الحسن البصري هذا من التابعين ، والتابعون هؤلاء الذين التقوا أصحاب رسول ا صلى ا عليه وسلم ، يقول عليه الصلاة والسلام :

.... عن ابن عباس قال قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تَسمعون ويسـمع مـنْكُم ويسمع ممن سمع منْكُم *

ثلاثة أجيال : جيلُ الصحابة وجيلُ التابعين وجيلُ تابعي التابعين . هذه الأجيال كان فيها الإسلام نقياً ، فالحسن البصري رحمه ا تعالى كان يقول : تَفقدوا الحلاوة فـي ثلاثـة أشياء .. في الصلاة وفي الذكر وفي قراءة القرآن فإن وجدتم وجدتم وإن لم تجدوا حلاوةً في الذكر والصلاة وتلاوة القرآن فاعلموا أن الباب مُغلق .

أحياناً الإنسان يشعر أن هناك حجاباً بينه وبين ا ، يشعر أن أبواب السماء مُغلقـةٌ في وجهه ، يفتح القرآن ويقرأ لا يشعر بشيء أبداً ، يجلس ليذكر لا يشـعر بشـيء ، يقـوم ليصلي لا يشعر بشيء ... معنى ذلك أن الباب مُغلق ، لماذا أُغلقَ البابُ في وجهه لِعلة فـي عمله . فالمؤمن متبصر ، هؤلاء الذين يصلّون ويقرؤون القرآن ولا يعرفون ما إذا كان قلبهم متصلاً أو مقطوعاً هؤلاء على هامش الحياة .

لذلك .. سيدنا عمر قال : تعاهد قلبك . يعني الذي لا يملك الحس المرهف أن يشعر يقول لك اليوم أنكرت قلبي ، اليوم شعرتُ أن صلاتي لا طعم لها اليوم قرأتُ القرآن فلم أشعر بحلاوة تلاوته ، هذا الذي أحس على قلبه وشعر بقربه هذا إنسان حي ، أما الذي غفلَ عن ا عز وجل فاستوت غفلته مع صحوته .. يعني هو لم يصحو حتى يشعر أنـه غفـل .. غفـلَ مستمراً .. لذلك حينما يسأل هل أنتَ متصل يقول لك نعم ، هو ما ذاقَ الاتصال حتى يشـعر بالهجران . لذلك

فما حبنا سهلٌ وكل من ادعى سهولته نقول له قد جهلتنـــــا

فأيسر ما في الحب للصب قتله   وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

العلماء قالوا .. هذه نقطة مهمة جداً .. الحسن البصري قال : " تفقدوا الحلاوةَ في ثلاثة أشياء في الصلاة وفي الذكر وفي قراءة القرآن ". وربنا عز وجل يقول " ألا بذكر الله تطمئن القلوب "

الإنسان ليس له حق أن يُهمل قلبه .. يقول لك أنا أُصلي الحمد لله ، أنا مُسلم عقيدتي صحيحة .. شيء جميل لكن هذا القلب ألا ينبغي أن يكون حياً ، ألا ينبغي أن يكون مُقبلاً ، ألا ينبغي أن يكون مُحباً ألا ينبغي أن يمتلئ مشاعر نبيلة من خوف إلى حبٍ إلى تعظيمٍ . فالذي يهمل قلبه ويعيشَ على هامش الحياة هذا أغفلَ جانباً كبيراً جداً من الدين.

إذاً : مقياس القرب : حلاوة الذكر ، حلاوة الصلاة ، وحلاوة تلاوة القرآن . هذا مقياس فإذا كان الباب مغلقاً معناها في حجاب ، معناها الله عز وجل أغلقَ في وجهك الباب ، لأنه ليس راضٍ عن عملك . ابحث في الخلل ، ابحث في الزلل ، ابحث في الانحراف ، في التقصير .

قال : بالذكر يصرعُ العبدُ الشيطان كما يصرعُ الشيطان أهلَ الغفلة والنسيان . الشيطان إما أن تصرعه بالذكر وإما أن يصرعك بالغفلة فأنتَ بين ذاكر أو غافل ، تصرعُ الشيطان بذكرك الله عز وجل ويصرعك الشيطان بغفلتك عن الله عز وجل . الذكرُ روح الأعمال الصالحة ، العمل الصالح دون ذكر ميت ، والإنسان إذا ماتَ قلبه وعملَ عملاً صالحاً أغلب الظن أنه يتجه بهذا العمل إلى إرضاء الناس يقع في النفاق ، فإذا عملَ عملاً صالحاً ولم يشكره الناس عليه تألم وضجر ، وطلب واستجدى منهم المديح ، استجداء المديح علامةٌ خطيرةٌ على موت القلب . إذا خلا العملُ من الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه

في القرآن الكريم .. الذكر ورد فيه آيات كثيرة جداً .. يقول بعض العلماء إن ذكر الله عز وجل ورد في القرآن الكريم على عشرة وجوه : الوجه الأول أن الله أمر بالذكر مطلقاً وأمر به مُقيداً ، الله عز وجل أمرك بالذكر أمراً مطلقاً وأمرك به أمراً مقيداً وبعد قليل يتضح ما تعني كلمة الأمر المطلق وماذا يعني الأمر المقيد . والوجه الثاني : أنه نهى عن ضده وهو الغفلةُ والنسيان ، هناك نهي قطعي عن الغفلة والنسيان أمرك به ونهى عن ضده والثالث : علّقَ الفلاح باستدامته وكثرته .. فلا حك ، نجاحك ، نجاتك ، تفوقك ، سعادتك ، علّقها باستدامة الذكر وكثرة الذكر . الرابع : الله عز وجل أثنى على أهل الذكر وبين أنه أعد لهم الجنة والمغفرة . والخامس : أخبر عن خسران من لها وسها .. أمر ونهي وفلاح وإخفاق وثناء وخسارة .. ثم إن الله سبحانه وتعالى جعلَ ذكره جزاء لذكر عباده له الثامن : أخبر الله عز وجل أن أكبر شيء هو ذكر الله بل هو أكبر من كل شيء التاسع : أخبر أن الإنسان

لاينتفعُ بآيات ا إلاذكر ا   عز وجل . العاشر: أن ا سبحانه وتعالى جعـلَ الـذكر قـرين الأعمال كلها .

الآن إلى هذه الوجوه وجهاً وجهاً .. الوجه الأول أن ا سبحانه وتعالى أمـر بـه مطلقاً ومقيداً . الأمر المطلق " يا أيها الذين آمنوا أذكروا ا   ذكراً كثيراً " هذا أمـر مطلـق والمُطلق على إطلاقه ، يعني إذا قرأتَ القرآن ذكرتَ ا ، وإذا أمرتَ بالمعروف ذكرتَ ا ، وإذا قلتَ ا ا ذكرتَ ا ، وإذا حمدته ذكرته ، وإذا سبحته ذكرته ، وإذا وحدته ذكرته وإذا كبرته ذكرته ، وإذا دعوته ذكرته ، أمر ا عز وجل بذكره في القرآن ذكراً مُطلقاً " يا أيهـا الذين آمنوا أذكروا ا   ذكراً كثيراً وسبحوه بكرةً وأصيلاً هو الذي يصلي علـيكم وملائكتـه ليخرجكم من الظلمات إلى النور "

ا عز وجل أمر بذكره ذكراً مقيداً .. قال تعالى :

وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾

(سورة الأعراف)

يعني الذكر يجب أن يُقيد بالتضرع ، بالتذلل ، بالخضوع ، وخيفةً يعنـي يجـب أن تذكره متضرعاً وخائفاً ، جهراً وسراً ، يجب أن تذكره في سرك وقلبـك ويجـب أن تـذكره بلسانك وقولك.

ا عز وجل نهى عن الغفلة والنسيان ، قال تعالى :

" ولا تكن من الغافلين " غفلَ عن ماذا ..؟.. غفلَ عن ذكر ا .

أيا غافلاً تبدي الإساءة والجهلا ... متى تشكر المولى على كل ما أولى

عليك أياديه الكرام وأنت لاتراها ... كأن العين حولاء أو عميا

لأنتَ كمزكوم حوى المسك جيبه ... ولكنه المحروم ما شمه أصلاً

يعني أكبر خطر يعيشه الإنسان أن يكون غافلاً : الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا :

فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾

(سورة الزخرف)

فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ﴿٤٥﴾

(سورة الطور)

يأتي يوم يُصعقُ الإنسان كان غافلاً فَعرفَ الحقيقة بعد فوات الأوان . فربنـا عـز وجل نهانا عن أن نغفلَ عنه . الحياة تجذبك إليها قد تُستهلك من عملٍ إلى عمل ومن لقاء إلى لقاء ومن مشروعٍ إلى مشروع ومن صفقة إلى صفقة ومن اهتمامٍ إلى اهتمام ومن متعة إلـى متعة .. أنتَ مستهلك ..

لذلك . العمل لو در عليك ألوف الألوف واستهلك وقتك كله فأنتَ في خسارة كبيرة ، إذا استهلك عملك كل وقتك فأنتَ في خسارة كبيرة لأنه جعلك من الغافلين .

وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾

(سورة الحشر)

أمرك بالذكرِ مطلقاً أمرك به مقيداً ، تضرعاً وخيفة ، سراً وجهراً ، بقلبك وبلسانك ، ونهاك عن ضده .. نهاك عن الغفلة ، ونهاك عن النسيان ، " **ولا تكن من الغافلين** " ، " **ولا تكونوا كالذين نسوا ا فأنساهم أنفسهم** "

نسيانهم أنساهم سر وجودهم ، نسيانهم أنساهم مهمتهم ، نسـيانهم أنسـاهم حقيقتهم ، نسيانهم أنساهم التكليف ، أنساهم الأمانة أنساهم العمل الصالح .

شيء آخر .. ا سبحانه وتعالى علّقَ الفلاح بذكر ا ، الفلاح .. يعني ..تقول عن إنسان نجح في حياته يعني أتقن عملاً معيناً ودر عليه هذا العمل رزقاً وفيراً تزوج وسكن بيتاً مريحاً وله مركبة وله مكانة اجتماعية واعتنى بصحته .. يقول الناس فلان ناجح فـي الحيـاة .النجاح شيء له بريق وليست البطولة أن تنجح في الدنيا وحدها .. أهل الـدنيا نجحـوا فـي الحياة ، الأغنياء نجحوا في الحياة ، الأقوياء نجحوا في الحياة ، يعني أصحاب الحظوظ نجحوا في الحياة ولو أن مالهم مغتصباً من غيرهم ، ولكن البطولة أن تنجح في الحيـاة الآخـرة أن تنجح في الدار الآخرة .. ذلك هو النجاح ، ذلك هو الغنى ، ذلك هو التفوق ، ذلك هو الفوز .

لذلك سيدنا علي قال : الغنى والفقر بعد العرض على ا ، ا عز وجل علّقَ الفلاح بالإكثار من ذكر ا إذا أردتَ أن تُفلح في الدنيا والآخرة ، إذا أردتَ أن تفوز بسعادة الـدنيا

وسعادة الآخرة ، إذا أردتَ أن تتفوق ، إذا أردتَ أن تنجح ، إذا أردتَ أن تكون من السعداء ، فربنا عز وجل ربطَ ذكره بالفلاح قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾

(سورة الأنفال)

هذا قرآن ، كلام خالق الكون " واذكروا ا كثيراً لعلكم تفلحون " اذكروا ا في أنفسكم، اذكروه في ألسنتكم ، إذكروا ا للناس ، ما من جلسة ، ما من لقاء ، ما من سهرة ، ما من نزهة ألا ويجب أن يذكر فيها ا .. إذا ذكرتَ ا عز وجل امتلأ القلب طمأنينةً واستبشر الناس من حولك وعلت البسمة الوجوه ، فإذا ذكرت الدنيا تفرق الناس ، إذا ذكرتَ الدنيا حزن بعض الناس ، إذا ذكرتَ الدنيا نفر منك بعض الناس ، " واذكروا ا كثيراً لعلكم تفلحون " ، أما الوجه الرابع فا سبحانه وتعالى أثنى على أهله فقال :

ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾

(سورة الأحزاب)

ليس الأمر أن تذكره ولكن الأمر أم تُكثر من ذكره " والذاكرين ا كثيرا والذاكرات أعد ا لهم جميعاً مغفرةً وأجراً عظيماً " نهانا عن أن نغفلَ عنه وبين الخسران الكبير فقال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾

(سورة المنافقون)

" **لاتلهكم أموالكم ولا أولا دكم** " فإذا إنسان قال أنا وا مشغول شغلتني الدنيا ، شغلني عملي ، شغلتني بعض مباهج الحياة ، عن حضور مجلس علم .. هذا ممن انطبقت عليه الآية الكريمة " **لا تلهكم أموالكم ولا أولا دكم عن ذكر ا ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون**"

الحقيقة هل نصدق أن العبد إذا ذكر ا عز وجل ا في عُلاه يذكره .. دخل على النبي الكريم رجل يبدو أنه من عامة صحابته رجل فقير ، قال النبي الكريم أهلاً بمن أخبرني جبريل بقدومه ، قال أومثلي .. من أنا .. قال نعم يا أخي خامل في الأرض علم في السماء . ربنا عز وجل يقول :

فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

(سورة البقرة)

إنسان ذو قيمة ذكر صديقه.. لا ينسى الصديق هذا الذكر .. صورة يطبعها ويكبرها لأنها جوتهما، كيف يضيفه ، كيف يصافحه، كيف استقبله ، كيف ودعه ، وكلما زاره إنسان يريه الصورة . فما بالك إذا كان الذكر الك ا ..؟.. ربنا عز وجل قال " **فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون**

ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾

(سورة العنكبوت)

" **واذكر ا أكبر** " يعني أكبر من كل طاعة ، أكبر من كل عمل ، لأن ذكر ا هو محطُّ الرحال ومنتهى الآمال ، به تسعد ، أكبر ما في الصلاة ، أكبر من الركوع والسجود ، ومن القيام ، " **واذكر ا أكبر** " ا عز وجل ختم به الأعمال الصالحة كلها ، ختم به مثلاً الصيام .. قال :

شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ
وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ
فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ
وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥

(سورة البقرة)

الناس في رمضان في أيام العيد يُكبرون ا عز وجل ، لماذا شُرع التكبير بعد الصيام ، هكذا قالَ ا عز وجل " ولتكملوا العدة ولتكبروا ا على ماهداكم ولعلكم تشكرون " وختم بالذكر الحج فقال :

فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ
فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ
٢٠٠

(سورة البقرة)

ختم به الصيام ، وختم به الحج ، وختم به الصلاة :

فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا
ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا
١٠٣

(سورة النساء)

وختم به الجمعة :

فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ
ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠

(سورة الجمعة)

الحقيقة أن الذاكرين وحدهم هم الذين ينتفعون بآيات ا ، الإنسان الغربي اسـتمتع بالدنيا إلى أقصى درجة ، عرفَ خصائص المواد استغلّها إستغلالاً رائعاً ، ولكن ما نَفَذَ منها إلى المُنعم، فالآيات الكونية ، المجرات ، الشمس ، القمر ، الليل ، النهار ، خلـق الإنسـان ، الذرية ، الأولاد ، الزوجة ، النباتات ، هذه المظاهر الطبيعية التي خلقهـا ا عـز وجـل .. الذاكر ينتفع بها وغير الذاكر لا ينتفع بها . فالذي تعجبُ له أن طبيبـاً مـثلاً درس جسـم الإنسان ، درس الأعضاء ، الأجهزة ، الأنسجة خصائص جسم الإنسان ، دقة الصنع ، دقـة العمل ، الفيزيولجيا ، رأى من معجزات ا في خلق الإنسان الشيء الكثير لأنه ما ذكَـر ا من قبل هذه الآيات ما تأثّر بها . ماذا قال ا عز وجل :

إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾

(سورة آل عمران)

فكرة مهمة جداً .. قد تكون أنتَ من رواد الفضاء وترى بأم عينك الأرض كرةً في الفضاء ، قد تكون من علماء الطب ، قد تكون من علماء الذرة ، قد تكون مهندساً ، طبيبـاً ، عالِماً في الفيزياء ، في الكيمياء ، في الرياضيات ، عالِماً في النبات ، الحيوان ... قد تـرى العجب العُجاب ، خلق الخلية ، قد ترى وظائف الخلايا ، قد ترى أشياء دقيقة جـداً لا يُسـمح لغيرك أن يراها ومع ذلك إن لم تكن ذاكراً عز وجل الذكر الكثير لا تنتفعُ بهذه الآيات .

لا ينتفعُ بآيات ا إلا من ذكر ا عز وجل .

الذكر " كما قال بعض العلماء يجب أن يُصاحب جميع الأعمال " ، فـا سـبحانه وتعالى قال " **أقم الصلاة لذكري** " يجب أن يصحب الصلاة ويجب أن يصحب الصيام ويجـب أن يصحب الحج بل هو روحُ الحج قالَ عليه الصلاة والسلام :

.... قالتْ عائشةُ قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إنما جعـلَ الطـوافُ بالبيـت وبالصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله عز وجل *

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾

(سورة الأنفال)

معناها الذكر يجب أن يُرافقَ كل عمل . هذه الايات التي ورد فيها الـذكرُ بعشـرة وجوه . أما الأحاديث :

.... عن أبي هريرة قال كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يسير في طريق مكـة فمر على جبل يقالُ له جمدان فقال سيروا هذا جمدان سبقَ المفَردون قالوا وما المفَردون يا رسولَ الله قال الذاكرون الله كثيرا والذاكراتُ *

(رواه مسلم)

الحقيقة الإنسان إذا شَرب كأس ماء تسميته قبل الشرب وحمده بعد الشرب هو ذكر ا عز وجل ، إن ألقى على ابنه نظرة تذكر أن هذا الابن الذي ملأ البيتَ بهجةً كان في الأصـل نُطفةً من ماء مهين ، إذا أمسك تفاحةً ليأكلها تذكر خالقَ هذه التفاحة كيفَ أبدعها وجعلها بهذا الحجم وبهذا القوام وبهذه الرائحة وبهذا الطعم وبهذا الشكل وبهذا الوقت المناسب في نضـجها .. يعني كلما عاينتَ شيئاً من خلق ا عز وجل يجب أن تذكر ا ، هذا المؤمن دائماً ذاكر لا يغفل ، يعني إذا نظر إلى الشمس إذا نظر إلى القمر إذا نزلت الأمطار هبت الرياح .

وفي المُسند مرفوعاً من حديث أبي الدرداء رضي ا عنه أنه قال :

.... عن أبي الدرداء رضي الله عنْه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم ألا أُنبئكُم بخَير أعمالكُم وأَزكَاها عنْد مليككُم وأَرفعها في درجاتكُم وخَير لكُم من إِنْفَاق الذهبِ والورِق وخَير لكُم من أن تَلقَوا عدوكُم فتَضرِبوا أَعناقَهم ويضرِبوا أَعناقَكُم قالُوا بلى قال ذكْر الـله تعـالى ...... *

ما قولكم .. خير لكم من كل شيئ .

........عن الأغَر أبي مسلم أنه قال أَشهد على أبي هريرةَ وأبي سعيد الخُدري أنهما شـهدا على النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يقْعد قَوم يذكُرون الـله عـز وجـل إلا حفَـتْهم الملائكةُ وغَشيتْهم الرحمةُ ونَزلَتْ عليهم السكينَةُ وذَكرهم الله فيمن عنْده ...... *

.. إذا مجموعة أخوان التقوا في سهرة ، التقوا في دعوة، وذكـروا ا عـز وجـل وذكروا آياته ، ذكوا أوامره ، ذكروا نواهيه ، ذكروا صفات النبي عليه الصـلاة والسـلام ، ذكروا أعمال أصحابه ، ذكروا ما عنده من نعيم مقيم ، ذكروا عذابه فخافوا ، ذكروا نعيمـه فاشتاقوا ، ذكروا جلاله فخشوه ... هذا المجلس مجلس علمٍ ، مجلس ذكر مجلس مذاكرة بـين الأخوة . لذلك الإنسان لابد له من جلسة مع ربه وجلسة مع أخيه ، إذا جلسـتَ مـع أخيـك

وحدِّثه عن ربك انطلقَ اللسانُ بذكر ا ، هذا الحديث يجب أن يكون في أعلى موضع مـن مواضع قلوبنا . " ....عن الأغر أبي مسلم أنه قال أشهد على أبي هريرة وأبـي سـعيد الخُدري أنهما شهدا على النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يقعد قوم يذكرون الله عـز وجل إلا حفتهم الملائكةُ وغشيتْهم الرحمةُ ونزلتْ عليهم السكينةُ وذكرهم الله فـيمن عنْـده .... * "

يكفيك شرفاً إذا ذكرتَ ا عز وجل أن ا عز وجل يباهي بك الملائكة .

الآن أغلب الناس يسهرون يجتمعون ، ويولمون وليمة ، في هذه الجلسة يتحـادثون في أمور الدنيا بالبيع وبالشراء بالتجارات بالأخبار التي يسمعونها وينفض المجلس وينتهـي الأمر . لكن النبي عليه الصلاة والسلام يقول لك

.... عن أبي سعيد الخُدري قال خرج معاويةُ على حلقة في المسجد فقال مـا أجلسـكم قالوا جلسنا نذكر الله قال آلله ما أجلسكم إلا ذاك قالوا والله ما أجلسنا إلا ذاك قال أما إنـي لم أستحلفكم تُهمةً لكم وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم أقل عنْـه حديثًا مني وإن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من أصـحابه فقـال مـا أجلسكم قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا قـال آللـه مـا أجلسكم إلا ذاك قالوا والله ما أجلسنا إلا ذاك قال أما إني لم أستحلفكم تُهمةً لكم ولكنه أتاني جبريلُ فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكةَ *

إذا جلستَ مع أخيك تذاكر العلم ، إذا جلستَ مع أخيك لتذكر ا عز وجل ، لتحدِّثه وليحدثك ، تتلو عليه بعض أيات القرآن الكريم ، لتفسرها له ، لتنصحه لينصحك ، لتقفَ على سُنَّة نبوية ، لتقفَ على موقف شريف لأصحاب رسول ا ، إذا فعلتَ هذا فأنتَ ممن ينطبـقُ عليك هذا الحديث . " قال ما أجلسكم ..؟.. قالوا جلسنا لنذكر ا ونحمده علـى مـا هـدانا للإسلام ومن علينا ، قال ما أجلسكم إلا ذلك " .. هكذا .. اصدقوني ما في نية ثانية ..؟.. أيام الأخ يأتي للجامع بباله أن يلتقي بفلان يعلم أنه يوجد في هذا المجلس النية اختلفت قـد يـأتي الإنسان إلى بيت ا عز وجل لا يرجو إلا رضاء ا عز وجل .

إنسان كان في المسجد ينشدُ ضالةً النبي عليه الصلاة والسلام غضب منه ، كأنـه دعا لا وجدتها .

ا عز وجل قال :

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾

(سورة الليل)

هؤلاء الذاكرون جلسوا ليذكروا ا عز وجل لا قصد الطعام والشراب ولا الضيافة ولا الشوق ولا اللقاء .

.... عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن رجلا قال يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرتْ علي فأخبرني بشيء أتشبثُ به قال لا يزالُ لسانُك رطبا من ذكر الله ...... *

والحقيقة ربنا عز وجل يختم عملَ الإنسان بحسب حياته إذا كان في حياته طائعاً ، إذا كان في حياته منيباً ، يختم حياته وهو في صلاة ... أشخاص أعرفهم وهو ساجد قبضه ا عز وجل في طاعة في عبادة .

.... عن عمرو بن قيس عن عبد الله بن بسر قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم أعرابيان فقال أحدهما من خير الرجال يا محمد قال النبي صلى الله عليه وسلم من طال عمره وحسن عمله وقال الآخر إن شرائع الإسلام قد كثرتْ علينا فباب نتمسك به جامع قال لا يزالُ لسانُك رطبا من ذكر الله عز وجل *

هذا أعظمُ عملٍ تفعله ، يبدو أنك إذا ذكرتَ ا اتصلتَ به وهذه قمةُ العبادات كلها ، الصلاة من أجل الصلة ، الحجُ من أجل الصلة، الصيام من أجل الصلة ، الزكاة من أجل الصلة ، غَضُّ البصر من أجل الصلة ، تحري الحلال من أجل الصلة ، كل عباداتك وكل طاعاتك ومعاملاتك وإحسانك من أجل الصلة ، فإذا اتصلتَ با عز وجل فقد حققتَ الهدفَ من وجودك ،

...... قال حسن الأشيب راشد أبو يحيى المعافري أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي عن ابن عمرو قال قلتُ يا رسول الله ما غنيمةُ مجالس الذكر قال غنيمةُ مجالس الذكر الجنةُ *

إذا عاملت إنساناً رأيتَ منه وفاء ، حياء ، شهامةً ، مروءةً ، رحمةً ، عطفاً ، لطفاً ، يجب أن تحكم أن هذا الإنسان له مجلسُ ذكر يحضره ، له مشرب ، له نبع يرتوي منه ، له صلةٌ با عز وجل ، ما من إنسانٍ يرحمك أو يعطفُ عليك أو يُنصفك أو يفي بعهده إلا وله صلةٌ با عز وجل .

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ ﴾

(سورة العلق)

انظر إلى عمله ، انظر إلى أخلاقه ، انظر إلى لؤمه ، انظر إلى قذارته ، إلى أنانيته ، إلى إخلافه الوعد ، إلى إيثاره مصالحه ، انظر إليه عمله يُنبئك بحاله . أفرأيتَ الذي ينهى عبداً إذا صلى أرأيتَ إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ؟ .. إنسان آخر .

.......عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لن يُنجي أحدكم عمله قالوا ولا أنتَ يا رسولَ الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة فسددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغُوا *

سافرت .. اذكر الله في سفرك ، رأيتَ جبلاً شامخاً ، رأيتَ بحراً مضطرباً ، رأيتَ سماء صافيةً ، رأيتَ بلاداً لا تعرفها ، في سفرك ، في حضرك ، في إقامتك ، في تجارتك ، في نزهتك ، في سكونك ، في حركتك ، " **اغدوا وروحوا واذكروا** " من كان يحبُّ أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيفَ منزلة الله عنده . يعني .. ساحة نفسك .. إن صح التعبير .. ماالذي يشغلها ..؟.. قد تكون الدنيا هي التي تشغلها ، وقد يكون ذكرُ الله عز وجل هو الذي يشغلها ، فإذا أردتَ أن تعرفَ ما لله عندك ، أردت أن تعرفَ ما لك عند الله فانظر ما لله عندك ..

........عن ابن مسعود قال قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لقيتُ إبراهيم ليلةَ أُسري بي فقال يا محمد أقرئْ أُمتكَ مني السلام وأَخْبرهم أن الجنةَ طيبةُ التربة عذبةُ الماء وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر..... *

يجب أن تسبحه ، أن تنزهه ، وأن تمجده ، ويجب أن تحمده ، وأن توحده ، وأن تكبره ، وهذا ذكرُ الله عز وجل . يعني أحياناً نُحدثنا عن آية كونية في الفلك ، عن آية في خلق الإنسان ، هذا من تسبيح الله .. هذا من تكبيره .. لا تفهموا من هذا الكلام أن تقول : سبحان الله سبحان الله .. هذا ذكر أيضاً ولكن إذا عرضتَ علينا آيةً من آيات الله الباهرة فعرضُ هذه الآية نوع من أنواع الذكر ، إذا عرضتَ هذه الآية سبحنا الله عز وجل ، كبرنّاه ، عظمناه ، وحدنّاه .

......عن أبي موسى رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم مثلُ الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثلُ الحي والميت *

.. مادام قلبه غافلاً عن ذكر الله فهو ميت .

.... عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال مثلُ البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثلُ الحي والميت *

(في لفظ مسلم)

هذا البيت يجب أن يكون مُفعماً بذكر ا ، بتلاوة القرآن . أما بيوت المسلمين اليوم كُلها غناء ... في أي وقت الأغاني تصدح في أرجاء البيت ، فالبيت الذي يُذكر ا فيه بيتٌ حي ، والبيت الذي لا يُذكر ا فيه بيتٌ ميت ، قال بعضُ الشعراء :

فنسيان ذكر ا موت قلوبهم وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشور

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل أنه قال من ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي ومن ذكرني في ملأ من الناس ذكرتُه في ملأ أكثر منهم وأطيب *

هناك ثلاثةُ أنواعٍ للذكر : ذكرُ ا عز وجل وذكرُ أسمائه وصفاته . ا ربنا ، ا خالقنا ، ا إلهنا ، وجود ا عز وجل ، وحدانيته ، كمالاته ، أسماؤه الحسنى ، صفاته الفُضلى ، لذلك : إن ِ تسعةً وتسعين اسماً من أحصاها دخلَ الجنة . إذا فهمتَ هذا الاسم ، فهمتَ تعريفه ، فهمتَ مظاهره ، فهمتَ براهينه ، فهمتَ تطبيقاته ، هذا ذكر .. باب من أبواب الذكر .. أن تذكر ا خالقاً مربياً مسيراً ، وأن تذكره في أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى .

النوع الثاني : أن تذكر أمره .. ما حُكم هذا الشيء ..؟.. الأمر والنهي والحلال والحرام ، المكروه ، المباح ، المندوب ، الواجب، في كل شيء.. في تجارتك ، في بيعك ، في شرائك ، في طعامك ، في شرابك ، أيجوز هذا ، لا يجوز ، هذا باب آخر من باب الذكر .. يعني أن تذكر ا وأن تذكر أمره ، أن تذكرهُ كي تعرفه وأن تذكر أمره كي تعبده تذكره لتعرفه وتذكر أمره لتعبده ، هذا نوع آخر من أنواع الذكر .

النوع الثالث : ذكرُ الآلاء والنعماء والإحسان والأيادي .. الكون الشمس ، القمر ، الماء في درجة +٤ ينكمش ، يزداد حجمه خلافاً لكل الأجسام .. هذه آية من آيات ا ولولا هذه الآية لما كُنّا أحياء . كل عنصر إذا بردته ينكمش فإذا سخّنته يتمدد ، إلا الماء في درجة +٤ إذا بردته يزداد حجمه لولا هذه الخاصة لما بقيت حياةٌ على وجه الأرض ، مثلاً آية النبات أنها تأخذ غاز الفحم وتطرح الأوكسجين .. هذه آية عظيمة جداً .. الثقب في القلب ثقب بوتال لولا هذا الثقب لما نما الجنين ولولا أنه يُغلقُ عند الولادة لما عاشَ الطفل . آية القلب ، آية الرئتين ، آية الأعصاب ، العضلات ، الأجهزة ، هذا الطعام ، النبات ، الجذور ، النُسغ

الصاعد ، النُسغ النازل، في آيات بالنبات لا يعلمُها إلا ا ، آيات بالحيوان ، آيات بالإنسان ، آيات بالأكوان ، فهذا نوع من الذكر .

تذكر ا عز وجل خالقاً ومربياً ومسيراً أسماءه وصفاته، وتـذكر أمـره ونهيـه وحلاله وحرامه ، وتذكر آلاءه ونعمه .

الذكر أنواع : نوع يتواطأ عليه القلبُ واللسانُ وهو أعلاهُما ، واحد ذهـب لـيحُج فطاف أخذَ بالكعبة فنَسي أشواط الطواف فسألَ شيخه قال : يابني لقد طُفتَ برب البيـت ولـم تطُف بالبيت فذهب ليطوفَ ثانيةً وضبطَ الأشواط ونسي ذكر ا عز وجل ، قالَ يـابني لقـد طُفتَ بالبيت ولم تطف برب البيت ، المرة الثالثة جمع قلبه على ا وضبطَ الأشـواطَ بشـكلٍ صحيح قالَ له الآن طُفتَ بالبيت ورب البيت . فأعلى أنواع الذكر في صلاة تقرأ القرآن وقلبك مع ا .

أول أنواع الذكر ذكر يتواطأ عليه القلبُ واللسان وهو أعلاها ، الإمام الغزالـي يقول : أعلى درجات ثواب القرآن الكريم أن تقرأه في بيت من بيوت ا في صلاة قائمـاً ... الصلاة في المسجد ، وأنتَ قائم ، وتقرأ القرآن .. وذكر بالقلبِ وحده وهذا في الدرجة الثانية ، وذكر باللسان المُجرد وهذا بالدرجة الثالثة .

وقالوا : ذكرُ العبد ربه محفوفٌ بذكرين : ذكرك ا ذكرته فذكرك . ذكرك قبلَ أن تذكرهُ وذكرك بعد أن ذكرته ، قال تعالى :

فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

(سورة البقرة)

من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي .. ومن ذكرني في ملأٍ ذكرته في مـلأٍ خيـر منهم .

و هناك ذكرُ الثناء إذا قلتَ سبحان ا والحمد ولا إله إلا ا وا أكبر هذا ذكر الثناء، وإذا قُلت : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين هذا ذكرُ الدُعاء ، فأنتَ إذا سبحتَ ا أو وحدته أو كبرته أو حمدته فقد ذكرته وإذا دعوته فقد ذكرته .

.. يجب أن تحفظ بعض الأدعية : اللهم إني أعوذُ بك من الذل إلا لك ومن الفقر إلا إليك ومن الخوف إلا منك ، أعوذُ بك من عُضال الداء ومن شماتة الأعداء ومن السلبِ بعـد العطاء، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله عوناً لي فيما تُحب وما زويتَ عني ما أُحب فاجعله فراغاً لي فيما تُحب ، اللهم أنا بك وإليك ، اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا وآمنّا في أوطاننا . فالإنسان يكون ماشياً في الطريق يتلهى بنظر عابث لو أنه دعا ا عز وجل أقام الصلة معه

إذاً : ينبغي للمؤمن أن يحفظ أدعيةً أُثرت عن النبي صلى ا عليه وسـلم .. فـي أدعية جميلة جداً .. اللهم اقسم لنا من خشيتك ماتحولُ به بيننا وبين معصيتك ومن طاعتـك ما تُبلّغنا بها جنتك ومن اليقين ما تُهونُ به علينا مصائب الدنيا ومتعنا اللهم بأبصارنا وأسماعنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارثَ منّا ... إلى آخر الدعاء . أقدمت على عمـل : اللهـم إنـي تبرأت من حولي وقوتي وعلمي والتجأتُ إلى حولك وقوتك وعلمك يا ذا القوة المتين .. أدعية كثيرة جداً .. اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمةُ أمرنا وأصلح لنا دنيانا التي فيهـا معاشُـنا ...... فالدعاء ذكر فالإنسان إذا دخلَ بيته في دعاء ، إذا خرج من بيته في دعاء ، اللهم أعوذ بك من أن أظلم أو أُظلم أو أجهلَ أو يُجهلَ علي أو أضل أو أُضل ، أقدم على عمـل أسـألك خيره وخير ما خُلقَ له ، ركب دابته ركب مركبته .. فهذه الأدعية إذا حفظها وأفضل كتـاب بهذا الموضوع كتاب الأذكار للإمام النووي . أذكار النبي عليه الصلاة والسلام حتى أن الذي يقربُ أهله يدعو لئلا يأتيه يجعل حياته جحيماً ، فالدعاء ذكر والتسبيح والتحميـد والتهليـل والتوحيد والتكبير أيضاً ذكر ، ففي الذكر ذكرُ ثناء وذكرُ دعاء وذكرُ رعايـة إذا قلـت: ا معي ا ناظر إلي ا شاهدي هذا ذكر رعاية ، فيجب أن تُنوع في الـذكر .. ذكـرُ الـدعاء وذكرُ الثناء وذكرُ الرعاية .

الأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة فهي متضمنة الثناء على ا والتعرض للـدعاء والسؤال والتصريح به ، قالَ عليه الصلاة والسلام: أفضلُ الدعاء الحمد . .. قيل لسفيان بن عُيينة كيف جعلها النبي دُعاء ..؟.. قال له أما سمعتَ قولَ الشاعر :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حباؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثنـاء

إذا دخل أحدهم بيتك وقال لك : أنا أعرفك كريماً وسكت ، ألا تفهم منها شيئاً هـذه ..؟.. لم يقل أريد منك شيئاً، قال لك أنا أعرفك عفواً وعملَ معك ذنب ، ألا يعني الثناء عليك أنه يُطالبك أن تعفو عنه ..؟..

ثناؤك على ا عز وجل نوع من أنواع الدعاء . النبي الكريم يقول : أفضلُ الدعاء الحمدُ .

الحقيقة هذا الدرس قيمته في تطبيقه فإذا الإنسان دعا قبلَ أن ينام ، عندما يستيقظ ، إذا خرج من بيته ، دخلَ إلى عمله ، أقدم على عمل مهم ، قبلَ أن يعقد صفقة ، هذا الدعاء هـو صلة با ، هو استعانة با ، فأنتَ إذا دعوتَ ا في كل أحوالك فأنتَ مـن الـذاكرين ، إذا حمدته وأثنيتَ عليه فأنتَ من الذاكرين ، إذا قلت ا معي ا شاهدي ا ناظر إلي فأنتَ مـن

الذاكرين ، إذا قرأت القرآن فأنتَ من الذاكرين ، إذا سمعتَ القرآن فأنتَ من الـ ذاكرين ، إذا جلستَ تستمع إلى تفسير القرآن فأنتَ من الذاكرين ، إذا فسرته فأنتَ من الذاكرين ، إذا أمرتَ بالمعروف فأنتَ من الذاكرين ، إذا قرأتَ كتاب فقه فأنتَ من الذاكرين .

كلُّ عملٍ ابتغيتَ به وجه ا ِ وذكرتَ ا فيه فأنتَ من الذاكرين . لـ ذلك .. كـ ـأن الذكر هو غاية العبادات ومنتهى آمال العابدين .

والحمد رب العالمين

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم .... مع الدرس العاشر من دروس مدارج السالكين في مراتب إياك نعبد وإياك نستعين .. يا أيها الأخوة الأكارم منزلة اليوم لستُ مبالغاً إذا قلت إنها من أخطر المنازل بل إنها من أشد المنازل حاجةً إليها . يعني ما مر على المسلمين في تاريخهم وقتٌ هم في أمس الحاجة إلى هذه المنزلة منهم في هذا الوقت وقد تعجبون من عنوانها ، إنها منزلة الأخذ بالأسباب أو كما سماها ابن القيم: إنها منزلة رعاية الأسباب . وقبلَ أن أُفصلَ في هذه المنزلة أتمنى أن أُوفقَ إلى مقدمة قصيرة تلقي ضوءاً على هذه المنزلة .

الشيء الذي يلفتُ النظر أن النجاح في الحياة يعزى إلى صحة التصور ، وأن الإخفاقَ فيها يعزى إلى سوء التصور ، فلو أن طالباً حققَ نجاحاً عالياً في امتحانٍ ما ، هذا النجاح يعزى إلى حسن تصور الطالب لضبطه للوقت ولإستخدامه للوقت ولإتمامِ ما يجب أن يتمه فإذا أخفق فيجب أن نتساءل لعل هناك خطأً في تصوره . ماالذي جعلَ المسلمين في فجر الإسلام وفي عقود الازدهار يتفوقون وا سبحانه وتعالى يمكّنهم ويستخلّفهم وتُرفرف راياتهم في مشارق الأرض ومغاربها ؟ وماالذي جعلهم بعد وقت معين في مؤخرة الأمم ؟ لماذا كانت كلمتهم هي العليا وليست كلمتهم عليا في وقت آخر ؟ لماذا كانوا أقوياء في وقت وليسوا كذلك في وقت آخر ؟ لماذا كانوا دعاة ورعاة للأمم فلماذا أصبحت الأمم ترعاهم وتتولى الوصاية عليهم ..؟.. هذا سؤالٌ كبير القرآن هو هو والسنّة هي هي والعلم هناك ازدهار في العلم هناك ازدهار في نشر العلم ، ماالذي جعلَ المسلمين السابقين في القمة وماالذي جعلَ بعضهم في الحضيض ، لماذا كانوا مثلاً عليا لماذا فتحوا البلاد ؟ لماذا رحموا العباد ..؟.. هذه أسئلة كبيرة .

لا شك أن أصحاب النبي عليهم رضوان ا شيء فَهموا الإسلام فهماً صحيحاً ، ولا شك أن الرعيلَ الأخير الذي جاء في آخر الزمان فَهم الإسلام فهماً سيئاً . من باب التوضيح إنسان عنده شركة سيارات كبيرة جداً كل يوم ينفجر بسياراته ١٠٠ إطار ، لماذا ، ماالسبب ، و شركة أخرى لا ينفجر إطار في الشهر مرة مثلاً .. ماذا نقول ..؟.. نقول لعل مدير هذه الشركة أعطى تعليمات إلى جعل ضغط الهواء ضغطاً عالياً لايتناسب مع الجو فكلما أسرعت هذه المركبة تمدد الهواء وانفجر الإطار . فالخطأ في عقل مدير هذه الشركة ، الذي أعطى هذه التوجيهات بشكلٍ مغلوط ، فكلما انفجر إطار يأتي هذا المدير ويوبخ صاحب المركبة ، العاقل والعالِم يقول هناك خطأٌ في التصميم ، هناك خطأ في المنهج ، هناك خطأ في الفهم

هناك خطأ في التصور ، هذا المدير العام لهذه الشركة الضخمة يجب أن يعلم أن الإطار يجب أن يكون له ضغط للهواء في الصيف معين نحن حينما نرى أخطاء كثيرة .. في تمزق ، في تبعثر ، في ضعف ، في ركون للدنيا ، في رغبة في متع الحياة ، في عداء ، في تباغض ، في تحاسد ، في ضعف عام ... هناك خطأ في التصور ... كأن هذه المنزلة التي نحن بصددها الحديث عنها كأنها إجابةٌ شافيةٌ لِما يعاني المسلمون من مشكلات .

.. هناك مشاعر عاطفية إسلامية هذه نحترمها ولكن لا تكفي ، هناك شعور إسلامي جيد كل مسلم يتمنى أن يكون المسلمون بوضع مقبول ، بوضع ممتاز ، بوضع عزيز ، بوضع قوي بوضع فيه تفوق ، لا شك ... هذه العواطف نحترمها ولكن هل تكفي العواطف ، هل يكفي أن أتعاطف مع الإسلام والإسلام يعاني ما يعاني ..؟.. أين الخطأ ، أين الخلل ، أين الضعف أصحاب النبي من طينة أخرى، من بنية أخرى .. لا وا .. يعني الإله تغير .. لا وا .. هو هو. ا سبحانه وتعالى أسماؤه حسنى وصفاته فُضلى وهو معنا أين ما كُنّا ، معنا من قبل ومعنا الآن ومعنا من بعد ... الإله هو هو، القرآن هو هو، الحق هو هو .

.. تصور العلماء للدين شيء مهم جداً ومن هنا كانت هذه المنزلة اسمها منزلة رعاية الأسباب، وأقول لكم دائماً ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم يعني أنتَ إذا بإمكانك أن تُقنع الآخرين أن هذا هو الصواب فيها ونعمت وإن لم يكن بإمكانك أن تُقنعهم افعل ما أنتَ قانع به تنل من ا كل الوعود وتقطفَ كل الثمار ، وإن أقنعتَ الناس بأن يفعلوا ما هو صواب كان الفرج عاماً .

الموضوع يشمل كل مسلم ، في كل مهنة ، في كل حرفة ، هذا السؤال الكبير لماذا تفوقَ أصحاب النبي لماذا تفوقَ التابعون ، لماذا كانوا مستخلفين في الأرض ، لماذا كانت كلمتهم هي العليا ، لماذ كانوا ممكنين ، ولماذا نحن متخاذلون ، لماذا نحن ضعفاء ، لماذا كلمتنا ليست هي العليا ماالسر .. أقول لكم بكل تأكيد هناك خطأ في التصور . يعني مثلاً : لو أوهمنا سائق مركبة. أن ضوء الزيت .. إذا تألق يكون تسليةً لك وهو في الحقيقة خطر على المحرك ، فالذي فَهم سر هذا الضوء الأحمر في العدادات التي أمامه يقف فجأة ويضيف الزيت ، والذي ظن أن هذا الضوء للتسلية يتابع السير فإذا بالمركبة يحترق محركها ويدفع المبالغ الطائلة لإصلاحها . أحياناً لا يهمني الخطأ بالواقع يهمني الخطأ أين .. في التصور .. لما المحرك احترق .. ماالسبب ..؟.. لِظن السائق أن ضوء الخطر الذي تألق ليسلّيه لا لينذره .

في ضوء هذا التمهيد نشرح هذا الموضوع . تجد المسلم يتوكل على ا في أعماله لا يتقن عمله ويتوكل ، لا يأخذ بالأسباب ويتوكل ، وقلوبه مشرك ، بقلبه يعتمد على زيد أو

عبيد وعمله ظاهره متوكل ، هذا خطأ مزدوج والعكس هو الصواب يجب أن يتوكل بقلبه وأن يسعى بعمله ، والأحداث والظروف والصدامات في العصور الحديثة تؤكد هذه المقولة .

قال من منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة رعاية الأسباب ذلك أن التوحيد .. ما تعلمت العبيد أفضلَ من التوحيد . أن تقول لا إله إلا ا لا مسير لارب إلا ا لا خالِقَ إلا ا لا معطي إلا ا لا مانع إلا ا لا معز إلا ا لا مذلَ إلا ا لا باسطَ إلا ا لا قابض إلا ا ، هذا التوحيد ، والتوحيد له مستويان مستوى قولي لساني وهذا سهل جداً ومستوى نفسي فكم من موحد مشرك ، كم من موحد بلسانه مشرك في قلبه في جنانه ، يقول لا إله إلا ا بلسانه وكل اعتماده على فلان وكل ثقته بماله كل إعتماده على قوته كل اعتماده على أولاده كل اعتماده على أهله .. هذا موحد مشرك بآن واحد .. يؤكد هذا قول ا عز وجل :

وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

(سورة يوسف)

ياليت هذا الخطأ في التصور أو في العقيدة يبقى في العقيدة ، هذا ينعكس في السلوك ينعكس في حياتنا العامة ، ذلك أن التوحيد يقتضي القيام بالأسباب الظاهرة . أخي ابنك مريض .. يقول سلّمته .. هذا الكلام هو الجهلُ بعينه ، أنت بالرياضيات مقصر .. يقول أنا ا عز وجل يكرمني كل سنة أدعوه دعاءاً حاراً فيوفقني هذا هو الجهلُ بعينه ، هذه البضاعة لا تُباع معك تقول سبحان ا .. أنت عندما اشتريتها كنت دقيقاً بشرائها لك درست السوق .. درست النوعية .. درست السعر .. أخذت بضاعة سيئة بسعر مرتفع انظر لهذا الموقف الذي فيه جهل ، مادام المسلمون في هذا الجهل يعزون أخطاءهم إلى القدر، كلما وجد مشكلة بحياته يقول لك أخي ا لم يسمح .. ا لم يرد .. ا لم ييسر .. ا لم يجبر .. هذا الموقف الذي كان الصحابة على عكسه .

قال : التوحيد إذا كنتَ موحداً إذا رأيتَ يد ا لا يد غيرها ، إذا رأيتَ أن الأمر كله بيد ا ، إذا رأيت أن ا هو كل شيء ، قال يجب أن تأخذَ بالأسباب كل الحركات والأعمال ، ويجب أن تعتبرها يعني أن تحترمها أن تهتم بها ، ويجب أن لا تُهملها ، ويجب أن لا تُعطلها ، .. النجاح في الامتحان يحتاج إلى دراسة ، النجاح في التجارة يحتاج إلى دراسة السوق نوع البضاعة وأسعار البضاعة والكمية المناسبة والتصنيف المناسب وعرض البضاعة بشكل جيد كل شيء يجب أن تأخذَ بأسبابه ، إذا أردتَ أن تنتمي إلى أمة كانت فيما مضى أمةً رائدةً للأمم إذا أردتَ أن تنتمي لأمة كانت في مقدمة الأمم هذه الأمة بدأت كما فعلَ النبي

عليه الصلاة والسلام . مثل تعرفونه دائماً : هل في الأرض كلها إنسان يستحقُ النصر والتأييد والعون كرسول ا أكمل إنسان رسول ا ، يوحى إليه ، جاء بالإسلام ، ومع ذلك ما فرطَ في الأخذ بالأسباب قيد أنملة .

التوحيد .. إذا كنتَ موحداً .. يجب أن تأخذَ بالأسباب وأن لا تهملها وأن لا تُعطلها وأن تعتمدها .. تعتمد أن تأخذها . لأن هذا من لوازم التوحيد ، أما إذا عزلتها وأهملتها واحتقرتها وتجاوزتها فأنتَ لستَ موحداً .

فموقف الاستكانة ، موقف التقصير ، موقف الكسل ، موقف التسيب ، هنا خسران ووضعك سيء ، ليس هذا موقفاً صحيحاً إسلامياً .. الموقف الإسلامي ابنك مريض يجب أن تأخذه إلى الطبيب وأن تختار أفضل طبيب وأن تشتري الدواء الصحيح وأن تعطيه الدواء بعناية فائقة وأنتَ في كل هذه الحركات تقول يارب لا شافي إلا أنت .

بهذا يصبح حالُك طيباً ، بهذا تقوى ، بهذا ترقى ، بهذا تستحقُ تأييد ا ، بهذا تستحقُ نصر ا ، بهذا تستحقُ إكرام ا عز وجل .

.. الحقيقة في نقطة دقيقة دائماً التطرف سهل ، مثلاً أب سهل جداً أن يكون ليناً ضعيف الشخصية ، لا يحتاج هذا إلى ذكاء كل قضية ساكت ، ابنه تطاول صاكت ، ابنته تأخرت غير آبه ، ابنته وضعها لا يناسب لا تحتج ، صهره مقصر يغض الطرف ، زوجته مهملة لا يناقش ، ... وسهل أن تكون عنيفاً ... كل غلطة تضرب ، كل غلطة تسب ، الموقف العنيف سهل واللين سهل ، أما الموقف البطولي أن تكون في الوقت نفسه مرغوباً ومرهوباً ، أن يرجوك من معك وأن يخافَ منك .

ألا تكون ليناً فتُعصر وألا تكون قاسياً فتُكسر ألا تُؤله الأسباب .. سمعتُ عن قصة طبيب اكتشف أن الجري شيء له آثار في صحة القلب لا يعدلها شيء ، هو يجري كل يوم ويكتب المقالات ويتحدث وينصح لكنه اعتمد على الجري وحده ، وظن أن الجري هو كل شيء ، وظن أن الذي يجري لا يموت ، وأن الذي يجري لا يمرض ، وأن الصحةَ كلها في الجري ، ودبج المقالات ، وكتب الأحاديث ، ونصح الناس ، وكان يجري كل يوم ساعتين فأكثر ، وماتَ وهو يجري وكان في ريعان الشباب . هذا ما فعل هذا الطبيب ..؟.. ألّه الأسباب هذه حالة .

وفي إنسان يتوكل على ا ويهمل الأسباب ويتوكل على ا بسذاجة ، فالتوكل مع إلغاء الأسباب سذاجة وجهل ، وتأليه الأسباب جهل ، هذه غلط وهذه غلط ، لا ترقى إلا بأخذك بالأسباب وتوكلك على رب الأرباب هذا الكلام دقيق جداً يمس كل مسلم ، يمس كل صاحب مصلحة، كل صاحب مهنة ، كل صاحب معمل ، كل تاجر ، كل مدرس، كل مهندس كل طبيب كل أب ، كل أم ، كل زوجة ، هذا يمس كل الناس .

لن تكتحلَ عيناك برؤية المسلمين أقوياء لهم الكلمة العليا ، رعاة للأمم بعد أن كانوا رعاة للغنم .... لن ترى المسلمين قادة ، لن تراهم في الصدارة إلا إذا طبقوا هذا الموقف الدقيق من السهل أن تأخذَ بالأسباب وتعتمد عليها وتؤلهها ، ومن السهل أن تدعها وأن تعتمد على ا ساذجاً ولكن البطولة أن تأخذَ بالأسباب وأن تتوكل على ا .

...... عنْ جابِرٍ قالَ قالَ رسولُ الله صلى الله علَيْه وسلم قارِبوا وسددوا واعْلَموا أَنَّ أَحدا منْكُمْ لنْ ينْجِيه عملُه قالُوا يا رسولَ الله ولا أَنْتَ قالَ ولا أَنَا إِلا أَنْ يتَغَمدني الله بِرحْمة منْه وفَضْلٍ *

هل هناك أوضح من هذا الحديث .. " **اعملوا واعلموا أن أحداً منكم لن ينجيه عمله ..** " طبق كل القواعد الصحية ، أما إذا طبقتها واستغنيتَ بها عن ا وألهتها لن تنجو من المرض يجب أن تأخذَ بها وأن تعتمد على ا عز وجل وأن ترجو ا . هذا أول حديث . اعملوا واعلموا ادرس وتوكل ، وانتق البضاعة الجيدة بالسعر المناسب ثم توكل في بيعها على ا عز وجل أقم كل الأسباب وتوكلّ على رب الأرباب هذه منزلة رعاية الأسباب .

.... عنْ علي قالَ كان رسولُ الله صلى الله علَيْه وسلم ذَاتَ يوْمٍ جالِسا وفي يده عود ينْكُتُ بِه فَرفَع رأْسه فَقَالَ ما منْكُمْ منْ نَفْسٍ إِلا وقَدْ علم منْزِلُها من الْجنة والنارِ قالُوا يا رسولَ الله فَلم نَعْملُ أَفَلا نَتكلُ قالَ لا اعْملُوا فَكُل ميسر لِما خُلقَ له ثُم قَرأَ (فَأَما منْ أَعْطَى واتقَى وصدقَ بِالْحسْنَى) إِلَى قَوْلِـه (فَسنُيسره لِلْعسْرى) .... *

اعمل واعلم أنك ميسر لِما خُلقتَ له ..؟.. خُلقتَ ليرحمك ا عز وجل .حينما تعمل الطاعات فقد حققتَ المراد الإلهي ، فإذا عملتَ المعاصي وأنتَ قد خُلقتَ للرحمة والاكرام فلابد من العلاج .

النبي عليه الصلاة والسلام هذا الذي لا ينطقُ عن الهوى كلام النبي يمثل تعليمات الصانع .. قالَ يارسولَ ا أرأيتَ أدويةً نتداوى بها ، ورقىً نسترقي بها ، وتُقاتاً نتقي بها ، هل ترد من قدر ا شيئاً؟ أحياناً محاكمة ساذجة إذا الدواء أخذته وا كتب لي أن أمرض يفيدني .. قلتَ له لا ، إذا ا عز وجل كتب لي الشفاء الدواء يشفيني .. لا .. إذاً اترك الدواء . هذه محاكمة الجهل .

.... عنْ أَبِي خزامةَ قالَ سئِلَ رسولُ الله صلى الله علَيْه وسلم أَرأَيتَ أَدْويةً نَتَداوى بِها ورقًى نَسْتَرْقي بِها وتُقًى نَتقيها هلْ تَرد منْ قَدرِ الله شيْئًا قالَ هي منْ قَدرِ الله *

هي أيضاً من قدرِ ا ، إنك إذا استخدمتَ الدواء فررتَ من قضاء ا وهو المرض إلى قضاء ا وهو الشفاء ، المرض قضاء ا والشفاء قضاء ا فررتَ من قضاء ا إلى قضاء ا .. هذا الموقف الدقيق .. لن نرقى ، لن نقوى ، لن نعلو ، لن نُعز ، لن نُستخلف ، لن نطمئن ، إلا إذا كُنّا هكذا .

القصة الشهيرة التي حدثتكم عنها كثيراً وهي أن سيدنا عمر رضي ا عنه حينما سافر إلى الشام وقفَ على أبواب الشام وكان فيها الطاعون فرجع عمر خافَ أن يدخلَ بأصحابِ رسول ا إلى الشام فقال له أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين أتَفر من قَدرِ ا ..؟.. فقال عمر : لو غيرك قالها ياأبا عبيدة .. أفر من قَدرِ ا إلى قَدرِ ا ، الطاعون قدر ا والشفاء قدر ا وأنا فررتُ من قدر ا إلى قدر ا ثم نادى في الجيش هل فيكم من سمع من رسول ا صلى ا عليه وسلم شيئاً في الطاعون .. انظر للأدب .. قال هذا تعليم لنا .. يعني ممكن أن يكون أمير المؤمنين وسأل أصحابه هل سمع أحدكم عن رسول ا في هذا الموضوع أجيبوني ..؟.. يعني أنتَ إذا كُنتَ لك مكانة علمية لا تستنكف أن تسألَ الآخرين ، تزداد عندهم مكانةً ليس هذا طعناً في علمك إسأل . سيدنا عمر عملاق الإسلام أمير المؤمنين قال لأصحابه: هل منكم من سمع شيئاً من رسول ا صلى ا عليه وسلم شيئاً في الطاعون ..

.... عنْ أُسامةَ قالَ قالَ رسولُ الله صلى الله عليْه وسلم إن هذَا الطاعون رِجْز سلط على منْ كان قبْلكُمْ أَوْ على بني إِسْرائِيلَ فَإذَا كان بِأَرْضٍ فَلا تَخْرجوا منْها فرارا منْه وإذَا كان بِأَرْضٍ فَلا تَدْخُلُوها *

هذا موقف علمي .

أحد العلماء كان في بلد أجنبي والتقى مع عالِم من كبار علماء الجراثيم وسأله هذا السؤال : يعني إذا كان في بلدة فيها مرض سارٍ ماذا يجب أن نفعل ..؟.. عالِم بعيد عن الإسلام بعد الأرضِ عن السماء ولا يعلم ماالإسلام ولا ماالقرآن ولا ما حديثُ النبي العدنان سئل هذا السؤال : مرض سارٍ وبائي في بلد ماذا ينبغي أن نفعل ..؟.. قالَ أولاً نضرب حولَ هذا البلد نطاقاً ، .. نمنع الدخول إليه ، .. واضح .. من أجل العدوى ، ... فالخطر لا في المرضى ، في حملة هذا الجرثوم . كيفَ كشفَ النبي هذه الحقيقة..؟.. طبعاً إذا كان الطاعون في بلد فلا تدخلوه .. واضح .. لأن فيه عدوى أما لا تخرجوا منه هذه لا تُعرف إلا بالمخابر ، لا تُعرف إلا بعد تحليل دم إنسان صحيح سوي .. هذا حامل جرثوم ..

سنسمع مجموعة آيات .. مثلاً :

وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢١﴾

(سورة الحجر) .

وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ



(سورة الحجر)

إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾

(سورة القمر)

وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾

(سورة يس)

۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ
مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ
فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ
مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن
فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ
مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ

وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ
وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾

(سورة المزمل) .

وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ
بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾

(سورة الطلاق)

ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ
فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾

(سورة الفرقان)

مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾

(سورة عبس)

وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾

(سورة المؤمنون)

۞وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾

(سورة الشورى)

كم آية ..؟.. كُلها بقدر ، بقدر ، قال المعنى في كل هذا خلقه بنظام وترتيب ، خلقه بقدر هناك سنن ، هناك أسباب ، هناك مسببات ، هناك نتائج ، فإذا كان تصميم الكون ... وفق الأسباب والنتائج وفقَ التقدير الدقيق ، وفق الحساب الدقيق ، وفق النظام الرائع ، أنتَ أيها المؤمن يا من تدعي أنك مؤمن با ، هل يليق بك أن تُهملَ نظام ا عز وجل ، أن تُهملَ هذه السنن ، أن تُهملَ هذه المعطيات ، ألاّ تبالي بهذه القواعد ، ألاّ تبالي بهذا التقدير ، أنا أصدقكم القول كل مؤمنٍ يستخفُ بالأسباب فهو سيء الأدب مع ا عز وجل ، كل مؤمنٍ يستخفُ بالأسباب ويحتقرها ولا يبالي بها ولا يأخذُ بها فهو يسيء الأدب مع ا عز وجل ، لو أن إنساناً ركب مركبته ولم يراجعها قبلَ السفر لعل هناك قطع تالفة ، لعل هناك حاجات ناقصة ، لعل هناك خلل في المكبح ، إن لم تُراجع هذه المركبة وفوجئتَ بحادث أو بطارئ أو بانقطاع فأنتَ لم تأخذ بالأسباب ولم تتأدب مع ا عز وجل ، لا نرقى ولا نقوى ولا نستحقُ نصر ا عز وجل ولا نستحق تأييده وعونه وحفظه إلا إذا تأدبنا مع سننه ، يعني أنت عندك مدرسة فيها نظام دقيق قلت الدخول الساعة ٨ ، جاءك طالب وهو ابن صديقك الساعة ٩ ما

دام المدير نظّم هذا النظام قال : يغلق الباب الساعة الثامنة وعلى المتأخر أن يبقى خارج المدرسة . هذا نظام .. إذا كنتَ تُقدر صاحب هذه المدرسة تُجِل هذا النظام وتتقيد به وتحترمه .

الآن : اسمعوا الكلمة الدقيقة .. ما من مؤمنٍ يهمل الأسباب ويستخفُ بها و لايعبأ بها ولا يعتني بها ويهملها ويدعي أنه متوكل فهو كاذب وهو مسيء للأدب ولا يستحقُ نصر ا ولا تأييده ولا حفظه . لا أقول لك يجب أن تأخذَ بالأسباب الكاملة قد تكون الكاملة ليست في مقدورك .. وأنت في قرية ولا يوجد غير طبيب واحد في العاصمة أطباء كثر أعلام بكثير لكن ليس بإمكانك الوصول إليهم .. أن تاخذ هذا الابن إلى هذا الطبيب المتواضع هذه كل أسبابك هذا الذي تملكه ، أنا أقول يجب أن تأخذ بالأسباب المتاحة لك .. المتاحة .. أنا لا أطالبك أن تأخذ بالأسباب المطلقة ، بالأسباب المتاحة .. إن أخذتَ فقد تأدبتَ مع ا عز وجل .

السقوط له قانون معروف كل أخواننا الطلاب درسوه بالفيزياء قانون السقوط . .. أنت لا تقدر أن تُلقي بنفسك من طائرة متوكلاً دون مظلة .. هذه نقطة مهمة جداً .. هذا القانون قائم فهمته أو لم تفهمه بجلته أو لم تبجله ، صدقته أو لن تصدقه ، كذلك في كل شيء آخر لا ينبغي أن تُقدم عليه دون أن تأخذَ بالأسباب ، عدم الأخذ بالأسباب هو سبب تخلف المسلمين ، عدم الأخذ بالأسباب هو سبب ضعفهم ، عدم الأخذ بالأسباب هو سبب تخلي ا عنهم ، .. مدير مدرسة وضع نظاماً دقيقاً يأتي ابن صديقه مخالفاً لهذا النظام أليست في مخالفة هذا النظام احتقار لهذا المدير أليس من سوء الأدب ألا تُبالي بهذا النظام ، فكل إنسان يهمل الأخذ بالأسباب ويفعل ما يحلو له بلا ترو ، بلا دقة ، بلا حسابات ، بلا دراسات ، فهو إنسان بعيد عن الدين ، ودائماً أعداء الدين يتهمون المسلمين بأنهم متواكلون ، بأنهم حالمون ، بأنهم عاطفيون بأنهم يثارون لأتفه الأسباب ، وتضعف هممهم لأتفه الأسباب أنتم على حق .. الأولى بنا أن نأخذ بالأسباب أن نقوى ، الكلام لطالب ادرس جيداً تفوق ، لمدرس ، لمهندس ، لعامل ، لصانع ، لتاجر ، يجب أن تكون في عملك الأول ، إذا فعلنا كلنا هذا نرقى .

الآن : اسمعوا آيات ثانية ..

وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا
ثِقَالًا سُقۡنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ
كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

(سورة الأعراف) .

ا عز وجل هل هو بحاجة إلى المطر كي ينبت الزرع ، إذا أراد إنباتَ الزرع هل هو مضطر كما هو الإنسان إلى إنزال المطر ..؟.. عبر عن هذا علماء العقيدة بنفي العلة الغائية عن ا عز وجل .. أنتَ كإنسان إذا أردتَ أن تأكلَ خبزاً لا يمكن أن تأكل هذا الخبز إلا إذا زرعت القمح ونبتَ القمح وحصدت القمح وطحنتَ القمح وخبزته ، فأنتَ كإنسان مقهور بالأسباب. لا تقدر ... إلا أن ا سبحانه وتعالى يجب أن ننفي عنه العلة الغائية .

إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾

(سورة يس) .

" كن فيكون الأن كل الآيات خلاف هذه الفكرة .. إسمع : " فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات " :

إِنَّ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَـٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِى
تَجۡرِى فِى ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا
بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ
وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

(سورة البقرة)

يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾

(سورة المائدة)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

(سورة المائدة)

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾

(سورة يونس)

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾

(سورة آل عمران)

كلها باء السببية .. هذا بما قدمت أيديكم ، الأرض أحياها بالأمطار ، الأشجار أثمرت بالماء كيف نوفق بين أن ا سبحانه ليس مقهوراً بالأسباب وهذه الآيات كلها تؤكد الأسباب .. هذا نظام الكون .. هو إذا أراد شيئاً يقول له كُن ولكن جعلَ إنباتَ النبات عن طريق المطر والمطر عن طريق السحاب والسحاب عن طريق الشمس والشمس عن طريق البحر ، مسطح مائي كبير ، أشعة شمس مسلطة تبخر، تكاثف السحب ، تأتي الرياح تُحرك السحب ، هذه السحب مشحونة بقوى كهربائية معينة ، هذه السحب لها درجة حرارة معينة ،

تدخل في منطقة باردة تبرد وإذا بردت ، بخار الماء يحمل بدرجة ٣٠ فرضاً خمس غرامات ماء المتر المكعب ، من الهواء يحمل بدرجة ٣٠ خمس غرامات بخار ماء فإذا بردتَ هذا الهواء يتخلى عن نصف الماء ، فكل طبقة هواء محملة ببخار الماء إذا دخلت في منطقة باردة تتخلى عن جزء من بخار الماء ينعقد على شكل حبات مطر فيكون المطر المطر يحيي الزرع ، كل الحياة أسباب ، هذا المولود بسبب زواج فلان من فلانة ، هذه المزرعة بسبب زرع البذور .

ربنا عز وجل نظّم الكون وفق الأسباب وأودع فيك عقلاً لايفهم الشيء إلا بسببه ، العقل في مبدأ السببية والكون أساسه الأسباب ، العقل في مبدأ الغائية والكون أساسه الغايات . قال : والقرآن مملوء كله من ترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب والعقاب على الأسباب بطرق متنوعة فيأتي مثلاً بباء السببية ، مرة باللام لام التعليل ، مرة بأن التعليلية ، مرة بكي التفسيرية ، مرة بذكر الوصف ، مرة بالتعليل الصريح .... يعني آيات لا تعد ولا تُحصى تُرينا أن ا عز وجل حينما خلقَ الكون نظّمه ، لا تجده في سن الـ ١٨ مهذباً راقياً عنده حياء وخجل دون تربية آباء يقولون لك .. سلّمته .. يتفاجأ بعد فترة أن ابنه سيء الخُلق ، منحرف الطباع ، هذا كلام لا يعني شيئاً . .. الخُلق والاستقامة تريد التربية ، تريد الاهتمام ، تريد الرعاية ، يجب أن تكون راعياً دائماً ، تأخذه معك ، تراقبه ، تنصحه ... مرة بالإكرام ، مرة بالشدة ، مرة بالتهديد ، مرة بالوعيد ، مرة بالوعد ، مرة بالمكافأة ، مرة بالعقاب ، مرة بالهجران ، تسأل متى جاء ومتى ذهب ومن صديقه ومع من يمشي وأين كنت سهران وأريد أن أرى بيتَ صديقك تريده وأنت غافل عنه وأنت تاركه وهامله ، تريد أن تفتح عينيك تجد ولداً على أخلاق ، على علم ، على فهم ، مستحيل هذا الكلام ... هذا كلام السذج ، كلام الجهلة ...

يا أخوان كلما تركنا الأسباب تقهقرنا ، كلما تركنا النظام الذي خلقه ا عز وجل تراجعنا ، كلما أهملنا هذه السنن والنواميس تخلّفنا ،

إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

(سورة المائدة)

فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّـٰتٍ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٲلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾

(سورة المائدة)

ذَٲلِكَ جَزَيۡنَـٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾

(سورة سبأ)

في نظام ... التعامل مع الله سهل جداً ، في قواعد عامة .. مثلاً مدير عام بمؤسسة بمعمل بمدرسة بمستشفى وضع نظاماً قال لك كلّ إنسان يمضى عليه سنة لا يتأخر إطلاقاً له كتاب شكر ، إذا مضى سنة ولم يأخذ ولا تقرير طبي له كتاب شكر ثانٍ ، إذا مضى سنة ولم تسحق له عقوبة له كتاب شكر ثالث ، إذا مضى سنة ولم يأخذ بحقه تقصير أو تقرير تفتيشي له كتاب شكر رابع ...

حينما يتاح لنا أن نُرسل إنساناً في بعثة خارجية نقول من الذي معه خمس كُتب شكر .. أعطاك نظاماً دقيقاً هذا المدير .. لا محاباة ولا قرابة ولا واسطة ولا زلفى ... أبداً .فالتعامل مع هذا المدير مريح..؟.. لا أحد أفضل من أحد كلهم سواء وفق نظام دقيق ، لكن لو كان في محاباة وهذا ابن عمه وهذا أخوه وهذا ابن جارته وهذا يقدم له الهدايا وضع هذا وأقالَ هذا .. التعامل مع هذا الإنسان صعب جداً .. شخص مزاجي إذا أردتَ أن تتعرف إلى الله عز وجل الخلقُ كلهم عند الله سواء ، لا أنسى هذا القول لسيدنا عمر قال له يا سعد .. سعد بن أبي وقاص هذا الذي ما فدى النبي صلى الله عليه وسلم إنساناً غيره .. قال له إرمِ سعد فداك أبي وأمي . سيدنا عمر قال له ياسعد لا يغرنك أنك خالُ رسول الله وفداك بأُمه وأبيه فالخلق كلهم عند الله سواسية ليس بينه وبينهم قرابةٌ إلا طاعتهم له . أنا ابن فلان ، الحي الفلاني ، ابن العائلة الفلانية ، دخلي كذا حجمي كذا ،... كلام فارغ ...

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

هذه المعاني رائعة جداً ، التعامل مع ا مريح لأنه في قوانين " إن أكرمكم عند ا أتقاكم " أقرب إنسان إلى ا من أطاعه كائناً من كان . اسمعوا وأطيعوا هكذا قال النبي ولو تولى عليكم عبد رأسه كالزبيبة .. .. عبد مستقيم على العين والرأس .. سيدنا بلال قال له أحد أصحاب النبي بساعة غضب ياابن السوداء . غَضب النبي غضبةً ما غَضب مثلها قال له : إنك أمرؤ فيك جاهلية . فهذا الصحابي الجليل وضع خده على الأرض وقال يابلال طأ على خدي بقدمك كي يرضى رسول ا ، ضع قدمك فوقَ خدي حتى يرضى عني رسول ا ، لا أحد أفضل من أحد .

سيدنا بلال يأتي إلى المدينة فيخرج عمر لاستقباله ، أبو سفيان زعيم قريش يقف بباب عمر ساعات دون أن يؤذن له وهو يرى بلال وصهيب يدخلان ويخرجان بلا استئذان .. غير معقول هذا .. فلما دخلَ عاتبه قال له : زعيم قريش سيد قريش يقف ببابك ساعات طويلة وصهيب وبلال يدخلان بلا استذان !! قال له أنتَ مثلهما ..؟.. بالإسلام لا أحد أحسن من أحد ، أنتَ وطاعتك ، أنتَ واستقامتك ، أنتَ وإخلاصك ، أنتَ وعملك الصالح ، هكذا .. فالتعامل مع ا مريح جداً لوجود قوانين .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة فصلت)

لذلك .. التعامل مع ا لاتحتاج إلى يمين تحلفه له ، ولا شهادة .. قال له وا ياربي لم أعمل هذا الشيء .. شاهدك أنك لم تعمل شيئاً .. ولا تحتاج إلى وصل ، فالتعامل مع ا عز وجل مريح لأنه في قواعد دقيقة ، والقرآن قواعد :

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ ﴾

(سورة يونس)

" ذلك جزاء الظالمين " ، " ذلك جزاء المحسنين " ، " هل نجازي إلا الكفور " .

اسمعوا بعض الكلمات الدقيقة لبعض العلماء قال الموحد المتوكل لا يطمئن إلى الأسباب ، لايعتمد عليها ولكن يعتمد على ا عز وجل ، لايطمئن إليها ولا يرجوها ولا يخافها ولا يركن إليها ولكن يكون قائماً بها ناظراً إلى ا عز وجل .. تقدر أن تعمل هذا ..؟.. أن تقوم بأعلى أنواع الأسباب ، تُهاجر.. اللهم صل عليه هاجر خبير بالطريق ، إنسان يأتيه بالزاد ، إنسان لمحو الآثار ، إنسان للأخبار ، سار مغرباً اتجه مساحلاً ، دخلَ في غار ثور ، أخذَ بالأسباب كُلها ، وبعدها توكل على ا ، قال له لقد رأونا .. قال له ياأبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى :

﴿ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨ ﴾

(سورة الأعراف) .

قال له لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا ، قال له يا أبا بكر ما ظنك باثنين ا ثالثهما ، أخذَ بكل الأسباب وتوكل على ا .

أتمنى على كل أخواننا الكرام ، كل إنسان بعمله ، بمهنته ، باختصاصه ، بدراسته ، بوظيفته بمصنعه ، بمعمله ، بدكانه ، ألا يتسبب ألا يجهل ، ألا يهمل ، أبسط شيء يأكل تفاحة ولم يغسلها يقول لك سم با وكُل هذا هو الجهل بعينه . " قالَ عليه الصلاة والسلام : من أكلَ التراب فقد أعان على قتل نفسه " . من أكلَ فاكهةً دون أن يغسلها فقد أعان على قتل نفسه .

فاسمعوا : الموحد المتوكّل لايطمئن إلى الأسباب ، ولا يرجوها ولا يخافها ولا يركن إليها ولكن يأخذُ بها ، قال : فلا يصح التوكلُ شرعاً وعقلاً إلا عليه سبحانه وحده . فليس في الوجود سبب تام منجٍ إلا مشيئته وحده .. لا ينجيك من أي شيء إلا أن يشاء ا لك النجاة ..

لا ينجيك من كل شيء إلا أن يشاء ا   لك النجاة . أما أنت يؤتى الحذر من مأمنه ياربي لا ينفع ذا الجد منك الجد ، أصحاب العقول الأذكياء لا ينفعهم ذكاؤهم مع ا   ، أيام التجار يعبروا عن هذا الكلام يقول   لك : مع ا   لا ذكي . تاجر أربعين سنة بالتجارة خمسين سنة عنده خبرات طائلة يشتري صفقة خاسرة يفلّس من ورائها إذا أراد ربك إنفاذَ أمرٍ أخذَ من ذوي العقول عقولهم ثم ردها لهم قَنَدموا ، لا ينفع حذر من قدر .

ماالذي ينجيك ..؟.. أن يشاء ا   لك النجاة ، ما أسباب النجاة ..؟.. أن تأخذَ بالأسباب ، وا ِ مستقيم استقامة تامة لم ترف عيني على إمرأة ولا تكلّمت بكلمة الآن سأصلي وأبكي .. لا تبكي .. أنتَ لا تقرأ قوله تعالى : إياك نعبد وإياك نستعين وا   يسد عليك ، معجب في عجب سد عليك ، لن تستطيع أن تفعلَ شيئاً إلا بمعونة ا   عز وجل ، ولن يقبلك بلا أسباب ، لن يعينك إ لا أن تأخذَ بالأسباب وأن تعتمد عليه ، قالَ له يارب أنا بالجبر قوي لكن بالهندسة ضعيف يارب .. فرسب بالجبر .قالَ له ياربي الجبر والهندسة عليك .. دخل طالب إلى الامتحان .. السؤال مؤتمر برلين أين عقد ؟ بقي ربع ساعة أين عقد مكتوب مؤتمر برلين أين عقد ..؟.. ا   عز وجل طمس على قلبه بالدراسة بالطب بالهندسة ... كل إنسان معتد بنفسه متكل على علمه على خبرته تجده يرتكب حماقات كيفَ فعلتَ هذا ..؟.. هذا من العجبِ بالذات .

قال : ليس في الوجود .... سبب تام موجِب إلا مشيئته وحده فهو الذي سبب الأسباب وجعلَ فيها القوى والاقتضاء .

فإذا جمعتَ بين التوحيد وبين إثبات الأسباب استقام قلبك على السير إلى ا   ، ووضح لك الطريق الأعظم الذي مضى عليه جميع الأنبياء والرسل وهو الصراطُ المستقيم صراطَ الذين أنعمتَ عليهم يارب.

و قيمة هذا الدرس ليس في معلوماته ، في تطبيقه .. أتمنى من كل أخ من أخواننا الكرام في عمله في دراسته .. أبدأ هذا الموقف الذي ينجي .. أن تأخذَ بالأسباب وأن تعتمد على ا   سبحانه وتعالى .

والحمد   رب العالمين

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم .... مع درسٍ جديد من مدارج السالكين ومنزلة اليوم منزلة الاتصال . الحقيقة حول هذه الكلمة لا أدري من أين أبدأ ... إذا قلتُ لكم إن الدين كله من أجل أن تتصل با عز وجل لا أكون قد ابتعدتُ عن الحقيقة ، إذا قلتُ لك إن العبادات كلها من أجل أن تتصلَ با عز وجل لا أبتعد عن الحقيقة ، إذا قلتُ لك إن تسخير السماوات والأرض لهذا الإنسان من أجل أن يعرف ا عز وجل ويتصل به فيسعد بهذا الاتصال لا أكون قد بالغت ، بل إن الاتصال هو غاية الغايات بل هو حال أهل الجنة ... غاية الغايات ... إن كل ما شرعه ا عز وجل من عبادات ومن معاملات ومن تنظيمات من أجل أن تتفرغ لمعرفة ا وللاتصال به رمضان من أجل أن تتصل به ، الحج من أجل أن تتصل به ، الزكاة من أجل أن تتصل به ، الصلاة من أجل أن تتصل به ... إن قلتُ لكم إن الاتصالَ با عز وجل غاية الغايات فهذه حقيقةٌ لا ريب فيها بل و ا سبحانه وتعالى أمرنا أن نكون ربانيين .. الرباني هو الإنسان الذي يسعى لُحسنِ علاقة با عز وجل ، لحسنِ اتصالٍ به لأن في الكون حقيقةً واحدة ، هذا الكون بمجراته ، بكزاراته ، بنجومه ، بمذنباته بكواكبه السيارة ، بكواكبه ، بأرضه ببحاره ، بأسماكه ، بأطياره ، بنباتاته ، هذا الكون كله مستمد وجوده من ا عز وجل :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾



(سورة البقرة)

في الكون حقيقةَ واحدة وهي ا وأي سلوك ، أي فكر ، أي اطلاعٍ ، أي تعلمٍ يقربك من هذه الحقيقة فهو مشروع ، وأي شيء يبعدك عن هذه الحقيقة فهو محرم ، ليس في الكون إلا ا الحقيقة الأولى والأخيرة هو الظاهر والباطن هو الأول والآخر ... فقلتُ لكم في أول الدرس لا أدري من أين أبدأ ... المرتبة اليوم مرتبة الاتصال .. الاتصال هو الدين ، الاتصال هو سر وجودك في الأرض ، ا سبحانه وتعالى خلقنا ليرحمنا ورحمته بأن نتصلَ به ، إنك إن اتصلت بمخلوق على شيء من الميزات تسمو ، إنك إن اتصلت اتصالاً بصرياً بمنظر جميل تسعد ، إنك إن اتصلت اتصالاً سمعياً بنغم جميل تطرب ، إنك إن اتصلت بحقيقة علمية تستمتع ، فكيفَ إذا اتصلتَ بالحقيقة الأولى والأخيرة ، بسرِ القوة في الكون ، بسرِ الحكمة ، بسرِ الرحمة ، بسرِ الغنى بسرِ القدرة ... الدين كله اتصال ، الكون خُلقَ من أجل أن تعرفه وما معرفة ا عز وجل إلا وسيلةٌ لغاية ، الغاية أن تسعد بهذه المعرفة ، أن تسعد بهذا القرب .

لذلك .. منزلة الاتصال منزلة لها طعم خاص لأنها سر الدين ، لأنها جوهر الدين ، لأنها هي الدين ، لأنها سر وجودك في الأرض ، خلقتُ لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب وخلقتك من أجلي فلا تلعب فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضه عليك

لو شاهدت عيناك من حسـننا	**الذي رأوه لما وليتَ عنّا لغيرنا**
ولو سمعت أذناك حسن خطابنا	**خلعتَ عنك ثياب العجبِ وجئتنا**
ولو ذُقت من طعم المحبة ذرةً	**عذرتَ الذي أضحى قتيلاً بحبنـا**
ولو نسمت من قربنـــا لك	**نسمةٌ لّمتَ غريباً وإشتياقاً لِقربنا**
فما حبنا سهلٌ وكل من ادعى	**سهولته قُلنا له قد جهلتنـــــا**

الآن :

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ ﴾

(سورة طه)

﴿ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ١٩ ﴾

(سورة العلق)

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45) ﴾

(سورة العنكبوت)

أنا في حيرة بالغة ، هذا موضوع المواضيع ، هذا هو الدين كله أن تكون لك صلةٌ با حسنة ، لذلك .. كلما ارتقى إيمانك امتلكتَ ما يسمى بميزان دقيق لو أنك تكلمتَ كلمةً فيها استعلاء لشعرتَ بالبعد عن ا عز وجل ، لأن ا طيب لا يقبلُ إلا طيباً ، الكامل لا يقرب إلا الكامل ، أنت على مستوى من الإيمان لا تستطيع أن تُجالس إنساناً بذيء اللسان .. لا يمكن أن تجالس معه .. أنتَ على مستوى من إيمان لا يمكن أن تُجالس إنساناً خائناً إنساناً فُاحشاً .

فالموضوع ا سبحانه وتعالى هو الحقيقة الوحيدة في الكون وكل الكون يستمد وجوده من ا عز وجل ، يستمد خصائصه ، صفاته من ا .. ليس في الكون إلا ا هذا هو التوحيد وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

في الكون حقيقتان : ا عز وجل هو كل شيء والاتصال به كل شيء ، فأول فكرة: ا هو الحقيقة الأولى والأخيرة الوحيدة والاتصال به هو جوهر الدين . نحن صائمون من أجل أن نتصلَ به ، نصلي من أجل أن نتصلَ به ، نحج البيت الحرام ندفع عشرات الألوف ندع أولادنا وأهلنا وأعمالنا ونذهب إلى بلاد حارة حيثُ الازدحام من أجل أن نشعر أننا فعلنا شيئاً من أجله حتى نُقبلَ عليه ، حتى نتصلَ به ، حتى نسعد بهذا الاتصال ، هذا مقام الاتصال با عز وجل . فأنا أعتقد أن المؤمن بعد حين من إيمانه .. بعد فترة .. يملك ميزاناً دقيقاً أي عملٍ يقربه من ا يفعله وأي عملٍ يبعده عنه يدعه وميزانه نفسه ، القصة التي إذا حدثتَ الناس بها شعرتَ بانقباض وشعرتَ بحجابٍ بينك وبين ا هذه معصية معناها ، كلما شفّت نفسك أصبحت نفسك ميزاناً وكلما بعد الإنسان عن ا عز وجل أصبح ميزانه غير دقيق . لذلك .. المؤمن ذنبه كجبلٍ جاثمٍ على صدره ، بينما الكافر ذنبه كالذبابة ..

قال : الاتصال أنواع ، اتصال اعتصام واتصال شهود واتصال وجود . أول أنواع الاتصال أن تعتصم با أن تُطبقَ أمره بحذافيره ، أن تكون ورعاً ، قال تعالى :

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

(سورة آل عمران)

أحياناً .. إنسان يتفضل على إنسان بعطاء كبير جداً فهذا المعطى يتقصد أن يرضي المعطي بكل أسلوب ، بأية طريقة ، بأي موقف ، فإن كان يعلم أن هذه الرائحة يحبها عطّره بها ، إن كان يعلم هذا الكتاب يحبه قدمه له ، همه الأول والأخير أن يتقرب من هذا المحسن ، لذلك المؤمن يصبح في النهاية همه الأول أن يتقرب من خالقه بالاستقامة ، بالأعمال الصالحة ، بخدمة الخلق ، بالصبر بالتحمل ، بمجاهدة النفس والهوى ، فقال أول أنواع الاتصال اتصال الاعتصام ومن يعتصم با .. طبق أمره عز وجل ، بشكل مجسد حينما تتحرك الأم في الطريق ومعها طفلها الصغير يلحقها ويعتصم بها ، يمسك ثوبها أحياناً ، شعور الالتصاق ، شعور الحب ، شعور الانتماء ، إمساك الطفل بيد أمه أو بثوب أمه أو حينما يحيطها بذراعيه هذا دليل الحب ، دليل الشوق ، دليل الانتماء ، دليل القرب ، المؤمن بشكل أو بآخر اعتصامه با عز وجل عن طريق طاعته عز وجل ، إذا مرت إمرأةٌ في الطريق فإذا ألقى عليها نظرةً شعر بالبعد عن ا عز وجل لأن هناك نهي فإذا غض بصره عنها شعر بالقرب ، إذا رأى مسكيناً فرق له شعر بالقرب، إذا رأى سائلاً صادقاً فأعطاه شعر بالقرب ، إذا رأى إنساناً أساء إليه وبإمكانه أن يعفو عنه في عفوه عنه يقربه منه .. يعفو عنه .. ، الإنسان المؤمن في سبيل ا عز وجل يضع نفسه تحتَ قدميه لا ضعفاً ولكن تواضعاً ، قال هذا اتصال الاعتصام .

واتصال الشهود : أن ينتقل من مرتبة الإسلام إلى مرتبة الإيمان الإيمان معه ذوق ، معه رؤيا ، الإسلام معه تطبيق ، لو أنه طبقَ أمر ا عز وجل تطبيقاً دقيقاً فهو مسلم ، فهو معتصم بحبل ا ، معتصم بأمر ا ، أما إذا بعد اعتصامه بأمره أقبلَ عليه صار اتصاله اتصال شهود ، كان اتصال اعتصام صار اعتصام شهود .

أما إذا بلغَ مرتبة الإحسان فاتصاله أصبح اتصال وجود ، بين اعتصامٍ وشهود ووجود . الآيات قال تعالى :

وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِى ٱلدِّينِ
مِنۡ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِى هَٰذَا
لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ
ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

(سورة الحج)

الإنسان يفتخر بعلاقته بفُلان .. يفتخر .. يراه مكسباً كبيراً وأحياناً إنسان يستحيي من علاقته بفُلان ، ربنا عز وجل يقول : " **واعتصموا با هو مولاكم فنعم المـولى ونعـم النصير** " آية ثانية :

وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن
يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

(سورة آل عمران)

.. أنتَ في أكمل حالاتك حينما تعتصم با عز وجل .

آية ثالثة :

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ
مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾

(سورة النساء)

تابوا وأصلحوا واعتصموا تمسكوا بالاستقامة . لذلك .. الاستقامة عين الكرامة .

فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ 

(سورة هود)

أنتَ تطلب من ا الكرامة وهو يطلب منك الاستقامة . آية رابعة " **واعتصموا بحبل ا جميعاً** ".

المعنى الأول : أن تعتصم با فهذا نوع من أنواع الاتصال به ، أن تعتصم به فهذا نوع للاتصال به ، أو أن تستقيم على أمره فهذا يدفعك إلى الاتصال به ، أن تطيعه يرفع لك الحجاب . هناك حجب كثيفة .. كل معصية حجاب فإذا أطعته رفع لك الحجاب ، هذا اتصالُ الاعتصام .

الاعتصام نوعان : **اعتصام توكل** .. أنتَ متوكل عليه اتكالاً حقيقياً مستعين به ، مفوض له ، ملتجئ إليه ، مستعيذٌ به ، مسلم إليه ، مستسلم لأمره ، هذا نوع ..

النوع الآخر : **الاعتصام بالوحي** .. أي الاعتصام بالقرآن ، بأمره ونهيه ، إما اعتصام علمي ، أو اعتصام نفسي ، إن اعتصمت بقرآنه وسنّة نبيه فأنتَ متصلٌ با اتصالَ اعتصام وحي .. أما إذا اتكلتَ عليه ، وفوضتَ إليه ، وسلّمتَ إليه ، وأطعته ، وأرحتَ قلبك من هم الدنيا، واخترته على من سواه .. هذا اعتصام من نوع آخر .

الحقيقة .. من معاني أن تعتصم با بكتابه أو بوحيه أن تُحكِّم القرآن دون آراء الرجال، فُلان له رأي ، النظرية الفلانية ، آراء الناس ومقاييسهم ، ومعقولاتهم ، وأذواقهم ، وكشوفاتهم ، ومواجيدهم ، ليست بشيء أمام مواجيد القرآن ، وأذواق القرآن ، وقيم القرآن ، وما في القرآن . علامة اعتصامك با .. الاعتصام نوعان : اعتصام بكتابه .. اعتصام علمي ، اعتصام استسلام وتفويض وتوكل اعتصام نفسي ، فيجب أن تستسلم نفسك عز وجل وأن يستسلم عقلك له ، بمعنى أن خالقَ الكون هذا كلامه هو الحق ، هو الصدق ، هو المحكم ، هو الدقيق ، هو الواقع ، هو المصداقية .

أما اتصال الشهود هو اتصال الحال والمعرفة ، قضية فكرية ، في قضية نفسية ، شَهدتَ كماله فأحببته ، اقتربتَ منه فشعرتَ بطعم القرب فَلَزِمتَ القُرب ، أصبح هذا حال .. كُنتَ في العقل والطاعة ، كُنتَ في العلم والعمل فأصبحت في الحال والمعرفة ، العلم والعمل مرتبة ، والحال والمعرفة مرتبة ثانية .

الحديث عن اتصال الوجود ، من أين جاء المؤلفُ بهذه العبارة اتصـال الوجـود ..؟.. أخذه عن الحديث القدسي : " **ابن آدم اطلبني تجدني فإن وجدتني وجدتَ كل شيء وإن فتُك فاتك كل شيء** "

.. أول مرحلة رأيتَ أن هذا القرآن كلام خالِقُ الكون ، يجب أن تُطبقـه .. هـذا اعتصام وحي ، اتصال اعتصام وحي ، ثم رأيته أهلاً أن تتكلَ عليه توكلـتَ عليـه .. هـذا اعتصام استسلام، اتصال اعتصام استسلام ، لكن الآن بعد أن استقمتَ على أمـره وتوكلـتَ عليه رأيتَ من جماله ، رأيتَ من كماله ، رأيتَ من لطفه ، رأيتَ من رحمته

الآن دخلنا في مرتبة أخرى من مراتب الاتصال وهي اتصـال الشـهود . اتصـال الشهود ينعكس على قلب المؤمن بحال ومعرفة ، المعرفة أرقى من العلم السـابق ، والحـال أرقى من شعور الانتماء إلى ا عز وجل ، صار لك حالٌ مع ا عز وجل .. هـذه مرتبـة ثانية .

أما المرتبة الثالثة وصلتَ إلى شيء وقد ثَبتَ هذا الشيء بين يديك ، وجدته ، وجدتَ ا عز وجل كل شيء ، وجدتَ نفسك تعرفه وأنتَ مقبلٌ عليه ، إذاً هذا الكنز الذي حصـلتَ عليه أصبح ملكاً بين يديك كنز المعرفة ، كنز الطاعة ، كنز الحب ، هذه المرتبة الثالثة سماها بعض العلماء مرتبة الوجود . من بلغ هذه المرتبة قال إذا تاب إليه وجده غفوراً رحيماً ، وإن توكلَ عليه وجده حسيباً كافياً ، وإن صدق في الرغبة إليه وجده قريباً مجيباً ، وإن صدقَ فـي محبته وجده حبيباً ، وإن صدقَ في الاسغاثة به وجده كاشفاً للكربِ مخلّصاً منه ، وإن صـدقَ في الاضطرارِ إليه وجده رحيماً مغيثاً ، وإن صدقَ في اللجوء إليه وجده مؤمناً من الخوف ، وإن صدقَ في الرجاء وجده عند حسنِ ظنه ، هذا معنى الحـديث القدسـي " **ولـئن سـألني لأعطينه ، إن دعاني لأجيبنّه ، إن سألني لأجيبنّه،** وجد ا عز وجل .. فبين الاعتصام تمسك بالطاعة ، وبين الإقبال على ا الشهود ، وبين الوجدان وهو أعلى مرتبة في مراتب المؤمنين .

بالوجود كنتَ تريد منه ، المرتبة الأعلى أصبحتَ تريد ، من أحبنا أحببنـاه ومـن طلب منّا أعطيناه ومن اكتفى بنا عما لنا كُنا له ومالنا طبعاً هذا الكلام أقول لكم كلاماً نظرياً ، لكن من سلك طريق الإيمان وحرص على طاعة الرحمن ، وبـذلَ الغـالي والـرخيص ، والنفس والنفيس وجهد أن يكون عند ا محبوباً يعرفُ معنى هذا الكلام . كمـا قـال بعـض العلماء : " لا يعرف ما نقول إلا من إقتفى أثر الرسول ، لا يعرفُ الشوقَ إلا من يكابـده ولا الصبابة إلا من يعانيه ".

... الإنسان يتزوج ، يسعد في زواجه ، .. إنسان رقيق المشاعر ، جميل الصورة ، مؤنس ، مطّلع ، ذكي مثلاً ، مصدر سعادة وُأنس للآخرين ، فالزواج يسعد . فلو أن إنساناً

تعرفَ إلى الله عز وجل وهو مصدر الجمال ، مصدر الكمال ، مصدر القوة ، مصدر الغنى ... هذا الذي نحرص عليه حسن الصلةُ بالله عز وجل ، هو مقام ولكن كونوا ربانيين والرباني الذي يسعى لُحسن صلة بالله عز وجل .

الآن : فُلان وجد نفسه ، أو وجد ربه ، معنى وجد نفسه يعني أصبحت نفسه طوع بنانه، هناك نفس تُعاند صاحبها يحملها على الطاعة فلا يستطيع ، يحملها على الصدق فلا يستطيع ، يحملها على غض البصر لا يستطيع ، غارق بالمعاصي .. كلما جاهد نفسه أن تستقيم على أمر الله لا يستطيع ، في مرتبة عالية بالإيمان نفسه طوع بنانه ، تَغُض البصر بيسر ، تصدق بيسر ، تبتعد عن الدنيا بيسر . دون صراع ، دون مجاهدة معناها ملَك نفسه ، إما أن تَملكه نفسه وإما أن يملكها ، وإما أن تقع المشادةُ بينك وبينها .. تملكها مرةً وتَملكك مرة أخرى ، لكن بمرتبة الوجود ملكتَ نفسك واسترحت .. ربنا عز وجل قال :

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾

(سورة الذاريات)

يعني بلغتَ أيها النبي مرتبةً لستَ ملوماً عندنا ولا عند الخلق ولا عند نفسك .

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

(سورة القلم)

.. الخُلق عندك ليس صراعاً ، الإنسان يكون في مجلس يأتي ذكر فُلان يبدأ يحكي عنه ويسكت . أحياناً يستفز من إنسان يتمنى أن يكيل له الصاع صاعين يحجب وقع بصراع ، هذه مرتبة طيبة جداً لكن هناك أرقى منها أرقى أن تكون متمكناً من الخُلق الحسن " **وإنك لعلى خُلق عظيم** " هذه مرتبة الوجدان وجدتَ نفسك أي أصبحت طوع بنانك ، أصبحت منقادةً لك ، أصبحت في خدمتك ، وجدتَ ربك ، كلما سألته أجابك ، كلما دعوته لباك ، كلما عرضتَ عليه حاجةً أعطاك إياها ، كلما التفتَ إليه وجدتَ سعادةً ... معناها وجدتَ نفسك ووجدتَ ربك ، طبعاً هذه مرتبة ثالثة يأتي قبلها الاعتصام ، الاستقامة ، اعتصام نفسي ، اعتصام علمي ، بعدها المشاهدة ، الاتصال بالله عز وجل ، والشعور بالقُرب ، يأتي بعدها الوجدان ، وجدان النفس ووجدان الله عز وجل .

نعود مرةً إلى بعض التفصيلات ... نتحدثُ مرة ثانية مع بعض التفصيل عن اتصال الاعتصام .. الإنسان يكون له قصد دنيوي فأول مرحلة من مراحل الاعتصام أن تُصحح

القصد، لماذا أنتَ هنا في هذا المسجد ..؟.. في قصد ، لماذا قُلتَ هذا الكلام ، لماذا وقفتَ هذا الموقف ، لماذا أعطيتَ هذا العطاء ، لماذا منعت ، لماذا غضبت ، لمـاذا رضـيت ، لمـاذا أحببت ، لماذا كرهت .... ما الدافع وراء كل هذه المواقف ..؟.. هل الدافع رضوان ا عز وجل ؟ إن كُنتَ كذلك فأنتَ في مرتبة الاعتصام ، في تصحيح القصد ، ثـم تقويـة الإرادة ، الاعتصام يحتاج لإرادة.

انظر إلى الناس أكثرهم ، قناعات جيدة لكن التطبيق ضعيف ، يوجد شيء مفقـود .. عنصر الإرادة الذي يعين على تطبيق القناعات . فالإنسان حينما يصحح قصده تقوى إرادتـه وبعدها يتحققُ له حالٌ طيب مع ا عز وجل . تحقيق الحال ، تقوية الإرادة ، تصحيح القصد .. هذا كله متعلقٌ بالاعتصام . لن تكون معتصماً با إلا إذا صح قصدك ، وقويت إرادتـك ، وصلُح حالك .

قال :.. تفسير آخر .. تصحيح القصد يحتاج إلى إفراد المقصود لا يوجد إلا ا عز وجل ، نعيش بمجتمع لك رئيس بالدائرة ، لك مرؤوس ، لك زوجة ، لك أولاد ، لك جيران ، يهمك سمعتُك عندهم ، يهمك مكانتك عندهم ، فربما اتجه القصد إلى غير ا . إلهـي أنـتَ مقصودي ورضاك مطلوبي ، لا تأخذك في ا لومة لائم ، لا تخشى إلا ا ، لا ترجو إلا ا .. أنتَ الآن أفردته بالمقصود وجمعت الهم عليه .

تصفية الإرادة ، وتقويتها ، تخليصها مـن الشـوائب ، ومـن تعلقـات السـوى ، والأعواض .. لن تكون الإرادة قوية إلا إذا أردت ا وحده فإذا أردتَ سواه تشعبت الإرادة ، هذه الحزمة الضوئية تبعثرت تشتت ، وتحقيق الحال لا يكون إلا بالتطبيق . مستحيل أن تتعلم ولا تطبق وأن تشعر بحالٍ طيب مع ا عز وجل . دائماً حالك حال أهل الدنيا .. في قلـق ، في ملل ، في حيرة، في سأم ، في ضجر ، لكنك إذا طبقتَ ما علمت .. عملتَ بما علمـت .. ا سبحانه وتعالى تفضل عليك بحالٍ مسعد .

الدرجة الثانية اتصال الشهود : قال خلاص الشهود من الاعتلال شـهود ضـبابي ، شهود معه ضعف ، شهود نوبي ، شهود غير مستمر ، وغناه عن الاستدلال وسقوط شـتات الأسرار . كلام دقيق .. يقول لك شخص في البيت يوجد كهرباء .. طبعاً بالنهار .. تقول له ما الدليل ..؟.. يبحث لك عن دليل ، أما لو دخلتَ البيت ليلاً ورأيت الثُريا متألقة هل تحتـاج إلى دليل ..؟.. الوجود يغني عن الدليل ، فلذلك الاتصال با عز وجل اتصال الشـهود مـن شوائبه أن يفتقر إلى دليل ، ومن شوائبه التشتت ، أما اتصال الشهود لا اعـتلال فيـه ، ولا استدلال ، ولا شتات أسرار، في توحد ...

هذه الأحوال وهذه المقامات من ذاقَ عرف ، والطريق إلى ا عز وجل سـالكة ، وكل إنسان يقدر في كل وقت أن يتقرب من ا عز وجل ، ا عز وجل يسترضى ، قال :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾

(سورة المائدة)

هذه الوسيلة ما معناها ..؟.. " **يا أيها الذين آمنوا اتقوا ا وابتغوا إليه الوسـيلة** " العمل الصالح وسيلة ، العمل الصالح منوع .. في أعمال في البيت ، أعمـال فـي المهنـة ، أعمال في الطريق ، أعمال مع الجيران ، أعمال مادية ، أعمال معنوية ، الابتسـامة عمـل ، المعاونة عمل

إذاً : الآن الوسيلة هي العمل الصالح .

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

(سورة الكهف)

أيضاً .. ألا تُحس إذا اطلّعت على حقيقة عن ا عز وجل لم تكن تعرفها من قبل شعرت بالقرب من ا عز وجل ..؟.. إذاً العلم وسيلة .. العلم وسيلة والعملُ وسيلة . .. ألا تُحس أحياناً أنك إذا جالستَ أهلَ الحق ، جلست مع مؤمن ، سافرت معه ، سهرتَ عنده ، زرته ، ألا تُحس أن حالك مع ا أقرب مما لو جلست مع كافر، مع معرض ، مع بعيد ، مع منكر ، مع منافق ..

أن تكون مع أهل الحق هذه وسيلة ، المعرفة وسيلة ، العمـل وسـيلة ، والبيئـة الصالحة وسيلة كما قال عليه الصلاة والسلام :

قَالَ سمعتُ أَبا بردةَ بن أَبِي موسى عن أَبِيه رضي الله عنْه قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى اللـه عليه وسلم مثَلُ الْجليسِ الصالِحِ والْجليسِ السوء كَمثَلِ صاحبِ الْمسك وكيرِ الْحداد لا يعدمك من صاحبِ الْمسك إِما تَشْتَرِيه أَو تَجِد رِيحه وكير الْحداد يحرِقُ بدنَك أَو ثَوبك أَو تَجِد منْـه رِيحا خَبِيثَةً *

الوحدةُ خير من الجليس السوء ولكن الجليس الصالح خير من الوحدة . وسيلة أخرى ... العلم والعمل وأن تختار إخواناً مؤمنين طيبين تعيش معهم دائماً .

العبادات .. نوافل العبادات ، قراءة القرآن ، صلوات النفل ، صـيام النفـل ، هـذا وسيلة للقرب من الله عز وجل ، الدعوة إلى الله وسيلة . قال أحد العلمـاء : الطرائـق إلـى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ... وأنتَ تتوضأ وجدت نملة في المغسلة وكادت تغرق في مـاء الوضوء فتوقفت عن الوضوء وأنقذتها ؟.. إذا وجدت إنساناً ضعيفاً أعنته أليس هـذا عمـلاً صالحاً؟ .

يا أيها الأخوة الأكارم ... العمل الصالح ثمن اللقاء مع الله عز وجل " **فمـن كـان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً** " . من أجل رفع مستوى المعرفة بالله عز وجل ما السبيل ..؟.. التفكر .. كلما تفكرتَ في ملكوت السماوات والأرض ازدادت المعرفة بالله عز وجـل ، وكلما ازددتَ به معرفةً ازددتَ به قرباً .

الذي أتمناه على كل أخٍ كريم أن يعلم علم اليقين أن الاتصالَ بالله هو كل شيء فـي الدين وأنه لا خير في دينٍ لا صلاة فيه وأن أيةَ معصية إذا شعرتَ أنها أبعدتك عن الله عـز وجل أوقعت بينك وبينه جفوة يجب أن تبتعد عنها ، لو جلست مع إنسان وشـعرت أن هـذا الإنسان أبعدك عن الله عز وجل الأولى أن تبتعد عنه ، الأولى أن توالي من يـوالي الله عـز وجل ورسوله ، لهذا جاءت الحمية اجتماعية .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ ﴾

(سورة المائدة)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣ ﴾

(سورة الممتحنة)

يوجد شيء اسمه عدوى نفسية ، جلست مع إنسان محب تشعر بأشواق عـز وجل ، تشعر أن مستوى إيمانك ارتفع ، تشعر بشوق إلى طاعة ا ، إلى العمل الصالح . إن جلستَ مع أهل الدنيا تشتاقُ إلى الدنيا إن جلستَ مع أصحاب الشهوات تُحب الشهوات .

فلذاك : الصاحب ساحب . قل لي من تُجالس أقل لك من أنت .

.. هذا الاتصال ماذا يقابله ..؟.. ألم يقل لها يا وصال كُنت سبب الاتصـال فـلا تكوني سبب الانفصال ، يقابله الانفصال .

قال : فليحذر القريب من الإبعاد ، والمتصل من الانفصال ، فإن الحقَ جلّ جلالـه غيور، لا يرضى ممن عرفه ووجد حلاوة معرفته واتصلَ قلبه بمحبته والأُنسِ بـه وتعلقـت روحه بإرادة وجهه الأعلى أن يكون له التفاتٌ إلى غيره البتة . فحينما تلتفت إلـى غيـر ا حصلت الجفوة ، وحصل الانقطاع .

سيدنا إبراهيم ... لما حصل التفات إلى ابنه أمره أن يذبحه فالاتصال خشية الانفصال .

الحقيقة الأولى في الكون هي ا عز وجل ، وأي شيء يقربك من ا عز وجل يجـب أن تفعله ، وأي شيء يبعدك عنه يجب أن تجتنبه ، بدءاً بالأوامر والعبادات والأعمال الصالحة والنوافل ، وترك المحرمات والمكروهات وكلّ شيء يلهي عن ذكر ا عز وجل . لا تكـون في مستوى الإيمان الحق إلا إذا ذاقَ قلبك طعم القُرب والقُرب مبذولٌ بين يديك فـي طاعتـه واجتنابِ معصيته .

قال : إذا ضرب القلب بسوط البعد والحجاب سلّطَ عليه من يسومه سوء العذاب .

وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾

(سورة المائدة)

استنبط الإمام الشافعي من هذه الآية أن ا عز وجل لا يعذب أحبابه ، إذا أحبك ا عز وجل لا يعذبك ، إذا أحببته لا تُعذب ، قد ينسى المرء أن من قصر بالعمل ابتلاه ا بالهم ، الهم مشكلة كبيرة مصيبة البعد عن ا عز وجل وصار قلبه محلاً للجيف والأقذار ، وبـدلَ بالأُنسِ وحشةً وبالعز ذلاً ، وبالقناعة حرصاً ، وبالقُربِ بعداً وطرداً ، وبالجمع شتاتاً وتفرقةً .

اسمعوا هذا الحديث القدسي :

.... عن أَنَس بن مالِكٍ قالَ قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من كانَت الآخرةُ همـه جعلَ الله غنَاه في قلْبِه وجمع له شَمله وأَتَتْه الدنْيا وهي راغمةٌ ومن كانَت الدنْيا همه جعـلَ الله فَقْره بين عينَيه وفَرقَ عليه شَملَه ولم يأْته من الدنْيا إِلا ما قُدر له *

" **أتته الدنيا وهي راغمة** " ... لذلك الإنسان مهما تعلّم عليه أن يعمل : " **ومن عملَ بما علم ورثه ا علم ما لم يعلم** " .

لن تذوقَ طعم القرب ، ولا طعم الحال الطيب مع ا عز وجل ، ولا طعم التوفيق ، ولا طعم الطمأنينة ، إلا إذا أطعتَ ا عز وجل . قال بعضهم : احذروا ا فإنه غيـور لا يحب أن يرى في قلبِ عبده سواه ، القلب منظر الرب ، لا يحب ا عز وجل أن يراك ملتفتاً إلى سواه عندئذ كيفَ يعالجك ..؟.. يجعل الأذى عن طريق هذا الإنسان الذي التفـتَ إليـه . يؤكد هذا قولَ النبي عليه الصلاة والسلام :

(لو كنتُ متخذاً من العباد خليلاً لكان أبو بكرٍ خليلي ولكن أخٌ وصاحب في ا) .

قال : من غيرته جل جلاله أن صفيه آدم لما ساكن بقلبه الجنة وحرص على الخلود بها أخرجه منها ، وأن إبراهيم خليله لما أخذَ إسماعيل شُعبةً من قلبه أمره بذبحه .. طبعاً هذا حال الأنبياء .. أما أنت إن تعلقت بشيء تعلقاً شديداً ينكسر ، الإنسان يتعلق بشيء يزهو به .. فيرتكب غلطة كبيرة فتجده يصغُر.

ا غيور الشرك عنده ذنب عظيم ، لأنك اتجهت لغير ا عز وجل .. إذا لم تتجه لغيره ولكن علاقتك معه فترت ... تأتي مشكلة ..لأن ا عز وجل يحب أن يسـمع صـوتَ عبده اللهفان ، ناجيه مختاراً قبلَ أن تناجيه مضطراً .

قال بعضهم : لا إله إلا ا ما أشد غبن من باع أطيب ما في الحياة في هذه الـدار المتصلة بالحياة الطيبة هناك والنعيم المقيم بالحياة المنغصة المنكّدة المتصلة بالعذاب الألـيم . إذا الإنسان باع الآخرة بهذه الدنيا ، الدنيا مؤقتة دار ابتلاء وانقطاع وامتحان ، فما أشد غُـبن هذا الذي باع آخرته بدنياه ، بل إن بعض العارفين يقول : مساكين أهلُ الدنيا جـاؤوا إليهـا وخرجوا منها ولم يذوقوا أطيب ما فيها .. إن أطيب ما فيها الاتصال با عز وجل ..

جرب مع أن ا لا يجرب ولا يشارط لكن لو أنك بالغتَ في استقامتك لوجدت ا سبحانه وتعالى معك في كل أحيائك .

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون .... مع الدرس الثاني عشر من دروس مـدارج السـالكين .
يقول ا سبحانه وتعالى في كتابه العزيز :

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾

(سورة هود)

هذه الآية تدل دلالةً قطعيةً على أن الناجين قلة ، وعلى أن المستقيمين قلة ، وعلـى أن الطائعين قلة ، فإذا وجدتَ نفسك في عصرٍ ما مع القلة الطائعة بعيداً عن الكثرة العاصية ، مع القلة المنيبة بعيداً عن الكثرة المعرضة ، مع القلة المتبعة لسنة النبي عليه الصلاة والسلام بعيداً عن الكثرة التائهة والضالة فهذه علامة طيبة لأن ا سبحانه وتعالى في هذه الآية وبدلالة قطعية يؤكد أن أكثر من في الأرض ..

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾

(سورة الأنعام)

هناك شعور ينتاب المؤمن .. يارب كل هؤلاء الناس على خـلاف الحـق ، أكثـر هؤلاء الناس ليسوا على الطريق المستقيم ، أيهما على حق أنا أم هم .. لِئلا تقـع فـي هـذا الصراع ، لِئلا تشعر بالوحشة ، لِئلا تشعر بأنك وحيد في هذا المجتمع التائه ، لِئلا تُحـس أن الحق مع هؤلاء الأكثرية فتقول لعلي على ضلال أنا وحدي ، لِئلا تقع في هذه المشاعر التـي لا ترتاح لها جاءت الآية الكريمة تؤكد " **فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقيـة ينهـون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم**" بقيةٌ قليلةٌ ينهون عن الفساد فـي الأرض ،

معنى ذلك أن الفساد ظهر وعم ، وأن هذه القلةَ القليلة تنهى عن الفساد في الأرض ، لو عرضتَ أمرها على الناس لرأوها فئةً تائهةً . لو أُتيح لك أن تقبض مالاً كثيراً من شُبهة ورفضته تُتهم في عقلك ، لو أُتيح أن تكون في نزهة مع أصحابك .. النزهة مختلطة .. ورفضتَ هذه النزهة لاتهمت في عقلك ، لو جاءك خاطب لابنتك من مستوى رفيع في ماله وفي جاهه وفي عمله ورفضتَ هذا الخاطب لرقة في دينه تُتهم بعقلك فلئلا تقع في هذه المشاعر جاءت الأحاديث الشريفة تؤكد فحوى هذه الآية ، يقول عليه الصلاة والسلام :

عنْ عبْد الرحْمن بْن سنةَ أنه سمع النبي صلى الله عليْه وسلم يقُولُ بدأَ الإسْلام غَريبا ثُم يعود غَريبا كما بدأَ فَطُوبى للغُرباء قيلَ يا رسولَ الله ومن الغُرباء قَالَ الذين يصْلحون إذَا فَسد الناس والذي نَفْسي بيده ليحازن الإيمان إلى المدينَة كما يحوز السيْلُ والذي نَفْسي بيده ليأْرزن الإسْلام إلى ما بيْن المسْجديْن كما تأْرز الحيةُ إلى جحْرها *

الناس خرجوا في الطرقات بلا احتشام وبلا وقار وبلا تستر وبلا انضباط تبعوا الأجانب في أزيائهم ، لو أن ثياب المرأة الأجنبية تبذلّت لتبذلّت المرأة المسلمة معها اتباعاً لها ، لو دخلوا جحر ضب خَربٍ لدخلتموه ، فحينما ترى أن الكثرة الكثيرة خرجوا في الطرقات بلا حجاب بلا احتشام ، بلا وقار ، تتبعوا عادات الأجانب عادةً عادة ، قلّدوهم في كل شيء ، قلّدوهم في احتفالاتهم المختلطة ، قلّدوهم في إنفاقهم المترف ، قلّدوهم في أكلهم المالَ الحرام ، قلّدوهم في العلاقات الربوية ، قلّدوهم في تفلت الناس من منهج الله عز وجل ، إن رأيتَ مجتمعاً هكذا صفته وأنتَ غريب عنه لا ترضى به تُنكر ما فيه ، فهذه بشارةٌ طيبةٌ على أنك من الغرباء ، يعني أيها المؤمن لا تشعر بالوحشة ، وحشتك طبيعية جداً وحشتك من الناس طبيعية ، بل هي شعور صحي للمؤمن . يقول عليه الصلاة والسلام : " **بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء قيلَ يا رسول الله ومن الغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس** "

البطولة أن تُتاح لك الدنيا من أوسع أبوابها ، أن يتاح لك أن تكون في أعلى المراتب ، لكن هذه المرتبة التي يطمح لها الناس أساسها إيقاع الأذى بالناس ، أو إضلال الناس ، أو إفساد العلاقات ، فمهما كانت هذه المرتبةُ مغريةً لوجود شُبهة فيها تبتعد عنها ، إذاً يصلحون إذا فسد الناس ، حينما يعم الفساد في الأرض أكثر الناس لا يبالون أكان كسبهم حلالاً أم حراماً ، أكثر الناس لا يبالون أكانت علاقاتهم مع بعضهم مشروعةً أو غير مشروعة ، أكثر الناس لا يبالون إذا كانت أعمالهم أساسها طاعة أو معصية ، جاءته وظيفةٌ دخلها كبير ولكن في ممارسة هذا العمل بعض المعاصي فرفضها ، لو عرضتَ قصته على الناس لاتهموه بالجنون ، يشعر بغربة حتى أهله حتى أمه حتى أبوه . أعرف رجلاً آخر جاءه عرض لِبضاعة لا تُرضي الله عز وجل عشرة آلاف قطعة صنّعها وخذ ثمنها ولكن إذا صنّعتَ هذه

القطع فقد أعنت على الإثم والعدوان .. .. ثياب ترتديها النساء في المسابح لا تُرضي ا عز وجل وهو في أشد حالات الضيق فرفضها .

الإيمان ليس كما يظن الناس ، الإيمان ليس صلاةً وصياماً فقط ، ليس عبادات شكلية جوفاء كما هي عند الناس ، الإسلام مواقف ، الإسلام منهج متكامل ، الإسلام يدخل في دقائق عملك اليومية ، يدخل في مهنتك ، في حرفتك ، في بيتك ، في نزهتك، في لهوك ، في جِدك ، في سفرك ، في حضرك ، الإسلام يعني تقريباً ١٠٠ ألف بند ، عندما المسلمون اختصـروه إلى أربع خمس عبادات شكلية وفي ما سوى هذه العبادات هم على أهوائهم وفـقَ نـزواتهم ، وفقَ ما يحلو لهم ، وفقَ مصالحهم ، وفقَ طموحاتهم الدنيوية ، فصلوا الدين عن الدنيا وجعلوا الدنيا في واد والدين في واد ، لذلك بلغوا ألف مليون في العالم وليست كلمتهم هي العليا .. لا أقول سفلى .. لكن ليست هي العليا . مع أن ا يقول :

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

(سورة النور)

والحديث الصحيح :

عنْ أَنَس بْنِ مالِكٍ أَن رسولَ الله صلى الله عليْه وسلم قالَ لأَكْثَم بْنِ الْجوْنِ الْخُزاعي يا أَكْثَم اغْزُ مع غَيْرِ قَوْمِك يحْسنْ خُلُقُك وتَكْرُمْ على رفَقَائِك يا أَكْثَم خيْر الرفَقَاء أَرْبعةٌ وخيْر السرايا أَرْبع مائَةٍ وخيْر الجيوش أَرْبعةُ آلافٍ ولنْ يغْلَب اثْنَا عشَر أَلفًا منْ قلةٍ *

لو أن عدد المؤمنين الصادقين في الأرض اثنا عشرة ألف رجل ما غُلبوا فكيفَ إذا كانوا ألفَ مليون .. ألف مليون .. ماذا يعني ذلك ..؟..

القضية عند ا ليست بالمظاهر ، المظاهر الإسـلامية الصـارخة والمصـاحف والأشرطة والخُطب ، والجوامع ملأى بالمصلين ، هذه مظاهر ، تُبشر بالخير ، ولكن ليست كذلك عند ا ، عند ا عدد المسلمين هو عدد الطائعين ، عدد الملتزمين ، من ولي ا أهـو

الذي يطير في الهواء .. قال : لا .. أهو الذي يمشي على وجه الماء .. قال : لا .. الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام .

فيا أخي الكريم .. إسلامك في معملك ، إسلامك في دكانك ، إسلامك في وظيفتك ، إسلامك في بيعك وشرائك ، إسلامك في تعاملك ، إسلامك في جوارحك ، في مهنتك ، هـذا هو الإسلام ... أول حديث : " **طوبى للغرباء قيلَ ومن الغرباء يا رسول ا قال الذين يصلحون إذا فَسد الناس** " .

حديثٌ آخر : يقول عليه الصلاة والسلام :

" **طوبى للغرباء قيلَ ومن الغرباء يا رسول ا قال الذين يزيدون إذا نقص الناس** "

ما معنى يزيدون إذا نَقَص الناس ..؟.. يعني إذا قل أهلُ الخير زاد خيرهم وإذا قـل أهل المعروف زاد معروفهم ، وإذا قل أهلُ الورع زاد ورعهم ، وإذا قل أهـلُ الالتـزام زاد التزامهم ، الذين يزيدون في المعروف وفي الورع وفي الطاعة وفي القربات وفي البذل وفي التضحية إذا نَقَص الناس .

عن الأعْمش عنْ أَبِي إِسْحاقَ عنْ أَبِي الأحْوص عنْ عبْد الله بْن مسْعودٍ رضي الله عنْه قالَ قالَ رسولُ الله صلى الله علَيْه وسلم إِن الإسْلام بدأَ غَرِيبا وسيعود غَرِيبا كما بـدأَ فَطُـوبى لِلغُرباء قيلَ ومن الغُرباء قالَ النزاع من الْقَبائِل *

قبيلة خرج منها واحد أو اثنان تعرفا إلى ا عز وجل وطبقّا أمر النبي وجاهدا في سبيله وبذلا الغالي والرخيص والنفس والنفيس .. فهذا نَزع من القبيلة .. ، الأكثرية مقيمـةٌ على أكل الربى ، وعلى لعب الميسر ، وعلى متابعة الأعمال الفنية السـاقطة ، .. صـار الناس موحدين بنزعاتهم التي لا تُرضي ا عز وجل ، أهدافهم كما قلتُ قبلاً الإنسان وعـاء أخطر ما في الوعاء ماذا يصب فيه . .. أنت ما الذي يغذيك ثقافياً ، الغذاء المعروف معروف الطعام والشراب أما هذه النفس هي وعاء ماذا يصب فيها ، أخبار الفنانين ، أخبار أهل الدنيا ، أخبار الساقطين والساقطات ، ما الذي تقرؤه ، ما الذي تستمع إليه ، ما الذي تُشـاهده ، هـذا الوعاء ماذا يصب فيه ..؟.. لن يخرج منه إلا مثلَ الذي يصب فيه ، فإذا ملأتَ وعاءك مـن أخبار الفنانين فلن تتكلّم إلا عنهم ، وإن ملأتَ وعاءك من أخبار أهل الدنيا وكيـف سـافروا وكيف تزوجوا وكم بذلوا والمتع التي مارسوها والشهوات التي غَرِقوا فيها والأفعال الخسيسة التي فعلوها لن تستطيع أن تتحدثَ إلا عن هؤلاء ، أما إذا ملأتَ وعاءك من كتاب ا ومـن سنّة النبي عليه الصلاة والسلام ومن بطولات أصحاب رسول ا .. راقب نفسـك إذا أردتَ الحديث لن تتحدثَ إلا عن هؤلاء .. أبداً .. هذا الذي قاله الأجداد :" كل إناء بالذي فيه ينضح ".

أخطر ما في الأمر أن تُراقب من الذي يغذيك ، عندك مصادر مسموعة ، وعنـدك مصادر مقروءة ، وعندك مصادر مشاهدة . .. هذه المصادر .. فلن تتكلم إلا من هذا الـذي تستمع إليه ، ما يخرج منك من جنس ما تُغذى به ، قل لي ماذا تقرأ أقل لك من أنت قل لـي ماذا تُشاهد أقل لك من أنت ، قل لي ماذا تسمع أقل لك من أنت .

قال : " **فطوبى للغرباء قيلَ ومن الغرباء يا رسول ا قال النُزاع من القبائـل** " تجد أسرة كبيرة في علاقاتها ، اختلاط ، مع احتفالات ، تجد مطـاعم كلهـا إكرامـاً لشـهر رمضان المبارك تقدم وجبات نفيسة وطيبة ونساء ورجال بأبهى زينة وبلا صلاة ، يقول لـك سهرنا للساعة الثانية ونمنا أين السحور بقي وأين الفجر .. هكذا الناس .

حديثٌ رابع :

حدثني كثير بْن عبْد الله بْن عمْرو بْن عوْف بْن زيْد بْن ملحةَ عنْ أبِيه عنْ جده أن رسـولَ الله صلى الله عليْه وسلم قالَ إن الدين ليأْرِز إلى الْحجاز كما تَـأْرز الْحيـةُ إلـى جحْرهـا وليعْقلن الدين من الْحجاز معْقلَ الأرْوية منْ رأْس الْجبل إن الدين بدأ غَريبا ويرْجع غَريبـا فطُوبى لِلغُرباء الذين يصْلحون ما أفْسد الناس منْ بعْدي منْ سنتي .... *

" **الذين يحيون سنّتي ويعلمونها الناس** "... النبي له سنّة . كل يدعي وصلاً بليلى ، كل يدعي أنه يحب رسول ا وقد قالَ ا عز وجل:

قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١

(سورة آل عمران)

لا أصدق أن تدعي حب رسول ا أو حب ا عز وجل وأنتَ مخالفٌ سنّته ، أبـداً .. علامة حبك ِ عز وجل اتباع سنّة نبيه .

يحيون السنة بالتطبيق وينشرونها بالتعليم ، يحيونها بالتطبيق وينشرونها بالتعليم .

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣

(سورة الأنفال)

أجمع المفسرون على أن هذه الآية تعني : أنه إذا كان النبي عليه الصلاة والسـلام بين ظهرانيهم .. بين أصحابه .. لن يعذبوا ، وأنه إذا كانت سنّته مطبقةً في مـن بعـده لـن يعذبوا ، فأنتَ متى لا تُعذب ..؟.. في حالتين : إما أن تكون مع النبي الكريم شخصياً ، وإما أن تكون سنّته معك مطبقةً في بيتك . نعم لا تُعذب .

عنْ عمر بْنِ الْخَطابِ أَنه خَرج يوْما ِإلى مسْجِد رسول الله صلى الله علْيه وسلم فَوجد معاذَ بْن جبلٍ قاعدا عنْد قبْرِ النبِي صلى الله علْيه وسلم يبْكي فَقالَ ما يبْكيك قالَ يبْكينـي شَـيْء سمعْتُه منْ رسول الله صلى الله علْيه وسلم سمعْتُ رسولَ الله صلى الله علْيه وسلم يقُـولُ ِإن يسير الرياء شرْك وِإن منْ عادى ِلله وليا فَقدْ بارز الله بِالْمحاربة ِإن الله يحب الأبْـرار الأتْقياء الأخْفياء الذين ِإذَا غَابوا لمْ يفْتَقَدوا وِإنْ حضروا لمْ يـدْعوْا ولـمْ يعْرفُـوا قُلُـوبهمْ مصابِيح الْهدى يخْرجون منْ كُل غَبْراء مظْلمةٍ *

تأتي الفتن كقطع الليل المظلم . إلا من رحم ربك ، إلا من نجاه ا عـز وجـل ، بعيد عن هذه الفتنة . .. هناك فتن تدع الحليم حيران ، المؤمن الصادق ينجيه ا عز وجـل من هذه الفتن ، أخفياء لا يحبون الشُهرة ، أتقياء لا يحبون المعصية ، أبرياء ليسوا متهمـين ، إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة .

كما قال عليه الصلاة والسلام : " **ابتغوا الرفعةَ عند ا** " .

هم لا يسعون إلى رِفعة بين الناس .. إلى رِفعة عند ا عز وجـل .. البطولـة أن تحجز مكانةً عند ا :

إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾

(سورة القمر)

لك مكان عند ا ، لك مكانة عند ا ، تشعر أن ا يحبك ، تشعر أنك على المنهج الصحيح ، تشعر أنك في الطريق الصحيح ، تشعر أنتَ متجه إلى الهـدف الصـحيح ، هـذا الشعور يغنيك عن مدح الناس، وعن الرفعة بين الناس ، وعن تسليط الأضواء ، وعن الشُهرة ، وعن الشأن ، وعن الجاه ، هذه كلها تستغني عنها بشعورك أن ا يحبك.

يقول مؤلفُ هذا الكتاب ، قال : هؤلاء هم الغرباء الممدوحون، المغبوطون ، ِلقلّتهم في الناس ، ِلقلتهم سموا غُرباء ، ..مدينة فيها خمس ملايين أيام تجد فيها حوالي ١٠٠ سـائح .. ٢٠٠ سائح سمي هؤلاء السياح غرباء لأنهم قلةٌ ، قال سموا غرباء ِلقلتهم فإن أكثر النـاس

على غيرِ هذه الصفات ، قال : أهلُ الإسلام غرباء في الناس المسلمون إذا وضعتهم مع عامة الشعوب ، ٤٥٠ مليون في الهند يعبدون البقر .. أعوذ با ... تمشي البقرة في الطريق تقطع الطريق ، يبقى الطريق معطّلاً ساعات طويلة .. تدخل البقرة إلى بائع الفاكهة فتأكل من هـذه الفاكهة ما لذ وطاب وصاحب البقالية مغتبطٌ أشد الاغتباط ، في الأعياد يضعون روثَ البقـر على أثاث بيوتهم أرقى أنواع العطورات .. ، ٣٥٠ مليون يقولون لا إله ما فـي إلـه فـي الشمال .. عقيدتهم الإلحاد ،

تذهب للغرب ٣٠ % من الزنى زنى المحارم الأب مع ابنته ، والأخ مع أختـه ، والابن مع أمه ، ٣٠% إحصاء دقيق جداً هذا كلام علمي ٣٠% من الزنى زنـى المحـارم ، والأمراض الجنسية بأعداد وبائية ، كذا مليون يمارسون الشذوذ الجنسي مـع بطاقـات مـع هويات يفتخرون بها، معناها المسلمون المقصرون غرباء أمام هؤلاء ، الزواج فـي أمريكـا عياره سنة أو سنة ونصف فقط .. مزاج .. لأتفه سبب تنفصم العلاقة الزوجيـة ، يعنـي أن يكون للزوجة عدة أصدقاء تغيب أياماً عن البيت أسبوع أسبوعين وضع طبيعي جداً ، كان أحد الخبراء عندنا في بلادنا فعملَ احتفالاً لطيفاً بقي عندنا أكثر من عام ونصف قال جاءني مولـود .. أنت أين كنت .. أنتَ في الشام مقيم وزوجتك هناك .. هكذا .. جاءه مولود فعمل احتفـال بمجيئه ، وا المسلمون غرباء أمام هذه المجتمعات غرباء جداً .. طبعاً في أمثلة كثيرة جداً . فقال أهلُ الإسلام في الناسِ غرباء ، والمؤمنون في أهل الإسلامِ غرباء ، المؤمن الصادق مع عامة المسلمين ، هو معتقد أنه هناك إله ولكن لا يطبق شيئاً ، يفعل كما يفعل الناس ، المؤمن الصادق مع عامة المسلمين غريب .

قال : أهلُ العلمِ في المؤمنين غرباء . المتبحر في العلم الذي عرفَ سـر وجـوده والهدفَ فيه ، وعرفَ حقيقةَ الدنيا ، وعرفَ عظَم المسؤولية ، ورأى أن الكون كلـه مسـخر للإنسان ، يرى أن الوقتَ ثمين جداً وأنه لا يمضي وقته إلا في عملٍ صالح فإذا وازن نفسـه مع المؤمنين يرى نفسه غريباً عنهم .

قال : وأهلُ السنّة الذين يميزونها من الأهواء والبِـدع ، يعنـي أصـحاب العقائـد الصحيحة وأصحاب التحقيق العلمي في السنّة ، الحديث موضوع وهذا الحديث ضعيف وهـذه بِدعة النبي لم يقلها .. يوجد عنده صحوة .. هؤلاء أيضاً غرباء عند عامة أهل العلم .

.. هذه القضية ، قضية كل ما ارتفع مستوى الإنسان تقلّ الدائرة مثل الهرم تماماً إذا أنت مع أول قاعدة واسعة جداً صعدت درجة القاعدة قلّت ، كلما صعدتَ في هذا الهرم ضاقت القاعدة . لذلك لو جاء النبي .. أي نبي .. وجلس مع مؤمنين لا اُبالغ يرى نفسه غريباً عنهم .

أبيتُ عند ربي يطعمني ويسقيني ، لو علمتم ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً .. الأنبياء لو وزنوا بالمؤمنين يصبحوا غرباء . قال تعالى :

وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾

(سورة الأنعام)

فأنت افتخر وكُن مع الأقلية ، كُن واحداً كألف لا ألفاً كأُف . ا   عز وجل قال :

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾

(سورة الكهف)

حدثني شخص قال لي كنت في بلد أجنبي إقلاع الطائرة الساعة الثانية بعد منتصف الليل طلبت سيارة أجرة جاءتني إلى الفندق قال لي في الطريق أيام شتاء أيام الثلج والأمطـار وبرد شديد وجدتُ صفاً من الناس أقسم لي وهو تلميذٌ لي سابقاً .. أقسم لي أن هذا الصف يزيد طوله عن ثلاثة كيلو مترات فسأل السائق ما هذا والساعة الثانية بعد منتصف الليل قال له أُذيع الليلة أنه سيوزع اللحم الساعة الثامنة صباحاً قلت يا ا   قال في هذا المجتمع الزنى ثمنه قطعة من الحلوى.. قطعة واحدة تأخذ أجمل فتاة قلت هذه الكلمة وصرت أُكررها : هان ا   علـيهم فهانوا على ا   ، هان ا   عليهم فهانوا على ا   . يعني في مجتمعٍ المعصية .... بلا تحرش ، بلا قلق بلا وجل ، بلا خوف ، بلا شعور بالمسؤولية ، مادام ا   قد هان علـيهم إلـى هـذه الدرجة ، إذاً هم هانوا على ا   ، مادام لحم النساء قد رخص إلى هذا المستوى إذاً غلا لحـم الضأن إلى هذا المستوى ، وكلما قل ماء الحياء قل ماء السماء ... فالبطولة أن يكون الإنسان مع القلة المؤمنة ، أن يكون مع الغرباء كي ينجو من عذاب ا   عز وجل .

تعقيب صغير .. قال هذه الغُربة تكون في مكان دون مكان ، يعني إذا كنتَ في بلدة كدمشق والحمد   أدامها ا   علينا ، المساجد ممتلئة ، أُناس صالحون كثيرون وا ِ ، قلـوبهم فيها رحمة وا   وفي صحوة دينية طيبة جداً ، المساجد ممتلئة في كل الأوقات ، في التراويح ، في الفجر والحمد   ، يعني أُناس طيبون مقبلون على الدين ربما لا تحس أنك هنا غريب ، لكن لو ذهبت إلى بلد أجنبي ورأيتَ الزنى على قارعة الطريق ، لا تحتمل .

شخص ذهبت إلى فرنسا ، وقفت على نهر السين ، شاهدت شـاباً كئيبـاً ولغتـي الفرنسية ضعيفة ، قلت أتمرن فيه ، فاقتربت وسألته فقال له أنا أريد أن أنتحر ، قلت له لماذا ..؟.. قال الحياة لا معنى لها عندي ، قلت له ما الذي يزعجك ..؟.. قال أحب فتـاة فأخـذها مني أبي .. سبحان ا   .. أب .. الأب عندنا مقدس الأب كل هدفه ابنه ، هدفه أن يزوجـه ، هدفه أن يأخذ له بيتاً ، عندنا العلاقات طيبة إذا اطمأن على مستقبلهم يرتاح الأب ، هـذا الأب

أما ذلك الأب نافس ابنه على فتاة .. فيجوز أنت في دمشق لا تكون غريباً تُحـس بارتيـاح ، أينما كنت مساجد وآذان وقرآن يعني الحمد هذه نعمةٌ كبرى، قال قد تكون في مكـان دون مكان ، وفي وقت دون وقت، وبين قومٍ دون قوم ، يجوز بالشام نفسها حي محافظ وحي غير محافظ ، أيام رمضان غير بعد رمضان .. على كلٍ هناك تفاوت في هذه النسبة .

قال : أهلُ ا عز وجل لا يأوون إلا إلى ا ولا ينتسبون إلا إلـى رسـول ا ولا يدعو له إلا إلى ا .. وهكذا .. هذه الغُربة اسم على غير مسمى ، صاحب هـذه الغُربـة لا يحس بالغُربة، يحس بالأنس لأنه مع ا عز وجل ، هو عند الناس غريب ، عند الناس كأنـه شاذ لكن هو عند ا مقرب ، ا عز وجل يؤنسه يتجلى على قلبه ، قال هذه الغُربةُ لا وحشةَ على صاحبها بل هو آنس ما يكون إذا استوحشَ الناس . إذا الناس خافوا وقلقـوا .. بـوادر زلزال ارتعدت فرائص الناس ، المؤمن ماذا يقول ..؟.. يتلو قوله تعالى :

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

(سورة آل عمران)

إلى أين الذهاب ..؟.. إلى ا عز وجل .

وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

(سورة آل عمران)

قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

(سورة يس)

الإنسان يحب الحياة هذا كلام واقعي ، لكن لو فرضنا لاح شـبح المـوت لمـؤمن ومستقيم وعمله طيب و حياته في طاعة ا ، أتظن أنه يخاف من المـوت ..؟.. يتمنـى أن يعيش أطول عمر .. حتى أكون معك واقعياً خيركم من طالَ عمره وحسن عمله، لكن لو لاح له شبح الموت فمرحبا به ... قصة غريبة جداً ، أحد تجار البلد أصابه سرطان بالـدم بقـدرة قادر وقضية المستشفى اتصلت بالمنزل لتُعلمهم بالنتيجة في هاتف بجانبه فرفع السماعة ، ابنه

رد على الهاتف قال له أبوك منته ثلاثة أيام ويموت . سمعها بأذنه .. زاره أصحابه فقال لهـم انتهى الفيلم ..في صفقة ألغاها وصفقة أوصى بها وجمع أولاده وودعهم وتغسل وأحد العلماء زاره الساعة الواحدة وقرءوا له الأوراد و التهاليل والساعة الثانية كان توفي ، لكـن الشـيء الذي لفت النظر أنه لم يكن جزعان ، كان إذا دخل شخص يطلب منه مساعدة يفتح الصندوق ويقول له خذ قدر ما تحتاج ولا تقل لي قدر الكمية ، واحد دخل المستشـفى معـه سـرطان بالأمعاء ، كلما دخلَ عليه زائر يقول : يارب اشهد أنني راضٍ عن ا يارب لك الحمد إلـى أن توفاه ا . الإنسان يتمنى أن يعيش أطول عمر ممكن أما لو لاح له شبح الموت لا يوجـد عنده هذا الجزع .. إلى أين ذاهب ..؟.. كل هذه الحياة لهذه الساعة مهيأة.

هذه غُربةٌ لا وحشةَ فيها بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا فوليه ا ورسوله والذين آمنوا وإن عاداه أكثر الناس وجفوه .

يقول عليه الصلاة والسلام :

عنْ أَنَس بْنِ مالِكٍ قالَ قالَ رسولُ الله صلى الله علَيْه وسلم كَمْ منْ أَشْعثَ أَغْبر ذي طمْـريْنِ لا يؤْبه له لوْ أَقْسم على الله لأبره منْهم الْبراء بْن مالِكٍ ..... *

هذا غريب معناها .

...... عنْ أَنَس بْنِ مالِكٍ عن النبِي صلى الله علَيْه وسلم أَنه قالَ أَلا أُخْبِركُمْ بِأَهْلِ النارِ وأَهْلِ الْجنة أَما أَهْلُ الْجنة فكُلُّ ضعيفٍ متَضعفٍ أَشْعثَ ذي طمْريْنِ لوْ أَقْسم على الله لأبـره وأمـا أَهْلُ النارِ فكُلُّ جعْظَرِي جواظٍ جماعٍ مناعٍ ذي تَبعٍ *

أنت إذا شاهدت مؤمناً مستقيماً ولو كانت مرتبته الدنيوية وسط فلا تتطاول عليه لأن ا كبير ، لو كان ضارب آلة كاتبة بدائرة وأنتَ مدير عام لا تقل .. أنا ربكم الأعلى .. لـو كان آذن .. انتبه " **رب أشعثَ أغبر ذي طمرين مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على ا لأبره** " .

قالَ سمعْتُ أَنَس بْنِ مالِكٍ يقُولُ قالَ رسولُ الله صلى الله علَيْه وسلم اتقُوا دعْـوةَ الْمظْلُـومِ وإِنْ كان كافرا فَإِنه لَيْس دونَها حجاب *

البطولة أن تكون أنت متواضع وتعرف أن المراتب عند ا ليست كما هـي عنـد الناس ، الناس يحترمون الغني ويحترمون القوي ويحترمون صاحب الشهادات العليا يحترمون الوسيم الجميل ويحترمون الصحيح ويحترمون المتكلم ويحترمون الذكي ، أما ربنا عز وجـل يحب الطائعين .. أحب الطائعين وحبي للشابِ الطائع أشد ، أحب المتواضعين وحبي للغنـي المتواضع أشد ، أحب الكرماء وحبي للفقير الكريم أشد .

" **ألا أُخبركم عن ملوك أهل الجنة قالوا بلى يا رسول ا قال كل ضعيفٍ أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على ا لأبره** " .

قال صفات هؤلاء الغرباء الذين غبطهم النبي صلى ا عليه وسلم أول صـفة لهـم هي التمسك بالسنّة إذا رغب الناس عنها ، صلاته مهمة جداً ، غض بصره مهـم جـداً ، لا يكون في اختلاط مهم جداً ، ما يكون في شُبهة بالدخل مهم جداً .

في حديث فيه بشارة لكم جميعاً إن شاء ا تعالى ، قال : جعلَ للمسلم الصادق فـي هذا الوقت إذا تمسك بدينه أجر خمسين من الصحابة .

عنْ أَبِي أُمية الشعْباني قالَ أَتيْتُ أَبا ثَعْلبةَ الْخُشَني فقُلْتُ له كيْفَ تَصْنَع بِهذه الآية قالَ أَيـةُ آيةٍ قُلْتُ قَوْله تَعالى (يا أَيها الذين آمنُوا عليْكُمْ أَنْفُسكُمْ لا يضركُمْ منْ ضل إِذَا اهْتَديْتُمْ) قالَ أَما والله لقدْ سأَلتَ عنْها خَبِيرا سأَلتُ عنْها رسولَ الله صلى الله عليْـه وسـلم فقَـالَ بـل ائْتَمروا بِالْمعْروف وتَنَاهوْا عن الْمنْكر حتى إِذَا رأَيتَ شحا مطَاعا وهوى متبعا ودنْيا مـؤْثَرةً وإِعْجاب كُل ذي رأْيٍ بِرأْيه فعليْك بِخَاصة نَفْسك ودع الْعوام فإِن منْ ورائكُمْ أَيامـا الصـبْر فيهن مثْلُ الْقَبْض على الْجمْر لِلْعامل فيهن مثْلُ أَجْر خَمْسين رجلا يعْملُون مثْلَ عملكُـمْ قَـالَ عبْد الله بْن الْمبارك وزادني غيْر عتْبةَ قيلَ يا رسولَ الله أَجْر خَمْسين منا أَوْ منْهمْ قالَ بـلْ أَجْر خَمْسين منْكُمْ ..... *

في بعض الروايات : قالوا لِم ..؟.. قالَ لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون .

إذا الإنسان استقام .. أهله اقرب الناس إليه يرفضونه .. زوجته أحيانـاً ترفضـه ، شريكه لا يرضى يقول لك نبيع خمراً الزبائن تخف ، يصبح درجة رابعة ، المطعـم أخـذناه خمس نجوم ينزل إلى مستوى أربع نجوم . في بعض المدن السورية بائع من أهل الصـلاح بائع لحم كتب على باب دكانه : ممنوع شرب الخمر بأمر الرب والرزق علـى ا . فأقبـل الناس عليه ، أما سمعت بمصر من عادات المحلات التجارية عند افتتاحها يأتي قارئ قـرآن ويقرأ قرآن فيوجد محل بجانبه محل غير مسلم ، فأحضر القارئ وقال له اقرأ فالقـارئ قـرأ والتين والزيتون وقال له قل لهم عندنا أيضاً حمص ....

القصد أن الغُربة نعمة وليست نقمة ، إذا كنتَ غريباً فهذه بشارةٌ من رسول ا صلى ا عليه وسلم .

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون .... مع الدرس الثالث عشر من دروس مـدارج السـالكين . موضوع اليوم عنوانه النفاق ، ولماذا كان هذا الموضوع ، هناك أسباب وجيهةٌ وخطيرةٌ تدعو إلى معرفة هذا المرض الخطير الذي يصيب المؤمنين ولا أدل على خطورة هذا الموضـوع من أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي ا عنه قال لحذيفةَ بن اليمان رضي ا عنه : يا حذيفة ناشدتك با هل سماني لك رسول ا صلى ا عليه وسلم منهم .. أي من المنافقين .. قالَ لا ولا أُزكّي بعدك أحداً . ولا أدل على خطورة هذا الموضوع من أن الحسن البصري رضي ا عنه قال ما أمن النفاقَ إلا منافق .. وما خافَ النفاقَ إلا مؤمن . فيجـب أن نعـرفَ هـذا المرض الخطير الذي يصيب المؤمنين .

أيها الأخوة الأكارم ... النفاقُ داء عضالٌ باطن .. ومعنى باطن أنـه قـد يكـون مستشرياً في نفس المؤمن وهو لا يدري ، فمن كان مطمئناً من هذا المرض ربما كان منافقاً ، قد يمتلئُ منه الرجل وهو لا يشعر فإنه أمر خَفي على الناس وكثيراً ما يخَفى على من تلـبس به فيزعم أنه مصلح وهو في الحقيقة مفسد . .. أحدنا إذا كان يخاف على سلامة إيمانـه ، إذا كان يخاف على مكانته عند ربه ، إذا كان يخشى ا واليوم الآخر ، إذا كان يخشى أن يحبطَ ا عمله ، إذا كان يخشى أن يكون له صورة وله حقيقةٌ أخرى لا يرضاها ا عـز وجـل ، فليدقق في هذا الدرس .

العلماء قالوا : " النفاق نوعان .. نوع أكبر ونوع أصغر . النـوع الأكبـر يوجِـب الخلود في النار في دركها الأسفل " قال تعالى :

إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾

(سورة النساء)

المشكلة : المنافق يصلي مع الناس ، ويصوم مـع النـاس ، ولـه زي إسـلامي ، ويحضر جماعاتهم ، فالنوع الأكبر يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل لأن المنافقَ هـذا يظهر للمسلمين إيمانه با وإيمانه بالملائكة وبالكتب وبالرسل وباليوم الآخر ، وهو في الباطن منسلخٌ من ذلك كله ، لا يؤمن بأن ا تكلّم بكلامٍ أنزله على بشر ، يهديهم بإذنـه ، وينـذرهم

بأسه ، ويخوفهم عقابه ، هذا الإنسان المنافق هتك ا ستره وكشفَ سره ، وجلّى لعباده أمره ، ليكون الناس منه على حذر . وذكر ا سبحانه وتعالى كما تعلمون في القرآن الكـريم وفـي مطلع سورة البقرة أربع آيات تتعلق بالمؤمنين ، أصناف العالمين أصنافٌ ثلاثـة : مـؤمن وكافر ومنافق . فالمؤمنون خصهم بأربع آيات :

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾

(سورة البقرة)

والكفار خصهم بآيتين :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾

(سورة البقرة)

وأما المنافقون فتحدثَ عنهم في ثلاث عشرة آية لخطورتهم ولاستشراء النفاق في صفوف المؤمنين ، لذلك المؤمن القضية سهلة .. مؤمن .. مستقيم ، عقيدته صحيحة ، مخلص ، مقبل ، منيب ، محب ، ورع . والكافر لا يستحي بكفره من كلامه ، من تعبيراته ، من حركاته ، من سكناته ، فأنتَ تعرفُ المؤمن وتعرفُ الكافر ، ولكن هذا الشخص الثالث الذي يظهر لك من الإيمان ما فيه الكفاية وهو منافق ، قال هذا النوع الثالث هو النوع الخطر . ا سبحانه وتعالى خصه بثلاثة عشرة آية ، لكثرتهم ، لكثرة المنافقين ، ولعموم الابتلاء بهم ، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله ، فإن بلية الإسلام بهم ، والذي يقوله الناس دائماً أخشى ما نخشاه على الإسلام لا من أعدائه بل من أدعيائه المنافقين ، لأن هؤلاء المنافقين يفجرونه من

داخله ، إذا هاجمه أعداء الدين ، أخذَ المؤمنون الحيطة ولكن المنافقين في صفوف المؤمنين ، بينهم ، في مساجدهم، معهم، في أعمالهم .

قال : فكم من معقلٍ للإسلام قد هدموه

وكم من حصنٍ له قد قلعوا أساسه وخربوه

وكم من علمٍ قد طمسوه

وكم من لواء له مرفوعٍ قد وضعوه

وكم ضربوا أساسه بالمعاول فهدموه

لذاك ربنا عز وجل قال :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

(سورة البقرة)

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾

(سورة الصف)

أربع آيات للمؤمنين ، آيتان للكفار ، ثلاث عشرة آية للمنافقين لكثرتهم ولخطورتهم ، ولإفسادهم ، ولانحرافهم ، ولأن الناس قد يلبس عليهم أمرهم ، أول صفة من صفات المنافقين : قال اتفقَ المنافقون على مفارقة الوحي ، .. كلام الله عز وجل عند المؤمنين له شأن عظيم بينما كلام الله عز وجل عند المنافق .... يتحرك في الحياة لا وفقَ كلام الله بل وفقَ هواه ، ما أمر الله به ما نهى عنه ما وضحه ما بيّنه ما سنّه ، .. تراه ينطلق من مصالحه ، من ثقافته أحياناً ، من طموحاته غير المشروعة ، ولا يعبأ بكلام الله ، ولا بحدوده ، ولا بأوامره ولا بنواهيه ، ربنا عز وجل وصفهم فقال :

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾

(سورة المؤمنون)

.. عندهم آراء وعقائد ومواقف وتنظيمات لا تمت للدين بصلة ، " **كل حزبٍ بما لديهم فرحون** " هؤلاء هم المنافقون ، وأيضاً يوحي بعضهم إلى بعضٍ زخرفَ القول غروراً ، والذي يجمعهم جميعاً أنهم اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ، .. يتلو قوله تعالى :

وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

(سورة البقرة)

فإذا طرقَ بابه خُطّاب كثيرون يختار الغني ولا يعبأ بالمؤمن .

إذاً قال الله عز وجل :

يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾

(سورة البقرة)

لا يبالي بهذه الآية يأكل الربا ويوكله ، هذا هو النفاق لعلك تراه يصلي ، لعلك تراه يصوم ، لا قيمة لهذه الصلاة ولا لهذا الصيام .

اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ما هجر تلاوته ولكن هجر تطبيق أحكامه ، ما جعله في حياته جعله وراء ظهره جعله خارج اهتمامه فالإنسان الذي لا يعبأ بكلام الله ، ولا يتخذه دستوراً، ولا ينطلق في حياته من أحكامه ، فهذا منافقٌ منافقٌ منافقٌ .

صفةٌ أخرى من صفات المنافقين : قالَ الله عز وجل :

صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾

(سورة البقرة)

... عيناه لا تريه آيات الله عز وجل تريه مباهج الدنيا ، عينه تلتقط المباهج ، الزخارف ، المتع ، المال ، ما فيها من زينة ، أما أن تلتقط عينه آيات الله الدالة على عظمته

، ليس هذا من صفات المنافق " **صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون** " إن ألقيتَ عليه الموعظـة كان كالأصم ، إن تكلّم تكلّم بالدنيا ، لسانه يتلعثم في ذكر ا ، لا يذكر ا إلا قليلاً ، يـذكر الدنيا إذا ألقيت عليه حديثاً عن ا عز وجل تململ وتثاءب وقال دعك من هذا الحديث ، أما إذا ألقيت عليه حديث الدنيا أصغت أذناه وبرقت عيناه وتألّقَ ربنا عز وجل قال : صـم بكـم عمي أصم عن سماع الحق ، أبكم عن أن يذكروا ا عز وجل ، عمي عن آيات ا الكونيـة فهم لا يرجعون إلى ا عز وجل.

أتلفت قلوبهم الشبهات والشهوات ، .. يا أخي ما قولك في إيداع المال في مصارف أجنبية .. هناك من أفتى بهذا ، هذا شُغله الشاغل ، ما قولك بهذا الكتاب قـراءات معاصـرة هذا شغله الشاغل ، ما قولك بهذه الفتوى للعالم الفلاني بجواز أكل الربا بنسبٍ قليلة .... أتلفَ قلبه ... الشبهات والشهوات .

وغَلَبت نواياهم السيئة على مقاصدهم الحسنة فكأنه كما قال ا عز وجل :

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

(سورة البقرة)

.. الأمراض التي في قلوبهم انقلبت إلى أعمال ، فكيف يـزداد المـرض مرضـاً إذا استحكم في النفس وانقلب إلى سلوك .

لهم علامات يعرفون بها ، باديةٌ لمن تدبرها ، من أوضحها الرياء وهو أقبح مقـامٍ يقفه الإنسان .. الرياء .. الازدواجية .. لهم ظاهر ولهم باطن ، لهم موقف معلن ولهم موقف حقيقي لهم عبادةٌ يعبدون ا بها في بيوتهم ، ولهم عبادة يعبدون ا بها أمام الناس ، أسـاس مواقفهم الرياء ، وقعد بهم الكسلُ عما أُمروا من أوامر فأصبح الإخلاص عليهم ثقيلاً ، كيـفَ وصفهم ا عز وجل قال :

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾

(سورة النساء)

درسنا الآن بعض الآيات التي تصف المنافقين ، هذا كلام الله عز وجل ، فإذا الإنسان بريء من هذه الأوصاف فأنعم به وأكرم ، وليحمد الله عز وجل ، ونرجو الله جميعاً أن نكون ممن نجاهم الله من النفاق ، وإن كان متلبساً ببعض الصفات والقلب ينبض إذاً المجال مفتوح باب التوبة مفتوح ، باب الإخلاص مفتوح ، باب الإصلاح مفتوح ، الصفة الأولى أنهم يراءون الناس، ولا يذكرون الله إلا قليلاً ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى .

من صفات المنافقين التذبذب والحيرة ، مع هؤلاء أم مع هؤلاء ، مع رفاق السوء أم مع المؤمنين ، مع دورِ العبادة أم مع دورِ اللهو ، لا يسخو لا بهذا ولا بذاك ، " **في قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضاً** " قالَ أحدهم كالشاة العائرة بين الغنمين تيعر إلى هذه مرةً وإلى هذه مرةً ولا تستقر مع إحدى الفئتين ، إذا كان أحد الناس جلس مع المؤمنين طاب له المجلس ، فإذا جلس مع الكفار أو مع أهل الدنيا ، أو مع أهل البعد ، فسر معهم واستمرأ حديثهم ، وطابت له جلستهم ، فهذه علامة النفاق ، لو كان مؤمناً حقاً لا يرتاح للكفار ، ولا لحديثهم ، ولا لمزاحهم ، ولا لأنماط سلوكهم ، ولا لأوضاعهم ، لذلك النبي الكريم وصف المنافقَ فقال :

.... عن ابن عمر قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مَثَلُ الْمنَافق كَمَثَل الشاة الْعائِرة بين الْغَنَمين تَعير إِلى هذه مرةً وإِلى هذه مرةً لا تَدري أَهذه تَتْبع أَم هذه *

قال تعالى :

مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

(سورة النساء)

.. هو وزوجته ، زوجته نوعاً ما محجبة يجلس في مكان عام حيث الغناء والطرب والاختلاط والمشروبات ... هذا المكان ليس مكانك .. أنت مسلم ، أنت مؤمن ، أنت مع المؤمنين، لا تسخو نفسه بترك هذه الحفلات ، والله سمعت بعض النسوة المحجبات يذهبن إلى حفلات في الفنادق . .. حفلة مختلطة فيها شرب الخمر كيف تسوغُ لنفسك أن تأتي مع امرأتك إلى هذا المكان ، هكذا وصف المنافقين .. كالشاة العائرة بين الغنمين تيعر إلى هذه مرة وإلى هذه مرة ولا تستقر مع إحدى الفئتين مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً.

صفةٌ أخرى من صفات المنافقين : يتربصون الدوائر بأهل الكتاب والسنّة .. بالمؤمنين .. دائماً على حسد ، دائماً على تربص ، فإن كان لهؤلاء المؤمنين فتح من الله قالوا

ألم نكن معكم، نحن معكم يا أخي ، نحن مؤمنون ، نحن أعنّاكم ، نحن دعمناكم ، قال فإن كان لهم فتح من ا قالوا ألم نكن معكم وأقسموا على ذلك با جهد أيمانهم ، وإن كـان لأعـداء الكتاب والسنّة من النُصرة نصيب قالوا ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا وبينكم محكـم ، نحـن معكم ضد المؤمنين ، وأن النسب بيننا قريب ، ربنا عز وجل قال :

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

(سورة النساء)

هذا الموقف المتذبذب مع الأقوى دائماً مع الأعز .. هذا موقف المنافق ..

الحقيقة المنافق قد يعجب السامع بقوله لحلاوته ولينه ويشهد ا على ما في قلبـه ، يقول لك شَهد ا أني ُأحبك ، يشهد ا على ما في قلبه وهو ألد الخصام . قال تعالى :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾

(سورة البقرة)

خصم عنيد ، خصم شديد ، عدو لدود ، ومع ذلك له كلام أحلى من العسـل ، ولـه قلب أمر من الصبر ، هذه من صفات المنافق ، تكاد تكون الازدواجية محور أساسي في هذه الصفات . .. المؤمن الحق ما في قلبه على لسانه ، وما قاله بلسانه فـي قلبـه ، وعلانيتـه كسريرته ، وسريرته كعلانيته ، وباطنه كظاهره ، وظاهره كباطنه ، المؤمن متوحد في اتجاه ، المنافق مزدوج ، فهذه نصيحة لكل أخ مؤمن : اجعل الصلاة في البيت كما هي في المسجد ، غض بصرك في الطريق وأنتَ وحدك كما لو كنت بين المؤمنين ،... راقب ا عز وجل ، لا تأخذك في ا لومة لائم ، لا تعبأ بكلام الناس ، لا تأخذ مواقف أمام الناس ، لا تكـن لـك مواقف أخرى في البيت ، من لم يكن له ورع يصده عن معصية ا إذا خلا لم يعبأ ا بشيء من عمله . ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلّط .

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾

(سورة البقرة)

.. يفسد العلاقة بين الزوجين ، أخته متزوجة وزارها .. ماذا قدم لك زوجـك فـي العيد ؟ .. ما قدم لك شيئاً ؟... هذا السؤال أفسد العلاقة بين الزوجين ، إن جلس مع شريك .. ماذا يعطيك شريكك فقط ٣٠ % وا قليل كيف ترضى معه بهذا الشكل أفسد العلاقـة بـين الشريكين ، بين الزوجين ، بين الأخوين ، بين الجارين ، " **وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرثَ والنسل وا لا يحب الفساد** "

المنافق كلام ا عليه ثقيل ، لا تركن نفسه إلى كلام ا ، لا ينصـاع لـه ،... إذا حاكمتهم إلى صريح الوحي وجدتهم عنه نافرين وإن دعوتهم إلى حكم كتاب ا وسنّة رسوله رأيتهم عنه معرضين . ربنا عز وجل قال :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾

(سورة النساء)

كتاب ا بيننا ، ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام بيننـا ، المنـافق لا يرضـى لا بكتاب ا ولا بكلام رسول ا ، يرضى برأيه الشخصي ، أو بحكـم القاضـي ، أو بـرأي المحامي ، المنافق من علاماته كثير حلف الأيمان بلا سبب ، كثرةُ حلفه للأيمان دليـل خلـل داخلي ، فأحدهم تسبقُ يمينه كلامه ، لم يكذبك أحد ما أحد كلّفك أن تحلف اليمين ، مـا أحـد دعاك إلى حلف اليمين يحلف الأيمان الكاذبة دون أن يستحلف ، لاعتقاده الداخلي أن الناس لا يصدقونه ، هناك خلل داخلي في شخصيته ، فربنا عز وجل قال :

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾

(سورة المجادلة)

اتخذوا أيمانهم وقايةً ، ذريئةً يدرؤون بها تشكيك الناس في أقوالهم ، .. هـذه كلهـا آيات قرآنية .. كثرة حلف الأيمان ، الصد عن حكم ا وحكمِ رسوله ، الفساد فـي الأرض ، إفساد العلائقَ بين الناس ، له كلام أحلى من العسل وقلب أمـر مـن الصـبر ، يتربصـون

بالمؤمنين الدوائر مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، يراءون النـاس ، وإذا قـاموا إلـى الصلاة قاموا كُسالى ، لا يذكرون ا إلا قليلاً ، هذه صفاتهم المستنبطة من آيات ا البينات .

المنافق كأنه إنسان سار في رحلة في الصحراء ، بعد حينٍ من الوقت أو بعد مسافة من المكان شعر بالتعب والإعياء فنكثَ راجعاً ، لم يتابع المسير . فربنا عز وجل قال :

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾

(سورة المنافقون)

بعد ما آمن رأى في الإيمان قيوداً ، حدوداً ، وتكاليف ومجالس علم ، وغض بصر ، وهذه حرام وهذه حلال ، بعد أن عاهد ا عز وجل وسار في أول طريـق الإيمـان رأى الإيمان عبئاً عليه ، رآه ثقيلاً ، رأى التكاليف تكاليف باهظة ، لذلك انتكـث روحـه وعـاد القهقرى وترك المؤمنين يتابعون الطريق ، قال تعالى " **ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون** " بعد أن آمن كفر ، وهذا واضح ، بعد ما حضر مجالس العلم سنة ، انتكث وعاد إلى شهواته وأهوائه ، وعاد إلى رفاق السوء ، وعاد إلى انطلاقه إلى المعاصـي كيفما يشاء ، فهذه النكثة هي نكثات المنافقين .

قد يكون هذا المنافق حسن القامة ، له جسم رائع ، له قامة مديدة ، له وجه وسـيم ، له عضلات مفتولة ، له ذكاء ، له لسان طليق ، له بيان ساحر . قال ا عز وجل :

۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

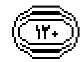
(سورة المنافقون)

شخصية ، شكل وأناقة وعطر ، رفاه وجلسات متقنة وكلام مـتقن ، " **وإن يقولـوا تسمع لِقولهم كأنهم خُشبٌ مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قـاتلهم ا أنّى يؤفكون** " .... عن الغذاء وليس لها ثمر ومسندة ، يعني أي دفع يجعلها في الأرض ، من أروع التشابيه ، " المؤمن ليس ساذجاً ، يؤخذ بشخص طويل القامة ، أنيق المظهر ، طليق اللسان ، ذكي العقل ، لكن خبيث النفس ، ضعيف الإيمان ، شهواني ، له خلفية سيئة ، المؤمن ذو بصيرة ، اتقوا فراسةَ المؤمن فإنه ينظر بنور ا ، وقال سـيدنا علـي : نحـن نعرف الرجالَ بالحق ولا نعرف الحقَ بالرجال ، المؤمن مقياسه دقيق جداً ، يعنـي أن يفعـل

المؤمن فعلاً منافياً للشرع هذا الشخص ساقطٌ بنظر المؤمن ، أن يعتقد اعتقاداً مخالفاً لكتاب ا
هذا الشخص ساقطٌ في نظر المؤمن ، أما الذي يعجـب بالنـاس ، بأجسـامهم ، بـأطوالهم ، بحركاتهم ، بسكناتهم ، بفصاحتهم ، بطلاقتهم ، ولا ينظر إلى انحرافاتهم وإلـى أخطـائهم ، وإلى بعدهم عن أمر ا عز وجل وعن سنّة النبي فهو إنسان ساذج ، قال "

قال : يؤخرون الصلاة عن وقتها الأول ، فالصبح عندهم طلوع الشمس والعصـر عندهم الغروب ، وينقرونها نقر الغراب إذ هي صلاة الأبدان لا صلاة القلوب ، يلتفتون فيهـا التفات الثعلب ولا يشهدون الجماعة ، بل إن صلى أحدهم صلى في البيت أو فـي دكانـه ، يهجر المسجد .. هذه صفة المنافقين ، من علامة المنافقين إذا أصاب المؤمنين عافيةٌ ونصـر وظهور ساءه ذلك وغمه ، على المستوى الفردي لك أخ مؤمن ا عز وجل رفع شأنه تتألم ، أطلق لسانه تتألم تتضايق ، جعل له شأن في المجتمع تتضايق ، تبحث عن عيوبه ، تبحث عن سقطاته ، تُبرزها للناس .. هذه علامة النفاق .. من علامة الإيمان أن المؤمن إذا رأى أخـاه المؤمن قد أطلق ا لسانه ورفع شأنه يفرح له ويكون في خدمته وعونه .. الحق واحد لأنه .. إذا عز أخوك فهو أنت ، المؤمنون شركاء في أعمالهم الصالحة ، الإنسان إذا عمـل عمـلاً صالحاً دعم بعمله أخاه المؤمن ، مؤمنون كانوا في زيارة شخص أحدهم انطلقَ في الحـديث عن ا عز وجل إذا سكتَ الباقون لهم مثلُ أجره ، لأن العبرة أن يصل هذا الحق إلـى هـذا الإنسان ، أما التنافس والتنطع وعرض العضلات ليس هذا من صفات المؤمن ، أخوك انطلقَ في الدعوة إلى ا كُن معه أنت ، كُن معيناً له ، كُن دعماً له ، لا تحاول أن تُبـرز سـقطاته الموهومة عندك ، ربنا عز وجل قال :

إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ



(سورة آل عمران)

يتضايق . .. يعلن عن حسده ، يعلن عن غيرته ، يعلن عن ضيقه ، لا يتمنى لهـذه الدعوة أن تنتشر ، لا يتمنى لهذا المؤمن أن يظهر ، لا يتمنى له أن يعلو عند النـاس ، " **إن تمسسكم حسنةٌ تسؤهم وإن تصبكم سيئةٌ يفرحوا بها** " يعني .. فإذا أصـاب هـذا المـؤمن مصيبة يفرح المنافق وقد يعلن عن فرحه ، إذا فرح عاقبه ا عز وجل ، فإذا أعلن عن فرحه ازداد العقاب ، ا عز وجل كره طاعتهم ، لِخُبث قلوبهم وفسـاد طوايـاهم ثـبطهم عنهـا ،

أقعدهم ، أبغض قربهم منه ، لميلهم لأعدائه طردهم عنه وأبعدهم ، أعرضـوا عـن وحيـه فأعرض عنهم ، أشقاهم وما أسعدهم ، حكم عليهم بحكمٍ عدلٍ لا مطمع لهم في الفلاح بعده .. القرآن الكريم ..

﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ٤٦﴾

(سورة التوبة)

لأتفه سبب يترك مجالس العلم .. لماذا ربنا ثبطّ عزائمهم ، قال لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ، يوهنون القوى ، يوهنون العزائم ، يضعفون المعنويات ، ييئسـوا ، لهـم كلمات فيها استهزاء ، لهم كلمات فيها تجريح ، هم ميالون للدنيا ، قال :

﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧﴾

(سورة التوبة)

المنافق من دلائل نفاقه أن النص القرآني ثقيلٌ عليه ، قال ثَقُلت علـيهم النصـوص فكرهوها ، أعياهم حملها ، ألقوها عن أكتافهم ووضعوها تفلتت منهم السنن فلم يحفظوها ، قال تعالى :

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ٩﴾

(سورة محمد)

.. إذا ا عز وجل أمر بأمر وأنت شعرت بكراهية لهذا الأمر فهذه علامة النفاق ، المؤمنون .. يفرحون بما أُنزل إليهم . .. أما المنافق يرى أمر ا ثقيلاً عليه .

هم أسروا النفاق لكن ا عز وجل أظهر بعض علاماته على صـفحات وجـوههم وظهر نفاقهم من فلتات لسانهم ، أحياناً فلتات اللسان تُعبر عن الجنان ، .. قاعدة .. شـخص لا تحبه أنت وجاء ذكره وشخص حي يرزق تقول ا يرحمه .. لم يمت .. ما مات .. معنى هذا أنك تتمنى موته .. هذه فلتات اللسان ، أحياناً تحضر قائم حزن تتكلّم بكلمـة .. وكأنـك تتمنى لهذا الحزن أن يستمر .. لا تنتبه .. هذه فلتات اللسان لها عند علماء النفس معانٍ كثيرة

جداً ، فالمنافقون من صفحات وجوههم ومن فلتات لسانهم يعبرون عن ما في قلوبهم ، ربنـا عز وجل قال :

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾

(سورة محمد)

.. تجد المؤمن وجهه مشرق ، فيه براءة بوجهه ، فيه نور ، فيه صفاء ، فيه إقبال ، وجه المنافق تجده في نوع من الغَبرة ، وجهه أسود ، سواد معنوي ، وجهـه فيـه قتامـة ، وجهه فيه انحباس ، النفاق ، قال " **أم حسب الذين في قلـوبهم مـرضٌ أن لـن يخـرج ا أضغانهم ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول** " لحن القول هـو فلتات اللسان .. " **وا يعلم أعمالهم** " .

من صفات المنافقين أيضاً : لما ربنا عز وجل قال في سورة الحديد :

يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾

(سورة الحديد)

المنافقون في الدنيا كانوا مع المؤمنين ، معهم في مساجدهم ، في أفـراحهم ، فـي أتراحهم، في الحج ، في رمضان ، في الصيام ، هم معهم ... مختلطون معهم ، يوم القيامـة يتوقف بهم المسير على الصراط المستقيم فيقولون للمؤمنين " **انظرونا نقتبس من نوركم قيـل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً** " لم تكن أعمالكم في الدنيا صالحة ، لم تكن هممكم في الـدنيا عالية لم تكن نواياكم مخلصة ، الدنيا مكان العمل ، وفيها يقتبس النـور ، ارجعـوا وراءكـم فالتمسوا نوراً، قالوا ألم نكن معكم ....؟.. قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم بالـدنيا وتربصـتم ،

وارتبتم ، وغرتكم الأماني حتى جاء أمر ا وغَركم با الغَرور ، انظر كم صفة ألـم نكـن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم يعني .. أحببتم الدنيا وجعلتموها كل همكم وجعلتموها محطَ رِحالكم وتربصتم بالمؤمنين تمنيتم أن يصيبهم السوء ، تربصتم بالمؤمنين تمنيتم الدمار لهم ، إذا جاءهم الخير ضاقت نفوسكم به ، وارتبتم في كلام ا عز وجل ، ما كنتم على يقينٍ مـن كلام ا عز وجل ، إرتبتم في وعده وفي وعيده ، ارتبتم في حلاله وفي حرامـه ، وغـرتكم الأماني ، تمنيتم الدنيا وحدها واغتررتم بها حتى جاء أمر ا وغركم با الغَرور .

الغَرور هو الشيطان وعدكم وأوهمكم أنه من كان من ُأمة محمـد عليـه الصـلاة والسلام يشفع له النبي يكفي أن تكون من أمة محمد فالنبي محمد صلى ا عليه وسلم يشـفع لك يوم القيامة دون قيد أو شرط .. هكذا .. فانطلقتم إلى المعاصي ، وإلى الشُبهات ، وإلـى المخالفات وإلى الدنيا ، وإلى المغانم والمكاسب .

يروى أن سيدنا حذيفة بن اليمان سمع رجلاً يقول اللهم أهلك المنافقين فقال يا ابـن أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة السالكين . يعني بشارة من سيدنا حذيفة بن اليمان إلى أن الكثرة الكثيرة من الناس يعني من هذا القبيل .

.. سيدنا حذيفة بن اليمان رضي ا عنه أسر إليه النبي عليه الصلاة والسلام أسماء المنافقين فسيدنا عمر يعلم ذلك فقال له يا حذيفة ناشدتك با هل سماني لك رسول ا صـلى ا عليه وسلم منهم ..؟.. ورد اسمي بالقائمة .. قـال لا .. ولا ُأزكـي بعـدك أحـداً .. لا تحرجني أنت لا اسمك غير وارد .. ولا ُأزكي بعدك أحداً .

ابن مليكة يقول : أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبي صلى ا عليه وسلم كلهم يخاف النفاقَ على نفسه . ما منهم أحد يقول إن إيمانه كإيمان جبريلَ وميكائيل .

... إذا شككت بنفسك دائماً .. لعل في نفاق ، لعل في تقصير ، فهذه علامةٌ طيبة ، وإذا في طمأنينة ساذجة ، أنا مؤمن الحمد ، أنا بزمن صعب ، أنا عملي كسـبعين مـن أصـحاب رسول ا ، أنا في زمن القابض على دينه كالقابض على الجمر إذا كان بهذه النفسـية أنـت مطمئن ، مرتاح تماماً ، وما في مشكلة عندك إطلاقاً ، هذه علامة خَطرة هذه علامة النفاق ، علامة الإيمان أن تخشى النفاق ، وعلامة النفاق ألا تخشى منه .

الحسن البصري كما قلتُ لكم قال : ما أمن النفاق إلا منافق ، وما خافه إلا مؤمن ، وكان بعض أصحاب رسول ا صلى ا عليه وسلم يدعون ا َ فيقولون : اللهم إني أعوذُ بك من خشوع النفاق ، قيلَ وما خشوع النفاق ..؟.. قال : أن يرى البدن خاشـعاً والقلـب لـيس بخاشع بالصلاة يظهر الخشوع شيء .. وقلبه ليس بخاشع ..

قال بعضهم : النفاق يزرع ينبتُ له ساقان ساقُ الكذب وساقُ الرياء ، ويسقى بعينين عين ضعف البصيرة وعين ضعف العزيمة ، يعني .. رؤيته غلط وإرادته ضعيفة وفي عنـده

كذب وفي عنده رياء ، يعني أربع دعائم للنفاق : الكذب والرياء وضعف البصيرة وضعف العزيمة . رؤيته مضطربة ، عزيمته ضعيفة ، يعتمد الكذب ، ويعتمد الرياء . وقد قال عليه الصلاة والسلام:

.... عن أَبِي أُمامةَ قالَ قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يطْبع الْمؤْمن على الْخلال كلها إِلا الْخيانَةَ والْكذب *

فالكذب ليس من صفات المؤمن .

قال : إذا تمت هذه الأركان الأربعةُ استحكم نبات النفاق ولكنه بمدارج السيول على شفا جرف هار فإذا شاهدوا سيلَ الحقائق يوم تُبلى السرائر ويبعثر ما في القبور ويحصلُ ما في الصدور تبين لهم يومئذ من كانت بضاعته النفاق فهي كالسراب يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد ا عنده فوفّاه حسابه وا سريع الحساب .

<u>ملخص الدرس :</u> من علامات النفاق أن المنافق إذا عاهد خان وإذا وعد أخلف ، وإذا قالَ كذب لم ينصف ، وإذا دعي إلى الطاعة تلكأ، وإذا قيلَ لهم تعالوا إلى ما أنزلَ ا وإلى الرسول صدفوا ، وإذا دعتهم أهواؤهم إلى أعراضهم أسرعوا وانصرفوا ، فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان والخزيِ والخُسران .

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾

(سورة التوبة)

هذا الذي يسميه كُتّاب السيرة حمامة المسجد ثعلبة كان يصلي خلف النبي ، ما فاتته تكبيرة الإحرام خلفَ سيد الأنام ، كان فقيراً قال له يا رسول ا ادع ا أن يرزقني ، يبدو أن النبي عليه الصلاة والسلام له بصيرة في هذا الإنسان ، قال يا ثعلبة قليلٌ تؤدي شُكره خير من كثير لا تؤدي شكره ، قالَ يا رسول ا ادع ا أن يرزقني ، قال يا ثعلبة قليلٌ يكفيك خير من كثير يطغيك ، قالَ يا رسول ا ادع ا أن يرزقني ، يريد مالاً ، فقال ربِّي ارزق ثعلبة كيفَ شئت ومتى شئت ، اشترى غنماً والغنم توالدت ملأت طرقات المدينة بشكلٍ عجيب ،

بمدة قصيرة صار من أغنى الأغنياء ، ما عاد يصلي خلفَ سيد الأنام ، ما عاد يحصل تكبيرة الإحرام خلف سيد الأنام ، غاب عن مجلس النبي عليه الصلاة والسلام ، غاب غيبـة طويلـة جداً ، النبي سأل عنه ، تجد الواحد بعد الزواج لم نعد نشاهده ، بعد ما صار تاجراً لـم نعـد نشاهده .. الله عز وجل ورسوله أولى باهتمامك .. فالنبي بعثَ برسول لثعلبة يطالبه بالزكاة ، فيقول لرسول رسول الله : قل لصاحبك ليس في الإسلام زكاة ، قال له أهو صـاحبي ولـيس صاحبك ، أجمعتَ إلى ترك الزكاة الكُفر برسول الله ، عندئذ نَزلَ فيه وفي أمثاله هذه الآية

"ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتـاهم مـن فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفـوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ".

والحمد لله رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون .... مع الدرس الرابع عشر من دروس مـدارج السـالكين . درسنا اليوم منزلة الخشوع . كلمة الخشوع وردت في القرآن الكريم قال تعالى :

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾

(سورة المؤمنون)

الذي يلفت النظر أن كلمة قد أفلح في القرآن وردت في آيات عدة فقط :

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾

(سورة الأعلى)

قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

(سورة الشمس)

" **قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون** " كلمة **قد أفلح** من خالق الكون ، يعني كل المقاييس الأرضية تتعطل أمام هذا المقياس ، يعني يا عبادي الذي أفلح منكم ونجح وتفوق وفاز وكان عاقلاً وسأسعده إلى الأبد من فعلَ كذا وكذا .

المؤمن على قدرِ إيمانه با عز وجل وعلى قدرِ تعظيمه لكلامه يأخذُ هـذه الآيـات بحجمها الحقيقي ، " **قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون** " ، بعض المفسـرين قالوا " الخشوع في الصلاة لا من فضائلها بل من فرائضها "، وفرقٌ كبيـر بـين أن تقـول الخشوع في الصلاة من فضائل الصلاة وبين أن تقول الخشوع في الصلاة من فرائض الصلاة ما معنى أفلح ..؟.. ما دمنا قد وصلنا إلى كلمة أفلح ، " **قد أفلح المؤمنون الـذين هـم فـي صلاتهم خاشعون : قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** " الفلاح من الفلاحة والفلاحةُ من فَلَح وفَلَح : شق الأرض وألقى فيها الحب ومنه الفلاّح ومنه علم الفلاحة .

هذا الفلاّح إذا شق الأرض وألقى في الأرض الحب مـاذا تعطيـه الأرض ..؟.. تعطيه سبعمائة ضعف بنص القرآن الكريم :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾

(سورة البقرة)

.. أنت حينما تعطي واحداً وتأخذ سبعمائة ضعف فهذا ربحٌ وفير وهذا فلاح وهذه تجارة وهذا فوز، يعني أراد ا عز وجل أن يضرب مثلاً لِفلاح المؤمن مع ربه ، لِفـلاح المـؤمن فـي الآخرة بشيء منتزعٍ من حياتنا اليومية ، الفلاح الذي يلقي حبةً .. كمعلومات جانبية .. مثلاً : بعض بذور الخضراوات تعطي أربعة ملايين ضعف .. البندورة مثلاً البذرة الواحدة تعطي أربع ملايين ضعف وزنها خضاراً من ثمار هذا النوع ، هناك بذور تعطي أضعافاً مضاعفة ، يعني ربنا عز وجل حينما قال

" **مثلُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل ا كمثل حبة أنبتت سبع سنابلَ** " .

بعض علماء اللغة يقولون : " سبعة وسبعون وسبعمائة لا تعني الكم بل تعني التكثير "، كأن يقول أحدنا باللغة الدارجة قلت لك ستين مرة لا أحب هذا الشخص ، هو هل قال ستين ..؟.. كلمة ستين يستخدمها العوام للتكثير فقط ، ففي اللغة العربية سبعة ومضاعفات السبعة لا تعني الكم بل تعني التكثير ، فلما ربنا عز وجل قال " **أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائـة حبة** " ليس القصد إعطاء رقم أو كم محدد بل القصد التكثير ، يعني أنتَ إذا أتيتَ يوم القيامـة وقد أطعمتَ لقمة تجدها عند ا كجبل أُحد .

لذلك : الفلاح في الدنيا لا أن تستهلك الوقت أن تستثمره ، لا أن تستهلك المـال أن تستثمره ، لا أن تستهلك نعمة الأمن أن تستثمرها في معرفة ا ، لا أن تستهلك نعمة الصحة أن تستثمرها . دائماً بين المؤمن وغير المؤمن استهلاكٌ أو استثمار ، المستهلك يذهب طيباته في الحياة الدنيا ، كما أمسك سيدنا عمر تفاحة نظر إليها ملياً يبدو أنه اشـتهاها فقـال أكلتهـا ذهبت أطعمتها بقيت ، يعني إن أكلتها فقد استهلكتها وإن أطعمتها فقد استثمرتها ، ففرقٌ بـين المؤمن وغير المؤمن كالفرق بين الاستهلاك والاستثمار .

منزلة الخشوع دخلت في الفلاح ، والخشوع في الصلاة ليس من فضائل الصلاة بل من فرائض الصلاة ، والقرآن الكريم يقول :

" **قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون** "

.. تعالوا بنا إلى بعض آيات القرآن الكريم الأخرى عن الخشوع ، قال تعالى :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾

(سورة الحديد)

ا عز وجل يذكر صباحاً ومساءً ، في المساجد ، في الخُطب في شهر الصيام ، في تلاوة القرآن ، ولا سيما في العالم الإسلامي ، ا عز وجل يذكر لكن رد الفعل ، منعكس الذكر عندك ، هل هو خشوعٌ أم تلبد حس ، ربنا عز وجل قال " **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر ا وما نزلَ من الحق** " يبدو أن الإنسان أحياناً يصدأ قلبه أو تُصبح عباداته شكليةً ، الإنسان بحاجة إلى تجديد إيمان ، أقول لكم هذه الكلمة .

.. الإنسان عرفَ ا ، آمن به ، استقام على أمره ، صلى خمس مرات في اليوم ، أمراض تصيب المؤمنين تصبح العبادةُ جوفاء ، تؤدى العبادة كطقسٍ من الطقوس ، أن يصلي وقلبه غير خاشع ، أن يصوم وقلبه غير خاشع ، أن يحج البيت وهو كالسائح تماماً ينظر هنا وهنا، لذلك الخشوع هو سر العبادات ، الخشوع روح العبادة ، فالعبادة التي ليس فيها خشوعٌ عبادةٌ جوفاء ، عبادةٌ أقرب ما تكون إلى الطقوس ، والأديان الوثنية دائماً فيها حركات وإيماءات و سكنات هذه الحركات و السكنات في الديانات الوثنية يسميها علماء الاجتماع بالطقوس ، طقوس البوذية ، طقوس السيخية ، طقوس هذه الديانة ، حاش أن تكون الصلاة والصيام والحج في الإسلام طقوساً ، إنها عبادات .

ما الفرق بين العبادات وبين الطقوس ..؟.. الطقوس لا معنى لها ولا غاية لها ، ولا معقولية فيها ، لا معنى ولا غاية ، ولكن العبادة ربنا عز وجل جعلَ لها غايات عظمى وحكمٍ فضلى ، قال :

خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾

(سورة التوبة)

تطهير النفس من أدرانها ، وتزكيتها بالفضائل ، ثمرة من ثمار الزكاة ، الصيام ...

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾

(سورة البقرة)

التقوى ... الحج ...

۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾

(سورة المائدة)

يعني إذا علمتَ أن الله يعلم حلت كل مشكلاتك ، ما معنى إذا علمتَ أن الله يعلم ..؟.. يعني إذا علمتَ أن الله يعلم لا يمكن أن تعصيه مرة دخلت إلى محل تجاري في مدينة عربية ، لفت نظري في المحل التجاري شاشة تلفزيون ورأيتُ فيها رجلاً يكتب على الشاشة في النهار ، من هذا الرجل ، يبيع قطع كهربائية ، فلّما اخترت قطعةً قال لي هي في المستودع فوق الطابق الخامس اذهب إلى هناك وانتق ما يعجبك فذهبت إلى هناك فإذا المحاسب كان عليه آلة تصوير تلفزيونية صاحب المحل في مكان البيع يراقب هذا المحاسب ، قلت سبحان الله هذا المحاسب عليه هذه الآلة التي تنقل صورته إلى صاحب المحل في مكان البيع ، يعني هو تحت المراقبة الدائمة ، لو حك رأسه لرآه صاحب المحل ، لو غادر الطاولة لرآه صاحب المحل ، قلت هذه طريقة يعني لا تجعل هذا الموظف بإمكانه أن يتحرك ولا أن يغيب ولا أن يتشاغل ولا أن يسترخي ولا أن يقرأ مجلة أو جريدة ، لا يقدر لأنه في مراقبة دائمة . قلت لو علم الإنسان أن الله يراقبه هكذا في بيته ، في عمله ، في سفره ، في استلقائه، في فراشه ، مع زوجته ، مع أولاده ، أثناء قضاء حوائجه ، أثناء علاقاته بالآخرين ، لو علم الإنسان أن الله بإمكانه أن يراقبه هكذا هل بإمكانه أن يعصيه ..؟.. لا والله ... أن تعلم أن الله يعلم فقد انتهت المشكلة كلها .

إذاً : الحج معلل ، الصلاة .. الزكاة معللة ، الصيام معلل، الصلاة ...

ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾

(سورة العنكبوت)

الصلاة معللة ...

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

(سورة العلق)

القُرب ...

إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾

(سورة طه)

ذكر ...

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

(سورة النساء)

صار الذكر ، والوعي ، والقرب ، الصلاة نور القلب يستنير بالصلاة .. نـور .. ، الصلاة طهور ، القلب يطهر بالصلاة ،

.... عن أَبِي هريرةَ أَنه سمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقُولُ أَرأَيتُم لو أَن نَهـرا ببابِ أَحدكُم يغْتَسلُ فيه كُل يومٍ خَمسا ما تَقُولُ ذَلِك يبقي من درنه قَالُوا لا يبقي مـن درنـه شَيئًا قالَ فَذَلِك مثْلُ الصلوات الْخَمس يمحو الله بِهِن الْخَطَايا *

الصلاة معللة في القرآن وفي السنّة ، والصيام معلل ، والزكاة معللة ، والحج معلل ، والعبادات كلها معللةٌ بمصالح العباد ، فهل يحقُ لنا أن نُسمي الصلوات أو الصيام أو الحج طقوساً إسلامية ... أعوذ با كلمة طقوس هذه توصف بها الحركات المبهمة غير الهادفة التي

لا معنى لها التي نجدها في الديانات الأرضية ، أما الإسلام فيه العبادات ، لذلك .. العبادة في الإسلام روحها الخشوع .

... إنسان ذهب إلى الحج ... أقول لكم بصراحة دون مجاملة ... واحد سمح له أن يذهب إلى الحج ودفع مبالغ طائلة وركب الطائرة وغادر بلده وترك محله وترك أهله وترك أولاده ازدحام وحر ونفقات وانتظار بالمطار سبعة أيام أو سبع ساعات أو عشر ساعات يعني لا أُصدق أن الحاج طافَ حولَ الكعبة وما شعر بشيء ، ذهب إلى عرفات وأقام ساعات طويلة جلس مثل السائح .. وا الخيمة حر أين الطعام .. أين يوجد مكيف جلس ونام قليلاً وارتاح حتى غابت الشمس ثم جاء إلى منى ، يعني أنا لا أُصدق أن خالقَ الكون أمرك أن تترك بلادك وأن تركب الطائرة أو أن تمشي على قدميك أو أن تركب الجمل وأن تقطع المسافات الشاسعة وأن تُنفق عشرات الألوف وأن تتحمل مشاق السفر للتواجد في مكان اسمه الكعبة ، وا لا أُصدق ذلك إلا أن يكون في هذا الطواف الخشوع والإقبال والشعور بالقرب والشعور بتلقي التجلي من ا عز وجل . .. أن تذهب إلى عرفات دون أن تشعر بشيء إلا أنك وجِدتَ في عرفات . يعني أيام عند الفقهاء بعض الآراء تدعو إلى التساؤل إنسان هارب من الناس ومر بعرفات خطأً لثانية واحدة في أيام الحج صح حجه ، إذا كان هارباً والناس يتبعونه دخلَ في منطقة عرفات لثانية واحدة صح حجه .

الفقهاء ينظرون إلى الأحكام الظاهرة . يعني .. إذا تواجدتَ في عرفات وقتاً قصيراً مهما كان قصيراً صح الحج . خالق الكون لا يعقل أن يأمرك أن تدع أهلك وبيتك وتجارتك وأن ترتدي الثياب البيضاء الخشنة غير المخيطة وأن تتحمل مشاق السفر ومشاق الحج ومشاق الازدحام والانتظار الطويل ليتواجد جسمك في عرفات دون أن تخشع ، دون أن تبكي ، دون أن تذوب كما تذوب الشمعة ، لا وا ليس هذا الحج .. الحج قُرب ، الحج إقبال ، الحج اتصال ، الحج ذوبان في محبة ا عز وجل .

يعني ... أقول لكم أريد أن أُفرق بين العبادات كما أرادها ا عز وجل ، وبين الطقوس التي نلمحها في كل الديانات ، يعني في طقوس كثيرة جداً يفعلها الهنود ، يفعلها الأفارقة ، يفعلها الهنود الحمر في أمريكا حركات ، إيماءات ، تمتمات لا معنى لها ولا غاية لها ولا هدفَ لها ، أما تحج البيت بأمرِ خالق الكون ولا تشعر أن هذا الحج أجملُ رحلة قُمتَ بها في تاريخ حياتك ، هكذا الحج ، فربنا قال " **واسجد واقترب** " ، قال " **أقم الصلاة لِذكري** " ، قال " **حتى تعلموا ما تقولون** " ، " **الذين هم عن صلاتهم ساهون** " ، قال له قم فصل فإنك لم تُصل .

الآية الثانية في منزلة الخشوع " **ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لِذكر ا** " **.**

هذا القلب خاشع يشعر بالحب ، ... القلب وجل ..

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾

(سورة الأنفال)

العين تدمع ، الوجه يشرق ، الجلد يقشعر ، الأعصاب تضطرب .. هل يبكي الإنسان من ذكر ا ، هذه العين ألم تبكي مرةً لِذكر ا حباً ، خوفاً ، طمعاً ، خشوعاً ، هكذا الصلاة . **هذه ألم يأن :** .. إلى متى أنت يا عبدي هكذا ، إلى متى أنتَ في هذه الجفوة ، إلى متى أنتَ في هذه القطيعة ، إلى متى تُنكر قلبك ولا تبحثُ عن حلٍ لهذا ، إلى متى أنتَ في هذا البعد ، ياربي لقد عصيتك ولم تعاقبني .. فوقع في قلب هذا المؤمن أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدري ألم أحرمك لذّةَ مناجاتي

هل تُصدق أنك إذا شربتَ الماء واقفاً خلافاً للسنّة ثم أقبلتَ على الصلاة تشعر في حجاب خفيف ، إذا أخّرتَ الصلاة عن وقتها ، إذا فعلتَ شيئاً خلاف السنّة تشعر بالجفوة ، تشعر بالبعد ، بالمقابل إذا كنتَ دائماً من سنّة رسول ا ، إذا كنتَ دائماً مع الأمر والنهي ، إذا كنتَ دائماً مع ا عز وجل ألا تشعر بسعادة لا توصف ، وا الذي لا إله إلا هو جميع شروط الحياة تتعطل ، يعني كيفما كان بيتك ، وكيفما كان دخلك ، وكيفما كانت صحتك ، وكيفما كان مستوى معيشتك ، وكيفما كانت مكانتك ، كل هذه الشروط الظاهرة عندئذ تتساقط أمام عينيك لأنه لا قيمةَ لها .

الآن : الخشوع معناه الانخفاض ، خشع رأسه أي أخفض رأسه ، حنى رأسه ، والدليل ربنا عز وجل قال :

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴿٢﴾

(سورة الغاشية)

راقب أنت صور المجرمين بالصحف ، لصوص أُلقي القبض عليهم بصرهم أين هو ..؟.. في الأرض ، " **هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة** " فالخشوع هو انخفاض الرأس إما لِذلٍ أو لشعورٍ بالنقص أو لشعورٍ بالذنبِ أو ما شاكلَ ذلك ، فالخشوع هو الانخفاض والذل والسكون ، من معاني الخشوع السكون والدليل :

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾

(سورة طه)

انخفاض الرأس مع الذُل مع السكون . الحركة الزائدة في الصلاة هذه بعيـدة عـن الخشوع ، (النبي عليه الصلاة والسلام رأى رجلاً حركته في الصلاة غير طبيعية فقال عليه الصلاة والسلام : لو خشع قلبه لخشعت جوارحه) .

الحركة ، التحرك ، ميلان دائماً ، في أشخاص يحب أن يتحرك حركة نواس أثنـاء الصلاة ليس هذا هو الخشوع ، لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ، يعني .. الخشوع هو انخفاض الرأس مع الشعور بالذل عز وجل ، كلما تذللتَ عز وجل ازددتَ عزاً ، وكلمـا تـذللت لمخلوق ازددتَ ذُلاً .

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبتُ

فإذا اعتززتَ بمن يموت فإن عزك ميتُ

.. إذا الإنسان كان عزيز النفس مع الناس وكان بينه وبين ا ذليلاً أو متذللاً وضع رأسه على الأرض وسجد وبكى وناجى وابتهل ودعا واستجار واستنجد واستغاث واسـتعطف وأعلن عن نقصه وعن ضعفه وعن فقره وعن تقصيره وأثنى على ا لِما هو أهلـه ، هكـذا الصلاة خضوع ، تذلل ، سكون . تأكيد الانخفاض ربنا عز وجل قال :

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

(سورة فُصلّت)

ما معنى خاشعةً .. منخفضة ، " **فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربـت** " الخشـوع الانخفاض ، والخشوع الذُل ، والخشوع السكون ، هذه معاني الخشوع . هذه المعاني اللغويـة ما المعاني الشرعية ..؟..

قال : الخشوع قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمـع عليـه ، يعنـي ملتفت إليه خاشع خاضع ، ذليل ، منقاد إلى ا عز وجل ، هذا المعنى الشرعي للخشوع .... قال بعضهم الخشوع : الانقياد للحق .

علامات الخشوع : قال الخشوع من علاماته خمود نيران الشهوة وإشراق نـور ا في القلب ، الإنسان بين نار الشهوة ونور ا ، بين النارِ وبين النور ، بين نار الشهوة وبـين إشراق نور ا في قلبه ، فإذا استعرت الشهوة في جسده فهو بعيدٌ عن الخشوع ، وإذا أشـرقَ

نور ا في قلبه اقترب من الخشوع ، الخشوع اتقاد نور ا ، وعدم الخشوع اسـتعار نـار الشهوة ، أنتَ بين شهوة ونور ، بين نار الشهوة ونور الحق ، لذلك ..

شكوتُ إلى وكيعٍ سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأنبأني بأن العلم نـــورٌ ونور ا لا يهدى لعاصـي

وكلمة نور لا يعرفها إلا من ذاقها ، يعني .. صفاء النفس ، استقامة الإنسان ، إقباله على ا ، إنقياده ، أن يقفَ وقته في سبيل ا ، يشعر بشعور لا يوصف لا يعرفه إلا مـن ذاقه، يعني .. أنتَ بين اتقاد نار الشهوة في جوانحك وبين إشراق نور ا فـي قلبـك . هـل عندنا آيات في القرآن الكريم تؤكد أن ـ نوراً يقذف في قلب المؤمن ..؟..

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾

(سورة الحديد)

أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

(سورة النور)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

(سورة الأنفال)

تُفرقون به بين الحق والباطل .. هل تصدقون أن سر السعادة الرؤيـا الصـحيحة ، وسر الشقاء الرؤيا غير الصحيحة ، الإنسان متى يخطئ ، متى ينحرف ، متى يعصي ، متى

يبتعد ، متى يتورط ، إذا رأى أن في المعصية فلاحاً ، لا يرتكب الإنسان المعصية إلا إذا ظن أن في المعصية نجاحاً وفلاحاً وذكاءً وكسباً ومغنماً ، أعمى البصـيرة لـو أنـه رأى رؤيـةً صحيحة لرأى في المعصية دماراً وهلاكاً وبعداً وشقاءً وتراجعاً ... لن يعصي الإنسان ربـه إلا إذا عميت بصيرته .

سر التفوق وسر النجاح أن يتقد في قلبك نور ا عز وجل أو أن يلقى نور ا فـي قلبك ترى به الخير خيراً والشر شراً ، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام من دعائه الشـهير : اللهم أرِنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرِنا الباطلَ باطلاً وارزقنا اجتنابه . ألا تقرؤون أحيانـاً في الجريدة عن إنسان تورط وارتكب جريمة وبعد ساعات أُلقي القبض عليه وسيقَ للمحاكمة وحكم عليه بالإعدام. هذا حينما أقدم أين عقله .. أعمى .. أعمى القلب .. تـوهم فـي هـذه الجريمة مغنماً .. طبعاً هذه حالة حادة ، حالات أخف يعني إذا الإنسان توهم أنه إذا نظر إلى النساء في الطريق وملأ عينه منهن فهو يسر بهذا النظر .. هل هذه الرؤيا صـحيحة ..لا .. أعمى القلب .

إذا توهم الإنسان أنه إذا كذب باع بضاعته ، إذا حلفَ اليمين باع بضاعته ، أنـه إذا احتال على الناس فهو ذكي ، هذه آثار الرؤيا المشوهة ، فلذلك الإنسان لا يصح عملـه إلا إذا صحت رؤيته ، ولا يشقى إلا إذا ساء عمله ، ولا يسوء عمله إلا إذا عميت بصيرته .. أبداً .. رؤيا .. صحة عمل .. سعادة .. ، عمى .. سوء عمل .. شقاء ، هذا تقسـيم قطعـي مهمـا قسمتَ الناس ، أغنياء وفقراء ، أذكياء وأغبياء ، متحضرين همجيين ، يعني .. من أي تقسيم شئت .. عرق أصفر ، عرق أحمر ، عرق أبيض .

الإمام الجنيد يقول : الخشوع تذلل القلوب لعلاّم الغيوب ، التذلل لكن وا يا أخوان أنا أُطمئنكم إذا الإنسان له مع ا مواقف تذلل وخشوع لن يذلّه ا أمام الناس ، مـرة كنـتُ أُشيع جنازة طبيب من أطباء البلد له فضل على هذه البلدة توفي .. في بيننا زيارات .. فذهبت لتشييع جنازته ، وصلتُ إلى المسجد الذي تُقام فيه صلاة الجنازة ، لفت نظري لـي أصـدقاء بمناصب رفيعة في البلد في الجامعة منصب رفيع جداً على مستوى عميد ، فأنا وإياه كُنا فـي مدرسة واحدة وفي صف واحد ، دخلت إلى المسجد وصليت صلاة الجنـازة فلمـا خرجـت وجدته واقفاً خارج المسجد ولم يدخل ، يعني قلت يارب استكبر أن يصلي هو أكبـر مـن أن يدخل بيتَ ا عز وجل ويضع رأسه على الأرض ..؟.. وا سؤال كبير ، يحمل شهادة عليا ، ذكي ، هنا توقفت قلت وا الذي يدخل المسجد يضع رأسه على الأرض خشـوعاً عـز وجل لن يذلّه ا خارج المسجد. في مواقف ذُل نعوذ با منها ، لما ربنا عـز وجـل يهـين إنساناً ..

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨) ﴾

(سورة الحج)

قلتُ لكم مرة طبيب من أطباء البلاد الأوائل وكان في اختصاصه فريداً لكنه كان مادياً ، كان طبيباً نسائياً ، ما يقبل أن يتحرك إلى امرأة بحالة خطيرة إلا بليرة ذهبية وعربة .. لم يكن في سيارات .. قصة قديمة جداً ليرة ذهب وعربة ، بعض أهل المريضة يضطرون إلى بيع الفراش من تحتها كي تُقدم أجرة الطبيب سلفاً . هذا الطبيب لم يرحم الناس ولم يشفق عليهم وكان مادياً وأنانياً ، أمضى سنوات طويلة تزيد عن عشر سنين ملقى في قبو من أقبية البلادة فقد لفظه أهله لأنه فلج تنكرت له زوجته ، تنكر له أولاده ، وضعوه في قبو البناء ، وعمر بناء يعد البناء الأول في بعض أحياء دمشق .... حجر مزخرف .. أعرفه أنشأ البناء ، وزينه ، وكساه ، وفرشه، وفق أذواقه الخاصة فلما استقرت له الدنيا ورقصت له جاءه المرض العضال ، تحمّله أهله أيام بل أسابيع ثم وضعوه في القبو فكان يطلب زوجته ، أين فلانة .. لا ترد عليه ، يطلبها بإلحاح ، بعد خمس أيام تأتي ، تُكلّمه كلمة قاسية بعد فترة نُقلَ إلى قبو آخر.. لأن رائحته أصبحت كريهة .. نُقل إلى قبو بعيد عن البناء لأنه أساء للبناء . تدخل مسجد تضع رأسك ، خشوعاً ، ويذلّك ا في آخر حياتك ، يتخلى عنك ، لا وا ، هذه دخول المساجد حضور مجالس العلم ، قراءة القرآن ، محبة ا عز وجل ، هذا كله ينعكس في المجتمع عز وشأن وكرامة ورفعة لك ، ا عزيز :

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ (٨) ﴾

(سورة المنافقون)

أنتَ غالٍ على ا لا يسلّمك لأحد ، لا يتخلى عنك ، تجد الأمور تجري لمصلحتك ، تجري لترفعك ، تجري لترفع من شأنك ، هكذا المؤمن فعلاً غالٍ على ا عز وجل ، فأنت إذا كنت مؤمناً فعلاً تلقّى ثمرات الإيمان .

فأنا أقول لكم : الخشوع الخضوع ، تُحب أن تخضع أما أبلغ مـن هـذا الخضـوع خضوعك لأمر ا عز وجل ، قال لك غُض بصرك يعني الأمر ليس يعجبك .. أيـن أذهـب بعيوني .. ما هذا الكلام ، أمرك بغض البصر ، فإذا كنتَ خاشعاً فأنتَ خاضعٌ له ، وأنـتَ متذلل له ، وأنتَ ساكن أمامه .

الجنيد يقول : تذلل القلوب لعلاّم الغيوب ، العلماء جميعاً أجمعوا علـى أن الخشـوع محله .. القلب ... إذا واحد مشى بين الناس مطأطئ الرأس كثيراً وأكتافـه مالـت .. صـار خاشعاً لا وا .. ارفع رأسك واجعل قامتك مديدة كُن عزيزاً ، متـى مـوتَ علينـا ديننـا ، الخشوع في القلب ليس في الجوارح ، ارفع رأسك وحسن لِباسك ونظّف رِحالك وكُن شـامةً بين الناس واشعر بعزة الدين..

النبي عليه الصلاة والسلام قال : " **الخشوع محله القلب العارفون وثمرتـه علـى الجوارح . النبي رأى رجلاً يعبثُ بلحيته في الصلاة فقالَ عليه الصلاة والسلام : لو خشـع قلب هذا لخشعت جوارحه** ".

لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ، الخشوع مكانه في القلب ومظهره في الجوارح .

.... عن أبِي هريرةَ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المسلم أَخُـو المسـلِمِ لا يخُونُه ولا يكْذبه ولا يخْذُلُه كُل الْمسلمِ على الْمسلمِ حرام عرضه ومالُه ودمه التقْوى ها هنَا بِحسبِ امرِئٍ من الشر أَن يحتَقر أَخَاه الْمسلم .... *

وقال بعض العارفين : حسن أدبِ الظاهر عنوان أدب الباطن . وا في جلسة مـا فيها أدب ، على مقعد ، أيام تجد شخص في مقتبل حياته يقعد ويضع قدماً فوق قدم ويميـل .. من أنت اجلس جلسة هكذا دون ميلان دون قدم فوق قدم .. اجلس بأدب . في جلسة ما فيهـا خشوع ما فيها أدب أساساً ، فقالوا حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن .

قال : بعضهم رأى رجلاً خاشع المنكبين والبدن .. خاضعاً .. فقال يافلان الخشـوع هاهنا وأشار إلى صدره لا هاهنا وأشار إلى منكبيه الخشوع في القلب .. حتى النبـي عليـه الصلاة والسلام لما رأى رجلاً من أصحابه الكرام يتبختر في مشيته أمام الأعداء قـال : " **إن ا يكره هذه المشية إلا في هذا الموطن بل إن التكبر على المتكبر صدقة** " .

كان أصحاب النبي أذكياء جداً وكانوا أعزة ، .. خُبيب ابن عدي أراد كفار مكة أن يقتلوه والقتل صلبٌ .. عليهم أن يثبتوه في جِذعِ نخلة ويرمونه بالسهام حتى يموت ، انظـروا عزة المؤمن اقترب أبو سفيان قال له أتُحب أن يكون محمدٌ مكانك وأنتَ معافى ..؟.. إذا واحد علق تجده يبكي ويتذلل تجده أذل من شاته .. قال له : وا ما أُحب أن أكـون فـي أهلـي وولدي وعندي عافية الدنيا ونعيمها ويصاب رسول ا بشوكة .. هذا الجواب .. فقال : مـا رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحابِ محمد محمداً .

الإنسان ليس له حق أمام كافر أن يتذلل ويشكو له همه ، من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثُلثا دينه . ليس له حق أن يشكو لغير المؤمن ، هو إذا اشتكى للمؤمن فكأنما اشتكى إلى ا ، سيقول لك يا أخي أطل بالك ، اصبر ، ا كريم ، ا يمتحنك الذي عند ا ليس عند العبد، هكذا يقول لك المؤمن ، أما الكافر .. فيقول قلت لك هذا الطريق ابتعد عنه لم تقبل مني ، قلت لك أضعتَ حالك بهذه الطريقة ، قلتُ لك لا تحضر مجالس العلم ، هذه سببها لم يعينوك ، منعوك من الوظيفة يقولها شاقياً .

فلذلك إياك أن تشكو همك لغير المؤمن وإذا كنت بطلاً كما قال سيدنا يعقوب : إنما أشكو بثي وحزني إلى ا ويعاب من يشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم . إذا كنتَ بطلاً فاجعل الشكوى عز وجل ، لا تشكو إلى إنسان لأن هذا الإنسان كائناً من كان لن يستطيع أن يفعلَ معك شيئاً ، لا يملك لك نفعاً ولا ضراً ، لك مع ا ساعات قُرب ، في قيام الليل لا تجد بيتاً ، أنت محتاج لزوجة صالحة مؤمنة لا تجد ، كله لا يضع الحجاب ، .. شعرت بضيق .. يا ترى لك مع ربك ساعة خشوع ساعة إقبال .. هكذا ا عز وجل قال : إذا كان ثلث الليل الأخير نزلّ ربكم إلى السماء الدنيا فيقول : هل من تائبٍ فأتوب عليه ، هل من مستغفرٍ فأغفر له ، هل من طالبِ حاجة فأقضيها له ، حتى ينفجر الفجر إذا لم يكن لك مع ا ساعات قُرب ، ساعات تهجد ، ساعات مناجاة ، ساعات توسل ، ساعات استعطاف ، ساعات إعلان عن نقص الإنسان ، ساعات ثناء على ا عز وجل ، ليس لك مع ا ساعات أبداً ..؟.. أليست لك مع ا مودة ..؟..

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾

(سورة مريم)

بعض العلماء قالوا : " ود مع ا ، بعضهم قال : ود مع الخلق "، على كُلٍ القرآن حمال أوجه .

بعض الصحابة وهو حذيفة وكان حذيفة خبيراً بالمنافقين .. مر بنا الدرس الماضي .. قال إياكم وخشوع النفاق ، فقيل له وما خشوع النفاق ..؟.. قال له : أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع ، يعني وأنت تصلي بين الناس .. لا تظهر خشوعاً غير موجود أنصحك لوجه ا ، لا تكن عندك ازدواجية كن إنسان واحد وليس إنسانيين ، فسيدنا حذيفة يقول : إياكم وخشوع النفاق، قيل وما خشوع النفاق ..؟.. قال له: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع .

ورأى عمر بن الخطاب رضي ا عنه رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة فقـال : يـا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلـوب .أحـدهم مـلأ الحرم المكي صخباً وضجيجاً وجد لوزة قال من صاحب هذه اللوزة فقيل له كُلها يا صـاحب الورع الكاذب كُلها وخلّصنا .. يقول أنا بين السنّين في سمسمة يا ترى تُفطّر هذه .. تعبـر امرأة فينظر لها وخائف أن تُفطره السمسمة ، ما هذا التناقض .. . خائف أن تفطره السمسمة . يحلف يمين كاذب بالبيع والشراء يحضر أشياء نادرة جداً ويخاف أن تكون مخالِفة للشـرع ... هذا خشوع النفاق .... المؤمن واضح ، قال له : يا صاحب الرقبة ارفـع رقبتـك لـيس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب .

ورأت السيدة عائشة رضي ا عنها شباباً يمشون ويتماوتون في مشـيتهم فقالـت لأصحابها من هؤلاء فقالوا هؤلاء نُساك ، فقالت : كان عمر بن الخطاب إذا مشـى أسـرع ، وإذا قالَ أسمع ، وإذا ضرب أوجع ، وإذا أطعم أشبع ، وكان هو الناسك حقاً .. هكذا الناسـك .. ما رأيتُ أزهد منه الفُضيل يقول : كان يكره أن يري الرجل الناس من الخشـوع أكثر مما في قلبه . وقال حذيفةُ رضي ا عنه : أول ما تفقدون من دينكم الخشوع ، بالصلاة .. بغير بلاد تجده يعد النقود بالصلاة يخرج المحفظة ويعدها ، يضبط الساعة ، يمر شـخص تجده ينظر إليه لم يبق إلا أن يكلّمه ، .. صلاة ليس لها معنى إطلاقاً ويجوز بلا وضوء .

قال : أول ما تفقدون من دينكم الخشوع ، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة .. أولاً صلاة بلا خشوع ثم لا صلاة .. ورب مصلٍ لا خير فيه ويوشك أن تدخلَ مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعاً . أقسم لي واحد با .. كانوا بوليمة وصلّوا أربـع صـفوف حـوالي ١٥٠ رجلاً والإمام نسي ركعة ولا واحد تذكر من الحاضرين .. ولا واحد ..

قال : ويوشك أن تدخلَ مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعاً . وقال سـهلٌ : مـن خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان .

الخشوع : افتقار إلى ا عز وجل ، بعدٌ عن مراءاة الخلق وتجريدٌ لرؤية الفضل .

الفقرة الأخيرة من الخشوع : أن الخاشع ما زوي عنه من الدنيا أو ما لحقه منها من ضررٍ وأذى فهو منةٌ أيضاً . لا تنسى أن ِ عليك نعمتين .

بقي في الدرس نقطتان : الأولى أن الخشوع أن تبتعد عن المراءاة ، يعني إذا كنت دائماً مع الناس وليست لك خلوة مع ا عز وجل اللقاء مع الناس المسـتمر يضـعف فيـك الخشوع ، يعني أنت أردتَ أن تبكي في الصلاة وجودك مع أُناس كثيرين ربما حالَ بينك وبين البكاء فلابد من صلاة تؤديها في البيت ، أد السنّةَ في البيت ، أد الوتر في البيت ، صل قيـام الليل في البيت ، أد النوافل في البيت ، صل وحدك في الغرفة ، أما اللقاء مع الناس المسـتمر دون أن تكون لك مع ا خَلوةٌ أبداً هذا ربما أضعفَ فيك الخشوع ، لأن الإنسان مـع النـاس

يراقب الناس وهو لا يدري .. ثبت في السنّة إحياء الليالي بشكل جماعي هذا لـم يـرد عنـد رسول ا ، أن تُحيي ليلة العيد في بيتك ، تقرأ القرآن ، تذكر ، تتهجد ، تـدعو ، تتوسـل ، تبكي ، تستعطف ، هذا كله وارد فلذلك أولاً البعد عن مراءاة الخلق ، مما يزيد الخشـوع أن تبتعد عن مراءاة الخلق .

في شيء آخر إذا كنتَ خاشعاً وتمنيتَ أن يراك الناس خاشعاً فهـذا ممـا يضـعف الخشوع فيك ، يعني أفضلُ أنواع الخشوع أن تُخفي هذا الخشوع ، .. إنسان يتمنى أن يبكي أمام الناس . يا أخي ما شاء ا على القلب الذي له .. ما هذه الأحوال .. ما هـذا الحـب .. يسر دخل بالنفاق وهو لا يدري .. شيئان يضعفان الخشوع ... أن تكون مع الناس دائماً لابـد من غارِ حراء بشكل متقطع .. لابد من غارِ حراء لابد من خلوة مع ا من أجـل أن يـزداد الخشوع ، ولا ينبغي أن تكون حريصاً على أن يظهر خشوعك أمام الناس فإن هذا الحـرص وحده يضعف الخشوع .

قال : رقصت الفضيلةُ تيهاً بفضلها فانكشفت عورتها ، الفضيلة حينما ترقص تيهـاً بنفسها ، هذا التيه هو نقيصة وليس فضيلة . وسيدنا علي يقول رضي ا عنه : أفضل الزهد إخفاء الزهد . في شخص حريص أن يكون أمام الناس خاشعاً ، أنتَ كُن خاشعاً مـع ا ولا تُعلّق كبير أهمية على مرأى الناسِ لك. وفي درسٍ قادمٍ إن شاء ا نتابع موضوعات مـدارج السالكين.

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون .... منزلة اليوم منزلة السكينة ...... قال بعضهم هذه المنزلة من منازل المواهب لا من منازل المكاسب ، يعني المؤمن يعمل وا سبحانه وتعالى يكـافئ فالذي يأتي من ا هذه منازل المواهب ، والذي يأتي من كسب العبد هذه منازل المكاسـب . فالسكينةُ من منازل المواهب لا من منازل المكاسب . الاستقامة من المكاسب ، تحري الحلال من المكاسب ، مجاهدة النفس والهوى من المكاسب ، السكينةُ من المواهب ، فأنـتَ تتحـرك نحو ا عز وجل وا يتجلى على قلبك ، أنتَ تستقيم وا يكرم التكريم مواهب والاسـتقامة مكاسب ، أنتَ تغض بصرك عن محارم ا وا يوهبك حلاوةً في قلبك إلى يوم تلقاه هـذه الحلاوة من المواهب وهذا الغض من المكاسب ، المكاسب شيء والمواهب شيء آخر بـل إن المواهب من ثمرات المكاسب .

أول فكرة في هذه المنزلة وهي أن منزلة السكينة من منازل المواهب لا من منازل المكاسب ، الحقيقة هذه الدروس دروس تفسير ولكن نختار من القرآن الكريم الآيات المتعلقـة بموضوع واحد لأن القرآن هو كل شيء ماذا نعمل ..؟.. نأخذ آيات السكينة ونفسرها ، نأخذ آيات الحب ونفسرها
نأخذ آيات الإخلاص ونفسرها ، فكأن هذا الدرس درس من نوعٍ آخر ، تفسـير موضـوعي متمحور حول موضوعٍ واحد والآيات التي تدعم هذا الموضوع تأتي تباعاً ، قال تعالى :

ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾

(سورة التوبة)

" **على رسوله وعلى المؤمنين** " ويجب أن نعلم الشيء الذي يخـص النبـي عليـه الصلاة والسلام للمؤمن منه نصيب بقدرِ إيمانه ، بقدرِ إخلاصه ، بقدر إقباله ، إذا فهمتَ قوله تعالى :

وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾

(سورة الطور)

هذا الخطاب موجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام ولكن يجب أن تعلم أنك إذا استقمتَ على أمره وأقبلتَ عليه وأخلصتَ له فلك من هذه الآية نصيب .

كما أن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين كذلك الله عز وجل يعطي المؤمنين بعض ما يعطي المرسلين ، الرؤيا الصادقة كما قال عليه الصلاة والسلام جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة ، للنبي معجزة وللولي كرامة ، المعجزة خرقٌ للعادات والكرامة خرقٌ للعادات .

باب البطولة مفتوح على مصراعيه ، باب التفوق مفتوح الله هو الله في كل زمانٍ وفي كل مكان لا يتبدل ولا يتغير ولا يتحول ، بل إن بعض الأزمنة أجر المستقيم فيها أعظم بكثير من أجر المستقيم في زمان آخر كما قال عليه الصلاة والسلام :

" إشتقت لأحبابي قالوا أو لسنا أحبابك قال : أنتم أصحابي ، أحبابي أُناس يأتون في آخر الزمان القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر أجرهم كأجر سبعين قالوا منا أم منهم قالَ بل منكم قالوا ولِم ..؟.. قال : لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون "

" **ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين** " هذه أول آية الآية الثانية :

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

(سورة التوبة)

الآية الثالثة :

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٤﴾

(سورة الفتح)

الآية الرابعة :

۞لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى
قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾

(سورة الفتح)

الآية الخامسة :

إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ
سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟
أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

(سورة الفتح)

هل بإمكانكم أن تستنبطوا قاسماً مشتركاً في كل هذه الآيات .؟. قاسم مشترك ، " **ثم أنزل ا سكينته على رسوله وعلى المؤمنين** " ، " **إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن ا معنا فأنزل ا سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها** " ، " **هو الذي أنزلَ السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم** " في سورة الفتح " **لقد رضي ا عن المؤمنين إذ يبايعونك تحتَ الشجرة** " في بيعة الرضوان ، أذكر لكم مناسبات هذه الآيات كلها .

أخبر سبحانه وتعالى عن إنزالها على رسوله وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب ، في مواضع الشدة ، كل هذه الآيات فيها قاسم مشترك واحد وهو أن المؤمنين في مواضع الشدة ، في مواضع الاضطراب ، في مواضع الخوف ، في مواضع المحن ، تأتي السكينة ، قد تأتي مصيبة يفرقُ لها الإنسان ، ينهار لها ، تخور قواه ، ينسحق ، أما المؤمن تأتى سكينة ا على قلبه فتجعل وقع هذه المصيبة عليه برداً وسلاماً ، حتى لو نزلَ بلاء عام ، حتى لو اشتدت المحن ، حتى لو ضاقت الأمور ، فإن ا سبحانه وتعالى ينزل سكينته على المؤمنين كمكافأة لهم على استقامتهم .

يوم الهجرة ... " **إذ يقول لصاحبه وهو في الغار لا تحزن إن ا معنا** " ، ويوم حنين، ويوم الحديبية ، كلها مواطن قلق واضطراب وخوف وشدة ، وأنتَ أيها المؤمن لا سمح

ا ولا قدر ولكن إذا جاء بأس شديد ، أو جاءت شدةٌ ، أو جاء قلـقٌ ، أو جـاء خـوفٌ أو اضطراب ، فا سبحانه وتعالى يخُصك بسكينة تجعلُ قلبك في برد وسلام ، وفي أمنٍ وأمان ، وفي طمأنينة وراحة ، وهذا بعض ما يعامل ا به المؤمنين الذين عرفوه في الرخاء ، فإذا جاءت الشدة عرفهم ا عز وجل .

أحد العلماء كان يقول : " إذا اشتدت عليه الأمور قرأ آيات السكينة ".. وقال مؤلف الكتاب ولقد جربت أنا أيضاً قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه فرأيتُ لهـا تأثيراً عظيماً ، وهذه نصيحة ، وهذه وصفة، وهذا توجيه ، إذا اشتدت الأمور ، إذا اضطرب القلب ، إذا نزلت المحن فاقرءوا آيات السكينة لأن السكينة مما يخص به ا تعالى المؤمنين .

أصلُ السكينة : الطمأنينة والوقار ، فلان في سكينة قلبه مطمـئن ، مـن الـداخل طمأنينة من الخارج وقار ، الحركة السريعة ، الاضطراب ، الفـزع ، الصـياح ، العويـل ، البكاء ، هذا كله انهيار عصبي

فالسكينة في أدق تعاريفها : طمأنينةٌ في القلب وسكون في الجوارح من الداخل ومن الخارج ، هناك أشخاص يتقنون التمثيل ، يكون قلبهم في جناح طائر ومـع ذلـك يضـبطون أعصابهم الخارجية ، ولكن السكينة في حقيقتها سكون داخلي وسكون خارجي ، راحةٌ قلبيـة وهدوء في الأعضاء والأعصاب .

.... قالَ سمعتُ البراء بن عازبٍ يُحدثُ قالَ لما كان يومُ الأحزابِ وخَنْدقَ رسُـولُ اللـه صلى اللهُ عليه وسلم رأَيتُهُ ينقُلُ من تُرابِ الخَنْدق حتى وارى عني الغُبارُ جِلْدةَ بطْنه وكـان كثير الشعر فسمعتُهُ يرتَجِزُ بِكلمات ابنِ رواحةَ وهُو ينْقُلُ من الترابِ يقُولُ :

اللهُم لولا أَنْتَ ما اهتَدينا ولا تَصدقْنَا ولا صلينَا فَأَنْزِلن سكينَةً علينَا وثَبت الأقْدام إِن لاقَينَا إِن الألى قَد بغَوا علينَا وإِن أَرادُوا فتْنَةً أَبينَا قالَ ثُم يمُد صوتَهُ بِآخرها *

النبي ... في غزوة الخندق ، في وقت الشدة ، فـي وقـت المحـن فـي وقـت الاضطراب ، في وقت الخوف ، في وقت أصبح الإسلام في خطر ، أصبح وجود الإسلام في خطر ، بقي للإسلام بحسبِ نظرِ الناظر ساعات في هذا الوقت الشديد كان النبـي صـلى ا عليه وسلم يحفر الخندقَ مع أصحابه وقد وصلَ التراب إلى جلدة بطنه وهو يرتجز بأبيات عبد ا بن رواحة يقول: لا هم يعني اللهم .

لا هم لولا أنتَ ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينةً علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنةً أبينا

من صفة النبي صلى ا عليه وسلم في الكتب المتقدمة : إني باعثٌ نبيـاً ، أُميـاً ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخّابٍ في الأسواق ، ولا متزينٍ بالفُحش ، ولا قوالٍ للخنى ، أُسدده لكل جميل ، وأهب له كُل خُلق كريم ، ثم أجعلُ السكينةَ لِباسه ، والبِـر شـعاره ، والتقـوى ضميره ، والحكمة مقولته ، والصدقَ والوفاء طبيعته ، والعفو والمعـروف خُلُقـه ، والعـدلَ سيرته ، والحق شريعته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه . هكذا ورد في بعض الكتب المتقدمة عن صفة النبي صلى ا عليه وسلم ، يعنينا من هذا القول وذاك الوصف : ثم أجعلُ السكينةَ لِباسه

المؤمن في سكينة ، المؤمن كالجبل الراسخ ، المؤمن لا يفزع، لا ينهار، لا يخرج عن أطواره ، لا يحطّم الأواني إذا غضب ، لا يدفع الأبواب ، لا ينطلـق لسـانه بالسـباب ، المؤمن في سكينة ، في حلم، وكاد الحليم أن يكون نبياً ، والحلم سيد الأخلاق .

في شيء مهم جداً ، السكينة إذا نزلت على القلب اطمأن بها وسكنت إليها الجوارح وخشعت واكتسبت الوقار وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة ، وحالت بينه وبين قول الفُحـش والخنى ، واللهو والهجر وكل باطل ، قال ابن عباسٍ رضي ا عنهما كُنّا نتحدثُ أن السكينة تنطقُ على لِسانِ عمر وقلبه .

لا أدري ما السكينة ، أعرفُ نتائجها ، الطمأنينة ، الشعور بالرضا ، الشعور بالتفوق ، الشعور بالأمن ، في قلب المؤمن من الأمن ما لو وزع على أهل بلد مـذعورين لكفـاهم ، لأسكن خوفهم ، هذه السكينة ، نتائجها باهرة ، هي تجلّي ا عز وجل ، هي نور يقذفه ا في قلب المؤمن ، طمأنينةٌ يزرعها في قلبه .

قال : هذه السكينةُ إذا سكنت في القلب أنطقت اللسان ، أنطقت اللسـان بالحكمـة ، أنطقت اللسان بالموعظة ، أنطقت اللسان بالحقيقة ، سيدنا عمر قال : كُنا نتحدثُ أن السـكينة تنطقُ على لسان عمر وقلبه .

من كرامات صاحب السكينة ينطقُ بكـلامٍ دون تحضـير ، دون إعـداد ، دون تخطيط ، دون مطالعة ، دون مراجعة ، دون مدارسة ، القلب الذي أنزلَ ا عليه السـكينة ينطقُ بكلامٍ عن غير فكرة منه ، ولا رواية ، ولا هبة، يستغربه هو من نفسه ، يقول وا ِ أنا في حيرة ، وا تكلمتُ كلاماً ما أعددته وليس في إمكاني أن أُعيده كان فتحاً من ا عز وجل ، هذه من آثار السكينة ، ويستغربه هو من نفسه كما يستغرب السامع له ، وربما لا يعلم بعـد انقضائه بما صدر منه ، أكثر الأخوة الأكارم أحياناً في ساعات الإشراق ، في ساعات الإقبال ، في ساعات السكينة ، ينطلقُ لسانه مع الناس بكلامٍ عجيب ، ملؤه الحق ، ملـؤه الحقيقـة ، منظم ، قوي ، مع الدليل مع الحجة ، فيه قوة تأثير ، لو كلّفتَ هذا المتكلّم الذي نَطَقَ أن يعيد كلامه لما استطاع .

لذلك : هنا موطن القصيد ، لماذا فُلان يتكلّم فلا يؤثر، وفُلان يتكلّم فيفعل في النفوس فعل السحر ، هذا هو الفرق ، هذا الذي تكلّم عن ثقافة ودراسة ومطالعة وترداد ورواية وحفظ وتذكرٍ وقراءة وذكاء و و و .. هذا الكلام ما أيده ا بروحٍ منه ، أما الذي تكلّم عـن سـكينة أودعها ا في قلبه وهي ثمرةٌ من ثمار إيمانه واستقامته وإخلاصـه وورعـه وتضـحيته و مؤاثرته ، هذا الكلام الذي ينطقُ به الثاني يودع ا فيه الروح ، يودع ا فيه قوة التـأثير ، وهذا يستنبط من بعض قول ا تعالى :

لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

(سورة المجادلة)

قد تعجب ، قد تجد الفصاحة ، والبيان و الإتقان ، والعبـارة المحكمـة ، والشـاهد المؤيد ، ولا تجد التأثير ، وقد تجد التأثير مع شخصٍ أقل فصاحةً ، وأقل علماً ، وأقل إطلاّعاً ، وأقل ثقافةً، هذا التفسير الوحيد للذين يؤثرون في الآخرين لأن ا سبحانه وتعالى أنزلَ على قلبهم السكينة .

العلماء قالوا : " أكثر ما تكون هذه السكينة عند الحاجة .. " عند الحاجـة .. وعنـد صدق الرغبة من السائل والمجالس ، إن صار في سؤال عز وجل بصـدق وحـرارة ا سبحانه وتعالى ينزلُ هذه السكينة فإذا هي كلام سديد ، فإذا هي روحانية ، فإذا هي تجلّ ، فإذا هي قوة تأثير .

في تعريفات دقيقة للسكينة أن السكينةَ نور وقوةٌ وروح ، .. فالنور يكشف ا لـك بالسكينة التي هي في بعض أجزائها نور ، يكشف لك عن دلائل الإيمـان وحقـائق اليقـين ، يجعلك تُميز بين الحق والباطل ، بين الهدى والضلال ، وبين الغي والرشـاد ، بـين الشـك واليقين ، يعني .. صاحب السكينة صاحب رؤيا، صاحب السكينة صاحب نور، هكذا قال عليه الصلاة والسلام :

.... عن أَبِي مالِكٍ الأَشْعَرِي قالَ قالَ رسُولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم الطهُـورُ شَـطْرُ الإِيمانِ والْحمدُ لِله تَملأُ الْميزان وسُبحان الله والْحمدُ لِله تَملأنِ أَو تَملأُ ما بين الســماوات والأرضِ والصلاةُ نُور والصدقَةُ بُرهان والصبرُ ضياء والْقُرآنُ حُجةٌ لك أَو عليك كُلُّ النـاس يغْدُو فَبايع نَفْسهُ فَمُعتقُها أَو مُوبِقُها *

السكينة في بعض معانيها نور يقذفه الله في القلب ترى به الحقَ حقاً والباطلَ بـاطلاً ، صاحب السكينة لا ينخدع ، صاحب السكينة لا يغتر بظواهر الأشياء عن حقائقها ، صاحب السكينة لا يرى رؤيةً مشوشةً ولا ضبابيةً بل يرى رؤيةً صحيحةً ودقيقةً .

أما الحياة .. قلنا السكينة نور وقوةٌ وروح .. الروح توجب كمالَ اليقظة ، توجـب الحضور ، توجب البعد عن الغفلة ، توجب التأهب للقاء الله عز وجل ، عنده روحانية ، عنده حياة ، قلبه يقظ ، سريع التأثر ، سريع الاستجابة ، سريع التحسس بالخطأ ، في حياة .. فمن معاني السكينة المعنى الأول النور الذي يقذف في قلب المؤمن فيريه الخير خيراً والشر شراً ، من معاني السكينة الروحانية التي يملكها ، يقظة النفس ، لا غفلة ، لا بعـد ، لا انغمـاس بالشهوات ، في صحوة، في محاسبة دقيقة ، في شعور بالرضا ، والقوة توجب لـه الصـدقَ وصحة المعرفة ويقهر بهذه القوة داعي الغي ، أحياناً داعي الشهوة يغلب الإنسان يقـول لـك غُلبت ، وقد نُسمي العاصي الذي يبكي بعد معصيته مغلوباً . .. هناك من يعصي و يتـبجح ، هناك من يعصي ويفتخر ، هناك من يعصي ويتباهى بهذه المعصية ، هذا هو الفـاجر ، أمـا هناك من يعصي ويبكي، الذي يعصي ويبكي مغلوب ، معنى مغلوب قوة الشهوةُ فيـه غلبـت عقله ، من لوازم السكينة أنها تُعطيك قوةً ، بهذه القوة تقهر دواعي الشهوات ، الإنسان دائمـاً في صراعٍ بين عقله وشهوته ، بين إلهامات الملائكة ووسوسة الشياطين ، بين دواعي الجسـد الأرضية ودواعي الروح السماوية ، فكلما كانت السكينة في قلب المؤمن اكتسب قوةً يقهر بها دواعي الشهوة .

السكينة في جانب منها جانب نوراني ، وجانب منها جانب روحاني ، وجانب منهـا جانب قوة تقهر بها الشيطان تقهر بها نوازع الجسد تقهر بها وسوسة إبليس ، تقهر بها قـوى الأرض ، نور وحياةٌ وقوة ، بالنور ترى ، وبالحياة تسعد ، وبالقوة تقهر ، .. رؤيةٌ صحيحة ، ونفس سعيدة ، وسلاح ماضٍ ، هذا معنى " **أنزلَ سكينته على رسوله وعلى المؤمنين** " هـذه هي السكينة .

حتى الإنسان أحياناً ، العاصي لو أنه تاب إلى الله توبةً نصـوح يمنحـه الله بهـذه السكينة قوةً يغلب بها شهوته ، كان مغلوباً فصار غالباً ، كان مقهوراً فصار قـاهراً ، كـان ضعيفاً فصار قوياً، كان تبعاً لأهوائه فصار يقودها وفق الحق .

من معاني السكينة أيضاً وهذا شيء مهم جداً : محاسبة الـنفس وملاطفـةُ الخالـق ومراقبة الحق ، من ثمراتها نور يريك الحق حقاً والباطلَ باطلاً ، روحانيةٌ تُبعد عنـك كـل الأحزان ، قوةٌ تقهر بها الشيطان ، من معانيها : محاسبة النفس وملاطفةُ الخالق ومراقبة الحق .

محاسبة النفس : .. حاسبوا أنفسكم قبلَ أن تُحاسبوا وزِنوا أعمالكم قبـلَ أن تـوزن عليكم والله سبحانه وتعالى أثنى على النفس اللوامة هناك نفس مطمئنة ونفس لوامـةٌ ونفـس أمارةٌ بالسوء، فالنفس اللوامة أثنى الله عليها فقال :

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾

(سورة القيامة)

هذه نفس أثنى الله عليها ، إذا كُنتَ تُحاسب نفسك ... لماذا قلتَ هذا الكلام ، لمـاذا وقفتَ هذا الموقف ، لماذا عبستَ في وجه فُلان ، لماذا سخرتَ منه ، لماذا دفعتَه بيدك ، لماذا حرمتَ فُلاناً ، لماذا أعطيتَ فُلاناً .... لا يكمل إيمان المؤمن إلا إذا حاسب نفسه حساباً عسيراً ، لن يكون المؤمن صادقاً إلا إذا كان حسابه لنفسه عسيراً، فأنتَ حاسب ِلئلا تُحاسب ، إن لـم تُحاسب حوسبت ، من حاسب نفسه حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً ، ومن حاسب نفسه حساباً يسيراً كان حسابه يوم القيامة عسيراً ، من اطمأن في الدنيا خافَ في الآخرة ، من خافَ في الدنيا اطمأن في الآخرة ، لا يجتمع خوفان و أمنان ، إن خفته في الدنيا طمأنك يـوم القيامة ، وإن لم تخفه في الدنيا أخافك يوم القيامة .

قال : إن زكاةَ النفس وطهارتها موقوفٌ على محاسـبتها ، لا تطهـر ولا تزكـو ، الطهارة تنظيف والزكاة تعطير ، التحلية و التخلية ، التطهير والاصطباغ ، النفس لا تطهـر ولا تزكو إلا بالمحاسبة لا محاسبة في انحراف ، في طغيان ، في تمادي ، في تطاول .

الحسن رضي الله عنه قال : إن المؤمن والله لا تراه إلا قائماً على نفسـه ، يعنـي يحاسبها، يسألها ، يسيء الظن بها ، ما أردتُ بكلمة كذا ما أردتُ بهذا ، مالي ولهذا ، والله لا أعود إليه

الإنسان إذا حاسب نفسه رأى عيوبها ونقائصها ، .. من الحمق الشديد أن ترى فـي الآخرين عيوبهم ولا ترى في نفسك العيوب ، أن ترى أدق العيوب في الآخرين ولا ترى أكبر العيوب في نفسك ، وإذا ظننتَ نفسك كاملاً فهذا من أكبر العيوب ، أكبر عيبٍ أنـتَ فيـه أن تُحسن الظن في نفسك وأن تسيء الظن في الآخرين ، والكمال أن تفعلَ العكس أن تُسيء الظن

بنفسك وأن تُحسن الظن بالآخرين ، الكمال إذا فعلتَ معروفاً مع إنسان أن تنساه ، والكمال إذا فعلَ معك أحد معروفاً ألا تنساه أبداً .. هذا هو الكمال .. هذه محاسبة الـنفس ، مـن لـوازم السكينة محاسبة النفس صار في حياة في يقظة .

ومن لوازم السكينة : ملاطفة الخلق ، معاملتهم بما يحب أن يعاملوه به هذا المقياس .. من أروع المقاييس .. وا هذا القول للنبي عليه الصلاة والسلام لو طبقه الناس وا ِ الذي لا إله إلا هو لأغلقت المحاكم أبوابها ، عامل الناس كما تُحب أن يعاملوك ، عامل هذا الموظف كما تُعامل ابنك ، عامل زوجة ابنك كما تُحب أن يعاملَ ابنتك زوجها ، هذا مقياس دقيق في كل حركات الناس وفي كل سكناتهم ، يعني هذا الذي فعله النبي .. جاء رجل إلى النبي وقال يا محمد إئذن لي بالزنا .. في حضرة أصحاب النبي، فغضب أصحاب النبي وهموا أن ينهروه ، منعهم النبي من أن يفعلوا قال تعال يا عبد ا تعال اقترب مني .. آنسه .. قال أَتُحبه لأمك فكاد يغلي الدم في رأسه قال : لا ، قال ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ، أتُحبه لأختك ، أتُحبه لابنتك ، أتُحبه لزوجتك ، قال دخلتُ على النبي صلى ا عليه وسلم وما شيء أحب إلي من الزنى وخرجتُ من عنده وما شيء أبغض إلي من الزنى طبق القاعدة ..

أنت وراء الطاولة موظف أمامك مراجع ، لو كنتَ مكان هذا المراجـع أتُحـب أن يماطلك، أتُحب أن يؤجلك ، أتُحب أن لا ينظر إليك ، أتُحب أن يهملك ، أنت الآن زوج لو أنك مكان هذه الزوجة أتُحب أن تكون مظلوماً ، أتُحب أن تكون معذّباً ، لا.. يعني هذا مقيـاس لا أجمل منه ولا أدق ، ولا أوضح ، مقياس دقيق ، عامل الناس كما تُحب أن يعاملوك ، عاملهم بالإنصاف.

قال : ملاطفة الخلق : أن تعاملهم بما يحب أن يعاملوه به من اللطف ، لا ينبغـي أن تعاملهم بالعنف والشدة والغلاظة ،

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

(سورة آل عمران)

علّموا ولا تُعنفوا فإن المعلم خير من المعنّف ، فإن ذلك ينفّرهم ويغريهم بالبعد عنه ويفسد حبه في قلوبهم ، أنتَ يجب أن تربح الناس لا أن تخسرهم ، بذكاء شديد ، وحكمة بالغة ، وبذلٍ كبير ، وصبرٍ عظيم ، وحلمٍ وافر يمكن أن تربح الناس ، وبتصرف واحـد أحمـق ، تصرف أرعن ، كلمة قاسية ، كلمة نابية ، تخسر الناس ، جهود كبيرة تبذلها كي تـربحهم ،

تصرف واحد أحمق تخسرهم ، فمن لوازم السكينة محاسبة النفس وملاطفة الخلق ، هذه الآية رائعة جداً " **ولو كنتً فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** " يخاطب ا مـ ن ..؟.. يخاطـ ب النبي ، يخاطب الذي معه القرآن المؤيد من ا عز وجل ، يخاطـ ب المعصـ وم ، .. حتـ ى المعصوم حتى المؤيد بالوحي لو كان فظاً لَنَفَر الناس من حوله . أنا ُألاحظ ملاحظـ ة : تجـ د الأب قاسياً مع أولاده يظن نفسه مع قسوته يجب أن يحبه أولاده لأنـ ه والـ دهم ، .. لا .. لا يكفي أن تكون أباً حتى تُحب لابد من أن تكون كاملاً حتى تُحب ، يحترمونك ولكن لا يحبونك الحب ليس بيدهم ، إذا كنتَ قاسياً ، قاسياً في كلماتك مع أولادك ، توبخهم أمـ ام الآخـ رين ، تستعلي عليهم ، تُسكتهم ، تُخزيهم أمام زوجاتهم مثلاً ، وإذا كُنتَ أباً لهم .. لا يحبونك ..

يجوز إذا كان ابنك مؤمناً يخاف من غضب ا لذلك يرضيك في ظاهره ، أما أنتَ لا تستطيع أن تملك قلوبهم إلا بكمالك . خذوا هذه القاعدة : الإنسان له قلب وله قالـ ب مهمـ ا كنتَ قوياً مهما كنتَ مسيطراً لا تستطيع أن تمتلك إلا القالب ، لكن كمالُك يجعلُك تمتلك القلوب ، القلب لا يمتلك إلا بالكمال أما الجوارح ... الآن الطُغاة فـ ي العـ الم النـ اس يخـ افونهم ، يخضعون لهم ، ينفذون أمرهم ، بأدق حذافيره خوفاً من بطشهم ، فالطغاة مـ اذا ملكـ وا..؟.. ملكوا القوالب ، لكن الأنبياء ملكوا القلوب . الفرق بين العالم داعية مثلاً مدير مؤسسة مـ دير مدرسة مدير ثانوية مدير مستشفى .... هذا معه سلطة بإمكانه أن يوبخ وأن يقطع الراتب وأن يكون كلامه قاسياً والناس يخافونه ، موظف يعني رزقه معلّق بالمدير العام حسب الظـ اهر ، فإذا عاقبه وخضع ليست هذه بطولة ، البطولة أن تمتلك القلوب ، البطولة أن تمتلـ ك قلـ وب الناس بكمالك ، لو فرضنا إنساناً من أتفه الناس ، من أقلّهم علماً أقلّهم شأناً ، أقلّهـ م فهمـ اً ، أقلّهم حكمةً ، لو معه سلاح واجه أعظم إنسان وشَهر عليه السلاح فخضع .. هذه قوة لا قيمة لها إطلاقاً ، هذه قاعدة : لن تستطيع أن تمتلك القلوب إلا بكمالك ، لكن بقوتك تمتلك القوالـ ب بإمكانك وأنتَ الأب القوي وأبنك الضعيف أن تُخضعه ، أن تعطيه أمراً قاسـ ياً ، ولكنـ ك لا تكون أباً بطلاً إلا إذا جعلتَ ابنك يهواك لكمالك .

يعني .. واحد له ابن عاق وشرس ومنحرف ، وكان الأب من حين لأخر يقول لابنه : يا ابني أنت لا تصبح رجلاً ، وهذا الابن في غفلة من الزمن صار بمركـ ز قـ وي جـ داً ، فأحضر أباه مقيداً وقال له تفضل وانظر لي ألا ترى منصبي فقال له والده تصبح بهذه المكانة لكن لا تصبح رجلاً .... يعني حينما جاء بأبيه بهذه الطريقة معناها أنه غير رجـ ل . فـ القوة ليس لها قيمة. ا جعل ا الأنبياء ضعفاء .. سؤال دقيق جداً أليس ا قادراً على أن يجعـ لَ النبي إنسان قوي جداً..؟.. حكمة ا أن النبي قوته بكماله ، فقد يكون النبي أضعفَ الناس :

وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾

(سورة هود)

كانوا يسخرون منه ، النبي يمكن أن تُكذّبه ، ويمكن أن تسخر منه ، ويمكن أن تُعارضه، ويمكن أن تصفه بالجنون ..

ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾

(سورة الدخان)

أليس كذلك .. وصف بأنه كاهن ، وبأنه ساحر،وبأنه مجنون ، لأنه ضعيف . عظمةُ النبي أن الذي آمن به ما آمن به خوفاً ولا آمن به طمعاً ، لا دنيا عنده ، لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً ، لا دنيا يعطيك إياها ولا قوة تخاف منه ، لماذا آمنتَ به ، لما ضحيتَ في سبيل أن تؤمن به بالغالي والرخيص والنفس والنفيس ..؟.. لأن كماله أسرك .

يعني .. حكمة الله عز وجل في جعل الأنبياء ضعفاء في بادئ الأمر ، لو كانوا أقوياء لآمن الناس بهم جميعاً إيماناً شكلياً ظاهرياً ، إيماناً فارغاً لا قيمة له أبداً ، كما لو كلّفنا أُناساً ضعافاً أن يقولوا هذه الكلمات .. يقولونها .. قال له ولوعادوا عد إلى ما قُلت ولا شيء عليك ، هذا إكراه . حكمةُ أن الله عز وجل جعلَ النبي ضعيفاً كي يؤمن به المؤمنون لا عن خوف يضعفَ قيمة إيمانهم ولا عن طمعٍ يضعفُ قيمةَ إيمانهم ، آمنوا به بمحض اختيارهم دونِ إغراء أو ضغط .. نعم ..

قال : ليس للقلبِ أنفع في معاملته للناس من اللطف ، يعني الإنسان باللطف يملك القلوب . هذا التوجيه الإلهي :

وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾

(سورة فُصّلت)

قال : أنتَ باللطف تُعامل إما صاحباً أو حبيباً أو عدواً ، الصاحب تستديم مودتـه ، والغريب تكسب مودته ، والعدو تُلين غضبه ، شخص لا يعرفك إذا لاطفته كسبته ، وشخص يعرفك إذا لاطفته دامت مودته لك ، وشخص عدو لك إذا لاطفته خفّت عداوته أو تلاشت .

.. أنت مع إنسان غريب أو قريب أو عدو ، الغريب حيادي لا يعرفُك لا يحبـك لا يبغضك إذا لاطفته ملكتَ قلبه، والذي يعرفُك إذا لاطفته استمرت مودته ، والعدو خفّت عداوته .

الحكمةُ كل الحكمة أن تكون ودوداً مع الناس . ورأس العقل بعد الإيمان با التودد إلى الناس . "**بُعثتُ بمداراة الناس** " .

أيضاً : يعني لو استعرضنا الأحاديث الشريفة التي تدعو إلى أن تكون مـع النـاس رحيماً.

.... عن عبد ا بن الزبير (خُذ الْعفْو وأْمُر بِالْعُرف) قَالَ ما أَنْزلَ اللهُ إِلا فـي أَخْـلاق الناس وقَالَ عبد ا بنُ براد حدثَنَا أَبو أُسامةَ حدثَنَا هشَام عن أَبِيه عن عبد ا بن الزبيـر قَالَ أَمر اللهُ نَبِيهُ صلى اللهُ عليه وسلم أَن يأْخُذَ الْعفْو من أَخْلَاق الناس أَو كَما قَالَ *

الآن : من لوازم السكينة مراقبة الحق سبحانه وتعالى ، في ثلاثة بثلاثـة : النـور والروح والقوة .. بالنور ترى وبالروح تأنس وبالقوة تقهر عـدوك الشـيطان .. والسـكينة : محاسبة النفس وملاطفة الخلق ومراقبة الحق ، هي ثلاثة : أنت والناس وا عز وجل . مـع نفسك بالمحاسبة ومع الناس بالمدارة ومع ا بالمراقبة .

لذاك : اعبد ا كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . والإنسان يجب أن يسـتحي من ا حق الحياء ، قيلَ وما حق الحياء..؟.. قال : أن تحفظَ الرأس وما وعى والبطن ومـا حوى وأن تذكر الموتَ والبِلى ، هذا الرأس حوى العينين حوى الأذنين حوى اللسـان حـوى الدماغ أن تحفظَ الرأس وما وعى من المعاصي والآثام ، وأن تحفظَ البطن وما حوى من أكل المال الحرام ، وأن تذكر الموتَ والبِلى .

الحقيقة : السكينة كما قلنا في مطلع هذا الدرس من ثمرات الإيمان ، السـكينة مـن المواهب لا من المكاسب ، السكينة وردت في مواطن الاضطراب والشدة يعني في الأزمـات في اضطراب القلب في المحن في النوازل تأتي السكينة لتكون برداً وسلاماً على المؤمن بلسماً للمصاب .

الحقيقة : أحد أسرار أنك إذا التقيتَ بمؤمن تأنس به وترتاح لهذه الجلسـة ، اسـأل الناس إذا التقوا بمؤمن إيمانه كبير يسعدون بهذا اللقاء ما سر هذه السعادة ..؟.. أن ا سبحانه وتعالى تجلّى على قلبه بالسكينة فإذا اتصلوا به أو تعاملوا معه أو جلسـوا إليـه أو صـاحبوه سرت إليهم هذه السكينة التي في قلبه ، لذاك قالوا : الصاحب ساحب . لذاك قالوا لا تُصاحب

إلاّ من ينهض بك إلى ا حالك أو يدلّك على ا مقاله ، اجعل صاحبك إنساناً ذا عقلٍ راجـح وذا قلبٍ مفعمٍ بالسكينة لذلك تسعد به ، وهذا سر السعادة بين المؤمنين ، هذا سر السرور الذي ينجم عن لقاء المؤمن بأخيه المؤمن .

.... عن أبي إدريس الْخَوْلانِي قَالَ دخَلْتُ مسجِد دمشْق الشامِ فَـإِذَا أَنَـا بِفَتًـى بـراق الثنَايا........ حتى إِذَا قَضى صلاتَهُ جِئْتُهُ من قبل وجهه فَسلمتُ عليه فَقُلْتُ لَهُ واللـه إِنـي لأحبك لِله عز وجل فَقَالَ أَاللهِ فَقُلْتُ أَاللهِ فَقَالَ أَاللهِ فَقُلْتُ أَاللهِ فَأَخَذَ بِحُبوة رِدائِي فَجبذَني إِليه وقَالَ أَبشر فَإِني سمعتُ رسُولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم يقُولُ قَالَ اللهُ عز وجـل وجبـتْ محبتي لِلْمُتَحابين في والْمُتَجالِسين في والْمُتَزاورِين في والْمُتَباذِلِين في *

نسأل ا سبحانه وتعالى أن ينزلَ على قلوبنا السكينة فهي من ثمـرات الإيمـان .

اسأل واحد مؤمن .. مؤمن حديثاً .. تجد في قلبه سعادة عجيبة ، يكاد يقول لـك لـيس فـي الأرض من هو أسعد مني ، ما السر..؟.. السر لما تاب توبة نصوح أنـزلَ ا علـى قلبـه السكينة . قد تجد إنساناً فقيراً مرتبته الاجتماعية في الدرجة السفلي ، قد يكون حاجباً قد يكون إنساناً ضعيفاً فقيراً لا شأن له ، مغموراً لا أحد يعرفه ، بيته صغير ، زوجته مـن الدرجـة الخامسة مثلاً ، دخله قليل ، فإذا تجلّى ا على قلبه بالسكينة كان أسعد من ملـوك الأرض ، هذا الذي قالَ عنه البسطامي أبو يزيد: وا ِ لو يعلم الملوك ما نحـن عليـه لقاتلونـا عليهـا بالسيوف. هذه السكينة .

هذا الذي قاله بعض علماء النفس " إن ا يعطي الصحةَ والذكاء والمالَ والجمـالَ للكثيرين من خلقه ولكنه يعطي السكينة بِقَدرٍ لأصفيائه المؤمنين " .. السكينة .. يعطي القـوة والذكاء والمالَ والجمال .. قد يكون الإنسان جميلاً لكنه شقي ، قد يكون ذكياً لكنه منحط ، قد يكون قوياً لكنه لئيم ، قد يكون صحيح الجسم لكنه مريض النفس ، يعطـي الصـحة والمـالَ والذكاء والجمال للكثيرين من خلقه ، ولكنه يعطي السكينةَ بِقَدرٍ لأصفيائه المـؤمنين . تكـاد تكون السكينةُ هي أكبر ثمرات الإيمان هي السعادة .

والحمد رب العالمين

وردني سؤال يقول : هل يجوز إغماض العينين في الصلاة علماً إمـا لخشـوعٍ أو لتمعنٍ في كلمات ا ..؟..

الحقيقة : المصلي كما في السنّة ينظر إلى موضع سجوده ، وحكمةُ أن يكون عينـاه مفتوحتان يعني .. في عهد النبي عليه الصلاة والسلام في كان البلاد صحراء وفيها عقـارب وأفاعي فالإنسان لِئلا يكون مضطرباً أو قلقاً إذا فتح عينه يطمئن أكثر ، أما إذا أعانه إغماض

عينيه على الخشوع فالإغماض أولى ، لو دخل مسجد كهذا المسجد وتأمل في هذه الزخـارف في أثناء الصلاة ربما كانت صلاته في هذا المسجد مع إغماض العينـين أولـى ، فإغمـاض العينين إذا أعان على الخشوع مشروع أما إذا أغمضت عينيك فأصحبتَ مضطرباً مكان لستَ مطمئناً له ، مكان خطر مثلاً في برية تصلي لعل تمر أفعى أو عقرب أو شيء .. لا .. افـتح عينيك ِلئلا تقلق، أما إذا أغمضتَ عينيك وأعانك إغماض عينيك على الخشـوع فالإغمـاض مشروع ، العبرةُ :

قَــدۡ أَفۡلَــحَ ٱلۡمُؤۡمِنُــونَ ﴿١﴾ ٱلَّــذِينَ هُــمۡ فِــى صَلَاتِهِــمۡ خَـٰشِـعُونَ ﴿٢﴾

(سورة المؤمنون)

والخشوع في الصلاة من فرائض الصلاة لا من فضائلها ، فأي شيء أعانك علـى الخشوع ينبغي أن تفعله ، لو أنت أمام شيء غريب تتأمله في أثناء الصلاة بعدتَ عن الصلاة إذاً أغمض عينيك .

والحمد رب العالمين

*** * ***

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون .... مع الدرس السادس عشر من مدارج السالكين ، منزلـة اليوم منزلة الصدق ، وإذا تحدثنا عن الصدق كمنزلة من مدارج السالكين فيجب أن يخطر في بالكم عن هذه الكلمة كل شيء إلا ما يفهمه عامةُ الناس من أن فُلاناً صـادق إذا تكلّـم وفـقَ الواقع . كلمة الصدق في القرآن الكريم أكبر بكثير من أن يأتي كلامك مطابقاً للواقع .. وبعد حين إن شاء ا سوف يتضح هذا المعنى جلياً من خلال بعض الآيات والأحاديث ، على كُـلٍ لنستعرض الآيات الكريمة التي وردت فيها كلمة الصدق ، كلمة الصدق لا اُبالغ إذا قُلـت إن كل الدرجات العلى التي ينالُها المؤمن إنما بسببِ صدقه ، لا أقول أن يكون صادقاً في حديثـه بل لهذه الكلمة معنى أكبر بكثير . أول آية من آيات هذا الدرس وهي قوله تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

(سورة التوبة)

.. أطيعوا ا .. اتقوا ا ، وربما أراد ا عز وجل أن يبين لنا من أجل أن تطيعـوه كونوا مع الصادقين ، كأن أثر المجتمع الذي حولك ، أثر البيئة التي حولك ، والأصدقاء ، أثر الأقرباء و المعارف ، و الجيران لها تأثير ، " **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا ا** " اتقوا ا ومن أجل أن تستطيعوا أن تتقوه كونوا مع الصادقين .لابد من أن تكون مع صادق هـذا المعنـى الأول . يبدو أن الصادق يعطيك من خبرته ، و علمه ، يعطيك من حالِه ، و قاله ، يعطيك من أخلاقه ، فلابد أن ترى الدين مجسداً في شخص .

الدين كأفكار ، كأخبار ، كمعلومات لا يفعلُ في الإنسـان فعـلَ المثـل الأعلـى ، المعلومات والأخبار والآثار لا تحمل على السلوك القويم كما لو رأيتَ بأُمِ عينيك إنساناً تعيشُ معه تمثّلَ هذا الدين . .. موقفٌ واحد أخلاقي يقفه مؤمن له تأثير كبير جداً في نفسِ المتعلّم . لذلك .. لو أن بالإمكان أن يجري التعليم على مستوى الدول العالمية دون معلّم عـن طريـق الكتاب لوفرنا ألوف الملايين ولكن لابد من المعلّم. " **فاتقوا ا وكونوا مع الصادقين** " .

.. الإنسان يقول لك أنا مؤمن وله بيئةٌ سيئة ، له أصدقاء سوء ، له قُرناء سوء ، له جيران سوء ، يقيم معهم وينسجم معهم ويندمج معهم ويسهر معهم ويمضي سـاعات طويلـة

معهم وهو مستمتع معهم وهو مؤمن ... هذا مستحيل ... لابد من حمية ، لابد من أن تُجـري تبديلاً جذرياً في علاقاتك الاجتماعية ، لا تُصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي ، لك أن تُقيم علاقة عمل مع أي إنسان في حدود العمل ، تُقدم له ما عندك يعطيك الثمن بكلامٍ طيب ، بسلامٍ ، بوداعٍ ، بترحيبٍ ، بطلاقة وجه ، أما أن تُقيم علاقةً حميمةً مع إنسانٍ بعيد عن ا عز وجل ليس هذا من الإيمان في شيء :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴿١٣﴾

(سورة الممتحنة)

۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾

(سورة المائدة)

الآية الأولى: " **يا أيها الذين آمنوا اتقوا ا وكونوا مع الصادقين** " كُـن معهـم لتأخذ عنهم لتأخذَ من علمهم من آدابهم لتأخذَ من أحوالهم من ورعهم لتأخذَ من أخلاقهم مـن مثلهم .. كُن معهم ، راقبهم ، اسألهم ، استفتهم ، حاوِرهم ، " **كونوا مع الصادقين** " لذلك يـد ا مع الجماعة ومن شذ شذ في النار ، يد ا مع الجماعة ، عليكم بالجماعة وإياكم والفُرقـة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد وإنما يأكلُ الذئب من الغنم القاصية ... هذه أول آية .. وقال تعالى :

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾

(سورة النساء)

الصديقين : المرتبة الأولى التي تلي مرتبة النبوة :

مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ
كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ

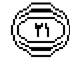


(سورة المائدة)

أبو بكر الصديق ، المرتبة الأولى التي تلي مرتبة النبوة مرتبة الصديقية ، نرجـو ا عز وجل أن يجعلنا من الصادقين " **وحسن أؤلئك رفيقاً** " .. أن تكون مع الصادقين خالق الكون يقول لك " **وحسن أؤلئك رفيقا** " هذا هو الرفيق ، الذي يجب أن تَعض عليه بالنواجذ ، هذا الرفيق الذي ينبغي أن تُلازمه ، " **وحسن أؤلئك رفيقا** " إن الأثر الذي يحدث من خـلال تعامل الأخوة المؤمنين أثر بليغٌ جداً ، يعني .. أخ يتعلّم من أخ الصدق ، من أخ آخر الورع ، من أخ ثالث الزهد ، من أخ رابع الاستقامة .... فإذا مجتمعك مجتمـع مـؤمن ، علاقاتـك ، نُزهاتك ، مجالسك ، سهراتك ، ندواتك ، في أفراحك، دائماً كُن مع المـؤمنين . " **اتقـوا ا وكونوا مع الصادقين** " .

آيةٌ ثانية من آيات الصدق ، ا سبحانه وتعالى خالق الكون يخبرنا أننـا إذا كُنـا صادقين فهو خير لنا ، يقول ا عز وجل :

طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ



(سورة محمد)

الخير كله في الصدق والسوء كله في الكذب ، فلو صدقوا ا لكان خيراً لهم : هـل تصدقون أن أركان الإيمان وأركان الإسلام بمجموعها أساسها الصدقُ ، إليكم الدليل قال تعالى :

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ
ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ
عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ
وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ
وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

(سورة البقرة)

" آمن با **واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين** " هذه أركان الإيمان ، " **وآتى المال على حبه ذوي القربى و اليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحـين البأس** " أركان الإسلام مع الأخلاق ، هي أركان الإسـلام وأركـان الإيمـان والأخلاقيـات والتعامليات " **أؤلئك الذين صدقوا** " لأنهم صدقوا آمنوا لأنهم صدقوا أسلموا لأنهـم صـدقوا تَخلّقوا بأخلاق الإسلام.

كلمة صدق تأخذُ معنى آخر غير المعنى الذي يتبادر إلى أذهـان النـاس ، فُـلان صادق يعني يتكلّم الصدق .. صادقٌ في طلبه إما أن يطابِقَ الواقع الخبـر ، إمـا أن يكـون كلامك مطابقاً للواقع فأنتَ صادقٌ في لسانك وإما أن يأتي عملك مصدقاً لقولك هـذا صـدقُ السعي .

الشيء الخطير أنه إذا لم يكن الإنسان صادقاً فلابد من أن يكون كاذباً .. كيـف .. قال تعالى :

لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ
عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾

(سورة الأحزاب)

من هوَ المنافق .. الإنسان الكذّاب .... يقول ما لا يؤمن يعبر عما ليس في نفسـه ، يتزين بما ليس في قلبه ، يظهر ما لا يبطن ، يعلن ما لا يخفي ، دائماً بحياته في ازدواجيـة ،

له مواقف معلنة ومواقف مبطّنة ، له علانية مقبولة وله سريرة ممقوتة ، له كلام لين لطيـف وله قلب قاسٍ حقود حسود ، والكذب والنفاقُ متطابقان تماماً .

أيها الأخوة الأكارم ... الإيمان أساسه الصدق والنفاقُ أساسه الكذب ، منافق يعنـي كذّاب، مؤمن يعني صادق .. صادق مع نفسه وصادق مع ربه وصادق مع الناس ، .. أحياناً الإنسان في انسجام داخلي فيما بينه وبين نفسه هذا الانسجام الداخلي معناه أنه صـادقُ مـع نفسه ، وأحياناً فيما بينه وبين ا ِ العلاقة عامرة .... نقول صادقٌ مع ربه ، فإذا عامل الناس باستقامة فهو صادقٌ مع الناس . العبد لا ينفعه يوم القيامة ولا ينجيه من عـذاب النـار إلا أن يكون صادقاً قال تعالى :

قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩

(سورة المائدة)

الحقيقة : هناك كما يقول بعض العلماء صدقٌ في اللسان وصدقٌ في العمل وصـدقٌ في الحال .... صادقُ اللسان يأتي كلامه مطابقاً للواقع ، صادق العمل يأتي فعله مطابقاً للسانه ، صادقُ الحال يأتي لسانه مطابقاً ِلما في قلبه وما في قلبه ِلما في لسانه . يعني .. لابد من أن تكون صادق اللسان والحال والقلب والعمل ، صادقَ اللسانِ وصادقَ الجوارح وصادقَ القلب .

الحقيقة : الصدق ينتهي بك إلى مرتبة الصديقية والدليل هو قول النبي عليه الصلاة والسلام :

.... عنْ عبد ا رضي الله عنْه عن النبي صلى الله علَيْه وسلم قَالَ إِن الصدْقَ يهْـدي إِلى الْبِر وإِن الْبِر يهْدي إِلى الْجنة وإِن الرجلَ ليصْدقُ حتى يكُون صديقًا وإِن الْكَذب يهْـدي إِلى الْفُجورِ وإِن الْفُجور يهْدي إِلى النارِ وإِن الرجلَ ليكْذب حتى يكْتَب عنْد الله كَذابا *

إذا إنسان صادق في فعل الخيرات ا عز وجل يتولى هدايتـه إلـى الخيـر ، إذا الإنسان صادق في هداية الخلق ا عز وجل يتولى إلهامـه الطريـقَ المناسـب والأسـلوب المناسب والعبارة المناسبة والفكرة المناسبة والموقف المناسب ... إن الصدق يهدي ... صادقٌ في تزويج ابنتك من مؤمن يهديك ا إلى الشاب المؤمن ، صادقٌ في إصلاح زوجتك يهـديك ا إلى الأسلوب المناسب لإصلاحها .. ا ُ الهادي أنتَ عبد الهادي ولستَ هادياً فإذا صـدقتَ مع ا هداك ا .. صادقٌ في تأسيس عملٍ حلالٍ يغنيك عن سؤال الناس ا يهديك ، صادقٌ

في أن تلتقي برجلٍ من أهل الحق ا يهديك إليه . إذا كنتَ صادقاً في معرفة الحقيقة لابد من أن تَصلَ إليها ، إذا كنتَ صادقاً في أن تلتقي بأهل الحق لابد من أن تلتقي بهم لأن ا يهديك عندئذ ، هذا معنى قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾

(سورة العنكبوت)

.. أنا حينما أشعر أن الإنسان صادقٌ في طلبِ الحقيقة وا ِ أشعر أن كل خلية فـي جسمي تنطق له : أبشر لابد من أن تعرف الحقيقة المطلقة ، صادقٌ في أن ترى أهـلَ الحـق أبشر لابد من أن تلتقي بهم ، صادقٌ في أن تهدي الناس إلى ا لابد من أن يضـعك ا فـي هذا المقام ، لكن ا عز وجل لا يتعاملُ أبداً مع التمنيات ولا يتعامل أبداً مع الرغبـات غيـر الصادقة لذلك في عقبات ، العقبات لإثبات الصدق .

.. فإذا إنسان صادق في حفر بئر مثلاً يحفر متر مترين خمسة ، خمسة عشر ، لـم يجد مياه ، ٢٠، ٣٠ ، يقول لك حفرت ٨٠ متراً ودفعت ٣٠٠ ألف معناها صادق في البحـث عن الماء. في شخص ليس مهتم بالأرض ولا يعلّقُ عليها كبير أهمية نصحوه أن يحفر بئراً .. خمسة أمتار .. بعيدة المياه .

في إنسان أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته

ومدمن القرع للأبواب أن يلجأ . النملة تُعلمنا الصـدق تصعد وتقع مرات عديدة .. يعني .. على الأخ أن يعرف الحقيقة ، أنتَ في تعاملـك مـع ا لابد من أن يظهر صدقك ، قد تشعر بوحشة بانقباض بضيق قد يقلُّ دخلـك ويتكـاثر النـاس ضدك قد تواجه عقبات ومعارضات و تآمرات قد تواجه خصوماً و حساداً قد تواجه ضـغوطاً من داخل البيت ومن حولك من جيرانك من زملائك ماذا تفعل ..؟.. لازلتَ مصراً على طلب الحق .

لذلك : ربنا عز وجل لابد من أن يمتحن المؤمنين ولو أن فيهم رسـول ا ، فـي غزوة الخندق :

هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾

(سورة الأحزاب)

أين وعود رسول ا ، تُفتح عليكم بلاد قيصر و كسرى ، أنتَ يا سراقة تضع تـاج كسرى على رأسك ، .. قال له يا عدي بن حاتم لعله إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين مـا ترى من حاجتهم ويم ا ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلـك يـا عدي بن حاتم إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم ويم ا ليوشـكّن أن تسمع بالمرأة البابلية تَحج هذا البيتَ على بعيرها لا تخاف ، ولعله إنما يمنعك من دخول فـي هذا الدين أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ويم ا ليوشكّن أن ترى القصور البابليـةَ مفتحةً للمسلمين .... وعود رائعة جداً

.. قبائل متناحرة متباغضة في الجزيرة شظف العيش وخشونة العيش والحـروب وهـؤلاء الضعاف المتخلّفون في مقياس العصر هؤلاء سيفتحون بلاد قيصر و كسرى .. دولـة مـن الدول المتخلّفة جداً الآن نقول لها أنت ستنتصرين على دول الشرق والغرب .. مسـتحيل . " **هنالك ُأبتلي المؤمنون** " جاء الأحزاب .. ما اجتمع في الجزيرة جيشٌ يعد عشرة آلاف مقاتل اجتمعوا جميعاً لا على محاربة المسلمين .. لا .. يا ليت ذاك .. لا على غزوهم فـي عقـرِ دارهم ، على استئصالهم من جذورهم على إبادتهم ليست حرب الخندق حرباً تقليدية ، حرب إبادة ، حرب استئصال ، واليهود الذين عاهدوا رسول ا نقضوا عهدهم كعادتهم كَشفَ ظهره " **هنالك ُأبتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً** " الإسلام بقي ساعات .. ساعات انتهى كله .. إلى أن قالَ أحدهم أيعدنا صاحبكم أن تُفتح علينا بلاد قيصر و كسـرى وأحـدنا لا يـأمن أن يقضي حاجته .. يخاف أن يقضي حاجته .. " **هنالك ُأبتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شـديداً** " .

هذا يسمونه حديثاً .. الفرز ، الفرز العلمي .. عندك صف مثلاً كلهم وجـوه مقبلـة ونشيطة لكن أجريت امتحان .. انفرزوا .. ٣٠ واحد راسب ، ١٢ نـاجحين ، ٢ متفـوقين ، واحد أولي . فربنا عز وجل دائماً يجري امتحانات .. امتحانات مفاجئة .. أنت مطمئن أنـت مؤمن مرتاح ، مؤمن ولك مكان بالجنة حجزته من الآن والناس كلهم لا يفهمون فقط أنتَ تفهم فيضعك ربنا بظرف صعب .. فإذا أنت لست مؤمناً ،بل مشرك خائف تقع بالحرام وأنـتَ لا تدري .. " **هنالك ُأبتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً** "

وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾

(سورة الأحزاب)

يقول المنافقون : وعدنا بملك قيصر و كسرى وما وعدنا ا ورسوله إلا غروراً : أما :

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

(سورة الأحزاب)

هذا المؤمن ، عاهدت خالق الكون في السراء والضراء ، في الصحة والمرض ، في إقبال الدنيا وفي إدبارها ، قبلَ الزواج وبعد الزواج في البحبوحة وفي الضيق ، في انقباض النفس وفي طلاقة النفس، القلب له أحوال تمر ساعات كأنك طائر من الفرح مسرور .. ا عز وجل تجلّى عليك ، يمر حين آخر يحجب عنك هذا الحال الطيب تُحس بوحشة ، انقباض ، بسأم ، بضجر، بملل ، وأنتَ أنت :

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهم معدلٌ وإن هم عدلوا
وا ـ وإن فتنوا في حبهم كبدي باق على حبهم راضٍ بما فعلوا

هل هذا حالُك مع ا ..؟.. ياربي أنا راضٍ لكن دائما كُن محتاطاً ، قُل له كما قالَ النبي الكريم : لكن عافيتك أوسع لي . لا تكن معتداً بنفسك .. ياربي امتحنني ، ياربي أنا راضٍ بما تفعله ، أنا راضٍ بحكمك ، أنا راضٍ بقضائك ، راضٍ بنصيبي من أي شيء ، راضٍ بهذه الزوجة و بهذا العمل وراضٍ بهذا البيت و بهؤلاء الأولاد أنا راضٍ لكن عافيتك أوسع لي يارب . " **من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا ا عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً** " .

.. إنسان على الفقر مستقيم ، على الغنى .. لا نعرف .. هو بمنصب متواضع جداً ملاك، وضعوه مديراً عاماً بعد عنك ، قبل الزواج رائع بعد الزواج امتنع عن حضور مجالس العلم، قالت له زوجته أليس يكفيك ما استمعت .. نحن لا نريد أن نُمتحن امتحاناً ونسقط يعني هذه الآية يجب أن تبقى في أذهانكم " **من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا ا عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً** " قال : " **إن الصدقَ يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة** .. انظر .. صدق .. بر .. جنة ، " **وإن الرجلَ ليصدقُ حتى يكتب عند ا صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجلَ ليكذب حتى يكتب عند ا ـ كذّاباً .** "

(رواه الإمام البخاري .)

يوجد عندنا آية دقيقة جداً .. جداً دقيقة وخطيرة .. يقول ا عز وجل :

وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾

(سورة الإسراء)

ما معنى : أدخلني مدخلَ صدق ..؟.. دخلنا على التجارة ، دخلنا على الجامعة ، سافرنا، دخلنا على الزواج ، دخَلَ الشيء أصبح في داخله . قالَ العلماء : " معنى " **أدخلني مدخلَ صدق** " أن يكون هذا الدخولُ إلى هذا الشيء .. أبتغي به وجه ا .. وبا .. أستعين با .. وبأمر ا ُأنفذُ أمره فيه .. وأبتغي مرضاة ا . وبا وبأمر ا وابتغاء مرضاة ا ". يجب أن يكون زواجك هكذا أن تختار المرأة الصالحة ، وأن تُعاملها كما أمر ا ، وأن تبتغي من هذا الزواج مرضاة ا عز وجل . أسست معملاً ، أسست دكاناً ، أسست تجارة ، تعينت بوظيفة ، سافرت بعثة .... يعني أي عملٍ تعمله يجب أن يكون وبا وبأمر ا وابتغاء مرضاة ا هذا معنى " **أدخلني مدخلَ صدق** " أما المشكلة الخطيرة أن ربنا قال " **وأخرجني مخرج صدق** " .

تجد هذا الإنسان أقدم على هذا العمل يبتغي وجه ا وبا وبأمر ا وابتغاء مرضاة ا ، حينما أصبح في داخله وعلا شأنه أو كثُر ماله أو اتسعت تجارته فخرج كاذباً ، دخلَ صادقاً فخرج كاذباً .. هنا المشكلة .. فالبطولة لا في الدخول .. في الخروج .. البطولة كلُ البطولة في أن تخرج لا في أن تدخل .. الدخول سهل .. ، مثل الحرب دخولها سهل جداً أبسطُ شيء أن تدخلَ الحرب لكن أصعب شيء أن تخرج منها ، قد تخرج منها مدمراً . لذلك القصة تعرفونها وأقولها لكم دائماً : سيدنا معاوية رضي ا عنه كان يتحادثُ مع عمرو بن العاص وكان من دهاة العرب .. .. قال يا عمرو : ما بلغ من دهائك ..؟.. قالَ وا ما دخلتُ مدخلاً إلا أحسنتُ الخروج منه قال يا عمرو لستَ بداهية أما أنا وا ما دخلتُ مدخلاً أحتاج أن أخرج منه .

أقول لكم : الدخول سهل أما الخروج ليس بسهل ، تجد إنساناً كان فاسقاً تاب والتحق بجماعة دينية أول شهر شهرين يغلي غلياناً ، يتّقد اتقاداً ، يمشي فوقَ الأرض من شدة الفرح ، بعد فترة تجد انطفأ هذا اللهب وخبا هذا البريق ، واتبع هواه وانتكث .

نحن نريد الثبات ، نريد الاستمرار ، لذلك النبي الكريم يقول عليه الصلاة والسلام :

.... عنْ عائِشَةَ أَن رسولَ الله صلى الله عليْه وسلم قالَ سددوا وقاربوا واعْلموا أَنْ لنْ يدْخلَ أَحدكُمْ عمله الجنةَ وأَن أَحب الأَعْمال إِلى الله أَدْومها وإِنْ قل *

أدومها . احرص على أن تثبت في كل شيء . في الـدفع اجمـع واطـرح وقسـم واضرب قل أنا أتخلى من دخلي عن مائة ليرة في الشهر ، هذه المائة ليرة كل شـهر علـى مدى سنتين ثلاثة أربعة خمسة افضل مليون مرة من خمسة آلاف مرة واحدة فقط وبعدها تندم على عدم دفعك .. أحب الأعمال إلى ا أدومها وإن قلّ .. لزمتَ مجاس علم اثبـت ، تـأتي أنتَ ابتغاء مرضاة ا ، أنتَ تأتي لتزور بيتَ ا لابد من أن يكرمك ا بعلمٍ بحكمة بتوفيـق في عملك بطلاقة في لسانك باتزانٍ في تصرفاتك ببركة في مالك في أهلك في أولادك .. أنتَ في ذمة ا . .. الإنسان لا يؤثر الدنيا على الآخرة . من آثر دنياه على أخرته خَسرهما معـاً ومن آثر أخرته على دنياه ربحهما معاً . فهذه الآية خطيرة جداً " **ربي أدخلني** مدخلَ **صـدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً** " :

يوجد عندنا شيء آخر : سيدنا إبراهيم قال :

وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾

(سورة الشعراء)

يوجد عندنا مدخل صدق وعندنّا مخرج صدق ، دخلنا على تجارة استقامة شـركاء حلفوا على كتاب ا لا ربا ، لا فائدة ، لا بضاعة محرمة ، لا كذب ، لا غش .. شيء جميل .. اتسعت هذه التجارة ونمت وصار لها فروع سافروا ودخلوا على فنادق فخمة ، دخلوا على متنزهات على ملاه ، دخلوا بصدق لكن ما خرجوا بصدق ، تعاملوا مـع الفوائـد واختلـف وضعهم كلياً . فنحن في مدخل صدق وفي مخرج صدق في التجارة وفي السفر والزواج وفي العلم ، طالب العلم متواضع معك ليسانس ، دكتوراه ، لا مانع ، لكن بعد ما أصـبحت بهـذا اللقب أصبحتَ إنساناً آخر أصبحتَ تزدري ُأمتك الإسلامية ، أصبحتَ ترى أن الدين لا يصلح لهذا العصر .

هذا دخل ... أخي أنا أريد أن ُأسافر وأن أدرس حتى ُأصبح دعماً للإسلام بـارك ا فيك .. مدخل صدق .. لكن عدتَ إنساناً آخر ، عدتَ إنساناً ترى أن الدين لا جدوى منـه وأن هذه الأمة متخلّفة جداً ، هؤلاء هم الأشخاص الراقون ، يمضي سنوات وهو يثني علـيهم ونسي الإيدز ونسي تبادل الزوجات ونسي زنى المحارم ونسي هذا السقوط المريع الأخلاقـي والاجتماعي لكن انبهر بجسر ببناء شامخ بحديقة بمواصلات منتظمة باتصـالات بسـيارات فخمة .. فعاد إنساناً آخر .. هذا دخل مدخل صدق ذهب لأخذ الدكتوراه حتى يكـون دعمـاً للمسلمين فعاد ضد المسلمين ، هذا دخلَ مدخلَ صدق ولم يخرج مخرج صدق .

يا أخوان .. البطولة لا في الدخول .. في الخروج .. البطولة في الثبات ، هذه الفورات لا تفرح بها . يعني مرة طالب علم التقى بعالم الطالب مندفع .. أحوال وبكاء ... قال له يا ابني ا يثبتّك ، فقد رأى مثيلاً له من قبل .. فورات كثيرة ثم همود وهدوء .. قال له ا يثبتك يا ابني. وفعلاً البطولة في الثبات في أن تبدأ بسرعة مستمرة أو بتسارع ، ثم تباطؤ هذا شيء ليس في مصلحة المؤمن .

عندنا مدخل صدق واضح وبا وبأمر ا وابتغاء مرضاة ا ، تجارته وزواجه وشهاداته ومعمله ونظرته وحركاته وسكناته .ولسان صدق يا ترى هذا اللسان يتكلّم عن الحقيقة أم عن الكذب ، عن الحق أم عن الباطل ، عن الآخرة أم عن الدنيا ، عن القيم أم عن الشهوات ، عما يرضي ا أم عما يرضي الشيطان ..؟.. أيام تجد الإنسان مسخّراً لخدمة الشيطان ، إذا تحدث عن الدنيا زينها للناس زهدهم في الآخرة حببهم في الدنيا روج لهم المعاصي يسر عليهم الذنوب شجعهم على ارتكاب الموبقات دفعهم إلى الانغماس في الشهوات هذا لسان كذب ، يا ترى هل لك لسان صدق أم لسان كذب ..؟.. أُرسل ابني إلى بريطانيا ليدرس اللغة .. نعم أرسله .. ضروري جداً .. أنت تعرف ماذا هناك .. سيقيم مع أسرة وأغلب الظن سيصبح زنى وسيصبح انحراف وسيعود إنساناً آخر .. أتقن اللغة الإنكليزية لكن فقد دينه كلياً .. أرسله مباشرةً ، مثلاً ابنتي جاءها فُلان لكن لا يصلي .. غير مهم .. لسان كذب ينصحك بالانحراف وبالسقوط وبالانغماس بالدنيا ، ربنا عز وجل على لسان سيدنا إبراهيم " **واجعل لي لسان صدق في الآخرين** " ، الآن :

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

(سورة يونس)

يوجد عندنا : مدخل صدق ، مخرج صدق ، لسان صدق ، وقدم صدق .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

(سورة القمر)

أصبح عندنا خمس أشياء : مدخل صدق ، مخرج صدق ، لسان صدق ، قدم صدق ، مقعد صدق . مقعد الصدق هو الجنة . " **إن المتقين في جناتٍ ونهر في مقعد صدق عند مليكٍ مقتدر** " أحياناً من باب التقريب يكون المهندس متفوقاً جداً قدم لأمته خدمة كبيرة جداً اكتشف مثلاً ثروة معدنية ، رئيس الجمهورية أحب أن يكرمه وضعه بجانبه ، طبعاً هذا كل الوزراء شاهدوه أمامهم معززاً ومكرماً ومبجلاً .. يلتف نحوه ويبتسم بوجهه ويحييه باحترام بالغ فهذا مقعد صدق عند هذا الإنسان الحاكم .. مقعد صدق .. و المثلُ الأعلى .. أنت مؤمن لك في الجنة مقعد صدق ، لك مكانتك عند ا ، لك منزلتك ، لك شأنك ، ا عز وجل وفي ، ا عز وجل كريم ، شكور ، هو الشكور .

فأنت في الدنيا خائف منطلق إلى بيت ا ، منطلق إلى تعلّم العلم ، تغض بصرك عن محارم ا ، تٌعاكس أهواءك ، ميولك ، تُنفق من مالك من وقتك وبالآخرة .. " **إن المتقين في جناتٍ ونهر في مقعد صدق عند مليكٍ مقتدر** " ، بصراحة ..

لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾

(سورة الصافات)

خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾

(سورة المطففين)

هذا هو التنافس الشريف ، التنافس في طلب الجنة ، التنافس في رضوان ا عز وجل ، التنافس في طاعة ا ، هذا هو التنافس الذي يحبه ا عز وجل . أما قدم الصدق فَفُسر بالجنة وفُسر بمحمد صلى ا عليه وسلم وفُسر بالأعمال الصالحة .

الحقيقة كلمة الحق تلتقي مع الصدق ، ما الحق ..؟.. نقول :

وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾

(سورة الحجر)

الحق : الشيء الثابت ، الهادف . خُلقَ ليبقى ..؟.. وعرفنا هذا المعنى من أضداد الحق. قال عز وجل :

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾

(سورة ص)

خلقناهما بالحق وما خلقناهما باطلاً ، الباطل الشيء الزائل الحق الشـيء الثابـت . خلقنا السماوات والأرض بالحق .

وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾

(سورة الأنبياء)

معناها الحق خلاف الباطل ، والحق خلاف اللعب ، اللعب هو أن تعمـلَ عمـلاً لا هدفَ منه ، صار معنى الحق الثابت غير الزائل والهادف غير العابث ، الحـقُ يلتقـي مـع الصدق . فالحقُ صدقٌ غير كذب ودائم غير زائلُ ونافع غير ضار . نافع ودائم وواقع .

الحقيقة : الإنسان إذا كان صادقاً أول ثمار الصدق طمأنينة في القلب . ... قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام الترمذي :

.... م عنْ أَبِي الْحوْراء السعْدي قَالَ قُلْتُ لِلْحسن بْنِ علي ما حفظْتَ منْ رسـول اللـه صلى الله علْيه وسلم قَالَ حفظْتُ منْ رسول الله صلى الله علْيه وسلم دعْ ما يرِيبك إِلى مـا لا يرِيبك فَإِن الصدْقَ طُمأْنينَةٌ وإِن الْكَذب رِيبةٌ ...... *

(رواه الإمام الترمذي)

الكذّاب أو المنافق أو الكافر دائماً في قلق ، دائماً في ريب ، دائماً في شك .

بعض الكلمات في الصدق ، قال بعض العلماء الصدقُ الوفاء _ بالعمل ، أخطـر شيء في حياة المؤمن أن يكون حجم كلامه أكبر من حجم عمله ، إذا كان حجم عملك أكبـر أحسن ، تعمل بصمت ، أكبر دولة إسلامية الآن تعد ١٥٠مليون أسلمت بلا كلام بالعمـل .. إندونيسيا ، إذا كان حجم عملك أكبر من حجم كلامك أفضل ، أما الحد الأدنى أن يكون حجـم عملك كحجم كلامك.

...... عن ابْنِ عباس عن النبِي صلى الله علَيْه وسلم قَالَ خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْله وأَنَا خَيْـرُكُمْ لأَهْلي *

هذا الحديث ممكن أن تقرأه وتحفظه ، وتحفظ ضـبطه ومـن رواه .. الترمـذي ، البخاري .. في أي كتاب ، تجلس على مجلس تتصدر المجالس تقول قال عليه الصلاة والسلام والناس منصرفون إليك وتدخل للبيت على شجار وعلى كلمات قاسية .... كل كلامك ليس له قيمة ، القيمة فقط فيما تفعله في البيت لا فيما تقوله عند الناس . تعريف الصدق: الوفـاء

بالعمل . الكلام كله لا قيمةَ له ، الوفاء ـ بالعمل ، كان في مهنة أهله هل تفعلُ أنتَ هذا ، " **كان إذا دخلَ إلى بيته بساماً ضحاكاً** "، قالَ :

" **أكرموا النساء فوا ما أكرمهن إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم يغلبن كل كريم ويغلبهن لئيم وأنا أُحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً .** " .

هل أنتَ كذلك ..؟.. لذلك أتمنى على أخ أن يدقق فيقول : ما حجم محفوظاتي ؟..ما حجم أعمالي ؟ .. إذا في فرق كبير مشكلة كبيرة جداً ، يجب أن يكون حجم عملـك مبـدئياً بحجم أقوالك . أنفقوا هل تُنفق أنت ، غضوا أبصاركم هل تَغُض بصرك ، كونوا حلماء هـل أنتَ حليم ، تسامحوا تسامح أنت ، هذه البطولة ، أحد تعريفات الصدق أن يأتي فعلك مطابقـاً لقولك ، أول كلمة تحدثتها أن يأتي فعلك مطابقاً لقولك .

وقيلَ الصدق موافقة السر للنُطق . أن يأتي ما في القلب كما في اللسـان ، وا ـ يـا أخي مشتاقون لك يا أهلاً وسهلاً أطلت الغياب .. عندما يذهب ترتـاح .. الآن رحبـت بـه وعبرت عن محبتك وشوقك له وعن اهتمامك .. هذا كذب هذا .. الصدق موافقة السر للنُطق .

تعريف ثالث : الصدقُ استواء السر والعلانية ، في تعاريف أصعب قال : الصـدقُ القولُ بالحق في مواطن الهالكة .. موطن عصيب يمكن أن تُضحي بحريتك أو بحياتك تقول كلمة الحق ولا تخاف وعندئذ يتولى ا عز وجل حفظك وتأييدك ونصرك .

يروى عن الحجاج بلغه عن الحسن البصري كلاماً لا يحتمل فجاء بالنطع فالنطع هو قماش يوضع عليه من تُقطع رقبته حتى الدم لا يؤثر بالأثـاث . .. وجـاء بالسـياف وقـال أحضروه ، أحضروه ليقتله فلما دخل تمتم الحسن البصري، لما دخل على الحجاج رحب بـه وسلم عليه وأجلسه إلى جانبه ، هذا السياف صعق لماذا دعوته يا سيدي لتضرب عنُقـه ثـم طلب منه الدعاء وودعه إلى الباب .. أنا لا أذكر القصة بتفصيلاتها إلا أنه سأله ماذا قلـت .. استعان با عز وجل فقالوا الصدق : القول بالحق في مواطن الهالكة .

أيام أنت إذا تكلّمت بالحق تُنقذ إنساناً من هلاك . في أشخاص يتهيبوا . هـذا مـن الصدق، وقيلَ كلمة الحق عند من تخافه وترجوه إما أنه معلّق آمالاً كبيرة عليه فـتكلّم كلمـة غير صحيحة وبقيت صامت .. دعها له .. أين الصدق ؟ أين النصيحة ؟ أين الأمر بالمعروف ؟ أين النهي عن المنكر ..؟.. فحينما ترجو إنساناً أو تخافُ منه صار الكلام دقيقاً جـداً معـه لابد من أن تقول كلاماً يرضى عنه أو ترضيه به ليس هذا هو الصدق ، الصدقُ ألا تخاف في ا لومةَ لائم ، ألا تأخذك في ا لومة لائم .

الجنيد قال : الصادقُ يتقلّب في اليومِ أربعين مرة والمرائي يثبتُ على حالة واحـدة أربعين سنة . أنا توقعت أن يكون هناك خطأ مطبعي بالعكس الكاذب يتقلّب باليوم أربعين مرة والصادق يثبتُ على حالة واحدة أربعين سنة .

الصواب الأول : الصادقُ يتقلّب في اليومِ أربعين مرة والمرائي يثبتُ علـى حالـة واحدة أربعين سنة . المرائي الشيطان أراحه ، الشيطان أراح المرائي لأنـه يحقـقُ أهـدافَ الشيطان أما الصادق من صلاة إلى صدقة إلى أمر بالمعروف إلى انقباض ما السـبب ، إلـى انطلاق ما السبب إلى زيارة مريض ، من حال إلى حال ، من منزلة إلى منزلة، من خـوف إلى رجاء ، من ثقة برضاء ا إلى قلق ، من طُمأنينة إلى حزن ، من سعادة إلى شحوب ... شدةُ صدقه وشدةُ حرصه على رِضوان ا عز وجل يجعله في أحوال عديدة جداً .. متقلّـب تقلّب الصادق ..

إذا طالب لا يدرس إطلاقاً كُلما سألوه : الحمد جيد .. لا يوجد عنده مشكلة لأنـه لا يدرس ، أما الذي يدرس .. هذه النقطة لم يفهما يريد أستاذاً ، يريد زميلاً ، يريد ملخّصاً ، يريد قرطاساً... يثور وينفعل . هذا الذي نوى على النجاح ، أما الذي لا يقرأ لا يوجد عنـده مشكلة .. العلم كله واضح .. معناها لا يقرأ شيئاً أبداً لو أنه يقرأ لم يكن كلُّ شيء واضحاً ، مادام يقرأ ويحاول أن يفهم كان كله واضحاً .

فالكذّاب المرائي يثبتُ على حاله أربعين عاماً بينما الصادق يتقلّب في اليومِ أربعين حالاً يسأل هذه القطعة انكسرت معي فمن يدفع ثمنها أنا أم على الزبون ..؟.. يسألك في عمله ، بصلاته ، بذكره ، بورده ، بقيام ليله ، بغض بصره ، بعلاقتـه مـع زوجتـه . .. يتعبـك الصادق ، خائف على مكانته عند ا ، خائف على استقامته ، خائف على دينه ، يتقلّب هـذه الصلاة أقامها ، الذكر أجاد فيها ، قرأ القرآن ، حفظ أم لم يحفظ ، أما الأخر على حالة واحدة .

وأحدهم دهس اثنين ، مات الأول والثاني لم يمت ، الذي مات يصيح فقال له : مات ولم يتكلّم ... لأنه مات . الذي لا مشكل عنده معناها ميت ، أمواتٌ غير أحياء ، أما الحي لـه سؤال ، له جواب ، له قضية ، له مشكلة ، هكذا قالَ الجنيد : الصادقُ يتقلّب في اليومِ أربعين مرة والمرائي يثبتُ على حالة واحدة وأربعين سنة .

على كُلٍ : الصدقُ منزلةٌ هي أم المنازل ، لا ُأبالغ إذا قلت إن المنازلَ كلها أساسـها أن تكون صادقاً مع ا عز وجل ، يعني التفت إلى ا ودع الخلقَ جانباً ، عكـس الصـدق الكذب أو الرياء ، والرياء من الشرك والحديث الشهير :

.... عنْ أَبِي سعيدٍ قَالَ خَرج علَيْنَا رسولُ الله صلى الله علَيْه وسـلم ونَحْـن نَتَـذَاكَر الْمسيح الدجالَ فَقَالَ أَلا أُخْبِركُمْ بِما هو أَخْوفُ علَيْكُمْ عنْدي من الْمسيحِ الدجال قَالَ قُلْنَا بلَـى فَقَالَ الشرْك الْخَفي أَنْ يقُوم الرجلُ يصلي فَيزين صلاتَه لِما يرى منْ نَظَرِ رجلٍ *

وآخر ما يقالُ في هذا الدرس أن الصدقَ يهدي .. أنت حينما تكون صادقاً مـع ا يتولى ا نقلك من حالٍ إلى حال ، ومن مقامٍ إلى مقام ، ومن درجة إلى درجة ، ومن طريقة إلى طريقة، ومن فهمٍ إلى فهم ، هذا التطوير والرقي أساسه الصدق .

اللهم اجعلنا من الصادقين الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا .

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون .... مع الدرس السابع عشر من دروس منازل السالكين في مراتب إياك نعبد وإياك نستعين و منزلة اليوم منزلة الحياء . هذه المنزلة مستنبطة من كتاب ا عز وجل ، قال تعالى:

﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة العلق)

أحدنا إذا اكتشفَ أنه حينما فعلَ هذا الفعل كان فُلان يراه، إن كان هذا الفعلُ شنيعاً يذوب كما تذوب الشمعةُ المشتعلة ، فما بالك إذا كان خالِقُ الكون رب العالمين الذي منحك الحياة يراك في تقلّبك .

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

يراك في فراشك ، يراك في بيتك ، يراك في خلوتك ، يراك في جلوتك ، يراك في أثناء بيعك ، يراك في حديثك ... أساس الحياء أن ا يرى لذلك الآية الأولى في موضوع الحياء "**أَلَمْ يعْلَمْ بِأن الله يرى**" قبل هذه الآية :

أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ﴿٩﴾ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ
﴿١١﴾ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ
ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾

(سورة العلق)

مواقفك ، نصائحك ، إرشاداتك ما تُبطن وما تُعلن ، " **أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَن الله يرى** " هذه أول آية ، آية أخرى في الحياء ، وا الذي لا إله إلا هو هذه الآياتُ وحدها تكفي الإنسان :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا
زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ
وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾

(سورة النساء)

أنتَ تحتَ المراقبة ويا ليتك تشعر حينما تشعر أنك تحتَ المراقبة كيف تكون ، ليتك توازن نفسك حينما تشعر أن إنساناً يراقبُك وبيده حولٌ وطور وبإمكانه أن يفعلَ معك ما يفعل إذا شعرتَ أنه يراقبك وأنك تحتَ مراقبته كيفَ تنضبط ، كيفَ تستحيي ، " **إِن الله كان عليْكُمْ رقيبا** " يعني إذا قرأت أن هذا الطريق مراقب بالرادار هل تُسرع ، إذا أسرعت تُلتقطُ صورةٌ لمركبتك وتُحاسب حساباً عسيراً ، إذا دخلتَ إلى مكان للبيع وقرأتَ أن هذه الصـالة مراقبـة تلفزيونياً كيف تتحرك ..؟.. ا سبحانه وتعالى يقول" **إِن الله كان عليْكُمْ رقيبا** " هـذه أمثلـة للتوضيح و المثلُ الأعلى .

يعني .. الإنسان إذا كان أمام شخص من أسرته عالي الشأن رفيع المقام ، أخلاقي ، له شأنه في الحياة ، إذا دخلَ عليك البيت كيفَ تستقبله ؟ بثياب متبذلة ، كيفَ تُحدثه ؟ ترفـع صوتك أمامه ، تُلقي عليه كلاماً سخيفاً بذيئاً فاحشاً ، هذا إنسان من لحمٍ ودم من طينتك ، الآية الثالثة :

يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾

(سورة غافر)

.. لو أنك في غُرفتك وحدك وغرفة جيرانك مفتوحة النوافذ ووقفت امرأة على هذه النافذة .. لا يستطيع رجلٌ في الأرض أن يحاسبك ولا أن يكتشفَ أنك تنظر إليها ، إذا خانت العـين ونظرت، من يعلم ..؟.. ا سبحانه وتعالى . "**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وما تُخْفِي الصـدُورُ**" هـذه الآيات أما الأحاديث ..

في الحديث الصحيح من حديث ابن عمر رضي ا عنهما :

عن سالِمِ بن عبد ا عن أَبِيه أَن رسولَ الله صلى الله علَيه وسلم مر علَى رجلٍ من الأَنْصارِ وهو يعظُ أَخَاه في الْحياء فَقَالَ رسولُ الله صلى الله علَيه وسلم دعه فَإِن الْحياء من الإِيمانِ *

حديثٌ نعرفه جميعاً ولكن لو وقفنا عنده وقفةً متأنية لكشفنا العجب العجاب ، هنـاك خُلُقٌ يعد من لوازم الإيمان فمن لم يكن مؤمناً لا يمكن أن يكون متحلياً بهذا الخُلُق ، وهنـاك خُلق إذا توافر لابد من أن يكون الإنسان عديم الإيمان .

عنْ أَبِي أُمامةَ قَالَ قَالَ رسُولُ الله صلى اللهُ علَيْه وسلم يُطْبعُ الْمُؤْمنُ على الخلال كُلها إلا الخيانَةَ والْكذب *

فإذا كّذّب أو خان ليس مؤمناً ، المؤمن لا يكذب ، إن كان حيياً فهو قطعاً مؤمن لأن الحياء لا يكون إلا عن إيمان الخُلُق الذي يؤكد وجوده عند الإيمان هو الحياء ، والخُلُق الـذي ننفي معه الإيمان الكذب والخيانة لذلك قال عليه الصلاة والسلام توفيراً للوقت والجهد : " دعه فَإِن الْحياء من الإِيمانِ * "

لو كان مؤمناً لكان حيياً ما دام لا يستحيي إذاً ليس مؤمناً ، والحياء من الإيمـان .

وفيهما عن عمران بن حصين رضي ا عنهما قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلم :

عنْ أَبِي السوارِ الْعدوِي قَالَ سمعْتُ عمْران بْن حُصيْنٍ قَالَ قَالَ النبِي صلى اللهُ علَيْه وسلم الْحياءُ لا يأْتي إِلا بِخيْرٍ فَقَالَ بُشيْرُ بْنُ كَعْبٍ مكْتُوب في الْحكْمة إِن من الْحياء وقارا وإِن من الْحياء سكينَةً *

كيفما تحركت الحياء يقدم لك كل خير ، تستحي أن تعصي ا لأنه يراقبك ، تستحي أن تؤذي الناس لأن ا يراقبك ، تستحي أن تأخذَ ما ليس لك لأن ا معك ، الحياء لا يأتي إلا بخير.

عنْ أَبِي هُريْرةَ قَالَ قَالَ رسُولُ الله صلى اللهُ علَيْه وسلم الإِيمانُ بِضْع وسبْعُون أَوْ بِضْع وستون شُعْبةً فَأَفْضلُها قَوْلُ لا إِله إِلا اللهُ وأَدْناها إِماطَةُ الأَذَى عن الطرِيق والْحياءُ شُعْبةٌ من الإِيمانِ *

أعطاك النبي أعلى درجات الإيمان : أن توحد ا عز وجل ، أن ترى يد ا وحدها تعمل في الكون ، أن ترى أنه لا إله إلا ا .. هذه أعلاها ، التوحيد نهاية العلـم إذا وحـدت حلّت كل مشكلاتك..؟.. لأن كل علاقاتك أصبحت مع جهة واحدة وهي ا فإذا جمعـتَ كـل

العلاقات مع جهة واحدة استرحتَ وأرحت ، لذلك نهاية المطاف أن تُوحد الله عز وجل ، نهاية النهاية أن تكون موحداً ، وأكثر المؤمنين يقعون في الشرك الخفي بدليل قول الله عز وجل :

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

(سورة يوسف)

هنا في هذه الآية تعني كلمة مشركون أي الشرك الخفي وليس الجلي هذا أعلى مرتبة ، وأدناها أن تقوم بعمل صالح بسيط أن تُميطَ الأذى عن الطريق أن تُزيح حجراً من طريق الناس ، والحياء شُعبةٌ من الإيمان .

الإيمان اعتقاد والإيمان سلوك والإيمان خُلُق ، أن تُميطَ الأذى سلوك ، أن تستحي من الله خُلُق، أن تعتقد أنه لا إله إلا الله علم.

الإيمان أخذ منحى علمياً ، منحى سلوكياً ، منحى خُلقياً ، في الحياء :

عنْ أَبِي سعيد الْخُدْرِي قالَ كان النبي صلى اللهُ علَيْه وسلم أَشَد حياء من الْعذْراء في خدْرِها فَإِذَا رأَى شيْئًا يكْرهُهُ عرفْنَاهُ في وجْهه *

كان يستحيي وجه امرأة مرةً وقال : أيتها المرأة خُذي فرصةً ممسكةً تتبعي بها أثر الدم فقالت يا رسول الله كيف أتتبع بها أثر الدم ؟ يروي أصحابه أنه علت وجهه حمرة .. حمرة الحياء .. وارتبك النبي عليه الصلاة والسلام وقالَ يا سبحان الله تطهرين بها . يعني ليس في إمكانه أن يعطي مزيداً من التفصيلات ، يا سبحان الله تطهرين بها فأخذتها السيدة عائشة جانباً وعلّمتها كيفَ تطهر بها .

كان حيياً ، هذا الذي لا يستحيي له نظراتٌ وقحة ، له عباراتٌ بذيئة ، له سلوك جاف ، هذا الذي يحرج الناس يوقعهم في الحرج ، يحمر وجوههم ، يتلذذ برؤية وجوههم وهم يرتبكون هذا ليس مؤمناً ، المؤمن يستحيي ويستحيي أن يوقع أحداً في الحرج . النبي عليه الصلاة والسلام يقول : " لا تُحمروا الوجوه "

لا تتكلم كلمة تجعل أخاك يضطرب ، تجعل أخاك يرتبك ، تجعل أخاك يحمر وجهه خجلاً ، لقد أسأت إليه . كلكم يعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان مدعواً مع أصحابه إلى وليمة صلّوا جميعاً الظهر وتناولوا طعام الغداء وكان لحم جزور صدرت رائحةً من أحدهم وأذّن العصر وهذا الواحد يجب أن يقوم ليتوضأ وأنا أظن يتمنى أن يغور في باطن الأرض ، وأن لا يفُتضح أمام الناس ، ماذا فعلَ النبي .. قال : كل من أكلَ لحم جذور فليتوضأ قالوا يا رسول الله كُلنا أكلنا هذا اللحم قالَ كلكم فليتوضأ . أراد ألا يحرج هذا الإنسان ، أراد ألا يخذله ، أراد ألا يريكه ، أراد ألا يجعله في وضعٍ حرج .

كان أشد حياء من العذراء في خدرها فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه . وفي الصحيح .. **حدثنا أبو مسْعُود عُقْبةُ قالَ قالَ النبي صلى اللهُ عليْه وسلم إن مما أدْرك النـاسُ مـنْ كـلام النبُوة إذَا لمْ تَسْتَحْي فَافْعلْ ما شئْتَ** *

لهذا الحديث تأويلات : التأويل الأول وهو ضعيف يعني إذا فعلتَ فعلاً أو إذا أقدمتَ على فعلٍ مباحٍ مشروعٍ لا يستحى منه عادةً فاصنعه ، إذا أردتَ أن تشتري لأهلـك طعامـاً وأنتَ عالي الشأن هذا عمل مشروع وشريف وهو وسام شرف ومن حملَ حاجته بيده برئ من الكبر ، فإذا كان هذا الأمر مشروعاً فافعله .. هذا المعنى ضعيف .. ولكن المعنى الشائع الذي أقره جمهور العلماء أنك إذا فقدتَ الحياء فاصنع ما تشاء عندئذ فقدتَ مقومات الأدب ، فقـدتَ مقومات الخُلُق ، هذا فافعل ما تشاء أو فاصنع ما تشاء هذا أمر تهديد . ..

عنْ عبْد الله بْنِ مسْعُود قالَ قالَ رسُولُ الله صلى اللهُ عليْه وسلم اسْتَحْيُوا من الله حق الحياء قالَ قُلنَا يـا رسُولَ الله إنا نَسْتَحْيي والحمْدُ لله قالَ ليْس ذَاك ولكن الاسْتحْياء من الله حق الحياء أَنْ تَحْفَظَ الرأْس ومـا وعى والبطْن وما حوى ولتَذكُر الموْتَ والبِلى ومنْ أَراد الآخرةَ ترَك زينَةَ الدنْيا فَمنْ فعلَ ذَلك فَقَـد اسْـتَحْيا من الله حق الحياء *

(رواه الترمذي)

ربنا عز وجل قال :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ



(سورة آل عمران)

هذه غير اتقوا ا ، طالبك النبي بكمال التقوى ، وإذا قال ا عز وجل :

وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِى ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

(سورة الحج)

لم يطالبك بالجهاد بأصل الجهاد ، طالبك بكمال الجهاد . يعني أنتَ مأمور بـالتقوى ويحق التقوى أي بكمال التقوى ومأمور بالجهاد وبكمال الجهاد ومأمور بالحياء وبكمال الحياء .

" عنْ عبْد الله بْنِ مسْعُود قالَ قالَ رسُولُ الله صلى اللهُ عليْه وسلم اسْتَحْيُوا من الله حق الحياء قالَ قُلْنَا يا رسُولَ الله إنا نَسْتَحْيي والحمْدُ لله قالَ ليْس ذَاكَ ولكن الاسْتحْياء من الله حق الحياء أَنْ تَحْفَظَ الرأْس وما وعى والبطْن وما حوى ولتَذْكُرِ الموْتَ والبلى ومنْ أَراد الآخرةَ ترك زينَةَ الدنْيا فمنْ فعلَ ذَلكَ فقد اسْتَحْيا من الله حق الحياء *"

ليس هذا الحياء المتعارف بين الناس ، ليس هذا الحد الأدنى مـن الحيـاء ، يوجـد بالرأس عين هذه العين هل تستحي ، هل تَغُض بصرها عن محارم ا ، أم تتبع بها عـورات المسلمين ، هل تنظر بكتاب أخيك بفضول ماذا يكتب، هل وجدتَ في الغرفة كتابـاً أو دفتـراً وفتحته وتأملته بفضول ، هذا ليس من الحياء .. الدفتر ليس لك ، المحفظة ليست لـك لمـاذا فتحتها ، مكتب ليس لك لماذا جلستَ وراءه وفتحتَ الدروج أن تحفظَ الرأس ومـا وعـى .. العين ، الأذن .. إذا استمعت إلى مزاحٍ رخيص جنسي هل تطرب له أم تشمئز منه أم تقـوم عن هذا المجلس فلا تقعد بعد الذكرى الأذن .. العين .. اللسان .. هل جرى لِسانُك بكلمـات بذيئة ، كلمات فاحشة ، تعلّم من كتاب ا كيفَ يكون الأدب .

وَٱلَّـذِينَ هُـمۡ لِفُرُوجِـهِمۡ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَـىٰٓ أَزۡوَٰجِـهِمۡ أَوۡ مَا مَلَـكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُـمۡ فَـإِنَّهُمۡ غَـيۡرُ مَلُـومِينَ ﴿٦﴾ فَمَـنِ ٱبۡتَغَـىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَـأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَـادُونَ ﴿٧﴾

(سورة المؤمنون)

هل تشعر أن في هذا الكلام ما يجرح الحياء ، ما يحرج ، افتح أي كتاب فقه ، ترى أشياء بأسمائها ، العورات بأسمائها ، والمواقف والاتصالات واللقاءات بتفصيلاتها الإنسان قد يستحيي .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

(سورة النساء)

طفل صغير بمجالس علم يقرأ القرآن " **أَوْ لامَسْتُمُ النساء** " ما فَهم من هذه الآية أكثر من أن يلمس الإنسان امرأة لمسة . بالقرآن في أشياء لطيفة جداً ، النبي عليه الصلاة والسلام كيفَ تكلّم : " رأى أحد بناته فيما أذكر وعليها ثياب رقيقة فقال يا بنيتي إن هذه الثياب تصفُ حجم عظامك " .

أية كلمة تنتقيها سوف تُثير الغريسة الجنسية .. " **قال يا بنيتي إن هذه الثياب تصفُ حجم عظامك** ". أي عظمٍ هذا .. كلمة عظم منَفِّرة . هذا الذي تَغزلَ وقال : إن سلمى خُلقت من قصبِ السكّر لا عظم الجمل وإذا قربتَ منها بصلاً غَلَبَ المسك على ريح البصل هذا ليس غزلاً .. بصل وجمل .. فالنبي عليه الصلاة والسلام قال : " **يا بنيتي إن هذه الثياب تصفُ حجم عظامك** ". اللسان تعلّم كيف يكون مهذّباً كيف تُعلّم أولادك التهذيب في الكلام وفي التعبير .

" عنْ عَبْد الله بْن مسْعُود قالَ قالَ رسُولُ الله صلى اللهُ عليْه وسلم اسْتَحْيُوا من الله حق الْحياء قالَ قُلْنَا يا رسُولَ الله إنا نَسْتَحْيي والْحمْدُ لله قالَ لَيْس ذَاكَ ولكن الاسْتحْياء من الله حق الْحياء أَنْ تَحْفَظ الرأْس وما وعى والْبطْن وما حوى ولْتَذْكُر الْموْتَ والْبلى ومنْ أَراد الآخرةَ ترك زينَةَ الدنْيا فمنْ فعلَ ذَلك فقَد اسْتَحْيا من الله حق الْحياء * "

ما قولكم إن الله عز وجل حيي ، إن الله تعالى حيي كريم يستحيي من عبده إذا بسط إليه يديه أن يردهما خائبتين ، يستحي الله عز وجل . قال بعضهم : الحياء من الحياة ، علامة حياة القلب لك قلب حي إذاً أنتَ تستحيي ، القلب ميت إذاً لا تستحيي .. الحياء من الحياة .. قلةُ الحياة علامةُ موت القلب ، كلما كان القلب أحيا كان الحياء أتم . قال الجنيد رحمه الله تعالى .. العلماء أنسب كلمة رحمهم الله تعالى إذا قلت رضي الله عنهم بمعنى دعاء أما بمعنى تقرير هذا لأصحاب النبي وحدهم لأن الله عز وجل قالَ في القرآن الكريم :

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾

(سورة الفتح)

إذا قلت عن عالِمٍ رضي ا عنه فالمقصود : أرجو ا أن يرضى عنه .. دعائية .. أما إذ قلت عن الصحابي رضي ا عنه .. تقريرية .. والأولى أن تقول رحمه ا تعـالى . الإمام الغزالي رحمه ا تعالى ، الإمام الشافعي رحمه ا تعالى ، الإمام أبو حنيفة رحمه ا تعالى ، .. أكملّ .. لأن كلمة رحمه ا تعالى لا توقع في لَبس واضحة . ليس صحابياً .

الإمام الجنيد رحمه ا تعالى قال : الحياء رؤية الآلاء مع رؤية التقصـير ، مـن هاتين الرؤيتين يتولد في النفس حالةٌ اسمها الحياء . إذا واحد قدم لك شيئاً ثميناً وأنتَ لم تُقـدم له شيئاً وقابلته تستحي منه عملَ لك ولائم كثيرة وزارك في البيت ولا يوجد عندك شيء تجد نفسك مضطرباً محرجاً تقول له وا لا تؤاخذنا ، تفسير بسيط .. من رؤية الفضل مع رؤية التقصير يتولد في الإنسان المؤمن حالةُ اسمها الحياء . فضلُ ا عز وجل عميم والدليل :

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

(سورة النساء)

والإنسان مهما قدم لا يستطيع أن يوفّي . قد يقول أحدكم هذه الآية :

وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾

(سورة النجم)

ماذا تعني ..؟.. سيدنا إبراهيم حينما ابتلاه ا بالتكليف وفّى ما عليه ، نَفذ الأمـر ، ولم يستطع أن يكافئ حضرةَ ا عز وجل على إحسانه ... مستحيل ...

إذاً : لا أحد يستطيع أن يرد الجميلَ إلى ا عز وجل . حتى إذا أراد ربك إظهـار فضله عليك خلقَ الفضلَ ونَسبه إليك . لكن هذا الحياء الفضل عميم والجهد قليل إذاً ينشأ حالة

اسمها الحياء ، من لوازم هذه الحالة ترك القبائح وترك التفريط مع أصحاب الحقوق ، مادام لا تقدر أن تُكافئ خالِقَك على إحسانه لك لا أقل من أن تدع ما نهاك عنه ..

الفُضيل بن عياض هذا القاضي الجليل قال : خمس من علامات الشقاء : القسوة في القلب ، وجمود العين .. وقلةٌ الحياء ، والرغبةُ في الدنيا ، وطولُ الأمل . هذه خمس علامات من علامات شقاء الإنسان .. قلةُ حيائه وقسوة قلبه وجمود عينه ورغبته الجامحة في الدنيا وطولُ أمله فيها .

وقال السري الثقفي : إن الحياء والأنس يطرقان القلب فإن وجدا فيه الزهد والورع أقاما وإلا ارتحلا .. .. الأنس با والحياء من خَلق ا يطرقان القلب فإن وجدا فيه الزهد والورع أقاما وإلا ارتحلا .

وقالَ يحيى ابن معاذ : من استحيا من ا مطيعاً استحيا ا منه وهو مذنب . معنى جميل جداً .. أنتَ تُطيع ا تستحي منه وأنتَ في طاعته فإذا زلّت قدمك ، فإذا سبقَك لِسانُك ، فإذا وقعتَ في مخالفة ، عندئذ ا عز وجل يستحيي منك أن يعاقبك . عبدي اعرفني في الرخاء أعرفك في الشدة ، عبدي كبِرت سنك وضعفَ بصرك .. .. وشاب شعرك وانحنى ظهرك فاستحيي منّي فأنا أستحي منك . أيام تنفعل أنت تضرب ابنك الصغير عمره خمس سنوات، كل ما كبر الابن بعد ما تضربه تتألم كثيراً ... إذا كبر كثيراً يبقى في قلبه ألم لأشهر منك . كلما كبر الإنسان أو كبر سنّه أو مقامه أو قدره فالعقاب مؤلم ، يتضاعف العقاب ، فإنسان شاب في الإسلام ا عز وجل حيي يستحي ربنا عز وجل أن يعذّب ذا الشيبة المسلم . إن ا ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن يقول : انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي .

مرةً ثانية .. حياء ا عز وجل وضحه العلماء فقالوا : إنه حياء كرمٍ وحياء بِرٍ وحياء جود وحياء جلال . حياء كرمٍ وبِرٍ وجلال فإنه تبارك وتعالى حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً ويستحيي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام .

أقولها مرة ثانية : من كان يستحيي يستحي أن يخالف أنظمة البشر لِئلا يقع في الخطأ .. خالفتَ نظام السير وأوقفك من هو مسؤول عن هذا النظام وسألك أعطني أوراقك وأعطني مستندات هذه السيارة ولماذا خالفت . الذي يتمتع بخُلق الحياء يستحي أن يقع في المخالفات حتى في الأنظمة الوضعية لِئلا يقفَ موقفاً حرجاً ، لِئلا يصغُر ، لِئلا ينكمش .

بعض العلماء قال " الحياء على عشرة أوجه ، حياء جِناية ، وحياء تقصير ، وحياء إجلال ، وحياء كرم ، وحياء حشمة وحياء استصغار نفس ، وحياء محبة ، وحياء عبودية ، وحياء شرف وعزة ، وحياء المستحيي من نفسه ". إليكم التفصيلات :

فأما **حياءُ الجناية** فمنه حياء آدم عليه السلام لما فر هارباً من الجنة قالَ تعالى : أفراراً مني يا آدم قالَ لا ياربي بل حياء منك . أيام الإنسان يستحي أن يواجه إنساناً عظيماً

بمخالفة فهذا ليس حياء الهروب .. حياء التعظيم ، حياء الجناية . أحياناً الإنسان يكون له ابن فيغلط الابن أين فلان .. مختف .. إذا كان الابن توارى حياء الأب يتسامح حتى لا يصبح في إحراج ، الابن خاف واستحى بذنبه .. هذا حياء الجناية .. ،

أما **حياءُ التقصير** كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار ولا يفترون فإذا كـان يوم القيامة قالوا : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك .. هذا حياء التقصير .. النبي عليه الصلاة والسلام جعل عمله الصالح كله ، وعمله ليس في الأرض كُلها منذُ آدم وإلى يوم القيامة عملٌ أعظم من عمل النبي . رحمةٌ مهداة ، نعمةٌ مزجاة ،

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾

(سورة الأنبياء)

كلُ عمله رآه قليلاً فقالَ عنه : ياربي إنه جهد مقل .. هذا التواضع .. جهـد مقـل عمل النبي ، ١٢٠٠ مليون مسلم في شتى بقاع الأرض على رقعة واسعة جداً هذه دعوة النبي ومع ذلك قال : ياربي إنه جهد مقل .. هذا حياء التقصير .. ،

حياءُ الإجلال هو حياء المعرفة قدر معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه ، كلما ارتقت معرفتك ارتقى حياؤك هذا سماه العلماء الإجلال ، سيدنا النبي لما قدم الوسادة لزيد الخير قالَ وا ِ إني لا أتكئ في حضرتك استحيا أن يتكئ في حضرة النبي عليه الصلاة والسلام، النبـي عليه الصلاة والسلام وهو نبي هذه الأمة ما رؤي ماداً رجليه قط في حياته بـين أصـحابه ، وحياء الكرم كحياء النبي من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب وجلسوا وأطالوا الجلوس فقام واستحيا أن يقول لهم انصرفوا . أحياناً يكون يغلي غلياناً لشدة الارتباطات والأعمـال يأتيـه شخص محب يجلس يستمتع بالحديث يأنس .. من السهل أن تقول له انصرف ولكـن علـى صاحب الحياء .. صعبةٌ جداً .. تراه يتمزق والتمزق أهون عنده من أن يصرفه .. هكذا فعلَ النبي دعا أصحابه إلى وليمة زينب جلسوا وأطالوا الجلوس والنبي في حرجٍ شديد فاستحيا أن يقول لهم انصرفوا .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ
طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ
فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ
فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا
فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ
لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ
إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

(سورة الأحزاب)

قال : **حياءُ الحشمة** كحياء علي بن أبي طالب رضي الله عنه استحيا أن يسألَ النبي عليه الصلاة والسلام عن المذي سائل شفاف يخرج قبل المني هذا يا ترى ينقض الوضوء يحتاج إلى وضوء أم يحتاج إلى غُسل ، سيدنا علي زوج ابنة رسول الله فاستحيا أن يسألَ أباها وابنته عنده . العلماء استنبطوا لا يصح ولا يليق أن تتحدثَ بأمرٍ نسائي أمام والد زوجتك وأمام أخوتها ولو كان في تورية . الإنسان يحكي عن العلاقات الزوجية والأحكام الشرعية بشكل مهذّب جداً وبشكل راق جداً ، لكن إذا كان والد زوجته موجود وأخوات زوجته الأكمل ألا يتحدث به أبداً اقتداء بسيدنا علي بن أبي طالب الذي استحيا أن يسأل النبي عليه الصلاة والسلام عن المذي لأن ابنته عنده لمكان ابنته من رسول الله .

كنت مرة بجلسة في العيد يتحدث الأخ كلاماً لطيفاً متعلّقاً بالزواج وبالعلاقات الزوجية أمام أخي زوجته ، فأخو زوجته ينتقل إلى صورة قد يأباها الأخ أو الأب مثلاً أو قد لا يحب أن يتخيل ما يجري . فلذلك من الكمال أن لا تتحدث عن أشياء مباحة وأشياء مهذّبة فيها كنايات لطيفة أمام أقرباء زوجتك .. هذا من الحياء .. ،

قال و**حياءُ الاستحقار والاستصغار** كحياء العبد من ربه عز وجل حين يسأله حوائجه احتقاراً لشأنِ نفسه واستصغاراً لها . يقولون أن نور الدين الشهيد رحمه الله الذي رفع اسم المسلمين عالياً والذي قضى على سبعٍ وعشرين جيشٍ أوروبياً جاءوا ليغزوا بلادنا في العصور الوسطى غزو الفرنجة ، يقال أنه سجد .. هكذا قرأت ولا أدري مبلغَ هذا من الصحة .. سجد قُبيلَ المعركة الفاصلة وقال يارب من هو نور الدين حتى تنصره انصر دينك . يعني من أنا حتى تنصرني يارب أنا أحقر من ذلك انصر دينك يارب . فإذا الإنسان رأى

عبوديته ورأى أنه لاشيء ما فعلَ شيئاً ، ما قدم شيئاً ، فاستحيا من ا هذا حياء العبودية عز وجل . فسر بعض العلماء هذا الحياء حياء الاستصغار إما لتعظيم المسؤول وهو ا ُ عز وجل أو لوقوع السائل ببعض الذنوب .. إما السائل مذنب على استحياء أو أن المسؤول عظيم جداً .. ،

أما **حياءُ المحبة** فحياء المحب من محبوبه حتى إذا خطر المحبوب في قلب المحب في غيبته هاج حبه وظهر هذا في وجهه ولا يدرى ما سببه ، حياء العبودية : حياء ممتزج من محبة وخوف ومشاهدة أما حياء الشرف والعزة إذا الإنسان له مقام كبير .. المعلّم .. الأب .. في الخمسينات .. عنده خمس بنات متزوجات عنده أصهار له أولاد شباب وله أحفاد .. يمزح مزحاً ساقطاً .. يتلصص على النساء .. يضبط أنه يتلصص ، مراهقةُ في سنٍ متأخر .. كما قال ا عز وجل

وأبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد . .. من دخلَ الأربعين دخلَ في أسواق الآخرة سن الأربعين سن التقوى والصلاح سن الإنابة والقرآن والحفظ والتهيئةَ .. رحلة ستة أيام يلهو سبت أحد اثنين ثلاثاء يوم الأربعاء تجده يخطط للعودة كيف نعود بالسيارة العامة أو الخاصة بالقطار إذا كان عمر المرء ستين ، إذا كانت الستين ست أيام ، أول عشر سنوات السبت وثاني عشر سنوات الأحد والثالثة ٣٠ الاثنين والرابعة الثلاثاء ، والخامسة الأربعاء ، خامس مرحلة من دخلَ الأربعين دخلَ في أسواق الآخرة فإذا إنسان له مقام . له عمل في الجامعة ، ... أب راق ، صاحب معمل ، مدير مستشفى لا يليق به أن يقرأ موضوعاً سخيفاً أو يتواجد عنده مجلة من نوع معين أو يمزح مزحاً معيناً أو يرتكب حماقة معينة هذا لا يليق بالإنسان العادي فكيفَ بالمؤمن .

حياءُ المرء من نفسه هو حياء النفس الشريفة هذا أرقى أنواع الحياء ، وأنتَ وحدك في البيت .. أحياناً الإنسان إذا رأى نفسه كريمةً عفيفةً شريفةً صادقةً .. رضاؤه عن نفسه يسعده، إذا الإنسان ارتكب حماقة فيما بينه وبين نفسه ولا أحد على وجه الأرض اطلّع عليها يكفيه ألماً أنه احتقر ذاته . فلذلك الإنسان الشريف يسعى إلى أن يرضى عن نفسه ، إذا رضي عن نفسه شعر باعتزازٍ إنسانيته .

قال العلماء : " إذا استحيا الإنسان من نفسه فاستحياؤه من غيره من باب أَولى " .

أحد أنواع الحياء المهمة **حياءُ الرقابة** وهو حياء يتولّد من علمِ العبد بنظر الحق إليه . مرة دخلت إلى محل تجاري .. القصة قديمة .. وجدت شاشة تلفزيونية بالمحل وعلى الشاشة شاب على طاولة يكتب في دفاتر محاسبة فعلمت أن صاحب المحل التجاري في الطابق العلوي عنده محاسب فلا أدري لماذا فعلَ هذا لكن وضع فوقَ هذا المحاسب آلة تصوير تلفزيونية وعنده في المكتب هذه الشاشة تُريه ما يفعلُ هذا المحاسب في ثماني ساعات

. قلت هذا المحاسب مادام مراقباً ٨ ساعات مستمرة ، كل حركاته وسكناته محسوبة ، كلما نظر صاحب المحل رآه ماذا يعمل. تصور نفسك مراقباً ٢٤ ساعة ، بعض مدراء المدارس غلط غلطة كبيرة ووضع بكل صف جهاز لاقط ، أحب أن يسمع كل أستاذ ماذا يتكلّم ، فأصبح الموقف حرجاً. كل أستاذ له أحواله مع الطُلاب .. أحدهم نزع الجهاز ، الثاني قطع الشريط ، .... على كُلٍ المراقبة المستمرة صعبة جداً لكن ربنا لطيف مع أنه معك دائماً ويراقبك لكن لا تشعر بثقل المراقبة . هذا أحد أنواع الحياء حياء يتولد من علم العبد بنظر الحق إليه . لذلك يستقبح كلُ جناية وتحلو له كل مجاهدة ، يستقبح الجِناية وتحلو له المجاهدة في سبيل ا ، لأن ا عز وجل يراقبك ويسكت عن الشكوى .

الذي يشتكي كثيراً بعيد عن حال المراقبة لأنه قال له : آلك حاجة ..؟.. قال له منك ..؟.. قال : لا .. من ا ، قال له : علمه بحالي يغني عن سؤالي .

إذا الإنسان شعر أن ا يراقبه يسكت لسانه .. ماذا يتكلّم .. قال له : عبدي كُن لي كما أُريد ولا تُعلمني بما يصلُحك .... لا تُكلّف نفسك أن تتكلم بما تحتاج أنا أعرفُ كُل حاجاتك ، أعرفُ كل رغباتك ، أعرفُ كل ما يزعجك ، أعرف كُل ما يؤلمك ، كُن لي كما أُريد ولا تُعلمني بما يصلُحك . قال هذا حياء المراقبة يحمل صاحبه على المجاهدة ويحمله على استقباح الجناية ويجعله يسكت. علمه بحالي يغني عن سؤالي

أرقى أنواع المراقبة أن يخشى المحب إذا فعلَ مخالفةً أن ينقطع عن محبوبه ، هذا الخوف الذي قال عنه النبي : رأس الحكمة مخافة ا . لا خوفَ عقابه بل خوفَ البعد عنه .

من أرقى أنواع الحياء الشعور أن ا معك ، كلكم يعلم أن معيةَ ا نوعان : معيةٌ عامة وهي معيةُ العلم الإلهي ..

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾

(سورة الحديد)

والمعيةُ الخاصة معيةُ الحفظ والتأييد والنصرِ والإكرام . قال تعالى :

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

(سورة النحل)

أما " **وهُو معكُمْ أَين ما كُنتُمْ** " هذه معيةٌ عامة ، ا ُ مع كل إنسان حتى مع العصاة ، حتى مع المنحرفين ، لكن إذا قال :

۞وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾

(سورة المائدة)

قال : هذه معيةٌ خاصة معيةُ الرعاية والحفظ والنصر والتأييد.

القُرب أكّده القرآن الكريم فقالَ ا عز وجل :

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

(سورة البقرة)

إني قريب .. .. القُرب أن تُحس أن ا معك أو أن ا قريب منك هذا شعور مـن لوازم الإيمان ، ولا تأتي معصية إلا إذا أحسست أن ا لا يراك أو أن ا بعيد عنك .

على كُلٍ بعض أهل القلوب لهم وقفاتُ طويلة عند ما يسمى بحال المراقبـة ، حـال المراقبة أن تشعر دائماً أن ا يراقبك ، وأنه مطلّع على سريرتك وعلى علانيتـك ، وعلـى حركاتك وعلى سكناتك ، وعلى أقوالك وعلى كُل ما يصدر عنك . هذا الشعور وحده يكفي أن تستقيم على أمره ويؤكّد هذا أنك إذا علمتَ أن ا يعلم ما تفعل :

فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

(سورة الشعراء)

" **وأَنذرْ عشيرتَك الأقْربين واخْفضْ جنَاحك لِمنْ اتبعك منْ الْمُؤْمنين فَإنْ عصـوْك فَقُلْ إني بريء مما تَعْملُون وتَوكلْ على الْعزيز الرحيم الذي يراك حين تَقُومُ** " ، يعني هذا هو الإيمان أن تعبد ا كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، إما أن تراه أو هو يراك .

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون .... مع الدرس السابع عشر من دروس منـازل السـالكين و منزلة اليوم منزلةٌ يحتاجها كل مؤمن إنها منزلة الإرادة ، قيمة هذه المنزلة تُكمن في أن كـل إنسانٍ أو أن كل مؤمن يتمنى أن يكون أفضلَ مما هو عليه . ما الذي يمنعه من أن يكون كما يتمنى .. ضعفُ إرادته .. لا ُأبالغ إذا قُلت إن من أخطر الموضوعات المطروحة في مـدارج السالكين هذا الموضوع ، يعني .. من منّا لا يتمنى أن يكون من أعلى المؤمنين ، من أكملهم إيماناً ، من المتقين ، من المحسنين ، ممن تَخلّقَ بأخلاق النبي ممن رزقه ا عملاً صـالحاً ، ممن أتقن صلاته، ممن أنفقَ ماله في سبيل ا ، ممن دام ذكره ، ممن طَهر قلبه ، ممن أقبلت نفسه .... لماذا نحن دائماً دون ما نتمنى ، لماذا هناك مسافةٌ بين ما نحن عليه وبين ما يجب أن نكون عليه، هنا تكمن قيمة هذا الدرس .. إنها الإرادة .

قبلَ أن أدخلَ في تفصيلات هذا الدرس ، مرةً كنتُ أركب مركبةً عامةً في طريقـي إلى دمشق من المحافظات الشمالية لما وصلت إلى شارع العدوي الذي قُبيلَ دمشق أذكـر أن الليل في منتصفه أو في ثُلثه الأول وأذكر أن الوقتَ كان شديد البرد رأيتُ رجلاً يرتدي ثيابـاً رياضية ويجري قلت في الشام أكثر من خمسة ملايين كلهم إلى جانـب المـدافئ والمقاعـد الوثيرة ويتناولون الطعام الطيب أو غير الطيب مع أهلهم وأولادهم وهذا يجري بهذا البرد .

ليس من السهل أن تَملك إرادةً تقوى بها على عاداتك على مألوف حياتك ، على أن تركن إلى الدفء إلى بيتك مع أولادك أن تأكل ما تشتهي .. هذا يركض فـي وقـت شـديد البرودة وفي وقت يألفُ الناس أن يقبعوا في بيوتهم . قلت متـى نشـأت عنـده هـذه الإرادة الحديدية ، متى غَلَب نوازع نفسه الطبيعية ، متى قَوي على نفسه ، هنا السؤال متـى، لمـاذا تسع وتسعون في المائة من الناس يركنون إلى عاداتهم ، إلى طبيعة أجسامهم ، إلى الراحـة ، إلى الدفء ، إلى الكسل العضلي . ولماذا هذا يجري في هذا الوقت ، ما الذي دفعه ، ما الذي قوى إرادته ، ما الذي جعله يتميز من بين مئات الألوف بل من بين عشرات الألوف أو بضعة الملايين ، هذا لو أنه اطلع إطّلاعاً واسعاً على ما في علم الطب من أن القلب إذا صلُح صـلُح الجسد كُله ، وإذا فسد فسد الجسد كُله ، وأن هذا القلب يقويه الجري ويضـعفه الكسـل ، وأن الإنسان إذا أهملَ قلبه عانى في خريف عمره أشياء كثيرة ، يبدو أن هذا الشاب الذي يجـري في هذا الوقت وفي هذه الظروف القاسية ، يبدو أن علمه وإطّلاعه كونا عنده الإرادةَ القوية .

فدرسنا كُله في فكرتين إذا كان هناك فرقٌ كبير بينما أنتَ عليه وبينما يجب أن تكون عليه هذه المسافة الكبيرة سببها ضعفُ الإرادة وضعفُ الإرادة سببها نقص العلم .

إذاً : العلم هو الطريقةُ الوحيدةُ إلى ا ، إذا ازداد علمك قَويت إرادتُك ، إذا قَويت إرادتُك وصلتَ إلى ما تصبو إليه . فهذا ملخص الملخص قبل أن نبدأ بالتفصيلات . لماذا تضعف عن أن تكون كما تريد لأن علمك بما تُريد يحتاج إلى مزيد .

طبعاً .. ضربت مثلاً واحداً أما أنتم لكم أن تضربوا عشرات الأمثلة ، يعني أعرف رجلاً يقبل على الطعام الدسم إقبالاً عجيباً وله مركبة يستعملها لمسافة مائة متر ، كسل ونهم وطعام دسم ، في الثانية والثلاثين توفي ، طبعاً هذا الجسد له قوانين ، طبعاً مع الاحتفاظ بعقيدتنا بأن لكل إنسانٍ أجلا لا يتقدم ولا يتأخر ولكن ا عز وجل جعلَ لكل شيء سبباً . لكن هذا الإنسان إقباله على الطعام الدسم وإقباله على استعمال مركبته بشكلٍ دائم وعزوفه عن أن يبذلَ جهداً من ضعف إرادته وضعفُ إرادته بسببِ نقصِ علمه بقواعد هذا الجسم .

نَحلُ بهذا الدرس مشكلة كبيرة ، كلما تاقت نفسك إلى أن تكون في مستوى أرقى مما أنتَ فيه اعلم علم اليقين أن هذا يعود إلى ضعف إرادة فيك وهذه الإرادة ضعفت لنقصِ العلمِ الذي تحويه .

كلما ازددتَ علماً ازددتَ إرادةً ، وكلما ازددتَ إرادةً بلغتَ المستوى الذي تصبو إليه .. عالج نفسك .. هذا الدرس درس هذا المسجد له طبيعةٌ خاصة . كيفَ أن الجسد له قوانين وله أساليب وله علل وله أدواء وله أسباب وله مسببات كذلك النفس .

الآن : نبدأ بالدرس ... قال تعالى :

وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

(سورة الأنعام)

" **يريدونَ وَجهَه** " إذاً هناك من يريد وجه ا والذي يريد وجه ا اسمه مريد ، وأكثر علماء القلوب يسمون تلاميذهم مريدين ، معنى مريد يعني أراد وجه ا ، أراد ا ورسوله . قالَ تعالى :

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾

(سورة الليل)

هذه الآية الثانية المتعلّقة بالإرادة .

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩﴾

(سورة الأحزاب)

" **وَإِن كُنْتُن تُرِدنَ اللهَ وَرَسوله** " هنا المشكلة .. ماذا تُريد ؟ هذا أكبر سؤال ، هناك من يريد الدنيا من خلال الدين ، هناك من يحضر مجالس العلم ليزداد دخله ليكثُر زبائنه ، هناك من يحضر مجالس العلم ليتعلّم أشياء يتصدر بها المجالس ، وهناك من يريد الله ورسوله . " **وَإِن كُنْتُن تُرِدنَ اللهَ وَرَسوله وَالدارَ الْآخِرَةَ فَإِن اللهَ أَعَد لِلْمحسِنَاتِ مِنْكُن أَجرا عَظِيما** ".

أُورد لكم طائفةً من تعاريف العلماء ، علماء القلوب بالإرادة أو بالمريد ، " الإرادة : مطلقة ، المريد : من أراد الله ورسوله ". الإنسان بلا علم ، بلا توجيه ، بلا مجالس علم ، بلا مرشد ، بلا مشرب ديني ، بلا تزويد ، إنسان له جسد ، له شهوات ، له مطالب ، غالباً يستجيب لشهوات جسمه ، غالباً يركن للراحة ، يعني من الطبيعي جداً أن تُصلي الصبح بعد الشمس مادام جسمك مستريحاً في الفراش ، هذا الجسد يتمنى أن يبقى نائماً ، وهذا الجسد يتمنى أن يقبع في البيت لا أن يأتي إلى مجالس علم ، وهذا الجسد يتمنى أن يأكلَ كثيراً ، وهذا الجسد يتمنى أن تكون له زوجة كما يشتهي ، فالإنسان دونَ علمٍ دونَ مجالسِ علمٍ ، دونَ توعية ، دونَ إطلاّعٍ ، دونَ معرفة ، ينساق مع شهواته ، فقال الناس غالباً يعرجون على أوطان الغفلة ، ويجيبون دواعي الشهوة ، ويخلدون إلى أرض الطبيعة ، ومن أراد الله ورسوله ينسلخُ عن كل ذلك . هذا أول تعريف .

الصلاةُ ذكر وإذا كان الإنسان منسجماً في عمله لا يتمنى أن يصلي ، إذا كان منسجماً يقوم بعمل رائع له أجر كبير يتمنى أن يبقى بلا صلاة ساعات طويلة ، فالإنسان دون علم ، دون معرفة ينسجم مع عمله فلا يصلي ، ويبقى نائماً فلا يصلي الفجر، ويأكلُ دونَ حساب ، ويمزح ويتكلّم وينهشُ أعراض الناس ويغتاب ... كل هذا انسجاما مع غفلته .

تعريفُ آخر للمريد الصادق.. " من هو المريد ..؟.. الـذي يريـد ا َ ورسـوله : نهوض القلب في طلب الحق " .. هذا الحطيئة هجا أحد زعماء القبائل اسمه الزبرقان قال لـه بيتاً يعد الآن شعار كل إنسان الآن ظاهر معناه مديح قال له :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها　　　واقعد فإنك أنتَ الطاعم الكاسي

أما باطنه فهجاء مقذع مالك وما للمكارم أنتَ مطعم مكسو اقبع في البيت كُل اشـرب وتنزه واسهر واسمر والتق مع من تُحب وامزح وافرح ما لك وللمكارم .. دع المكارم .. أما الذي يريد ا َ ورسوله قلقٌ دائماً لا يطمئنه إلا أن يرضى ا عنه ، قلقٌ دائماً لا يطمئنه إلا أن يشعر أن ا يحبه ، لذلك نهوض القلب في طلب الحق .. هذا تعريفٌ آخـر مـن تعريفـات المريد .

تعريفٌ ثالث : " لوعةٌ تُهون كل روعة " ،

فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ　　　وليتك ترضى والأنام غضاب
وليتَ الذي بيني وبينك عامر　　　وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الوصلُ فالكلُ هين　　　وكل الذي فوق التُرابِ تُراب

هذا الذي يريد ا ورسوله ، يهون عليه كلُ صعب ، يسهل عليه كلُ محال ، يبتغي مرضاة ا عز وجل بأي ثمن .

قال بعضهم : " المريد من كان في قلبه لوعةٌ ، ولذعةٌ في فؤاده وغرام في ضميره ، وانزعاج في باطنه ، ونيران تتأجج بين جوانحه . هذا هو المريد ".. .. المريد يقشعر جلده إذا ذُكر ا ، يجِلُ قلبه تنهمر دموعه بحب ا ، أقول لكم مراراً وتكراراً هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة من النفوس جميعها مهيأةٌ لأن تعرفَ ا ، النفوس جميعها مهيأةٌ لأن تُحـب ا ، النفوس جميعها مستعدةٌ لأن تكون ممن سعد بقربِ ا عز وجل .

ولكن مرةً ثانية وثالثة : نقص العلم يؤدي إلى ضـعف الإرادة ، وضـعف الإرادة يؤدي إلى وجود مسافة كبيرة بين ما أنت عليه وما ينبغي أن تكون عليه . أنا أظن أن أكثـر المؤمنين في قلبه لوعة يتمنى أن تكون صلاته أفضلَ مما يصلّي ، يتمنى أن يكـون صـيامه أفضل مما هو يصوم، يتمنى أن يكون حجه أفضلَ مما شعر في الحـج ، يتمنـى أن تكـون صدقته أكبر أكثر وأشد إخلاصاً ، يتمنى أن يكون ورده في صحوة لا في غفلة ، يتمنى من أن تكون استقامته من أعلى مستوى ، مادام هناك شعور بالتقصير فليعلم الإنسان علم اليقـين أن

هذا التقصير مبعثه إلى ضعف الإرادة .. لي صديقٌ زار أحد أقربائه فـي المستشـفى وقـد أُجريت له عملية جراحية في رئتيه بسبب الدخان قال له حينما أخرج من المستشفى لي حساب عسير مع هذه الدخينة .. يعني هذه السيكارة .. ، لكن مرضه كان عضالاً ولم يسمح له هـذا المرض أن يخرج من المستشفى .. مات .. حينما كان يدخن سنوات طويلـة وهـو علـى مستوى رفيع من الثقافة لماذا ضعفت إرادته عن أن يقلع عن التدخين لأنه لم يعاين أضـرار التدخين ، أما حينما دخلَ إلى المستشفى وُأستئصلت أجزاء كبيرة من رئتيه بسـبب المـرض الخبيث عندئذ امتلك إرادةً حديديةً يعني يتمنى أن يمزقها عبر عن هذه الإرادة أنه إذا خرج من هذه المستشفى فله معها حساب عسير ولكن المرض العضال لم يسمح لـه أن يخـرج مـن المستشفى . إذاً : لاحظ متى قويت إرادته ..؟.. حينما رأى المرض الخبيث منتشراً في رئتيه عندئذ امتلك إرادةً قوية .

أبداً .. لاحظ نفسك حينما يعاني الإنسان من آلامٍ في كُليتيه آلامٍ مبرحة وقد يكـون من عشاق الشاي يشرب في اليوم عشرين كأساً تراه فجأةً يقلع عنه ، نحن كُنا نرجوك أن تُقللَ منه ما كنت ترضى ، أما حينما ذاقَ آلام الكُليتين ونوبات الحصيات عندئذ أقلع عنـه . بقـي الفرق بين أن تملك الإرادةَ بعد فوات الأوان وبين أن تملكها في الوقت المناسب لابد مـن أن تملكها بعد أن تدفع الثمن ، أما البطل هو الذي يملكُها بالعلم لا بالتجربة لابد من أن تَملك إرادةً قوية إما أن تملكها بعد أن تدفع الثمن باهظاً وبعد فوات الأوان وعندئذ لا تسـتفيد مـن هـذه الإرادة القوية ، وإما أن تملك الإرادة القوية بسببِ العلمِ الذي تُحصله وأنتَ في مقتبل العمـر هذا هو الفرق .

قال بعض العلماء : " من صفات المريد أنه يتحبب إلى الله بالنوافل ، بصلاة نافلة ، بصومٍ نفلٍ ، بتلاوة قرآنٍ ، بذكر كثير ، وصدقة كثيرة ، الذي يتحبب إلى الله بالنوافـل هـذه صفاتٌ في المريد ".

والمريد أيضاً : " هو الذي يأنس بالخلوة ". هناك شخص يقـول لـك اجتمـاعي لا يستطيع أن يجلس وحده أبداً ، يجلس وحده يشعر بالوحشة ، والاستئناس بالناس كمـا يقـول بعض العلماء من علامات الإفلاس ، أما المريد الصادق له مع ربه خلوات ، وله مـع ربـه جلوات ، يأنَس إذا جلس وحده في الغرفة يذكر الله ، يأنس بتلاوة القرآن ... ذكرت البارحـة في درس الأحد أن غار حراء الشاب القوي المتين مفتول العضلات لا يستطيع أن يصلَ إليـه إلا بساعات طويلة مع الجهد الشاق . يمكن أن تَصلَ إليه بساعتين أو بثلاثة ولكن أن تستطيع أن تنام هناك وحدك في الليل والأرض كُلُها أفاعي وعقارب ، قلت ما الذي جعلَ النبي عليـه الصلاة والسلام يقبع في هذا الغار الليالي ذوات العدد ؟ إن أُنسه الشديد بالله طغى على وحشة

المكان . وإذا كُنتَ مريداً صادقاً مع ا ربما شعرتَ بهذا الشيء، كلما ازداد قُربك ازداد ُأنسك ، وإذا ازداد ُأنسك با ِ عز وجل عَذُب على وحشة المكان .

من علامة المريد الصادق أنه يأنَس بالخلوة ، ويؤثر أمر ا تعالى على كل شيء ، ويستحيي من نظرِ ا ِ إليه .. يستحيي أن ينظر ا ُ إليه في حالة لا تُرضيه ، ويبذل جهده في ابتغاء مرضاة ا ، ويتعرض لكل سببٍ يوصلُ إليه ، يا ترى بحفظ القرآن ، يا ترى بخدمـة الصالحين ، يا ترى بالدعوة إليه ، يا ترى بالتواضع ، يا ترى بماذا ؟ كُلمـا بلَغَـه أن هـذا الطريق يوصل إلى ا سلكه ، كُلما سمع أن هذا العمل يقرب فعله ، كُلما درِي أن هذا الشيء إذا ابتعد عنه يقترب من ا عز وجل يبادر فيبتعد عنه ... والقناعـة مـن صـفات المريـد الصادق يقنع بما قَسمه ا ُ له ، دائماً المريد صابر وقَنوع وراضٍ والذي يريد الدنيا وزينتهـا دائماً لجوج وناقم وساخط .

وقلب المريد لا يقر إلا إذا وصلَ إلى ا عز وجل ، يثلج قلبه أن يرضى ا عنه . وقيلَ المريد من كان نومه غَلَبة يعني النوم عنده حينما تنهار أعصابه ينام ، حينما يغلبه النوم ينام، أما أن يجعلَ النوم أحد متع الحياة ، يهيئ نفسه للنوم ينام نوماً عميقاً ، لـيس هـذا مـن علامات المريد والدليل :

تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾

(سورة السجدة)

قالَ : " المريد من كان نومه غَلَبة وأكله فاقة وكلامه ضرورة ". هذا الذي يريد ا ورسوله .

لأحد العلماء كلمةٌ خطيرة قالَ : "من لم تَصح إرادته ابتداء فإنه لا يزيده مرور الأيامِ إلا إدباراً ". يعني إذا الإنسان في بداياته لم يرد ا ورسوله كُلما مرت الأيام تزيده بعداً وسأماً وضجراً ومللاً وكسلاً وانصرافاً إلى أن ينقطع عن ا ِ عز وجل . يعنـي إذا بـدأتَ طريـقَ الإيمان بدأته غير صادق ما صحت إرادتك في طلب الحق ، إذا بدأت الإيمان لطلبِ الدنيا تجد أن الأيام كلما مرت أبعدتك جعلتك تسأم ، يقول لك وا مللنا كلاماً سـمعناه كثيـراً ، تجـده يصلّي متكاسلاً ، يصوم متأففاً ، يحج تاجراً ، يذكر لاهياً ، يسبح غافلاً ، يقوم بالواجبـات شكلاً صورةً ، عباداته جوفاء ، تلاوته عرجاء . من لم تَصح إرادته إبتداء فإن الأيام لا تزيده إلا إدباراً .

وقالَ بعضهم : " المريد إذا سمع شيئاً من علوم القوم "، سمع شيئاً فَعملَ به صـار حكمةً في قلبه إلى آخرِ عمره . يعني مثلاً : سمع أن أمر ا ِ عز وجل أن تَغُض بصرك عن محارم ا هذا توجيه إلهي ، فغض بصره عن محارم ا فشعر بحلاوة ملأت قلبه ، صار هذا حكيماً لأنه مجرب سمع التوجيه نظريا وطبقه عملياً فشعر بحلاوة في قلبه إلى آخـرِ عمـره يقول أنا فعلتُ كذا وكذا وشعرتُ بكذا وكذا . سمع أنه ما ترك عبد شـيئاً إلا عوضـه ا ُ خيراً منه في دينه ودنياه ، سمع بهذه الحكمة فعرضت له الدنيا مع شُبهة فتركها وإزور عنهـا وابتعد عنها فآتاه ا خيراً مما فقده . صار حكيماً ، صار بالتعبير الحديث صاحب تجربـة ، صار صاحب خبرة ، صار يعاين كما قالَ العكبري : القرآن الكريم تؤخذُ ألفاظه من حفّاظـه وتؤخذُ معانيه ممن يعانيه ، صار في معناه . قال وإذا تكلّم هذا الحكيم الذي سمع مـن كـلامِ القوم فطبقه فقطفَ ثماره فذاقَ طعمه فصار حكيماً ، الآن إذا تكلّم به انتفع به مـن سـمعه ، وقديماً قالوا الكلام الذي يخرج من القلب يدخلُ إلى القلب بلا استئذان ، والذي يخرج من الفـم لا يجاوز الأذان .

متى يمكن أن ينتفع الناس بكلامك ؟ إذا استمعتَ أنتَ إلى الحق وطبقتـه وقطفـت ثماره ، لمستَ فوائده ، فتكلّمتَ عن تجربة انتهت إلى مكان جميل وعاين المكان وسـر بـه سروراً عظيماً وعاد إلى بلده الآن إذا ذكر لك مذاق من متعة وسرور ينقل لك شعوره تشتهي أنت أن تذهب إلى هذا المكان .

إذا وصفَ لك الواصف وكان وصفه عن تجربة حقيقية ينقل لك كل شعوره فإذا قال لك وا أنصحك أن تذهب إلى مكان كذا في قضاء إجازتك ، تسأله هل ذهبت إليه ، يقـول لا وا لكن هكذا وصفوه لي . تبقى أنتَ فاترِ الهمة لأن كلامه لم ينتقل إليك مع الشعور .

قال : وإذا تكلّم به انتفع به من سمعه .. بالمقابل .. ومن سمع شيئاً من علوم القـوم ولم يعمل به كان حكايةً يحفظُها أياماً ثم ينساها .

مر معنا بعلم التربية أن أسوأَ أنواع التعليم هو التعليم اللفظي ، تُقدم للطالـب آلاف المعاني في ألفاظ لأن الطالب لم يعش هذه التجارب ، لم يعش هذه الحقائق سـمعها بأذنـه إذا أدى بها امتحاناً ، حفظَ الكتاب كلمةً كلمة وأدى به امتحاناً أنا أقول لكم هذا الكلام المضحك : الطلاب الذين ينجحون في الشهادات لو دعوا إلى تقديم الامتحان نفسه بعد عام لرسبوا جميعاً .. لماذا .. لأن التعليم لفظي ، هذه المعلومات حفظوها فلّما جاء الامتحان كتبوها لأنها لم تُكن عن تجربة ولا عن إحساسٍ ولا عن خبرة لكن لاحظ نفسك إذا عانيتَ تجربةً لا تنساها حتـى الموت يمضي عليها ثمانون عاماً وأنتَ تذكرها ، لذلك أرقى أنواع التعليم ، التعليم عن طريق الخبرات والتجارب ، سمعت ببعض بلاد الغرب المهندس يذهب إلى الحقول في مساعدة كبار المهندسين طالب هندسة لا يدخل إلى قاعة التدريس قبل أن يمضي ستة أشهر مع المهندسين

، يرى الطبيعة يرى الإسمنت يرى البناء كيف ينشأ يرى هذه الألفاظ .. يعني .. فرقٌ كبيـر بين واحد مثلاً لم ير البحر إطلاقاً ، قرأ مقالة عن البحر ورأى صورة عـن البحـر ، وقـرأ قصيدة عن البحر ، هل أنا يا بحر منك لستُ أدري ، قرأ قصيدة عن البحر ونظر إلى صورة عن البحر ، هذا البحر عنده فكرة قرأها ينساها أما لو أن هذا الإنسان ذهب إلى البحر وسـبح فيه وكاد يغرق وشَعر أنه كاد يموت لولا أحداً أنقذه في آخر لحظة ، هذا يعرف ما البحر وما معنى موج البحر وما معنى ملوحة البحر .. يعرفُها .. تجربة لا ينساها أبداً . أما الآن لو أن إنساناً فرضاً ما أُتيح له أن يذهب إلى البحر وقرأ مقالةً عن البحر ، أسأله بعد ثلاثة أيام مـاذا تذكر منها يقول لك لا شيء ، وإذا ذكر بالمائة خمسون ، وبعد أسبوعين لا يذكر شيئاً ، هـذا التعليم اللفظي ، أما لو أخذناه إلى البحر وسبح فيه وذاقَ طعم ملوحتـه ورأى الأسـماك فيـه وركب متن البحر وشعر بالموج وانخلع قلبه خوفاً وكاد يغرق ، هذه التجارب لا ينساها حتى الموت .

فإذا كانت معلوماتك بالدين كأن تقرأ مقالة عن البحر وأنتَ ما عرفتَ البحـر ومـا رأيتَ البحر ولا سبحتَ في البحر ولا ذُقتَ طعم البحر ولا أوشكتَ على الغـرق فيـه فكـل معلوماتك سطحية وسرعان ما تنساها .

لذلك .. تؤخذ ألفاظه من حفاظّه وتؤخذ معانيه ممن يعانيه ، أما إذا كان لك مـع ا تجربة ، إذا ذُقتَ طعم القُربِ فعلاً ، إذا ذُقت طعم الاستقامة ، إذا ألقى ا في قلبك السكينة ، إذا شعرتَ براحة الإيمان ، إذا شعرتَ بأن ا يحبك ، إذا أنفقتَ من مالِك فآتـاك ا عشـرةَ أمثال ، إذا آثرتَ مرضاة ا عز وجل فعوضك ا خيراً مما فقدك ، كل حديث شريف ، وكلُّ آية كريمة تُطبقها وتقطف ثمارها أنت الآن داعية أصبحت لأنك إذا تكلّمت تركتَ أثراً عميقاً في نفوس الناس ، إذا دعوتَ إلى ا وعبرتَ عن خبراتك الإيمانية فعلتَ في نفوس الناس فعلَ السحر لأنك تتحدثُ عن تجربة ، دعوا في أذهانكم مقالة البحـر ، مقالـة حفظتهـا قصـيدة حفظتها ، صور تأملتها وأنتَ لم تره إطلاقاً .

لذلك : أحد الشعراء وصفَ مدعي التصوف قال :

خاضوا بحار الهوى دعوى وما ابتلّوا

يعني الإنسان كأس ماء ، ماء حقيقي لو وضعها في جيبه لسالَ الماء إلى الأرض ، أيعقلُ أن يخوض بحراً دون أن يبتل ، كأس ماء واحد يملؤه بللاً ويخوض بحراً ولا يبتـل ، هذه الدعاوى خاضوا بحار الهوى دعوى وما إبتلّوا . فالذي أتمناه على كل أخٍ مـنكم إذا أراد أن يدعو إلى ا إياه أن ينطلقَ من معلومات سمعها أو من أفكارٍ نُقلت إليه أو من كتاب قرأه ،

إن فعلَ هذا لا يستطيع أن يؤثّر في إنسان ، أما إذا كانت له مع ا تجربة إذا كانت له مع ا أيام ، إذا كانت له مع ا أحوال ، إذا كان قد آثر جانب ا ، إذا كان قد ترك شـيئاً ، إذا ذاقَ طعم القُرب ، إذا ذاقَ حلاوة الحب ، إذا كان كذلك نقول له عندئذ ادع إلى ا ، كلامـك عندئذ يفعلُ في الناس فعلَ السحر ، وقد وصفَ النبي عليه الصلاة والسلام بأنه ساحر ولـيس بساحر ِلشدة قوة تأثيره من الناس ، من أين جاءت قوة التأثير من المعاناة من الحب الذي امتلأ في قلبه .

ومن سمع شيئاً من علوم القوم ولم يعمل به كان حكايةً يحفظُها أياماً ثم ينساها . أنا حينما كُنتُ في التدريس كنتُ أطلب من طلابي في أول درسٍ ألتقي بهم أقول لهم هناك وظيفة ، اكتبوا لي حدثاً بارزاً في حياتكم وقع فعلاً حينما أتلّقى الوظائف أجد العجـب العجـاب لأن الطالب إذا تكلّم عن مأساة عاناها أو عن شيء ملأ قلبه فرحاً يصبح أديبـاً، أسـلوب قـوي ، معاناة ، عاطفة صادقة ، فكل طالبٍ حينما ينطلقُ في كتابته من تجربة حقيقية من مأساة مـن حدث مفرحٍ ، يصبح في مستوى أدبي أرقى بكثير مـن مسـتواه الأصـلي ، لأن جوانحـه وعواطفه وخبراته كُلها تضافرت على إنجاح هذا الموضوع ، لذلك يبقى لكل طالبٍ في ذهني صورة .

وقالَ يحيى ابن معاذ : أشد شيء على المريد معاشرة الأضداد ، إذا كُنتَ فعلاً مريداً صادقاً أصعب شيء في حياتك أن تُضطر أن تُرافقَ إنساناً بعيداً عن ا عز وجل ، تشمئز من مزاحه ، ومن حركاته ، ومن سكناته ، ومن نظراته ، ومن تعليقاته ، ومن ملاحظاته ، أنتَ نقي كالثوبِ الأبيض وهو قذر أسود الثوبِ الذي امتلأ من المياه الآسنة و الوحول القذرة .. طبعاً .. أما إذا أقمتَ علاقات حميمةً مع ُأناسٍ بعيدين عن ا عز وجل وأحببتهم ، آثرتَ صحبتهم ، أمضيتَ معهم وقتاً ممتعاً ، فهذه علامةٌ خطيرةٌ جداً ، على أنك بعيد عن الإيمانِ بعداً كبيراً .. يعني أيعقل أن تخرج من الحمام وقد تألّقَ جسدك وارتديتَ أجمل الثياب وأنظفها وأشدها عطراً وأن تمر على ُأناسٍ يسبحون في ماء آسنٍ أسود .. ماء المجاري .. وروائح هذا الماء تزكم الأنوف ، أيعقلُ أن تتمنى أن تكون معهم وأنتَ بهذه النظافة ؟ لا يمكن ، أنتَ في نظافة وفي طُهرٍ وفي عطرٍ وفي نقاء وفي صفاء وهم في قذارة وفي دنسٍ وفي رجسٍ وفي نجاسة .

لذلك : إذا أَلِفتَ أهلَ الدنيا وأحببتهم وضحكتَ لمزاحهم وأنستَ بقُـربهم وأمضـيتَ معهم ساعات طويلة فاعلم علم اليقين أنك واحد منهم وأنك لا تنتمي إلى الدين إطلاقاً إنما هـو إدعاء فارغ ، أما إذا شعرتَ أنك لا تحتمل أن تُمضي ساعات طويلة مع أهل الدنيا مع أهـل الإعراض مع أهل الفسق والفجور . وا ِ الذي لا إله إلا هو مزحةٌ رخيصة .. .. إذا سـمعه المؤمن يكاد يخرج من جِلده من شدة التأذي ، بينما تجد ُأناساً آخرين ينثنون مـن الضـحك ،

يهتزون نشوةً لهذا المزاح ، علامةُ إيمانك أن هذا المزاح اللا أخلاقي القذر تأبـاه نفسـك. إن رأيت إنساناً متلاعباً كذوباً ذكياً ، إن أُعجبتَ به فأنتَ مثله أما إذا احتقـرت خداعـه ونفاقـه وانحطاطه فأنتَ مؤمن . لذلك : لابد من أن تكون متميزاً عن أهل الدنيا .

أشد شيء على المريد معاشرةُ الأضداد من كانوا ضده في السلوك . للموضوع تتمة رائعة جداً يقول : المريد الصادق أيةُ حركة يتحركها في الدنيا يزينُها بمقياسٍ واحـد ، هـل تُقربه من الله أم تُبعده ، حتى تجارته حتى حرفته حتى مهنته حتى حركتـه وسـكناته حتـى نزهاته حتى إجازاته حتى كل حركاته ، إن كانت حركته تُبعده عن الله عز وجل لا يفعلُهـا ، إذاً في كل نشاطه يقصد وجه الله عز وجل لذلك إلهي أنتَ مقصودي ورضاك مطلوبي .

قال : لابد من ثلاثة أشياء حتى تَبلُغَ ما تريد أيها المريد ، لابد من نفسٍ مستعدة قابلة والنفس لا تستعد ولا تقبل إلا إذا تعلّمت .. إذاً العلم هو الطريق الوحيد .. ، ولابد من دعـوة مستمعة ، أنت نفس مستعدة ودعوة حقيقية صحيحة أساسها الحق أساسها العدل أساسها الواقع أساسها الفطرة أساسها المنطق ، ولابد من أن يكون الطريقُ خالياً من العوائق ، فـإذا أزلـتَ العوائق ووفقتَ إلى دعوة صحيحة وكُنتَ مستعداً لقَبولها بسبب العلـم الـذي تعلمتـه صـار الطريقُ إلى الله سالكاً والوصول محققاً .

آخر فكرة في الدرس : هو أن المريد تنتابه حالتانِ أساسيتان حالة القـبض وحالـة البسط، الحقيقة القبض يأتي من الخوف والبسطُ يأتي من الرجاء ، القبض لسببين إما لتقصـيرٍ أو لمعصية أو لترك حقوق لا تؤدى وهذا السبب يقتضي التوبة والتصحيح ، وإما أن لا يدري المريد لهذا الانقباض سبباً عندئذ عليه أن يصبر فلعل في هذا حكمةً تتضح له بعد حين ، وأما البسط يشعر بنشوة بإقبال بمعنويات مرتفعة جداً هنا منزلق أن يتيه على الناسِ بهذا الحـال ، أن يعجب بنفسه، أن يرى نفسه فوقَ الناس ، عندئذ ينزلقُ من هذا الحال المريح إلـى حـالٍ أخرى لا تُرضي الله عز وجل ... فإذا جاء الانقباض فابحث عن السبب فإن عرفته فتُب منـه وإن لم تعرفه فاصبر على حكمة الله عز وجل حتى ينجلي الموقف ، وإن جاء الانبساط فإياك أن يستخفّك الانبساط فتقع في زهوٍ أو في كبرٍ أو استعلاء على الناس وعندئذ تكون قد امتحنت ورسبتَ في الامتحان .

ملخص الملخص : يجب ألا يخرجك البسطُ عن الاستقامة ولا أن يخرجـك البسـطُ أيضاً على أن لا تكون أديباً بين يدي الله عز وجل . هذه لمحةٌ سـريعةٌ عـن منزلـة الإرادة أُلخصها بكلمتين : إذا كان بينما أنتَ فيه وبين ما تتمنى أن تكونه مسافةٌ كبيرة فاعلم أن هـذا بسببِ ضعف في إرادتك وضعفُ الإرادة في الأصل نقص في العلمِ .

عدنا إلى أن العلم هو الطريق الوحيد إلى الله عز وجل وما من طريـقٌ إلـى الله إلا طريقُ العلمِ فإذا أردتَ الدنيا فعليك بالعلم وإذا أردتَ الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معـاً

فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كُلك فإذا أعطيت بعضك لم يعطك شـيئاً ويظلُ الإنسان عالِماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل .

والحمد لله رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم .... مع الدرس التاسع عشر من دروس مـدارج السـالكين و منزلة اليوم منزلة المراقبة ، هذه المنزلة ذاتُ أهمية كبيرة في طريق الإيمان لأن الإنسان إذا أيقن أن ا يراقبه استقام على أمره فسعد في الدنيا والآخرة ، الآيات القرآنية المتعلقـةُ بهـذه المنزلة يقول ا عز وجل :

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

(سورة البقرة)

" **وَاعْلَمُوا أَن اللهَ يَعْلَمُ مَا في أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ** " يعني يجب أن تعلم أن ا يعلـم ، فإذا علمتَ أن ا يعلم أخذتَ الحذر من أن تعصيه وهذا هو سر النجاح مع ا عز وجل .

آية ثانية من آيات المراقبة وهي قوله تعالى :

لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

(سورة الأحزاب)

لاشك أن أحدنا إذا علم أنه مراقب فإنه يبالغُ في الانضباط ، يبالغُ في مراجعة نفسه في كلماته ، وفي حركاته ، وفي سكناته ، هذا إذا راقبه إنسان والإنسـان مراقبتـه محـدودة يستطيع أن يكتب ما قُلت وأن يصور ما تحركّت ولكنه لا يستطيع أن يكشف ما في نفسك ولا ما في ذهنك ، المراقبة المحدودة من قِبل إنسان ضعيف مثلك تدعوك إلى الانضباط التام فكيف لو علمتَ أن الواحد الديان يراقبك ، أن ا عز وجل الذي يعلم السر وأخفى مطّلـع عليـك ، ناظر إليك ، يعلم سرك و جهرك ، ما أخفيتَ وما أعلنت ، ما أبطنتَ وما أظهرت ، " **وَكَـانَ**

اللهُ عَلى كُلِ شَيْءٍ رَقِيبا " لا عليك فقط بل على خصومك وعلى سائر المخلوقات . وآيةٌ ثالثة من آيات المراقبة :

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾

(سورة الحديد)

وهذه معيةٌ عامة ، الله سبحانه وتعالى مع كل مخلوق مؤمن كان أم كـافر ، وآيـةٌ رابعة يقول الله عز وجل :

أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾

(سورة العلق)

مطّلع عليك .. وآيةٌ خامسة :

وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾

(سورة الطور)

يعني .. الإنسان في عين الله ، بمعنى أنه يراه ، وفي معنى آخر أنه يحفظه ، نقولُ هذا الابن في عين أمه يعني أمه تحوطه بالرعاية والاهتمام بمعنى أنها تعلم أين هـو ومـاذا يفعل وبمعنى أنها تحوطه بالرعاية والاهتمام . الآية الأخيرة في هذا الباب :

يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾

(سورة غافر)

وما من مخلوق على وجه الأرض يستطيع أن يكشفَ خيانةَ العين إلا الله ، هو وحده يعلم خائنة الأعين ، وأنا دائماً أسوق هذه الآية ذاك المثل : طبيب مسموح له أن ينظـر إلـى

جسد المرأة لكن الشرع سمح له أن ينظر إلى موضع العلّة فقط فلو سبقته عينه إلى مكانٍ آخر هذا شيء لا يستطيع مخلوقٌ أن يطلّع عليه إلا ا .

" **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ** " وقد تكون في بيتك وحدك تفتح نافذةُ جارك تقفُ أمامها امرأة ، لا يمكن لأحد أن يطلّع على هذه المخالفة لو ملأتَ عينيك منها إلا ا ، فإذا نظـرت يعلـم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور .

إذاً : " **وَاعْلَمُوا أَن اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ** " ، " **وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبا** " ، " **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ** " ، " **أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَن اللهَ يَرَى** " ، " **فَإِنكَ بِأَعْيُنِنَـا** " ، " **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصدُورُ**" كل هذه الآيات تتضافر ليكون منها منزلة يجـب أن يتحلّى بها المؤمن وهي منزلة المراقبة يعني أن يشعر وأن يوقن أن ا يراقبه .

إلى السنّة :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ النبِي صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ بَارِزا يَوْما لِلناسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ مَا الإِيمَانُ قَالَ الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ قَالَ مَا الإِسْلامُ قَالَ الإِسْلامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصلاةَ وَتُؤَدِيَ الزكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ قَالَ مَا الإِحْسَانُ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنهُ يَرَاكَ ... *

حتى في بعض الأدعية النبوية : يقول عليه الصلاة والسـلام : " اللهـم اجعلنـا نخشاك كأننا نراك ".

المراقبة دوام علمِ العبد وتَيقُنه بإطلاّع الحق عليه سبحانه وتعالى على ظاهره وعلى باطنه ، فاستدامته لهذا العلمِ واليقين هي المراقبة .

سؤال الآن .. لو أنه من حينٍ لأخر شعرتَ أن ا يراقبك هل أنتَ في حال المراقبة .. الجواب : لا .. إذا دام هذا الشعور وشعرتَ أن ا يراقبك في كل أحوالك ، في حركاتـك وسكناتك ، في كل نشاطاتك ، في خلوتك في جلوتك ، في لهوِك في جِدك ، في عملـك فـي بيتك ، في الطريق ، إذا سافرت إلى أماكن بعيدة .... إذا استدام حالُ المراقبـة ، إذا اسـتدام شعورك أن ا يعلم وأن ا مطلّع عليك وأن ا يراقبك ، فأنتَ في مرتبة من أرقى المراتب ومن أهم المراتب ومن أكثرها فائدةً لك إنها حالُ المراقبة .

المراقبة ثمرةٌ من ثمار العلمِ لأن ا سبحانه وتعالى رقيب عليك لو دخل إنسان إلى متجر وكان خبيراً بما في هذا المتجر من أجهزة وآلات ورأى آلات تصوير وضعت في زوايا متعددة من المتجر وقرأ لوحةً كبيرة كُتب عليها : الصالة مراقبة تلفزيونياً ، إذا قـرأ اللوحـة ورأى الأجهزة أيعقل أن يدخلَ إلى زاوية ميتة فيأخذُ حاجةً ويضعها في جيبه .. مسـتحيل .. هنا أيقن أنه مراقب . موظفٌ في شركة ذهب إلى بلد أجنبي ودخلَ صالةً من صالات البيـع ورأى حاجةً غالية الثمن خفيفة الوزن وشعر أن أحداً لا يراقبه فأخذها ووضعها في جيبه وعند

الباب أُلقي القبض عليه وسيقَ إلى سفارته لينال جزاء عمله وكانت فضيحة وهو موظفٌ على مستوى عالٍ ، إذاً لأنه ظن أن أحداً لا يعلم تورطَ في هذه المخالفة ، فلو علم أن القاعة مراقبة وأن هناك آلات تصوير تُصور وتُسجل أو أن هناك لوحة كُتب عليها : القاعة مراقبـة ، أنـا أضرب لكم أمثلة بسيطة ، إذا شعرتَ أن ا مطّلع عليك وأنتَ في البيت من لم يكن لـه ورع يصده عن معصية ا ـ إذا خلا لم يعبأ ا بشيء من عمله .

إذاً كل عمله نفاقٌ ، ورياء . أما إذا كانت خلوته كجلوته سره كعلا نيته ، ظـاهره كباطنه ، فهذا الذي ينجح ويفلح، ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلّط ، مخلّـط : هو الذي خلطَ عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

الآن إلى أقوال العلماء في مقام المراقبة أو في مرتبة المراقبة أو في منزلة المراقبة كما وردت في مدارج السالكين ، قيلَ : من راقب ا َ في خـواطره عصـمه فـي حركـات جوارحه .. أحياناً الإنسان يسمح لخواطره أن يردها أشياء لا تُرضي ا يتصور معصـية ، يتخيل أنه يعصي ا ، يسوح خياله في متاهات البعد عن ا . .. إذا سمح لخواطره أن تجولَ في المعاصي أغلب الظن أن هذه الخواطر إذا تُركت على عواهنها انقلبت إلى معاص . أنـا أقول لكم كلاماً واضحاً . ا سبحانه وتعالى لا يحاسب إلا على العمـل ولكـن إذا سـمحت لخواطرك بالشطط ربما زلّت قدمك فانقلبت الخواطر إلى عمل ، وشيء آخر هـو أن معظـم الذين عصوا ربهم معاصٍ كبيرة هم في الأساس ما أرادوا أن يعصوا هذه المعصـية ولكـن خاطر ، فنظرةٌ ، فكلام ، فابتسام ، فموعد ، فلقاء ، ففاحشةٌ . أساسها خاطر.

فلذلك من باب الوقاية ومن باب الورع لا تسمح لخواطرك أن تجولَ في المعاصـي مع أنك لا تُحاسب على الخواطر لكن نخافُ أن تدعها تجول عندئذ تضعفُ عن مقاومتها فإذا أنتَ أمام معصية . مرة ثانية : من راقب ا َ في خواطره عصمه في حركات جوارحه .

بالمناسبة في قول لطيف : من ترك ما أُشتبه عليه من المعاصي كان ِلمـا اسـتبان أترك . إذا قضية شُبهة تركها ورعاً هو من بابٍ أولى أنه لن يقترفَ المعاصي البينة ، ومـن وقع فيما أُشتبه به كان ِلما استبان أوقع ومن تجرأ وارتكب معصيةً يعد شُبهةً عند الناس فـي المرحلة التالية سوف يتجرأ ويقع في المعصية البينة الواضحة .

قالَ الجنيد : " من تحقق في المراقبة خافَ على فوات لحظة من ربـه لا غيـر " . يعني .. إذا كُنتَ في حال المراقبة وشعرتَ أن ا معك دائماً وأنه مطّلع عليك وأنه يعلم سرك ونجواك خفتَ أن تُضيع لحظةً من حياتك . وقال ذو النون : علامة المراقبة إيثار ما أنزلَ ا وتعظيم ما عظّم ا وتصغير ما صغّر ا . يعني .. لاحظ نفسك ، قيمك ، مقاييسك ، تنطبق على الكتاب والسنّة ، أحياناً تُعظّم شيئاً حقّره ا معناها قيمك غير إسـلامية ، قيمـك غيـر رحمانية ، وأحياناً في أشخاص إذا خرج من بيته بثياب النوم يعد هذا عمـلاً همجيـاً غيـر

حضاري عملاً بشعاً قبيحاً جداً ، أما إذا خرجت امرأته ترتدي أحدثَ الثياب وتُبرز من مفاتنها ما ينبغي أن يخفى يعد هذا رقياً ... انظر للإنسان ... هذا عظّم ما حقّره ا وحقّر مـن مـا عظّمه ا . فيجب أن تُلاحظ أن تكون مقاييسك وقيمك وزوايا النظر متوافقةً تماماً مع ما فـي الكتاب والسنّة ، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول : " طوبى لمن وسعته السنّة ولم تستهوه البدعة ".

وقالَ إبراهيم الخواص : " المراقبة خلوص السر والعلانية ِ عز وجل من الـداخل ومن الخارج ، وقيلَ أفضلُ ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريق المحاسبة والمراقبة وإيقـاع عمله مع الحكم الشرعي "، أن تُراقب نفسك .. بعد المراقبة في محاسبة .. راقبنا هذا الطالب إذا به يغُش في الامتحان نكتب تقريراً نعطيه الصفر .. إذا راقب نفسه ثم حاسـبها وبعـد أن حاسبها انتقل إلى مرحلة إيقاع عمله وفقَ الشريعة .. راقب وحاسب ووفقَ بين حركته وبـين العلم الشرعي ..

قال : إذا جلستَ للناس فكُن واعظاً لقلبك ونفسك ولا يغُرنك اجتماعهم عليك فـإنهم يراقبون ظاهرك وا يراقب باطنك . لا تغتر أن يجتمع الناس عليك لأنهم يملكون أن يراقبوا ظاهرك وأنت طبعاً ذكي سوف تجعل من ظاهرك ظاهراً صالحاً ، لكن الواحد الديان يراقـب قلبك فاجهد أن تُحاسب نفسك قبلَ أن يحاسبك ا عز وجل .

قال العلماء مجمعون على أن مراقبة ا تعالى في الخواطر سـبب ِلحفظهـا فـي حركات الظواهر " فمن راقب ا في سره حفظه في حركاته في سره وعلانيته ". أنـتَ فـي حال المراقبة تعبد ا باسم الحفيظ والرقيب والعليم والسميع والبصير هذه الأسـماء الحسـنى الخمس كُلُها تؤدي معنى المراقبة .. إذا تكلّمت فهو سميع ، وإذا تحركت فهو بصـير ، وإذا أضمرت فهو عليم ، وإذا خرجتَ من بيتك فهو الرقيب ، وإذا عملتَ عملاً فهو الحفيظ ، فـي نسخة كلّ حركاتك مسجلّة عند ا عز وجل .

حفيظٌ ورقيب وبصير وسميع وعليم . الحركة بصير ، الكلام سميع ، الإضمار مـا في الداخل عليم ، الحفيظ الأعمال مسجلة موثّقة ، المراقب يعني لك بالمرصاد .

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾
هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾

(سورة الفجر)

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ
مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ
ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾
فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

(سورة الفجر)

.. الآية دقيقة جداً ليس فقط بالمرصاد ، يعاقب على ما اقترفته يداك ، معنى بالمرصاد أنه يراك وسوفَ يعاقبك ، الآن الحاكم يكتفي أن يضبط مخالفات الناس فقط .. .. القضية سهلة جداً يكفي أن يكتشف أنك تبيع بسعر أعلى .. في ضبط في سجن وفي حكم عرفي ، فلما ربنا يقول "**إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَاد** " من لوازم أنه بالمرصاد .. "**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَاد** "

من ألطف ما وصفَت به هذه المنزلة .. منزلة المراقبة .. أن مراقبة الحق تعالى في السير إليه على الدوام بين تعظيمٍ مذهل ومداناة حاملة وسرورٍ باعث ، لاحظ نفسك إذا جاءك ضيف له حجم معين بالمجتمع ، صديق يحمل شهادة ثانوية متفوق فدخلَ عليك أستاذ جامعي لاحظ نفسك تستقبل الأستاذ الجامعي وتنظر إليه وتُحدثه وتنصرفُ إليه بكليتك وتنسى أن في الغرفة طالب آخر .. ماذا حصل .. هذا الإنسان الثاني صرفك عن الأول فإذا أنت في بعض ساعاتك في عملك في حرفتك في مكتبك في متجرك في معملك في بيتك في شيء صرفَك عن أن الله يراقُبك هذا الحال حالٌ خطيرة .... من علامة صدق المراقبة أن شيئاً مهما بدا عظيماً لك لا يصرفُك عن ملاحظة عظمة الله لك التي تُراقُبك .

لذلك .. أهل الله ، أهلُ القُرب ، المؤمنون الصادقون ، لا تغيب عظمة الله عن أذهانهم أبداً بدليل أن هذا الاستعظام لله عز وجل لا يصرفهم إلى غير الله . فهذه الحال امتلاء القلب من عظمة الله عز وجل بحيثُ يذهلُ عن تعظيم غيره .. دخلت غرفة.. على الطاولة جريدة تقرؤها ، في قطعة ثمينة لا تمسكها لا تُقلّبها ، في شخص آخر لا تلتفتُ إليه . ألاحظ أحياناً تُقابل إنساناً في نظرك مهم تجد الجلسة بأدب والاتجاه نحوه بأدب .. لا يعبث بمسبحة أمامه ولا يقرأ جريدة لأنه شعر أن هذا الذي أمامه شخص مهم بيده مثلاً قضية أساسية فلماذا نحن مع مخلوق في مقياس المجتمع عظيم نقفُ متأدبين ننصرفُ إليه بكليتنا لا نعبثُ بسبحة ولا نقرأ جريدة ولا نلتفتُ عنه إلى غيره ؟ لذلك حال المراقبة من لوازمه ألا تنصرفَ عن تعظيم الله عز وجل إلى تعظيم من سواه . من لوازم هذا الحال سير إلى الله ، متابعةٌ لهذا

السير ، حضور القلبِ مع ذلك ، تعظيم الله عز وجل ، الذهول بعظمته عما سواه .... هذه كلها من لوازم المراقبة ومن فقرتها الأولى التي هي التعظيم المذهل.

تجد ذنب المنافق كأنه ذُبابة يقول لك بعد ارتكابه الذنب ماذا حصل ؟ .. كل المستهترين بالقيم الدينية إذا سألتهم لماذا فعلتم هذا يجيبون هل خربت الكرة الأرضية ؟ إذا ملأ عينيه من حرام ..وجد مبرراً، المعصية سهلة عنده ، وكلما ارتقى مقامك عند الله يصبح الذنب كأنه جبلٌ جاثم على صدرك ، كُلما صغُر الذنب في عينيك كُلما قل مقامك عند الله وكُلما كان الذنب كبيراً كَبر الذنب في عينيك كان مقامك عند الله كبيراً وصغُر هذا الذنب . القضية دقيقة جداً.

.. إنسان يرتكب مخالفة ، يقترف معصية ، وينام مرتاحاً لا يقلق .. ؟ إذا الإنسان تكلّم كلمة وشعر بثقلها ويوجد إنسان سجلّها عليه ، لا ينام ليلتها .. يتحول.. لا حول ولا قوة إلا بالله .... أترى أن الله عز و جل عظيم عظمةً بحيثُ لو ابتعدتَ عنه أو وقعتً في معصيته تشعر كأنك سقطتَ من السماء إلى الأرض ؟ .. هكذا حال المؤمن .

الآن في موضوع أتمنى أن لا يبدو لكم خيالياً قالَ : أن تشعر أن الله يراقُبك وأنه معك وأنك مستقيم على أمره ، قال هذا الشعور يبعثُ في نفسك فرحةً عظيمة ولذّةً لا توجد في أي شيء في الدنيا . يعني اسأل أهل الدنيا الذين أكلوا أطيب الأطعمة في أرقى الأماكن وفي أجمل المناظر ، يقول لك طعام لا يوصف ، والذين غَرِقوا في الملذات إلى قمة رأسهم والذين حصلوا المجد من كل أطرافه هؤلاء لو عرفوا الله وذاقوا طعم القُرب يقسمون بالله أن كل اللذائذ التي تمتعوا بها من قبل لا تَعدلُ لحظة إقبالٍ على الله عز وجل .

لذلك: إذا المؤمن قال وحلَفَ يميناً معظّماً والله ليس في الأرض من هو أسعد منّي إلا أن يكون أتقى مني لا يحنثُ بيمينه ، أنتَ حينما تتصل مع الأشياء الجميلة من طعامٍ من شرابٍ من جوٍ بارد في الصيف من جوٍ دافئٍ في الشتاء من مناظر خلاّبة .. يعني أي شيء الله أعطاه مسحة من الجمال الله هو الجميل . أحياناً ربنا عز وجل يتجلّى على البحر بالجمال يقول لك سهرنا سهرة على البحر لا أنساها أمواج لطيفة نسمات عليلة ، نركب بالبحر نشعر بالسرور مياه صافية تكاد ترى قعر البحر ، صفحة الماء كالزيت ، هذا تجلّى الله على هذا البحر باسم الجميل ، فإذا تجلّى عليه باسم الجبار يكاد القلب ينخلع .

أيام ربنا له أفعال هذه باسم الجميل ، تنظر في وجه طفلٍ بريء لا ترى في هذه الأرض كُلها أجمل من هذا الوجه ، كُلُه صفاء ، كُلُه براءة ، كُلُه ذاتية ، وأحياناً تنظر إلى وجه كُلُه نقمة ، في أفعال .. البراكين .. يقول لك ٨٠ ألف إنسان تحت الأنقاض ، مدينةٌ أصبحت للأشباح ، أصبحت أثراً بعد عين ، تُحس اسم الجبار . أيام تنظر إلى غابة في الربيع تسمع أصوات العصافير تشعر باسم الجميل ، فربنا أسماؤه كثيرة جداً يتجلّى في كل أفعاله

ببعض أسمائه ، أيام اسم اللطيف يقول لك من هنا مرت الرصاصة شعري احترق .. الشـعر .. لكل شيء حقيقة وما بلغَ عبد حقيقةَ الإيمان حتى يعلم أنما أصابه لم يكن ليخطئه .

وقف في رأس الوادي السحيق ، معلوماته بالقيادة ضعيفة المقود مضبوط نحو الـوادي وقبل أن يشعل المحرك أرخى المكبح فانطلقت نحو الوادي ..(شخص أعرفه وزرتـه فـي البيت) إلى أسفل الوادي هو وزوجته وأولاده ولم يصابوا إلا برضـوضٍ وبعـض الكسـور الخفيفة ومن ينظر إلى السيارة يقول أنه لابد من أن ركابها ماتوا جميعاً .. اسم اللطيف لطف ا عز وجل .. أيام تجد اسم اللطيف اسماً واضحاً جداً ، أوضح شاهد على اسم اللطيف حينما يذوب سن الطفل الصغير شيئاً فشيئاً ، أنت مهما كنت طبيباً ناجحاً مهما كنت رحيماً لابد مـن إبرة بنج ، لابد من غرز الإبرة بالنيرة ، وإذا كان البنج غير ناجح وأثناء قلع الضرس وأثناء قطع العصب يخرج المريض من جلده من الألم .. أليس كذلك .. أما ربنا لطيـف .. انظـر كيفَ تُقلع أسنان الطفل الصغير الأولى وهو يأكل يجد كأنه يوجد في بحصـة بفمـه فيكـون ضرسه كيف انقطع العصب ، كيف ذاب السن ؟ اسم اللطيف . الهواء يدلُّ على اسم اللطيـف بيننا لا يحجبنا ، يعني لا شيء الهواء ، الهواء يحمل طـائرة ٣٥٠ طـن ، ١٥٠طـن وزن الطائرة ، ١٥٠طن وزن الوقود و٥٠ طن وزن الركاب ، وعلى الهواء محمولة ، الهواء إذا تحرك يقلع مدناً بكاملها .. عندي صور مدن كبيرة أصبحت أثراً بعد عين قاعاً صفصفاً

مر إعصار سيليكون سرعته ٨٠٠ ميل بالساعة ، واحد كان ساكن ببيت في مدينـة جاءها إعصار ما رأى من بيته إلا محرك سيارته بعد ٥ كيلو متر عرفه من الرقم المحـرك .... تَهب نسمات أحياناً تشعر بسرور لا يوصف .. اسم اللطيف .. نفس الريـاح ، سـرعة شديدة تُدمر كل شيء بأمر ربها .

اسم المراقبة إذا أنت شعرت أن ا يراقبك من ثمار المراقبة استقمتَ علـى أمـره تماماً وأحسنتَ إلى خَلقه وأقبلتَ عليه ، يجب أن تشعر بسرورٍ ولذة لا تجدهما في شيء آخـر ، فالذين أكلوا أطيب الطعام والذين سكنوا أفخر البيوت والذين تزوجوا أجملَ الزوجات والذين علا شأنُهم حتى صاروا من علية القوم اسألهم جميعاً .. لو أن هؤلاء عرفـوا ا بعـد ذلـك وأقبلوا عليه اسألهم وأنتم في أوج عظمتكم ، وأنتم في أوج قوتكم ، وأنتم في أوج اسـتمتاعكم بالدنيا هل ذُقتم هذه السعادة التي الآن تعيشونها ؟ يقولون وا ِ يملء فمهم : لا وا .. حتى أن بعض البلاد الإسلامية زارها رجل سائح فوجئ أن كُل القبور عليها تواريخ قليلة جداً ، هـذا عمره سبع سنوات ماتَ في السنة السابعة ، هذا في السنة الخامسة ، هذا في السـنة السـابعة عشر ... شيء عجيب ... نعرف ٨٠ ، ٦٥ ، ٤٠ ، وستة .. هذه القريـة لا تـؤرخ حيـاة الإنسان إلا بعد أن يعرف ا ، هذا عرفَ ا في الـ ٤٥ إذاً الآن بدأت حياته مات في الـ ـ

٥٥ يعني عمره عشر سنوات ، يعني العمر الذي تمضيه في الجهل وفـي المعصـية حينمـا تعرفُ ا .. يتمزق القلب كيفَ أمضيتَ العمر في المعصية .

إذاً : تجد اللذّةَ وفرحة القلب ، وقُرةَ العين ، وليس له نظير يقاس به ، وهـو حـالُ أهلُ الجنة ، حتى قالَ بعض العارفين إنه لتَمر بي

أوقاتٌ أقولُ فيها إن كان أهلُ الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيشٍ طيب . حتى أن بعضهم فهـم كلام النبي عليه الصلاة والسلام : أبو بكرٍ في الجنة. ما فهم هذا الكلام على أنه سوفَ يـدخلُ الجنة فهم هذا الكلام على أنه الآن في الجنة ، في جنة القُرب ، هو سيدخلُها لكن الآن في جنة .

وأنا أقول لكم اجهد مع ا في طاعته وفي التقربِ إليه وفي خدمة عباده وفي وقف كل جهدك وعضلاتك ووقتك وطاقتك وعلمك وأهلك .. أن تقفَ كل هذا في سبيل ا ، فـإذا سمح لك بالقُرب ، إذا تجلّى على قلبك ، إذا ألقى في قلبك السكينة عندئذ تعرفُ طرفاً من مقام أهل الجنة . وأنا أقول لكم الآن كلمة دقيقة : أحدكم لو التقى بإنسان مـن أصـدقائه القُـدامى وجلس معه ساعة من حديثه يشعر أنه مقهور ، أنه ضائع ، أنه تائه ، أنه شقي ، أنه خائف ، أنه متمزق ، أنه يخافُ كل شيء ، أنه يحس بالقهر ، اجلس مع مؤمن تجد معنوياتـه عاليـة كثيراً ، يشعر أن خالقَ الكون يحبه ، يشعر أنه في عين ا في رعايته ، يشـعر أن ا لـن يتخلى عنه ، تبدل الضائع أخي لازم نعمل فحص دوري بسبب السرطان شيء يخيف هذا لـو ليس معه سرطان ولو عاش ٨٠ سنة دون سرطان ، هذا ذاق طعم السرطان ٨٠ سنة ، لأنك إذا كُنتَ تخافُ شيئاً فأنتَ فيه ، أنتَ من خوف المرض في مرض .

أهلُ الدنيا حينما ابتعدوا عن ا عز وجل قلقوا يخافون أمراضاً خبيثة ، يقول لـك أخي في إحصاء مخيف في أمريكا كلّ ستة أشخاص يموت واحد بمرض القلب ، ثلث الوفيات من أمراض القلب ، وكل النساء يخافون من سرطان الثدي، تجد فحصاً دورياً .. وا شـيء يخيف .. وفي أيضاً أمراض الدماغ يقول لك يخاف انفجار بالدماغ .. سبات . .. انتهى .. إذا كل واحد يقرأ عن الأمراض لا ينام الليل ، يخاف من أمراض المعدة والأمعاء ، أو أمـراض القلب والشرايين ، أو أمراض الدماغ والأعصاب ، أو يخاف إنساناً في مركبته ينام يدخل بـه يدهسه ينقطع عموده الفقري يصبح مشلولاً ... ، فإذا الإنسان بعد عن ا عز وجـل فالحيـاة موحشة ، شيء مخيف جداً ، انظر للمؤمن إذا سافر يقول يارب أنـتَ الرفيـق فـي السـفر والخليفةُ في الأهل والمال والولد ، أحياناً يصاب الابن بحرق يصبح هذا الابن مصدر شـقاء للأسرة كلها مصدر شقاء طوال حياته. فأنت تخاف من التشوه يأتيك مولود مشوه لما تخـاف من المرض تمرض ، أما إذا كُنتَ مع ا .. ا عز وجل يطمئُنك " **فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** " .

أنا أقول لكم وا يا أيها الأخوة زوال الكون أهون على ا من أن يتخلّى عن مؤمن أو أن يضيع مؤمناً أو أن يجهد المؤمن في طاعة ا ويجعله في مؤخرة الركب ، ليس هذا من أخلاق ا عز وجل .

يا أخوان : كلمة يعني وإن كانت قاسية تحمّلوها قال من لم يجد هذا السرور ولا شـيئاً منه فليتهم إيمانه وأعماله ، إذا صلاته شكلية ، تلاوته شكلية ، ولا مرة بكى ولا مـرة ، ولا مرة قلبه اضطرب حباً عز وجل ، ولا اقشعر جلده ولا مرة شعوراً بخشية ا عز وجل ، ما شعر أنه هو غالٍ على ا ، كل العبادات شكلية يؤديها ، قال من لم يجد هذا السـرور ولا شيئاً منه فليتهم إيمانه وأعماله فإن للإيمان حلاوةً من لم يذُقها فليرجع وليقتبس نوراً يجد بـه حلاوة الإيمان :

يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾

(سورة الحديد)

أتحبون الدليل ..

عن الْعباسِ بنِ عبد الْمطلبِ أَنه سمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقُولُ ذَاقَ طَعم الإِيمانِ من رضي بِالله ربا وبِالإِسلامِ دينًا وبِمحمد رسولا *

ذاق .. الإيمان له طعم ، إذا أكلت قطعة حلوى من نوع جديـد مـن الكيلـو ٣٥٠ ل٠س وأكلت فجلة .هل يستويان مذاقاً .. " **ذاقَ طعمَ الإيمان من رضي با ربـاً وبالإسـلام ديناً وبمحمد رسولاً** "، إذا ما في ذوق راجع نفسك ، أعد حساباتك ، راقب أين الخلل ، أيـن المعصية ، أين يوجد الشرك ، أين يوجد تعلّق في الدنيا ، أين التقصير ... راقب ... إذا مـا شعرتَ بهذا القُرب وما شعرتَ بهذا الحب وما شعرتَ بهذا السمو وما شعرتَ بهـذه السـعادة راجع حساباتك .

حديثٌ آخر :

عن أَنَسِ بنِ مالِك رضي الله عنْه عنِ النبِي صلى الله علَيه وسلم قَالَ ثَلاثٌ من كُن فيه وجـد حلاوةَ الإِيمانِ أَن يكُون الله ورسولُه أَحب إِلَيه مما سواهما وأَن يحب الْمرء لا يحبه إِلا لِلـه وأَن يكْره أَن يعود في الْكُفْرِ كما يكْره أَن يقْذَفَ في النارِ *

إذا واحد من الأخوان المؤمنين له رفيق لا يصلّي وعاصي وهو في أعلى درجات الغنى والرفاه والبحبوحة ، إذا قالَ هذا الصديقُ الأول المستقيم على أمرِ ا هنيئاً لفُلان ، أقول لكم إيمانه صفر ، لو أنه ذاق طعم الإيمان لما تمنى أن يكون مكانه ، أقول لكم هذا الكـلام : إذا تمنيتَ لساعة واحدة وأنتَ في أشد حالات الحرمان من المال من الصحة إذا تمنيتَ لساعة واحدة أن تكون مكان إنسانٍ صحيح الجسم لكنه عاصٍ ، قوي الجسم لكنـه عـاصٍ ، رفيـع المكانة لكنه عاصٍ ، كثير المال لكنه عاصٍ ... إذا تمنيتَ لساعة واحدة أن تكـون مكانـه ، بحالاته ، بمعاصيه، اعلم علم اليقين أنك لا تعرفُ ا وما ذُقتَ من الإيمانِ شيئاً وكل عملـك مردود عليك ، هكذا قالَ النبي : " **من كانَ ا ُ ورسولهُ أحب إليه مما سواهُما** ".

قالت له زوجته : أريد كذا وكذا قال اعلمي يافُلانة أن في الجنة من الحورِ العين ما لو أطلّت إحداهن على الأرض لغَلَبَ نور وجهها ضوء الشمسِ والقمر فلأن اُضحي بِكِ مـن أجلهن أهون من أن اُضحي بهن من أجلك . المؤمن حياتـه غيـر قابلـة للمسـاومة لأن ا َ ورسوله أحب إليه مما سواهما ، مهما أوذي في ا .. لا يعصي ا وتجد إنساناً آخر علـى كلمة قيلت له ترك الصلاة .. لا أريد .. على كلمة حذّره بها فاسق ترك دروس العلم كُلها .. يرى ذلك راحة له ..

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾

(سورة الحج)

ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا ، لك أخ تُحبه ، لستَ زبون عنده وليس هو زبون عندك ولا في قرابة ولا في صداقة ولا في مصالح ، إطلاقاً لا تُحبـه إلا لا علاقـة دنيوية بينك وبينه هذه علامة الإيمان ، ومن يكره أن يعود في الكُفرِ بعد إذ أنقذه ا كما يكره أن يلقى في النار . يقول أحد العلماء : إذا لم تجد بالعمل حلاوةً في قلبك وانشراحا فاتهمـه .. اتهم قلبك .. فإن الرب تعالى شكور .. يعني .. لابد من أن يثيب العامل على عمله في الـدنيا من حلاوة يجدها في قلبه . يمكن وضعنا يدنا على معنى دقيق جداً من معاني الثواب .. أخي لك ثواب اعمل .. شغلة فيها ثواب ، كلمة ثواب يرددها الناس عشرات المـرات بـل مئـات المرات في اليوم الواحد .

قبلَ أن ننُهي الدرس لابد من توضيح معنى الثواب ، مرةً ثانية كلمة الثواب تتناقلها الألسن كُل يومٍ عشرات بل مئات المرات ، هذه الشغلة فيها ثواب ، اعمل هكذا لك ثواب ، هذا العمل ا يثيبك عليه ، ما معنى الثواب ..؟.. هنا في معنى دقيق .. ا عز وجل من أسمائه الشكور ، معنى شكور أنك إذا عملتَ عملاً صالِحاً ألقى في قلبك سروراً وطمأنينةً وسكينةً وسعادةً كأجرٍ فوري يقدمه لك معجل ، فإذا عملتَ عملاً صالحاً ولم تشعر بشيء إطلاقاً فاعلم علم اليقين أن هذا العمل فيه خلل ، إما في النية أو في القصد أو في مطابقته للسنّة ، إن لم تشعر بسعادة لا توصف من خلال أعمالك الصالحة التي تبتغي بها وجه ا عز وجل معنى ذلك أن أجر ا عز وجل المعجل لم يصلك ، إذا الأجر لم يصل معناها العمل لم يقبل ، معناها العمل لم يرفع إلى ا عز وجل.

فإذا الإنسان ابتغى بعمله إرضاء الناس أو ينتزع إعجاب الناس أو أن يثني الناس عليه يفعلُ أعمالاً صالحةً كالجبال ومع ذلك قلبه متصحر .. وا أخدم كثيراً ولا أُحس بشيء.. المعنى اللغوي ما معنى ثاب إلى رشده ، يعني عاد الثواب يعني عاد ، يعني أنتَ إذا فعلت عملاً صالحاً العائد الذي يعود عليك هو شعورك بالسعادة لذلك المؤمنون الصادقون إذا عملوا الصالحات تمتلئُ قلوبهم سعادةً ، وما السعادة التي تمتلئُ بها قلوبهم إلا أجر معجلٌ أعاده ا عليهم في الدنيا .

معنى الثواب هذه السعادة التي يشعر بها المخلصون المستقيمون المنضبطون فإذا الإنسان له أعمال صالحة كثيرة وكبيرة وما شَعر من خلالِها أن قلبه قد اهتز طرباً وانتشى سعادةً فليراجع نفسه مرةً ثانية .. هذا حال المراقبة .. يعني .. إذا شعرتَ أن ا يطلّع عليك واستقمتَ على أمرِه وأخلصتَ له جاءك الإحسان ، جاءك السرور ، جاءتك السعادة التي هي مشجع كبير في الدنيا . وإن شاء ا تعالى ننتقل في درسٍ قادمٍ إلى منزلة جديدة من منازل مدارج السالكين في فَهمِ معنى إياك نعبد وإياك نستعين .

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

... لأن بعضهم أيقن فتحرك واستقام وأعطى ومنع وبـذل وبعضـهم كـان شـاكاً ومتردداً فأحجم ، فإذا أردتَ أن تُفسر الإحجام والإقدام ، الاستقامة وعدمها التضحية والحرص ، لا يفسر هذا إلا باليقين وإذا ذهبتَ في حياتك اليومية وراقبتَ نفسك ، الأشياء التي توقن بها تنطلقُ إليك ، والأشياء التي أنتَ شاك فيها تُحجم عنها .

العامل الأساسي الذي يدفعك إلى الحركة هو اليقين . ورد في الأثر : تبارك الذي قسم العقلَ بين عباده أشتاتاً ، إن الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وصومهما وصلاتُهما ويختلفان في العقل كالذرة جنب أُحد وما قسم ا لِعباده نصيباً أوفر من العقل واليقين . الموقن يدفع زكاةَ ماله، الموقن يفني شبابه في طاعة ا الموقن يقضي عمره في معرفة ا أما غير الموقن تراه محجماً متردداً متريثاً مترقّباً يعني في حيرة في ضياع ، والقصة التي مرت بنا من قبل شهيرة أحد أصحاب رسول ا عليهم رضوان ا لما بلغَ مرتبة اليقين أصابته نكسة فعنده طفلٌ صغير ربيبه .. ابن زوجته وقد أغدقَ عليه من النعم ومن الرعاية والرحمة ما لا سبيلَ إلى وصفه دعا النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه لتهيئة أنفسهم لمعركة مؤته رآه محجِماً قاعداً متريثاً منتظراً لا يتحرك ، بينما أصحاب النبي عليهم رضوان ا تحركوا وبذلوا وجهزوا واستعدوا هو جالس ، فكان هذا الطفل الصغير لشدة توقد الإيمان في قلبه يبلّغُ عمه زوج أمه أن يا عماه فُلان فعلَ كذا ، فُلان فعلَ كذا ، ..... فلما ضاقَ به ذرعاً قال له : يا جلاس اسمه الجلاس : لو كان محمد صادقاً لكُنا شراً من الحمر . هذه كلمة الكُفر ، متردد ، ليس واثقاً، ليس متيقناً ، والحقيقة إذا الإنسان تردد وقع في مشكلة كبيرة ، فهذا الطفلُ الصغير قالَ وا ِ يا عماه ما على وجه الأرض بعد رسول ا صلى ا عليه وسلم رجلٌ أحب إلي منك ولكنك نطقتَ بكلمة الكُفر ولأُبلّغن رسولَ ا صلى اله عليه وسلم .

ما أراد أن يبلّغ النبي من وراء ظهره .. واضح .. هذه كلمة الكُفر ويجب أن يعلم النبي عليه الصلاة والسلام ماذا تقول ، أنت معدود من أصحابه .. كيفَ تقول لو أن محمـداً صادقٌ فيما يقول لكُنا شراً من الحمر يعني لو أنه صادق في دعواه أنه نبي ولن نستجب لـه لكُنا شراً من الحمر فذهب هذا الطفلُ الصغير إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقالَ يا رسول ا تكلّم عمي : كيتَ وكيت .. استدعاه النبي عليه الصلاة والسلام وسأله عـن قولتـه هـذه فأنكرها قالَ هذا كذّاب يا رسول ا ، هذا أنا أحسنتُ إليه وأنعمتُ عليه وأغدقتُ عليه ، وهـو يفعلُ هذا بحقّي ، وأصحاب النبي عليهم رضوان ا يعني مالوا إلى تصديق عمـه وتكـذيب

الغُلام ، نظر إليه النبي عليه الصلاة والسلام فإذا بوجهه قد اصطبغَ وجهه بالحمرة خجلاً من هذا الموقف العصيب ولم يلبثُ أن تنزل الوحي على رسول ا صلى ا عليه وسلم وقد أكّـد الوحي قولة الصغير ، قالَ تعالى :

يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾

(سورة التوبة)

عندئذ كبر النبي عليه الصلاة والسلام وأمسك الغلام من أُذنه وقالَ يا غلام صـدقك ربك. عندئذ اعترف عمه بما قال ، وقال يا رسول ا اغفر لي هذه الزلّة وتاب توبةً نصوحاً وكان من أشد الناس إكراماً لهذا الغُلام لأن توبته كانت على يده ولو أن هذا الغلام سكت لبقي منافقاً. كانت توبة العم على يد هذا الغُلام .

الذي جعله يحجم ويتردد وينجل .. عدم اليقـين ، وإذا أردتَ أن تُفسـر التقصـير والإحجام والميل إلى الدنيا وعدم وجود الهمة العالية فينبغي أن تُفسر كل ذلك بضعف اليقين .

كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ﴿٦﴾

(سورة التكاثر)

" **لوْ تعْلمون علم اليقين** " لو بلغَ اعتقاد الإنسان مرتبة اليقين لباع نفسه ـ عز وجل . أي إحجامٍ أي تقصيرٍ أي تقليلٍ من شأن الإيمان يعود بالدرجة الأولى إلى ضعف اليقـين . ربنا عز وجل ما أراد منك أن تؤمن متردداً .

إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾

(سورة الحجرات)

ا عز وجل ما رضي لك أن تؤمن شاكاً ، " **كلا لوْ تعْلمون علْم اليقـين لترَـروْن الجحيم** " ا عز وجل ما أمرك أن تؤمن وأعطاك الأدلة الضعيفة قالَ :

وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾

(سورة الذاريات)

هذا الموضوع دقيق جداً حتى في حركاتك اليومية ، لن تتحرك إلا إذا أيقنـت ، لـن تُحجم عن شيء يضرك إلا إذا أيقنتَ بضرره ، لا تمتنع عن تصرف إلا إذا أيقنت بخطورته ، لا تُقدم على شراء شيء إلا إذا أيقنتَ بالربح ... أبداً ... اليقين هو المحرك ، وما لـم تـوقن تبقى في شك وتردد ووهمٍ وإقدامٍ وإحجامٍ وتريث وتفرجٍ .. أما حتى تنتقل إلى مرتبة العمـل لابد من اليقين وأبواب اليقين مفتحةٌ على مصارعها في الدنيا ، وفي الأرضِ آياتٌ للموقنين ، يعني في الإيمان أدلّة ليست مقنعةً فحسب بل هي قاطعةٌ .

ا عز وجل خص أهلَ اليقين بالهدى والفلاح قال تعالى :

وَٱلَّـذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِمَـآ أُنـزِلَ إِلَيْـكَ وَمَـآ أُنـزِلَ مِـن قَبْلِـكَ وَبِـٱلْأَخِرَةِ هُـمْ يُوقِنُـونَ ﴿٤﴾ أُوْلَـٰٓئِـكَ عَلَـىٰ هُـدًى مِّـن رَّبِّهِـمْۖ وَأُوْلَـٰٓئِـكَ هُـمُ ٱلْمُفْلِحُـونَ ﴿٥﴾

(سورة البقرة)

لأنهم أيقنوا "**أوْلئك على هدى منْ ربهمْ وأوْلئك همْ المفْلحون** "

أما أهل النار :

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

(سورة الجاثية)

لسنا متأكدين .. أبداً .. الأمر واضح جداً ، الإحجام ، النفاق ، الضعف ، البخـل ، عدم دفع المال ، عدم بذل الوقت في سبيل ا ، عدم التعرف إلى ا ، عدم تلاوة القـرآن ، تغليب الدنيا على الآخرة ، الوقوع في الشُبهات ، التقصير في الواجبات ، كل هذه الأمـراض هي أعراض لمرض واحد هو ضعفُ اليقين .

من علامات آخر الزمان أن يفشو ضعفُ اليقين في الناس ، تجد المساجد ممتلئة لو دخلتَ إلى بيوت هؤلاء أجهزة اللهو ، لو دخلتَ إلى متاجرهم التعامل ربوي ، لو دخلتَ معهم في لقاءاتهم اختلاط ، اختلاط في العلاقات الاجتماعية ، وتقصير فـي الواجبـات الدينيـة ، وتسيب في الانضباط الشخصي ، ما سر ذلك .. هو ضعفُ اليقين ..

ُأعيد مرةً ثانية وثالثة ورابعة : إذا أيقنت أنك إذا فعلتَ هذا الأمر لا تنجو من عذابٍ أليم في الدنيا ، لا تنجو من عشرين عاماً في السجن تُقضيها ، لا أقول أغلب الظن .. قطعاً .. تُحجم عن اقتراف هذه المخالفة .

الذي أتمناه على كل أخٍ كريم أن ينقلَ معرفته با ـ عز وجل من مسـتوى الاعتقـاد غير الجازم إلى مستوى الاعتقاد الجازم . الإنسان أحياناً يقصر إذا قصر يأتي العلاج الإلهي ، مرة اثنتين وثلاث ألا ينبغي أن تستنبط أن لكل سيئة عقاباً وأنك لا تنجو من عذاب ا إلا إذا استقمتَ على أمره وأن هذا الضعف في اليقين هو سبب هذا التردي من مشكلة إلى مشكلة .

لذلك العلماء قالوا : " اليقين روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح ". روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح وهي حقيقة الصديقية . كلما قال النبـي شيئاً يقول له الصديق : صدقت يا رسول ا .. صدقت .. صدقت .. بلغتَ حد اليقين .

إنسان عادي قد لا يبالغ في غسل الخُضار أما إذا في جائحة ، وباء ، ادخل إلى بيت الطبيب ، لأنه يعالج بـاليوم آلاف الحـالات ، آلاف الإسـهالات ، آلاف الإنتانـات ، آلاف الأمراض، كُلُها بسبب التلوث من الخضار . انظر إلى الطبيب حيثُ يـأمر أهلـه أن تُغسـلَ الخضار بالمواد المعقّمة يومياً لماذا ؟ بلغَ علمه حد اليقين . أما عامة النـاس ربمـا لا يبلـغُ علمهم حد اليقين تراهم يترددون .

١٦٩٥- لا ترضين أحدا بسخط ا ، ولا تحمدن أحدا على فضل ا ، ولا تذمن أحدا على مـا لم يؤتك ا ، فان رزق ا لا يسوقه إليك حرص حريص ولا يرده عنك كراهة كاره، وإن ا بقسطه وعدله جعل الروح والراحة في الرضا، واليقين، وجعل الهم والحـزن فـي السـخط والشك.

في رواية أخرى : إنه من ضعف اليقين أن تُرضي النـاس بسـخط ا .. ، وأن تحمدهم على رزق ا ، أن تَذمهم على مالم يؤتك ا ، إنه من ضعف اليقين .. يعني إذا لـم توقن أن هذه النعمة من ا عز وجل ، إذا جاءتك من إنسان انكببتَ عليـه مادحـاً وشـاكراً

ومثنياً ولم تتيقن أنها من عند الله عز وجل لذلك وقعتَ في الشرك وأنتَ لا تدري . إنـه مـن ضعف اليقين أن تُرضي الناس بسخط الله .

معنى ذلك أي إنسان .. إذا استجاب لإنسان على حساب طاعته لربـه ، إذا جامـلَ زوجته وسايرها في أمرٍ لا يرضي الله ، يجب أن يمتحن نفسه ، يجب أن يوقن أنه غير موقن ، يجب أن يعلم أنه لا يعلم ، يجب أن يتأكد أنه في شك من أمرِ دينه ، لأنه حينمـا تُرضـي مخلوقاً وتعصي خالِقاً أنتَ لستَ متأكداً من غضبِ الخالق ، لستَ متأكداً من أن هذا يسخُطه ، لستَ متأكداً من أن هذا لا يرضيه ، لذلك فعلته .. وهنا لا تُرضـين أحـداً بسـخط الله ، ولا تحمدن أحداً على فضل الله ، ولا تذمن أحداً على ما لم يؤتك الله ، فإن رزقَ الله عز وجـل لا يسوقه إليك حرص حريص ، ولا يرده عنك كراهية كاره ، وإن الله بعدله وقسطه جعلَ الروح والفرح في الرضا واليقين ، وجعلَ الهم والحزن في الشك والسخط .

كنتُ مرة أضرب لكم بعض الأمثلة أُعيدها مرات عديدة لأنه مناسب جداً في هـذا الوقت، شخص فقير جداً عنده أولاد ثمانية دخله قليل جداً حياته خشنة جداً ، دخله أقـل مـن مصروفه ، يعني يعاني من أزمات لا تُحصى له عم يملك ثلاثمائة مليـون ولـيس لـه أولاد وتوفي في حادث كل هذه الثروة آلت إليه قطعاً .. .. هو الوريث الوحيد ، لكن إلى أن يصلَ هذا المبلغ إلى يديه هناك إجراءات وتعقيدات وبراءات ذمة ومتابعة معاملات إلى آخر ذلـك ، لماذا هذا الإنسان خلال هذه الفترة التي لم يقبض درهماً واحداً هو من أسعد الناس لمـاذا ؟ لأنه موقن بأنه سيصير غنياً ، فيمضي هذه الفترة يقول هذه الفيلا سأشتريها جيـدة ، وهـذه المركبة سأقتنيها ، وهذا الطعام سأكله ، وهذا اللباس سأرتديه دخل باليقين ، أيقن بأنه سيكون غنياً كل هذه الثروة آلت إليه، من فقرٍ مدقع إلى غنى جيد .

هذا مثل طبعاً مركّب تركيباً لم يقع هذا الشيء لكن هذا التركيب من أجل أن نكشف من أن الإنسان يسعد لو أيقن ، يعني أنت إذا أيقنت أن الله عز وجل يحبك وراضٍ عنك وأنك إذا انتقلتَ إلى الدار الآخرة أغلب الظن أن الله سيرحمك وأن لك في الجنة مكانـاً .... هـذا اليقين يجعلُك تمتص كل المصائب وكل المتاعب وكل الهموم وتعيشُ في هذا الوعد الربـاني العظيم .

أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

(سورة القصص)

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾

(سورة القصص)

الآن إذا إنسان فرح في الدنيا ما الدليل يقينه في الآخرة ضعيف ، لِضعف يقينه بالآخرة فَرِح بالدنيا ، أما لوعرفَ الدنيا على حقيقتها ما فَرِح بها ، إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ومنزلُ ترحٍ لا منزلُ فرح فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء قد جعلها ا ُ دار بلوى وجعلَ الآخرة دار عقبى فجعلَ بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً وجعلَ عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي.

لو فرضنا تلّة عليها قصر فخم جداً ، وإنسان يسير على قدميه والطريق وعرة ليتملّك هذا القصر ، وإنسان يركب أفخر مركبة وهو سينتهي به المطاف إلى أن يعدم ، في الظاهر هذا يركب مركبة فخمة جداً لكن مصيره معروف ، وهذا الذي يمشي على قدميه ويبذل جهداً كبيراً سيكون نزيلاً لهذا البيت الفخم وسيتملّكه ، لو التقيا في الطريق أيقول الذي يركب المركبة الفخمة لهذا الفقير ما أسوأ حظك ، أيقول هذا الفقير لهذا الذي يركب المركبة هنيئاً لك المركبة .. لا..لِجهل كُلٍ منهما بمصيره يتمنى هذا أن يكون مكان هذا وهذا يزدري هذا بسببِ جهل كُلٍ منهما مصيره ، أما المؤمن قولاً واحداً لا يتمنى أن يكون مكان أهل المعصية ولو كانوا في أعلى درجات النعيم والرفاه والغنى والقوة .

آية ثانية .. يقول ا عز وجل :

فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾

(سورة النمل)

" **فَتَوكلْ على الله إنك على الحق المبين** " الحق هو اليقين :

حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾

(سورة المدثر)

" **حتى أتَانَا اليقين** " الموت يقين والحق يقين .

الإنسان لماذا لا يتوكل .. الآن الإنسان يمرض مرضاً عضالاً لماذا ييأس لأنه ليس موقناً أن الله قادر على شفائه .. ضعف يقين .. لو أيقن أن الله يشفيه مهما يكن مرضه عضالاً لَما أصابه اليأس أبداً ، الفقير لماذا ييأس لأن يقينه بأن الله بقدرته أن يغنيه ضعيف هذا اليقين ، لو أيقن لَما يئس ، أخطر أمراض النفس اليأس والقنوط والكآبة والسوداوية ، قـرأتُ كلمـةً أعجبتني : يارب لا كرب وأنتَ الرب .. لا كرب مع وجود الرب أنتَ عبده وبـاب التوبـة مفتوح .. باب العطاء مفتوح ..

إذاً : " **فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ** " قال العلماء : " إذا وصـلَ اليقـين إلى القلب امتلأ نوراً وإشراقاً وانتفى عنه كل ريبٍ وسخط وهمٍ وغم فامتلأ محبـةً لله وخوفـاً منه ورضى به وشُكراً له وتوكّلاً عليه وإنابةً إليه فهو مادةُ جميع المقامات والحامل لها ".

يقول الجنيد : اليقين هو استقرار العلم . مثل أدعه بين أيديكم ، الإسمنت يفحص في المعامل بمتانته هو يتحمل قوى الضغط بشكل كبير جداً بالسنتمتر مكعب من الإسمنت يتحمل بالمواصفات القياسية الصحيحة خمسمائة كيلو .. نصف طن .. لو وضعنا نصف طن علـى سنتمتر مكعب من الإسمنت لتحمّلها قبل أن ينسحق نصف طن ، في المواصفات الوسط ٢٠٠ كيلو ، أما يفحص الإسمنت بالشد ، تُصب مكعبات من الإسمنت ، تُلقط بملاقط من الأعلـى ، وملاقط من الأسفل ، الملقط السفلي ككفة الميزان يوضع الكيلو يكسر في نوع لا ينكسـر إلا على ٢ كيلو في نوع على ثلاثة على أربعة على خمسة ، تُمتحن قوة تماسك الإسمنت على أي وزنٍ يكسر هذا المكعب ، هذا المثل لو طبقناه على المؤمنين تجد مؤمناً إيمانه وسط أما علـى إغراء معين أو على ضغط معين تضعف همته وانساق مع شهوته وتخلّى عن طاعته لربه .

إذاً هذا المؤمن يقينه ضعيف كُلما زاد اليقين زاد التماسك ، فالمؤمن الصادق مهمـا ألّمت به المحن ومهما ضاقت عليه الدنيا ومهما تلّقى ضغطاً كبيراً ومهما تعـرض لإغـراء شديد " إلهي أنتَ مقصودي ورضاك مطلوبي " ، كُلما ارتفع اليقين ارتفع التمأسـك وارتفـع الصمود يعني باللغة التي نستعملها يصمد أمام كل إغراء وتحتَ أي ضغط ، والإنسان أحيانـاً ينهار لضغط قليل أو لإغراء قليل ، فإذا انهار إيمانه لضغط أو لإغراء معنى ذلـك يجـب أن يعيد حساباته كُلها فإيمانه ضعيف .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ قَالَ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ لَوْ أَنَّ عِبَادِي أَطَاعُونِي لَأَسْقَيْتُهُمْ الْمَطَرَ بِاللَّيْلِ وَأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمْ الشَّمْسَ بِالنَّهَارِ وَلَمَا أَسْمَعْتُهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ اللَّهِ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا قَالَ أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ *

قال : اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغير في القلب . وقـالَ أبو بكر الوراق : اليقين ملاك القلب وبه كمالُ الإيمان وباليقين عرِفَ ا وبالعقل عقلَ عن ا ، واليقين على ثلاثة أوجه .. ثلاثة أنواع .. يقين خبر ، ويقين دليل ، ويقين مشاهدة .

لو فرضنا في جدار قال لك إنسان وراء هذا الجدار نار هذا الإنسان صادق عنـدك .. هذا يقين خبر .. بعد قليل رأيتَ الدخان يتصاعد لا دخان بلا نار صار في عنّدنا دليـل ، كان في معك يقين إخباري صار معك يقين استدلالي توجهتَ نحـو الجـدار والتفـت وراء الجدار فإذا النار تشتعل ، صار معك يقين شهودي ، من اليقين الإخباري إلى اليقين الاستدلالي إلى اليقين الشهودي.

فاليقين إذاً أنواع ثلاثة : يقين خبر سكون القلب إلى خبر المخبر وتوثّقه به .. يعني إذا كان المتكلّم صادقاً فأنتَ تثقُ بكلامه وتُصدقه فهذا يقين الخبر فإذا كان ا هو المتكلّم خالق الكون وإذا كان هذا الكلام قرآن وإذا كان هذا الكلام حديثاً لرسول ا متواتراً صـحيحاً هـذا يقين إخباري ويكفي المؤمن دليلاً أو دافعاً لتطبيق أمرِ ا أنه أمر ا ، الإنسان إذا بحث عن حكمة لا بأس ليعلّم الناس الحكمة ولكن إذا أيقن أن هذا أمر ا ولو لم يفقه الحكمة يكفيه دافعاً إلى تطبيق أمر ا عز وجل .

المستوى الثاني يقين الدلالة ، فإذا جاءت حقيقة مع البرهان عليها . ربنا عز وجل قال :

إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾

(سورة طه)

قال لك "**إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبُدْني** " لكن في آيات أُخرى قال :

قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾

(سورة يونس)

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾

(سورة الغاشية)

إذاً : ربنا عز وجل مع أنه خالقٌ وربٍ ومسير وموجود وواحد وكامل أعطاك الأدلة على وجوده ، والأدلة على كماله ، والأدلة على وحدانيته ، فأنتَ في الآيات الكريمـة عنـدك يقين إخباري ويقين استدلالي .

أما الدرجة الثالثة : يقين المكاشفة ، مرة ثانية إنسان تثقُ بكلامه إلى أقصى الحدود أخبرك أن وراء الجدارِ ناراً ، رأيتَ الدخان يتصاعد قلتَ لا دخان بلا نار يقـين اسـتدلالي ، توجهتَ نحو الجدار ورأيتَ النار تشتعل هذا يقين شهودي . والمؤمن يرتقي من يقينٍ إخباري إلى يقين استلالي إلى يقين شهودي ، لكن بالمناسبة ما كل مفردات الإيمان يمكـن أن تكـون شهوداً ، وما كل مفردات الإيمان يمكن أن تكون إستدلالاً ، بل إن من مفردات الإيمان ما هو إخباري محض فالحديثُ عن الجنة والنار ، والجِن والملائكة ، والصراط والميزان ، والبرزخ والقبر وعذاب القبر ، والحديثُ عن الأزل عن جمع النفوس في الأزل ، هذا كله يقين إخباري ولن يكون شهودياً ولا استدلاليا .

تبقى في الإيمان مفردات يبقى اليقين بها يقيناً إخبارياً . لذلك الذي لا يستطيع عقلُك أن يصلَ إليه يجب أن تُصدقَ به ، الذي لا يستطيع عقلُك أن يصلَ إليه استدلالاً إذا آمنتَ با ِ عز وجل يقيناً استدلالياً عندئذ تؤمن بما أخبرك ا ُ به تصديقاً .

في الإيمان إيمان تصديقي وإيمان تحقيقي ، بعض مفردات الإيمـان لا يمكـن أن تؤمن بها إلا تصديقاً كالإيمان بالجِنِ مثلاً أو الإيمان بالملائكة . قال ا عز وجل فـي آيـات كثيرة عن الملائكة إذاً أنتَ مؤمن بالملائكة إيمان تصديقي .

الآن إذا ارتفع المؤمن إلى مستوى الإيمان الشهودي أو يقين المكاشـفة أو اليقـين الشهودي بحيثُ يصير المخبر به لقلوبهم كالمرئي لعيونهم ... إنني أراك قال يا زيد عرفـتَ فالزم إني لك ناصح أمين . كيفَ أصبحت .. أصبحتُ بعرش ربي بارزاً وكأني بأهل الجنـة يتنعمون وبأهل النارِ يتصايحون . يعني بلغَ إيمانه مرتبة الشهود .

قال بعضهم : رأيتُ الجنة والنار حقيقةً قيلَ وكيف ؟ قال رأيتُهما بعيني رسول ا .

بالمناسبة : كل المؤمنين من دون استثناء إيمانهم بالجنة والنار إيمان إخباري ، يقين إخباري ، إلا رسول ا صلى ا عليه وسلم فإيمانه بالجنة والنار إيمان شهودي لأنـه فـي الإسراء والمعراج أكرمه ا عز وجل بأن أطلعه على ما سيكون ، رأى بأُم عينه أهلَ الجنـة وأهلَ النار وأحوالَ أهل الجنة وأحوال أهل النار ، النبي وحده إذا تكلّم عن الجنة وعن النـار يتكلّم عن مشاهدة . لذلك إذا ذهب إنسان إلى مكان ورآه رأي العين وأخبرك عنه تشعر أنـه يؤثّر فيه أما إذا قرأ عن هذا المكان وأخبرك عنه يعني ينقل شيئاً من كتاب ويلقيه في أُذُنك أما لو أنه عاشه وتأثّر به لكان تأثيره فيك أبلغ .

لذلك أراد ا عز وجل أن يكون النبي وحده تكريماً له إذا حدثَ أُمته عـن الجنـة والنار يحدثُهم كحديث المشاهد .

أركان علم اليقين قال : قَبولُ ما ظهر من الحق وقَبولُ ما غاب والوقوف على ما قام بالحق ، كيف ؟ قَبولُ ما ظهر من الحق تعالى أوامره ونواهيه وشرعه ودينه هذا كُلـه ظهـر على لسان نبيه صلى ا عليه وسلم فأنتَ كمؤمن تتلقاه باليقين كما قُلنا قبلَ قليل .. في عندك أوامر ونواه ، في عندك سنن ، في عندك مكروهات ، في عندك مستحسـنات ، هـذه كُلهـا جاءت عن رسول ا صلى ا عليه وسلم لكن في أشياء غابت عنك أخبرك بها النبـي هـذه أيضاً يجب أن تتلقاها كما لو أنها يقين . فالإيمان بالغيب الذي أخبر ا به والإيمـان بالجنـة والنار والصراط والميزان والحسابِ وما قبلها من تشقق السماء وانفطارها وانتثار الكواكـب ونسف الجبال وطي العالم وما قبل ذلك من البرزخ و نعيمه وعذابه ...هذه كُلُها تقبلها لأن ا أخبرنا بها يقين إخبار.

قبول هذا كُله يعد إيماناً وتصديقاً ويقيناً هذا هو اليقين بحيثُ لا يخالج القلب شُـبهةٌ ولا شك ولا نسيان ولا غفلةٌ فإن لم يهلك يقين الإنسان بقي إيمانه قوياً وبقي عمله صالحاً .

الآن بعض ثمار اليقين قالَ : الأنس القرآن الكريم يقينُك أن هذا الكلام كلامـه وأن الجنة والنار مصير البشر وأن هذا الكون خلقه لتعرِفه هذا اليقين يحملك إذا قرأت القرآن على أن تأنس به . مثلاً إذا قُرئ القرآن تجد إنساناً يبكي وإنساناً لا يبالي وإنساناً يعرض أخي غير المحطة .. لماذا .. هو اليقين .. ملخص الدرس كلام دقيقٌ جداً :

إنه من ضعف اليقين أن تُرضي الناس بسخط ا ، مقياس دقيق جداً حينمـا تـؤثر رضى إنسانٍ ما ولو كان أقرب الناس إليك على طاعتك فاعلم علم اليقين أنـك ضـعيفُ اليقين ، فاعلم أنك لا تعلم ، فاعلم أن إيمانك ضعيف ، وإنه من ضعف اليقين أن تَحمد النـاس على فضل ا إذا ا عز وجل تفضل عليك بشيء وعزوته إلى الناس ، تفضلَ عليك بشـفاء ولدك عزوته إلى الطبيب وحده ، أما الإيمان أن ا أكرمني بالشفاء على يد هذا الطبيب فللـه المنةُ والفضل ولهذا الطبيب مني الشكر والعرفان ... هذا الإيمان .

إنه من ضعف اليقين أن تّذُم الناس على ما لم يؤتك ا مع عدم الموافقة .. تُزمجر وتضطرب وتكون له الكلمات القاسية .. ا عز وجل منعه أن يوافقَ لك ، إذا كُنـتَ موقنـاً بأنه لا إله إلا ا فا عز وجل هو الذي ألقى في قلبه ألا توافق ، إنه من ضـعف اليقـين أن تُرضي الناس بسخط ا وأن تحملهم على فضل ا وأن تَذُمهم على ما لـم يؤتـك ا ، إذا عزوتَ الحرمان إلى البشر فهذا من ضعف اليقين وإن ا كما قالَ عليه الصلاة والسـلام : " ٥٩٦١- لا ترضين أحدا بسخط ا ، ولا تحمدن أحدا على فضل ا ، ولا تذمن أحدا على ما لم يؤتك ا ، فان رزق ا لا يسوقه إليك حرص حريص ولا يرده عنك كراهية كـاره ، وإن

ا بقسطه وعدله جعل الروح والراحة في الرضا ، واليقين ، وجعل الهم والحزن في السخط والشك " .

كل أنواع الهموم والأحزان مردها الشك بوعد ا   والسخط على قضاء ا   الحـزن والهم، الآلام النفسية كلها أسبابها الشك في ما وعدك ا   به والسخطُ على قضاء ا   . والسعادة النفسية كلها أساسها اليقين والرضا أيقنتَ بوعد ا   ورضيتَ بقضائه .

نحن أمام امتحان صعب ، أيام الإنسان يقول لك يا أخي اخترعوا شيئاً رائعاً جـداً من طبيب تأخذ ورقة فتكشف لك إن كان معك السكر أو ليس معك .. ورقة من الصـيدلية .. كثير في الآن وسائل للفحص الذاتي في البيت ، هذا الحديث جميل جداً يكشف لك إيمانـك إذا أردتَ مشعر لمستوى إيمانك .. مشعر .. تريد تعبيراً دقيقاً لمستوى إيمانك .. هذا الحديث .. أن تُرضي الناس بسخط ا   فأنتَ لا تعرف ا   والدليل :

قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

(سورة التوبة)

بقي أحد ؟ " **قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وعشيرتُكُمْ** " .. .. " **وَأَمْوالٌ اقْتَرفْتُموها** " أنواع الأموال بيت أرض مزرعة دكان منقولـة أو غيـر منقولـة ، " **وتجارةٌ تَخْشَوْن كسادها ومساكن تَرْضوْنَها أَحب إِلَيْكُمْ مِنْ الله ورسوله وجهاد في سـبيله** " فتربصوا حتى يأتي ا   بأمره .

يعني إذا آثرتَ هذا البيت على طاعة ا   إذا آثرتَ هذه التجارة المحرمة التي فيهـا الشُبهات على طاعة ا   عز وجل معنى ذلك أن هذه التجارة أحب إليـك مـن ا   ورسـوله الطريق إلى ا   غير سالك   " **فَتَربصوا حتى يأْتي الله بِـأَمْره والـلـه لا يهْـدي الْقَـوْم الْفَاسقين " .**

والحمد   رب العالمين

* * *

بسم ا   الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم .... مع الدرس الواحد والعشرين من دروس منازل السالكين في مراتب إياك نعبد وإياك نستعين و منزلة اليوم منزلة الفقر .

أيها الأخوة الأكارم .. " من عرفَ نفسه عرفَ ربه " ، الإنسـان أولُ صـفةٌ مـن صفاته أنه مفتقر إلى ربه ، فإذا استغنى عن ربه فقد وقع في شر أعمالِـه ، لـذلك .. حقيقـة العبودية هي الافتقار إلى ا   عز وجل ، حقيقة الإنسان هي أنه فقير ، حقيقة هـذا المخلـوق الذي سخر ا   له الكون من أجله أنه محتاج إلى ا ـ في كل شيء . فلذلك حينما يغيب الإنسان عن هذه الحقيقة ، حينما يغفلُ عنها ، حينما يظن نفسه على خلاف ما هو عليه فقد وقـع فـي جهلٍ كبير .

يا اخوة الإيمان .. تعريف الجهل في أبسط تعاريفه أنه ما خالفَ الواقع ، يعنـي إذا قُلت هذا إبريق ماء هذا الكلام فيه جهل ، إذا قلت هذا كأس حليب وهو ماء هذا الكـلام فيـه جهل ، ما تعريفُ الجهل ؟ ما كان خلافَ الواقع . فأنتَ لك واقع ، لك واقع راهـن ، حقيقـة صارخة ، شئتَ أم أبيت ، أحببتَ أو كرهت . أن تتوهم أنك على خلاف ما أنتَ عليه فأنتَ قد وقعتَ في جهلٍ كبير .

بالمناسبة ... ما تعريفُ العلم ؟ إدراك الشيء على ما هو عليه بـدليل ... إذا رأى الطبيب أن ارتفاع الحرارة وارتفاع الضغط مؤشران لمرضٍ كذا وكان ارتفاع الضغط وارتفاع الحرارة مؤشران على مرضٍ آخر فإذا شخّص مرضاً غير المرض الذي يعانيه المريض فهذا التشخيص فيه جهل .. يجب أن نعلم ما الجهل . في مرات سابقة عرفتُ العلم بأنـه علاقـةٌ ثابتة بين شيئين مقطوع بصحتها يؤكدها الواقع عليها دليل .

علاقةٌ بين شيئين يعني قانون ، كل المعادن تتمدد بالحرارة مقطوع بصحتها لو لـم يكن مقطوعاً بصحتها لكان الوهم والشك والظن ، يؤكدها الواقع .. لو لم يؤكدها الواقع لكانت جهلاً ، عليها دليل .. لو لم يكن عليها دليل لكانت تقليداً .. ما التقليد ؟ حقيقةٌ تفتقر إلى دليل ، ما الجهل ؟ ما خالفَ الواقع ، ما القطع ؟ ما كان بعيداً عن الشك والوهمِ والظن ... هذا هـو العلم ... فيجب أن نعلم ، يجب أن نعتقد أن العلم : إدراك الشيء على ما هو عليه ، فَهم هذه الآية كما أرادها ا ، حكم هذه القضية كما جاء به رسول ا   ، حقيقة الكون ، حقيقة الإنسان ، حقيقةُ الحياة الدنيا ، حقيقةُ ما بعد الموت ، ما قبلَ الموت كذا ، حقيقةُ المال له دور معين ...

يعني ... إذا أدركتَ كل شيء على ما هو عليه فأنتَ عالِم ، عالِم لكن لـو أردتَ أن تُحـدثَ الناس بهذا الشيء لطالبوك بالدليل .

إذا أدركتَ كل شيء على ما هو عليه ومعك الدليل فأنتَ عالِم . ويا حبذّا لو أن دماغنا أو فكرنا أو عقلنا كما يقول الناس محشو بالحقائق . المشكلة أن تجد رجـلاً دماغـه محشـو بالأباطيل ، بالأوهام ، بالخرافات ، بالجهل .. الجهل شيء .. قد تفهم الجهلَ فهماً بسيطاً ، قد تفهم الجهلَ عدم المعرفة .. لا .. الجهل معرفة لكنها مغلوطة ، الجاهل إنسان يعلم لكن يعلـم أفكاراً ومقولات لا علاقة لها بالواقع . يعني إذا أردتَ أن تُلقي ماء مع ملح في طريـق زوجٍ لعله يحب زوجته .. هذا جهل لأنه لا علاقة أبداً بين هذا وذاك . في أحد علماء دمشق الأكارم توفي رحمه ا له كرامات كثيرة فجاءه أحد طُلاب العلم وقال له يا سيدي أرجوك رجاء حاراً أن تأخذني إلى الحج .. أن تدفُعني .. هو يظن هذا الأخ أن هذا الشيخ له كرامات فإذا دفعـهِ صار في مكة وفي مكة يوفّر نفقات السفر ورسوم الدخول وما إلى ذلك ثم يجذبه إلى الشـام ، فلما طلب منه هذا الطلب نظر إليه رآه جاهلاً ، قالَ له غداً تعالَ إلـي ، أخـذه إلـى التكيـة السليمانية وأمره أن يحلفَ يميناً بالطلاق ألا يقولَ لأحد ما سيجري معه وحلفَ هـذا اليمـين وأوقفه على حافة البحرة الكبيرة في هذا المسجد ودفعه إلى الماء . ... إذا هنـاك إمكـان أن تنفي عن ذهنك كُل الجهل ، ما معنى الجهل .. معلومات غلط ، نحن ُأمةُ محمد صلى ا عليه وسلم مرحومة .. شيء جميل .. إذاً : لنفعل ما نشاء .. هذا هو الجهل ..

عن َأبِي حازِمٍ قَالَ سمعتُ سهلَ بن سعد يقُولُ سمعتُ النبِي صلى الله عليه وسلم يقُولُ َأنَـا فَرطُكُم علَى الْحوضِ فَمن ورده شَرِب منْه ومن شَرِب منْه لَم يظْمْأ بعده َأبدا لَيرِد علَي َأقْوام َأعرِفُهم ويعرِفُونِي ثُم يحالُ بينِي وبينَهم قَالَ َأبو حازِمٍ فَسمعنِي النعمان بن َأبِي عياشٍ وَأنَـا ُأحدثُهم هذَا فَقَالَ هكَذَا سمعتَ سهلا فَقُلْتُ نَعم قَالَ وَأنَا َأشْهد علَى َأبِي سعيد الْخُدرِي لَسمعتُه يزِيد فيه قَالَ ِإنَّهم منِّي فَيقَالُ ِإنَّك لا تَدرِي ما بدلُوا بعدك فََأقُولُ سحقًا سحقًا ِلمن بدلَ بعدي *

إذا تعلّقتَ بفكرة أن النبي عليه الصلاة والسلام يوم القيامة يشفع لك وأنتَ واقع فـي ذنوبٍ كثيرة .. فهذا جهل .. هذا جهل .

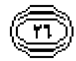
إذاً : هذا الذي أرجوه في هذا الدرس أن تعلم أن حقيقة العلم : إدراك الشيء على ما هو عليه بدليل ، وأن طبيعة الجهل إدراك الشيء على خلاف ما هو عليه . أبسط مثل : أنتَ عندك مركبة ، قيل لك هذا الضوء الأحمر في علبة السرعة إذا تألّق معنى ذلك أنه يسليك .. للتسلية .. وحقيقةُ هذا الضوء الأحمر أنه إذا تألّق فهناك خطر كبير يجب أن تقف فوراً وأن تضع الزيت في المحرك . فإذا قُلتُ لأحدكم هذا الضوء يتألّق للتسلية ليكون زينةً للسيارة .. زينة أثناء الطريق ... قد يتألق ... هذا الكلام فيه جهل ، فإذا أمكنك أن تنفي عن معلوماتك

وعن معتقداتك وعن تصوراتك وعن أفكارك وعن مقولاتك كل ما له علاقةٌ بالجهل فأنتَ بطل .

لذلك : إذا أردتَ الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردتَ الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم . هذه المقدمة أردتُ أن أصل إلى أن لك طبيعة ، أن ترجو هذه الطبيعة أو أن لا ترجوها ، أن تُحبها أو أن لا تُحبها ، أن ترضى عنها أو أن لا ترضى عنها .. بحثٌ آخر .. أما أنتَ لك واقع .... واحد عنده بيت ، هذا البيت المتوافر في هذا الوقت أعجبك لم يعجبك ، كبير صغير ، مشرق مظلم ، أُجرة ملك . .. هذا البيت يجب أن توفّق أغراضك وفقَ هذا البيت .

الآن : أنتَ لك حقيقة أعجبتك أم لم تُعجبك ، رضيتَ عنها لم ترض عنها ، أنتَ عبد ، مفتقر إلى ا في كل شيء ، لا تملك شيئاً.

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ



(سورة آل عمران)

دماغك ملك ا عز وجل ، وأنتَ معك دكتوراه بالفيزياء من أعلى جامعة في أمريكا .. ربنا عز وجل يعمل تعديلاً طفيفاً .. تُصبح مجنوناً . لستَ مالكاً لدماغك ، ولستَ مالكاً لقلبك ، ينبض بإحكام والدسامات مضبوطة ، لستَ مالكاً لرئتيك ، لستَ مالكاً لعضلاتك لأعصابك . " **قل اللهم مالك الملك** " كل شيء يملّك .. ا سبحانه وتعالى مالكه .. هذه حقيقة .. إذا أيقنتَ بها تجد نفسك منساقاً إلى ا عز وجل لأنه لا وجود لغيره .. يعني .. يد من تعمل في داخل الأعصاب ، لو أن نقطة دم تجمدت في بعض الشرايين في الدماغ .. في هذا المكان شلل ، في هذا المكان ذهاب عقل .. في هذا المكان ذهاب ذاكرة ، بيد ا عز وجل . فهناك حقيقةٌ صارخةٌ هي موضوع هذا الدرس . ما هذه الحقيقة ؟ هو أنك مفتقر إلى ا في كل شيء وا عز وجل قادر على كل شيء .. راكب طائرة تُحلّقُ به على ارتفاع ثلاث وأربعين ألف قدم فوق أوروبا .. احترقت الطائرة في الجو وتصدعت وسقطت ومات جميع ركابها عدا راكباً واحداً . أُيعقل أن تحترق طائرة على ارتفاع ثلاث وأربعين ألف قدم فوق غابات الألب في أوروبا وأن ينجو أحد ركابها ، هذا الراكب كان مقعده مكان تصدع الطائرة

عندما تصدعت وقع ، نزلَ على خمسة أمتار من الثلج مكدسة فوقَ أغصان من السـرو هـذه الأغصان مع خمسة أمتار ثلج كانت كالوسائد التي امتصت هذه الصدمة فنزلَ واقفاً .

" قل اللهم مالِك الملك " وأعرفُ رجلاً آخر يعني .. بعيداً عن الدين بعـداً كبيـراً مسرفاً في المعاصي .... لسببٍ تافه جداً وهو في أوجِ حياتـه وأوجِ نشـاطه وأوجِ جبروتـه قبضه الله عز وجل . .. أراد أن يعدل مكان جهاز كهربائي على الحائط فرفعه قلـيلاً فلمـا اضطر أن يستعمله طلب كرسياً .. هذا الكرسي وقف عليه فدخل في مقعـده .. أُخِـذَ إلـى مستشفى فبقي فيها خمسةَ عشرة يوماً وتوفي في المستشفى .. يعني سبب تافه جداً جـداً . الله أنقذ إنساناً وقع من طائرة على ارتفاع ثلاث وأربعين ألف قدم وهذا لهذا السبب التافه قبضـه الله عز وجل .

يجب أن تعلم أنك فقير .... الله عز وجل لأتفه الأسباب يعطيك كل شيء ، ولأتفـه الأسباب يأخذُ منك كل شيء ... برغي في جهاز في السيارة ما كان مشدوداً فالزيت نَزل من هذا المكان الجهاز اضطرب ، اختل ، توقفت السيارة ، خرج صاحبها ليتفقد الخلل ، ضـربة شمس قضت عليه .. يعني .. هذا الصانع لو أنه ضبط هذا البرغي لما مات فـ " **قل اللهـم مالِك الملك** " مفتقر إلى الله في كل شيء .

هذا هو التمهيد لهذا الدرس ، يعني في حقيقة واقعة هكذا أرادها الله ولكن قبلَ كـل شيء. لماذا أراد الله أن نكون فقراء ..؟.. هنا السؤال.

الحقيقة الأولى أنتَ فقير معنى فقير أي مفتقر هناك الفقر الذي أراده الله في بعـض الآيات:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ وَٱلۡعَـٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾

(سورة التوبة)

هذا موضوع آخر ، موضوع آخر بعيد عن درسنا كُل البعد ، لكن حينمـا قـال الله عز وجل :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِىُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥﴾

(سورة فاطر)

الأصحاء والأقوياء والأغنياء والأذكياء .... كل الناس .... قـويهم و ضـعيفهم ، غنيهم وفقيرهم ، كبيرهم وصغيرهم ، ذكيهم و غبيهم ، وسيمهم وذميمهم ، " **يا أيها النـاس أنتم الفقراء إلى ا وا هو الغني**" بهذا المعنى أنتَ فقير . الآن السؤال : لماذا أنتَ فقيـر ..؟.. سر سعادتنا أن نكون فقراء لأننا إذا افتقرنا إلى ا أقبلنا عليه فإذا أقبلنا عليـه سـعدنا بقُربِه ، أما إذا استغنينا عنه شقينا باستغنائِنا عنه . فلما ربنا عز وجل قال :

يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾

(سورة النساء)

.. يا عبادي أنا خلقتكم ضعفاء كي تحتموا بي ، كي تُقبلوا علي ، كي تلتجئوا إلي ، كي تستنجدوا بي، كي تستعينوا بي ، ولو أني خلقتكم أقوياء لاستغنيتم بقوتكم فشقيتم باستغنائكم .

أول فكرة : هناك حقيقةٌ راهنة يجب أن تقبلها .. اقبلها أو لا تقبلها .. هـي حقيقـة لابد من أن تستوعبها . الفكرة الثانية : أنتَ فقير . الفكرة الثالثة : أنـتَ فقيـر لمصـلحتك ، لمصلحة سعادتك ، لمصلحة دينك، لمصلحة دنياك ، لمصلحة آخرتك ، لمصلحة إقبالِك .

فكلمة الفقر بمعناها الشائع ليست مرادة في هذا الدرس ، إنسـان دخلُـه أقـل مـن مصروفه، إنسان يعاني ضيقَ ذات اليد ، إنسان يحتاج إلى مساعدة .... هذا هو الفقيـر عنـد الناس . أما عند علماء القلوب وأنتَ في أعلى درجات الغنى فقير .. ربنا عز وجـل أحيانـاً يرسل للإنسان مصيبة لا يستطيع دفعها ولو أنه يملك أموالَ الدنيا ، كُنتُ مرة عند طبيب قلب جاءه هاتف أمامي من رجل يبدو أنه من أغنى الأغنياء بعد أن انتهت المكالمة الطبيب أخبرني عن ذلك ، قالَ المتكلّم للطبيب يا أيها الطبيب إلى أي مكان نأخذه لأنه ما في أمل قال ندفع أي مبلغٍ مهما بلغ قال ما في أمل قال نأخذه إلى أرقى بلد في العالم قال ما في أمل المرض مـن الدرجة الخامسة وأي إنسان إذا أراد أن يستأصله لابد من أن ينمو مباشرةً ، أنا شـعرت وا اقشعر بدني .. شعرت أن هناك مصائب لا يحلها المال ولتملك ما تملك . إذاً أنتَ فقير فالذي معه مال وظن نفسه بالمال يحل كل مشكلة معناها جاهل .. موضـوع الـورع والتقـوى .. معناها جاهل ، معلوماته غلط ، هناك مصائب لا يحلها المال مهما كان وفيراً ، أنتَ قوي ... ربنا عز وجل قادر في حالات يمرغُك في الوحل ، يذيقك ألوان الهوان وأنتَ قوي . أحـب أحدهم أن يعقد قبل يومين مؤتمراً صحفياً وثاني يوم انتحر .. وزير الداخلية .. وأنـتَ فـي

أعلى درجات القوة ، ثاني يوم في أدنى درجات الضعف .... فإذا قلت أنا قوي فأنتَ جاهـل، القوي هو ا عز وجل . إذا قلت أنا لي شكلٌ وسيم ، حادث واحد ، يشوهك ، هنـاك أطبـاء للتجميل هناك زرع جلد هناك ..... الجمال يذهب فجأةً والقوة تذهب فجأةً والمال يذهب فجأةً .

في رجل .. له قصة تكاد لا تُصدق .. رجل كره الإقامة في هذا البلد ، ففكر وخطط وصمم ، باع معمله ومحله التجاري وباع بيته وباع سيارته وجمع هذه الأموال وحولها إلى بلد يعني حيثُ البحبوحة والرخاء ليشتري البيت الفخم ويعيش بالفوائد ، حيث نوى أن يضع مبلغاً ضخماً في المصرف فوائده تكفيه لأعلى درجات الإنفاق ، لغلطة بسيطة فـي إيـداع المبلـغ أودعه باسم مستعار لليوم التالي هذا الإنسان أدرك أن هذا المبلغ له صار في اليوم التالي قال ليس لك عندي شيء . فَقَدَ ثروته كُلَّها في تصرف أحمق . فأنا أُركِّز على أنك فقير يعني أنتَ بقوتك مفتقر إلى ا ، وأنتَ قوي مفتقر ، دعك من الضعيف .. وأنتَ قوي مفتقر ، وأنت غني مفتقر ، وأنتَ صحيح مفتقر ، ودائماً .. في حكمة أرادها ا عز وجـل أنـه إذا الإنسـان مختص بأحد فروع الطب ويعتد باختصاصه ويعتني بصحته عنايةً بالغـة ، اعتـداده بعلمـه ونسيانه أنه فقير شيء غريب أن بعض الأطباء المتخصصين بأمراض الهضم يصابون بقرحة في المعدة ، بعض أطباء المتخصصين بأمراض معينة يصابون بالأمراض نفسـها .. لمـاذا ..؟.. لأن الإنسان فقير فإذا ظن أنه غير فقير أدبه ا عز وجل . لهذا قـالَ عليـه الصـلاة والسلام :

من مأمنه يؤتَى الحذر ، هذا المثل يروى عن أكْثَم بن صيفي التميمى، أى أن الحـذَر لا يدفع عنه مالا بد له منه، وإن جهد جهده، ومنه الحديث **"لا ينفَع حذَر من قَدر"**.

إذا أردتَ أن تكون أقوى الناس فتوكل على ا ، إذا أردتَ أن تكون أغنـى النـاس فكن بما في يدي ا أوثقُ منك بما في يديك .

معنى الفقر العام الشائع بين الناس إنسان دخله أقل من مصروفه يحتاج لمسـاعدة ... هذا المعنى لا يعنينا في هذا الدرس إطلاقاً يعنيناً قوله تعالى :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

(سورة فاطر)

الحقيقة .. الإنسان متى يشعر بافتقاره ؟ هناك طريقان : إما أن تعرِفَ ا عز وجل وإما أن تعرِفَ حقيقةَ نفسك ، والمعرفة لها ثلاث طُرق : إما أن تتأمل .. وإما أن تقرأ .. وإما أن تنظر . التأمل في الكون ، أخالِقُ هذا الكون ضعيف ؟ لا وا قوي ، الكون ينبِئُك ببعض

الحقائق وأفعالُ ا عز وجل تُنبئُك ، أفعال ا عز وجل دائماً وأبداً يريك ا لأفعاِله آيات باهرات ، يريك غنياً افتقر فجأةً ، ويريك فقيراً اغتنى ، يريك قوياً أذلّه ا ، يريك ضعيفاً أعزه ا ، ألم تقل جاريةٌ في قصر العزيز حينما رأت يوسفَ عليه السلام كيفَ كان عبداً في قصرِ العزيز ثم كيفَ صار عزيز مصر حينما رأته في موكبه قالت : سبحان من جعلَ العبيد ملوكاً بطاعته ومن جعلَ الملوك عبيداً بمعصيته .

الحقيقة .. في درسٍ سابق بينتُ أن الإنسان بإمكانه أن يكشفَ الحقائق مـن خـلال التجارب ولكن متى ؟ بعد فوات الأوان . إذاً لا قيمة لها ، في الثمـانين ُأدرك أنـه القضـية الفولانية هكذا . نحن إذا تعلّمنا العلم ، نحن إذا فَهمنا كلام ربنا ، نحن إذا فَهمنها سنّة رسـول ا ، نعرِفُ الحقائق في وقت مبكّر ، نستفيد منها . لذلك دعاني اليوم في صلاة الفجر أن ُأبين هذه الفكرة : أنه حينما قالَ فرعون آمنتُ بالذي آمنت به بنو إسرائيل ، حينما أعلن فرعـون إسلامه في نص القرآن الكريم وقالَ وأنا من المسلمين . فرعون الذي قالَ أنا ربكم الأعلـى ، فرعون الذي ذبح أبناء بني إسرائيل ، فرعون الذي استحيا نساءهم ، فرعون الذي قـال مـا أرى لكم من إله غيري ، هذا فرعون .. هذا الطاغية .. ما الذي دعاه إلى أن يؤمن بأنه لا إله إلا ا حينما أدركه الغرق وأن يقولَ بالحرف الواحد: وأنا من المسلمين . استنبطت من هـذه الآية أن الموضوع ليس أن تؤمن أو أن لا تؤمن ، ليس هذا هو الموضـوع ، الموضـع أن تؤمن في وقت مناسب أو غير مناسب أو بعد فوات الأوان فقط ، هذه كلمة دقيقة جداً أقولُهـا لكم : الموضوع أيها الأخوة ليس أن تؤمن أو أن لا تؤمن .. لا وا ما هكـذا الموضـوع .. الموضوع لابد من أن تؤمن والدليل : أكفر كُفّارِ الأرض آمن ولكن متى آمن بعد فوات الأوان ، بعد أن لا ينفعه إيمانه ، آمن وقد أمضى حياته في معصية ا . فُأعيد عليكم هذه المقولة ليس الموضوع أن تؤمن أو أن لا تؤمن هذه معادلة مغلوطة ، الموضوع إما أن تؤمن في الوقت المناسب وإما أن تؤمن في الوقت غير المناسب ، إما أن تؤمن قبلَ فوات الأوان وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان لأن فرعون آمن وأسلم لكن ا عاتبه قال :

ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾

(سورة يونس)

أي طاِلبٍ إذا دخلَ الامتحان وأخفقَ في الإجابة يخرج من الامتحان يفتح الكتـاب .. وا ... عرفَ الجواب ، متى عرفَ الجواب ..؟.. بعد فوات الأوان . يأخـذ الصـفر وقـد عرفَ الجواب. قضية زمن . فنحن قضية إيماننا با قضية زمن فقط إما أن نـؤمن ونحـن

أصحاء أشداء أقوياء في مقتبل حياتنا حتى نستفيد من إيماننا ، وإما أن نؤمن بعد فوات الأوان بعد أن لا ينفع الندم . فمرة ثانية : عود نفسك أن تتعامل مع الحقائق وحاول أن تنـزع مـن ذاكرتك ومن ذهنك كل خرافة وكل جهل ، الجهل معلومة غلط ، الجهل مقولة غلط ، الجهـل تصور غلط ، الجهل إدراك غلط ، الجهل فلسفة غلط ، يعني قد تحمـل أعلـى شـهادة فـي الأرض وهناك في الذهن آلاف المعلومات المغلوطة .

أول فكرة .. عود نفسك أن تتعامل مع الحقاق لا مع الخرافات ، لا مع الأوهام ، لا مع الشكوك ، لا مع الظنون ، لا مع التقليد لا مع فكرة بلا دليل .

الفكرة الثانية : أنتَ لك حقيقة ، لك واقع ، يعني أنتَ معك مركبة قوتها ٥ حصان ، عندك بضاعة ٥ طن متألم ندمان .... بحثُ آخر ، هذه المركبة لا تحمل إلا خمسمائة كيلو ، هذا واقع ، فإما أن تُحمّلها ما لا تُطيق فتُصيبها بالخلل وإما أن تتعامل معها تعاملاً واقعياً . أنا ما أرى أن المسلم إنسان خيالي ، ولا إنسان حالم ، ولا إنسان مخرف ولا إنسان عايش فـي أوهام ، دائماً أهلُ الدنيا يشمئزون من كل تجاوز للواقع .. لستَ واقعيـاً .. يكشّـر .. لسـتَ واقعياً . أنا أقول لكم : المؤمن الحق في أعلى درجات الواقعية .. واقعي .. أنت أيها الإنسان فقير إلى ا .

..... في إنسان بأحد المصحات العقلية .. يعني في مهجع رقـم٦، هـذا المهجـع والعياذُ با بدرجة متطورة جداً لا يبقي على جِسمه ثياباً كما خلقه ا ، ويأكل من بـرازه .. شيء لا يتصور .. إنسان له أجهزة ودماغ وشرايين وأوردة وعضلات وأعصاب وعضـلات قوية يتحرك ويأكل ويتكلّم لكن في خلل في عقله فصار يأكلُ برازه ...وحدثني أحد من أثقُ به أن له قريبةً يضعونها على سرير ويربطونها بأربطة ليمنعونها من أكل برازها .

أنتَ فقير إلى ا .. فقير في عقلك ، فقير في عضلاتك ، لما قالَ النبي عليه الصلاة والسلام :

عن خَالِد بنِ أَبِي عمران أَن ابن عمر قَالَ قلما كَان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقُوم من مجاسٍ حتى يدعو بِهؤُلاء الدعوات لأَصحابِه اللهم اقْسم لَنَا من خَشْيتك ما يحولُ بيننَا وبين معاصيك ومن طَاعتك ما تُبلغُنَا بِه جنتَك ومن الْيقينِ ما تُهون بِه علَينَا مصيبات الدنْيا ومتعنَا بِأَسماعنَا وأَبصارِنَا وقُوتنَا ما أَحييتَنَا واجعلْه الْوارِثَ منا واجعلْ ثَأْرنَا علَى من ظَلَمنَا وانْصرنَا علَى من عادانَا ولا تَجعلْ مصيبتَنَا في دينِنَا ولا تَجعلِ الدنْيا أَكْبر همنَا ولا مبلَغَ علْمنَا ولا تُسلطْ علَينَا من لا يرحمنَا *

يعني كل عظَمة الإنسان إن كان له عظَمة متعلقة بعمل أجهزته فلو توقفت كليتاه عن العمل .. هنا المشكلة .. انقلبت حياته إلى جحيم ، لو انسدت قناةُ العين فسالَ الدمع من علـى خده و خرش خده حياته جحيم ، إذا أُصيب جهاز التوازن في الأذن الوسطى بالعطب يقـع لا

يقف .. جهاز التوازن .. أنت لولا هذا الجهاز تحتاج إلى قاعدة استناد ٦٠ - ٧٠ سم والدليل انظر إلى النماذج البشرية في المحلات التجارية دقق في الأرض ترى لها قاعدة استناد ٧٠سم .. التمثال الذي يلبسونه الثياب .. بائعو الثياب الجاهزة عندهم تماثيل هذه التماثيل من أجل أن تقف تحتاج إلى قاعدة استناد قطرها ٧٠سم ، فأنتَ لِحكمة أرادها ا عز وجل جعلَ لك قدمين صغيرتين لطيفتين تتناسبا مع قوامك بفضل جهاز التوازن .. جهاز التوازن ثلاث قنوات فيها سائل فيها أهداب لما الإنسان يميل فيتحرك السائل ويبقى مستوى السائل ولمـا القـوس مـال فيمس الأهداب فيتحسس الإنسان ويأخذ الاحتياط .. هذا سر ركوب الدراجة أساساً لولا جهاز التوازن لا يستطيع إنسان ركوب دراجة ، فأنتَ مفتقر إلى ا ، مفتقر إلى ا بمادة أودعهـا ا في عينيك تمنع التجمد لو ذهبت إلى فلندا إلى الدائرة القطبية بإمكانك أن تضع على عينيك كمامات لتحميهما من البرد .. مستحيل .. لابد من أن ترى طريقك وهذا السائل ملامس للجو الخارجي أودع ا فيك هذه المادة .. إخواننا الأطباء جزاهم ا عنّا كل خير حينما درسـوا الطب وجدوا أن حياة الإنسان تقوم على آلاف الشروط .. على آلاف .. الغدة النُخامية ملكـة الغُدد الصماء .. ملكة .. لو أصابها خلل ، الغدة الدرقية لو أصابها خلل ، الكظر .. الإنسـان شاهد أفعى صورة الأفعى انطبعت على الشبكية في الشبكية صار في إحسـاس ١٣٠ مليـون مخروط والعصب البصري ٩٠٠ ألف عصب نقل الصورة إلى الدماغ والدماغ أدرك بحسـب المفهومات .. المفهومات بحث قائم بذاته .. الطفل حينما يحبو يرى أفعى لا يخافُ منها يخيفه أبوه منها ينبأ أنها مؤذية دخل المدرسة من خلال تعامله مع الواقع ينشأ عنده مفهوم الأفعى .. فإذا رأى الأفعى استحضر هذا المفهوم فخافَ منها ، لما خاف الدماغ أبلغ النظام الهرمـوني وعلى رأسه الملكة وهي الغدة النُخامية أبلغها أن هناك خطراً ، الغدة النُخامية تُبلـغ الكظـر غُدتان فوق الكُليتين ، الكظر يرسل أربع أوامر هرمونية مباشرةً ، أول أمر يرسله إلى القلـب يسرع كان النبض ٨٠ صار ١٨٠ - ١٥٠ من أجل أن يسير الدم سريعاً إلـى العضـلات ، هرمون ثان يضيق لمعة الأوعية لأن الإنسان ليس بحاجة إلى شكل وردي بحاجـة إلـى دم للعضلات كي يهرب أو كي يقاوم ، هرمون ثالث يسرع الرئتين ، هرمون رابع يطرح كميات سكر في الدم جديدة ... وأنتَ لا تدري ... فأنتَ مفتقر فـي أجهزتـك إلـى آلاف الأجهـزة عشرات الأجهزة والغُدد الصماء ، يعني مرض السكر ما هو : يعني البنكرياس يفـرز مـادة الأنسولين ، الأنسولين تساعد على احتراق السكر في درجة ٣٧ .. إذا قلّت هذه المادة يحتـاج إلى حقن أنسولين ..

المشكلة أن هناك حقيقة لابد من أن تتعاملَ معها أعجبتك أو لم تُعجِبك ، قَنعتَ بهـا أو لم تقنع بها ، رضيتَ بها أو لم ترض ، إنك فقير إلى ا . لهذا قال بعض العارفين با :

وما لي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع

ومالي سوى قرعي لبابك حيلة   فإذا رددت فأي باب أقرع

أنتَ بالافتقار إلى ا غني أول فكرة أن تتعامل مع الحقائق ، ثاني فكرة اعلم علم اليقين أنك فقير أي مفتقر أي محتاج ، الفكرة الثالثة لماذا جعلك ا فقيراً كي تُقبِلَ عليه كي تستعين بـه كي تلجأ إليه كي تسعد بقُربه ، الفكرة الرابعة أنك إذا كُنتَ مفتقراً إلى ا فأنـتَ الغنـي . إذا كُنتَ مفتقراً في قوتك إلى ا فأنتَ القوي . هذه أهم فكرة الذي يشعر بالغنى ؟ من كـان لـه اعتماد على جهة غنية جداً ، يعني طالب في بجيبه ليرة وطالب ليس بجيبه ولا قرش لكن لـه أب لو طلب منه مليون لأعطاه أيهما أغنى ؟ حسب الظاهر الأول معه ليرة والثاني لا يملـك ولا ليرة أما الأول ليس له أب يتيم معه هذه الليرة فقط أما الثاني ليس في جيبه ليرة لكن لـه أب يملك مئات الملايين وهو يحبه حباً جماً يطلُب منه يعطيه ما يشاء .

إذا ا عز وجل أفقر إنساناً أو حرمه شيئاً ، لا يلقين في روعـه أن هـذا إهانـة لـه . موضوع دقيق جداً مستنبط من قوله تعالى :

فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾

(سورة الفجر)

ا قال كلا .. لماذا قالَ كلا ؟ كلا أداةُ ردعٍ ونفي يعني ليس إعطائي لكـم إكرامـاً وليس حرماني لكم إهانةً .. عطائي ليس إكراماً ومنعي لـيس حرمانـاً .. عطـائي ابـتلاء وحرماني دواء . القاعدة الأساسية الذهبية : أن كل شيء آتاك ا إياه لا يمكن أن يسمى نعمةً إلا إذا استخدمتها في طاعة ا ، فالمال تعريفه في علم العقيدة ابتلاء .. أنفقته في طاعـة ا صار نعمة .. أنفقته في معصية ا صار نقمة ، الزوجة نعمة ؟ لا .. تزوجتها حملتها علـى طاعة ا أصبحت نعمة .. تركتها وشأنها تفسد وتُفسد هي نقمة .. لذلك إياك أن تقول لإنسان آتاه ا مالاً هنيئاً لك .. لا تقل له هنيئاً لك إلا إذا رأيته ينفقُ هذا المالَ في طاعة ا ، لا تقل لإنسان يتمتع بقوة جيدة هنيئاً لك .. لا تقل له هنيئاً لك إلا إذا استخدم هذه القوة في طاعـة ا ، هذه قاعدة أساسية : كل حظوظ الدنيا بدءاً بالمال ومروراً بالصحة والذكاء والجمال والقـوة .. هذه الحظوظ هي في نص القرآن الكريم ابتلاء .. " **فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول** " هو هذه مقولته " **ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول** " هو "

ربي أهان كلا " لا هذا صحيح ولا هذا صحيح ليس عطائي إكراماً ولا منعي حرماناً ، عطائي ابتلاء وحرماني دواء .

يعني .. أيها الإنسان إذا ابتلاك الله بشيء لا تشعر بـالهوان .. الله منـع عنـي .. وأعطى غيري .. الله لا يحبني ..لا .. اشعر أن الله يحبك ولأنه يحبك ابتلاك وفـي الحـديث الشريف :

"إذا أحب الله عبدا ابتلاه، فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه" قيل: وما اقتناه؟ قال "لم يترك له أهـلا ولا مالا" أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني

وقال بعض العلماء : الفقر والغنى ابتلاء من الله لعبده كم قـال الله تعـالى " **فأمـا الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن كلا** " أي ليس كل من وسعتُ عليه وأعطيته أكون قد أكرمته ولا كـل مـن ضيقتُ عليه وقتّرتُ عليه أكون قد أهنته فالإكرام ... هنا ... طيب ما هو الإكرام ؟ .

الآن : الله عز وجل نفى أن يكون إعطاؤه المال أو الصحة أو القوة أو الذكاء أو أي شيء آخر إكراماً ، ونفى أن يكون الحرمان من هذه إهانةً ، ليس إكراماً في توافرها ولـيس إهانةً في تقتيرها .

إذاً : ما تعريف الإكرام ..؟.. من هو المكرم ..؟.. من يذكر آية واضحةً وضـوح الشمس جليةً جلاء النهار تؤكد أن الإكرام هو كذا .

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

(سورة يوسف)

الجواب :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

(سورة الحجرات)

المكرم هو الطائع ـ عز وجل ، إذا أردت أن تعرف من هو المكـرم حقيقـةً ، إذا رأيته مستقيماً على أمر ا . ليس الولي من يطير في الهواء ولا من يمشي على وجه المـاء ولكن الولي كل الولي من تجده عند الأمرِ والنهي .

قبلَ أن نختم الدرس هناك حقائق لابد من ذكرِها .

أولاً : الافتقار إلى ا في ظاهره تذلل تجد رجلاً متعجرفاً أنا فعلتُ كذا أنا قادر أن أُنفق كذا أنا قادر أن أُمرغَ به الوحل .. ممكن .. هذا الموقف فيه استغناء واستعلاء ومعظـم المقطوعين عن ا عز وجل لابد من أن تلمح في سلوكهم هذا الاعتزاز والغرور والاستعلاء والغطرسة والعنجهية .. القصة التي تعرفونها جميعاً لما أحد الملوك اسمه جبلةَ ابن الأيهـم جاء سيدنا عمر مسلماً في أثناء الطواف داس إزاره أحد الأعراب من فزارة بـدوي فالتفـت نحوه وهشمه بضربة أصابت أنفه فاشتكى إلى عمر رضي ا عنه فجاء طلب هذا الملك كان ملك الغساسنة قال له أ صحيح يا ابن أيهم ما ادعى هذا الفزاري الجريح ؟ قال : لستُ ممن يكتم شيأً أنا أدبتُ الفتى أدركتُ حقي بيدي ، قال أرضي الفتى لابد من إرضائه ما زال ظفرك عالقاً بدمائه أو يهشمن الآن أنفُك وتنال ما فعلته كفُك ، قال : كيفَ ذاك يا أمير هو سوقةٌ وأنا عرشٌ وتاج كيفَ ترضى أن يخر النجم أرضاً ، قال له عمـر : نـزوات الجاهليـة وريـاح العنجهية قد دفناها أقمنا فوقها صرحاً جديداً وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً ، قـالَ كـان وهماً ما جرى في خَلَدي أنني عندكم أقوى وأعز أنا مرتد إذا أكرهتني ، قال : عنقُ المرتـد بالسيف تُحز عالم مبني كل صدعٍ فيه بشبى السيف يداوى وأعز النـاسِ بالعبـد بالصـعلوك تساوى

هذا موقف ... فالإنسان لما يأخذ موقفاً فيه استعلاء وتكبـر وغطرسـة وعنجهيـة وعرض عضلات وتجبر يبدو للناس أنه قوي وعزيز يأتي المؤمن يأخذ موقفاً آخـر موقـف التواضع والإستكانة إلى ا عز وجل موقف الاعتراف بالضعف موقف الاعتراف بالتقصـير .. يعني تواضع . طيب .. أيهما أحب للنفس ؟ هنا سئِل أحد العلماء قال : الفقر له بداية ولـه نهاية وظاهر وباطن ، بدايته التذللُ إلى ا ونهايته العز با .. الاعتزاز با .. ما في إنسان تواضع كرسول ا دخلَ مكةَ فاتحاً وقد أخرجته وأصحابه وائتمرت على قتله ونكّلت بـه وبأصحابه، دخلها فاتحاً كادت ذؤابة عمامته تُلامس عنُقَ بعيره تواضعاً عـز وجـل ، ولا أعلم مخلوقاً على وجه الأرض نالَ عزاً وشرفاً كرسول ا .

فإذا أنت مفتقر عز وجل فيما يبدو للناس .. درويش هذا درويـش ، متواضـع زيادة .. إذا كُنتَ مفتقراً إلى ا عز وجل هذه بدايتُك أما نهايتُك أنتَ العزيـز ، أنـتَ رفيـع الشأن ، أنتَ مرهوب الجانب ، أنتَ الذي يهابك الناس ... فقال : بدايته التذللُ إلى ا ونهايته

العز ، ظاهره العدم .. تجد .. قد تملك ألوف الملايين وأنتَ فقير ، أنتَ من خوف الفقر فـي فقر ، ومن خوف المرض في مرض ، وقد لا تملك شيئاً وأنتَ غني

لذلك النبي الكريم قال : " أنتَ من خوف الفقر في فقر " .

يعني .. توقّع المصيبة مصيبةٌ أكبر منها .

إذاً : ظاهر الفقرِ العدم وباطنه الغنى ... طيب سؤال ... إذا الإنسان افتقر إلـى ا ما الذي يحصل ..؟.. إنه يستغني به ، وإذا استغنى به صار أغنى الأغنياء ، من هو الغنـي الحقيقي..؟.. هو المفتقر . لهذا أروع كلمة قالها الإمام علي كرم ا ُ وجهه قال: الغنى والفقر .. وسكت .. قال : بعد العرضِ على ا . لا يسمى الغني غنياً الآن ، ولا الفقير فقيراً ، غني غنى طارئاً لسنوات معدودة ، وفقراً طارئاً ، لكن الغنى الحقيقي أن تُطيع ا وتأتيه يوم القيامة ناجياً من عذابه فقال الغنى والفقر بعد العرضِ على ا .

قالَ بعضهم : إذا صح الافتقار إلى ا تعالى صح الاستغناء به لن تستغني به إلا إذا افتقرتَ إليه ، إن لم تفتقر إليه لا تستغني به ، لا يصح استغناؤك إلا إذا افتقرتَ إليه وإذا صح الاستغناء با عز وجل كملَ غناك .

أعلى درجات الغنى أن تكون في أدنى درجات الفقر . هذه من المفارقات .

سئِلَ بعضهم : أ نفتقر إلى ا ِ أم نستغني به ..؟.. فقالَ : كلاهما .. كلاهما .. يجب أن تفتقر إليه أولاً حتى تستغني به ثانياً .

إذا كُنتَ في كُل حالٍ معي فعن حمل زادي أنا في غنى .

كُن مع ا ترى ا معك واترك الكُل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك

أحد العلماء قال " غداً لا يوزن الفقر والغنى ولكن يوزن الصبر والشُكر " .

فلذلك حقيقةٌ يجب أن نعترفَ بها في الأساس تعامل مع الحقائق وإياك كمـؤمن أن تتعامل مع الأوهام أو الخرافات أو الجهل ، وما الجهل ؟ هو اعتقاد مخالفٌ للواقع ، ما العلم ؟ إدراك الشيء على ما هو عليه بدليل ، ما الجهل ؟ إدراك الشيء على خلاف ما هو عليه بلا دليل فالتعامل مع الحقائق ، ثانياً هناك حقيقةً صارخة وهي أنك محتاج إلى ا في كل شيء ، الحقيقة الثالثة أن الافتقار لمصلحتك لو أن ا جعلك غنياً لاستغنيتَ بغناك عـن ا فشـقيتَ باستغنائك ، جعلك مفتقراً إليه كي تكون مفتقراً مقبلاً ملتجئاً معتزاً حتى تسعد بهذا .

الفكرة الأخيرة : الغنى الحقيقي طريقه الافتقار إلى ا وهذا هو حجمك الحقيقـي ، ورحم ا ُ عبداً عرفَ حده فوقفَ عنده .

والحمد رب العالمين* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

مع الدرس الثاني والعشرين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين و منزلة اليوم منزلة الإيثار .

هذه المنزلة مأخوذةٌ من قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

(سورة الحشر)

يعني إذا قُلت إن في المؤمن سمةً .. ومعنى السمة غير الصفة ، قد تعود عشرات الصفات إلى سمة واحدة ، فالسمةُ أعمقُ وأوسع شمولاً ، فإذا قُلت : إن من سمات المؤمن ، من خصائصه ، من كُلياته ، من الصفات الكبرى التي يتصفُ بها ، يعني بالتعبير الحديث جداً من مواقفه الأساسية .. الإيثار .. ، ومن صفات الكافر والفاسق والفاجر : .. الأثَرةَ .. الكافر يؤثر ذاته على كل نفس ، يبني حياته على موت الناس ، وغناه على فقر الناس ، ومجده على أنقاض الناس ، وأَمنه على خوف الناس .

بينما المؤمن من خصائصه الكُبرى و صفاته العظمى وسماته الأساسية أنه يؤثر الآخرين على نفسه والدليل هؤلاء الأنصار أثنى ا عليهم فقال " **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** " .

طبعاً إذا آثرتَ الآخرين وأنتَ في بحبوحة كبيرة فهذه مؤاثرة ، فهذا كرم ، أما أن تكون في خصاصة هذا يذكّرنا بالحديث القُدسي :

" **أُحب الأسخياء وحبي للفقير السخي أشد ، أُحب الكُرماء وحبي للفقير الكريم أشد** " ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول : " **رب درهمٍ سبقَ ألفَ درهم**"

فالإيثار .. لاحظ الآية .. " **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** " يؤثرون ، أما الخصاصة تُضاعفُ قيمة إيثارهم . القسم الثاني من الآية " **ومن يوق شُح نفسه فأؤلئك هم المفلحون** " يقابل الإيثار .. الشُح ..

الإنسان بين شُحٍ وإيثار ، إن كان مؤمناً فهو يؤثر ، وإن كان غير مؤمنٍ فهو شحيح .

الشحيح حريص على ما ليس في يده ، ينفق للامه .. لماذا تُنفق يا رجل ، هذا المال دعه لك، ادخره لوقت الشدة ، لماذا تُنفق أ مجنون أنت . الشحيح حريص على ما ليس في يـده ، فإذا حصلَ هذا في يده كان به أشح وبخلَ بإخراجه والبخلُ صفةٌ ماديةٌ أساسها الشُـح ، مـن الداخل شُح ، من الخارج بخل ، ومن يوقَ مرض الشُح .. هذا مرض .. مرض عضـال " **ومن يوقَ شُح نفسه فأؤلئك هم المفلحون** " فالبخلَ سلوك النفسِ الشحيحة ، والعطاء سـلوك النفسِ المؤاثرة الكريمة . يقول عليه الصلاة والسلام :

عن عبد الله بنِ عمرو قالَ خَطَب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فَقَالَ إياكُم والشح فَإِنما هلك من كان قبلكُم بِالشح أَمرهم بِالْبخْل فَبخلُوا وأَمرهم بِالْقَطيعة فَقَطَعوا وأَمرهم بِالْفُجور فَفَجروا *

مرة ثانية : السمةُ الأساسيةُ ، الصفةُ الثابتة ، الحركة اليومية لغير المؤمن هي الشُح ، والصفة البارزة للمؤمن هي المؤاثرة والإيثار .

قالَ عبد ا بن المبارك : سخاء النفسِ عما في أيدي الناسِ أفضلُ من سخاء النفسِ بالبذل .. الإنسان إذا تعففَ عن أموال الناس هذا أولُ مراتب الإيثار فإذا أعطاهم كان أرقى . .. العطاء لا يبنى إلا على التعفف تتعففُ أولاً وتُعطي ثانياً . الحقيقة في ثلاث مراتب متعلّقـة بالعطاء أعلى هذه المراتب هي الإيثار ، الإيثار سمي إيثاراً لأنه يعطي الكثير ويبقي القليـل ، أما إذا أعطيتَ القليل وأبقيتَ الكثير فهذه منزلة هي أقل من منزلة الإيثار بكثير اسمها السخاء .. سخت نفسك بهذا العطاء أعطيت القليل وأبقيتَ الكثير ، فإذا أعطيتَ بقدرِ ما أبقيت فهذا هو الجود ، فإذا أعطيتَ الكثير وأبقيتَ القليل فهذا هو الإيثار ، الإيثار ، الجود السخاء . ثـلاثُ صفات أساسية للمؤمن . النبي عليه الصلاة والسلام قالَ مخاطباً الأنصار :

عن أَنَس بنِ مالِك عن أُسيد بنِ حضيرٍ رضي الله عنْهم أَن رجلا من الأَنْصار قالَ يا رسولَ الله أَلا تَستَعملُني كما استَعملْتَ فُلانًا قَالَ ستَلْقَون بعدي أُثْرةً فَاصبِروا حتى تَلْقَوني على الْحوض *

.. الأنانية .. فالإنسان بين الأثرة والمؤاثرة ، بين أن يفضلَ ذاته وبـين أن يفضـلَ غيره، المؤمن دائماً يبتغي رضوان ربه يفضلُ رضوان ربه ، هو المؤمن لا يؤثر الآخرين إلا ابتغاء مرضاة رب العالمين ، إذاً ماذا يفعل ؟ يتخذُ من إكرام الناسِ ومن إيثارهم على نفسـه

سبيلاً إلى ا عز وجل ، فالطريقُ إلى ا ـِ أساسه الإيثار ، والقطيعةُ مع ا أساسها الأثرة .. الشُح .. فأنتَ بين الأثرة والإيثار ، بين الجود وبين الشُح ، بين أن تُعطي وبين أن تأخذ وقـد صدقَ من قال : إذا أردتَ أن تعرِفَ مقامك أمن أهل الدنيا أنت أم من أهل الآخرة .. دقق .. ما الذي يفرحك ، ما الذي يسعدك ، أن تُعطي أم أن تأخذ ، إذا كان الذي يفرحـك أن تُعطـي فأنتَ ورب الكعبة من أهل الآخرة وإذا كان يفرحك أن تأخذ فأنتَ قطعاً من أهل الدنيا .

صفتان أساسيتان ، سلوكان عامان ، حركتان ثابتتان ، إما أن تكون من أهـل الأثـرة وإما أن تكون من أهل المؤاثرة .

سيدنا قيس بن سعد ابن عبادة رضي ا عنهما كان من الأجواد المعروفين حتى إنه مرض مرةً فاستبطأ إخوانه في العيادة فسألَ عنهم ، فقالوا : إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين .. الدين الذي عليهم حالَ بينهم وبين أن يعودوك ، فقالَ سيدنا سعد بن عبادة أخزى ا مالاً يمنع الأخوان من الزيارة ، ثم أمر منادياً ينادي من كان لقيسٍ عليه مالٌ فهو منه حلٌ فما أمسى حتى كُسرت عتبةُ بابه لكثرة من عاده ....

عشرة أنواع أو مراتب للجود .. عشرة .. سأُفصلُ فيها إن شاء ا تعالى فلعـل أحـدنا يتخلّقُ ببعضها أو بأكثرها أو بأقلها ، فقالوا أحد هذه المراتب ربما كان أعلاها على الإطلاق : الجود بالنفس . هذا الذي يقتلُ في ساحة المعركة شهيداً ، هذا الذي قدم ـِ ذاته قـدم نفسـه ، والجود بالنفسِ أقصى غاية الجود ، النبي عليه الصلاة والسلام ذكر للشهيد صـفات تكـاد لا تُصدق ُأولى هذه الصفات أن ا سبحانه وتعالى يجعلُ طريقةَ قتله ليست مؤلمةً أبداً .. إطلاقاً .. ويجعلُ دمه له رائحةُ المسك ، ويرى منزلته بالجنة قبلَ أن يقتل .

وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

(سورة آل عمران)

ولكن بقوانين لا علاقةَ لها بقوانين الدنيا ، لذلك الجود بالنفس وهو أعلى مراتبـه ، وكم من حفريات تمت في بلاد الرافدين فعثر على جثث الصحابة بعد ألف وثلاثمائة عامٍ كما هي ، وكم من حفريات تمت في اليرموك فعثر على أجساد الصحابة كما هي ، والشهداء الذين قدموا أرواحهم في سبيل ا هؤلاء لهم أعلى الدرجات ، أعلى درجة فـي الجـود أن تجـود بنفسك .

في درجة ثانية عاليةٌ جداً وهي الجود بالرياسة ، لك مكانة رفيعة ضحيتَ بها فـي سبيل ا ... إنسان يكون له منصب رفيع أو مكانة معينة فإذا أراد أن يستقيم علـى أمـر ا وإذا أراد أن يرضي ا عز وجل لابد من التخلّي عن هذا المنصب أو عن هذه المكانة أو عن هذه المنزلة ، .. المكانة التي يحتلّها الإنسان شقيقةُ الروح فلذلك كثيـر مـن الـذين كفـروا واستكبروا وكابروا وأبوا أن يؤمنوا أو يسلموا حفاظاً على مكانتهم و حفاظاً على مركـزهم و حفاظاً على رياستهم فإذا ضحى الإنسان بمكانته أو برياسته أو بمنصبه أو بمنزلته في سـبيل ربه فقد آثر ا على مكانته أما هنا المشكلة .. المشكلة : وكما أقول دائماً ربما تأخذون علـي أنني أستخدم هذه العبارة كثيراً : زوالُ الكونِ أهون ، وا هذه العبارة ما رأيت عبارةً تُعبـر عما في نفسي خيراً منها .. زوال الكون أهون على ا .

على ا عز وجل من أن يضيع مؤمناً آثر رضاه . آثرتَ رضاه ويضيعك ، آثـرت رضـاه ويخزيك ، آثرتَ رضاه ويجعلُك في مؤخرة الركب ، آثرتَ رضاه ويفقرك ، آثـرتَ رضـاه ويشقيك ..... هذا شيء مستحيل في ذات ا عز وجل لأنه الكريم ، إنـه الشـكور ، فـأكثر الناس يقولون : إذا فعلتَ كذا وهو طاعة يصيبك كذا وكذا ، أ هكذا ..؟.. لأنك أطعتَ ا عز وجل دفعتَ هذا الثمن الباهظ ، لكن ما الذي يحصل ..؟.. قد يتراءى لك أنك إذا أطعـتَ ا جاءك ضرر كبير ، وشقاء طويل لكنك لشدة حبك عز وجل تؤثر ما عند ا مـن سـعادة وتُضحي ، الذي يحصل أن ا سبحانه وتعالى يبدلُ القوانين من أجلك وهي الكرامـة ، فهـذا الذي كان من الممكن أن يثور ويغضب لهذا الموقف الذي وقفته ... يعطفُ ويقدر ويبجل هذا الموقف ويعود الموقف الخطير موقفاً مسعداً .

.. أحد إخواننا الكرام له عمل مع شركة أجنبية ودخله كبيـر جـداً منهـا وهـؤلاء الموظفون يحملون في حقائبهم الخمرة إذا اشتروها من بعض المحلات فحينمـا رأى مركبتـه يوضع فيها الخمر أبى عليه إيمانه وأبت عليه مروءته واستقامته وغيرته وحبه عز وجـل فنوى أن يضحي بكل هذا الراتب الضخم وبكل هذه الوظيفة ذات الدخل المرتفـع ويقـول لا أسمح أبداً لأحد أن يركب في مركبتي ومعه مشروب حرام ، فالمفروض أن هؤلاء يسـتغنون عنه وهناك عشراتٌ بل مئاتٌ يتهافتون على أقدامهم ليعملوا معهم براتبٍ ضـخم ،و حصـل عكس ما متوقّع تمسكوا يه وبالغوا في تكريمه وأغدقوا عليه من العطايا وأَمنوه على بيـوتهم وعلى أموالهم ، على عكسِ ما أنتَ متوقّع ، وأقول لك هذا الكلام وأعني ما أقول : إذا جاءك عرض أو جاءك موقفٌ بين موقفين إما أن تُطيع ا عز وجل تُضيع هذا الكسب الكبير هـذه الدنيا العريضة هذا المركز المرموق وإما أن تقبله على معصية ا ، قول جميـل ورائـع إذا آثرتَ الآخرة على الدنيا كسبتَ الآخرة والدنيا ، وإذا آثرتَ الدنيا على الآخرة خَسرتَ الـدنيا والآخرة ...فالجود بالرياسة هو ثاني مراتب الجود .

وأما المرتبة الثالثة : فالجود براحته ورفاهيته . الإنسان يدخل إلى بيته يتناول طعام الغداء ، يستلقي على السرير ، يستيقظ حوله أهله وأولاده ، بإمكانه أن يبقى مستمتعاً في بيته ، يطلب من حين لآخر ما لذ وطاب ، لكنه ترك البيت وترك المقعد الوثير وترك الزوجة الوفية وترك الأولاد الذين هم كالعصافير ، تَرك كُل أؤلئك وركب السيارة الأولى وركب الثانية وقد يكون فيها ازدحام ليصلَ إلى بيت الله ليحضر مجلس علم ، أنتَ بماذا جدت ..؟.. جدتَ براحتك ورفاهيتك ، طُرِقَ بابك في وقت راحتك ، من الطارق فُلان ، هذا وقتُ نومي أبلغوه أنني لستُ مستعداً لاستقباله الآن .. آثرتَ الراحة .. أما إذا نهضت ، وأجبتَ طلبه ، ورددتَ لهفته ، وأغثته، بماذا جدتَ أنت ..؟.. جدتَ أنتَ براحتك ورفاهيتك : الجود براحة الإنسان ورفاهيته هذا أيضاً من الجود .

المرتبة الرابعة : الجود بالعلم . أول واحدة بالنفس ، الثانية بالمكانة والمنزلة ، الثالثة بالراحة ... .. في ُأناس لا يمكن أن يضحوا بأوقات راحتهم .. لا يمكن أن يضيعوا قيلولتهم كُل يوم .. لا يمكن أن يضيعوا سهرتهم كُل يوم ... لو أن الناس تَعبوا كثيراً هو عليه أن يرتاح .... هذا أيضاً من ضعف الإيمان .

المرتبة الرابعة : الجود بالعلم وبذلُه وهو من أعلى مراتب الجود لأنه من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ..أن إنساناً كان ضائعاً ، تائهاً ، شارداً ، شقياً ، بيته جحيم ، مشكلاته كثيرة ، دللته على الله فاستقام على أمرِه ، فشعر بالسعادة والطمأنينة ، تيسرت أعماله ، يسر الله له دخلاً وفيراً ، يسر الله له زواجاً سعيداً ، فحينما التقيتَ به بالغَ في شُكرِك وأثنى على دعوتك وقالَ لك : جزاك الله عني كُل خير ، كُل أعمالي في صحيفتك ، أنتَ سبب هدايتي .... ألا تشعر وأنتَ تستمع من هذا الإنسان لهذا الثناء أن الله يحبك ، وأن الله قد رضي عنك ..؟.. وأن هؤلاء الخلق عيالُ الله وأن أحبهم إلى الله أنفعهم لعياله ، ألا تشعر بالغبطة أن يستخدمك الله في الخير ، ألا تشعر بالاعتزاز أن تكون موظفاً عند الله عز وجل ، ألا تشعر بالقُرب حيثُ أن الله سبحانه وتعالى أجرى على يدك الخير .... هذا شعور والله يا أيها الأخوة لا يعرِفه إلا من ذاقه .

في مجلة كُنتُ أقرؤها .. هي مترجمة كُلُها .. يعني مرة قرأتُ فيها كلمتين في مؤخرة صفحة فارغة ، يعني بعض المجلات يكون باقي نصف صفحة فارغة يضعون فيها حكمة .. قرأتُ هذه الكلمة ولا أنساها حتى الموت : **إذا أردتَ أن تسعد فأسعد الآخرين .**

إذا أردتَ أن تسعد فأدخل على قلبِ الناس السرور ، يعني مرة جاءني منجد للبيت معه صانع ، يعني يبدو أنه فقير جداً وجهه كالح ومعذّب ، أنا شعرت من ملامح وجهه ، من لون وجهه ، من جمود نظرته ، أنه طفل هين على الناس كثيراً ، فنريد أن نأكل .. تعال يا أخي تعال كُل معنا فتمنّع وخاف .. تعالَ كُل ، قال لي أكلت ، ألححتُ عليه أن يأكل ورحبتُ

به وابتسمتُ له .. سبحان ا أشرقَ وجهه ، شَعر كأنه بين أهله ، هكذا المـؤمن ... طفـل صغير أجير منجد خائف ، هين على الناس من أسرة فقيرة ، وجهه كالح ، أكرمته ودعوتـه إلى الطعام وأثنيتُ عليه حتى استأنس .. أنتَ مؤمن هذا عبد .... وا مرة قرأت حـدثاً لا أنساه : الإنسان بنيان ا وملعون من هدم بنيان ا .. هذا الطفل تجعله يخاف ، تُشقيه ، تبتز ماله .... فكلّما ارتفعت معرفتُك با عز وجل تشعر بعطف على الخلق كُلهم ، تشعر بمـودة لكُل المخلوقات ، هؤلاء عيالُ ا أحبهم إلى ا أنفعهم لعياله .

فالرابعة : الجود بالعلم .. يعني .. أنتَ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ، لـو فرضنا وجدت ابن صديقك ضائع والأب على نار قلق عليه وشوقاً إليه ، هذا الابـن : ابـن الصديق لو أطعمته شطيرة أو ألبسته ثوباً وتركته ضائعاً ، والأب يغلي ، لـو أنـك أطعمتـه وسقتَه إلى أبيه حتى قرت عينه به ألا تشعر أن سوقَك هذا الطفل الضائع إلى أبيه أعظم عملٍ تُقدمه لأبيه ..؟.. يعني .. أنت قد تُطعم الفقير ، لكن هذا الفقير إذا أطعمته ثم دللته علـى ا حتى عرفَ ا ، حتى أناب إليه ، حتى رجع إليه ، حتى لاذَ بحماه ..... ألا تشـعر أن هـذا العمل هو أعظم عمل عند ا عز وجل ، أن تَرد إليه عباده الشاردين ، التائهين ، الضـالين ، الذين شَقوا بالبعد عنه . لذلك .. ا شكور ، ما معنى شكور..؟.. أي يشكر لك عملَك ويجعلُ كُل أعمال الذين هديتهم إليه في صحيفتك .. كُل أعمالِهم في صحيفة من كان سبباً في هدايتهم .

لذلك .. نقول نحن جميعاً : اللهم أجزِ عنّا سيدنا محمداً صلى ا عليه وسلم ما هـو أهلُه. كُل أعمالُنا في صحيفة النبي عليه الصلاة والسلام . لكن أيها الأخوة الجود بـالعلم لـه مراتب ... من الجود بالعلمِ أن تبذُله لمن لم يسألك عنه ، في شخص ... هؤلاء جبابرة العلماء .... إذا ما سالت وتذللت وخضعت وانتظرت لا يجيبك ، أما من مراتب الجود بالعلم أن تبذله لمن لا يسألُك عنه ، يعني أنتَ راكب في مركبة عامة من هنا إلى حلـب وبجانبـك صـديق فسألته عن عمله، عن اسمه ... أنستَ له ... حدثّه عن ا عز وجل ولو لـم يسـألك ، لـك صديق ، لك ابن لك جار ، لك موظف في محلك ، هذا لو أنه ليس طالِباً للعلم ، ليس راغبـاً فيه ، بعيداً عن أجوائه، حاول أن تُلقي عليه بعض العلم ، جس نبضه بهذا العلم ، قدم له شيئاً لطيفاً ، شيئاً محبباً، شيئاً ممتعاً ، شيئاً مثيراً ، لعلّه يتفاعلُ به ، أعنه على دنياه ، دارِه ، ابذل شيئاً من الدنيا من أجل الآخرة ، فهذه المرتبة أن تبذله لمن لم يسألك عنه، بل تطرحـه عليـه طرحاً .. هذه مرتبة عالية في تعليم الناس . في مرتبة أخرى أن السائلَ إذا سألك عن مسـألة استقصيتَ له جوانبها .. شخص تسأله فيقول لك لا يجوز لماذا لا يجوز .. مـا الـدليل .. لا يشرح لأنه ضيق الصدر هنُاك أطباء يصفون الدواء .. يقول للمريض اسـتعمل الـدواء .. والمريض يتمنى معرفة مرضه فيضن الطبيب على المريض بكلمة أو بتفصيل أو ببيـان ...

مرة زرت طبيباً على ظهر الوصفة كتب اسم المرض وتشخيصه وشـرح للمـريض : هـذا المرض هكذا وشفاؤه عاجل إن شاء ا .. ألقى في قلبه الطُمأنينة .. ففي عالِم لا يجيبـك إلا إذا سألته وفي عالِم حتى إذا سائلته يعطيك جواباً مقتضباً إما أن يشرح ، أن يبين ، أن يـأتي بالدليل ، الغناء حرام .. حرام طبعاً .. طيب لماذا حرام الدليل : أول آية وثاني آيـة وأول حديث وثاني حديث .. بارك ا .. الآيات هكذا معناها هكذا تفسيرها . فالمرتبة الثانية أن يقدم له جواباً شافياً تاماً متقصياً .

قال بعض العلماء " كان إذا سئلَ عن مسألة .... ذكر في جوابها مـذاهب الأئمـة الأربعة إذا قدر، ومأخذَ الخلاف ، وترجيح القول الراجح ، وذكر متعلقات المسألة التي ربمـا تكون أنفع للسائل فيكون فرحه بتلك المتعلقات واللوازم أعظم من فرحه بمسألته ".

من جود الإنسان بالعلم ألاّ يقتصر في المسألة على أحد جوانبها مثلاً : النبي الكريم سئل .. عليه الصلاة والسلام عن الوضوء بماء البحر فقالَ عليه الصلاة والسلام : هو الطهور ماؤه . أليس هذا هو الجواب ، ألم ينتهي الجواب ، الحل ميتته .. هذه زيادة .. لو أنـه قـال الطهور ماؤه انتهى الجواب قالَ الحل ميتته ، أجابك وزاد . مثلاً سألوه صلى ا عليه وسـلم عن الحكم في بيع الرطب بالتمر فقالَ عليه الصلاة والسلام : أينقص الرطب إذا جـف ..؟.. التمر جاف والرطب طري " البلح " قالوا : نعم قالَ : فلا إذاً .. لو قال لهم لا يجـوز لمـاذا ..؟..لو بعتَ تمراً برطب الوزن واحد بعد يومين الرطب جف صار الكيلو نصـف أو ثلاثـة أرباع الكيلو فلا يوجد تكافؤ فلما نهى عن هذا البيع أراد أن يبين العلة صلى ا عليه وسـلم فقالَ : أيجفُ الرطب ؟ قالوا: نعم قال : إذاً فلا . أعطاك العلّة هنا هذه العلّة عقلية أنـت إذا كان سألك إنسان قد تُعطيه العلة النقلية ، الدليل النقلي ، لكن أكمل جواب أن تُعطيـه الـدليل العقلي والنقلي ، أ يجوز للمرأة أن تكشفَ عن وجهها تقول لا .. لماذا .. الآية الأولى والآيـة الثانية والآية الثالثة وخمس أحاديث .. الآية الأولى فسرها ابن عباس كذا وفسرها القُرطُبـي كذا وفسرها الإمام مالك كذا ... هذا دليل نقلي والعقلي موطن الجمال كُله في الوجه .. هـذا الدليل العقلي ، فإذا سئِلتَ عن شيء قدم الدليل العقلي والدليلَ النقلي فإذا جمعتَ بين العقلـي والنقلي فقد استوفيت المسألة وأجبتَ إجابةً صحيحة.

هذا من أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام في بذل العلم ، واحد ضمن بستاناً فجاءت جائحةً أتلفت كُل المحصول في عهد النبي عليه الصلاة والسلام ، فقال عليه الصلاة والسلام :

عن أَبِي الزبيرِ أَنه سمع جابِر ابن عبد الله يقُولُا قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لَو بِعتَ من أَخيك ثَمرا فَأَصابتْه جائِحةٌ فَلا يحل لَك أَن تَأْخُذَ منْه شَيئًا بِم تَأْخُذُ مالَ أَخيك بِغَيرِ حق *

يم يأخذُ أحدكم مالَ أخيه بغير حق ؟ يعني يعته هذه الثمار على الأشـجار وجـاءت جائحةٌ فأتلفت كُل شيء .. الآن تُطالِبه بثمانين ألف ثمن مـاذا يعنـي المفـروض أن يبيـع المحصول ويربح ويعطيك ثمن المحصول ، أما هذه الجائحة قضت على كُل المحصول أنـتَ الآن تُطالِبه بثمن هذا المحصول لوجود اتفاق ، فالنبي الكريم قال : " **إن يعتَ من أخيك ثمـرةً فأصابتها جائحةٌ فلا يحل لك أن تأخذَ من مال أخيك شيئاً** "، يقاس عليها أنه ومن ينكل يـدفع خمسين ألف ، لو نكل فُلان أخذتَ منه هذا المبلغ مقابل ماذا ، أنتَ عندك خيارين : إمـا أن تُقيله ولك أجر وإما أن تُلزمه بالبيع ، إما أن أرفع الأمر إلى القاضي فيلزمه بـالبيع لأن فيـه إيجاباً وقبولاً وخالياً من كلّ تدليس وغش وإما أن أعفو عنه وُأقيلَ عثاره لي عند ا الأجر ، الأولى عدل والثانية إحسان :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

(سورة النحل)

أما في كثير من الباعة .. يشتري الإنسان حاجة لا تزال في غلافها أراد أن يعيدها .. تخسر هذه مائة ليرة .. هذه المائة ليرة يم أخذتها ؟ لك أن تقول له لا ُأقيل عثارك ، البيـع تم ، ولك أن تُقيلَ عثاره ، أما أن تُقيلَ عثاره بثمن هذا الثمن يلا عوض . فقال عليه الصـلاة والسلام " **فلا يحل لك أن تأخذَ من مال أخيك شيئاً يم يأخذُ أحدكم مالَ أخيه بغير حق** " ،

بين العلة ، بين أن هذا عقد بيع عقد معاوضة لابد من عوضٍ مكان الـثمن ، كـل عقود البيوع عقود معاوضة ، لذلك اليانصيب حرام يلا عوض .

أحياناً : في مرتبة ُأخرى من مراتب الجود هي الجود بالنفع بالجاه ، يعني أنتَ لك مكانة عند فُلان ولي قضية عند فُلان أتذهب معي إليه ؟ يقول لك : أنا وا ِ لا أبذلُ ماء وجهي لأحد ، إذاً بخيل .. مادام أنا على حق ، وأنا ُأطالب بحق ، وهذا الإنسان متعنت لكنه يخشـاك ويرهب غضبك ، ولك عليه دالّة فاذهب معي إليه ، كُن شفيعي له ، يقول لك لا أنا لا أبـذلُ ماء وجهي أبداً لأحد ، إذاً شحيح .

شخص لحاجاتي لا يمكن أن أذهب إليه إطلاقاً لكن طرقَ بابي أخٌ كريم وله عنـده حاجة قُلتُ وا أذهب معك إليه ، قلتُ وا ِ لو أن قضيتي عنده مهما كبر حجمها لا أذهب إليه لكن من أجلك أذهب .. هكذا ينبغي أن نفعل وهذا اسمه : الجود بـالنفع بالجـاه ، كالشـفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطانٍ ونحوه وهو زكاةُ الجاه .. جميل هذا التفكير .. زكاةُ الوقت

: حضور مجالس العلم والصلاة أولاً ، زكاةُ الجاه : أن تشفع لمظلومٍ عند من يأتمر بـأمرك . يعني مثلاً : تحل قضية إنسان ، تمسح جِراح إنسان ، إذا لبستَ ثيابك وذهبـتَ إلـى فُـلان وأمضيتَ من وقتك ساعتين .. وا ِ أشعر أن المؤمن الصادق لا يمكن أن يبخـل بوقتـه إذا ذهبتَ إلى بيت هؤلاء يردون له زوجته تجمع بين زوجين ، تمسح الأسى عن أطفالِهما ، وهذا لا يكلّفُك إلا أن تذهب إلى بيت أهل الزوجة وتُقنعهم يرد ابنتهم إلى زوجها ولك علـيهم دالّـة ويرهبونك . لذلك : أفضلُ شفاعة أن يشفع الرجلُ بين زوجين في نكاح .

والمرتبةُ السادسة في الجود : الجود بنفع البدنِ على اختلاف أنواعه كما قالَ عليـه الصلاة والسلام :

عن أَبِي هريرةَ رضي الله عنْه قالَ قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كُلُّ سلامى من الناس عليه صدقةٌ كُلَّ يومٍ تَطْلُع فيه الشمس يعدلُ بين الاثْنَيْنِ صدقةٌ ويعين الرجلَ على دابته فَيحملُ عليها أَو يرفَع عليها متَاعه صدقةٌ والْكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ وكُلُّ خُطْوة يخْطُوها إِلَى الصلاة صدقةٌ ويميطُ الأَذَى عنِ الطريق صدقةٌ *

صدقة .. متفقٌ عليه .. إنسان يحمل أغراضاً ينوء بها وأنتَ شاب وشخص يستأهل أن تكون في خدمته فحملتَ عنه حاجاته .. بذلت الآن عضلات ، بذلت جهداً عضلياً .. هـذه صدقة هذه .. إذا سرتَ مع إنسان في شدة قدميك هذه صدقة ، إذا واحد في الطريق تبعثـرت حاجاته والطريق مزدحم وعكفتَ على هذه الحاجات وجمعتها له .. هذا عمل طيب ..

ومن أغربِ أنواع الجود الجود بالعرض ، والعرض في التعريف الـدقيق مـوطن المدحِ والذم في الإنسان ، فأبو ضمضم من الصحابة الكرام كان إذا أصبح قال : اللهم إنـي لا مالَ لي " أنا فقير يارب " ، اللهم إنه لا مالَ لي أتصدقُ به على الناس وقد تصـدقتُ علـيهم بعرضي فمن شتمني أو قذفني فهو في حلٍ فقال عليه الصلاة والسلام : من يستطيع مـنكم أن يكون كأبي ضمضم فليفعل . لا يملك شيئاً من حطام الدنيا فقال : إذا واحد شتمني أو تحـدثَ عني بالسوء فأنا أُسامحه .. تصدقتُ على الناس بموطن المدحِ والذم في .. بعرضي .. هـذا نوع من أنواع الجود .

في نوع آخر : الجود بالصبر ، إنسان له ابن فسيارة دهست ابنه وصار في كسر ، يقدر أن يأخذ تقريراً شرعياً ويدفع السائق مبالغ طائلة والسائق مستقيم والحادث قضاء وقدر وعن غير قصد و رآه قدم وبذل وأسعف وجهد وليس له دخل كبير إطلاقاً وا سلّم الولد فأنتَ عفوتَ عنه بعد أن اطمأن الأب على ابنه وصار في نوع من العناية الفائقة ، فإذا عفوت عنه ، فهذا جود منك أما إذا كان عفوك عنه يدفَعه إلى أن يتجاوز حدود الآخرين هذا لا يجوز ، أما إذا كان في عفوِك عنه تكريماً له وتقديراً لشعوره الأخلاقي فربما في بعض المواطن يعد العفو عنه مكرمة، الدليل :

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

(سورة المائدة)

واحد جرح الأخر ، له حق المجروح أن يقتص من الجارح قال " **فمن تصدقَ بـه فهو كفارةٌ له** "

وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾

(سورة الشورى)

واحد خطب وعقد القران بعد أيام نَدم ندماً شديداً ، عليه نصفُ المهر ، ..

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾

(سورة البقرة)

إذا أهل الفتاة عفَوا عن هذا الخاطب النادم وسامحوه بنصف المهر فهذا صدقةٌ لهـم تُعد .

المرتبة التاسعة : الجود بالخُلق والبِشر والبسطة . يكون عندك موظفـون ، عنـدك صنّاع، لك مكان قيادي معلّم مثلاً ، مدير ، مدير مستشفى ، مدير مؤسسة ، يعني أحياناً مـن حولك يؤنسهم أن تبتسم في وجوههم ، يضن عليهم بابتسامة ، يضن عليهم بكلمة شُـكر ، ا يعطيكم العافية لا يقولها ، يدخل والجميع يقفون إجلالاً له وهو معـرض عـنهم ، جلـس .. أعطوني القهوة ، قُل السلام عليكم .. عافاكم ا .. دخل الحاجب: كيف صحتك يابني كيـف

أحوالك هل أنت بحاجة لشيء .... هذا لا يقال من قدرك أنتَ مدير عام وهذا حاجـب .. لا يقال من قدرك .. ففي جود بطلاقة الوجه ، بالسلام ، بالسؤال ، بالكلمة الطيبة ، هذا مـن الجود . الدليل :

عن أَبِي جري جابِرِ بن سليمٍ قَالَ رَأَيتُ رجلًا يصدر الناس عن رأْيه لا يقُولُ شيئًا إِلا صدروا عنْه قُلْتُ من هذَا قَالُوا هذَا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قُلْتُ عليك السلام يا رسولَ الله مرتَينِ قَالَ لا تَقُلْ عليك السلام فَإِن عليك السلام تَحيةُ الْميت قُلِ السلام عليك قَالَ قُلْتُ أَنْتَ رسولُ الله قَالَ أَنَا رسولُ الله الذي إِذَا أَصابك ضر فَدعوتَه كَشَفَه عنْك وإِن أَصابك عام سنَة فَدعوتَه أَنْبتَها لَك وإِذَا كُنْتَ بِأَرضٍ قَفْراء أَو فَلاة فَضلتْ راحلَتُك فَدعوتَه ردها عليك قَالَ قُلْتُ اعهد إِلَي قَالَ لا تَسبن أَحدا قَالَ فَما سببتُ بعده حرا ولا عبدا ولا بعيرا ولا شَاةً قَالَ ولا تَحقرن شيئًا من الْمعروف وأَن تُكَلم أَخَاك وأَنْتَ منْبسطٌ إِلَيه وجهك إِن ذَلك من الْمعروف وارفَع إِزارك إِلَى نصف الساق فَإِن أَبيتَ فَإِلَى الْكَعبينِ وإِياك وإِسبالَ الإِزارِ فَإِنها من الْمخيلَة وإِن الله لا يحب الْمخيلَةَ وإِنِ امرؤٌ شَتَمك وعيرك بِما يعلَم فيك فَلا تُعيره بِما تَعلَم فيه فَإِنما وبالُ ذَلك عليه *

هذا معروف أن تبتسم لأخيك ، طبعاً لأخيك هو مستغنٍ عنّك أما أن تبتسم لموظـف عندك ، أن تبتسم لصانعٍ صغير ، يتمنى أن تبتسم بوجهه ، يتمنى أن يسمع منك كلمة مؤنسة .

أقل مراتب الجود أن تترفع عما في أيدي الناس .. هذا الجود السلبي .. في إنسان يطمع بأموال الناس ، يراقبون إذا تعففتَ عن أموال الناس فهذا أحد أنواع الجود . لكن إن شاء ا في موضوع دقيق جداً وأُعلّقُ عليه أهميةً كُبرى في موضوع الجود أرجو ا سبحانه وتعالى أن يتاح لي في درسٍ قادم هو موضوع المؤاثرة أن تؤثر مخلوقاً على حظك من ا عز وجل هذا تَزِل به أقدام كثيرين وهم لا يشعرون . هذا الموضوع إن شاء ا سأوفيه حقه في الدرس القادم .. يعني .. لا مؤاثرةَ في الخير والخير كُله في المؤاثرة ، يعني أن أُؤثر إنسان ولا أُصلي وأنا أُحدثه عن ا عز وجل .. لا.. آثرته على صلاتك ، آثرته على طاعة ربك ، آثرته على حظك من ا عز وجل ، هذا موضوع دقيقٌ دقيق وأكثر المؤمنين قد تَزِلُ أقدامهم فيه فينبغي إن شاء ا تعالى في درسٍ قادم أن نوفّيه حقه .

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا   الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم .... مع درسٍ جديد من دروس مدارج السالكين في مراتب إياك نعبد وإياك نستعين و منزلة اليوم هي منزلة الشُكر . أولاً : يقول ا   عز وجل :

مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴿١٤٧﴾

(سورة النساء)

هذه الآية أصلٌ كبير من أُصول الدين .. يعني .. إذا شكرتم وآمنتم أو إذا شـكرتم بعد أن آمنتم أو إذا آمنتم وشكرتم ما يفعل ا   بعذابكم ؟ معنى ذلك أنكم حققتم الهدفَ الكبيـر الذي من أجله خُلقتُم .

يعني .. يتوقف العذاب والمعالجة وأنواع البأساء والضراء وأنواع الهموم والأحزان بمجرد أن تشكروا بعد أن تؤمنوا .. لذلك .. لا نُبالغ إذا قُلنا إن علّةَ وجودك على الأرض أيها الإنسان أن تتعرفَ إلى ا   وأن تشكره .

قد يسأل سائل : لِم لا يكون الهدفُ أن تتعرفَ إلى ا   وتصبر علـى حكمـه ؟ لِـم اختار ا   الإيمان مع الشُكر .. إليكم التفسير ، لابد من مثل .. إذا قُدمت لك هديـةٌ ثمينـة .. جهاز .. أنتَ في أمس الحاجة إليه وهذا الجهاز يقدم لك خدمات كبيرة قُدم لك بلا ثمن كهديـة خالصة لك ما رد الفعل عندك ؟

رد الفعل أنك تتأملُ هذا الجهاز ، تتعرف إلى مصممه ، إلى من اخترعه ، إلى دقة أجزائه ، إلى أداء وظائفه ، إلى تعقيد تركيبه ، كُلما تأملّتَ في دقائق الجهاز ازددتَ إعجابـاً بصانعه أو ازددتَ إيماناً بعلمه الرفيع وفضلاً عن ذلك قُدم لك هديةً تشعر أنك ممتن .

الآن : أنتقل من هذا المثل إلى السماوات والأرض .. ا   سـبحانه وتعـالى سـخّر للإنسان مافي السماوات وما في الأرض جميعاً . كل هذا الكون مسخّر لهذا الإنسان تسخيرين تسخير تعريف وتسخير تكريم .

.. أراد ا   عز وجل من خلال خلق السماوات والأرض أن يعرفك بذاتك وأراد من خلال خلق السماوات والأرض أن يمتلئَ قلبك امتناناً .. أن تؤمن أن تشكر فقد حققتَ الهـدفَ

الكبير من وجودك على وجه الأرض ، لأن الكون مسخّر تسخير تعريف والتعريف يقتضـي الإيمان وتسخير تكريم والتكريم يقتضي الشُكر .

إذا عرفته وهو المنعم وشكرته وهو المتفضل فقد بلغتَ أقصى درجات الإيمان لذلك عند هذه المرتبة تتوقف كلُّ أنواع المعالجات لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١

(سورة السجدة)

يرجعون إلى الهدف الذي من أجلهم خُلقوا يرجعون إلى مهمتهم إلى تكليفهم إلى سر وجودهم ، إذا رجعتَ إلى الله وقد عرفته وشكرته وقد رأيتَ نعمه فقد حققـتَ الهـدفَ مـن وجودك ، لذلك يجب أن تَعد الشُكر غايةَ وجودك على وجه الأرض ، إن شكرت بعد أن آمنت .. بالمناسبة لن تشكر قبلَ أن تؤمن . .. " **وكان الله شاكراً عليماً** " مثلاً .. إنسان زارك وأنتَ مريض ومعه هدية وضعها في مدخل البيت ودخلَ على غُرفتك وأنتَ لا تعلم ماذا قدم لك من هدية وجلس عندك بعض الوقت ثم انصرف .. هل يعقلُ وأنتَ لا تعلم أنه جاء بهديـة أنـت تشكره على الهدية ، متى تشكر ..؟.. إذا علمت ، إذا جاء ابنُك وهمس في أُذُنك أن فُلان قـد قدم لك هديةً فحينما يودعك تشكره على هديته .

من لوازم الشُكرِ العلم والإيمان ، تؤمن فتشكر .. هذا الذي في ضوئه نفهـم قولـه تعالى "**وكان الله شاكراً عليماً** " لأنه يعلم فهو شاكر، فمن لوازم الشُكرِ العلم بالنعمة .. .. لن تشكُر قبلّ أن تؤمن ، إذا آمنتَ من لوازم الإيمان أنك تشكر ، إذا آمنتَ وشكرت فقـد حققـتَ الهدفَ الكبير الكبير الذي من أجله قد خُلقت .

لم يبق الشُكر موضوعاً جانبياً يجب أن نعرفه .. لا .. أخطر موضوعٍ في حياتك ، إن لم تشكر تُعذّب ، بنص الآية الكريمة " ما **يفعلُ الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم** " المعنى المخالف : إن لم تؤمنوا عذبتم ، إن آمنتم ولم تشكروا عذبتم أمأ إن شكرتم ولم تؤمنـوا هـذا مستحيل أما إن آمنتم ولم تشكروا تُعذّبوا ، إن لم تُؤمنوا تُعذّبوا ، من لوازم الإيمان الشُكر .

بادئ ذي بدء الشُكر نصفُ الإيمان لقول النبي عليه الصلاة والسلام : الإيمان نصفٌ شُكر ونصفُ صبر " .

أنتَ بين شيئين بين نعمة ظاهرة لابد من أن تشكر الله عليها وبين نعمة باطنة هـي المصيبة لابد من أن تصبر ، فأنتَ بين سراء وضراء ، رخاء وشدة ، إقبال وإدبار ، بحبوحة وضيق ، صحة ومرض، قوة وضعف ، غنى وفقر . أساس الكون الإثنينية فـالغنى والفقـر

والصحةُ والمرض والشدةُ والرخاء وإقبالُ الدنيا وإدبارها .. فأنتَ بين حالين بين حال الصبرِ في حالة المصيبة وبين حال الشُكرِ في حالة الرخاء . والذي يؤكده عليه الصلاة والسلام يؤكد هذا المعنى قوله صلى ا عليه وسلم :

عن صهيبٍ قالَ بينَا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قاعد مع أَصحابِه إِذْ ضحك فقالَ أَلا تَسأَلوني مم أَضحك قالُوا يا رسولَ الله ومم تَضحك قالَ عجِبتُ لأمرِ الْمؤْمنِ إِن أَمره كُله خَير إِن أَصابه ما يحب حمد الله وكان له خَير وإِن أَصابه ما يكْره فَصبر كان له خَير وليس كُل أَحد أَمره كُله له خَير إِلا الْمؤْمن *

هذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام : " **الإيمان نصفان نصفٌ شُكر ونصفُ صبر** ".

أولاً : ا سبحانه وتعالى أمر بالشُكرِ ونهى عن ضده وأثنى على أهله ووصفَ بـه خواص خلقه وجعله غاية خلقه وأمره ووعد أهله بأحسنِ جزائه وجعله سبيلاً لمزيـد عطائـه وحارساً وحافظاً لنعمته وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته واشتق لهم اسماً من أسمائه فإنـه سبحانه وتعالى هو الشكور ، وهو يوصلَ الشاكر إلى مشكوره وهو ا سبحانه وتعالى بـل يعيد الشاكر مشكوراً وهو غايةُ الربِ من عبيده .. شيء خطير جداً .. غايةُ الربِ من عبيـده وأهله هم القليل من عباده ، والآن مع الآيات :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾

(سورة البقرة)

يعني علامةُ صحة عبادتكم شُكر ا عز وجل :

فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

(سورة البقرة)

" **واشكروا لي** " أُمرنا بالشُكر ونهينا عن ضده " **ولا تكفرون** " واشكروا أمر إلهـي وكلُ أمرٍ في القرآن يقتضي الوجوب " **واشكروا لي ولا تكفرون** " وأثنى على أهله :

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا
لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾

(سورة النحل)

" **شاكراً لأنعمه** " ، كان عليه الصلاة والسلام تعظُم عنده النعمةُ مهما دقّـت ، لـو شَرب كأس ماء ياربي لك الحمد ، لو ارتدى ثوباً جديداً ، لو دخلَ إلى بيته رأى أهله وأولاده في صحة جيدة ، لو كان معه ثمن طعامه ، لو خرج بأتم عافية ، كان عليه الصلاة والسـلام إذا دخلَ إلى الخلاء وخرج منه قال : الحمد ِ الذي أذهب عني ما يؤذيني وأبقـى لـي مـا ينفعني وكان يقول أيضاً : الحمد الذي أذاقني لذّته وأبقى في قوته وأذهب عنّي أذاه .

إذاً : " **إن إبراهيم كان أمةً قانتاً حنيفاً ولم يك من المشركين شـاكراً لأنعمـه** " وقالَ عن سيدنا نوح إنه كان عبداً شكوراً ... هل أنتَ عبد شكور .. كان يصلّي قيـام الليـل حتى تتورم قدماه تقول له السيدةُ عائشة أتعبتَ نفسك وقد غفر ا لك ما تقدم من ذنبك ومـا تأخر فيقول عليه الصلاة والسلام للسيدة عائشة : يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً .

وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ
وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

(سورة النحل)

.. جعلَ لكم السمع والأبصار والأفئدةَ .. سخّر لكم كُل شيء لعلكم تشكرون فغايـةُ الخلق هو الشُكر وقالَ تعالى :

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ
وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾

(سورة العنكبوت)

هذه بعض آيات الشُكر ..

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ
ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

(سورة آل عمران)

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ
﴿٧﴾

(سورة إبراهيم)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ
وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

(سورة إبراهيم)

أُعيد على مسامعكم التعريفات الجامعة المانعة للشكر : لقد أمر ا به " **واشكروا لي ولا تكفرون** " ونهى عن ضده " **ولا تكفرون** " وأثنى على أهله " **إنه كان عبداً شكوراً** " ووصفَ به خواص خلقه أبا الأنبياء سيدنا إبراهيم وجعله غاية خلقه وأمره " **لعلكم تشكرون** " ووعد أهله بأحسن جزائه " **وسيجزي الشاكرين** " وجعله سبباً لمزيد فضله " **لئن شكرتم لأزيدنكم** " وحارساً وحافظاً لنعمته وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته " **إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور** " واشتق له اسماً من أسمائه الشكور ، فإنه سبحانه هو الشكور وهو يوصلُ الشاكر إلى مشكوره .. يعني .. من الطُرق السالكة إلى ا عز وجل أن تشكره .. الشُكر طريقٌ إلى ا بل إنه يعيد الشاكر مشكوراً .. تشكر فتُشكر ..

إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

(سورة الإنسان)

أعاد الشاكر مشكوراً ، ورضاء الرب عز وجل عن عبده في الشُكر .

إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟
يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

(سورة الزمر)

وقلةُ أهله في العالمين تدلُ على أنهم هم خواص أهله

يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ
رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾

(سورة سبأ)

ما أقل الشاكرين ، وفي الصحيحين عن النبي صلى ا عليه وسلم أنه قـام حتـى تورمت قدماه فقيلَ له تفعلُ هذا وقد غفر ا لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال عليه الصلاة والسلام : أفلا أكون عبداً شكوراً . وقالَ عليه الصلاة والسلام لمعاذ : وا يا معاذ إني لأحبك .. إني لأحبك .. هذه شهادة ، هذه مرتبة عليةَ نالها هذا الصحابي الجليل .. وا يا معاذ إني لأحبك فلا تنسى أن تقولَ في دبرِ كُل صلاة اللهم أعنّي على ذكرك وشُكرك وحسن عبادتك ،

عن ابن عباس قالَ كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو يقُولُ رب أَعني ولا تُعن علي وانْصرني ولا تَنْصر علي وامكُر لِي ولا تَمكُر علي واهدني ويسر الْهدى لِي وانْصرني على من بغَى علي رب اجعلْني لك شكارا لك ذكارا لك رهابا لك مطْواعا لك مخْبِتًا إِلَيك أَواها منيبا رب تَقبلْ تَوبتي واغْسلْ حوبتي وأَجِب دعوتي وثَبتْ حجتي وسدد لِساني واهد قَلْبِي واسلُلْ سخيمةَ صدرِي *

(رواه الترمذي)

دعاء جميل جداً ..

معنى كلمة الشُكر باللغة .. قال : أصلُ الشُكرِ في وضع اللسان ظهور أثر الغـذاء على الأبدان .. أكل فظهر أثر الطعام على بدنه امتلاء وتورداً وصحةً وقـوةً .. .. فأصـلُ الشُكرِ أن يظهر أثر الغذاء في الأبدان .. هذا في المعجم في القاموس .. يقال : شكرت الدابةُ تشكر شَكراً على وزن سمنت تسمن سمناً إذا ظهر عليها أثر العلف ودابةٌ شـكور إذا ظهـر عليها من السمن فوقَ ما تأكل وتُعطى من العلف ، وفي صحيح مسلم حتى إن الدواب لتشـكر

من لحومهم أي لتسمن من كثرة ما تأكلُ منها ، إذاً معنى الشُكر في أصل اللغة ظهـور أثـرِ الطعام على البدن وفي المعنى المجازي : ظهور أثر النعمة على العبد ، قد تظهر ذكراً ياربي لك الحمد في لِسانه ، وقد تظهر امتنانا في قلبه ، وقد تظهر عملاً في سلوكه .

الحقيقة : الشُكر له درجات ، أثر النعمة على العبد : قد تظهر النعمـة عنـد العبـد تعبيراً بلسانه وشعوراً بقلبه وسلوكاً في فعله فهناك شُكر قولي وشُكر قلبي وشُكر فعلي . وفي المناسبة أُولى درجات الشُكر أن تعرفَ أن هذه النعمةَ من ا .

أُولى درجات الشُكر ذو طبيعة علمية ، وثاني درجات الشُكر ذو طبيعـة نفسـية ، وثالثُ درجاتُ الشُكرِ ذو طبيعة سلوكية . تعلم فتمتن فتتحرك والتحرك كما قالَ ا عز وجل :

يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾

(سورة سبأ)

قال : الشُكر أساسه خمس قواعد .. خضوع الشاكر للمشكور : إن لـم تخضـع فلستَ شاكراً ، علامة الشُكر الطاعة :

تعصي الإله وأنتَ تُظهر حبه	ذاك لعمري في المقال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته	إن المحب لمن يحب يطيع

أُولى علامات الشُكر أن تخضع للمشكور .. أن تخضع ، فمن فعلَ مـا يشـتهي وأطلقَ لشهواته العنان وتحرك وفقَ هوى نفسه وقالَ ياربي لك الحمد .. فليس شاكر وسـلوكه وانحرافه وكسب ماله والتدليس في البيع والشراء واليمين الكاذبة ما هذه .. ياربي لك الحمد .

علامة الشُكرِ طاعة ا عز وجل إن لم تُطع فلستَ شاكراً . فقال الشُكر مبني علـى خمسِ قواعد : خضوع الشاكرِ للمشكور وحبه له يعني يجب أن يمتلئَ قلبك حباً

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِى ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

(سورة المائدة)

والاعترافُ بالنعمة : إذا حققتَ نجاحاً لا ينبغي أن تقول هذا جهدي إنما أُوتيته على علمٍ عندي هذه خبرات هذه سنوات طويلة من الخبرة تراكمت بعضها فوقَ بعض حتى حصلّت هذه المرتبة .. هذا كُفر .. إذا عزوتَ النعمة إلى ذاتك فهذا نقيض الشُكر " **واشـكروا ولا تكفرون** " وثناؤه عليه بها وألا يستعملها فيما يكره .

يا أيها الأخوة الأكارم : من استعملَ قوته في معصية ا فليس شاكراً ، من استعملَ عينه في معصية ا من نظر بها إلى حرمات المسلمين ، حينما تستخدم الجارحة في معصية ا فأنتَ لا تشكر ا ..

عن أَبِي رِيحانَةَ أَنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غَزوة فَسمعه ذَاتَ ليلة وهو يقُولُ حرمت النار على عينٍ سهرتْ في سبِيل الله وحرمت النار على عينٍ دمعتْ من خَشْية الله قالَ وقالَ الثالِثةَ فَنَسيتُها قالَ أَبو شُرَيحٍ سمعتُ من يقُولُ ذَاك حرمت النار على عينٍ غَضتْ عن محارمِ الله أَو عينٍ فُقئَتْ في سبِيل الله عز وجل *

يجب أن تعتقد أن هذه العين إذا غضت عن محارم ا أغلب الظن أن ا يحفظُهـا لك وأن هذه الأذن إن لم تسمع بها إلا ما يرضي ا أغلب الظن أن ا يحفظُها لك وأن هـذا اللسان إذا كان رطباً بذكر ا أغلب الظن أنك تتمتع به إلى آخر الحياة وأن هـذا الفكـر إذا أعملته في آيات ا أغلب الظن أنك لا تَخرف .. من تعلّم القرآن متعه ا بعقله حتى يمـوت ..

أن تُطيع ا ، وأن تُحبه ، وأن تعترفَ بنعمته ، وأن تُثني عليه بها ، وألا تستعملَ هذه النعم في معصية ا .. إن فعلتَ هذه الأشياء الخمس فقد شكرت ا عـز وجـل شُـكراً صحيحاً لا ادعاءا .

قيلَ في الشُكرِ حده الاعتراف بنعمة المنعمِ على وجه الخضوع .. في اعتراف على وجه الإقرار .. في اعتراف على وجه الخضوع ، فإذا اعترفت بنعمة ا وخضعتَ له فأنـتَ شاكر هذا الذي قُلناه قبلَ قليل من علامة الشُكرِ الطاعة ، وقيلَ : الثناء على المحسـن بِـذكرِ إحسانه:

﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ ١١

(سورة الضحى)

وقيلَ : هو عكوفُ القلب على محبة المنعمِ والجوارح على طاعته وجريان اللسـان بذكره والثناء عليه .. معرفةٌ وتعبير وامتنان وسلوك كما قُلنا قبل قليل .

وقيلَ : الشُكر مشاهدةُ المنّةَ وحفظُ الحرمة .. ُ مشاهدةُ المنّةَ .. وما ألطفَ ما قالَ حمدون القصار : شُكر النعمة أن ترى نفسك فيها طُفيلياً أن ترى نفسك لا شيء فأنتم هو الحقُ لا غيركم فيا ليت شعري أنا من أنا .

يعني .. كُلما صغُرتَ في عينِ نفسك كُلما كَبرتَ عند ا ، وكُلمـا كَبـرت نفسـك صغُرتَ عند ا . وقال أبو عثمان : الشُكر معرفة العجزِ عن الشُكر . ماذا قالَ ا عز وجل ..؟..

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ ١٨

(سورة النحل)

من معاني هذه الآية : هل يقال لإنسان خُذ هذه الليرة وعدها .. هذه ليرة واحدة ماذا أعد فيها .. يقول ا عز وجل " **وإن تعدوا نعمة ا لا تحصوها** " قالَ بعض العلماء : " إنك إن أمضيتَ الحياة كُلها لتُحصي بركات نعمة واحدة أنعمها ا عليك " .. نعمة البصر ، نعمـة السمع ، نعمة النُطق ، نعمة الشم ، نعمةُ جريان الدمع في القناة الدمعية لولاها لاضطررت أن تمسح الدموع من على خدك دائماً إلى أن يحفر الدمع في خدك أخدودا لأن الدمع قلوي فهـذه القناةُ الدمعية بين محجر العين وبين الأنف سالكة وهي من أدق الأنابيب في الجسـم .. هـذه نعمة .. نعمة السمع نعمة البصر ، نعمة الشعر لو أن ا سبحانه وتعالى جعلَ فـي الشـعر أعصاباً حسية .. إلى أين أنتَ ذاهب يا أخي .. وا إلى المستشفى لأُجري عملية حلاقـة .. تحتاج تخديراً كاملاً .. لكن الشعر فيه أعصاب حركية ولكن ليس فيه أعصاب حسـية لكـل شعرة وريد وشريان وعضلةٌ وعصب محرك وغدةٌ دهنيةٌ وغدة صدغية وليس فـي الشـعر عصب حسي .. أين يا أخي .. وا إلى المستشفى لأُجري عملية تقليم أظافر ... لمـا ربنـا عز وجل لم يجعل في الأظافر أعصاب حس هذه نعمةٌ كُبرى ، هذه المثانة التـي أكـرم ا الإنسان بها تجعلُك تجلس ساعات طويلة ، تُسافر ، تُلقي محاضرة ، تستمع ، تـدخل إلـى

مسجد ، تجلس مع أهلك ساعات طويلة وأنتَ لستَ بحاجة إلى إفراغ المثانة لولا المثانة لكُنتَ مضطراً أن تُفرِغَ البولَ كُلَّ دقيقة لأن كُل عشرين ثانية بالضبط تنزِلُ من كل كُلية نُقطةُ بـول .. كل عشرين ثانية .. فهذه المثانة تجمع هذا البول بخمس ساعات وأنتَ نظيفُ معطّر مرتاح مطمئن وإذا أردتَ أن تُفرِغَ هذه المثانة فقد جعلَ ا لها عضلات لولا هذه العضلات لابد من تنفيس هواء لها .. لا نقدر ..

ائت بقارورة واجعل فوهتها نحو الأسفل وسد قعرها بإحكام الماء يبقى فيها .. لابـد ن تنفيس .. طيب لولا عضلات المثانة لما أمكن إفراغ المثانة .. هذه نعمة . التنفس حركته لا إرادية ..

يعني .. " **وإن تعدوا نعمة ا لا تحصوها** " أنتم عاجزون عن إحصاء النعم ، أنـتم عاجزون عن إحصاء فضائل نعمة واحدة ، فلأن تكونوا عاجزين عن شُكرِ النعم من بابِ أولى . .. يعني إذا واحد جاءه مولود وجاءته هدايا كثيرة أيهما أهون أن يمسك قلم وورقة ويسـجل هذه الهدايا أم أن يرد هذه الهدايا ؟ كتابتها على ورقة عملية سهلة جـداً فالإنسـان عـاجز .. عاجز .. عن أن يشكُر فضائِلَ نعمة واحدة ، فلأن يكون عاجِزاً عن شُكرِها من بابِ أولى أو لا أن يكون عن شُكرها فهو عن شُكرها أعجز .

قالَ أبو عثمان : الشكر معرفةُ العجزِ عن الشُكرِ ، هذا كلام سيدنا الصديق .. العجز عن الإدراك إدراك .. .. يعني .. إذا قُلت ياربي لا ُأحصي ثناءاً عليك أنتَ كما أثنيتَ علـى نفسك فحينما عجزتَ عن الإدراك فهذا نوع من الإدراك ... لو سألنا إنساناً على شط البحـر المتوسط هذا البحر كم ليتر قالَ لك : هذا ٢٣مليون و٨٥٠ ليتر معناها جاهل .. أما إذا قـال وا ِ لا يمكن أن نعرف كم ليتر .. عدم معرِفته بعدد ليترات ماء البحر هـي معرفـة لحجـم البحر الكبير ، عدم المعرفة معرفة لو قال لك هذا البحر كذا ليتر ، لهذا قالَ بعـض علمـاء التوحيد : ا ُ سبحانه وتعالى عين العلمِ به عين الجهل به ، وعين الجهل به عين العلمِ بـه .. يعني .. إذا قلت يارب أنا عاجز عن معرفة فضلك .. هذا أحد أنواع المعرفة أمـا .. نحـن نُصلي له ماذا علينا أكثر من ذلك .. هذا هو الكُفر .. يعني أن ترى أن نعمة ا محدودة وقد أديتها بالصلاة وانتهى الأمر .

لذلك قال سيدنا الصديق : العجز عن الإدراك إدراك ، إذا اعترفتَ بعجـزك عـن الإدراك فهذا نوع من الإدراك . قال أبو عثمان الشُكر معرفة العجزِ عن الشُكرِ وقالَ الجنيد : الشُكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة أن ترى ا سبحانه وتعالى تفضلَ عليك وإذا أراد ربـك إظهار فضله عليك خلقَ الفضلَ ونسبه إليك .

وقالَ أحد العلماء : " الشُكر استفراغ الطاقة " .. ويشـُكر العامـة علـى المطعـمِ والمشربِ والملبسِ وقوت الأبدان . عوام الناس إلى رأى في بيته مؤونه ، معه في جيبه مال ،

صحته طيبة، الحمد ا مفوضها ، لكن خواص المؤمنين يشكر على معرفة ا ، يشكر على العلم الذي تفضلَ ا ُ به عليه ، يشكر على نعمة الإيمان ، على نعمة الصبر .. سيدنا عمر قال حينما أصابته مصيبةٌ قالَ الحمد ِ ثلاثاً : الحمد ِ إذ لم تكن في ديني ، والحمد ِ إذ لم تكن أكبر منها، والحمد ِ إذ أُلهمتُ الصبر عليها .

قال : شُكر الخاصة شكر على التوحيد والإيمان وقوت القلوب، الجنيد كان صبياً سأله أحد العلماء قال : يا غلام ما الشكر فقالَ الشُكر أن لا يستعان بشيء من نعم ا على معاصيه فقالَ من أين لك هذا قالَ من مجالستك .. منك أخذتُها .

وقيلَ من قصرت يداه عن المكافآت فليطل لسانه بالشُكر . من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه .. هذا التوجيه النبوي .. فإن لم تجدوا فادعوا له .. .. كلمة جزاك ا ُ عنّي كُل خير إذا أردتم التحقيقَ الدقيق هذه الكلمة لا تصح إلا إذا عجزتَ عن أن تُكافئَ النعمة بنعمة مثلها .. إذا عجزتَ عن المكافئة قل جزاك ا عني كُل خير أما أن تكتفي بها دائماً كُلما قُدمت لك خدمة ، .. أخي ا يجزيك الخير .. وانتهى الأمر .. هذا ليس شُكراً .

الشُكر معه المزيد أبداً .. كلام دقيق : إذا كُنتَ في نعمة وحرصتَ على أن تستمر وعلى أن تبقى وعلى أن لا تزول فحصنّها بالشُكر وإذا أردتَ أن تزيد فَزدها بالشُكر فالشُكر حصن أو يحولُ بين النعمة وبين زوالِها ويدفع إلى المزيد منها لقوله تعالى " **لئن شكرتم لأزيدنكم**"، والحديث القُدسي : **إني والإنس والجن في نبأٍ عظيم ، أخلقُ ويعبد غيري ، وأرزقُ ويشكر سواي خيري إلى العباد نازل وشرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي ، وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي ، من أقبل علي منهم تلقيتهم من بعيد ، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب** " .. دققوا .. " **أهلُ ذكري أهلُ مودتي** " .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾

(سورة مريم)

" **أهلُ ذكري أهلُ مودتي ، أهلُ شُكري أهلُ زيادتي ، أهلُ معصيتي لا أُقنطّهم من رحمتي إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب الحسنةُ عندي بعشر أمثالها وأزيد والسيئة بمثلها وأعفو وأنا أرأفُ بعبدي من الأم بولدها** ".

وقيلَ : من كتم النعمةَ فقد كفرها .. ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها ، وهذا مأخوذٌ من قول النبي عليه الصلاة والسلام :

عن أبي هريرة رفعه قال إن الله عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على عبده *

أما هذا الكلام دقيق جداً .. هناك من يظهر النعمة على بيته وعلى جسمه وأولاده كبراً واستعلاء وهناك من يظهرها حمداً وشُكراً .. شتّان بين الحالتين .

على كُلٍ لهذا الموضوع تتمة أرجو ا سبحانه وتعالى في درسٍ آخر أن نتابع هذا الموضوع الذي كما قلتُ قبلَ قليل موضوع كبير جداً بل هو سر خلق الإنسان في الدنيا ، ونرجو ا سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علّمنا وأن يعلّمنا ما جهلنا .

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون .... مع الدرس الرابع والعشرين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين و منزلة اليوم هي منزلة الوجد .

أيها الأخوة الأكارم في الدين فضلاً عن عقيدته وعن عباداته وعن معاملاته وعـن تنفيذ أوامره وعن اجتناب نواهيه .. في الدين الحقيقي مشاعر ، مشاعر يتذوقها المؤمن ، هذه المشاعر لها شأن كبير في مسيرته إلى ا عز وجل .

يعني .. إذا بقي الدين معلومات ، أفكار ، قناعات ، فلسفات ، علم كلام ، قيل وقال ، الإنسان ينصرفُ عنه ، وإذا بقي الدين أعمالاً مجهدة الإنسان يتعب ، في الدين شيء ُأسميه الآن وجد بحسب موضوع الدرس ، هذه مشاعر .. هذه المشاعر تغمر القلب ، ربما كانت هذه المشاعر المسعدة التي تغمر القلب دافعاً حثيثاً لمتابعة الطريق هذه المشاعر ثابتةٌ في قول النبي عليه الصلاة والسلام في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي ا عنه عن النبي صـلى ا عليه وسلم أنه قال :

عن أَنَس بن مالِك رضي الله عنْه عن النبي صلى الله عليه وسلم قالَ ثَلاثٌ من كُن فيه وجد حلاوةَ الإِيمانِ من كان الله ورسولُه أَحب إِليه مما سواهما ومن أَحب عبدا لا يحبه إِلا لِله عز وجل ومن يكْره أَن يعود في الْكُفْرِ بعد إِذْ أَنْقَذَه الله منْه كما يكْره أَن يلْقَى في النارِ *

الإيمان له حلاوة ، الإيمان في أذواق ، في مشاعر مسعدةَ ، في أحاسـيس طيبـة ، لكن ُأفضل كلمة مشاعر لأن الأحاسيس يغلب عليها الطابع الحسي المادي ، والمشاعر يغلـب عليها الطابع النفسي ... مثلاً قبلَ أن نمضي في الحديث في هذا الموضوع الإنسـان يتـاجر ويشتري بضاعة بسعر ، ويبيعها بسعر جيد ويحقق ربح يقبضه نقداً خلال ساعة أو سـاعات يشعر بسرور، تجده يتكلّم بمرح ، عيونه تلمع ، وجنته تتورد ، يميل إلى المزاح ، يحاول أن يستلطف الآخرين .... هذه كُلها علامة الفرح .. لأنه فَرِح بِربحِ هذه الصفقة ، لو أنـه درس دراسةً عليا وأمضى سنةً بجهد شاق ثُم قدم امتحانا وبعد شهرٍ قرأَ اسمه في لوحة الإعلانـات وقد نالَ هذه الشهادة العليا بتقدير امتياز تجده خلال أسبوع في أعلى درجات سـعادته يشـعر بسعادة حقيقية .

لو أن إنساناً سافر إلى مكان جميل وليس في قلبه هموم ويملك المالَ الكافي مستمتعاً بالمناظر الجميلة وبأهله وأولاده والأمور كُلُها منتظمة يشعر بسعادة .. هذه السعادة كُلُها مؤقتة

.. لكن إذا اتصلَ با عز وجل من خلال استقامته على أمر ا ، من خلال أعماله الطيبة ، يذوقُ طعم الإيمان ، يذوق حلاوة الإيمان ، يقول لك ليس في الأرض من هو أسعد منّي ، هذا فضلاً عن عقيدته الصحيحة ، فضلاً عن طاعته ، فضلاً عما ينتظره من نعيمٍ مقيم ، فضلاً عن تنفيذه أوامر ا ، فضلاً عن تَخلقه بأخلاق رسول ا ، فضلاً عن كُل ذلك .. في الـدين مشاعر مسعدة .. هذه المشاعر المسعدة بمثابة المحرك في طريق الإيمان فإذا ضـعفت هـذه المشاعر أو تلاشت أصبح الدين .. ثقافةً ، معلومات ، أفكار ، مناقشات ، قيل وقـال ، علـم كلام ، كُتب ، مقالات ، تأليف ، مراجع ، مصادر ، فهارس .... انقلب الدين إلى معلومات ، والمعلومات يعني الإنسان أحياناً يملها ، أو يسام منها ، أو ينصرفُ عنهـا وإذا بقـي يعمـلُ الأعمال الصالحة ، ويخدم الآخرين، ويعطفُ على المساكين والفقـراء ، ويغيـثُ الملهـوفين دون أن يكون له اتصالٌ برب العالمين حتى الأعمال الصالحة تُملّ .. يقول لك يا أخي مللـتُ حياتي الناس سيئون .. ما الذي يجعلك تُغذُ السير في طريق الإيمان؟ أن تذوقَ طعم الإيمان ، هذه المشاعر المسعدة التي تغمر قلب المؤمن .. إنها موضوع هذا الدرس .. مرتبةُ الوجـد .. قالَ بعض الشُعراء :

هل الوجد إلا أن قلبي لو دنا من الجمرِ قيد الرمحِ لاحترقَ الجمر

يعني قلبه متأجج .. أحياناً .. تجلس مع إنسان منطفئ ، يعني يمل كُل شيء ويمـل الجلوس معه قلب فارغ من أي شعور إنساني ، أحياناً تجلس مع إنسان يعطيك مـن تأججـه الشيء الكثير .. درسنا اليوم هذا الباعث النفسي ، هذا التأجج القلبي ، هذه السعادة القلبيـة ، هذا الحال إن صح التعبير الذي يسعد الإنسان ويدفعه قُدماً في طريق الإيمان .

هذا الكلام ألّه أصلٌ في السنّة الثابتة .. ورد في الصحيحين من حديث أنسٍ رضـي ا عنه : " **عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رضي الله عنْه عن النبيِ صلى الله عليه وسلم قَالَ ثَلاثٌ من كُن فيه وجد حلاوةَ الإيمانِ من كان الله ورسولُه أَحب إِليه مما سواهما ومن أَحب عبـدا لا يحبه إِلا لِله عز وجل ومن يكْره أَن يعود في الْكُفْرِ بعد إِذْ أَنْقَذَه الله منْه كما يكْره أَن يلْقَـى في النارِ** * "

يعني الليرة والمليون تحت قدمه إذا كان ا يرضيه أن يقدم هذا المبلغ .. يقدم ماله ، يقدم روحه ، يقدم وقته ، لا يرضى من زوجته أن تعصي ا ولو أدبرت عنه ، ولو تـوتّر الجو بينهما ، هذا الذي ا ُ ورسوله أحب إليه مما سواهما يذوقُ طعم الإيمـان .. أمـا كُلمـا وقعتَ في صراع آثرتَ جانب الدنيا .. أخي فيها فتوى هذه .. والعلماء أجازوها ..الناس ..

هذا بلاء عام يا أخي .. كلما وقع صراع بين ما يرضي ا وبين ما يحققُ مصالِحه مالَ إلـى جانبِ مصالحه ..

آثر الدنيا على ا ورسوله ، آثر رضاء زوجته على ا ورسوله ، آثـر رضـاء شريكه على ا ورسوله ، آثر تحقيقَ أرباحٍ فيها شُبهات على ا ِ ورسوله ، حيثُما تُؤثر شيئاً من الدنيا على ا ورسوله لا تذوقُ طعم الإيمان يصبح القلب متصحراً ، جافـاً ، جلمـوداً ، صخرياً .

ولي منه أولياء ا عز وجل ذُكرت ا بِه .. لو رأيتَ مؤمنـاً ذاقَ طعـم الإيمـان بمجرد أن تقع عينك عليه تذكر ا عز وجل ، تتمنى أن تتوب ، تتمنى أن تُصلي ، تتمنى أن تعمل الصالحات .. أولياءُ أُمتي إذا رؤُا ذُكر ا بهم .. " **عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رضي الله عنْـه عن النبي صلى الله عليه وسلم قالَ ثلاثٌ من كُن فيه وجد حلاوةَ الإيمانِ مـن كـان اللـه ورسولُه أَحب إِليه مما سواهما ومن أَحب عبدا لا يحبه إِلا لِله عز وجل** ".

يعني تنشأ في مجتمع المؤمنين علاقات عجيبة جداً لا قرابة ولا نسب ولا مصـلحة ولا جِوار ولا زمالة في العمل ولا آمال ولا مصاهرة .. تجد أنك تُحب أخاك في ا حبـاً لا يوصف لو جلستَ معه ساعات طويلة تشعر هل من مزيد ، إذا أحببتَ أخاك المـؤمن دون أن تكون هناك مصلحة علاقة ، نسب ، مصاهرة ، زمالة ، جِوار ، مشروع مستقبلي ... أبـداً ... لا تبتغي منه جزاءاً ولا شكوراً ، لا تُحبه إلا ، إذا أحببتَ أخاك المؤمن لوجه ا تعالى دونِ مصالح ذُقتَ طعم الإيمان .

هذه علامة ثانية : قال " ومن يكْره أَن يعود في الْكُفْرِ بعد إِذْ أَنْقَذَه الله منْه كما يكْره أَن يلْقَى في النارِ " .

.. هذا الذي آمن واستقام على أمر ا إذا نَدم على توبته .. يقول لك . وا رفاقي مبسوطون وأنا ذهبت والتحقت بالجامع وأصبحت مقيداً وإذا قصرت يحاسبونني وإذا ذهبـت إلى المكان الفولاني يؤاخذونني ... ... هذا الذي نَدم على أنه آمن ، أو يتمنى أن يعود كمـا كان ، هذا ماذا قطع من الإيمان ؟

من علامة الإيماني مثلاً إنسان ساكن في بيت قميء ، مظلم ، فيه رطوبة ، بحـي مزدحم .... يعني مشكلات لا تُعد ولا تُحصى ، نُقلَ إلى بيت واسع فخمٍ مشمسٍ في حيٍ راق . ... هل يتمنى أن يعود لهذا البيت .. مستحيل .. كان يعمل في وظيفة متواضعة ودوامهـا طويل و حوله ضغط شديد ، وشيء من الإذلال ، ودخله لا يكفيه ثلاثة أيام ، اشتغل بالتجارة وربح أرباحاً طيبة ، أصبح سيد نفسه ، دوامه بيده ، يتمنى أن يعود كما كان موظفاً .. يكون مجنوناً ..

فإذا الإنسان آمن إيماناً حقيقياً ، واتصل بالله اتصالاً حقيقياً ، وذاق طعم الإيمـان ، وشعر كيفَ كان ، في أي الو حول كان ، كان مع القاذورات ، كان مع أشخاص على درجـة من الانحطاط ، في مزاحهم ، في علاقاتهم ، في سفرهم ، في شرا كتهم ، فـي مـرافقتهم ، مزاح على أنانية على حقارة على حبِ الذات على استعلاء على مزاح غليظ فصاحب ُأناسـاً طيبين طاهرين أخلاقهم طيبة .. يتمنى أن يعود لهؤلاء المجرمين ؟ هذه أمثلة من واقع الحياة .

فلذلك : وأن يكره أن يعود في الكُفرِ بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار

"عن أَنَس بن مالِك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قالَ ثَلاثٌ من كُـن فيـه وجد حلاوةَ الإيمانِ من كان الله ورسولُه أَحب إليه مما سواهما ومن أَحب عبدا لا يحبـه إلا لِله عز وجل ومن يكْره أَن يعود في الْكُفْرِ بعد إِذْ أَنْقَذَه الله منْه كما يكْره أَن يلقى في النـار

".. هذا الإنسان ذاقَ طعم الإيمان والأصح ذاقَ حلاوة الإيمان .. الإيمان له حلاوة . آيةٌ ثانية تؤكد هذه المنزلة :

وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ﴿١٤﴾

(سورة الكهف)

هنا في سؤال دقيق : سيدنا جعفر مثلاً ما الذي دعاه حينما جاء سيفٌ فقطع يمينـه وأصبحت يده على الأرض ، لماذا لم يترك فرسه فجأةً ويقول يدي .. وا أسفاه على يـدي .. .. لماذا أمسك الراية بيده الثانية جاءت ضربة سيف ثانية قطعت يده اليسرى فمسـك الرايـةَ بعضديه .. هنا في سؤال دقيق .. هو بشر من بني البشر .. ما الذي جعله يتحمل هـذه الآلام آلام قطع اليد الأولى والثانية ويصبر ؟ إنها حلاوة الإيمان .

.. سيدنا خُبيب حينما أرادوا أن يصلبوه فطلب أن يصلي ركعتين قبلَ أن يصلب وقد هيئَ الجدار وهيئت السهام ليصلب على جذع نخلة ويلقى بالسهام حتى يموت .. قيل له أتحب أن يكون محمد مكانك وأنتَ في أهلك .. والله شيء غريب ، والله الإنسان يبيع أهله في هذه الحالة يبيع دينه ويبيع إيمانه .. هكذا الناس .. ما الذي جعلَ هذا الصحابي الجليل ينتفض ويقول : واللهِ ما ُأحب أن أكون في أهلي وولدي " جالس في بيته زوجته أمامه وأولاده أمامه وطعام طيب ، بالشتاء البيت دافئ تدفئة مركزية وبالصيف تكييف الورود على الطاولة ، ألوان الطعام والشراب ، كل أجهزة اللهو موجودة " قالَ واللهِ ما أحب أن أكون في أهلي

وولدي وعندي عافيةُ الدنيا ونعيمها ويصاب رسولَ ا بشوكة .. انظر .. ما الذي جعله يموت عن أن يكفر بمحمد ، يموت صلباً ، السهام تناوشه .

طيب هذه المرأة التي فقدت زوجها وأباها وابنها وأخاها يعني لا يمضي ألف سـنة حتى تُصاب امرأة بوقت واحد بزوجها وابنها وبأخيها وبأبيها وقد علمت بموتهم جميعـاً فـي معركة أُحد .. تقول ما فعلَ رسول ا تُريد أن تسألَ عن رسول ا ِ فقط ... ماذا في قلبهـا ؟ لو لم يكن في قلبها حلاوة الإيمان لما فعلت هذا .

يعني .. ظهر من الصحابة أفعال العقل لا يصدقُها لولا ما ذاقوه من حلاوة الإيمان .

أنا مرة سألت طبيب قلب قُلت له : صف لي بعض حالات الوفاة التي يعانيها بعض المرضى .. يعني .. مريض بالقلب جاءته الوفاة وا ذكر لي قصصاً غريبة قال لي : بعـض النـاس يضرب نفسه ، وبعضهم يصفر وجهه ... ذكرتُ له قصة سيدنا ربيعة النبي الكريم تفقّده وقال ابحثوا لي عنه ، ذهب صحابي إلى أرض المعركة رآه بين القتلى لكنه يتنفس قال له يا ربيعة أمرني النبي أن أسألَ عنك هل أنتَ بين الأحياء أم بين الأموات قالَ له أنا بين الأموات .

.. قال له بلّغ رسولَ ا مني السلام وقُل له : جزاك ا ُ عنّا خير ما جزى نبياً عن أُمته وقُل لأصحابه لا عذر لكم إذا خُلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف ، في أية سـعادة هـذا الإنسان ، في أية سعادة وهو يفارق الدنيا .

أقول لكم الآن كلمة ذاقَ حلاوة الإيمان .. إذا ذُقتَ حلاوة الإيمان وا ِ الذي لا إلـه إلا هو يستوي عندك التبر بالتُراب .. الذهب مثلُ التُراب ، سحرة فرعون لما ذاقـوا حـلاوة الإيمان :

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾

(سورة طه)

بماذا شعر هؤلاء ؟ الملكة بلقيس حينما تخلّت عن ملكها دفعةً واحدة قالت :

قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ
إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ
سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

(سورة النمل)

الإنسان سهل يتخلى عن ملكه .. هكذا بلحظة .. ماذا شعرت ؟ هذه حلاوة الإيمان :

عن الْعبَاسِ بنِ عبد الْمطلبِ أَنه سمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقُولُ ذَاقَ طَعم الإِيمانِ من رضي بِالله ربا وبِالإِسلامِ دينًا وبِمحمد رسولا *

سيدنا الصديق أعطى كل ماله لرسول ا ، قالَ يا أبا بكر ماذا أبقيتَ لك ، قالَ : ا َ ورسوله .

سيدنا أبا يحيى وهو في الهجرة تَبِعه كُفار قريش وألقوا القبض عليه ليعيدوه إلى مكة ، قالَ إذا أعطيتكم كُل مالي أتتركوني قالوا وأين مالُك ؟ قالَ في مكة المكان الفولاني فخلّوا عن سبيله وانطلق إلى النبي عليه الصلاة والسلام وحدثَ النبي بما حصل ، قالَ : ربح البيع أبا يحيى ربح البيع أبا يحيى .

يعني أنا أقول لكم الذي يجعل المؤمن يضحي المال تحت قدمه ، الدنيا كُلها إذا تعارضت مع دينه لفظها ورفضها هو حلاوة الإيمان .. إذا ذاقَ حلاوة الإيمان ، وا إذا ذاقَ حلاوة الإيمان لا يضحي بشيء ، يجد لكل معصية فتوى ... إذا لم يذق حلاوة الإيمان مع مصالحه مع الدنيا مع شهواته مع رغباته يحتاج إلى دين خاص، يصلي صلاة لا تُكلّف ، يصلي ويصوم ويحج ويزكي ، لكن يريد مصالحه وشهواته وتجاراته وحركاته وسكناته ، فإذا الإنسان ما ذاقَ حلاوة الإيمان لن يستقيم على أمر ا .. " **وربطنا على قلوبهم** " .

يعني وألقينا في قلوبهم من حلاوة الإيمان ومن مواجد أهل الحب ألقينا في قلوبهم معاني القُرب ، ألقينا في قلوبهم أنوار الحق ، ألقينا في قلوبهم تجليات ، ألقينا في قلوبهم السكينة ، حتى ظهرت منهم هذه الأعمال البطولية .. .. شيئاً لا يوصف .. لو قرأتم تاريخَ أصحابِ رسول ا صلى ا عليه وسلم لوجدتم أنهم بشر ولكن ليسوا كالبشر لا لشيء إلا أن ا عز وجل ألقى في قلوبهم محبته ، ألقى في قلوبهم حلاوة الإيمان ، ألقى في قلوبهم أنواره ، ألقى في قلوبهم تجلياته ، ألقى في قلوبهم سكينته .

قال : " **وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قُلنا إذاً شططاً** " أهلُ الكهف كانوا يعيشون في ظل سلطانٍ كافر وكانوا في بحبوحة وفي حياة واسعة ناعمة إلى أقصى الحدود ، تركوا حياة البذخ والترف والنعيم

والشهوات ، ولجأوا إلى كهف خَشنٍ مظلمٍ مخيف لكن الله عز وجل ألقى في قلـوبهم حـلاوة الإيمان .

لذلك .. هذا ما قاله بعض العارفين بالله : " لو يعلم الملوك ما نحن عليـه لقاتلونـا عليه بالسيوف " بقلب المؤمن سكينة ، تجلّى أنوار ، مشاعر مسعدة ، شعور بالأمن ، شعور بالرضا ، شعور بأن الله راضٍ عنك ، الشيء الذي لا يوصف .. لذلك من أجل هذا يتحملُ كلَ شيء .. يصبر على الطاعات ، يصبر عن الشهوات .

الإنسان شب في أول حياته ، امرأةٌ سافرةٌ متبذلةٌ في ثيابها تكشفُ عن مفاتنها ، مـا الذي يجعله يغض طرفه عنها ؟ والله هي جميلة وقد ركّب الله حب النساء .. ما الذي يجعلـه يدير وجهه عنها ؟ أنه ذاقَ حلاوة الإيمان فلو أنه نظر إليها فقد حلاوة الإيمان ، حلاوة الإيمان أغلى عنده من النظرِ إليها .

صحابي جليل له زوجة يحبها جداً ، قالت له أُريد كذا وكذا ، قال لها : إن في الجنة من الحورِ العين ما لو أطلّت إحداهن على الأرض لَغَلَب نور وجهها ضوء الشـمسِ والقمـر فلأن أُضحي بِك من أجلهن أهون من أن أُضحي بهن من أجلك ، أُم سيدنا سعد قالت له : إما أن تكفر وإما أن أدع الطعام ، قالَ يا أمي لو أن لك مائة نفسٍ فخرجت واحدةً واحدةً ما كُنـتُ لأكفُر بمحمد فكُلي إن شئت أو لا تأكُلي .. هذا درسنا .. الوجد .

فإذا أردتَ أن يمتلئَ قلبك بالوجد ، بالحب ، بالمشـاعر المسـعدة أردتَ أن تـذوقَ حلاوة الإيمان ، أنا أدلُك على الطريق : أولاً أطع الله عز وجل .. طاعتُك لله وحـدها تغمـر قلبك بالمشاعر المسعدة ... لو الله عز وجل لم يلقي على قلبِ هؤلاء هذه السعادة لآثروا الدنيا ، ولانشغلوا بملذاتها ، ولغفلوا عن ذكرِ الله عز وجل ، ولاتبعوا الشهوات .

الآن : أربع مراتب للوجد ..

أول مرتبة : التواجد .. هذه الصيغة فيها معنى التصنع ، التبـاكي .. التمـرض .. التواجد .. التغابي .. وزن تفاعلَ بمعنى تصنّع الشيء .....

ليس الغبي سيداً في قومه لكن سيد قومه المتغابي

أحياناً المتغابي يكون أعلى درجة من أنواع الذكاء ، ويكون هو ذكي جـداً ، لكـن الموقف يقتضي ذلك .. يتغابى ..

.. التواجد .. يتباكى يعني عملية تصنع الوجد ، التواجد عملية تصنُع الوجد .. قال هذه أول مرتبة وهي أضعفُ المراتب ، اختلافَ العلماء في هذه المرتبة : مقبولة أم مرفوضة ؟

قال: إذا أراد بالتواجد أن يكتسب ثناء الآخرين .. مرفوضة ، أما إذا أراد بالتواجد أن يصـلَ من خلالها إلى حقيقة الوجد .. مقبولة ، لقول النبي الكريم :

وقَالَ (هَلْ يَستَوِي الذين يعلَمون والذين لا يعلَمون) وقَالَ النبِي صلى الله علَيه وسلم من يرِد الله بِه خَيرا يفَقهه في الدينِ وإِنما الْعلْم بِالتعلمِ

أنتَ تعمل نفسك متأثراً وتتباكى وتُغمض عينك وتحاول أن تبكي .. هذا التواجـد .. عملية تصنُع الوجد فإن فعلتها لانتزاع إعجاب الناس هذا نفاق وا وهذه المرتبة مرفوضـة ، أما إن فعلتها لعلك تُحصلُ الوجد الحقيقي مقبولة ... في عنّا أثر عن سيدنا عمر يؤكد ذلك .. سيدنا عمر رأى النبي عليه الصلاة والسلام وأبا بكر يبكيان في شأنِ أسارى بدر ومـا قبِلـوا منهم من الفداء فقالَ عمر رضي ا ُ عنه أخبراني ما يبكيكُما فإن وجدتُ بكـاءاً بكيـت وإلا تباكيت .. هذه مرتبة مقبولة من جهة ، مرفوضة من جهة ، مقبولـة إذا أراد صـاحبها أن يصلَ من خلالها أن يصلَ إلى الوجد الحقيقي تأسياً بالنبي عليه الصلاة والسلام حينما قال: " **إنما العلم بالتعلُم ، إنما الحلم بالتحلّم ، إنما الكرم بالتكرم** ".

يعني أنت غضوب بالأصل لكن النبي أمرنا بالحلم وضغط الأعصاب وأنـت مـن الداخل تغلي غلياناً لكنك ضابط لأعصابك وتصك أسنانك وتعض على يديك .. لم تفعل شـيئاً .. هذا التحلّم ، مرة على مرة ، ا عز وجل يصيغُ عليك خُلُقَ الحلم ، تُصبح حليم أصلي .. الأولى حليم تطليع ، تُصبح حليماً أصالةً وطبعاً هكذا النبي علّمنا .. إنما الحلم بالتحلّم ، إنمـا الكرم بالتكرم .. زارك ضيف من محل بعيد تُعاكس نفسك وتعمل له عشاء ، لكن مرة مـع مرة تُصبح كريماً ، جواداً إنما الكرم بالتكرم .. فقال هذا التواجد تصنع الوجد إذا كان صاحبه فعله رياء وسمعةً لينتزع إعجاب الناس ، ليبتز أموالهم .

فهذا الخُلق مرفوض ، أما إذا فعله ليجلب به الوجد الحقيقي هذا الخُلُـق مقبـول .. هذه مرتبة ..

المرتبة الثانية : .. المواجيد .. يعني تقرأ القرآن تُحس بسعادة، تذكُر ا عز وجل تُحس بسعادة ، تدعو ا دعاء صادقاً حقيقياً في السجود .. ياربي احفظني ، يـاربي ألهمنـي الخير، يا ربي سدد خُطاي، يا ربي أعني على نفسي ، يا ربي إني تبرأتُ من حولي وقوتي .. دعاء صادق تُحس بسعادة ... دعاء صادق تُحس بسعادة ، ذكر حقيقي تُحس بسعادة ، تـلاوة قرآن تُحس بسعادة .

قال : هذه المواجيد نتائج الأوراد والتلاوات والعبـادات والطاعـات ... الطاعـات والعبادات والأذكار والأوراد والتفكرات والأدعية ... هذه كُلها تُسبب مواجيد .. هذه المرتبـة الثانية .

المرتبة الثالثة : .. المرتبة الثالثة : الوجد .. قال هو ثمرة أعمال القلوب من أحب ، وأبغض ، وأعطى ، ومنع ، فقد ذاقَ حلاوة الإيمان .. القلب له عمل ..

قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾

(سورة المؤمنون)

القلب إذا انصرفَ عن الدنيا والتفتَ إلى ا عز وجل هذا العمل اسمه عمل القلب ، من ثمار عمل القلبِ الحب .. الوجد .. هذا الذي قالَ عنه النبي صلى ا عليه وسلم : " **عن أَنَسِ بن مالِك رضي الله عنْه عن النبي صلى الله عليه وسلم قالَ ثَلاثٌ من كُن فيه وجد حلاوةَ الإِيمانِ من كان الله ورسولُه أَحب إِليه مما سواهما ومن أَحب عبدا لا يحبه إِلا لِله عز وجل ومن يكْره أَن يعود في الْكُفْرِ بعد إِذْ أَنْقَذَه الله منْه كما يكْره أَن يلقَى في النارِ** * "

أما المرتبة الرابعة .. الوجود .. " التواجد ، المواجيد ، الوجد، الوجود " .. يعني أن تجد ا ، أن تصلَ إليه ، أن تعبده كأنك تراه ، أن تراه في كُل شيء ، أن تراه من خلال كُل شيء ، أن تراه فوقَ كُل شيء ، أن ترى يده فوق يد كُل مخلوق :

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

(سورة الفتح)

أن تراه معك حيثُما ذهبت ، حيثُما توجهت وصلت إلى ا ، هذه نهاية طريق الإيمان ، هذه نهاية المطاف .

التواجد : تصنُع الوجد ، المواجيد : مشاعر مسعدة تعقب الأوراد والأذكار والطاعات وتلاوة القرآن ، الوجد : ما يشعر به قلبك من حبٍ عز وجل .. هذا الوجد من ثمرة أعمال القلوب ، أما الوجود: أن تجد ا .

كيفَ أرخميدس حينما وضع يده في حوض الماء فشعر بقوة تدفعها نحو الأعلى ، فخرج من الحمام يقول وجدتها .. وجدتها .

فلذلك الإنسان يمضي عليه ثلاثون عاماً ، عشرون عاماً ، عشرة أعـوام ، دروس علم ، مجالس علم ، بذل ، تضحية ، دفع أموال ، صدقات ، خدمة الناس ، خدمة أهل الحـق مع تلاوة قرآن ، طلب علم .. يقول لك تعبان .. لم أرتح اليوم .. إذا فـي نهايـة المطـاف وصلَ إلى ا .. وصلَ إلى كُل شيء ، إذا في نهاية المطاف وجد ا وجد كُل شيء ، ياربي ماذا وجد من فقدك ، وماذا فقد من وجدك ؟

هذه أعلى مرتبة في مرتبة الوجد .. الوجود .. أن تجد ا ، يعني أن تراه في كُل شي، أن تشعر منه بأنك قريب منه وأنه قريب منك ، أن تشعر بوجوده في كُل قصة تسمعها تراه هو الفعال ، هو الحكيم ، أعطى هذا ، منع هذا ، رفع هذا ، خفض هذا ، أعز هذا ، أذل هذا ، أكرم هذا ، منع هذا ، ترى يد ا تعملُ في الخفاء ، إليه يرجع الأمر كُله ، تفهم الأمور كلها فهماً آخر، تفهم كُل شيء تسمعه فهماً من خلال رؤيتك ـ عز وجل ، هذه عقيم ، هذه جاءت بأولاد ذكور ، هذه بأولاد إناث ، هذا زوج سعيد بزوجته ، في سبب ، ا عادل ، هناك أعمال تُبرر له هذه السعادة .

سؤال كبير جداً كيفَ نصلُ إلى مرتبة الوجد .. العلماء قالوا : " هناك ثلاث منافـذ للوجد : السمع ، والبصر ، والفكر ".

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

(سورة الإسراء)

تسمع الحق في مجلس علم .. أنتَ بشر ولك فطرةَ عالية تسمع حديثاً عن كـرم ا عز وجل ، عن عظمة ا فتهتز ، منذُ يومين كُنتُ في عقد قران فتكلّمتُ نقطة من نقاط علـم الفلك شعرت صار في هزة ، لا إله إلا ا معقول ، شعرت كأنها أحدثت صدمة . فإذا واحد استمع يعني أصغى للحق مرات عديدة حصلت له هزة .

يعني .. هو الإنسان التاجر يتاجر ثلاثين عاماً ، يشتري صفقة واحدة فيربح منهـا إلى ولد ولده ، وأيضاً المؤمن ساعة من ساعات نفحات ا عز وجل لا يعرف بالدرس بأوله أم بآخره أم بنصفه درسين وثلاث ولم يشعر بشيء ، قد يأتي درس يصل الحديث إلى شغاف قلبه ، المتكلّم أحياناً يضع على جرحك .. يعطيك الحل .. تشعر فتقول إي وا ، لا إله إلا ا وتكون التوبة النصوح ويكون الصلح مع ا عز وجل .. لا تعـرف ، فالسـماع طريـق احضر مجالِس العلم ، استمع للدروس ، يجوز في درس من الدروس تتألق .

يعني كأنه في قوى كامنة بهذا الدرس تفجرت ، في مشاعر جاشت ، فـي مطـامح تحققت، .. كما قُلتُ لكم مرة أحد العارفين أظنه ذو النون المصري حدثتُكم عن هذا في خُطبة الجمعة الأسبوع الماضي .. هذا رجل يقول لك أنا في حيرة قُلتُ أين قلبي .. يعني في شعور بالضيق .. رأى امرأة تفتح الباب وتُلقي ابنها خارج البيت وهو يبكي ، ضربته وألقته خـارج البيت وأغلقت الباب ، هذا الطفل تلّفت يميناً وشمالاً فصار يبكي ، عاد إلى بيت أمه وطـرقَ الباب قالَ يا أُمي من يقبلني إن طردتني إلى أين أذهب ؟ فنظرت إليه من خُرمِ البـاب فرأتـه يبكي ، فتحت الباب ، وأخذته وقبلّته ، ووضعته في حجرها ، وقالت يا قُرةَ عيني يـا عزيـز نفسي أنتَ حملتني على أن أفعلَ بك ما فعلت لو أطعتني لم تر منّي ما تكره ، هذا ذو النـون المصري صاح بأعلى صوته قالَ : وجدتُ قلبي .

يعني .. أخذَ من هذه القصة عبرةً عميقةً جداً ، أن الله عز وجل لا ملجأَ منه إلا إليه ، إذا أنتَ خفتَ من إنسان تهرب منه إلى واحد آخر ، أما إذا خفت من الله عز وجل .. مافي إلا الله .. لا ملجأَ منك إلا إليك ، فهذا الطفل أدرك إلى أين يذهب .. لا يوجد سوى أُمه ، هي طردته ، طرقَ الباب يا أمي من يقبلُني إن طردتني أي بابٍ أقرع ؟ ليس لنا سـوى الله عـز وجل .. والله أنا أجمل كلمة أقولها : يارب ليس لي إلا أنت .. ما في غيرك .

كل ما وثقتَ بإنسان تجده ، إذا وضعت ثقَتُك بإنسان . والله هذه الشغلة فوق طاقتي يا أخي ، ليست بيدي لا تؤاخذني ، طبعاً بنعومة أنسحب أما إذا كان واحد وضع ثقتـه بـالله عز وجل يارب ليس لي إلا أنت فلذاك السمع طريق .. احضر مجالِس العلم لا تزهد فيهـا ، هذه موائد الرحمن ، وحينما تحضر مجالِس العلم تدفع زكاةَ وقتك ، وحينما تدفع زكاةَ وقتـك أنتَ في بيت الله والله في حاجتك وحاجة أهلك وأولادك .. هم في مساجِدهم والله في حوائجهم .. وإذا الإنسان ضن بوقته الثمين عن أن يحضر مجالس علم ، الله عز وجل يمكن أن يهدر له أربع أخماس وقته في موضوعات سخيفة وأشياء تافهة .. ركّب المحرك خلال ثمان ساعات فنسي قشرة .. ففكه مرةً ثانية .. نسيها .. أثناء تركيب الآلات يكون في قطعـة مكانهـا أول حركة فينساها .. ينسيه إياها الله عز وجل .. يعمل ثمان ساعات .. أنا اليوم لن أذهب للدرس ثمان ساعات أهدرها له والدرس ساعة .. ذهب منك ثمان ساعات ... قـال لـي أخ : لشـدة ضغط الأهل علي تركنّا درس الجمعة .. أخ يحضر معنا وإنسان كريم جداً .. وصل إلى بقين لكي يملئ الماء شاهد شاباً ناعماً قالَ له أعطني عمو لكي أُملأه لك .. . فـذهبت محفظتـه .. قالَ لي فيها الهوية وفيها ميكانيك السيارة وفيها إجازة السوق .. عملت ثمانيـة أشـهر حتـى حصلتها . فإذا واحد له ترتيب ، له مجالس علم لا يغير .. لا يغير أبداً .. هذا وقت الله عـز وجل ، هذه مائدةُ الرحمن . السماع .

الآن : البصر .. شاهدت كأس الماء ، شاهدت ابنك الصغير ، شـاهدت الكواكـب بالليل ، القمر ، الشمس ، الليل ، النهار ، الرياح ، الأمطار ، الكواكب ، الثمار ، الأزهـار ، الأطيار .... إذا الإنسان مر على الآيات مرور اللئام ولا نقول مرور الكـرام يكـون غـافلاً فالسمع طريق والبصر طريق والتفكر طريق ، الآيات :

أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

(سورة الحج)

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾

(سورة محمد)

أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾

(سورة الروم)

بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

(سورة النحل)

طريق الوجد .. السماع ، والرؤيا ، والتفكّر .. أفعالُ الله تراهـا بعينـك ، وكتابـه تتدبره بفكرك ، والحقُ تسمعه بأُذُنك .. اسمع الحق بأُذُنك ، وانظر للآيات بعينـك ، وتـدبر كتاب الله بفكرك ... لا تعرف من طريق التدبر أو من طريق التفكر أو من طريق النظـر أو

من طريق السماع تنقَدح في نفسك محبةُ ا عز وجل وإذا انقدحت في نفسك محبةُ ا وصلتَ إلى كُل شيء.

لكن العلماء تساءلوا عن هذا الوجد الذي يتأتى من سماع تفسير آية ، مـن سـماع حديث قُدسي ، يعني مرة سمعت حديث :

حدثني أبي عن جدي عمر بن الخطاب عن النبي صلى ا عليه وسلم قال "يقول ا تبـارك وتعالى: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين".

الإنسان ينقدح عنده همة عالية من وراء حديث واحد .. يعني .. ياربي ماذا فقد من وجدك و ماذا وجد من فقدك .. تُهز مشاعرك هذه الكلمات .

العلماء قالوا : " هذه المشاعر المسعدة التي تلي سماع حقيقة "، أو نظر إلى آية ، أو تدبر القرآن .. إما أن تستمر وإما أن تنتهي .. فالسعيد دائماً له مستوى .. سمعت تفسير آيـة لكن تفسيراً رائعاً جداً فتأثرت .. صار معك كما يقولون صدمة .. صدمة عاطفية .. هكذا ا عز وجل بهذا الكرم ..؟.. خلقني حتى يكرمني ... خلقني حتى يسعدني ... قُلتُ لكـم مـرة مدرسة أُلزِمت أن تُدرس الفقه والتفسير .. هي تُعطي الرياضيات ، وهي معارة إلى دولـة ، أُلزمت أن تُدرس هذه المادة ، هي عادية كغيرها من الفتيات ، فتحت كتاب التفسير أول درس آيات الحجاب قرأتها .. هذه الآيات أحدثت فيها صدمة .. صارت تبكي أمام الطالِبات قالت : معذرةً إقرأوا ما شئتم دعوني مع نفسي هذه الساعة وكانت توبتُها عن طريـق تـلاوة آيـات الحجاب .

مرة تقرأ صفحة قرآن ، تقرأ مقالة عن ا عز وجل .. عن عظمـة ا ، تسـمع درس علم ، تُفكّر في قضية ، تُخاطب نفسك ... منافذ الوجد : السماع والنظر والتفكّـر وقـد تأتي النتائج مستمرة أو آنية ، يعني أنتَ بهذا المستوى حضـرت مجلـس علـم ارتقيـت .. فالبطولة ارتقيت ثم ستُتابع هكذا ؟ لما ارتقيت وعدت إلى مكان ما كُنت وأكملت ؟ هنا المشكلة .. بالحج صار سرور كثير ، بعد الحج عدتَ إلى ما كُنتَ عليه ، خسرتَ هذا التأثير ، جـاء رمضان حصل تأثير بالغ ، بعد رمضان فقدتَ التأثير عدتَ إلى ما كُنتَ عليه ... فالبطولة إذا الإنسان ارتقى درجة إما عن طريق السماع أو عن طريق النظر أو عن طريق التفكّر يحـافظ عليها .. فالمؤمن حياته هكذا .. ارتقى أكمل .. ارتقى أكمل .. ارتقى أكمل .. فـي صـعود مستمر ، أما المقصرون يرتقي في رمضان وبعد رمضان يعود كما كان ، يحـج ويعـود .. دائماً بين نزول وصعود .. أما المؤمن الصادق صاعد باستمرار كُلّ ما حصل مكسب يتابعه ، أما غير المؤمن أو إيمانه ضعيف كُل ما حصل مكسب مع شيء من التسيب .. من أخذ حـظ النفس تجده فقده فعاد إلى ما كان عليه .

يعني .. هذه المرتبة مرتبة الوجود تنتصر بها على بشريتك ، أنتَ بشـر تُحـب أن تأكل وتشرب ، تُحب النساء ، تُحب العلّو في الأرض هذه كُلُها شـهوات أودعهـا ا فـي الإنسان .. مادام الإنسان لم يبلغ مرتبة الوجد بشريته منتصرةٌ عليه ، عبد لشهوته ،
أخرج البخاري والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي صلى ا عليه وسلم قـال: "تعـس عبـد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة .

أنتَ عبد لشهواتك ، شهواتُك منتصرةٌ عليك شهواتُك متحكمةٌ فيك ، شهواتك تقودك إلى حيثُ تُريد هي ... أنتَ تابع لها .. أما إذا وصلتَ مرتبة الوجد انتصرتَ على بشـريتك ، أصبحت هذه الشهوات في خدمتك ، مسخّرةً لك ، يعني نهاية المطاف أن ينتصر الإنسان على بشريته وأن يتحرر من عبوديته لِذاته وأن يصبح عبداً لِربه وإذا أصبح عبداً فقد بلغَ أعلـى مرتبة في الأرض :

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

(سورة الذاريات)

لم يعد هناك أهواء ، ولا مصالح ، ولا شهوات ، ولا في حظوظ نفس ، يفعـل مـا يرضي ا لا ما يرضي نفسه .... يا محمد أمرني ربي أن أكون طوع إرادتـك لـو شـئتَ لأطبقتُ عليهم الجبلين قالَ: لا اللهم اهد قومي إنهم لا يعلمون لعل ا يخرج من أصلابهم من يوحد ا .

هذه الأنوار تجعل الإنسان إذا التقى معك .. يذوب محبـة ورسـوله ، تجعـل الإنسان ينسى حظوظ نفسه إذا التقى مع مؤمن ، فنحن نريد من هـذه المرتبـة أن ينتصـر الإنسان على شهواته والعلماء قالوا : الناس في هذا المقام ثلاث عبد محض ، وحر محـض ، وبين بين . البعيد عن ا عبد محض .. عبد لشهواته .. تفكيره في خدمة شهواته .. إذا قـالَ لك واحد انصحني .. تُفكّر .. خُذ هذه .. تنصحه ببضاعة كاسدة عندك ما ممكن أن تتحـرك دون نقود .. أبداً .. فحص دفع ، عاد في اليوم الثاني ليسأل .. ادفع مرة ثانية ، غير ممكـن أن يقدم خدمة أو نصيحة أو مشورة أو معاونة إلا يربح . .. لا يقبل .. فهذا عبـد محـض ، وفي إنسان تحرر كُلياً من شهواته صار حراً محضاً ، وفي إنسان طريقَ الإيمان بين بين مرة يغلب نفسه ومرة تغلبه .

الحر من تخلّص من رفق الماء والطين وفاز بعبودية رب العالمين فاجتمعـت لـه العبودية والحرية ، فعبوديته من كمال حريته ، وحريته من كمال عبوديته ، ويظل أبـداً فـي

ارتقاء كُلما نظر إلى مواقع لُطف ا ِ به ، حيثُ أهلّه ِلما لم يؤهل له أهلَ البلاء ، من هم أهلُ البلاء إذا واحد سألك من هم أهلُ البلاء .. يا أخي الحياة كُلها بلاء ، كلها مصائب ، كلهـا هموم ، في فقر، في مرض ، في ذُل ، في سجون ... هل تعرِفون من هم أهلُ الـبلاء ..؟.. وا ِ أصحاء غافلون عن ا عز وجل .. قالوا أهل البلاء هم أهلَ الغفلة والإعراض .. مثـل الحصان جسمه ، تحليل ممتاز ، تخطيط ممتاز ، حركات أعضائه كُلها ممتازة ، دخله كبير ، مكانته قوية ، مركزه كبير ، لكن في غفلة عن ا .. هذا هو من أهل البلاء ... أهل البلاء هم أهلَ الغفلة والإعراض ...

أرجو ا سبحانه وتعالى أن يجعلنا من هؤلاء الذين أحبوا ا َ وذاقوا حلاوةَ الإيمان لكن دون هذه المرتبة جهد كبير ، دون هذه المرتبة صبر طويل ، دون هذه المرتبـة جِهـاد مرير :

وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾

(سورة العنكبوت)

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا   الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم .... مع الدرس الخامس والعشرين من   مدارج السالكين ، منزلة اليوم منزلة الثقة .

النبي عليه الصلاة والسلام في حديث طويل يقول :

حديث علي: سألت رسول ا   صلى ا   عليه وسلم عن سنته فقال "المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني والحب أساسي والشوق مركبي وذكر ا   أنيسي والثقة كنزي والحزن رفيقي والعلم سلاحي والصبر ردائي والرضا غنيمتي والعجز فخري والزهد حرفتي واليقين قوتي والصدق شفيعي والطاعة حبي والجهاد خلقي وقرة عيني في الصلاة"

الكنز الذي لا يقدر بثمن هو ثقَتُك با ِ عز وجل ، الكنز الذي لا يقدر بثمن بتقريـر النبي عليه الصلاة والسلام أن تكون واثقاً با   ، وقد ورد في بعض الأحاديث :

عن أَبِي ذَر الْغِفَارِي قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ليس الزهادةُ في الدنْيا بِتَحرِيمِ الْحلال ولا في إِضاعة الْمال ولكن الزهادةُ في الدنْيا أَن لا تَكُون بِما في يديك أَوثَقَ منْك بِما في يد الله وأَن تَكُون في ثَوابِ الْمصيبة إِذَا أُصبتَ بِها أَرغَب منْك فيها لَو أَنها أُبقيتْ لَك *

(سنن ابن ماجة)

أنا أُتابع كلمة الثقة ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول : " الثقةُ كنزي "... أي الثقـةُ با   عز وجل ... وإذا أردتَ أن تكون أغنى الناس فكُن بما في يدي ا   أوثقُ منك بمـا فـي يديك ، والحقيقة .. الثقةُ با ِ عز وجل ثمرةٌ من ثمارِ الإيمان أو ثمرةٌ من ثمارِ المعرفة .. إذا عرفته وثقتَ به ، فأُم موسى عليه السلام ماذا قال ا   لها ؟

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾

(سورة القصص)

كلام غريب !! .. إذا خفت عليه فالقيه في اليم : ائتني بامرأة من مليون امرأة تضع ابنها في صندوق وتُلقيه في النهر ، لماذا ألقت أُم موسى وليدها الحبيب في النهر ؟ لِثقتها بأن ا   عز وجل سيحفظه .

لذلك .. " **فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني** " وأنا في طريقي إلى المسجد خطر على بالي هذا المثل : لو أنك في طائرة وهي تُحلّق على ارتفاع أربعين ألف قدم وجاء إنسان وفتح لك بابها وقالَ انزل وتأكد أن في الأرض مسطحاً مرناً يمتص هذه الصدمة وسوفَ تنزلُ سالِماً .. أتُلقي بنفسك ؟ في حالة واحدة : إذا كُنتَ واثقاً من هذا القول إلى درجة خيالية تُلقي بنفسك ، لكن لن تُلقي بنفسك من باب الطائرة إلا إذا كُنتَ واثقاً من النجاة .

هؤلاء المظليون كيف يفتح لهم باب الطائرة ويلقون بأنفسهم لابد من أن هذه المظلة مدروسة دراسة علمية مساحتها وطريقة فتحها ومقاومة الهواء ووزن المظلي .. هذا كله مدروس بدقة فلذلك بلا وجل ولا خوف يفتح باب الطائرة ويلقي هذا المظلي بنفسه في الهواء ، تُفتح المظلة وينزل رويداً رويداً ، موضوع الثقة .

يعني أنت مثلاً متى ترفض دخلاً كبيراً فيه شُبهة ؟ لِثقَتك بأنك إذا تركته عوضك الله خيراً منه ، متى ترفض عملاً لا يرضي الله ؟ لِثقَتك أنك إذا فعلتَ ذاك غضب الله عليك وإذا غضب الله عليك خَسرتَ كُل شيء ، متى ترفض أن تُعين ظالماً ؟ لِثقَتك أنك إذا أعنته كُنتَ أولَ ضحاياه .

قال ابن عباس: إذا رضي الله عن قوم ولى أمرهم خيارهم، إذا سخط الله على قوم ولى أمرهم شرارهم. وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم: من أعان ظالما سلطه الله عليه .

.. القرآن الكريم حينما تقرؤه والسنّةُ المطهرةُ حينما تقرؤها إذا كُنتَ واثقاً أن هذا كلام خالِقُ الكون وأن زوالَ الكون أهون من ألا يتحققَ وعده أو وعيده ، وأن زوالَ الكون أهون من ألا يتحققَ وعد النبي ووعيده ، عندئذ تَثِقُ بأن هذا القرآن كلامه وأنه واقع لا محالة .. لذلك تخشاه .

.. لا أُبالغ : يمكن أن يجمع الإيمان كُله في كلمة واحدة أنك واثقٌ مما جاء في القرآن الكريم ، تضع الدنيا تحتَ قدميك ، تضع كُلّ مباهج الدنيا تحتَ قدميك إذا حملتك على معصية الله أو إذا حجبتك عن الله ، ولو سألتَ مؤمناً : لماذا أنتَ تُطيع الله عز وجل ..؟.. لو سألت مؤمناً صادقاً ما الذي يحملك على طاعته يقول لك لأنني متصلٌ به وأخشى على هذه الصلة أن تنقطع .. وهذا أقوى جواب .. ، لماذا تغض بصرك عن محارم الله ؟ لأنك موصول بالله بهذه الطاعة فإذا أطلقتَ بصرك في محارم الله حجِبتَ عن الله .. ومادام الله .. أغلى ما تملك .. أغلى شيء في حياتك لذلك حريص أنتَ على أن تكون متصلاً به .. هذا سر الطاعة .. فالنبي عليه الصلاة والسلام ما كان مبالِغاً حينما قال : " الثقة كنزي " ، وما كان مبالِغاً حينما قال :

عن أبي ذر الغفاري قال قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ليس الزهادةُ في الدنْيا بتحريم الحلال ولا في إضاعة المال ولكن الزهادةُ في الدنْيا أن لا تكُون بما في يديك أوثقَ منْك بما في يد الله وأن تكُون في ثواب المصيبة إذا أُصبتَ بها أرغَب منْك فيها لو أنها أُبقيتْ لك *

فلذلك : يمكن أن يضغطَ الإيمان كله ، والمعرفةُ كُلها ، واليقين كُله .... في كلمـة واحدة: هو أنك واثقٌ با ، واثقٌ من أن ا لا يضيع عبده المؤمن زوال الكون أهون على ا من أن يضيع مؤمناً أطاعه ، سبحانك إنه لا يذلُ من واليت ولا يعز من عاديت ، سيدنا رسول ا كان مع أصحابه وكانوا فقراء ، ضعفاء ، مقهورين ، محتاجين وكانت ثقـتهم بـربهم لا حدود لها .

لما التقى به عدي بن حاتم قالَ له : لعلك يا عدي بن حاتم إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من حاجتهم .. ويم ا ليوشكن المالُ أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه .. واثق .. أنا وا الذي لا إله إلا هو إن رأيتُ شاباً مستقيماً ضابطاً لجوارحه ، ضـابطاً لمشاعره ، يصلي أثناء الليل وأطرافَ النهار ، يغض بصره عن محارم ا ، يتحرى الحلال ، مستعد أن يضحي بكل شيء من أجل مرضاة ا عز وجل .. وا الذي لا إله إلا هو أقول له وأنا واثقٌ مما أقول له كثقتي بأن هذه شمس في رابعة النهار : ا سبحانه وتعالى سـيوفقُك ، وسيرفعك ، وسيعزك ، وسيعطيك وسيقر عينَك .. أبداً .. الإيمان كله أن تكون واثقاً با .

هناك أسئلة تَرِد كثيراً : يا أخي إذا ما فعلت هذا أُسرق ، إن لم أضـع المـال فـي المكان الفولاني " مكان الشُبهة والحرمة وكذا " ينسرق المال ، هذه ثقَتُك با ؟ لأنك أطعتـه ضيع ا مالك ، إن لم أُعلّم ابنتي في الجامعة وفي المراحل العليا تُطلق فإذا طُلقت لابد لهـا من عمل .. فكر بطلاقها قبلَ أن يزوجها ، تفكيره في الطلاق قبلَ الزواج ، هذه ثقَتُك با إذا ربيتَ ابنتك تربيةً صالحةً طيبةً على طاعة ا ظَنُك أن ا سيأتيها بزوج وأولُ ما يفعله معها أنه يطلقُها .. هكذا .. هذه ثقَتُك با عز وجل .

.. الموضوع واسع جداً ، كُلُ المعاصي التي يقترفُها الناس لِضعف ثقتهم با ، كُـلُ اليأس الذي يصاب به الناس لِضعف ثقتهم با ، كُلُ القنوط حينما يطيع مخلوقاً ويعصي خالِقاً ضعيفُ الثقة بوعد ا .. رأى أن إرضاء هذا المخلوق أثمن من رِضاء ا عز وجـل ، وأن سخطَ هذا المخلوق أعظم عنده من سخط ا ، ليس واثقاً بكلام ا ، ولا واثقاً بما عند ا من نعيمٍ مقيم، ولا ما عند ا من عذابٍ أليم .فلذلك : إذا ضغطنا الإيمان كُلَـه والمعرفـةَ كُلَهـا واليقين كُله بكلمة واحدة : إنها الثقة ، ولم يبالغ النبي الكريم حينما قال : " **والثقةُ كنزي** ".

لذلك العلماء قالوا : " التفويض ، والتسليم لقضاء ا ، مرتبة التفويض ومرتبـة التسليم ومرتبة التوكل أساس هذه المراتبِ كُلها : الثقة ". أنتَ لا تُفوض إلا مـن تَثـقُ بـه ، الواحد منّا من يسطّر لآخر وكالة عامة ، عامة يعني بإمكان هذا الوكيل أن يبيع أملاكك كُلها ،

بإمكانه أن يطلقَ منك امرأتك .. أنتَ لمن تُعطي وكالة عامة ؟ لمن تَثِـقُ بـه .. .. أسـاس التعامل هو الثقة . فهل في الكونِ كُله جِهةٌ أجدر بثقَتك من ا ِ عز وجل ؟ .

اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ
مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

(سورة النساء)

۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ
وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ
الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

(سورة التوبة)

حتى إن بعض العلماء حينما قال :

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾

(سورة الفيل)

وا أنا ما رأيت ، أحضر لي واحداً رأى هذا الحادث ، لِم لم يقل الرب : ألم تسمع .. معقولة .. سمعنا .. قرأناها في التاريخ .. أما ألم تر ، من رأى منّا ما فعله أبرهةُ بالكعبـة ..؟.. العلماء قالوا : لأن إخبار ا ِ يقين كيقين المشاهدة ، إخبار ا عز وجل يقـين كيقـين المشاهدة لذلك ورد قوله تعالى : " **ألم تر كيفَ فعلَ ربك بأصحاب الفيل** " ثقة ..

ما ترك عبد أمرا لا يتركه إلا إلا عوضه ا منه ما هو خير له منه في دينه ودنياه

إذا كُنتَ واثقاً من قول النبي تُضحي بِكُل شيء ولا تُضحي بطاعة ا عـز وجـل وعندئذ يأتيك كُلُّ شيء .. ضحي بِكُل شيء إرضاء ِ عز وجل يأتيك كُلُّ شيء .

هل في الأرضِ كُلها إنسان يرى في المنام أنه يذبح ابنه يقول له في اليوم التـالي يابني إني أرى أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قالَ يا أبت افعل ما تؤمر ، لا يوجد بـالأرض

كُلها إنسان واحد عنده استعداد لِمنامٍ رآه في الليل أن يذبح ابنه حبيب قلبه ، مهجةَ فـؤاده ، أن يضع السكين على رقبته .. مستحيل .. لكن لماذا فعلَ هذا النبي العظيم لأنه واثقٌ من رحمـة ا ، واثقٌ من أن أمر ا ِ فيه حكمةٌ بالِغة ، وأن أمر ا لابد من أن ينفّذ ، لكن لمـا انطلـقَ لتنفيذه كان الفداء الذي تعرفونه جميعاً .

فلذلك .. . موضوع الثقة ممكن وأنت راكب مركبة تتطلع على ساعة السرعة على مؤشر السرعة ، فهذا المؤشر حركته تتناسب مع السرعة تماماً ، يعني .. إذا كان ٢٠.. ٢٠ ، ٤٠ .. ٤٠ ، ١٠٠ .. ١٠٠ ، ويجب أن أقول لك مرةً ثانية إن مؤشر الثقة يتناسب مع إيمانك ، إيمانك ٥ % فالثقة ٥ % ، إيمان ٥٠ .. ٥٠ الثقة ، الإيمـان ٨٠ .. ٨٠ ، كُلمـا ارتفـع مستوى الإيمان ارتفع معه مؤشر الثقة إلى أن تؤمر بشيء .. غير معقول لكنك واثقٌ مـن أن ا عز وجل لن يضيعك أكثر التُجار يتعاملون وفق أعراف ، و أساليب ، يأتي تاجر مـؤمن يخالف هذه الأعراف .. هذه شُبهة لا أفعلُها .. يقال له : أنتَ مجنون ، ضيعتَ عليـك رِبحـاً وفيراً ، جمدتَ هذا المال سنوات طويلة دون أن تأخذ رِبحاً أو فائدةً .. هكذا العاقـل ؟ هـو واثقٌ أنه إذا أطاع ا عز وجل لن يضيعه ا أبداً .. لن يضيعه أبداً .. لذلك أحياناً تتعارض القوانين الأرضية التي تعارفَ الناس عليها مع الأوامر الإلهية .. هنا يظهر المؤمن .... الناس جميعاً يدعونك إلى أن تفعلَ كذا وكذا .. هكذا التجارة .. هكذا البيع والشراء .. هكذا إخفـاء العيب .. هكذا ينبغي أن تفعل، والنبي عليه الصلاة والسلام يعطيك أمراً آخر ، فإذا كُنتَ واثقاً من أن هذا النبي العظيم لا ينطق عن الهوى وكلامه وحي يوحى وأن هذا الوحي من عند ا وأن ا هو الصانع وهذه تعليمات الصانع ، تفعل ما يأمرك به نبيك.

إذا عندك آلة معقّدة وغالية بِربك .. تُلقيها أمام أي إنسان ليصلحها لك ؟ وا قبـلَ أن تُعطيها إياه تسألُ عنه وعن خبرته وعن أعماله السابقة وعن صدقه وعن أمانته وعن ذكائه قبلَ أن تُعطيه جهازاً .. أخي قد يسرق منه .. لن تُعطيه هذه الساعة إلا إذا وثقتَ من علمـه وأمانته ، لن تُعطيه مبلغاً من المال ليستثمره لك إلا إذا كُنتَ واثقاً من أمانته ومن خبرته فـي وقت واحد ... الثقةُ أساس ... فلذلك أنتَ لن تُفَوض ِ عز وجل إلا إذا وثقتَ مـن حكمتـه ورحمته .. اللهم خر لي واختر لي .. هذا تفويض ، اللهم اجعل محبتك أحب الأشـياء إلـي ورضني بقضائِك حتى لا أُحب تعجيلَ ما أخّرت ولا تأخير ما عجلّت .. واثق أنـت .. لكـل شيء أوان فإذا تعجلّتَ الشيء قبلَ أوانه عوقبتَ بحرمانه فثقتُك با عز وجل هـي إيمانُـك ، مؤشر الثقة يتناسب طرداً مع مؤشر الإيمان ، كُلما زاد الإيمان زادت الثقة ، فأنتَ إذا واجهتَ مشكلةً تُفوض ياربي أنا راضٍ ، أنا فوضتُك فيما تُريد افعل بي ما تُريد ، أنا واثقٌ من رحمتك ياربي ، واثقٌ من حكمتك ، واثقٌ من تدبيرك ، من عدالتك ، من علمك ، بما ينطـوي عليـه قلبي من نوايا ... تقدمت في الامتحان لم تنجح .. بعد ما فوضت لم تنجح .. أنتَ الآن أمـام

حالة أُخرى ما هي ..؟.. التسليم ، التفويض قبلَ النتائج والتسليم بعد النتائج ، فلابـد مـن أن تفوض ، ولابد من أن تُسلّم ، لابد من أن تُفوض قبلَ النتائج ولابد من أن تُسلّم بعد النتـائج ، والتفويض والتسليم أساسه الثقة ، والتفويض والتسليم مع الثقة هذه كُلُها هي التوكل ، والتوكل :

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾

(سورة النساء)

لذاك : ياربي إذا كُنتَ معي فمن علي وإذا كُنتَ علي فمن معي. يا أبا بكر ما ظَنُكَ باثنين الله ثالِثُهما :

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

(سورة التوبة)

يقول عليه الصلاة والسلام :

إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله تعالى، وأن تحمدهم على رزق الله تعـالى، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله. إن رزق الله لا يجره إليك حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره، وإن الله بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط

يعني كل الأحزان إذا شككتَ برحمة الله ، بعدالته ، بحكمته ، برحمتـه بعطائـه ، بقدرته، بعلمه .. مادام هناك شك .. في أحزان لا تنتهي ، وفي سخط .. دائماً ساخط ، مـن صفات الكافر أنه يتسخّط كُلَ شيء .. كُل شيء لا يعجِبه .. كُل شيء ينتقده .. لا يرى يد الله عز وجل .. تفعلُ ما تُريد ، لا يرى حكمة الله عز وجل ، لكن الرِضا حال قلبي ليس عمـلاً

إرادياً فالعلماء قالوا: من لم يقدر على الرضا ظَفِر باليقين ، لم يرض لكنه موقن أن هذا العمل نتائجه لصالِحه، وإن لم يظفر باليقين فعليه بالصبر .. إما أن ترضى ، وإما أن توقن ، وإمـا أن تصبر ، إن ظَفرتَ بالرضا فهذه مرتبةٌ جيدة وإن لم تظفر بها فعليك باليقين بـأن النتـائج لِصالِحك لقول ا عز وجل :

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾

(سورة الأعراف)

وإن لم تظفر باليقين فعليك بالصبر :

وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾

(سورة النحل)

الآن التسليم عز وجل .. قال : هناك تسليمان : تسليم لأمرِه التكليفـي ، وتسـليم لأمره التكويني .. يعني .. طلّقتها المرة الأولى والثانية والثالثة .. بانت منك بينونةً كُبـرى ، فلا تَحلُّ لك حتى تَنكح زوجاً غيرك يا أخي أريد أن اُعيدها معناها أنت لـم تُسـلّم أن هـذا التشريع من عند خالِق الكون ، أول مرة ممكن لك أن تُعيدها والمرة الثانية ممكن أما الثالثـة غير معقول ، معناها أنتَ لا تُريدها فلابد من أن تُجرب غيرك فإذا أزعجت غيرك فالعلةُ منها عندئذ تُطلق فإذا انزعجت من غيرك ما لعلة منها وإن رضيت به فالعلةُ منك .

هكذا التشريع ... يا أخي الصيام ٣٠ يوم بالصيف هذه الطاقة العاملـة تضـعف ، الإنسان يهبط مستوى نشاطه بالعمل .. لماذا الصيام .. أنتَ لا تعرفُ ا أبداً ، مادام هنـاك اعتراض على أمره التشريعي ، الحج : لماذا الطواف .. لماذا السعي .. لماذا الوقوف بعرفة .. لماذا البلاد حارة لهذه الدرجة يا أخي .. يجعلها كالبلاد المعتدلة ، ما عرفتَ حكمة ا عز وجل ، كُلما اعترضتَ على أمرِ تكليفي من عبادة أو معاملة أو خُلُق فأنتَ لا تعرفُ ا عـز وجل ، فعلامة المؤمن أن يسلّم لأمر ا التكليفي لذلك ربنا عز وجل قال :

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

(سورة النساء)

تحكيم النبي عليه الصلاة والسلام هو تحكيم الشرع وبعد موت النبي عليه الصلاة والسلام كيفَ تحكيمه أن تعود إلى سنّته ، إذا عدتَ إلى رأيه في حياته فرأيه سنّة ، وإذا عدتَ إلى سنته بعد مماته فقد حكّمته " **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم** " ، الإنسان حينما يرضى بالتحكيم فقد وثقَ بالمحكّم ، إذا قالَ لك : فلان لا أنا لا أقبله إن لم يكن واثقاً بالمحكّم لا يقبل ، أن تقبلَ بالتحكيم .. أن يحكّم النبي عليه الصلاة والسلام .. **هذه مرتبة** .

المرتبة الثانية : " **ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت** " يعني .. معقول أنه لا يحكم لي ؟ غير معقول لا أرضى إذا لم يحكم لي مثلاً .. أنتَ قَبِلت لكن مع القبول قلق ، كيفما حكم فأنتَ راضٍ " **ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت** "وبعد أن يحكُم " **ويسلّموا تسليماً** "

يوجد صحابي جليل احترق لأنه لما النبي الكريم نهى عن قتل عمه العباس قالَ في نفسه يأمرنا ألا نقتلَ عمه ونحن نقتلُ آباءنا وإخواننا

فسر التوجيه تفسيراً آخر .. تفسيراً عصبياً . عمه لا نقتله له أما نحن آباؤنا يقتلون لا بأس .. هو عمه كان قد أسلم من قبل غزوة بدر ، والنبي الكريم إذا قال إن عمي قد أسلم فَقَدَ مهمته الخطيرة في مكة كان يقدم للنبي أخباراً دقيقةً عن ما تُجمع عليه قريش ، فلو أعلن أن عمه قد أسلم انتهى دوره ، ولو لم يأمر أصحابه ألا يقتلوه يقتلونه في الحال ، ولو لم يشترك عمه في الحرب لَشُكَ في ولائه لقُريش ، إذا لم يشترك بالحرب عمه مشكلة وإذا قال النبي أن عمي أسلم مشكلة ، وإذا قال اقتلوه مشكلة ، أليس لك ثقة بالنبي أنه حكيم وليس متعصباً لا لأهله ولا لأعمامه .

هذا الصحابي قال : أيأمرنا ألا نقتلَ عمه ونحن نقتلُ آباءنا وإخواننا .. فسرها تفسيراً آخر .. قال : بقيت عشر سنوات وأنا أتصدق وأُصلي لعلَ الله يغفر لي .. هذا الظن السيئ .. " **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً** "

يجب أن تستسلم لأمر الله التشريعي ، آمرك بأوامر كثيرة وعليك الطاعة نحن نقرأ القرآن قُم واسجد ، لم يعجبه ، نحن نقرأ الآن جالسين .. هكذا النبي فعل ، كُلما مرت آية فيها

سجدة سجد ـ عز وجل .. ما دام في اعتراض وعدم قبول لأمر ا عـز وجـل التكليفـي التشريعي فهناك خلل في الإيمان .

قال **النوع الثـاني** : التسليم لأمر ا التكويني .. يعني هذا الإنسان لـم يأتـه أولاد جاءته زوجة سيئة جداً ، هكذا شاء القدر دخله قليلٌ جداً ، له ابن فيه عاهةٌ منذُ الـولادة ، .. هكذا ا يريد .. ألستَ واثقاً من حكمته ، من رحمته ، من علمه ، من عدالته ؟ قال هذا هو الرضاء بالقضاء والقدر .

في نقطة مهمة جداً في القضاء والقدر ، قضاء ليس لك أن ترفضه ، و قضاء يجب أن ترفضه .. كيف ؟

ما كُلُّ قضاء وقدر يستسلم له ، الابن ساخن حرارته ٤٠ " قضاء وقـدر " ألا تُعالجه ليس قضاء وقدراً ، في قضاء يجب أن تستسلم له وفي قضاء ثانٍ يجب ألا تستسلم لـه .. يجب أن تبذلَ جهدك في معالجته ابنك ضعيف في الدراسة اعتن به ، درسه ، اجعـل لـه برنامجاً مكثّفاً لي أقرباء عندهم ابن أربع سنوات أعاد الثانوية العامة والدته مصممة أن يكون طبيباً ، أربع سنوات شهادة ثانوية وسبع سنوات بالجامعة وصار طبيباً هذا نتيجة التصـميم .. هكذا تستسلم مباشرةً ابني لا يصلح للعام ، ليس بوسعه الدراسة .. تريث قليلاً.. فـي قضـاء يجب أن تستسلم له، وفي قضاء يجب أن تُعالِجه .

لذلك قالوا : في قضاء وفي مقضي ، القضاء من ا مباشرةً أما المقضي عن طريق إنسان .. أيام شخص يتجاوز حدوده أتستسلم له أتُطمعه ؟ لكن إذا وقفت في وجهه ونيتُـك أن توقفه عند حده وأن تردعه عن مثل هذا العمل .. هذا عمل طيب .. فما كُل قضاء يستسلم له .

بل إن علماء العقيدة فرقّوا بين القضاء والمقضي ، إنسان تجاوز الحد ، هو حينمـا فعلَ هذا بأمر ا لكن أنتَ عليك أن ترفض هذا العمل ، أن تؤدبه ، أن توقفه عند حده ، هنـا الفرق بين الفقيه و غير الفقيه .. اتركه .. هكذا يريد .. هكذا ا يريد ، .. لا .. هذا موقـف ضعيف .. إنسان مثلاً تجاوز حده بالسرعة فدهس طفلاً .. أخي هكذا ا يريد .. لا .. هـذا يعاقب الإنسان ، يعاقب ويدفع الدية جزاء تقصيره وجزاء تهوره وطيشه .. أخي هذا قضـاء وقدر ليس له علاقة هو حينما فعلَ هذا بقضاء ا وقدره ، لكن هذا لا يعنـي أن يعفـى مـن المسؤولية وإلا أصبحنا في فوضى .

فلذلك : هناك أحكام يؤمر الإنسان أن يستسلم لها ، وأحكام لابد من أن تُعالِجها كمـا أن ا عز وجل أمر بذلك .

في نقطة مهمة جداً أن ا عز وجل وجوده بين ظاهر لا يحتاج إلى دليل ، بالفطرة تؤمن بوجوده ، وكُلُّ الكون يدل عليه ، أنتَ محتاج لا إلى دليلٍ على وجود ا ولكنك محتاج إلى دليلٍ يوصلُك إلى ا ، يعني ا موجود وأنت آمنت بوجوده ، أما الدليل كيفَ تَصلُ إليه،

كيفَ تبتغي مرضاته ، كيفَ تتصلُ به ، كيفَ تنعم بقُربه ، أنتَ بحاجة إلى دليل موصل إلـى الله لا إلى دليل يثبت لك وجوده ... إبليس قالَ له ربي فبعزتك .. الشـيطان الـرجيم مـؤمن بوجود الله ومؤمن بعزته .

فكل إنسان ظن نفسه أنه مؤمن بالله عز وجل يعني مؤمن بوجوده يعني أنا مؤمن لا ليس هذا القصد ، القصد لا أن تؤمن بوجوده فحسب بل أن تتجه إليه ، بل أن تتصلَ به ، بـل أن تَصلَ إليه .. كلمة فُلان وصلَ إلى الله والله لا أستطيع أن اُعبر عنها .. يعني .. إذا وصلَ إلى الله رآه في كُل شيء ، فرآه فوقَ كُل شيء ، رآه مع كُل شيء ، ما رأى في الأرض جهةً متصرفة إلا الله عز وجل .. هذه الرؤيا .. وإذا رأيتَ هذه الرؤيا استقمتَ على أمره وعكفـتَ على مرضاته ، وأقبلتَ عليه وسعدتَ بقُربه ، فرقٌ كبير بين أن تؤمن بوجوده وبين أن تسعى إليه :

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾



(سورة الكهف)

المشكلة ليست أن تؤمن أو أن لا تؤمن بوجوده .. هذه قضية مفروغ منهـا .. لأن ربنا ماذا قال ؟ قالَ :

﴿۞قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾



(سورة إبراهيم)

دعاك إلى عبادته ، دعاك إلى طاعته ، دعاك إلى شُكره ، أما أنه دعـاك إلـى أن تؤمن بوجوده .. هذه قضية مفروغ منها .. خطر ببالي مثل : شخص أمامك وزنه ١٢٠ كيلو طويل ويلبس ثياباً جميلة ، ومتعطّر أخي أنتَ موجود وقّع لي هنا ، هو أكبر مـن توقيعـه ،

يعني وجوده أهم من توقيعه ، توقيعه إذا غاب عنك ، قالَ يا إمام متى كان ا فقالَ له ومتى لم يكن ؟ ومتى لم يكن ؟ المشكلة ليست أن تؤمن بوجوده .. المشكلة كيفَ تصل إليه كيفَ تأنس به ، كيفَ تُقبِلُ عليه ، كيفَ تتصلُ به ، كيفَ تسعد بِقُربِه .. هنا المشكلة .. " **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً** "

نحن في الحقيقة كُل جهدنا ، وكُل عملنا ، وكُل مسعانا ، وكل التدريس ، والتوجيه ، والبيان ، والتحليل والأدلة .. كيفَ نَصلُ إليه وليس كيفَ نوقن بوجوده .. هذه قضية مفروغ منها .. الطالب مثلاً : يقينه بالفحص ثابت أما المشكلة كيفَ ينجح في هذا الفحص .. كيفَ ينجح .. " في فحص .. لا فحص .. وا محتار يا أخي " الفحص لابد منه فحص الشهادة الثانوية لابد منه، لا أعتقد في الـ ١٠٠ ألف طالب يقدمون شهادة ثانوية كُل سنة في طالب واحد يشُك أن الامتحان وقع الشك في نجاحه أو عدم نجاحه ، أما الامتحان قائم فهذه نقطة مهمة جداً .

.. أهلُ الكلام المتشدقون يأتون بِكُل شيء على وجود ا ، أما أهلُ القُرب يبحثون عن دليل يوصلُ إلى ا .. فرقٌ بين من يقيم لك الدليل على وجوده ومن يقيم لك الدليل على الوصول إليه .. الحقيقة هذا الدرس من مستوى غير دروس ترسيخ الإيمان ، هذه الدروس أساسها كيفَ نصل ، كيفَ يكون القلب سليماً ، كيفَ نُقبل ، كيفَ نستسلم ، كيفَ نفوض ، كيفَ نتوكل ، كيفَ نثق ، فنحن لا في مقولة نؤمن أو لا نؤمن ، نحن في مقولة نصل وكيفَ نصل ومتى نصل ، وإذا وصلنا ماذا نفعل بعد الوصول .

رجل دعاك إلى داره قُلتَ للرسول لا آتي معك إلا إذا جئتَ بدليل على وجود من أرسلك ودليل على أنه مطاع في أهله ودليل على أنه أهل لاستقبال الضيوف .. يقول لك .. لا تأتي .. في شخص وجوده فوق الشُبهات ، وكرمه فوق الشُبهات ، ودعاك فما عليك إلا أن تُلبي الدعوة ..

قال المتكلّم .. المتفلسف .. يبحثُ في المكان والزمان والجواهر والأعراض والأكوان ، مهمته مقصورةٌ عليها لا يعدوها ليصلَ منها إلى المكون وعبوديته .. أما السالِك إلى ا .. في شخص آمن بوجود ا ، في شخص سالك إلى ا .. لذلك العلماء ثلاثة كما قال بعض العارفين : عالِم بالشريعة .. أخي هذه حكمها كذا ، وهذه حكمها كذا ، وهذه مباح ، وهذه واجب ، وهذه فرض ، وهذه سنّة ... إلى آخره. هذا عالِم بالشريعة ، وفي عالِم أرقى : عالِم بالطريقة .. عالِم الشريعة إذا دخلَ الوقت توضأ والوضوء له فرائض وله سنن وله مستحبات وله آداب دخل الوقت، استقبل القبلة ، طهر بدنك ، طهر ثوبك ، طهر المكان ، كبر تكبيرة الإحرام ، اقرأ دعاء الثناء ، الفاتحة .. هذا عالِم الشريعة ..

عالِم الطريقة أرقى يعطيك أحكام الصلاة ويقول لك غُض بصرك عن محارم الله ، تقصى أن يكون دخلُك حلالاً ، لا تنقطع عن الله بين الصلاتين ، أمضِ الوقتَ بالدعاء فإذا أذّن الظُهر رأيتَ نفسك أهلاً للصلاة إذا كبرتَ للإحرام شعرتَ أن نفسك قد سرت إلى الله عز وجل .. هذا عالِم الطريقة .

يعني يبين لك الطريقة التي تقع فيها العبادةُ على نحوٍ يرضي الله ، عالِم الشريعة يقول لك الصيام ترك الطعام والشراب وسائر المفطرات من طلوع الفجر الصادق إلى غياب الشمس بنية .. هذا تعريف الصيام .. لكن عالِم الطريقة يقول لك : لابد من قيام الليل ، لابد من الأذكار ، لابد من تلاوة القرآن ، لابد من الصدقات في رمضان ، لابد من الاعتكاف حتى يؤتي الصيام ثماره ..

أما عالِم الحقيقة فوقَ عالِم الطريقة ، .. عالِم الحقيقة : هو الذي يسلكُك إلى الله ، وجوده مفروغ منه ، وطاعته بديهية ، آمنتَ بوجوده وبأسمائه وبوحدانيته وبكماله ، وعرفتَ منهجه ، وطبقّتَ منهجه ، بقي عليك أن تسألُك إليه . مثلاً : أنتَ شاهدت طبيباً هذا قال لك : هذا أستاذ في الجامعة .. صباح الخير .. لو سلّمتَ عليه مليون مرة لا تعرف سوى أنه طبيب في الجامعة أستاذ ، أما لو جلستَ في إحدى محاضراته .. أول محاضرة وثاني محاضرة .. فرق كبير بين من يسلّم عليه من موظفين إداريين في الكلية وبين من يحضر محاضراته اليومية ، هذا يسلّم عليه ومعرفته به ثابتة لا تزيد ، أما هذا الذي يحضر محاضراته كُلما ألقى محاضرةً جديدة كبر في نظره .. يا أخي هذا من فلتات الزمان .. هذا عالِم كبير .. هذا حجة .. هذا له سمعة على مستوى العالم .. هذا أحد ثلاثة في العالم .. أما إذا لم تحضر ولا محاضرة له وكُلما شاهدته سلّمتَ عليه بلفظ طبيب وأستاذ وصباح الخير وكيف الحال ... لكن معرفتك به ثابتة .

فالقضية لا أن تؤمن بوجود الله فقط .. أن تَصلَ إليه ، أن تُنمي معرفتك به ، أن تزداد قُرباً منه ، أن تذوقَ حلاوة قُربه ، أن تسعى إلى بلوغ مرضاته .. فالعالِم الذي يسلكُك إلى الله عز وجل هو عالِم الحقيقة ، والذي يعطيك القواعد كي تؤدي العبادات كما أراد الله هو عالِم الطريقة ، والذي يعرفُ أحكام الشريعة بدقة بالغة هو عالِم الشريعة ولا يكون عالِم الطريقة عالِماً بالطريقة إلا إذا كان عالِماً بالشريعة ، ولا يكون عالِم الحقيقة عالِماً بالحقيقة إلا إذا كان عالِماً بالطريقة وعالِماً بالشريعة .

الشريعة : الهيكل الإسمنتي للدين ، الطريقة : الكسوة ، الحقيقة: الأساس .. فأنتَ لو فرضنا أطلعك على خرائط لبناء بناية .. يقول لك انظر حساب الإسمنت وتكعيب الإسمنت ، انظر حساب الحديد ، انظر للطابق الأرض ، ما هذه الخرائط .. شيء جميل .. لكن أنتَ لا

تملك بيتاً. يا ترى أيهما أرقى أن تُقدم لك خرائط بناء فخم أم يقدم لك منزل فخم تسكُنه وقـد بني على أُسس علمية .

فلذلك : هناك عالِم يلقي درسه ، وهناك مربٍ ، العالِم ألقى الدرس وانتهى الأمر .. الذي عرف والذي لم يعرف سواء ، أما المربي يتتبع تلاميذه يحاول أن يفهم .. مدى يقينـه ، مدى استقامته ، مدى فهمه ، مدى استيعابه ، المتابعة هي تربية وإلقاء الدرس تعليم .

الموضوع الأخير : قال التسليم الذي أساسه الثقة با عز وجل هو أن تتخاص مـن كُل شُبهة تُعارض الخبر الإلهي . يعني .. ا أخبر أن آدم أبو البشر .. يا أخـي وا شـيء يحير علمونا أن داروينغ يقول إن الإنسان أصله قرد وقال في مستحاثات وفي حلقـة مفقـودة .... فا أخبر بوجود آدم لا يوجد قرد .. أنتَ تقول في قرد .. مـثلاً .. وا شـيء يحيـر فمعناها ما في تسليم عز وجل لم تُسلّم ، أنتَ قرأت أن الأرض كوكب في مراحل متـأخرة جداً ابترد وصار أرضاً أما ربنا قال :

ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾

(سورة فُصلّت)

الأرض مخلوقة قبل السماء .. هكذا ربنا عز وجل قال ، إذا فـي عنـدك شُـبهات تعترض بها على إخبار ا عز وجل فا عز وجل قال كلمة واحدة قال :

۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾

(سورة الكهف)

إذا أحدنا له ابن عمره عشر سنوات وكان قد اشترى محلاً تجارياً قبل ثلاثين سـنة جالس في مجلس يقول أنا وا المحل الفولاني أخذته من فُلان .. يقول الابن بابا مـن فـلان أخذته .. أنتَ كُنت وقتها ، أنتَ عندما أخذته أنا أين كُنت ؟ فالذي يعترض الكون كان أصـله كذا يقول ا " **ما أشهدتهم** " .. ما كانوا معي " **ما أشهدتهم خلـقَ السـماوات والأرض ولا خلقَ أنفسهم** " لم تكونوا أنتم وقتها ، تتفلسفون على ماذا تتفلسفون ؟

ليس أصل الإنسان قرداً ، فلما يكون في عندك شُبهات هذه الشُبهات تعترض بها على إخبـار ا عز وجل فهذا من عدم التسليم ، وعدم التسليم من عدم الثقة .

أو في عندك شهوة مصر عليها هذه الشهوة تُعارض بها أمراً إلهياً ، قـال لـك ا غُض بصرك .. يا أخي هذا الزمان صعب ، أين نذهب بأعيننا ، يمثّل لك تمثيلاً أنك تمشـي هكذا تجد واحدة أمامك ، على اليمين على اليمين واحدة ، على اليسار على اليسار واحـدة ، إلى فوق تجد في النافذة جالسة واحدة .. أين أذهب بعيني ..؟.. يعني مسـتحيل ، يعنـي ا كلفك بشيء فوق طاقتك ، ا قال :

لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

(سورة البقرة)

فعدم الاستسلام سببه إما شُبهة تُعارض إخبار ا عز وجل ، وإما شهوة تُعـارض أمره، وأنتَ بين شهوة وشُبهة ، الشُبهة تمنعك من أن تستسلم وعدم الاستسلام أساسه عدم الثقة والشهوة تمنعك من أن تستسلم وعدم الاستسـلام أساسـه عـدم الثقـة ، أو إرادة تُعـارض الإخلاص .

يعني .. إلهي أنتَ مقصودي ورضاك مطلوبي .. هو يريد أن يعرف الناس أنه قـد حج "حجي " واحد دخلَ للجامع نوى على الحج ومعه مبلغ من المال يبحث عن شخص أمـين يعطيه إياه كأمانة فدخل للمسجد وتفرس بالناس وجد واحداً في خشوع بصلاته زائد يغمـض عينيه فقال هذا بغيتي ، فلما جاء لِعنده قال له أنا أريد أن أذهب للحج ومعي مبلغ مـن المـال وأُريد أن أضعه عندك أمانة فقالَ له أنا أيضاً صائم سيدي .. فقالَ له لكن صيامك لم يعجبنـي .. فتجد شخصاً أحياناً ليس عنده إخلاص عز وجل يجعل الدين تجارة ، يجعل الدين شيئاً رخيصاً ، .. يبتغي بالدين عرض الدنيا فا عز وجل أمره بالإخلاص وهو يريد الدنيا مـن خلال الدين هذا إذاً لا يستسلم ، وفي إنسان .. ا عز وجل يقول مثلاً :

إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

(سورة هود)

يقول لك لا : ا خلقنا ليُعذبنا ، يا أخي لا راحة في الدنيا ، يعني ا كلامه غلـط .. أنتَ لك رأي غير ما يقوله ا عز وجل ، فإذا نجوتَ من شُبهة تُعارِض إخبار ا أو مـن شهوة تُعارِض أمر ا أو من إرادة تُعارِض الإخلاص أو من تفسيرٍ أو فلسفة تُعارض مـا جاء في كتاب ا .. إذا نجوتَ من كُل ذلك فأنتَ ذو قلبٍ سليم .. واسمع قوله تعالى :

يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

(سورة الشعراء)

القلب السليم : خلا من شُبهة وخلا من شهوة وخلا من إرادة خلاف الإخـلاص وخلا من عقيدة أو تفسيرٍ أو رأيٍ خلاف ما ورد في كتاب ا .. إذ نجوت من كُل أُولئك فأنتَ ذو قلبٍ سليم وأنتَ الناجي بفضل ا عز وجل .

العلماء قالوا : " إن التسليم يكاد يرقى بالإنسان إلى مرتبـة الصـديقية ، و مرتبـةُ الصديقية أعلى مرتبة بعد النبوة ، النبوة .. الصديقية ".

مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

(سورة المائدة)

سيدنا أبو بكر الصديق ، أعلى مرتبة في الإيمان مرتبةُ الصديقية فإذا استسلمت إلى ا عز وجل ، فوضت واستسلمت ووثقت ، لا في شُبهة ولا في شهوة ولا فـي إرادة غيـر مخلصة ولا في تفسير خلاف ما جاء في القرآن ، نجا قلبك من هذه الأمور الخمسة فأنتَ في مرتبة التسليم والتسليم أساسه الثقة والثقةُ أساسها معرفة ا ومعرفةُ ا هي كُلُ شيء ورضي ا عن سيدنا علي حينما قال : أصلُ الدين معرفته

يعني .. بين الذي يعرف والذي لا يعرف بون شاسع ، مرة كنت حاضراً في مكان توفي صاحب البيت فذهبنا إلى مواساة أهله .. دخلَ أخوه وسب الدين لماذا مات أخي .. هـذا لو كان يحضر مجالس علم لو كان يعرف ا عز جل ، فيعرف الأجل ، يعرف ما عنـد ا بعد الموت ... جاهل .. جاهل جهلاً فاضحاً وقذراً .. جهلاً بشعاً .. قال : لماذا مات أخي ...

واحد توفيت زوجته عمرها ٦٠ سنة ولها أُخت عمرها ٩٠سنة فقال : لو ماتت تلك ... هـذا جهل .

فلذلك : الإنسان كُلما نما عقله ونما إيمانه قل كلامه ، لزم الصمت وسبح الله وحمد الله على كُل شيء .

والحمد لله رب العالمين

* * *

بســم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم .... مع الدرس السادس والعشرين من دروس مدارج السالكين في مراتب إياك نعبد وإياك نستعين ، والحقيقة مرتبة اليوم هي مرتبة التوبة .

ومرتبة التوبة بابها كبير جداً ، لا يكفيها لا درس ولا درسان ولا أكثر من ذلـك ، ولكن أردتُ كتقديمٍ لهذه المرتبة أن يتعرفَ الإنسان إلى أنواع المعاصي ، أنواع الجنايـات ، كيفَ يتقّي الإنسان الشيء إن كان جاهلاً به .. كُلكم سمعتم إما مباشرةً أو بالوساطة أن هـذه المواد البلاستيكية حينما تترافق مع الحرارة أو مع الدهنيات تنحلُ في الطعام وأن هذه المـادة المنحلّةَ في الطعام مهما قلّت تُسبب تراكمات في الجسم تُفضي في أغلب الأحيان إلـى أورامٍ سرطانية وهو حديث البلد اليوم ، لا ينبغي أن يقترن الحر مع هذه المادة ، ولا الدهنيات مـع هذه المادة ، لا ينبغي أن يسخّن الخُبز على النارِ مباشرةً ... إلى آخر ذلك الموضوع الخطير .

الناس يتقون هذه الأخطار ، متى بدؤوا يتقنونها حينما عرفوها ، لا يمكن أن تتـوب قبلَ أن تعرف ، .. عندما الإمام الغزالي رضي ا عنه جعلَ من أركان التوبة العلـم والنـدم والسلوك ، ما من توبة إلا وأولها علم وأوسطها ندم وأخرها سلوك ذو ثلاث شُـعب : شُـعبةٌ متعلقةٌ بالماضي .. الإصلاح .. ، شُعبةٌ متعلقةٌ بالحاضـر .. الإقـلاع .. ، شُـعبةٌ متعلقـةٌ بالمستقبل .. العزيمة .. يصلح ما مضى ويقلع من فوره عن الذنب ويعزم في قلبه ألا يعـود إليه أبداً .. هذه الشُعب الثلاثة شُعب السلوك وقبلَ السلوك حالة الندم الشديد وقبلَ الندم الشـديد العلم .

فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما قال :

عن ابن معقلٍ قالَ دخلْتُ مع أَبِي على عبد الله فسمعتُه يقُولُ قالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم الندم تَوبةٌ فقالَ له أَبِي أَنْتَ سمعتَ النبِي صلى اللهم عليه وسلم يقُولُ الندم تَوبةٌ قالَ نَعم*

(سنن ابن ماجة)

فسر العلماء هذا الحديثَ الموجز الجامع المانع بأنه لا ندم من دون علم ، لابد للندمِ من علمٍ سببه ومن سلوك أوجبه .. النبي كلامه موجز عليه الصلاة والسلام قال :

عن ابنِ شهابٍ أَخْبرني سعيد ابن الْمسيبِ أَن أَبا هريرةَ قَالَ سمعتُ رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم يقُولُ بعثْتُ بِجوامعِ الْكَلمِ ونُصرتُ بِالرعبِ وبينَا أَنَا نَائِم أُتيتُ بِمفَاتيحِ خَزائِنِ الأرضِ فَوضعتْ في يدي *

(صحيح البخاري)

قال " **الندم توبة** " ، الإنسان متى يندم ؟ يندم حينما يعلم ، وإذا نَدم ماذا يفعل ؟ يقلع ، ويصحح ، ويعزم .

أيها الأخوة .. هذه الموضوعات موضوعات خطيرة وكلمة خطيرة في اللغـة لهـا معنيان، تقول القمح مادة خطيرة في حياة الأمة يعني.. إذا فقد القمح كانـت المجاعـة ، وإذا وجدت المجاعة وجدت مشكلة كبيرة جداً ، لكن إذا فقدت أزهار تقدم في الأفراح ، لـو منـع استيراد الأزهار ، لو منع استيراد العطورات ، الأمة تبقى كما هي ، فنقـول القمـح مـادةٌ خطيرة ليس معنى هذا أنها تتفجر .. لا .. يعني .. وجودها مهم جداً في حياتنـا فـالمؤمن مذنب تواب ، يعني أكبر شيء في حياة المؤمن التوبة لأنه مذنب تواب ، لأنه لا يخلـو مـن ضعف ومن صحوة ومن علمٍ ومن ندمٍ .. موضوع التوبة موضوع خطير جداً ولأنه موضوع خطير يجب أن يشغلَ منّا حيزاً كبيراً ، فباب التوبة كبير جداً قد نحتاج فيه إلى أربـع دروس ولكن أردتُ أن أبدأ بالعلم .. لن تتوب من الذنب إلا إذا علمتَ أنه ذنب ، لن تُقلع عن معصية إلا إذا علمتَ أنها معصية ، لن تبتعد عن إثمٍ إلا إذا علمتَ أنه إثم .

لا يمكن أن تتحرك بلا علم ، الحركة بلا علم حركة طائشة ، حركة غير مجديـة ، حركة قد تكون مؤذية ، حركة قد تكون مدمرةً تماماً كسيارة لها محرك فعال ولكنها بلا مقود ، المقود هو العلم ، والحركةُ هي المحرك ، فالحركة بلا علم .. حادث .. تدهور .. سقوط في واد .. تصادم .. أما العلم يقود الحركة إلى الوجهة الصحيحة .

فلذلك : يمر معنا في القرآن الكريم مثلاً كلمة : فسق ، كلمة : شرك ، كلمة : كُفر ، كلمة : إلحاد ، كلمة : إثم ، كلمة : عدوان ، كلمة: معصية ، كلمة كـذب علـى ا ....وا الذي لا إله إلا هو لا أرى موضوعاً أخطر في حياتنا من أن نعرفَ بالضبط ماذا تعني كلمـة كُفر ، وماذا تعني كلمة شرك ، وماذا تعني كلمة فسق ، وماذا تعني كلمة إلحاد ، وماذا تعنـي كلمة إثم ، وماذا تعني كلمة فجور ، وماذا تعني كلمة عدوان .... هذه كلماتٌ خطيرة مهلكةَ .

.. إنسان يتعامل مع مواد متفجرة لا يعرفُ خواصها قد تودي بحياته ، يجـب أن تعرف ما معنى قنبلة ، ما معنى قنبلة نُزِع أمانُها ، ما معنى قُنبلة أُشعلَ فتيلُها ، مـا معنـى

قُنبلة قد انفجرت ، لو رأيت بقايا قنبلة قد انفجرت ، لا خطر فيها ، فما دام تعامل الإنسان في الحياة مع شهوات ، مع علاقات ، فمثلُ هذه المصطلحات خطيرةٌ جداً جداً .

خطر في بالي وا هو الموفق أن نبدأَ بأكبرِ معصية في الدين أكبر معصية ، أكبر إثم، أصلُ الآثام ، أصلُ أنواع الشرك ، أقول أصل الشرك ، أصل العدوان ، أصل الفسـق ، أصل الفجور ، أصلُ الكفر ، ما هو هذا الذنب ؟ لا هو زنى ولا هو خمر ولا هو قتل ، ذنب كبير كبير ويبدو في نظر الناسِ صغيراً صغيراً ، الحكم هو كتاب ا ، لِنَعد إلى كتاب ا قال :

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

(سورة الأعراف)

قال : هذه محرمات ، قال ثم انتقلَ إلى ما هو أعظم منها بالتسلسل بالقرآن الكريم " **قُلْ إِنما حرم ربي الْفَواحشَ ما ظَهر منْها وما بطَن والإِثْم والْبغْي بِغَير الْحـق وأَن تُشْـرِكُوا بِالله ما لَم ينَزلْ بِه سلْطَانًا** "

هذه أعلى ، قال ثم انتقلَ منه إلى ما هو أعظم منه " **والإِثْم والْبغْي بِغَير الْحق** " قال ثم انتقلَ منه إلى ما هو أعظم منه أعظم من الفواحش والزنا فاحشة ، مـن اللـواط واللـواط فاحشة ، من شربِ الخمر وشُربِ الخمر فاحشة " **قُلْ إِنما حرم ربي الْفَواحشَ ما ظَهر منْهـا وما بطَن** " أعظم من الفواحش ما ظهر منها وما بطن " **وأَن تُشْرِكُوا بِالله ما لَم ينَزلْ بِـه سلْطَانًا** " وأعظم من الشرك با الأكبر منه والأصغر " **والإِثْم والْبغْي بِغَير الْحق** " تطاول على الخلق ، ثم انتقلَ إلى ما هو أعظم " **وأَن تَقُولُوا علَى الله ما لا تَعلَمون** " لأنك إذا قُلـتَ على ا ما لا تعلم حرمتَ الحلال أو حللتَ الحرام ، وصفتَ ا بما لا يليقُ به ، نفيتَ عنه ما أثبته لنفسه ، أثبتَ له ما نفاه عن نفسه ، " **وأَن تَقُولُوا علَى الله ما لا تَعلَمون** " .

في نظرِ علماء التفسير أعظم المحرمات وأشدها إثماً فإنه يتضمن الكذب على ا ، وأن تنسب إلى ا ما لا يليقُ به ، وأن تُغير دينه ، وأن تُبدلَ دينه ، وأن تنفي ما أثبته ، وأن تُثبِتَ ما نفاه ، وأن تُحققَ ما أبطله ، وأن تُبطلَ ما حققه ، وأن تُعادي من والاه ، وأن تُـوالي من عاداه ، وأن تُحب ما أبغضه ، وأن تُبغض ما أحبه ، وأن تصفه بما لا يليقُ به في ذاتـه وأفعالِه وأقوالِه .

أخطر شيء في الكتاب الكريم أن تقولَ على الله ما لا تعلم ... فقبلَ أن تقولَ على الله ما لا تعلم فكر وتدبر ، قبلَ أن تقول هذا حلال ، قبلَ أن تقول الربا لم يحرم منه إلا النسب المرتفعة .. إذا كُنتَ واقعاً في هذه المعصية أينبغي أن تجعلها طاعة ، إذا كُنتَ مبتلى بهذه المعصية أينبغي أن تجعلها تشريعاً ، إذا كانت المرأةُ قد ابتُليت بتقصيرٍ في حجابها أينبغي أن تجعلَ هذا التقصير شرعاً وأن تقولوا على الله ما لا تعلم ، فرقٌ كبير أن تعصي الله وأن تجعلَ هذه المعصية مباحةً بين الناس ، فرقٌ كبير أن تعصي الله وأنتَ نادم .. أن تعصي الله وأنتَ وجِل .. أن تعصي الله وأنتَ مستحيي وأن تجعلَ من هذه المعصية تشريعاً تجعلها مباحةً لا شائبةَ فيها، لأن كُلَّ من اتبعك وصدقّك وسار في هذا الطريق فكُلُّ معاصيه في ذمتك وفي رقبتك وسوف تُحاسب عنها .

لذلك : سبحانك يا ربي كيفَ تدرجتَ بهذه المعاصي والمحرمات إلى أن وصلتَ إلى أعلاها حرمةً قالَ " **وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** " المشكلة أن الإنسان إذا عصى ربه وعرفَ أنه يعصيه طريق التوبة سالك وباب التوبة مفتوح ورحمةُ الله واسعة ، ولكن إذا أقنعتَ الإنسان أن هذه ليست معصية لو فعلها مائة عام لا يتوب منها .. يلقى الله عاصياً ، يلقى الله تائهاً، يلقى الله شارداً ، يلقى الله آثماً ، يلقى الله معتدياً .

فلذلك هؤلاء الذين يلعبون بدين الله يحرمون ما أحله الله ، أو يحللون ما حرمه الله ، أو يسمحون ببعض التجاوزات وطبيعة النفس طبيعةٌ دقيقة ، لمجرد أن تخرج عن فطرتها وقعت في حجابها مع الله عز وجل ، هؤلاء الذين يلعبون بدين الله لهم حساب عسير في الدنيا والآخرة .

فيا أيها الأخوة الأكارم .. جاء الإمام أحمد ابن حنبل وفد من مغرب العالم الإسلامي من الأندلس والسفر قبلَ مائتي عام أو قبلَ ألف عام ليس كاليوم .. أربعةُ أشهر في الطريق .. وفد جاء إلى المشرق ليسألَ الإمام أحمد ابن حنبل العالِم الأول والفقيه الأول عن ثلاثين سؤالاً ، ما كان من هذا الإمام الجليل إلا أن أجاب عن سبعة عشرة سؤالاً فلما قيل وأين الإجابات المتبقية ؟ قالَ : لا أدري ، قالوا الإمام أحمد ابن حنبل لا يدري ، جئناك من أقاصي الدنيا وأنتَ العلم الأول؟ قالَ : قولوا لأهل المغرب : الإمام ابن حنبل لا يعلم .... لأنه لو قالَ وهو لا يعلم وقع في إثمٍ كبير.

وهذه نصيحتي لِكُل أخ كل واحد منكم بين أهله ، بين جيرانه ، بين زملائه ، في المعمل ، في السكن ، في النزهة ، مظنة صلاح ، أنتَ تحضر مجالس علم ، أنتَ من طلاب العلم، أنتَ عالِم ، أنتَ شيخنا يا سيدي ، ما حكم هذه القضية .. إياك أن تُفتي .. إياك أن تتسرع .. تبصر ، عد إلى كتاب الله ، عد إلى سنّة رسول الله ، عد إلى فهم كتاب الله كما

ينبغي ، عد إلى فهم السنّة كما ينبغي ، استأنس ، اسأل دقق ، تأمل ، تحقق ، طالع قبـل أن تقول له هذه حرام وهذه حلال .

يعني .. أنا لم أكن أتصور أنه أعظم شيء حرمه ا فوق الزنى وفوقَ شرب الخمر وفوقَ القتل وفوق الشرك وفوقَ الكُفر لأنه أصلُ الشرك .. يعني .. ماذا قالَ عبـاد الأصـنام لمن دعوهم إلى أن يعبدوا ا ؟ قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى ا ِ زلفى .. هكذا علموا .. عبدوا الأصنام وهم في ذهنهم أنهم ما فعلوا شيئاً .

أيهما أخطر : أن تعبد الصنم أو أن تعتقد أن عبادة الصنم شيء مبـاح ، ومقبـول ؟ الخطأ في العقيدة أخطر بكثير لأنك إذا أخطأتَ في العقيدة لن تتوب أبداً مهما امتد بك العمر ، أما إذا أخطأتَ في السلوك أغلب الظن أنك سوفَ تتوب ما دمتَ تعلم أنه ذنب وأنه إثم وأنـه عدوان وأنه معصية فأنتَ لابد من أن تتوب عاجِلاً أو آجِلاً ، لكنك إذا علمـتَ أنهـا ليسـت بمعصية ..

لذلك : أخطر شيء في الدين أن تصلَ إلى ينابيعه ، أن تضع يدك على جوهره ، أن تصلَ إلى ُأصوله ، أن تصلَ إلى خطه الصحيح ، من هنا قالَ عليه الصلاة والسلام : " **ابـن عمر دينك دينك إنه لحمك ودمك خُذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا** " من هنـا قالَ عليه الصلاة والسلام :

حدثَنَا فُضيلٌ عن هشَامٍ قالَ وحدثَنَا مخْلَد بن حسينٍ عن هشَامٍ عن محمد بنِ سيرِين قالَ إِن هذَا الْعلْم دين فَانْظُروا عمن تَأْخُذُون دينَكُم *

(صحيح مسلم)

تصور .. الذين يروجون المعاصي أحدكم فتح نادياً ليلياً تُرتكب فيه كُل الموبِقات ، إنسان آخر كتاباً آثار فيه شُبهات على الإسلام وجعلَ من السلوك المعاصر تشريعاً أن تقـفَ المرأةُ بثياب السباحة أمام أبيها وزوجها وأخيها وابنها ..لا شيء عليها .

.. هذا الذي يفتتح نادياً ليلياً تُرتكب فيه كُلُ المعاصي الكبيرة وا ِ الذي لا إله إلا هو لو وزن هذا العمل مع من تكلّم على ا ِ ما لا يعلم فحللَ حراماً أو حرم حلالاً ، أو أثار شُبهةً ، أو نفى عن ا ِ ما أثبته عن نفسه ، أو أثبتَ له ما نفاه عن نفسه ، أو غير سنّة النبـي ، أو جاء بأحاديثَ موضوعة ليضللَ الناس بها .. وا الذي لا إله إلا هو إثم الذي ألّفَ كتاباً وهـو قابع في بيته أنيقُ المنظر ، لطيف المعشر، بيته نظيف ، له زوجة وله أولاد .. ما فعلَ هـذا .. وا الذي لا إله إلا هو لو كُشفَ الغطاء لرأيتم هذا الذي ضللَ الناس ، وأفسد عقائـدهم ، وحرم عليهم الحلال ، وأحل لهم الحرام ، وسوغَ لهم انحرافات العصر ، وجعلها مغطاةً بآيات قرآنية ، وافترى على ا الكذب ، وافترى على النبي الكذب ، ووجـه النصـوص توجيهـاً

شهوانياً .. هذا والله إثمه عند الله أضعافٌ مضاعفةٌ تصلُ إلى المليون عن هذا الذي افتتح نادياً ليلياً تُرتكب فيه كلُّ الموبقات .. ما الدليل : قالَ تعالى :

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾

(سورة البقرة)

.. لا سمح الله ولا قدر .. لو أن إنساناً قتلَ فتاةً .. هذا قاتل ، يحاكم بجريمة القتـل ، ويساقُ إلى المشنقة ، فإذا تاب قبلَ أن يقام عليه الحد ، كان هذا الحد كفّارةً له ، أما إذا أفسـد فتاةً ودلّها على طريق المنكر ، وجعلها فتاةً بغياً ، وأمضت حياتها في البغي ، والـدعارة ، والانحراف ، وأنجبت فتيات ساروا على نهجها ، وماتت وخلفتها ذُريةٌ إلى يوم القيامـة تعـد بمئات الألوف بل بمئات الملايين ، كلُّهن فاسدات ، والله هذا الذي أفسد تلك الفتاة وسبب هـذا الجيلَ من الفاسدات يعني لو أنه قتلها لدخل الجنة .. هذا معنى قول الله عز وجـل " **وَالْفِتْنَـةُ أَشَدّ من القَتْل** " يا أخي العرب في الجاهلية كانوا يئِدون البنات هذه والله جريمة كبيـرة والله معك حق .. لأنه ربنا عز وجل قال :

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾

(سورة التكوير)

لكنك إذا أفسدت ابنتك وقلت للناس أنا أُحب أن أُربي بناتي تربيةً اسـتقلالية أنـا لا أُعارضها أبداً ، لها أن تخرج كما تشاء ، ولها أن تُصاحب من تشاء ، ولها أن تأتي إلى البيت متى تشاء ... هكذا التربية الحرة ... نحن في عصر النور ، .. والله لو وأدتها لكان خيراً لها من هذا العمل ، لو وأدتها ماتت إلى الجنة ، أما حينما أفسدتها فسدت وأفسدت .

لذلك : " يقول عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن مشاهد يوم القيامة أن الفتاة التي فسدت وكان أبوها سبباً في فسادها تقول : ياربي لا أدخُل النار حتى أُدخلَ أبي قبلي ".

الأبوة مسؤولية يا أخوان ، مسؤولية خطيرة جداً .. هذا الابن أنتَ قدوته .. أنـتَ القدوة..

فلذلك : لا أُبالغ هذا قرآن كريم ، أن تقولَ على الله ما لا تعلم .. أن تقول للناس .. لماذا حرم الله إطلاقَ البصر في النساء لو أن الوجه عورة ، هذا الاستنباط غير صحيح ، هذا استنباط فاسد ، أنتَ إذا قُلتَ هذا .. ماذا فَهِم الناس منك ..؟ .. وموطن الجمال كُله في الوجه ، والوجه أكبر فتنة في المرأة ، فحينما تقول هذه مسموح وهذه مباح وهذا خيال ليس حقيقة .. إذا نظرتَ إلى شيء يثير على هذه الشاشة الصغيرة .. هذا ليس حقيقة يا أخي هـذا خيـال ، وإذا سمعتَ الصوتَ من المذياع فهو صدى وليس حقيقة ، الغناء صدى ومنظر الإشارة خيال .. لم يعد شيء في الدين .. ماذا بقي من الدين ... مرة واحد قال في بلد إسلامي لكن مقصر جداً في تطبيق أحكام الشريعة قال : لم يبقَ في هذا البلد إلا الصلاة ويعني الصـلاة الشـكلية التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع .

أن تقولَ على الله ما لا تعلم أكبر معصية في الدين لأنك أصبحتَ مضـللاً ، لأنـك أفسدتَ العقائد ، لأنك أفسدتَ السلوك ...

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢ ﴾

(سورة النجم)

قالَ لي أخ من إخواننا الكرام : سأل رجل وهو مظنةُ علم قال له ما معنى اللمـم ؟ قال له كلُ ذنبٍ ليس عليه حد .. . النميمة ليس عليها حد ، والنبي يقول :

عن همام بن الحارث قالَ مر رجلٌ على حذَيفةَ بن اليمان فقيلَ له إِن هذَا يبلغُ الأمراء الحديثَ عن الناس فقَالَ حذَيفةُ سمعتُ رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم يقُولُ لا يدخُلُ الجنةَ قَتاتٌ قَالَ سفْيان والقَتاتُ النمام *

(صحيح البخاري)

معناها إطلاق البصر ، والكذب ، والغش لابأس بها ... الحد يعني القتل والجلد فقط والآية تقول " **الذين يجتَنبون كَبائِر الإِثْمِ والْفَواحشَ إِلا اللمم** " فإذا فهمنا اللمم : كُلُ معصية ليس عليها حد ، لم يعد شيء في الدين ، انتهى الدين . طبعاً لو التقيت مع مليون مسلم لا تجد فيهم قاتلاً واحداً القاتل والزاني ... قلائل جداً ... ماذا قالَ عليه الصلاة والسلام :

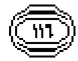
حدثنَا ابن جريجٍ أخْبرني أبو الزبيرِ أنه سمع جابِر بن عبد الله يقُولُ قَد يئِس الشيطَان أَن يعبده الْمسلمون ولكن في التحريش بينَهم *

(صحيح مسلم)

يعني بعد أن جاء النبي ، بعد أن جاء القرآن ، هل ترى صنماً يعبد من دون ا ..؟.. هذا شيء غير موجود إطلاقاً ولن يحدث إلى يوم القيامة ... لكن " قَد يئِس الشيطَان أَن يعبده الْمسلمون " ولكن رضي مما دون ذلك ، مما تحقرون من أعمالِكم ، وهذه مشكلةُ المسلمين .

يقول لك أخي أنا لا أزني ، لا أشرب خمراً ، لا أسرق ، هذه ليس عليها خلاف لأنها كبائر ، هذه كبائر مهلكة ، النظر والمصافحة وأكل المال الحرام والغش والتدليس والكذب والاحتكار والمواقف المزدوجة والمقاييس المزدوجة والنفاق وموقف معلن وموقف مبطّن ... في مليون معصية ، مليون معصية كُلُها تحجبك عن ا عز وجل ، فهذا الذي لا يسرق أو لا يزني أو لا يكذب يعني ماذا فعل ؟ هذه أشياء بعيدة عن حياة المسلم بعداً كبيراً ... ربنا عز وجل قال :

وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ



(سورة النحل)

يقول : أنا أتحمل وزرها ضعها في ذمتي .. من أنت ، من حضرتُك حتى تقول ضعها في ذمتي ؟ يقولون هذا عندنا غير جائزِ ومن أنتم حتى يكون لكم عند .. من أنتم ؟ ما حجمك عند ا ؟ النبي عليه الصلاة والسلام لا يستطيع أن يأتي بشيء من عنده لو شاء ا ما تلوته عليكم ، وقالُ ائت بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدله ، قل ما يكون لي أن أُبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي .. النبي الكريم مبلّغ فمن أنت ؟

فلذلك : المسلم وقافٌ عند كتاب ا ، قالَ بعض السلف : " ليحذر أحدكم أن يقول: أحل ا كذا وحرم كذا فيقول ا كذبت لم أُحلَ كذا ولم أُحرم هذا " .. يعني التحليل والتحريم بالرأي المجرد بلا برهان من ا ورسوله ذنب كبير جداً قد يفوقُ الشرك ، قد يفوقُ الكُفُر ، لأنه أصلُ الشرك وأصلُ الكُفر .

عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال قلت للزبير إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله صلى اللهم عليه وسلم كما يحدث فلان وفلان قال أما إني لم أفارقه ولكن سمعته يقول من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار *

(صحيح البخاري)

لماذا ؟ قال لأن كلَّ شيء أُضيفَ إلى الرسول فهو حكماً مضافٌ إلى المرسل ، إذا أضفتَ إلى الرسول شيئاً هذا مضاف إلى المرسل ، يعني إذا كان وزير خارجية وقف في مؤتمر وتكلّم بكلام هذا الكلام ليس من عنده هذا مكلّفُ به والذي أرسله مقر به ، فإذا أضفتَ إلى الرسول شيئاً ما قاله فكأنما أضفته إلى الله عز وجل لذلك ماذا قال الله عز وجل :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

من أظلم ؟ أظلم اسم تفضيل ، أي ليس في البشر كلهم إنسان أشد ظُلماً ممن افترى على الله كذباً .. قال : أنّى بالتوبة لمن لم يعلم أنها بدعة .. كيفَ يتوب الإنسان إذا لم يعلم أن هذا الذي يفعله بدعة .

الافتراء على الله عز وجل يغلقُ باب التوبة ، فأنتَ قبل أن تسأل اسأل من تثقُ بعلمه ، وقبلَ أن تتكلم تكلم عن علم ، لا تسأل إلا أهلَ العلم ، ولا تنطق إلا عن علم ، وإلا الإثم كبير لأنه دين الله ، لأن الدين هو الشيء المصيري في حياة الإنسان .

من ألوان المحرمات الإثم والعدوان ، كُلُّكم يعلم أن الإثم والعدوان ورد في القرآن كثيراً .. قالَ تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

(سورة المائدة)

قالوا : البر صلاح الدنيا . .. إذا تساعد الناس بإنشاء مساكن للشباب هذا بـر ، إذا اتفقوا على تخفيف المهور هذا بر ، إذا اتفقوا على تأمين أعمال للعاطلين هذا بر ، وتعـاونوا على البر .. صلاح الدنيا .. والدعاء الشهير : اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصـمةُ أمرنـا وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشُنا ، فتعاونوا على البر والتقوى .. البر : صلاح الدنيا والتقوى صلاح الآخرة ، قال : ولا تعاونوا على الإثم والعدوان .

كُلُكم يعلم من قبل أن في القرآن كلمات تأتي مثنى مثنى وعلماء التفسير يقولون : إذا جاءت مثنى مثنى فلكُل كلمة معنى دقيق ، أما إذا جاءت فُرادى ربما تعنـي الواحـدة معنـى الكلمتين معاً والدليل على ذلك :

۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

(سورة التوبة)

قالَ بعض العلماء " إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا ".. يعني .. إذا قُلت للفقراء فقط .. يعني الفقراء والمساكين ، وإذا قُلت : وآتى المالَ على حبه مسكيناً .. يعنـي الفقـراء والمساكين .. فإذا افترقا اجتمعا وإذا اجتمعا صار للمسكين تعريف دقيق وللفقير تعريف دقيق ، المسكين من يعجز عن العمل .. عاجز ، أما الفقير من دخله أقل من حاجته ، فالفقير شيء والمسكين شيء آخر .. هذا تمهيد ..

الإثم والعدوان .. إذا قُلتَ الإثم فقط يعني .. الإثم والعدوان ، وإذا قُلتَ العدوان فقط يعني .. الإثم والعدوان لأن العدوان هو في أصله عدوان على أمر ا .. قال اك افعل ، لـم تفعل ، قال اك لم تفعل فعلت ، ترك الأمرِ أو فعلُ النهيِ هو العدوان ، أنـتَ اعتـديت علـى الشرع ، تحديتَ الشرع ، خرقتَ حدود الشرع ، لم تُبال بالأمر ولا بالنهي ، فالعـدوان هـو عدوان على أمر ا وكلُ عدوانٍ على أمرِ ا صاحبه آثم .. الإثم عدوان .. والعدوان إثم .. " وإذا افترقا اجتمعا وإذا اجتمعا افترقا " .

لكن الإثم قال : تحريم جِنس أما العدوان تحريم قدر .. يعني أنتَ اشـتريت أرضـاً فلما أردتَ أن تُسورها زدتَ متراً من أرضِ جارِك .. هذا عدوان تملّك الأرضِ في الأصـل جائز .. أنتَ تملّكتَ الأرض التي دفعتَ ثمنها وأخذتَ من جارِك مترا لـيس لـك ، فتحـريم الجِنس .. الزنى اثم .. كُلُ أنواع الزنى محرمة ، الخمر إثم ، اللواط إثم ، لكن لو أخذتَ مـا ليس اك ، لو بِعتَ الحاجة بثمن مرتفع وراعيتَ فيه الأجل صار في معصية قدر .. لا معصية جِنس .. فالإثم تحريم جِنسٍ كالكذب والزنى والخمر وما إلى ذاك ، والعدوان تحريم قـدرٍ .. الزيادة عدوان .. مثلاً بالبيع والشراء .. بيع الغرر ، التدليس مثلاً ، الغبن الفـاحش .. هـذا عدوان أصل البيع حلال ، فلما أخذتَ فوقَ ما ينبغي صار عدواناً .

العدوان نوعان : نوع في حق ا ونوع في حق العباد .. فمن أبـاح الزنـى فقـد اعتدى على شرع ا ، من أباح ممن ُأبيح له ..

وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦

(سورة المؤمنون)

من أتى حائضاً .. الزوجة مباحة .. لكن إتيانها في أيام الحيض هذا عـدوان علـى شرع ا ، فالعدوان إما على شرع ا أو على حقوق العباد .. يعني .. ُأبيح للطبيب أن ينظُر إلى مريضته فإذا نظر إلى قدرٍ آخر ليس محتاجاً إليه تجاوز الحد فتحريم الجِنسِ إثم ، وتحريم القدرِ عدوان .

الفحشاء والمنكر ، الإثم والعدوان ، الإثم تحريم جنس والعدوان تحـريم قـدر ، إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا ، أما الفحشاء والمنكر .

قال : الفحشاء صفةٌ لموصوف قد حذفَ تجريداً بقصد الصفة يعني .. الفعلةُ الفحشاء والخصلةُ الفحشاء وكُلُ ما ظهر قُبحها لِكُل أحد واستفحشه كُلُ ذي عقلٍ سليم وفطرة سليمة ..

كُل شيء الطبع ينفر منه ، والعقل السليم ينفر منه ، كُل شيء ظَهر قُبحه فهو فحشاء ، خصلة ، سلوك ، فعل .

أما المنكر صفةٌ لموصوف محذوف أيضاً أي الفعلُ المنكر الذي تسـتنكره العقـول والفطر .. يعني .. الفحشاء عمل قبيح شائن لا يشُكُ اثنان في أنه شائن أما المنكر .. العقـل السليم والفطرة السليمة تستنكر هذا الأمر فالفحشاء والمنكر أيضاً كالإثم والعدوان إذا اجتمعـا افترقا وإذا افترقا اجتمعا .. يعني .. هذه التسميات أو هذه التعـاريف الدقيقـة فيمـا يتعلّـق بالمحرمات مهمة جداً .. مثلاً : الفرق بين المعصية والفجور : الفجور إعلان للمعصية ، لـو خالفَ أحدهم أمر ا في رمضان وأفطر، هذا عاصٍ ومعصية كبيرة جداً، لكن إذا أفطر أمام الناس فقد فَجر ..

على كُلٍ إن شاء ا نحن في دروسٍ قادمة سوف نُحاول أن نُتابع هذه المصطلحات الدقيقة وأن نقفَ عند التعاريف وعند المدلولات التي أرادها ا سبحانه وتعـالى مـن هـذه المصطلحات .. كلمة تُعد خاتمة الدرس :

مرةً ثانية أقول لكم " **إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم** ".. الإنسـان يميل إلى الرخص ، إلى الفتاوى التي تُيسر الأمر ، لكن حينما يأتي ملك المـوت ، وحينمـا نصلُ إلى وقت الحساب ، قد نُفاجئُ أن هؤلاء الذين أفتوا لنا وسمحوا لنا بـبعض المعاصـي على أنها مباحات لم يكونوا محقين في هذا والمصيبة كبيرة جداً ليس هناك إصلاح .

.. ولاتَ حين مناص .. وليس الحين حين فرار ، الإنسان في الدنيا قد يتلافى بعض الشر ، قد يتلافى العقاب بطريقة أو بأخرى ، ولكن الإنسان إذا لقي ا عز وجل وقد أقام على معصية وتعلّقَ بحبالٍ من عنكبوت ، بفتاوى من أُناسٍ مغرضين .. فقبلَ أن تقول هذا حلال أو هذا حرام ، هذا يجوز، هذا لا يجوز ، لا تنطق بغيرِ علم ولا تسأل إلا أهلَ العلم ، لا تسأل إلا من تَثِقُ بعلمه ، لا تستفتي إلا من تَثِقُ بورعه ، لا تطلب شيئاً إلا بالدليل لا ترفض شـيئاً إلا بالدليل ، لأن " **هذا العلم دين وانظروا عمن تأخذون دينكم .** "

أيها الأخوة الأكارم ... يعني أنا أقول لكم الآن كلمة وا ِ أقولُها .. يعني .. مخلصاً لكم بها ، ما لم تستقم على أمر ا ، ما لم تترك المنكر كُلياً ، ما لم تترك المعاصي جميعـاً ، فالطريق إلى ا ليست سالكة ممكن أن تحضر موالد وأن تطرب طرباً شديداً ، ممكن أن تقرأ كتاباً وأن يملأ الكتاب عقلك ، ممكن أن تكون طليق اللسان وأن تؤثر في الحاضرين ... هـذا كُلُه ممكن .

ممكن أن تتكلم وأن تستمع وأن تقرأ وأن تؤلف ، وممكن أن تطرب بالمديح النبوي وأن تقوم بِكُل ما يسمى بالتقاليد الإسلامية ، ويمكن أن تدعو الناس إلى البيت وأن تُقيم مولـداً

وأن تأتي بأرقى فرقة منشدة وأن تأتي بأطيب طعام وأن تدعو وجهاء المجتمع وأن تدعو كبار العلماء لإلقاء الخُطب .... كُلُّه ممكن .

ولكن الشيء الذي لا يقبلُ تركه أن تُقيم على معصية ، مادمتَ مقيماً على معصية أو على مخالفة أو على انحراف أو ما دمتَ استبحتَ منكراً بفتوى معينة أو ما دمتَ قَبِلتَ تقصيراً وأصررتَ عليه ... فالطريق إلى ا ِ ليست سالكة .. لا وا .. يقول لك .. أنا أحضر يـوم الجمعة والسبت والأحد والاثنين والخميس والخطبة الفولانية ، وأقرأ كُتباً ، وعندي مكتبـة ، ولي لقاءات مع أخوان كرام ، ولي نشاط ديني ، ولي مؤلفات .... ما دمتَ مقيماً على معصية فالطريقُ إلى ا ِ ليست سالكة .

وكُنتُ أذكر مثلاً .. لعلّه شطحة أو لعلّه مبالغة .... لك مائة مؤلف إسـلامي فـي السوق ، مائة مؤلف ، وكُل مؤلف يتحدثُ به الركبان ، وأنتَ مقيم على معصية .. مقـيم .. مصر على معصية ، وإنسان آخر لا يقرأ ولا يكتب وقد عافاه ا ُ من هذه المعصية هو أعلـم منك .. لا ُأبالغ .. والدليل : قول النبي عليه الصلاة والسلام :

عن مسروق قَالَ كَفَى بِالْمرء علْما َأن يخْشَى الله وكَفَى بِالْمرء جهلا َأن يعجب بِعلْمه *

أنا أقول لك قد تعرِفُ أمر ا ، تعرِفُ الحلال ، والحرام ، والواجب ، والمبـاح ، والمستحب ، والمندوب ، والمكروه ، والمكروه كراهية تحريمية ، وكراهية تنزيهية ، والحرام المطلق ، وقد تتحدثُ عنها بطلاقة ، ولكن معرِفة الأمرِ شيء ، ومعرِفـةَ ا ِ شـيء آخـر ، معرِفة الأمرِ علامتها أن تَعرِفَ الأمر .

العالِم بأمر ا اسأله ، إذا سألتَ هذا العالِم بأمرِ ا مائة سؤال فأجاب مائة إجابـة صحيحة فهو عالِم بأمر ا ، لكن إذا رأيته يخالف أمر ا ِ في واحدة .. معرفته با ِ ضعيفة .. ونرجو له أن تزداد ، فحتى نكسب الوقت وحتى يكون مجيئنا للمسجد مثمراً وذهابنا للبيت مثمراً ، حتى يكون هذا الوقت الثمين ، كل واحد منكم ترك أهلـه ، زوجتـه وأولاده وبيتـه مكان جلوسه في غرفة الجلوس ، له أولاد ، له أصدقاء ترك الكل وجلس علـى الأرض .. فإذا استمع وُأعجِب بالدرس ولم ينطلق إلى التطبيق ، إلى الالتزام التام ، إلى محاسبة الـنفس حساباً دقيقاً ، إذا لم ينتقل إلى هذا الطور أقول له : نمت ثقافتك الدينية نمـواً كبيـراً ولكـن معرِفتك با لم تنمو لأن معرفة ا عز وجل أساسها طاعته ، ولا تعرفُ ا إلا إذا جاهـدتَ نفسك وهواك .

فنحن وأرجو ا َ سبحانه وتعالى أن تكونوا كذلك أن نتعـاون جميعـاً علـى البِـرِ والتقوى ، وأن نتعاون على بلوغ الهدف الكبير من معرفة ا ومعرفة منهجه وتطبيق منهجه ، ويحاسب أحدكم نفسه حساباً دقيقاً دقيقاً في كُل شيء .. هناك دعوات تُعطي الأخ بحبوحـة واحد رأى سيئاته مد البصر .. .. ثم غفر ا له بكلمة قالها .. القضية سهلة .. هذا الحديث له

تفسير .. له تفسير دقيق .. هذا الحديث كما يفعل الفُقهاء يوضع على الطاولة وإلى جانبه عشراتُ الأحاديث المشابهة، من الخطر الكبير أن تفهم حديثاً وحده على انفراد .. خطر كبير .. الحديث الثاني :

" من قالَ لا إله إلا ا بحقها دخلَ الجنة قالوا وما حقُها ؟ قالَ أن تحجزه عن محارم ا " .

فأيام الإنسان يتعلّق بخيط من عنكبوت ... يقول لك الشيخ .. قال إذا إنسان قال لا إله إلا ا دخل الجنة .. وا قضية سهلة .. تصوروا أن الجامعة كل واحد يقول جامعة دمشق ثلاث مرات نُعطيه دكتوراه بالطب مثلاً .. لا تحتاج إلى جهد .. لا تحتاج إلى علامات عالية ثلاث مرات يقولها بصوت مرتفع ، عال .. ممكن إنسان يصل إلى الجنة بكلمة قالها ..؟.. ا عز وجل قال :

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة محمد)

وقال : لا إله إلا ا حصني من دخلها أمن من عذابي ، وقال لا إله إلا ا لا يسبقُها عمل .. يعني قبلَ أن تقولها مافي عمل صالح .. في شرك لأنه ، وإذا قُلتها ولا تترك ذنباً .. هذه الأحاديث .. اجعل هذا الحديث مع هذه الأحاديث بشكل منظومة .

فأنا أخوفُ ما أخاف على الأخوة الأكارم أن يتعلّق بحديث سمعه ويعطيه الحرية الكاملة للحركة ويتساهل بالطاعات ، شيئاً فشيئاً إذ الطريقُ إلى ا مسدود ، صلاته شكلية ، صيامه شكلي ، حجه شكلي ، صارت ثقافته إسلامية ، وعواطفه إسلامية ، مثلُ التُركي عنده كيلو لحمة وعنده هر أكل الكيلو سرقةً وجلس القط يعمل ورداً لوحده .. القط له ورد .. نظر التركي إليه وكان مغتاظاً كثيراً .. قالَ له : " أوراد كثيرة .. وأمانة غير موجودة .

تجد ثقافة ، عواطف ، موالد ، مجالس سرور ، ثياب فضفاضة ، مسواك ، مصاحف معلّقة ، كله مذهب ، لكن ما في استقامة ، وما دام لا يوجد استقامة الطريق إلى ا غير سالك ، الصلاة شكلية .

.. أيام تجد برتقالة يتم تقشيرها بعناية ثم يعودون ويطبقونها ككرة ويضعوها على الطاولة ، هي برتقالة منظرها لكن ما فيها شيء هي فارغة ، لِئلا يفرغَ الدين من مضمونه .. حتى ما يصبح الدين شكلاً بلا مضمون ، الاختلاط حاصل ، كسب مال حرام مشروع ، إطلاق بصر مسموح به ، سماع غناء لاشبعة منه ، مشاهدة ما لا يرضي ا مقبول .. كُل

شيء موجود ومع ذلك .. ثقافة إسلامية ومكتبة إسلامية وأناشيد وتفاسير ولقاءات وموالد ... أنا أخوفُ ما أخاف أن يفرغَ الدين من مضمونه ، أما وا ساعة صدق مع ا عز وجـل .. ترفعك إلى أعلى عليين .. فالاستقامةَ الاستقامة " **ابن عمر دينك دينك إنه لحمك ودمك خُـذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا " .**

أنا أقول الموالد وا ِ وأنا مغرم بالموالد وحضرتُ في هـذا الشـهر يعنـي بضـع عشرات إلى خمسين أو سبعين مولد ، وا ِ وتأثرت تأثُراً كبيراً ، أنـا أقصـد أن لا يكـون الإنسان شكلياً .. احتفلنا وجلسنا وطربنا بقي شيء .. لم تعمل شيئاً بعد ، يجب أن نقوم بطاعةَ ا ِ عز وجل ، يعني جميل جداً أن المستقيم يعمل مولداً .. جميل جـداً .. ويـدعو إخوانـه وأقرباءه وأصحابه وفرقة إنشاد ويتوزع الملبس والحلويات ويتلى ذكر ا ِ عز وجل ونسـتمع إلى شمائل النبي ..... هذا كُله جيد ، لكن نبقى على الموالد فقط .. واحتفـالات وأشـرطة وكُتب وما في استقامة .. لا تُدقق .. " ما هذه لا تدقق هذه حرام " أكثر المسلمين في الشـام ، يحدث عرس يصعد العريس ويجلس أمام مائة امرأة كاسية عارية .. يقول لك العريس أخلاقي .

كيف أخلاقي .... كله يتفجر ، كُل البارود مع النار ينفجر ، ما في عنّـدنا بـارود بالكيمياء لا ينفجر ، فنحن نُريد الالتزام نُريد واحداً كألف ولا نُريد ألفاً كُأف، لا نُريد كثـرة كثيرة نريد قلة قليلة لكن مستقيمة ملتزمة .

والحمد رب العالمين

* * *

بســم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم .... مع الدرس السابع والعشرين من دروس مدارج السالكين في مراتب إياك نعبد وإياك نستعين ، الحقيقةُ أن الدرس الماضي كان حولَ أنواع المعاصي ، وبينتُ لكم في وقته أن أشد المعاصي خطراً أن تقولَ على ا ِ ما لا تعلم أو أن تستمع ممن لا يعرفُ ا ، أن تقولَ على ا ِ ما لا تعلم أو أن تُلقي ُأذناً صاغيةً لمـن لا يعـرفُ ا .. لأن الانحرافَ في فهم الحقائق يسبب الشرك وهو أكبر الكبائر ، ويسـبب الفسـوقَ والعصـيان، ويسبب كُل معصية كفرعٍ من فروع الجهل با ، يؤكد هذا قول ا عز وجل :

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

(سورة آل عمران)

أخطر شيء في العقيدة أن تعرفَ ا ، وأخطر شيء على العقيدة أن تظُن با ِ ظـن الجاهلية ، أن تظن ا َ في صفات هو منزه عنها، أن تظنه يعامل عباده معاملةً ، هـو علـي كبير :

سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾

(سورة الإسراء)

أيها الأخُ الكريم ... يجب أن تعلم علم اليقين أن أي خللٍ في فهمك لحقائق التوحيـد يقابله خللٌ خطير في سلوكك ، وبما أن الجنة كما قالَ ا عز وجل :

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة النحل)

فالخلل في العقيدة يقابله خلل في السلوك ، فالذي أتمنى على كُل أخٍ كريم ألاّ يقبـلَ شيئاً عن ا إلا بالدليل القطعي من كتابِ ا ومن سنّة رسوله، وألاّ يقبلَ أي تأويل إلا وفـقَ الأصول التي اُعتُمدت في فهم كتاب ا لأن انحراف الدين أساسه أن يضافَ إليه شيء أو أن يحذفَ منه شيء أو أن يؤول على غير ما أراد ا ، الإضافةُ تزوير والحذفُ تزوير وسـوء التأويل تزوير ونحن كمسلمين يهمنا أن نستقي الإسلام من ينابيعه الصافية ، أن نعـود إلـى اُصوله الثابتة لأنه قد اُضيفَ إليه ما ليس منه وحذفَ منه ما هو أصـيلٌ فيـه وفـي أحسـن الحالات اُوِلت آياته على نحوٍ لا يرضي ا عز وجل ... هذا ملخص الدرس الماضي ...

الدرس اليوم : كما أن هناك خطراً كبيراً في أن تظن با غير الحق ظن الجاهلية ، هناك خطر كبير في أن تنحرفَ في السلوك ، لذلك هذا الدرس : أنواع الفسوق .

وكلمة فسق وردت في القرآن الكريم بعدد كبير ربما كانت كلمةً خطيرةً جـداً فـي الدين .. يعني من باب التقريب .. لو أحدنا كلفته بشراء حاجات معينة ولم ينجز لك كُلَّ هـذه الحاجات وصببتَ عليه كُلَّ غضبك فقال : يا سيدي هناك عشرةُ أسبابٍ حالـت بينـي وبـين شرائي هذه الحاجات فسألته أنت ما هذه الأسباب ؟ قال لك : أولاً لا أملك ثمن هذه الحاجـات فتُحس بحاجة إلى أن يتابع التسعة ؟ هذا أخطر سبب .

أقول لكم الآن قياساً على هذا المثل : الإنسان حينما يفسق انتهى كُلُّ شيء .. يعنـي تُصبح صلاته شكليةً ، يقوم إلى صلاته متكاسلاً، تُصبح عبادته صوريةً ، يصـوم رمضـان صيام البهائم جوع وعطش فقط، يصبح حجه حجاً من نوع الرحلة والسياحة يعود إلـى بلـده ويحدثُك عن الطرقات والجسور أما هذه الفريضة التي فرضها ا علينا لماذا ؟ .

فحينما يقع الإنسان في الفسق فقد فُرِغَ الدين من مضمونه بالضبط فُرِغَ الدين مـن مضمونه .. يعني .. برتقالة قشّرتها بإحكام ثم رتبتَ القشرة كما لو أنها لم تُقشّر لكنها لا لُـب فيها .. هذا معنى تفريغُ الدينِ من مضمونه .

فدرسنا اليوم عن الفسق وهذه كلمة خطيرة وأقول لكم دائماً أيها الأخوة نحـن فـي حياة قصيرة ، العمر ثمين ، والوقتُ قليل ، والمهمةُ كبيرة ، والامتحان صعب ، فما لم نأخـذ هذه المصطلحات مأخذاً جِدياً ونُترجمها إلى واقع نعيشه فإن المشكلة تُعد مشكلةً لا يستهان بها .

الفسقُ في كتاب ا ِ عز وجل نوعان : مفرد مطلق ، ومقرون بالعصـيان . مفـرد مطلق، ... الدرس الماضي كما تذكرون تحدثنا عن الفحشاء والمنكر ، وتحـدثنا عـن الإثـم والعدوان ، وحينما تقرؤون في كتاب ا كلمة إثم وعدوان ، في كتاب ا لا يمكن أن يكـون هناك تكرار لأن كُلّ كلمة تعني شيئاً دقيقاً ، الإثم ما كان محرماً لذاته .. لذاته ، والعدوان مـا كان محرماً لقَدره .. كيف ؟ .

الزنى محرم ِلذاته ، شُرب الخمرِ محرم ِلذاته ، أما العدوان أن تأخُذَ ثمن هذه السلعة أكثر مما ينبغي ، أخذُ الثمنِ مباح أما أن تزيد في الثمن هذا عدوان .. يعني تجاوز الحد .. في حد مسموح به ، فمعصيةُ العدوان معصيةُ قدرٍ لا معصيةُ جِنسٍ ، الإثم معصيةُ جِـنس ، أمـا العدوان معصيةُ قدر .

الفحشاء والمنكر : الفحشاء شيء تأباه الفطرة ، والمنكر شيء يأباه العقل ، العقلُ إذا أنكر شيئاً فهو منكر ، والنفس إذا رفضت شيئاً فهو فحشاء ، فهذه المصطلحات القرآنية يجب أن نفهمها فهماً دقيقاً جداً لأنها أصلٌ في تعاملنا مع ا ِ عز وجل .. يعني .. مثلاً ما الخطـر في ذلك.؟. أن تكون متلبساً في الفسق وأنتَ لا تدري ، وأن تكون متلبساً بالكُفرِ وأنتَ لا تدري ، وأن تكون متلبساً بالشرك وأنتَ لا تدري ، أو أن تتهم نفسك بالفسق وأنتَ ليس بفاسق ، عدم فهم المصطلحات يسبب اضطراباً في العلاقة مع النفس لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول : " نفسك مطيتُك فارفق بها " .

لابد إذاً من معرفة المصطلحات بشكلٍ دقيق ، فالفسوقُ في كتاب ا ِ نوعان : مفرد مطلقٌ وفسقٌ مقرون بالعصيان .

المفرد نوعان : فسوق كُفر يخرج عن الإسلام .. يعني .. في فسق من تَلّبس به فهو كافر .. سوف نأتي على الأمثلة بعد قليل وهناك فسوقٌ لا يخرج عـن الإسـلام . الفسـوقُ والفسقُ المقرون بالمعصية كقوله تعالى :

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾

(سورة الحجرات)

الآن: فسقُ الكُفرِ : قالَ تعالى :

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦
ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾

(سورة البقرة)

نقض عهد ا ِ فسقُ كُفرٍ .. فسقُ كُفرٍ .. يعني في أعمال إذا عملها الإنسان شعر وكأنه سقطَ من السماء إلى الأرض ، شعر وكأنه سقطَ من عين ا .. هذا فسقُ الكُفرِ .. نقض عهد ا ِ، الارتداد إلى المعاصي ، من علامة الإيمان أن يكره أن يعود في الكُفرِ كما يكره أن يلقى في النار، فمن ارتد إلى المعاصي .. من ارتد إلى الجحود .. من اعتقد أن هذا الدين خُرافة .. ومن سلك سلوكاً منحرفاً يؤكد ذلك ..

الحقيقة .. أن هناك لِسان يكذّب وأن هناك سلوك يكذّب ، وأقول لكم وأنا أعني ما أقول أن تكذيب السلوك أخطر من تكذيب اللسان .. .. أنتَ بإمكانك أن تزور طبيباً وأن تتعالج عنده وأن يصف لك الدواء وأن تُصافحه وأن تشكره ممتناً وأن تعطيه أجره ... فإذا ذهبتَ إلى البيت عدم شرائِك الدواء اعتقاداً منك أن هذا الطبيب لا يفهم .. عدم شراء الدواء هو التكذيب .. كذبتَ علمه من حيثُ لا تدري ، مصافحتُك له ، ثناؤك عليه ، كلام فارغ ، فأن ترى إنساناً في العالم الإسلامي يقول لك ليس هناك آخره هذا قل ما يوجد ، لكن أن تجد

أُناساً كثيرين همهم الوحيد هو الدنيا ولا تجد لهم في الآخرة أي مطمح ، وليس في سلوكهم ما يؤكد ذلك .. فهذا نوع من التكذيب بالآخرة .

فلذلك : نقض عهد ا ِ ، ليس شرطاً أن يقول إنسان أنا نقضتُ عهـد ا ِ .. حينمـا يرتد إلى الفسق والكُفر ، حينما يرتد إلى المعاصي ، حينما يحتال .. مـثلاً : مـرة حـدثني شخص فقال لي واحد يبيع خُضار نوعين : نوع الكيلو بعشر ليرات ونوع بليـرتين ، النـوع بليرتين سيئ جداً فهو وضع في كيس من النوع الممتاز وعلى وجه الكيس وضع من النـوع السيئ وقالَ له : زِن لي فإذ بهم ٦ كيلو × ليرتين = ١٢ ليرة .

إنسان في وعيه يقنص البائع وهو لا يدري ، فهذا ليس فسق عادي ، معناها لا يرى أن ا َ يراه ، حينما ينحرفُ الإنسان انحرافاً خطيراً لا يرى أن ا َ يراه ، حينما يلبس إنسـاناً تهمةً هو بريء منها ويقنصه بها ويبتز ماله بها هذا فسق خطير جداً ، يتصرف وكأن ا َ غير موجود ، نقطة دقيقة، فسقُ الكُفرِ إنسان يتصرف وكـأن ا َ غيـر موجـود .. وكـأن ا َ لا يحاسب .

أنتَ تُحس أحياناً أن الإنسان ينغلب ، فيتوب ويبكي ويتأثر ، حينما خرج عن أمـرِ ا فقد فسق ، لكن هذا الفسق فسق أساسه أنه غُلب غلبته نفسه ، طغت عليه شهوته ، نَدم ندماً شديداً .. هذا فسق .

ولكن هناك إنسان يتحرك ويبني مجده على أنقاض الناس ويبني غناه على فقـرهم وكأن ا َ غير موجود إطلاقاً وكأن ا َ لا يحاسب . هذا فسق أساسه الكُفر ، حينما رأى أن ا َ غير موجود وأن ا َ في السماء مع أن ا َ يقول :

وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾

(سورة الزخرف)

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾

(سورة الحديد)

يعني مثلاً : لو أن إنساناً مراقب بجهاز تلفزيوني وقد رأيتُ هذا في محل تجاري ، رأيت جهازاً بجانب صاحب المحل في الشاشة محاسب يجري الحسابات في الطابق العلوي ، هذا صاحب المحل يراقب هذا الموظف مراقبةً تامةً ، لو أن هذا الموظف أخذَ سنةً من النـوم

وأمسك مجلةً وقرأها في أثناء الدوام الرسمي ماذا نقول .. هو مراقب .. لكن هـذا الموظـف يتصرف وكأنه غير مراقب .

إذاً : الشيء الخطير أن تتحرك مع الناس ، أن تستغلَ قوتك ، أو أن تستغلَ حاجـةَ الناسِ إليك ، أو أن تستغلَ حاجتهم إلى سلعة عندك فتبتزهم وكأن ا َ غير موجود .

.. امرأة لها بيت قالَ لها زوجها إن لم تكتُبي لي هذا البيت فسوفَ أُطلقُـك ، هـي ضعيفة توفي أبوها وأخوتها مسافرون وخشيت على مكانتها عنده فكتبت له البيت في اليـوم التالي طلّقها، بعد أن أصبح البيتُ بيده .. ماذا نقول ، كيفَ فعلَ هذا ، وكأن ا َ غير موجود ، وكأن ا َ لا يقتص منه .

لذلك : من الغباء الشديد الشديد ومن الحمق الذي لا حدود له أن تتحرك وكـأن ا َ غير موجود لكن ا َ كبير ، أنا أذكر إنساناً شاهد سيارة عليها مفتاحها ورآها جيدة جـداً مـن أعلى مستوى .. بلدنا والحمد فيها أمن .. فركبها وانطلق بها ، فسمع أن في المقعد الخلفي طفلاً صغيراً رضيعاً .. هذا شيء مزعج .. فأمسكه من رقبته وخنقه ورماه في الطريق وتابع سيره وظن أنه ذكي جداً بهذا العمل ذكي جداً .

سيارة من أعلى مستوى .. من أحدث موديل ، بعد حين كان يركبها مـع زوجتـه وأولاده في المقعد الخلفي دخلت به سيارةٌ كبيرة فقتلت والديه فوراً وأصابت زوجته بعشرين أو ثلاثين كسراً وهو في حالة خطيرة ، فلما أُخذت زوجته إلى المستشفى قالت : ا كبير ...

أنا أقول لكم وا ِ .. من أسابيع جاءتني مخابرة هاتفية قالت لي امرأة إن ابني ألقـى بهرة من الطابق السابع .. انزعج منها فأمسكها وألقاها إلى الأرض ، فجاءت ميتة ، قُلتُ لهـا وا ِ إما أن تُسارِعوا إلى صدقة تُطفئ غضب ا ِ عز وجل وإمـا أخشـى أن يمـوتَ ابنُـك بالطريقة نفسها التي قُتلت بها هذه الهرة ، لأن ا كبير.

هذه نقطة ، أنتَ تقول فُلان فاسق ، أيام الإنسان يفوته وقت صلاة .. هذه كبيرة لكن لا يوجد وراءها شعور أن ا َ غير موجود .. أيام الإنسان يتكلّم كلمة يغلب أحيانـاً ، يـتكلّم ويتألم ويدفع صدقة هذه فسق، لكن في فسق أساسه المغلوبية ، أساسه أنه غُلب ، وفي فسـق أساسه أنه لا يرى ا َ عز وجل .

إذاً : " **يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين الـذين ينقضـون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصلَ ويفسدون فـي الأرض** " إفسـاد علاقات ، .. إذا كان هذا التلميذ عند هذا العالِم .. لا .. هذا دجال ، يعني رغبته الجامحـة أن يفسد العلاقات بين المعلّم والمتعلّم ، وبين الشريك وشريكه .. وبين الزوج وزوجـه ، وبـين الأخِ وأخيه ، وبين الجارِ وجاره ، وبين الأبِ وابنه ، وبين الابن وأبيه ، الذين ينقضون عهـد

ا ـ من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر ا ـ به أن يوصل ويفسدون في الأرض : وقوله عز وجل :

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾

(سورة البقرة)

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

(سورة السجدة)

" **وأما الذين فسقوا** " .. هذا فسق الكُفر .. " **فمأواهم النار** " فسقُ الكُفـر والـدليل فمأواهم النار " **كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها** " ، أما الفسق الذي لا يخـرج عـن الإسلام وهي قوله تعالى في سورة البقرة :

وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

(سورة البقرة)

يعني : تطلب شاهد من المحكمة له مصلحة .. له عمل .. بعد أن ضيعتَ له يـوم يكامله .. شُكراً سيدي ، ا يعطيك العافية ، .. جاء لمصلحتك وترك عمله بقي بلا دخـل ، فإذا أضررتَ كاتباً أو شهيداً فهذا فسق لكن هذا الفسق لا يخرجك عن ملة الإسـلام .. يوجـد يمين ليس له كفّارة .. الغموس ليس له كفّارة .. لماذا ؟ لأنها تُخرج صاحبها مـن الإسـلام وتغمسه في النار غمساً ، سماها النبي اليمين الغموس لأنها تغمسه في النار .

واحد وضع عندك ١٠٠ ألف ليرة ولم يأخذ وصل هو واثق منك .. توفي .. يعلـم أولاده ذلك جاءوك بعد وفاة أبيهم أمورنا واضحة معكم إيصال ؟ أبوكم كان غلطان ... فأقاموا دعوى عليه ، القاضي ليس معه دليل فيلجأ القاضي إلى ما يسمى باليمين الحاسـمة ، دعـاه لحاف اليمين .. جاء الفرج .. فحلفَ يميناً كاذبةً أن فُلان ليس له عنده شيء ، هذه اليمين أُقسم با تُلغي عقيدتك وصلاتك وصيامك وحجك وزكاتك وانتهى كُل شيء وتُخرجـك مـن ملـة الإسلام وتغمسك في النار.

لذلك : هذه اليمين لا كفّارةَ لها ، يوجد لنا أخوان كرام يتورعون عن حلف اليمـين ولو كانوا صادقين ، يقول لك شغلة خَطرة خُذ مبلغك وا يسامحك ، يعنـي يتفـادى بحلـف اليمين كُل شيء .. لكن " **وإن تفعلُوا فإنه فُسوقٌ بِكُم** "

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦

(سورة الحجرات)

هذا الفاسق سمع إشاعة نقلها ، لا يسمى هذا فسق كُفر ، هذا فسق معصية " **فتَبينُوا أن تُصيبوا قوما بجهالة فتُصبحوا على ما فعلتُم نَادمين** " .

بالمناسبة ..كُلّ حدث وقع في عهد النبي عليه الصلاة والسلام .. هذا الحدث له دلالةٌ كبيرةٌ جداً ، أسوق لكم مثلاً تعرفونه جميعاً :

لما النبي عليه الصلاة والسلام صلّى الظُهر ركعتين فقال له بعض أصحابه وكـانوا مؤدبين ومهذبين أدبهم القرآن قالَ له أحدهم يا رسول ا أقصرت الصلاة أم نسيت ؟ صـلّينا ركعتين فقط فالنبي عليه الصلاة والسلام ما سبقَ أن نسي إطلاقاً ، قالَ كُلُ هذا لم يكن فقـال هذا الصحابي بأدب يا رسول ا بعضه قد كان .. ركعتين صلينا .. فأتم ركعتين وسجد سجود السهو وقالَ إنما نُسيتُ كي أسن ، أسن لكم سجود السهو ، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يسه ولا مرة في حياته لكان هذا الحكم معطلاً فقال : إنما نُسيتُ وليس نسيتُ .. نُسيتُ لقولـه تعالى :

سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ٧

(سورة الأعلى)

الآن اسمعوا هذه القصة التي وقعت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام لتـروا أن هذه الآية التي جاءت في قوله تعالى " **يا أيها الذين آمنُوا إن جاءكُم فَاسقٌ بنبـأ فَتَبينُـوا أن تُصيبوا قَوما بِجهالة فَتُصبِحوا على ما فَعلْتُم نَادمين** " .

قال هذه الآية أُنزلت في الوليد ابن عقبة ابن أبي معيط أحد أصحابِ رسول ا لمـا بعثه رسول ا صلى ا ُ عليه وسلم إلى بني المستلق بعد الوقعة مصدقاً وكان بينـه وبيـنهم عداوةٌ في الجاهلية، فلما سمع القوم بمقدمه تلّقوه تعظيماً لأمرِ رسول ا رحبوا بـه، فحدثّـه الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم ورجع من الطريق إلى رسول ا وقالَ يا رسول ا إن بني المستلق منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي فغَضب النبي عليه الصلاة والسلام ، فبلغَ القوم رجوعه ، النبي بعثَ لهم إنساناً لمهمة نبيلة .. يكذبوا النبي ويمنعوا صدقاتهم ويهمـوا بقتلـه وقتـلُ الرسول إهانة للمرسل ، فأتوا رسولَ ا هم رأوه مقدماً مقبلاً عليهم ثم عاد خافوا أنـه جـاءه خبر من النبي أن عد ، لعل النبي غاضب عليهم ، فأرسلوا وفداً إلى النبي قالوا يا رسـول ا سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونُكرمه ونؤدي إليه ما قَبلنا من حق ا فبدا له بالرجوع فخشينا أنه إنما رده في الطريق كتاب منك لغضبٍ غضبته علينا وإن نعوذُ با ِ من غضبه وغضـبِ رسوله ، .. صار في تناقض .. فالنبي عليه الصلاة والسلام رسوله قال شيئاً وهـؤلاء قـالوا شيئاً ، رسوله قال منعوني الزكاة وهموا بقتلي ، وهؤلاء قالوا نحن ننتظره لنُكرمه ونُرحب به ونُعطيه الزكاة فرجع .. ما الذي أرجعه .. لعلك أنتَ أرسلتَ كتاباً لـه أن يرجـع أم لعلـك غاضب علينا ونعوذ با ِ من غضب ا ِ ومن غضبك .

النبي الكريم كما قال ا عز وجل لما جاءه الهدهد قالَ وجدتُ امرأة تملكهم وكـذا وكذا ... قالَ سننظر أ صدقتَ أم كُنتَ من الكاذبين .

المؤمن يحقق ، فالنبي أرسلَ سيدنا خالد ابن الوليد خفيةً وأمـره أن يخفـي علـيهم قدومه وقال له انظر فإن رأيتَ منهم ما يدلُ على إيمانهم فخُذ منهم زكاةَ أموالهم وإن لـم تـر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكُفار ، ففعلَ ذلك خالد ووافاهم فسمع مـنهم أذان صـلاتي المغرب والعشاء .. الجماعة يصلون .. وأخذَ منهم صدقاتهم ، ولم ير منهم إلا الطاعةَ والخير فرجع إلى النبي صلى ا ُ عليه وسلم وأخبره الخبر فنزلَ قوله تعالى " **يا أيها الذين آمنُوا إن جاءكُم فَاسقٌ بنبأ فَتَبينُوا أن تُصيبوا قَوما بِجهالة فَتُصبِحوا على ما فَعلْتُم نَادمين** " .

هذا الصحابي لعداوة سابقة بينه وبينهم ولخوف أصاب قلبه لكن لم يكفر الصحابي .. ليس هذا فسقُ كُفرٍ ، هذا فسق معصية وا ُ تواب رحيم .

بالمناسبة : أيضاً أيام يكون الفاسق فسقه ليس من نوع الكذب فاسـق مـثلاً يطلـق بصره في الحرام وحدثك بحديث .. هو فسقه لا من جهة الكذب بل من جهة إطلاق البصـر فالقرآن الكريم ما ألغى رواية الفاسق قال تحققوا منها ...

إذا إنسان تحدثَ لك عن إنسان ، لا ترضى إلا أن تستمع إلى الطرف الآخر ، يتكلّم كيف يشاء ، وإذا أردتَ أن توفر وقتك اجمع الاثنين معاً و يلتغي أربع أخماس الكلام ، ممكن أن يحدثُك ثلاث ساعات عن الواحد ، إذا الواحد أمامه يحدثُك خمس دقائق فقط ... لكي تُوفر وقتك لا تقبل أن تسمع من زوج إذا كان طبعاً الزوجة قريبتك على زوجته ولا مـن الزوجـة على زوجها اجمع الاثنين معاً وليتكلما ، ينظر كل واحد للآخر ، تنظر هي لن تتكلم الرجـل جالس أمامها هو حي يرزق .. فقبلَ أن تحكُم على إنسان لابد من أن تستمع مـن الطـرفين والأولى أن تجمعهما معاً عندئذ تختصر الوقت والجهد .

لكن من كان فسقه من طرف الكذب وقد عرِفَ بالكذبِ كثيراً وتكراراً بحيثُ يغلـب كذبه على صدقه فهذا لا يقبلُ خبره ولا شهادته ، كُل مؤمن له بالمجتمع الإسلامي اعتبار لـه مكانة ، إذا فَسق تُرد شهادته ، يعني أكبر إهانة توجه للإنسان أن تُرد شهادته .

سمعت في بعض البلاد إذا بائع غش في البيع لا يعاقب .. لا ضبط ولا سجن ولكن لوحة توضع على محله التجاري : هذا الإنسان يغشُ في البيع والشراء .. ينتهي ..

سمعت في حمام معدني ببعض البلاد الأجنبية .. طبعاً هذا المثل له معنـى .. فـي مائه مادة تتفاعل مع البول ولو واحد كان غير حضاري أو غير مؤمن فبالَ في هـذا المـاء فتخرج بقعة بنفسجية فوقه فيلتقطونه كما تُلتقط الفأرة ويوضع في غرفة زجاجية على مـدخل هذا الحمام مكتوب أنه هذا الإنسان يبولُ في الحمام .. هذه أكبر من سجن .. الفضيحة وهـدر الكرامة شيء خطير جداً ، فيكفي أن الفاسق إذا فَسق تُرد شهادته ورد شهادة الفاسق طعن في مكانته .

الإنسان يعيش بكرامته ، يعيش بمكانته ، قد يكون فقيراً رافع الرأس ، قـد يكـون عمله شاقاً رافع الرأس ، أما إذا وقع في شيء يصغُر من عين ا فهذه المصـيبة ، الحقيقـة المصيبة أن تكون عاصياً ، المصيبة أن تكذب ، المصيبة أن تخون ، المصـيبة أن تفعـلَ شيئاً لا يرضي ا ... ربنا عز وجل علّمنا عن طريق النبي .. يعني .. في أشد حالاته .

مرة مع السيدة عائشة تسأله يا رسول ا أي يومٍ صعبٍ مر بِك .. أصـعب أيـام حياتك .. هي ظنت يوم أُحد قالَ لا .. يوم الطائف ، يوم أُحد أقل من يوم الطـائف ، إنسـان متوجه بعد أن يكاد ييأس من قومه قُريش توفيت زوجته .. السند الداخلي .. توفي عمه أبـو طالب .. السند الخارجي .. من الداخل صار في وحشة ومن الخارج صار في تخـلّ وكُـلُ قُريش ضده توجه إلى الطائف مشياً على قدميه وفي الطائف السخرية والاستهزاء والتكـذيب

حتى والإيذاء قالَ : إن أشد يومٍ أتى علي يوم الطائف قالَ : إن لم يكن بِك غضب علي فـلا أُبالي ولك العتبى حتى ترضى لكن عافيتك أوسع لي .. هذه درس لنا مهما ضاقت الأمـور : ياربي هذا قدرك وهذا قضاؤك وأنا راضٍ به إن لم يكن بِك غضب علي فلا أُبالي ولك العتبى حتى ترضى لكن عافيتك أوسع لي ..

يعني .. هناك كلمات لسيدنا عمر أنا أقولُها كثيراً لأنني أشعر أنها بليغة ما أصـابته مصيبةٌ إلا قالَ الحمد ِ ثلاثاً : الحمد ِ إذ لم تكن في ديني ، ما دام الـدين سـليماً صـائماً ومصلياً ويغُض بصره ودخله حلال وإنفاقه حلال مؤدية لواجباته الدينية والأسرية بار بوالديه ومحسن لزوجته وعطوف على أولاده .. لا يكون في شغل ا يدبر .. ما دام لا يوجد معصية القضية سهلة جداً .. يعني .. الدنيا تأتيك وهي راغمة وأوحى ربك إلى الدنيا أنه من خـدمني فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعلَ ا ُ غناه في قلبه وجمـع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة .

إذاً : توضح لدينا الفسقُ الذي يخرج من ملة الإسلام والفسقُ الذي لا يخرج من ملة الإسلام ، يعني إذا غُلبتَ الصحابي خاف عداوة قديمة وخاف النبي قَبِلَ عذره لكن لم يخرجـه من الإسلام أما هذا الذي يقطع ما أمر ا ُ به أن يوصل ، هذا الذي يحلف يميناً غموساً ليقتطع بها مال امرئ مسلم بغير حق هذا يتصرف وكأن ا َ غير موجود إطلاقاً .

قال : " والفسوق الذي تجب التوبةُ منه أعم من الفسوق الـذي تُـرد بـه الروايـةُ والشهادة " .. أيضاً يوجد درجات .. لو فرضنا إنساناً نظر إلى امرأة نظرةً لا تَحلُ لـه هـذا فُسق بل هذا يرد الشهادة ؟ لا .. لكن لو أدام النظر ، لو كان من شأنه أن ينظر .

أنا اقول لكم قصة واقعية : رجل يسكن في المزة عنده خمس بنات متزوجات ، لـه هواية ليست شريفة يركب السيارة العامة من المزة إلى المرجة ويمشي في أيام الصيف فـي طريق الصالحية ذهاباً وإياباً ، ذهاباً وإياباً ليمتع عينيه بالنساء الكاسيات العاريات لا يتكلّم ولا يبتسم إلا أنه ينظر ، هذا الرجل يسكن في بيت ، جاره صديقٌ لي .. جاره الملاصق .. ابتلاه ا ُ بمرضٍ في عينيه هذا المرض اسمه ارتخاء الجفون كُلما أراد أن ينظر إليك أمسك جفنيـه بكلتا يديه ورفعهما حتى يراك فإذا تركهما انحدرا فربنا عز وجل جعلَ جزاء هذه المعصية من جنس العمل، مرض ارتخاء الجفون .. في أمراض لا نعلمها نحن .

فكُل فسق له ترتيب عند ا عز وجل ، عنده خمس بنات متزوجات وهو متـزوج ومحصن وله أصهار وله أولاد وله أحفاد .. .. المعصية بسن متأخر قـذرة جـداً " أحـب الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد وأُبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد " .

هناك فسق يوجِب التوبة ولا تُرد به الشهادة ، في فسق تُرد به الشهادة ولا يوجِـب الكُفر، يعني دائماً أقول لكم كلمة دقيقة : من علامات ضيق الأُفق رؤيتك لونين أبيض وأسود

فإن وجدتَ إنساناً زلّت قدمه في معصية صغيرة هذا كافر هذا مرض خطيـر مستشـر بـين الجماعات الدينية .. مرة النبي عليه الصلاة والسلام أمر زينب أن تتـزوج أو غيـر زينـب النتيجة ما أحبته قالت له يا رسول الله إني أكره الكُفر بعد الإيمان يعني لـم أُحبـه .. لـذلك القاضي لا يمكن أن يمضي العقد سليماً صحيحاً إلا إذا سمع بإذُنه من فم المخطوبة أنها قبِلـت به ، موافقة الأب لأنه يعرف الرجال وموافقة البنت لأنه زوجها .. فقالَ عليه الصلاة والسلام لو تُراجعيه ، لو تقبلي به، قالت: يا رسول الله أفتأمرني قالَ لا إنما أنا شفيع .

النبي الكريم ما وضع مكانته الدينية في أمرٍ شخصي .. هذا أمر شخصي قالـت : أفتأمرني قالَ لا إنما أنا شفيع .. فقط .. فأنا أردتُ من هذه القصة أنك إذا وجدتَ إنسـاناً لـه معصية مخالفة إياك أن تتهمه بالكُفر ، لو اتهمته بالكُفر أصبحت الهوةُ بينك وبينـه سـحيقة ، اقبله ، ذكّره ، يوجد أبيض و أسود أما عند خبراء الألوان في مليون لون بينهما

مثلاً .. والله أنا الكمال في الحجاب أن يستر الوجه لكن أتوازي فتاةٌ تلـبس معطفـاً فضفاضاً وقد غطت رأسها وبقي مساحةٌ صغيرة من وجهها وترتدي ثياباً سابغةً هذه لا توازى بامرأة فاسقة تكشفُ عن مفاتنُها ، أتمنى أن يستر وجهها لا شك لكن أنتَ ليس لك الحـق أن تجعل هذه كهذه .. لا .. في فرق بينهما فأنتَ تُريد معياراً دقيقاً ، إنسان نظر ، إنسان لمس ، إنسان باشر .. الثلاثة معاً .. لا.. النظر زنى والمس زنى والمباشرة زنى لكن هذا الزنى من نوع وهذا من نوع وهذا من نوع أما أبيض أو أسود فهذا أُفُق ضيق .. فربنا عز وجل يقـدر كُل شيء ..

يعني .. كُل شيء له حجم عند الله عز وجل فأردتُ من هذا .. في فسـق يوجِـب التوبة ، في فسق تُرد به الشهادة ، في فسق يخرج من الملّة ، فأنتَ إذا التقيـت مـع إنسـان وأردتَ أن تنصحه لا تُبالغ ، إذا بالغت نفرتَ منه ونفر منك .

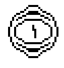
وقد قالَ بعض العلماء : " الفسقُ أخص بارتكابِ النهي " ولهذا يطلقُ عليه كثيـراً " **وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم** " يعني إذا شيء نهى الله عنه وارتكبته يسمى في القرآن فسقاً .

والمعصيةُ ترك الأمرِ .. المعصية ترك الأمر أما الفسق ارتكاب النهي .. الشـرع بشكل مجمل أمر و نهي ، .. افعل ولا تفعل ، إذا قال لك لا تفعل تأكد أن الـنفس البشـرية تتمنى أن تفعل وإذا قال لك الله افعل النفس البشرية تتمنى ألاّ تفعل ، لأنك لا ترقى عنـد الله عز وجل إلا إذا خالفتَ نفسك ، لأن للنفسِ طبع والأمر الإلهي يخالفُ هذا الطبع ، لذلك سمي الأمر تكليفاً لأنه ذو كُلفة .. غض البصر .. الإنسان مع سجيته يتمنى أن ينظر ، والإنسان مع طبعه يتمنى أن لا يستيقظ على صلاة الفجر النوم ألذ ، ومع طبيعته يتمنـى ألاّ ينفـقَ المـال قبضه له شعور آخر ، فيوجد أمر ويوجد نهي فإذا فعلتَ ما نهى الله عنه فهذا بالقرآن يكثُـر ذكره بالفسق ، وإذا تركتَ ما أُمرتَ به فهذا يغلب عليه اسم المعصية .

والتقوى : تجمع الأمرين معاً ، التقوى أن تتقي أن تقع فيما نُهيتَ عنه وأن تترك ما أُمرتَ به ، أن تتقي غضب ا فإذا أمرك بشيء فالتقوى أن تفعله وإذا نهاك عن شيء فالتقوى أن لا تفعله .

لكن : الآن دخلنا بموضوع آخر في فسق سلوكي وفسق اعتقادي لما ربنا عز وجل قال:

سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ



(سورة الإسراء)

إذا إنسان أنكر الإسراء ماذا يعد في علم العقيدة ؟ يعد كافراً لماذا ؟ لأن دلالةَ الآيـة قطعي ، الدلالة قطعية ، إذا أنت أنكرت نصاً قطعياً الثبوت والدلالة فقد كفرت ، طيب لما ربنا قال:

ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾

(سورة النجم)

الآيات توحي أن النبي عرج به إلى السماء لكن لا دليلاً قطعياً على أنه عرج به إلى السماء ، من أنكر المعراج فقد كفر ، إذا أنكرتَ شيئاً ذا دليلٍ قطعي فقد كفرت ، إذا أنكـرتَ شيئاً ذا دليلٍ ظني فقد فسقت ، فالفسق الاعتقادي خطير أن تُنكر شيئاً يعني ينبغي أن تعتقد به ، أما إذا أنكرتَ شيئاً يجب أن تعتقد به فقد كفرت .

أما فسقُ الاعتقاد كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بـا ورسـوله واليـوم الآخـر ويحرمون ما حرم ا ويوجبون ما أوجب ا ولكنهم ينفون كثيراً مما أثبتَ ا ورسوله جهلاً وتأويلاً وتقليداً لغيرهم .. يعني إذا أنت نفيتَ عن ا عدالته .. أخي سـبحان ا ا يعطـي الحلاوة لمن ليس له أضراس .. هل تعلم أنك فسقت فسقاً اعتقادياً بهذا الكلام .. نفيتَ عن ا العدالة ، نفيتَ عنه الحكمة .

فإذا نفيتَ عن الله ما أوجبه لنفسه فقد فسقتَ فسقاً إعتقادياً ، أما التوبة أن تُعلن على الملأ الذين أنكرتَ هذا أمامهم أن تُعلن عكس ذلك ولم تُقبلَ توبتك ما لم تُبين عكس الذي قُلتـه من قبل .. ماذا قالَ الله عز وجل :

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾

(سورة البقرة)

لكن الفاسق فسقاً يخرج من الملّة هذا مأواه النار والدليل :

ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٍۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾

(سورة التوبة)

هذا فسق يوجِب الكفُر ، إذاً اتضح معنا في هذا الدرس أن كلمة فسـق متدرجـة .. فسق يوجِب التوبة ، فسق تُرد به الشهادة ، فسق كما تعلمون موضوع تعرفونـه جميعـاً إذا الإنسان كذب فقد وقع في النفاق لأن آية المنافق ثلاث ..... إذا حدثَ كذب .. من عاملَ الناس فلم يظلمهم وحدثّهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كمُلت مروءته وظهـرت عدالتـه ووجبت اُخوته وحرمت غيبته .. من كذبهم سقطت عدالته من ظلمهم سقطت عدالتـه ، مـن أخلفهم سقطت عدالته ، لكن في بالشرع دقّةً بالغة : في سقوط عدالة وفي جرح عدالة .

.. إبريق زجاجي إذا جئت بمطرقة وكسرته قطعاً صغيرة .. كسرته .. وقد يشـعر هذا الإبريق ، فجرح العدالة شيء وسقوط العدالة شيء آخر .. عالِم الحديث الشهير الذي جاء من المدينة المنورة إلى البصرة ليتلّقى حديثاً عن أحد الرواة لما رآه يوهم فرسه أن في ثوبـه شعيراً لتُقبِلَ عليه فاقترب منه ولم يجد في الثوب شيئاً فعاد أدراجه إلى المدينـة وعـد هـذه الحادثة تكفي لِرد الحديث عنه .. جرحت عدالته .

لذاك الأكل في الطريق يجرح العدالة يمشي حافياً ، أن تُطفف بتمرة ، أن تأكل لقمة من حرام ، أن تصحب الأراذل ، أن يعلو صوتُك في البيت ، أن تتحدثَ عـن النسـاء ، أن تُطلِقَ لفرسك العنان ، أن تقود برذوناً ، أن تبولَ في الطريق .... هذا كُله يجرح العدالة ، أنتَ مؤمن ، أنتَ سفير هذا الدين ، تُمثل هذا الدين ، يعني وا الإنسان حتى ثيابه جزء من دينـه يعني لا أقول لك يجب أن تكون غالية أبداً يمكن أن تكون الثياب متواضعةً جداً ولكنها نظيفـة .. نظيفة فقط .. الإسلام نظيف ، فدائماً وأبداً النبي عليه الصلاة والسلام قال :

- عن قَيس بن بِشْرٍ التغْلِبي قَالَ أَخْبَرني أَبِي وكَان جليسا لأَبِي الدرداء قَالَ كَان بِدمشْقَ رجلٌ من أَصحابِ النبِي صلى اللهم عليه وسلم يقَالُ له ابن الْحنْظَلية وكَان رجلا متَوحدا قَلما يجالِس الناس .... فَقَالَ له أَبو الدرداء كَلمةً تَنْفَعنَا ولا تَضرك قَالَ قَالَ لنَا رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم نعم الرجلُ خُرَيم الأَسدي لَولا طُولُ جمته وإِسبالُ إِزارِه فَبلَغَ ذَلِك خُريما فَعجِلَ فَأَخَذَ شَفْرةً فَقَطَع بِها جمتَه إِلى أُذُنَيه ورفَع إِزاره إِلى أَنْصاف ساقَيه ثُم مر بِنَا يوما آخَر فَقَالَ له أَبو الدرداء كَلمةً تَنْفَعنَا ولا تَضرك فَقَالَ سمعتُ رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم يقُولُ إِنكُم قَادمون على إِخْوانكُم فَأَصلحوا رِحالَكُم وأَصلحوا لِباسكُم حتى تَكُونُوا كَأَنكُم شَامةٌ في الناسِ فَإِن الله لا يحب الْفُحشَ ولا التفَحشَ قَالَ أَبو داوود وكَذَلِك قَالَ أَبو نُعيمٍ عن هشَامٍ قَالَ حتى تَكُونُوا كَالشامة في الناسِ *

(سنن أبي داوود)

- عن أَبِي هريرةَ أَن رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم قَالَ من كَان له شَعر فَلْيكْرِمه *

(سنن أبي داوود)

وكان إذا مر النبي عليه الصلاة والسلام يعرفُ بريح المسك .

إذاً : حتى الآن أنواع المعاصي التي نحن في صددها : أن تقولَ على ا ـ ما لا تعلم .. أكبر معصية هي أساس كُل المعاصي .. إذا واحد اعتقد من شخص جاهل أنه مهما فعلـت أنتَ من أُمة محمد وأمة محمد مرحومة والنبي عليه الصلاة والسلام لن يدخُلَ الجنة قبـلَ أن يدخلَ أُمته كُلها إلى الجنة .. وانتهى الأمر .. هذا الكلام يخرج منه ملا يين المعاصـي .. إذا توهمتَ هكذا اسمع الآيات :

أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾

(سورة الزمر)

هل هناك أوضح من هذه الآية ؟ " **أَ فَمن حق عليه كلمةُ العذَابِ أَ فَأَنْتَ تُنقذُ من في النار** " الشفاعةُ حق ولكن لها تفسير راق جداً أرقى من هذا الفهم الساذج للشفاعة فأخطر شيء في الدين أن تقولَ على ا ما لا تعلم .. طبعاً آتي بمثل واحد هناك آلاف الأمثلـة يعنـي أن تعتقد أنك أُجيرتَ على كُل معاصيك ولا حيلة لك فيها إطلاقاً ثم ساقك ا ُ إلى جهنم لتبقى فيها أبد الآبدين .. والقرآن الكريم .. عشرات الآيات بل مئات الآيات تؤكد ندم الفاسقين .

لو أن الأمر كذلك هل هناك ندم ؟ ما ندم ، مجرد الأمرِ والنهي فأنتَ مخير ، أو ما قاله سيدنا عمر لما قالَ له أحدهم إن ا قدر علي ذلك قالَ أقيموا عليه الحد مرتين مرةً لأنـه شَرِب الخمر ومرةً لأنه افترى على ا ... فالإنسان دائماً إذا كان مقصـراً أو كـان متلبسـاً بمعصية يميلُ إلى أن يعزو هذا إلى ا .. للأقدار .. أما إذا صلى قيام الليل لا يقدر يقول لك أنا صليت قيام الليل ، إذا فعل عملاً صالحاً تصدق .. يعزيها لحاله .. يقول لك أنا اليوم عملت كذا أما إذا كان وقع في معصية .. هكذا قدر ا ُ علي .. هذا الكلام مضحك .. لماذا الطاعـةُ تعزوها إلى نفسك وتعزو المعصية إلى ا عز وجل ..

وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾

(سورة الأعراف)

فالفسق الاعتقادي خطير جداً ، الكُفر أن تُنكر أما الفسق أن توجب ما نفاه ا ُ عـن نفسه أو أن تنفي عنه ما أثبته على نفسه .

والحمد رب العالمين

* * *

الدرس ٢٨ - النفاق .

بسـم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم .... مع الدرس الثامن والعشرين من دروس مدارج السـالكين في مراتب إياك نعبد وإياك نستعين ، ونحن قبلَ درسين أو أكثر بدأنا في موضوع التوبة وقبلَ أن ندخُلَ في صلبِ موضوع التوبة بدأنا في ذكرِ المعاصي والذنوب التي ينبغي أن نتوب منها ، وتحدثنا من قبلُ عن أن أكبر المعاصي أن تقولَ على ا ـ ما لا تعلم ، وتحدثنا عن الفحشـاء والمنكر ، وتحدثنا عن الإثم والعدوان ، وتحدثنا عن أنواع الفسق وكيفَ أن هناك فسقاً يخرِج من الملّة وكيفَ أن هناك فسقاً يوجِب التوبة .

وننتقلُ اليوم ولستُ أُبالغ إلى أخطرِ موضوعٍ من موضوعات الإيمان ألا وهو النفاق لأن أخطر الأمراض أيها الأخوة في عالم الطب هي الأمراض التي لا أعراض لها ، هنـاك أمراض لها آلام لا تُحتمل ليست خطيرة لأنها في وقت مبكر تكشفُها ، ولكن أخطر الأمراض هي الأمراض التي لا يصاحبها ارتفاع حرارة ولا آلام مبرحةٌ إنما هي أمراض تتسلل تسـلُلاً بطيئاً إلى أن تستفحلَ فجأةً وعندئذ يستحيلُ الدواء .

ذكرتُ هذا لأن الذي يخافُ أن يكون منافقاً قولاً واحداً ليس منافقاً لكـن المنـافق لا يدري أنه منافق .. لا يدري .. يحسب أنه مؤمن هذا الذي يفسر به أن تأتي ثـلاث أو أربـع آيات في مقدمة القرآن الكريم وفي أول سورة منه تتحدثُ عن المؤمنين ، وفي آيتـين فقـط يتحدثُ القرآن عن الكافرين ، وفي ثلاث عشرة آية يتحدثُ عن المنافقين ...

عندما الإنسان يتكلّم كلام الكُفر .. هذا الإنسان ليس خطراً أبداً، لأن الناس يحذرونه لأن كفره بواح مهما يكن كفره شديداً الناس يحذرونه ، أما الذي يخشى منه : هذا الذي تظنـه مؤمناً وهو كافر فالذي تظنه مؤمناً وهو كافر هو المنافق له مظهر وله مخبر ، لـه موقـفٌ معلن وله موقفٌ حقيقي ، له سلوك خارجي وله اعتقاد داخلي ، المنافق أخطـر إنسـانٍ فـي المجتمع الإسلامي ..

لذلك : هذا الذي تزيى بزي المسلمين ، وصلى صلاتهم ، وصام صيامهم ، وحـج حجهم، وأدى زكاة مالِه كما يؤدون ، ولبس على المسلمين وهو يكيد لهم ويحـاول أن يطفـئ نور ا ـ عز وجل بطريقة أو بأخرى هذا ليس مكانه في النارِ كما هو مكان الكُفار بل مكانـه في الدرك الأسفل من النار هذا معنى قوله تعالى :

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾

(سورة النساء)

وكُلُكم يعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما نزلَ قوله تعالى :

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾

(سورة التوبة)

أودع سراً لسيدنا حذيفة بن اليمان وأعطاه أسماء سبعةَ عشرة منافقاً أمره إذا توفاه الله عز وجل ألا يصلّى عليهم ، أما أن يأتي عمر ابن الخطاب عملاق الإسلام ، الخليفة الراشد ، الذي كان فذّاً عبقرياً يسألُ حذيفةَ بن اليمان ويقول له أُنشدك الله هل ذكر النبي صلى الله عليه وسلم اسمي مع المنافقين ؟ هذا لِعظَمِ حق الله عليه .

فلذلك أيها الأخوة مهما اتهمتم أنفسكم فأنتم تفعلون ما هو من صفات المؤمن ، المؤمن كثير الاتهام لنفسه ، دقيقٌ في حسابه ، عسير في محاسبة نفسه ، يراجع نفسه كثيراً ، يتهم نفسه كثيراً ، يلومها كثيراً حتى أن الله سبحانه وتعالى أثنى على تلك النفس اللوامة ، أما هذا الذي يمدح نفسه ويظن بها خيراً ويحسن الظن بها وهي ليست كذلك فهذا على شُعبة من شُعبِ النفاق .

الآن : النفاق خطورته أن الإنسان يمتلئُ منه وهو لا يشعر ، والنفاقُ خطورته أنه يخفى على الناس ، إذا أحدهم قال ليس هناك إله مع أن هذا الكلام هو الكُفر لكن أنا أرى هذا الكلام ليس له خطورةٌ على المجتمع أبداً لأن الناس لا يصدقونه ويحذرونه ويبتعدون عنه ويتهمونه بالكُفر .. أما هذا الذي يقول كما يقول الناس ويصلي صلاتهم ويصوم صيامهم ويكيد للمسلمين ... هذا منافق .

يعني إذا الإنسان جاء بالآيات ووجهها توجيهاً ليوافقَ روح العصر ، جاء بآيات وفسرها تفسيراً .. يكرس في انحرافات العصر فرضاً ، فرغَ الإسلام من مضمونه .. وهو يقول قال الله جل جلاله والنبي عليه الصلاة والسلام .. هنا الخطر لأن هذا سم في دسم .. دسم مع السم ..

الحقيقة النفاق نوعان : نفاقٌ أكبر ، ونفاقٌ أصغر ... النفاق الأكبر يوجِب الخلود في النار .. الخلود .. ليس دخول النار فقط يوجب الخلود في النار لكن نعوذ با من هذا النـوع .. النفاق الأكبر : أن تُنكر كُل شيء في الدين وأن ترفض هذا الدين جملةً وتفصيلاً وألا تعتقد لا بما جاء به النبي ولا بما نزلَ به القرآن ، لكنك بدافعٍ مـن مصـالحك وذكائِـك تـرى أن مصالِحك كُلها لا تصونُها إلا إذا أظهرتَ للناس أنك منهم هذا هو النفاق الأكبر الذي يوجـب الخلود في النار بل في دركها الأسفل وهو أن يظهر الإنسان للنـاسِ إسـلامه إيمانـه بـا وملائكته وكُتبه ورسله واليوم الآخر .

.. إذا كُنت في بلد مطبقٌ فيه الدين تطبيقاً كاملاً وسارعتَ إلـى الصـلاة كُلمـا أذّن المؤذّن لأنه لو لم تذهب هناك سجن وهناك عقوبات كبيرة فإذا غادرتَ بلدك إلى بلد غربـي انغمست في الملذات والزنى والخمرِ إلى قمة رأسك .. هذا الذي يصلي في بلده كُـل وقـت بوقته ويحج البيت ويطوف ويسعى ويدفع زكاة ماله لأن عليه مراقبة شديدة فـإذا لـم يفعـل عوقب وجلد و.... إلخ .. فإذا خرج من بلده إلى بلد أوربي انغمس في الزنا والخمر إلى قمـة رأسه ... أليس هذا هو النفاق الأكبر ، لا يعبأُ بشيء من أوامر ا عز وجل بل هو لا يقبلُهـا بل لا يعتقد بها .

أردتُ أن أقرأ عليكم في سورة البقرة في مطلعها الصنفين من أصـناف المنـافقين فالصنفُ الأول :

مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾

(سورة البقرة)

هذا النفاق الأكبر " **صم بكم عمي فهم لا يرجعون** " النفاق الأصغر :

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ
أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ
بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم
مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ
بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

(سورة البقرة)

لكنه لم يذهب بسمعهم وأبصارهم لأنه ينتظر أن يهتدوا وأن يؤمنوا .. فالمنافق إما إنسان مؤمن با لكن إيمانه ضعيف وغلبته نفسه فانساقَ مع شهواته فهذا النفاق الأصغر الذي نرجو لصاحبه أن يؤمن وأن يهتدي وأن يتوب ، وأما النفاق الأكبر فهو أن تُنكر أصلاً كُلَّ ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام وأن تُنكر هذا الكتاب لكنك تفعلُ أفعال المسلمين تمشياً مع مصالِحك، لعل النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال :

عن عبد الله قالَ حدثَنَا رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم وهو الصادقُ المصدوقُ قالَ إن أحدكُم يجمع في بطْن أُمه أربعين يوما ثُم علقَةً مثْلَ ذَلك ثُم يكُون مضغَةً مثْلَ ذَلك ثُم يبعثُ الله ملكًا فيؤْمر بأَربعٍ برِزقه وأَجله وشَقي أَو سعيد فَوالله إن أَحدكُم أَو الرجلَ يعملُ بعمل أَهل النار حتى ما يكُون بينَه وبينَها غَير باعٍ أَو ذراعٍ فيسبِقُ عليه الْكتَاب فيعملُ بعمل أَهل الْجنة فيدخُلُها وإن الرجلَ ليعملُ بعمل أَهل الْجنة حتى ما يكُون بينَه وبينَها غَير ذراعٍ أَو ذراعين فيسبِقُ عليه الْكتَاب فيعملُ بعمل أَهل النار فيدخُلُها قالَ آدم إلا ذراع *

(صحيح البخاري)

هذا الذي قصده النبي إنه في الأصل يعملُ بعمل أهل الجنة لكنه هو من أهل النار هو كافر كفراً بواحاً ولكن يتظاهر .

الحقيقة في سورة التوبة وصفٌ دقيقٌ دقيق للمنافقين ، وفي سورة المنافقون وصفٌ دقيقٌ لهم ، وفي ثنيات السور الأخرى وصفٌ لهم أما الذي أتمناه على كُل أخٍ مؤمن أن تكون صفات المنافقين واضحةً في ذهنه وضوحاً جلياً ...؟.. ليعرف أين هو من هؤلاء ، وفي هذا الدرس إن شاء ا تعالى سنقف عند آيات المنافقين آيةً آية نقفُ عندها وقفةً متأنية لنرى الأبعاد التي تعنيها تلك الآيات فلعلها تكون مقياساً ، يمرض الإنسان أحياناً فيعطيه الطبيب قائمة مسجل عليها بعض الأطعمة التي يجب أن يمتنع عنها لا ليأكلها .

.. وقفنا عند آيات المنافقين في هذا الدرس من أجل هذا من أجل أن نحذر أن نكـون من هؤلاء وأن نحذر أن تنطبقَ علينا صفات بعضٍ هؤلاء ، المنافقون جميعاً متفقـون علـى شيء واحد وهو ترك الاهتداء بالوحي .. أنت إنسان تحتاج إلى منهج ، تحتاج إلى دسـتور ، تحتاج إلى قانون، ما المنهج الذي تسير عليه، ما القانون الذي يقنن تصرفاتك ، ما الدسـتور الذي تهدي به ، المنافقون جميعاً أنكروا الوحي ورفضوه والدليل :

فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾

(سورة المؤمنون)

" الوحي في واد ومبادئهم وأفكارهم وقيمهم وأساليبهم وحركـاتُهم فـي واد آخـر **فَتَقَطّعوا أَمرهم بينَهم زبرا كُل حزبٍ بِما لديهم فَرِحون** " والشياطين كما تعلمون يوحي بعضهم إلى بعضٍ زخرفَ القول غروراً يعني ملخص هاتين الآيتين أنه ما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة إذا قضى ا ُ ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرةُ من أمره .

أنتَ كمسلم هذا حكم ا ِ في الربا وهذا حكم ا ِ في العلاقة مع النساء وهذا حكم ا ِ في الغيبة وهذا حكم ا ِ في الزواج فإذا رفضتَ حكم ا ِ ولو كان الرفض داخلياً فأنتَ شئتَ أم أبيت وقعتَ في خندق المنافقين .. يعني المنافقون اتخذوا هذا القرآن مهجوراً .. يعني .. كتاب لا يصلُح لهذا الزمن ، كتاب نتبرك به ولكن ليس هو الدستور ، ليس هو القانون ، كتاب نتلوه على الأموات، كتاب نقرؤه نتقوى .. كتاب فصيح جداً إذا قرأناه استقامت ألسـنتُنا .. معناهـا اتخذته مهجوراً .. هذا الكتاب لم تر أنه الدستور الكامل .

الحقيقة .. أول صفة من صفات المنافقين : في قلوبهم مرض هذا المـرض حـب الدنيا ، وقد قالَ عليه الصلاة والسلام :

عن أَبِي الدرداء عن النبِي صلى اللهم علَيه وسلم قَالَ حبك الشيء يعمي ويصم

حب الدنيا هو الذي يحملُ على معصية ا .. هو الذي يحملُ على أن تأخذَ ما ليس لك .. هو الذي يحملُ على أن تطغى وعلى أن تبغي .. لذلك :

فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾

(سورة البقرة)

" **في قلوبهم مرض** " فلما أصروا على هذه الشهوات وتشبثوا بها " **فزادهم الله مرضا** " أطلقهم إليها لعلّهم يتخلصون منها ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون على الله عز وجل .

إذاً : أساس النفاق حب الدنيا ، وحب الدنيا عبر الله عنه بكلمة " **في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا** " أحياناً المنافق لسببٍ أو لآخر يستمع إلى خُطبة أو يجلس في مجلس علم إذا انفض المجلس لو سألته عن كلمة واحدة أُلقيت في هذا المجلس .. لا يتذكر .. عن آية واحدة ، عن تفسير حديث واحد ، عن محور الدرس ، عن عنوان الدرس.. لا يتذكر.. ، إذا خرجوا من عند رسول الله قالوا ما قالَ آنفاً ؟ والله لا أتذكر ، لم نفهم شيئاً .. فربنا عز وجل وصفهم فقال " **صم بكم عمي فهم لا يرجعون** ".

يقول الحجاج مرة : رأى شخصاً يصلي قاعداً في دكانه وهو يبيع بعض الأواني ودكانه سقفُها مرتفع وعنده سلّم وهناك رفوف بعضها فوقَ بعض فقالَ له بالله عليك هذا الإناء .. اختار أعلى واحد .. أرني إياه بنشاط وضع السلّم وصعد وجاء به ، قال لا ليس هذا الذي بجانبه فصعد وجاء به .. أراد الحجاج أن يمتحن صدقه مرتين وثلاثة وأربع مرات وهو يصعد ويهبط .. بعدئذ قال : تُصلي قاعداً في دكانك وأنتَ في البيع والشراء نشيطٌ جداً .

أيام الإنسان يقول لك الإمام طولها يعني يكون قد قرأ آية زيادة توقفه على باب الجامع تُحدثه ساعة على الواقف وأنتَ مبسوط .. ساعة .. استكثر آية يتلوها الإمام في صلاة الفجر زائدة ووقفَ ساعةً يحدثُك في حديث سخيف وهو لا ينزعج ..

فلذاك : المؤمن في المسجد كما يقولون كالسمك في الماء والمنافق في المسجد كالعصفور في القفص .. يعني .. متضايق ، " **صم بكم عمي فهم لا يرجعون** " من علاماتهم كما تعرفون :

إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾

(سورة النساء)

عن سالم بن أبي الجعد قالَ قالَ رجلٌ قالَ مسعر أُراه من خُزاعةَ ليتَني صليتُ فاسترحتُ فكأنهم عابوا عليه ذَلِك فقَالَ سمعتُ رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم يقُولُ يا بِلالُ أَقِم الصلاةَ أَرحنَا بِها *

(سنن أبي داوود)

عن الأسود قال سألت عائشة ما كان النبي صلى اللهم عليه وسلم يصنع في بيته قالت كان يكون في مهنة أهله تعني خدمة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة *

(صحيح البخاري)

إذاً : الذي يقوم إلى الصلاة كسلاناً **:**

إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾

(سورة النساء)

هذه صفةٌ ليست طيبةً في حق المسلم ، ذكره ـ قليل ، يعني إذا خُضتَ معـه فـي موضوعٍ دنيوي خاض فيه إلى قمة رأسه فإذا دخلتَ في موضوعٍ ديني ينظر لساعته ويقـول لك : تعذرني عندي موعد ، ساعة ونصف يستمع إليك بنهم ما دام الموضوع فـي التجـارة والمشاريع والاستيراد والتصدير وأسعار العملات أما إذا دخلتَ في موضوعٍ ديني اعتذر فوراً ..

فلذلك " **ولا يذكرون الله إلا قليلا** " المنافق مشكلته أنه يجعلُك في حيرة لا هو مـع المؤمنين فيقطفُ ثمار الإيمان ولا هو مع المنافقين مع الكُفار فتظنه كافراً وتستريح منه .

يعني .. أحياناً تجد طالباً لا يدرس فلو دخل في صنعة كان قد تعلمها وكان قد أتقن الصنعة لكان خيراً له .. فالطالب ليس بطالب .. وقته معطّل ليس بطالب ليتعلّم ويأخذ شهادات عليا ويتفوق ويصبح طبيباً ، محامياً ، مهندساً ، مدرساً ، ولا هو إنسان أتقن عملاً يكسب منه رزقه :

مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾

(سورة النساء)

لو كان مؤمناً صادقاً قطف ثمار الإيمان شعر بالراحة فتيسرت أمـوره وتجلـى ا ُ على قلبه وألقى ا ُ في قلبه نوراً شعر بطمأنينة ، حياته سعيدة ، بيته سعيد ... ولو كان كافراً لانطبق عليه قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾

(سورة الأنعام)

يعني .. خُذها وخلصني " لا هو من المؤمنين فيقطفُ ثمار الإيمان ولا هـو مـن الكافرين حتى يخرج من العناية المشددة .. يعني .. البارحة حضرت مولداً .. رجل أُصـيب بحادث سير وقُطعت يده بهذا الحادث بعد أن شُفي من الأعراض الجانبية من هذا الحادث أُقيم له مولد جيد فألقى فيه بعض العلماء كلمات فأنا خطر في بالي هذا المعنى لو أن شابين واحـد طالب مدرسة والثاني بلا دراسة وبلا عمل طالب المدرسة إذا تأخر يحاسب ، إذا لـم يحفـظ الدرس يحاسب ، لم يكتب وظيفة يحاسب ، نسي الكتاب يحاسب ، مرة أحضر والدك ، مـرة وقّع تعهد ، مرة قف خارج الدرس ، ..... فهو يشكو همه لهذا العاطل عن العمل فقالَ له أنا أعوذ بالله من يجرؤ على محادثتي لا أحد يقول لي أحضر والدك أو اعمل تعهد ولا شيء أبداً .. لكن يوجد جواب لطيف كثيراً .. أنتَ خارج المدرسة ، هذا مستقبله معروف .. هذا طبيب آخرته ..

فلما الله عز وجل يهملُ الإنسان تجده يزداد قوة ومنعة وغنى وهـو غـارق فـي المعاصي يفتخر ليس فيه مرض وليس عنده مشكلة وشغله جيد فهذا الشاب الذي لا في العيـر ولا في النفير، لا في التعليم ولا في المهن ولا في الحرف .. سائب .

يعني قد تكون بعض العبارات قاسية لكنها معبرة .. دابة سائبة ..لا قيد يقيدها ، ولا قانون يحكمها ، ولا قيم تُقيمها ، ولا شرع يهتدي به ، ولا كتاب يطيعه ، يفعلُ ما يشاء بـلا حساب.

فلذلك : الإنسان إذا شعر أن الله يتابعه وأن الله يحاسـبه علـى حركاتـه وسـكناته وخطواته فهذه من نعم الله الكُبرى .. أنتَ في العناية المشددة .. " قالَ له : عظني ولا تُطل .. قالَ له : قُل آمنت بالله ثم استقم ، قالَ أُريد أخفَ من ذلك هذه ثقيلة فقالَ لـه : إذاً فاسـتعد للبلاء .. " فالمؤمن مبتلى .

في قصة غريبة جداً ، في صحابية لها زوج لم يمرض مرة بحياته ، لا مرض ولا مشكلة ، والمال بين يديه موفور ، وصحته طيبة ، فخافت أن يكون منافقاً ، فـذهبت إلـى النبي لتشكُوه ، لا تُريد هذا الزوج غير معقول أن يكون مؤمناً !!! المؤمن مبتلى ، يحاسـب ، يعاتب ، مرة يمرض ، مرض يتألم ، مرة يضيق الله عليه .

قال يا محمد : أتُحب أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً ؟ قال : بل نبياً عبداً أجوع يوماً فأذكُره وأشبع يوماً فأشكره .. هذا لا يوجد به شيء لا وجع رأس ولا ألم ولا هم ولا حزن .

فذهبت زوجته إلى النبي لتشكوه ولعلّها تبعد عنه وكان في رفقتها وقع في الطريق فتعثرت قدمه فقالت ارجع انتهى الأمر .. يعني .. أصبحتَ مبتلى .. فالمؤمن ضمن العناية المشددة ..

يعني .. ا عز وجل لما يحاسبك في الدنيا .. هكذا ورد في بعض الأحاديث أن النبي عليه الصلاة والسلام زار أحد أصحابه وكان مريضاً ، قالَ يا رسول ا ادع ا أن يرحمني فيبدو أن النبي سألَ ا أن يرحمه فقالَ ا عز وجل كيفَ أرحمه مما أنا به أرحم وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أُحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان قد عملها سقماً في جسده أو إقتاراً في رزقه أو مصيبةً في ماله أو ولده حتى أبلُغَ منه مثلَ الذر فإذا بقي عليه شيء شددتُ عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أُمه .

أنا أقول لكم وا وأنا صادق في هذا الكلام : إذا أحدكم يتابعه ا عز وجل . .. يتابعه تماماً .. كُلما زلّت قدمه جاء العقاب وا ليفرح لأنه في العناية المشددة ، وإذا رأى نفسه يسيء ولا يحاسب معناها ليحزن لأنه خارج العناية المشددة تماماً كهذا الذي يقول : أنا لا يتكلم معي أحد ولا كلمة .. أنتَ خارج المدرسة ، أنتَ فلتان طبعاً لا يوجد هناك من يحاسبك ، فالمنافقون مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء :

﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا 

(سورة النساء)

المنافق إذا كان له قضية .. يعني قضية تجارية خصومة تجارية ، دين ، عنده حاسة سادسة إذا كانت تُحل عند العلماء .. يقول أنا يا أخي أُريد الشرع لأن القانون يجوز أن يكون ضده أما الشرع معه ، تجده يريد العلماء .. أخي أنا أُريد حكم ا .. ، وأحياناً يشعر بالحاسة السادسة أن الشرع ليس معه أما القانون معه .. يقول أنا أُريد المحكمة .. نحن في بلد فيه محاكم ..... فدائماً يلاحق مصلحته إذا تُحل قضيته مع الشرع صار مع الشرع ، تُحل مع القانون صار مع القانون ، هذه أيضاً صفة من صفات المنافقين :

ﭐلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ
وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ
عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

(سورة النساء)

نحن معكم ... نحن منكم وفيكم ، المنافق طليق اللسان ، يعني أحياناً عنده قوة إقناع ، فصيح أحياناً .. قالَ تعالى :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي
قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾

(سورة البقرة)

" **ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا** " بالمناسبة .. وهذه القصة التي أقولها لكم وأنا أُعدها من أخطر القصص .. لو كنت طليق اللسان وعندك بيان ، عندك قوة إقناع واستطعت أن تنتزع حكماً لا من فُلان أو علان لا من شيخ أو غير شيخ .. أن تنتزع حكماً لصالحك من فم رسول الله .. وهل أعظم من رسول الله .. من فم الصادق المصدوق ، من فم المعصوم ، من فم سيد الخلق ، من فم حبيب الحق ، ولم تُكن على الحق لا تنجو من عذاب الله والدليل قول النبي عليه الصلاة والسلام :

عن أُم سلمةَ رضي اللهم عنها أَن رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم قالَ إنكم تَخْتصمون إلي ولعل بعضكم أَلحن بحجته من بعض فمن قضيتُ له بحق أَخيه شيئًا بقوله فإنما أَقْطع له قطعةً من النار فلا يأْخُذْها *

(صحيح البخاري)

ما قولكم .. علاقتك مع من ؟ مع الله عز وجل .. لا تنجو .. فالذي يريد فتوى من فُلان ففتى لك ولو النبي فتى لك .. لو لم تكن على الحق واستصدرتَ من النبي فتوى لا تنجو من عذاب الله .. هذا من ضعف الإيمان ، من الشرك الخفي الإنسان إذا أخذ فتوى .. يقول أخي إن شاء الله يتحمل وزرها في هذه الحال لا تنجو أنتَ من عذاب الله ، لو استصدرتَ فتوى من زيد لو استصدرتها من رسول الله لا تنجو وهذا الدليل القطعي ... قال :

وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾

(سورة البقرة)

المنافق مفسد .. معنى مفسد : يعني الشيء يخرجه عن طبيعتـه. المـاء .. المـاء طاهر لا لون له ، لا رائحةَ له ، لا طعم له ، هذه صفاته ، ما معنى إفساد الماء ؟ تلويثـه .. أخرجته عن طبيعته ، هذه الفتاة طاهرة ، نقية ، شـريفة ، خجولـة ، صـاحبة حيـاء ، إذا أخرجتها من حيائها ، أخرجتها من عفتها ، أخرجتها من صونها .. فسدت .. بـأي غطـاء تحت اسم : مشاركة أو المرأة نصف المجتمع أو .... المنافق مفسد وهو لا يشـعر ... " **وإذَا تَولى سعى في الأرض لِيفْسد فيها ويهلك الْحرثَ والنسلَ والله لا يحب الْفَساد** " .

أحياناً يفسد فتاة وقد تكون ابنته ، يقول لك ُأحب أن ُأربي ابنتي تربية استقلالية لهـا أن تفعل ما تشاء وأن تُصاحب من تشاء وأن تأتي متى تشاء .. هكذا التربية الحديثة يقول لك ، لما أطلقتَ لها العقال وانطلقت كما تشاء وهي ضعيفة الإيمان فربما أغواهـا فتـى ، ربمـا جرتها فتاة إلى مكانٍ لا يرضي ا عز وجل أنتَ أفسدتها .

لذلك الجواب يوم القيامة تقولُ له ياربي لا أدخلُ النار حتى ُأدخلُ أبي قبلي هو الذي أفسدني ، يعني .. إن رأى ابنه لا يصلي ولا يستقيم لكنه متفوق في دراسته يكـون مرتاحـاً تماماً ، يريد مستقبله الدنيوي فقط حتى إذا أرسله إلى بلد أجنبي ليتعلّم اللغة ولا يحفلُ بما يفعله في هذا البلد من موبقات .. المهم أنه عاد متمكناً من اللغة .. هو يفسد .. قد يفسد بين شريكين ، بين أخوين ، بين جارين ..... على كُلٍ إفساد الشيء أن يخرج عن صلاحه .

إذاً : " **وَإِذَا تَولى سعى في الأرض لِيفْسد فيها ويهلك الْحرثَ والنسلَ والله لا يحب الْفَساد** " المنافق لا يرضى بحكمِ ا عز وجل والدليل :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾

(سورة النساء)

لا يقبل حكم ا ِ عز وجل لأن شهواته تغلبه .. والمنافق يشعر أنـه غيـر مصـدق فأحياناً يلقي كلامه ويدعمه بالأيمان المغلّظة ِلم اليمين ، ِلم تحلف ، من يكذبك ؟ يشعر أنه غير مصدق ، ليس نظيفاً من الداخل ، ليس صافياً ، قال :

ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ 

(سورة المنافقون)

النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا غزا وعاد من غزوته يجلـس لسـماع أعـذار المؤمنين .. في أُناس تخلّفوا .. فمرة عاد من غزوة واصطف المخلفون وسمع أعذارهم واحداً واحداً كُلٌ واحد أقسم أيماناً مغلّظةً أنه كان مشغولاً ، أنه كان مريضاً ، زوجته مريضـة ... استمع إلى سبعين رجل ثم جاء مؤمن صادق قالَ وا ِ يا رسول ا : حينما دعوتنا إلى الجهاد ما كُنتُ في وقت أنشطَ من هذا الوقت ولكنني تخلّفت فالنبي الكريم تبسم وقال : أما هذا فقـد صدق .. معناها السبعين كانوا كاذبين وأما هذا فقد صدق ، وهذا الذي مع رفاقه الاثنين الذين أمر ا ُ عز وجل بمقاطعتهم خمسين يوماً ثم تاب ا ُ عليهم ..

كُن صادقاً مع ا ، كُن صادقاً مع نفسك ، أما الكذب سهل لكن إذا كذبت سـقطت من عين ا وانتهى الأمر **:** " **اتخَذُوا أَيمانَهم جنةً فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كـانُوا يعملُون** " قال :

۞وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤

(سورة المنافقون)

يعني :

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾

(سورة البقرة)

أما في أمور دنياهم متفوقون .. يعني .. أيام الإنسان يكون ا قد أعطاه هيئة ، طول، فخامة ، لون ، عيون واسعة ، جبهة عريضة مثلاً ، طليق اللسان ، أنيق جداً ... ما قيمةُ هذا ؟ " **وإذا رأيتَهم تُعجِبك أجسامهم وإن يقُولُوا تَسمع لِقَولِهم** " مثقف ثقافة عالية يتفلسف عليك دائماً أما عند ا " **كأنهم خُشُب مسندةٌ يحسبون كُل صيحة عليهم هم العدو فاحذَرهم قاتَلهم الله أنى يؤفكون** " .

الأحنف بن قيس كان قصير القامة ، أسمر اللون ، غائر العينين ، ناتئَ الوجنتين ، مائِلَ الذقن ، أحنفَ الرجل ، ضيقَ الجبهة ، ليس شيء من قُبح المنظر إلا وهو آخذٌ منه بنصيب وكان مع ذلك سيد قومه إذا غَضب غَضب لغضبته مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غَضب ، وكان إذا علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه .

مرة كان عند معاوية ابن أبي سفيان رضي ا عنه يأخذُ لابنه يزيد البيعة فتكلّم الناس في مدح يزيد وبقي الأحنفُ صامتاً فصمته أحرج المجلس قالَ تكلّم يا أحنف .. قالَ أخافُ ا إن كذبت وأخافُكم إن صدقت فكان تلميحاً أبلغَ من تصريح وكان مع ذلك سيد قومه إذا غَضب غَضب لغضبته مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غَضب .

إذاً : الأمور الشكلية الظاهرية لا قيمةَ لها عند ا ِ أبداً ..

عن أبِي هريرةَ أن رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم قالَ رب أشعثَ مدفُوعٍ بِالأبوابِ لو أقسم على الله لأبره *

(صحيح مسلم)

مرة ، شخص قال لي أنا عملي قذر .. فعلاً عمله قذر .. لكن غني من أهل اليسار ، بعد يوم اضطررت أن أُصلح مركبتي عند إنسان مؤمن فهو مرتد لِباساً لونه أزرق من الشحم والوحل صار أسود أتقن عمله وأخذَ سعراً معتدلاً .. قُلت وا هذا عمله نظيف .. وذاك عمله قذر .. أحياناً يكون وضعك خَشن جداً متعب لكن يوجد استقامة ، يوجد صدق ، في إخلاص ، في انضباط ، في طاعة عز وجل ، فأنتَ عند ا ِ عظيم ..

" رب أشعثَ أغبر ذي طمرين مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على ا ِ لأبره " ، " **وإذا رأيتَهم تُعجِبك أجسامهم وإن يقُولُوا تَسمع لِقَولِهم كأنهم خُشُب مسندةٌ** " ، المنافق .. إذا كان المؤمن أصابه خير يحزن ويتألم جداً ..

﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ٥٠﴾

(سورة التوبة)

.. المنافق يحب أن يحكى على المؤمن ، يحب أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين .. يقول ألم أقل لك كله خاط ، كله هراء .. يتمنى بدعوة إلى ا أن تتحطم ، يتمنى إنسان مؤمن فـي موطن إعجاب الناس يحكى عليه .. "**إن تُصبك حسنَةٌ تَسـؤْهم**" دائماً يتربص بالمؤمنين فإذا أصابهم الخير تألم جداً وإذا أصابهم الشر ارتاح .. إذاً هو ليس منهم هو في خندق آخر ، مـا دام فَرِح لما أصابهم وتألم لِما يسرهم إذاً هو في خندق آخر ... قال :

﴿۞وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦﴾

(سورة التوبة)

المنافق مادي .. إذا أنفقت مالاً أمامه يقول لك يلا جنون حافظ على المال وأبقيـه لك ، إذا خدمت إنساناً يقول لك ما لك ، ما يأتيك منه .. يثبط عزيمتك دائماً .. كالجمر يصب عليه ماء، تكون متقداً حماساً وتُحب أن تعين الناس .. يقول : اجلس في بيتك واسترح ما لك والناس ليس منهم سوى وجع الرأس ، إن أنفقت أمامه اتهمك بالجنون احفظ على قرشك أبقيه معك :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٤٧﴾

(سورة يس)

هذا قول الكافرين أيضاً .. قال :

لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

(سورة التوبة)

.. المنافق يضعف العزيمة ، يثبط الهمم ، يجعل المادي أزكى ، والمؤمن المندفع لخدمة الخلق يجعله أحمق ، فدائماً تجلس معه ترى نفسك صغيراً أمامه ، هو مادي صاحٍ يقول .. أخي أُريد أن أُدين .. لا تُدين أحد أخي العملة تنزل أسعارها فتخسر أكثر .. فيمنعك أن تُدين ، يقول لك الآن يوجد تضخم نقدي ١٧% كل سنة كيف تُدين نقودك ؟ لسنة ذهب خُمس مالك .. فدائماً ضعيف الهمة ويضعفُ همةَ الآخرين ، إذا قال لك أنا أُصلي الصبح حاضر بالمسجد يقول لك وا يا أخي بالليل لا تخرج من بيتك أنسب لك أنا أنصحك يريدك ألا تُصلي بالمسجد ، إن حضرتَ الدرس أخذوا اسمك .. يعني .. همه أن يخوفك ، همه أن يضعف لك همتك ، همه أن يبعدك عن الحق ، همه أن يمنعك من إنفاق المال ، لو ساعدت إنساناً فيحب أن تبتعد عن هذه المساعدة..

لذلك ا عز وجل قال " **لو خَرجوا فيكُم ما زادوكُم إلا خَبالا ولأوضعوا خلالكُم يبغُونَكُم الْفِتْنَةَ وفيكُم سماعون لهم والله عليم بالظالمين** " المنافق يكره حكم ا قال :

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٩﴾

(سورة محمد)

يعني .. يحب الاختلاط ، ما هذه خُذ طريق ويا ا ما هذه .. أين تعيشون أنتم ، هل سنأكل زوجتك يقول له .. يكره حكم ا عز وجل " **ذَلك بِأنهم كَرهوا ما أَنزلَ الله فَأحبطَ أَعمالهم**" .

الحقيقة : أن سورة التوبة كما قلتُ قبلَ قليل وسورة "المنافقون" على الحكاية .. هاتان السورتان فيهما وصفٌ دقيقٌ دقيق لأحوال المنافقين فلذلك نحن .. إذا قرأنا هاتين السورتين واستنبطنا بعض الآيات التي تصفُ المنافقين كما يسألُ المريض الطبيب : أعطني قائمةً بالممنوعات حتى لا أتورطَ فيها أبداً .. والمؤمن كذلك ..

يعني : أدق موقف للمنافقين .. أدق موقف يوم القيامة في سورة الحديد الآيـة ١٣، المنافق كان مع المؤمن في الدنيا في جامع واحد، في حجٍ واحد ، يعني مظهره كالمؤمن تماماً فيوم القيامة كما قالَ ا عز وجل :

يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾

(سورة الحديد)

فتنتم أنفسكم في الدنيا ، وتربصتم بالمؤمنين ، تتمنون أن يأتيهم الشر ، وارتبتم بكتاب ا ، وغرتكم الأماني كانت الدنيا تملأ قلوبكم حتى جاء أمر ا ـ وهو المـوت وغـركم بـا ـ الغرور فاليوم لا يؤخذُ منكم فديةٌ ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير .. موقف مؤلم جداً .. ألم نكن معكم .. يعني لما النبي عليه الصلاة والسلام :

حدثني القاسم بن محمد بن أبي بكر أن عائِشَةَ رضي اللهم عنها قالتْ قالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم تُحشَرون حفاةً عراةً غُرلا قالتْ عائِشَةُ فقُلْتُ يا رسولَ الله الرجالُ والنساء ينْظُر بعضهم إلى بعض فقالَ الأمر أشَد من أن يهمهم ذَاك *

(سنن النسائي)

عن عائِشَةَ أنها ذَكَرت النار فبكتْ فقَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم ما يبكيك قالتْ ذَكَرتُ النار فبكَيتُ فهلْ تَذْكُرون أهليكُم يوم القيامة فقَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم أما في ثَلاثَة مواطن فلا يذْكُر أحد أحدا عنْد الميزان حتى يعلَم أيخف ميزانُه أو يثْقُلُ وعنْد الكتَاب حين يقَالُ (هاؤُم اقْرءوا كتَابِيه) حتى يعلَم أين يقَع كتَابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظَهره وعنْد الصراط إذَا وضع بين ظَهري جهنم *

(سنن أبي داوود)

يعني في هذه المواقف الثلاث لو وقعت عين الأم على ابنها لا تعرفه لِهول الموقف ، ا عز وجل قال :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا
تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى
ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴿٢﴾

(سورة الحج)

ما قال كُلُ مرضعٍ ، لو قال كُلُ مرضعٍ .. يعني .. امرأة تُرضع ابنها في طور الإرضاع أما " **كُل مرضعة** " ابنها على ثدييها تلقيه وتهرب .

يوم القيامة لو وقعت عين الأم على ابنها لا تعرفه ، قال فإذا وقعت عين الأم على ابنها في غير هذا الموطن .. غير الصراط والميزان وإذا الصحفُ نُشرت .. تقول له يـا ابني جعلتُ لك صدري وسقاء وحجري وطاء وبطني وعاء فهل من حسنة يعود علي خيرها اليوم ؟ يقول لها ابنُها : ليتني أستطيع ذلك يا أُماه إنما أشكو مما أنت منه تشكين .. هنـا الموقـف مؤلم " **ألم نكن معكم** " ، " **انظُرونَا نَقْتَبِس من نُورِكُم** " يعني حسنة ، " **قيلَ ارجِعوا وراءكُم فَالتَمسوا نُورا** " في الدنيا كُنتم غافلين ، " **فَضرب بينَهم بِسور له باب باطنُـه فيـه الرحمـةُ وظاهره من قبله العذاب " ، " ينَادونَهم أَلم نكُن معكُم قالُوا بلى ولكنكُم فَتَنْتُم أَنْفُسـكُم** " هنـا وصف المنافقين دقيق " **فَتَنْتُم أَنْفُسكُم وتَربصتُم** " يتمنون أن يأتيهم الشر ، وارتبتم بما جاء في كتاب ا كلام ا ِ ليس ملء سمعك وبصرك ، "**وغَرتْكُم الأماني** " في بالك أحلام .. بيـوت ومراكب ونساء وحدائق غناء وسفر حولَ العالم ورصيد كبير .... تنام فيأتي ببالك خـواطر من هذا النوع ، " **وغَرتْكُم الأماني حتى جاء أَمر الله** " الموت ، " **وغَـركُم بِاللاـه الغَـرور** " الشيطان ، يقول لك أنتَ لستَ من أُمة محمد .. هذه أُمته مرحومة .. النبي لن يـدخُلَ الجنـة حتى يدخلَ كُلَ أُمته قبله ، تطمئن .. الشيطان أسماه ا الغَرور لأنه يغُر المنافق ويمنّيه :

وَقَالَ ٱلشَّيۡطَـٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ
فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ
لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم
بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ
أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾

(سورة إبراهيم)

والمنافق الشهير ثعلبة الذي كان حمامةَ المسجد وكانت لا تفوته تكبيرةُ الإحرام خلفَ سيد الأنام ، رآه النبي مرةً بثوبٍ بالٍ قالَ كيفَ حالُك يا ثعلبة ؟ قالَ حالي كما تراني .. " ما هذه الحياة ؟ " .

تجد المؤمن : الحمد ويكون عاطلاً عن العمل ويكون عنده أمراض بجسمه فيقول الحمد .. تجد شخصاً يقول لك : الحياة لا تُعاش ما هذه الحياة ... دائماً ناقم ... قال له حالي كما تراني ، قالَ له يا ثعلبة قليلٌ تشكره خير من كثيرٍ يطغيك ، قليلٌ يكفيك خير من كثيرٍ يطغيك فقالَ له : ادع ا أن يجعلني غنياً .. ألح عليه كثيراً فتوجه النبي عليه الصلاة والسلام إلى ا عز وجل ودعا له بالغنى .. هذا كثُرت أمواله وملأ قطيع أغنامه شعاب المدينة وصار غنياً وغاب عن مجالسِ النبي عليه الصلاة والسلام .

بصراحة أقولها لكم : أحياناً يكون الإنسان بلا عمل لا يغيب عن درس فإذا وجد عملاً صغيراً لم نعد نُشاهده .. أين أنت ..؟.. وا مشغول يا أستاذ .. لا يجوز هذا ، هذا مجلس علم .. حبذا ولو أنتَ في قمة انهماكك في العمل أن تُحافظَ على مجالس العلم ، غاب عن المسجد فالنبي أرسلَ له من يطالبه بزكاة مالِه فقالَ له : قُل لصاحبك .. قالَ أو ما تراه صاحباً لك ؟ ليس في الإسلامِ زكاة .. قالَ : جمعتَ مع النفاق الكفر .. نزلَ في حقه قوله تعالى :

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾

(سورة التوبة)

يا رب إذا أكرمتني فلسوفَ أعمل كذا ، هذا المنافق يريد أن ا يكرمه ، يعطيه بيتاً ، يجعله تاجراً ، ربنا عز وجل يعطيه ما يريد فإذا هو ينكثُ عهده مع ا عز وجل .

هذه الصفات وا   مخيفة أيها الأخوة فأرجو ا َ سبحانه وتعـالى أن نسـتوعبها وأن نخافَ من أن تنطبقَ علينا كما نخافُ مرضاً عضالاً لأن المرض العضال ينتهي مع الموت ، ولكن هذا المرض النفسي يبدأُ بعد الموت .

والحمد ِ ربِ العالمين

* * *

بســـم الله الرحمن الرحيم

مع الدرس التاسع والعشرين من دروس مدارج السالكين في مراتب إياك نعبد وإياك نستعين ، ومنذ أسابيع عدة بدأنا بعض الموضوعات المتعلقة بأنواع المعاصي ، تحدثنا عن أن تقولَ على ا ِ ما لا تعلم ، وعن الفحشاء والمنكر ، وعن أنواع الفسق ، وعن أنواع النفاق، وعن بقية المعاصي ، واليوم الحديثُ عن الكُفر .

الحقيقة : من الأمراض الخطيرة الوبيلة التي اُبتلي بها المسلمون أن بعضهم يكفّـر بعضاً، والتكفير شيء خطير وشيء كبير ، ومن كفّر أخاه فقد كفر ، أن تقول فُـلان مـؤمن وفُلان كافر ، أن توزع الألقاب هذا ليس من شأن الإنسان هذا من شأن الواحد الديان ومع ذلك فالذي أتمناه من كُل قلبي أن تتضح لكم الصورة الدقيقةُ حولَ معنى الكُفر.

مرةً ثانية وثالثة أقول : من السذاجة وضيق الأفق والجهـل الفاضـح أن تظـن أن للكلمة في القرآن معنى واحداً وأوضح مثلٍ على ذلك كلمة الوحي فا سبحانه وتعالى أوحـى إلى الأرض أي أمرها ، وأوحى إلى النحل أي أعطاها الغريزة ، وأوحى إلى اُم موسـى أي ألهمها ، وأوحى إلى النبي عليه الصلاة والسلام أي أرسله رسولاً وأنزلَ عليه القـرآن عـن طريق سيدنا جبريل .

وكذلك الشرك هذا المصطلح يضيق حتى يكون الشرك الأكبر الذي يعبد بوذا ، ويتسع حتى يشملَ المؤمن إذا اعتمد على زيد أو عبيد ونسي ا عز وجل فهناك شرك أكبر وهناك شرك أصغر الشرك الأكبر لا يغفر والشرك الأصغر يغفر .

كلمة شرك تتسع وتضيق ، وكلمة فسق كما تحدثنا في درسٍ سابق : هنـاك فسـقٌ يخرج من الملّة ، يخرج من دين الإسلام وهناك فسقٌ يوجِب التوبة ، والنفاقُ نفاقٌ أكبر ونفاقٌ أصغر وكذلك الكُفر.

هذه المصطلحات الدقيقة في القرآن تتسع معانيها وتضيق وسياقُ الآيـات وسـياقُ الأحاديث الشريفة هو الذي يحدد اتساع المعنى أو ضيقه .... أستخدم أحياناً بعض الأمثلة كلمة .. سيارة .. مفهوم السيارة يتسع إلى أن يشمل الدابة ، أليست تسير ؟ كلُ شيء يسير سـيارة والدليل:

وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩

(سورة يوسف)

ويضيقُ مفهوم السيارة حتى ينحصر في مركبة تتحرك بمحرك انفجاريٍ يعملُ على الوقود السائل .

من السذاجة .. من ضيق الأفق .. من الجهل الفاضح أن تفهم الكُفر على حد واحد .. من ترك الصلاةَ فقد كفر ، فلان لا يصلي .. كافر .. ، من ترك الصـلاةَ إنكـاراً لحقهـا .. انكاراً لفرضيتها فقد كفر ، ومن تركها تهاوناً فقد فسق ، وفرقٌ كبير ، لأن الذي يموتُ كافراً مخلّد في النار ... أكبر تُهمة توجهها إلى الإنسان على الإطلاق .. أن تقول فُـلان كـافر .. كأنك تقولُ له أنتَ خالد مخلّد في النار ، فالإنسان قبلَ أن يتفوه بكلمة كُفر ، وقبلَ أن يكفّـر ، وقبلَ أن ينصب نفسه وصياً على الناس ، وقبلَ أن يقيم الناس عليه أن يعرف أن ... هذا شيء فوقَ مكانته لقول ا ِ عز وجل :

وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧

(سورة الإسراء)

هذه مقدمة ..... ودائماً وأبداً ضعاف التفكير محدودين الأفق عندهم لونـان فقـط : أبيض وأسود ، إما أنه كما قُلتُ في الدرس السابق .. إما أنه قُطب زمانه ، وحيد دهره ، فلتةُ عصره ، نجم متألق ، علّم كبير رضي ا ُ عنه وأرضاه ...وإما الشيخُ الأكفر كما يقولـون .. يعني .. لا تبتعدوا كثيراً : عالِم جليل نعته بعضهم بأنه سلطان العارفين الشيخ محـي الـدين ونعته بعضهم بأنه الشيخُ الأكفر .. هذه الميوعة في المقاييس ، وهذه الحركة الواسعة جداً في التقييم ، هذا من علامات التخلّف ... دائماً الرجل له ميزات ، كلُ إنسانٍ يؤخذُ منه ويرد عليه ، وأنتَ قيمتك كمؤمن أنك منصف ومعنى أنك منصف أنك كما قالَ عليه الصلاة والسـلام : " لا يخرجك الرضا عن العدل ولا تُوقعك الكراهيةُ في الظُلم " .

يعني كما قالَ عليه الصلاة والسلام : " أُمرتُ أن يكون صمتي فكراً ، ونُطقي ذكراً ، ونظري عبرةً ، أن أصلَ من قطعني ، أن أعفو عمن ظلمني ، أن أُعطي مـن حرمنـي ، أُمرتُ بالقصد في الفقرِ والغنى ، وكلمة العدل في الغضبِ والرضا "

ألم يرد في الأحاديث الشريفة أن الشرك أخفى من دبيـب النملـة السـوداء علـى الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، وأدناه أن تُحب على جور ... يعني .. لك صديق جائر ، منحرف لكنك تُحبه ، لك معه مصالح ، تأتيك منه مكاسب ، تحبه وتعلم أنه يجور على بعض الناس .. فهذا شرك .. وأن تُبغض على نصيحة .. إنسان نصحك وهو صادق ومخلص لكنـه جرحك فكرهته وحقدتَ عليه .. هذا شرك ..

قبلَ أن ندخل في تعريف الكُفر .. الذي أتمناه على كُل أخٍ كريم أن ينحي نفسه جانباً عن تقييم الناس وعن تنصيب نفسه وصياً عليهم وعن توزيع الألقابِ والتُهم على الناس وكأنه لا يخطئ وكأنه معصوم وكأنه هو الأصل وهو المقياس وكأنما عليه هو الدين وما سوى ذلك لا شأن له بهم ... ليس معنى كلامي هذا أن ترى إنساناً يشرب الخمر لعلّه ولـي كبيـر ... لا... هذا جنون ، أن ترى إنساناً غارقاً في المعصية .. تقول لا نعرف يا أخي ا جعل سره في أضعف خلقه .. لا .. هذا اضطراب في المفاهيم ، المعصية معصية ، والخمـر خمـر ، والزنى زنى ، فلان لا يصلي ما نعرف لعله رفع عنه التكليف .. ما هذه السحبة ؟ لا يصـلي لا يصلّي هذا تارك الصلاة ، شارب خمر ، زانٍ ، أما أن تُعطي لإنسان عاصٍ هالة ومكانـة وتقول قد يكون ولياً .. هذا انحراف ، أن تُكفّر إنساناً بصغيرة هذا انحراف ، وأن تُصيغَ على إنسان الولاية وهو مقيم على معصية هذا انحراف ، هذا انحـراف وذاك انحـراف ، نحـن مقياسنا الشرع لكن لو رأيتَ عاصياً تقول الآن فُلان يعصي لكن غداً لا أعلم لعلّه يتوب ولعلّه يسبِقُني ، هذا الموقف الأديب ، الموقف المنصف ، الموقف المعتدل ، والذي يدمى له القلب أن المسلمين على ضعفهم وعلى تفرّقهم متعادون ، يتقاذفون الـتُهم ، يتقـاذفون التكفيـر لأتفـه الأسباب .

يعني .. حسبك ببعض البلاد الإسلامية التي تتهم الإنسان بالشرك إذا هو زار النبي عليه الصلاة والسلام .. كلمة شرك أهون عندهم من شربة ماء .. مباشرةً مشرك ، إذا قال يا رسول ا .. مشرك ، إذا قالَ ياربي بجاه حبيبك محمد .. مشرك لقد أشركت .. ، إذا صـلّى وقال اللهم رب هذه الدعوة التامة .. قرأ الدعاء .. دعه .. ، إذا كان في مسجد قبر ونحـن لا نصلي إلى هذا القبر في زاوية ميتة من المسجد وبني قبلَ أربعمائة عـام .. هـذا الجـامع لا يجوز الصلاة فيه .. ، نحن أخطر شيء في الدين التطرف يميناً أو يسارا ، هذا الغلـو فـي الدين .. في غلو سلبي وفي غلو إيجابي ، فبينما أنتَ مع أُناس كُل شيء له فتوى مثلُهم كمثل أفسق البلدان يكفي أن تتصلَ امرأة تشعر بحاجة إلى رجل .. بأي رجـل .. هـذا الاتصـال

الهاتفي عقد زواج ، .. غلو ... فإما أن ترى أُناساً تحللوا من أحكام الدين وأصبح دينُهم يساير أي انحلالٍ وإما أن ترى أُناساً يكفرون على صغيرة ..

يعني إن أعطيته عطراً فيه كحول قفز وكاد يخرج من جِلده لأن هذا نجس .. هـذه نجاسة حكمية كما قالَ عنها العلماء " بل هي نجاسةٌ معفو عنها " هذا الكحول لو شربه الإنسان لَسكر فهذه النجاسة ليست حقيقية يطهر به ، فنحن آفةُ المسلمين في الغلو سلباً أو إيجاباً ، إمـا أن نُذيب أوامر الدين حتى يصبح الدين سائلاً يمكن أن يوضع في أي وِعاء .

.. في بعض البلدان يأتي الشيخ إلى العرس لِيبارك الزوجين والزوجةُ فـي أبهـى زينة كاسيةٌ عارية كما يفعل بعض رجال الدين الآخرون .. لا أُريد أن نُذيب أُمور الـدين .. الدين دين .. الدين مقاييس صلبة ، مقاييس جامدة صراط مستقيم ، أو أن نُكفّر الإنسان إذا قالَ يا رسول ا ، أو أن نُكفّره إذا انحرفَ انحرافاً طفيفاً ... فالتكفير يسـبب الأحقـاد .... هـذه المقدمة لا بد منها لبحث موضوع الكُفر ....

الكُفر عند العلماء نوعان : كُفر أكبر ، و كُفر أصغر .

فالأصغر موجِب لاستحقاق الوعيد دون الخلود في النار ، كُلُكم يعلم أنه يخرج مـن النار من كان في قلبه مثقالُ من خير ، فالكُفر الأصغر هو الذي يوجب الوعيد وعيد ا ِ عـز وجل ولكنه لا يخلد صاحبه في النار .. يخرج منها .. يقولُ عليه الصلاة والسلام فيمـا رواه الإمام مسلم والإمام أحمد عن أبي هريرة رضي ا ُ عنه :

عن أَبِي هريرةَ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم اثْنَتَانِ في الناسِ هما بِهِم كُفْر الطعن في النسبِ والنياحةُ على الْميت *

(رواه الإمام مسلم والإمام أحمد)

الآن النياحة على الميت : ضرب الوجه ، تمزيق الشعر ، شق الصـدر ، الولولـة .... هذه كُفر كما قالَ عليه الصلاة والسلام ، يقولون عن الميت الجسر تحطّم (أين ا عـز وجل) ... تسمع كلمات في مناسبات الحزن كُلُها كُفر .. جهل .. كأن هذا الذي تـوفي هـو الرزاق وهو القيوم ، وهو الحي الذي لا يموت ، كُل إنسان يموت .

فلذاك الاعتدال في الحزن من علامة الإيمان والمبالغة في الحزنِ من علامة الجهل ، سيدنا إبراهيم .. توفي .. كل أب يعرف ذلك ما في أجمل من طفل صغير وديع كالوردة إذا ارتفعت حرارته الأب لا ينام الليل .. توفي إبراهيم فنزلت دمعةٌ من عينِ رسول ا على خده قال له أحد أصحابه أتبكي يا رسول ا ؟ قالَ نعم إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقولُ ما يسخط الرب وإن عليك يا إبراهيم لمحزونون .

هذا عمل طبيعي ، من قال لك أن المؤمن لا يتألم لمصيبة هذا كلام فـارغ ، كـلام خيالي، كلام حالِم ، المصيبة مصيبة لكن المؤمن يتلقّاها بصدرٍ جميل يراها من عند ا عـز

وجل وما عند الله كُلّه خير ، أما النياحة والضرب والتمزيق ، تمزيق الثياب وضرب الوجـه وشد الشعر فاعتراض على القضاء والقدر...

قبل شهر تقريباً إنسان توفي فجأةً فذهبنا إلى أهله لنواسيه .. جاء أخوه وسب الـدين وقال لماذا يموت أخي قيمة هذا الرجل .. صفر مكعب .. كُلّ إنسان يموت ومن قال لـك أن الأجل على هوى الإنسان ففي عنْدنا كُفر أصغر يوجب استحقاقَ الوعيد لكن لا يخلد صـاحبه في النار .. اثنتانِ من ُأمتي بهما كُفر .. سأُوضح لكم الفكرة : أنتَ إذا كفرت بالخالق والرب والمسير والحكيم والعليم والرحمن الرحيم وكفرتَ برسول الله وبهذا القرآن ... هذا كُفر أكبر ، أما هذا الأمر لم تُطبقه لماذا ..؟.. لأنك لا تعرفُ قيمته فأنتَ كافر بهذا الأمر .. يعنـي .. الكُفر عدم تطبيق أمرٍ فرعيٍ من ُأمور الدين كُفر أصغر .. مثلاً إذا قالَ لك الله عز وجل :

وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

(سورة البقرة)

الآن أحضر لي واحداً مسلماً عنده بنت بسن الزواج جاءه خاطب شاب مؤمن مستقيم له مجالس علم يخشى الله يخاف الله في قلبه رحمة عنده إنصاف لكن منزله صغير فـي أحـد أطراف دمشق وعمله متواضع ودخله محدود ، ثم يأتي خاطب له معمل وله سيارة فخمة وله بيت واسع وشاب وسيم لكن لا يصلي يصلي الجمعة فقط وإذا أحرج بالمناسبات فيشرب .. .. إذا كانت أسرة مسلمة قالت هذا والله هذه الموافقة على زواج هذا الشاب الموسر الغني الوسيم رقيق الدين .. هذا كُفر بهذه الآية .. معناها أنتَ هذه الآية غير مؤمن بها .. لكن كُفر أصغر وليس أكبر الأكبر كفر بالله كفر بوجوده وبرحمته وبعلمه وبغناه وبقدرته وبكتابه وبرسوله .. كل الدين يشاهده على أنه خُرافة .. أفيون الشعوب .. حالات الضعف الإنساني تتمثل بالدين ، الإنسان ضعيف يحتاج إلى قوة يلتجئ إليها فهو توهم هذا الدين .. هذا كُفر أكبر .. أما المـال أغراه وغَلبته نفسه ورأى السيارة الفخمة والبيت الواسع والمعمل والشكل ... لكن لـيس فيـه دين .. يقول لك : سيهدى نحن إن شاء الله نأخذه إلى الجامع ، يفضلونه ويطمعـون بهدايتـه والخوف أن يغويهم هو ..... فلما الإنسان يختار زوجاً لابنته على غير مقياس الله عز وجـل أليس هذا كُفر بهذه الآية ، بهذا التوجيه ، بهذا الحكم ، بهذا المقياس ؟ طبعاً ، فنُفرق بين الكُفر

الأكبر الكُفر الشمولي الكُلي والكُفر الأصغر الذي فيه مخالفة لأمر إلهي والمخالفة هذه أساسها الإنسان غير قانع بحكمة هذا الأمر .. يقول لك سبحان ا أجد صعوبة في تطبيقه... هذا أحد أنواع الكُفر.

ويقول عليه الصلاة والسلام : " **عن أَبِي هريرةَ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم اثْنَتَانِ في الناس هما بِهِم كُفْرٌ الطعن في النسبِ والنياحةُ على الْميت** * "

(صحيح مسلم)

طيب من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزلَ ا ُ على محمد ، عندما ربنا قال :

قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾

(سورة النمل)

با ـ انظر لي بالفنجان .. ويتنبأ لك قبضة ، لك عدو ، شخص يريد أن ينفعك ، أنتَ حينما تسأله عن المستقبل فأنتَ كفرت بهذه الآية .. كلمة لا يعلم الغيب فأنتَ لستَ مؤمناً بها .. هذا كُفر لكن نستطيع أن نقول خرج من الملّة ، بجهنم خالداً مخلّداً ... غير معقول هذا الكلام .

ويقول عليه الصلاة والسلام :

عن جرير أَن النبِي صلى اللهم عليه وسلم قَالَ له في حجة الْوداعِ استَنْصت الناس فَقَالَ لا تَرجِعوا بعدي كُفارا يضرب بعضكُم رقَاب بعضٍ *

(صحيح البخاري)

يعني هذه الحروب وهذه المنازعات وهذه التفرقة وهذا التشتت والتشرذم والتبعثر كما يقولون ، وكُلٌ يدعي وصلاً بليلى وكُلٌ يتهم الآخر، هذا الوضع المتمزق هذا سماه النبي كُفر لكن كُفر بقوله تعالى :

وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

(سورة آل عمران)

كُفر :

وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

(سورة الأنفال)

كُفر بما دعا إليه النبي للمسلمين كالبنيان المرصوص ، لا تحسسوا ، لا تجسسـوا ، لا تنابزوا ، لا تدابروا ، لا تحاسدوا ، لا تنافسوا وكونوا عبـاد ا إخوانـاً .. أنـتَ هـذه الأحاديث لم تعبأ بها فأنت كافر بها:

إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

(سورة المائدة)

.. إذا لم تحكم بما أنزلَ ا فهذا كُفر بما أنزلَ ا ، إن لم تحكم في موضوع واحد بحكمٍ أنزلَ ا ُ فيه حكماً فقد كفرتَ بهذا الحكم وإن رفضتَ القرآن كُلّه فقد كفرت بالقرآن . . .

كما قلتُ في أول الدرس بين الأبيض والأسود آلاف الألوان الرمادية .. آلاف الألوان الرمادية .. الإيمان إيمان ، والكُفر كُفر ، وبينهما درجاتٌ شتى .

ابن عباس قال : ومن لم يحكم بما أنزلَ ا ُ فأؤلئك هم الكافرون ليس بكُفرٍ ينقلُ عن الملّة بل إذا فعله فهو به كُفر .. به بعض الكُفر هذا كلام ابن عباس ، وليس كمن كفـر بـا ِ واليوم الآخر قالَ عطاء هو كُفر دون كُفرٍ وظُلم دون ظُلمٍ وفسقٌ دون فسق .

هذا الكلام ليس معناه أن يطمئن الإنسان ، أنا أخافُ من التطرف إن نحو اليمين وإن نحو الشمال ، هؤلاء الخوارج الذين كفّروا لأصغر الذنوب انحرفوا ، وهؤلاء الذين تسـامحوا فقالوا : لا يضر مع الإيمان معصية أيضاً انحرفوا ، في فرقة تقول : لا يضر مـع الإيمـان معصية .. مادمتَ قد آمنتَ با فهذا الذي يفعله أن نصل إذا آمنتَ بالمسـيح فإنـه يخلّصـك انتهى الأمر افعل إذاً ما تشاء .

أما الكُفر الأكبر فهو خمسةُ أنواع : كُفر تكذيب ، وكُفر استكبار وكُفر إبـاء مـع التصديق ، وكُفر إعراض ، كُفر شك ، وكُفر نفاق . وكُل نوع له آيات خاصة به .

أما كُفر التكذيب : هو اعتقاد كذبِ الرسل .. يعني .. إذا اعتقد الإنسان أن الأنبيـاء أُناس أذكياء جمعوا الناس حولهم وابتدعوا هذه الكُتب من بنات أفكارهم وهدفُهم الزعامة ونيلُ المكاسب في الدنيا .. من اعتقد هذا الاعتقاد فقد كفر كُفر تكذيب .. لذلك أخطر شـيء فـي العقيدة أن تعتقد أن النبي يقرأ ويكتب .. إذا اعتقدتَ أن النبي يقرأ ويكتب ماذا فعلت؟ مهـدتَ الطريق لزعمٍ خطير وهو أن هذا القرآن من عنده ، قضية عبقرية وذكاء ، قضية تألُق ذُهن ، قضية بطولة ... كُفر التكذيب أيها الأخوة أن تعتقد كذب الرسل وهذا القسم قليلٌ فـي الكُفـار لماذا ؟ لأن ا َ أيد رسلَه وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة وأزالَ به المعذرة قالَ تعالى عن فرعون وقومه :

وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾

(سورة النمل)

قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾

(سورة الأنعام)

معناها لما النبي يمسك العصاة فإذا هي ثُعبان مبين السحرة خروا ساجدين هذا ليس سحر ، حينما يضرب البحر بعصاه فإذا هو طريقٌ عظيم هذا ليس بسحر ، فالله سبحانه وتعالى أيد أنبياءه بمعجزات خارقة وأيد النبي عليه الصلاة والسلام بهذا القرآن .. تلك المعجزة الخالدة على مدى الدهور .. كُنتُ أقرأُ هذه الآية الكريمة :

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

(سورة الرعد)

كانت تستوقفني كلمة ترونها " **الله الذي رفَع السماوات بِغَير عمد** " ترونها قيد معنى هذه السماوات التي رفعت بغيرِ عمد مرئية لكنها مرفوعةٌ بأعمدة غير مرئية .. هذا هو المعنى الدقيق .

وكُنتُ في هذا الأسبوع أُطالع كتاباً في الفيزياء عن الجاذبية لفتَ نظري في هذا الكتاب أن المؤلّف قال : هذه الشمس تجذب الأرض بقوى هائلة ولو أن الأرض تفلتت من جاذبية الشمس أو أن الشمس انعدمت فيها الجاذبية فجأةً ماذا يحصل ؟ هذه الأرض تنطلق في الفضاء الخارجي في متاهات الفضاء الخارجي حيثُ الظلام الدامس والحرارةُ التي كما قالَ عنها العلماء هي الصفر المطلق .. الصفر المطلق ٢٧٠ درجة تحت الصفر .. هذا فرضية علمية .. لو أردنا أن نربِطَ الأرض بالشمس بحبال من الفولاذ المضفور حتى تبقى الشمس مع الأرض تدور ، تصورنا فجأةً أن الشمس فجأةً انعدمت فيها قوى الجذب فالأرض إذاً لا ترتبط بالشمس بفعل قانون العطالة. هذا القانون لطيف جداً .. الأجسام المتحركة ترفض الوقوف .. والدليل إذا كُنت راكباً سيارة ومر طفل صغير واضطر السائق أن يستعمل المكبح فجأةً أنتَ تقفز من مقعدك لماذا ..؟.. لأنك جسم متحرك فلّما وقفت السيارة بفعل المكبح أنتَ رفضتَ أن تقف ودليل رفضك تابعتَ المسير .

لذلك لا بد من أحزمة الأمان .. لماذا نستخدم حزام الأمان ؟ لكي يبقى وجودك مرتبطاً بالسيارة حتى إذا توقفت فجأةً أنتَ بحسب قانون العطالة تتابع المسير ، والأجسام الساكنة ترفض الحركة فإذا ركبتَ مركبةً وانطلقت تشعر أن المقعد الخلفي يدفع ظهرك نحو الأمام لماذا ؟ لأنك ترفض الحركة ، لو أن الأرض تفلتت من جاذبية الشمس وانطلقت في

الفضاء الخارجي حيثُ الظلام الدامس وحيثُ انعدام الحركة والبرودة الشديدة والموت المحقق لو أردنا أن نُبقي الأرض مع الشمس قال لاحتجنا إلى مليون مليون كبل فولاذي قُطر كُل كبلٍ خمسة أمتار وهذا العدد مليون مليون لو برزت على سطح الأرض ووصـلت إلـى الشـمس بطول قدره ١٥٦ مليون كيلو متر لغطّت هذه الحبال فضاء الأرض ولرأيتَ بين الحبل والحبل مقدار حبل بالضبط ، لو زرعنا هذه الحبال على سطح الكرة الأرضية برها وبحرها لكان بين الحبلين حبلٌ فقط ولحجبت هذه الغابة من الحبال أشعة الشمس .

بالمناسبة : الميليمتر مربع من الفولاذ يقاوم مائتي كيلو شد والكبل الواحد من الفولاذ الذي قطره خمسة أمتار يقاوم مليوني طن ، فإذا احتجنا مليون مليون طن وكُل طن يقاوم قوى شد مليونين ، مليونين ضرب مليون مليون ، هل تصدقون أن كُلَ هذه الحبال مـن أجـل أن تحرفَ الأرض عن مسارها المستقيم ٣ ملم كل ثانية حتى ينشأ للأرض مساراً أهليلجي مغلق حولَ الشمس هذا معنى قوله تعالى " **الله الذي رفع السماوات بغير عمد** " لو أنهـا بأعمـدة مشكلة كبيرة جداً كُل خمسة أمتار يوجد كبل أين الأبنية وأين الشوارع وأين الحقـول وأيـن المزارع ..

إذاً : الكُفر الأكبر أن تعتقد كذب الرسل " **قد نعلم إنه ليحزنُك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونَك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** " .

الآن : كُفر الإباء والاستكبار .. يعني .. أحياناً مثلٌ مصغّر يكون أب فاسق منحرف شهواني دخله حرام ، يأتيه من صلبه ابن طاهر مستقيم .. يعني .. هذا الأب يستكبر عـن أن يصغي لنصائح ابنه .. يستكبر .. لو أن ابنه تكلّم لَسمع منه الحق ولكن مكانـة الأب أحيانـاً واستعلاءه وقوته المالية وشأنه الاجتماعي هو الذي يمنعه من أن يصدق أو من أن يستسلم أو من أن يؤمن ، كُفر الإباء والاستكبار ككُفرِ إبليس إنه لم يجحد أمر ا ولا قابله بالأبكار ولعله تلقّاه بالإباء والإستكبار .. يعني .. هذا يشابهه من عرفَ صدقَ النبي وأبى أن يؤمن به :

فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾

(سورة المؤمنون)

كلام فرعون .. طبعاً لما فرعون رأى أن العصاة أصبحت ثُعباناً مبيناً ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين قالَ : "**أنُؤْمن لِبشَرين مثْلنَا وقومهما لنَا عابِدون** " هذا إذا كُفر استكبار وإباء :

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾

(سورة إبراهيم)

اليهود يعرفونه انه رسول ا كما يعرفون أبناءهم ومع ذلك كفـروا بـه ، والحقيقـة الإنسان السعيد الموفق لا يمنعه أن يأخُذَ الحكمة من صغير .. ألم أقل لكم فـي درسٍ سـابق سيدنا أبو حنيفة النعمان رضي ا عنه مر بغلامٍ صغير أمامه حفرة قال له يا غلام إيـاك أن تسقط قالَ بل أنتَ يا إمام إياك أن تسقط إنّي إن سقطتُ سقطتُ وحدي وإنك إن سقطتَ سـقطَ العالم معك ، ألم يقُل عبد ا بن الزبير لسيدنا عمر رضي ا عنه أيها الأمير لسـتَ ظالمـاً فأخشى ظُلمك ولستُ مذنباً فأخشى عقابك والطريقُ يسعني ويسعك .

الكُفر الثاني والعياذُ با كُفر الإباء والاستكبار ، أحيانـاً موظفـون فـي دائـرة أو مدرسون في مدرسة أو تُجار في سوق أحد هؤلاء يطلب العلم بإلحاحٍ شديد ويصدق مـع ا ويبذل ويقدم ويفعل ويترك حتى يوفقه ا وحتى يلقي ا ُ في قلبه نوراً وحتى يطلقَ لِسـانه .. من هؤلاء الذين يستكبرون عن دعوته ..؟.. زملاؤه .. هذا كان البارحة معنا ، كُنت في أحد ضواحي دمشق يوجد قصاب ُأحدثه فقالَ لي أبو الحسن كردي كُنّا سويةً لحامين فقُلت " أيـن الثرى من الثريا " هو قارئ كبير .

يعني .. أراد هذا القصاب أن يرتفع إلى مستوى هذا القارئ الكبير .. أقـول هـذا الكلام لما الإنسان يطلب العلم فيصبح له شأن آخر قد ينسى الناس أنه نجار أو أنـه قصـاب صار له مكانة علية ، أنا أقول لكم هذا الكلام وإن شاء ا واثق من كلامي هذه كلمة :

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾

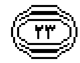
(سورة الشرح)

هذه للنبي عليه الصلاة والسلام ولكُل مؤمنٍ منها نصيب يعني أنتَ تخطُب ود ا ، تجهد لطاعته ، تُمضي وقتاً طويلاً في طلب العلم الشريف في خدمة الخلق في نُصـح الخلـق وتبقى مغموراً وراء الصفوف وراء الركب .. لا .. ا ُ عز وجل يعلي قدرك بين الناس ، ألم

أقل لكم في درسٍ سابق إذا أحببتَ ا   ألقى حبك في قلوبهم في قلوب الناس ، إذا خفتَ من ا ألقى الخوفَ منك في الناس ، إذا هبتَ ا   ألقى عليك هيبةً عظيمة ، إذا اشتغلتَ با   أصبحتَ شُغلَ الناس الشاغل .. هذه " **ورفَعنَا لَكَ ذكْرك** " .

يوجد عندنا كُفر ثالث هو كفُر الإعراض .. مرة التقيت مع رجل أجنبي مـن بلـد أجنبي مندوب شركة وحدثته عن ا ِ قليلاً فقالَ كلمةً لا أنساها ، قالَ هذه الكلمة وعلـى أثـرِ كلمته تذوقتُ قوله تعالى:

وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ



(سورة الأنفال)

بعد أن حدثته قليلاً عن الكون وعن خالِق الكون وعن ماذا بعد الموت ، قالَ كُلُّ هذه الموضوعات لا تعنيني ولا أهتم بها ولا أُفكر فيها ولا أبحثُ عنها إنما يعنيني امرأة جميلـة وسيارةٌ فخمة ومنزلٌ كبير قلتُ صدقَ ا ُ العظيم " **ولَو علم الله فيهم خَيرا لأسـمعهم** " ولـو أسمعهم وليس فيهم الخير " **لتَولوا وهم معرِضون** " هذا كُفر الإعراض يمثله رجلٌ عاشَ مـع النبي عليه الصلاة والسلام لا صدقه ولا كذّبه ، لا والاه ولا عاداه ، ولا أصغى إليه أبداً .

قالَ هذا الرجل للنبي وا ِ أقول لك كلمةً إن كُنتَ صادقاً فأنتَ أجل في عيني من أن أرد عليك وإن كُنتَ كاذباً فأنتَ أحقر من أن أُكلّمك .. لا أُصغي إليك ولا أستمع إلى دعوتك ولا أُصدقُك ولا أُكذّبك ولا أُواليك .. ليس لي علاقة .. هذا الوضع موجود عند بعض النـاس لا يهزه شيء أبداً ... أحدهم هجا شخصاً قال لا يبالي.. لا يبالي أبداً وإذا بالَ فمن بالَ يبـولُ لا بالَ يبالي لا يبالي .. غير مهتم .. لا بهذه الدعوة ولا بفهم كتاب ا   ولا بالوعد والوعيد ، يعيش ِلذاته يعيش للحظته ، يعيش لحظوظ نفسه ، فهذا كُفر إعراضي ونعوذ با   منه

.. هو في واد والدين في واد ، هو في تجارته في تنمية ثروته فـي حاجـات نفسـه الأساسية في تزيين بيته في تبديل سيارته في حظوظ جسمه في سياحة حـول العـالم فنـادق خمس نجوم وحفلات ومجتمع مخملي ناعم كما يقولون هنا همهم ، كُل الـدين لا شـيء وإذا احتال الذكي يجامل: ما شاء ا   ا   يبارك فيك يا سيدي وما فيه من الدين شيء ، في كلمـات يتكلمها الناس الآن لا معنى لها أبداً ، ا   عز وجل يحاسب على العمل والاتزان .

بقي علينا كُفر الشك ، كُفر الشك قال : فإنه لا يجزم بصدقه ولا بكذبـه .. لسـتُ أدري ولماذا لستُ أدري ؟ لستُ أدري ، يقول لك شيء لا أُصدقُ أحداً داخل في حالة الشـك

والحقيقة لو اشترى بيتاً يا ترى هذا البيت عليه رهن ؟ بأموره المادية ليس عنده شك .. كُلـه باليقين .. كله بالسندات وكشف القيد العقاري ويأخذ براءة ذمة وهذه عليك وهذه علي .

لماذا الإنسان بأمور دنياه دقيق جداً وعلى اليقين يسير ، يعمل له عقد عند محـامي يقيده كُل ضريبة قبلَ هذا التاريخ على البائع .. طلب القيد العقاري وطلب الكشف المالي ولـم يبق شيئاً .. لماذا أنتَ في الدنيا باليقينيات دائماً وفي الآخرة في الشك ، لا نعرف يجـوز ألا يكون في آخرة، وا شيء يحير كُل هؤلاء الناس يتكلمون على أهوائهم .. ليس عنـده تـبن موقف .. هذا كُفر الشك .. الحقيقة كُفر الشك الإنسان محاسب عن شيء واحد لو أردتَ الأدلة القطعية لوجدتها :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٦٩)

(سورة العنكبوت)

لو أردتَ الأدلة القطعيةَ لوصلتَ إليها ، دللتَ عليها ، لمستها بيدك ، ولكنك تُريد أن تعيشَ في شك ، في قصيدة لأحد الشعراء المهجريين يعني مئات الأبيات كُلها لستُ أدري بعد هذا يقول ولماذا لستُ أدري قال لستُ أردي .

أحياناً تجلس في مجلس هذا الشخص لا يوجد عنده إلا التشـكيك .. لا أعتقـد . لا أعتقد لا لا ، أحدهم ذهب للأزهر فلم يدرس انغمس في اللهو في القاهرة لما عاد إلـى بلـده فأمام أهله وأهل قريته أصبح عالِماً جليلاً ووالده ينتظره فلبس زي العلماء وجلس بمجلس ولا يفهم شيئاً إطلاقاً فعلّموه .. كل سؤال محرج قل في المسالة قولان .. فجاءه واحد خبيث فقـال له : أفي ا ِ شك فقالَ له في المسألة قولان .. " فضربوه ضرباً مبرحاً "

فالشخص هذا دائماً يشكك إن تكلّمتَ له بآية يقول هذه آية بالقرآن ؟ طبعـاً وافـتح القرآن وشاهدها ، ليس عنده رغبة بالبحث عن آية في القرآن الكريم هذا كُفر الشك .

بقي علينا كُفر النفاق .. كُفر النفاق .. هذا المنافق واحد كافر من ألد أنواع الكُفّـار لكن مصالِحه مع المسلمين أو عايش ببلد إسلامي ، أو عايش ببلد أولـو الأمـر متمسـكون بالإسلام ، فلذلك يفعل كُل ما يرضى عنه المسلمون أما إذا خرج من هذا البلد غَرِقَ في الفسق والفجور هذا الكُفر هو كُفر النفاق : أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوي بقلبه على التكذيب هـذا النفاق الأكبر الذي قالَ ا ُ في حقه :

إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾

(سورة النساء)

آخر نوع من أنواع الكُفر هو كُفر الجحود ، الجحود الإلحاد ، فلان ملحد قال لا إله ، ما في إله .. لكن الله عز وجل ، هؤلاء الذين قالوا لا إله أطلعنا على مصيرهم وعلى شأنهم في العالم ، هؤلاء الذين قالوا لا إله هذا كُفرهم كُفر جحود ، قال إما أن يكون جحوداً عاماً أو جحوداً خاصاً ، من نفى عن الله رحمته .. هذه الزلازل والبراكين والمجاعات والحروب والأمراض .. ما هذه الرحمة ؟ هذا كُفر جحود خاص .

جحد رحمةَ الله ، أو جحد علمه ، أو جحد حكمته ، ويكفي أن تقول " الله عاطي الحلاوة للذي ليس له أضراس " هذا كُفر جحود تتهم الله بأنه ليس حكيماً ، مرة واحد توفيت زوجته ولها أخت أكبر منها بعشر سنوات قالَ : " كنتَ خُذ تلك يارب أبق لي هذه " جحود .. جحد حكمة الله ، جحد رحمته ، جحد علمه ، جحد قدرته ، الآن إذا واحد أصابه مرض عضال وتيقّن أن الله لا يقدر أن يشفيه طيب لماذا ؟ هكذا قال الطبيب هذا مرض مستعصٍ.

والله أخ كريم حدثني .. والدته مريضة الأطباء قالوا مرضها عضال ولن تصل إلى المشفى ، فدعت ربها عز وجل وتصدقت ولجأت إليه وقد عافاها الله ، يعني من السذاجة أن تظن أن المرض العضال ليس له دواء له دواء وهو الشفاء الذاتي ، أنتَ إذا صدقتَ الله عز وجل :

وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾

(سورة الشعراء)

يشفيك ، في مدرسة في فرنسا أصابها مرض عضال ورم خبيث في صدرها وقالَ الطبيب إن حياتها لا تزيد عن عشرين يوماً تقريباً ذهبت إلى مكة المكرمة لتُنهي حياتها هناك وطافت ثمانية عشرة طوافاً حولَ الكعبة وهي غارقةٌ في البكاء وفي الالتجاء وفي إعلان التوبة وفجأةً وبعد هذا الطواف الشديد بدأت الآلام تنحسر إلى أن شُفيت شفاء تاماً ولها قصةٌ مبكيةٌ ألّفت كتاباً واسمه " لا تنسى الله " آلاف القصص .

والله لي صديق خمس أطباء أجمعوا على أن به سرطاناً بالرئة من الدرجة الخامسة ، بالتصوير الشعاعي ، وبالخزعات ، و بالفحص المخبري في دمشق وفي لندن ، والعمر لا

يزيد عن عشر.. وانحسر هذا المرض وا ِ والرجل لا يزال حي يرزق وصديقي .. انحسر انحساراً كاملاً وله في شفائه التام ما يزيد عن عشر سنوات .

فإذا اعتقدتَ أن ا لا يستطيع أن يشفيك أو .. واقع في ورطة مالية مثلاً مفلّـس .. فا عز وجل يخلُقُ من الضعف قوة ، هنا عظمةُ الإيمان لا يأس مع الإيمان ، ياربي لا كرب وأنتَ الرب .. لا كرب وأنتَ الرب .. ما دام هناك رب كُلُ شيء بيده وقادر على كُل شـيء وهو أرحم بِنا من أنفسنا .. لا كرب يارب وأنتَ الرب ..

كُفر الجحود الخاص أن ترى أن الصلاة لا معنى لها في هذا الزمن .. أخي عصرنا عصر دوام وعمل كثيف وارتباطات ومواصلات وما في وقت لنصلي ولا في وقت لنتوضأ .. هذه أنا عشاء اُصلي وأطلب من ا المغفرة مساء ..هذا الذي ينكر فرضية الصلاة أو الصوم ببعض البلاد الإسلامية اعتبروه أنه يضعف الإنتاج فألغوا الصوم .. طيب إذا جحدتَ الصـوم أو جحدتَ الصلاة أو جحدتَ الزكاة أو رأيتَ أن تحريم الربـا .. شـيء مربـك .. لمـاذا المسلمون متأخرون لأن دينهم صعب يقيدهم أما الأجانب طليقون..هذا كُفر جحود لكنه خاص وليس عاماً .

على كُلِ الكُفر كما قُلنا قبلَ قليل كُفر أكبر وهو الذي يوجب الخلود في النار وكُفـر أصغر وهو الذي يوجب التوبة ويوجب تحققَ الوعيد إذا لم يتب صاحبه وتكفير النـاس هـذا ليس من شأن الناس هذا من شأنِ رب الناس وأنتَ في أعلى درجات ورعك إن رأيتَ عاصياً ادع له أن يتوب واذكر ا َ عز وجل على أن نجاك من هذه المعصية ، أما أن تُنصب نفسـك وصياً على الناس توزع ألقاب الكُفر والإيمان على الناس أو تضيقُ نظرتُك فتعتقـد بصـلاحِ جماعتك فقط وتُكفّر بقية الجماعات فهذا من ضيق الأفق ومن أمراض المسلمين الوبيلة وهـذا الذي فرقهم وشرذمهم وفتتهم وجعلهم ضعافاً في العالم .

والحمد رب العالمين

* * *

بسـم الله الرحمن الرحيم

مع الدرس الثلاثين من دروس مدارج السالكين في مراتب إياك نعبد وإياك نسـتعين وقد أمضينا دروساً عدة في أنواع الذنوب والآثام ، تحدثنا عن الفحشاء والمنكر، وتحدثنا عـن الإثم والعدوان ، وتحدثنا عن أنواع الفسق وعن أنواع النفاق وعن أنواع الكُفر وعن أكبرِ ذنبٍ من هذه الذنوب وهو أن يقولَ الإنسان على ا ِ ما لا يعلم وبقي علينـا موضـوع مـن هـذه الموضوعات وهو الشرك وربما تظنون أنني ُأبالغ ولكنني في الحقيقة أقولُ إن الشرك هو من أخطر الذنوب التي يقع بها الإنسان لماذا ؟

لأنك إذا أشركتَ با ِ عز وجل توجهتَ إلى غير ا لا تجد شيئاً ، لا تجد نافعاً ، لا تجد ضاراً ، لا تجد معيناً ، لا تجد سعادةً يعني .. هؤلاء الذين قالوا : ما تعلمت العبيد أفضلَ من التوحيد .. ما تجاوزوا الحقيقة وما وقعوا في المبالغة ، هؤلاء الذين أرجعوا أكثر الذنوبِ إلى الشرك.. الحقيقة الشرك من أوسع الأبحاث ويكفينا أن كلمة التوحيد هي شهادةُ أن لا إلـه إلا ا .

على كُلٍ : شأن هذا الموضوع كشأنِ الموضوعات الأخرى ، الشرك تتسع دائرتـه حتى يشملَ أن تعتمد على غير ا ، وتضيقُ دائرته حتى تدعي إلهاً غير ا .

كما هي العادة في منهج البحث في هذه الموضوعات هناك شرك أكبر وهناك شـرك أصغر ، الشرك الأكبر لا يغفر إلا بالتوبة إذ أن أيةَ آية قرآنية وأظنُهما آيتين فقط :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

(سورة النساء)

أجمع العلماء على أن هذا الشرك الذي لا يغفر إذا ماتَ صاحبه وهو مشرك أما إذا تاب تاب ا ُ عليه ، لذلك يعقّبون على الآية بقولهم إن ا َ لا يغفر أن يشرك به إن لم يتُـب ، الشرك الأكبر أن تتخذَ ِ نداً .

الآن : يقول لك قائل .. طبعاً يوجد من الشرك الأكبر نوعان هؤلاء الذين يعبـدون آلهةً في هذا العصر.. بوذا .. هذه الديانات في شرقي آسيا التي تُتخذُ من بعض الشخصـيات الموهومة آلهةً تعبدها من دون ا هذا شرك أكبر .

لكن هذا من فضل ا عز وجل المسلمون في عالمهم الإسلامي بعيـدون عـن أن يقعوا في هذا الشرك الفاضح لكن هناك شركاً أكبر لا يأخذُ هذا الشكل الفاضح : أن تتخذَ مـن دون ا ِ نداً ولم أقل أن تتخذَ غير ا أن تتخذَ من دون ا لأن ا َ واحد أحد فـرد صـمد إن اتخذتَ غيره فلابد من أن يكون دونه ما قال أن تتخذَ غير ا ِ إلهاً .. لا قالَ أن تتخذَ من دون ا ِ نداً ، وهذه المسافة بين هذا الذي اتخذته نداً من دون ا وبين خالق الكـون لا يمكـن أن يوازن بينهما .. يعني .. صفر مع القيمة المطلقة ، لا شيء مع كُل شيء ، ضعفٌ مع منتهى القوة ، جهلٌ مع منتهى العلم ، قسوةٌ مع منتهى الرحمة .

.. أيام نقول هذا دون هذا .. يكون بينهما درجة .. نقول هذا دون هذا بكثير لكنهما يجتمعان في نسبة ، أما إذا اتخذَ الإنسان من دون ا ِ نداً لا يمكن أن يكون هذا المتخذُ نداً من دون ا أن يوازن بشكلٍ أو بآخر مع خالق الكون يعني القيم المطلقة مع التلاشي المطلـق ، عبد ضعيف تستعين به ، تستهديه ، تجهد في إرضائه ، تخافُ من سخطه ، تُعلّق الآمال عليه ، تربط حياتك كُلها من أجله ، ما من جهة .. لا أقول ما من مخلوق .. ما من جهة في الكون تستحقُ أن تُفني حياتك من أجلها ، تستحقُ أن تُمضي شبابك من أجلها ، إلاّ أن يكون خـالِقَ الكون هو أهلُ التقوى وأهلُ المغفرة .

في شرك أكبر وشرك أصغر ، الشرك الأصغر المؤمنون مبتلون به لقوله تعالى :

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

(سورة يوسف)

.. لك معاملة في وزارة ، ولك ابن عم في هذه الوزارة لا بأس به ، فأنتَ مرتـاح .. هذا ابن عمي لا يقصر .. هذا شرك ، نسيتَ ا واعتمدتَ على قريبك ، هذا الشرك الذي يبتلى به المؤمنون بسببِ ضعف إيمانهم هذا هو الشرك الأصغر ، أدناه أن ترضى عن إنسان وهو مقيم على معصية كما قالَ عليه الصلاة والسلام : " الشرك أخفى من دبيبِ النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء وأدناه أن ترضى على معصية وأن تغضب على عدل "

أن تسخطَ على عدلٍ وأن ترضى على جورٍ ، أن ترضى على جور أو أن تسخطَ على عدل فهذا شرك ، أن ترضى على جور يعني هذا الذي جار على غيره لكنه نفعك رضيتَ عنه ونسيتَ رضاء الله عز وجل ، وأن تسخطَ على عدل : وجهت لك نصيحةٌ محقّة أنتَ تألمت فغضبت أنتَ قد أشركتَ نفسك مع الله عز وجل هذا الشرك الأصغر .

نرجو الله سبحانه وتعالى أن يعافينا منه ويحتاج إلى مجاهدة ومتابعة ومراقبة دقيقة للقلب وأن تفهم على الله عز وجل كُلما اعتمدتَ على غيره كيفَ يأتيك بالعلاج وكيفَ يخيب آمالك بغيره هذا موضوع والشرك الأكبر موضوع .

الشرك الأكبر نوعان : **شرك فاضح** يعني أن تقول بوذا إله كما يقول السيخ أو الهندوس أو هؤلاء الذين لهم ديانات وثنية في أنحاء متفرقة من العالم ، لكن الشرك الأكبر غير الفاضح هو أن تتخذَ من دون الله نداً .. هنا المشكلة .. قد يقول لك إنسان أيعقلُ أن أتخذه نداً ، أهو إله أهو الذي خلقَ الكون ، أهو الذي سير الشمس والقمر ... نقول له .. لا .. من لوازم الإله أن تحبه ، وأن تعبده ، وأن تُعظمه ، فيكفي أن تُعظّم جهةً أرضية وأن تُحبها حباً حقيقياً ويكفي أن تطيعها في معصية الله ، فهذه الجهة الأرضية ولو كانت إنساناً أنتَ أشركتها مع الله لا في مقام الألوهية بل في لوازم الألوهية ، لا في المقام الإله خلقَ السماوات والأرض ، الإله مسير ، الإله مرب ، لا في مقام الألوهية والربوبية بل في لوازم الألوهية والربوبية ، مثلاً : من لوازم الأب الحب ، من لوازم الأبوة الطاعة ، من لوازم الأبوة أن تُرضي هذا الأب ، فإذا لم تُكن مطيعاً لأبيك فرضاً ولم تكن محباً له ، ولم تُكن خاضعاً لفضله ، وتوجهتَ بكُل إمكاناتك لخدمة شخصٍ غريب وعوتبتَ في هذا الموضوع تقول أيعقلُ أن يكون هذا أبي !!! يقول لا ليس أباك هذا .. نعلم ذلك ولكنك عاملته كما ينبغي أن تُعاملَ أباك .

هذا الذي واقع في شرك أكبر نحن لا نقول له أنتَ تدعي أنه خلقَ الكون .. لا .. نعلم ذلك وتعلم أنتَ ذلك ، ولكنك أشركته مع الله عز وجل في لوازم الألوهية وهو التعظيم والعبادة والحب ... هذا الشرك الأكبر غير الفاضح .

هناك من يحاول التلفيق .. يعني .. يحب أن يجمع بين إشراكه الكبير بأن اتخذَ من دون الله نداً يعظّمه ويحبه ويطيعه ولا يعبأُ بطاعة الله ولا بحبه ولا بتعظيمه وكيفَ يوفّقُ هذا الإنسان بين هذا الشرك الأكبر وبين ما هو واضح كالشمس من أن الله خالقَ السماوات والأرض لذلك الله سبحانه وتعالى يقول :

أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾

(سورة الزمر)

" ما نَعبدهم إلا لِيقَربونَا إلى الله زلفَى إن الله يحكُم بينهم في ما هم فيه يخْتَلفُون "

هذا اسمه تلفيق .. يعني .. يحب أن يجمع بين عقيدته الشركية وبين التوحيد " نحن نتخـذهم شفعاء لنا عند ا " .

طبعاً قبلَ قليل حدثتكم عن أن الشرك الأكبر ليس معناه أن تـدعي أن هـذا الـذي اتخذته من دون ا هو خالِق الكون ، هو رب السماوات والأرض ، هو المسير .. لا .. لكن لوازم الألوهية التعظيم والمحبة والطاعة .. أنتَ فعلتَ مع هذا الند ـ عز وجل الذي هو مـن دون ا فعلتَ معه ما ينبغي أن تفعله مع ا قالَ تعالى :

تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾

(سورة الشعراء)

عندنّا سؤال : .. لماذا تروج هذه الأفكار الوثنيةُ في العالم ؟ يقـول لـك ٤٠٠ ، ٥٠٠ مليون أتباع بوذا ، ٦٠٠ مليون أتباع كذا ، السيخ عددهم كذا مليـون ، ٤٠٠ مليـون هندوسي كلهم يعبدون بقرة أو صنماً أو وثناً ، طيب أين عقولُهم ؟ الجواب هو أن هذه الآلهة المزعومة ليس لها منهج يقيدك في حركتك اليومية فاتّباعها سهل .

.. هناك طقس تفعله كُلَ أسبوع أو كُلَ يوم وانتهى الأمر لك أن تفعل ما تشاء ، لك أن تأكلَ من أموال الناس ما تشاء ، لك أن تُمارِس الشهوات كيفما تشاء .

فلذلك دائماً المناهج الشركية الوضعية لها ميزة عند أهل الدنيا لـيس لهـا مـنهج فالانتماء لها سهل جداً لا يكلّفُ شيئاً ، لكن ا ـ سبحانه وتعالى إذا أردتَ أن تنتمي إلـى دينـه فهناك افعل ولا تفعل ، هناك قنوات نظيفة والباقي كُلُه محرم ، فلذلك إذا أردتَ أن تتعرف إلى سرِ انتشار هذه الديانات الوضعية وهذا الشرك الذي لا يقبله عقل .. ذلك لأن الانتمـاء إليـه سهل ، واحد ذهب للهند وجد في مقام بوذا فواكه من أنواع لا يرقى إليها وهم تُقدم هذه الفواكه إلى هذا الإله يومياً ثم تتقصى الحقائق كُلُ هذه الفواكه في النهاية يأكُلها من يعملون فـي هـذا المعبد فهم يبالغون ، لا يقبلُك هذا الإله إلا إذا جودتَ له الفاكهة من أجله.

يعني من أجل أن يأكلها مساء هو .. لأن هذا الصنم لا يأكل ، والشيء الغريب ترى هناك أشخاص مثقفون يحملون شهادات عليا . .. كيفَ أن هذا الإنسان يعطّلُ عقله ، فلذلك ا عز وجل يوم القيامة سيسأل هذا الإنسان هذا السؤال الكبير : عبدي أعطيتُـك عقـلاً فمـاذا صنعتَ فيه ؟ أين عقلُك ، أنتَ تقبل أن تقبض عملة مزيفة لثمن بيت تسكنه ولا تملـك غيـره ومعك جهاز صغير يكشفُ لك زيفَ هذه العملة من دون أن تستخدمه فإذا صعقتَ لهذا الخبـر المؤسف وصحتَ يقال لك كلمة بسيطة جداً فيها استهزاء : ما دمتَ تملك هذا الجهاز لِـم لـم تستخدمه ؟ وما دام ا ُ عز وجل قد أعطانا عقلاً فإذا أشرك الإنسان مع ا عز وجل ، هـذا الإنسان مؤاخذ أين عقلُك ؟ أنا أُسمي العقل أداة المعرفة ، وقد ورد في القرآن وصفٌ له ، اسم وصفي ، قالَ :

وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧

(سورة الرحمن)

ا أعطاك ميزاناً ، ميزاناً دقيقاً ، ولا أُبالغ إذا قُلت إن أثمن ما في الكون هو العقل بل إن أعقد ما في الكون على الإطلاق هو العقل يعني ما في عضو في الكون لا في النـوع البشري فحسب ، في الكون ، بالغ التعقيد واسع الإمكانات كالعقل البشري فإذا عطلّتـه فقـد ضللتَ ضلالاً مبيناً .

سر تهافت الناس على الديانات الوثنية هو أن هذه الديانات ليس فيها منهج ، ليس فيها قيد ، ليس فيها حد من حرية الإنسان ، ليس فيها منع لشهواته ، هذا سر رواجها .. لا لذاتها بل لِما ينتج عنها من تفلت أي قيمة أو أي نظام .

كيفَ نرد على هؤلاء الذين أشركوا با ِ ما لم ينزل به عليهم سلطاناً " **ما نَعبدهم إلا لِيقربونا إلى الله زلْفَى** " الرد عليهم بأن الشفاعةَ التي وردت في القرآن الكريم لها شـروط ، قالَ تعالى :

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

(سورة البقرة)

لا تقع الشفاعةُ لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بإذن الله تعالى ، ولا يشفع الشافع إلا بإذن الله تعالى ، ولا يشفع الشافع إلا من رضي الله عنه ، الدليل : قالَ تعالى " **من ذَا الذي يشْفَع عنْده إلا بإذْنه** " :

يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾

(سورة الأنبياء)

الله سبحانه وتعالى من هو الذي يرضى عنه حتى يسمح للنبي عليه الصلاة والسلام أن يشفع له ؟ قالَ : من ماتَ غير مشرك .. يعني .. الذي أشرك لا يستحقُ الشفاعة ، وإذا بلغتَ التوحيد فقد بلغتَ كُلَّ شيء ، أقول لكم كلمات قُلتها كثيراً لكن أتمنى أن تكون في موطن اهتمامكم : نهاية العلم التوحيد ، لن تُخاص إلا إذا كُنتَ موحداً ، إن لم تكن موحداً تتمنى أن تُرضي الناس و تخشاهم وترجوهم وتستعطفهم وتشعر بقدرتهم عليك هم يرفعونك وهم يضعونك، شفائك على أيديهم وخلاصك ومصيرك بيدهم ، ما دمتَ لم توحد فهذا شرك ، والشرك معه خوف، معه تبعثر ، معه تشرذم ، معه تبديد بالطاقات ، لذلك نهاية العلم التوحيد .

لا إله إلا الله حصني من دخلها أمن من عذابي ، لا إله إلا الله لا يسبقُها عمل ولا تترك ذنباً .

.. لا إله إلا الله فيها نفي وإثبات : لا إله أي لا مسير ، لا حركةَ ، لا سكنةَ ، لا عطاء، لا منع ، لا رفع ، لا خفض ، لا إعزاز لا إذلالَ ، لا قبض ، لا بسطَ ، لا توفيقَ ، لا إخفاقَ ... إلا بالله فلذلك لن تُخاص إلا إذا وحدت .

وهذا المثل أضربه دائماً وأُعيده وفيه فائدة : لك قضية مهمة جداً في دائرة إذا أنتَ علمتَ علم اليقين أن في كُل هذه الدائرة المؤلفة من ٤٠٠٠ موظف لا يوجد إلا إنسان واحد من صلاحيته أن يوافق لك على طلبك .. واحد .. هو المدير العام ، إذا أيقنت لن تسألَ سواه ، ولن تتجه إلى أحد آخر ، ولن تُقدم هديةً إلى أحد غيره ، ولن تبذلَ ماء وجهك إلى أحد إلا هذا المدير العام فإذا قيل لك خطأً أو وهماً أنه فُلان هو بإمكانه أن يوافق .. تتجه إليه ، تصب عليه كُلَ اهتمامك ، تتوسل إليه ، تُعلِّقُ عليه الآمال .. هذا هو الشرك .

وقد ضربتُ مثلاً آخر في أثناء تدريسي السابق أيضاً الآن مناسب أن نُعيده إنسان له في حلب مبلغ كبير كبير تُحلُ به كُلُ المشكلات ويجب أن يقبضه في ساعة معينة وتوجه إلى محطة القطارات وركب القطار المتجه إلى حلب ، قد يرتكب وهو في القطار آلاف الأغلاط قد يدفع ثمن بطاقة للدرجة الأولى ويجلس خطأً في الدرجة الثالثة .. ممكن .. ، قد يجلس بعكس اتجاه سير القطار يصاب بالدوار ، قد يجلس مع شبابٍ متشاكسين يملئون القاطرة صخباً وضجيجاً .. قد يتضور جوعاً ولا يعلم أن في القطار مطعم ، قد ينسى بعض حاجاته في قاطرة ، لكن ما دام في القطار المتجه إلى حلب وما دام هذا القطار سيصل في الوقت المناسب فالقضية سهلة ؟ كُلُ هذه الأغلاط نتجاوزها ولكن الخطأ الذي لا يغتفر أن تتجه إلى محطة القطار وأن تصعد إلى القطار المتجه إلى درعا وأنتَ تُطمئن نفسك .. بعد قليل نصل إلى حلب ... ثمَ تُفاجأ وأنتَ في درعا أن هنا درعا .. طيب أين حلب .. هذا الخطأ الذي لا يغتفر .

يعني أن تتجه إلى غير ا ، أن تُعلِّقَ على غير ا الآمال ، أن ترجو غير ا ، أن تخافَ من غير ا ، أن تظن أن الرزقَ بيد فُلان ، أن تظن أن فُلاناً بإمكانه أن يرفعك بإمكانه أن يضعك ، بإمكانه أن يعطيك ، بإمكانه أن يمنعك ... هذا الشرك ... هذا الشرك الذي لا يمكن أن يغتفر لأنه إذا اتجهتَ إلى ا وكُنتَ مخطئاً غفر لك ، إن كُنتَ جاهلاً علّمك ، إن كُنتَ مستوحشاً آنسك ، إن كُنتَ ضعيفاً قواك ، إن كُنت فقيراً أغناك ، إن كُنتَ منقبضاً بشّرك ، لكنك إذا اتجهتَ إلى غير ا فقدة أشركت .

.... واحد معه آلام الزائدة لا تحتمل ما دام في طريقه إلى المستشفى ودخل المستشفى وفي عناية جيدة وفي أطباء مهرة وفي أدوية جيدة وفي موظفين مخلصين فالقضية انحلت ، لكن لو اتجه إلى مكان آخر فإذا هو مدرسة أو فندق مثلاً .. ماذا يفعل هنا .

فلذلك موضوع الشرك يا أخوان من أخطر الموضوعات في الدين وأقول لكم بملء فمي: لا نجد إنساناً يعصي ا َ عز وجل إلا لأن فيه بعض الشرك ، لأنه لماذا يعصي ا ، يعصيه ليستمتع بشيء نهى ا ُ عنه ، إن سعادة القُرب أبلغُ بكثير من لذّة المعصية لكنه لا يدري ، أتعصيه من أجل أن يزداد مالُك ا ُ بيده المال ، فجأةً يدمر المال ، أنتَ اسأل نفسك

لماذا أعصي الله ؟ يعني من أجل أن أُمتّع نفسي بما حرمه الله علي .. الانقباض الذي يحصل من مخالفة أمر الله عز وجل لا يحتمل ، بينما السعادة التي تحصل من طاعة الله عز وجل لا توصف ، لماذا أعصيه ؟ لأنني أرى في هذه المعصية خير لي .. هذا هو الجهل ..

وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾

(سورة القصص)

أين الله ... أيعقل أنك إذا اهتديتَ إلى الله خُطّفتَ من أرضك ؟ والذي يقول : " أخي أنا إن استقمت متُ من جوعي " هذا منتهى الجهل ، منتهى الحمق ، يقول المحامي إذا أنا صدقت ليس عندي زبائن يجب أن أُطمعهم أن الحكم مضمون .. غلط هذا الكلام .. هذا شرك بالله عز وجل ، يعني يجب أن تعلم أن أي إنسانٍ يعصي الله لا يعصيه إلا لأنه أشرك بالله ، إما أنه أشرك نفسه أو أشرك غيره ، أما لو تجردتَ عن كُل شرك لرأيتَ نفسك في طريق الحق شبراً شبراً .

الشفاعةُ التي وردت في القرآن الكريم لا تكون إلا لمن رضي الله عنه ، ولن تُعطى إلا لمن رضي الله له قولا ، " **ولا يشْفَعون إلا لِمن ارتَضى** " ، " **من ذَا الذي يشْفَع عنْده إلا بإذْنه** " والله لا يرضى من عباده الشرك لذلك من ماتَ غير مشرك نالته شفاعةُ النبي ، أما من ماتَ مشركاً حرم من هذه الشفاعة .

في مشكلة : هذه المشكلة أنه هناك إنسان يدعي التوحيد إذا نظرتَ إلى عمله وإلى حركاته وسكناته وجدتَ عمله وحاله يكذّب توحيده .

ما أطعتَ فلاناً وعصيتَ الله إلا لأنك رأيتَ فُلاناً أكبر من الله ما خفتَ من فلان أكثر من خوفك من الله إلا لأنك عظمته فوقَ ما تُعظّم الله عز وجل .. فلذلك المعصية قد تبدو صغيرة لكن المؤشر كبير على جهل فاضح بالله عز وجل ، ربنا عز وجل قال :

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾

(سورة العنكبوت)

.. لا أعتقد أن بالقرآن آية بأن ذلك الذي اعتمد على غير ا ، اتجه إلى غير ا ، اتكلَ على غير ا ، علّقَ آماله على غير ا كمن تمسك ببيت العنكبوت .. حركة أصابعه تُحطم هذا البيت .. حركة الأصابع " **كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت** " .

يوجد عندنا موضوع دقيق جداً هو أنتَ حينما تعتمد على فُلان ، يعني فُلان لا بد من أن يكون أحد أربعة أشخاص : إما أنه مالِك هذا الكون ، أو مالِك جزء منه شريك مع ا فيه ، أو ظهير أو معين ، أو شفيع ... مالك ، شريك ، ظهير ، شفيع .

أنتَ إذا دخلت إلى مكان وتوجهت إلى إنسان هذا الإنسان أغلب الظن بحسب هذا التوجه مالِك المكان وإذا لم يكن مالكاً فله النصف .. شريك .. إذا واحد زار بستاناً دعاه مالك نصف البستان فلو قالَ له الثاني : أخي أين أنتَ داخل فيقول فُلان دعاني .. كلام معقول .. داخل لعند النصف الثاني .. فهذا الذي اتخذته إلهاً من دون ا إما هو خالق الكون أو شريك في الخلق أو ظهير معين عز وجل له دالة أو شفيع .. استمعوا إلى قول ا عز وجل .. قال :

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

(سورة سبأ)

ليس مالِكاً وليس شريكاً وليس معيناً وليس شفيعاً ، من هو إذاً ؟ هو لا شيء .. هذا معنى قول ا عز وجل :

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾

(سورة الإخلاص)

فلذلك أيها الأخوة موضوع الشرك من أخطر موضوعات الدين لن تعصي ا إلا إذا أشركت ، لن ترجو غير ا إلا إذا أشركت ، أنا لا أقول الشرك الجلي ولا أقول الشرك

الفاضح أن تتخذَ في البيت صنماً تعبده من دون ا .. هذا انتهى .. وقد قالَ عليـه الصـلاة والسلام :

عن محمود بن لبيد قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم إِن أَخْوفَ ما أَخَافُ عليكُم الشرك الْأصغَر قَالُوا يا رسولَ الله وما الشرك الأصغَر قَالَ الرياء إِن الله تَبارك وتَعالى يقُولُ يوم تُجازى الْعباد بِأَعمالِهِم اذْهبوا إِلَى الذين كُنْتُم تُراءون بِأَعمالِكُم في الدنْيا فَانْظُروا هلْ تَجِدون عنْدهم جزاء *

(مسند الإمام أحمد)

.. عندما الإنسان ينطلق إلى مخالفة ينطلق لماذا ..؟.. لمنفعـة ماديـة أو شـهوة تقضيها فلو علمتَ أن ا َ سبحانه وتعالى هو المسعد وأنه لن يسعدك بمعصيته ولن تسـعد إلا بطاعته .. ما عصيته ..

أي خطإٍ ترتكبه هو في الأصل خطأ في العلم ، أي خطإٍ ترتكبه في السلوك أساسه جهل ، فلذلك أكاد أقولُ إن العلم وحده هو الطريق الموصل إلى ا عز وجـل وإذا أردتَ أن تتأكد التق مع صديق من أصدقائك القُدامى واجلس معه ساعة ولاحظ كيفَ أنـك أنـتَ فـي مجالس العلم التي تتابع حضورها كيفَ أن المعلومات والقناعات والحقائق تراكمت شيئاً فشيئاً فشيئاً حتى ولّدت قناعةً ثمينةً هذه القناعات جعلتك تستقيم على أمر ا .

فلذلك أثمن ما في الحياة الدنيا أن تعرفَ ا لأنك إن عرفته عبدته وإن عبدته سعدتَ بقربه في الدنيا والآخرة ، أقول لك ملخص الملخص هذا الدين أكثر من مئـات بـل ألـوف الملايين من مؤلفات الإسلام كُلُ هذه المؤلفات يمكن أن تُضغط بـثلاث كلمـات : يجـب أن تعرفَ ا َ حتى تعبده فإذا عبدته سعدتَ بقُربه .

لذلك المؤمن لا يرى غير ا ، ليس عنده حقد ، هذا الحقد المدمر من أين يـأتي ؟ من الشرك .. واحد عنده في العمل التجاري صانع اختلف معه فهذا الصانع أبلغ جهات معينة أنه هناك بضاعة في المستودعات غير نظامية ، فجاءت هذه الجهات وكلفته بـ ـ ٦٠٠ ألـف قصة من ١٢ سنة ، امتلأ هذا التاجر حقداً على هذا الصانع وقتله فحكم عليه ثلاثين عاماً فـي السجن ، لماذا نشأ هذا الحقد الشديد في قلبِ هذا التاجر ؟ لأنه رأى أن هـذا التـدمير الـذي أصابه من هذا الإنسان .. هذا هو الشرك ..

فالشرك فيه حقد يا أخوان ، والشرك فيه خوف ، يعني إذا واحد شاهد حيواناً مخيفاً أو مجموعة حيوانات مخيفة كُلها مفترسة وشرسة وجائعة وهو بلا سلاح يموت من الخوف ، أما إذا أيقن أن كُلَ هذه الحيوانات مربوطة بإحكام بيد جهة رحيمة وعادلة و منصفة لا يخافُ منها يخافُ ممن يقبض زمامها .. هكذا قال سيدنا داوود :

مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦

(سورة هود)

أيها الأخوة الأكارم ... والله لا أبالغ الحقد أساسه الشرك ، الخوف أساسه الشرك ، المعصية أساسها الشرك .. أكاد أقول إن كُلّ الأمراض النفسية ليست بأمراض ولكنها أعراض لمرضٍ واحد وهو الشرك .. كلام دقيق .. إن كُلّ الأمراض النفسية : الخوف ، النفاق ، الإنسان لماذا ينافق لأنه يرضي لهذا الذي ينافق له يرضيه .. لماذا يرضيه ..؟.. لأنه يرى أن له شأناً وأن هذا الذي ينافقُ له بإمكانه أن يعطيه شيئاً ثميناً أو بإمكانه أن يحرمه من شيء ثمين .

النفاق أساسه الشرك ، الحقد أساسه الشرك ، الخوف أساسه الشرك ، المعصية أساسها الشرك ، يعني أنتَ تظن بالمعصية هناك لذّة لكن الله يخلُق مع اللذّة شقاء ومع الشقاء فضيحة ومع الفضيحة دماراً ، أما لو آمن أن الله عز وجل لا يسعده إلا بطاعته .. وهو في الطريق الصحيح سعد فلذلك أقول لكم مرةً ثانية : إن أكثر الأمراض النفسية وإذا أردتُ أن أجزم إن كُلّ الأمراض النفسية ما هي في حقيقتها إلا أعراض لمرضٍ واحد وهو الشرك .

لذلك : تستغرب أن الأنبياء على اختلافهم ، واختلاف أقوامهم واختلاف عصورهم وأزمانهم ، جاؤوا بدعوة واحدة ، أعتقد في سورة :

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣

(سورة الأعراف)

العبارة نفسها قالها سيدنا صالح وسيدنا هود وسيدنا لوط وسيدنا إبراهيم ..... نبي نبي حتى أن الله عز وجل لخّص كُلّ هذه العبارات في عبارة واحدة قال :

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾

(سورة الأنبياء)

هذا الدين كُله ، الدين عقيدة وعمل ، العقيدة هي التوحيد ، والعمـل هـو الطاعـة والتقوى، لذلك قالوا : نهاية العلم التوحيد ونهاية العمل التقوى .. الطاعة .. من حيث السلوك نهاية النهاية أن تُطيع الله عز وجل ، من حيث العلم نهاية النهاية أن توحد الله عز وجل ، فإذا وحدته وعبدته فقد حققتَ كُلَّ ما في الدين وما بقي إلا القشور ، إذا وحدته وعبدته حققتَ كُـلَّ ما في الدين ، بل وضعتَ يدك على جوهر الدين ، بل كُنتَ أنتَ الدين الحقيقي ، بل كُنتَ أنتَ الذي اتبعتَ النبي عليه الصلاة والسلام ، توحيد وطاعة والتوحيد طريقه التفكّـر فـي خلـق السماوات والأرض ، يقول لك :

۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾

(سورة الأنعام)

يقول لك والله هذا الزواج كان غير سعيد .. كأن الله ليس له علاقة .. الزواج أخطر حدث في حياتك ما دام " **وما تَسقُطُ من ورقة إلا يعلمها** " هذه الزوجة الله عز وجل ساقها لك لتكون مكافأةً على ما فعلته قبلَ الزواج ، إن كُنتَ عفيفاً فالزواج مسعد ، وإن كنت منحرفاً قبلَ الزواج فالزواج مشق ، فما دام " **وَما تَسقُطُ من ورقة إلا يعلمها** " صندوق خشبي فيه طفـل رضيع مولود حديثاً في نهر :

وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧﴾

(سورة القصص)

عند ا لا خطأ أبداً كُل شيء بحساب ، حركة أوراق الأشجار ، حركة الأغصان ، يقول لك رصاصة طائشة .. لا يوجد طائشة عند ا .. هذه عند الناس ، عند ا مصـيبة ، عند ا لا يوجد خطأ أبداً شظية ، رصاصة طائشة ، قصف عشوائي ... هذا كُله عند البشـر أما عند ا لا يوجد عشوائي .

.. كُل شيء بقَدر لكُل شيء حقيقة وما بلغَ عبد حقيقةَ الإيمان حتـى يعلـم أن مـا أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطئه لم يكن ليصيبه .

وا أيها الأخوة أنا ناصح لكم : كُلما ارتقى توحيدكم سعدتم وا ِ ، سعدتم ، وارتحتم ، وأرحتم ، واطمأننتم ، ووثقتم بفضل ا ِ عز وجل .. النهاية أن لا ترى مع ا ِ أحـداً .. لا يوجد سوى ا وا ُ كبير إذا أردتَ الملخص : ا ُ موجود ولا يوجد غيره وكامـل ، ثـلاث كلمات تلخّص تسعاً وتسعين اسماً : واجب الوجود لا إله غيره :

وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠

(سورة الأعراف)

فإذا عرفته عرفتَ كُلَ شيء وا ِ إذا فاتك فاتك كُلُ شيء ، وإذا وجدته وجدتَ كُـلَ شيء، وإذا لم تجده لم تجد شيئاً ، وإذا كان ا ُ معك من عليك ؟ لا أحد ، وإذا كان عليك مـن معك؟ لا أحد .

يعني .. موضوع الشرك موضوع أساسي في الدين ، هو الدين كُله ، هو الحيـاة ، هو الراحة النفسية ، هو الثقة با ، هو الطمأنينة ، هو الشجاعة ، من أين تأتي الشـجاعة .. الخوف من الشرك ، الحقد من الشرك ، النفاق من الشرك ، الفجور من الشرك ، التملّق مـن الشرك ، استجداء المديح من الشرك ..... ما في موقف ضعيف لك إلا أساسه الشرك ، ما في موقف تصغُر فيه أمام الناس إما خائف منهم أو ترجو ما عندهم .. الطمع كما قالوا : الطمع أذل رِقاب الرجال ، لا تقف موقفاً سليماً إلا بسبب الطمع ، والطمع ما أساسه ، تطمـع بمـال فُلان أنتَ لم تطمع بفضل ا عز وجل :

ملك الملوك إذا وهب	قُم فاسألن عن السبب
ا ُ يعطي من يشاء	فقف على حد الأدب

لن تكون عزيزاً إلا بالتوحيد ، لن تكون شجاعاً إلا بالتوحيد ، لن تكـون عفـواً إلا بالتوحيد ، لن تكون جريئاً إلا بالتوحيد ، لن ترضى إلا بما قسمه الله لـك إلا بالتوحيـد ، .. التوحيد يشفي الإنسان من آلاف الأمراض .

تجد إنساناً صحيحاً معافى أجرى تحليلاً وجد جميع التحاليل كاملة ويكون عنده ١٠٠ مرض نفسي مدمر وهذه الأمراض تبدأُ أثارها بعد الموت ، أمراض الجسد تنتهي عند الموت ، أمراض النفس تبدأُ بعد الموت خطيرة جداً ، مثلاً : حقد ، حسد ، خوف ، نفاق ، فجـور .... لو معك منظار دقيق لا تُشهد إنساناً موقفه طفلي أو عنده موقف يتحجم فيه أو صغُر من عينك إلا بسبب أنه أشرك في هذه اللحظة ، يعني شاهد إنساناً منه نفع فتملّقَ له .. تملّق، مدح ، كذَب ، بالَغ ، تكلّم على غير قناعة .. صغُر في نَظَرِك لأنه أشرك .. أبداً .. فلن تَصلَ إلى أعلى مقام إلا بالتوحيد ، وحسبك أن الله عز وجل جعلَ فحوى رسالات الأنبياء كُلهم :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

(سورة الأنبياء)

أقول لك إن الدين كُله معرفة ، عبادة ، سعادة . طيب العبادة لن تكون إلا بالمعرفة والعبادة من لوازمها الحتمية السعادة فربنا اكتفى بها ، في نقطة مهمة جداً : التوبة علم ، ندم ، إقلاع ، عمل، قالَ النبي الندم توبة .. طيب لماذا لم يقل الثلاثة ، لِم اكتفى بواحدة ؟ قالَ : لأن هذا الندم لن يكون إلا بالعلم وأن لا بد من أن يولّد العمل ، فما دام هو معلّق على شيء ومـن لوازمه شيء نكتفي به ، لذلك قالَ الله عز وجل :

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

(سورة الذاريات)

لم يحك المعرفة ..العبادة لابد لها من معرفة ، العبادة لابد من أن تنتهي بالسعادة هذا الذي أتمنى أن يكون بين أيديكم في هذا الدرس هو : أن الشرك أكبر وأصغر ، الأكبر فاضح وغير فاضح ، الأصغر مما ابتلي به المؤمنون لكن كُل مؤمن له مستوى من الشرك ، في مؤمن قل ما يوحد ، وفي مؤمن قل ما يشرك لكن في شرك أصغر ، يعني .. الأم التي تعتني بابنها أو تمنح ابنها كُلَ حبها مع أنه مقيم على معصية .. هذا فيه شيء من الشرك ، لما أنتَ

صديقُك لا يصلي أو ترك الصلاة وأنتَ لم تهتم لأن هناك مصلحة مشتركة .. هذا شرك ..
أما إذا كُنتَ موحداً لا تأخُذك في ا ـِ لومةُ لائم .

والحمد   رب العالمين .

* * *

بســم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم ..... مع الدرس الواحد والثلاثين من دروس مدارج الســالكين في مراتب إياك نعبد وإياك نستعين ، الحقيقة في دروسٍ سابقة عدةً تحدثنا عن أنواع الذنوب ، تحدثنا عن الإثم والعدوان ، وعن الفحشاء والمنكر ، وعن أنواع الفسق ، وعن أنواع الشرك ، وعن أنواع الفجور ، وعن أنواع الكُفر ، وتحدثنا عن أعظم هذه الذنوب وهي أن تقولَ علــى ا ِ ما لا تعلم واليوم ننتقلُ إلى موضوعٍ جديد من سلسلة هذه الموضوعات التي نقــدمها لكــم تمهيداً لأخطرِ موضوعٍ في حياة المؤمن ألا وهو التوبة .

ذكرتُ لكم سابقاً أن الإنسان لا يتوب من ذنبٍ لا يعلمه ذنباً ، فــأولُ مرحلــة مــن مراحل التوبة أن تعرف ما الذنب ، ما الشرك الخفي ، ما الكُفر، ما الفجور ، ما الإثــم ، مــا العدوان ، ما الفحشاء ، ما المنكر ، ماهذا الذنب العظيم أن تقولَ على ا ِ ما لا تعلــم ، فلــن يتوب الإنسان من شيء هو عند ا ِ ذنب عظيم إلاّ إذا علم خطورةَ هذا الذنب وما يؤولُ إليــه صاحبه من عذابٍ في الدنيا وشقاء في الآخرة ، ففي سلسة هذه الموضوعات التي تنتهــي إن شاء ا تعالى بموضوع التوبة نحن اليوم مع موضوع الكبائر ، وقبلَ أن أخوض في تفاصيل هذا الموضوع لا بد من بعض الأمثلة .....

ترتكب مخالفة سير ، العملية تتراوح بين مبلغ يسير أو حجــز الســيارة أســبوع أو أسبوعين أو سحب شهادة أو ما إلى ذلك .. لكن حياتك سليمة .. ترتكب مخالفة تُكلّف شهرين سجن ، ترتكب مخالفة ثلاث سنوات ، تزوير وثيقة رسمية ست سنوات كتم معلومات ســت سنوات ، جريمة قتل ٢٥ سنة ، خيانة عظمى إعدام أليس كذلك ؟

في كُل مجتمع بشري أنظمة وقوانين بعضها خفيف بعضها جنحة ، بعضها جنايــة وبعضها جريمة ، وفي مخالفات مدنية وفي مخالفات جزائية ، هكذا.

كذلك : من السذاجة أن تظن أن كُلَ معصية معصية ، هناك معصيةٌ تستطيع أن تقول يارب نَدمتُ على فعل هذا تشعر أن ا َ غفر لك ، هناك معصيةٌ لا تستطيع أن تتوب منها بهذه السهولة لابد من دفع مبلغٍ كبير لابد من ترميم لابد من فعلٍ كبير يغطي هذه المعصية ، لكــن أخطر فكرة أتمنى عليكم أن تكون بين أيديكم هو أنه من السذاجة أن تظن أنــك إذا عصــيت تتوب باب التوبة مفتوح وا ُ غفور رحيم :

﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾

(سورة الحجر)

والقضية سهلة ... هنا الخطورة ... كُلما كبر الذنب صعب عليك أن تتوب منه .. بالضبط .. كُلما كبر الذنب صعب عليك أن تتوب منه .. لا تظن أن الذنب كما لو أنك تمشي على الرصيف نزلتَ من على الرصيف ثم عدتَ إليه .. لا .. هذه فكرة ساذجة ، هناك معاصٍ تُبعدك عن الله إبعاداً كبيراً ، هناك معاصٍ يحس صاحبها أنه ملعون وبعيد عن رحمة الله ، هذه الفكرة الخطيرة هي محور هذا الدرس هناك كبائر ، وهناك صغائر ، الصغائر التوبةُ منها سهلة .

على مستوى مركبة هناك حادث يصلّح في ساعة يكلّفُك ١٠٠ ليرة في حادث يكلّف ٢٠٠ ألف ، في حادث تُصبح المركبةُ قطعتين ، أو تُصبح مسطحةً تحتاج إلى مئات بل إلى قريب من مليون ليرة إصلاح مثلُ هذه السيارة ، كُله حوادث .. لا .. في حادث طفيف ، حادث أكبر، أكبر ، فالكبائر محور هذا الدرس :

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

(سورة النساء)

يظلُ المسلم بخير ما لم يسفك دماً ، الزنى كبيرة ، شُرب الخمرِ كبيرة ، السرقةُ كبيرة ، القتلُ كبيرة ، قذفُ إمرأة محصنة كبيرة ، فلذلك موضوع هذا الدرس : الكبائر... لا شك أن هذا الموضوع خلافي .. معنى خلافي .. أي أن السلفَ الصالح اختلفوا في تحديد الكبائر من سبعة إلى سبعين إلى سبعمائة .. على كُلٍ في كتاب مشهور اسمه الكبائر للإمام الذهبي عد فيه سبعين كبيرة طبعاً استنبطها من كتاب الله ومن سنة رسول الله ومن الآثار الصحيحة ، نحن الأن مع النصوص المحكمة مع كتاب الله ومع سنّة رسول الله في الصحيحين وهو أعلى أنواع الحديث من حديث الشعبي عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى اللهم عليه وسلم قال : الْكَبائِر الإشْراك بِالله ، وعقُوقُ الْوالِدين ، وقَتْلُ النفْس ، والْيمين الْغَموس *

(صحيح البخاري)

اليمين الغموس : أن تحلفَ با ـ عن قضية سابقة أنك ما أخذتَ هـذا المبلـغ وقـد أخذته ، يعني حينما تحلفُ با ـ لتأكُلَ حقَ مسلمٍ فهذا اليمين اسمه اليمـين الغمـوس وسـمي غموساً لأنه يغمس صاحبه في النار وهذا اليمين الغموس لا كفارةَ له لأنك إن حلفته خرجـتَ من الإسلام تحتاج إلى تجديد إسلامك وإلى تجديد إيمانك ، قالَ عليه الصلاة والسلام

روي عن أنس رضي اللّه عنه قال: "ذكر عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسـلم الكبـائر، فقال: الشرك با ، وعقوق الوالدين".

(الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري)

لذلك أنصحكم جميعاً ألاّ تُشارك عاقّاً لوالديه لأنه لا خير فيه لوالديه أيمكن أن يكون فيه خير لك ؟ من باب أولى أقرب الناسِ إليه والداه أولُ من أسدى له معروفاً والداه فإذا كان الإنسان عاقّاً لوالديه فلا خير فيه ، لذلك ليعمل العاقُ ما شاء أن يعمل فلـن يـدخُلَ الجنـة ، الإشراك با وتحدثنا عنه في الدرس السابق كثيراً وعقوق الوالدين وقتلُ النفسِ طبعـاً قتـلُ النفسِ بغير حق لما القاضي يمضي حكماً بإعدام القاتل هذا قتل نفس لكن هذا بـالحق والقتـلُ كما قيل أنفى للقتل .

وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

(سورة البقرة)

أما إذا قُلنا القتل نقصد به بغير الحق .. طبعاً قتلُ النفسِ بالحق من خصائص الحاكم فقط ، قتلُ النفسِ بالحق من اختصاص أُولي أمرٍ فقط ولا يستطيع آحاد المسلمين أن يقيموا هذا الحد ، لا حد القتل ولا حد الرجم ، ولا أي حد من الحدود ، الحدود منوطةٌ بالحـاكمِ المسـلم دفعاً للفوضى.

إذاً : الإشراك با ، عقوق الوالدين ، قتلُ النفسِ ، اليمين الغمـوس ، وفيهمـا ... معنى فيهما : في الصحيحين معطوفة على في الصحيحين ، وفيهما عن عبد الرحمن بن أبـي بكر عن أبيه عن النبي صلى ا عليه وسلم :

عن عبدالرحمن بن أَبِي بكْرةَ عن أَبِيه رضي اللهم عنْهم قالَ قالَ النبي صلى اللهـم عليـه وسلم أَلا أُنَبئُكُم بِأَكْبرِ الْكَبائِرِ ثَلاثًا قَالُوا بلَى يا رسولَ الله قَالَ الْإِشْراك بِالله وعقُوقُ الْوالِدينِ وجلَس وكَان متكئًا فَقَالَ أَلا وقَولُ الزورِ قَالَ فَما زالَ يكَررها حتى قُلْنا لَيتَه سكَتَ *

(صحيح البخاري)

لأن النبي عليه الصلاة والسلام لا يحب أن تضيع الحقوق ولا يحب الذُل وقد ورد في الأثر : أن عدل ساعة .. خير من عبادة سبعين عاماً .. سبعين سنة تعبد ا خير من كُل هذه العبادة أن تَعدل لأن ا َ هو العدل و يحب العدل .

وقد شكا حجر إلى ا ِ عز وجل قال : يا ربي عبدتك خمسين عاماً وتضعني في ُأسِ كنيف " بالمرحاض وضعتني ياربي " فقيلَ له تأدب ياحجر إذ لم أجعلك في مجلسِ قاضٍ ظالم .

يعني في هذا المكان في الكنيف أشرفُ لك ألفُ مرة من أن تكون في مجلسِ قـاضٍ ظالم، وكُل واحد منا قاضٍ ، أحياناً قاضٍ بين أولادك ، بين شركائك ، بين جيرانـك ، لـيس شرطاً أن يكون في الحياة منصبك القضاء .. لا .. حينما يحتكم إليك فأنتَ قاضٍ . عدلُ ساعة خير من عبادة سبعين عاماً ، وهذا الذي دخلَ إلى بيت وقتلَ الرجل وقال لزوجته أعطني كُـلَ ما عندك أعطته سبعة دنانير ذهبية فقتلَ ابنها الأول فلما رأته جاداً في قتل الثاني أعطتهُ مذهبةً أعجبته جداً فإذا عليهما بيتان من الشعر قرأهما فأُغمي عليه :

إذا جار الأمير وحاجبـاه وقاضِ الأرضِ أسرفَ في القضاء

فويـلٌ ثم ويـلٌ ثم ويـلٌ لقاضِ الأرضِ من قاضي السمـاء

وأنا أقول لكم هذا الكلام ويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ لقاضي الأرضِ من قاضي السـماء ، ويلٌ لإنسانٍ ظلم مخلوقاً ضعيفاً ، إتقوا دعوة المظلوم ولو كان كافراً :

عن عبدالرحمنِ بنِ أَبِي بكْرةَ ، عن أَبِيه رضي اللهم عنْهم قَالَ : قَالَ النبِي صلى اللهم عليه وسلم : أَلا أُنبئُكُم بِأَكْبرِ الْكَبائِرِ ثَلاثًا ؟ قَالُوا : بلَى يا رسولَ الله قَالَ : الإِشْـراك بِاللـه وعقُوقُ الْوالِدينِ وجلَس وكَان متكئًا فَقَالَ : أَلا وقَولُ الزورِ قَالَ فَما زالَ يكَررها حتـى قُلْنَـا لَيتَه سكَتَ *

- عن أَبِي وائِلٍ عن عمرِو بنِ شُرحبِيلَ عن عبدالله قَالَ : سأَلْتُ النبِي صلى اللهم عليه وسلم أَي الذنْبِ أَعظَم عنْد الله قَالَ : أَن تَجعلَ لِله نِدا وهو خَلَقَك قُلْتُ : إِن ذَلِك لَعظيم قُلْتُ : ثُم أَي ؟ قَالَ : وأَن تَقْتُلَ ولَدك تَخَافُ أَن يطْعم معك . قُلْتُ : ثُم أَي قَالَ أَن تُزانِي حلِيلَةَ جارِك *

(رواه البخاري)

أن تقول : فُلان يعطيني ، وفُلان يؤذيني ، و فُلان يبعدني ، و فُلان كُل آمالي معلّقـةٌ عليه، " أَن تَجعلَ لِله نِدا وهو خَلَقَك قُلْتُ إِن ذَلِك لَعظيم قُلْتُ ثُم أَي قَالَ وأَن تَقْتُلَ ولَدك تَخَافُ أَن يطْعم معك " :

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

(سورة الأنعام)

أما ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقهم وإياكم .. في دقّة بالغة .. " قُلْتُ ثُـم أي قالَ وأن تَقْتُلَ ولَدك تَخَافُ أن يطْعم معك قُلْتُ ثُم أي قالَ أن تُزاني حليلَـةَ جـارِك "، لأن الزنى كبيرة أما أن تزني بإمرأة جارك فهذا من أكبر الكبائر ، لـذلك النبـي عليـه الصـلاة والسلام بلغه أن رجلاً سافر وأوصى جاره بأهله فزنى بزوجة جاره ومن أغربِ الصـدف أن كلب جاره قتله فقالَ عليه الصلاة والسلام : خان صاحبه والكلب قتله والكلب خير منه .

عنترة العبسي في الجاهلية كان يقول :

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

فأنزلَ ا ُ تعالى تصديقَ قول النبي عليه الصلاة والسلام :

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾

(سورة الفرقان)

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرةَ رضي ا َ عنه عن النبي صـلى ا عليـه وسلم قال :

عن أَبِي هريرةَ رضي اللهم عنهم عن النبي صلى اللهم عليه وسلم قَـالَ اجتَنبـوا السـبع الْموبِقَات قَالُوا يا رسولَ الله وما هن قَالَ الشرك بِالله والسحر وقَتْلُ النفْس التي حرم اللـه إِلا بِالْحق وأَكْلُ الربا وأَكْلُ مال الْيتيم والتولي يوم الزحـف وقَـذْفُ الْمحصـنَات الْمؤْمنَـات الْغَافلات *

(رواه البخاري ومسلم)

من سحر فقد كفر من أتى ساحراً فلم يصدقه لم تُقبل له صلاةُ أربعين صـباحاً ولا دعاء أربعين ليلة من أتى كاهناً فصدقه فقد كفر بما أُنزلَ على محمد ، لا جـد و لا مـزح " قالَ الشرك بالله والسحر وقَتْلُ النفْسِ التي حرم الله إلا بالْحق " ربنا عز وجل يقول في آيـة رائعة جداً في سورة التكوير :

وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾

(سورة التكوير)

يعني .. كُل مخلوق يقتل بلا سبب حتى العصفور لو قتلتَ عصفوراً لغير مأكلة جاء يوم القيامة وله دوي كدوي النحل يقول ياربي سلّه لِما قتلني ، لذاك الصيد دون حاجـة إلـى طعامٍ مضطرٍ له حرام لأنه قتلُ نفسٍ بغير حق وإتلافُ مالٍ ومخالفةُ أمرٍ .

" قالَ الشرك بالله والسحر وقَتْلُ النفْسِ التي حرم الله إلا بالْحق وأَكْلُ الربا وأَكْـلُ مال الْيتيمِ والتولي يوم الزحف وقَذْفُ الْمحصنَات الْمؤْمنَات الْغَافلات " ا ُ عز وجل لم يقُـل ولا تأكلوا أموال اليتامى قال :

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾

(سورة الإسراء)

تقربوا أبلغ .. يعني .. إياك أن يختلط مالك بماله ، فإذا إختلطَ مالـه بمالـك ربمـا أخذتَ منه وأنتَ لا تشعر وأنتَ لا تدري فإفرز ماله جانباً " ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن "، " والتولي يوم الزحف "، الهروب من لقاء العدو هذه كبيرة ، "وقَـذْفُ الْمحصـنَات الْمؤْمنَات الْغَافلات " قذفُ محصنة يهدم عملَ مئة سنة ، الإشراك ، عقوق الوالـدين ، قتـلُ النفس ، اليمين الغموس ، أُضيفَ لها في الحديث الثاني : قولُ الزور ، أُضيفَ لها في الحديث الثالث : أن تُزاني حليلة جارك ، وأن تقتلَ ولدك مخافةَ أن يأكلَ معـك ، أُضـيفَ لهـا فـي الحديث الرابع : الشرك وأكلُ الربا وأكلُ مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقـذفُ المحصـنات الغافلات المؤمنات .

وروى شُعبة عن سعد ابن ابراهيم سمعتُ حميد ابن عبد الرحمن يحدثُ عن عبد ا بن عمرٍ رضي ا عنهما عن النبي صلى ا ُ عليه وسلم قال :

عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى اللهم عليه وسلم قال إن من أكبر الذنب أن يسب الرجلُ والديه قالوا وكيفَ يسب الرجلُ والديه قال يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه *

(صحيح مسلم)

طبعاً أن يسب الرجلُ والديه كبيرة جداً لكن وكأن للنبي عليه الصلاة والسلام يوجهها توجيهاً آخر قال : وكيفَ يسب الرجل والديه ؟ الأب مقدس جداً حتى أن أكبر سبة في الأدب العربي في الجاهلية أن تقول لخصمك لا أباك .

سئمتُ تكاليفَ الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أباك يسأم

يعني إذا أردتَ أن تسب إنساناً قُل له لا أب لك .. أنتَ بلا أب .. لما ربنا عز وجل قال :

﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤ ﴾

(سورة التوبة)

بدأ بالأب لأن الأب موطن الاعتزاز الاجتماعي .

" أن يسب الرجلُ والديه قالوا وكيفَ يسب الرجلُ والديه قال يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه * "

يعني .. إذا أسأتَ للناس حتى حملتهم على أن يسبوا الأب فكأنك أنتَ سببتَ أباك .. كلام واضح كالشمس ..

وفي حديث أبي هريرة رضي ا عنه عن النبي صلى ا عليه وسلم قال :

عن أبي هريرةَ قال قال رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم إن من أكبر الكبائر استطالةَ المرء في عرض رجلٍ مسلمٍ بغير حق ومن الكبائر السبتان بالسبة *

نهش في أعراض الناس ، تتحدث عنهم بغير حق ، دون دليل ، دون تثبت ، دون تأكد، قصة تُروجها للتسلية ، تتهمه في دينه وهو بريء ، تتهمه في ذمته وهو بريء ، تتهمه

في عرضه وهو بريء .. هكذا .. خطب من عندنا وتزوج من أخرى لابد من أن نُجرحه .. يا أخي هذا لا يجوز .. نتهمه بدينه ، وندعي أنه يشرب أمتأكد أنه يشرب ؟ لأن الخطبة لـم تنجح زعمنا أنه يشرب ، يجرح بلا سبب ، بلا دليل ، بلا تأكيد ، بلا بيِّنة ، يتهم في عقلـه ، يتهم في دينه ، يتهم في أخلاقه ... هذه من أكبر الكبائر والمشكلة أيها الإخوة : هـذا الـذي اتهمته وهو بريء اسمعوا مني .. في عندك حل واحد في الدنيا .. حل واحد: أن تذهب إليـه وأن تعتذر منه وأن تطلب منه السماح وأن تعقد جلسةً أخرى كالتي عقدتها من قبل وأن تذكُر ذلك للناس حتى تنجو من عذاب ا وإلا .. يأتي يوم القيامة فيأخذ من حسناتك ويعطيك مـن سيئاته ..

عن أَبِي هريرةَ عن النبِي صلى اللهم عليه وسلم قَالَ هلْ تَدرون من الْمفْلس قَالُوا الْمفْلـس فينَا يا رسولَ الله من لا درهم له ولا متَاع قَالَ إِن الْمفْلس من أُمتي من يأْتي يوم الْقيامـة بِصيامٍ وصلاة وزكَاة ويأْتي قَد شتَم عرض هذَا وقَذَفَ هذَا وأَكَلَ مالَ هذَا فَيقْعد فَيقْتَص هـذَا من حسنَاته وهذَا من حسنَاته فَإِن فَنيتْ حسنَاتُه قَبلَ أَن يقْضي ما عليه من الْخَطَايا أُخذَ من خَطَاياهم فَطُرِحتْ عليه ثُم طُرِح في النارِ *

(صحيح مسلم)

أقول لكم هذا االكلام وأنا أعني ما أقول إذا كان سبقَ وأن اغتبتَ سارع إليـه واعتـذر منه واعقد جلسةَ مشابهةً للذي تكلمتَ فيها واذكر للناس أنك تكلّمت بحق فُـلان كلامـاً غيـر صحيح وأنك تعتذر منه وهو منه بريء وإلا سوفَ يأخذُ من حسناتك وسوفَ يطـرح عليـك سيئاته .. انتبه ..

" إن من أكبر الكبائر استطالة الرجل في عرضِ أخيه المسلم بغير حق " .. لسـتَ متأكداً .. فكيفَ إذا كفّرته بلا سبب ..؟.. كُلما خالفَ رأيه رأيك تُكفره ، كُلما خالفَ إجتهـاده إجتهادك تُكفّره ، يعني إذا قُلتَ يارسولَ ا .فأنت مشرك .. "إِن من أَكْبرِ الْكَبـائِرِ اسـتطَالَةَ الْمرء في عرضِ رجلٍ مسلمٍ بِغَيرِ حق ".

الأن عن الصحابة :

" وعن عبد ا بن مسعود قالَ : أكبر الكبائر الشرك با ، والأمن من مكرِ ا " .

مقيم على معصية ، مقيم على دخل حرام ، مقيم على إختلاط لا يرضي ا ، لـك علاقاتٌ من وراء زوجتك لا تدري بها ، وتُصلي .. أنتَ ماذا تفعل ؟ أنتَ آمن من مكرِ ا .. يعني .. ا عز وجل هكذا يدعك تَغُشُ الناس :

أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾

(سورة العنكبوت)

هكذا ببساطة ؟ تزور هذا البيت وليستَ زيارتك بريئة وتدعي أنك مسلم وأنك تُصلي والمسبحة بيدك ، تُتمتم دائماً لا إله إلا ا   ... لا بد من أن تُكشف ولا بد مـن أن تُفتضح .

لذاك :

أَخْبرني أَبو هانئٍ أَن أَبا عليٍّ عمرو ابن مالِكٍ الْجنْبِي حدثَه فَضالةُ بن عبيد عن رسول اللـه صلى اللهم عليه وسلم أَنه قالَ ثَلاثَةٌ لا تَسأَلْ عنْهم رجلٌ فَارقَ الْجماعةَ وعصى إِمامه وماتَ عاصيا وأَمةٌ أَو عبد أَبقَ فَماتَ وامرأَةٌ غَاب عنْها زوجها قَد كَفَاها مؤْنَةَ الدنْيا فَتَبرجتْ بعده فَلا تَسأَلْ عنْهم وثَلاثَةٌ لا تَسأَلْ عنْهم رجلٌ نَازع الله عز وجل رِداءه فَـإِن رِداءه الْكبرِيـاء وإِزاره الْعزةُ ورجلٌ شَك في أَمرِ الله والْقُنُوطُ من رحمة الله *

(مسند الإمام أحمد)

يوجد أمل .. ألا يقدر ا   عز وجل أن يخلّصك مما أنتَ فيه ، أي هذا المـرض ألا يستطيع ا   عز وجل أن يشفيك منه ؟.. هذا هو المرض الخطير ، ليس مرضه العضال لكـن المرض يأسه من رحمة ا   أين :

وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾

(سورة الشعراء)

" واليأس من روح ا   "، اليأس والقنوطُ من الكبائر ، لا أمل في الزواج .. لا يوجد عندي بيت ودخلي لا يكفيني ، هل هذه المشكلة تستعصي على ا   عز وجل ؟ أو يفهم الأمور أنه جهاد بالعالم يفعلون ما يريدون وكُلُّ هذه الشعوب لِخدمتهم .. أين ا   عز وجل ؟ هذا كلام فيه يأس .. هذا فيه قنوط ، القنوط من رحمة ا   ، واليأس من روح ا   ، والأمن من مكر ا   ، والشرك من الكبائر .

قالَ سعيد بن جبير سألَ رجلٌ ابن عباس عن الكبائر : أسبع هم؟ قالَ : هـن إلـى السبعمائة أقرب إلا أنه لا كبيرةَ مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار .

يعني إذا كُنتَ مصراً على مصافحة إمرأة أجنبية دائماً ليس فيها شيء مع أن النبـي عليه الصلاة والسلام يقول إني لا ُأصافح النساء مصافحة المرأة الأجنبية إذا أصررتَ عليها

وأكّدتَ إباحتها وهي محرمةٌ بنص الحديث الشريف هذه كبيرة ، والكبيرة نفسها لو تُبتَ منهـا أصبحت صغيرة ، لا كبيرةَ مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار .

يعني مثل سريع أضربه كثيراً : الطريق عريض وعلى يمينه واد سـحيق عرضـه ٦٠ متر وأنت في الوسط وتقود مركبة ، حرفُ المقود تسعين درجةً فجأةً هذه كبيـرة لمـاذا لأنها تودي إلى الوادي بسرعة ؟ أما لو انحرف سنتيمتراً واحداً و ثبتَ هذا السنتيمتر ، بعـد مائة متر سيقع بالوادي .. إذا أصررتَ على الصغيرة انقلبت إلى كبيرة .

سميت صغيرة لأنه يسهل الاستغفار منها مباشرة عادت إلـى مكانهـا ، لكـن إذا أصررت وما دام مصر ففي الآخرة على الوادي لا صغيرة مع الإصـرار ولا كبيـرةَ مـع الاستغفار ، وقالَ هذا الصحابي الجليل: كُلُ شيء عصي ا ُ به فهو كبيرة ، الدليل : لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت .

كُلُ شيء عصي ا ُ به كبيرة من عملَ شيئاً منها فليستغفر ا َ فإن ا َ لا يخلّد فـي النارِ إلا من كان راجعاً عن الإسلام أو جاحداً فريضةً أو مكذباً بالقدر ، أما كُل ذنب يمكن أن تتوب منه .

وقد قالَ عبد ا بن مسعود رضي ا ُ عنه : ما نهى ا ُ عنه في سورة النسـاء مـن أولها إلى قوله تعالى :

إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾

(سورة النساء)

الأن : السؤال الكبير كيفَ استنبطَ العلماء الكبائر ؟ فهذا الجواب جواب أحد العلماء قالَ : كُلُ ذنبٍ ختمه ا ُ بنارٍ أو بغضبٍ أو لعنة أو عذابٍ ، إقرأ أنتَ القرآن :

خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾

(سورة البقرة)

كبيرة ...

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾

(سورة الأحزاب)

كبيرة ...

وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾

(سورة الفتح)

كبيرة ...

أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

(سورة يونس)

كبيرة ... أي ذنبٍ خُتم بنارٍ أو بغضبٍ أو لعنة أو عذابٍ هو كبيرة . في تعريف آخر للكبيرة : هي ما أوعد الله عليه حداً في الدنيا أو عذاباً في الآخرة .

وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾

(سورة المائدة)

ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا
رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا
طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

(سورة النور)

أي ذنبٍ في القرآن الكريم أوعد الله به حداً في الدنيا أو عذاباً في الآخرة فهو كبيرة
.

تعريف ثالث : ما سماه الله في القرآن كبيراً فهو كبيرة :

وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟
أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾

(سورة النساء)

وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟
أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾

(سورة الإسراء)

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ
عَظِيمٌ ﴿١٣﴾

(سورة لقمان)

فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ
﴿٢٨﴾

(سورة يوسف)

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة النور)

﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

أيةُ كلمة في القرآن عظيم كبير ، كبير عظيم ، فهذا يعني أن هذا الذنب من الكبـائر ، ومن أكبر الكبائر أن تبتدع في الدين ما ليس فيه ، لأن المذنب يتوب من الذنب أما المبتدع يرى أنه على صواب ، المبتدع الذي جاء بعقيدة لا أصلَ لها ، أو بسلوك لا أصلَ له ، أو نهى عن شيء أباحه ا ، أو أمر بشيء حرمه ا ، أو حرفَ العقيدة وفقَ أهوائه ومصالحه .. كُلُّ من جاء بشيء ليس من الدين فهو مبتدع والمبتدع هو من أكبر الكبائر هو نفسـه كبيـرة .. التعليل .. قال : لأن البِدعة لا يتاب منها والمعصيةَ يتاب منها .

إذا إنسان يعتقد أن هذا العمل غلط ونفسه غلبته .. أغلب الظن أنه يتـوب منـه إن عاجلاً أو آجلاً .. لكن إذا اعتقد أنه لا يوجد شيء كيفَ يتوب منه ؟ إذا اعتقد اعتقاداً قطعيـاً أن هذا الشيء مباح أو أن هذه الفكرة صحيحة هذا لا يتوب منها :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لذلك : المبتدع لا توبة له لأنه لن يتوب .

قال : كلُّ ذنبٍ عليه عقوبةٌ في الدنيا مشروعةٌ محدودةٌ كالزنى وشُربِ الخمرِ والسرقة والقذف أو عليه وعيد في الآخرة كأكل مال اليتيم :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

هذه كبيرة .. والشرب في آنية الفضة والذهبِ ، وقتلُ الإنسانِ نفسه كبيرة ، وخيانته أمانته .... ونحو ذلك .. هذه كُلُها كبائر .

عرفنا ما الكبيرة : فيها كلمة عظيم ، فيها لعن ، فيها غضب ، فيها وعيد بالنـار ، والذي جاء في الحديث الشريف ، الإمام الذهبي جمعها سبعين كبيرة وأتمنى على ا عز وجل أن يحتاطَ الإنسان وأن يعرفَ بالضبط ماالكبائر حتى لا يقع فيها .

قال : المحسن من إكرام ا له إذا ذلّت قدمه حسناته تشفع له ، فإذا الإنسان وقع فـي مازق النبي علّمنا الدعاء : يارب إن كُنتُ فعلتُ هذا العمل خالصاً لوجهك ففرج عني الأن .. معناها الإنسان له أن يتوسل إلى ا ـ عز وجل بأعماله الصالحة السابقة .

قالَ لي تاجر من تجار الغنم الكبار : كُنتُ في البادية مع قطيع غنم اشتريته - قصـة قديمة - قالَ لي : وضللنا الطريق وأصابنا عطشٌ شديد كدتُ أهلك أنا ومالي فصليت ركعتين وقُلتُ له : يارب .. مرة راودتني امرأةٌ عن نفسها فعففت وخفتك .. يارب إن كُنـت تركتهـا خشيئةً منك فأنقذنا الأن وما هو إلا وقتٌ قصير حتى رأى بدوياً دلّه على مكانٍ فيـه مـاء .. يارب إن كُنتُ تركتُ مراودة فلانة خشيةً منك لا لشيء آخر فأنقذني مما أنا فيه، فمن السـنّة الإنسان أن يتوسل إلى ا عز وجل بصالح عمله .

في نقطة مهمة جداً سأقرؤها لكم بدقة قال : الكبيرة التي يقترن بها حياء وخـوفٌ واستعظام ، إذا اقترن بها حياء من ا وخوف واستعظام ِلما فعل قال هـذه الكبيـرة تُلحـق بالصغائر.

والصغيرةُ إذا اقترن بها قلةُ حياء .. وعدم مبالاة وترك الخوف والاستهانة .. تُلحـق بالكبائر .. وهذه الكلمة يقولها معظم الناس .. شو عملنا يا أخي ؟ إذا نظرنا ماذا يحصـل .. أكلناها ؟ ا عز وجل قال :

قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠

(سورة النور)

أنتَ حينما نظرت ونفسك غَلبَتَك واستحييت من ا وبادرتَ إلى التوبة و تصدقّت فا يجعلُها صغيرة ، أما إذا قُلت ماذا صنعت ؟ أين نذهب بأعيننا ؟ هذا استخفاف بأمر ا عـز وجل مع أن ا َ عز وجل لا يكلّفُ نفساً إلا وسعها ، استخفاف بأمر ا .

فإذا الكبيرة اقترنت بالحياء والخوف والاستعظام تُلحقُ بالصـغائر ، فـإذا الصـغيرةُ اقترنت بقلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها تُلحقُ بالكبائر .

سيدنا يونس كما تعلمون حينما ضجِر من قومه وتركهم فكأنه بشكل أو بآخر تخلّـى عن رسالته فربنا عز وجل جعله في بطن الحوت لكن بعد أن أنقذه قال :

فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾

(سورة الصافات)

إذاً : تسبيحه السابق شفع له هذه الذلّة .. أرجو ا أن أكون مصيباً في قولي .. يعني .. المؤمن غالٍ على ا إذا لك سابقة فضل ، لك ماضٍ مجيد مع ا ، لك جهادك في سـبيل ا جِهاد نفسك وهواك ، تُبذل ، تُنفق من مالك ، فإذا عثرت فا سبحانه وتعالى يجبـر عثـرات الكرام .

ماضيك المشرف ، طاعتك المديدة ، حبك عز وجل ، إنفاقك في سبيل ا ، هذا يشفع لك عند ا بمعنى أنه يقيلُ عثارك .. إذا زلّت قدمك .. لا سمح ا .. لا يتخلى ا عنك هذا الماضي الطيب يدعو إلى أن يتولى ا ُ معالجتك معالجة دقيقة .

أحياناً الإنسان يغلط فيسوق ا من الشدائد ما يحمله على التوبة ليس ذلك إلا لكرامة العبد على ربه إذا أحب ا ُ عبده عدلَ له بالعقوبة ، يعني أنتَ إما أن تكون مهملاً من قبل ا عز وجل وإما أن تكون في العناية المشددة ، فإذا لك ماضٍ طيب ، فيه صدق مـع ا ، فيـه عبادة إلى ا ، فيه خدمة الناس ، فيه معرفة كتاب ا .. هذا الماضي ، هذا الذي يدعو إلـى أن تكون في العناية المشددة ليس معناها لا تُعاقب لكن ا عز وجل لا يتخلّى عنك ، ما دمت قد سبقت منك الحسنى فلا بد من أن يتولى ا ُ معالجتك هذا استُنبط من قوله تعالى " فَلَولا أَنه كان من الْمسبحين لَلَبِثَ في بطْنه إِلى يومِ يبعثُون " .

في نقطة مهمة جداً أتمنى على ا عز وجل أن تنكشفَ لنا جميعاً فـي أحاديـث كثيـرة مفادها أنه من قال لا إله إلا ا دخلَ الجنة ففي أشخاص مغرِضون يفهمون هذا الحديث على غير ما أراده النبي ، يفهمون هذا الحديث أنه قُل لا إله إلا ا وانتهى الأمـر فكُـل الـذنوب مغفورة ، كُلُّ الإنحرافات مستورة ، .. لا .. المعنى أعمق بكثير .

المعنى : كلمة لا إله إلا ا نور .. نور ساطع .. بشكل مادي إنسان معه مصـباح منير والطريق مظلم في بالطريق حفر وفي أكمات ، في أفاعٍ ، في ثمرات ، في أحجار ، في أشواك .... ، إنسان سوي وعاقل وبالغ وراشد ومدرك وبصره حاد ومعه مصباح منير أيعقل

أن أن يقع في الحفرة وهو يراها.. لا يعقل .. ، أيعقل أن يمسـك بـالأفعى وهـي أفعـى .. مستحيل .. ، بمصباحك المنير تتقي الحفرة ، وتأكُلُ الثمرة ، وتبتعد عن الشـوك ، وتقتـلُ الأفعى .

إذاً من قال لا إله إلا الله نورت قلبه ، فكيفَ يغفر لأهل لا إله إلا الله ..؟.. لأنهم إذا قالوها فعلاً لا يرتكبون ذنباً .. بهذا المعنى .. ، ليس معناها أن ترتكب الذنوب وأن تقـول لا إله إلا الله .. لا .. هذا فهم ساذج ، يعني لا إله إلا الله حصني من دخلها أمن من عذابي ، لا إله إلا الله نور في القلب ، الله ماذا قال ؟ قال :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّـٰتٍ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ‌ۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَـٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآ‌ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

(سورة التحريم)

يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَـٰنِهِم بُشۡرَٮٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّـٰتٌ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا‌ۚ ذَٲلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾

(سورة الحديد)

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّـذِينَ ءَامَنُـواْ ٱتَّقُـواْ ٱللَّـهَ وَءَامِنُـواْ بِرَسُـولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡـمَتِهِۦ وَيَجۡـعَل لَّكُـمۡ نُـورٗا تَمۡشُـونَ بِـهِۦ وَيَغۡفِـرۡ لَكُـمۡۚ وَٱللَّـهُ غَفُـورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾

(سورة الحديد)

قال : هذا النور يحرقُ الشهوات والشُبهات ، كُلما اشتد النور أضاء ما حولـه ورأيـتَ الحقَ حقاً والباطلَ باطلاً .. رأيتَ كُلَ شيء .. يعني الإنسان مفطور على حبِ ذاته ، سـائق السيارة أيعقل أن يجد حفرة والطريق معبد والحفرة عميقة أن ينزل فيها ؟ مستحيل .. إذا رآها فعلاً فهي لا إله إلا ا .. هذا التوحيد ، نور في القلب ، نور يقذفه ا بالقلب فإذا غُفِر لأهل لا إله إلا ا لأنهم وقّوا أنفسهم بهذا النور من أن يقعوا في ذنب .. هذا هو المعنى ..

الشيء الثاني : الذي أتمناه عليكم هو أن كُلَ حديث تقرؤونه فيه كلمة قال ، من قـالَ ، من دعا ، إياكم أن تظنوا أنك إذا قُلتَ بلسانك قطفتَ ثمار هذا الحديث ، القول باللسان لا يقدم ولا يؤخّر ولا يغير شيئاً ما لم يكن القلب حاضراً والقلب خاشعاً ، ما لم تكـن فـي مسـتوى الحديث في مستوى الدعاء لن يؤثر الدعاء ولن يؤثر القول .. هذه حقيقة .. مثلاً يقول لك أنا عندي وساوس تأتيني كوابيس في الليل أقول له ليس عندي إلا حل واحد :

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

(سورة الأعراف)

تقول قلتها كثير ولم أستفد .. أنتَ قُلتها بلسانك إن لم تقلها وأنتَ حاضـر القلـب ، وأنتَ مدرك لمعناها ، إن لم تقلها وكأنها تجري في دمك لن تقطفَ ثمار هذا القول ، فحيـثُ ماقرأتَ في السنة أنه من قال لا إله إلا ا دخلَ الجنة ، من قال سبحانك اللهم مائة مرة غُفـر له ، يعني إذا سبحتَ ا فعلا الباقيات الصالحات : سبحان ا والحمد ولا إلـه إلا ا وا أكبر اذكرهن مليون مرة لا يحدثُ شيء ، أما لو سبحتَ ا ً فعلاً أي نزهتـه ومجدتـه ولـو وحدته سبحان ا ، ولو حمدته والحمد ، ولو كبرته ، أنتَ سبحته وحمدته ووحدته وكبرته فأنت تعرفه وما دمتَ تعرفه :

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فالكلام يبقى كلاماً ما لم يكن القلب مواطئاً له ، وما لم يكن الخشوع ملامسـاً لـه ، وما لم يكن الإدراك معنياً به ، فكل قول تقرؤه في الكتاب والسنّة لا قيمةَ لـه إلا إذا حضـر القلب معك مثلاً : من قالَ في يومٍ سبحان ا ِ وبحمده مائة مرة حطت عنه خطاياه أو غُفـرت ذنوبه .. الكلام صحيح بمعنى وغلط بمعنى آخر ، صحيح ما دمت قد سبحتَ ا فعلاً انتهـى كُل شيء فأنتَ عرفته ، أما إذا قُلت سبحان ا سبحان ا ومرت امرأة ونظرت إليها .. قلها مليون مرة لن تُقدم ولن تؤخر ، لا تكن شكلياً أيها الأخ ديننا أعظم من ذلك ، ديـن ا عـز وجل

مستحيل أن تقبل جامعة أن تعطيك إجازة بأن تقول إجازة مئات المـرات ، إجـازة الليسانس أربع سنوات دراسة وكل سنة فيها ١٢ مادة وكل مادة فيهـا ٣٠ كتـاب ومراجـع وحلقات بحث .. تُحس وكأنك ذُبت ذوباناً بعد أربع سنوات ، جامعة عادية لا بد فيهـا مـن دراسة ومن مناهج و من كُتب ومن امتحانات ... معقول أن تقول سبحان ا ولم يعد هنـاك ولا ذنب .. هذا وا عمل سهل .

كُل مال حرام وإفعل ما تشاء وإذهب إلى أي مكان يغضب ا عز وجل وفي المساء يكفي أن تقول ١٠٠ مرة سبحان ا تحتاج إلى ربع ساعة .. فالدين أعظم من ذلك ، إذا ورد معك بالسنة كلمة من قال سبحان ا يعني قلبه تفطّر من تعظيم ا عز وجـل ، سـبحان ا ودموعه على خده ، سبحان ا وجلده مقشعر ، سبحان ا وقد عزم على التوبة فعلاً ، من قالَ سبحان ا وفي معها توبة ومعها خشوع و معها خشية .. غُفرت لـه كُـلُ ذنوبـه .. فإياكم أن تفهموا هذه الأحاديث على ظاهرها ، الأقوال وحدها لا قيمة لها ، فبإمكان أي إنسان مهما كان بعيداً عن ا أن يقولها .

بقي بحثٌ أخير : بالنسبة لكل إنسان له ذنوب .. يعني .. سيدنا ابراهيم ُأمر أن يذبح ابنه ماذا فعل ..؟.. كُلما ارتفعت مرتبة الإنسان تُصبح الصغائر في حقه كبائر .. هنا في نقطة جديدة .. يجوز أن أجد رجلاً في الأساس عاصياً شارب خمر ، زانياً ، عندما تـرك الزنـى وترك الخمر ُأراه أصبح ولياً ، هذا ولي لأنه ترك الزنى والخمر فقط لكن كُلما سرتَ إلى ا يمكن المؤمن الراقي يعاتب على كلمة قالها، يعاتب على نظرة نظرها .

لذلك قالوا : " حسناتُ الأبرار سيئات المقربين " ، سيدنا ابن رواحة ماذا فعل ؟ عينه النبي عليه الصلاة والسلام قائداً رقم ٣ في معركة مؤته وأول قائد سيدنا زيد قُتل وثاني قائـد قُتل سيدنا جعفر وجاء دور سيدنا عبد ا ابن رواحة .. الموت سريع جـداً تريـث .. كـان شاعراً قال :

يانفس إلا تُقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
إن تفعلي فعلهما رضيت وإن توليـت فـقد شـقيت

أخذَ الراية وقاتلَ بها حتى قُتل .. ماذا عمل ؟ ماتَ في سبيل ا ، النبي عليـه الصـلاة والسلام قال : أخذَ الرايةَ أخوكم زيد فقاتلَ بها حتى قُتل وإني لأرى مقامه في الجنة ثـم أخـذَ الرايةَ أخوكم جعفر فقاتلَ بها حتى قُتل وإني لأرى مقامه في الجنة ثم سكتَ النبي عليه الصلاة والسلام فلما سكتَ النبي قلقَ أصحابه على عبد ا قالوا ما فعلَ عبد ا قالَ : ثم أخذَ الرايـة أخوكم عبد ا وقاتلَ بها حتى قُتل وإني لأرى في مقامه إزوراراً عـن صـاحبيه ، درجتـه هبطت .

مرة تكلّمتُ قصة نصفُها وقع ونصفُها أكملته من عندي الذي وجد بالحاوية كيسـاً أسـود يتحرك فإذ به طفل مولود حديثاً فأخذه ورباه ... إلى آخره أنا أكملتُها خرجه طبيباً وقد زوجه ابنته وأخذَ له عيادة صار من ألمع أطباء دمشق فهذا الطبيب مرةً رأى عمه يمشي في الطريق على قدمين قالَ يا فُلان أوصلني إلى البيت ففكر أربع ثوانٍ وقالَ له تفضل ... هـذه الأربـع ثوانٍ بحق هذا الطبيب جريمة .... أليس كذلك ؟ كُنتَ في الحاويـة وانتشـلك مـن الحاويـة وخرجك طبيباً .. تقول له : تفضل لكي أُوصلك .. بعد تردد . التردد جريمة .

فالإنسان كُلما علا مقامه تصبح الصغائر في حقه كبائر ، ما فعلَ أصحاب رسـول ا في حنين هم كانوا ٣٠٠ انتصروا بأُحد بالخندق ... الأن أصبحوا عشرة آلاف أكبر قـوة ضاربة في الجزيرة فقالَ أحدهم لن نُغلب اليوم من قلّة .. فقط هذه الكلمة .. قال :

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾

(سورة التوبة)

مباشرةً جاء العقاب ، حتى أن النبي عليه الصلاة والسلام أمسك حفنة من تراب وألقاها على وجوه الكفار وقالَ : شاهت الوجوه أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب .. عندها تماسك الصحابة .. وألقى الله في قلوب أعدائهم الخوف وولوا مدبرين .

الواحد في أول الإيمان يقول مليون كلمة ولا يجري له شيئاً .. الأن إجلس مع واحد يقول لك أنا ألف مرة أنا عملت ، أنا كذا ، أنا كذا ، مادام ترك الكبائر يهيئ له الله معالجة لا حقة ، فكُلما علا مقامك تصبح الصغائر في حقك كبائر ، يعني يجوز مؤمن ينظر نظرة بغير حـق فينحجب شهراً أو شهرين ، يجوز أن يتكلّم كلمة لا تُرضي الله فينحجب أربع أسـابيع ، فـإذا انحجبت لسبب صغير معناها مقامك كبير ..

دققوا في هذه الكلمة : إذا حجبت لسببٍ صغير معناها مقامك كبير.. منـذ يـومين زارنا أخ مع ابنه الصغير ، سبحان الله لم انتبه للصغير فقال لي ابني أحب أن يسلّم عليـك .. والله أكثر من يومين أو ثلاثة وأنا متألم جداً وخجلان .. كيفَ هذه تفوتني .. أنا لم أنتبه لـه ، فالإنسان كلما شعر أنه إنحجب بذنب إن شاء الله عز وجل يكون قد غفر لـه ، الإنسـان إذا عرف ذنبه فيحاسب حساباً دقيقاً ، أيام تتكلم كلمة تمس واحداً فتبقى شهراً محجوباً عن الله عز وجل أيام إبتسامة تسبب لك الحجاب .. فانتبه .. كُلما علا مقامك فالذنب الصغير يصبح فـي حقك كبيراً .

بعض العلماء قال أن سيدنا ابراهيم له ابن نبي فنحن إذا كان ابننا قد صلّى أمامنا صلاةً شكلية يطير عقلنا فرحاً به .. نبي ابن من أنبياء الله .. يظهر تعلّق قلبه بابنه قالَ له : إذبحـه .. ماذا فعل ؟ يجوز أي أب ابنه استقام وصلّى وأخلص وأحبه وانشغل به فالله يكافئه على هذا العمل أما الإنسان إذا علا مقامه جداً يجب أن لا يتحولَ عن الله أبداً .

على كُلٍ : نحن نعرف أن الإنسان إذا علا مقامه عند الله الشيء الصغير يحجبه عن الله فليدقق ، يؤكدها :

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾

(سورة الأحزاب)

والمفسرون قالوا الفاحشة في حق نساء النبي أن يطالبن النبي بمصروف زائـد .. يعنـي طبخة بالجمعتين مرة واحدة .. هذا هو .. يعني أحرجوه ، هو يحب أن يكون زاهداً متقشـفاً

وهن ضغطن عليه فسماها ا فاحشة في حقهن ومع ذلك يضاعف لهـا العـذاب ضـعفين .
اسمعوا الآيات فقط :

وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

(سورة الإسراء)

وا ـ في قول أيها الإخوة إذا ذكرته اقشعر جلدي .

قيل للنبي عليه الصلاة والسلام هؤلاء الكُفار ، هؤلاء الذين أخرجـوك ، هـؤلاء الـذين ائتمروا على قتالك ، هؤلاء الذين نكلّوا بأصحابك ، هؤلاء الذين ناصبوك العداء عشرين عاماً ، ها هم قد قُتلوا مثِّل بهم .. فقالَ عليه الصلاة والسلام : لا أُمثلُ بهم فيمثلَ ا ُ بي ولو كُنـتُ نبياً .

والحمد رب العالمين .

*****

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم ..... مع الدرس الثاني والثلاثين من دروس مدارج السالكين فـي مراتب إياك نعبد وإياك نستعين ، في الدروس السابقة القريبة كان الحديثُ عن الشرك وعـن أنواعه ، وعن النفاق وأنواعه ، وعن الفسق وأنواعه ، وعن الكُفرِ وأنواعه ، وعن الـذنبِ ، وعن الاثمِ والعدوان ، وعن الفحشاء والمنكر ، وكان الدرس الأخير حولَ الكبائر ، وبقي علينا في هذا الدرس الحديثُ عن الصغائر أو عما يسمى بمصطلح القرآن الكريم : .. اللمـم .. أو مايسمى بمصطلح الحديث الشريف : .. المحقّرات من الذنوب .. وقبل أن نمضي في الحديث في هذا الموضوع أضع بين أيديكم هذه المقدمة :

الكبيرة .. كبيرة تعرفونها من إسمها ، ولكن الصغيرة إذا أصررنا عليهـا أعطـت مفعولاً مساوياً للكبيرة ، يعني حينما ينقطع عنك التيار الرئيسي مقدار ميليمتر أو سـم أو ١٠ سم أو متر حصلَ انقطاع ، وما سميت الصغيرةُ صغيرةً إلا لأنه من الممكن أن تتلافاها فـي وقت قصير وفي جهد يسير كالمثل الذي ضربته لكم في الأسبوع الماضي من أن الإنسان لـو قاد مركبةً على طريق مستقيمٍ وعريضٍ جداً وعلى يمينه واد سحيق وحرفَ اِلمقود انحرافـاً يسيراً ، إن هذا الانحراف بإمكانه أن يعيده إلى ما كان عليه في وقت قصير وفي جهد يسير ، أما إذا حرفَه تسعين درجةً فلا بد من أن تسقطَ المركبةُ في الوادي إلا أن المشكلة والفكرة أنك إذا حرفتَ المقود إنحرافاً يسيراً وثبتَ هذا الانحراف واستمر هذا الانحراف لابد من أن تسقطَ في الوادي كما لو أنك حرفته تسعين درجة ... هذا المثل معنى قول النبـي عليـه الصـلاة والسلام :

لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار *

(العجلوني في كشف الخفاء)

الذنب اليسير إذا استبحته ، وإذا استصغرته ، وإن لم تُبال به ولم تستغفر منه ، ولم تندم على فعله ولم تُحدث نفسك بالتوبة منه ... هذا الذنب الصغير هو في الحقيقة كبيرة من الكبائر لأنه يقطع كالكبيرة ومادام الإنسان قُطع عن ا عز وجل فحدث عن مشكلاته ولا حرج .

أيها الإخوة الأكارم .... شيء دقيق جداً أتمنى أن يكون واضحاً بينكم : الحقد خُلقٌ ذميم، البخل خُلقٌ ذميم ، الغضب خُلقٌ ذميم ، الاستعلاء خُلقٌ ذميم ، حب الذات خُلقٌ ذمـيم ،

لكن لا تستغرب ولا تتعجب إذا قُلتُ لك هذه ليست أمراضاً إنما هي أعراض مـرضٍ واحـد وهو البعد عن ا عز وجل .

أقول لك الناس رجلان بعيد وقريب ، موصولٌ ومقطـوع ، مقبِـلٌ ومـدبر ، المقبـل المتصل القريب يتحلّى بمكارم الأخلاق لأن مكارم الأخلاق مخزونة عند ا تعالى فإذا أحـب ا ُ عبـداً منحه خُلُقاً حسناً ، واللؤم والبخل والكبر والاستعلاء وحـب الـذات إنمـا هـي أعراض لمرضٍ واحد وهو البعد عن ا عز وجل .

الذي يتمناه كُلُّ إنسان كما أنك حريص حرصاً بالغاً ولا حدود له على سـلامة جِسـمك ينبغي أن تكون حريصاً حرصاً بالغاً ولا حدود له على سلامة نفسك وعلى سلامة قلبِـك لأن الحقيقة الثابتة هو أن أمراض الجِسمِ مهما تفاقمت ، مهما كانت مؤلمةً ، مهما كانت خطيرةً ، تنتهي كُلُّ آثارها عند الموت ، لكن الشيء الذي يصعقُ له الإنسان أن القلبِ وأمراض الـنفسِ وأن أعراض الإعراض تبدأُ آثارها الخبيثة والمؤلمة بعد الموت ، فالمرض الذي يبـدأُ بعـد الموت ويستمر إلى الأبد أشد أم المرض الذي يستمر فترةً محدودةً وينتهي عند المـوت ..؟.. لذلك قالَ تعالى :

﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ۝٨٩ ﴾

(سورة الشعراء)

من هذا المنطلق كان سيدنا عمر رضي ا ُ يقول لبعض أصحابه : فتعاهد قلبك ، مـن هذا المنطلق نتحدثُ عن الذنوب .. الخطأ الكبير أن تكون واقعاً في ذنب وأنتَ لا تدري ، أن يكون كسبك حرام وأنتَ لا تدري ، أن تكون منغمساً في إنحراف وأنتَ لا تدري ....

الحقيقة : حينما تدري .. هذه الدراية هي الخطوة الأولى في التوبة ..

ضربتُ البارحة مثلاً : لو أن طبيباً مختصاً في الجراثيم أُجبر في وضعٍ ما على أكل طعامٍ ملوث وأن إنساناً جاهلاً لا يفقه شيئاً عن الجراثيم أجبر مثلَ الطبيب على تناول مثلَ هذا الطعام ، لماذا الطبيب يتألم ألماً شديداً يتصور الكُزاز يتصور الكوليرا يتصور السل .. هـذه الأمراض الخطيرة ، الوبيلة ، المضنية ، المتعبة ؟ لأنه يرى في المخبر الجراثيم وأشكالهـا وأفعالها ، وأعراض المريض إصفرار وجهه وآلامه ، المغص المعوي ، الإسـهال الـدائم ، شحوب وجهه ، ضعف قواه إنه يرى بعينه إن في المجهر في مختبره وإن في وجه المريض آلام ، آثار المرض ، ويعرفُ أن هذا المرض بسببِ هذه الجراثيم ، فإذا أُجبر الطبيب علـى تناول طعام ملّوث يتألم ألماً شديداً ويقلقُ قلقاً شديداً ويعاني معاناة شديدة ، أما الجاهل إذا أُجبر

على أكل هذا الطعام الملّوث لأنه جاهل لا يتألم .. يقول لك سمِ بالله وكُل .. هـذا لا يتـألم ، لذلك قالَ الشاعر:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

سألني البارحة أخ كريم أن المؤمن دائماً متألم ، دائماً قلق ، خائف علـى نفسـه ، خائف على مكانته عند الله ، لعل الله َ ليس راضياً عنه ياترى عمله مقبول أم غير مقبـول ، نيته عالية ، نيته دنيوية ، ياترى عمله صحيح وفق السنّة أم خلاف السنّة ، دخلـه حـرام أم حلال أم فيه شُبهة .... هذه المقلقات التي تنتاب المؤمن لماذا ؟ ، ولماذا أهلُ الـدنيا سـاهون لاهون غارقون في ملذاتهم كأنك تشعر أنهم ليسوا متألمين ؟ ، قُلتُ له ألم أقل لكم فـي درسٍ سابق إن المنافق يستمر على حالٍ واحدة أربعين عاماً وأن المؤمن يتقلب في اليـوم الواحـد بأربعين حالاً .. هذا القلق المقدس ، هذا العلم ، هذه المعرفة التي أكرمه الله بها .. لماذا قـالَ عمر ليتَ اُمّ عمر لم تلد عمر ليتها كانت عقيماً .. لماذا ؟ لماذا قالَ هذا الصحابي الجليل لـو أن الله أنزلَ أنه معذّب واحداً لظننتُ أنني أنا ولو أنه راحم واحداً لرجوتُ أن أكون أنا ، ماهذا الخوف من الله الشديد ، ما الذي دفع سيدنا عمر رضي الله ُ عنه على أن يسألَ حذيفةَ بن اليمان وأن يناشده الله َ عز وجل وأن يقولَ له : ناشدتُك بالله أإسمي بين المنافقين . قال : لا والله يـا أمير المؤمنين أنتَ أكرمنا ولا اُزكّي بعدك أحداً .. هذا القلق ، هذا الخوف .

لذلك اسمعوا هذه الحقيقة : إن خوفك من الله والحقيقة الخوف أنواع قد تخافُ مـن عقاب الله ، وقد تخافُ أن تنقطع صلتُك بالله ، الخوف من عقاب الله مرتبة ، لكن الأعلى منها أن تخافَ أن تنقطع صلتُك بالله فانتَ تستقيم حفاظاً على هذه الصلة ، تتحرى الدخلَ الحـلال حفاظاً على هذه الصلة ، تخدم الناس ، تعطفُ على المساكين ، تُطعم الفقراء ، تحضر مجالس العلم ، تَبر والديك ... حفاظاً على هذه الصلة .

اسمعوا جيداً : إن هناك علاقةً مضطردةً عندنا نحن علاقة طردية وعلاقة عكسية ، العلاقة الطردية شيئان يتناميان معاً والعلاقة العكسية كُلما إزداد العلم قل الجهلُ .... الخـوفُ من الله يتحرك بشكلٍ مضطرد مع العلم ، كُلما كثُر علمك كُلما كثُر خوفُك ، مرةً دخلت إلـى معمل رأيتَ صاحب المعمل مكفهر الوجه أصفر اللون يعني مظهره يدلُ على أنه فقـد أحـد أولاده قُلتُ خير إن شاء الله أبا فُلان ما المشكلة ؟ قالَ لي تعالَ انظر وسرتُ معه في أرجـاء المعمل ما رأيتُ شيئاً رأيتُ معملاً واسعاً كبيراً شاهقَ البنيان الآلات حديثة تعمل .. قالَ لـي انظر قُلتُ إلى أين قالَ إلى هذا الجِسر قُلتُ له ما به ؟ قالَ ألا ترى هذا الخطَ الصغير .. خط عرضه واحد ملم تقريباً على جسر ، قُلت ما بالُ هذا الخط ؟ قال جاء المهندس دكتـور فـي

الهندسة فأخبرني بأن هناك انزلاق في أساسات المعمل وأن تدعيم هذا المعمل يحتاج إلى ٥٠٠ ألف والقضية عام السبعين قديمة .. دكتور في الهندسة درس دراسة دقيقة وجد أنه الأسـاس منزلق بفعل المياه المالحة ، انزلاق الأساس جعل هذا الصدع في الجسر الأساس في المعمل ، قُلتُ لو جاء إنسان ليس بالمهندس ونظر إلى هذا الشق وقال : هذا يحتاج إلى معجونة . شتّان بين هذا وهذا مسافةٌ كبيرةٌ جداً بين من يقول لك أن هذا الشق يحتاج أن نملأه بالمعجون وبين من يقول لك أن هذا البناء خَطر يحتاج إلى تدعيم ويكلّف هذا المبلغ الكبير .. هذا العلم .. كُلما ازداد علمك ازداد خوفك .. إن كُنتَ لا تخاف فأنتَ لا تعلم .

وقد ذكرتُ لكم سابقاً أن طالباً مرةً قالَ لي : أنا لا أخاف من ا ، طبعـاً أردتُ أن أجيبه جواباً مفهماً قُلتُ له : معك الحق أنتَ بالذات، قال ولم ؟ قلتُ له يابني الطفل الرضيع يأخذه أهله أحياناً إلى الحقل لحصد القمح يمر بجانبه ثعبان عظيم لو رآه بطلٌ لخرج من جلده خوفاً منه، هذا الطفل الصغير الرضيع يضع يده على هذا الثعبان ويلمسه بيده ولا يخاف لماذا لا يخاف ؟ لأنه لا يدرك ، لو أنه أدرك لصاح صيحةً ملأت الأجواء لكنه لا يدرك .. الإدراك غير موجود .. الخوف غير موجود ، كلام دقيق .. يعني .. أنت لاسمح ا ولا قـدر لـو ارتكبتَ معصيةً ولم تشعر بشيء .. كالطبيب يضع يده على النبض ويقول : لا نبض .. يقول : إئتوني بمرآة يضعها على أنف المريض لا بخار ، إئتوني بمصباح يضعه بعين المـريض فالقزحية لم تنقبض .. أمره منته .. وأنا أقول لكم قياساً على هذه القصة أن الذي يفعل الـذنب ولا يشعر بشيء أبداً .. يقول لك: ماذا عملنا .. هذا منته .. هذا ماتت نفسه والدليل قـول ا عز وجل :

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

(سورة الأنعام)

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾

(سورة النمل)

أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

(سورة النحل)

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ
وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

(سورة الأنفال)

معناها إذا الإنسان ما أحس بذنبه ولا تألّم ولا تمزقت نفسه ولا خـاف ولا نـدم ولا حدث نفسه بالتوبة ولم يبال وضحك ملء فمه ونام نوماً عميقاً وغطّ في نومٍ عميق وبدا مرحاً وهو يقترفُ الذنب .هذا ميت .. من عصى ا َ وهو يضحك دخلَ النار وهو يبكي .

فلذلك إذا وجدت أخاً زلّت قدمه فتألم ألماً شديداً وصلى قيام الليل وإستغفر ا َ عز وجـل دفع صدقةً مرهقةً لعل ا َ يعفو عنه .. معنى هذا أنه يوجد نبض . في حياة ، لذلك هذا معنى قول النبي الكريم :

عن أَبِي هريرةَ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم والذي نَفْسي بِيده لو لَـم تُـذْنبوا لذَهب الله بِكُم ولجاء بِقَومٍ يذْنبون فَيستَغْفرون الله فَيغْفر لهم *

(صحيح مسلم)

يعني إن لم تشعروا بذنوبكم ، إن لم تُحسوا بها ، إن لم تتأثروا بها ، أنتم انتهيتم لا خيـر فيكم لو لم تُذنبوا بمعنى لو لم تُحسوا بذنوبكم لذهب ا ُ بكم وأتى بقومٍ إذا أذنبوا تألّموا يذنبون يشعرون بذنوبهم فيستغفرون فيغفر ا لهم .

هذا الكلام مقصده أنه حينما صار التعريف بالنفاق بالشرك بالكُفر ، بالفسق ، بـالإثم ، بالعدوان ، بالفحشاء ، بالمنكر ، بالكبائر .... من أجل أن تأخذَ حذرك .... وإنما العلم بالتعلّم .

الذنوب كما أجمع عليه العلماء تنقسم إلى صغائر وإلى كبائر بـنص القـرآن والسـنّة وإجماع السلف قال تعالى :

إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم
مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾

(سورة النساء)

سياق الآية يشف عن إن الكبائر شيء والسيئات شيء آخر ، وقال تعالى :

ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ
ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ
أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾

(سورة النجم)

أيضاً سياق الآية يشفُ عن أن اللمم ليست كالكبائر ، وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى ا عليه وسلم أنه قال :

عن أَبِي هريرةَ ، أَن رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم قالَ : الصلاةُ الْخَمس والْجمعةُ إِلى الْجمعة كفارةٌ لِما بينَهن ما لم تُغْشَ الْكبائِر *

(صحيح مسلم)

في المصطلح النبوي الشريف قال : إياكم ومحقّرات الذنوب ومحقّرات الذنوب هي الصغائر التي أرادها النبي ، لكن يقول إياكم ..

عن عبد الله بن مسعود أَن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قالَ إِياكُم ومحقَرات الذُنُوبِ فَإِنهن يجتَمعن على الرجل حتى يهلكْنَه وإِن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثَلا كَمثَل قَومٍ نَزلُوا أَرض فَلاة فَحضر صنيع الْقَومِ فَجعلَ الرجلُ ينْطَلق فَيجِيء بِالْعود والرجلُ يجِيء بِالْعود حتى جمعوا سوادا فَأَججوا نَارا وأَنْضجوا ما قَذَفُوا فيها *

(مسند الإمام أحمد)

أحياناً إنسان يشرب شراباً فيه أصبغة كيمائية يا ترى كم في هذا الكأس من الصباغ الكيميائي شيء لا يذكر إطلاقاً لكن الأطباء يقولون إن هذه النسب التي لا تُذكر إذا تراكمت من إدمانه على هذا الشراب مضرة .

الذي أكثر طعامه معلبات ومياه غازية وأشياء كلها غازية ، هذه النسب الضيئلة جداً من الأصبغة والمنكهات والملونات وبنزوات الصوديوم .. هذه كُلُها تتراكم وتتراكم فإذا بلغت حداً

معيناً أصبحت مسرطنة .. هذا الذي عناه النبي عليه الصلاة والسلام : " **إياكم ومحقّـرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه** ".

لذلك تجد المسلم يقول لك أنا الحمد لم أسرق في حياتي ولم أزني ولم أشرب الخمر . جميل وبارك ا ُ يك ولكن ممكن أن يصافح امرأة ، ويطلق بصره ، ويكذب ، وقد يغتـاب ، وفي ظنه أن هذه صغائر مع أنها كُلُها كبائر ، فهنا : " **إياكم ومحقّرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه** ".

الآن : من أدقّ المعاني لقوله تعالى : " **الذين يجتَنبون كَبائِر الإِثْمِ والْفَواحشَ إلا اللمـم** " الجمهور قال اللمم هو أن يقترفَ الذنب مرةً واحدةً في حياته ثم يتوب منه .. مرة .. يعني ما كان يعلم أن هذا حرام يعني اشترى خاتماً ذهبياً فوضعه ثم ُأبلغَ أن هذا حرام ألم بذنبٍ مـن دونِ علمٍ لجهلٍ وتاب من فوره .. أقلع من فوره .. هذا رأي بعض العلماء في اللمم .. يعنـي .. ألم بذنبٍ من دون أن يعلم فلما علم تاب منه فوراً هذا المعنى .. معنى لطيـف .. " **الـذين يجتَنبون كَبائِر الإِثْمِ والْفَواحشَ إلا اللمم** " .

قال جماعةٌ من السلف : اللمم هو الإلمام بالذنبِ مرة ثم لا يعود إليه أبـداً ، يعنـي أقرض إنساناً مبلغاً من المال الإنسان المقترض اشترى بيتاً قال له : سأجعل هذا القرض ثمن ربع هذا البيت وسأعطيك ُأجرة وبعد عامين ُأعطيك المبلغَ نفسه .. هو ظن أن هـذه قضـية إيجار .. لكن فاته أن هذا ربا ، الإيجار تملّكتَ ربع البيت ولو أن هذا البيت احتـرق ذهـب مالُك ، لو أن هذا البيت صودر ذهب مالُك ، لو أن هذا البيت انخفضت قيمته انخفض مالُك ، إذا رضيتَ بهذه الشروط الثلاثة لك الحق أن تأخُذَ الأُجرة لأنه لا إيجار مع الضـمان ، فـإذا أردتَ أن تستعيد مالك يقيم البيت مرةً ثانية تقييماً جديداً .. هذا الإيجار الصـحيح ، أمـا إذا أردتَ أن تُقرض إنساناً وأن يسمي هذا القرض شراء ِلربع المنزل ويعطيك على هذا القـرض ُأجرةً ثابتةً .. مبلغٌ مضمون وثابت .. تأخذه بعد عام هذا ربا ما كان يعلم فلّما علم أقلع فوراً .. بارك ا .. هذا اللمم ، يعني وقع في الذنب مرةً لأنه لا يعلم فلما علـم أقلـع .. " **الـذين يجتَنبون كَبائِر الإِثْمِ والْفَواحشَ إلا اللمم** " ومن أجمل المعاني هذا المعنى أحد العلماء سـئل اللمم قالَ : " هو الرجلُ يلم بالذنبِ ثم لا يعاوده أبداً ".

المعنى الثاني : المعنى الثاني اللمم ما دون الشرك .. مرةً ضربتُ لكم هذا المثل :

أنتَ راكب في قطار باتجاه مدينة تقصدها ، قد ترتكب بعض الأغلاط في هذه الرحلـة لكـن القطار يسير باتجاه الهدف فكُلُّ أغلاطك في هذا القطار مغفورة لأن القطار يسير نحـو الهدف ، أزعجك رفقاء هذه المركبة .. يمضي الوقت .. ، أزعجك مقعدك بعكسِ اتجاه القطار .. يمضي الوقت .. ، أزعجك أنك جائع وفي عربة أخرى طعام وأنتَ لا تـدري .. القطـار يمشي باتجاه الهدف .. لكن الشيء الذي لا يغفر أن تركب قطاراً لا علاقةَ له بهدفك ، أنـتَ

تتجه نحو الشمال والقطار يتجه نحو الجنوب ، ضاعت عليك أهدافُك الكُبرى من هذه المدينـة .. فلذلك قالَ بعضهم : اللمم ما دون الشرك لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

تعريف آخر .. على كُلٍ جمهور العلماء يقول : " اللمم ما دون الكبائر " ، الكبـائر تحدثنا عنها في الدرس الماضي واللمم ما دون هذه الكبائر . وقالَ بعضهم : " الذنب الذي لـم يذكر عليه عقاب ولا حد ولا وعيد في الآخرة ".. هكذا قالَ بعضهم .. هو اللمم .

وأما سعيد بن المسيب فلله دره قالَ : " اللمم ما ألم بالقلب .. لا تُحاسـب عليـه ".. خطر في باله أن يفعلَ شيئاً لكنه لم يفعله ، إن الله عز وجل لا يحاسب على الخَطَرات ، خطر في باله أن يأخُذَ هذا له لكنه لم يفعل خافَ الله عز وجل .. فاللمم ما ألم بالقلب ، الخاطر الذي لا يرضي الله إذا ألم بالقلب فهو لمم .. هذا في بعض التفاسير .. وهذا التفسير للتابعي الجليل سعيد بن المسيب .

والحسين بن الفضل يقول : " اللمم النظر إلى المرأة دون تعمد " لا يقصد أبـداً أن ينظر .. يعني هو في طريق فيه منعطف حاد فجأةً رأى نفسه أمام إمرأةً فغض بصره مباشرةً .. فوراً .. هذه النظرة الأولى التي لا تملك لها تلافياً لم تكن عن إرادة ولا عن قصد ولا عن رغبة ولا عن طلبٍ إطلاقاً ولمجرد أن رأيتَ إمرأةً غضضت البصر عنها .. قال هذا هو اللمم .. قال الحسين بن الفضل اللمم هو النظر من غير تعمد فإن أعاد النظر فليس باللمم .. الثانية ليست لمماً الأولى فقط لمم كما قالَ النبي الكريم : " الأولى لك والثانيةُ عليك .. وهـو ذنـب كريم "

هذا الذي قاله النبي مرةً :

إن تغفر اللهم تغفر جماً وأي عبد لا ألم

يدخل الرجل إلى دائرة حكومية نصفها موظفات ، بالطريق هو يغض بصـره . ولمـا يرى إحداهن لمحة دون رغبة منه بذلك و يغض بصره فوراً هذا هو اللمم الذي عنتـه الآيـة الكريمة .. هذا رأي العالِم الجليل الحسين بن الفضل ..

سعيد بن المسيب : اللمم ما ألم بالقلب .. الخواطر .. وا سبحانه وتعالى لا يحاسب إلا على الأعمال أما الخواطر لايحاسب عليها ، أما المؤمن الورع يخافُ من الخواطر لأنهـا قد تنقلب إلى أعمال إذا أعطى لخواطره العنان ولم يبال بالخواطر التي تتأتى إلى ذهنه ، ربما أصبحت خواطره أفعالاً ، فالورع لا يسمح لخواطره أن تتجه في إتجاه لا يرضـي ا عـز وجل .

بالمناسبة : كُلما حجبك ذنب صغير صغير عن ربك العظيم فهذا لِعلوِ مقامك . مـا الذي يحجبك " يسمونها الحساسية " ، يوجد ميزان مثلاً ميزان يزن السيارات الشاحنة لووضع على الصفر ومر إنسان وزنه ١٥٠ كيلو لا يتحرك .. هذا مهيأ أن يزن ٥ طن ، ٨ طن ، ١٠ طن ، ١٢ طن ، فهذا الميزان حساسيته فوق الـ ٢٠٠ كيلو ، ففي إنسـان ميزانـه ميـزان سيارات .

يعني .. لكي يرتكب كبيرة يقول لك .. وا تضايقت .. أما الصغائر لا يوجد عنده حساسية أبداً فهذا ميزانه سيء ، كُلما ارتقى الإيمان يصبح الميـزان حساسـاً ، يوجـد الآن موازين إذا وزنت بها ورقةً وكتبتَ على هذه الورقة كلمة محمد إن وزن الحبر الذي إستغرقته كلمة محمد يجعلُ الكفةَ ترجح ، فكُلما علا مقامك عند ا يدقُ ميزانُك ، لذلك أثنى ا علـى النفس اللوامة :

لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢

(سورة القيامة)

يحاسب نفسه على النظرة ، قاضٍ من القضاة عرفَ في مدينته بحبه الشديد للرطبِ في بواكيره .. " الفاكهة في أولها محببة والأن ضعنا من الزراعة المحمية " .. فطُـرقَ بابـه مرةً وجاء الخادم بطبق من الرطب في بواكيره قال ممن هذا يابني ؟ قال من فُلان ، قال صفه لي ، قال صفته كيتَ وكيت ، فعرفَ أنّ هذا الشخص الذي قدم هذا الطبق أحد خصومٍ عنـده في القضاء فقال : رده إليه . فرده إليه ، في اليوم الثالث توجه إلى الخليفة وطلـب منـه أن يعفيه من منصب القضاء قالَ ولِم ؟ قالَ : وا ِ قبلَ يومين جاءني طبقُ رطب ورددته في اليوم التالي حينما وقفَ الخصمان أمامي تمنيت أن يكون الحق مع الذي قدم لي طبـقَ الرطـب ، تمنيت أن يكون الحق مع الذي له طلب ، قالَ هذا وقد رددته فكيفَ لو قبلته ؟ فعنـده ميـزان دقيق جداً ...

سيدنا علي كرم ا وجهه كان في حضرة سيدنا عمر دخلَ يهودي يخاصـم سـيدنا علياً فقالَ يا علي فقالَ يا أبا الحسن .. جالس بجانبه خليفة المسلمين وأمير المؤمنين وسـاعده

الأيمن المقرب .. دخلَ شخص يخاصم أبا الحسن فما كان من عمر إلا أن قال قُم يا أبا الحسن وقف بجانب الرجل ، فتأثّر سيدنا علي وتغير وجهه ، فلما حكم بينهما وانصرفَ اليهودي فقالَ لِم يا أبا الحسن وجِدت لِم أوجدتَ علي ؟ قالَ : نعم ، قالَ : ولِم ؟ قالَ : لِم قُلتَ لـي يـا أبـا الحسن ولم تقل لي ياعلي لقد كرمتني .. ميزتني عنه .. أيضاً ميزانه دقيق جداً .. هذا الـذي تردد قبلَ أن يضحي بنفسه قال :

يانفس إلا تُقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت

إن تفعلي فعلهما رضيت وإن تـوليت فقد شـقيت

وقاتلَ حتى قُتل ، قالَ عليه الصلاة والسلام : رأيتُ في مقامه ازوراراً عن صـاحبيه .. فأنتَ كُلما ارتقى إيمانك يصبح عندك ميزان حساس كثيراً تُحاسب نفسك على النظرة ، علـى الكلمة ، على السكوت أحياناً ، هذا قد جاء لعندك زيارة للبيت لماذا هذا .. الصمت " الكهنوت " .. النبي كان يمزح مع أصحابه ، في أيام إنسان يعطي لنفسه هيبة مصطنعة .. هذا ذنب .. أحياناً إنسان يشكو لك ويقول زوجتي غير جيدة .. يقول لك آخر أنا الحمد ممتازة .. وا هذا ذنب . استوحش لحاله أنتَ زوجتك ممتازة فقط هو زوجته سيئة ، من الأُنس أن تقـولَ غير هذا فلذلك كُلما ارتقى الإيمان يدق الميزان يصبح حساساً .

وفي تفسير جميل جداً قالوا : اللمم ما فعلته في جاهليتك قبلَ أن تؤمن ، قبلَ أن تُسـلم ، قبلَ أن تتوب إلى ا عز وجل " **الذين يجتَنبون كَبائِر الإِثْمِ والْفَواحشَ إِلا اللمم** " لم تكن تعلم في عهد الجاهلية حينما كُنتَ شارداً ، حينما كُنتَ تائهاً .. هذا لمم .. كلمة لمم يا إخـوان أن أُركّز على هذا الموضوع لأنني أشعر أن معظم المقصرين أكثـر المسـلمين يفعلـون كُـلَ المعاصي تحت اسم اللمم .. أخي هكذا قالَ ا إلا اللمم .. هذا فهم شيطاني وا لهذه الآيـة ، يعني إبليس وسوس بهذا المعنى .. قال أحدهم : كلُ ما ليس عليه حد فهو لمم .. حسناً الحدود كلها خمسة حد القتل ، وحد الزنى ، وحد الخمر ، وحد السرقة ، وحد قذف المحصنة .

معناها الباقي كله لا بأس به حسب الآية ..لا .. هذا فهم ما أراده ا عز وجـل ، مـرةً ثانية اللمم ما فعلته قبلَ الإسلام ، اللمم إذا نظرتَ لإمرأة وأنتَ لا تُريد أن تنظر إليها النظرة الأولى التي لا تسغرق عشر الثانية .. هذه لمم .. ، اللمم ما ألم بالقلب أي الخواطر ، اللمم ما ليس بالشرك لأنه يغفر .. هذه المعاني .. أما أن تظُن أن تفعلَ شيئاً تحتَ اسم اللمم فهذا اللمم مهلك .

اللمم حينما تتخذُ الذنب عادةً ، حينما تُصر على الذنب أصبح الذنب الصـغير كبيـرةً ، اللمم مرة واحدة لم تكن تعلم سارعتَ إلى التوبة والاستغفار .. هذا اللمم .. ، أما تفعلُ الـذنب

على أنه ذنب .وتقول : هذا صغير . حينما تقول أنه صغير فهو كبير ، لا تنظر إلى صـغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت .

يروى أن سيدنا علي بن أبي طالب دفع إليه سارق فأمر بقطع يـده فقـالَ : يـا أميـر المؤمنين وا ِ ما سرقتُ غير هذه المرة فقالَ كذبت ، فلما قُطعت يده قال أصدقني كم لك بهذه المرة ؟ قالَ وا كذا وكذا مرة يعني عشرات المرات .. فقال صدقت إن ا َ لا يؤاخذُ بـأول ذنب أو كما قال. أو غلطة ا عز وجل يعفو عنك لم تكن تعلم ، زلّت قدمك ، غَلبتك نفسك ، تُبتَ سريعاً باب التوبِ مفتوح أما حينما تعيد وتُكرر هذه أصبحت كبائر ... العائد إلى الـذنب كالمستهزئ بربه ... الذي يعود من توبته ويذنب مرةً ثانية كالمستهزئ بربه .

من أجمل معاني اللمم .. معنى جديد .. يعني إذا هممتَ أن تفعلَ هذا الذنب ولم تفعلـه خشيةَ ا عز وجل .. في قصة مشهورة .. شاب في مقتبل حياته في ظروف سمحت لـه أن يحج ، عاد من الحج وفتح مكتبة صغيرة في أحد أحياء دمشق ، .. هذه القصة مـن أربعـين خمسين سنة .. كان في حافلات تُراب ، يبدو أن فتاة وقفت على باب مكتبته وكانـت فاسـقةً وكأنها أغرته وأشارت إليه فتَبِعها ، هو في الطريق تذكّر الحج الذي حجه فرأى حافلة ركـب فيها وعاد إلى المكتبة ، ما فعلَ شيئاً لكنه هم أن يفعل .. هذه قصة واقعة وأنا إلـى سـنوات معدودة قيلَ لي هذا الشاب لا يزال حياً يرزق ، في اليوم التالي جاءه أحد وجهاء الحي وسأله هذا السؤال الغريب : يابني أأنتَ متزوج ؟ قال له : لا وا يا سيدي ، قالَ لـه عنـدي فتـاة تُناسبك ، فأرسلَ أُمه فإذا هي فتاة ممتازة، جاءه مرةً ثانية قالَ له يابني كيـفَ الأمـر ؟ قـالَ ممتاز ولكن ليس عندي بيت ، قالَ هي والبيت يابني وأغلق الدكان وجعله شريكاً له في تجارة الزيت .. قبل سنوات أُبلغت أنه لا يزال حياً يرزق .....

يعني اللمم الشيطان وسوس لكن مباشرةً عدت . إذا إنسان هم بسيئة ولم يفعلها كُتبت له حسنة ... هذا معنى آخر من معاني اللمم ... هذه المعاني كُلها رائعة ، وكُلهـا شـريفة ، وكُلها تنسجم مع طهارة المؤمن أما ينظر لإمرأة حتى يأكُلها بعينيه .. أخي لمـم هـذه . وا شيء مؤلم قال : والقُبلة لمم أيضاً في بعض الكُتب ما هذا اللمم ؟ .

على كُلٍ بهذا ننتهي من أنواع الذنوب والكبائر والمعاصي والحقيقة ذكرتُها كُلهـا تمهيـداً لموضوع التوبة ، لأن التوبة أول مرحلة فيها هي العلم ، الأن علمنا ما الصغيرة ، وما الكبيرة ، وما الكُفر وما الشرك ، وما النفاق ، وما الفسق ، وما الإثم والعدوان والفحشـاء والمنكـر وأكبر كُل هذه الذنوب أن تقولَ على ا ِ ما لا تعلم ، لأن الذنب مهما كان كبيراً تتوب منـه ، لكن المبتدع ذا العقيدة الفاسدة لا يتوب من ذنبه ، لذلك : أخطر شيء في الإسـلام أن تقـولَ على ا ِ ما لا تعلم، يعني إذا أنتَ معتقد أن النبي عليه الصلاة والسلام يوم القيامة لن يدع أحداً في النار .. لابد من أن يشفع لأمته كلها .. هذا الإعتقاد الفاسد يجعلُك تفعل جميـع الـذنوب

والأخطر من ذلك يمنعك من أن تتوب منها أيضاً ، فكُلُّ عقيدة زائغة خطورتُها أنها تمنعك من التوبة لأن :

من الناسِ من يدري ويدري أنه يدري فهذا عالِم فاتّبعوه ،

ومنهم من يدري ولا يدري أنه يدري فهذا غافل فنبّهوه ،

ومنهم من لايدري ويدري أنه لا يدري فهذا جاهل فعلّموه ،

لكن الخَطر :

ومنهم من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فهذا شيطان فاحذروه .

لذلك : أكبر هذه الذنوب أن تقولَ على ا ِ ما لا تعلم ، أن تعتقد إعتقاداً فاسداً ، أن تعتقد اعتقاداً ما أراده ا عز وجل ، أن تتهم ا َ فيما تظن ، أن لا تنسب إليه الأسماء الحسنى والصفات الفُضلى ، لذلك قال له ياربي أي عبادك أحب إليك ؟ قالَ ...

" عن ابن عباس ، أن رسول ا صلى ا عليه وسلم قال: "ان داود عليه السلام قال فيما يخاطب ربه عز وجل: يا رب ، أي عبادك أحب اليك أحبه بحبك ؟ قال: يا داود أحب عبادي الي نقي القلب ، نقي الكفين، لا يأتي إلى أحد سوءا، ولا يمشي بالنميمة ، تزول الجبال ولا يزول، أحبني وأحب من يحبني، وحببني إلى عبادي، قال: يا رب إنك لتعلم إني أحبك وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى عبادك؟ ! قال: ذكرهم بآلائي وبلائي ونعمائي، يا داود إنه ليس من عبد يعين مظلوما، أو يمشي معه في مظلمته ، إلا أثبت قدميه يوم تزل الاقدام "

(كنز العمال للمتقي الهندي)

إذا حببتَ العباد إلى ا َ عز وجل فأنتَ على حق .

فأيها الإخوة الأكارم إن شاء ا من الدرس القادم نبدأ بموضوع التوبة لأن التوبة هي الباب المفتوح إلى ا عز وجل .

والحمد رب العالمين

****

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم ..... مع الدرس الثالث والثلاثين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، وقبلَ أن نمضي في الحديث عن المفاضلة بين المطيع الـذي لم يعصي ا عز وجل وبين العاصي الذي عصاه وتاب من ذنبـه ، قبـلَ أن نمضـي فـي المفاضلة بين هذين الرجلين أو هذين النموذجين لا بد من وقفة في مناسبة النصف من شعبان، ونحن في ليلة النصف من شعبان .

أيها الإخوة الأكارم .... من الثابت أن هناك مؤمنين وأن هناك سابقين وأن هناك عصـاةً تائهين ، عاصٍ ، منحرف ، ضائع ، ضال ، تائه ، شارد ..... مؤمن ، مستقيم ، سباق إلـى مرضاة ا عز وجل ... هؤلاء النماذج الثلاثة حيالَ المناسبات الدينية لهم مواقف متباينـة ، فالمقطوع عن ا عز وجل ، الخارج عن منهجه ، الشارد عن دينه ، الغارقُ في المعاصي ، هذه المناسبات الدينية كليلة الإسراء والمعراج ، وليلة النصف من شعبان ، وليلة القدر ، ومـا إلى ذلك من هذه المناسبات الدينية ..... هذا الإنسان الشارد لا يتأثّر بها إطلاقاً لأنه فـي واد وهذه المعاني القدسية في واد آخر ، ولكن بين المؤمن المقتصد وبين المؤمن السابق مواقـف متباينة حيالَ هذه المناسبات الدينية .

يعني : البار بوالديه الذي يقدم لهما آيات التعظيم والتوقير والإكرام والإحسان كـُلَ يوم ، إذا جاء عيد الأمِ مثلاً هو كُلَ يومٍ عنده عيد الأم في صبيحة كُل يوم يـزور والديـه ويسألهما كُلَ حاجتهما ويقدم لهما كُلَ ما يرغبان به ، أما المقصر إذا جاءت مناسـبة فهـذه المناسبة تُلفته إلى واجبه ، لذلك : المؤمن السابق كُلَ ليلة عنده هي ليلةُ النصف من شعبان كُلُ أيامِ سنته رمضان ،كُلُ أيامِ رمضان ليلةَ القَدر ، لأنه أقبلَ على ا عز وجل ووضـع كـُلَ طاقاته وكُلَ إمكاناته في سبيل الحق ، لكن المقتصد تأتي هذه المناسبات لتذكّره ، لتشـوقه ، لتزيده علماً وعملاً ، فلا شك أن الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج والاحتفال بليلة النصف من شعبان لها شأنُها في الدين ، لكن كُلما ارتقى الإنسان في مدارج المعرفة مدارج القُربِ كُلمـا اقترب من معاني هذه الأيام الفضيلة ومن معاني هذه الأيام التي ورد في حقها بعض الأحاديث الشريفة .

قبلَ كُل شيء .. ذكرتُ هذا في الخُطبة .. العبادات لها شأنُها عند ا عز وجل لها شأنُها الكبير وما دام لها هذا الشأن عند ا فلا بد من أن يسبقها تمهيد ، ما دام للعبادة شـأن كبير عند ا عز وجل إذاً لابد من أن يسبقها تمهيد ، فكما أننا نُصلي سنّةً قبليـةً تمهيـداً

للفريضة الأساسية ونُصلي سنّةً بعديةً ترميماً لِما فاتنا في الفريضة فكأن السنّةَ القبليـة تمهيـد وإعداد والسنّةَ البعديةَ ترميم وتلاف للنقص ، وكما أن الحاج يحج من الميقات وبينـه وبـين الكعبة مراحلُ فساح من أجل أن يهيئَ نفسه لهذا اللقاء الأعظم لقائه بربه جل وعـلا ، كـذلك الشرع علّمنا أن نؤدب أبناءنا على الصلاة والصيام وتلاوة القرآن وحب النبي عليه الصـلاة والسلام قبلَ سن التبليغ ، كذلك رمضان دورةٌ تدريبيةٌ كُلَ عام عبادةٌ سنوية ، الإنسـان فـي رمضان يقفز قفزةً نوعية ، له مستوى في فهمه ، وفي عقيدته ، وفي إدراكه ، وفي طاعته ، وفي ورعه ، وفي صلاته ، وفي تهجده ، وفي تلاوته ، وفي إنفاقه .... ، كُـل إنسـان لـه مستوى ، له مكانة ، في رمضان لا بد من أن يقفز قفزةً نوعية فالعاصي يتوب والتائب يزيـد والمستزيد يتفوق ، لابد من نقلة في رمضان ، لكن المشكلة التي أتمنى على ا ِ جل وعلا أن يقينا منها هو أن عامةَ الناس كُلما جاء رمضان قفزوا قفزةً نوعية فإذا انتهى عادوا إلـى مـا كانوا عليه وطَوالَ حياتهم يرتفعون ثم ينخفضون ... يرتفعون ثم ينخفضـون ... وهكـذا ... لكن المؤمن الصادق إذا قفز قفزةً في رمضان يستمر عليها طوالَ العام فإذا جاء رمضان آخر قفز قفزةً ثانية واستمر عليها طَوالَ العام فإذا جاء رمضان ثالث قفز وهكذا إلى أن يلقـى ا َ عز وجل وهو في أعلى الدرجات .

لذلك : الحقيقةُ الأولى هو أننا إذا دخلنا في رمضان ينبغي أن نقفز قفزةً نوعية وهذه القفزة النوعية يجب أن نَثبتَ عليها طَوالَ أيام السنة . الأن : ما علاقة النصف من شعبـــــان برمضان..؟..

الحقيقة أيها الإخوة أن الإنسان في رمضان يجب أن يصومه صياماً كاملاً مـن أول يـوم وحتى آخر يوم ، الانتقال المفاجئ من مستوى معين في العبادة إلى مستوى متفـوق هـــذا الإنتقال لا بد له من تمهيد .. يعني .. نقطة هنا ونُقطة هناك ، لا بد من خط مائل يصعد مـن هذه إلى تلك هذا الخطُ المائل الذي يزداد حماس الإنسان فيه ويهيئ كُلَ شيء من أجل أن يقبلَ ا ُ صيامه ، نحن في شهرٍ تمهيدي شهرٍ إعداد لرمضان لهذا النبي عليه الصلاةُ والسلام كان يكثر فيه من الدعاء ومن الصلاة ومن القيام ومن الأعمال الطيبة والأعمال الخيرة .. على كُلٍ في هذا الشهر وفي ليلة النصف من شعبان تحولت القبلة من بيت المقدس إلى بيت ا ِ الحرام، لماذا أمر ا ُ من خلال السنّة النبوية أن يتجهوا إلى بيت المقدس ؟ لأن الكعبـةَ المشـرفة ... وهذا اجتهاد في التفسير ... لأن الكعبةَ المشرفة كانت فيها الأصنام وكان كُفّار قُريش يعتدون بها ويفتخرون ، فإذا توجه إليها المسلمون لعل في هذا التوجه ترسيخاً لهذه العبادة التي أنكرها القرآن الكريم لذلك ُأمر المسلمون إلى التوجه إلى بيت المقدس ريثما يستقر التوحيـد فـــي الجزيرة العربية وريثما تتوطد دعائم الإيمان با ِ عز وجل فلما رسـخَ التوحيـد واسـتقرت النفوس ُأمروا بالتوجه إلى بيت ا الحرام ، لذلك جاءت الآيات متتابعةً في دعوة المؤمنين إلى

التوجه إلى بيت ا الحرام ، في هذه الليلة نَزلت الآيات التي تأمر المسلمين بالتوجه إلى بيت ا الحرام ولشدة تعظيم أمر ا عز وجل في مسجد في المدينة كان أصحاب النبي يصلّون فيه في أثناء صلاتهم جاء من يخبرهم بتحول القبلة فتحولوا من قبلة إلى قبلة وزرتُ هذا المسجد قبلَ سنوات عدةَ فيه محرابان متعاكسان محراب إلى بيت المقدس ومحراب إلى الكعبة المشرفة ، في الزيارة الثانية أُلغي محراب بيت المقدس وبقي محراب الكعبة المشرفة .. على كُلٍ إذا ذكرتم ليلةَ النصف من شعبان ففي هذه الليلة المباركة تم فيها تحويلُ القبلة من بيت المقدس إلى بيت ا الحرام .. هذه واحدة .

النبي عليه الصلاة والسلام فيما ترويه الأحاديث الشريفة وفيما رواه النسائي من حديث أسامةَ بن زيد قال :

قُلتُ يارسولَ ا لم أرك تصوم من شهرٍ من الشهور ما تصوم من شعبان ، فقالَ عليه الصلاة والسلام : ذاك شهر يغفُلُ عنه الناس بين رجب ورمضان وهو شهر تُرفع فيه الأعمالُ لرب العالمين وأحب أن يرفع عملي وأنا صائم .*

(الفقه على المذهب الشافعي للحاجة درية العيطة)

وكان أصحاب النبي صلى ا عليه وسلم ورضي ا عنهم إذا نظروا إلى هلال شعبان أكبوا على المصاحف يقرؤنها وأخرج الأغنياء زكاةَ أموالِهم ليتقوى بها الضعيف والمسكين على شهر الصيام .

أيها الأخوة ... إذاً : فيما يبدو لكم من هذ الآثار القليلة أن شعبان تهيئةٌ لرمضان ، وأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يدعو ربه في شعبان ، لذلك خُصت ليلةُ النصف من شعبان بالدعاء .

الدعاء في الحقيقة : أداةُ اتصالٍ مباشرة بين العبد وبين ربه ، لكن هذا الدعاء الذي نسمعه أحياناً :

.. اللهم إن كُنتَ كتبتني في أُمِ الكتابِ شقياً محروماً مقتّراً علي في الرزق فإمح اللهم بفضلك شقاوتي وحرماني وتقتير رزقي ..

هذا الدعاء لا أصلَ له لم يرد لا عن رسول ا ولا عن أصحاب النبي عليهم رضوان ا ، نحن إذا دعونا ا عز وجل ينبغي أن ندعوه بما دعا به النبي صلى ا عليه وسلم ، .. يعني .. فكرة الجبر أن الإنسان خُلقَ كافراً وكُتب عليه الكُفر من دون ذنبٍ اقترفته

يداه وسوفَ يدخُل النار شاء أم أبى لأن الكتاب سبقَ عليه بالكُفر هذه المعـاني أيهـا الأخـوة ليست من روح القرآن :

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن
شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ
عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾

(سورة الأنعام)

لو قرأتَ القرآن الكريم كُلّه لوجدتَ أن الإنسان فيه مخيراً

وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا
لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ
يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾

(سورة الكهف)

إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

(سورة الإنسان)

وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

(سورة الأنعام)

وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ
ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾

(سورة البقرة)

بل إن بعضهم قال : مجرد الأمرِ يقتضي التخيير ، أيعقلُ أن تشُق طريقاً عرضه ٦٠ سم بعرضِ إنسانٍ تماماً بحيثُ أن كتفيه يلامسان جداري هذا الطريق وأن تأمره أن يتجه نحو اليمين أن يلزم اليمين .. أي يمين هذا !!! إذا كان الطريقُ ضيقاً بعرضِ السالِك فيه فكيفَ تأمره أن يلزم اليمين !!! لمجرد أن تأمره فالإنسان خير ، لمجرد أن تنهاه فالإنسان مخير ، هذه نُقطةٌ دقيقةٌ جداً أيها الأخوة لو أن الله عز وجل كما قالَ الإمام الحسن رضي الله عنه : أجبر عباده على الطاعة لبطَلَ الثواب ولو أن الله عز وجل أجبر عباده على المعصية لبطَلَ العقاب ولو أنه تركهم هملاً لبطَلَ الوعد والوعيد وكان ذلك عجزاً في القُدرة .

واحد سألَ سيدنا علياً كرم الله وجهه قالَ أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر..؟.. قالَ ويحك لو كان قضاء لازماً أو قَدراً حاكماً إذاً لبطَلَ الوعد والوعيد ولانتفى الثواب والعقاب إن الله أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً وكلّفَ يسيراً ولم يكلّف عسيراً وأعطى على القليل كثيراً ولم يعصى مغلوباً ولم يطع مكرهاً ولم يرسل الأنبياء عبثاً ولم ينزل الكُتُب لَعباً .

الإنسان مخير والأثر الذي تعرفونه جميعاً رجل ضبِطَ متلبساً بِشُربِ الخمر فاقتيد إلى عمر بن الخطاب ولما أراد إقامةَ الحد عليه قالَ والله يا أمير المؤمنين إن الله قدر علي ذلك فقالَ رضي الله عنه وكان عالِماً بالكتاب والسنّة قالَ أقيموا عليه الحد مرتين مرةً لأنه شَرِب الخمر ومرةً لأنه افترى على الله وقالَ ويحك إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيارِ إلى الاضطرار .

وحينما تُطالعون القرآن الكريم تجدون أن معظم الآيات تُبين نَدم الكافر على كُفره :

﴿ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠ ﴾

(سورة المؤمنون)

﴿ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦ ﴾

(سورة الزمر)

﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا

﴾

(سورة الفرقان)

﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾

(سورة الفجر)

.. هذه الآيات كُلُها تؤكد ندم الكافر على فعله السيء وعلى معاصيه ، لو أنه كـان مجبراً عليها ولا خيار له في ذلك أيعقل أن يندم على ذلك !!! إذا قرأتَ القرآن الكريم تشـعر أنك مخير ، مخير فيما كُلّفتَ به طبعاً ، في دائرة أنتَ مسير وفي دائرة أنتَ فيهـا مخيـر ، ولِدتَ من أبٍ فلانيٍ وأمٍ فلانية في المكان الفُلاني في الزمن الفُلاني من أسرة فلانية بوضـعٍ معين ببنية معينة بوراثة معينة ... هذا كُله أنتَ فيه مسير ولستَ محاسـباً عنـه إطلاقـاً ... وسيماً ، ذميماً ، ضعيفاً ، قوياً ، قصيراً ، طويلاً ، ذكياً ، أقل ذكاء ، غنياً ، فقيراً .... ، هذه الحظوظ التي جاءتك من دون حولٍ منك من دون طلب إنك فيها مسير ولستَ محاسباً عليهـا إطلاقاً إنك مخير فيما كُلّفتَ به والدليل قول ا عز وجل :

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾

(سورة البقرة)

ما هو الكسب ..؟.. أنت حينما تنبعثُ إلى طاعة ا عز وجل حينما تتوجه إلـى طاعة ا عز وجل هذا التوجه إلى طاعة ا هو الكسب ، وحينما تتوجه إلى معصية ا عز وجل هذا التوجه إلى معصية ا هو الاكتساب " **فلها ما اكتسبت وعليها ما اكتسبت** " .

يعني .. بشكلٍ أو بآخر لا بد من عنصرٍ منك ، هو الذي حدد مصيرك منك ، خيرك فيك وشرك منك ، يعني الجنةُ محض فضلٍ والنار محض عدل فإذا أردتَ أن تـدخُلَ الجنـة فبفضل ا وكرمه لكن إذا دخلَ إنسان النار فبعمله السيء وباختياره السيء وبتَبِعـة عملـه ، فالدعاء الذي لا يوافق الكتاب والسنّة لا ينبغي أن نحفلَ به ادع بما دعا به النبي عليه الصـلاة والسلام ، النبي عليه الصلاة والسلام وضح وبين وفصلَ وحينما دعا يسـتنبطُ مـن دعائـه الشريف أن النفس البشريةَ " **لها ما كسبت وعليه ما اكتسبت** " ، أما ما أنتَ مسير فيـه هـذا موضوع دقيق جداً إذا كان سابق لوجودك فهو لصالِحك ، وإذا كان تابع لوجودك فهـو دفـع لثمنِ اختيارِك ، الفكرة دقيقة جداً .. إن كان هذا الاختيار ، إن كان هذا التسيير سابقاً لوجودك لماذا خُلقتَ من فُلان وفُلانة وبهذه الصفات وبهذه البنى وبهذه الإمكانات وبهذه القُـدرات .... هذا الخلق سابقُ لوجودك هو لمصلحتك وليس في إمكانك أبدع مما أعطاك كما قـالَ الإمـام الغزالي ، أما التسيير الذي يتم بعد وجودك ودفع لثمنِ اختيارِك .. يعني .. الإنسان إذا اختار اختياراً صالِحاً إذا اختار طاعة ا عز وجل سيره ا ُ لِما فيه خير له الـدنيا والآخـرة ، وإذا اختار معصية ا َ عز وجل سيره ا لدفع ثمن اختيارِه ، سيره ليؤدبه ، سيره ليقتص منـه ، سيره ليوقفه عند حده ، سيره ليردعه ، فالتسيير الذي يأتي بعد اختيارك هو لدفع ثمن اختيارِك إما مكافأةً وإما عقاباً ، والتسيير الذي يأتي قبلَ اختيارِك إنما هو في مصلحة اختيارِك .

ما كان سابقاً لوجودك اعلم علم اليقين أنه في مصلَحتك وما كان لاحقاً لوجودك إنه دفع لثمنِ اختيارِك ، فلذلك من أدق الآيات الكريمة ومن أدق الصيغ اللغوية التي تستعمل للنفي هي صيغةُ ما كان لـِ

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

(سورة التوبة)

ربنا عز وجل في هذه الآية لم ينف عن ذاته ظُلم العباد بل نفى عن ذاته كُـل مـا حولَ الظُلم ، ا ُ عز وجل لا يريد الظُلم ولا يقبله ولا يأمر به ولا يوقعه بين عبـاده ، كُنـتُ قلتُ لكم سابِقاً هذا المثل : يعني فرقٌ كبير بين أن تقول فُلان لم يسرق هذه الدراهم وفُلان ما كان له أن يسرِق لم يسرق تَفي الحدث لكن ما كان له أن يسرِق تَفي الشأن ، ليس من شـأنه

ولا من طبيعته ولا من أخلاقه ولا من قيمه ولا يريد ولا يرضى ولا يقبل ولا يقر ولا يـ دعو .... أبداً كُلُّ هذه المعاني منفيةٌ عنه فلذلك إذا قالَ ا ُ " **ماكان ا ُ ليظلمهم** " إذا قالَ ا ُ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾

(سورة النساء)

وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

(سورة النساء)

// لا ظُلم اليوم إني حرمتُ الظُلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم فلا تظّالموا .//

إذاً : الآيات والأحاديث القدسية الشريفة واضحةٌ ، قطعيةُ الدلالة في أن ا َ عز وجل منزه عن الظُلم ، أي :

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

(سورة الزلزلة)

هذا الأعرابي الذي قالَ له النبي عليه الصلاة والسلام الذي سألَ النبي قالَ : عظني وأوجِز ، فقرأَ عليه الصلاة والسلام " **فمن يعمل مثقالَ ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقـالَ ذرة شراً يره** " قالَ كُفيت ، فقالَ عليه الصلاة والسلام : فَقُه الرجل .

إذاً : نعود إلى ليلة النصف من شعبان إنها بادئَ ذي بدء إعداد للنفس كي تسـتقبلَ شهر الصيام وهي في أوجِ إقبالِها على ا ِ عز وجل ، وهي في أتم استعداد للدخول في هـذا الشهر الكريم ، .. الشيء العظيم ، الشيء المقدس يحتاج إلى تمهيد لكن الشيء التافه لا يحتاج إلى تمهيد ، فهذا رمضان لعل ا َ سبحانه وتعالى يعتقُنا فيه من النار ، لعل هذا الشهر الفضيل يرتقي فيه الإنسان من حالٍ إلى حال ، ومن درجة إلى درجة ، ومن منزِلة إلى منزِلة ، ومـن قيمٍ إلى قيم ، ومن نوايا إلى نوايا ، ومن رؤيا إلى رؤيا ، فما دام هذا الشهر الكريم يمكـن أن يكون سبباً في إرتقائِك لا بد له من تمهيد ، التمهيد هو شهر شعبان ، صيام وإنفـاقٌ وتـلاوة

قرآنٍ وعملٌ طيب .. يعني بالمثل المادي : إذا أردت أن تقطع مسافةً بين نقطتين بسرعة عالية لا بد من أن تتحرك قبلَ نُقطة البدء إذا بدأت الحركة عند نقطة البدء إلى أن تزداد سرعتُك وتأخّذَ سرعتك القصوى تكون قد قطعتَ مسافةً هدراً ، فمن أجل أن تبدأ السير سريعاً من نقطة - أ - إلى نقطة - ب - لابد من التحرك قبلَ - أ - هذا بشكلٍ أو بآخر ما يعنيه الإعداد لرمضان من شعبان .

الشيء الثاني : النبي عليه الصلاة والسلام كان يدعو ا ً في هذا الشهر الفضيل ، والدعاء فصلتُ عنه كثيراً في خُطبةُ الجمعة ، وذكرتُ أن في القرآن الكريم ثلاثَ عشرةَ آية فيها كلمة " **قُل** " :

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

(سورة البقرة)

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

(سورة البقرة)

وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

(سورة البقرة)

ثلاثَ عشرةَ آية في القرآن الكريم فيها هذه الصيغة إلا آيةً واحدة هي قوله تعالى :

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

(سورة البقرة)

إذا فتحتم المعجم المفهرس على مادة سألَ تأتي آيات يسألونك إحصِ هذه الآيـات ثلاثَ عشرةَ آيةً كريمةً في كُل هذه الآيات كلمةٌ واحدة هي " قُل " هذه الكلمة كلمة " قُـل " غابت في آية واحدة هي " **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب** " استفاد العلماء من غياب كلمة " قُل " في هذه الآية أنه ليس بين العبد وبين ربه حجاب .. لا وسطاء .. الدعاء وسيلةُ اتصالٍ مباشر .. أن يكون بين يديك هذا السلاح الخطير بإمكانك أن تدعو ا عز وجـل ، وا لا تستطيع أن تدخل على إنسان ذي أهمية بسيطة إلا بموعد قبلَ أسبوعين وإلا بوقفة لساعـات كثيرة على بابه ، لكن ا سبحانه وتعالى يقول " **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الداعي إذا دعاني** " قد تقفُ ساعات على بابِ إنسان ربنا عز وجل يقول :

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

(سورة الكهف)

وا هاتان الآياتان لا تُقدران بثمن .. يعني .. إذا أردتَ أن تلتقي مع ا عز وجل اعمل عملاً صالحاً وادخل إلى بيت من بيوت ا وصلي ركعتين وانظركيفَ أن ا سبحانـه وتعالى يتجلّى على قلبك وانظر كيفَ تنهمر دموعك وانظر كيفَ تشعر أنك أسعد النـاس .. هذه معنى قوله تعالى " **قُل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** " .

" **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب** " لكن ذكرت يوم الجمعة أنـه " **وإذا سـألك عبادي عني** " أنتَ عن ماذا تسأل ..؟.. قُل لي ما الذي تسألُ عنه أقُل لك من أنت ، ماالـذي يعنيك ، ما الذي يقلقُك ، ماالذي تبحثُ عنه ، ما الذي ترجوه ..؟.. " **وإذا سألك عبادي عني** " تسألُ عن حطام الدنيا ، عن متاعها ، عن تجارتها ، عن مكاسبها ، عن بيوتها ، عـن زوجاتها ، عن نسائِها ، أم تسألُ عن ا كيفَ أُرضيه ، كيفَ يرضى عني ، كيفَ أتقرب إليه، كيفَ أُطيعه ، كيفَ يقبلُني ، كيفَ يحبني ، " **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب** " .

أيام بعض الأخوة يدعون دعاء بصوت مرتفعٍ وصياحٍ وضجيجٍ ورفع اليـدين إلـى السماء ودعاء بليغ منمق ، مسجعٍ ، مدروسٍ ، معد إعداداً رائعاً ، مع أن ا َ سبحانه وتعـالى يقول عن سيدنا زكريا :

إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾

(سورة مريم)

بإمكانك وأنتَ صامت ، بإمكانك وشفتاك مطبقتان ، أن تسألَ ا َ في قلبك شيئـ ـاً ، سلاح عظيم بين يديك ، يعني .. أنت من أجل أن تصل إلى شخص ذي أهمية قليلة تبذلُ جهداً كبيراً ، لكن ا َ جل في علاه تقول يارب يقول لك لبيك ياعبدي اسـأل تُعطـى ، وا هـذا الحديث الشريف الذي أتلوه على مسامعكم دائماً لو وقفنا عنده وقفةً متأنية :

عن أبي سعيد وأبي هريرةَ قالا قالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم : إن الله يمهلُ حتى إذَا ذَهب ثُلُثُ الليل الأولُ نَزلَ إلى السماء الدنْيا فيقُولُ : هلْ من مستَغْفرِ ؟ هلْ من تَائـ ـبٍ ؟ هلْ من سائِلٍ ؟ هلْ من داعٍ ... حتى ينْفَجِر الْفَجر....*

(صحيح مسلم)

وأنتَ إذا قُلتَ سمع ا ُ لِمن حمده ا ُ يسمعك سمع ا ُ لِمن حمده .. تفضل .. قُل له ياربي لك الحمد والشكر والنعمة حمداً كثيراً طيباً مباركاً .

في الحديث عن ليلة النصف من شعبان حديثٌ عن الدعاء وعن قيمـة الدعـ ـاء ، وكيفَ أن الدعاء سلاح المؤمن ولكن قد تسأل هذا السؤال : يارب المسلمون يدعونك ليلَ نهار في كُل مناسبة وعقب كُل صلاة وفي مناسباتهم الدينية وفي الخُطـب وفـي الكلمـات وفـي الاحتفالات وفي عقود القران وفي المناسبات الحزينة ، يسألونك أن تُهلك أعداءهم يارب وأن .. وأن .. وأن .. والذي يراه الناظر أن ا َ عز وجل لا يستجيب ... الجواب في هذه الآيـة "**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الداعي إذا دعاني** " قد يصبح الدعاء سلوكاً، قد يصبح الدعاء عادةً لا معنى لها .. ادع لنا يا سيدي فيدعو لك .. الداعي والذي يؤمن على دعائه في واد آخر .

قال "**أُجيب دعوة الداعي إذا دعان** " إذا دعاني حقيقةً ، قد يدعوني الداعـي وهو متكئٌ على زيد أو عبيد معتمد عليه ، قد يدعوني الداعي وهو معتمد على ماله أو على جاهـه أو على قريبه أو على شيء في يده لكنه إذا دعاني حقّاً أُجيبه ... ا عز وجل يعلّمنـا كيـفَ يستجيب لنا قال :

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

(سورة البقرة)

يعني إذا آمنت به تستجيب له ، فإذا استجبتَ له ودعوته يستجيب لك ، هذه الآية قانون الدعاء .. آمن به ثم استجب له ثم ادعوه يستجب لك .. فإذا حدثتُكم عن دعاء النصف من شعبان فهو الحديث عن الدعاء لأنه مخُ العبادة .. يعني .. الإنسان يصلي حتى يتصل ، يصوم حتى يتصل ، يحج حتى يتصل ، يتصدق حتى يتصل ، يستقيم حتى يتصل ، يعمل الأعمال الصالحة حتى يتصل ، إذاً الإتصال با هو كُلُ شيء لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول : " **الدعاء مخُ العبادة** " .. يعني .. أعلى درجات الاتصال أن تدعوه وأنتَ في ضائقة ، أن تدعوه بدعاء حار أن تدعوه وأنتَ تستغيثُ به ، لذلك قالَ النبي الكريم :

عن أَنَس بنِ مالِك ، عنِ النبي صلى اللهم عليه وسلم قَالَ : الدعاء مخ الْعبادة

(سنن الترمذي)

عن أَبِي هريرةَ أَن رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم قَالَ : لَيس شَيء أَكْرم على الله من الدعاء *

(مسند الإمام أحمد)

ليس شيء أكرم على ا من الدعاء وأجمل ما في هذا الموضوع قوله تعالى :

قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا



(سورة الفرقان)

يعني .. لولا أنكم تدعون ا عز وجل ا عز وجل لا يعبأُ بكم .. أي .. الدعاء علامة الإيمان ، إذا دعوتَ ا معنى ذلك أن ا موجود ، وإذا دعوتَ ا معنى ذلك أنك مؤمن بأنه يستمع إليك ، وإذا دعوتَ ا معنى ذلك أنك مؤمن بأنه يستجيب لك ، وإذا دعوتَ ا معنى ذلك أنك مؤمن بأنه قدير ، إيمانُك بأنه موجود وبأنه سميع وبأنه قدير وبأنه رحيم دعاك إلى أن تدعوه ، إذاً : دعاؤك له علامةُ إيمانك به . إذاً " **ما يعبأُ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوفَ يكون لِزاماً** ".

عودةٌ إلى موضوعنا المقرر وهو ما قاله بعض العلماء في ترجيح الطائع الذي لم يعص ا على الإنسان الذي عصى ا ثم تاب منه موضوع لطيف على أن كُل فريق يحتج

بأن الأول أفضلُ من الثاني .. أولاً : قالَ بعضهم إن أكملَ الخلق وأفضلُهم أطوعهم وهـذا الذي لم يعصِ فيكون أفضل . .. إنسان لم يعصِ وإنسان عصى وتاب الذي لم يعصِ أفضـلُ من الذي عصى وتاب بشكل بديهي ، الذي عصى مضى وقتٌ من حياته وهو في معصية وهو في قطيعة وهو في خسارة فالذي يرافقه ولم يعصي هذا الوقت أمضاه في طاعة ا استفاد من الوقت ومن عمله الصالح ومن إقبالِه على ا .... إذاً : الشخص الأول يعد أفضل .

العاصي في أثناء المعصية يمقُته ا عز وجل ، الطائع في أثناء الطاعة يحبـه ا عز وجل ، إذاً : بين أن يمضي وقتٌ وأنتَ في مقت ا وبين أن يمضي وقتٌ وأنتَ في طاعة ا .. بون كبير بينهما.. المذنب حينما يذنب قد يتوب وقد لا يتوب فهو مغامر وإذا عالجه ا بمصيبة قد يستجيب وقد لا يستجيب ، وقد يستفيد وقد لا يستفيد ، ففي المعصية مغامرةٌ كبيرةَ بل مقامرةٌ كبيرة .. يعني .. من يضمن لك أن تتوب من هذه المعصيـة ..؟.. هناك ُأنـاس يصرون على ذنبهم حتى الموت .. أبداً ..

إذاً : الطائع في سلام أما العاصي في مقامرة وفي مغامرة ، المطيع أحاطَ نفسـه بسياجٍ منيع من الطاعة لكن العاصي جعلَ في هذا السياج ثغرات كثيرة .. من هذه الثغـرات أتاه الشيطان فخرب بنيته الداخلية ، وخرب صفاءه ، وخرب إقباله على ا عز وجل .

في نقطة دقيقة جداً : أجمع أصحاب رسول ا صلى ا ُ عليه وسلم وهـذه الفكـرةَ أقولها لكم دائماً والأن أقرأُها أولَ مرة : أجمع أصحاب رسول ا صلى ا ُ عليه وسلم على أن كُلَ ما عصي ا ُ به فهو من جهلٍ .. يعني .. لا يمكن أن تعصي ا َ عز وجل إلاّ وتُـدمغ بأنك جاهل ..

... عن مسروق قَالَ : كَفَى بِالْمرء علْما أَن يخْشَى الله ، وكَفَى بِالْمرء جهلا أَن يعجـب بِعلْمه..... *

(سنن الدارمي)

مهما تعلّمت ما دمتَ مقيماً على معصية فأنتَ لا تعرِفُ ا ، مقياس علمك طاعتُـك لا حذلقةُ لِسانك ولا طلاقةُ لِسانك ولا إجابتُك عن كُل مسألة تُسألُ بِها ، مقياس علمك الحقيقي الذي ينجيك يوم القيامة طاعتُك ـ عز وجل .

فلذلك أجمع أصحاب رسول ا على أن كُلَ ماعصي ا ُ به فهو جهالة والجهالـةُ نوعان : جهالةُ علمٍ وجهالةُ سلوك ، إما من الجهل وإما من السفه ، الإنسان إذا انحرف فهـو سفيه ، وإذا ارتكب معصيةً فهو جاهل ، لذلك أعدى أعداء الإنسان هو الجهل وربنا عز وجل حينما قال:

وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

(سورة الأحزاب)

الجاهليةُ الأولى هي الجهلُ المفضي إلى الجهالة .. هذا الانحراف .. الإنسان حينما يعصي يطمع العدو به والعدو هو الشيطان ، .. يعني .. إذا أنتَ لم تعص أبداً الشيطان ييـأس منك لكنك إذا بدأتَ خطوةً نحو المعصية طَمع فيك الشيطان وطَمع بمزيد من المعاصي .

الشيئ المهم أن المعصية لا بد من أن تُكفّر إما بمصيبة كي تُمحى بها هذه المعصية، وإما بحسنة كبيرة تُمحى بها هذه المعصية ، وإما بعذابِ قبرٍ ، وإما بسكرات موت ، وإمـ ـّا بعذابٍ في النار .. يعني .. هذه المعاصي كما قالَ النبي عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه :

في درسٍ آخر إن شاء ا عز وجل نتحدث عن فضل من وقع في مخالفة ثم تـاب إلى ا ِ عز وجل وقُبلت توبته ، وكيفَ أن ا َ سبحانه وتعالى يرحمه ويقبله .. حتى يتـوازن الوضع .. إذا واحد لم يعص فهذا شيء جميل جداً ، لكن إذا عصى وتاب وقبِله ا عز وجل له عند ا ِ شأن كبير لأن ا َ يفرح بتوبة عبده .. أحياناً و المثلُ الأعلى يكون في الأسـرة طفلان أو شابان ، شاب متفوقٌ في دراسته وشاب آخر منحرف انحرافاً شديداً ، المتفـ ـ ـوق والمستقيم أَلِفَ والِداه أنه كذلك ، لكن المنحرف إذا عاد إلى طريق الصواب يدخلُ على قلـبِ والديه فرحاً لا حدود له ..

لذلك : لا ا ُ أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد والعقيم الوالد والظمآن الـ ـوارد ، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى إمرأةً من السبايا رأت ابنها فأقبلت عليه ووضعته على صدرِها قال: لا ا ُ أفرح بتوبة عبده من هذه بولدها ... أحاديث كثيرة تؤكد ذلك .

على كُلٍ هذا في الدرس القادم إن شاء ا ُ تعالى .. قيام ليلة النصف من شعبـ ـان يعني أن تُكثر فيها من الذكرِ والدعاء والصلاة وقالَ بعضهم إذا صليتَ قبلَ الفجرِ صلاة قيـام الليل أجزأتك عن قيام الليل عند بعضِ العلماء ، يعني شيء من قيام الليل وشيء مـ ـن تـلاوة القرآن هذا يجعلُك من الذين استجابوا ِ ورسوله وأحيوا ليلةَ النصف من شعبان .

والحمد رب العالمين

****

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم ..... مع الدرس الرابع والثلاثين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ولا زلنا في منزلة التوبة بدأنا هذه المنزلة بـأنواع الـذنوب والمعاصي بدءاً من أن تقولَ على ا ِ ما لا تعلم إلى الشرك والنفاق والكُفرِ والفسوق إلى الإثمِ والعدوان إلى الفحشاء والمنكر إلى الكبائر إلى الصغائر ، وفي هذا الدرس نتحدثُ عن أحكـامٍ مهمة جداً من أحكام التوبة ..

الحكم الأول : هو أن المبادرةَ إلى التوبة من الذنبِ فرض على الفور ... هذه فكرةٌ مهمة المبادرةَ إلى التوبة من الذنبِ فرض على الفور ... فمن وقع في ذنبٍ وتاب منـه بعـد حين عليه أن يتوب من ذنبين الذنب الذي اقتضى التوبة ، وتأخير التوبة لأن المبـادرةَ إلـى التوبة من الذنبِ فرض على الفور ... إذاً : لو أن الإنسان اقترفَ ذنباً ولم يتُب منه فوراً بـل تاب منه بعد حين عليه أن يتوب مرتين : أن يتوب من هذا الذنب وأن يتوب من تأخير التوبة .. لماذا ؟ لأنك إذا وقعتَ في الذنب وبقيتَ عليه فترةً ما لعلّ الذنب يصبح من عوائدك ، لعلّك قَبِلته ، لعلّك اعتدتَ عليه ، لعلّك اجترأتَ على ا ، لعلّه مع التكرار أصبح شيئاً بسيطاً عندك ..... فالخطورةُ ليس في وقوعك في الذنب بل الخطورةُ في أن تستمر في الذنب ، فلذلك مـن استمر في ذنبه فعليه أن يتوب من الذنبِ ومن تأخير التوبة ...

لذلك : من وقع في ذنبٍ ولم يتُب منه فوراً عليه أن يتوب توبةً عامةً ، هناك توبـةٌ خاصة من هذا الذنب بالذّات وهناك توبةَ عامة فلعل التوبةَ العامة تمحو ذنب تأخير التوبة .. كان عليه الصلاة والسلام يدعو في صلاته ويقول : اللهم إني أعوذُ بِك أن أُشرِك بِـك وأنـا أعلم وأستغفرك لِما لا أعلم .

وكان يدعو في صلاته ويقولُ : اللهم اغفر .. دققوا في هذا الدعاء :

عن أَبِي موسى الْأَشْعرِي عن النبِي صلى اللهم عليه وسلم أَنه كان يدعو اللهم اغْفِـر لِـي خَطِيئَتي وجهلي وإِسرافي في أَمرِي وما أَنْتَ أَعلَم بِه مني اللهم اغْفر لِـي هزلِـي وجِـدي وخَطَاياي وعمدي وكُل ذَلك عنْدي *

(صحيح البخاري)

لكن لو قُلتَ أنتَ لمن يدعوك إلى التوبة من هذا الذنب : أنا ما كُنتُ أعلـم أن هـذا ذنب.. لا أعلم يا أخي .. ماذا تُجيبه ..؟.. إن عدم علمك معصية ، هنـاك معصـيةٌ وهنـاك معصيةُ أن لا تعلم ، لماذا لا تعلم ؟

لذلك : ورد في الحديث الشريف في كتاب الجامع الصغير فيما أذكر أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول : ويلٌ لمن لا يعلم .. هو أكبر ذنب .. وويلٌ لمن يعلم .

كيف ؟ ويلٌ لمن لايعلم : إن عدم العلم ، إن عدم طلب العلم ، إن عدم معرفـة ا عز وجل ومعرفة منهجه ذنب كبير ، لكنك إذا علمت ولم تعمل أيضاً ويلٌ لك ، ويلٌ لمـن لا يعلم وويلٌ لمن يعلم ولا يعمل .. فدقّةُ هذا الدعاء : **اللهم اغْفر لِي خَطيئَتي وجهلي وإسرافي في أَمرِي... فالجهلُ ذنب وكُلكم يعلم أن أي مواطن إذا ضبط بمخالفة وقالَ للقاضـي : يـا سيدي ما كُنتُ أعلم يجيبه إجابةً ثابتةً يقول له : يا أخي لا جهلَ في القـانون .. الجاهـل لا يعذر .. اطلب العلم .**

وفي المناسبة ما من إنسان على وجه الأرض على علمٍ أو علـى خبـرة أو علـى اختصاصٍ تستطيع أن تطرقَ عيادته أو مكتبه أو مقر عمله دون أن تُهيء الأمـوال الكافيـة الأتعاب ، الأجور ، إلا أن ا جلّت حكمته جعلَ دينه وحقائقَ دينه وكتابـه وتفسـير كتابـه وحديثَ نبيه الشريف وتفسير حديث نبيه الشريف جعله مبذولاً بلا مقابل ، بيوت ا مفتوحـة والخدمات تؤدى بلا مقابل ، ولك أن تسأل ولك أن تستفتي ولك أن تحضر أي مجلسٍ مهمـا كان الذي يلقي الدرس على جانبٍ من الأهمية والشُهرة تحضر درسه مجاناً ، أما الطاولة ليلة رأس الميلاد في بعض الفنادق تُكلّف عشرةَ ألاف ليرة .. المعاصي غالية جداً أما الطاعـات مبذولة ..

إذاً يقول عليه الصلاة والسلام :

عن أَبِي بردةَ بنِ أَبِي موسى الأَشْعرِي عن أَبِيه عن النبِي صلى اللهم عليه وسلم أَنـه كَـان يدعو بِهذَا الدعاء اللهم اغْفر لِي خَطيئَتي وجهلي وإِسرافي في أَمرِي وما أَنْتَ أَعلَم بِه مني اللهم اغْفر لِي جِدي وهزلي وخَطَئِي وعمدي وكُلُّ ذَلك عنْدي اللهم اغْفر لِي ما قَدمتُ ومـا أَخرتُ وما أَسررتُ وما أَعلَنْتُ وما أَنْتَ أَعلَم بِه مني أَنْتَ الْمقَدم وأَنْتَ الْمؤَخر وأَنْتَ علَى كُلِّ شَيء قَدير *

(صحيح البخاري)

وا دعاء رائع .. أيها الأخوة الأكارم ... في التوبة حقائق خطيرة ، وحينما أقـول حقائق خطيرة أعني بها حقائق مهمةٌ جداً ، من هذه الحقائق أن العبد إذا تاب من الذنب فهـل يرجع بعد التوبة إلى ماكان قبلَ الذنب عند ا ؟ كان في هذه المكانة ، سقطَ في ذنب ، ثم تاب منه ، فهل يرجع إلى مكانة كان يحتلُها قبلَ الذنب ؟ هذا سؤال ، الجواب : من التـائبين مـن

يعود إلى مرتبة كانت قبلَ الذنب ، ومن التائبين من يعود إلى مرتبة دون ما كان قبلَ الذنب ، ومن التائبين من يعود إلى مرتبة فوقَ ما كان قبلَ الذنب ... دون ، ومساوية ، وفوقَ ما كان ... قال لو أن إنساناً يقطع طريقاً طويلاً تارةً يركب ناقته ، وتارةً يمشـي الهـوينى ، تـارةً يسرع ، تارةً يجلس ليأكل مازال كذلك من طورٍ إلى طور التفتَ يمنةً فـإذا شـجرةٌ وارفـةُ الظلال وعلى طرفها ماء يجري عذب سلسبيل فتاقت نفسه أن يستريح ويجلس هنا بينما هـو يجلس جاء عدو له فقيده في مكانه وحبسه .. هذا هو الذنب حينما وقع الإنسان في ذنبٍ أصبح مقيداً :

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾

(سورة المدثّر)

بالقوانين .. الإنسان البريء حر طليق ، يجلس في بيته ، يذهب إلى مكان جميـل ، يلتقي مع شخص ، يزور إنساناً .... أما إذا ارتكب جريمةً يلقى القبض عليـه ويـودع فـي السجن .. متى فقد حريته .. حينما وقع بالذنب فهذا الإنسان يسير في طريق طويل وإلى هدف بعيد تارةً يركب ، تارةً يمشي ، تارةً يسرع ، تارةً يبطئ ، تارةً يجلس ، تـارةً يأكـل ، ... هكذا .. حارت منه التفاتةٌ رأى شجرةٌ وارفة الظلال ومياه عذبة فتاقت نفسـه أن يسـتريح .. استراح .. جاءه عدو له وقيده ومنعه من الحركة ، ثم جاء صديقٌ له ففكّه من هذا القيد ، بعد هذه التجربة لعلّه يجِد في السير ويغذُ في السير .. إذاً هذا التائب ربما عاد بعد التوبـة إلـى مرتبة فوقَ ماكان قبلَ التوبة .. ممكن .. وربما عاد هذا المسافر بعد أن فُك مـن قيـده إلـى ماكان عليه قبلَ أن يستريح عند هذه الشجرة ، وربما أغوته هذه الشجرة وبظلها الظليل ومائها العذب النمير تاقت نفسه أن يعود ويقول حينما يأتي من يقيدني يأتي من يفُكُني .

إذاً : بعد التوبة إما أن تعود إلى مرتبة كالتي كُنتَ عليها قبلَ التوبة ، وإما أن تعود إلى مرتبة فوقَ ما كُنتَ عليها ، وإما أن تعود إلى مرتبة دون ما كُنتَ عليها .. هـذا بحسـبِ همتك ونشاطك وحبك وإخلاصك وإدراكك ووعيك .. هذه واحدة ..

شيء آخر في التوبة : هو أنك إذا وقعتَ في ذنبٍ متعلّق بـآدمي .. الـذنوب كمـا تعلمون أيها الأخوة أنواع منوعة .. هناك ذنوب فيما بينك وبين ا ، وهناك ذنوب فيما بينـك وبين العباد، فا التي بينك وبين ا َ .. .. يمكن أن تستغفر ا َ منها فيما بينك وبينـه ويغلـب على الظن أن ا َ سبحانه وتعالى عفو كريم ، ولكن الذنوب التي فيما بينك وبين العباد هذه لن تُغفر .. ودققوا فيما أقول .. لن تُغفر إلا إذا غَفَر لك العباد لأن حقوقَ ا ِ عز وجل مبنيةٌ على المسامحة بينما حقوق الخلق مبنيةٌ على المشاححة ، لذلك قبلَ أن تقع في ذنبٍ مع بني البشـر

مع إنسانٍ ، مع مخلوق ، مع حيوانٍ ، مع نبات .. قبلَ أن تعتدي على حق مخلوق ، قبلَ أن تأخُذَ ما بيد مخلوق ظُلماً وعدواناً ، قبلَ أن تُجرحه ، قبلَ أن تغتابه ، قبلَ أن تحقره ، قبلَ أن تأخُذَ ماله ، قبلَ أن تأخذَ بيته، قبلَ أن تبني مجدك على أنقاضه ، قبلَ أن تبني غناك على فقره ، قبلَ أن تبني حياتك على موته ، قبلَ أن تبني أمنك على خوفه ، قبلَ أن تقع في ذنبٍ متعلّق بالعباد فكّر ألفَ مرة ، وفكّر مائة ألف مرة ، وفكّر ألفَ ألف مرة ، لأن الذنوب التي يقع فيها الإنسان في حق العباد مبنيةٌ على المشاححة ولابد من مسامحة ، وقد تقفُ أمام إنسانٍ موقفاً ذليلاً .

فيا أيها الأخوة الأكارم ... الآن إذا تعلّقَ الذنب بمخلوق ما ولعلّه إنسان ، لعلّه من بني البشر ، ماذا نعمل ؟ قال هذا الحق إما أن يكون مادياً وإما أن يكون معنوياً ، فإذا كان حقّاً مادياً لابد من أدائه .. أبداً .. لابد من أدائه .. مال ، حاجة ، آلة استعرتها منه ثم إدعيتَ أنها ضاعت منك فسكت ، غافلته وأخذتَ هذا الشيء في ساعة غفلة وجهلٍ وطيشٍ وبعد حينٍ تُبتَ إلى الله عز وجل فإذا هذه الآلة الحاسبة بين يديك .. هذه ليست لك .. يعني ..الحقوق منها المادي مال ، عارية ، كتاب ، آلة ، ساعة ، حاجة ، دين ، ذمة ، أجور خدمة ، اشتريتَ من بائعٍ حاجةً وكان عنده ازدحام شديد فوليتَ الأدبار ولم تدفع الثمن .

... إذا كان قد بدر منك ذنب متعلّقٌ بآدميٍ أو بمخلوق وكان الذنب مادياً .. اسمعوا وسأقول بملء فمي .. لابد من أداء هذا الحق أو يسامحك صاحب هذا الحق ، .. كلام واضح كالشمس .. لهذا حينما قالَ الله عز وجل :

يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣١﴾

(سورة الأحقاف)

جاءت " **من** " للتبعيض ، لأن الله عز وجل لا يغفر لكم كُل ذنوبكم ، يغفر لكم بعض ذنوبكم المتعلّقة فيما بينكم وبينهم .

إذاً : إذا كان الذنب متعلّقاً ببني البشر أو بمخلوق وكان هذا العدوان على ماله أو على حاجاته أو على بضاعته أو على متجره أو على بيته أو اغتصبتَ شبر أرضٍ أو دكاناً أو بيتاً أو......

.. تُروى قصة وقعت في هذه البلادة : إنسان مضطر لثلاثمائة ألف ليرة فجاء لأحد الأغنياء الكبار وعرض عليه مزرعةً فخمةً جداً ، على أن يكتب هذه المزرعةً باسمه وأن

يقرضه ثلاثمائة ألف ليرة فإذا تمكّن من أدائها رد له المزرعة .. اتفقا هكذا .. فهـذا الغنـي حينما كُتبت له المزرعة وذهب إليها وأمضى فيها صيفاً جميلاً .. فيها مسـبح مـثلاً ، فيهـا أشجار مثمرة ، فيها بيت .. أعجبته هذه المزرعة ، بعد حين جاءه صاحب الدين وقالَ يا أخي هذا المبلغ توفّر لدي فيرجى أن تُعيد لي المزرعة ، قال لا كُل إنسان عنده حقه ، توسلَ إليـه ورجاه ووسطَ له أقرباءه ووجهاء الحي . الجواب دائماً كُلٌ منّا عنده ما بيـده .. ويجـب أن تعلموا أن المزرعة لها ثمن كبير جداً وضعها رهناً ولم يعطه هذه المزرعة مقابِلَ هذا المبلغ ، هذا الرجل صاحب المزرعة أصابه غم شديد وما زالَ هذا الغم يتصاعد حتى قضـى عليـه وماتَ وقبلَ أن يموت أوصى ابنه ..

- تصوروا مثلاً صاحب المزرعة بيته فرضاً في الميدان والغني المغتصب بيته في المهاجرين فرضاً أنا أقترح اقتراحاً - .. فأمر صاحب المزرعةَ ابنه أن يا بني إذا مت فامشِ بجنازتي إلى المهاجرين ومر أمام بيت هذا المغتصب أعطه هذه الرسالة .. كتب رسالة : أنني أنا ذاهب إلى دارِ الحق وسوفَ أُخاصمك عند ا ِ عز وجل فإن كُنتَ بطلاً لا تلحق بي إلـى هناك .. هذه الرسالة وهذه قصةٌ وقعت ، طبعاً مكتب دفن الموتى ا-استغرب لماذا نذهب إلى هذا المكان البعيد !!! هنا التُربة الباب الصغير وأنتم في الميدان قالَ لا هذه وصيةُ الوالـد .. فذهبت هـذه الجنازة إلى دار المغتصب ووقفت الجنازة هناك وطُرِقَ الباب وأُعطي الرسـالة ففتحها وقرأ ما فيها والجنازة واقفة .. قالَ له : أنا ذاهب إلى دارِ الحق وإن كُنـتَ بطـلاً لا تلحق بي إلى هناك . يروى أن هذا المغتصب بعد أيامٍ بادر فوراً إلى إرجاع المزرعـة إلـى الورثة ... شيء مخيف ... أن تغتصب شبر أرضٍ ، أن تغتصب بيتاً ، دكاناً ، حاجةً ، آلةً ، مركبةً ، هكذا ... هذا الذي اغتصبتَ منه له رب والرب كبير وسوفَ يأخذُ منك الثمن باهظاً يوم القيامة .

لذلك : قالَ عليه الصلاة والسلام :

عن أَبِي هريرةَ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم رحم الله عبدا كَانَتْ لأَخيه عنْـده مظْلَمةٌ في عرضٍ أَو مالٍ فَجاءه فَاستَحله قَبلَ أَن يؤْخَذَ وليس ثَم دينَار ولا درهم فَإِن كَانَـتْ له حسنَاتٌ أُخذَ من حسنَاته وإِن لَم تَكُن له حسنَاتٌ حملُوا عليه من سيئَاتهم *

(سنن الترمذي)

الدين المعاملة ، ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجةً بعد الإسلام ، ركعتان من ورعٍ خير من ألف ركعة من مخلّط ، قال أما إذا كان هذا الذنب متعلقاً بآدمي وهو مادي قـالَ عليه الصلاة والسلام :

عن أَبِي هريرةَ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم رحم الله عبدا كَانَتْ لأَخيه عنْده مظْلَمةٌ في عرض أَو مالٍ فَجاءه فَاستَحله قَبلَ أَن يؤْخَذَ وليس ثَم دينَار ولا درهم فَإِن كَانَت لَه حسنَاتٌ أُخذَ من حسنَاته وإِن لَم تَكُن لَه حسنَاتٌ حملُوا علَيه من سيئَاتهِم *

(سنن الترمذي)

ممكن أن تُرسل حوالة بمبلغ ، الأن ممكن أن تضع هذا المبلغ بظرف وأن تُلقيه في دكان هذا صاحبِ الحق ، ممكن أن تعتذر ، ممكن أن تستسمح ، ممكن أن تُقدم ، ممكن أن تُحاسب ، ممكن أن تترك البيت ، ممكن أن تتخلى عن المحل التجاري ، إنسان وهو يقود سيارته في الحجاز أصابته أزمةٌ قلبية فإنكفأ على مقود السيارة وإلى جانبه زوجته ، من غرائب الصدف أن صديقاً له كان إلى جانب المركبة فأخذه ووضعه في المقعد الخلفي وساقَ المركبةَ إلى المستشفى وأُدخلَ فوراً العنايةَ المشددة ، وهناك أُناس يصابون بأزمة قلبية بعد العناية المشددة من فاتورة العناية المشددة .. ، فبعد ساعات انتعش وصحا وقال هاتوا لي مسجلّةً فإذا هو يصرح أن هذا المحلَ التجاري الكائن في المكان الفُلاني ليس لي هو لإخوتي وقد اغتصبته منهم ولهم الحقُ فيه ، اعترف .

.. أسرع طريقة للإعتراف هذه الطريقة ، بعد أيامٍ عديدة خرج من هذه العناية المشددة وشعر بقوة ونشاط فقالَ أين الشريط اعطوني إياه فلما استرجعه كسره وعاد إلى ما كان عليه ، وبعد ثمانية أشهرٍ ماتَ ميتةً شنيعة .... فهذا الذي حصلَ له اسمه بالتعريف الحديث إنذار مبكّر .... أحياناً الإنسان يكون مغتصب مال أخذَ شيئاً ليس له ..

أربع شباب ورثوا عن والدهم ، الأخ الصغير ذهب حقه ، هذا أخذ البيت من رائحة والده ، وهذا أخذ السجاد كُله ، وهذا أخذ المزرعة وأبقوا الصغير بلا شيء .. أخونا هذا ونحن نُحبه .. كلام فارغ هذا .. الإنسان يغتصب إخوته له أخت متزوجة والبيت الذي يسكنه له ولأخته .. وهي متزوجة يضيع نصيبها من البيت ..

وا أعرف أخاً كريماً يحضر معنا هذا المسجد يسكن في منزل غالي الثمن وأُخته متزوجة .. قيمه .. بسعر اليوم سعر خيالي واشتغل وجد حتى قدم لأخته حصتها من هذا البيت ... هذا الحق ... بنت مستضعفة ضعيفة .

أعرف رجلاً مات ترك ثروة طائلة ، ترك ست بنات وأخٌ واحد .. صبي .. هذا الوريث المذكّر أنكر حقوقَ إخوته البنات كُلهن بطريقة أو بأُخرى ، وقعه الأب سندات دين أو أشياء أُخرى حتى خرجت أخواته من الإرث بلا شيء .

لذاك : الأن إذا الموضوع مادي إسمعوا قولَ النبي عليه الصلاة والسلام **: " عن أَبِي هريرةَ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم رحم الله عبدا كَانَتْ لأَخيه عنْده مظْلَمةٌ في**

عرضٍ أو مالٍ فَجاءه فَاستَحله قَبلَ أَن يؤْخَذَ وليس ثَم دينَار ولا درهم فَإِن كَانَتْ له حسـنَاتٌ أُخذَ من حسنَاته وإِن لَم تَكُن له حسنَاتٌ حملُوا عليه من سيئَاتهم * "

(سنن الترمذي)

في أخ كريم من أخواننا الكرام عنده معمل فقالَ لي : أفقد مالي وأفقد بضاعة ، بقيتُ أشـهر عدة وأنا أُراقب مراقبة خيالية والمال يفقد من مكان الغلّة والبضاعة تنقص ، هذا الذي يسرق خبير إلى درجة متناهية ، ثم توقفت هذه السرقة لم يعرف من هو الفاعل ، قالَ لي بعد عشـر سنوات طرقَ بابي شاب ملتح دعوته ودخل فقالَ له هل عرفتني فأجابه كأني أعرِفُك ، قالَ له أنا كُنتُ عندك عاملاً قبلَ عشر سنوات .. تذكرت .. قالَ له : أنا الذي كُنتُ آخذُ مـن جيبـك ومن بضاعتك وقد تعرفتُ إلى ا واصطلحتُ معه فها أنا ذا أُريد أن أُعطيك كُلَ شـيء ... هذا الأخ الكريم قال له : وا ِ نظير هذه التوبة سامحتُك بِكُل شيء .

حتى رجل جاءته قطعة أرض ليست له بحكم توزيع الأراضي على الفلاحـين لـه شيخ سأله : ياسيدي هذه الأرض جاءتني وأصلُها لِفُلان فقالَ له هذا لا يجوز يا بني إذهب إلى فُلان واشترها منه ، ليس معه فباع أساور زوجته وقالَ لعلّه يرضى بهـذه الدفعـة المقدمـة وأُقسط له الثمن لسنوات طويلة ، جاء إلى هذا الرجل صاحب هذه الأرض وقال له : ياسيدي أعطوني هذه الدونمات من أرضك وهي ليست لي وسألتُ شيخي فقال هي ليست لي وليس لك إلا أن تشتريها منه وها أنا قد جِئتُك لأشتريها منك فنظر إليه صـاحب الأرض وقـال : وا ِ ذهب مني ألاف مؤلفة من الدونمات وما وصلَ إلي واحد من هؤلاء الأشخاص يريـد شـراء الأرض إنها هديةٌ لك يابني خُذها هذه تأخذها حلالاً زلالاً كما يقولون .

لما الإنسان يطلب الورع فا عز وجل يعينه ، إذا أنت أردتَ أن تخرج مـن هـذا البيت الذي ليس لك فا ُ عز وجل يهيء لك بيتاً ممتازاً إذا آثرتَ ا َ عـز وجـل فـا ُ لا يضيعك .. مرةً ثانية : ما ترك عبد شيئاً إلا عوضه ا ُ خيراً منه في دينه ودنياه ..

.. مستحيل أن تُطيعه وتخسر ومرةً ثانية مستحيل أن تعصيه وتربح ، مسـتحيل أن تُطيعه وتشقى ، مستحيل أن تعصيه وتسعد ، مستحيل أن تُطيعه وتكون بـآخر الركـب إلا بالمقدمة ، مستحيل تعصيه وتكون في المقدمة إلا بالأخير ، والدليل :

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾

(سورة الأعراف)

إذا كانت هذه المظلمةُ ليست ماديةً .. غيبة ، نميمة ، استهزاء ، تجـريح ، احتقـار ،.... هذا ذنب يسمونه حقوق أدبية .. أنتَ شتمته ، اغتبته ، جرحته ، اتهمته وهو بـريء ، طبعاً لو أنه أقام دعوى له حقٌ عندك ، طيب هذا الذنب كيفَ يغفر ..؟.. الآن دققوا وهذا نقع به كثيراً .

بعضهم قال : يجب أن تذهب لمن اغتبته وأن تذكُر له ما قُلتَ له في غيبته عنه وأن تطلُب أن يسامحك .. لا يوجد سوى ذلك .. هذا رأي ، وبعضهم قال : يجوز أن تذهب إليـه وتقول له يا أخي لقد نلتُ منك إجمالاً لا تفصيلاً أرجو أن تُسامحني ، وبعضهم قال لا يكفـي أن يعيد اللقاء الذي التقى به مع زيد وعبيد وتحدثَ به في هذا اللقاء عن فُلان .. أن تُعيد اللقاء مرةً ثانية وأن تقول لهم أنا كُنتُ مخطئاً وفُلان رجل جيد وما إلى ذلك .

كم مذهب ؟ ثلاثة : إما أن تذهب إليه وأن تذكُر له عين الذنب " الغيبة ، الإحتقار ، التقليد ، النميمة ... إلخ " وأن تطلُب السماح منه ، وإما أن تذهب إليه وأن تقول له بشكل عام لقد نلتُ منك أرجو أن تُسامحني ، أو أن لا تذهب إليه أبداً وتذهب إلى من كُنتَ معهم وتحدثتَ إليهم عنه تعقد لهم لِقاء ثانياً وتقول وا ـ أنا كُنتُ في خطأٍ كبير وفُلان بريء وأن قد تجاوزت حدي وقد اتهمته ظُلما فأرجو أن يحصل لكم العلم بذلك .

قال : مذهب الإمام الشافعي وأبي حنيفةَ والإمامِ مالِك هو الإعلان التفصيلي والتحلل قال لأن البراءةَ من حق المجهول ليست براءةً .. أخي اكتب لي براءة ذمة ، من ماذا ؟ مـن مبلغ لك معي ، كم هو يجب أن يعرف المبلغ .. براءة ذمة عامة لا يوجد ، فُلان بريء الذمة من الدين الفُلاني البالغ كذا وكذا ، فرأي الإمام الشافعي وأبي حنيفةَ والإمامِ مالِك أنه لابد من أن تذهب إلى من اغتبته أو احتقرته أو جرحته أو اتهمته أو غمزتَ من قناته أو طعنـتَ فـي نَسبه أو طعنتَ في أمانته حتى لو أنك أمسكتَ ثوبك وحينما ذُكرت فُلانة قُلت أحسن منّـي .. هذه غيبة ، هذا طعن ، قالوا ورد في الأثر : قذفُ محصنة يهدم عملَ مائة سنة .

فالبراءةُ من حق مجهول لا تصح لهذا احتجوا بقول النبي :

عن أَبِي هريرةَ قالَ قالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم رحم الله عبدا كانَتْ لأخيه عنْـده مظْلَمةٌ في عرضٍ أَو مالٍ فجاءه فاستَحله قبلَ أَن يؤْخَذَ وليس ثَم دينَار ولا درهم فَإِن كانَـتْ له حسنَاتٌ أُخذَ من حسنَاته وإِن لَم تَكُن له حسنَاتٌ حملُوا عليه من سيئَاتهم *

(سنن الترمذي)

لأنه حينما فعلَ هذا ارتكب جرمين ارتكب جرماً في حق أخيه طعناً في نسبه أو بأمانتـه أو بإخلاصه ... الآن إذا الإنسان ذُكر أمامه عالِم ما قال دجال .. عند ا لا تمر هذه ، هذا عالم له دعوة له أخوان ، أمتأكد أنت ، معك دليل ، أم للتسلية ... فكُل إنسان قبـلَ أن يقـول : دجال ، كاذب ، غير فهمان ، فهمان ... قبلَ أن تتهمه بِتُهم هو بريء منها ، حضرتَ مجلسه

، استمعتَ إلى دروسه ، إلتقيتَ معه ، هكذا تتهم الناس غيابياً وتنجو من عذاب ا .. لا وا ..

فقال : لابد من أن تتحلله اليوم قبلَ ألا يكون درهم ولا دينار الأن فـي مجـال أن تستسمح منه ، تعقد مجلساً آخر تُغير كلامك ، ممكن أن تتقرب منه بهدية ، ممكن أن تخدمـه خدمة ، ممكن أن يلين قلبه يقول لك سامحتك لكن قبلَ ذلك مشكلة .

أما في اختيار ثان ولعلّه مقبول ، الإختيار الثاني : اجمع هؤلاء اللذين اغتبتـه فـي حضرتهم ، اجمعهم واذكر لهم أنك مخطئٌ في هذه الغيبة وأنه بريء وأنه لا شائبةَ حوله وأنا كُنتُ مخطئاً ، ولا عليك ألا تذهب إلى صاحب الغيبة ، لماذا ؟ قال : لأنك إذا ذهبتَ إليه وقُلتَ له قُلتُ عنك كذا وكذا ربما غلا دمه ، وربما حقد عليك ، وربما تفتتَ المجتمع ، وربما وربما .... العلماء الأخرون رجحوا أنه يكفي أن تجمع هؤلاء الذين اغتبته في حضرتهم وأن تـذكُر عكس ما قُلته البارحة وأن تتوب إلى ا عز وجل .

طبعاً : هناك رأيان والحقيقة الترجيح بينهما أن الشخص الذي اغتبته إذا كان واسـع الصدر حليماً يترفّع عن الانتقام والحقد وله عند ا مكانة لا تهزه أنتَ بها .. يعني .. ما ضر السحاب نبح الكلاب ، ما ضر البحر أن ألقى فيه غلام بحجر .

في شخص سمعته ومكانته عند ا أكبر من كُل كلامك يعني مكانته وقُربه مـن ا وشعوره بالسعادة .. أنتَ لا تهزه بكلامك .. سيدنا موسى بالمناجاة قال : ياربي لا تُبقي لـي عدواً قالَ يا موسى هذه ليست لي .. لي لم تصح .. هذه ليست لي ، كُل إنسان له عدو فـإذا إنسان واسع الأُفق عظيم الشأن لا يهتز ، إذا كان ذهبتَ إليه وقُلتَ له أنا قُلتُ كذا وكذا أرجـو أن تُسامحني أغلب الظن يسامحك ولا يحقد عليك ، أما إذا إنسان إيمانه وسط ونمطه عصـبي وقُلتَ له أنا قُلتُ عنك كذّاب فإذا به يعذبك مباشرةً فمثلُ هذه الحالة الأولى أن تُطبقَ المـذهب الثاني .

طبعاً يوجد حجة : لماذا في الحقوق المادية يجب أن يؤدى الحقُ إلى صاحبه وفـي الحقوق الأدبية ليس ضرورياً أن يؤدى الحقُ إلى صاحبه أن تذهب إلى من اغتبتـه أمـامهم ..؟.. قال : لأن الحقَ المادي ينتفع به .. هذه الساعة لِفُلان فإذا أديتها لصـاحبها انتفـع بهـا أعطاها لابنه أما إذا ذهبتَ إلى من قد اغتبته وقلتَ له : قُلتُ عنك كذّاب ، ماذا استفاد اسـتفاد من الحقد والغضب والشتم وما إلى ذلك .

إذاً : يمكن بحسب الحكمة إما أن تتجه إلى من اغتبته معتذراً مستسمحاً ، طبعـ ـ ـاً أن تذهب إلى من اغتبته في حضرتهم هذا شيء لابد منه .. لابد منه .. أما إليه بالذّات هنـا يوجد خلاف بين العلماء حوله .

موضوع بالتوبة دقيق : قال لو أن إنساناً كان ذنبه الكذب وذنبه الغيبة ثم قُطع لِسانُه وأصبح أبكم .. هذا الإنسان تُقبل توبته إنسان زان أقيم عليه الحد ، إنسان سارق قُطعت يده ، يعني أداةُ الذنب معدومة طيب كيفَ يتوب هذا الإنسان ؟ .

عليه الصلاة والسلام سيد الخلق لهذا الإنسان توبة مع أن لسانه مقطوع كُلياً ولا يستطيع أن يقولَ كلمةً واحدة وله أن يتوب من كُل ذنوبه السابقة القولية والأن لسانه مقطوع فكيفَ له أن يتوب ؟ .

قال عليه الصلاة والسلام :

عن زياد بن أَبِي مريم عن ابن معقل قَالَ دخَلْتُ مع أَبِي على عبد الله فَسمعتُه يقُولُ قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم الندم تَوبةٌ فَقَالَ له أَبِي أَأَنْتَ سمعتَ النبِي صلى اللهم عليه وسلم يقُولُ الندم تَوبةٌ قَالَ نَعم *

(سن ابن ماجة)

حينما تندم فهذه توبة ، إذا إنسان فرضاً فقد حريته وكان يطلق بصره بالحرام دخل لغرفة ليس فيها نساء لسنوات طويلة ومات في هذه الفرقة كيفَ يتوب من ذنب إطلاق البصر لم يعد نساء هنا ..؟.. نقول : ندمه توبة وهذا من رحمة ا ينا الندم توبة

طبعاً : كيفَ قاسوا ذلك ؟ قال : قاسوا ذلك على أن النبي عليه الصلاة والسلام قال :

حدثَنَا إِبراهيم أَبو إِسماعيلَ السكْسكي قَالَ سمعتُ أَبا بردةَ واصطَحب هو ويزِيد بن أَبِي كَبشَةَ في سفَرٍ فَكَان يزِيد يصوم في السفَرِ فَقَالَ له أَبو بردةَ سمعتُ أَبا موسى مرارا يقُولُ قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم إِذَا مرِض الْعبد أَو سافَر كُتب له مثْلُ ما كَان يعملُ مقيما صحيحا *

(صحيح البخاري)

لك أنتَ مجالس الإثنين والأحد والجمعة لا سمح ا ُ ولا قدر صار في مرض لَزِمتَ الفراش أسبوعين ، هل تُصدق أن أجر حضور الدروس الثلاثة مكتوب لك وأنتَ في البيت إذا في عذر طبعاً ، أو سافرت سفراً شرعياً .. وغبتَ عن بعض الدروس ، وغبتَ عن بعض الأعمال الطيبة التي أَلِفتَ أن تعملها ، هل تُصدق أن أجرك هو هو !!! " إِذَا مرِض الْعبد أَو سافَر كُتب لَه مثْلُ ما كَان يعملُ مقيما صحيحا " .

وفي الصحيح أيضاً أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان في الجهاد قالَ :

عن أَنَسِ بنِ مالِك رضي اللهم عنهم أَن رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم رجع من غَزوة تَبوك فَدنَا من الْمدينَة فَقَالَ إِن بِالْمدينَة أَقْواما ما سرتُم مسيرا ولا قَطَعتُم واديا إِلا كَانُوا معكُم قَالُوا يا رسولَ الله وهم بِالْمدينَة قَالَ وهم بِالْمدينَة حبسهم الْعذْر *

(صحيح البخاري)

كُلكُم يعلم لما النبي تفقّد بعض أصحابه في غزوة ففي شخص طعن بهم ، غمز مـن قناتهم ، اتهمهم بالنفاق ، قالَ يا رسولَ ا فُلان شَغله النظر إلى عطفيه عن الجِهاد معك ، فقام أحد أصحاب رسول ا وقال : كذبتَ وا ، يارسولَ ا لقد تخلّفَ عنك أُناس وا ِ ما نحـن بأشد حباً لك منهم ولو علموا أنك تلقى عدواً ما تخلّفوا عنك ... إذا غاب أحدهم مباشرةً نطعن به ... تقول همته ضعيفة ... قد يكون أمر قاهر زوجته تضع ، عنده مشكلة ، مباشرةً تتهمه بالتقصير؟ لعل له عذراً وأنتَ تلومه .

موضوع بالتوبة دقيق جداً ، قال : لو أن إنساناً عملَ سيئات حديثة فاستغرقت حسنات قديمة وأبطلتها ثم تاب توبةً نصوحاً خالِصةً قال : عادت إليه حسناته ولم يكُن حكمـه حكـم المستأنف له بل يقال : ثُبتَ على ما أسلفتَ من خير ، صحابي جليل اسمه حكيم ابـن حـزام قـالَ يارسولَ ا أرأيتَ عتاقةً أعتقتُها في الجاهلية ، وصدقةً تصدقتُ بها ، وصلةً وصلتُ بها رحمي ، فهل لي فيها من أجر قبلَ أن أُسلم ..؟.. قالَ عليه الصلاة والسلام : أسلمتَ على مـا أسلفتَ من خير ، بعد ما أسلمت ضمت لك هذه الأعمال الصالحةُ السابقة ، يعني كُـل عمـل صالح فعلته قبلَ أن تُسلم وقبلَ أن تؤمن .. بعد أن أسلمت ضم لك وهذا من رحمة ا بنا .

قال : الإساءةُ بين الطاعتين إذا تاب العبد منها حذفت وضمت الطاعتان إلى بعضهما بعضاً .. الإساءةُ بين الطاعتين .. ا ُ عز وجل لا يقهر لك عملك السابق كُلُه لـك عنـد ا مكانة ، زلّت قدمك ، تعثرت ، ا عز وجل جابِر عثرات الكرام ، فإذا زلّـت قـدمك بـين حسنتين وتُبتَ من هذه الزلّة محيت وضمت الحسنتان إلى بعضهما بعضاً

بقي موضوع أبدأُ به لكن يحتاج إلى درسٍ مستقل هذا الموضوع أنه مـن شـروط التوبة أن لا يعود الرجلُ إلى الذنبِ مرةً ثانية .. من شروط قبول التوبة اسـتمرار التوبـة .. استمرارها .. فمتى عاد إلى الذنبِ تبين أن التوبةَ كانت باطلةً غير صحيحة ، عاد الإثم الذي محي عنك .. هذا اتجاه .. بعضهم قال : ليس هذا شرطاً إن الاستمرار على التوبـة شـرطُ كمالِها ونفعها وليس شرطَ صحتها ، فنحن أمام اتجاهين وكُل اتجاه له أدلّة .

قالوا : إن العبد إذا تاب من الذنبِ ثم عاوده فهل يعود إليه إثم الذنب الذي كان قبـلَ التوبة بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر إن ماتَ مصراً ؟ نحتكم إلـى النبـي عليـه الصلاة والسلام ، اسمعوا ماذا قالَ النبي ، قالَ عليه الصلاة والسلام :

عن ابنِ مسعود رضي اللهم عنْهم قالَ قالَ رجلٌ يا رسولَ الله أَنُؤَاخَذُ بِما عملْنَا في الْجاهلية قالَ من أَحسن في الإِسلامِ لم يؤَاخَذْ بِما عملَ في الْجاهلية ومن أَساء في الإِسلامِ أُخذَ بِالأَول والآخر*

(رواه البخاري)

" من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عملَ في الجاهلية ومن أساء في الإسلام أُخذَ بالأول والآخــر ".. الإنسان حينما ينقض توبته يحاسب عن ذنوبه التي تاب منها مرةً ثانيــة ، وبالقوانين هناك شيء من ذلك الإنسان يرتكب مخالفة فيكتب تعهداً فإذا وقع بالذنب مرةً ثانيــة حوسب بالذنب الأول والثاني .

مثلاً قال : إن العبد ليعمل بطاعة ا ستين سنة فإذا كان عند الموت جار في وصيته فدخلَ النار، وا ِ أيها الأخوة عشرات بل بضع عشرات الحالات التــي وصــلتني أن هنــاك أشخاص مسلمين مؤمنين صائمين مصلّين قبل الموت خص بعضهم الذكور وترك الإناث ، أو خص ولداً دون ولد ، أو وريثاً دون وريث ، أو حرم ُأخته ، أو حرم فُلاناً ، وكأنه مشــرع ، لذلك : إن العبد ليعمل بطاعة ا ستين سنة فإذا كان عند الموت جار في وصيته فدخلَ النار ، وحينما يجور الإنسان في وصيته ينشأُ أحقاد بين الأولاد لا تنتهي ، هناك تفصيل آخــر .. الأصل كذلك لكن العاق إذا حرمته من نصيبه يزداد عقوقاً فإذا أعطيته لعلّك تُقربــه إليــك ، الدليل : قالَ تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٣﴾

(سورة محمد)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾

(سورة البقرة)

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢

(سورة الحجرات)

اسمعوا إلى حديث السيدة عائشة : أخبري زيداً أنه أبطلَ جِهاده مع رسول ا إلا أن يتوب ، .. باع شيئاً بسعرين .. أخبري زيداً أنه أبطلَ جِهاده مع رسـول ا ، إذاً السـيئات تستغرق الحسنات .. الفكرة خطيرةَ جداً .. السيئات تستغرق الحسنات ، بشكل واقعي السـيئة حجاب ، يقولون بالأخبار أن الطريق مقطوعة بسبب تراكم الثلوج والطريق مقطوعة إلـى ا بسبب تراكم الذنوب .. .. الطريق مقطوع بسبب تراكم الذنوب ، إذا تراكمت الذنوب انقطعت الطريق إلى ا عز وجل ، ما قيمة هذه الحسنات السابقة أنتَ الأن ليس في الإمكان أن تستفيد منها أما إذا تُبتَ من هذا الذنب الجديد ضمت إليها . إذاً : السيئة تستغرق الحسنة السابقة فـإذا تاب العبد منها ضمت إلى الحسنة اللاحقة .. كلام دقيق جداً .

من قواعد الشريعة أن من السيئات ما يحبط الحسنات بالإجماع .. هذا الرأي الأول ، أول رأي أن السيئات تستغرقُ الحسنات وتُبطلُها إلاّ أن يتوب منها ، إذا تاب منهـا ضـمت الحسنات السابقة إلى الحسنات اللاحقة وهذا الذنب كأنه لم يكُن .. واضح ..

الاتجاه الآخر هو : أنك إذا وقعتَ في ذنبٍ ثم تُبتَ منه هذا الذنب كأنه لم يكن فـإذا فعلتَ ذنباً جديداً هو ذنب جديد وله توبةٌ جديدة .. هذا رأي آخر .. من أين استُنبط ؟ قال :

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٤٠

(سورة النساء)

الآية توحي أن الحسنة لا تضيع عند ا عز وجل ، في حديث للنبي عليه الصـلاة والسلام رواه الإمام أحمد في مسنده قالَ :

عن عبد الْملك بن سفْيان الثقفي رضي اللهم عنْهم عن أَبِي جعفَر محمد بن علي عن محمـد ابن الْحنَفية عن أَبِيه قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم إِن الله يحب الْعبد الْمـؤْمن الْمفَتن التواب *

(رواه الإمام أحمد)

لكن إذا أردتم أن تفهموا هذا الحديث ليس تواباً من ذنبٍ واحد يقع فيه الفينـةَ بعـد الفينةَ .. يعني .. كُل مرة تاب من ذنب لم يكن يعرفه ذنباً من قبل .. هذا الكلام يوجه الحديث توجيهاً جيداً.

على كُلٍ الإنسان في موضوع التوبة عليه أن يكون دقيقاً جداً .. .. قُلتُ في الخُطبة السابقة يوم الجمعة في جامع النابلسي : التوبةُ صمام الأمان إذا ضغطت على الإنسان سيئاته ، الوعاء البخاري فيه صمام أمان إذا إزداد الضغط ربما انفجر لكن صمام الأمان يقي الانفجار إذا ضغطت عليك سيئاتُك فصمام الأمان هو التوبة ، إذا غَرِقتَ في ذنوبك فالتوبةُ حبلُ النجـاة .. حبلٌ متين .. ، إذا ضللتَ الطريق التوبةُ تصحيح المسار ، إذا أُغلقت عليك أبواب النجـاة التوبةُ باب النجاة ، يعني التوبة باب نجاة ، وصمام أمان ، وتصحيح مسار ، وحبل إنقاذ ...

أيام الغرقى يقفون بطائرة هيلكوبتر ويدلون لهم بالحبال يتمسكون بها ثم يرفعـونهم .. فالتوبة حبل .. حبل إنقاذ ، وصمام أمان ، وباب نجاة ، وتصحيح مسار ، وبـاب التوبـة مفتوح مالم يغرغرِ العبد .. مفتوح على مصراعيه .. والتائب من الذنبِ كمن لا ذنـب لـه ، وإن ا َ يحب التوابين " و ُ أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد والعقـيم الـوارد والظمـآن الوارد ، وإذا رجع العبد العاصي إلى ا نادى مناد في السماوات والأرض أن هنئوا فُلاناً فقد اصطلح مع ا ".

فوا ِ الذي لا إله إلا هو لا يمكن أن تتذوقوا شعور التائب بالسعادة إلا إذا كُنتم كذلك .. إذا تُبتم توبةً نصوحاً تشعرون براحةً لا توصف ، كأنك اصطلحتَ مع ا خالق الكـون ، كأنك في حرزٍ حريز ، في أمنٍ عظيم ، في رحمة غامرة ، في توفيق بالغ ، في سعادة طافحة ، في يشرٍ لا يقدر بثمن ... لذلك أنا أعجب ماذا تنتظر

إلى متى وأنتَ في اللذات مشغولُ وأنتَ عن كُل ما قدمتَ مسؤولُ..؟.. إلى متى ..

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ١٦ ﴾

(سورة الحديد)

كُن عن همومك معرضاً ... وكل الأمور إلى القضا

وأبشر بخيرٍ عاجلٍ ... تنسى به ما قد مضى

فلَرب أمرٍ مسخط	لك في عواقبه رِضا
ولربما ضاقَ المضيق	ولربما اتسع الفضا
ا ُ يفعلُ ما يشاء	فلا تكُن معترضاً
ا ُ عودك الجميل	فقس على ما قد مضى

وكُل واحد منكم إذا جلس مع نفسه متأملاً أي ذنبٍ فَعلَه وعاهـد ا َ علـى تركـه والإقلاع عنه يشعر أن الباب مفتوح وقَبله ا عز وجل ، إذا قالَ العبد : ياربي لقد تُبتُ إليـك قالَ عبدي وأنا قد قَبِلت .. وأنا قد قَبِلت .

والحمد رب العالمين

****

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم ..... مع الدرس الخامس والثلاثين من دروس مدارج الســالكين ولا زلنا في موضوع التوبة ، في دروسٍ سابقة تحدثتُ عن الإثمِ والعــدوان وعــن الفحشــاء والمنكر وعن أنواعِ الفسوق والكُفرِ والشرك والنفاق وعن أكبرِ ذنبٍ وهو أن تقولَ على ا ـِ ما لا تعلم وعن الكبائر وعن الصغائر ثم دخلنا فــي تفصــيلات التوبــة وانطلقــت فــي هــذه الموضوعات من حقيقة ثابتة وهي أن التوبةَ أساسها العلم ، لن تتوب من ذنبٍ إلا إذا عرفــتَ أنه ذنب ، فالتوبــةُ أساسها العلم ، ومن شروطها الندم ، ومن نتائجها الإقــلاع مــن الفــور والعزم على أن لا يعود الإنسان إلى ذنبه في المستقبل والإصلاح في الماضي إذا كان الــذنب متعلّقاً بحق من حقوق العباد.

أيها الأخوة الأكارم .... ألا تكفينا هذه الآية التي قالَ ا ُ عز وجل فيها :

وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

(سورة النور)

كأن ا َ سبحانه وتعالى جعلَ التوبةَ أساساً للفلاح ، والفلاح مطلق النجاح ، قد نقول فُلان ناجح في عمله ، أو قد نقول فُلان ناجح في حياته يعني في حرفته وفي اختيار زوجتــه وفي تربية أولاده وفي علاقاته العامة حتى في صحته ، ما منّا واحد إلا ويتوقُ إلى النجــاح ، إلى مطلق النجاح ، إلى مطلق الفلاح ، إلى مطلق الفوز ، إلى مطلق التفوق .... هذه الآيــة فيها أمر صريح واضح للمؤمنين بأن يتوبوا جميعاً دون استثناء " **وتُوبوا إلى الله جميعا أيها المُؤْمنُون لعلكُم تُفْلحون** " .

ولكن الشيء الذي يلفت النظر أن هذه الآية وردت في سورة النور ، وسورة النــور مدنية ، إذاً : ا ُ سبحانه وتعالى يخاطب أصحاب رسول ا الذين خاضوا معركةَ بدرٍ وأُحــد والخندق ولهم باع طويلٌ في الجهاد ، ولهم تضحيتهم وهجرتهم ومؤاثرتهم ....

التوبةُ ليست قاصرةً على مرحلة من مراحل الإيمان ، إنها تســير مــع الإنســان طــَوالَ حياته لأنه في كُل مرحلة قد يقع في ذنبٍ لم يقع به من قبلُ ، كُل مرحلة لها ذنوب

، من الذنوب أن تنشغلَ بغير الله عنه .. هذا ذنب .. كُلما ارتقت مرتبتُك كانت حسنات المؤمنين سيئات المقربين ، كُلما ارتقت مرتبتُك عند الله عز وجل كُلما دقّت حساسيتُك في اكتشاف الذنب .

الشيء المخيف أن الله سبحانه وتعالى يقول :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾

(سورة الحجرات)

الناس رجلان على اختلاف أنواعهم ومشاربهم وانتماءاتهم .. الناس رجلان تائب وظالم وليس هناك رجلٌ ثالث ، تائب وظالم " **ومن لم يتُب فأولئك هم الظالمون** " ، وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

عن أبي هريرة أنه سمع رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم قالَ والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرةً *

(صحيح البخاري)

ربما إذا أقبلتَ على الله عز وجل وبدا لك من جماله ، من كماله ، من رحمته ما لم تُكن تعرفه من قبلُ فهذه المعرفة الدنيا تُعد في حق الأنبياء ذنباً ، كُلما أقبلتَ على الله ورأيتَ من رحمته ومن علمه ومن قُدرته ومن فضله ومن لُطفه الشيء الذي لم تكُن تعرفه من قبلُ تشعر أن معرفتُك المتواضعة من قبلُ هي ذنب في حقك ، إذا دخلتَ على رجلٍ لا تعرفه وعرضتَ عليه خدماتك في علمك فقال لك أنا أحمل دكتوراه ألا تستحي منه في هذا الاختصاص ؟ عرضتَ عليه خدمةً أُخرى في مجال آخر فقال لك أنا في هذا متفوق ، عرضتَ عليه خدمةً ثالثة في مجال ثالث فقال لك أنا في هذا أحمل ماجستير ، ألا تشعر أنك أذنبتَ في حقه حينما ظننتَ أقل من ذلك ؟ يعني مثل للتقريب .

إذاً : ربنا سبحانه وتعالى حينما قالَ " **وتُوبوا إلى الله جميعا أيها المؤْمنُون لعلكُم تُفْلحون** " معناها الإيمان كُل مرتبة ، كُل درجة ، كُل طور ، كُل حال ، كُل منزلة ، كُل مستوى، له استقامته وله ذنوبه ، قد تقول لإنسان مبتدئ يا أخي دع شُرب الخمر ، دع أكلَ مال اليتيم ، فأنتَ إذا رأيتَ إنساناً غارقاً في المعاصي ترك شُرب الخمرِ وترك أكلَ المال

الحرام تشعر أنه إنسان صار جيد جداً ، فإذا صلّى ، فإذا صام ارتقى ، .... إذا ترك العصـاة المعاصي درجة جيدة، إذا أدوا صلواتهم درجة جيدة ، بعد أن صلّوا ، الأن إذا تكلّموا كلمةً لا تليقُ هذا ذنب .

يعني إذا نظر إلى إنسان نظرةً ليست جيدةً ، نَظَر إليه شذراً .. هـذا ذنـب بحـق المؤمن ، فكُلما ارتقت مرتبتُك دقّت حساسيتُك في كشف الذنبِ ، معنى ذلك أن التوبة مستمرة ، كُلّما ارتقت مرتبتُك هناك تقصير إن في خواطرك ، وإن في ظنك ، وإن في تصورِك ، وإن في حركاتك ، وإن في سكناتك ...

إذاً : هذه الآيةُ التي نَزلت تُخاطب المؤمنين ، نَزلت في المدينة وهي تُخاطب كبـار الصحابة الذين ضحوا بالغالي والرخيص والنفسِ والنفيس " **ومن لم يتُب فأُولئِك هم الظالِمون** " لا ثالثَ لهما إما أن تكون تائباً وإما أن تكون ظالِماً .

هذه الفاتحة التي تقرؤها كُل يوم ، كُلَّ يومٍ وفي كُل صلاة وفي كُـل ركعـة وفـي الفرض والسنّة والواجب ، تقرؤها عشرات المرات بل بضع عشرات المرات ألم تقـرأ فيهـا قوله تعالى :

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

(سورة الفاتحة)

ألم تطلب من الله عز وجل أن يهديك الصراطَ المستقيم ، الشيء الدقيق هو أنـك إن جهلتَ الصراطَ المستقيم فتوبتُك ليست صحيحة لن تكون تائباً إلا إذا عرفتَ الصراطَ المستقيم ، إذا عرفتَ الصراطَ المستقيم ولم تُزمع أن تستقيم فأنتَ من نوع آخر فإما أن تُرمى بالجهـل وإما أن تُرمى بالتقصير ، الذي يقولُ في صلاته **:**

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

(سورة الفاتحة)

لا يمكن أن يكون جاهلاً بالصراط المستقيم ، فمن لوازم التوبة أن تتعرفَ إلى دقائق الصراط المستقيم ، من لوازم التوبة أن تُقبِلَ على تطبيق الصراط المستقيم ، وإلاّ تُعد قـراءةُ

الفاتحةُ في حقك باطلةً ، إن لم تتقصى أمر الله عز وجل وإن لم تُطبق هـذا الأمـر فقـراءةُ الفاتحة التي هي السبع المثاني التي لُخّص فيها القرآن كُله تُعد باطلةً .

الإنسان متى يذنب متى تتمكن منه شهوته ، متى تَزِل قدمه ، متى يغلب ، متى يؤثر الشهوةَ على طاعة الله ؟

العلماء يقولون : " إذا تخلّى الله عنه ، إذا تخلّى الله عنه أصبحت مقاومته هشّـةً "، إمرأةٌ تُغريه ، مبلغٌ من المال يرديه ، لقاء يدفعه إلى ارتكابِ معصية ، متى يعصي الإنسـان ربه ، متى تَزِلُ قدمه ، متى يغلب متى يؤثر الشهوةَ على طاعة الله ؟ قال : إذا تخلّى الله عنه ، ..

طيب .. ومتى يتخلّى الله عنك ؟ قال : إن لم يعتصم به ، إن لم تعتصم بالله تخـلّى الله عنك ، فالعبد بين حالين بين أن يكون الله عز وجل ولياً له وبين أن يدعه لنفسه ، استمعوا إلى القرآن : يقول الله عز وجل :

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

(سورة آل عمران)

أنتَ تملك هذا السلاح ، لو سافرت إلى بلد أجنبي مضطراً واعتصمت بالله عز وجل : يارب قني الزلل ، قني أن أقع في الهاوية ، قني أن أقع فيما لا يرضيك ، أنتَ ما دمتَ قـد اعتصمتَ به لن يتخلّى عنك ، يلقي في قلبك نوراً ، يلقي في قلبك طُمأنينةً ، يقوي مناعتك ، يقوي مقاومتك ، تشعر أن بينك وبين الذنب مراحلَ فساحاً ، تشعر وكأنّك في الأعماق ما دمت قد اعتصمتَ بالله عز وجل ، فإذا قُلت أنا إرادتي قوية ، إذا لم تعتصم بالله واعتمـدتَ علـى نفسك تخلّى الله عنك ووكلّك إلى نفسك .

فلذلك : موضوع الذنب ، اقترافُ الذنب ، زلّةُ القدم ، الانغماس في شهوة محرمة ، الإنغماس في أكلِ مالٍ حرام ... هذا كُلُه يأتي في لحظة التخلّي من قبل الله عز وجل ، مـن اتكلَ على نفسه أوكلَه الله إياها ، أما أن تبقى مع الله عز وجل معتصماً " **ومن يعتَصم باللـه فَقَد هدي إلى صراط مستَقيم** " ، الآية الثانية :

وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِى ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

(سورة الحج)

الحياة فيها مغريات ، فيها منزلقات ، فيها متاهات ، فيها تُرهـات ، فيهـا أحابيـل للشيطان، الدنيا تغر وتّضر وتَمر ، فيها ما يفتن ، فيها ما يغوي ، فيها ما ينسي ، .... كيـفَ تنجو من هذه المنزلقات ، كيفَ تنجو من تلك المتاهات ؟ أن تعتصم با ِ عز وجل ، من قدوتُنا في هذا ؟ سيدنا يوسف :

قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾

(سورة يوسف)

فالإنسان لا يعتمد على نفسه ، لا ينبغي أن يعتمد على نفسه وعلى إدراكـه وعلـى علمه وعلى قُدرته وعلى قوة إرادته وعلى حزمه ... هذا كُله كلام فارغ ... إذا ضـعفَ ا ُ مقاومتك ... نسمع الكثير عن شخصيات مهمة وقعوا في حبائـل إمـرأة سـاقطة فأصـبحت سمعتُهم فـي الحضيض ، أصبحت سمعتُهم في الوحول ، .. هذا يقع .. " **ومن يعتَصم بِاللـه فَقَد هدي ِإلى صراط مستَقيم** " .

إأنتَ بين توليةَ ا ِ لك .. أن يتولى ا ُ أمرك .. وبين أن يخـذِلك ، إن اعتصـمتَ بـ ـه يتولّى أمرك ، وإن اعتمدت على ذاتك وعلى نفسك خَذَلَك ، ولماذا يخذلُك وهو الرحمن الرحيم ؟ يخذلُك ليؤدبك ، يخذلُك ليعرفُك ، يخذلُك ليعطيك درساً قاسياً ، ليعطيك خبرةً مرةً لا تنساها أبداً ، أنا أعرفُ شاباً زارني في البيت ما إن دخلَ البيت حتى أجهشَ بالبكاء قُلتُ لـه لماذا تبكي ؟ هو من طُلابنا قالَ : إنني أنظر إلى النساء في الطريق وأنا بعـد هـذه التوبـة النصوح وبعد هذا الجهد البليغ لي في طريق الإيمان سنواتٌ كثيرة ثم تنتهي بي النهايةُ إلى أن

أُطلق بصري في الحرام وأتبع النساء في الطريق ، قُلتُ له يارجل تُب إلى ا عز وجل فازداد بكاء وقالَ كيفَ أتوب لقد تُبتُ إليه عشرين مرة .

مرة سألوا مدمناً على الدخان قال : إن الإقلاع عن التدخين أمر سهل جداً فأنا أقلعتُ عنه عشرين مرة معناه ليس سهلاً وا في هذه الجلسة لم أكتشف السر الذي ضعفت فيه مقاومةُ هذا الشاب .. في سر .. كان شديداً في طاعته ، كان غاضاً لبصره ، فجأةً انهارت مقاومته وصار يتبع هؤلاء النساء الكاسيات العاريات بنظره ويملأ عينيه من الحرام ، وقد قالَ عليه الصلاة والسلام : من ملأ عينيه من الحرام ملأهما ا من جمرِ جهنم " ، " والنظرةُ سهم مسموم من سهام إبليس "

في جلسة قادمة لعل ا عز وجل ألهمني ذكر لي بعض التفصيلات ، هذا بعد أن تاب إلى ا توبةً نصوحاً ، وبعد أن شعر بحلاوة القُرب وحلاوة الإقبال على ا وشعر بمكانته عند ا ، وشعر أن ا يحبه ، وأنه متفوق وأنه فالح وأنه وأنه ..... نظر إلى أبيه وأُمه فرآهما ليسا على ما يريد فصار يقرعهما بلا أدب وصار يتيه عليهما باستقامته وظن أنه مستقيم بقوته وبحزمه وبإرادته الحديدية ، فجأةً انهارت مقاومته ووقع فيما كان يحذّر منه وكأن ا أراد أن يؤدبه .

لذلك : لا تنسى حينما تقرأُ الفاتحة قول ا عز وجل "**إياك نعبد وإياك نستعين** " ، وقد قالَ عليه الصلاة والسلام :

" ألا أُنبئكم بمعنى لا حولَ ولا قوةَ إلا با !! لا حولَ عن معصيته إلا به ، ولا قوةَ على طاعته إلا به "

هذا معنى قول النبي الكريم سيدنا يوسف " **وإلا تصرفْ عني كيدهن أَصب إليهن وأَكُن من الجاهلين** " .

مرةً التقيت مع رجل يعمل في مستشفى وفيها ممرضات كثيرات ، قالَ لي باعتداد أنا لا أنظر إليهن أبداً ولا ... قُلتُ له يارجل أنتَ أظلم من سيدنا يوسف ؟ استعن با لا تعتد بنفسك استعن با " **وإلا تصرفْ عني كيدهن أَصب إليهن وأَكُن من الجاهلين** " طبعاً لعلّي ذكرت موضوع النظر للنساء في أي موضوع ، في أي موضوع آخر ، في أي مخالفة ، إياك أن تعتد بنفسك .

إذاً : أنتَ بين أن يتولى أمرك ا إذا عتصمتَ به أو أن يخذلك إذا اعتمدتَ على نفسك ولم تعتصم به ، ولماذا يخذلُك وهو الرحمن الرحيم ؟ ليؤدبك ، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

" أدبني ربي فأحسن تأديبي " .

الله كيفَ يؤدب الإنسان ؟ مرةً قالَ لي أخ من أخواننا الكرام عنده معمل متواضع ، جاءه أخ من المسجد ليشتري بعض الحاجات ، هو يبيع بالجملة يبيع مئات الدزينات ، فجـاءه رجل صغير فقير يريد أربع قطع ألبسة ... قطعتين ثلاث ... فرأى في هذا الشراء إهانةً لـه ، قال يا أخي أنا لا أبيع بهذا أنا أبيع بالجملة اعذرني ، قال له خير إن شاء الله وغادر ، يقسم هذا الأخ الكريم أنه مضى عليه ثلاثةٌ وعشرون يوماً لم يدخل معمله إنسان ليسأله عن شـيء يشتريه .. هذا تأديب الله عز وجل .. " **أدبني ربي فأحسن تأديبي** " ، كُلما خالفتَ أمره يؤدبك ، يقول العوام " المربى غالٍ " المؤمن كُلما زلّت قدمه جاء التأديب .

وبالمناسبة : والله أيها الأخوة الأكارم إذا شعرتَ أنه كُلما أخطأت جاءك التأديـب .. إفرح .. إنك عند الله محظي ، لأنك ضمن العناية المشددة ، إفرح إذا كُنتَ في العناية المشددة ، واحزن على نفسك وابك عليها كثيراً إذا فعلتَ المعصيةَ ولم يحدث شـيء .. إذا تجـاوزتَ الحدود ولم يحدث شيء ، إذا تطاولتَ على العباد ولم يحدث شيء معناها أنتَ خارِج العنايـة المشددة أنتَ في دائرة الاهمال ، فشتّان بين أن تكون معتنى بِك وبين أن تكون مهملاً ، لـذلك إذا أحب الله عبده ابتلاه ، إذا أحب الله عبده عجلَ له بالعقوبة ، فكُلما اقتربتَ من الله فَهِمـتَ على الله ، لماذا كذا ؟ لأجل كذا ، حقاً يارب ، سمعاً وطاعةً يارب ، لماذا ياربي كذا ؟ مـن أجل كذا ، طيب من يقول لك من أجل كذا هنا السؤال ؟ جاءت مصيبة ، قضية انزعجتَ منها ، من يقول لك من أجل كذا ؟ الهام يقع في القلب هل هناك دليل في القرآن عليه :

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾

(سورة الشمس)

مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ
وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

(سورة النساء)

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾

(سورة التغابن)

يهدي قلبه إلى أسبابِ هذه المصيبة ، الحقيقة الكلمة الشهيرة :

من لم تُحدث المصيبةُ في نفسه موعظةً فمصيبته في نفسه أكبر .

إذا جاءت مصيبة لا تمر عليها مر الجاهلين ، لا تمر عليها مر المتلبدين ، مر عليها مر الأذكياء ، ا ُ عز وجل غني عن تعذيبي ، غني عن ازعاجي ، غني عن قهري ، لمـاذا قهرني ، لماذا أزعجني ، لماذا أقلقني ، لماذا أخافني ، لماذا أتلفَ مالي ؟ لابد مـن ذنـب .. ابحث عن هذا الذنب .

أخطر الذنوب : هو الذنب الذي يقود إلى ذنبٍ آخر ، أخطر ذنبٍ ما ولّد ذنباً آخر ، .. إنسان وقع في ذنب فأعجبه هذا الذنب فاستقر عليه واستمر به ، استقراره عليه واستمراره به ذنب آخر ، تحدثَ عنه ذنب ثالث .

لذاك : أخطر أنواع الذنوب ما كان سبباً لذنوبٍ أكبر منها ، من اقتراف الذنب ، إلى الاستمرار في الذنب ، إلى الفرح بالذنب ، إلى المجاهرة بالذنب .. هذا الذي استقر على ذنب واستمرأه وفَرِح به ألم يعلم أن ا َ ينظر إليه وهو يذنب ، إن قُلتَ لا يعلم فهو كافر ، وإن قُلتَ يعلم فهو وقح ، بين أن يكون الإنسان وقحاً وبين أن يكون كافراً ، إن علم أن ا ُ ينظر إليـه وهو يذنب ، وهو يعصيه ، فهو لا شك وقح سيء الأدبِ مع ا عز وجل ، وإن كان لا يعلم أن ا ينظر إليه فهو كافر ، الذي ينكر آيات القرآن هو كافر لأن ا َ عز وجل يقول :

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾

(سورة الحديد)

إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

(سورة الفجر)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١

(سورة النساء)

فشيء مخيف بين أن يكون وقحاً ، مجترئاً على ا عز وجل وبين أن يكون كـافراً بكلامه .

من حقائق التوبة : تعظيم الجناية واتهام التوبة والغَيرةُ .. كلام دقيقٌ جداً .. الآن ندخل في التفاصيل ، تفاصيل علاقتك با ، تفاصيل اتصالِك به ، تعظيم الجِناية : هناك علاقةٌ عكسية بين صغرِ الذنب وبين الفرح به ، كُلما فَرِحتَ بالذنب ، كُلما هان عليك الـذنب عظُـم الذنب، وكُلما عظُم عليك الذنب هان الذنب ... هذه علاقة عكسية ... العلاقة العكسية هكذا .. كُلما استصغرتَ الذنب صار عظيماً ، وكُلما استعظمته صار صغيراً .

الحقيقة : أنه كُلما عرفتَ ا أكثر استعظمتَ أن تعصيه ، لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت ، كُلما عرفتَ ا أكثر ، كُلما ازدادت معرفتُـك اسـتعظمتَ أن تعصيه، فإذا عظّمتَ ذنبك فقد صغُر هذا الذنب ، لذلك : علامة ذنب المنافق أنه كالذبابـة .. كلام العوام " عند ارتكابهم الإثم ، ماذا حصل ؟ !! ما فعلنا ؟ نظرنا إلى المرأة !! أكلناها ؟ !! إذا جسلنا معها سوفَ تأكُلنا !! " هذا كلام العوام .. الذنب صغير عندهم ، ذنبهم كذبابة ، وأما المؤمنون فذنبهم كأنه جبلٌ جاثم على صدرهم .. علامة الإيمان ..

الأن الطفل المربى المهذّب إذا أعرض عنه أبوه يموتُ بكاء .. إذا أعـرض عنـه اعراضاً فقط ، كُلما دقّت حساسيةُ الطفل تجاه أبيه كان اعراض الأبِ عنه كافياً لإيقاعه فـي أشد أنواع الآلام ، وكُلما قلّت حساسيته ربما إذا ضربه لا يتأثّر .

تعظيم الجناية علامةُ التوبة الصادقة ، لذلك المؤمن يبكي على خطيئتـه ، يتـوب منهـا كثيـراً ويدفع الصدقات ويستغفر ، أحد الصحابة جاءه خاطر أن رسول ا ينهانا عـن قتـل عمه ونحن نقتلُ آباءنا وإخواننا في الحروب ، النبي عليه الصلاة والسلام أمر أصـحابه فـي معركة بدر ألاّ يقتلوا عمه العباس ، .. الصحابة استغربوا نحن نقتلُ آباءنـا وإخواننـا فـي الحروب لأنهم كُفّار جاؤوا ليقتلونا وكيفَ ينهى النبي عن قتل عمه ، هذا عمه مسلم وقد كـتم إسلامه وبقي عيناً له في مكة فلا يقع شيء في مكة إلا ويخبر النبي عليه الصلاة والسلام فإذا لم يخرج مع المشركين كُشفت حاله أمامهم وإذا نهى النبي عن قتل عمه وقال أنه مسلم كشَفَ حاله ... في طريق دقيق جداً فالنبي نهى عن قتل عمه ، هذا الصحابي الجليل بعد أن كُشـفت

له الحقيقة وشعر أنه أساء الظن برسول الله قال : بقيتُ عشر سنوات وأنا أتصـدق وأُعتـق العبيد وأُصلّي الليل لعل الله يغفر لي هذا الذنب .. ما فعلَ شيئاً إلا أنه أساء الظن برسول الله ، فلذلك الإنسان إذا أساء الظن بالله عز وجل يجب أن يشعر أنه وقع في ذنبٍ كبير حسن الظـن بالله ثمنُه الجنة .

أما اتهام التوبة .. الإنسان أحياناً يتوب .. مرةً كُنتُ في الجامعة رأيتُ لوحةً تُحذّر الطُلاب من العلاقات المشبوهة حرصاً على صحتهم واتّقاء لمرض الإيدز ، وقفت عند هـذه اللوحة متأملاً قُلت سبحان الله الإنسان إذا رأى خطراً مخيفاً قد يبتعد عن بعض المعاصـي لا خوفاً من الله عز وجل ولا اتقّاء سخطه ولا رغبةً فيما عنده ولكن ليتقي هذا المرض ، طيـب هذه توبةٌ لمن ؟ هذه ليست توبةٌ إلى الله عز وجل ، هذا حرص على صحتك ، وشر الناس من يتقون المعاصي لا حباً بالله ولا خوفاً منه ولا طمعاً فيما عنده ولكن حرصاً على صـحتهم ، هذه توبةٌ ليست كما يريد الله عز وجل ، يعني هنا حبِطَ عملُه فيتقي هذه العلاقة خوفاً من هذا المرض ، والأن بأوروبا قصص لا تُعد ولا تُحصى يعني حمامات السباحة قل روادهـا إلـى الربع خوفاً من هذا المرض الوبيل يعني هناك صار كُل الفتيات اللواتي يفعلن الفاحشة لا بـد من أن يقدمن شهادة صحية لمن يقترف معهن الفاحشة تؤكّد هذه الشهادة أنهن بريئـات مـن مرض الإيدز ، صار في خوف وهذا الخوف ليس من الله عز وجل بل من هـذا المـرض الوبيل وقد قالَ عليه الصلاة والسلام :

عن عبد الله بن عمر قالَ أَقْبَلَ علينَا رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم فَقَـالَ يـا معشَـر المهاجِرين خَمس إِذَا ابتُليتُم بِهن وَأعوذُ بِالله أَن تُدرِكُوهن لم تَظْهر الْفَاحشَةُ في قَـومٍ قَـط حتى يعلنُوا بِها إِلّا فَشَا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تَكُن مضتْ في أَسلافهِم الذين مضوا ولم ينْقُصوا الْمكْيالَ والْميزان إِلا أُخذُوا بِالسنين وشدة الْمئُونَة وجور السلْطَان علَـيهم ولَـم يمنَعوا زكَاةَ أَموالِهم إِلا منعوا الْقَطْر من السماء ولولا الْبهائِم لم يمطَروا ولم ينْقُضوا عهـد الله وعهد رسوله إِلا سلطَ الله عليهم عدوا من غَيرِهم فَأَخَذُوا بعض ما في أَيديهم وما لَـم تَحكُم أَئِمتُهم بِكتَابِ الله ويتَخَيروا مما أَنْزلَ الله إِلا جعلَ الله بأْسهم بينَهم *

(سنن ابن ماجة)

هناك نقابات وهناك جمعيات تُطالب بحقوق وتخرج بمسيرات وتُقابل المسؤوليـن في دول الغرب من أجل أن يرد اعتبارهم إليهم ، الذين يرتكبون بعض الفواحش الشاذّة أيضاً ، " لَم تَظْهر الْفَاحشَةُ في قَومٍ قَط حتى يعلنُوا بِها إِلّا فَشَا فيهم الطاعون والأوجاع التي لَم تَكُن مضتْ في أَسلافهِم ".. وهذا من آيات الله الدالة على عظَمته .. اتهام التوبة ، الله عز وجـل قال : " **وتُوبوا إِلى الله جميعا** " .

لو أن إنساناً اقترف مخالفة للنظام العام والدين يعاقب عليها وتركها خوفاً من عقابٍ مادي .. هذا ليس تائباً إلى الله عز وجل ، البطولة أن تتوب إلى الله " **وتُوبوا إلى الله** " ، وأن تصبر :

وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾

(سورة النحل)

من علامات صحة التوبة أن تكون بعد الذنب خيراً مما كُنتَ قبلَ الذنب ، حالك أعلى ، وصلتُك بالله أقوى ، وشعورك أقرب إلى الله عز وجل .

الذي يقع في الذنب يصاب بحالة الله يحبها ، .. ينكسر .. هذا الإنكسار يقترب بك من حالة العبودية ، قال : هذه الكسرة اسمها كسرةٌ خاصة تحصل لقلب المؤمن إذا وقع في ذنب صار يهيض الجناح ، صار أمام الله متذللاً ، قال : هذا التذلل يحبه الله عز وجل .. رب معصية أورثت ذُلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزةً واستكباراً .. لعل بكاء التائبِ أحب إلى الله من خُيلاء المطيع .. لعل الذي يصلي الليل ويدلُ على الناس بصلاة الليل أقلُ عند الله من إنسانٍ زلّت قدمه فمرغَ الأرض بجبهته وبللها بدموعه ، لأنه كُلما كُنتَ إلى الله متذللاً كُنتَ أقرب إلى العبودية الحقّة له .

لذلك : بعضهم دعا ربه فقال : أسألُك يارب بعزك وذُلّي إلا رحمتني ، أسألُك بقوتك وضعفي ، بغناك عنّي وفقري إليك ، هذه ناصيتي بين يديك ، عبيدك سواي كثيرون وليس لي سيد سواك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، أسألُك مسألةَ المسكين ، وابتهلُ إليك ابتهالَ الخاضع الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير سؤالَ من خضعت لك رقبته ورغم لك أنفه وفاضت لك عينه وذل لك قلبه .

.. الإنسان إذا صلّى الليل وناجى ربه وتذللَ له يشعر بطعمِ القُرب وهذا حال كبار المؤمنين ، لكن هذا الذُل لله عز وجل يقابله عز في الحياة الدنيا يعزك الله عز وجل ، يرفع من مقامك ، يوجد أشخاص يتكبرون عن الخضوع لله لكن الله يرغم أنفهم بين الناس ، يجعلهم أذلاء ، يقهرون، يهانون ، يشتمون ، يقرعون .

إياك أن تستنكفَ أن تعبد الله عز وجل ، إياك أن تتكبر على الله عز وجل ، إذا خضعتَ إليه خضع لك الناس جميعاً ، إذا تذللتَ إليه رفعك الله فوقهم جميعاً ، إذا وقفتَ بين يديه وقفَ لك الناس احتراماً ، علاقة عكسية : كُلما استنكفتَ أن تعبد الله وتكبرتَ على الله عز وجل كُلما رغم أنفُك بين الناس ، يعني هذا المتذلل هو بين الناس علم ، وبين الناس عزيز

النفس ، وبين الناسِ قوي ، وبين الناسِ ذو شأنٍ رفيع ، .. اجعل لربك كُلّ عزك يستقر ويثبتُ فإذا اعتززتَ بمن يموتُ فإن عزك ميتُ .

آلاف القصص كُلما اعتززتَ بالله عز وجل جعلَ الله كُل مصائِبك من قبل هذا الذي اعتززتَ به .

نحن نتمنى أن نتابع الموضوع وموضوع التوبة شيقٌ جداً وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نتابعه ، يعني موضوع التوبة موضوع الحياة ليس موضوعاً ينقضي في أول طريق الإيمان .. لا .. هو معك في كُل مراحل الإيمان ، في كُل أطوارِ حياتك لأنك مع الله عز وجل بين مصيبٍ ومخطئ ، فإذا أخطات فالتوبةُ صمام الأمان ، إذا كان الذنوب ضغطت التوبة صمام الأمان ، وإذا غَرِقَ الإنسان في ذنوبه فالتوبة حبل النجاة ، وإذا أُغلقت عليك الأبواب فالتوبة باب النجاة ... باب نجاة ، وحبلُ أمانٍ وصمام أمان ، والقرآن الكريم يقول " **وتُوبوا إلى الله جميعا أَيها الْمؤْمنُون لعلكُم تُفْلحون** " .

والحمد لله رب العالمين

****

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم ..... مع الدرس السادس والثلاثين من مدارج السالكين وأُريـد في هذا الدرس أن نقفَ وقفةً متأنيةً ولا سيما ونحن في رمضان حولَ السلوك إلـى ا ِ عـز وجل ، وصلنا إلى موضوع التوبة وقبلَ أن ننتقلَ من التوبة إلى موضوعٍ آخر أردتُ أن أقفَ وقفةً متأنيةً حولَ السلوك إلى ا عز وجل .

الحقيقة : دين ا عز وجل واسع جداً .. يعني .. كما تعلمون باب العقائد باب كبير وباب العبادات باب أكبر وباب المعاملات باب خطير وباب الأخلاق والفضائل لا يستهان به ، ولكن ينبغي للمؤمن دائماً أن يضع يده على جوهر الدين ، ينبغي للمؤمن أن يضع يده علـى الشيء الخطير في الدين ، فحينما يلتبس عند المؤمن ما هو من الدين أساسي وما هو ثانوي ، الأمور حينما تختلط ولا يميز المسلم بين جوهر الدين وبين فروعه أو ثانوياته عندئذ يقع فيما يسمى بالخيطَ العشواء ، فقد يستهلك عمره كُله في شيء لا يستأهلُ هذا الوقتَ الثمين و لا هذا الجهد البليغ .

في شيء اسمه السلوك إلى ا عز وجل .. السلوك .. يمكن أن تُصـلّي ويمكـن أن تصوم رمضان ويمكن أن تَحج البيت ويمكن أن تقرأَ كتاب فقه ، ولكن أتمنى علـى كُـل أخٍ كريم أن يسألَ نفسه هذا السؤال : هل وضعتُ يدي على جوهر الدين ، يعني هل وصلتُ إلى ا ا ُ سبحانه وتعالى مصدر الكمال ، مصدر الجمال ، مصدر القوة ، قوي قـوي ، جميـلٌ جميل ، كاملٌ كامل واحد في كمالِه ، واحد في صفاته ، واحد في ذاته ، فإذا وصلتَ إليـه لا ينبغي أن تكون شقياً أبداً، أما لو أن الإنسان أخذَ من الدين جوانب وأغفـلَ جوانـب طريـق الوصول إلى ا عز وجل أصبح غير سالك ، وما لم يسلُك الإنسان إلى ا ِ عز وجـل فلـن يشعر بهذه السعادة التي وعد المؤمنون بها .

على سبيل السؤال والجواب لأنني أرى أن المحاورة وطرح السؤال وتلقّـي الجـواب شيء يبعثُ في نفسِ المستمع الحيويةَ والنشاط ، ما الوعود التي وعـد ا بهـاالمؤمنين فـي القرآن الكريم .. بعض الوعود .. الوعد الأول : الحياة الطيبة وتعريف الحياة الطيبة الحيـاة التي لا يعتريها شقاء .

.. المؤمن هل تصيبه متاعب في الدنيا وهموم ، يعني سؤال دقيق حيـاة طيبـة .. ياترى المؤمن يمرض ، يفتقر ، المؤمن يعاني من متاعب اجتماعية ، ما دمتَ تقـول أن ا َ

عز وجل وعد المؤمن بحياة طيبة ، أنا ُأريد الآن أن أعرف ما الحياة الطيبة لأنه في ضـوء التعريف تتضح ُأمور كثيرة جداً ، وا أنا أقول لكم : الحياة الطيبة أن تشعر أنك وفقَ المنهج الصحيح وفي طاعة ا عز وجل ولتأتك المتاعب ما شاءت ، سر السعادة أن تشعر أن خالِقَ الكون يحبك وأن خالِقَ الكون أنتَ في الطريق إليه وعلى منهجه وعلى طاعته ، هذا الشـعور يمتص أي شعور متعب في الحياة الدنيا ، لأنه قد تقول لو أن الحياة الطيبة مالٌ وفير قد ترى غنياً غنى فاحشاً هل هو في حياة طيبة هل هو في شقاء ؟

لذلك : كما قالَ بعض الإخوان السكينة .. الإنسان إذا أقبلَ علـى ا عـز وجـل واتصل به وشَعر بالسكينة هذه هي الحياة الطيبة ، لذلك : لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف ، المؤمن يحيى حياةً نفسيةً من أسعد الحيوات .. حياة نفسية .. يعني مـثلاً : من مشاعر الحياة النفسية الخوف شعور مدمر ، القلق شعور مدمر ، الإحباط شعور مـدمر ، القهر شعور مدمر ، الشعور بأن هناك ظُلم عام وأن خصمك بإمكانه أن يدمرك وأمرك بيـده .. هذا شعور كبير جداً .. لذلك الإنسان إذا عاشَ حياةً طيبة ، أي لا يعتريه شعور مـدمر ، شعوره كُلُه صحي ، شعور الطمأنينة والثقة با عز وجل ، والشعور أن ا راضٍ عنه ، هذه الحياة الطيبة قد يعتورها فقر أحياناً وضيقٌ أحياناً ومرض وما إلى ذلك ، لكن الإيمان يمـتص كُلَ هذه المتاعب هذا وعد ..

وعد آخر : الاستخلافُ في الأرض والتمكين والأمـن .. الاسـتخلاف والتمكـين والأمن .. لو أننا سلكنا إلى ا ِ عز وجل السلوك الصحيح ووصلنا إليه لاستحققنا وعد ا ِ عز وجل ، حينما تجد في الكتاب الكريم وعداً إلهياً للمؤمن وحينما لا تجد هذا الوعد محققـاً بِـم تُفسر ذلك ؟ الوعد الأول الحياة الطيبة ، الثاني الاستخلاف والتمكين والطُمأنينة ، .. حينما لا تجد وعد ا ِ محققاً كيفَ نُفسر ذلك ..؟.. أن هناك تقصير .. مستحيل أن تتهم ا عز وجـل في أنه أخلَفَ وعده .. هذا مستحيل ، كمالُه مطلق ، بقي التفسير الوحيد هـو أننـي أخلفـتُ وعدي مع ا ِ حتى عاقبني بعدم تحقق وعده معي :

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

(سورة النور)

على العباد أن يعبدوا الله عز وجل .. سئِلَ النبي عليه الصلاة والسلام : ما حق الله على العباد ؟ بماذا أجاب !! : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، فلما سئل فما حق العباد على الله عز وجل الجواب أن لا يعذّبهم

إذاً : كأنه هناك وعد من طرف العباد وفي جزاء من طرف الله عز وجل فلو أن العباد أخلّوا بوعدهم لكان الله عز وجل يقابِلُ إخلالهم بوعدهم بعدم تحقيق وعده لهم بالمقابل .

حيثُ ما تجدوا أن وعد الله عز وجل ليس محققاً فاتهم نفسك .. هذا وعد ثانٍ .. ، وعد ثالث :

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾

(سورة فُصلت)

المؤمن معافى من الخوف ومعافى من الحزن ، الحزن لِما مضى لا يحزن على ما فاته والخوف لِما سيأتي ، لا يخافُ من مجهول ولا يحزن على ما فاته هذا وعد ثالث "**أَلا تَخَافُوا ولا تَحزنُوا** " .

طيب ماذا على العباد ؟ "**إن الذين قالُوا ربنَا الله ثُم استَقَاموا تَتَنَزلُ علَيهم الْملائِكَةُ أَلا تَخَافُوا ولا تَحزنُوا** " لا خوفَ ينتظركُم ولا حزن يأكُلُ قلوبكم على ما فاتكم .. هذا وعد ثالث .. لكن كأن الإشارة أن الذي يقول ربنا الله فقط هذا لا يكفي لا بد من أن يكون مع الإيمان بالله عز وجل استقامةٌ على أمره ، والحديث الذي تعرفونه :

" ليس الإيمان بالتحلّي ولا بالتمنّي ولكن ما وقر في القلب وأقر به اللسان وصدقه العمل "

"**إن الذين قَالُوا ربنَا الله ثُم استَقَاموا** " الإستقامةُ دليلُ صحة الإيمان وإذا كان هناك خَللٌ في الإستقامة فهناك خَللٌ في الإيمان .

طيب .. وعد رابع .. المؤمن هل يقع في حيرة مدمرة ؟ لا ..

وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

(سورة العنكبوت)

وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

(سورة النحل)

يعني على ا ِ أن يبين لنا سبيلَ القصد .. على ا ِ أن يبين لنا سـبيلَ القصـد .. " **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** " وقد فسر العلماء هذه الهداية بأنها هدايةُ التوفيق ، هنـاك هدايةٌ عامة وهدايةُ الوحي وهدايةُ التوفيق ، فالإنسان إذا عرفَ ا َ عز وجل واستعان به وفقه وكُلُّ دروسنا تحتَ قوله تعالى :

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

(سورة الفاتحة)

.. وعد خامس : هذا وعد بعد الموت :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾

(سورة الكهف)

هذا وعد ما بعد الموت ، لكن وعد في الدنيا :

وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

(سورة طه)

الفرق الدقيق بين الظُلم وبين الهضم ؟ يعني الظُلم أن تُؤخذَ بذنبٍ لـم تفعلـه أو أن يؤخذَ البريء بجريرة المذنب هذا هو ظُلم ، أما الهضم أن ينتقص من أجرك " **ومن يعملْ من الصالِحات وهو مؤْمن فلا يخَافُ ظلْما ولا هضما** " .

.. تجد المؤمن يقول لك الحمد يشعر أن ا َ عز وجل أعطاه سؤلَه وأن ا َ أكرمه وأن ا َ جل في علاه رحمه وأن ا َ أكرمه " **ومن يعملْ من الصالِحات وهو مؤْمن فلا يخَافُ ظلْما ولا هضما** " وعد آخر :

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

(سورة الزلزلة)

هذه الآية لها معانٍ كثيرة .. من معانيها نفي الظُلم عن ا عز وجل ، إذا أردتَ أن تنفي الظُلم عن ا عز وجل تأتي بهذه الآية تقول له " **فمن يعملْ مثْقَالَ ذَرة خَيرا يره ومـن يعملْ مثْقَالَ ذَرة شَرا يره** " ، نُريد وعود عز وجل ..

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

(سورة الطلاق)

.. تقوى ا عز وجل دائماً تهديك إلى سواء السبيل ، هذه الآية لو فرضنا قرأناها في سياقها العام ، ما معناها ؟ جاءت آيةً بين آيات الطلاق ، كيفَ من يتقـي ا َ يجعـل لـه مخرجاً ؟

.. من اتقى ا َ في إيقاع الطلاق السني يجعل ا ُ له مخرجاً في ارجاع زوجته إليه ، اليوم سئلتُ هذا السؤال : ساعة غضب قالَ لها بالطلاق بالثلاثة .. هذا طلاق بدعي .. ا ُ عز وجل قال : الطلاقُ مرتان ، قال :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾

(سورة الطلاق)

تبقى عندك في البيت وتعتد وهي في بيتك ، فالعدة ألغيتها أنت والطـلاق مرتـان ألغيتها فخالفتَ شرع ا ِ في الطلاق عندئذ تجد أن الأمور أصبحت ضيقة عليك ، أما لو طبقّت الطلاق السني لرأيتَ أن هناك مخرجاً شرعياً لإرجاع زوجتك إليك .. هذا .. " **ومن يتق الله يجعلْ له مخْرجا** " هذه في السياق ، لو نزعناها من السياق وقرأناها وحدها ماذا يحصل ؟ هذا

من إعجاز القرآن الكريم أن كُل آية لها معنى وهي في السياق ولها معان كثيرة جداً بعيدة عن السياق .

ومن يتق الله في كسبِ المال يجعل له الله مخرجاً من إتلافه ، من ضياعه ، من مصادرته ، من ذهابه ، من يتق الله في معاملة الزوجة يجعل الله له مخرجاً من الشقاء الزوجي ، الشقاء الزوجي شقاء كبير ، من إتقى الله في معاملة الزوجة ، من إتقى الله في اختيار زوجته يجعل الله له مخرجاً من تطليقها ، هذه الآية يمكن أن تُطبقَ على آلاف الحالات ، من اتقى الله في التوحيد جعلَ له الله مخرجاً من الشرك ، من اتقى الله بالإيمان جعلَ الله له مخرجاً من الكُفر ، من إتقى الله في كلامه جعلَ الله له مخرجاً من تجريحِ الناسِ له .

إذاً : " **ومن يتق الله يجعلْ له مخْرجا ويرزقْه من حيثُ لا يحتَسب** " مر معنا من أسبوع علاقة الصلاة بالرزق :

وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾

(سورة طه)

يعني .. لا نسألك رزقاً ، معنى ذلك من صلّى وأمر أهله بالصلاة فالله سبحانه وتعالى يرزقه رزقاً حسناً .

يعني أن تَصلَ إلى الله عز وجل ، أن تقطفَ هذه الوعود ، الله وعدك بحياة طيبة وعدك برزق وفير ، وعدك أن يدافع عنك ، وعدك بالإستخلاف في الأرض ، وعدك بالتمكينِ بالأرض ، وعدك بالطُمأنينة ... كُلُ هذه الوعود متى تنالُها ؟ إذا سلكتَ إلى الله عز وجل لذلك مدارج السالكين إلى الله في إياك نعبد وإياك نستعين .

هذه الفاتحة الذي جعلها الله عز وجل أُم القرآن وجعلها مفتاح السورِ كُلها :

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

(سورة الفاتحة)

نبدأ بالحمد ـ لأن هذه الفاتحة نقرؤها كُل يوم وفي كُل صلاة وفي كل ركعة وقـد يقول النبي عليه الصلاة السلام :

عن عبادةَ بن الصامت أن رسولَ الله صلى اللهم علَيه وسلم قالَ لا صلاةَ لِمن لَم يقْرأْ بِفَاتحـة الْكتَابِ *

فالحمد ـ ماذا تعني ؟ النعمة قائمة ، النعمةُ معترفٌ بها ، النعمـةُ يحسـها النـاس جميعاً ، ولكن أيها الإنسان ما تنعم به من نعم إنما هي ـ عز وجل تعزوها ـ .. " **الْحمد لِله رب الْعالَمين** " العالمين جمع عالم والعالم تقول عالم الإنسان ، عالم الحيوان ، عالم النبـات ، عالم المجرات ، عالم الفضاء ، عالم الأسماك ، عالم الأطيار ، عالم الحشـرات ..... فـرب العالمين ، كلمة رب ماذا تعني ؟ الرب هو الممد بِكُل الحاجات والرب فوقَ ذلك هـو الـذي يعالِج النفوس ، ففي إمداد مادي وفي معالجة نفسية فأقرب اسم من أسـماء ا عـز وجـل للإنسان هو اسم الرب ، ياربي .

يعني .. يامن تمدني بكُل حاجاتي ويامن ترعى شؤوني ، ويامن تُعالِجني ، ويـامن تُكربني ، " **الْحمد لِله رب الْعالَمين** " .

إذاً : هو ربنا ورب آبائنا الأولين ورب من بعدنا ورب مـن قَبلَنـا ورب الحيـوان ورب النبات .. رب العالمين .. الحمد ـ رب العالمين .. يعني .. أقرب اسم من أسـماء ا الحسنى للمخلوقات هو كلمة رب .

" **الرحمن الرحيم** " الرحمن الرحيم لما ربنا قال :

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

(سورة الأعراف)

هذه الآية كيفَ نفهمها فهماً دقيقاً ؟ " **وَرحمتي وسعتْ كُلَّ شَيء** " بـالأرض ألـيس هناك مصائب ، أليس هناك أمراض وبيلة ، أليس هناك فيضانات ، أليس هناك شح السـماء ، أليس هناك زلازل ، براكين ، صواعق ، صقيع ، تلف محاصيل ، شقاق زوجـي ، عـذاب منوع .

فكيفَ نجمع هذا مع قوله تعالى " **الْحمد لِله رب الْعـالَمين الـرحمنِ الـرحيم** " .. أنـــتَ مخلوقٌ للآخرة فإذا حدتَ عن طريق الآخرة لا بد من أن يدفَعك ا ُ إليهـا شـئتَ أم

أبيت .. من هنا تنشأُ المتاعب .. المتاعب أساسها حيدان الإنسان عن طريق الآخرة ، حيدانه عن طريق الجنة ، يأتي ا ُ عز وجل ويسوقُ له من الشدائد ، .. الرحمن .. رحمـ ن الـ دنيا والآخرة فمن أجل الآخرة يضيقُ علينا في الدنيا أما الرحيم .. الرحيم تعني العطاء تعني حينما يرحمنا ا ُ عز وجل حينما يعطينا ما نحتاجه من طعامٍ وشرابٍ وأُنـ سٍ ودفء وأهـ لٍ وأولاد ومأوى .. فالرحيم تعني العطاء ، لكن الرحمن تعني أن ا َ سبحانه وتعالى أعد هذا الإنسـ ان لحياة أبدية وحينما يحيد عن هذا الهدف الكبير يسوقُ له من الشدائد من قبـ ل اسـ م الـ رحمن ويؤكد هذا قولُ ا عزوجل :

يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَـٰنِ وَلِيّٗا



(سورة مريم)

الرحمن يعذّب من أجل الآخرة ، "**الْحمد لِله رب الْعالمين الرحمن الرحيم مالِك يوم الدين** " ما معنى مالِك يوم الدين ؟ يوم الجزاء والحساب .. ا ُ عز وجل مالِك هذا اليوم ، .

.. في معنى مفهوم مخالِف من هذا المعنى .. الأن أنتَ في شيء تملك وعندما نموت يملكه ا عز وجل .. الاختيار .. أنتَ الأن مخير أما إذا قالَ ا ُ عز وجل " **مالِك يوم الدين** " انتهى اختيارك نهائياً ولم يبق إلا أن تُحاسب على ما قدمت يداك .. مالِك .. أنتَ الأن تملك أن تُصلّي أو أن لا تُصلّي تملك أن تصدق أو أن لا تصدق ، تملك أن تذهب إلى الحـ ج أو أن لا تذهب ، تملك أن تكون وفياً أو خائناً ، تملك أن تكون محسناً أو مسيئاً ، .. أنتَ الأن مخير .. لكن حينما يأتي ملَك الموت انتهى الاختيار وخُتم العمل وبقي الجزاء .

" **الْحمد لِله رب الْعالمين الرحمن الرحيم مالِك يـ وم الـ دين إِيـ اك نَعبـ د وإِيـ اك نَستَعيـ ن** " فيها قصر مادامت قد قُدمت إياك على نعبد معناها لا نعبد إلا إياك ، لو أن ا عز وجل قال : .. نعبد إياك يارب .. هذه ليس فيها قصر نعبد إياك ونعبد غيرك ، أما حينما قالَ ا َ عز وجل إياك نعبد أي إلا نعبد إلا إياك ، لا نعبد سواك ، العبادة .. كيفَ العبادة .. الناس لا يطيعون ا عز وجل .. لا يطيعونه ، هذه الأوامر معروفة أوامر ا عز وجل بين أيـ دي الناس يسمعون كلام ا ِ صباح مساء :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ
عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا
يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ
وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
قَدِيرٞ ﴿٨﴾

(سورة التحريم)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ
إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ
﴿٢٧٩﴾

(سورة البقرة)

قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ
لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٣٠﴾

(سورة النور)

أوامر ا ـ عز وجل تُتلى على الناس صباح مساء وهم لا يعبدونه .... لا يعبدونـه لأنهم لايعرفونه ....

إذاً العبادة : أولاً معرفة وثانياً طاعة ، لن تطيعه قبلَ أن تعرفه لهذا ربنا عز وجـل لما أمرك أن تعبده ماذا قال :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ
تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

(سورة البقرة)

وقال :

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

(سورة هود)

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كُله عائد إليه " **وإليه يرجع الأمـر كُله فاعبده وتوكلْ عليه** " .

إياك نعبد الإنسان كأنه مالِك شيء قال و حتى يكون في حجمه الحقيقي قال : وإياك نستعين .. يعني .. أنتَ لا تملك إلا أن تنبعث إلى عبادته ، لا تملك إلا أن تنطلق إلى عبادته ، لا تملك إلا أن تختار أن تعبده ، ولكن القوةَ التي يجب أن تنالها من أجل أن تعبده بيد ا عز وجل .. هذا ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام :

" ألا أُنبؤكم بمعنى لا حولَ ولا قوةَ إلا با : لا حولَ عن معصيته إلا به ولا قوةَ على طاعته إلا به "

.. " **اهدنَا الصراطَ المُستَقيم** " إذا الإنسان يعرف الصراطَ المستقيم ما معنى كلمـة اهدنا ؟ هذا الطريق واضح ، في عدة حالات إنسان يعرفُ الصراطَ المستقيم فكيفَ نفهم معنى دعائِه إهدنا ؟ ، إذا كُنتَ لا تعرف معنى الصراطَ المستقيم فالدعاء يعني أن تطلب من ا عز وجل أن يبين لك الصراطَ المستقيم ، فإذا كُنتَ تعرفُ الصراطَ المستقيم فالدعاء يعني أن تتبع الصراط المستقيم.

فإذا كُنتَ متبعاً للصراط المستقيم ماذا يعني الدعاء ؟ لا تعـرف يـاربي عرفنـي ، تعرف ياربي أعنّي ، تعرف وتُطبق ياربي ثبتني فإهدنا الصراطَ المستقيم لها ثلاث معـاني : إما ياربي عرفني ، أو أعني على التطبيق ، أو ثبتني على هذا التطبيق ، فالمؤمن وهو يصلي له شأن مع ا عز وجل فإذا كان اهتدى ياربي أعني على أن أُطبق ما أعرف ، وإذا كان فيما يبدو مستقيماً ياربي ثبتني على صراطك المستقيم .

" **صراطَ الذين أَنْعمتَ عليهم غَيرِ المَغْضوبِ عليهم ولا الضـالين** " من هم الضالون ؟ الضال هو الذي ما عرفَ الحق لكن المغضوب عليهم هم الذين عرفوا الحق وحادوا عنه .. فقط .. يعني إنسان عرفَ ولم يطبق فالذي ما عرف هو الضال والذي ما طبق هو المغضوب عليهم وفي كلا الحالين الإنسان إذا لم يعرف فهو ضال وإذا عرف ولم يطبق فهو مغضـوب عليه .

إذا قُلتَ " **الْحمد لِله رب الْعالمين الرحمن الرحيم ملِك يـوم الـدين إيـاك نَعبـد وإيـاك نَستَعين اهدنَا الصراطَ الْمستَقيم صراطَ الذين أَنْعمتَ عليهم غَيرِ الْمغْضوبِ علَـيهِم ولا الضالين** " أنتَ مكلّفٌ في ماذا ؟ بالصلاة ، أنتَ مكلّف أن تقرأ سورة ، ثلاث آيـات أو سورة قصيرة ، يعني .. بحسب شعورك الإيماني هذه الآيات لماذا تُتلى عليك ، لماذا تشعر أن أحداً يتلوها عليك ، أو ما علاقتُها بالفاتحة ؟ .

أنتَ حينما طلبتَ من ا َ أن يهديك الصراطَ المستقيم جاء الجـواب ياعبـدي هـذا هـــو الصراطَ المستقيم فالقرآن الكريم كُلُه هو الصراط المستقيم ، فإذا تلوتَ آيات الأمـرِ عليك أن تأتمر، وإذا تلوتَ آيات النهي عليك أن تنتهي ، وإذا تلوتَ آيات الوعـد عليـك أن ترجو ما عند ا ، وإذا تلوتَ آيات الوعيد عليك أن تخافَ ما عنـد ا ، وإذا تلـوتَ آيـات الأحكام الشرعية عليك أن تُطبقها ، وإذا تلوتَ الآيات الكونية عليك أن تعتبـر بهـا ، وإذا تلوتَ آيات التاريخ والأخبار عليك أن تتعظَ بها .. هذا معناه .. فالإنسان إذا صحت صـلاته صح دينه وصح عمله الفاتحة تكون هكذا والتلاوة بعدها تكون على هذه الشاكلة .

مادمنا في مدارج السالكين في مراتب إياك نعبد وإياك نستعين هذا درس فاصلٌ بين درسين ، الخضوع .. يعني .. حينما جاءك الأمر بعد الفاتحة أن تَغُض بصرك عن محارمِ ا ، أو حينما جاءك الأمر بعد الفاتحة أن تقولَ للناسِ حسناً ، وحينما جاءك الأمر بعد الفاتحة أن تقولَ قولاً سديداً يصلح لك ا ُ عملك ، وحينما جاءك الأمر بعد الفاتحة أن تـزن بالقسـطاس المستقيم وأن لا تقفو ما ليس لك به علم ، ا أعطاك مجموعة كبيرة من الأوامـر والنـواهي والحقائق والقواعد والقوانين والآيات الكونية فأنتَ إذا ركعت ينبغي أن تُعلن عـن خضـوعك لهذا الأمر فالركوع خضوع ِ عز وجل ، والسجود ؟ .

يعني أنتَ خضعت ولكنك فقير إلى ا عز وجل أنتَ ضعيف ، عبر عـن هـذا سيدنا يوسف حينما قال :

قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾

(سورة يوسف)

فأنتَ في الركوع تخضع وفي السجود تطلب العون من ا ِ عز وجل .. " **إياك نَعبد وإياك نَستَعين** " هذه الصلاة بماذا عرفها النبي عليه الصلاة والسلام ، أو بماذا عرفها القـرآن ؟ هذه الصلاة أن تقرأَ الفاتحة وأن تركع وأن تسجد ، أن تقرأَ الفاتحة وسورة وأن تركـع وأن

تسجد .. هذه الصلاة بماذا وصفها القرآن ؟ بأنها قُرب ، عملية مناجاة أو عملية قُرب لقولـه تعالى :

﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة العلق)

لها وصف آخر : الصلاة ذكر ، أنتَ إذا صليت إنك تذكُر ا عز وجل :

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة طه)

إذاً : أول واحدة الصلاة قُرب وذكر ، أيضاً : يعني .. ممكن أن ترى إنساناً يصلي وهو غشاش ، كلامه فاحش ، يخون العهد ، يكذب ، ... مستحيل :

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

آليةُ النهي كيفَ تتم ؟ ، لماذا الإنسان قبل الصلاة الصحيحة يكـذب ويغُـش النـاس ويتعدى فإذا صلّى صلاةً صحيحة كما قالَ ا عز وجل "**إن الصلاةَ تَنْهـى عـن الفَحشَـاء والمُنكَر** " آليةُ النهي .. هو أولاً النهي مستويات ، النهي البسيط أنه أنتَ تلوتَ القُرآن فـأمرك ا عز وجل أن تَغُض بصرك وترغب أن تُطيع ا عز وجل فغضضتَ بصرك .. هذا نهي أولي .

حينما تقرأُ أمر ا أو نهيه وأنتَ راغب أن تُطيعه وها هو ذا الأمر بين يديـ ـ ـك فإذا طبقّت هذا الأمر فأنتَ مريد أن تطلُب رضاء ا عز وجل عن طريـق طاعتـه ، فـي مستوى أرقى من هذا .. أول نهي هو أنتَ عرفتَ أمر ا ورغبتَ في طاعته فتركتَ إطـلاقَ .. البصر في مستوى أرقى .. إنك حينما تتصل با عز وجل يقذفُ في قلبك النور ، وهـذا النور الذي يقذفه في قلبك يريك الحق حقّاً والباطلَ باطلاً ، يجوز حينما لايكون هذا النور في قلبك وتُحب أن تُصلي تُجاهد نفسك وهواك ، لكن حينما يقذفُ ا في قلبك النور ، حينما ترى الحق حقّاً فتتبعه وحينما ترى الباطلَ باطلاً فتجتنبه ، الأن تنتهي أنت لا لأنك حـريص علـى طاعة ا عز وجل فقط ، بل لأنك حريص على طاعته وحريص على سلامتك ، رأيتَ الخير في طاعة ا ورأيتَ الشر في البعد عنه .

إذاً : النهي نهيين إما نهي تعرفي وإما نهي عن طريق إلقاء النورِ في قلبِ المؤمن ، إذاً الصلاة قُرب وذكر ونهي عن الفحشاء والمنكر .. أيضاً .. والصلاةُ خشوع .. خشـوع : أن تشعر أنك بين يدي ا عز وجل تقفُ في حضرته ، الخشوع في الصلاة من فضـائِلها أم من فرائِضها ؟ من فرائِضها فالصلاةُ من فرائِضها الخشوع ، حينما قالَ ا ُ عز وجل :

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

(سورة البقرة)

ثم يقول :

وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

(سورة غافر)

الدعاء عبادة والصلاة أول العبادات ، الصلاة مناجاة ونور ، الصلاة قُـرب وذكـر ونهي ودعاء ومناجاة ، وكما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام :

" الصلاةُ معراج المؤمن يعرج بها إلى ا ِ عز وجل "

صلاتُك أن تعقلَ عن ا ِ عز وجل :

" ليس للمرء من صلاته إلا ما عقَلَ منها .. "

هذا حديث ، والآية التي تؤكده :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

(سورة النساء)

معناها الصلاة وعي ، أيضاً .. الصلاة طَهور ، والحقيقة طَهـور نفسـي ، يعنـي الإنسان المشاعر المرضية في نفسه ، حقده ، دناءته

قذارته ، طمعه ، أنانيته ، إستعلاؤه ، .... كُلُّ هذه المشاعر السفلى في الإنسان تطهـر فـي الصلاة .. قالَ : " الصلاةُ طَهور " .

وقالَ :

عن أَبِي مالِكٍ الأَشْعرِي قالَ قالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم الطهور شَـطْر الإِيمـانِ والْحمد ِلله تَملأُ الْميزان وسبحان الله والْحمد ِلله تَملآنِ أَو تَملأُ ما بين السـماوات والأَرضِ والصلاةُ نُور والصدقَةُ برهان والصبر ضياء والْقُرآن حجةٌ لك أَو عليك كُل الناسِ يغْدو فَبايع نَفْسه فَمعتقُها أَو موبِقُها *

(صحيح مسلم)

وقال : " الصلاة عهد " .

في معنى آخر للصلاة .. يعني .. أحياناً الإنسان يفعل شُبهة ، ياترى صح أو غلـط أيجوز ... قال ليس فيها شيء ... وا فلان سألناه فقال ليس فيها شيء ، حينما يقع في هـذا التساؤل الميزان عنده هو اتصالُه با ـ عز وجل ، فإذا شعرتَ بالحجاب بينك وبـين ا ، إذا شعرتَ بالخجل فهذا العمل سيء والصلاة كانت ميزاناً لك .

" الصلاةُ ميزان فمن وفّى استوفى ، من وفّى للصلاة شروطها إستوفى من الصلاة حظوظها "

أيضاً : يعني أنتَ العمل الذي تستطيع أن تُقبِلَ على ا ـ به حتماً صحيح ، أما العمل الذي تخجل به من ا ـ عز وجل هذا حتماً سيء فالصلاة هي الميزان " **الصلاةُ ميـزان فمـن وفّى استوفى** "، الصلاة عماد الدين وعصام اليقين وسيدةُ القُربات وغُرة الطاعات ومعـراج المؤمنِ إلى رب الأرضِ والسماوات ، قالَ بعضهم في الصلاة معنى الصوم ومعنـى الحـج ومعنى الزكاة ومعنى الصلاة ، الصلاة فيها صلاة وصوم وحج وزكاة .

.. الإنسان وهو في الصلاة الصائم يتكلّم ويضحك ويمشي وينام ويغتسـل ويـتكلّم حديث عشر ساعات وهو صائم أما الإنسان حينما يصلّي ممنوع أن يلتفت ، ممنوع أن يفكّـر بما يقال حوله فأعلى درجات الصيام هي الصلاة فيه وهو يصلي أن يضجع أو إذا بكي ابنه يقول له إسكت اثناء الصلاة ؟ ، لا يقدر أن يكلّمه ، فالصلاة من أعلى درجات الصيام ، صيام عن الطعام والشراب إذا واحد في بفمه حبة حمص لا يقدر أن يأكُلها خلال الصلاة .

إذاً : الصلاة فيها معنى الصيام عن كُل شيء وحتى عن الكلام المباح وحتى عن رد السلام ، إذا المصلّي رد السلام فصلاتُه فَسدت ، أيضاً : ليس هناك كسـب للمـال إلا ببـذل الوقت فإذا اقتطعتَ من وقتك للصلاة فالوقتُ الذي هو أصلُ المال أنتَ بذلته للصـلاة ففيهـا

معنى الزكاة أنتَ أنفقت من أصل المال وهو الوقت ، معنى الحج القبلـة ، ومعنـى الصـلاة الإتصال .

لذلك : الحج يسقط ، والصوم يسقط ، والزكاة تسقط ، طبعاً إما فقيـر أو مسـافر ، والشهادة تُعلن مرةً واحدة في العمر ، لكن الصلاة هي الفرض المتكرر الذي لا يسقُط بحال .

أردت أن ننتقل إلى دروس أخرى وأن نقف وقفةً متأنيةَ عند السلوك إلى ا وفي قمة السلوك إلى ا عز وجل أن تُصلي صلاةً صحيحةً مقبولةً عند ا ِ عز وجل .

والحمد رب العالمين

****

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون ..... مع الدرس السابع والثلاثين من دروسِ مدارج السالكين في منازلِ إياك نعبد وإياك نستعين ، منزلةُ اليوم متعلقةٌ بآخرِ منزلة تحدثنا عنها فـي دروسٍ سابقة إنها منزلةُ التوبة وهي آخر منازل التوبة إنها منزلةُ استئناف التوبة .

قد يسألُ سائل ما معنى استئناف التوبة ؟ ليس من الصواب أن تتوهم أن التوبةَ تـتم في العمرِ مرةً واحدة ، إنك تُبتَ حينما تعرفتَ إلى ا ِ عز وجل ، ولكن التوبة ينبغي أن تكون منزلةً مستمرةً مع المؤمن بل إن نهايته تُختم بالتوبة .. إليكم التفاصيل ..

الإنسان حينما يكون غارقاً في المعاصي ، قبلَ أن يصطلح مع ا ، قبـلَ أن يعقـد العزم على طاعته ، قبلَ أن يحملَ نفسه على الاستقامة على أمرِ ا ، قبلَ هـذا كـان تائهـاً وشارداً وضالاً وعاصياً ، أدرك خطورةَ ما هو فيه ، أدرك عظَمةَ ا ِ عز وجل ، انعقد فـي نفسه عزيمةٌ على التوبة وعلى أن يقلع عن كُل ذنبٍ من فورِه وأن يعزِم على أن لا يعود إليه وأن يندم على ما فعله في الماضي ، هذه التوبة نقلته من المعصية إلى الطاعة ، من الشـرود إلى الهدى ، من الضياع إلى الوجدان لكن بعد أن تاب وفتح مع ا ِ صفحةً جديـدة ، بعـد أن عاهد ا عز وجل على أن يلتزم أمره وأن ينتهي عن ما عنه نهى ، الأن يدخلُ فـي منزلـة التوبة المستمرة تحقيقاً لقول النبي عليه الصلاة والسلام :

*** عن أَنَسٍ أَن النبِي صلى اللهم عليه وسلم قَالَ كُل ابنِ آدم خَطاء وخَير الْخَطائِين التوابون**

(سنن الترمذي)

لأنه المؤمن حينما يتوب توبةً نصوحا قد يفاجئُ بسلوك كان يظُنه صواباً فـإذا هـو خطأٌ بعد معرفة أو إطلاّعٍ أو سماعِ محاضرة أو قراءة كتابٍ يجد أن هذا الموقف ليس صحيحاً .

إذاً : كلما اكتشفتَ خطأً في سلوكك أو تقصيراً في أداء واجبِك أو إنحرافاً عن جادة الصواب ، في الوقت التالي لابد من أن تعقد توبةً تغطي بها هذا التقصير أو ذاك الانحراف .

إذاً : أنتَ في توبة مستمرة ، التوبة الأولى نقلتك نقلّةً نوعيةً مـن المعصـية إلـى الطاعة ، من الشقاء إلى السعادة ، من الضياع إلى الهدى ، من الشرود إلى الوجـدان ، لكـن التوبةَ المستمرة التي ينبغي أن تُرافق المؤمن ، كُلما اكتشفَ أن هذا الموقف لا يرضـي ا ، أو أن هذه الفكرة ليست صحيحةً عن ا ِ عز وجل ، أو أن هذا الظن لا يليقُ با ِ جل وعلا ، أو أن هذا الاعتقاد إعتقاد فاسد بنصِ الآية الكريمة ، أو أن هذا العمل مما يخالف السنّة ، لأنه

هناك نقطة دقيقة جداً هو أنك إذا عرفتَ الله عز وجل بقي عليك أن تَعرِفَ منهجه ، هل يمكن أن تَعرِفَ منَهجه في ساعة واحدة ، في يومٍ واحد ، في شهرٍ واحد ، في سنة واحدة معرفةُ منهج الله عز وجل تتنامى ، فكُلما كشفتَ موقفاً للنبي عليه الصلاة والسلام لم يكن يخطُر على بالِك لابد من أن تتوب عن جهلك بهذا الموقف وعن السلوك الذي يخالفُ هذا الموقف .

إذاً : أنتَ في توبة مستمرة .. هذا معنى قول النبي : " **المؤمن مذنب تواب** " ، معنى مذنب .. يعني .. كان يظُن أنه إذا تحدثَ عن العصاة مقرعاً ، موبخاً ، محتقراً يرضي الله عز وجل ، فإذا به يرى أن في السيرة النبوية موقفاً آخر .

النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاءه عكرمةٌ مسلماً قالَ لأصحابه : جاءكم عكرمةُ مسلماً فإياكم أن تَذُموا أباه ، أباه أبو جهل أعدى أعداء الإسلام ، أعدى أعداء النبي ، نكّلَ بأصحابه وقتلهم ، قالَ إياكم أن تقتلوا أباه ، أن تذموا أباه فإن ذم الميت يؤذي الحي ولا يبلُغُ الميت ، هو كان حينما يتحدثُ عن الكُفار يظُن أن الله يرضيه ذلك فإذا بالنبي عليه الصلاة والسلام يقفُ هذا الموقفَ الكامل .

إذاً : هو حينما كان يفعلُ هذا كان يرضي الله بهذا لكنه اكتشفَ أن هذا الموقف هناك موقفٌ أكملُ منه ، كان يفعلُ كذا ثم رأى أن الشرع ينهى عن كذا .

.. ليس في إمكانك في أسبوعٍ أو شهرٍ أو سنة أن تستوعب منهج الله كُله ، قد تستوعب الخطوط العريضة فيه ، قد تستوعب الكُليات ، لكن الجزئيات .. لا تستوعبها .. أنتَ كُنتَ تختلي مثلاً مع زوجة أبيك في غيبة أبيك بعد عشر سنوات قرأتَ في كُتب الفقه أنه لا يجوز الخلوةُ لا بزوجة الإبنِ في غيبة الإبنِ ولا بزوجة الأب في غيبة الأب .. هكذا نص العلماء والفُقهاء .

إذاً أنتَ تتوب من هذا الجهل الذي كُنتَ واقعاً فيه ، كُنتَ تتحدثُ أحياناً عن علاقة زوجية أمام والِد زوجتك ثم كشفتَ أن من آدابِ النبي عليه الصلاة والسلام أنه لا يتحدثُ عن أية علاقة نسائية أمام أبِ الزوجة أو أخ الزوجة لِئلا يذهب به الخيالُ إلى شيء ينزعج منه ، كُلما فعلتَ شيئاً وأنتَ تظنه هو الصواب ربما كشفتَ في السيرة النبوية أو في الحديث النبوي الشريف ما يخالِف هذا .

إذاً : أنتَ تتنامى معرِفَتُك لمنهجِ الله عز وجل ، فكُلما بلَغَك شيء عن رسول الله ، كُلما وصلَ إلى علمك شيء لم تكن تعلمه من قبل أو كُنتَ تفعلُ خلافه .. لابد من أن تُحدث توبةَ وإحداثَ هذه التوبة سهلٌ جداً :

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

(سورة الأنعام)

هذا السوء بجهالة ، فالإنسان كُلما فعلَ شيئاً لم يكن يعلم أنه مخالفة أو أنه معصـية يجب أن يعقد توبةً مع ا ِ عز وجل ، إذاً : ليس هناك توبةٌ وحيدةٌ يتيمةٌ فريدةٌ تتوبها وانتهـى الأمر !!! هذه التوبةُ الكُبرى التي نقلتك من المعصية إلى الطاعة ، من الضياع إلى الهـدى ، من الشقاء إلى السعادة ، من القلق إلى الطُمأنينة ، من التيه إلى الوجدان ، هذه التوبةُ الأولـى هي أجملُ توبة تتوبها في حياتك ، هي التوبةُ المسعدة هي التوبةُ التي أخرجتك من الظُلمـات إلى النور ، من شقاء الدنيا إلى نعيمها ، لكنك بعد أن سلكتَ في طريق الإيمان أنتَ بحاجة إلى توبة يومية ، كُلما اكتشفتَ شيئاً لم تكن تعرفه من قبلُ لابد من أن تعقد توبةً خاصةً به ، كُلمـا كشفتَ تقصيراً أو مخالفةً لم تكن تعهدها مخالفةً يجب أن تعقد العزم على تركها ..

هذا المعنى الذي يستنبط من استمرار التوبة لكنك إذا قرأتَ حديثَ النبي عليه الصلاة والسلام من أنه يستغفر ا َ ويتوب إليه في اليومِ أكثر من سبعين مرة فهذا له تفسـير آخـر ، يمكن أن يفسر هذا بأن استغفار النبي استغفار وقائي ، هناك استغفار بعد أن تقع فـي الـذنب وهناك استغفار وقائي ِلئلا تقع في الذنب .

تمشي في الطريق وتشعر أن عقبةً كؤود كانت في الطريق أمسكتَ مصباحاً وأضأته ، حينما تمشي في طريق وتتعثر في هذا الطريق ومعك مصباح تُضيئ المصباح ِلترى هـذه العقَبة التي ألقتك جانباً ، لكنك إذا أضأتَ المصباح قبلَ أن تسلُك هذا الطريق لا تتعثر فأنتَ إما أن تكشفَ العقَبةَ بعد أن تقع بها وإما أن تكشفها قبلَ أن تقع بها ، فبعض العلماء قال : استغفار النبي صلى ا ُ عليه وسلم استغفار وقائي كان يستغفر ا َ وكان يقبِلُ عليه وكان يكثـر مـن الدعاء ِلئلا يقع في الذنب فهذا معنى :

قَالَ أَبو هريرةَ سمعتُ رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم يقُولُ والله ِإني لَأَستَغْفر الله وأَتُوب ِإلَيه في الْيومِ أَكْثَر من سبعين مرةً *

(صحيح البخاري)

وفي معنى آخر هو أنك إذا تعرفتَ إلى إنسان وقال لك أنا تاجر فظننتَ أن حجمـه المالي كذا ثم اكتشفتَ أن حجمه المالي أضعاف أضعافَ ما توهمت ألا تشعر بأنك لم تُعطـه حقه ، لم تُقدره حق قدره ، فحينما تتعرفُ إلى ا ِ عز وجل و ِ المثلُ الأعلـى وتكتشـف أن معرفَتُك با ِ عز وجل لم تكن في المستوى الذي ينبغي ألا تشعر بالتقصير ؟ يعني .. حينمـا

تظن أن فُلان لن يكرمك ثم هو يكرمك ألا تستحي فيما بينَك وبين نفسك من هذا الذنب السيء ؟ فهذا معنى آخر من معاني الاستغفار والتوبة بحق النبي عليه الصلاة والسلام .

والآن : الذي يقول أنا تُبتُ إلى ا حينما استقمتُ على أمره وانتهى الأمر ولسـتُ الأن بحاجة إلى التوبة فالجواب على هذا السؤال هو أنك هل أديتَ حق ا ِ عز وجـل ، هـل عملُك الصالح يغطي فضلَ ا ِ عليك ، هل طاعتُك ِ عز وجل في مستوى الفضـل العظـيم الذي تفضله ا ُ عليك .

أغلب الظن لن تقولَ نعم لأنه ما من أحد استطاع أن يوفي ا َ حقَه حتى النبي عليه الصلاة والسلام .. لا يعرفُ ا َ إلا ا .. النبي عليه الصلاة والسلام أشدنا معرفةً با لكنه لم يعرفه حق المعرفة

إذاً : يمكن أن تستغفر ا َ وأن تتوب إليه من معرفتك المحدودة التي لم تكـن فـي المستوى المطلوب .. هذا معنى آخر ..

يعني أنا كُلُ هذا الكلام من أجل ألاّ تأخُذّك العزة بإيمانك وباستقامتك ، أنا اسـتقمت وانتهى الأمر ، هذه عزةٌ لا تُرضي ا َ عز وجل يجب أن تشعر بالتقصير المستمر لأنـك إذا شعرتَ بالتقصير المستمر كُنتَ قريباً من ا ِ عز وجل لأن الإنكسار أقرب الأبواب إليه ، باب الإنكسار باب واسع لكن الناس قلّما يسلكونَه .. هناك أبواب إلى ا كثيرة لكن أسـرع هـذه الأبواب باب الانكسار .

فلذلك : الإنسان حينما يأتي ربه متذللاً .. لماذا النبي عليه الصلاة والسلام لما سأله جبريل أتُحب يامحمد أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً ؟ قالَ بل نبياً عبداً أجوع يومـاً فـأذكُره وأشبع يوماً فأشكُره ، لأن الانكسار والضعف أقرب إلى العبوديةُ إلى ا ِ عز وجل .

إذاً : أنتَ ينبغي .. لاحظوا الآية :

كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧

(سورة العلق)

لم يقُل ا َ عز وجل : كلا إن الإنسان ليطغى أن استغنى .. "**أن رآه استَغْنَى** " .. هو توهم أنه مستغنٍ عن ا ِ عز وجل ، الإنسان متى يطغى ، متى ينقطع ، متى يبتعـد ، إذا ظن أنه مستغنياً عن ا ِ عز وجل فإذا الإنسان لم يجد له معصيةً ولا مخالفةً وأحكم اسـتقامته وتوهم أن هذه الإستقامة كافية كي تُنجيه من عذاب الدنيا والآخرة وقع في حالـة الاسـتغناء وهذه الحالةُ لا تُرضي ا َ عز وجل .

لذاك قالَ ابن عطاء ا السكندري : " رب معصية أورثت ذُلاً وانكساراً خير مـن طاعة أورثت عزاً واستكباراً " ، ما دمتَ لم تُوف ا َ حقّه ولم تكُن أعمالُك في مستوى فضله عليك ولا في مستوى اكرامه اك منحك نعمة الوجود ومنحك نعمة الإمداد ومنحك نعمة الهداية والرشاد :

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

(سورة النساء)

إذاً : لابد أن تشعر بالتقصير المستمر ولا بد أن تشعر بالحاجة الملّحة إلى توبة من كُل هذا التقصير .

مما يؤكّد أن منزلةَ التوبة هي البدايةُ وهي المنزلةُ التي تُرافقُ المؤمن طَوالَ حياتـه وهي النهاية هذه الآيات التي وردت في القرآن الكريم .

النبي عليه الصلاة والسلام غزا غزوات كثيرة آخر هذه الغَزوات هـي أشـدها .. غـزوةُ تبوك .. حينما قفَلَ النبي من غزوة تبوك قالَ ا َ عز وجل :

لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

(سورة التوبة)

نهايةُ المطاف ، نهايةُ الغزوات ، نهايةُ الجهاد ، توبةُ من ا ِ عز وجل معنى التوبة هنا أي كأن ا َ قبِلَ هذا العمل ، قبله وتغاضى عن الأخطاء وتغاضى عن الشوارد وتغاضـى عن الشُبهات التي رافقت هذا العمل .. يعني قبله منك .. فالتوبةُ هنا نهايةُ العمل .

شيء آخر .. ورد في القرآن الكريم هي سورةُ النصر إذ قالَ ا ُ عز وجل :

إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ
أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣

(سورة النصر)

أيها الأخوة الأكارم .... في الصحيح أي في الحديث الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم ما صلّى صلاةً بعد أن نَزلت هذه السورة إلا قالَ فيها :

عن عائِشَةَ رضي اللهم عنْها قالَتْ كان النبي صلى اللهم عليه وسلم يقُولُ في ركُوعه وسجوده سبحانَك اللهم ربنَا وبحمدك اللهم اغْفر لي *

(صحيح البخاري)

ألم يقُل الله عز وجل :

إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ
أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣

(سورة النصر)

قال ما صلّى صلاةً بعد أن نَزلت هذه السورة إلا قالَ فيها : " **سبحانَك اللهم ربنا وبحمدك اللهم إغفر لي** " .

بعض أصحابِ النبي بإدراك دقيق واستنباط حكيم وفطنة كبيرة شعر أن هذه السورة فيها نعوةُ النبي صلى الله عليه وسلم لأن النبي عليه الصلاة والسلام حينما نَزلت هذه السورة كان يقول : " اللهم اغفر لي وألحقني بالرفيق الأعلى " .

يعني .. إخواننا الحاضرين لابد من هذا اللقاء مع الله عز وجل البطولة أن تستعد له ، أن تُصفي كُل المشكلات ، أن تُصفي كُل العلاقات ، أن تُهيء عملاً تلقى الله به أن تُهيء عملاً يرضي الله عز وجل ، فلذلك ربنا عز وجل يحبك أن تستعد للقائه وكُنتُ أقول لكم دائماً إن الأعراض المرضية التي تُصيب الإنسان بعد سن الأربعين هي في حقيقتها وفي جوهرها وفي دلالِتها إشارةٌ لطيفةٌ لطيفة لهذا المؤمن أن ياعبدي قد اقترب اللقاء فهل أنتَ مستعد ؟ .

يعني الإنسان يضع نظارات بعد سن معينة يقول لك صار في تصلّب بالقرنية أو بالجسم البلوري فمعظم الناس بعد سن معينة يضع نظارات ، يشيب شعره ، ينحني ظهره ، تضعفُ ذاكرته ، جميع الناس هكذا .

إذاً : النبي عليه الصلاة والسلام حينما نزلت هذه السورة كان يقول " **اللهم إغفـر لـي وألحقني بالرفيق الأعلى** "، هناك شيء تعلّمناه من النبـي عليـه الصـلاة والسـلام : الاستغفار بعد الصلاة وبعد الصوم وبعد الحج وبعد كُل عبادة .. يعني .. ياربي أنـا صـمت رمضان لكن لعلّي لغوتُ في رمضان لعلّي قصرت لعلّي شردت لعلّي صليتُ صلاةَ جوفاء .. اغفر لي هذا التقصير يارب .. ، بل إن الإنسان حينما يصلّي الصلوات الخمس أولُ دعاء أُثر عن النبي صلى ا عليه وسلم بعد الصلاة .. الاستغفار .. أستغفر ا َ العظيم الذي لا إلـه إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات ، تستغفر من ماذا أنتَ وقفتَ لتُصلي لعل في الصلاة خللاً ، لعل في الصلاة تقصيراً، لعل في الصلاة شروداً ، لعل في الصلاة زيغاً ، لعـل فـي الصلاة سرعةً ، لعل في الصلاة شيئاً لا يرضي ا عز وجل ، فالنبي عليه الصلاة والسـلام كان يستغفر ا َ عقب الصلوات وعقب كُل عبادة كبيرة ، عقب الصوم وعقـب الحـج كـان يستغفر ، ما قولكم أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما يعود من الحج ماذا كان يقول :

عن عبدالله بن عمر رضي اللهم عنهما أن رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم كان إذا قفلَ من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كُل شرَف من الأرض ثلاثَ تكْبِيرات ثم يقُولُ لا إلـه إلا الله وحده لا شَريك له له الملك وله الحمد وهو على كُل شَيء قَدير آيبون تَائِبون عابِـدون ساجِدون لِربنَا حامدون صدقَ الله وعده ونَصر عبده وهزم الأحزاب وحده *

(صحيح البخاري)

.. تائبون عن تقصيرٍ وقعنا به في مناسك الحج ، وكان عليه الصلاة والسلام يختم عملَ اليوم بالاستغفار ، فقبلَ أن ينام يقول : أستغفر ا َ الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه .. يستغفر ا َ قبلَ أن ينام .. وعلّمنا أيضاً أن نستغفره بعد أن نقوم من مجلـس سـهرنا سهرةً ، عقدنا ندوةً ، دعينا إلى وليمة ، لعلّ في هذه الوليمة كلمة لا تُرضي ا ، لعل في هذه الوليمة نظرة أو في هذا الحديث خلل أو هنى .. فأنتَ حينما ينتهي مجلسك استغفر ا ، حينما تنتهي صلاتُك استغفر ا ، حينما ينتهي صيامك استغفر ا :

وَيَـٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾

(سورة هود)

وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّـٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَـٰرٗا ﴿١٢﴾

(سورة نوح)

بل إن العبد أحوج ما يكون إلى التوبة في نهاية عمره ، لذلك منزلةُ اليـوم منزلـةُ إستئناف التوبة ، أنتَ تبدأُ التوبة وتستمر بها وتُنهي بها هذا العمر الذي أمضيته في معرفة ا وطاعته .

الحقيقة : أن النبي عليه الصلاة والسلام أثنى عليه ا وعلى عمره الثمـين حينمـا أقسم ا ُ بعمرِه حيثُ يقول :

لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِى سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾

(سورة الحجر)

وا ُ سبحانه وتعالى في عدة آيات ذكر النبي عليه الصلاة والسلام وهو في أعلـى مرتبة وأعلى مرتبة أن يكون عبداً ِ عز وجل قال :

سُبۡحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلًا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَـٰتِنَآ‌ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾

(سورة الإسراء)

وأنه لما قام عبد ا ِ يدعوه .. عبد ا ِ يدعوه ..

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾

(سورة الفرقان)

كُلُّ هذه الآيات تُبين أن شرفَ الإنسان في عبوديته ِ عز وجل ، الآية الدقيقة :

بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾

(سورة الزمر)

أنتَ أيها العبد لك مهمةٌ واحدة : أن تتعرفَ إلى أمرِ ا ِ ونهيه وأن تلتزم أمـــره وأن تنتهي عن ما هو عنه نهى وهنا تنتهي مهمتُك كعبد فلهذا تُعد بعض العبادات إعلاناً عـن عبوديتُك ِ عز وجل .. الحج نحن في موسم الحج الأن .. لماذا تَحج البيت ؟ .

إنك من بعض معاني الحج تُعلن عن عبوديتك ـ في الحج تأتمر بأمره ، تدع بيتَـك وأهلك وأولادك وعملك ومركزك وتخلع ثيابك وتخلع مع ثيابك الدنيا كُلها ومرتَبتك الإجتماعية وتُلّبي ربك تقول لبيك اللهم لبيك ، هنا تقص شعرك وهنا تمتنع عن أن تَحـك جِسـمك أو أن تغتسل أو أن تتطيب ، تُنفّذُ محظورات الإحرام تماماً هذا كُله عبودية عز وجـل وسـيدنا ابراهيم أبـو الأنبياء عليه الصلاة والسلام أيضاً ذكر ا ُ عن مقامه العظيم حينما قال :

وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾

(سورة النجم)

يعني .. وفّى حق العبودية ، فنحن مقصرون إذا كان سيدنا ابراهيم وفّى وهو أبـو الأنبياء والنبي عليه الصلاة والسلام وصفَ في أعلى مقاماته مرتبة العبودية والـذُل ـ عـز وجل ، فنحن قد نعتد بعملٍ صالح قد نتيه به ، قد نستعلي به على الآخرين ، هذا كُله يحتـاج إلى توبة فلذلك : أن تبذُلَ الجهد الكبير في سبيل التقربِ إلى ا ـ العلي القدير هو أعظم عمـلٍ وأنجح مسعى تسعاه إلى ا ـ عز وجل .

هناك حالان ينبغي ألا يفارقا المؤمن الحال الأول : حالُ جمع الهمة علـى ا ـ عـز وجل .. يعني بالتعبير المقبول عندكم الإلتفات إلى ا .. أن تلتفتَ إليه ، أن تعقد معه الصلة ، أن تدعوه ، أن تستغفره ، أن تُسبحه ، أن تذكُره ، أن تلجأ إليه ، أن تستعيذَ به ، أن تُقبِلَ عليه ، أن تعقد به الصلة .

هذا الحال سماه العلماء جمع الهمة على ا ـ عز وجل محبةً وإنابةً وتـوكُلاً وخوفـاً ورجاء ومراقبة ، يجب أن تُراقب ا ، يجب أن تشعر أن ا ُ يراقبك ، يجب أن ترجوه وأنتَ في الشدة لا أن تيأس من عطائه ، يجب أن ترجوه وأنتَ فـي الرخـاء ، العـادة أن النـاس يطمئنون وهم في الرخاء ويخافون وهم في الشدة ، لكن المؤمن ينبغي أن يخافَ وهـو فـي الرخاء وينبغي أن يطمئن وهو في الشدة ، لأنها إذا وقعت الشدة فلا منجي إلا ا لهـذا قـالَ عليه الصلاة والسلام : " لا يخافن العبد إلا ذنبه ولا يرجون إلا ربه " .

إذا وقعتَ في شدة لا ينبغي أن تيأس ، اليأس نوع من الكُفـر ، اليـأس والقنـوت والسوداوية وأنا انتهيت وأنا هكذا ا قدر علي .. هذا كُله من علامة ضعف الثقة بـا عـز وجل فمن شأن المؤمن أن يرجو ا وهو في الشدة ، ومن شأن المؤمن أن يخافه وهـو فـي الرخاء .. الناس عادةً .. " **كَلا إِن الإِنسان لَيطْغَى أَن رآه استَغْنَى** " إذا كان في صحة طيبـة وأجرى تخطيطاً والنتيجة جيد الضربات نظامية ، التخطيط ، الكوليسترول ، المواد الدسمة ...

يقول لك التحليل ممتاز وينسى الله عز وجل ، يذكُره إذا كان النسب عالية إذا في ارتفاع شديد جداً إذا في اضطراب بالنظام ... يارب ...

البطولة أن تذكُره وأنتَ في صحة جيدة ، وأنتَ في بحبوحة ، وأنتَ قوي ، وأنـتَ غني .... إذاً : جمع الهمة على الله تكون في الحب وفي الإنابة وفي التوكـل وفـي التوكـل والخوف وفي الرجاء وفي المراقبة ... هل هناك همةٌ أخرى ؟ هذه الهمةُ الأولى جمع الهمـة على الله شوقاً ومحبةً وإنابةً وتوكُلاً وخوفاً ورجاء ومراقبةً .. هذه إياك نعبد .

بقي إياك نستعين .. قال : وجمع الهمة على تنفيذ أمرِ الله ، الأن دخلـت بـالعلم ، دخلت في معرفة أمر الله ، ما حكم الله في الدين لابد من كتابة إيصال :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ

(سورة البقرة الآية ٢٨٢)

ما حكم الله في الوديعة ، ما حكم الله في العارية ، ما حكم الله في الإيجار ، ما حكم الله في المزارعة ، ما حكم الله في المضاربة ما حكم الله في شراء الفواكه علـى أغصـانها ..... كمزارع ، كتاجر، كطبيب مثلاً ماحكم أجرِ الطبيب إذا ماتَ المريض ، ما حكـم أجـرِ المدرس ما حكم أجرِ المحامي ، ..... ففي عندك قضية ثانية ، بعد أن تتعـرفَ إلـى الله وبعد أن تجمع همتك عليه محبةً وتوكُلاً وخوفاً ورجاء وإنابةً ومراقبةً ، الأن دخلتَ في طَـورٍ آخر يجب أن تجمع همتَك على تنفيذ أمره ولن تُنفذَ أمره إلا إذا عرفتَ أمره أولاً ، مـن هنـا جاءت الحاجةُ إلى حضور مجالس العلم وإلى معرفة أمرِ الله عز وجل التفصيلي .

فلذلك : هذا الذي لا يجد نفسه راغبةً في معرفة أمرِ الله عز وجل كيفَ يستقيم على أمره ؟ فأول خطوة في الإستقامة على أمر الله أن تعرِفَ الله عز وجل .

على كُلٍ : قولُه تعالى "**إياك نَعبد وإياك نَستَعين**" هذه الآية جمعت الهمتين : همـةُ الإقبال عليه وهمةُ تنفيذ أمرِه ، لذلك قالَ بعض العلماء إنك حينما تركع تُعلن عن خضوعك لله

عز وجل وأنك حينما تسجد تطلب العون من الله عز وجل فكأن إياك نعبـد ركوعـاً وإيـاك نستعين سجوداً .

إذاً : محور هذا الدرس أن التوبةَ التي تتوهمونَها تقع في العمرِ مرةً واحـدة هـذه التوبةُ الكُبرى التي نَقَلتك من الشقاء إلى السعادة ، من المعصية إلى الطاعة ، من الضلال إلى الهدى ، من الضياعِ إلى الوجدان ، التوبةَ التي تعقب كُل خطإٍ طفيف وكُل جهلٍ وكُل تقصـيرٍ هذه التوبةُ ينبغي أن تكون مستمرةً طَوالَ الحياة وهذا معنى قول النبي :

" عن أَنَسٍ أَن النبي صلى اللهم عليه وسلم قَالَ كُل ابنِ آدم خَطاء وخَير الْخَطائِين التوابون " *

(سنن الترمذي)

أما النهاية : في نهاية كُل صلاة ونهاية كُل صيام ونهاية كُل عمرة أو حج ونهايـة كُل مجلسٍ وكُل لقاء وكُل علاقة وفي نهاية العمر ترجو الله عز وجل أن يقبلك ، أن يقبلك بهذا العمل الذي هو جهد مقلٍ كما قالَ عليه الصلاة والسلام ، أن يقبلك وأن يتجاوز عن أخطائِـك وعن سيئاتك وعن زلاتك فلعل الله عز وجل يختم هذا العملَ بتوبة القَبول ، في توبـة العفـو وفي توبة القَبول ، تتوب من ذنبٍ فيقبل الله توبتَك أي عفا عنك ، لكن الآن قد يعفو عنك ولكنه لا يقبلُك ، أنتَ ماذا تُريد ؟ أن يقبلك الله عز وجل لذلك : توبةُ نهاية العمر توبةُ القَبول .

أيضاً : حينما تقولُ إياك نعبد وإياك نستعين بكلمة إياك في تخصيص يعنـي إيـاك وحدك يارب لا نعبد سواك ، وإياك وحدك يارب لا نستعين بغيرك ، إفراد الله فـي العبـادة وإفراده في الإستعانة ، حينما تتجه إلى أن تستعين بغير الله عز وجل أو أن تستعين بزيـد أو عبيد لا تنسى هذا الحديث :

" ما من مخلوق يستعين بي من دون خلقي أعرفُ ذلك من نيته فتكيد لـه أهـلُ السـموات والأرض إلا جعلتُ له من بين ذلك مخرجاً وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرفُ ذلك من نيته إلا قطّعتُ أسباب السماء بين يديه وأهويتُ الأرض من تحت قدميه " .

إذاً : يجب أن تُفرده بالعبادة ويجب أن تُفرده بالإستعانة والحديثُ الشريف :

" لا يخافن العبد إلا ذنبه ولا يرجون إلا ربه ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " .

وآخر شيء في الدرس أن العبادة غايةُ الخضوع مع غاية الحب ، خضوع بلا حب لا يعد عبادة وحب بلا خضوع لا يعد عبادة ، نهايةُ الخضوع ونهايةُ الحب هو العبادة :

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

(سورة الذاريات)

والعبادة الحقّة هي أعلى مقامات الإنسان وقد رأيتم قبلَ قليل كيفَ أن ا عز وجل وصفَ النبي عليه الصلاة والسلام وهو في أعلى درجاته وصفه بأنه عبد وأنه لما قام عبد ا يدعوه :

سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ



(سورة الإسراء)

" **تبارك الذي نزلَ الفُرقان على عبده** " هذه كلُّها تؤكد أن العبوديةَ هي كُلُّ شيء بل إن كُل هذه الدروس ما هي إلا في تفصيل إياك نعبد وإياك نستعين .

بقي موضوع دقيقٌ متعلّقٌ بالعبادة : العبادة أيها الأخوة وقد ذكرتُ هذا من قبل هي طاعة ، غايةُ الطاعة الخضوع مع غاية الحب ، لكن يجب أن تعلم علم اليقين أنك لن تُطيع ولن تُحب إلا إذا عرفت فطريقُ العبادة هي المعرفة ، العلم هو الطريق الوحيد إلى ا عز وجل وأنك إذا أطعتَ وأحببت سعدتَ با عز وجل ، ثلاث كلمات أتمنى على ا عز وجل أن تكون واضحةً عندكم ، ثلاث كلمات في حياتنا الأولى : المعرفة ، والثانية : السلوك ، والثالثة : الثمرةَ وهي السعادة ، فينبغي أن تسعد ولن تسعد إلا إذا أطعت ولن تُطيع إلا إذا عرفت .

لذلك : النبي عليه الصلاة والسلام كان بليغاً جداً حينما قال :

" **الندم توبة** " ، العلماء احتاروا بهذا الحديث .. ياربي التوبة ليست ندماً فقط التوبة علم ، أنتَ في أية لحظة تتوب من الذنب ؟ إذا عرفتَه ذنباً ، لابد في التوبة من علمٍ فإذا حصلَ العلم صار الندم وإذا صار الندم نَقَلَك إلى السلوك ، ففي أدق تعريف التوبة : هي علم وحالٌ وعمل ، جاء االنبي عليه الصلاة والسلام وذكر في التوبة المرتبة الوسطى قال " **الندم توبة** ".

فالعلماء عندما فسروا هذا الحديث قال هذا الندم لابد له من علمٍ أحدثه ولابد له من عملٍ نَتَج عنه ... هذه البلاغة بالإيجاز ذكر لك المرحلة الأساسية هي الندم ، فالندم سببه العلم والندم نتيجته الاستقامة فقال النبي " **الندم توبة** " .

طيب .. ربنا قال :

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

(سورة الذاريات)

العبادة طاعة وحب ، طيب ياربي أنتَ أغفلت العلم وأغفلت السعادة لأن هذه الطاعة وهذا الحب لا يمكن أن يكون إلا بالعلم ، وهذه الطاعة وهذا الحب إذا حصل ينتج عنه سعادة أبدية في الدنيا والآخرة فنهاية المطاف يجب أن تعلم أن الله سبحانه وتعالى خَلَقَك كي تعبده أي كي تُطيعه وكي تُحبه ، ولن تطيعه ولن تُحبه إلا إذا عرفتَه وإذا أطعته وأحببته سعدتَ بقُربه في الدنيا والآخرة .

إذاً : حياتنا كُلها ثلاث كلمات : نتعلّم ونعمل فنسعد ، تُلغي العمل لا تستفيد شيئاً ، تُلغي العلم لا تستفيد شيئاً .. طبعاً الثالثة تحصيل حاصل .. تجد في القرآن أكثر من ثلاثمائة آية :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة العصر)

فأنا أتمنى على الأخوان الكرام أن يكون في حياتهم شيئان كبيران : طلب العلم والإلتزام بما تعلّمت ، لهذا قالَ عليه الصلاة والسلام

" لا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله علماً ولا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله قُرباً " .

القرآن يؤكّد ذلك حجمك عند الله بحجم عملك والدليل :

﴿ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وحجمك عند الله بحجم علمك والدليل :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ
يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾

(سورة المجادلة)

فأنتَ لك نشاطين : نشاط هو التعلّم ونشاط هو التطبيق ، في المسجد تتعلم وفي بيتك ودكانك ومكتبِك وعيادتك ومعملك تُطبق ، هنا تتعلم والحياةُ كُلُها مجالٌ للتطبيق .

إذاً : حينما تختصر الدين بكلمات موجزة وكلمات محكمة وكلمات بليغة : الدين علم وعمل والثالثة تحصيل حاصل وهي السعادة تحصيل حاصل ، أنتَ طبق الأولى والثانية والثالثة تأتيك وهي راغمةَ .

والحمد رب العالمين

****

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم ..... مع الدرس الثامن والثلاثين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، منزلةُ من أدق المنازل وردت فيها آيـاتٌ كثيـرة ، وفـي المناسبة أن هذه المنازل هي في الحقيقة تفسير لكتابِ ا ِ عز وجل ولكن ليس أساسه الآيـات المتتابعة ولكن أساسه الآياتُ ذات الموضوع الواحد ، ففي القرآن الكريم آياتٌ كثيرة تتحـدثُ عن الإنابة من هذه الآيات مثلاً :

وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾

(سورة الزمر)

أمر إلهي يقتضي الوجوب .

إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾

(سورة هود)

أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾

(سورة ق)

وصفَ النبي الكريم سيدنا ابراهيم بأنه حليم أواه منيب ، جاء أمر إلهي وأنيبوا إلى ربكم، وصفَ العبد الذي يتأثر بآيات ا ِ الدالة على عظمته بأنه عبد منيب ، آيةٌ رابعة :

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾

(سورة غافر)

ووصفَ ا ُ عز وجل عباده الصالحين بأنهم منيبين إليه :

﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١﴾

(سورة الروم)

إذاً : هناك منزلة في القرآن الكريم يمكن أن نُسميها منزلةَ الإنابة ، ما معنى هذه المنزلة ؟ .

بعضهم قال : إن هذه المنزلة تعني شيئين لأن هناك إنابتين : إنابةٌ لربوبيته وإنابةٌ لألوهيته ، فالإنابةُ للربوبية إنابةٌ عامة فكُلُ الخلق على اختلاف أجناسهم وأديانهم ومللهم ونحلهم واتجاهاتهم ، مؤمنهم وكافرهم وفاسقهم وطائعهم منيبون إلى ا حينما تأتي الشدة ، راكب طائرة دخلت في سحابة مكهربة صار إمكان وقوعك كبير ، راكب سفينة ، واجهت مشكلة ، التحليل أظهر خللاً كبيراً في تركيب الدم ، الصور الشُعاعية أظهرت خللاً في الخلايا ، حينما تأتي المصيبة جسمية أو مادية أو معنوية ، في المال في الولد في الأهل ، حينما يلوح شبح المصائب كُلُ الخلق من دون إستثناء كما قُلتُ قبلَ قليل مؤمنهم وكافرهم عالِمهم وجاهلُهم من كُل الأجناس من كُل الملل من كُل النحل منيبين إلى ا ولكن وا ِ هذه الإنابة بحسب ضعف الإنسان بحسب افتقاره إلى ا ، بحسبِ أنه مقهور ، بحسبِ أنه مضطر ، ولكن هذه الإنابة لا ترتقي بِك إلى ا ، الدليل :

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣﴾

(سورة الروم)

" **وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه** " الناس جميعاً ، يعني حينما تأتي المصيبة وتنطلق إلى ا ِ عز وجل هذا ليس لك فيه فضلٌ إطلاقاً هذه طبيعةُ الإنسان ، هذه جِبلّته، هذه فطرتُه ، هذا ضعفُه ، هذا إفتقاره ، هذا اضطراره ، هذا قهره ... أي إنسان ، لذاك ربنا عز وجل قال :

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ٤٣﴾

(سورة النجم)

ا   عز وجل طبعاً من قدرته وهذا شيء بسيط جداً أنه يجعلُ أشد الرجال جلْداً تنهار أعصابه ويجهشُ بالبكاء ، طبعاً أن ترى طفلاً يبكي شيء مألوف ، أن ترى امرأةً تبكي شيء مألوف ، أما أن ترى رجلاً شديداً عتيداً جلداً تنهار أعصابه ويجهشُ بالبكاء معنى ذلك أن ا َ عز وجل حينما يؤدب الإنسان يعرفُ كيفَ يؤدبه .

فإذا الإنسان ضحك وكان مرحاً وانطلق لسانه وهو بين أهله ، بين أصدقائِه ، فـي عمله، مع شركائِه ، هذا فضلُ ا ِ أن ا َ سلّمه وعافاه ويسر له ُأموره وإلا فأي خبرٍ مـ زعج يقلب حياةَ الإنسانِ جحيماً .

إذاً : هذه الإنابة ليس لنا فيها فضلٌ إطلاقاً ، هذه من جِبِلّتنا ، من ضعفنا ، من قهرنا ، من افتقارنا ، من هلعنا :

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾

(سورة المعارج)

قُلتُ لكم من قبل : أن طائرةً يركبها خُبراء من بلاد لا تؤمن با ِ إطلاقاً .. يعني .. لا تؤمن بوجود ا ِ إطلاقاً ، دخلت هذه الطائرة في سحابة مكهربة وبدا لركابها أنهـا علـى وشك السقوط .

.. حدثني من كان في الطائرة أن هؤلاء الذين يلحدون فـي ذات ا ِ وفـي آياتـه صـاروا يرفعون أيديهم إلى السماء : يارب .. يارب .. بلُغـاتهم ، أيـن إلحـادهم ، أيـن علمانيتُهم ، أين إنكارهم ، أين كُفرهم ..؟.. أعتقد أن كلكم قرأ في القرآن آيات كثيرة كيفَ أن ا َ عز وجل يستدرج الكافر أحياناً إلى سفينة فإذا ماج البحر واضطرب :

هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾

(سورة يونس)

فحينما تأتي مشكلة وتلجأ إلى الله عز وجل ، لا أُقللُ من قيمة هذا اللجوء ولكن أُبلغك أن هذا اللجوء لا فضلَ لك فيه لأن هذه طبيعتُك وهذا افتقارك ولكن البطولةَ أن تُنيب إليه إنابةَ الألوهية وقد تحدثتُ في درسٍ سابق كيفَ أن الإله .

.. الذي يستحقُ العبادة ، الذي خَلَقَك يستحقُ أن تَعبده فهو الإله ، والذي رزقك يستحقّ أن تَعبده فهو الإله ، والذي أعطاك السمع والبصر والفؤاد يستحقّ أن تَعبده فهو الإله ، والذي منَحك الأهلَ والأولاد يستحقّ أن تَعبده فهو الإله ، والذي تفضلَ عليك بنعمة الهداية هو الإله .

إذاً : لا معبود بحق إلا الله ، أنتَ حينما تنطلقُ إلى الله عز وجل من قناعة من مبادرة ، تنطلقُ إبتداء إلى الله عز وجل وأنتَ في رخاء وأنتَ في بحبوحة فهذه هي البطولة ، هذه هي الإنابةُ التي يريدها الله عز وجل أن تُنيب إليه إنابةَ حب لا إنابةَ قهر ، إنابةَ إشتياق لا إنابةَ اضطرار ، إنابةَ اقتناع لا إنابةَ إجبار .

لذلك : قالوا الإنابةُ إنابتان إنابةٌ لربوبيته وهذه إنابةُ المخلوقات كُلها يشترك فيها المؤمن والكافر البر والفاجر " **وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ** " .

لكن الإنابةَ البطولية هي إنابةٌ لألوهيته ، وإنابةُ الألوهية أي أن تعبده بعد أن تؤمن به ، أن تعبده وأنتَ محب له ، أن تعبده وأنتَ ترجوه ، أن تعبده وأنتَ راغب فيما عنده من دون إضطرارٍ من دون ضغط من دونِ إكراه من دونِ خوف ، لأن هذا الذي ينيب إلى الله عند الشدة من لوازم هذه الإنابة أنها إذا رفعت الشدةَ عاد إلى ما كان عليه ، أعرفُ أُناساً كثيرين حينما جاءتهم أزمةً في بعضِ أعضائِهم الخطيرة أنابوا إلى الله فلما تحسن وضعهم وانزاحت عنهم هذه الآلام وأظهرت النتائج المخبرية أنهم في صحة جيدة عادوا إلى ما كانوا عليه من فسق وفجورٍ وانحراف وطغيانٍ واستكبار .

إذاً : الإنابة التي تأتي عند الإضطرار سرعان ما تنزاح عند الرخاء ، إذاً لا قيمةَ لها والدليل " **وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آَتَيْنَاهُمْ** " ، لكن روعة الآية أن فريقاً منهم ، معناها هناك أُناس حينما تأتيهم الشدة وينيبون إلى الله يستفيدون من هذه الشدة وتكون إنابتُهم إلى الله عز وجل مستمرة والدليل "**إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ** " .

الإنابة قالوا من خصائِصها أربعةُ خصائص الخصيصةُ الأولى أن تكون الإنابةُ أساسها المحبة .. يعني .. دائماً نتحدثُ عن العبودية لله عز وجل ، العبودية من الداخل حب ومن الخارج انصياع إلى الله عز وجل وفي أدق تعاريف العبودية : غايةُ الخضوع للأمرِ والنهيِ وغايةُ الحب، خضوع في الأعضاء والجوارح وحب في القلب ، فإذا اجتمع الحب في

القلب الحب مع الإخلاص والخضوع والإستسلام لأمر الله عز وجل فهذه هي العبودية وهـذا الذي قاله الله عز وجل :

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

(سورة الذاريات)

يعني أنتَ في أعلى درجاتك وفي أفضل حالاتك وفي أعلى مراتبك عبد لله عز وجل قلبك مفعم بالحب وجوارحك وأعضاؤك منساقةٌ إلى طاعته ، إذا كُنتَ كذلك فأنتَ من عباد الله الصالحين فأنتَ من عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً :

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾

(سورة الفرقان)

فالأمر الأولُ في الإنابة هو الحب ، والأمر الثاني في الإنابة هو الخضوع كما قُلتُ قبلَ قليل ، والأمر الثالِثُ في الإنابة الإقبالُ على الله ، الفرق بين الحب والإقبـال : الإقبـال بالعبادات ، بالأدعية ، بالأذكار بالتذكير أحياناً ، بتلاوة القرآن ....

في حب وخضوع وإقبال على الله عز وجل ، والعنصر الرابع : والإعراض عمـا سواه ،أناس منحرفون شهواتٌ دنيئة ، أماكن موبوءة .... أي شيء يبعدك عن الله عز وجـل تُعرض عنه .. يعني .. في النهاية هناك في الكون حقيقةٌ واحدة وهي الله فأي شـيء يقربـك إليه تُبادر إليه، وأي شيء يبعدك عنه تبتعد عنه ، هذا اللقاء ، هذه النزهة ، هذه العلاقة ، هذه الشركة ... إن أبعدتك عن الله عز وجل أعرضتَ عنها وإن قربتك إلى الله أقبلتَ عليها ، هذا هو ملخّص الملخّص .

.. حينما ترى شيئاً يقربك إلى الله عز وجل تنطلقُ إليه وحينما ترى شـيئاً يبعـدك عن الله عز وجل تجتنبه ، فالحب في القلب والخضوع في الجوارح والأعضاء والإقبالُ علـى الله والإعراض عما سواه هذا هو المنيب .

باللغة الإنابة : الإسراع والتقدم .. يعني .. أناب إلى الله غيـر رجـع ، ممكـن أن تنطلق من البيت ثم تذكُر شيئاً في البيت فتعود إلى البيت الهوينى ، ولكن الإنابة من معانيهـا الدقيقة العودةُ إلى الله بسرعة إلى الله عز وجل .. المسارعةُ إلى الله .

لذلك كان سيدنا عمر كما يقولون وقّافاً عند كتابِ ا ، المؤمن مذنب مفتتن تـواب كثير التوبة كثير الإنابة يعود مباشرةً .. يعني مثلاً : وقع في ذنبٍ مساء ما آوى إلى فراشه إلا وهو تائب منه .. هذه الإنابة .. أما الذي يقع في الذنب ويتوب إلى ا ِ بعد أسـبوع أو بعـد أسبوعين أو بعد شهرٍ أوشهرين ليست هذه هي الإنابة ، الإنابة هي المسارعةُ إلـى ا ِ عـز وجل ، المسرِع إلى مرضاته ، الراجع إليه في كُل وقت ، المتقدم إلى محابه ، المبتَعـد عـن مسخطاته .

الحقيقة : قد يسألُ سائل ما علاقةُ التوبة بالإنابة ؟ أنتَ تُبتَ إلى ا ولكـن الإنابـة التوبة المستمرة ، الرجوع المستقر إلى ا عز وجل .

وقال العلماء : " الإنابةُ الرجوع إلى الحق إصلاحاً كما رجعتَ إليـه إعتـذاراً وأن ترجع إلى الحق وفاء كما رجعتَ إليه عهداً وأن ترجع إلى الحق حالاً كما رجعتَ إليه مقالاً " ، ما تفصيلُ هذه التعاريف ؟ .

أولاً : الإنسان حينما يتوب إلى ا ِ عز وجل يقلع عن كُل ذنبٍ اقترفه لكن يـاتُرى هل يكفي أن أستقم على أمرِ ا أم الإنابةُ الحقيقيةُ أن اُبادر إلى الأعمال الصالحة ، الاستقامة من طبيعتها أنها سلبية تركت إطلاقَ البصرِ إلى النساء ، تركت أكلَ المال الحـرام ، تركـت الغيبةَ ، تركت النميمة ، تركت .. تركت ..... الإستقامة أساسها سلبي لكن ألا ينبغي أن تعود إلى ا ِ عز وجل لتدعو إلى ا ، أن تعود إليه مصلحاً بعد أن عدتَ إليه تائِباً ، عدتَ إليه تائباً والأن تعود إليه مصلحاً ، الإصلاح فيه إيجابيات .

.. ماذا قدمتَ ليوم القيامة ، ماالعملُ الذي ترجو ا َ أن يقبلَه منك ماالعملُ الذي تُعلّقُ عليه أهميةً في عودتك إلى ا ِ عز وجل ، كما قالَ النبي عليه الصلاة والسلام : " يابِشـر لا صدقةَ ولا جِهاد فبِم تلقى ا َ إذاً " .

.. أنتَ في رحلة سميتُها في خُطبة الجمعة الحج رحلة قبل الأخيرة لكن هنـاك رحلـةٌ أخيـرة ماالذي بين يديك ، ماالذي تحفلُ به عند ا َ عز وجل ، لو سئلتَ بماذا جِئتني ياعبدي يقول ياربي أنا استقمتُ على أمرِك .. جميل .. لكن استقمتَ فقط !! أنـتَ حينمـا اسـتقمت تعجلّتَ الراحةَ لقلبِك ، أنتَ حينما استقمت ابتعدتَ عن آلاف المشكلات ، ماذا قدمت ، بمـاذا ضحيت ، ماالـذي بذلت ، ماالعمل الجليل الذي سعيتَ إليه وترجو به رحمتي ؟ .

فلذلك الإنابة لها معنى سلبي ومعنى إيجابي ، المعنى السلبي تـرك المعاصـي .. يعني .. أناب إلى ا رجع إليه تائباً ، وأناب إليه رجع إليه محسناً ، في الأولى تاركاً للـذنب وفي الثانية عاملاً للصالِحات ، فهذا المعنى الأول معنى إيجابي .. يعني .. أنتَ حينما ترى إنساناً يحتاج إلى مساعدة تُبادر إلى خدمته فإذا وقفتَ لتُصلّي شعرتَ أن ا َ قد قَبِلَ هذا العمل ، ألم تعلموا أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

" صدقةُ السر تقع في يد الله قبلَ أن تقع في يد الفقير " .

فنحن نُريد إنابة مع العمل الصالح لا إنابة مع التوبة ، الإنابة مع التوبة وقعت وانتهى الأمر تُبتَ إلى الله من كُل معصية ، من كُل مخالفة من كُل ذنب ، أما الأن تُريد أن تنيب إليه وبيدك عملٌ صالح .. هذا هو المعنى الأول .. ، المعنى الثاني :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾

(سورة الفرقان)

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾

(سورة البقرة)

أعطينا مفهوم الإنابة مفهوم إيجابي ، أنتَ قدمت عملاً ثميناً تبتغي به رضوان الله عز وجل ، ومعنى آخر للإنابة : أن ترجع إليه بالوفاء بعهده .. أنتَ عاهدته .. أحياناً الإنسان يقفُ عند الحجر الأسود ويقبلّه ويذرفُ الدمع غزيراً ويقول ياربي عهداً على طاعتك عهداً على استقامتك .. شيء جميل .. الإنسان له أحوال مع الله يعاهده بها .

طيب هذا العهد أين مضمونه ، أين الوفاء به ، أين تحقيقُه ، أين تنفيذُه ، أين ترجمتُه إلى لُغة الواقع ؟ فأنتَ تعود إلى الله معاهداً وتعود إليه مرةً ثانية موفياً بعهدك ، وضعتَ في ظرف حرج أنت ماذا عاهدت الله عز وجل حينما تُبتَ إليه ؟ عاهدتَه على الإنصاف والأن أنتَ أمام موقف ينبغي أن تُنصف ، ماذا سوفَ تفعل ؟ إما ألا تُنصف وإما أن تُنصف

إذاً : أول إنابة أن تُعاهده على الإستقامة فهذه إنابة ، ثم أن تعملَ الصالِحات وهذه إنابة، أن تُعاهده على الإقلاع عن المعاصي هذه إنابة ، وأن توفّي بعهدك هذه إنابةٌ أُخرى ، الآيات المؤيدة لهذا المعنى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

(سورة الفتح)

وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾

(سورة الإسراء)

وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾

(سورة النحل)

۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

(سورة البقرة)

لذاك : الآية الكريمة :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾

(سورة الصف)

أنا أقول لكم وا ـِ أيها الأخوة : المؤمن في عنده شفافية ، لو فرضنا أنه عاهد ا ـَ في لحظة من لحظات حياته ، في ساعة من ساعات ضيقه ، في وقت مـن أوقـات محنتـه وشدتّه ، وبعد أسبوعٍ أو أسبوعين وبعد شهر أو شهرين ظهر موقف يقتضي بأن يوفّي بعهده ألا تشعر أيها الأخُ المؤمن أن ا ـَ يعاتبك إن لم توف ؟ .

يعني .. هل هناك حساسية بحيث أنك تُحس وكأن ا ـَ عز وجل يقول لك يا عبـدي أين العهد الذي بيني وبينك ألم تُعاهدني أن تفعلَ كذا وكذا ، ألم تُعاهدني أن تكظم غيظَك ، ألم تُعاهدني أن تكون حليماً ، ألم تُعاهدني أن تتجاوز عن السيئات ؟ فلما الإنسان ينشأ بينه وبـين ا هذا الحوار .. إن صح التعبير .. يعني أبسط حوار كما قُلتُ لكم مـن قبـل إذا أردتَ أن تُناجي ا ـَ عز وجل فادعوه .. الدعاء مناجاه .. وإذا أردتَ أن يحدثُك ا ـُ عز وجل فاتل كتاب ا ـِ عز وجل، فقراءةُ القرآنِ كأن ا ـَ يحدثُك :

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾

(سورة الزمر)

إذا أردتَ أن تُحدثه تقول له : يارب أقل عثاري ، اغفر زلّتي ارحم ضعفي ، اقبل توبتي ، أقل عثرتي يارب ، يارب ألهمني الصواب اهدني واهد بـي ، أرنـي الحـق حقّـاً وارزقني إتباعه .

أجمل ما في حياة المؤمن أدعية نبوية فيها جوامع الحكم أن تحفَظَها فكُلما خَلوتَ مع ربك وأنتَ في الطريق وأنتَ في موعد مهم وأنتَ مستيقظ صباحاً .. يعني .. كُلما جلستَ إلى مائدة .. أذكار النبي في الحمد والشُكرِ ـَ عز وجل فإذا أردتَ أن تُحدثَ ا ـَ عز وجل فادعوه ، وإذا أردتَ أن يحدثَك ا عز وجل فاقرأ القرآن .

ياموسى أتُحب أن أكون جليسك ؟ قالَ وكيفَ ذِلك يارب ؟ قالَ أما علمتَ أنني جليس من ذَكرني وحيثُ ما التمسني عبدي وجدني ، بعضهم قال : حينما تذكُر ا عز وجـل فهـذا نوع من الشُكر إذا ذكرتَ نعمةَ ا ـِ عليك .

إذا الإنسان شَرِب كأساً من الماء .. يعني .. الطُرق سالِكة ليس هناك حصيات وليس هناك انحباس في البول وليس هناك ضعف في عمل الكُليتين والأمور كُلُها منتظمة أليست هذه نعمة كبيرة ، لستَ مضطراً لا أن تُصفّي دمك في الأسبوع مرتين ولا أن تُجري عملية تحطيم البحصة بالأشعة ....

إذاً : هذه نعمة ، أنتَ كُلما دعوتَه في أحوالِك كُلها دخلتَ إلى بيتك لك مأوى ولك بيت ولك زوجة ولك أولاد وجلستَ إلى الطعام والطعام موجود ومعك ثمن الطعام ، يعني ا عز وجل أكرمك بهذا البيت وبهذه الزوجة وهؤلاء الأولاد فأنتَ حينما تدعو ا عز وجل فأنتَ تذكُره فالنعمةُ معرِفَتُها شُكر والحمد عليها شُكر ومقابلة النعمة بالأعمال الصالحة شُكر .. ثلاث مستويات .. يكفي أن تعرِفَ أن هذه النعمة من ا عز وجل فهذا أحد أنواع شُكرِها ويكفي أن يمتلئ قلبك امتناناً من هذه النعمة فهذا مستوى أرقى ، أما إذا انطلقتَ في خدمة الخلق تعبيراً عن شُكرِك عز وجل فهذا مستوى أرقى وأرقى :

يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾

(سورة سبأ)

فقال : " من علامات النفاق الغدر بعهد ا هكذا رواه عليه الصلاة والسلام فيما **رواه البخاري " .**

فيما رواه البخاري أن من علامات النفاق الغدر بعهد ا عز وجل .

بقي شيء آخر هو الرجوع إليه حالاً بعد أن رجعتَ إليه مقالاً .. يعني .. حالك مع ا دائماً ، يجوز لِسانُك مع ا يارب تُبتُ إليك لكن النفس موزعة في الدنيا في شُعبِها في أوديتها في متاهاتها في شهواتها ، الأن نريد إنابة فوقَ الإنابة القولية إنابة حالية .

.. أن تكون نفسك مطمئنةً إلى ا عز وجل سابحةً في ملكوت ا ، يعني سارحةً في فضل ا قريبةً من ا عز وجل فأن تُنيب إليه هذه إنابة اعتذار ، وأن تُنيب إليه إنابة وفاء بعد أن أنبتَ إليه إنابة عهد ، وأن تُنيب إليه إنابة حال بعد أن أنبتَ إليه إنابة مقال .

بعض خصائص الإنابة : من علامات المنيب أنه يخرج من التَبِعات .. يعني .. أي عملٍ يضعه أمام مسؤولية أمام ا عز وجل يخافُ منه دائماً هو خفيفٌ من التَبِعات ، متى ينجو من التَبِعات إذا أدى الواجِبات ..

.. إذا وصلَ رحمه ، أدى ما عليه من حقوق بر والِديه أنصفَ مع من معه ، حينما تقع عليك التَبِعات فلستَ منيباً إلى ا أبداً ، أحد خصائص المنيب أن يبتعد عن كُل تَبِعة تُحمله

أمام الله مسؤولية ، أخ حدثني وسألني ممكن أن أُصور سناً لمريض المريض يأتي مجاناً في مستوصف لكن علّمونا في الجامعة أكثر من صورة هذه قد تؤذي .. تؤذي .. هذا المريض الفقير لا يعرف نصوره صورة واثنتين وثلاث وخمس .. نتعلّم فيه .. أنتَ حينما تفعلُ هذا وقعتَ في التَبِعة ، وقعتَ في المسؤولية ، أليس الله يعلم أنهم قد علّموك أن لا تُجري هذه الأشعة إلا مرةً واحدة مع المريض لأخطارٍ تابِعة في المستقبل ، فأنتَ حينما تفعلُ شيئاً يضعك أمام مسؤولية أمام الله عز وجل فلستَ منيباً ، لذلك الإسلام مسؤولية والإيمان مسؤولية ، يا تُرى أنتَ حينما يكون هذا المريض أمانةً في عنُقك ، وهذا الموكلُ أمانةً في عنُقك قد ترفع مذكرة غير معتنى بها فيخسر موكِّلُك القضية وهو محقٌ بها هذا أمانة عندك ، فمن علامة إنابتك إلى الله عز وجل أنك تبتعد عن كُل تَبِعة تضعك أمام مسؤولية تجاه الله عز وجل .

ومن علامة الإنابة أنك إذا عثرت ، إذا زلّت القدم ، إذا وقعتَ في مخالفة ، تتألم ألماً حقيقياً ، أنا الأن أُعطيكم مؤشرات ، يعني ولو أن حيواناً مسسته بأذى لابد من رفع هذه التَبِعة بالإحسانِ إليه بمعالجته عند طبيبٍ بيطري ، إذا سببتَ لحيوانٍ أذى فأنتَ قد وقعتَ في تَبِعة مع الله عز وجل ، دخلت إمرأةٌ النار في هرة حبستها ، فالتخفف من التَبِعات أو الخروج من التَبِعات من علامة أهل الإنابة .

الشيء الثاني : التوجع للعثرات .. يعني .. المؤمن يحاسب نفسه حساباً عسيراً حينما يسيء حينما يخطئ دون قصد ، حينما تُزل قدمه ، حينما ينطَلقُ لِسانُه بكلمة قاسية ، حينما يفعلُ شيئاً يشعر أنه قد أخطأ هذه عثَرة ، من علامات المؤمن أن العثَرات توجِعه .

البارحة في درس الفجر أحد أخواننا حدثّني بقصة بسيطة جداً لكن أنا والله استفدتُ منها عرفتُ كم هي النفس دقيقة قال لي أنا اشتريت كوسا ويوجد قطعة كوسا لها استطالة طويلة فانتزعها ووضعها في الميزان ، بعد ما انتزعها شعر أنه هو قد اشتراها بهذا الوزن فأعادها . ما وزنُها خمس غرامات .. هذه الخمس غرامات تسسبت له مع الله أزمة ..

أردت من القصة : كم هي النفس دقيقة حينما نزعت شيئاً وزنه خمس غرامات وقعتَ مع الله في أزمة ، لو واحد قال لك خُذ تفاحة من التُفاحتين فأخذت الكبيرة لنفسك يا ترى لو وزنتها بميزان حساس ما في غرامين أو ثلاث ، لو الوزن واحد لكن واحدة لونها أحمر ... شعرت مع الله بتَبِعة لماذا استأثرتَ بالأطيب بالأكبر بالأجمل بالأزهى لماذا ؟ أنا أقول لك حينما تخرج من التَبِعة تشعر براحة .

فهذه العلامة الثانية : الخروج من التَبِعات والتوجع للعثرات والثالِثة : إدراك الفائتات .. في وقت معين فاتتك بعض الطاعات فنُضاعف الجهد ، فاستدراك الفائتات والتوجع للعثَرات والخروج من التَبِعات هذه علامةُ الإنابة إلى الله عز وجل .

علامة رابعة ... ما دام هناك لذّةٌ بالذنب فالانابةُ ليست صحيحة .. يعني .. ممكن أن تشعر بسرور في بعض المعاصي ، ما دام هناك لذّةٌ بالـذنب فالإنابـةُ ليسـت محكمـةً ولا صحيحة .

لذلك قالوا : هناك إنسان تأمره نفسه بالذنب هي النفس الأمارةُ بالسوء ، وهناك نفس إذا اقترفت ذنباً لامت صاحبها كثيراً .. هذه النفس اللوامة .. ، وهناك نفـس مطمئنـةٌ إلـى استقامتها وإلى رحمة ربها ، فهذه مرتبة . هذا مستوى وذاك مستوى والثالث مستوى ، لكـن هناك سؤال ياتُرى أيهما أرقى عنَد ا ِ أن تُصارِع نفسـك وأن تنتصـر عليهـا وأن تتمنـى المعصية ولا تفعلُها أم أن تكون معافى منها ؟ هو حسب ما يبدو أن الإنسان حينما يجاهد نفسه وهواه يرقى عند ا ِ عز وجل لكن هذه المجاهدة يجب أن تنتهي بالإنسان إلى أن تُوافقَ نفسه أن يتوافقَ هواه مع ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام .

نقول لكم : وإن كان الإنسان حينما ترقى نفسه إلى درجة أن جهاد النفسِ والهـوى يضعفُ عنده لا لشيء إلا لأن نفسه توافقت أحياناً مع ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام ، أنتَ راقب مؤمناً في أول إيمانه يشعر بنشوة كبيرة حينما يغُض بصره لماذا ؟ لأن هذه النفس تدعوه إلى النظر لكنه انتصر عليها ، لكن بعد أربع أو خمس سنوات مـن سـلوكه طريـقَ الإيمان لا يشعر بهذه اللذّة مع أنه يغُض بصره ، هل نقول له إنك قد تراجعت ؟ لا لم تتراجع لكن هذه مرحلة أرقى ، الأولى مرحلة الصراع ، مرحلة المجاهدة ، نفسك تتمنـى الـذنب ، تتمنى المعصية ، تتمنى سماع الغناء ، تتمنى إطلاقَ البصر ، لكنك تخـافُ ا َ عـز وجـل حملتَها على الطاعة ، جاهدتَ نفسك وهواك ، شعرتَ بلذّة الانتصار ، شعرتَ بأن ا َ أغلـى عندك من كُل شهواتك فارتقيت .

هذا هو السر الذي يحير معظَم المؤمنين ، يقول لك يا أُستاذ أول ما تعرفت إلى ا عز وجل عشتُ سنتين ثلاث بسعادة لا توصف ، عشت بسرور كأنني طـائر ، كـأنني مـع الملائكة ، والأن عادي !!! .. لا .. لستَ عادياً الأن والأن رقيـت ، لكـن كانـت نـوازِع المعاصي قوية عندك فلما تغلبتَ عليها شعرتَ بلذّة الانتصار فارتقيتَ عند ا ِ عز وجل ، أما الأن نوازع المعصية ضعفت وقَويت نوازِع الطاعة ، لم يعد هناك ذاك الصراع الذي تعهـده من قبل .

لذلك لذّة النصر خفّت ، .. إذا كان عدو شَرِس وانتصرت عليه تُحس أنك بطـل ، أما إذا واحد مصارع جاءه شاب صغير حديث العهد بالمصارعة فبضـربة واحـدة أنهـاه .. يحتاج لتصفيق حاد ؟ .. لا .. لأن هذه ليست بطولة ، فحينما ترتقي نفسك وتسمو نوازِعـك وتميل إلى الحق دائماً وتبتعد عن كُل مظان المعاصي عندئذ قد يخف شعور لذّة النصر عندك

.. هذا هو بعض أسرارِ ما يظنُّه الناس تراجعاً ليس هذا تراجعاً أبداً إنما هي مرحلة أُخـرى من مراحل السير إلى الله عز وجل .

الأولى : واستعينوا بالصبرِ : والمرحلة الثانية والصلاة : المرحلة الثالثة :

يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

(سورة الفجر)

كُلكُم يعلم أن هناك نفساً أمارةً بالسوء ، وأن هناك نفساً لوامةً ، وأن هنـاك نفسـاً مطمئنةً إطمأنت إلى صدق سلوكها وصدق طلبها لله عز وجل واطمأنت إلى رحمـة الله عـز وجل .

شيء آخر : من علامات الإنابة إلى الله عز وجل ترك الاستهانة بأهل الغفلة ، أيام الإنسان من رعوناته ، الإنسان في أول طريق إيمانه تاب إلى الله كُلما ألقى نظرةً على إنسان متلبس بمعصية احتقره وازدراه واستعلى عليه ... هذه من رعونات المؤمن في أول إيمانه ... من كمال إنابتك إلى الله عز وجل أن تدع الاستهانةَ بأهل الغفلة ، السبب .. يحتمـل أن هـذا الغافل .. إن هذا المسيء يتوب بعد حين ويشتد صدقُه مع الله عز وجل ويتجاوزك بمراحـلَ كثيرة ، ما دام حي لم يختم عملُه .

ممكن أنتَ لك سرعة فهو واقف الأن وأنتَ ماشي لكن أنتَ ماشي على الثلاثين وهو الأن واقف فلو صحا وركب مركبة على الـ ١٢٠ فتبقى أنتَ في الخاف ، فحتى أهل الغَفَلات يمكن أن يتوبوا إلى الله توبةً نصوحاً والحياة مليئة بالشواهد ، والله هناك أُناس كانوا غـارقين في المعاصي .. غارقين .. فَرجعوا إلى الله رجعةً لو وزعت على أهل بلـد لكفـتهم ، فمـن علامة المؤمن أن يدعو لهم بالهداية ، يتمنى لهم التوبة ، يسألُ اللهَ السلامة ، يسألُ اللهَ المزيد ، أما حينما يحتَقر أهلَ الغَفَلات ويستعلي عليهم ويزدريهم فإنابتُه إلى الله عـز وجـل ليسـت صحيحة وليست محكمة ، لم يتأدب بآداب الإيمان بعد ، بالعكس قال كُلما تقدمتَ في طريـق الإيمان تخافُ على نفسك وأنتَ في قمة الطاعات وترجو لهم الرحمة من الله عز وجل وهـم في المعاصي لأن : الصلحة في لمحة ، يكفي أن يقول العبد يارب فيقول الله عز وجل لبيـك ياعبدي ، فأول علامة رابعة من علامة المنيب تَرك الاستهانة بأهل الغفلة والخوفُ عليهم مع فتحك باب الرجاء لنفسك والأرقى من ذلك أن تخافَ على نفسك وأنتَ في الطاعة ، وأن ترجو لهم التوبةَ والإنابة وهم في المعصية

من علامات الإنابة إلى ا ِ عز وجل استقصاء رؤية العلل ، .. يعني .. يقول لك أنا وا ما في منّي .. الناس كُلُها هالِكة وكُلُها ضالّة وكُلُها واقعة بالحرام وأنا الحمـد دخلـي حلال واستقامتي وزوجتي محجبة وبيتي إسلامي .... حينما تظُن أنه ليس في حياتك علل فهذه أكبر علّة ، لأنه :

سمع علْقمةَ بن وقاصٍ الليثي يقُولُ سمعتُ عمر بن الْخَطابِ رضي اللهم عنْهم على الْمنْبـر قالَ سمعتُ رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم يقُولُ إنما الأعمالُ بالنيات وإنما لكُل امرئٍ ما نَوى فَمن كَانَتْ هجرتُه إلى دنْيا يصيبها أَو إلى امرأَة ينْكحها فَهجرتُه إلى ما هاجر إليه *

(صحيح البخاري)

فمثلاً : يقول مؤلفُ الكتاب كم في النفوسِ من عللٍ وأغراضٍ وحظوظ تمنع الأعمالَ أن تكون خالِصةً ِ تعالى ، المشكلة أنه في ظاهر وفي باطن ، الظاهر : الصـلاة والصـوم والحج والزكاة ، والظاهر أنه أنتَ تصدقت وزكيت ودفعت .. شيء جميل .. أنا أُريد القلـب ماذا أراد من دفع هذا المال ، أن ينتزع إعجاب الناس أم أن يتقرب إلى ا ِ عز وجل ؟ لذلك :

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾

(سورة الزمر)

قالوا : فإعبد ا َ في أعضائِك وجوارِحك .. بسمعك وبصرِك ولِسـانك ..... لكـن كيفَ يعبد القلب ا َ عز وجل ؟ بالإخلاصِ إليه والإنابة إليه والتوكل عليه ، فلذلك موضـوع الإخلاص موضوع مهم جداً بين القلبِ وبين العمل مسافة وفي هذه المسافة قُطّاع للطريـق ، وبين القلبِ وبين ا ِ مسافة وفي هذه المسافة قُطّاع للطريق .

عمل لا يثمر ثماره في القلب .. يوجد موانع .. الأن وصلت ثمار هذا العمـل إلـى القلب بقي أن يرفَع إلى ا ِ عز وجل وأيضاً يوجد موانع ، فالعجب يمنع ، الإدلال بالعمل يمنع ، أن ترى هذا العملَ عظيماً وقد قدره ا ُ على يديك والناس بعيدون عنه هذا يمنع ، العجـب والإدلال والرؤيا هذه مانعة من قَبول العمل وفي أشياء تمنع من وصول ثمار العمل إلى القلب .

إذاً : هذه أيضاً من علامة الإنابة الصحيحة أن تكون معافى من هذه القواطع التـي تقطع أثار العمل الصالِح إلى القلب وتقطع انتقالَ العمل الصالِح إلى الرب ، من هذه الموانـع التي تمنع أن يكون العملُ مقبولاً كما قُلتُ قبلَ قليل الكبر والإعجاب والإدلالُ ورؤيـةُ العمـل ونسيان المنّة وعللٌ خفيةٌ كثيرة ، فالإنسان عليه أن يستقصي نيته وعليه أن يطهر نفسه حتـى يكون العملَ الذي عملَه كُلُه مقبولاً .

وعلى كُلٍ هذه منزِلةٌ من أهم المنازل والآيات التي تحدثت عنها كثيرةٌ جداً ، الإنابةُ إلى ا العودةُ إليه بشكل مستمر عودة اعتذار وعودة إصلاح ، عودة عهد وعـودة وفـاء ، عودة قال وعودة حال .

والحمد رب العالمين

****

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم .....

مع الدرس التاسع والثلاثين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإيـاك نستعين ، ومنزلةُ اليوم هي منزلةُ الصفاء ومن منّا لا يحب الصفاء ، الصفاء بمعنى النقـاء ، شيء صاف أي نقي من كُل شائبة ، فهناك صفاء في العلم ، وهناك صفاء في الحال ، وهناك صفاء في الهمة ، والصفاء هو النقاء .

المعاني الدقيقة لكلمة الصفاء : أولاً وردت هذه الكلمة في قوله وتعالى أو ما يقابِلُها :

﴿ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة ص)

هؤلاء الأنبياء مصطَفون ، والمصطفى مفتعل على وزن مفتعل من الصفوة ، والصفوة من الشيء خُلاصتُه ، الزبدةُ صفوةُ الحليب ، صفوةُ الكلامِ مختَصره ، وتصفيته مما يشوبه ، شيء مصفّى أي مما يشوبه ، واصطفى الشيء لنفسه جعله خالِصاً له من تعلّق الشُركاء ، اصطفيتُ هذه الدكان لنفسي ليس معي فيها شريك ، اصطفيتُ هذا البيت ، اصطفيت هذه الزوجة ليس معها زوجة أُخرى ، الإصطفاء : أن تستقل بالشيء والاصطفاء أن تُصفي الشيء مما يشوبه من الأكدار والاصطفاء من التصفية وصفوةُ الشيئ خُلاصتُه .

الحقيقة : ما دام الموضوع متعلّقاً بالإيمان فالصفاء له علاقةٌ بالعلم وله علاقةٌ بالهمة والعزيمة وله علاقةٌ بالحال ، فنحن في هذا الدرس نَقفُ وقفات متأنيةً عند العلـم والعزيمـة والحال ... فُلان علمه صاف أي كُلُ علمه حقائق وكُلُ علمه عليه أدلّةٌ قطعية ، علمه صحيح ، علمه يقين، علمه مدعم بالكتابِ والسنّة ، علمه لا شائبةَ فيه لا خلط ، لا شك ، لا ريب ، لا ظن ، لا وهم ، لا خُرافة ، لا وهم ، علمه صاف يعني صحيح ونقي من كُل شائبة ، والعلـم الصافي هو العلم الذي جاء به النبي صلى ا ُ عليه وسلّم .

أيها الأخوة الأكارم .... كُلُنا يحتاج إلى عملية جرد ، أنتَ لك عمر أمضـيتَ وقتـاً طويلاً مرةً في المساجد وفي المدارس ومع أصدقاء وفي نَدوات وفي سهرات وقـرأتَ كُتبـاً

ومجلات فتجمع في وعائِك العقلي ركام من المعلومات ، بعض هذه المعلومات حقائق ، بعض هذه المعلومات شُبهات ، بعض هذه المعلومات خُدع وأباطيل ، بعض هذه المعلومات باطلة .

فنحن الأن بحاجة إلى عملية جرد ، قد يكون دون أن ندري تسرب إلى عقولنا خرافات، أوهام ، ظنون با لا تليقُ بِذاته الكريمة ولا بحضرته المقدسة ، فالإنسان عليه أن يملك العلم الصافي ، العلم النقي من كُل شائبة ، العلم المبني على أدلّة عقلية ونقلية وواقعية وفطرية ، العلم الذي لا يستطيع أحد أن ينقُضه لك هل معلوماتُك هل قناعاتُك هل أفكارك هل تصوراتُك من هذا النوع .. هل علمك صافياً ..

فالإمام الجنيد رحمه ا تعالى كان يقول : " علمنا مقيد بالكتابِ والسنّة " ، الكتاب كلام الخالق ، السنّة بيان رسول ا ، ا ُ جل وعلا أمر النبي وقد عصمه وأراه ملكوتَ السموات والأرض وبين له كُل شيء أمره أن يفصل .. يعني .. كبشر أو كمسلمين أو كمؤمنين ليس عندنا مصدر للحقيقة الصحيحة الصرفة اليقينية القطعية إلا مصدران : الكتابٌ والسنّة ، يمكن أن يكون الكتاب والسنّة مقياسين ، فأيةُ قصة أيةُ كلمة أيةُ مقالة تقرؤها أيةُ نظريةٌ تسمعها أي تصورٍ تطلع عليه إن لم يكن موافقاً للكتابِ والسنّة فهو باطل .

يعني .. تقريباً مثل إنسان أمام قطع من القماش عليها لُصاقات وأطوال وأنتَ معك متر صحيح ، متر مضبوط ، فأيةُ قطعة قماش وعليها لُصاقة فيها طولُها أنتَ بعملية بسيطة تقيس هذه القطعة بالمتر الذي تملكُه وتعرف ما إذا كانت هذه اللصاقة صحيحة أم كاذبة .

يا أيها الأخوة الأكارم .... يعني شاءت حكمةُ ا ِ عز وجل أن نأتي في عصرٍ فيه من الضلالات ومن الخرافات ومن الأباطيل ومن الدجل ومن الكذب ومن النظريات الباطلة والفاسدة و الهدامة ، البراقة المزخرفة التي تبوح لبعض الجهال بأنها هي الحق ، نحن في عصرِ الضلالات ولا ينجينا إلا إذا تمسكنا بالكتابِ والسنّة ، والنبي عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع وقبلَ أن يغادر الدنيا وقد رسم في حجة الوداع منهج عملٍ للبشرية من بعده ... قال :

عن زيد بن أَرقَم رضي اللهم عنهما قالا قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم إِني تَارِك فيكُم ما إِن تَمسكْتُم بِه لن تَضلوا بعدي أَحدهما أَعظَم من الآخَرِ كتَاب الله حبلٌ ممدود من السماء إِلى الأَرض وعتْرتي أَهلُ بيتي ولَن يتَفَرقَا حتى يردا علَي الْحوض فَانْظُروا كَيف تَخْلُفُوني فيهما *

(سنن الترمذي)

كلام دقيق ، كلام قطعي أي شيء تقرؤه ، أي خُطبة تسمعها ، أي قصة تَصلُ إلى سمعك ، أي فرحٍ تطّلع عليه ، أي تعليق تُشاهده ، أي تحليلٍ تقفُ عليه ... ، أي شيء عندك مقياس الكتاب والسنّة ، أخي هذا قرأتُ مقالةً عن دواء يطيل العمر :

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤

(سورة الأعراف)

انتهى الأمر .. المقالة باطلة .. معك مقياس أنت ، أخي فلان شاهد الجن :

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧

(سورة الأعراف)

فلان محظوظ ....

فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠

(سورة الليل)

التيسير له قانون والتعسير له قانون ، ياأخي العالم كُله ظُلم !!! قال تعالى :

أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧

(سورة النساء)

وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

(سورة النساء)

يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

(سورة لقمان)

كُلُّه كلام فارغ هذا .. أيةُ قصة ، أي تحليلٍ يؤكّد لك أن هناك ظُلماً عظيماً .. لا .. هذا ظُلم ظاهري لأن الظالِم سوطُ ا ينتقم به ثم ينتقم منه ، أقول لكم كلاماً دقيقاً .. يعنـي .. أنتَ إذا قرأتَ القُرآن وتدبرتَ آياته ووقفتَ على مدلولاته وتعمقّتَ في مضامينه واستوعبتَه .. هذا القرآن مقياس لك ، نور يهدي ا لك السبيل ، حبلُ ا ِ المتين ، برهان من ا ِ عز وجل .. فإذا آمنتَ با ِ عز وجل إيماناً قطعياً وآمنتَ بأن هذا الكلام كلامه بالدليل القطعـي ، هـذا الكلام يخبِرك أن ا َ عز وجل لا يظلم أحداً .

إذاً : الأن نحن نبحثُ عن ماذا ؟ عن علمٍ صاف ، ادخل إلى مكتبة فتجد فيها مئات ألوف الكُتب ، في حقائق وفي أكاذيب ، وفي ضلالات ، وفي تُرهات ، وفي نظريات لم تثبت بعد ، وفي خرافات ، وفي باطل مغلّف بالحق ، وفي حق مغلّف بالباطل ..... أنـتَ بحاجـة إلى مقياس .

يعني .. مثلاً من باب الأمثلة : دخلتَ إلى غُرفة في هذه الغُرفة قطعٌ مـن الـذهب كثيرة ، قيل لك بعض هذه القطع عيار ٢٤ وبعض هذه القطع ٢١ وبعض هـذه القطـع ١٨ وبعض هذه القطع ١٦ وبعض هذه القطع ١١وبعضها نحاس مغلّفٌ بالذهب وبعضها نحـاس ملمع وبعضها معدن رخيص خذ منها مائة قطعة ... أنتَ الأن بحاجة ماسة إلى مقياس يكشفُ لك القطع ذات النسب العالية فإذا حصلتَ على هذا المقياس أخذتَ مائة قطعة من العيار العالي والغالي فأنتَ من الفائزين .

إذاً : نحن الأن بحاجة إلى مقياس نقيس يه كُل علومنا ، كُل تصوراتنا ، كُل فهمنا ، كُل عقائدنا ، كُل رواسينا الفكرية ، نقيس به ونَدع كُل ما ليس صحيحاً ونستبقي العلم الصافي .. درسنا الصفاء .. العلم الذي لا شائِبةَ فيه ، أيام الحديد يكون غير صاف فيه شوائب فكميـة

هذا الحديد لا قيمةَ له يحتاج إلى مضاعفة كميات لأنه كُل قطعة حديد فيها شائبة هذه معرضة للكسر .

الجنيد يقول : " علمنا هذا مقيد بالكتابِ والسنّة فمن لم يحفظ القُرآن ومن لم يكتـب الحديث ومن لم يتفقّه لا يقتدى به " .. وكان يقول : " علمنا هذا متَشَبِك بحديث رسول ا " ، .. يعني .. هذا الكلام أهو تعصب للنبي أم ماذا ؟ أتمنى عليكم ألاّ يفهم هذا الكلام إطلاقاً أنك بما أنك مسلم وهذا نبيك فأنا متعصب له .. لا .. الجواب : أن النبي معصوم عصمه ا عن أن يغلَطَ في أفعالِه وفي أقوالِه ، فإذا أردتَ علماً صافياً لا شائبةَ فيه فعليك بحديث رسول ا .

العلماء الآخرون منهم أبو سليمان الداراني كان يقول : " إنه لَتَمر بقلبي النُكتَةُ مـن نُكَت القول " ، النُكتة بالمصطلح الحديث الطُرفة أما بالمصطلح القديم النُكتـة يعنـي الفكـرة الدقيقة .. اللفتة البارعة .. الشيء الذي يلفتُ النظر .

فكان يقول الداراني : " إنه تمر بي النُكتَةُ من نُكَت القول فلا أقبلُها إلاّ بشاهدي عدل وهما الكتاب والسنّة " ، إذا أيدتّها السنةّ وأقرها الكتاب فعلى العينِ والرأس ، أيام يقـول لـك واحد أخي فلان لا يصلّي لكن أخلاقُه عالية .. النبي الكريم يقول :

" لا خير في دينٍ لا صلاةَ فيه الصلاةُ عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين "

أحد العلماء يقول : " أصلُ مذهبنا ملازمةُ الكتابِ والسنّة وتَـرك الأهـواء والبِـدع والإقتداء بالسلف وتَرك ما أحدثه الآخرون والإقامةُ على ما سلَكه الأولون " ... مرةً ثانيـة : ليس هذا من باب التعصب لأن ا تكفل لنا أن النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطقُ عن الهوى .. أبداً ..

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾

(سورة النجم)

أنا أغبط : كُل أخ كريم عقلُه ممتلئ بحقائق يؤكدها القرآن والسنّة ، وأتحسر علـى إنسان عقلُه مليء بأوهام .. بظنون ..

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

(سورة آل عمران)

حسن الظن با   ثمن الجنّة .

أولاً : لن يكون علمك صافياً إلا إذا جعلتَ رسولَ ا   صلى ا ُ عليه وسلم لك إماماً وقُدوةً وحاكماً .. الدليل :

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾

(سورة النساء)

فإن قبلتَ أن تحتكم إليه في حياته ، وإذا قبلتَ أن تحتكم إلى سنّته بعد مماته فأنـ ـتَ مؤمن ورب الكعبة ، أيضاً :

لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾

(سورة الأحزاب)

إذاً : من جعلَ النبي قدوتَه وإمامه وحاكمه يجيبه إذا دعاه ، يقفَ عند أمرِه إذا أمره ، يسير إذا سار بِك ، يقولُ لك فتسمع قوله ، ينزلُك هذه المنزلة فتقبلُها ، تغضـب لغَضـبه ، ترضى لِرضاه ، إذا أخبرك عن شيء أنزلتَه منزلةَ ما تراه بعينك ، وإذا أخبرك عن ا ِ يخبر أنزلتَه منزلةَ ما تسمعه من ا ِ بأُذنك ، هذا ما قاله سيدنا سعد بن أبي وقّاص قال : وا ِ ثلاثةٌ أنا فيهن رجل وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس ما سمعتُ حديثاً من رسول ا ِ صـلى ا ُ

عليه وسلّم إلا علمتُ أنه حقٌ من الله تعالى ، كلّما صدقتَ النبي بتوجيهاته وأوامره ونواهيـه كان إيمانُك أرقى .. يعني .. إذا جعلتَ من رسول الله معلّماً لك ومربيـاً لـك ومؤدبـاً لـك وأسقطتَ كُلَ الوسائط بينك وبينَه إلاّ الوسيلة التي تُنقَلُ بها سنّتُه إليه فقد امتلكتَ علماً صافياً .

أقول لكم كلمة من القلب : إذا اتبعتَ النبي لن تَضل أبداً ، لن تندم أبداً ، لن تُخطـئَ أبداً، لأن هذا كلام النبي تعليماتُ الصانع ومنهج الخالق ، قالَ الله عز وجل :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة فاطر)

أنتَ حينما تتبَع كلام النبي تتبع كلام الخبير .. الخبير .. اتّبـع سـنّةَ النبـي فـي زواجـك ، اتّبع سنّةَ النبي في تزويج إبنتك :

عن أبي هريرةَ قالَ قالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم إذَا أَتَاكُم من ترضون خُلُقَه ودينَه فزوجوه إلا تَفْعلُوا تكُن فتْنَةٌ في الأَرضِ وفَساد عريض *

(سنن الترمذي)

اتّبع سنّةَ النبي في طعامك ، في شرابك ، في نومك ، في استيقاظك ، في صلواتك ، في عباداتك ، في دعائك ، في علاقاتك ، في كسبِ المال ، في إنفاق المال .

لذاك : معرفةُ سنّةُ النبي فرض عيني ، كيفَ تتبع النبي دون أن تعرفَ سنَتَه ؟ لذلك أقول لكم للمرة الألف : ما من طريق يفضي بكم إلى السعادة إلاّ والعلم أولُ مرحلة فيه .. إذا أردتَ الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردتَ الآخرةَ فعليك بالعلم ، وإذا أردتَهما معاً فعليك بالعلم .

الشيء الآخر .. هذه كلمة دقيقة وخطيرة : العلم لا يسمى علماً إلاّ بالشواهد والأدلّة ، والعلم الحقيقي هو العلم الذي يدعم بالأدلّة والبراهين ، فكُلُ علمٍ ليس له دليلٌ ولا برهـان لا وثوقَ به وليس بعلم لأنه صار جهلاً .. إياك أن تقبلَ بلا دليل ، وإياك أن ترفض بلا دليـل ، لابد من دليلٍ في القَبول ودليلٍ في الرفض ، أما دعوى وقوعِ نوعٍ من العلمِ بغيرِ سـبب مـن الإستدلال فليس بصحيح .

يعني .. من يقول هذا علم لَدنّي .. العلم اللدنّي هو العلم الذي وصلَ إلى الأنبياء عن طريق الوحي فهو فعلاً من لَدن عليمٍ خبير ، أما العلم الذي تأتي به من دونِ دليل هذا لي من لَدنِ الله عز وجل .. هذا من لَدن نفسك ، أنا أُريد علماً منقولاً عن حضرة الله عـز وجـل ، أُريد علماً منقولاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمة أقولُها لكم دقيقةٌ جـداً : العلـم

اللدنّي لا يكون لدنّياً إلا إذا كان منقولاً عن ا ـ وعن رسوله فإن لم يكن كذلك فهو علم من لّدن صاحبه وصاحبه قد يخطئُ وقد يصيب بل إن العلم الإشراقي إن صح التعبير يقاس بالكتـابِ والسنّة ، واحد قالَ لك أنا شعرت بكذا .. إذا كان هذا الشعور وهذه الفكرة وهذا الكشف مطابقاً للكتابِ والسنّة فعلى العينِ والرأس وإن لم يكن كذلك فهو مردود .

في كلمةَ أقرؤها لكم : ربنا عز وجل حينما أرسلَ هذه الرسالة وأنزلَ هـذا القـرآن وبعثَ بالأنبياء والمرسلين ألم يعطهم الأدلّة ؟ أليست المعجزات على أنهم أنبيـاؤه ورسـلُه ، أليست الكُتُب أدلّةً على ما جاؤوا به ، هل في القرآن الكريم فكرةٌ بلا دليل :

وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾

(سورة البقرة)

۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

(سورة البقرة)

قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

(سورة الأنعام)

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾

(سورة الأنعام)

إذاً : الطابع العام طابع علم ، طابع برهان ، طابع دليل ، طابع حجة ، أما دع عقلك واتبعني .. هذه مقولةٌ قالها النصارى ، قالتها أُمم أُخرى بعيدةٌ عن روح العلم الذي جـاء بـه الدين الحنيف ، بعض الآيات المتعلّقة بهذا الموضوع :

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

(سورة آل عمران)

۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

(سورة آل عمران)

يعني .. أخطر شيء أن تأتي بكلام تدعي أنه من عند ا وليس من عند ا ، هـل هناك وحي بعد رسول ا ؟ هل كان الدين ناقصاً حتى يأتي فُلان ويتمه ..

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

(سورة المائدة)

معناها التطبيق العملي لهذه الفكرة .. يعني .. أنتَ في عملك بالأسواق ، بحفلات ، يعقود قران ، بسهرات ، بندوات ..... تستمع إلى أفكار كثيرة إياك أن تقبلها كلها لا بد من التمحيص ، لا بد من التدقيق ، لا بد من التساؤل ، لا بد من أن تسألَ المتكلّم هذا الكلام من أين جئتَ به وأين قرأتَه وما الدليلُ على صحته وهل هو معتمد ، هل هذا الحديث مسند ، هل هو حديثٌ صحيح ؟ .

دائماً وأبداً أُناس كثيرون يمطرونني بأسئلة كثيرة أستاذ فلان قال هيك .. طيب قالَ كذا لِم لم تسألوه من أين جئتَ بهذا ، أين قرأتَ هذا ، ماالدليلُ على صحة هذا .

يعني .. الإنسان :

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

(سورة الإسراء)

الإنسان محاسب ، لا بد من تقديم الدليل ،

أَخْبرنَا أَبو عاصمٍ قَالَ لا أَدري سمعتُه منْه أَو لا ابن عونٍ عن محمد إِن هذَا الْعلْم دين فَانْظُروا عمن تَأْخُذُون دينَكُم *

(صحيح مسلم)

الكلمة الشائعة .. أخي ضعها في رقبتي .. من أنت حتى أستَمع إليك ، من أنت حتى أتّبِعك دون دليل ..؟.. النبي عليه الصلاة والسلام الذي يقولُ الله عنه :

قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

(سورة يوسف)

يعني .. في إنسان يحرم الحلال بلا دليل ، وفي إنسان يحلل الحرام بلا دليل ، الحلالُ والحرام من عند الله عز وجل ، الله وحده هو الذي يشرع .. لذلك ما جاءنا عن صاحبِ هذه القُبة الخضراء فعلى العين والرأس وما جاءنا عن سواه فهم رجال ونحن رجال ، الآية الأولى إذاً : " **ويقُولُون هو من عنْد الله وما هو من عنْد الله ويقُولُون على الله الْكَذب وهم يعلَمون** " الآيـة الثانية :

فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾

(سورة البقرة)

يعني .. مرة ذكرت لكن بعض الأمثلة لقوله تعالى" **لِيشْتَروا به ثَمنًا قليلا** " مثل افتراضي .. واحد معه خمس ملايين دولار × ٤٧ أو ٤٨ .. مبلغ ضخم ممكن أن تشتري بيتاً بأرقى أحياء دمشق وبيتاً بأرقى مصايف دمشق وبيتاً على الساحل وسيارة أحدث سيارة ومتجر بأشهر شارع ، برد فأشعلها وتدفأ عليها .. إنه اشترى بهذا المال ثمناً قليلاً ، كان ممكن أن يشتري بها عدة بيوت وكل البيوت فيها تدفئة مركزية لكن تدفأ بها لساعة أو أقل وانتهى الأمر .. مثل طبعاً افتراضي لكنه دقيق .. هذا الذي يتعامل مع الدين تعاملاً تجارياً ، يستخدم القيم الدينيةَ لمصالِحه يستخدم به حقائِقَ الدين للدنيا .. إنه اشترى به ثمناً قليلاً .. يقول هكذا جاءني الإلهام ، هكذا رأيت ، هذا هو الكشف ، ليبتز أموال الناس ، يستخدم قيم الدين ليحققَ مكانةً اجتماعية ، يستخدم قيم الدين ليصرِفَ وجوه الناسِ إليه .. شيء خطير .

كلمة أقولها لكم : إذا أردتَ الدنيا فاطلُبها من مظانها واحد يريد المال ، طلبك معقول إبحث عن المال في التجارة في الصناعة في الزراعة في الوظائف تعمق باختصاص ، لكن أن تجعلَ كسب المال من خلال الدين شيء خطير جداً ، أتلعب بدينِ الله عز وجل ، هذا الدين المقدس أتُحورِه كما تُريد ، أتَجره لأهوائِك ؟ هذا إنسان يلعب بالنار .

لذاك : أي إنسانٍ يستخدم قيم الدين للدنيا ، يستخدم قيم الدين لمصالِحه الشخصية ، ليجمع المالَ ، ليعلو على الناس ، .... هذا الإنسان يلعب بالنار .... ابحث عن المال في مظانه الشريفة ، أما أن تلعب بدينِ الله من أجل أن تأخُذَ الأموال بلا جهد .. هذا شيء خطير جداً هذا معنى قوله تعالى ، الإنجيل مثلاً العهد القديم تنطَبِقُ عليه هذه الآية

" **فَويلٌ لِلذين يكْتُبون الْكِتَاب بِأَيديهم ثُم يقُولُون هذَا من عنْد الله لِيشْتَروا به ثَمنًا قَليلا** " .

كُلُكم يعلم في العصور الوسطى كان بعض رِجال الدين .. غير الإسلامي طبعاً .. يبيعون الجنّة بصكوك .. هذا أخذ قصبتين وهذا ثلاث جاء واحد يهودي ذكي جداً واشترى منهم النار بمبلغ لابأس به وبعد أن اشتراها بوقت لابأس به بلّغَ الناس أنني قد اشتريتُ الناس وسوفَ أُغلقها ، فبادت تجارتهم فعادوا واشتروا النار منه ..خُرافات .. أباطيل .. تدجيل .. هذا دين .. دين الله عز وجل لذاك أخطر شيء أن يتغلغلَ في ذهن الإنسان عقائد فاسدة ، عقائد زائغة .

الآية الثالثة :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

(سورة الأنعام)

أوهم الناس أنه يأتيه علم لدنّي ، ويأتيه الوحي ، ويأتيه الإلهام وهـذا الكـلام كلُّـه فـي مصلحته ، والحقيقة : مر معنا في دروس سابقة في هذا المسجد أن المحرمات كثيـرة في الشرك وفي الفسق وفي النفاق وفي الإثم وفي العدوان وفي الفحشاء وفي المنكر ... لكـن أعظم هذه المعاصي

إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

(سورة البقرة)

" **وَأَن تَقُولُوا عَلَى الله مَا لا تَعلَمون** " فنحن نبحثُ عن علمٍ صاف ، عن علمٍ مقيـد بالكتابِ والسنّة ، عن علم نقيٍ من كل شائبة ، عن علمٍ عليه أدلّة وبراهين قطعية .

يقولُ بعضهم : كل من يقولُ إن هذا العلم علم لدنّي لِما لا يعلَم أنه من عنـد ا ولا قام عليه برهان من ا أنه من عنده هو كاذب مفترٍ على ا ، وهذا العلم كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد ا عنده فوفّاه حسابه وا سريع الحساب ..

الملخص إذاً : اتمنى على كل أخ كريم أن يراجع معلوماته ويراجع أفكاره ويراجـع معتقداته ويراجع تصوراته ويراجع مفاهيمه ويراجع مخزونه العقائدي .. عملية جـرد .. وأن يعرِض كل فكرة على الكتابِ والسنّة ، أن لا يقبل إلا بالدليل وأن لا يرفض إلا بالدليل ، وكلُّ علمٍ يفتقر إلى الدليل فليس بعلمٍ وهو خَطر ، والإنسان أحياناً قد يكون ضحيةَ فكرة خاطئة .

إذا أوهمك أحدهم أننا نحن أُمة محمد مرحومة .. الحمد ياربي الحمد إذ جعلتنـا مسلمين ، والنبي لن يدخُلَ الجنّةَ إلا إذا أدخلَ أُمتَه قبله .. ولو كانوا عصاةَ .. وا شيء عال والحمد .. هذه العقيدة الزائغة قد تدفع سعادتك الأبديةَ ثمناً لها .

قُلتُ لكم في درس البارحة : شخص شاهدتُه بعيني .. شخص اعتقد أنـه إذا نـزع أسنانَه كُلَّها يعفى من الخدمة الإلزامية ، مر على أول طبيب فرفض والثاني كذلك .... قالَ لي مررت بعشرة أطباء كُلُّهم رفضوا .. شاب في الثالثة والعشرين من عمـره .. فـي طبيـب بجلستين قلَع له أسنانَه كُلها ، ذهب إلى الفحص فقالوا له أنتَ متهرب من الخدمـة .. وخـدم خمس سنوات وبقي بلا أسنان ، ضحية فكرة خاطئة أليس كذلك ؟ طبعاً هذا مثَل صارخ وقـل ما يحدث ، لكن إنسان يضحي بسعادته الأبدية يضحي بالأبد من أجل فكرة خاطئة سمعها من إنسان ليس متأكد منها .. " إن هذا العلم دين فانظروا عن من تأخذون دينَكم ، دينك دينَك إنه لحمك ودمك " .

أخي هذه تجوز ؟ وا ليس فيها شيء ، ساعة عموم بلوى وساعة لا تُدقق كثير ا غفور رحيم ، وساعة يا أخي ماذا نعمل ؟ فإذا لم يعد هناك شيء في الدين ، يا ترى ا ُ يقبل منّا هذا الكلام ؟ ا ُ جل وعلا هل يقبل منّا هذا يوم القيامة ؟ أين قولُه تعالى :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

(سورة الحجر)

أيام يقول لي واحد : هذه فيها فتوى ، أقول له ماشي الحال لكن ا يجمعـك مـع المفتي يوم القيامة .. الذي أفتى لك هذه الفتوى طبعاً .. مثلاً : مع دوائر الدولة شـيئ منَعتـه الدولة فقالَ لك واحد لا تسأل ضع من رقبتي وإعملها ، ففعلها فأحضروه ، فُلان قالَ لي ، أين هو أحضره لي من قالَ لك هذا ؟ أنتَ لا ترضى به مع إنسان أترضى به مع الواحد الديان ؟ مستحيل ..

هذا هو العلم الصافي ، علم مدعم بالكتابِ والسنّة ، لا تقبل شيأ دون آية قُرآنيـة أو دون حديث صحيح ، وإياك أن ترفُض شيئاً دون آية قُرآينة أو دون حديث صحيح .

الآن : الهمة ، دائماً عندنا قناعات وعنّدنا أهداف ، ماالذي يرفعنـا إلـى مسـتوى أهدافنا ؟ لك أن تُسمي هذه الهمة أو العزيمة أو الإرادة .

.. صفة نفسية تُعينُك على أن تصلَ إلى هدفك ، يعني يقول لك واحـد نحـن وا نعرف كُل شيء لكن لسنا مطبقين شيئاً ، معناها يفتقر إلى ماذا ؟ إلى الإرادة القوية فهذه الهمةُ العلية أو الهمةُ الصافية ، قال : أعلى هذه الهمم هي همةٌ اتصلت بالحق سبحانه طَلَباً وقصـداً وأوصلت الخلقَ إليه دعوةً ونُصحاً وهذه الهمةُ همةُ الرسل وأتباعهم .

يعني .. أعلى همة أن تَصلَ إلى الله طلباً وقصداً وأن توصلَ الخلقَ إليه دعوةً ونُصحاً ، وصلتَ إلى الله وسعيتَ إلى إيصال الخلق إليه ، قال : هذه همةُ الأنبياء والمرسلين وأتباعهم الصادقين .

نقول نحن أيام : اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى أصحابه الطيبين الطاهرين الهداة المهديين أُمناء دعوته وقادة ألويته وعلى العلماء العاملين ومن اتبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين ، معناها لابد أن تكون عالِماً عاملاً ولياً .

قال : إذا أردتَ أن تعرفَ مراتبِ هذه الهمم فانظر إلى همةَ ربيعةَ بن كعبِ الأسلمي رضي الله عنه ، هو خَدم النبي أياماً عدة ، بعد أيامٍ عدة قال له النبي عليه الصلاة والسلام ياربيعة سلّني حاجتَك فقالَ أمهلني يا رسولَ الله فلما أمهلَه ثم سأله عن حاجته قالَ : سلّني أسألُك مرافقتَك في الجنة ، قالَ من علّمك هذا ؟ قالَ والله ما علمنيه أحد ، هناك أشخاص سألوا النبي مالاً أو سألوا النبي زوجةً ، في إنسان تنتهي آمالُه بالزواج ، تنتهي آماله بعمل ، تنتهي آمالُه بدخل ، لكن في إنسان آمالُه لا تنتهي إلاّ بالجنّة ، لا تنتهي إلاّ بمرافقة النبي صلى الله عليه وسلم، فقالَ أسألُك مرافقتَك في الجنة وكان غيره يسأله ما يملأُ بطنَه ويواري جلده ، سيدنا ابراهيم .. ما هذه الهمة ..

﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾

(سورة البقرة)

أتمهن .....

وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣

(سورة الأنبياء)

الهمة العلية ترفعك عند الله عزو جل ، يعني موضوع ذبح ابنه .. شيء فوقَ طاقة البشر :

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ
مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ



(سورة الصافات)

الأمر أنه قُم وصل وغُض بصرك وأنفق من مالِك .. كُل الأوامر معقولة لكن هـذا النبي العظيم الذي هو عند الله خليل يقال عنه خليلُ الرحمن ، ما صار بهذه المرتبة إلا لأنـه نفّذَ أمر الله عز وجل الذي لا يعقل أن يكون أمراً ومع ذلك نفذّه لكن الله سبحانه وتعالى فـداه بِذبحٍ عظيم .

النبي عليه الصلاة والسلام حينما عرِضت عليه مفاتيح كنوزِ الأرض فأباهـا ، يـا محمـد أتُحب أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً ؟ قالَ بل نبياً عبداً أجوع يوماً فأذكُره وأشبع يوماً فأشكُره .

نحن نُريد علماً صافياً ، نقياً من كُل شائبة ، ونُريد همة علية ، إخلاص لله عز وجل ، صدق في طلب الحق ، عدم التبعثر والتشتت ، ونُريد في الأخير حالاً صافياً ، فالحال ثمرة العلم الصحيح والعمل الصحيح ، الثمرة الطبيعية للعلم الصافي الهمة الصافية الحال الصافي .

الملخّص : أنه إذا استطعت أن تَصلَ إلى علمٍ صاف من كُل شائبة ، من كُل خُرافة ، من كُل زيغ ، من كُل خطأ ، من كُل ظن ، إذا قيدتَ كُل معلوماتـك وأفكـارك وعقيـدتَك وتصوراتك بالكتاب والسنّة الصحيحة ، هذا العلم الصحيح الصافي يبعثُ فيـك همـةً عاليـة والهمةُ العالية تقودك إلى استقامة وعملٍ صالح .. يأتي التاج وهو حالٌ صاف ، هـذا الحـال الطيب الذي يشُع على الآخرين هذا الحال نتيجة : عمل صالح واستقامة وهمة عاليـة وعلـم صاف .

فالصفاء إلى أن تكون من هؤلاء الذين اصطفاهم الله عز وجل " **وإنهم عنْدنَا لمـن الْمصطَفَين الأَخْيار** "

والحمد لله رب العالمين

****

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون : ..... مع الدرسِ الأربعين من دروسِ مدارجِ السالِكين فـي مراتبِ إياك نعبد وإياكَ نستعين ومنزِلةُ اليوم هي منزِلةُ الفقر .

وكُلُ المعاني التي تتوارد إلى ذهنِ الإنسان حينما يستَمع إلى كلمـة الفقـر ليسـت مقصودةً في هذا الدرس ، كُلُ المعاني التي تتوارد إلى ذهنِ الإنسان حينما يقرأُ كلمة فقـر أو حينما يسمع كلمة فقر أو حينما ينطقُ بكلمة فقر ليست مقصودةً في هذا الدرس ، مرتبةٌ عاليةٌ جداً من مراتب الإيمان تُقابِلُ مرتبةَ العبودية ، حقيقتُك أنك عبد أي مفتقر إليـه ، فـالفقر الذي نعنيه في هذا الدرس من نوعٍ آخر ، قد تكون من أغنى الأغنياء وأنتَ في منزِلة الفقر ، وقد تكون من أفقر الفُقراء وأنتَ في منزِلة الكبر .

على كُلٍ : الآيات الكريمة التي وردت في القرآن الكريم وفيها كلمة الفقر آياتٌ عدة من هذه الآيات قوله تعالى :

لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

(سورة البقرة)

نفر من أصحابِ رسول ا ، نفر من المهاجرين ، تركوا أوطانَهم ، تركوا أهليهم ، تركوا أموالهم وجاؤوا مع النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة ، كانوا فقراء بحكـم هجرتهم ، وكانوا فقراء بحكمِ أنهم لو ضربوا في الأرض لربحوا واكتسـبوا المـال ولكـنهم مهدورةٌ دماؤهم لا يستطيعون ضرباً في الأرض ، هؤلاء الفقراء من خواص المؤمنين ، أيضاً لا يعنينا هذا المعنى الذي جاءت به هذه الآية في هذا الدرس ، وقد وردت كلمة الفقر أيضاً في آية ثانية وهي قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠ ﴾

(سورة التوبة)

أيضاً هؤلاء الذين يستحقّون الزكاةَ ممن لا يجدون حاجاتهم ، مرةً ثانية : حتى الآية هذه ليست معنيةً في هذا الدرس ، درسنا كُلُه حولَ قولِه تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥ ﴾

(سورة فاطر)

أنتم مفتقرون إليه في وجودكم ، مفتقرون إليه في إمداداتكم ، مفتقـرون إليـه فـي حاجاتكُم، في قيامكُم ، في سمعكم ، في بصرِكُم ، في عقولِكم ، في أجهزتكم ، في أعضائِكم ، في تأمينِ حاجاتكم ...... فالمعنى الذي نُريده اليوم هو معنى يقابِلُ معنى العبوديةُ التـي هـي جوهر الإنسان .

مراد القومِ من الفقرِ ، معنى القوم يعني أهلُ ا ، العارفون با ، السـالِكون فـي طريق الإيمان ، مراد القومِ بالفقرِ شيء أخص من هذا كُله وهو تحقيقُ العبودية والافتقار إلى ا تعالى في كُل حالة ، أن تكون عبداً ِ حقّاً ، أن تتحققَ من عبوديتك ، أن تعرِفَ هويتَك ، أن تعرِفَ نفسك ، وعبوديتُك تعني الافتقار إلى ا تعالى ، قال هذا المعنى معنى العبودية أن تعرِفَ حقيقةَ ذاتك ، أن تعرِفَ هويتَك ، أن تعرِفَ من أنت ، أن تعرِفَ أنك عبـد ضـعيف ، أنتَ قوي با وضعيفٌ في نفسك ، غني في ا وضعيفٌ في نفسك ، عالِم با وجاهلٌ فـي نفسك ، حكيم با وأخرقُ في نفسك ، إذا تحقّقتَ من حقيقة ذاتك قال هذه المرتبةُ هي مرتبـة العبودية .

بعض العلماء قال : " هذا المعنى معنى العبودية والافتقار إلى ا أجل من أن يسمى فقراً ، لأنه كلمة فقر إذا ذُكرت تنصرِفُ إلى أن إنساناً لايجد كُل حاجاته يمد يده للناس يتكففهم ، يحس بالحرمان "، هذه المرتبةُ أجل من أن تُسمى فقراً إنها في الحقيقة : حقيقـةُ العبوديـة ولُبها وعزلُ النفسِ عن مزاحمة الربوبية .

الإنسان أحياناً لجهله وحمقه يتقمص صفات الربوبية ، يقول لك أنا أفعل أنا أُعطـي أنا أمنع أنا أُعاقب ... حينما يقول أنا فكأنه تقمص صفات الربوبية ، فحقيقةُ الافتقارِ إلـى ا هي أن تعزِلَ نفسك عن صفات الربوبية وأن تعرِفَ أنك عبد ِ عز وجل .

سئِلَ بعضهم : متى يستحق الفقير اسم الفقير ؟ قالَ إذا لم يبق عليه بقيةٌ منه فقيل له وكيفَ ذلك ؟ قال إذا كان له فليس له وإذا لم يكن له فهو له ، ما دام يشعر أنه على جانبٍ من العلم فليس مفتقراً إلى ا عز وجل ، ما دام يشعر أنه على جانبٍ من القوة فليس مفتقراً إلـى ا عز وجل ، يذكّرنا هذا المعنى بقول النبي الكريم يوسف عليه السلام :

قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾

(سورة يوسف)

هو في أعلى درجات العفّة ، في أعلى درجات العزيمة والإرادة ، ومع ذلك ما رأى عفّته ذاتيةً ، رأى عفّته من ا عز وجل .

.. المفتقر إلى ا عز وجل لا يرى له لا علماً ولا حالاً ولا عملاً ولا عزيمةً ولا شأناً ، يرى أنه أحد أفضال ا ِ عز وجل ، هو من فضل ا ، وجوده من فضل ا ، ذكاؤه مـن فضل ا ، إذا أغناه ا ُ فهذا من فضل ا ، هناك من هو أذكى منه يمد يده للناس ، إذا أتـاه ا ُ من حكمة فهذا من فضل ا ، إذا أعطاه ا ُ طلاقة ِلسانٍ فهذا من فضل ا هـذا معنـى الافتقار إلى ا عز وجل .

قال : هذه المنزِلة لا تتناقض مع أن تكون غنياً ، ولا أن تكون مالِكـاً ، لأن هـذا الغنى لا يعني ذلك المعنى ، قد تكون في أعلى درجات الغنى وأنتَ في أعلى درجات الفقـرِ إلى ا ِ عز وجل ، وكُلما ازددتَ افتقاراً إلى ا عز وجل زادك ا ُ ، وكُلما ازددتَ تذللاً إلى ا ِ عز وجل زادك ا ُ عزاً ، وكُلما ازددتَ خوفاً من ا عز وجـل زادك ا ُ أمنـاً وكُلمـا ازددتَ حرصاً على طاعة ا عز وجل زادك ا ُ رِفعةً ، فكُلما خضعت إرتفعت ، كُلما علوت وتكبرت خُفضت ، .. هذا المعنى الذي يقصد من كلمة الفقر ..

أما هناك أنبياء من أُولي العزم كانوا أغنياء ، سيدنا ابراهيم كان في وصف كُتّـاب السير وكُتّابِ التاريخ أبا الضيفان ، كان من أكرمِ الكُرماء ، وآياتٌ كثيرة وردت في إكرامـه للضيف :

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾

(سورة هود)

كان يطعم الناس دائماً ؟ فهو غني ، وسيدنا سليمان الذي قال :

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾

(سورة ص)

كان غنياً وكان في الوقت نفسه مفتقراً إلى ا ِ عز وجل ، ونبينـا عليـه الصـلاة والسلام ألم يقُل ا في حقه :

وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾

(سورة الضحى)

لمن هذا الوادي ؟ قالَ هو لك ، رجل دنيوي مشرك رأى وادياً من الغنم سألَ النبـي عليه الصلاة والسلام لمن هذا الوادي ؟ قالَ هو لك ، قال أتهزأُ بي ؟ قالَ : لا هو لك ، قـالَ أشهد أنك رسولُ ا تعطي عطاء من لا يخشى الفقر .

النبي كان في طور من أطوار حياته غنياً ، وسيدنا سليمان كان غنيـاً ، وسـيدنا ابراهيم كان غنياً ، فهذا لا يتناقض مع مرتبة الفقر إلى ا عز وجل ، والبطولـة ألا يسـير الإنسان من قبل حالة هو فيها ، .من السهل جداً أن تنزلِقَ إذا كُنتَ غنياً إلى الكبر لكن البطولة أن تكون غنياً ومفتقراً في وقت واحد وهذا لايستطيعه إلا مؤمن ، أن تجمـع بـين الغنـى والافتقار إلى ا ِ عز وجل .

أعجبتني كلمةٌ في حق هؤلاء الأنبياء العظام قال : كانوا أغنياء في فقرهم وفقـراء في غناهم ، أغنياء في فقرهم وفقراء في غناهم .

قال: الفقر الحقيقي دوام الافتقار إلى ا ِ في كُل حال ، يبـدو الإنسـان فـي حالـة المرض يفتقر أما إذا شعر بصحته جيدة قد يستغني .. أقول الإنسان لا أقول المؤمن ..

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ ﴾

(سورة العلق)

من صفات الإنسان قبلَ أن يؤمن ، من صفات الإنسان قبلَ أن يصقله الإيمان ، من صفات الإنسان المعرض أنه إذا رأى نفسه قوياً ، غنياً ، شديداً ، صحيحاً ، استغنى عن الله عز وجل " **كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى** " هذا شأن أهل الإعراض ، هذا شأن الجهلاء ، لكن العلماء ، والعارفين بالله ، و كبار المؤمنين ، والصادقين من المؤمنين ، يزدادون افتقاراً إلى الله وهم في أعلى درجات الغنى .

قال : الفقر الحقيقي دوام الافتقار إلى الله في كُل حال وأن يشهد العبد في كُل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقةً تامةً إلى الله تعالى من كُل وجه .

.. كيفَ تغدو حياتُنا لو انحبس البول ، كيفَ تغدو حياتُنا لو وصلَ إلى علمنا أن كُليةً تعطلّت أو أن الكُليتين معاً توقفتا عن العمل ، كيفَ تغدو حياتُنا لو وصلَ إلى علمنا أن بعض الأجهزة توقفَ عن العمل ، تقول أنا على أي شيء ، مالشيء الذي بيديك ما الذي يضمن للإنسان ألاّ تنمو خلاياه نمواً عشوائياً في أعلى درجات الصحة والقوة والذكاء والمناعة والحكمة والفهم فجأةً ورم خبيث ، ماذا تملك أيها الإنسان ؟ لا تملك شيئاً ، أنتَ مفتقر إلى الله في نمو الخلايا النمو المنتظم ، مفتقر إلى الله عز وجل في الكُلتين ، في الكبد ، في الغدة النُخامية ، في الكظر ، في البنكرياس ، في الطُحال ، الطُحال عملَ عملاً زائداً عن وضعه الطبيعي فقتلَ صاحبه .. فقر دم مستمر .. الطُحال يأخذُ كريةَ الدم الحمراء الميتة فيحللُها إلى عناصرها الأساسية فصار هذا الطُحال نشيطاً جداً يأخذُ الكرية الحمراء الميتة والجيدة فإذا هو فقر دمٍ مستمر إلى أن ماتَ صاحبه ، المرض فرطُ نشاط في الطُحال ، فيا ترى أنا يجب أن أخشى الطُحال أم أخشى الكُليتين أم أخشى الكبد أم البنكرياس أم الصفراء أم النُخامية أم الكظر أم الأمعاء أم الشرايين أم الدسامات أم الأوردة أم الأعصاب .... تقول أنا على أي شيء ؟

بالمناسبة أيها الأخوة : ما هو العلم ؟ أن تقولَ شيئاً مطابقاً للواقع فإذا قُلتَ أنا وأنتَ لا تملك شيئاً فهذا كلام فيه جهل كبير ، إذا قُلتَ الله كلام صحيح ، لذلك المؤمن ليس من قبيل التأدب مع الله ، من قبيل الواقعية يقول هذا من فضل الله علي ، أكرمني الله بهذا ، تفضلَ الله علي بهذا ، أجرى الله على يدي هذا الخير ، الحمد لله أولاً وأخيراً ، دائماً حال المؤمن أنه يعزو كُل فضيلة فيه إلى الله عز وجل .. هذا الافتقار .

هو الفقر واقع لكن من هو المفتقر إلى الله ؟ أنتَ فقير فعلاً ، المؤمن فقير والكافر فقير والمشرك فقير والفاجر فقير والعاصي فقير ، الفقر صفةٌ ثابتة في الإنسان أي إنسان لكن من هو المفتقر ؟ .

قال هو الذي يشهد افتقاره إلى ا ، أنتَ مفتقر قولاً واحداً ولكن المفتقر إلى ا ِ عز وجل كمقامٍ من مقامات أهل الإيمان هو أن تشهد أنك مفتقر أن تشهد أنك مفتقر إلى ا ِ عـز وجل.

قالَ بعض العارفين :

والفقر لي وصفُ ذات لازِم أبداً كما الغنى أبداً وصفُ له ذاتي ا عز وجل دائماً غني وأنا دائماً فقير ، دائماً قوي ودائماً ضعيف ، دائماً يعلم وأنا لا أعلم ، لكنك إذا افتقرتَ إلى ا فأنتَ الذي تعلم وأنتَ الغني وأنتَ القوي .

قالَ : هذه المرتبة مرتبةُ الافتقار إلى ا عز وجل ليست شيئاً سهلاً تقولُه بكلمة مثلاً من باب الأمثلة : تقول لِفُلان تفضل دكتور ، كلمة دكتور تعني أنه إنسـان يحمـل دكتـوراه ومعنى دكتوراه يعني أنه ألّفَ بحثاً في موضوع معين لكن في البحث إبداع وجِدة ، معنى ذلك أن الإنسان أمضى سبع سنوات في هذه الشهادة وقبلُها في ماجستير وقبلها في دبلـوم عامـة ودبلوم خاصة وقبلها في ليسانس وقبلُها في شهادة ثانوية ، فكلمة دكتور لا تعني كلمة عادية .

وا فلان واضع خاتم بيده الخاتم سهل شراء الخاتم سهل ، أما أن تكـون دكتـور ليس هذا من السهل ، قياساً على هذا المثل أن تقول فُلان في مرتبة الافتقار ، مرتبة ايمانيـة عالية جداً، أقول لكم من أعلى مراتبِ الإيمان بل إنها تُقابِلُ مرتَبةَ العبودية ، فأن تقول فُـلان مفتقر .. هذه المرتبة الإيمانية العالية تحتاج إلى مقومات ، قالَ بعض العلماء أركانُها أربعة : علم يسوسه ، وورع يحجزه ، ويقين يحمله ، وذكر يؤنسه .

المفتقر عنده : علم يسوسه ، وعنده ورع يحجزه ، وعنده يقين يحمله ، وعنده ذكر يؤنسه .. هذا الافتقار .. لا افتقار بلا علم ، يجب أن تعلم حقيقةَ نفسك ، يجب أن تعلم قُـدرةَ ا ِ عز وجل ، يجب أن تعلم أن الأمر كُلَه بيد ا ، يجب أن تعلم أنه ما من حركة ولا سكنة إلا بيد ا عز وجل ، ما من إنسان إلا وفي قبضة ا ِ عز وجل ، علم يسوسه وورع يحجزه ، لا ورع إذن حجاب عن ا عز وجل ، فالعلم يحتاج إلى ورع ويقين لا شيء وأنتَ قـوي ، لا شيء وأنتَ غني ، يقين يحملُ على هذه المرتبة ، وذكر با ِ يؤنسه على أن يكون متكبراً ، حينما يفتقر يأتي الأُنس با عز وجل .

مرةً ثانية : كُلُ المعاني التي تتوارد إلى ذهنِ الإنسان حينما يقرأُ كلمة فقر أو ينطق بكلمة فقر أو يسمع بكلمة فقر .. لا تعنينا في هذا الدرسِ إطلاقاً .

هذا الدرس ليس له علاقة بحالة الفقر الاجتماعية ، هذا الدرس له علاقـة بمراتـب الإيمان العالية ، من أرقى هذه المراتب الافتقار إلى ا استباطاً من قولِـه تعـالى " **يَاأيهـا الناس أَنتُم الْفُقَراء إِلى الله والله هو الْغَني الْحميد** " .

سُئِلَ أحد العلماء قال " متى يستريح الفقير ؟ قالَ إذا لم يرَ لِنفسه غير الوقت الـذي هو فيه "، .. يعني .. يعيشُ الوقتَ الذي هو فيه لأن الماضي مضى والمستقبل غيـب ، مـا مضى فات والمأملُ غيب ولك الساعةُ التي أنتَ فيها .

أقول لكم هذا الكلام : أنتَ لا تملك إلاّ هذه الساعة لأن الذي بعد هـذه السـاعة لا تملكه ، من يضمن أن نَصلَ إلى بيوتنا ، من يضمن لنا إذا نمنا أن نستيقظ ، وإذا خرجنـا أن نعود ، وإذا عدنا أن نخرج ، وإذا سافرنا أن نرجع .. من يضمن ؟ .

فالمأملُ غيب وما مضى فات ماالذي تملكُه ؟ الساعةُ التي أنتَ فيهـا لـذلِك هلَـك المسوفون، تقول إلى أن أنتهي من تأسيس هذا المشروع سوفَ أُصلّي وسوفَ .. هلكت لأنـك لا تملك المستقبل ، إلى أن ينتهي فحص الشهادة الثانوية أُصلّي .. مثلاً .. ، إلـى أن أتـزوج أُصلّي ، هلَك المسوفون .

لِبعضِ العلماء قولٌ لطيف قال : " أحسن ما يتوسلُ به العبد إلى ا ِ عز وجـل دوام الافتقارِ إليه على جميعِ الأحوال وملازمةُ السنّةُ في جميعِ الأفعال وطلب القوت من وجه حلال ".

الحال افتقار ، والسلوك تطبيق للسنّة ، وكسب الرزق من وجه حلال ، هذا الذكاء ، هذه البطولة ، رزق حلال ، الحال فيه افتقار ، الحركة وفق المنهج .

... الحركة الظاهرة حركة الجوارح وفق المنهج السمع والبصر والفـؤاد واللسـان واليد والرِجل كُلُها وفقَ الشرع .. الحال مع ا افتقاراً ، والسلوك مـع الشـرع إنضـباطاً ، وكسب الرزق من وجه حلال ، أطب مطعمك تكُن مستجاب الدعوة .

الفقر له بداية ، قال وله نهاية ، وله ظاهر وله باطن ، بدايته التذللُ إلـى ا ِ عـز وجل ونهايتُه العز با ، وا ِ عند المؤمنِ عز ومنعةٌ وإباء واعتزاز با ِ عز وجل .. وا ِ لو وزع على أهل بلد لكفاهم .. هذا المتكبر يتكبر على من هو دونَه ، أما لو رأيتَه أمام من هـو فوقَه لرأيتَه أذل من شاة ، من صفات اللؤماء أنهم إذا تعاملوا مع من هم دونَهم كانوا قُسـاةً ، جفاةً ، متعجرفين ، متغطرسين ، مستعلين ، لا يرحمون ، أما لو تراهم أمام من هـم فـوقَهم لرأيتَهم أذل من الشاة ، أذل من يتيمٍ على مائِدة اللئيم ، أما المؤمن لأنه افتقر إلى ا عز وجل .. البداية تذلل أما النهاية عز ،

اجعل لِربِك كُل عزك يستقيم ويثبتُ

فإذا اعتززتَ بمن يموتُ فإن عزك ميتُ

بدايته تذلل أما نهايته عز ، سبحان ا هـذه مـن المفارقـات .. .. كلمـا ازددتَ خضوعاً رفعك ا ، أنا لا أعتقد أن في الكون كُله إنساناً أشد إفتقاراً وخضوعاً وتذلُلاً إلى ا ِ من رسول ا ، كما أني لا أعتقد أن في الأرض كُلها .. في تاريخ البشرية كُلهـا إنسـاناً أعزه ا ُ ورفَعه كرسول ا .. انظر لهذه العلاقة التي فيها مفارقـة .. كُلمـا ازددتَ تـذلُلاً وخضوعاً وانصياعاً وخوفاً وحباً وعبوديةً زادك ا ُ عزاً ورِفعةً وإباء ومكانـةً وجاهـاً ، ألا يكفي النبي عليه الصلاة والسلام أن ا َ عز وجل أقسم في كتابه الكريم بعمره .. قال :

لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِى سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾

(سورة الحجر)

ألا يكفي النبي عليه الصلاة والسلام أنه قالَ في كتابه العزيـز عـن النبـي عليـه الصـلاة والسلام :

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

(سورة القلم)

ألا يكفي النبي عليه الصلاة والسلام أن ا َ عز وجل ما خاطَبه باسمه إطلاقاً :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾

(سورة الأنفال)

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ‌ۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُ ۚۥ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ‌ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

(سورة المائدة)

قالَ ياعيسى ابن مريم ، وقالَ ياموسى .. خاطَب الأنبياء بأسمائِهم لكنه لم يخاطـب النبي صلى ا ُ عليه وسلم أبداً باسمه .

ما علاقتُنا بهذه المعاني ؟ علاقتُنا : أنك كُلما ازددتَ ِ خضـوعاً وافتقـاراً وحبـاً وعبوديةً رفَعك ا ، رفَع شأنَك ، كساك ثوب هيبة ، هابك الناس ، من هاب ا َ هابـه كُـلُ شيء ومن لم يهب ا َ أهابه ا ُ من كُل شيء ، أيام تُقابل شخصاً قد يكون عنده آذن يخـاف

منه تستغرب أنت وتقول هو في مرتبة عالية جداً وخائف من مستخدم ، من اتقى ا َ هابه كُلُ شيء ومن لم يهب ا َ أهابه ا ُ من كُل شيء .

نحن علاقتُنا بهذا المعنى أنك إذا أردتَ العز ، إذا أردتَ الرفعـة إذا أردتَ علـو الشأن ، إذا أردتَ أن يكسيك ا ُ ثوب مهابة اخضع ، هؤلاء المتعجرفون ، المتكبـرون ، المستعلون ، علاجهم عند ا ِ عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ا عز وجل لحكمـة بالغـة .. هؤلاء المتكبرون الذين استنكفوا عن عبادة ا وأبوا أن يخضعوا ِ عز وجل يذيقُهم ا في الدنيا ألوان الذُل وقد يذيقُهم هذا الذُل من أقربِ الناسِ إليه .. من زوجاته ، من أولاده .. يقول لك ابني ضربني البارحة .. من أقربِ الناسِ إليه ، ممن هم دونه .

فيا أيها الأخوة الأكارم إذا أردتَ عز الدنيا ورفعتَها وشـأنَها ، إذا أردتَ أن تكـون منيعاً مهاباً إخضع ، أطعه ، تذلل بين يديه ، مرغ جبينك في أعتابه ، قُل له يارب أنـا لا شيء وأنت كُلُ شيء ، ياربي إني توسلت إليك ، إني تبرأتُ من حولي وقوتي والتجأتُ إلـى حولِك وقوتك وعلمك يا ذا القوة المتين .. حال الافتقار حال مستمر ..

.. الطبيب إذا قال قبلَ أن يعالج يارب ألهمني دقّةَ التشـخيص وصـحةَ الـدواء ، المحامي ، المدرس ، التاجر يارب ألهمني صفقةً رابحة ، كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا دخلَ السوق يقول : اللهم إني أعوذُ بِك من يمينٍ فاجرة أو صفقة خاسرة .

له بداية .. التذلل ، له نهاية .. العز ، له ظاهر ظاهره أنك مفتقر وباطنه أنك غني .. أنتَ أغنى الأغنياء .. من أراد أن يكون أقوى الناس فليتوكّل على ا ، ومن أراد أن يكون أغنى الناس فليكُن بما في يدي ا أوثَقُ منه بما في يديه ، ومن أراد أن يكون أكـرم النـاس فليتق ا .

قال إذا عرفتَ معنى الفقر علمتَ أنه عين الغنى ، الفقر إلى ا يساوي غنى حقيقي .

سؤال : أي المعنَيينِ أفضل أن تقول الافتقار إلى ا ِ أكمل أم الاستغناء به أكمـل ؟ أي الحالينِ أكمل أن تفتقر إلى ا أم أن تستغني به ، قال : السؤال غلط لأن الافتقار إلى ا عين الاستغناء به ، والاستغناء به عين الافتقارِ إليه ، وجهانِ بشيء واحد ، أنتَ كُلما افتقرتَ إلى ا استغنيتَ به وكُلما استغنيتَ به افتقرتَ إليه ، فإذا شيء له اسمين فرضاً : أيهما أعظم إنكلترا أم بريطانيا !!! واحد ... مثلاً ...اسمان لشيء واحد ، فأن تستغني با هو أن تفتقـر إليه وأن تفتقر إليه أن تستغني به ، فقير إلى ا أنتَ غني معناها ، غني با معناها فقير إلى ا .

إذاً : لا معنى للسؤال : أيهما أفضل أن أكون مستغنياً با أم مفتقراً إليه ؟ هذا سؤال في الأصل غلط .

سؤال آخر طرحه غلط : أيهما أفضل الغني الشاكر أم الفقير الصابر ؟ السؤال أصلُه غير صحيح الأفضل أن يكون الإنسان طائعاً ولا عبرةَ لِغناه أو لِفقره ، إذا كان فقيراً وطائعـاً فهو غني عند ا ، وإذا كان غنياً وطائعاً فهو غني أيضاً .. .. العبرةُ أن تكون طائِعاً ـ عز وجل لأن ا عز وجل قال :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾

(سورة الحجرات)

لم يقُل أغناكُم ولم يقُل أفقركم ، لم يقُل أغناكُم شاكراً ولا أفقركُم صـابِراً قـال " **إن أكْرمكُم عنْد الله أتْقَاكُم** " انتهى الأمر .. ما دمتَ في طاعة ا فأنتَ الغني با وأنتَ الفقيـر إليه ، مادمتَ في طاعة ا فأنتَ شاكر وأنتَ صابر في وقت واحد ، قال " **كـلا إن الإنسـان ليطْغَى أن رآه استَغْنَى** " شرحتُها قبلَ قليل ، أما الآية التي لها علاقة بالدرس :

فَأَمَّا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾

(سورة الفجر)

لا هذا ولا ذاك ، ليس عطائي إكراماً ولا منعي إهانةً ، لا علاقةَ لعطائي بـالإكرام ولا بمنعي بالإهانة لكن العلاقةَ إذا كُنتَ طائعاً عز وجل فأنتَ المكرم وإذا كُنـتَ عاصـياً فأنتَ المهان ، أنا أُلح على هذا المعنى لأن الإنسان لا يشعر بالطُمأنينة إلا إذا كان في طاعـة ا غنياً كان أو فقيراً لقوله تعالى :

يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَـٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾

(سورة الأحزاب)

قال : المعنى كما قيلَ في تفسيرِ هذه الآية : ليس كُلُّ من وسعتُ عليه وأعطيتُه أكون قد أكرمتُه ولا كُل من ضيقّتُ عليه وقتّرت أكون قد أهنتُه ، فالإكرام أن يكرم الله العبد بطاعته والإيمان به ومحبته ومعرفته والإهانةُ أن يسلبه ذلك .

في قول : ما استرذلَ الله عبداً .. استرذله رآه شهوانياً ، رآه دنيوياً ، رآه متعلقاً بضلالات وأوهام .. ما استرذلَ الله عبداً إلا حضر عليه العلم والأدب ، يعني أكبر حرمان أن يحرمك الله العلم والأدب ، أن يحرمك معرفتَه ، أن يحرمك طاعتَه ، أن يحرمك القُرب منه ، هذا أكبر عقاب .. خُذ المال ما شئت .. المال بحسب ما تُريد ، وجاه ، لكن الإكرام الحقيقي أن يمنَحك الله طاعتَه ومحبتَه والشوقَ إليه ومعرفتَه وخدمةَ عباده ، أن يؤهلَك لجنّته .. هذا هو العطاء .

سيدنا علي يقول : الغنى والفقر بعد العرض على الله ، في قول مشابه لبعض العلماء قال : " لا يوزن غداً الفقر ولا الغنى ولكن يوزن الصبر والشُكر ، يرتفع الصابر والشاكر غنياً كان أو فقيراً ".

في موضوع دقيق متعلّق بالفقر إلى الله عز وجل رجل وصفَه بعض الأدباء قال : لي صديقٌ كان من أعظم الناس في عيني وكان رأس ما عظّمه في عيني صغَر الدنيا في عينيه فكان خارجاً عن سلطان بطنه .. .. لا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد

المفتقر إلى الله عز وجل .. إذا الشيء توافَر بين يديه حمداً .. لا يشتهي ما لا يجد وإذا وجد لا يكثر ، هذا المقام يليق بالمفتقر إلى الله عز وجل ، ليس حريصاً على شيء ليس في يديه وليس منهمكاً في شيء بين يديه ، لا الشيء الذي بين يديه يشغلُه عن الله عز وجل ولا إذا افتقد هذا الشيء يشغلُه عن الله .. يعني وجود الشيء وعدم وجوده سيان عنده .. هذه من لوازم الافتقار إلى الله عز وجل .

في معنى دقيق جداً المفتقر إلى الله قبض اليد عن الدنيا ضبطاً أو طلَباً وإسكاتُ اللسان عنها مدحاً والسلامةُ منها طلَباً أو تركّاً ، السلامة منها طلَباً معروفة .

.. الإنسان لا ينهمك ، لا يكب ، لا يقاتل من أجلها ، لا يضيع دينُه من أجلها ، لكن كيفَ يسلَم منها تركاً .. طلباً معروفة أما لو تَركها .. هذا المعنى الدقيق الأن .. لو فرضنا إنسان حرم نفسه أشياء أساسية في الحياة مباحة ، ينشَغل بهذا الشيء .. ينشَغل وينشَغل .. هو يشتهي هذه الأكلة .. لو أكلها وشَكر الله عز وجل والتفتَ إلى الأعمال الصالِحة أفضل من أن يمضي كُل حياته في مجاهدة مع الحرمان .. يعني .. تَرك الدنيا كُلياً .. له نتائج ليست مرضية ، واحد حرم نفسه الزواج وحرم نفسه الطعام ..... حباً بالله .. هذا الموقف يجعل حالة حرمان دائمة وحالة توتّر دائمة ، فأنتَ في معركة حامية مع نفسك ، هذه المعركة الحامية مع النفس قد لا تنتهي بسلام أعط نفسك ما أباحه الله لك عندئذ تسكُن النفس ، أطعمها

الطعام الذي تُحبه وأعطها ما سمح ا ُ لها به ثم التفت إلى ا عز وجل معرفةً وتفكيراً ودعوةً وخدمةً للخلق ، يعني أحياناً الشيطان يأتي عن أيمانهم وعن شمائلهم ، قد يأتي الشيطان عـن أيمانهم .. دعك من الزواج إنه مشغلةَ .. ليس في الإسلام رهبانية :

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

(سورة الحديد)

فإذا عزفَ الإنسان عن شيء مباح والإسلام أباحه له ينشأ عنده حالة توتر مستمرة ، فهؤلاء الذين حرموا أنفسهم ما سمح ا ُ لهم به قد يقعون في أكبرِ المعاصي ، قد يقعون فـي أكبرِ الانحرافات ، فحينما تَدع الدنيا يجب أن تدع الحرام منها أما الحلال لسـتَ أورع مـن رسول ا ولا من أصحابه ، قالَ عليه الصلاة والسلام :

أَخْبرنَا محمد بن جعفَرٍ أَخْبرنَا حميد بن أَبِي حميد الطويلُ أَنه سمع أَنَس بن مالِك رضي الله عنْه يقُولُ جاء ثَلاثَةُ رهط إِلى بيوت أَزواجِ النبِي صلى الله عليه وسلم يسأَلُون عن عبـادة النبِي صلى الله عليه وسلم فَلما أُخْبِروا كَأَنهم تَقَالوها فَقَالُوا وأَين نَحن من النبِي صلى الله عليه وسلم قَد غُفر له ما تَقَدم من ذَنْبِه وما تَأَخر قَالَ أَحدهم أَما أَنَا فَإِني أُصلي الليـلَ أَبـدا وقَالَ آخَر أَنَا أَصوم الدهر ولا أُفْطر وقَالَ آخَر أَنَا أَعتَزِلُ النساء فَلا أَتَزوج أَبدا فَجاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إِليهم فَقَالَ أَنْتُم الذين قُلتُم كَذَا وكَذَا أَما والله إِني لأَخْشَـاكُم لِلـه وأَتْقَاكُم له لَكني أَصوم وأُفْطر وأُصلي وأَرقُد وأَتَزوج النساء فَمن رغب عن سنتي فَلَيس مني *

(صحيح البخاري)

في كلمة لطيفة قال : إن الإنسان إذا ترك الدنيا هو بشر وليس ملاكاً تعلّقَ قلبه بمـا يقيمه ويقيتُه ويعيشُه.. وما هو محتاج إليه فيبقى في مجاهدة شديدة مع نفسه لِتـرك معلومهـا وحظها من الدنيا وهذه قلّةُ فقه في الطريق ، بل لفقيه العارِف يرد النفس عنها بِلُقمة كما يـرد الكلب إذا نَبح عليه بكسرة ، إذا نفسه نبحت عليه وطالبته بشيء معقول ومسموح به يطعمهـا لُقمة ويسكتُها ويقول لها التفتي عز وجل أفضل من أن يبقيها في صراع دائم مع نفسه .

قال : هذه طريقُ الرسل وهي طريقةُ العارفين من أربابِ السلوك وكما قالَ النبـي عليه الصلاة والسلام :

عن عون بن أبِي جحيفَةَ عن أبِيه قَالَ آخَى النبِي صلى الله عليه وسلم بين سـلْمان وأبِـي الدرداء فَزار سلْمان أبا الدرداء فَرأَى أُم الدرداء متَبذلَةً فَقَالَ لَها ما شأْنُك قَالَت أَخُـوك أبـو الدرداء لَيس لَه حاجةٌ في الدنْيا فَجاء أبو الدرداء فَصنَع لَه طَعاما فَقَالَ كُلْ فَإِني صائِم قَالَ ما أَنَا بِآكلٍ حتى تأْكُلَ فَأَكَلَ فَلَما كَان اللَّيلُ ذَهب أبو الدرداء يقُوم فَقَالَ نَم فَنَام ثُم ذَهب يقُوم فَقَالَ نَم فَلَما كَان آخر اللَّيلِ قَالَ سلْمان قُم الآن قَالَ فَصلَّيا فَقَالَ لَه سلْمان إِن لِربـك علَيـك حقـا ولِنَفْسك علَيك حقا ولأَهلك علَيك حقا فَأَعط كُلَّ ذي حق حقه فَأَتَى النبِي صلى الله عليه وسلم فَذَكَر ذَلِك لَه فَقَالَ النبِي صلى الله عليه وسلم صدقَ سلْمان أبو جحيفَةَ *

(صحيح البخاري)

إذاً : ترك الدنيا كُلياً ليس موقفاً سليماً وليس موقفاً يعينُك على طاعة ا لأنه ينشـأ من تركها كُلياً توتّر وشعور بالحرمان وشعور بالحاجة وقد تقع في مشكلة أخطر مما لو أخذتَ المباح منها " **ورهبانيةً ابتَدعوهاما كَتَبنَاها عليهِم إِلا ابتغَاء رِضوانِ الله فَما رعوهـا حـق رِعايتها** " .

أيضاً كلمة اسمعوها حرفياً .. قال : العارِفُ البصير يجعلُ عوض مجاهدته لنفسـه في ترك شهوة مباحة مجاهدته لأعداء ا ـِ من شياطين الإنسِ والجِن ، وقُطّاعِ الطريق علـى القلوب كأهل البِدعِ من بني العلم ويستفرغُ قُواه في حربِهم ومجاهدتهم ويتقوى على ذلك بمـا سمح ا ُ له به من مباحات " .

أن يكون لك عمل ، تتفوق في دراستك ، تتفوق في تجارتك ، تزوج وأسـس بيتـاً وعندئذ فرغ نفسك ـِ عز وجل ، أما أن تعيش في حالة حرمـان مسـتمر وتـوتّر مسـتمر وإحساس بالشوق إلى شيء مباح ، هذا يحجبك عن ا ـِ عز وجل ، هذا من قلّة الفقه ، النبـي عليه الصلاة والسلام رأى رجلاً واقفاً بالشمس .. وشمس الحجاز تعرِفونَها .. فسألَ عنه فقال نَذَر أن يقفَ في الشمس فقالَ عليه الصلاة والسلام مروه فليتحول إن ا َ غني عن تعذيبِ هذا نفسه .

.. ا ُ غني عن تعذيب نفسك .. كُل باعتدال ، تزوج واكسب المال ، واطلب الحلال ، واحضر مجالس العلم ، وتعرف إلى ا ، وادع إلى ا ، واخدم الناس ، هذا الوضع المثالي الواقعي ، الإسلام واقعي إنه دين الفطرة .

من آفات ترك الدنيا كُلياً قال : التطلُع إلى مافي أيدي الناس إذا مسته الحاجة ، ومن آفات ترك الدنيا كُلياً ما يأتيه من كبرٍ وعجبٍ وزهوٍ في زهده .. أحيانـاً .. ، قـال : الفقـر الصحيح السلامة من آفات الأخذ والترك وهذا لا يحصلُ إلا بِفقه في الفقر .

في شيء آخر من لوازم الفقر إلى الله عز وجل أن يتخلّى العبد عن رؤيته أعماله ، أيام الإنسان الله عز وجل يكرمه بعمل صالح هذا العمل الصالح إذا أكرمه به رأى نفسه عظيماً به ، رؤيةُ هذا العمل والتركيز عليه والحديثُ عنه دائماً هذا مما يجعلُ هذا العملَ حجاباً بينَك وبين الله عز وجل ، رؤيةُ العمل ربما كان حجاباً بينَك وبين الله ، المفتقر إلى الله مفتقر إليه حتى في الأعمال الصالِحة ، فإذا الله عز وجل جعل هدى الناس على يديك ربما إذا نظرتَ إلى هذا العمل كان هذا العمل العظيم نفسه حجاباً بينك وبين الله .

.. إذا الله عز وجل أكرمك ببناء مسجد ربما كان هذا العمل العظيم إذا نظرتَ إليه وحدثّتَ الناس عنه وركزت عليه وقُلت أنا فعلت... هذا العمل العظيم ربما كان حجاباً بينك وبين الله ، إذا أمكنَكَ الله من خدمة إنسانٍ خدمةً جليلةً وأنقذتَه بها أو أنقذتَ حياتَه ونظرتَ إلى عملك دائماً ونسيتَ أن الله تفضلَ عليك به ، نسيتَ أن الله عز وجل خَلَقَه ونَسبه إليك ، رؤية العمل الصالِح نفسه قد يحجبك عن الله عز وجل ، فمن لوازِم الافتقارِ إلى الله ألاّ ترى لك عملاً أن ترى أن عملَك الصالح الذي أكرمك الله به إنما هو محض فضلٍ من الله عز وجل

أحد العارِفين بالله حضرته الوفاة فمزقَ ابنُه قميصه من شدة ألمه، فتح أبو عثمان عينيه .. تحضره الوفاة .. وقالَ يابني خلافُ السنّة في الظاهر علامةُ رياء الباطل ، السنّة ألاّ تُمزقَ الثوب ، إذا الإنسان جاءه خبر مؤلم ، فخلاف السنة ضرب الخدود ، وتمزيق الثياب ، والمناداة بالويل ، ... كُلُّ من خالَفَ السنّةَ في الظاهر ينطوي على رياء في الباطل .. أنا أقول لكم حتى الأعمال الصالِحة يجب أن تنسبها إلى الله عز وجل حتى الحزن المقدس يجب أن يكون وفق السنّة.

آخر فقرة في الدرس : من إفتقر إلى الله تعالى اغتنى ، والغنى نوعان : غنى بالله وغنى عن غيرِ الله وهما حقيقةُ الفقر ، إذا كُنت فقيراً إلى الله أنتَ مستغنٍ بالله ومستغنٍ عن غيرِ الله ، أحد الخُلفاء العباسيين كان يحج البيت فالتقى بعالِمٍ جليل في الحرمِ المكي قالَ له سلني حاجتَك ، قال له : والله إني لأستحيي أن أسألَ غير الله في بيت الله ، فلما التقى به خارِج الحرم قالَ سلني حاجتَك ، قالَ : والله ما سألتها من يملكُها أفسألُها من لا يملكُها ؟ فقالَ سلني حاجتَك قالَ له أُريد أن أنجو من النار فقالَ له هذه ليست بيدي فقالَ له ليست لي حاجةٌ عندك ...

فمن علامة الفقرِ إلى الله أن تستغني بالله وأن تستغني عن غيرِ الله ، الذي يطمع بما في أيدي الناس ليس مفتقراً إلى الله عز وجل.

... ربما قُلتُم في أنفسكُم هذا المستوى مستوى العارِفين بالله أنا أتمنى أن يكون هذا مستوى المؤمنين ، يعني الافتقار إلى الله عز وجل .. لك مظهر فخم ليس هناك مانع ، أنيق في مظهرك ، نظيف ، لك بيت ، لك عمل ، متفوق في تجارتك ، في صناعتك ، في

عملك ، في وظيفتك ، هذا لا يمنع أن تكون فقيراً إلى ا عز و جل .. ليس هنـاك تنـاقض إطلاقاً بين مرتبة الافتقار إلى ا عز وجل وبين مرتبة أن تشعر بحقيقة عبوديتك ـ عز وجل وحقيقة نفسك المحتاجة إلى ا ـ في كُل شيء .

لذلك اسمعوا منّي هذه القاعدة : الإنسان إما أن يتَكلَ على ا وإما أن يتكـلَ علـى نفسه في كُل أطوارِ حياته ، من اتكّلَ على ا ـ كفاه ا ُ كُل مؤنة ومن اتكل على نفسه أوكلَـه ا ُ إياها ، في علمك ، في عملك ، في تدبيرك ، في تربيـة أولادك ، فـي تجارتـك ، فـي صناعتك ، في علاقاتك الاجتماعية ، في لقاءاتك ، في سفَرِك ... حينما تتكلُ على ا ـ عندئـذ يكفيك كُل مؤنة وحينما تقول هذه جهزتُها وهذه راجعتُها وهذه أكدتُها حينما تقول راجعتُ هذا الشيء وجهزتُه قد يفاجئُك بعطبٍ خطير في وقت مزعجٍ جداً .

فلذلك دعاء السفر ، دعاء قبلَ أن تقوم بأي عمل ، هذا دليل الافتقار إلـى ا عـز وجل وما من إنسان مؤمن قبلَ أن يقدم على أي عمل يقول يارب أعنّي ، يارب سدد خُطاي ، يارب سدد قولي ، ألهمني الصواب ، ألهمني الحكمة ، اللهم لا سهلَ إلا ما جعلتَه سهلاً وأنتَ تجعلُ الحزن إذا شئتَ سهلاً ، فهذا الدعاء معناه الافتقار إلى ا عز وجل فالافتقار مـن لوازِم المؤمنين بل الافتقار سمةٌ أساسيةُ من سمات أهل الإيمان والافتقار يعني أنـك عرفـتَ حقيقَتَك وعرفتَ عبوديتك ـ عز وجل والافتقار من أعلى مراتبِ الإيمان في الدنيا .

والحمد ـ رب العالمين

****

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم ...... من السهل جداً أن تدخُلَ في تفاصيل الدين والدين بـاب واسع جداً من أبواب المعرفة ، ولكن من حينٍ إلى آخر أرى من المناسـب أن نتحـدثَ فـي الكُلّيات ، الجزئيات أن تصل إلى دقائق الآيات إلى دقائق السنّة إلى دقائق السيرة ، لِئلا ندخُلَ في التفاصيل ونغفلَ أحياناً عن الأهداف الكُبرى والكُليات العظمى لذلك أجد من المناسب مـن حينٍ إلى آخر أن نعود إلى الكُليات .

لو دخلتَ إلى مكتبة إسلامية لوجدتَ عشرات بل مئات الآلاف مـن الكُتـب .. إن شئت العقائد وأُصولُها ، والقرآن وعلومه ، والحديثُ ومصطلحه ، والسيرةُ وأعلام الإسـلام ، والفقه ومذاهبه .... قد تجد عشرات الآلاف من الكُتب بل مئات الأبواب من الكُتب فـي كُـل بابٍ من أبواب الدين ولا يتسع أي عمر مهما طال لقراءة ما أُلّفَ في أحد أبواب الدين .

إذاً : نحن نحتاج أحياناً لا إلى الاستقصاء ، لا إلى التفاصيل ، لا إلى الجزئيـات ، نحتاج من حينٍ لآخر أن نبقى في الكُليات في أُصول الدين ، في كُليات الدين ، في الخطـوط العريضة ، في الأهداف الكُبرى ، في الوسائل الناجحة ... فأردتُ في هذا الدرس أن يكـون حولَ كُلياته .

الدين يقوم على دعائم أُولى هذه الدعائم دعامةُ المعرفة .. يعني .. التدين دون طلب علم هذا شيء مستحيل .. أُولى دعامات الدين المعرفة لأنه ما اتخّذَ ا ُ ولياً جاهلاً ، لو اتخذه لعلّمه ، لأنك إذا تدينتَ دون معرفة ماالذي يحصل ؟ .

تُطبقُ عشرات العبادات وقد تخرِقُ الاستقامةَ لأنك لا تعلم فيكون هذا الخرقُ حجابـاً سميكاً بينك وبين ا ، كُلُ هذه العبادات غير مجدية ، لن تستطيع أن تُحكم الاتصالَ با عـز وجل إلا إذا وقفتَ عند حدوده ، ولن تقفَ عند حدوده إلا إذا عرفتَ حدوده ولن تعرِفَ حدوده إلا إذا عرفتَه قبلَ أن تعرِفَ حدوده .

بالإسلام جانب معرفي ، جانب علمي ، جانب عقيدي ، أُلاحظ أشخاصـاً كثيـرين يعنيهم من الدين الصلاة والصيام والحج والزكاة ويعنيهم خدمةُ الناس .. هؤلاء ربمـا فـي عصور غير هذه العصور .. ربما يصلون إلى الجنّة .. لكن في عصرٍ استعرت فيـه الفـتن واتقدت والمزالق والشُبهات والتُرهات والأضاليل والعقائد الزائغة والباطل المزيف والانحراف المروج والتفلّت من مبادئ الدين تحتَ غطاء من الحرية والعصرية والتقدم ، هنـاك شُـبهات

كثيرة وفتن ، أقول لكم وأنا أعني ما أقول لا يستطيع أن ينجو الإنسـان الآن فـي عصـورِ الانحرافات الفكرية والسلوكية إلا بعلمٍ صحيح ، بعقيدة راسخة ، بعلمٍ متين ، بأدلّة قاطعة ....

يا أيها الأخوة الأكارم .... حينما تنصرفون إلى الدنيا ، حينما تتحركـون ، حينمـا تنطلقون إلى أعمالِكم ، إذا شعرتم أنكم في غنى عن طلبِ العلم هذا النقص في العلم لا بد من أن يترجم إلى انحراف في السلوك ، والانحرافُ في السلوك لابد من أن يترجم إلـى حجـاب بينك وبين الله ، وحينما يكون الحجاب بينك وبين الله إعلم علم اليقين أنك فقدتَ كُل ثمارِ الدين ، أساس الدين هذه العلاقةُ الطيبةُ بينك وبين الله .. أساس الدين .. وحينما تُفقد هـذه العلاقـة بانحراف أساسه الجهلُ فقد خَسرتَ كُل ثمرات الدين ، بالاتصال لايوجد خوف :

﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٢٢

(سورة المعارج)

هكذا خُلق .. هذا ضعفٌ خلقي ، هكذا أراد الله عز وجل أن يكـون "**إن الإنسـان خُلقَ هلُوعا إذَا مسه الشر جزوعا وإذَا مسه الخَير منُوعا إلا المصلين** " يعنـي كُـل نقـاط الضعف البشري الخلقي التي لا سبب منك بها هذه النقاط الضعف تتلافاها بالاتصال بالله عزو جل .

فلذلك من لم تُحدثه نفسه بحضورِ مجالسِ علمٍ يزداد معرفةً بالله أو بكتابِـه .. درس أسماء الله الحسنى معرفةٌ بالله ، درس التفسير معرفةٌ بكتـاب الله ، درس الحـديث الشـريف معرفةٌ بسنّة رسول الله ، درس السيرةُ النبوية معرفةُ بالتطبيقات العملية ، درس الفقه معرفـةٌ بالأحكام الشرعية التي ينبغي أن تدور مع حياتك ، فما لم تُخصص من وقتك وقتاً ثميناً لِطلبِ العلم ومتابعة مجالس العلم وأن تزداد ثقافتُك الدينية وقناعاتُك الفكرية وعقيدتُك الصـحيحة أن تزداد وتغتني عندئذ ترى أن النقص في العلم سيسبب خللاً في السلوك .. هذا الجانب المعرفي ، والحقيقة الجانب المعرفي بعض منه يأتيك بالمدارسة وبعض منه يأتيك بالتأمل وبعض منـه يأتيك بالنظر :

قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠١

(سورة يونس)

جانب كبير من جوانب المعرفة يمكن أن تحصلَ عليها من وقوفك عند دقائق خلـق السماوات والأرض وأقرب شيء إليك جِسمك الذي بين جوانحك ، أقرب شيء إليك طعامـك الذي تأكُله ، من حولَك من أهلٍ وأولاد ، أقرب شيء إليك مظاهر الطبيعة التي أمامك ، هـذه كلُّها آياتٌ دالّةٌ على عظمة الله عز وجل ، فأنا أتمنى أن يفكّر الإنسان كُل يوم فـي آيـات الله الدالّة على عظَمته أو أن يشغَلَ نفسه كُلما سنحت له فرصةٌ أن يقفَ عند دقائِق خلق الله جـل وعلا .

... لا تتأثر إذا سمعت أنه يوجد عشرين مليون خلية عصبية شمية كُل خليـة فيهـا سبع أهداب مغموسة بمادة دهنية مذيبة وأن أيةَ رائحة تصلُ إلى أنفك تتفاعلُ مع هذه المـادة الدهنية التي مع هذه الأهداب تفاعلاً كيماوياً يتشكّلُ منه شكل هندسي ينقل على شكل إشـارة إلى مركز المخ وفي مركزِ الشم المخ عشرةُ آلاف بند من بنود المشمومات وأن هذه الإشـارة تُشعرك برائحة هذا الشيء ثم تنتقل إلى معرفة رائحة هذا الشيء وأن المادةَ إذا كانت بمقـدار نصف بالمليون من الميلي غرام في السنتيمتر المكعب فإنها كافيةُ لكي تُحسسك برائحـة هـذا الشيء ... ألا تشعر أنك وقفتَ وجهاً لوجه أمام عظَمة الله عز وجل ، ألا تشعر أنك عرفـتَ دقّةَ الصنع ؟ .

إذاً : أيها الأخوة جانب معرفي أحد أركان الدين ، لذلك الله عز وجل فَرض علـى المسلمين تأكيداً للجانبِ المعرفي ، تأكيداً لأحد أركانِ الدينِ الكُبرى فـرض علـى المسـلمين صلاة الجمعة .. ما طبيعةُ صلاة الجمعة ؟ طبيعتُها تعليمية .. عبادةٌ تعليمة فيها خُطبة ، فيهـا خطيب يتلو على الناسِ آيات القرآن يفسر هذه الآيات ، يتلو عليهم سنّة النبي يفسر هذه السنّة ، يتلو عليهم مواقفَ الصحابة يفسر لهم هذه المواقف .

إذاً : لأن جانب معرفة الله جانب أساسي جداً في الدين كانت صلاةُ الجمعـة تلـك الفريضةُ التعليمية :

عن أَبِي الْجعد الضمرِي قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى اللهم علَيه وسلم من تَرك الْجمعةَ تَهاونًا بِها طَبع الله علَى قَلْبِه *

(سنن الترمذي)

ومن تَرك الجمعة ثلاثَ مرات من دونِ عذرٍ نكتت نُكتةٌ سوداء في قلبه ثـم يكـون الران ثم تلى النبي قولُه تعالى :

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

(سورة المطففين)

إذاً : أيها الأخوة ... أحد أركان الدين أن تقتطع من وقتك أقول الثمين وقـد يكـون وقت الناسِ ثميناً وقد يكون الوقتُ ممتلئاً بالمشاغل والمواعيد والانجازات والخطط واللقـاءات والأعمال وعقد الصفقات وما إلى ذلك ، لكن ما قيمةُ هذه الدنيا لو ربحتَ فيهـا كُـل شـيء وخسرتَ نفسك ، ما قيمةُ المال إذا جاء ملك الموت وقد تركتَ كُل المال في ثانيـة واحـدة ، فالتأمل في الكون باب ، والنظر في الحوادث باب ، وقراءةُ القرآنِ وتـدبره وقـراءةُ السـنّة وفهمها باب ثالث .

.. في نظر وفي تفكّر وفي مدارسة ، وأنا أقول لكم الإنسان الكامل هو الذي يجمـع بين كُل مصادر المعرفة يتأملُ تارةً ، وينظر تارةً ، ويفكّر تارةً ، ويدرس تارةً ، الأن سماعك مدارسة ، تفكُرك الصباحي بآيات الكون تفكّر ، نظرك إلى ما يجري في الكون من حـوادث دالّة على عدالِة ا وعلى حكمته وعلى رحمته وعلى قيوميته هذا من بابِ طلبِ العلم

اسمحوا لي أيها الأخوة أن أقول لكم وا ِ الذي لا إله إلا هو لو بلغتَ أعلى مراتـبِ العلمِ في الأرض .. لو بلغتَ أعلى مراتبِ العلمِ .. ولم يكن لك عملٌ يدعم هذا العلم فلا قيمـةَ لهذا العلمِ عند ا ِ إطلاقاً ، المشكلة أن العلم وسيلة وظنّه الناس غاية ، ما لم تتأكد من أن كُـل علمٍ تتعلمه إنما هو وسيلةٌ كي ينقُلك إلى التطبيق هذا العلم وبالٌ على صاحبه قالَ عليه الصلاة والسلام :

حدثَنَا هشَام عنِ الْحسنِ قَالَ الْعلْم علْمانِ فَعلْم في الْقَلْبِ فَذَاك الْعلْم النافع وعلْم علَى اللسانِ فَذَاك حجةُ الله علَى ابنِ آدم *

(سنن الدارمي)

حجةٌ عليه لا له .. هذا الباب باب طلبِ العلم باب الاستزادة بالعلم ماذا يؤكده ؟ قولُه تعالى :

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾

(سورة طه)

يؤكده أن ا َ سبحانه وتعالى اعتمد قيمةَ العلمِ كقيمة وحيدة مرجحة بين البشـر قـالَ تعالى :

أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

(سورة الزمر)

وقال تعالى :

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

(سورة يوسف)

إذا أردتَ الدنيا فعليك بالعلم وإذا أردتَ الآخرةَ فعليك بالعلم وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم والعلم لا يعطيك بعضه إلاّ إذا أعطيتَه كُلَّك فإذا أعطيتَه بعضك لم يعطك شيئاً ، هل تسمح لنفسك أن تقول أنا مشغول ؟ مشغول بماذا ، لماذا أنتَ في الدنيا ، أي شيء يشغَلُك عن طلَبِ العلم ، سوفَ تَعده غبناً كبيراً في يومٍ ما ، طالب ذهب إلى دولة أجنبية لينال دكتوراه عليه أن يعمل وأن يدرس أهلُه فُقراء ، هو يحتاج فرضاً إلى ألف فرنك فرنسي في الشهر ، وجد عمل ساعتين هاتان الساعتان تُحققان له ألف فرنك فرنسي ، طبعاً عنده دراسة لو نال الدكتوراه سيعود إلى بلده بأعلى مرتبة ، بأعلى منصب ، بأكبر دخل ، كُلُّ آمالِه معقودة على هذه الشهادة عثَر على عملٍ يحقق له ألفي فرنك في الشهر لكن أربع ساعات .. .. ثم عثَر على عملٍ يحقق له ثلاثة آلاف ست ساعات .... أربعة آلاف ثمان ساعات ، خمسة آلاف تسع ساعات ، عمل يحقق له مائة ألف فرنك بالشهر لكن أربع وعشرين ساعة فترك الدراسة من أجلها ، هل يقول لك أنا هيأت عملاً عظيماً ؟ لا أنتَ هنا إقامتُك محدودة بقاؤك بهذا البلد منوط بجرة قلم فإذا عدتَ إلى بلدك بلا شهادة كُنتَ في خزيٍ شديد .

اسمعوا الأن القاعدة : العملُ الذي يستغرقُ وقتَك كُلَه خسارةٌ محققة مهما كان الدخلُ كبيراً لأنك عندئذ خرجتَ عن هدفك الأساسي .

فأيها الأخوة الأكارم ... أنا أعلم الحياة صعبة والدخل محدود والمطالب كثيرة والوقت ضيق ، أنا أعرف أخوةً كثيرين مضطرين إلى عمل مستمر ولكن أن أغُض الطَرفَ

عن إنسان عملُه استغرقَ وقتَه كُلُّه وهو ناجح أو رابح .. لا وا   .. ، لابد من وقت تتعـرفُ فيه إلى ا   .

مرة خطر في بالي مثل : طبيب درس ٣٠ سنة وجاء إلى بلده وفتح عيادة وكتـب العيادة بين الساعة الخامسة والسابعة بعد الظهر وهو في العيادة جاءه مريض الساعة الخامسة والنصف ... فقالَ له وا   مشغول " مالي فاضي " .. لماذا أنتَ هنا !!! لماذا درست كُل هذه الدراسة إن لم تكُن فارِغاً لأكبرِ عملٍ في حياتك فأنتَ فارِغ لِماذا

إذا قال : ليس عندي وقت أتعرف على ا   عز وجل نقول له ماالذي يشغَلُك أو ماذا كُنتم تعملون ؟ .. ماذا بعد الحق إلا الضلال ، .. الكلام أقولُه لكم لابد من طَلبِ العلـم هـذا شيء لابد منه لأنه لو لم تكن كذلك لظَهر الانحراف ، مثلاً في الحج سمعنا في اجتماع عقـد قبلَ أيام أن أكثر من ٢٠ - ٣٠ حاج سوري في العام الماضي لم يطوفوا طواف الإفاضة وهو ركن أساسي فلما قُلنا لهم لماذا لم تطوفوا ؟ قالوا : لم يقُل لنا أحد .. لا نعرف .. من عرفات إلى مكة وجلسوا بعد العيد ثم سافروا ، ماالذي أبطَلَ حجهم ؟ جهلُهم .

أنا أقول لكم ممكن أن تكون أنتَ سليم النية ، ممكن أن تأكُل الرِبا وأنتَ لا تدري ، ممكن أن تتجاوز الحدود لِعلّة الجهل فقط ، والقانون لا يحمي الجاهل كما أن الدين لا يعـذُر الجاهل .

.. أنا أتمنى من أخواننا الكرام أن موضوع مجالس العلم ليس على وقـت فراغـه " الدنيا شتاء وا   لا يوجد شيء نتلتهى به تعال لنحضر الدرس !!!! " بالصـيف النـاس فـي المصايف وهنا وهناك .. ليس هذا القصد .. هذا منهاج جامعي فيجـب أن تجعـل الأسـاس الدرس ، حياتك متقولبة مع الدرس وليس الأساس حياتك والدرس على وقت الفراغ !!! هـذا طبعاً من باب المتابعة والمثابرة .

.. ماذا تقترحون البند الثاني في كُليات الدين .. الكُليات الكُبرى ؟ العلم بنـد أول ، طَلب العلم إما بالتفكّر بالكون ، أو بالنظر في الحوادث ، أو بالمدارسـة والمدارسـة قـراءة واستماع ، أنتَ الأن تدرس تستمع إلى درس وقد تقرأ وقد تنظر وقد تتفكّر ... تقترحون كُلية كُبرى من كُليات الدين العمل كلمة كبيرة جداً ممكن أن يكون لها بندين أساسيين في بند سلبي وبند إيجابي ، في بند امتناع وفي بند ايجابي فعلي .. الإستقامة والعمل الصالح .

الإستقامة أيها الأخوة ... انضباط ، غض البصر استقامة ، ترك الغيبـة والنميمـة استقامة ، ترك ركنةٌ من حرام استقامة ..... لكن العمل الصالح بذل بالضبط .. دققوا في هذا المثل : لو تصورنا أن الطريق إلى ا   طريق مادي .. تصور افتراض الطريق إلى ا   طريق مادي .. أنتَ راكب مركبة وعلى هذا الطريق عقَبات ، كُل عقَبةَ ارتفاعها متـرين ومتـرين

عرض ومترين طول إسمنت مسلّح هل بإمكانك أن تسير على هـذا الطريـق .. لا .. كُـل معصية أيها الأخوة عقبةٌ على طريقك إلى ا .

فالاستقامة تعني أن تُزيلَ هذه العقبات ، كُل إنسان استقام على أمـر ا نقـول لـه مافعلَ شيئاً لكنّه مهد الطريقَ إلى ا أزالَ كُل العقَبات ، أزالَ كُل الموانـع ، ألغـى كُـل الحواجز ، المعاصي حواجز وموانع وعقبات وحفر وما إلى ذلك ، أنتَ حينما تستقيم على أمرِ ا عز وجل والاستقامةُ طابعها سلبي ، أنتَ ما زدتَ عن أن مهدتَ الطريقَ إلـى ا وبقـي الحركة على هذا الطريق ، طريق إلى ا فرضاً مادي فيه عقبات أزلتَهـا فأصـبح الطريـق سالكاً بقي عليك أن تسير .. أن تتحرك .. الحركة هي العمل الصالح ، والعملُ الصالح يرفَعك ، اسمع القرآن الكريم :

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾

(سورة فُصلت)

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾

(سورة فُصلت)

لابد من استقامة ولابد من عملٍ صالح ، لكن أحياناً القـرآن الكـريم يعبـر عـن الاستقامة والعمل الصالح بكلمة " **وعملوا الصـالحات** " والتفسير أن العملَ الصالِح لا يثبت إلا على أرضية من استقامة .... كيفَ أن الإنسان معه قلم حبر والورق عليه دهن وكتـب .. لا شي .. لا يثبتُ أثر الحبرِ إلا على ورق نظيف ، كذلك لن تستطيع أن تشعر أن هذا العمل قبِلَه ا ُ عز وجل إلا على أساسٍ من استقامة على أمرِه .

.. بشكل آخر : لا تُفكِّر أن العمل الصالح يعينُك على الاتصال با عـز وجـل إذا كان مبني على عدم استقامة .. الاستقامة أساس .. من بـاب الأمثلـة والأمثلـة توضـح : المستودع الاستقامة إملاؤه بسائل غالٍ جِداً العمل الصالح أما مستودع بلا قعر وصـب هـذا السائل الزئبقي الغالي عمل أحمق لا شيء يحفظه ، أما إذا كان المستودع محكماً لو ألقيتَ فيه

ليتراً واحداً هو محفوظ .. ليترين محفوظين .. فلذاك : دعوتُنا استقامةٌ تامة وعملٌ صالح بقدرِ المستطاع ، العمل الصالح بقدرِ المستطاع :

لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

(سورة البقرة)

لكن الإستقامة تامة ، فمن رضي بانحراف طفيف هذا الانحراف كما تعلمـون : لا صغيرةَ مع الإصرار ولا كبيرةَ مع الاستغفار الصغيرة تشبه راكباً بمركبتـه وماشـي علـى طريق مستقيم طويل و على جانبه واد سحيق حرفَ المقود ١سم هذا الـ ١سم لو ثبت علـى الوادي .. أما لِم سميت صغيرة لأن هذا الـ ١سم تصليحه سهل جِداً يحتاج إلى ضغط أقل من غرامين فيعود ، أما الكبيرة انحراف ٩٠ درجة فجأةً ، فالصغيرة إذا ثَبتت انقلبت إلى كبيـرة من حيثُ النتائج لأنها نقلَتك إلى الوادي السحيق مع مسافة قصيرة .

لا يوجد في الاستقامة حل وسط ، الاستقامة قطعية ، أما العمل الصـالح نسـبي .. ممكن أن تتصدق بألف بارك ا ، ألفين بارك ا ، خمسة بارك ا ، ١٠٠ ألف بارك ا ، مليون بارك ا .... لكن هذه الصدقة مبنية على مستودع محكـم وهـي الاسـتقامة ، أمـا المستودع بلا قعر الأف مثل الخمسة آلاف مثل المليون لأنها لن تظهر .

البند الثاني العمل .. العمل بشقيه السلبي والإيجابي ، السلبي الإستقامة والإيجـابي العمل الصالح والعملُ الصالح يرفعه ... قد يقول لك أخ أنا مالي نبي .. هذه دعـوى معظـم الناس " أخي مالي نبي " ومن قال أنك نبي لا لستَ بنبي فعلاً أنتَ لستَ بنبياً ، ولستَ بصديق ، ولستَ بمؤمن كبير ، لكن أنتَ مسلم وفي عندك كتاب ا على أنك مطالَب تماماً تماماً تماماً أن تستقيم استقامةً تامة :

فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ



(سورة هود)

" **ومن تاب معك** " لذلك قالَ عليه الصلاة والسلام : شيبتني هود وأخواتُها وما شـيبه في هذه السورة إلاّ هذه الآية " **فاستقم كما أُمرتَ ومن تاب معك** " حديث يؤكّد هذه الحقيقة :
عن أَبِي هريرةَ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم أَيها الناس إِن الله طَيب لا يقْبلُ إِلا طَيبا وإِن الله أَمر الْمؤْمنين بِما أَمر بِه الْمرسلين فَقَالَ (يا أَيها الرسلُ كُلُـوا مـن الطيبـات واعملُوا صالِحا إِني بِما تَعملُون عليم) وقَالَ (يا أَيها الذين آمنُوا كُلُوا من طَيبات ما رزقْنَاكُم) ثُم ذَكَر الرجلَ يطيلُ السفَر أَشْعثَ أَغْبر يمد يديه إِلَى السماء يا رب يا رب ومطْعمه حـرام ومشْربه حرام وملْبسه حرام وغُذي بِالْحرامِ فَأَنى يستَجاب لِذَلِك *

(صحيح مسلم)

يعني .. لو فرضنا ملك قاد سيارة يوجد قواعد للقيادة ، هذه القواعد يجب أن يطبقَها ملك وأصغر إنسان يقود سيارة .. مبادئ السلامة هذه .. أما العمل الصالح بحسب الإمكانيات ، بحسب الجود ، بحسب الشوق إلى ا هذا نسبي ، أكثر الناس يعتقدون بنسبية الاسـتقامة " أطع ا على قدر ما تستطيع .. نوعاً ما " كلمة بالطاعة نوعاً مـا .. قـدر مـا تسـتطيع .. الميسور .. ا ُ لم يكلّفْك فوق طاقَتُك ... الإنسان ما دام راغباً في أن يبقـى ثغـرات كبيـرة بحياته هذه الثغرات كُلُها حجب تحولُ بينَه وبين ا ِ جل وعلا .

النظرية الأولى المعرفة بأبوابها الثلاثة : بالتأمل بالكون بالنظر بالحوادث بالمدارسة بطابع التلقّي .. الاستماع .. أو طابع الإلقاء أو القراءة .. في ركن ثالث : الاتصالُ بـا .. كُلياً هذه .. الصلاة اتصال ، والصوم اتصال ، والاستغفار اتصال ، والتسبيح اتصال والدعاء اتصال ، .. يجب أن تكشف القاسم المشتَرك .. تُصلّي من أجل أن تتصل ، وتصوم من أجـل أن تتصل ، وتحج البيت من أجل أن تتصل وتدعو ا َ عز وجل من أجل أن تتصل ، وتُسبحه وتوحده وتُكبره وتُمجده وتُنزهه من أجل أن تتصل .

طيب .. إذا كان العلم نما والعمل جاد والذكر ضعف ماذا يحصل للإنسان ؟ دققـوا في السؤال .. علم جيد ، أعمال طيبة جيدة ، لكن الاتصال با ضـعيف الصـلاة شـكلية ، والذكر قليل ، الدعاء صفر ، القلب يتصحر ، القلب يخلو من مشاعر الإيمان وإذا خلا القلـب من مشاعر الإيمان دخلَ السأم والملل والضجر ، يعني القلب محرك فإذا المحـرك واقـف ، المقود ممتاز لكن لا يوجد محرك !!!

سيدنا سليمان قال : إني أحببتُ حب الخيرِ عن ذكر ربي ، سيدنا سليمان آثر العملَ الصالح على اتصالِه با فعاتَبه ا ، سيدنا داوود بالعكس آثر اتصالَه با على خدمة الخلـق فعاتَبه ا .. إذاً ماالمطلوب ؟ أن توازِن بينَهما ، أن تسعى إلى إقام التوازن حركة كما يقولون ، كُلما خطوتَ خطوةً نحو العمل الصالح يجب أن تُلازِمها خطوة نحو ذكرِ ا .. ذكر وعمل .. الآية الكريمة :

أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ٦ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ٨

(سورة الشرح)

ما علاقةُ هذه السورة بهذه الفكرة ؟ أين موضع الشاهد .. إذا فرغتَ من عملٍ صالح فعليك أن تنصب لِذكرِ ا ، يجب أن تتحرك على خطين متوازيين خط العلم والعمـل وخـط الذكر.

مرةً ثانية : الذكر من فروعه الصلاة ، الصوم ، الحج ، الزكاة ، الاستغفار ، الدعاء ، التسبيح ، التحميد ، التمجيد ، التهليل ، التكبير ..... كلُّه ذكر :

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨

(سورة الرعد)

فأنتَ عقلُك امتلأ علماً بقي القلب ، القلب مملوء شهوات ، فالمؤمن يشحن قلبه بِذكرِ ا ، ... عبدي طهرتَ منظر الخلق سنين أفلا طهرتَ منظري ساعة .

يا أيها الأخوة الأكارم ... لابد لُكل واحد منّا من غارِ حراء ، قالَ لي واحد مـداعباً ومعاتباً : أتتركُنا اسبوعين وتذهب وتَحج ؟ قلتُ له وأنا أريد أن أُشحن أيضاً ... ألا أُعطي ؟ فيجب أن أتلّقى أيضاً ، الإنسان عطاء .. عطاء .. فتفرغ البطارية ، يجب أن يشحن حتـى يشحن الآخرين ، فالحج عبادة فيها تفرغ تام عز وجل ، كُل الحج تفرغ ودعـاء وابتهـال وطواف وسعي وما إلى ذلك .

إذاً : الكُلية الثالثة وهي الذكر .. الصلاة .. أو اتصال ، أعتقد أن الذكر أشمل ، أولاً " **أَلا بِذِكْرِ الله تَطْمئِن القُلُوب** " أعني ما أقول القلق الخوف ، الاضطراب ، السأم ، الضـجر ، كُلُّ هذه المشاعر المحزنة تزول بالذكر .

وا يا أخوان لو كان جهاز يقيس معنويات الإنسان العالية كُلما ازددتَ صلةً بـا عز وجل شعرتَ بمعنويات عالية جداً وكُلما ضعفَ الاتصالُ با عز وجـل تسـرب القلـق

والخوف ، لذلك لو أُتيح لك أن تطلع على قلبِ إنسانٍ بعيد عن الله عز وجـل لوجـدت قلبـه ممتلئ خوفاً وذُعراً والدليل :

وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾

(سورة الأحزاب)

أما المؤمن مطمئن بالله عز وجل ، طالب علم ، عمل صالح بشقيه السلبي والإيجابي ، ذكر بكُل ما تعني هذه الكلمة من صلوات وصيام وحج وزكاة ودعاء وما إلى ذلـك ، فـي ركن رابع أو خامس من أركان هذا الدين العظيم ؟ .

التوحيد .. التوحيد يجب أن ينطوي تحت ركن كبير ركن المعرفة هذا السؤال ساقني إلى موضوع دقيق : أنتَ إما أن تعرفَ أمره وإما أن تعرفَه ، إذا عرفتَه ولم تعـرِف أمـره تفسقت وإذا عرفتَ أمره ولم تعرفه تزندقت ، لا بد من أن تعرفَه ولا بد من أن تعرفَ أمـره في وقت واحد ، فلذلك أكبر خطأ يرتكبه بعض المسلمين أنهم يعلّمون طالب العلـم الأحكـام الفقهيةَ فقط ، طالِب العلم ماعرفَ الله عز وجل يريد أن يطيع من ، أن يتصل بمن ، أن يخافَ من ، أن يرجو من ؟ .

في سؤال كبير .. هكذا الصلاة ، الواجبات ، السنن ، تُصلّي لمن ؟ نقول لك يا أخي ألا تستقيم ، أأستقيم لمن ؟ لذلك النبي عليه الصلاة والسلام أمضى مرحلةً رائعـةً جـداً مـن مراحل دعوته في التعريف بالله عز وجل ، ثم أمضى مرحلةً أُخرى في التعريف بـأمرِ الله عز وجل وأيةُ دعوة إلى الله تفتقر إلى أحد شرطيها دعوةٌ عرجاء ، لابد من أن تُعرفَ بـالله ولا بد من أن تُعرفَ بأمرِ الله .

مثلاً : في عندك ظاهرة مرضية ، تجد شخصاً يحمل أعلى شـهادة شـرعية تعلّـم العقائد والتوحيد والفقه والمواريث وتعلّم أحكام الزواج والطلاق والعدة واللقطة وأحكام الوديعة وأحكام القرض وأحكام المزارعةَ والمساقاة وأحكام الوكالة والحوالة ..... يقـول لـك ثمـان مجلدات وتتفاجأ أنه يرتكب مخالفات كبيرة جداً .... أنتَ كمراقب وجدت واحداً يحمل أعلـى شهادة شرعية لكن له انحرافات خطيرة ، قد يأكُلُ مالاً حراماً بماذا تُشخّص مرضه ؟ عـرفَ الأمر ولم يعرف الآمر ، عرفَ الشريعة ولم يعرف الحقيقة ، عرفَ الأحكـام الفقهيـة ولـم يعرف المشرع ، هكذا ... وإذا رأيتَ إنساناً معلوماته الفقهية ضعيفة جداً يرتكـب مخالفـات فقهية لا لأنه يحب أن يعصي الله .. لا .. لأنه جاهل لا يعرف ثم رأيتَه يحدثُك عن أسـماء الله الحسنى وعن صفاته ...... وهذه حالةٌ مرضية ، عرفَ الله من خلال الكون ولم يعرف أمره

بالضبط فوقع في المعاصي لا لأنه يحب أن يعصي ا عز وجل .. لا .. لأنه يجهـلُ حكـم الفقه ، ومثلُ هؤلاء كُثُر يرتكب مخالفةً شنيعةً كبيرةً وهو لا يدري ، يقول لك لا أعرف أهذه حرام !!؟؟ فالتوحيد ينضم إلى قسم المعرفة ، وقسم المعرفة كما قُلنا في كون وحـوادث هـذه تُمثِّلُ معرفة ا ، في قرآن وسنّة هذه تُمثِّلُ أمر ا والدليل ا عز وجل قال :

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾

(سورة الأنعام)

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾

(سورة الكهف)

فكأن هناك ركنان أساسيان : الكون كتاب مفتوح والقرآن كتاب مفتوح ، هذا كتـاب حروفه كبيرة يقرؤه القاصي والداني ، العربي والأعجمي ، وهذا كتاب حروفه صغيرة يقرؤه أهلُ العربية فقط .

يعني .. هذا خلقُه وهذا أمره ، خلقُه يدلُ على التوحيد وأمره يـدلُ علـى التشـريع معرفة ، عمل صالح واستقامة ، عمل .. اتصال ، ركن رابع محبةُ النبـي عليـه الصـلاة والسلام ، تجديد الإيمان ، .. الحقيقة الذي قال محبة النبي وا ِ معه وجهة نظر . في شـيء اسمه البيئة ا عز وجل قال :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

(سورة التوبة)

نحن نتصور إنساناً فكره نير وعملُه مستقيم ونفسه طاهرة وله اتصال با ، لـو أن هذا الإنسان عاشَ في مجتمعٍ منحرف كُلما مضى به الوقت تضعفُ مقاومته إلى أن ينزلق من بابٍ إلى باب ومن مستوى إلى مستوى لذلك ورد أنه من أقام مع المشركين فقد برئت منه ذمةُ ا ، ورد أيضاً : من هوي الكَفَرةَ حشر معهم ولا ينفعه عمله شيئاً .

إضافةً إلى معرفتك با وإلى طاعتك وإلى عملك الصالح وإلى ذكرك لا بـد مـن أن تكون في بيئة مؤمنة لأن المؤمن يشد أخاه .

هذا معنى قوله تعالى " **ياأيها الذين آمنُوا اتقُوا الله وكُونُوا مع الصادقين** " الإنسان أحياناً لا يعرف وليس هذا عاراً ، ليس العار أن لا تعرف ولكن العار أن تُصر علـى عـدم المعرفة ، ليس العار أن تكون جاهلاً ولكن العار أن تبقى جاهلاً ، إذاً أنتَ يجب أن يكون في حياتك إنسان تثق بعلمه ، إنسان تسأله هذا معنى قوله تعالى " **ياأيها الذين آمنُوا اتقُـوا اللـه وكُونُوا مع الصادقين** " إذا قُلت أنا لا أُريد أية جماعة ولا أية جهة ولا أي إنسان وليس لي ثقة بأحد .. فماذا يحدث بالضبط كُن واقعياً .. ليس لك ثقة بإنسان ولا بداعية ولا بعالِم ولا بجامع ولا بجماعة ... كُلُهم كاذبون .. راقب نفسك تجد نفسك وحيداً محاطاً بأُناس بعيدين ، محـاط بأُناس شهوانيين ، محاط بأُناس دنيويين ، من جانس جالس ، عندما أنتَ تكون في بيئة منحرفة أو كافرة أو فاجرة أو فاسقة تُحس بحالك بعد فترة من الزمن صرتَ مثلهم وأنتَ لا تـدري .. إذاً لابد لك من بيئة طيبة ، لابد من بيئة تنبتُ فيها .

وجود رسول أو وجود عالِم أو مرشد أو مؤمنين .. أنا أُعمم .. لابد لك مـن بيئـة صالحة ، لو فرضنا أن إنساناً مؤمناً وكل أصدقائه فسقى لا يصلّون شاربي خمر .. أعتقد لهم تأثير عليه سلبي ، أما إذا مؤمن جلس مع مؤمنين الأول صلّى قيام الليل .. وا أنا يجـب أن أفعل مثله ، الثاني تصدق أمامه بصدقة كبيرة .. هو أفضل منّي وا أنا أيضاً .. تجد المؤمن القوي يأخذُ بيد الضعيف .

لذلك : لا تصحب من لا ينهض بك إلى ا حاله ويدلّك على ا مقاله ، أنتَ اجلس مع أهل الدنيا تُحس بهبوط ، أيام الطائرة تكون محلّقة في الأجواء فجأةً تهوي خمسـين متـراً فقلوب الركّاب تنخلع ولا سيما الراكب أول مرة .. ماذا حصل ؟ هذه الطائرة دخلت في جيبٍ هوائي فهبطت ، وأنتَ أحياناً أيها الأخ الكريم لك إخوانُك ولك مجالس العلم وعلاقاتُك كُلُها مع مؤمنين أُناس طاهرين ، مهذّبين ، محبين ، يصلّون ، يذكُرون ، يتورعون ، ينصحون ، كأنك بين أهلك في بحبوحة ، إجلس فجأةً مع أهل الدنيا .. من مزاحهم الرخيص ، مـن مـزاحهم الجِنسي ، من قنصهم ، من تعليقاتُهم اللاذعة ، من وقاحتُهم أحياناً ، من انحرافهم الأخلاقي ، من شهوانيتهم ..... تُحس كأنك تلوثت وهبطت ، فأنا أقول لكم الركن الرابع لا يمكن أن تلتزم وتتنامى وينمو إيمانُك إلا في بيئة طيبة هذا معنى قوله تعالى آية كبيرة :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴿١٣﴾

(سورة الممتحنة)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾

(سورة المائدة)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾

(سورة الممتحنة)

آيات كثيرة .....

﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾

(سورة التوبة)

.. بعد أن تتعرفَ إلى ا من خلال الكون والحوادث والقُرآن ، ومن خلال معرِفته ومعرِفة أمرِه ، ومن خلال التلقّي أو الإلقاء من خلال الكونِ أو القُرآن ، وبعد أن تستقيم على أمرِ ا فتُزيلَ كُل العقبات من الطريق إلى ا وبعد أن تعملَ صالِحاً فتتحرك على طريق الإيمانِ وبعد أن تتصلَ با في الصلاة والصيامِ والحجِ والزكاة والذكرِ والدعاء والتسبيحِ ...... وبعد أن تفعلَ كُل هذا لابد لك من بيئة مؤمنة تعيشُ فيها .

لا يعرِفُ ما نقول كما قالَ ابن عطاء الله السكندري إلا من اقتفى أثـر الرسـول ، الذين عاشوا في بيئات كافرة ، في مجتمعات قاسية في مجتمعات تُرتكب فيه الفواحشُ علـى قارعة الطريق كُلُّ شيء في هذا المجتمع يدعوك إلى معصية الله ، كُلُّ شيء في هذا المجتمع يدعوك إلى الفسق والفجور ، هذا المجتمع لا يعاشُ فيه ، لذلك الإنسان إذا الله أكرمـه ببلـد طيبٍ فيه مساجد ، فيه ذكر ، فيه مجالس علم ، فيه بقية حياء بقية ورع بقية تقوى بقية صلاح بقية عمل صالح ... هذه أرض مباركة ، بلدةٌ طيبة على الرغمِ من كُل السـلبيات لا تعـرِفُ قيمتها إلا إذا تركتها .

أحد أخواننا الكرام ذهب إلى بلد أجنبي بعيد جداً وله منصب لابأس به ويعيش فـي طمأنينة وبحبوحة حدثّني أنه سمع قرآناً يتلى من بعض المراكز الإسلامية في هذا البلد الكبير الحضاري المتقدم حنّت نفسه إلى بلاده وشعر بأشواقه إلى بلاده الإسـلامية وإلـى المسـاجد ومجالس العلم وتلاوة القرآن ، المؤمن دائماً يشعر بانتمائه إلى إسلامه وإلى بلده .

إذاً : الركن الرابع في آيات كثيرة جداً وفي أحاديث كثيرة جداً هذا الركن الرابع أن تكون بين جماعة مؤمنة ، سافر الأن مع ثلاثة مؤمنين الصلوات ، الذكر ، الفجـر ، وسـافر وحدك أميل إلى التحلل والتفلّت ، الجماعةُ رحمة والفُرقةُ عذاب ، إن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنينِ أبعد وإنما يأكُلُ الذئب من الغنمِ القاصية .

أحياناً يجب أن نعود إلى كُل الدين ، إلى أُصول الدين هذا هو الـدين .. معرِفـةٌ ، .. أنا أذكر دائماً وكثيراً أن الإنسان خُلقَ ليعبد الله عز وجل بدليل الآية القطعية في دلالتها :

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

(سورة الذاريات)

" **وما خَلقْتُ الْجِن والإنس إلا لِيعبدون** " العبادة ثلاث مراحل : طاعة قبلها معرِفـة وبعدها سعادة . هذا كُل الدين ، سلوك مبني على معرفة يفضي إلى سعادة ، والسعادةُ هـدفُ كُل مخلوق حي ، يعني في النهاية أنتَ خُلقتَ للجنة والجنة كُلُها سعادة ، متاعب الدنيا متاعب مؤقتة التكليف مؤقت ، المشقّة مؤقتة ، مصارعة النفسِ مؤقتة ، لما الإنسان يسـتحق دخـول الجِنان :

ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾

(سورة الحجر)

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣

(سورة الزمر)

قال : المؤمن حينما يأتيه ملك الموت ويطّلع على مقامه في الجنّة يقول لم أر شـراً قط ، لو أن حياتُه كُلها مفعمةُ بالمصائبِ والمتاعب يقول لم أر شراً قط لـو أن حياتَـه كُلّهـا مفعمةٌ بالمتاعبِ والمصائب يقول لم أر شراً قط ، والكافر حينما يعرِفُ مكانَه في النار يصيح صيحةً لو سمعها أهلُ الأرضِ لصعقوا يقول لم أر خيراً قط ، أين بيوتُـه ، أيـن مسـراتُه ، حفلاتُه ، رِحلاتُه ، أين شأنُه ، أين الطعام الذي أكلَه ، أين النساء اللواتي التقى بهـن ، أيـن السهرات الناعمة .. أين هي ؟ كُلُها ذهبت وبقيت تبِعاتُها .

فنحن إذاً بحاجة إلى مجتمع مؤمن ، أنا أشعر عليكم أنه لما الإنسان يحضر مجلـس علم يقول لك وا تأثّرت وشعرت بصفاء و بقي معي يومين ثلاث .. يومين أو ثلاث في ذكر وفي قُرب وفي طُمأنينة وفي قوة نفسية وفي معنويات مرتفعة .

أربع أركان أساسية في الدين ، ركن معرفي طلب علم بكُل أنواعه العلم با ، العلم بأمرِه ، الحقيقة ، الشريعة ، التفكّر ،التأمل ، دراسة ، سماع ، قراءة ، طلب العلم على إطلاقه ، ثم العمل بشقيه السلبي والإيجابي ، السلبي الاستقامة والإيجابي التقديم ، إنفاق المال ، إنفاق الجهد ، إنفاق الخبرة ، ثم الاتصال با بِكُل ألوانه من صلاة إلى صيام إلى حج إلى زكاة إلى ذكر إلى دعاء إلى إقبال إلى تلاوة قُرآن ، والشيء الرابع أن تحرص علـى أن تكـون فـي مجتمعٍ مسلم لأن هذا المجتمع يقويك ، الجماعةُ رحمة والفُرقةُ عذاب ، عليكم بالجماعة وإياكُم والفُرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنينِ أبعد وإنما يأكُلُ الذئب من الغنمِ القاصية .

والحمد رب العالمين

*****

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون ...... مع الدرس الثـاني والأربعـين مـن دروس مـدارج السالكين في مراتب إياك نعبد وإياك نستعين ومنزلةُ اليوم هي منزلةُ الرضا ، كُلكُم يعلـم أن الإنسان بين حالتين بين حالة رضى وبين حالة سخط ، فالرضا من لوازمِ الإيمان والسخطُ من لوازمِ الكُفر .

أجمع العلماء على أن الرضا مستحب بل إنه مستحب مؤكّد ، ربنا سبحانُه وتعـالى في بعضِ الأحاديث القُدسية يقول : " من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي فليتخذّ ربـاً سواي ".

يعني .. نحن عبيد ِ عز وجل وليس لنا إلا قضاء ا وقَدره والدعاء الذي تدعون به دائماً : اللهم إني عبدك وُابن عبدك وُابن َأمتك ماضٍ في قضاؤك نافذٌ في حكمك ، .. يعني .. بشكل واقعي ليس لنا إلاّ ا عز وجل .

على كُلٍ العلماء يفرقون بين الحال وبين المقام ، المقام كسـبي والحـال وهبـي ، بعضهم يرى أن الرضا حال ومادام حالاً فهو وهبي أي أن ا َ سبحانه وتعـالى يلقـي فـي روعك الرضا أو السخط ، فإن رآك مستقيماً إن رآك مخلصاً إن رآك منيباً إن رآك محباً ألقى في قلبك الرضا بقضائِه وقَدرِه .

على كُلٍ الرضا بالقضاء والقدر له جانب كسبي .. يعني .. أنتَ إذا عرفتَ ا َ عـز وجل وعرفتَ حكمتَه وعرفتَ عدله ورحمتَه تستنبط استنباطاً ثابتاً أن الذي أصـابك محـض حكمة ومحض رحمة ومحض عدلٍ فجانب من الرضا كسبي وجانب منه وهبي ، جانب منـه مقام وجانب منه حال ، على كُلٍ الجمع بين المعنيين يتم على الشكل التالي : إنـك إذا بـذلتَ ماكُلّفتَ به من معرفة ا ِ ومن فهمِ كتابِه ومن الاستقامة على أمرِه جاءك الرضا الوهبي وهو أن ا َ عز وجل يلقي في قلبِك السكينةَ والرضا .

أقول لكم هذه الكلمة : لو أن إنساناً كان في أعلى مستويات الحياة ولم يكُن راضـياً عن ا ِ عز وجل فهو في حالة تعيسة وشقية لا توصف ، ولو أنك في أدنى درجات الحيـاة وكُنتَ راضياً عن ا ِ عز وجل فأنتَ في أسعد الحالات فالعبرةُ ليست في كمية المال بل العبرةُ في الرضا .

يعني النقطة الدقيقة : كمية المال والصحة والحظوظ التي يتفضلُ ا بها على عباده هذه ثابتة ولكن منعكسها هو المهم إذا جاءتك الحظوظ من كُل جانب ولم تكُن راضياً عـن ا

عز وجل فهذا شقاء ، وإن فاتَك أشياء وأشياء من الدنيا وكُنتَ مع ذلك راضياً عـن ا عـز وجل فهذه سعادة .. ماالذي يجعلُك ترضى ؟ .

مثلاً : طفل على كُرسي طبيب الأسنان وفي سنّه ألم شديد ولابد من قلع هذا السـن ولابد قبلَ قلعِ هذا السنِ من مخدر ولابد لهذا المخدر من حقنة .. حينما يتألم الطفلُ يرفض أن يبقى جالساً وقد يصيح وقد يتكلّم كلاماً غير لائق .. لماذا ؟ لأنه لا يعرِفُ أن الطبيب يعمـلُ لِصالِحه ، ولا يعرِفُ أن هذه الإبرة بعد قليل سوفَ تُنسيه الألم الطويل .

ماذا يساوي الرِضا ؟ العلم ، كُلما كان علمك با ِ أكبر كان رِضاك عنه أشد وكُلما كان هناك جهلٌ با ِ عز وجل كان مع الجهل سخط يمكن أن نجمع بين العلم والرِضا وبـين الجهل والسخط ، والإنسان حينما تُكشفُ له الحقائق وحينما يظهر له أن كُل أفعال ا ِ حكيمـةٌ ورحيمةٌ وعادلةٌ وأنه لم يرضها في حينه وأنه سخطَ على ا ِ منها عندئذ يتألّم أشد الألم ، لذلك أيها الأخوة عليكم بالعلم لأن العلم وحده طريقُ الرِضا ، وطريقُ المعرِفة ، وطريقُ السكينة ، وطريقُ كُل ثمرات الإيمان التي نص عليها القرآن .

النبي عليه الصلاة والسلام يقولُ في حديث صحيح :

عنِ الْعباسِ بنِ عبد الْمطلبِ أَنه سمع رسولَ الله صلى اللهم علَيه وسلم يقُولُ ذَاقَ طَعم الإِيمانِ من رضي بِالله ربا وبِالإِسلامِ دينًا وبِمحمد رسولا *

(صحيح مسلم)

" **با ِ رباً** ".. تجد أشخاصاً كثيرين عندهم حالةُ سخط صعبة جداً هذه الحالة سـببها الجهل ، قد يرى أن الأرض يعم فيها الظُلم وأن القوي يأكلُ الضعيف ، وأن الأرض مقبلـةٌ على جفاف في المياه ونقصٍ في الغذاء وأن البشر سوفَ يذوقون الأمرين .. هكذا يقـرأ فـي المقالات ، كُلُ هذه المقالات التي تُسطّر تُسطّر في غفلة عن ا ِ عز وجل كاتبها غافل ، كاتبها لم يقرأ القرآن ، كاتبها لا يعرف ا عز وجل لذلك مر بنا البارحة في أحاديث درسِ الفجرِ أن من أكبرِ الكبائر أن تيأس من روحِ ا .. من أكبر الكبائر اليأس من روحِ ا كُفر .

بالمناسبة الإنسان حينما يستمع إلى أهل الضلال إلى أهل الدنيا إلى المشككين إلـى السوداويين حينما يرسمون لك مستقبل العالم على أنه مظلم وعلى أن القوي سيأكُلُ الضـعيف وعلى أن الفقير سيزداد فقراً وعلى أن الحروب القادمة حروب مياه وعلى أن النبات لن يطعم أهلَ الأرض ... هذا كُلُه كلام أهل الدنيا وأهل الكُفر ، هذا الكلام يبعثُ في الـنفسِ السـخط والضيق والقلق لكنك إذا آمنتَ با ِ رباً ..

ما معنى رب .. رب بيده كُلُ شيء ، آمنتَ بِه إلهاً هو المسير وهو الذي يسـتحقُ العبادة وآمنتَ به رباً هو الممد وهو الحكيم الذي يربي كُل شيء ومن ضمنِ تربيته النفـوس البشرية .. يربيها .

في العيد الماضي زارنا في المسجد رجل من أهل العلم الدنيوي فقالَ لي كلاماً وا ِ أيها الأخوة إذا استوعبتُه كما أراد ليس بإمكاني أن أقف على قدمي ، يتحدثُ عن الجفاف الذي أصاب منطقة دمشق وأن منسوب المياه قد تدنّى كثيراً وأننا مقبِلون علـى جفـاف عـام وأن حوض دمشق آيلٌ إلى اليباس وجاءني بإحصائيات وأدلّة وأرقام ودراسات ومتوسط الأمطـار .. فكيفَ فوجِئنا في العام الماضي بأمطارٍ تزيد عن ثلاثمائة وسبعين ميليمتـر مقابـل ٨٠ أو ١٢٠ ميليمتر في الأعوام الماضية .. أين كانت هذه ؟ هذه مفاجآت ربنا عـز وجـل ، هـذا التشاؤم والسوداوية والنظرة غير المتأنية هذه ربنا عز وجل يبددها :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾

(سورة لقمان)

وأمطار العام من آيات ا الدالّة على عظمته ، لكنّك إذا ظننت أن المطر وحده حل كُل المشكلات يأتيك مطر في وقت غيرِ مناسب فيتلفُ المحاصيل ، لا تعبـد المطـر دون ا إعبد ا َ عز وجل ، فالمطر في غيرِ وقته يتلفُ كُل المحاصيل ، فلـذاك إسـأل ا َ السـلامة والرزق فهل رضيتَ با ِ رباً ؟ أحياناً تستمع إلى أن هذه الجِهة ملَكت العالَم كُلّه وسوفَ تُذلّـه جميعاً .. من قال لك أن هذا يدوم ، هذا خلاف السنّة :

فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾

(سورة البقرة)

وضع استثنائي لا يستمر ، إن جِهةً واحدةً في الأرض تتحكم بالعالمِ كُلّه وتُذلُ العالم كُله هذا شيء لا يستمر لكن امتحان ، كُلُ إناء ينضح بما فيه ، " **فذاقَ طعم الإيمانِ من رضي با ِ رباً وبالإسلام ديناً** " .

.. أحياناً الإنسان يستحيي بإسلامه ، هل يرى أن إسلامه نـاقص .. فـي أشـياء صعب تطبيقُها .. محرجة .. لا تُصافح .. ماذا أقول لها أنا موظف ، لما أنتَ تستحي بأوامر ربنا عز وجل ، عندما تستحي بالنواهي وتستحي بالتشريع .. لا تراه كاملاً ، لا تراه تاماً ، لا تراه يتناسب مع هذا العصر معنى هذا أنك لم ترض بالإسلامِ ديناً .. يجب أن ترضى با ِ رباً

وبالإسلامِ ديناً وبمحمد صلى ا عليه وسلم نبياً ورسولاً ، يعني هل رضيتَ بسنته ، هل تعتز بسنته ، .. يعني .. أمرك أن تفعلَ كذا وتفعلَ كذا وأن تجتنب كذا وأن تجتنب كذا .. هل أنتَ في مستوى سنته .

إذاً : أحد علامات إيمانك أن ترضى با ـ رباً وبالإسلامِ ديناً وبمحمد صلى ا عليه وسلم رسولاً ، لي عندكم سؤال : تذوقُ طعم الإيمانِ فترضى با ـ رباً وبالإسلامِ ديناً وبمحمد صلى ا عليه وسلم رسولاً أم ماذا .. أيهما أول ؟.

انظر : " **ذاقَ طعم الإيمانِ من رضي با ـ رباً وبالإسلام ديناً وبمحمـد صـلى ا عليه وسلم رسولاً** "، يوجد حدثين : حدث الرضا وحدث ذوق طعم الإيمان أيهمـا أول ؟ إذا رضيتَ با ـ رباً وبالإسلامِ ديناً وبمحمد صلى ا ُ عليه وسلم نبياً ورسولاً عندئذ تـذوقُ طعـم الإيمان ، صار معنى الحديث : أنه من رضي با ـ رباً وبالإسلامِ ديناً وبمحمد نبيـاً ورسـولاً ذاقَ طعم الإيمان ، فجاء النبي بصيغة فيها تقديم وتأخير وطبعاً التقديم والتأخير فـي العربيـة وارد وهو من البلاغة التقديم والتأخير ، وقالَ عليه الصلاةُ والسلام في حديث رواه مسلم :

عن سعد بنِ أَبِي وقاصٍ عن رسول الله صلى اللهم عليه وسلم أَنه قَالَ من قَالَ حـين يسـمع الْمؤَذن أَشْهد أَن لا إِلَه إِلا الله وحده لا شرِيك له وأَن محمدًا عبده ورسولُه رضيتُ بِالله ربـا وبِمحمد رسولا وبِالإِسلامِ دينًا غُفر له ذَنْبه *

(رواه مسلم)

الحقيقة عندما يرضى با رباً يستقيم على أمرِه ، وبالإسلامِ ديناً يتبـع أحكامـه ، وبمحمد نبياً يقتدي بسنته ، إذاً ليست له ذنوب عندئذ تُمحى ذنوبه وتُقبلُ التوبة .

في نقطة دقيقة في الموضوع : الرضا كسبي كما قُلت قبلَ قليل يعني أنتَ إذا عرفتَ ا َ رضيتَ عنه ، يعني إذا كان طفل صغير رأى صديقَه يتلقّى ضربات من والِده يقول هـذا الطفل الصغير : هذا الأب ظالم ، أما إذا كُنتَ أباً وتعرِفُ مشاعر الأب تجاه ابنـه وحرصـه على أخلاق ابنه وحرصه على مستقبل ابنه ورأى ابنَه منحرِفاً قليلاً فأدبه فالأب يفسر التأديب لا على أنه ظُلم ُفسره على أنه رحمة وحكمة وعدل وحب وتربية ، فكُلمـا ارتقـى مسـتواك الإيماني ارتقى مع مستواك الإيماني رِضاك عن ا عز وجل .

لذاك قالوا : من رضي عن ربِه فقد عرفَه ومن عرفَ ربه رضي عن ربِه .. يعني .. الرضا عن ا علامة معرِفة ومعرِفةُ ا عز وجل تُثمر الرضا علاقة تقابلِ .

في نقطة دقيقة : هو أن ا َ سبحانه وتعالى حينما خلقَ العباد خلقَهم ليسعدهم إذاً هو أحبهم لكن حينما هم يستقيمون على أمرِه ويعبدونَه حق العبادة ويحبونَه يحبهم محبةً ُأخـرى ، واحد كرم ابنَه .. دليل محبته أما حينما يكون هذا الابن باراً بأبيه يأتي حب آخر حـب البِـر هناك حب النبوة وهناك حب البِر .

لذلك أنتَ حينما ترضى عن ا ِ عز وجل يرضى ا ُ عنك لأنك رضيتَ عنـه ، .. يعني .. أجمل موقف أنه عبد مؤمن تأتيه مصيبة فيخاطب ا َ عز وجل يقول : يـارب إنـي راضٍ عنك

حدثني أخ في مستشفى : جاء مريض معه ورم خبيث في أمعائه وقد سمعتُ أن لهذا المرض آلاماً لا تُطاق لأنه آلام الأمعاء آلام ضغط :

مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

(سورة محمد)

آلام الأمعاء لا تُطاق فإذا كان في الأمعاء ورم خبيث فإنه يسبب آلامـاً لا يحتملُهـا أشد الرجال جلداً ، فجاء مريض مؤمن إلى مستشفى وقد أُصيب بمرضٍ خبيث فـي أمعائِـه والآلام التي يعانيها لا تُطاق وصفَ أحدهم حالته كان يمسك بكلتا يديه على أطراف السـرير لِئلا يصيح لأنه يرى في الصياحِ تبرماً بقضاء ا ِ وقدره ، فكُلما دخلَ عليـه مـن يعـوده أو الطبيب أو الممرض يقول له اشهد أني راضٍ عن ا .

يعني .. أكمل موقف يقفُه المؤمن إذا جاءه ما يكرهه يقول يارب أنا راضٍ بقضائِك ، ياربي لك الحمد والشُكر والنعمةَ والرضا ، فلذلك الصبر عند الصدمة الأولى بين السـاخط والراضي زمن فقط لأن الساخط بعدئذ سوفَ يرضى شاء أم أبى لكن البطولة أن ترضى عن ا ِ عز وجل عند الصدمة الأولى ، حينما يتلقّى نبأ الرسوب وكان قد بذلَ جهـده الجهيـد .. ياربي لك الحمد .. هكذا إخترتَ لي ، حينما يتلقى أن اسمه لم يدرج بين الناجحين فـي هـذه المسابقة لهذه الوظيفة يقول يارب رضيتُ بِك رباً وبقضائِك وبقدرِك .

العلماء قالوا : " الرضا باب ا ِ الأعظم ".. يعني .. أنتَ بالرضا تـدخُلُ علـى ا وبالسخط تحتجب عنه وراقبوا أنفسكم ، إذا الإنسان جاءته قضية مزعجة فـرأى أن ا قـد ظلمه بها يجب أن ييسره لها فلم ييسره لها .. ا حرمه إياها ، ا أهانه ، هذا الشعور يحجبه عن ا عز وجل لهذا ا عز وجل يقول :

فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ
﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ

(سورة الفجر)

.. يعني .. ياعبادي ليس عطائي إكراماً ولا منعي حرماناً ، عطائي إبتلاء وحرماني دواء ، الذي أرجوه من إخوتنا الأكارم إذا شيء لم يصح لك ا عز وجل صرفَ عنك شيئاً تبتغيه لا تُحس أنك مهان عند ا عز وجل هذا شعور شيطاني .. ا لا يحبني ، لم يعطيني ، حرمني ، أعطى فُلان وحرمني ، هذا الشعور شعور شيطاني ، اشعر أو قُل الحديثَ النبوي الشريف :

" إن ا َ ليحمي صفيه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام ، وفي رواية : إن ا َ ليحمي عبده من الدنيا كما يحمي الراعي الشفيق غنَمه من مراتع الهلَكة " .

ولن تعرِف ا َ عز وجل إلا إذا استوى عندك أن تأتيك الدنيا أو أن تُزوى عنك لذلك أجمل دعاء دعاه النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الموطن .. يقولُ عليه الصلاة والسلام :

عن عبد الله بن يزِيد الْخَطْمي الأَنْصارِي عن رسول الله صلى اللهم عليه وسلم أَنه كان يقُولُ في دعائِه اللهم ارزقْني حبك وحب من ينْفَعني حبه عنْدك اللهم ما رزقْتَني مما أُحب فَاجعلْه قُوةً لِي فيما تُحب اللهم وما زويتَ عني مما أُحب فَاجعلْه فَراغًا لِي فيما تُحب *

(سنن الترمذي)

أعطاك مالاً ، ليكُن هذا المال مبذولاً في الحق ، زوى عنك المال ليكن الفراغ الذي نشأ من حرمانك من المال في سبيل ا ، .. أحياناً الإنسان يكون زواجه ناجحاً جداً .. طبعاً أكثر وقتُه مع زوجته ، أحياناً يكون زواجه غير ناجح فيصبح عنده فراغ يجلس في الغرفة وحده .

مثلاً .. عنده فراغ ناتج من زواج غير ناجح ياربي اجعل هذا الفراغ في سبيلك ، أنتَ مثل المنشار على الحالتين رابح ، إن أعطاك ا ُ ما تبتغي فهو في سبيل ا ، وإن زوى عنك ما تُحب فهو في سبيل ا .. هذه حال المؤمن ..

حدثَنَا ثَابِتٌ عن عبد الرحمن بن أَبِي لَيلَى عن صهيبٍ قَالَ بينَا رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم قَاعد مع أَصحابِه إِذْ ضحك فَقَالَ أَلا تَسأَلُوني مم أَضحك قَالُوا يا رسولَ الله ومم تَضحك قَالَ عجِبتُ لأَمرِ الْمؤْمنِ إِن أَمره كُله خَير إِن أَصابه ما يحب حمد الله وكَان لَه خَير وإِن أَصابه ما يكْره فَصبر كَان لَه خَير ولَيس كُل أَحد أَمره كُله لَه خَير إِلا الْمؤْمن *

(مسند الإمام أحمد)

والحمد المشهور : الحمد ِ الذي لايحمد على مكروه سواه والنبي عليـه الصـلاة والسلام كان يقول :

عن عائِشَةَ قَالَتْ كان رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم إِذَا رأى ما يحب قَالَ الْحمد لِله الـذي بنعمته تَتم الصالِحاتُ وإِذَا رأَى ما يكْره قَالَ الْحمد لِله علَى كُل حالٍ *

(سنن ابن ماجة)

قيل لأحد العارفين با : متى يبلُغُ العبد مقام الرضا ؟ قالَ إذا أقام نفسه على أربعة أُصول : ياربي إن أعطيتني قبلت ، وإن منعتني رضيت ، وإن تركتني عبدت ، وإن دعوتني أجبت .. هذا مقام العبودية : أعطاك راضٍ ، زوى عنك راضٍ ، دعاك تسـتجيب ، تركـك تعبده .

يعني .. في أشخاص عبيداً بل عبيد للأحوال فإذا كان بالصلاة مسروراً فيصلي ، وإلا تركها .. ما فيها شيء الصلاة .. هذا جاهل جهلاً كبيراً ، أنا أُصلي إن تجلّى ا ُ علي أو لم يتجلّ ، إن تجلّى فهذه نفحة من نفحات ا .. الحمد .. وإذا لم يتجلّ أُصـلي ، أجلـس للذكر إن وجدت في الذكر تجلّ .. الحمد .. لم يحدث تجلّ .. أنا واجبي جلست .. ،

أخلق بذي الصبرِ أن يحظى بحاجته

ومدمن القرع للأبوبِ أن يلجا

إذا ربنا عز وجل رآك جلستَ في الصبح لتذكُر أن تقرأ القُرآن أو تُفكّر فلم يظهر معك شيء ففي اليوم التالي لا تجلس .. يقول لك مقفلة .. أما المؤمن يجلس .. في نفحة الحمد ، مافي نفحة أنا أديتُ واجبي .. إذا ا رأى إلحاحك وثباتك وإصرارك عندئذ يفتح لك أبـواب رحمته .

.. ا ُ عز وجل عزيز ، على أول طلب لا يجيب ، من كان يرجو لِقاء ا ِ فإن أجلَ ا ِ لآت .. لآت .. هذه للمستقبل ، أنتَ طلبت ، وألححـت ، واتخـذت الأسـباب ، وفعلـتَ موجبات الرحمة وعلى ا ِ الباقي .. هذا الذي علي قد أنجزتُه .

فأخواننا الكرام أقول لكم هذا الكلام إن شاء ا بإخلاص إذا إنسان ألزم نفسه بجلسة صباحية مع ا عز وجل لا يجعل الجلسة متعلّقة بالحال .. أخي لم أشعر بشـيء ... اجلـس هذه الجلسة في كُل الأحوال ، لك جلسة ذكر ولو ربع ساعة ألفي مرة ا ، لك جلسة قـرآن ولو خمس صفحات أو ١٠ او ١٥ أو ٢٠ ، لك ركعتين قيام الليل قبل الفجر ، أنتَ اثبت على هذا أيام وأيام ، أسابيع وأسابيع ، بعد أن يراك ا ُ ثابتاً وبعد أن يـراك ا ُ صـادقاً ومتشـبثاً ومصراً وملحاً وصابراً عندئذ يفتح عليك ، الفتح لا يأتي من أول لحظة ، مـن أول جلسـة ، وحينما تتبع صباحاً في جلسة مع ا ِ عز وجل .

واِ أيها الأخوة الأكارم لا يعلم إلا ا ثمارها في أثناء اليوم ، أول ثمرةَ تُحـس أنك في حصن بينك وبين المخالفات مسافات بعيدة جداً أما إذا لم يكُن لك جلسة مع ا صباحاً تُحس أنك على الحافة ممكن أن تغلط دائماً بكلامك ، بحركاتك بسكناتك ، كانك على الحافّـة .. على حرف .. ، أما إذا كان لك مع ا جلسة ذكر ، جلسة تلاوة ، جلسة تفكـر ، جلسـة صلاة ، هذه الجلسة تنعكس على نهارِك كُلّه ، أولاً الحفظ ، ثانياً سواد في التفكير ، سـلامة في القول ، حصافة في القرار :

وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾

(سورة الطور)

لذاك لا تعجز ابن آدم عن ركعتين قبلَ الفجرِ أكفك النهار كُلّه إن أعطيتني قبِلـت ، وإن منعتني رضيت ، وإن تركتني عبدت ، وإن دعوتني أجبت .

الإمام الجنيد يقول : " الرضا هو صحةُ العلمِ " كما قُلت قبلَ قليل علامـة الرضـا العلم .. تعلم .. انظر للراشد عند طبيب الأسنان طبعاً يتألم جداً حينما يتلقى المخدر ومع ذلك يسكت ويشكُر الطبيب ويعطيه الأجر ، لأنه موقن أن عملَ الطبيب ِلصالِحه ، فكُلمـا ارتقـى علمك ارتقى رضاك .

الآن : الرضا والمحبة ليست كالرجاء والخوف يوم القيامة ، الرجاء والخوف يزول يوم القيامة ، في رجاء يوم القيامة ؟ واحد دخل الجنة كان يرجوها في الدنيا فدخلَها .. انتهـى الرجاء .. ، كان يخافُ النار فوقاه ا ُ منها .. انتهى الخوف .. ، فالخوف والرجاء حالانِ من أحوال أهل الدنيا لكن الرضا والمحبة حـالانِ مسـتمران إلـى الآخـرة .. إلـى الجنـة .. في نقطة مهمة .. في وهم كبير .. يظُن بعض أخواننا أن المؤمن العالي الذي إيمانُه كبيـر لا يتألّم للمصيبة ، هذا كلام غير واقعي هو يتألّم لكن لا يسخَطُ على ا ، واحد ابنه مـرِض .. يقال له : أخي أنتَ لو كان إيمانك قوياً تفرح .. لا الكلام غير واقعي .. المرض مؤلم ، الألم ألم .

النبي عليه الصلاة والسلام حينما ماتَ ابنُه ابراهيم ذرفت بعض دموعه فقالَ أحـد أصحابه يا رسولَ ا أتبكي ؟ فقالَ عليه الصلاة والسلام بواقعية : إن العين لتدمع وإن القلـب ليخشع ولا نقولُ ما يسخطُ الرب وإنّا عليك يا ابراهيم لمحزونون ، فحتى الواحـد يتـوازن : ليس معنى الرضا أن لا تتألم من المصيبة ، المصيبةُ مصيبة والمصيبة مؤلمة والذي يتألّم مـا فعلَ شيئاً خلافَ الشرع ، لكن هناك ألم محفوف بالرضا والتسليم لقضاء ا وقدرِه ، وهنـاك ألم محفوف بالسخط ، فالعالِم يتألّم ويرضى والجاهل يتألّم ويسخَط أما التألّم شيء واقعي .

ليست البطولةُ أن تنجو من كُل مصائبِ الدنيا .. لا .. لأن ا ً عز وجل شاءت حكمتَه أن تكون الدنيا محفوفةً بالمكاره ، تكلّمت البارحة في درس الجمعة واحد كان في بيـت فيـه رطوبة كبيرة جداً تحت الأرض وشمالي فاشترى بيتاً في الطابق الثالث طابق وقبلي فقـال : الحمد الذي نجانا من الرطوبة والظلام .. هو هذا الكلام كلام حمد لكن فيه وصف ِلما كان عليه من قبل .. عندما قال أهل الجنة :

وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾

(سورة فاطر)

ما معنى كلامهم هذا ؟ أن الدنيا مركّبةٌ على الحزن ، أساسها الحـزن ، لا يوجـد مرحلة إلاّ فيها مشكلات ، دخل طالب المرحلة الابتدائية أيام يأخذ عقابه لعدم كتابته الوظيفة ، في الإعدادي يرحف ، في الجامعة يرسبونه ، في الزواج .. في متاعب من أيام الخطبة حتى الزواج ، لا ينام حتى الصبح ، أنجب أولاداً ابنه حرارته ٤١ يااترى التهاب السحايا .. لا ينام الليل .. لاحظ حياتنا كُلُها سلسلة متاعب .. هكذا شاء ا ً عز وجل .. لأن هذه الدنيا أساسـها ابتلاء : إن هذه الدنيا دار إلتواء لا دار استواء .

لاحظ الناس : أحدهم ا رزقه زوجة صالحة لكن أولاده ليسوا أبـراراً ، وواحـد بالعكس أولاده أبرار وزوجتُه سيئة ، واحد أولاده أبرار وزوجته صالحة لكن دخلُـه قليـل ، واحد دخلُه كثير لكن ليس عنده أولاد .. عقيم .. ، وواحد عنده أولاد كُثُر لكن فقير ، وواحـد أولاده أبرار وزوجتُه جيدة وغني وعنده علل في جسمه ، طبيعة الحياة الدنيا مركبـةٌ علـى الابتلاء :

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

(سورة المؤمنون)

هكذا طبيعة الدنيا ، الإنسان متى يسعد في الدنيا ؟ إذا عرفَ أنها مركبةٌ على الحزن ، صار حزنُه متوقّعاً .. هكذا الحياة ..

مرة جاؤوا بطيار وقد قصفَ مدينةً وأروه نتائج عمله فاجأب إجابة ذكية جداً قـال : هكذا الحرب ، الحرب إلقاء ورود ؟ الحرب إلقاء قنابل ، فلما قيلَ له هكذا فعلت ، إنظر إلـى جريمتك ، إنظر إلى هذه الأبنية ، قال : هكذا الحرب ، أحياناً تجد أخاً يعمـل فـي التجـارة مهموماً وخسائره كبيرة .... نقول له هكذا التجارة ، من قال لك التجارة كُلُها أرباح ، من قال

اك ؟ هذا كلام ساذج ، كلام مضحك ، هكذا التجارة فيها متاعب ، بالوظيفة متضايق .. هكذا الوظيفة فيها قيود .. لكن معها راحة بال إذا كان الدخل كافياً ، هذه فيها راحة بال مع قيود ، هذه فيها قلق وهم مع دخل غير محدود ، كُل شيء له ميزات وله مساوئ .

عندك مركبة ٣ طن وزنُها مريحة جداً في السفر لكن كُل ٥٠ كيلو تحتاج إلى تنكـة ، وعند غيرك مركبة وزنُها ٥٠٠ كيلو تعمل بالتنكة ٣٥٠ ففكّرت وقلت : أنا أحتاج إلى سـيارة وزنُها ٣ طن وتعمل بالتنكة ٣٥٠ .. هل أنتَ حالم ؟ هذا شيء غير موجود بعالم السيارات ، إذا أردتَ أن تتمتع بوزنها الشديد فمصروفها كبير وتتحمل الوزن الخفيف فتوفّر بـالوقود .. هكذا الدنيا .. من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه .

إذاً : ليس من شرط الرضا أن تسعد بالمصائب ، الإنسان غير عاقل ... إذا كـان محروماً أو توفي ابنه وهو يقول .. أخي أنا فرحان .. ما هذا الكلام ؟ الابن غالٍ لكـن أنـتَ تتألم ولا تقولُ ما يسخطُ الرب هذه حال الرضا .

بعض ثمرات الرضا ، قيل للحسين ابنِ علي رضي ا ُ عنهما إن أبا ذرٍ رضـي ا ُ عنه يقول : الفقر أحب إلي من الغنى والسقَم " المرض " أحب إلي من الصحة ، فقالَ : رحـم ا ُ أبا ذر أما أنا فأقول : من اتكلَ على حسن اختيارِ ا ِ له لم يتمنّى غير ما اختار ا ُ له .. من اتكلَ على حسن اختيارِ ا ِ له لم يتمنّى غير ما اختار ا ُ له .. ا ُ أقامك فـي وظيفـة .. ياربي هذا اختيارك وأنتَ أعلم وأرحم وتعلم ما يصلحنُي وما لا يصلحنُي .

حالة المؤمن مع ا عز وجل استسلام ، ا اختارك في عمل شـاق .. أخـي أنـا طبيب أعمل ليلاً نهاراً ، أسعى في الساعة ٢ والساعة ٣ والساعة ٤ والساعة ١٢ ومحـروم أهلي وأولادي .. ا ُ أقامك طبيب اختار لك أن تكون طبيباً فأد هذه المهمة كما أرادهـا ا .. كلمة احفظوها أيها الأخوة .. - من إتكلَ على حسنِ اختيارِ ا ِ لُه لم يتمنى غير ما اختار ا ُ له - .

بعضهم قال طريقتي الفرح با ِ والسرور به بقضائِه وقدرِه ، قيلَ لِبشر الحـافي : " الرضا أفضلُ من الزهدِ في الدنيا لأن الراضي لا يتمنى فوقَ منزلته " ، الراضي رضي بمـا قضاه ا ُ لُه ، أبو عثمان سئل عن قول النبي صلى ا عليه وسلم : اللهم إني أسألُك الرضـا بعد القضاء فقالَ المسؤول : إن الرضا قبلَ القضاء عزم على الرضا لكنه بعد القضـاء هـو الرضا الحقيقي .

أيام الإنسان يتوهم لو أصابني مكروه أنا راضٍ .. هذا افتراض .. أما إذا أصـابك المكروه فعلاً .. هنا المحك .. ، قبل أن أحضر للدرس زارني إخوان مـن الميـدان مهنئـين بالحج قُلت لهم ا ُ عز وجل ضمن الحج يعالج الحجاج ، قال كيف ؟ قُلت : أيام يكـون فـي حاج معتمد على ماله فطلب خيمة مكيفة مع ثلاث وجبات ساخنة وباردة وخدمة ممتازة وباص

مكيف .. هذا كيفَ يعالج ؟ يتوه عن خيمته يومين يكون في حاج آخر انطلقَ إلى الحج وهو يرى مكانتَه في بلده ، له اسم .. اسم علمي ، مالي ، اقتصادي ، رتبة مثلاً ، وظيفة ، ا ُ يلهم موظف صغير جداً في المطار أن يزدريه ، .. ا عالج الحاج بهذه الطريقة .

أيام يكون الحاج مفتقراً إلى ا عز وجل فتجد الأمور تيسرت أكرمـوه والطريـق سهل والوقوف قليل والبيت جاهز والطواف سهل وا ألهمه بوقت ليس فيه ازدحام ، ا عز وجل حتى الحجاج يعالِجهم في الحج ، في شخص قال أنا لا أحج إلا بأرقى مستوى ، واحـد معه مال يجب أن تظهر نعم ا ُ عليه فاختار بمِنى فندقاً فخماً أقسم با تاه عنه ثلاثةَ أيـام ، كُلُكم يعلم بالحج موضوع التيه بالحج وارد .. تاه عنه ثلاثة أيام .. فمن اتكلَ على مالِه ضـلّ ومن اتكلَ على قوته ذلّ ومن اتكلَ على ا ِ لا ضل ولا ذلّ ، أن يتكلَ على غير ا عز وجل ا ُ عز وجل يسحب من تحت قدمه البساط محبةً له .

ذهب أحدهم إلى الحج هو في بلده أحوال وإقبال وأوراد وأذكار وقيام الليل وإنفـاق وخدمة الناس .. متوقّع أنه سيجد بالحج تجليات ونفحات ربانية بشكل غير معقول . ... لكن ذهب إلى هناك واعتد بأحوالِه فحجِب عن الأحوال كُلها في الحج ، طاف ، سعى ما في شيء ، عرفات مافي شيء ، .. عادي .. أين أحوالُه ؟ عالجه ا بأن حجبه عن الأحوال تأديباً له ، فممكن الإنسان أن يتعالج بأن يحجب ا عنه الأحوال ، إذا كان قد ظن بأن مكانتـه كبيـرة يتعالج عند شخص يزدريه أحياناً ، إذا كان معتمداً على مالُه يضعه في مشكلة المال لا يحلُهـا ، يوجد في الحياة آلاف المشاكل .

شخص قال كلمة قُلتُ وا ِ في نفسي نجاه ا ُ من عقابيلها قال : كُل شـيء بالمـال يحلّ هذه كلمة كبيرة جداً ، ا ُ في عنده مليون مصيبة .. مليار مصيبة لو معك ألف مليون لا تساوي شيئاً ، أنا كُنت عند طبيب صديق جاءه هاتف يقولون بـالحرف الواحـد : أي مكـان بالعالم مهما كان الرقم بالملايين قالَ لي وا مافي أمل ، الورم الخبيث بلغ الدرجة الخامسة لا تُتعبوا أنفسكم ، أي مكان بالعالم مهما كان المبلغ كبيراً لن يفيد ، فإذا الإنسان قال : كُل شيء يحل بالمال .. هذه كلمة كبيرة ، أنا أقول نجاه ا ُ من عقابيلها ، عقابيلها التأديب .

فالرضا الحقيقي متى ، قبل أم بعد ؟ .. بعد .. قبل توقّع هذا رضا افتراضـي أمـا الحقيقي بعد ، من تعريف الرضا قال الرضا ارتفاع الجزع في أي حكمٍ كان ، مـن تعريـف الرضا رفع الاختيار اللهم خر لي واختر لي ، الراضي يعيش بسعادة كبيرة جداً ، .. يعني .. يتمثّل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

(سورة التوبة)

أحدهم باع البيت ، الشاري أحب أن يزيل حائطاً، لماذا تُزيل الحائط ؟ ألم تبع أنـتَ البيت ، ما دام بعت فالشاري حر ، فأنتَ بعت والـ اشترى أحب أن يعطيك ، أحب أن يمنعك ، أحب أن يسرك ، إذا أنتَ فعلاً بعت فالبائع ليس له حق أن يتدخّل مع الشاري .. ا اشترى .

تعاريف الرضا : استقبالُ الأحكامِ بالفرح ، ومن تعاريف الرضا سكون القلب تحتَ مجاري الأحكام ، وكتب عمر ابن الخطاب رضي ا ُ عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي ا ُ عنهما : أما بعد .. فإن الخير كُلّه في الرضا فإن استطعتَ أن ترضى وإلا فاصبر .

آخر شيء في الرضا : الرضا أقسام ثلاث : رضا العوام بما قسمه ا ُ وأعطـى ، ورضا الخواص بما قدره وقضاه ، ورضا خواص الخواص به بدلاً عن كُل ما سواه .

سيدنا الصديق ما ندم على شيء فاتَه من الدنيا قط فينبغي أن ترضى بما قسـمه ا لك ، وينبغي أن ترضى بقضاء ا ِ وقدرِه ، وينبغي أن ترضى با ِ بدلاً عن كُل ما سـواه .. إلهي أنتَ مقصودي ورضاك مطلوبي ..

والحمد رب العالمين

*****

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم ...... مع الدرس الثالث والأربعين من دروس مدارج السالكين في مراتب إياك نعبد وإياك نستعين ومنزلةُ اليوم هي منزلةُ المعرفة .

ما من كلمة فيما أظن تدور على ألسنة العلماء والدعاة إلى ا ككلمة : فُلان يعرفُ ا وفُلان لا يعرِفه ، بل إن الدعاةَ إلى ا ِ ألِفوا أن يعزوا كُل عملٍ سيء إلى سببٍ واحد هـو أن صاحبه لا يعرف ا ، وأن كُل عملٍ طيب يعزى هذا العمل إلـى سـببٍ واحـد هـو أن صاحبه يعرف ا ، لكن في الأمور المادية القضايا ليس فيها إلتباس .. هذه طاولـة خشـب باديةٌ للعين لا شك فيها .. الأشياء المادية لها علامات تُدرِكُها الحواس بشكلٍ بسيط مـن دونِ تعقيد ، لكن الأشياء الإنسانية المعنوية كامنةٌ في النفس هناك من يدعيها وهناك من يتحققُ منها ، فكلمة عارِفٌ با أو فُلان يعرِفُ ا هذه كلمة .

الحقيقة : أن الناس .. وهذا كلام دقيق .. أن الناس رجلان لا ثالثَ لهما إطلاقـاً ، رجلٌ يعرِفُ ا ، متصلٌ به ، منضبطٌ بأمره ، محسن إلى خلقه ، سعيد به ، ورجلٌ لا يعرف ا إذاً هو مقطوع عنه متفلتٌ من منهجِه ، مسيء إلى خلقه ، شقي بإساءته ، وأنا أعنـي مـا أقول وليس في الأرض كُلها رجل ثالث ،

عن ابنِ عمر أَن رسولَ الله صلى اللهم علَيه وسلم خَطَب الناس يوم فَتْحِ مكةَ فَقَالَ يـا أَيهـا الناس إِن الله قَد أَذْهب عنْكُم عبيةَ الْجاهلية وتَعاظُمها بِآبائِها فَالناس رجلانِ بر تَقي كَرِيم علَى الله وفَاجِر شَقي هين علَى الله والناس بنُو آدم وخَلَقَ الله آدم من تُرابٍ قَالَ الـه (يـا أَيهـا الناس إِنا خَلَقْنَاكُم من ذَكَرٍ وأُنْثَى وجعلْنَاكُم شُعوبا وقَبائِلَ لِتَعارفُوا إِن أَكْرمكُم عنْد الله أَتْقَاكُم إِن الله عليم خَبِير) *

(سنن الترمذي)

كُل هذه التقسيمات والتفريعات التي تَرونَها وتستمعون إليها تفريعاتٌ ليسـت واقعيـة ، الشيء الواقعي : إنسان يعرف وإنسان لا يعرف الذي يعرف يعبد والذي يعبد يسعد ، والـذي لا يعرف لايعبد والذي لا يعبد لا يسعد ، يعرف : موصول منضبط محسن سعيد ، لا يعرف : مقطوع متفلت مسيء شقي ، فنحن الأن درسنا : هل هناك علامات أو إشارات أو دلائـل أو قواعد أو أدلّة أو براهين تؤكّد أن فُلاناً يعرِفُ ا وفُلان لا يعرِفُه .

يعني مثلاً : لو واحد أمسك كتاب جغرافيا ونظر إلى خارطة للشـرق الأوسـط ورأى دمشق قد رسمت دائِرتُها على الساحل السوري وقال شيء جيد ، كتاب ممتـاز ، لـيس فيـه

أغلاط ، هل هذا الإنسان يعرِفُ دمشق ؟ مستحيل أن يعرِفَها ، لو أنه يعرفَها لقال هذا غلط أنا أسكن في الشام والشام ليست مدينة ساحلية .

فُلان يعرِفُ ا .. كُل قد يدعي ذلك ، فُلان لا يعرِف ا نحن قد نتهم الآخرين بـ ذلك ، هل هناك قواعد ، أدلة ، براهين ، مؤشرات ، هذه لنا ولغيرنا ، ا عز وجل ماذا قال ؟ قـالَ :

وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾

(سورة المائدة)

ا عز وجل أعطانا إشارة ، الإنسان يبكي دون وجع ولا خوف ولا حزن ، في أعلى درجات راحته النفيسة واطمئنانه وقوته ويبكي شوقاً ِ عز وجل ، بكاؤه علامـة المعرِفـة ، ربنا عز وجل يقول " **وإذَا سمعوا ما ُأنزِلَ ِإلى الرسول َترى َأعينَهم َتفيض من الدمع ممـا عرفُوا من الْحق** " .. يعني ..

إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾

(سورة الأنفال)

هذه علامة قرآنية ، الأن إلى علامات لمعرفة ا عز وجل وردت على ألسنة بعض العلماء الكبار ، قال : " المعرِفةُ تُوجِب السكون فمن إزدادت معرِفته ازدادت سكينُته " .

الذي يعرِفُ ا كالجبل ، معنى السكون الاستقرار ، معنى السكون السكينة ، معنى السكون الهيبة ، لأن الذي يعرِف ا َ عز وجل لا يستخّفه فرح ولا يسحقه ألم ، لو فرضـنا إنساناً ُأصيب بمكروه فملأ الدنيا صخَباً وسباباً وشتائم وضرب نفسه ومزق ثيابه وصرخَ بويله .. هل هذا يعرِف ا عز وجل ؟ لا وا . إذاً : معرفة ا جل وعلا توجِب السكينة .

من علامات المؤمن وقاره ، من أين يأتي الوقار ؟ يأتي الوقار من أن هذا الإنسان يـرى أن الفعلَ فعلَ ا ويرى أن ا َ حكيم وأن ا َ عليم وأن ا َ عادل وماشاء ا ُ كان وما لم يشـأ لم يكُن وأن ما أراده ا وقع وأن شيئاً إذا وقع قد أراده ا عز وجل وأن إرادة ا ِ عز وجل متعلقةٌ بالحكمة المطلقة وحكمتُه متعلّقةٌ بالخير المطلق .. هذه حقائق تجعلُه وقـوراً ، تجعلُـه

مهاباً ، تجعلُه مطمئناً ، تجعلُه متوازناً ، تجعلُه مستقراً ، تجعلُه متفائلاً ، تجعلُه واثقاً ... هـذه علامة .

عندما الإنسان يصاب بمكروه ويسب ويضرب ويشتم ويكسر ويضرب نفسه ويصـرخُ بويله ويمزقُ ثوبه ... أي معرفة هذه ؟ فعلامة المعرفة : المعرفة تُوجِب السكون فمن إزدادت معرِفتَه إزدادت سكينته .

الحقيقة : الاطمئنان الداخلي ينعكس على الجوارح سكينة واستقراراً ، والخال الـداخلي والضجر الداخلي والخوف الداخلي والقفر الداخلي ينعكس على الجوارح اضـطراباً ، مـرة وجدت إنساناً مركبته في كراج رجعت عليها مركبة فضغطتها قليلاً ، سـب الأديـان وشـتم القديسين ما فيه الكفاية كأنه قد ماتَ ابنُه ، وتجد المؤمن مهما كانت المصيبةُ ساحقةً لا يزيـد عن أن يقولَ : الحمد .

وا ِ التقيت مع أخ ٌأصيب بمرض عضال وجدتُه صابراً ، وجدتُـه مسـتقراً ، وجدتُـه شاكراً .. ياربي لك الحمد ، قالَ لي : قضيت كُل حياتي في طاعة ا مشيئةُ ا ِ أنا أحترمها ، بعد أيام انتقل إلى رحمة ا ، أحدهم جاء إلى مستشفى معه ورم خبيث بالأمعاء ، وهذا الورم بالأمعاء له آلام لا تحتملُها الجِبال ومع ذلك ما سمعت منه أنّة ، مازاد عن أن قال : ياربي لك الحمد وكُلُ من زاره يقول له : اشهد أنني راضٍ عن ا .. هذا المؤمن ..

كُل هذه المعرفة ، إله بيده كُل شيء ، هو الحكيم ، هو العليم ، هو العـادل ، هـو المحب ، هو الرب ، هذه مشيئتُه ، .. يعني .. المؤمن يتلو قولَه تعالى فيذوب :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًۭٔا وَهُوَ خَيْرٌۭ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًۭٔا وَهُوَ شَرٌّۭ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾



(سورة البقرة)

يكفينا أيها الإخوة في سورة الكهف أن ا َ سبحانه وتعالى ساقَ لنا قصةَ أصحاب الكهف ، وساقَ لنا قصةَ الخَضر عليه السلام مع سيدنا موسى ومن خلال هذه القصـة يتضـح أن ِ أمراً تكليفياً وأمراً تكوينياً وأن موسى عليه السلام قد عرفَ الأمر التكليفـي .. التشـريع .. ، بينما الخَضر عليه السلام عرفَ الأمر التكويني ، فربنا عز وجل ساقَ لنا بعض القصـص أن هؤلاء أصحاب السفينة ركب فيها الخَضر فما لَبِثَ أن خَرقَها ، سيدنا موسى بحسب التشـريع لا يجوز قالَ أخرقتها لتُغرِقَ أهلها .. في قراءة ليغرقَ أهلَها .. لم يتحمل هذا شـيء مخـالف

للشرع أحسنوا إليك سمحوا لك أن تركب سفينتهم أتخرقُها لهم ..؟.. فلما أجاب قال : فـأردتُ أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذُ كُل سفينة غصباً ، فبهذه الطريقة نجت تلك السـفينة مـن المصادرة .... هذه القصة أيها الإخوة يجب أن تقيس عليها كُل شيء ، ا ُ عز وجل جعلَهـا نموذج ، يعني ياعبادي هذه أفعالي .

في قصة أخرى : أصحاب الجنة الذين أصروا على عدمِ إعطاء الفقيرِ حقَه :

فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾
فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ
﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ
﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا
تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾

(سورة القلم)

أي ياعبادي سقتُ لهم هذه المصيبة كي يتوبوا من هذا الذنب ، ذنب البخل ، ذنب الشُح ، هم أصروا أن يمنعوا الفقير حقّه فأتلفتُ لهم كُل المحصول عندئذ تابوا وأنابوا ، ا قال : " **كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ** " يعني هذا نموذج وكُلُ أنواع العذاب الذي أسوقه لعبادي من هذا النوع من أجل أن أردهم إلي ، أن أحملهم على التوبة ، أن أسوقهم إلى باب العبودية .

إذاً : علامة معرفة ا ِ السكينة ومن ازدادت معرفتُه إزادت سكينته .. هذه علامة ، علامة ثانية : قالَ علامة المعرفة ُأنس القلبِ با ، تجد الذي لا يعرف ا عز وجـل كأنـه على بركان يسمع غناء ، يقرأ قصة ، يجلس مع ُأناس ... لا يخلو مـع ا ، مـن علامـات الإفلاس الاستئناس بالناس ، أما المؤمن إذا خلا مع ربه ذكر ا َ عز وجل ، قـرأ القـرآن ، تفكّر في الكون ، ناجى ربه ، استغفر ا َ عز وجل ، دعاه ، ، علامة الذي يعـرف ا َ عـز وجل أن قلبه يأنس با ، يحس أنَه قريب من ا ِ عز وجل .. هذه علامة .. فإذا شعرتَ بأنك بحاجةً ماسة إلى أن تلتقي مع الناس ولا تريد أن تجلس ساعةً وحدك ، لابد من أن تلتقي مـع الناس ولابد من أن تجتمع بهم ولابد من أن تستمع إليهم ولابد من أن تقرأ ... ولا تريد إطلاقاً أن تخلو بنفسك مع ا عز وجل فهذه علامةُ عدمِ معرفة ا ِ عز وجل .

علامة رابعة : قال من كان با ِ أعرف كان له أخوف ، أحياناً تُلاحـظ عـدادين فيهمـا المؤشران يتحركان معاً ، لمعرفة ا ِ مؤشّر وللخوف منه مؤشّر يجب أن تـوقن أن مؤشّـر

معرفة ا يتحرك تماماً مع مؤشّرِ الخوف منه فأنتَ تخافُه بقدرِ ما تعرِفُه ، وتعرِفُه بقدرِ مـا تخافُه ، فالإنسان العارف با ورِع لايحتمل أن يعصي لا يحتمل أن يقصر ، فإذا قصر فهذه علامةُ ضعف المعرفة ، لذلك قيل : لا تنظر إلى صغرِ الذنب ولكن إنظر على من إجترأت .

غير المؤمن .. المنافق .. المعصية هيِّنة عليه يقول لك .. - ماذا حصـل ؟ ا غفور رحيم -.. كلمة " ماذا حصل " دليل استخفاف بالمعصية ، أما المؤمن :

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾

(سورة الحج)

النبي عليه الصلاة والسلام ، قالَ له ا قُل لهم :

قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

(سورة الأنعام)

كُلما إزدادت معرِفتُك إزداد خوفُك ، وجدت نفسك فاتك فرض صلاة .. تقول لا بـأس الأن نصليه قضاء .. مررتَ بامرأة فنظرتَ إليها .. أخي وا لم نعمل شيئاً .. هذه من اللمم ، كُلما شعرت أنه أمر ا ِ لا توقره كما ينبغي فهذه علامة أنك لاتعرِفُ ا َ كما ينبغي ، إن لـم توقّر أمر ا ِ عز وجل فأنتَ لا تعرِفُه .. هذه علامة .. ، البكاء علامة السـكينة علامـة ، الأنس علامة ، الخوف من ا عز وجل علامة وهذه العلامة مدعمة بآية قرآنية :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

(سورة فاطر)

أنتَ تخشاه بقدرِ ما تعرِفُه ، كُلما ازداد علمك به ازددتَ خشيةً له ، في حديث دقيق : " قالَ عليه الصلاة والسلام أنا أعرفُكم با " .. فيها شك هذه ؟ " أنا أعرفُكم با وأشدكُم له خشية "

تروي السيدة عائشة رضي ا عنها أن النبي صلى ا ُ عليه وسلم كان إذا حضرت الصلاة .. يعني دخَلَ وقتُها .. فكأنَه لا يعرِفُنا ولا نعرِفُه لهيبة الصلاة .

أحياناً الإنسان المؤمن أو المسلم في هذه العصور في غرفة الجلوس وزوجته تـتكلم والمذياع يحكي وزوجته تتكلم وأولاده يصيحون وهو يصلي وجالس وسامع كُلّ شيء يتـابع زوجته مع أختها بالهاتف وهو يصلّي ، أين كان إذا حضرت الصـلاة فكأنـه لا يعرِفُنـا ولا نعرِفُه ، غاب عن الواقع المادي ، غاب عن أهله ، كُلما ازدادت خشيتُك دلّت هذه الخشية على عظَمِ معرِفَتك ، وكُلما قلّت خشيتُك دلّت هذه الخشيةُ الضعيفة على ضعف معرِفَتـك .. هـذه علامة .

أما في علامة دقيقة قال : من عرفَ ا َ تعالى ضاقت عليه الدنيا بسعتها ومن عرفَ ا َ تعالى اتسع عليه كُلُ ضيق .

فيبدو في تناقض : من عرفَ ا َ تعالى ضاقت عليه الدنيا بسعتها ، ومن عرفَ ا َ تعالى اتسع عليه كُلُ ضيق ، كيفَ نجمع بينهما ضاقت عليه الدنيا بما رحبت : من عرفَ ا َ تعالى ضاقت عليه الدنيا ضاقت عليه الدنيا بما رحبت ومن عرفَ ا َ تعالى اتسع عليه كُلُ ضيق

يوجد تفسير دقيق : لو أن إنساناً أجلسوه في مكان جميل أمامه مئات الكيلـومترات مـن الفلا ، مقصف جميل في قمة الجبل أمامه الأشجار الخضراء ثم البحر ، لكـن المكـان فيـه معصية ، هذا المكان الجميل ، الطليق ، الواسع ، يضيقُ عليه حتى يختنقُ به ، فإذا دخلَ إلى مسجد صغير ممتلئ بالمصلّين لكنه بيت ا ِ عز وجل ، هذا المكان الضيق يتسع به ، قد يكون بيتُه صغيراً غرفتين لكن لأنه بيته لا يوجد معصية ، لا يوجد شيء محرم ، لا يوجد اختلاط ، يدخل إلى بيته ، غرفة صغيرة النبي الكريم كان إذا أراد صلاة الليل ترفـع السـيدةُ عائشـةُ رجليها لأن غرفتَه لِصغَرِها لا تكفي لصلاته ونومها ، والنبي ماذا قالَ ا ُ عنه ؟ .

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ (١٨)

(سورة النجم)

وأحياناً تجد شخص يحلّق على ارتفاع ٤٠ ألف قدم ، يشاهد الـدنيا ، وإنسـان ركـب مركبة فضائية رأى الأرض كلها من القمر ، يعني المكان واسع ، طليق فأي مكانٍ جمعك مع معصية ِ عز وجل يضيقُ عليك حتى تكاد تختنق ، وأي مكانٍ ضيق إذا جمعك بمن تُحـب فهو مكان واسع لذلك قالَ الشاعر :

رحب الفلات مع الأعداء ضيقةٌ　　　　سم الخياط مع الإخوان ميدان

يعني الفلاتُ على اتساعها إذا جمعتك بعدوٍ وهي ضيقة ، وسم الخياط على صغَرِه إذا جمعك بحبيبٍ فهو ميدان واسع .. هذه علامة ..

قال : من عرفَ الله تعالى صفا له العيش ، صدقوني أنا أحياناً أسأل أخاً وأنا والله أظنُّه مؤمناً : كيف الحال ؟ يقول : الحمد لله ، يقولُها من أعماق أعماقه ، أنا اشعر أنه حينما اصطلح مع الله عز وجل أكرمه الله بسكينة ، أكرمه الله بوفاق زوجي ، أكرمه الله عز وجل برضا عن الله ، أكرمه الله عز وجل بحالٍ طيب ، أكرمه الله بالشوق إليه ، أكرمه بحبه ، بحب رسوله ، بحب المؤمنين .

تجد بالتعبير الدارج معنوياته عالية جداً تجد واقعه خَشن ، بيتُه بالأجرة أو لا يملك بيتاً ، لِباسه متواضع ، وظيفتُه صغيرة ، دخلُه قليل تجلس معه فتجده شيئاً عظيماً ، معنويات مرتفعة جدا ، واثقٌ من الله عز وجل ، مطمئن بقضائه ، راضٍ بما قسمه الله له ، له رسالة بالحياة همه الأول أن يعرِفَ الله ، همه الثاني أن يدعو إلى الله ... حسناً من أين هذه المعنويات ، من أين هذه النفس المنتشية ، النفس الواثقة ، النفس المطمئنة :

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ﴾

(سورة الفجر)

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) ﴾

(سورة التوبة)

يطمئنهم " **قُلْ لن يصيبنا إلا ما كتَب الله لنَا هو مولانا** " تجد المؤمن واثقاً من رضاء الله ، واثقاً من نصره ، من تأييده ، من حفظه ، من إكرامه ، من إسعاده ، ليس عنده هم ... لماذا ليس عنده هم ؟ لأنه جعلَ الهموم هماً واحداً فكفاه الله الهموم كلَّها ، لأنه عملَ لوجه واحد فكفاه الله الوجوه كلَّها ، فقال من علامة العارف بالله : أنه يصفو له العيش ، صفا له العيش فطابت له الحياة ، وهابه كل شيء ، وذهب عنه خوفُ المخلوقين .

يا إخوان نصيحة لوجه الله : إذا خفتَ المخلوقين تُضطر أن تُنافق وتُضطر أن تتملّق وأن تكذب وأن تتناقض وأن تكون صغيراً في أعينهم .. يعني .. أكبر مصيبة يصاب بها الإنسان أن يلقي الله في قلبه خوفَ المخلوقين ، يحتار من سيرضي إن أرضى زيد يغضب عبيد ، يتوسل لفُلان ، يتذلل لفُلان ، يقبل رجل فُلان ، يتمسح بأعتاب فُلان ، يبذل ماء وجهه لِفُلان ، يتضعضع لِفُلان ، هذه علامةُ الذي لا يعرِفُ الله أما الذي يعرِفُ الله فالله يعطيه عزة

، لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه ، من جلس إلى غنيٍ فتضعضع له ذَهب ثُلثا دينـه ، ابتغـوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير :

يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

(سورة المنافقون)

إجعل لِربك كُل عزك يستقّر ويثبتُ
فإذا اعتززتَ بمن يموتُ فإن عزك ميتُ

يذهب عنك خوفُ المخلوقين لا تخف من مخلوق ، قد يكون هذا المخلوق كـالوحش لكنه مربوط بزمامٍ محكم بيد ا ِ عز وجل فأنتَ علاقتُك مع ا ، هذا ما قاله سيدنا هود :

مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

(سورة هود)

قال : من عرفَ ا َ تعالى صفا له العيش فطابت له الحياة وهابه كُلُ شيء وذهـب عنه خوفُ المخلوقين وأَنس با ، أحياناً تدخل مكتب إنسان له مركز كبير يقول لك : إصرخ على الآذن ليحضر القهوة . آذن .. من هاب ا هابه كلُ شيء ومن لم يهب ا أهابـه ا ُ من كُل شيئ ذهب عنه خوفُ المخلوقين وأَنس با .

قالَ : من عرفَ ا َ عز وجل قرت عينُه با ، أنا أدعو دعاء أحياناً أقول : ياربي كما أقررتَ أعين أهل الدنيا من دنياهم .. أيام تجلس مع شخص يقول لك أنا إشتريت البيـت منذ زمن بـ ١٨ ألف والأن لا أبيعه بـ ٨ ملايين "٢٨٠ متر " ، انظر للواجهة .. للشُرف .. معه السطح .. هذا الإنسان قرير العين بهذا البيت ، هذا الذي عنده مزرعة ، وهذا الذي عنده معمل ، وهذا الذي عنده سيارة يقول لك اشتريتها بـ ١٣ مليون ، ماشاء ا وا حـرام أن

تضعها في الطريق ... أقول له : ياربي كما أقررتَ أعين أهل الدنيا من دنياهم فأقرر أعيننـا من رضوانك .

الإنسان يحج فا ُ يحس أنه مقبول عند ا عز وجل ، يحس أن ا قد غَفَر له ، ا تـاب عليه ، ا قَبِلَه تجده قرير العين ، في عنده ١٠٠ مشكلة في حياته ، مادام ا ُ قد أقر عينَه فهو به قرير.

قال : من علامة معرفة ا عز وجل أنه من عرفَ ا قرت عينُه با وقرت عينُه بالموت ، الموت عنده بداية الإشراق ، بداية العطاء ، بداية الإكرام ، الموت بدايـة الجنّـة ، الموت عنده نهاية المتاعب ، كُل الحياة تكليف .. هذه حرام وهذه لا تجوز .. المؤمن لا يأخذ حريته ، إذا أحب أن يمشي بالطريق يوجد ألف قيد يقيده .

تجد الناس يملؤون أعينهم من الحرام ، لي صديق يسكن في أحد أحياء دمشق ولَـه جار ، هذا الجار عنده خمس بنات متزوجات ، ولَه شباب ، لَه هواية بسـيطة جـداً يركـب السيارة العامة من المزة إلى المرجة وينتقل إلى طريق الصالحية بأيام الصيف قبلَ المغـرب بساعة ويتنقّل فيه ذهاباً وإياباً .. لا يفعلُ شيئاً إلاّ أنه يملأُ عينيه ممـا حـرم ا .. يسـتمتع بالنساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات ، فجاره صديقي نصحه يا أخي أنتَ عمرك ٥٠ - ٤٥ سنة ، عندك بنات متزوجات ، أنتَ أب ستُصبح جداً .. هذه لا تُناسب .. قالَ له : أنـا لا أعمل شيئاً هكذا ُأحب ، إلى أن ُأصيب بمرض ارتخاء الجفون .. مرض لا أعرِفُـه سـابقاً ارتخاء الجفون .. فالإنسان دائماً مغمض عينيه فإذا أراد أن يرى أحداً فيمسـك جفنـه بيـده ويرفعه .. مادام يرفعه يرى فإذا تركه نَزل .. " من جنس المعصية " .

من عرفَ ا قرت عينُه با وقرت عينُه بالموت لا يخافُه ، وا ِ لـي صـديق طبيـب يحكي لي قصصاً كيفَ يزور مرضى على وشك الموت يقول لي : مثل الطفـل ، ضـعيف ، يرتجف ، سأموت .... طبعاً ستموت ... فهو ليس مستعداً له قالَ لي مرةَ واحد زارنا شخص أنجز بيتاً لا يوصف بجماله ، التزينات والجبصين والأقواس والشُرف ... يظهر أن مرضـه خطير وهو في ريعان الشباب وزوجته شابة ، فقالَ لصديقه : " ما أتعسني أخشى أن أمـوت وتتزوج زوجتي وتأتي به ليسكن معها في هذا البيت الذي شقيت ببنائه ويستمتع هو بمـا لـم يتعب بإنجازه .

قال : " من عرفَ ا قرت عينُه با وقرت عينُه بالموت " والأغرب من ذلك : قرت به كُل عين ، صار هو مصدر سعادة ، مصدر إيناس ، فتجلس مع شخص يكون عظيماً بمقياس الدنيا يقول لك هذا حجمه كذا مليون ، هو بمقياس الدنيا عظيم ولكنه لا يحرك فيـك شـعرة ، وتجلس مع أولياء ا تجد نفسك مستغرقاً في متعة بالغة ، مستأنساً ، تتمنى أن تبقى معه دائماً .

فالعارِفُ با   قرت عينُه با   وقرت عينُه بالموت وقرت به كُل عين ، علامـةُ أوليـاء ا   أنهم إذا رؤوا ذُكر ا ُ   بِهم ، وأنتَ يجب أن تكون مع ا   دائماً ، تمشي في الطريق فيلمحـك واحد مقصر فيتوب عندما يشاهدك .. يتوب .. يقول لك ذكرتني با   .

فالمؤمن كُلما ارتقى يصبح وجوده نورانياً ، وجوده رحماني ، وجوده مسـعد ، وجـوده مؤنس ، تقر به العيون ، كان سيدنا ربيعة كان خادم رسول ا   فحينما تنتهـي خدمتـه بعـد العشاء يصرفُه النبي ، يبقى نائماً على عتبة بيت النبي ِلشدة ُأنسه بالنبي ، فأنتَ ياترى هل لك عند ا   مرتبة الناس يأنسون بِك ، يتمنون أن يبقوا إلى جانبِك ، يسعدون بِلقائِك ، أمـا أهـل الدنيا يحدثُك عن أمواله وعن أرباحه وعن بيته وعن أولاده وعن رحلاته وعن موائده .. مـا يهمني أمرك   .

شخص يدعو إلى التقزز في كلامه أما المؤمن يحدثُك عن ربه ، إن كان الحديث دنيويـاً صار في ضيق ، ُأخروي صار في سرور .

قال : " ومن لم يعرِف ا   تقطّع قلبه على الدنيا حسرات " ، يقول لك محروق قلبي .. على ماذا ؟ هذا البيت لم تنجح بيعتُه معي ، فُلانة لم يتزوجها بعد أن خَطَبها رفض .. هذا الذي رفض قتل سبعة فكم في قلبه من حرقة وألم ؟   .

قال : ومن لم يعرِف ا   تقطّع قلبه على الدنيا حسرات ومن عرفَ ا   لم يبقَ له رغبـةٌ فيما سواه ، واحد أحب أن يستفز سيدنا الصديق يظهر أنه قد سأل سيدنا عمـر فـي قضـية فأعطاه جواباً قاسياً وسيدنا الصديق أوكل ِلعمر هذه المهمة فلما رأى هذا الجواب القاسي جاء إلى سيدنا الصديق يستفزه قالَ له : الخليفةُ أنتَ أم هو ؟ قالَ له هو إذا شاء ليس عندي مانع ، .. انظر لهذه السماحة .. الهدوء .. قالَ له الخليفةُ أنتَ أم هو ؟ قالَ هو إذا شاء مثل ما يريـد أنا معه أخي هو ، المؤمن ليس عنده هذا الحرص على الدنيا .

قال : " ومن عرفَ ا َ لم يبق له رغبةٌ فيما سواه ومن ادعى معرفةَ ا ِ وهو راغب فـي غيرِه كذّبت رغبتُه معرِفَتَه " .

يقولون أن الحجاج وقف أمام بائع رآه يصلّي قاعداً بائع قدور، دكانُه عالية جداً كُلُها رفوف إلى السقف ويوجد سلّم ، فرآه يصلّي قاعداً وقد تبين أنه ليس به شيء ، فقالَ له : ُأريد هذا القدر . فوضع السلّم وأنزله ، فقالَ له : ليس بهذا بل ذاك . فنزل ووضعه وأحضره له .. لا ُأريد ذلك الأكبر ، لا الأصغر ، فأبقاه يصعد وينزل السلّم حوالي خمس وعشرين مرة ، ثم قالَ له : أتُصلي قاعداً وعندك همة عالية للبيع والشراء ؟ .

من يومين قالَ لي أحدهم وهو قد درس في بلد غربي قالَ لي : أنا في عندي فكـرة لم يجبني أحد عليها قُلت له تفضل ، قالَ لي : أتباع الديانات عشرة بالمائة فقط يبدلون ديـنَهم والباقون على دين آبائِهم معناها موضوع الدين ليس باختيارك ، هذا بوذي ابنُه بوذي ، هـذا

نصراني ، هذا مسلم ، فالدين ليس قضية اختيار فما جوابك ؟ فأنا أعرف أن له نمطاً حـديثاً بحياته .. والده جالس بجانبه ، قلتُ له : أنتَ غيرت نمط حياتك ؟ قالَ لي طبعاً ، ها أنتَ قـد غيرت ، لأن الدنيا مهمة جداً فغيرت كُل نمط حياتك ، بيت وعملـت أقـواس وألغيـت كُـل الأبواب من البيت ..... لماذا لم تتبع إسلوب والدك في الحياة ، أليس كذلك ؟ الإنسان يغييـر أحياناً ، لو أن الآخرةَ غاليةٌ على الإنسان لبحثَ عن الحقيقة أما لأن الدنيا هي الغالية فكُل ابن له طريق بالحياة غير طريق والده معناها الإنسان حر ويغير .

قال : ومن عرفَ ا ً أحبه على قدرِ معرفته به ، هذه نقطـة مهمـة : ثبـت المعرفـة بحجمها خوف ، بحجمها خشية ، بحجمها حب ، بحجمها إخلاص ، بحجمها إقبال ، بحجمهـا ورع ، من عرفَ ا ً أحبه على قدرِ معرفته به وخافَه ورجاه وتوكّل عليه وأناب إليه ولَهـج بِذكرِه واشتاقَ إلى لِقائِه واستحيا منه وأجلّه وعظّمه على قدرِ معرفته به .

من عرفَ ا لم يبقَ له رغبةٌ فيما سواه ، ومن عرفَ ا ً أحبه على قدرِ معرفته به .

من علامات المعرفة أن تفنى الشواهد ، وأن تنحل العلائق وتنقطع العوائق ، أحياناً تجـد شخصاً يؤثر استقبال ضيف على مجلس علم .. علاقاتُه مع هذا الضيف متينة جداً فإذا كـان زاره هذا الضيف يضحي من أجله بصلاة ، يضحي من أجله بمجلس علـم ، معناهـا عنـده عوائق وعنده علائق والعلائق عوائق .

أنا أعرف تُجاراً يصلّون في المساجد إذا جاءهم مندوب شـركة أو وكلاؤهـا وطلبـوا مشروباً يضيفونهم مشروباً .. هم لا يشربون .. أين صلاتُك ؟ أعرِف تُجاراً لهم مظهر دينـي وعاطفتهم إسلامية ، من أجل ترويج بضاعتهم يعلنون عنها بأجهزة اللهوِ مـن خـلال نسـاء كاسيات عاريات .. أين الدين ؟ فلان ممتاز ، صاحب دين ، صاحب دين وتُروج بضـاعتُك بمعصية ا عز وجل .. العلائق عوائق ..

أكثر علاقة مع الزوجة .. صحابي جليل سألتْه زوجتُه شيئاً من الدنيا فقالَ : اعلمـي يـا فُلانة أن في الجنّة من الحورِ العين ما لو أطلّت إحداهن على الأرض لغَلَب نور وجهها ضوء الشمسِ والقمر فلأن ُأضحي بِك من أجلهن أهون من ُأضحي بهن من أجلك ، الأم : قالت لـه ياسعد إما أن تكفُر بمحمد وإما أن أضع الطعام حتى أموت ، قالَ يا ُأمي لو أن لك مئة نفـسٍ فخرجت واحدةً واحدةً ما كفرتُ بمحمد فكُلي إن شئت أو لا تأكُلي .. فأكلت بعدها ..

سئِلَ سيدنا النبي اللهم صل عليه : أتُحب أن تكون أغنانا لك ذلك ، أن تكون سـيدنا لك ذلك ، أن تتزوج أجمل فتاة لك ذلك ، قالَ : وا ِ ياعمي لو وضعوا الشمس فـي يمينـي والقمر في شمالي على أن أدع هذا الأمر ما تركتُه حتى يظهره ا ُ أو أهلـك دونَـه .. هـذا المؤمن .. الزوجة على العين والرأس ما دامت في طاعة ا فإذا أمرتك بمعصية فلا كانـت

ولا كان أمرها ، الأم على العين والرأس أما إذا أمرتك بمعصية لا غضب لهـا .. لا طاعـة لمخلوق في معصية الخالق .

من علامة العارف بالله أنَه لا يطالب ولا يخاصم ولا يعاتب ، تُلاحظ بعض الأشـخاص إذا لم يزره بالعيد فيعمل منها قصة ويتكلّمها مئة مرة ، يقول : أنا ذو فضل عليه ، وعليه أن يزورني . اهتم بالله عز وجل ، تجد المؤمن كُلما علا إيمانُه بعد عن سفاسف الأمور ، وكُلما قلّ إيمانُه يتعلّق بسفاسف الأمور في عقد قران وضعوه في مكان لا يليق بمكانُه يبـق مـدة يذكرها ، وضعوه في الصف الثاني وهو أوجه شخص في الأسرة .. كان أول مكان ممتلئ .. لا يقبل العذر .

اللهم صل عليه دخل عليه أعرابي فلم يعرفه من بين أصحابه ، فقال : أيكُم محمد ؟ أين كان يجلس سيدنا رسول الله ، كان له مجلس فخر ؟ كان يجلس بين أصحابه وكأنه واحد منهم ، حتى اضطُر هذا الأعرابي أن يقول أيكم محمد ؟ قالَ له قد أصبت .. أنا تفضل قد أصبت .. لا يطالب ولا يخاصم ولا يعاتب ولا يرى على أحد له فضلاً ، هذه كلمة نسـمعها كثيـراً : " لحمك من خيري ، أكتافُك من خيري ، لو لا وجودي لم تُصبح رجلاً " .. هذا كُلُه كلام الجهل الفضل الله عز وجل ، لي فضل عليك أنا قد ربيتُك لا تعرف قيمتي ..... هذا كُلُه كلام فارغ .

قال : لا يرى على أحد لُه فضلاً ولا يرى على أحد له حقاً ، أحضر لُه هدية ، ما ثمـن هذه الهدية بالسوق استفسر عنها .. ما لك ولثمنُها ، أحضر لك هدية وكفـى ، انظـر لهـذه الساعة أصلية أم صنع تايوان ؟ يريد أن يعرف قيمتها .. هذا ليس من أخلاق المؤمن .

ومن علامة معرفة الله أن الذي يعرِفُ الله لا يأسفُ على فائت ولا يفرح بآت لأنه ينظـر إلى الأشياء بعين الفناء والزوال فهي في الحقيقة كالظلال ، ومن علامة معرفة الله كمـا قـال يحيى بن معاذ : يخرج العارفُ بالله من الدنيا ولم يقضي وطَره من شيئين : بكائه على نفسـه وثنائه على ربه .. دائماً متهم نفسه ويثني على ربه ، سمتان أساسيتان للعارِف بالله .

من علامة من عرفَ الله عز وجل أنه يستأنس بربه ويستوحشُ بمن يقطعه عنـه ، كُل واحد يقربك من الله تُحبه ، كُل واحد واحد دنيوي زائغ الإيمان عنده شُبهات تكرهه ، تكره مجالسته وزيارته والعلاقة معه

لذلك قيل : " العارِفُ من أنس بالله فأوحشَه من الخلق ، وافتقر إلى الله فأغناه عنهم ، وذل لله فأعزه فيهم ، وتواضع لله فرفَعه بينهم ، واستغنى بالله فأحوجهم إليه " ، .. جميلـة جداً .

آخر شيء : قيل مجالسة العارف بالله تنقُلُك من ست إلى ست .. مجالسة العارف بالله تنقُلُك من ست إلى ست : من الشك إلى اليقين ، من الرياء إلى الإخلاص ، من الغفلـة إلـى

الذكر ، من الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة ، من الكبرِ إلى التواضـع ، مـن سـوء الطوية إلى النصيحة .

هذه كُلُها علامات معرفة با فالإنسان لا يغش بنفسه ولا يغش غيره ، هذه علامات دقيقة جداً فلتكن هذه العلامات مؤشرات لنا أو أهدافاً لنا .

والحمد ِ رب العالمين .

*****

الدرس ٤٤ - المحاسبة .

بســم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام : نستأنف دروس مدارج السالكين في مراتب إياك نعبد وإياك نستعين ، و مع الدرس الرابع والأربعين من هذه السلسلة ومع منزلة جديدة من منازل مدارج السالكين ألا وهي " منزلة المحاسبة "

سيدنا عمر عملاق الإسلام يقول : حاسبوا أنفسكم قبل تُحاسبوا وزنوا أعمـالكم قبـل أن توزن عليكم وإعلموا أن ملك الموت قد تخطاكم إلى غيركم وسيتخطى غيركم إليكم ... فخذوا حذركم ...

من حاسب نفسه حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً ، والتاجر حينما لا يجـري محاسبة دقيقة من حين لآخر يشعر بقلق شديد ، وحينما يجري محاسبة .. ما له ومـا عليـه يشعر براحة كبيرة .. والإنسان المؤمن الصادق دائم المحاسبة لنفسه يحاسبها قبل أن يحاسـبه ا ، يحاسبها قبل أن يؤدبه ا ، يحاسبها قبل أن يقتص ا منه ، يحاسبها ويحلُ مشـكلاتها قبل أن يصل إلى طريق مسدود مع ا .

أيها الإخوة : التعريف الدقيق للمحاسبة أن تُميز ما لك وما عليك فتؤدي ما عليك ولـك أن تُطالب بما لك ، مثلاً ا عز وجل أنبأنا من خلال نبيه عليه الصلاة والسلام أنك إذا عبدته مخلصاً لك حقٌ عليه ألا يعذبك :

" عن معاذ بن جبلٍ قَالَ قَالَ النبي صلى الله عليه وسلم يا معاذُ أَتَدرِي ما حق الله على الْعباد قَالَ الله ورسولُه أَعلَم قَالَ أَن يعبدوه ولا يشْرِكُوا بِه شَيئًا أَتَدرِي ما حقهـم عليـه قَـالَ اللـه ورسولُه أَعلَم قَالَ أَن لا يعذبهم *

(صحيح البخاري)

أد الذي عليك واطلب من ا الذي لك ، فالمحاسبة أن تخلو مع نفسك في اليوم دقائق .. ماذا فعلت ؟ ماذا تركت ؟ لِم أعطيت ؟ لِم منعت ؟ لِم وصلت ؟ لِم قطعت ؟ لِم غضبت ؟ لِـم رضيت ؟ لِم ابتسمت ؟ لِم عنّفت ؟ لِم ضربت ؟ لِم حاسبت ؟ لِم آذيت ؟ هيئ عز وجل لكل موقف جواباً فأنت أعقل العقلاء .

حاسب نفسك : أنصف الناس من نفسك ، والحقيقة الذي يحاسب في الدنيا قضيته سـهلة أما إذا كنت أباً من يحاسبك ؟ الابن يحاسبه أبوه ، والزوجة يحاسـبها زوجهـا ، والطالـب يحاسبه المعلم ، من هو الذي في أمس الحاجة إلى المحاسبة ؟ الذي من طبيعته ألا يحاسـب . أن تكون أباً ولا يجرؤ أحد على أن يحاسبك ، بطولتك أن تُحاسب نفسك وأن تعتذر ، قد تكون

معلماً في صف من من الطلاب يستطيع أن يحاسبك ؟ بطولتك أن تُحاسب نفسك ، أن تعتـذر من طالب صغير .

حدثني أخ كريم قال لي : أنا طبيعة مزاجي عصبي فتناقش مع زوجته فكلّمته كلمـةً قاسية فصب كُل غضبه على ابنه وضربه ضرباً مبرحاً فلما انتهى من ضربه صـحا .. مـا ذنب هذا الصغير !؟ .. خلافه مع زوجته ، صب جام غضبه على ابنه وضربه ، قال لـي : دخلت إلى غرفتي وبدأت أبكي ثم أخذت ابني وقبلّته . وقلت له : سامحني يا بنـي ... يعنـي حاسب نفسك : ضربت لِم ضربت ؟ لِم عبست ؟ لِم خاصمت ؟ إن حاسبت نفسك فأنت مؤمن ورب الكعبة .

وقف إنسان ضعيف أمام جبار " الحجاج " قال له : أسألُك بالذي أنت بين يديه أذلُ مني بين يديك وهو على عقابك أقدر منك على عقابي .

إخواننا الكرام .. **الفكرة الأولى :** قد تكون طفل .. الأب يحاسبك ، قد تكون زوجـة .. الزوج يحاسب ، قد تكون طالب .. المعلم يحاسب ، قد تكون موظف .. رئيس الدائرة يحاسب .. أما إذا كُنتَ أنتَ الأب من يجرؤ على أن يحاسبك ؟ ، إذا كُنتَ أنتَ رئيس الدائرة من يجرؤ على أن يحاسبك ؟ تشتد الحاجة إلى المحاسبة حينما تكون في موقعٍ لا تُحاسب فيه ، لـذلك إن حاسبت نفسك سريعاً رحمك ا عز وجل .

يعني قصة سمعتموها مني كثيراً لكن مناسبة في هذا الموضوع كنت مرة فـي العمـرة صديق حدثني عن إنسان يملك أرضاً في شمالي جدة فلما امتد العمران إلى قُرب أرضه نـزل ليبيع هذه الأرض ، مكتب عقاري خبيث احتال عليه وأوهمه أن ثمنها بخس ، فاشتروها منه بثمنٍ بخس ريالات معدودات وأنشأوا عليها بناء شامخاً وسيربحون الملايين المملينة ، قال لي : أول شريك وقع من سطح البناء فدكت رقبته في الأرض ، والشريك الثاني دهسته سـيارة ، الشريك الثالث انتبه أراد أن يحاسب نفسه فبحث عن صاحب الأرض ستة أشهر إلى أن عثـر عليه ودفع له ثلاث أمثال ما أعطاه سابقاً " عن حصته طبعاً " فقال له هـذا البـدوي : أنـت تداركت الأمر قبل أن يحل بك ما حل بصاحبيك .

حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا ، اعتذر ، قدم هدية ، أنا أعرف رجلاً .. والقصـة قديمة جداً .. يعمل في سلك الدرك عندما كان الشرطة في المدن والدرك في القرى ، أخطـا وضرب إنساناً ضرباً مبرحاً وهو بريء ظنه سارقاً ثُم اكتشف أنه ليس بسارق ، السارق ظهر ، أقسم با وسط إنساناً ليدعوه إلى طعام الغذاء وكان هو أيضاً مدعو وأمره أن يضربه كمـا ضربه ... لينجو من عذاب ا ... حاسب نفسك كلما كنت ذكياً تُحاسب نفسك حساباً شديداً ، وعلامة المؤمن أنه يرى ذنبه جبلاً جاثماً على صدره ، وعلامة المنافق أنه يرى ذنبه كالذبابة يقول لك ، هذه علامة النفاق " ماذا حصل " هذا منافق ، أما حينما لا تنام الليل ، حينما تذهب

إلى بيته تعتذر منه تقول له سامحني ، حينما تُقدم له هديةً ، حينما تطلب العفو منه فأنت قريب من ا .

أخواننا الكرام : هناك حقيقة دقيقة سأقولها لكم : القوي أحياناً يريد أتباعاً فأي إنسان أعلن الولاء يقبل به .. القضية سهلة واحد ينقصه زبائن أي إنسان قدم له الولاء يقبل به .. إلا أن ا غني عن العالمين ، ا عز وجل كامل لا يقبل مخلوقاً إن لم يكن كاملاً .. لا يقبـل .. لأنه غني :

﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧ ﴾

(سورة الزمر)

ولا يرضى لعباده الكفر ، لا يمكن أن تتقرب إلى ا وأنت ناقص ، إن ا طيب لا يقبل إلا طيباً ، يا محمد مثّل بهم كما مثّلوا بعمك الحمزة ، قال لا أمثّل بهم فيمثّل ا بي ولـو كنتُ نبياً .. انظر لهذا الموقف تعرف عدالة ا ، تعرف أن ا لن يتجلّى على قلبـك إلا إذا كنت أديباً ، كاملاً ، متواضعاً منصفاً ، مؤدياً الحقوق ، قائماً بالواجبات .. هذا هو الـدين ، يعني إنسان يعمل في عمل معين عنده موظف يستضعفه يبخسه حقه ويصلي !! هذه الصلاة لا قيمة لها ، قال :

" عن عبد الله بن عمر قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أَعطُوا الأجِير أَجره قَبـلَ أَن يجِف عرقُه * "

(سنن ابن ماجة)

وا ... إنسانة قالت لأهلي : أين ا ، إنسانة تقول أين ا .. يعني .. على وشـك الكفر .. لِم !؟ ، قالت لأن زوجها .. و الشهر الثالث من غير راتب ، قال له رب العمل " لم يعجبك مع السلامة " لا يوجد نقود .. أجرى حفلاً لابنته في أرقى فنادق دمشق ينفـق بغيـر حساب أما هذا الذي يعمل عنده .. انتظر .. ، قالت من أين نأكل وترى كيف ينفق ، ذهبـت لتعمل لم يقبلها أحد بحجابها " اخلعي الحجاب كي نوظفَك " هذا المجتمع سوف يحاسب حساباً عسيراً ، الإنسان حينما يدفع امرأةً إلى أن تخلع الحجاب من أجل أن تأكل ، أو حينمـا يـدفع رجلاً إلى أن يتاجر بالأفلام الإباحية من أجل أن يأكل ... هذا المجتمع يحاسب حساباً عسيراً :

" يقول ا عز وجل: إن كنتم ترجون رحمتي فارحموا خلقي. أبو الشيخ الديلمي عن أبي بكر "

(حديث رقم ٥٩٩١ المحدث)

هناك قول أنا مقتنع به تماماً : " **كاد الفقر أن يكون كُفراً** " ، فإذا ضيقت على إنسان حتى لا يجد ما يأكل وكفر فأنت الذي كفّرته ، أنت الذي جعلته يكفر ، وتحمل أنتَ وِزر كُفره ، قالت : أين ا ، زوجي بلا عمل وأنا ما قبلني أحد إلا بخلع الحجاب ماهـذا المجتمـع ... يريدون أن يستمتعوا بها وهي في العمل ، هكذا بكل وقاحة !!!.

" كيف أنتم إذا طغى نساؤكم وفسق شبانكم وتركتم جهادكم؟ قالوا وإن ذلك لكائن يا رسول ا ؟ قال: نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون. قالوا وما أشد منه يا رسول ا ؟ قال: كيف أنتم إذا لم تأمروا بمعروف ولم تنهوا عن منكر؟ قالوا: وكائن ذلك يا رسول ا ؟ قال: نعم والـذي نفسي بيده وأشد منه سيكون. قالوا وما أشد منه؟ قال: كيف أنتم إذا رأيتم المعـروف منكـرا والمنكر معروفا؟ قالوا: وكائن ذلك يا رسول ا ؟ قال: نعم والذي نفسـي بيـده وأشـد منـه سيكون. قالوا وما أشد منه؟ قال كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ قالوا وكائن ذلك يا رسول ا ؟ قال: نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون، يقول ا تعالى: بي حلفـت لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران "

(أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف)

هذا وضع المجتمع ، لذلك :

" انْج سعد فَقَد هلَك سعيد "

(مجمع الأمثال)

انج بدينك أنصف الناس من نفسك ، حاسب نفسك قبل أن تُحاسب ، ثم يتبـين مـن خلال هذا الدرس أن المحاسبة مرتبطة بالتوبة ، لعل التوبة تحملٌ علـى المحاسـبة ، ولعـل المحاسبة من نتائج التوبة لذلك قالوا : التوبة بين محاسبتين ، تُحاسب نفسك فتتـوب وتتـوب فتحاسب الآخرين ، أد الذي عليك .. يعني إذا كان على شخص في جاهليتـه ذمـم للنـاس ، ماالذي يمنعه وهو في الدنيا ، وهو في موقعٍ يستطيع أن يسوي الحسابات ، ماالذي يمنعـه أن يؤدي ما عليه !؟

حدثني أخ : قال لي عندي معمل ودائماً هناك نقص ببضاعة ، والنقص : يعني أضع في جيبي مبلغ ٢٠٠٠ أفقدها ، أصبح لديه الرغبة في معرفة من هذا السارق ، قال لي فرغت إنساناً للمراقبة ، والسارق ذكي جداً يأخذ الأموال والبضائع ولم نستطع أن نضبطه ثم انقطعت هذه السرقة ، ثم قال لي بعد عشر سنوات جاءني شاب وسيم الطلعة بوجهه نور وقال لي : أنا كنت عندك موظفاً قبل عشر سنوات وكنت أسرق منك وجئتُك مستسمحاً وسأدفع لك كل الذي

علي ، قلتُ له : وا نظير هذه التوبة ونظير هذا الاعتراف أنت مسامح بكل ما أخذته ، وإن أردت أن تعمل عندي فلك أعلى مكان .

موضوع المحاسبة قضية دقيقة جداً ، وطّن نفسك أن تُحاسب نفسك ، وطّن نفسك أن تعتذر ، تقول له سامحني أنا أخطأت في حقك ، أنا تسرعت ، أنا اتهمتك اتهاماً باطلاً ، عندها ا يرضى ... أما إذا واحد موقعه قوي ... " أيام رئيس دائرة ، مدير ثانوية ، مدير مستشفى .. يعني في موقع قوي .." لا يجرؤ أحد أن يحاسبه مثلُ هذا الإنسان تشتد الحاجـة إلـى أن يحاسب نفسه ، قال عليه الصلاة والسلام :

" عن أَبِي هريرةَ عن النبي صلى الله علَيه وسلم قَالَ الْإِيمان قَيد الْفَتْك لا يفْتك مؤْمن * "

(سنن أبي داوود)

يعني المؤمن مقيد ، الشرع قيده ، الشرع ألزمه ، والحقيقة قد يقول أحدكم أن الفقير يحتاج إلى أن يكون صابراً .. لا .. الذي يحتاج إلى أن يكون صابراً هو الغني والقوي !!

لماذا ؟ هذا كلام غريب !! ، ماذا عند الفقير من خيارات ؟ هذا الدخل المحدود وهذا البيت ، من عمله إلى بيته ، لو أراد أن يسهر في فندق فخم .. أيقدر ؟ لا يوجد معه نقود ، لو أراد أن يرتاد أماكن اللهو .. أيقدر ؟ لايوجد معه دراهم .

أما هذا الذي يملك المال وهو مسافر في بلد أجنبي وليس هناك رقيب .. هو في أشد الحاجة إلى الصبر ، هذا الذي يضبط نفسه .. يضبط مشاعره .. يضبط أعضاءه .. يضـبط حواسه .. يضبط بصره .. سمعه .. انفاقه .

أخواننا الكرام أنا أعتقد أن الغني والقوي في أمس الحاجة إلى الصـبر ، وصـبره بطولي ، فالمحاسبة تكون قبل التوبة ، حاسب نفسه فإتخذ قراراً بأن يتوب ، أو تـاب فاتخـذ قراراً بأن يؤدي ما عليه للناس ، هذه المحاسبة .. هناك آية قرآنية تُفيد هذا المعنى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾

(سورة الحشر)

ماذا قدمت وماذا أخرت :

عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾

(سورة الإنفطار)

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

(سورة التكوير)

أنتَ ماذا أعددت عز وجل ؟ أحياناً تجد شخصاً في السبعين من عمره في القهوة يلعب الطاولة ولا يصلي .. أين عقلُ هذا الإنسان ؟ ماذا قدم لآخرته ؟ ماذا يقول عز وجل وهو بين يديه ؟

أما تستحي منا ويكفيك ما جرى ، أما تختشي من عقنا يوم جمعنا
أما آن أن تُقلع عن الذنبِ راجعاً وتنظر ما به جاء وعدنا

هذه الآية الأولى في هذه المرتبة " **ياأيها الذين آمنُوا اتقُوا الله ولْتَنْظُر نَفْـس مـا قَدمتْ لِغَد واتقُوا الله إن الله خَبِير بِما تَعملُون** " .

.. أخواننا الكرام : حاسب نفسك من حين إلى آخر ، حاسب نفسك يومياً وحاول أن تسوي الحسابات مع الناس .

أود أن ألفت النظر إلى أنك لو حججت حجاً مبروراً وسعيت سعياً مشكوراً لا تخرج من ذنوبك كما ولدتك أمك .. هذا وهم .. تخرج من الذنوب التي بينك وبين ا فقـط ، أمـا الذنوب التي بينك وبين العباد هذه لا تسقط إلا بالأداء أو المسامحة ، أكبر دليل هذا الذي قـدم روحه في سبيل ا هل يغفر له كُل ذنب ؟ نعم إلاّ الدين لا يغفر .. قدم روحه .. لا يغفر لأن الدين من حقوق العباد ، وحقوق العباد مبنيةٌ على المشاححة بينما حقوق ا عز وجل مبنيـةٌ على المسامحة .

مرة إنسان أعطوه ٢٠ دونم من الفرحة اختل توازنه ، فقير جداً وله شيخ قال لـه : يا بني هذه الأرض حرام أن تأخذها لأنها ليست لك في الأساس أُخذت من صـاحبها غصـباً وأُعطيت لك .. هذا حرام .. " هذه الكلمة من الشيخ أطفأت سروره جعلته يقنط " قال لـه : اذهب وحاول أن تشتريها منه تقسيطاً ، ذهب إليه وقال : يا سيدي أعطوني من أرضـك ٢٠ دونماً وقال لي شيخي أن هذه الأرض حرام أن آخذها منك هل تبيعني إياها تقسيطاً ؟ قال له : يا بني وا ذهب لي ٤٠٠ دونم لم يأتي لعندي أحد إلا أنت فهذه هدية مني لـك .. حررهـا وأخذها حلالاً .. لا يوجد إنسان يتحرى الحلال إلا ا عز وجل يكسبه الحلال ورضـوانه .. الحلال والأرض ..

قول ذكرته قبل قليل : " **حاسبوا أنفسكم قبل تُحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم وإعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا وسيتخطى غيرنا إلينا** " .. لاحظ نفسك :

فلان توفي رحمة ا عليه ، هنا عميد أسرتهم ، هذه الشابة ، هذا الشاب ، الطبيب الفُلانـي ، إلخ ... يجب أن توقن أنه في أحد الأيام سيقرأ الناس نعوتنا لابد منها ..

منذ فترة كُنا في سهرة هناك رجل كآبته صارخة ، التفت وسألته : خير إن شاء ا ؟ فلم يجبني ، بعدها فهمت أنه أصابه سرطان في الجلد واثنين وثلاث وأربع وخمس وأجرى خمس عمليات وكلما أجرى بمكان ظهر في المكان الآخر وهو على علم عالٍ فـي الطـب ، والتقيت معه مرةً أخرى فكل توجهه أن موته من السرطان بعدها توفي باحتشاء القلب .. سبب الموت ليس له علاقة بالمرض الذي ظن أنه سيميتُه .. جميعاً نحن تحت ألطاف ا ، لا أحـد يضمن منّا حياته ساعة .

فلذلك : " **حاسبوا أنفسكم قبل تُحاسبوا** " المؤمن البطل جاهز للمغـادرة ، الآيـة الدقيقة :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾

(سورة الإنفطار)

عندما يقول ربنا :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٥﴾

(سورة فاطر)

واضحة .. يعني واحد يظن أن العلبة مليئة وهي لا تحتوي على شيء وجدها علـى الأرض ففرح بها وحملها ثم وجدها خاوية .. خاب ظنه .. نقول اغتر بها ظنها ممتلئة .

كان هناك شاب عنده دعابة ، كان في محل تجاري يكنس المحل ، يضع الأوسـاخ في علبة فخمة ، يلفها بورق هدايا ، يضع له شريط أحمر ويضعها على الرصـيف ، يـأتي شخص فيرى العلبة فيظن أن فيها أشياء ثمينة فيحملها ويركض وبعد ٢٠٠ متر ينزع الشريط ، و٢٠٠ أخرى ينزع الورق ، و٢٠٠ أخرى يفتح العلبة فيجد فيها أوساخ المحل ..... نقـول هذا الإنسان اغتر بهذه العلبة .

" **يأأيها الناس إن وعد الله حق فلا تَغُرنكُم الحياةُ الدنْيا** " تغر وتضر وتمر وأحياناً الإنسان وهو في أوجه ينزع منها بعد ما عاش إنسان أربعين .. خمسين سنة في منزل تحـت الأرض صغير رطب وهو يجمع المال حتى اشترى بيتاً في أرقى أحياء دمشق " أنـا البيـت أعرفه له شرفة تُطلُ على دمشق بأكملها ، جلس على الشرفة وأمر زوجته بإحضـار القهـوة

وقال لها : الأن قد تأمن مستقبلنا .. هذا منزل " وبعد جمعة واحدة فقط وافته المنية ، هـذه الدنيا تغر وتضر وتمر .

وشخص آخر اشترى في شارع الميسات " صاحب ذوق رفيع " أخـذ شـقتين فـي الطابق الثاني عشر ، الكسوة لم تعجبه فهدمها ، خلع السيراميك ، والنوافـذ ، والـبلاط ..... عمل مدى سنتين في كسوة بأعلى مستوى .. أحد أخواننا يسكن تحت .. يقول لم يكن هنـاك مصعد فيصعد ماشياً في اليوم مرتين أو ثلاث لمدة سنتين وقام بترتيب كُل شيء ثم جاءه ملك الموت .

لذلك الإنسان يجب أن يهيئ نفسه لهذه الساعة التي لابد منها ، أنا أتمنى من الإنسان أن يتبع جنازة ولو لم يعرفها ، يلاحظ عندما يوضع النعش ، يفتح غطاء النعش يحمل الميت " البارحة كان في الفراش " أهله بجانبه جميع طلباته مجابة ...

وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾

(سورة القيامة)

مرة لاحظت إنساناً وهو يكفّن أحضروا قطعة قماش طويلة وغمسوها بالماء وعندما ربطوها علقت فشدوها " **وَالْتَفتْ الساقُ بالساق* إلى ربك يومئـذ الْمسـاقُ* لا صـدقَ وَلا صلى* ولكن كذب وتَولى* ثُم ذَهب إلى أهله يتمطى* أولى لك فأولى* ثُم أولى لك فأولى ***

وضع في القبر وُأهيلَ التراب عليه ، انفض أهله إلى بيتهم وبقي وحده في البيت :

عبدي رجعوا وتركوك وفي التراب دفنوك

ولو بقوا معك ما نفعوك ولم يبقَ لك إلا أنا

وأنا الحي الذي لا يموت

لكن كيف نفهم " يا أيها الذين آمنوا لا تغرنكن الحياة الـدنيا " واضـحة لا ترونهـا بحجمٍ أكبر من حجمها ، أما كيف نفهم قوله تعالى :

" **ياأيها الإنسان ما غَرك بربك الكَريم** " .

طالب توهم أن الأستاذ فقير " ُأعطيه ألفي ليرة قبل الإمتحان وآخذ الأسئلة منه وبلا هذا التعب " هكذا كان توهمه فارتاح ، طرق الباب قبل الفحص بيومين وعرض على الأستاذ فطرده الأستاذ ... نقول هذا الطالب اغتر بأستاذه ... يعني ظنه يبيع الأسئلة ، وهذا المخاصم اغتر بالقاضي ، ظنه يرتشي فهو ليس كذلك

إذا ظننت با ظن السوء فأنتَ قد اغتررتَ با ، إذا ظننتَ أن ا لن يحاسبك فقـد اغتررتَ با ، إذا ظننتَ بأن ا لن يعاقب الجاني قد اغتررتَ به ، إذا ظننتَ بـأن ا لـن يأخذَ من القوي للضعيف فقد اغتررتَ بعدالته ، هذا معنى قوله تعالى : " **ياأيها الإنسـان مـا غرّك بربك الكريم** " .

السؤال الثاني الذي يهمنا : كيف نُحاسب أنفسنا ؟ كان في صلب الـدرس لابـد أن تُحاسب نفسك .

قالوا : الأداة الأولى هي العلم ، أنت بالعلم تعلم ما إذا كنتَ على حق أو على باطل ، ما إذا كُنتَ مذنباً أو غير مذنب .. بالعلم .. العلم أداة المحاسبة ، احضر درس علم تجد أنك في نفسك مخالف للشرع ، احضر أحكام البيوع ، احضر درساً في العلاقات الزوجية ، احضر درساً بالأخوة الإيمانية .. في غيبة وهناك نميمة ، احضر درساً بالحوالة والوكالة والكفالة تجد نفسك مخالف ... لن تُحاسب نفسك إلا إذا كُنت على علم ، العلم نور .

أوضح من ذلك : لو أحضرنا إنساناً مثلاً في الصف الرابع الإبتدائي وقلنا له إقـرأ هذا النص ، إذا كانت والدته لا تقرأ ولا تكتب فهل تستطيع أن تحاسبه على أغلاطه !؟ يمكن أن يرتكب أخطاء كثيرة في الصفحتين وتقول له جيد جداً ، لا يوجد عندها مقياس الأم جاهلة ، أما لو كان والده يحمل ليسانس في اللغة العربية وطلب منه القراءة ، كل كلمة غلط يصحح هذه غلط ، هذه مبتدأ وهذه خبر وهذه مفعول به وهذه حال وهذه تمييز .... إلخ ، لن تستطيع أن تُحاسب إلا إذا كنت عالماً ، كذلك لن تُحاسب نفسك إلا إذا كنتَ عالماً ، تعـرف أن هـذا القرض جر دفع فهو ربا ، هذا الإيجار باطل ، هذا العقد باطل ، هـذه السـلعة محرمـة إذاً التجارة بها باطلة ، هذه النظرة للأب :

" ما بر أباه من شد إليه الطرف بالغضب "

(أخرجه الطبراني)

" باطله هذه ما بر أباه ، النبي عليه الصلاة والسلام رأى شاباً ورجلاً قال له من هذا ؟ ويعلم من هذا ، فأجابه : أبي ، فقال له النبي : أبوك ؟ لا تمشي أمامه ولا تجلس قبلـه ولا تستب له ولا تناديه باسمه ، إذا كُنتَ تعرف الحديث وشاهدت إنساناً يمشي أمام والده وجلـس قبله وناداه باسمه مثلاً وعملَ عملاً سيئاً فشتمه الناس ، فيكون قد خالف .

لن تستطيع أن تُحاسب إلا إذا كنتَ عالماً ، فأول أداة هي العلم بالعلم تُميز بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والضار والنافع ، والكامل والناقص ، والخير والشر ... بالعلم تعرف مراتب الأعمال راجحها ومرجوحها ، مقبولها ومردودها ، وكلما كان نصيبك من العلم أوفر كان التمييز أقوى .

العلم نور .... أحضر مصباحاً ضئيلاً يكشف لك الطاولة ، أما الإبرة فلا تشاهدها ، الإبرة لا تُشاهدها على السجاد أما إذا امتلكت مصباح ٥٠٠٠ شمعة فتشاهدها ، فكُل ما اشـتد مصباحك تكشف أدق الحاجات ، وكل ما اشتد النور في قلبك تكشف أدق المخالفات ... أيـام إبتسامة سخرية تُحاسب عليها ، أحياناً كلمة هكذا ..

" عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة "

(أخرجه الطبراني)

أيام يقول لك واثق ولم تتكلم أنت ولا كلمة ، لا تعرفه أنت وقد يكون أفضل منـك ، فكلما اشتد النور الذي في قلبك كشفتَ أدق المخالفات ... هذه أول واحدة .

<u>الأداة الثانية : سوء الظن بالنفس</u> .. كلما أسأت الظن بنفسك تكون أرقى عنـد الله عز وجل ، وكلما أحسنت الظن بها تكون ساذجاً ، نصيحتي : بالغ بإساءة الظن بنفسك وبحسن الظن بالآخرين ، هذا المؤمن أما الشيء المضحك أن هناك أشخاص يحسنون الظـن بأنفسـم ويسيئون الظن بالآخرين ، هو مبرأ من كُل خطأ أما غيره غير مبرأ .

بالغ بسوء الظن بالنفس وبحسن الظن بالآخرين ، فسوء الظن تشتد الحاجةُ إليه لأن حسن الظن بالنفس يمنع محاسبتها ، يقول لك ماذا بي !؟ يرتكب أكبر المخالفات ويقول لـك : ماذا فعلت ؟! حسن الظن بلاء بالنفس كلما أحسنت الظن بنفسك منعتها من أن تُحاسب .

عين الرضا عن كل عيبٍ كليلةٌ   كما أن عين السخط تُبدي المساوئا

إذا علم المسيء أنه مسيء لم يعد هناك مشكلة ، لكن المسيء لا يعلم أنـه مسـيء ، يتوهم أنه على حق ، قال ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها ومن أحسن الظن بنفسه كـان من أجهل الناس .

<u>الأداة الثالثة : أن تُميز بين النعمة وبين الفتنة</u> ، النعمة هي التي تنقُلُك إلى الطاعة والشُكر ، وأما النعمة التي تنقُلُك إلى المعصية والكبر فهي فتنة وليست نعمة .. أكثر النـاس تلتبس عليهم الأمور بظن النعم نعم وهي قد تكون نقم ، النعمةُ التي تحملُك على الكبر هـذه نقمة ، النعمة التي تحملُك على معصية هذه نقمة ، النعمة التي تحملُك على أن تزهـو علـى الآخرين هذه نقمة ، أما النعمة التي تقودك إلى الله وإلى طاعته وإلى شُكره هذه نعمـة وهـذا يؤكده قوله تعالى :

فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾

(سورة الفجر)

يعني يا عبادي ليس عطائي إكراماً ولا منعي حرماناً ، عطائي إبـتلاء وحرمـاني دواء .

أيها الأخوة : أدواتٌ ثلاث : أن تُميز بين النعمة والنقمة ، وأن تُسيء الظن بنفسك ، وأن تطلب العلم ... هذه أدوات المحاسبة إن ملكتَ هذه الأدوات حاسبتَ نفسك حساباً عسـيراً فكان حسابك يوم القيامة يسيراً .

لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾

(سورة النور)

هذه ثمار المحاسبة ، إن أردتَ أن تكون مستقيماً وحرصتَ على ذلك يهديك ا إلى الصراط المستقيم : **لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .**

والحمد رب العالمين

*****

الدرس ٤٥ - منزلة الصبر .

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام : مع الدرس الخامس والأربعين من سلسلة دروس مدارج السالكين في منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) ومنزلة اليوم هي منزلة " **الصبر** " الإمام أحمد رحمه ا تعالى يقول : الصبر في القرآن في تسعين موضعاً لأن الإيمان هو الصبر ، ولأن الإنسان مخلوق للجنة وثمن الجنة الصبر الفرق بين الكافر والمؤمن : الكافر متفلت يفعل ما يشـاء ، يأكل مايشاء ، يجلس مع من يشاء ، يذهب لأي مكان يشاء ، يأخذ أي مال يشاء ، يعتدي على أي مخلوق يشاء ، هكذا تفلت ، استرخاء ، تحرك عشوائي المـؤمن منضـبط بمـنهج ا ، الشهوات واسعة ، القنوات النظيفة محددة ، أودع في الإنسان حب المـرأة القنـاة النظيفـة المشروعة التي ترضي ا أن تنظر لزوجتك ، وإلى محارمك ، وما سوى ذلك تفلت ، كسب المال واسع جداً ، هناك ألف مصدر لأخذ المال ، الكسب المشروع هـو الـذي يرضـي ا عزوجل ، فإذاً عملية الصبر عملية ضبط عملية انتقاء، عملية اختيار ، عملية دفع ثمن الجنة ، أحياناً إنسان يدخل جامعة ويأخذ شهادة عليا ، ويحمل لقباً علمياً عالياً ، يتعين بمنصب رفيع ، يأتيه دخل كبير ، يعيش في بحبوحة وكرامة ، ما ثمن هذه المكانة وتلك الكرامة وهذا الـدخل الكبير ؟ هو أن رفاقه آثروا اللعب ، آثروا النزهات ، آثروا الجلوس في الأزقة ، هو قبع فـي البيت وانكب على الكتاب وصبر على الدراسة ، حتى مراتب الدنيا تحتاج للصبر ، فحينما قال عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث : **"الإيمان نصفان نصف صبر ، ونصف شـكر "** وفي حديث آخر " **الإيمان هو الصبر** " فعندما آمنت با قيدت نفسك بمنهج ا ، حينما آمنت با قيدت نفسك بما يرضي ا ، وسعيت للجنة ، تركت كل طريق واتبعـت طريـق الجنـة تركت كل مال وأخذت المال الحلال ، تركت كل شهوة ومارسـت كـل شـهوة ترضـي ا عزوجل ، هذا كله صبر ، الصبر يعني الضبط ، فالمؤمن مضبوط ، ضابط لسانه وعينه ويده ودخله وإنفاقه وحركاته وسكناته ...

الصبر واجب بإجماع الأمة لأن القرآن الكريم حينمـا يقول لك : اصبر فهذا أمر ، وكل أمر بالقرآن الكريم يقتضي الوجوب ، كلام ا منهج ، وسلسلة أوامر ونـواه ، وأنـت كمؤمن ليس لك خيار " **ماكان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى ا ورسوله أمراً أن يكـون لهم الخيرة من أمرهم .** فأول موضع من مواضع الصبر أن ا أمر به .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ

(سورة البقرة) .

الصبر وسيلة راقب نفسك إن كنت عند طبيب الأسنان وقال لك : إن قلبك لا يحتمـل المخدر ! أنا مضطر لخلع الضرس دون مخدر فتحمل ، هذه القناعـة تجعلـك تتمسـك بيـد الكرسي وأن تشد عليه من أجل الصبر ، فكلما ازداد علمك ازداد صبرك ،

أما لو أن الطفل الصغير وضع على كرسي الطبيب وشعر بوخذة إبرة المخدر يصيح ويتحرك بقوة لأن إدراكه غير إدراك الراشد ، فكلما ازداد عقلك ازداد صبرك ، كلما ضـعف إدراكك قل صبرك

(ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة)

وقال تعالى :

ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ

(سورة آل عمران)

اصبر وأعن أخاك على الصبر، أنا أستمع لبعض الكلمات من وسوسـة الشـيطان ، يطرح أخوك عليك مشكلته تجيبه لو كنت مكانك لانتحرت ! هذا كلام الشيطان ، قل له اصبر يا أخي فا عزوجل رحيم بعد الصبر الفرج ، ا يمتحنك ، والمؤمن يبتلى ، والنبـي أشـد الناس بلاء ، هذا الكلام فيه مصابرة اصبر وصابر ، لكن المؤمن الصادق يصـبر ويسـتعين با على الصبر ، قال :

وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ

(سورة النحل) .

فالصبر بقوة الإرادة كلام فارغ ، يتماسك أمام الناس ، أما فيما بينه وبين ذاته قد يتكلم كلاماً قبيحاً قد يتحرك حركة عشوائية مخجلة لأنه لم يستعن بالصبر با عزوجـل . أمرنـا بالصبر ، أمرنا أن نصبر وأن نصابر ، وأن نستعين با على الصبر .

البند الثاني من موضوع الصبر : النهي عن ضده ، إيـاك ألا تصـبر ، إيـاك أن تضجر ، إياك أن تقول أين ا ، إياك أن تقول دعوت فلم يستجب لي ، إياك أن تقول كلمات تعني أنك لست صابراً .

فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ

(سورة الأحقاف) .

يقال : أماتهم ا ؟ له أقرباء ظلام حرموه الميراث ، يتألم يستعجل لهم الهلاك ، وقوله :

فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ

(سورة الأنفال) .

التولي من الزحف دليل عدم الصبر ، ولا تبطلوا أعمالكم بعدم الصبر ، هناك أشـياء في حياتك هي قدرك ، ابنك ، وزوجتك ، وأقرباؤك الذين ليس لك خيار في الانتماء إليهم كل هؤلاء هم قدرك ، فإما أن تصبر عليهم ، وإما أن يصبروا عليك ، لذاك ولا تبطلوا أعمالكم ، إنسان خدم والدته كما ذكرت من أيام عشر سنوات ثم ضجر أشد الضجر ، فصاح في وجهها فبكت ، فجاء أخوه ونقلها لبيته ، بعد يومين ماتت عند أخيه ، ماذا فعل هذا الإنسان ؟ أبطـل كل عمله . (ولاتبطلوا أعمالكم) أحياناً تحسن لإنسان إحساناً مستمراً ، ثم تفقد الصواب فجـأة فتهدم كل الذي بنيته سابقاً ،

الإنسان إذاكان مبتلى ، قال :

وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

(سورة آل عمران) .

فالوهن والحزن من عدم الصبر ، الضجر من عمل صالح متعب دليل قلة الصـبر ، التولي من الزحف دليل قلة الصبر ، استعجال العذاب للأعداء دليل قلة الصبر .

البند الثالث في موضوع الصبر : ا جل جلاله اثنىعلى أهله وثناء ا علـى أهلـه شيء كبير ! وا آية قرآنية حينما أقرأها :

إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ

إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾

(سورة ص) .

ا يعرف أنه ساق لك شدة ، ويعرف الأمر بالضبط ، والظروف الصعبة ، والمشـقة التي تتحملها والألم الذي يأكل قلبك ، والتضحية التي ضحيت بها ، وكم هذا يؤلمك ،

(إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) إذا أثنى ا عليك أليس هذا مكسباً عظيمـاً ؟ أن يثني عليك خالق الأكوان ، إنا وجدناه صابراً لوجه ا في صبر القهر ، أما فـي صـبر المعرفة : أحياناً يكون إنسان أقوى منه مقهور صبر القهر ، أما أحياناً قادر على فعـل كـل شيء ،لكن يلجمه الصبر يلجمه خوف الموت يلجمه رضاء ا عزوجل ، يلجمه طلب الآخرة ، يلجمه خوف العقاب ، الصابرين والصادقين ، لأنهم صادقون كانوا صابرين .

وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

(سورة البقرة) .

ا عزوجل يحب العبد الصابر ، في إنسان أقل شيء تجده انتهى ، انهار تكلم كلامـاً قبيحاً تطاول أعلن عن ضجره ، أعلن عن عدم صبره ، هناك إنسان صابر ، **(والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)** ماذا نسـتنتج مـن هاتين الآيتين ؟ ماالذي يكشف عدم الصبر والصدق ؟ قلة الصبر ، الصادق صـابر ، الأقـل صدقاً أقل صبراً ، غير الصادق ضجر ، لايعد صابراً .

البند الرابع وا يحب الصابرين : وا لوحققت كل مكاسب وصلها إنسان هذا أعظم مكسب أن يحبك ا عزوجل ، وا يحب الصابرين ، إنما يوفى الصـابرون أجـرهم بغيـر حساب ، سبحان ا يقول : إن الحزن خلاق ،الإنسان إذا ربي على النعيم لامشكلة مالية عنده ، لاصحية ، ولا أي قضية السلامة المستمرة والقوة تقسي القلب ، كأنه مستغنٍ عن ا ، أمـا الشدة والإبتلاء يرققان القلب ، وكأن هذا الصابر قريب من ا عزوجل ، هذا شيء ملاحظ ، عندما يصاب الإنسان بمرض ، عندما يكون هناك مشكلة تجده سريع البكاء ، نفسه شـفافة ، نفسه قريبة من ا عزوجل ، لذاك وجد أن الحزانى في كنف ا ، إن ا يحـب كـل قلـب حزين ، الحزانى معرضون للرحمة ، هذا إنسان قريب من ا لذالك المصـائب قـد تخلـق بطولات بالإنسان ،إنسان معه ألف مليون تبرع بمليون أو مليونين أو خمسـة هـذا هامشـها صغير جداً ، أحياناً يكون المؤمن معه ألف ليرة لآخر الشهر مدة سبعة أيام فهو فـي أمـس الحاجة إليها يأتيه أخ بحاجة لألف ليرة يقع في صراع ثم يدفعها له ينتصر على نفسه .

البند الخامس في الصبر : أن الصبر يوجب معية ا لك ، ومعية ا شيء ثمين جداً

،

وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

(سورة الأنفال) .

هذه المعية الخاصة ، معية النصر والتأييد والحفظ والتوفيق ، أنت بالصبر ضمنت كل هذه الأشياء .

البند السادس : ا عزوجل يخبرنا أن الصبر خير لأصحابه ، أنت أمام مشكلة لك أن تصبر ولك أن لا تصبر ، أيهما خير أن تصبر ، لأنك إن لم تصبر ماذا تفعل ؟ من كان يظن أن لن ينصره ا في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع ، ثم لينظر هل يـذهبن كيدهما يغيظ ؟ هذا الذي امتلأ قلبه حسداً من رسول ا هل بإمكانه أن يمنع عنه الـوحي ؟ لا آمن به بدل أن تغضب منه وتحقد عليه ، جاءت مصيبة أنت أمـام خيـارين : تصـبر أو لا تصبر ، إن صبرت لك الدنيا والآخرة ، وإن لم تصبر سوف تقهر إخبار ا عزوجـل بـأن الصبر خير لأصحابه ، كقوله:

وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ

لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾

(سورة النحل) .

(وأن تصبروا خير لكم) أحياناً موظف بدائرة جالس من السـاعة الثامنـة للسـاعة الواحدة والربع بعمل دؤوب شديد بإخلاص ، يضجر فيذهب للمشى ، يقف على النافذة دقيقة ، يأتي المدير العام ويقول له : أهذا عملك ؟ المدير بشر دقيقة ما عرف أنه بعمل دؤوب مـن الساعة الثامنة وحتى الواحدة والربع ، رآه في ساعة راحة ، نقول : هذا جوزي بأسوأما كان يعمل كل الساعات دوام دقيقة راحة شاهده المدير في هذه الدقيقة ، ربنا عزوجل كريم ينتقـي لك أجمل عمل ويكافأك عليه ، هو دعاء **(اللهم إني أعوذ بك من إمام سوء إن أحسـنت لـم يقبل ، وإن أسأت لم يغفر) أو(اللهم إني أعوذ بك من جار سوء إن رأى خيراً كتمـه ، وإن رأى شراً أذاعه)**

الحديث الشريف يوجد نقطة بالفقه الإسلامي أتمنى أن تتضح لكم : النبي قال : تجـب الزكاة في القمح والشعير والتمر والزبيب الآن يوجد ألف محصول تجب فيه الزكاة لكن النبي ذكر أربعة فقط العلماء قالوا : تجب الزكاة في علة هذه المحاصيل لافي عينها ، رجل يملـك

عشرون دونماً من التفاح وبدل القمح حمص عدس ، هناك محاصيل غالية وثمينة جداً فتجب الزكاة في علة هذه العناصر لا في عينها ، لايقضي القاضي حين يقضـي وهـو غضـبان ، العلماء حملوا على الغضب ثلاثاً وثلاثين حالة ، إذا ابنه مريض ومـرض مخيـف القاضـي ممنوع أن يقضي فذهنه غير صاف ، بعض الأيام استخدم عبارة أحياناً أكون أمام أمر صعب أقول : أنا لست معك فأنا مشغول عندي وعد الآن سوء فتوى هو مرتاح البال يريـد إعطـاء التفاصيل فالقاضي لايملك الحق بالقضاء إذا كان غضبان أوجوعان أو تعبان نعسان أو يوجـد مشكلة في حياته .. النبي الكريم قال : **قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسـلم : لا يفْـرك مؤْمن مؤْمنَةً إِن كَره منْها خُلُقًا رضي منْها خلقاً آخَر ***

(رواه أحمد) .

جارك أخوك أبوك صديقك .. كل له سلبيات وإيجابيات اجعلها مبدأ ، كن منصفاً كل جهة تبحث عن الإيجابيات والسلبيات ، فإن ذكرت الإيجابيات ذكرت السلبيات ، فهذا الذي يقوله النبي عليه الصلاة والسلام ، إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم ، كقوله تعالى :

وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

(سورة النحل) .

البند الثامن في الصبر : إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب ، إنما يوفّ الصابرون أجرهم بغير حساب ، ا عزوجل مربٍ ، يسير الإنسان في الصحراء يتعب يجد واحة فيرتاح ا حكيم يسوق الشدة ثم بعدها الرخاء ، يسوق الشدة ومن بعدها شدة إليه ، يسوق المحنة ومن بعدها منحة ، يسوق الشيء المتعب ومن بعده شيء مريح ، سيدنا رسول ا بالطائف إذا وجد خط بياني للدعوة بالحضيض ، كذب واستهزئ به وبدعوته وقد ناله الأذى من أبنائهم ، قال **:(يارب إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ولك العتبى حتى ترضى لكن عافيتك أوسع لـي)** ماذا جاء بعد الطائف ؟ الإسراء والمعراج ، وصل النبي عليه الصلاة والسـلام إلـى سـدرة المنتهى عندها جنة المأوى ، لقد رأى من آيات ا الكبرى ، لقد أطلعه ا أنه سيد الخلـق ، سيد الأنبياء والمرسلين ، متى جاء الإسراء والمعراج ؟ بعد الطائف ، وكل شخص منا عنـده طائف وعنده إسراء ومعراج ، بالمعنى الرمزي ، ساعات شدة ومحنة ، وساعات فوز وتكريم ، بعد العسر اليسر ، وبعد الضيق الفرج ، بعد الضعف القوة ، بعد الفقر الغنى ، هذه حكمـة ا عزوجل وهذه تربيته ،أنت عندما تبشر إنساناً بماذا تبشره ؟ أتبشره بـإتلاف المـال هـذا

مستحيل ، تبشره بالقتل مستحيل وهذه اسمها استعارة تهكمية ، على كـل البشـرى للشـيء الطيب ، قال تعالى :

وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾

(سورة البقرة) .

قد تجد الغني مكرماً عند ا والفقير مهاناً ، قد تجد القوي مكرماً و مهاناً ، قـد تجـد الوسيم مكرماً والدميم مهاناً ، إمرأة على جانب من الجمال معززة مكرمـة ، إمـرأة تواجـه مشكلة تجدها غير مرغوبة فهذه المرأة من الدرجة الثانية تتألم ، لكن ا عزوجل يقول:

فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾

(سورة الفجر) .

وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾

(سورة الفجر) .

لا ليس ذلك فليس عطائي إكراماً ولامنعي حرماناً ، إذا ا عزوجل منعك من شـيء لايعني أنه يهينك ، أجمل مثل : الأب الطبيب شكا له ابنه ألماً في المعدة قام بالتنظير فوجـد التهاباً حاداً ، طهو من الطعام الكوسا فمنعه من تناولها بقسوة ، وإذا فكرت الأم إعطاءه نصف قطعة يصب عليها جام غضبه فهذا الطفل عندما حرم هذه الأكلة الطيبة هل يشـعر أن أبـاه يهينه ؟ هذه ليست إهانة بل حفظ ، فعندما تفهم أن هذه المصيبة حفظ نجحت ، بـذاك الآيـة الكريمة :

ا عزوجل يخاطب المؤمنين :

(ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفـس والثمـرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إن وإن إليه راجعـون أولئـك علـيهم صلوات من ربهم)

الصلاة هي الدعاء ، الدعاء لمن بيده القوة ، فإذا صلى ا عليك ا بيده كل شيء الصلاة من ا رحمة وعطاء ، من العبد دعاء ،

أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

(سورة البقرة) .

النصر يحتاج للصبر ، قال تعالى :

بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

(سورة آل عمران) .

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول : واعلموا أن النصر مع الصبر) شيء آخر الصبر يحتاج لقوة إيمان ، أما عدم الصبر دليل ضعف الإيمان ، والدليل قال تعالى :

وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾

(سورة الشورى) .

وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾

(سورة لقمان) .

الفرق في اللام وفي صبر وغفر ،

المعنى الذي تعرفونه : هو أن الإنسان إذا جاءه من ا مصاب مباشرة عليه بالصبر ، أما إذا جاء هذا المصاب على يد إنسان عليه أن يصبر ويغفر ، يصبر على قضاء ا وقدره ، ويغفر لمن ساق ا هذه المصيبة على يديه ، أوضح مثل : إنسان وقع ابنه من الشرفة فنـزل ميتاً عليه بالصبر ، لأن هذا قضاء ا وقدره ، أو لو أن سائقاً دعس ابنك لا سـمح ا مـاذا تفعل ؟ هنا أنت بحاجة لصبر ومغفرة وحينما يكون إيمانك قوياً جداً ترى أن هذا الذي سـاق ا المصيبة على يديه إنسان قدر ا عليه هذه المصيبة ، فلا تحقد إذا كنت مؤمناً .

الآن المراتب العالية ، المواقف الجليلة ، البطولات التاريخية ، قمم النجاح ، هذا كلـه يحتاج إلى الصبر ، إن أردت أن تكون من عامة الناس فلا تصبر ، وإذا كنت من أعلام الأمة والنوابغ والعباقرة وكبار الدعاة والمصلحين ، هناك مضائق لابد أن تمر فيهـا ، " **واجعلنـا**

منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا " ، " وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال: إنـي جاعلك للناس إماما " .

اسمحوا لي بهذه الكلمة أيها الإخوة وا الذي لا إله إلا هو لن نشم ريح الجنـة إلا إذا مررنا في المضائق التي رسمت لنا ونجحنا فيها ، في مضائق الصبر ، الصبر عن الشـهوة ، والصبر على الطاعة والصبر على قضاء ا وقدره ، الحياة مريحة مال ، جـاه ، مكانـة ، طعام لذيذ ، نزهات جميلة ، لامتاعب أبداً هذا شيء مستحيل !لابد من مضائق تمر فيها ، مر فيها النبي ويمر فيها كل مؤمن صادق **(فاصبر كما صبروا أولوا العزم من الرسل) ، (فاصبر وما صبرك إلا با) ، (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) .**

الوحشي الذي قتل سيدنا حمزة وأمرته هند بنت عتبة أن يشق صدره وأن يسـتخرج كبده فمضغت كبده تحقيقاً لحقدها ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يحب سيدنا الحمزة حباً لاحدود له ، أليس بإمكانه أن يقتله ؟ أن يمثل به ، أن يعذبه ، أعلن الشهادة انتهى ، دخل فـي الإسلام دخلة تقية كما يبدو فالصبر دليل العظمة ، سهل أن تبطش لكن البطولة أن تصـبر ، أن تكظم الغيظ .

وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ

ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

(سورة آل عمران) .

وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا

وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾

رجلان قادمان من أوربة بسيارتين دخلا فندقاً في بعض مدن أوربة الشـرقية ، فـي الليل فتاتان طرقتا بابي الغرفتين ، رجل فتح الباب والآخر طردها ، وتابعا المسـير للشـام ، الذي فتح الباب أصبحت حياته سلسلة من العذابات إلى أن طلق زوجته ، وأغلق متجره ، ولم يجد ما يأكل ، والثاني صعد هكذا هذا العطاء لمن صبر ، قال :

مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

(سورة يوسف) .

سيدنا يوسف أكبر شاهد قدوة للشباب آثر طاعة ا ورضوانه على شهوته لذلك مامن شيء أكرم على ا من شاب تائب ، إن ا ليباهي الملائكة ، يقول : انظروا عبـدي تـرك شهوته من أجلي .

وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

(سورة فصلت) .

المراتب العليا تحتاج إلى صبر ، وما نيل الطالب بالتمني ، ولكن تؤخذ الدنيا غلابا .

وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا

(سورة الإسراء) .

أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾

(سورة آل عمران) .

الآيات الدالة على عظمة ا ، العبر لا يستنبطها إلا الصابرون .

قال تعالى :

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾

(سورة إبراهيم) .

فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ

وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿١٩﴾

(سورة سبأ) .

إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾

(سورة الشورى) .

الصبار هو كثير الصبر وهو الذي يكتشف الآيات ، في الآيات الكونية والتكوينية ، قد لاتصدقون هذه الجنة العظمى ودار الخلد التي وعد بها المتقون هذا المقام الرفيع عند ا عزوجل .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾

(سورة القمر) .

فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

(سورة القمر) .

هذا العطاء الأبدي ، والنعيم المقيم ، وهذا الفوز العظيم ، والمقام الرفيـع فـي ظـل رضوان ا ، هذا النظر لوجه ا يوم القيامة قال : كل هذا ثمنه الصبر ،الدنيا فيها شـهوات وقنوات نظيفة ، فإذا سلكت الشهوات في هذه القنوات هذه للجنة ، إذا أفرغت الشهوات في أي قناة للنار ، **(إن عمل الجنة حزن بربوة، وإن عمل النار سهل بثروة)** الآية الكريمة تقول :

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾

(سورة الرعد) .

سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

(سورة الرعد) .

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ

(سورة السجدة) .

فأنتم في سلام اللهم أوصلنا إلى دار السلام بسلام ، فثمن هذه الدار الصبر ، **(سـلام عليكم بما صبرتم فنعم عقب الدار) .**

النقطة الخامسة عشرة أن الصبر يورث صاحبه الإمامة ، **(وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) .**

الشيء قبل الأخير أن الصبر يقترن بكل مقامات الإسلام ، كالإيمان والتقوى والتوكل والشكر والعمل الصالح والرحمة ، لذلك كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا إيمان لمن لاصبر له كما أنه لاجسد لمن لا رأس له .

وقال عمر بن الخطاب رضي ا عنه : **(خير عيش أدركناه بالصبر)** عندما ا عز وجل يسعد إنساناً هذه السعادة لا علاقة لها بنوع معيشته ، قد يسعدك وأنت فـي الكـوخ ، وقد يسعدك وأنت أعزب وقد يسعدك وأنت فقير ، وقد يسعدك وأنت مريض ، وقد يسعدك وأنت تأكل أخشن الطعام يسعدك وأنت ترتدي أخشن الثياب ، وقد يشقيك ا عز وجل وأنت في قمة النعيم ، الشقاء والسعادة لا علاقة لهما في شروط الدنيا التي تعارف عليها الناس إنها عالية ، ا عز وجل قد يحجب رحمته عن القوي فقوته بلاء عليه ، وعن الوسيم وسامته بلاء عليه ، وعن الغني غناه بلاء عليه ،عن إنسان عنده أولاد أولاده أعداء له ، وقـد يفـتح رحمته على من حجبت عنه الدنيا فإذا فراشه الخشن أجمل فراش ، في فندق بألمانيـا كتبـوا على السرير (إن بت أرقاً فابحث عن ذنوبك فالعلة ليست في فرشنا بل فـي ذنوبـك) يتـألم الإنسان أحياناً ولا ينام ، يقول سيدنا عمر **:(خير عيش أدركناه بالصبر)** والنبـي الكـريم أخبر في الحديث الصحيح أن (الصبر ضياء) ، نور في القلب ، الصبر كما قـالوا : الحسـنة نور في القلب ، والوجه **صحة في البدن ، محبة في قلوب الخلق ، سعة في الرزق ، ويقول عليه الصلاة والسلام :**

أَن نَاسا من الأَنْصار سأَلُوا النبي صلى اللهم عليه وسلم فَأَعطَاهم ، ثُم سأَلُوه فَأَعطَاهم ، ثُم قَال: ما يكُون عنْدي من خَيرٍ فَلَن أَدخره عنْكُم ومن يستَغْنِ يغْنه الله ، ومن يستَعفف يعفه الله ، ومن يتَصبر يصبره الله ، وما أُعطي أَحد شَيئًا هو خَير وأَوسع من الصبرِ .

(رواه الترمذي) .

يارب ارزقني الصبر ، افتقر إلى ا بالصبر ، وفي الحديث الصحيح :

قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم : عجبتُ لأَمرِ الْمؤْمنِ إِن أَمر الْمؤْمنِ كُلَّه له خَير لَيس ذَلِك لأَحد إِلا لِلْمؤْمنِ إِن أَصابتْه سراء شَكَر وكَان خَيرا ، وإِن أَصابتْه ضراء صبر وكَان خَيرا *

(رواه أحمد) .

النبي عليه الصلاة والسلام أمرنا بالصبر عند ملاقاة العدو ، وعند المصيبة ، وعنـد الصدمة الأولى وأمر المصاب أن يحتسب مصيبته عند ا عزوجل فـإن هـذا يخفـف مـن

مصيبته ، حسبي ا ونعم الوكيل ونهانا عن الجزع والتسخط والتشكي فإن هذا يزيد في الاثم ويذهب الأجر ، وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام : أن الصبر خير كله ، فقال عليه الصـلاة والسلام : ما أعطي أحد عطاء خيراً له وأوسع من الصبر .

ملخص الدرس : إذا كنت مؤمناً فأنت صابر ، وإن لم تصبر فهذا ضعف شـديد فـي إيمانك ، فإن ضجرت فهذا يدل على عدم الإيمان ،ومن لاصبر له لا إيمان لـه ، والحمـد رب العالمين .

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السادس والأربعين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ومنزلة اليوم هي منزلة المحاسبة ، وقد سبقَ أن عولجت هذه المنزلة قبل درسين ، واليوم نأخذ الجزء الثاني منها .

بينـتُ في الدرس السابق من المحاسبة أن أدوات المحاسبة كثيرة من أبرزها العلـم ، فأنت بالعلم تُحاسب نفسك ، فحينما تقرأ نصا باللغة العربية ، هل تستطيع من دون أن تكـون عالما باللغة أن تعرف أخطاءك ؟ مستحيل ، إن درستَ العربية ، ودرستَ قواعـد العربيـة ، وقرأت نصاً عربياً ، حينها تكشف الأخطاء التي تقع بها أثناء القراءة ، فالعلم هـو الوسـيلة الأولى ، والأداة الأولى لِمحاسبة النفس إن كنتَ تعرف الحلال والحرام ، وما ينبغي ومـا لا ينبغي ، وما يجوز وما لا يجوز ، إن كنتَ تعرف الفرائض والواجبات والسنَن ، والتحسينات وإن كنت تعرف المحرمات ، وتعرف المكروهات والمندوبات والمباحات عنـدها تُحاسـب نفسك ، أما هذا الذي لم يطلب العلم ، كيف يحاسب نفسه ؟ وأكبر دليل أنك لو قرأْتَ نصا أمام إنسان غير متعلّم ، لو سألته عن القراءة لقال لك : ممتازة ، وقد ترتكب مئة خطـأ ! فهـو لا يستطيع أن يكشف الخطأ فهذه واحدة .

الشيء الثاني سوء الظن بالنّفس أحد أدوات المحاسبة ، فهذا الذي يمدح نفسـه ، ويتملّقها ، ويتوهم انه على صوابٍ دائما ، وأن الناس جميعا مخطئون ؛ هذا إنسان بعيد عـن محاسبة النفس ، فلا بد من أن تُحاسب نفسك حسابا دقيقًا عن طريق سوء الظن بهـا ، لـذلك الموفقون في حياتهم يحسنون الظن بإخوانهم ، ويسيئون الظن بأنفسهم وغير المـوفقين فـي حياتهم يسيئون الظن بإخوانهم دائما ، ويحسنون الظن بِنُفوسهم ، وسيدنا عمر عملاق الأعلام رضي ا عنه كان يخْطُب ، وفجأةً قطَع الخُطبة ، وقال : كنتَ عميراً فأصبحتَ عمر ، وأمير المؤمنين ، وكنتَ ترعى غُنَيمات لِبني مخزوم على دريهمات ! هـذا الكـلام لا علاقـة لـه بالخطبة ، ولما نزل من على المنبر قال له أصحابه : ما علاقة ما قلـت بالخطبـة ؟! فقـال رضي ا عنه : جاءتني نفسي فقالتْ لي : ليس بينك وبين ا أحد ! أي أنتَ قمـة المجتمـع الإسلامي! فليس المعنى أنه قمة المجتمع لِقوته ! لا ، قمة المجتمع الإسلامي في الدين ، وفي القُرب من ا عز وجل ، فقال : أردتُ أن أُعرفها أنني كنتُ عميرا ، وأصبحتُ عمر ، وكنتَ أرعى غُنيمات لِبني مخزوم أردت أن أعرف نفسي فالموفقون في حيـاتهم يسـيئون الظـن

بأنفسهم ، ويحاسبون أنفسهم حسابا عسيرا ، دعك من التملق لِنَفْسك ، لا تُزكيها ، دائما الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح ، أكثر الناس يقول لك : أنا إيماني أكثر منك وهـو لا يصلي ! ويفعل كلّ الموبقات ، كلام شيطاني ! أن تقول : أنا مؤمن وأنت لست كذلك !

الشيء الثالث ، تمييز النعمة من الفتنة ، كم إنسان ذي نعمة مستَدرجٍ بهـا ! إذًا هـي فتنة ، وكم من إنسانٍ متميزٍ بنعمة مكرمٍ بها ، المال قد يكون لإنسان نعمة ، ولآخر نقمة ، إذا جمعك المال على ا فهو نعمة ، فإذا جمعك على معصية فهو فتنة ، وكذا القوة ، إن أوصلتْك إلى ا فهي نعمة ، وإن أبعدتْك عنه فهي فتنة .

وشيء آخر ، لا بد من أن تُميز بين المنة والحجة ! فا سبحانه وتعالى إذا أعطـاك فهو منة ، فإن أنْفقْت الذي أعطاكه في معصية كان هذا الذي أخذْتَه من ا تعالى حجة عليك ، فأنت دائما بين أن يكون الشيء حجة لك أو حجة عليك .

الآن ، كل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذٌ لِمرضات ا عز وجل وأوامره فهي منـة ، وكلّ قوة ظاهرة وباطنة ، صحبها بعد عن ا عز وجل فهي حجة ، وكلّ مال اقْترن بطاعة ا تعالى فهو منة ، وكلّ مال أنْفق في معصية ا عز وجل فهو حجة ، وكلّ فـراغٍ اقْتـرن بعملٍ صالح فهو نعمة وإن اقْترن بعمل سيء فهو فتنة ، وكلّ قبولٍ من الناس وتعظـيم لهـم ومحبة لهم لك اتصل به خضوعٍ الرب وذلّ وانْكسار ، ومعرفة بعين النفس ، والعمل ، وبذْل النصيحة للخلق فهو منة ، وإلا فهو حجة ، وكلّ حال مع ا تعالى أو مقامٍ اتصل به السـير إلى ا فهو منة إن صحبه الوقوف عنده والرضا به فهو من لذة النفس ورعوناتها .

أيها الإخوة هذا ملخص الدرس الماضي أردتُ أن أجعله بين أيديكم كي نبني عليه شيئًا جديدا ، فلا بد من أن تُميز ما لك ، وما عليك ، وأن تُعطي كلّ ذي حقّ حقّه ، وكثير مـن النـاس يجعل كثيراً مما عليه من الحق من قسم ما له ، لا من قسم ما عليه ، فيتحير بين فعله وتركه ، وإن فعله رأى أنه فضلٌ قام به ، لاحق أداء عليه أن يؤديه فما الذي لك ؟ وما الذي عليك ؟

أُناس كثيرون إزاء هذا التقسيم يظن أن ترك المباحات حق عليه ، لا ! تَرك المباح ليس حقا عليك ، ولكن مسموح لك أن تدعه ، فلو أن الإنسان تعبد ا تعالى بِتَرك النكـاح ، فهل هذه العبادة صحيحة ؟ هذه ليست لك كي تنفقها ، هذه حقّ لك ، فما لك ليس لك أجـر إذا صرفْتَه عنك، لك أن تتزوج ولك أن تغتسل ، وأن ترتدي ثيابا نظيفة ، ولك أن تأكـل وتنـام فالذي لك لا يمكن أن يكون عليك أن تؤديه لذلك إن نفرا من أصحاب رسـول ا صـلى ا عليه وسلّم سألوا عن عبادته في السر ، فكأنهم تقالوها ! فعن أَنَس بن مالِك رضي الله عـنْهم قال **جاء ثَلَاثَةُ رهط إِلى بيوت أَزواج النبِي صلى الله عليه وسلم يسأَلُون عن عبادة النبِـي صلى الله عليه وسلم فَلما أُخْبِروا كَأَنهم تَقَالُوها فَقَالُوا وأَين نَحن من النبِي صلى الله عليـه وسلم قَد غُفر له ما تَقَدم من ذَنْبِه وما تَأَخر قَالَ أَحدهم أَما أَنَا فَإِني أُصلي الليلَ أَبـدا وقَـالَ**

آخَر أَنَا أَصوم الدهر ولا أُفْطر وقَالَ آخَر أَنَا أَعتَزِلُ النساء فَلَا أَتَزوج أَبدا فَجاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إِلَيهِم فَقَالَ أَنْتُم الذين قُلْتُم كَذَا وكَذَا أَما والله إِني لَأَخْشَاكُم لِله وأَتْقَاكُم له لكني أَصوم وأُفْطر وأُصلي وأَرقُد وأَتَزوج النساء فَمن رغب عن سنتي فَلَيس مني *

[رواه البخاري]

فالذي لك ليس لك أجر بإنفاقه ، فأنت لك أن تتزوج ، فليس لك أجر بترك الزواج ، وأن تعمل ، ولكن ليس لك أجر بترك العمل ، ولك أن تنام ولكن ليس لك أجر بترك المنام ، فلو أن الإنسان الآن أراد أن يسافر على الأقدام هل له أجر ؟! لأن المشقة في الإسلام ليست مطلوبةً لِذاتها فحينما تفرض عليك مرحبا بها ، أما أن تطلبها لِذاتها فهذا ليس من الدين في شيء .

نقطةٌ في المحاسبة جديدة ؛ الكثير والقليل ! قبل كلّ شيء يقول تعالى :

قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

[سورة النساء]

وقال تعالى :

يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾

[سورة البقرة]

ومهما أكثرت من الحكمة فهي تحتاج إلى أكثر من ذلك ، أما المال يعد قليله كثيرا ، وكثيره قليلاً ، يعد قليله كثيرا إذا مات الإنسان ذهب ماله ! ويعد قليله كثيرا إذا أُنْفِقَ المال في طاعة الله كان كثيرا عند الله عز وجل.

يقول العلماء : أرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارا عقب الطاعات لِشُهودهم تقصيرهم فيها ، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله كما يليق بجلاله وكبريائه ، وأنه لولا الأمر لما أقْبل أحدهم على مثل هذه العبودية ولا رضيها لسيده .

يقول الله تعالى :

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٖ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾

[سورة البقرة]

ما علاقة الاستغفار بعرفات ؟! فأنت كنتَ في عبادة ، وفي انقطاعٍ عز وجل ، فلـم الاستغفار ؟! قال العلماء : كلما عظُم ا عندك رأيتَ عبادتك له لا تليـق بـه ، فينبغـي أن تستغفر ، وقال تعالى :

ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

[سورة آل عمران]

فهم يقومون الليل ثم يستغفرون ! قال :الاستغفار يجب أن يأتي عقب عبادة دينية مديدة ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثًا ثم قال : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام ، وأمره ا تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة ، والقيـام بهـا وبأعبائها ، وقضاء فرض الحج واقتراب أجله ، فقال في سورة النصر :

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾

[سورة النصر]

عقب النصر الكبير استغفر ، وعقب الحج استَغْفر ، وكذا عقب الصيام استغفر .

كان النبي عليه الصلاة والسلام في خاتمة عباداته يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين ! وقال بعض العارفين : متى رضيتَ عن نفسك وعملك فاعلَم أنه غير راضٍ عنك ، ومن عرف أن نفسه مأوى كلّ عيبٍ وشر ، وعمله عرضةٌ لِكُلّ آفة ونقْص ، كيف يرضى نفسه وعمله ؟! وأحد العلماء يقول : من تحقق بالعبودية نظر في أفعاله بعين الرياء وأحواله بعين الـ دعوة ،

وأقواله يعين الافتراء ، وكلما عظُم المطلوب في قلبك صغُرت نفسك عندك ، وتضاءلتْ القيمة التي تبذُلها في تحصيله .

أيها الإخوة ، يجِب أن تتّهم نفسك ، وتعرف ما لك وما عليك ، ويجِـب أن تعرف ما القليل وما الكثير ، ولا يكْمل هذا المعنى إلا أن تربأ بِنَفسك عن تعيير المقصـرين ، ورد عن رسول الله صلى الله عليه الصلاة والسلام أن الذنب شؤْم على غيـر صـاحبه ! إن ذكره فقد اغتابه ، وإن رضي به فقد شاركه في الإثم ، وإن عيره ابتُلي به ، فإن كنت مستقيما ولم تقم بِذَنب وارتكب أخوك ذَنباً ، وأنت عيرتَه ، هنا ستُبتلى به ! وإن ذكرتَه فقد اغْتَبْتَه ، وإن أقْررتَه فقد شاركْته في الإثم ، لذلك ينبغي أن لا تزدري البطيء ، وأن لا تُدِلّ بطاعتك ، فـلا تحتقر من يعصي الله فلعله يتوب ويسبقُك !! وأن لا تمن بِعملك الصالح على الله عز وجـل ، قال تعالى :

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

[سورة الحجرات]

قال : ينبغي أن تربأ بِنَفسك عن تعيير المقصرين ، فلعلّ تَعييرك لأخيك بِذَنبه أعظـم إثما من ذنبه ، وأشد من معصيته ، لما فيه من صولة الطاعة وتزكيـة الـنفس وشُـكرها ، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب ، وأن أخاك باء به ، ولعلك كسرته بِذَنبه ، وما أحدثت لـه شيئًا ، فلا تزدري البطيء في طريق الإيمان ، ولا تذلّ بالمتفوق في طريق الإيمان ، أعط كُلا حقه .

هذا الذي يدلّ بِعمله على الله قال : ما أمقتَه عند الله ! فذَنب تذلّ به لديه أحب من طاعة تُـدلّ بها عليه ! وإنك إن تبيتَ نائما ، ونائما ، وتُصبح نادما خير لك من أن تبيتَ قائما ، وتُصـبح معجبا ، فإن المعجب لا يصعد له عمل وإنك إن تضحك ، وأنت معترف ، خير من أن تبكـي وانت مذلّ ، وأنين المذنبين أحب إلى الله تعالى من زجل المسبحين المذلين ، ولعـلّ الله عـز وجل أسقاه بِهذا الذنب دواء استخْرج به داء قاتلاً هو فيك وانت لا تشعر فـازدراء البطـيء والإذلال فيه إثم .

وأهل البصائر يعرفون منها بِقَدر ما تناله معارفُ البشر ، ووراء ذلك ما لا يطلـع عليه الكرام الكاتبون ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : إذا زنَت أمة أحدكم فلْيقم عليهـا الحـد ولا يثرب ، من قول يوسف عليه السلام : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ! الميزان بيـد الله ، والحكم ، والسوط الذي ضرب به هذا العاصي بيد مقلب القلوب ، والقصد إقامة الحد

لا التعيير ولا التثريب، فالإسلام حينما يكون في أوله قد ينشأ في بيئة غير مطبقة لـه فإقامـة الحد شيء عظيم ينبغي أن يكون واضحا في أذهاننا ، قال تعالى :

وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾

[سورة الإسراء]

وقال تعالى :

وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ

أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾

[سورة يوسف]

أرأيتم إلى هذا الأدب ؟

وقال بعضهم : لا يأمن القدر وسطْوتَه إلا أهل الجهل با ، وأنا في سـفري حينمـا عدت، قالوا لي : أتَدري من تُوفي ؟ فقلتُ : لا ، قال : فلان ! شاب في ريعان الشباب عنـده محلّ تجاري كبير ، وله دخْلٌ وفير ، ومن رواد المسجد ، وفيما أعتقد أنه صالح ، ولا أُزكي على ا أحدا ، وتوفي في حادث هو وزوجته وأُمه وأولاده ! فالإنسان لا يعلم إن كان يعـيش إلى الستين أم أن يأتيه الموت في الثلاثينات !! هذا شيء مخيفٌ جدا ، ويا ترى هل هيأ نفسه أم لا ؟! قال تعالى:

وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾

[سورة الإسراء]

وكان عامة يمين رسول ا صلى ا عليه وسلم : يا مقلّب القلوب ثبت قلوبنا على دينك ! عن عبد الله بن عمرِو بنِ الْعاص أَنه سمع رسولَ الله صلى الله علَيه وسلم يقُولُ **إِن قُلُوب بنـي آدم كُلها بين إِصبعينِ من أَصابِع الرحمنِ كَقَلْبٍ واحد يصرفُه حيثُ يشَاء ثُم قَالَ رسولُ اللـه صلى اللهم علَيه وسلم اللهم مصرفَ الْقُلُوبِ صرفْ قُلُوبنَا على طَاعتك** *

[رواه مسلم]

أيها الإخوة ، هذه نهاية المنزلة التي بدأناها قبل حين ، منزلة المحاسبة فالأداة الأولـى فيهـا العلم ، والأداة الثانية أن تُفرق بين النعمة والنقمة والأداة الثالث ان تعرف ما ينبغي فعلُه ، وما لا ينبغي فعلُه ، وأن تعرف أن طلب العلْم فرض عينٍ على كلّ مسلمٍ ومسلمة .

وفي درس آخر إن شاء ا   نُتابع موضوعا آخر من موضوعات مدارج السالكين في منـازل إياك نعبد وإياك نستعين .

والحمد   رب العالمين

****

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس السابع والأربعين من دروس مدارج السالكين في مراتب إياك نعبد وإياك نستعين ، والمرتبة اليوم اليقظة.

اليقظة انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغفلة ، إنسان يركب مركبة ، مرتـاح ، اكتشف فجأة أن المكبح معطل ألا ينزعج ؟ لكنه اكتشف هذا الاكتشاف والطريق مستوٍ هكذا ، والطريق خالية وبإمكانه أن يقف ، فهذا الانزعاج الطارئ ، ثم الحركة لنيل السـلامة ، هـذه اليقظة، يقابل هذه اليقظة الغَفلة ، أخطر مرض يصيب الإنسان في الدنيا أن يكون غافلاً عـن ا ، غافلاً عن نهاية الحياة ، غافلاً عن الآخرة ..

وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ

(سورة الكهف : من آية " ٢٨ ")

ا عز وجل لا يخلق الغفلة في قلب العبد ، ولكن أغفل معناها وجدناه غافلاً ..

وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

عاشرت القوم فما أجبنتهم ، أي ما وجدتهم جبناء ، عاشرت القوم فما أبخلتهم ، أي ما وجدتهم بخلاء ..

وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا

أي من وجدناه غافلاً ..

مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

باللغة العربية في قواعد ، في حالات شاذة ، والحالة الشاذة دائماً تؤكد القاعدة ، طبعـاً وزن أفْعلَ يفيد التعدية ، ولكن هناك حالات لا يفيد التعدية ، من أندر الأفعال فعل كـاد ، إذا قلت : كدت أقع أي ما وقعت ، وإذا قلت : لم أكد أقع حتى وقفت وقعت ، الفعل إذا سبقه نفي

فهو مثبت ، وإن لم يسبقه نفي فهو منفي ، كدت أقع ، وقعت ؟ لم تقع ، ولم أكد أقـع حتـى وقفت معناها وقعت ، فوزن أفْعلَ يعني الوجدان ، أغفلته أي وجدته غافلاً ، أبخلتـه وجدتـه بخيلاً ، أجبنته وجدته جباناً ..

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾

والآية الكريمة :

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾

(سورة الأعراف)

عوام الناس واقعون في غفلة ، في المستقبل في موت ، في غفلة عن المـوت ، بعـد الموت في برزخ ، في غفلة عن البرزخ ، بعد البرزخ في يوم قيامة ، في غفلة عن هذا اليوم ، في صراط ، في غفلة عن محاسبة ا له ، فجأةً يكتشف الحقيقة المرة بعد فـوات الأوان ، أما المؤمن يعرف الحقيقة المرة قبل فوات الأوان .

فاليقظة حال ومرتبة من مراتب مدارج السالكين في إياك نعبد وإياك نستعين ، انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغفلة ، و ما أنفع هذه الروعة ، انزعاج القلب أحياناً سـبب الصحوة ، وسبب اليقظة ، وسبب الهداية ، وسبب السلامة ، رجل بعيد عن الدين كُلياً ، مـن **عامة** الناس ، له صديقٌ ثري جداً يمضي معه أكثر الأوقات ، رجل ثري يبحث عن شـهوته، سهرات طرب ، وولائم ، ونُزهات ، وبساتين ، وخدم وحشم ، ونساء ، هكذا حياته ، تـوفي هذا الإنسان الثري فجأةً ، ودفن .

هناك شكوى أنه مات مسموماً من بعض زوجاته ، فلابد من أن يؤخَذ عينة من معدته بعد الدفن ، وهناك رجل يعمل في سلك الشرطة ، كان هو المسؤول عن فتح القبر وأخذ عينة ، إنه يصف هذا الإنسان بعد أيام عديدة وصف لا يصدق ؛ منفوخ ، أزرق ، كل عضو فـي جهة ، فلما نُقر بطنه صدر صوت كبير جداً ، ثم أُخذَتْ عينة ، هذا قبل أيام كان في نعـيم ، في بيت فخم ، يأكل أطيـب الطعام ، يركب أجمل العربات .. كان يوجد عربات لأن القصـة قديمة جداً .. خدم وحشم وجوارٍ ونساء ، نُزهات وبساتين ، بعد يومين أو ثلاثـة مـن دفنـه أصبح بهذه الحال .

ثم بعد ذلك حصلت مشكلة حول إنزال إنسان في قبر على إنسان ، ماالـذي مـدفون سابقاً مضى على دفنه أربعون عاماً .. هذا الذي سمعته ، قصة أرويها كما سمعتها .. يقسـم با هذا الإنسان الذي يعمل في الشرطة أن هذا الإنسان كفنه كأحسن قميص ، جلده طـري ،

هذا كان حافظ كتاب ا   وكان إمام أحد المساجد ، فهذا الإنسان من الموازنة بين الشخصين ، إنسان مدفون من أربعين سنة وكأنه نائم ، أقسم با   أنه وضع يده على خده فشم رائحة مسك وبقيت فترة جمعة معه .. هكذا أروي القصة كما سمعتها .. والثاني مضى على دفنه يـومين وصار بشكل مخيف ، فصار لهذا الشرطي يقظة ، أين أنا ماشي ؟ هذا مصـير الانحـراف ؛ وهذا مصير التقوى والصلاح.

فاليقظة أن تُصدم صدمة قاسية ، إلى أين أنت ماشٍ ؟ وأغلب الظن أن أكثر المـؤمنين بعد أن يصطلحوا مع ا   جاءوا على أثر صدمة ، في رجل ملحد حدثتكم عنه في أسابيع عدة قبل أشهر ، في مكتبه أستاذ رياضيات في جامعة في سان فرانسسكو ، ملحد ، دخلـت عليـه فتاة مسلمة محجبة حجاباً كاملاً ، والفتيات في الصيف شبه عرايا ، لفت نظره هذا الحجاب ، وهذه الفتاة تحمل دكتوراه بالرياضيات مهذبة جداً ، يقول : شـعرت أن فيهـا قـوةً خفيـة ، وشعرت بدافعٍ شديد إلى خدمتها ، وشعرت أن لها قداسةً بحيث لم أجرؤ على أن أُحـدقَ فـي وجهها ، ومنذ ذلك اليوم عكف على قراءة كتب الإسلام ، وانتهى مسلماً ، والآن هو من أكبر دعاة أمريكا إلى الإسلام ، منظر هذه الفتاة أحدث صدمة ، يقظة ، حالات كثيرة جداً .

اليقظة انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغفلة ، وما أنفع هذه الروعة ، وما أعظم قدرها وخطرها ، وما أشد إعانتها على السلوك .. قال لي أحد الإخوان :

إنسان مات ، فُتح النعش ، حمل ، وضع في القبر ، اعلم يا عبـد ا   أن الجنـة حـق والنار حق .. أين الملك ؟ أين القصور ؟ أين السفر ؟ أين الزوجات ؟ بثانية ، مثل هذا المنظر يحدث يقظة ، صدمة .

لي صديق يعمل مدير معمل .. ليس صاحب معمل بل مدير معمل.. صاحب المعمـل رجل في رفاه منقطع النظير ، حدثني عن بيته ، بيت ثمنه قريب من مئة مليـون ، أجنحـة ، جناح شرقي وجناح غربي ، ديكورات ، تزيينات ، فرش وثير كله مستورد ، يعيش في أناقة مذهلة ، قال لي: توفي في أيام الشتاء ، وفي سبعة أيام مطيرة مطر غزير ، قال لـي : فُـتح القبر فإذا فيه مياه سوداء تجري ، بعض المجاري اتصلت بالقبر، ابنه مهندس سئل ماذا نفعل ؟ قال ادفنوه ، يقول لي مدير المعمل : بقيت أسبوعين لم أقدر أن آكل ، معلمي هنا وضـعوه ؟! الذي كان يستورد الغطاء من فرنسا ، خاص ، ذو وزن خفيف جداً ، هنـاك نـوع مـن الصوف اسمه مهير غالي الثمن، أناقته ، أكله ، غرفه ، وهنا وضعوه ؟! سبب توبتـه رؤيـة صاحب هذا المعمل مدفون في هذا القبر ..

وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾

(سورة الأعراف)

فا عز وجل كان من الممكن أن يأتي بنا إلى الدنيا دفعةً واحدة ، وان نغادرها دفعةً واحدة ، ولكن شاءت حكمة ا أن نأتيها تباعاً وأن نغادرها تباعاً ليتعظ بعضنا ببعض ، مرة شَيعت جنازة ، فُتح القبر ، ووضع الميت في القَبر ، البلاطة لا تكفي لسد فتحة القبر ، بقي هناك فرجة هكذا ، فجاء الحفار وأهال التراب على هذه البلاطة ، ونزل فوق الميت حوالي خمسة كيلو تراب ، وأنا أعرف هذا الميت أنه أنيق جداً ، نظيف كثيراً ، سبحان ا ..

وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾

فألقيت كلمة على القبر وقلت : العقلُ كل العقل ، والذكاء كل الذكاء، والفلاح كل الفلاح ، والفوز كل الفوز ، والتفوق كل التفوق في الإعداد لهذه اللحظة التي لابد منها ، لكل مخلوق ، هذه اللحظة التي لابد منها لكل مخلوق ، إما أن يكون القبر روضة من رياض الجنة ؛ أو حفرة من حفر النيران ..

طبعاً هذه اليقظة انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغفلة ، هذه لها أثر طيب جداً ، وإلا فصاحبها في سكرات الغفلة ، فإذا انتبه شمر بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى .

لي قريب خرج من المدرسة من الصف السادس ، فوضعه أبوه في محل تجاري في سوق الحمدية ، طبعاً عمله خدمة ينظف المحل ، يأتي بطعام لمعلمه ، يكنس ، يملأ الإبريق ، له بنت عم ، هو خرج من السادس وهي أكملت سابع ، عندما يلتقي معها تقول له : أنا صرت في السابع، مرة ثانية بالثامن ، بالتاسع ، وصل إلى درجة بلغ به الألم درجة لا تُحتَمل، فجاء لي وقال : أريد أن آخذ كفاءة ، قلت له : أنت إلى أين وصلت ؟ قال لي : أنا طالع من السادس ، قلت له : رأساً كفاءة ؟ قال لي: نعم رأساً كفاءة ، قال لي : أي شيء تريده أنا أفعله ولكن أريد أن آخذ كفاءة هذه السنة ، أنا في عملي بالتعليم لم أجد إنساناً طالب صادق في طلب العلم كهذا الطالب ، ومتألم من ابنة عمه ومن استعلائها عليه ، حطمته ، هو للكنس ، وملء الإبريق ، ويحضر الطعام ، وكنس المحل ، وهي سابع ، ثامن ، تاسع ، درس السابع والثامن والتاسع في سنة واحدة وأخذ كفاءة ، أخذ بكلوريا ودخل جامعة ، هذا الاستفزاز ، أحياناً الإنسان يرى مشهداً فينسحق ، هذا الانسحاق سبب اليقظة ، سحق ، أين كنت ماشياً ؟..

إلى متى أنت باللذات مشغولُ وأنت عن كل ما قدمت مسؤولُ

إلى متى ؟!!

* * *

أول مراتب هذه الحال الطيبة .. اليقظة .. الانتباه من النوم ، والانتباه فيه انزعاج ، النوم مريح والاستيقاظ صعب ، قال تعالى :

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ

(سورة سبأ : من آية " ٤٦ ")

فالقَومةُ ، أحياناً الإنسان يكون مستلق في فراشه ، فيتذكر أنه باقي للدوام ثلث ساعة ، فينهض سريعاً من الفراش مثل المجانين ، يلبس وينطلق لعمله ، أرأيت إلى هذه النطة ، النبي قال:

شمروا فإن الأمر جِد ، وتأهبوا فإن السفر قريب ، وتزودوا فإن السـفر بعيـد ، وخففـوا أثقالكم فإن في الطريق عقبةً كؤود ، يا أبا ذر جدد السفينة فإن البحر عميق ، وأخلص النية فإن الناقد بصير ، وأكثر الزاد فإن السفر بعيد .

فعلى الإنسان أن يشمر ، أما هكذا على التراخي ، لابد أن يقلع ، تلاحظ سيارة معطلة ، تدفعها ، تشغل فلا تدور ، في لحظة يدور المحرك ، تنطلق وتتركهم، ما عاد يلحق بها لأن المحرك دار ، أحياناً الطائرة في المطار .. أنا سافرت كثيراً .. تمشي ببطء شديد ، فسـألت مرة فقيل لي : إنها تنتظر أمر الإقلاع ، هناك أمر إقلاع من البرج ، فإنها تمشي ببطء غيـر معقول ، على الخمسة ، تمشي وتقف ، تمشي وتقف بعد هذا تصل إلى أول المدرج ، عنـدما تأخذ أمراً بالإقلاع يعطيها قوة محرك كبيرة جداً ، تزداد السرعة ، وقـد لاحظـت السـرعة بالإقلاع حوالي مئتين وثمانين.

نحن نريد مؤمناً يقلع ، أولاً يستطلع ، يسمع درس علم ، يمشي ويقف ، يقف ويمشي ، يغيب درس ، يحضر الدرس ، يغيب ثلاثة ويحضر واحد ، يأتي آخر الدرس ، ماشـي هـو كالطائرة قبل أن تقلع ، وبعد هذا لابد من أن يستلم المدرج وأن يعطي الطائرة أقصى سـرعة كي يحلق ، هذه الحالة اسمها اليقظة .

فأنا لا أذكر الآن القصص ، فهناك قصص كثيرة جداً لإخوة كرام حدثوني عنها وهـي سبب هدايتهم ، أحياناً منظر مخيف ، أحياناً مصير إنسان فجأةً ، مصير إنسان عاصٍ ، مرض مخيف يعمل صحوة ، لذلك قال تعالى :

أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ

(سورة فاطر : من آية " ٣٧ ")

النذير قال العلماء : القرآن ، أو النبي عليه الصلاة والسـلام ، أو الشَـيب ، أو سـن الأربعين، أو سن الستين ، أو المصائب نذير ، أو موت الأقارب .

أول شيء ينبغي على المريد أن يفعله أن يستنير قلبه برؤية نور التنبيـه ، تجـد فـي المطارات ألواناً صفراء فاقعة ، اللون الأصفر موجته طويلة جداً ، صارخ ، إذا كـان هنـاك لوحات تحذيرية تجد أن كلها فسفورية، في الطرقات العامة السريعة اللوحات التحذيرية كلهـا فسفورية لها وهج ، القلب عندما يصحو فقد قطع أهم مرحلة ، اليقظة ، استيقظ ، من أخطـر مرض وهو الغفلة ، الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا ، قال : الكافر عندما يأتيه ملك الموت ويرى مكانه في النار يصيح صيحةً لو سمعها أهل الأرض لصعقوا .

كان في رجل غير ملتزم إطلاقاً ، لكن بائع من الطراز الأول ، صار معـه مـرض وهو عمره ثمانية وثلاثين سنة ، تجد أن السوق كله ما فيه ولا مشترٍ وعنده خمسة وعشرون مشترياً في محله التجاري ، بائع من الطراز الأول ، وله قريب أعرفه ، مرض فزاره ، أراد أن يقبله من باب الود ، فقال له : لا تنزع لي طعمة فمي ، كانت عنده مغنية قبل أن يأتيـه ، أي أنه منحرف انحرافاً شديداً ثم اكتشف أن معه مرض خبيث في الدم ، تأتيه نوبات هستيرية ، يبحث ويضطرب ويقول : لا أريد أن أموت ، أحد شركائه روى لي قصته قال لـي : وا حينما فارق الحياة صرخ صرخةً ما في إنسان بالبناء ذو الأربع طوابق لم يسمعها مـن شـدة الذعر ، فإذا الإنسان تيقظ قبل فوات الأوان يكون من نعم ا الكبرى أنه تـيقظ قبـل فـوات الأوان .

المشكلة أن الإنسان في غفلة ، كل ما حوله يدعوه إلى الـدنيا ، البيـت ، الطريـق ، المحلات التجارية ، العلاقات ، السهرات ، الولائم ، النُزهات ، إذا دخل إلى المسـجد يسـمع عن الآخرة ويعرف مصيره ، فإذا أنت حرمت نفسك العلم فأنت في غفلـة كبيـرة ، معقـول إنسان عمره ثمانون سنة يفكر بإنشاء كازينو ؟ ثمانون سنة عمره ومشـروعه الأول إنشـاء كازينو، ففي أي غفلة هذا ؟ ا قال :

وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾

(سورة الأعراف)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ

(سورة الكهف : من آية " ٥٧ ")

لاحظ بعض الناس في شأن الدنيا يصغي لك عشرة ساعات ؛ تجارة، مشروع ، معمل ، تأسيس ، سفر ، في شأن الآخرة تجد أنه تثاءب رأساً ويقول لك : لا تؤاخذني عندي موعد ، ملاحظ بشؤون الآخرة في ملل، معنى هذا أنت غافل ، تجد أنه يحفظ معلومات كثيرة جـداً ،

أما أنه يتذكر آية ، ولا آية ولا حديث ، أحياناً يتربى على سيرة عنترة ولا يعرف شيئاً عـن سيرة الصحابة .

حكى لي أخ ، له درس ديني فقال لي : وا أنا كنت أتكلم عن فساد المجتمع ، قـال : يا إخوان ، عم الفساد ، والفساد دخل إلى البيوت ، قال : تأتي البنت الساعة العاشـرة ، أيـن كانت ؟ إنه يتساءل ، كانت مع الحبيب ، الكل صلوا على النبي ، هم ليسوا مع الدرس ولا مع المعلومات، اللهم صل على الحبيب ، أي حبيب هذا ؟

وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾

(سورة الأعراف)

ولا تكن مع الغافلين ..

وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

(سورة الكهف)

من الدعاء النبوي : **" اللهم أنا عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ماضٍ في قضاؤك ، نافذٌ في حكمك ، أعوذ بنور وجهك الذي أشـرقت لـه السـماوات والأرض ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُحل علي سخطك ، أو تنزل بي غضبك " .**

" اللهم إِني أَعوذُ بِك من زوال نعمتك وتَحويل عافيتك وفُجاءة نَقْمتك وجميع سخْطك "*

(من سنن أبي داود : عن " ابن عمر ")

أحياناً تأتي المصيبة فجأةً ، فإذا كان الإنسان يقظاً أفضل ما تأتيه وهو غافل ..

" اللهم أَنْتَ ربي لا إِله إِلا أَنْتَ خَلَقْتَني وأَنَا عبدك وأَنَا على عهدك ووعدك ما استَطَعتُ أَعوذُ بِك من شَر ما صنَعتُ أَبوء لك بِنعمتك علي .. أي أعترف.. وأَبوء لك بِذَنْبِي فَاغْفر لِي فَإِنه لا يغْفر الذنُوب إِلا أَنْتَ قَالَ: ومن قَالَها من النهار موقنًا بِها فَمات من يومه قَبلَ أَن يمسـي فَهو من أَهل الْجنة ومن قَالَها من الليل وهو موقن بِها فَمات قَبلَ أَن يصبح فَهو مـن أَهـل الْجنة " *

(صحيح البخاري : عن " شَداد بن أَوس ")

أيها الإخوة ... لذلك النبي اللهم صل عليه أمرنا بالتفكر بالموت كثيراً حتى تنشأ حالـة اليقظة ، الآن في صور ، في نساء بالطرقات ، في محلات تجارية ، في سيارات فخمة جداً ، في بيوت رائعة ، في بساتين ، في حدائق ؛ وفي عمل للآخرة ، في مساجد ، وفي تلاوة قرآن

، وفي حفظ قرآن ، في طلب علم ، وفي تعليم العلم ، فإذا الإنسان غافل عاش فـي الـدنيا ، بمتع الدنيا ، بشهواتها ، بأموالها ، بتجاراتها ؛ أما إذا صحا يعيش في أجواء الدين ، أجـواء القرآن ، أجواء السنة ، أجواء البطولات ، أجواء العمل الصالح .

فالإنسان في النهاية وعاء له فتحة علوية وله صنبور سفلي ، الذي تضعه في الفتحـة العلوية تأخذه من الصنبور ، أبداً ، فقل لي من أين تتغذى تغذية ثقافية ؟ أم تغذيـة روحيـة ؟ فإذا الإنسان كان يتغذى بالمغذيات العامة سيكون كل عالمه كرة قدم ، فنانون وفنانات ، هـذه هي التغذية العامة ، أما إذا كانت تغذيته إسلامية ستكون ثقافته كلها ثقافة قرآن ، سنة ، نبوة ، كمال، بطولات ، أخلاق ، بحسب التغذية يفرز الإنسان ، يفرز مما تغذّى ، أهـم شـيء أن يكون هناك تغذية صحيحة ..

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ

(سورة فصلت : من آية " ٣٠ ")

الإنسان عندما يستيقظ عنده ثلاث حالات ؛ عنده التوبة ، والاستغفار ، وعمل الحسنات الماحية ، والمصائب المكفرة ، أربع أشياء يستغفر ، ويتوب ، وقد يعمل عملاً صالحاً مكفراً ، وقد تأتيه مصيبة مكفرة ، العمل الصالح يمحو ، والمصيبة مكفرة

ـ حدثَنَا جابِر بن عبد الله ، أَن رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم دخَلَ على أُم السائِبِ أَو أُم المسيبِ فقَالَ : ما لَك يا أُم السائِبِ أَو يا أُم المسيبِ تُزفْزِفين ؟ قالت : الْحمى لا بارك الله فيها . فقَالَ : لا تَسبي الْحمى فَإِنها تُذْهب خَطَايا بني آدم كما يذْهب الْكير خَبثَ الْحديد *

(صحيح مسلم)

في شيء دقيق ، الإنسان أخطأ يستغفر ويتوب ، الآن ربنا عز وجل قـد يسـوق لـه مصيبة مكفرة أو هو يفعل عملاً صالحاً ماحياً ، بالعمل الصالح إن الحسنات يذهبن السيئات ، العمل الصالح ماحٍ ، والمصيبة مكفرة ، والتوبة مقبولة ، والاستغفار مقبول ، أنت بين توبة ، واستغفارٍ ، وعملٍ صالحٍ ، ومصيبة مكفرة للذنب الذي سبق .

الاستغفار لا يكون صحيحاً إلا إذا رافقه مفارقة الذنب ، وإلا استغفار كاذب ، تسـتغفر وأنت مقيم على الذنب هذا مستحيل ، من علامة صحة الاستغفار أن تُقْلع عن الذنب .

حدثني أخ خطيب من خطباء دمشق الكبار .. هو من بلد في أوروبا الشرقية .. قـال لي : ذهبت لبلادي واخترت أكبر جامع في ألبانيا ، قال لي : خمسـة آلاف عنـدهم شـوق ، وعندهم رغبة لسماع الخطبة ، وا سمعتها منه قال لي : كل واحد يحمل معه مسـكر .. أي

زجاجة من المسكر ضمن المسجد ، انظر إلى الجهل .. ضمن المسجد يسمع الخطيب ويبكي ويشرب ، وا من فمه قال لي ، ما هذا ؟ هل هناك جهل بعد هذا الجهل ؟ إنسان في خطبة جمعة ، يشرب خمر ، ومتأثر بكلام الخطيب كثير ، فإذا الاستغفار لم يرافقه ترك الذنب هذا شيء مضحك جداً.

الإنسان يستغفر ، ويتوب ، وتأتيه مصيبة أحياناً مكفرة ، ويعمل عملاً صالحاً ماحياً ، إذا الأشياء ما كانت صالحةً لقبول توبته في عذاب بالقبر ، فقد كنت أقول كلمة ، الحديث القدسي :

" وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده ، أو اقتاراً في رزقه ، أو مصيبةً في ماله أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شدت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه " .

أحدنا إذا وصل إلى شفير القبر مغفوراً له يكون حقق أكبر إنجاز في حياته ، إذا وصل إلى شفير القبر مغفوراً له ، لأن عذاب القبر والعياذ با .

﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة غافر)

آل فرعون من ستة آلاف سنة ، ستة آلاف سنة ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين ضرب اثنين ، غدواً وعشياً ، هذا عذاب القبر ، فإذا اجتهد أحدنا في الحياة الدنيا ووصل إلى شفير القبر مغفوراً له ، مقبولاً عند ا ، مقبولةٌ توبته ، مغفور ذنبه فهو من أسعد الناس ، لذلك ا عز وجل قال :

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة السجدة)

وإذا لم يكفه عذاب القبر يتابع تطهيره في جهنم ، وقد يمكث فيها ملايين السنين ، في معالجة في الدنيا ، وفي البرزخ ، وفي النار ، نحن بطولتنا العظمى أن نصل إلى القبر مقبولين عند ا ، العوام لهم كلمة رائعة وهي : ا يجعلها على الإيمان ، مرة كنا في حفل افتتاح مسجد في منطقة الصبورة ، الذي أنشأ المسجد أنشأه على نفقته الخاصة ، مسجد فخم جداً ، دعا علماء دمشق لافتتاحه ، وأُلقيت كلمات جميلة جداً ، وصار هناك نوع من السرور ، طلعت من المسجد فوجدت في الطرف الثاني من الطريق ملهى فيه كل القذارات ، بعد أن

انتهى بأسبوع قَطس الذي أنشأه ، قلت : سبحان ا كيف يلقى ا عز وجل ؟ يلقى ا بأسـوأ حال ، بين أن تلقى ا بأحسن حال وبين أن تلقى ا بأسوأ حال ، فالغفلة خطيرة جداً ، الغفلة توصل إلى النار ، مرض الغفلة أخطر مرض يقابها اليقظة والصحوة.

فإذا أرسل ا عز وجل للإنسان مصائب مكفرة ، نعمة ، معنى هذا أنه ضمن العنايـة المشددة ، إذا عمل هو أعمال صالحة ماحية أيضاً نعمة ، إذا كان استغفاره صحيحاً ، أقلع عن الذنب ، صار في استغفار ، وتوبة ، ومصائب ، وأعمال طيبة ، إذا كل هذا كـان عنـد ا مقبولاً وصل إلى شفير القبر مغفوراً له ؛ وإلا يتابع تمحيصه من الذنوب في البرزخ ، فإن لم يف البرزخ كله تتابع معالجته في النار ، وقد يمكث ملايين السنين ، فا عز وجل يجعلها في الدنيا ، لأن الدنيا أهون من الآخرة .

الآيات الكريمة :

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِۚ

(سورة هود : من آية " ١٠٣ ")

لليقظ أما الغافل لا يخاف ، مرة طالب قال لي : أنا لا أخاف من ا ، كلمة غريبة جداً ، فقلت له : أنت بالذات معك حق ، قال : لم أنا بالذات معي حق ؟ قلت له : أحيانـاً الفـلاح يأخذ ابنه الصغير الذي عمره سنتين إلى الحصيدة ، يضعه في مكان ، لو سار إلـى جانبـه ثعبان طوله عشرة أمتار لا يخاف ، لا إدراك إذاً لا خوف ، الخوف مربوط بالإدراك ، فكـل إنسان لا يخاف من ا إدراكه معطل ، فالآية الكريمة :

وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾

(سورة الأعراف)

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِۚ

(سورة هود : من آية " ١٠٣ ")

إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾

(سورة النازعات)

فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن

يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

(سورة ق)

وإن شاء ا في درسٍ آخر نتابع مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، واليوم موضوع الصحوة أو اليقظة ، انزعاج القلب لروعة الانتباه من شدة الغفلة ، فيها صعقة ، فيها شدة ، وهذه سبب كل خير ، لذلك ا عز وجل يسوق المصائب لإحداث هذه الصحوة .

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون :

مع الدرس الثامن والأربعين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والمنزلة اليوم منزلة الفكرة أي التفكر .

أول شيء أيها الإخوة : هل تصدق أن أعقد شيء في الكون على الإطلاق دماغ الإنسان فهو عاجز عن فهم نفسه ، يعني أكبر جهاز حاسوب في الأرض لا يرقى إلى واحد بالمليار من طاقات الدماغ البشري ، هذا الفكر الذي أودعه ا فينا ، هذا الجهاز الاستشاري الذي وضع تحت تصرفنا لماذا خلقه ا لنا ؟ خلقه ا لنا كي نعرفه به فاستخدمناه لهدف صغير صغير ، كأن تشتري حاسوباً لتحليل الدم يوجد حواسيب تخصصية ثمنها بالملايين ، بعشرات الملايين ، يمكن أن تشتري حاسوباً لتحليل الدم خمسة وثلاثين مليون تستخدمه طاولة في البيت ؟ أيفعله عاقل ، حينما تستخدمه كطاولة تحتقره وتعطل كل ميزاته أما إذا استخدمته في مخبر تحليل تأخذ به ملايين مملينة أرباحاً ، المشكلة أن ا سبحانه وتعالى أعطاك فكراً من أجل أن تعرفه فإن عرفته أطعته وإن أطعته سلمت وسعدت في الدنيا والآخرة ، الآن الإنسان يستخدم ذكاءه وفكره من أجل كسب المال فقط ، أو من أجل تثبيت مركزه في مكان أو آخر ، أو من أجل أن يصل إلى أكبر قدر من الدنيا بأقل جهد ، لكن الإنسان حينما يستخدم ذكاءه وفكره لغير ما خلق له يوم القيامة يندم أشد الندم ، هل يعقل أن يكون معك شيك بألف مليون دولار لم تنتبه له تستخدمه ورقة عادية جمعت وطرحت عليها ثم أتلفتها ثم تكتشف أن هذه الورقة ألف مليون دولار ، استخدمتها كورقة مسودة ، مثل صارخ ، ورقة مالية ذات قيمة قيمتها ألف مليون دولار أنت استخدمتها كورقة مسودة كتبت كلمتين ثم مزقتها ، ثم اكتشفت بعد حين أن هذه الورقة كانت ستغنيك إلى نهاية العمر وتغني كل أفراد أسرتك ؟ هذا الذي يحصل .

هذا الدماغ البشري ، هذا الفكر البشري أنت ممكن أن تصل به إلى أعلى درجة في الدنيا والآخرة لو أعملته في التفكر في خلق السماوات والأرض ، لكن ذكاء الناس وفطنة الناس ، وحكمة الناس المادية مصبوبة على الدنيا فقط ، ففي إنجاز دنيوي كبير لكن لا يوجد سعادة أبداً لذلك منزلة التفكر وردت بشكل واضح في قوله تعالى :

إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾

[سورة آل عمران]

قد ينشأ سؤال الآن ، هؤلاء العلماء الكبار الذين في مخابرهم يرون من آيات ا الدالة على عظمته الشيء الذي لا يصدق ، يعني نحن ما غصنا في البحار ، الآن في سفن أبحاث مصفحة معها أضواء كاشفة ترى بأم عينك في خليج مريانة الذي يبلغ عمقه اثني عشر ألف متر في المحيط الهادي ترى أنواع الأسماك ، والكائنات البحرية والنباتات البحرية ، ممكن أن ترتاد الفضاء والذين وصلوا إلى القمر ورأوا الأرض كرة من القمر وصوروها ، وهؤلاء الذين يرون الكائنات الدقيقة في المخابر الجرثومية ، وهؤلاء الذين يرون المجرات العملاقة في التلسكوبات الفلكية ، وهؤلاء الذين يكبرون النسج البشرية فإذا منظر النسيج البشري شيء لا يصدق ، هؤلاء لِم لم يؤمنوا ؟ لِم لم تخشع قلوبهم لذكر ا ؟ لِم لا يعرفون ا وهم يقفون وجهاً لوجه أمام آيات باهرات ؟ أستطيع أن أقول لكم الجواب الشافي ، الإنسان لا يرى إلا حاجته .

ومرة ضربت مثلاً بسيطاً إنسان يوجد عنده برميل في المطبخ وصار في إشكال والماء سال إلى غرف الضيوف وأتلف السجاد ويحتاج إلى جهاز توازن فخرج من البيت لا يلوي على شيء يبحث عن هذه ـ الفواشة ـ هذا لا يرى شيئاً لو دخل إلى محل تجاري قال له يوجد عندي جهاز هاتف جديد لا يرى شيئاً ، لا يرى هاتفاً ولا تحفة ولا قماشاً يبحث عن هذه الحاجة ، فالإنسان عندما يبحث عن حاجة يعد أعمى عن بقية الحاجات ، فالذي شهوته هي إلهه ، قال تعالى :

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

[سورة الجاثية]

الذي يبحث عن شهوته ، يبحث عن مال وفير ، جاه عريض ، ذكر كبير ، هذا لا يرى الحقائق ، هذا شأنه شأن آلة تصوير غالية جداً جداً ولكن لا يوجد فيها فيلم ، قد تلتقط أجمل المناظر ولكن لعدم وجود فيلم لا ينطبع عليها شيء ، فشأن الذكي ، شأن العالم الكبير عالم الفلك ، عالم الطب ، عالم الجراثيم ، عالم الفيزياء ، عالم الكيمياء عالم البحار ، عالم الجيولوجيا ، شأن هؤلاء الأشخاص أنهم يعيشون مع حقائق مذهلة ولكن هذه الحقائق لا تنقلهم إلى ا لأنهم ما أرادوا أن يعرفوا ا ، معنى هذا من أجل أن نخزن الصور لا نستفيد من آلة غالية الثمن بلا فيلم ، ونستفيد من آلة رخيصة جداً مع فيلم ، هذا الفكر البشري أعلى جهاز خلق في هذا الكون ، الإنسان أعقد مخلوق وأعقد ما فيه الدماغ ، والدماغ طاقاته كبيرة جداً وحتى الآن معظم علماء الطب يجهلون حقيقة الدماغ .

هذه المقدمة أردت منها أن تستخدم فكرك لمعرفة ا أن تجلس تتفكر في خلق السماوات والأرض ، أن تجلس تقرأ القرآن متدبراً ، أن تنسلخ عن الدنيا لساعة من الساعات وتقول من أنا ؟ لماذا أنا على وجه الأرض ؟ وماذا بعد الموت ؟ من أين وإلى أين ولماذا ؟ هذه أسئلة كبيرة جداً ، لكن مشكلة الناس أنهم في زحمة الحياة ، من عمل إلى عمل ، من صفقة إلى صفقة ، من سهرة إلى سهرة ، من لقاء إلى لقاء ، من مشروع إلى مشروع ، من نشاط إلى نشاط، يأكل ويشرب وينام ويعمل ، ويأكل ويشرب ويعمل إلى أن يأتيه ملك الموت فجأة دون أن يستعد له هذه هي الطامة الكبرى قال تعالى :

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾

[سورة النازعات]

قال بعض العلماء : التفكر تفكران ، تفكر يتعلق بالعلم والمعرفة وتفكر يتعلق بالطلب والإرادة ، فالذي يتعلق بالعلم والمعرفة هو تفكر كي تميز بين الحق والباطل ، والثابت والمنفي ، والتفكر المتعلق بالطلب والإرادة كي تميز بين النافع والضار .

أيها الإخوة :

هناك نظرية المعرفة ما الحقيقة ؟ ما قاله الناس تعريف مضحك ، ما قرأته في الصحف تعريف يحتاج إلى ضحك شديد ، ما الحقيقة ؟ ما تناقلها الناس ، ما استقر عليها المجتمع، لا الحقيقة هي شيء مقدس جداً ، إنك إن أردت الحقيقة وصلت إلى كل شيء والحقيقة من الحق والحق الشيء المستقر والثابت والهادف ، يعني المعادن تتمدد بالحرارة هذه

حقيقة ، حقيقة فيزيائية هذه فوق المكان والزمان والأهواء والنزوات والقيل والقال والأخذ والرد والمناقشة والرد والطعن ، هذه حقيقة فوق كل شيء طبعاً أنا أردتها مادية ، أما في حقائق كبرى حقيقة وجود ا ، وا الذي لا إله إلا هو تسعين بالمائة من الناس يتجاهلون هذه الحقيقة يتعامل مع كل من حوله كأن ا غير موجود ، الذي يأكل مالاً حراماً لا يتعامل مع ا على أنه موجود وعلى أنه سوف يحاسبه ، الذي يعتدي على أعراض الناس ولو بالنظر لا يتعامل في هذا السلوك مع إله سميع بصير محاسب دقيق .

فلذاك التفكر يجب أن يصل بك إلى الحقيقة ، قال تعالى :

وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾

[سورة العنكبوت]

مثل : يوجد في السيارة مصباح أحمر اللون يتألق عندما يقل مستوى الزيت في المحرك عن الحد الأدنى ، هذا المصباح خطير جداً إذا تألق المصباح وأنت ما توقفت فجأة المحرك احترق وكاف من ثلاثين إلى أربعين ألف ، إذا إنسان ظن أن هذه المصابيح الحمراء في السيارة مصابيح تزيينية يكون في جهل عميق ، في جهل مخيف هذا المصباح إذا تألق معنى ذلك أنت في خطر يجب أن تقف فوراً وإلا يحترق المحرك ، هذه حقيقة أما إذا توهم أن هذه المصابيح تزيينية هو جاهل جهلاً كبيراً وهذا الجهل مدمر وسيجعل صاحبه يدفع الثمن باهظاً .

الحقائق يجب أن تكون أهدافاً لنا جميعاً ، الحقيقة ا موجود هذه حقيقة ، ا واحد هذه حقيقة ثانية ، ا كامل حقيقة ثالثة ، الدنيا فانية حقيقة رابعة ، مخلوق لحياة أبدية حقيقة خامسة ، ثمن هذه الحياة التزام بمنهج ا حقيقة سابعة ، مما يرفع شأنك في هذه الدار أن تعمل صالحاً حقيقة ثامنة ، فهل عرفت الحقائق الكبرى في الحياة ؟ لو عرفت الحقائق الكبرى كما لو أنك عرفت أن هذا الضوء إذا تألق يجب أن تقف فجأةً ، وإن لم تعرف هذه الحقائق توهمت أن هذا الضوء إذا تألق فهو للتسلية كي يسليك في الطريق هذا هو الجهل بعينه .

مزارع اشترى لتر سماد قال له البائع : يجب أن تذيبه في برميل من الماء ثم ترش النبات بهذا السائل ، وهو من شدة حرصه على المحصول الوفير فصب في البرميل لترين من هذا السائل استيقظ في الصباح أربع بيوت بلاستيكية زراعة محمية اسودت ، يعني مئتين أو ثلاث مئة ألف غلة البيوت ذهبت أدراج الرياح بثانية واحدة في ليلة واحدة ، هذا جهل الحقيقة أن لتراً واحداً يذاب في برميل ، الإنسان إذا عرف الحقيقة انتفع نفعاً كبيراً .

الآن كل شيء ترونه أمامكم شراً أساسه الجهل ، ما من مصيبة على وجه الأرض إلا بسبب خروج عن تعليمات الصانع ، مرة اقتنيت مركبة وما أتيح لي أن أترجم تعليمات الصانع بعد حين أتيح لي أن أترجم هذه التعليمات ، وجدت أن كل متاعبي وكل النفقات التي لا لزوم لها

وكل المشكلات التي عانيتها بسبب عدم فهمي وعدم ترجمتي لتعليمات الصانع مثل حي ، وأقول لكم كل المشكلات التي يعاني منها الإنسان دون استثناء هي بسبب عدم تطبيق تعليمات الصانع ، الصانع هو ا وتعليماته هي القرآن ، وتفسير تعليماته هي السنة ، وتطبيق تعليماته هي السنة العملية ـ السيرة ـ فإذا قرأت القرآن وقرأت السنة وقرأت السيرة فقد استوعبت تعليمات الصانع وتفسيرات تعليمات الصانع وتطبيقات تعليمات الصانع .

أخطر شيء في حياتنا أن نعرف الحقيقة ، إنك إن عرفتها ربحت ربحاً كبيراً ، أنت دخلت مثلاً إلى غرفة وفيها ألف قطعة صفراء لامعة ، مئة قطعة ذهب أربع وعشرين ، مئة قطعة ذهب واحد وعشرين ، مئة قطعة ذهب ثمانية عشر ، مئة قطعة ذهب ستة عشر ، مئة قطعة ذهب إحدى عشر ، مئة قطعة ذهب ثمانية ، مئة قطعة نحاس مغمس مطلي بالذهب ، مئة قطعة نحاس ملمع ، مئة قطعة معدن أصفر خسيس لا قيمة له ، وهذه القطع مختلطة من هو العاقل ، ومن هو الذكي ، ومن هو الفالح ، ومن هو الناجح ، ومن هو الذي سيسعد بهذه القطع ؟ الذي عنده جهاز يكشف له قطعة الذهب ذات الأربع والعشرين قيراطاً يجمعها ويخرج ، يكون أخذ أثمن ما في هذه الغرفة نحن بحاجة إلى هذا الجهاز ، والجهاز هو تعليمات الصانع افعل ولا تفعل جئنا إلى الدنيا، أيام تسمع تاريخ حياة عالم جاء إلى الدنيا عرف الحقيقة فجعل من حياته طاعة ، من ماله إنفاقاً ، من حواسه انضباطاً من فهمه معرفةً ، من تكلمه دعوةً إلى ا ، من إنفاق ماله قربى إلى ا ، من لقائه بالناس دعوةً إلى ا فسعد بالدنيا والآخرة ، وقد يأتي إنسان لا يعرف الحقيقة يعيش ليأكل ، يكسب المال ليتباهى به يفعل كل الموبقات وهو يتوهم أنه يفعل ما هو خير له .

إذاً بالتفكر تعرف الحقيقة ، وبالتفكر تمتلك الإرادة ، مرة كنا في سهرة فيها عدة أطباء قلب قدم حلوى طيبة جداً عليها قشطة فبعض الأطباء لم يأكل ولا لقمة ، سأله أحدهم لِم لم تأكل ؟ قال لهذا السائل أنا أعالج مرضى شرايين قلوبهم مسدودة بفعل هذا الطعام ، فأنا أكرهها كراهةً عقلية لا كراهة ذوقية ، طعام طيب لكن لشدة ما يرى من متاعب يعاني منها الإنسان حينما تسد شرايين قلبه ، كره هذه الحلوى لا لأنه لا يحبها ولكن يكرهها كراهةً عقلية هل ترى التفكر ، التفكر أحياناً يبعدك عن شيء محبب ويدفعك إلى شيء غير محبب ، ما الذي ينفع الطالب ؟ أن يدرس ، ما الذي يسره أن لا يدرس ، أن يجلس مع صديقه يقرأ مجلة ، يتنزه في الطريق ، هذا شيء يسره فمعلوماته سطحية ، أما أن يقبع بغرفة يقرأ عشر ساعات هذا شيء لا يسره ، لو استخدم عقله ، استخدم تفكره قال أنا حينما أتعب هذه السنوات أرتاح طوال حياتي ، وبالفعل الطالب الذي درس ليس الآن ، الآن يوجد ترتيب آخر قديماً هذه بالثلاثينات والأربعينات، عندما كانت الدراسة مهمة جداً .

مرة كاتب مصري ألف كتاباً فقال : يا ليت آباءنا كانوا التفتوا إلى تعليمنا في المدارس فكنا استغنينا عن التجارة وذل البيع والشراء وترويج السلعة بالأقسام والأيمان فما العيش إلا عيش الموظفين .

هذه قبل ثمانين سنة ، كان الموظف يتقاضى راتباً خيالياً ، أنا تعينت سنة ستة وستين وكان الراتب ثلاث مئة وخمس وأربعين ليرة وكانت الليرة الإنكليزي بسبع وعشرين ليرة قسم ثلاثمئة وخمس وأربعين على سبعة وعشرين واضربها بخمسة آلاف كان راتبي وقتها اثنين وسبعين ألف ، كنت موظفاً تصور موظفاً الآن راتبه اثنان وسبعون ألفاً ممتاز جداً ، فكانت الليرة بسبع وعشرون ليرة سورية ، قال هذا الكاتب : وما العيش إلا عيش الموظفين .

ببلد عربي أفتى المفتي هناك أنه يجوز دفع الزكاة للموظف لشدة حاجته إلى المال في هذه الأيام ، على كلٍ العبرة أن الإنسان هناك حقيقة هي حقيقة تصل إليها عن طريق التفكر وحقيقة أخرى تعينك على الإرادة ، يقول هنا : التفكر تفكران ، تفكر يتعلق بالعلم والمعرفة وتفكر يتعلق بالطلب والإرادة ، فالتفكر الذي يتعلق بالعلم والمعرفة تفكر التمييز بين الحق والباطل ، والثابت والمنفي ، والتفكر الذي يتعلق بالإرادة والطلب هو التفكر الذي يميز بين النافع والضار ، فأنت حينما تستخدم الفكر البشري لتعرف الحقيقة وصلت إلى كل شيء وحينما تستخدم الفكر البشري لتتعامل مع الحقيقة تعاملاً إيجابياً إذاً وصلت إلى كل شيء ، عندك تفكيران أن تعرف الحقيقة وأن تنتفع بها ، وكل علم لا يبنى عليه عمل لا قيمة له ، وكل علم لا ينتهي إلى العمل الجهل أولى منه .

مجالات التفكر ، أول مجال مجال التوحيد استحضار أدلته شواهد الدلالة على بطلان الشرك واستحالته ، الألوهية يستحيل ثبوتها لاثنين ، وقال ا :

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّـٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١﴾

[سورة النحل]

لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢

[سورة الأنبياء]

فهذا مجال للتفكر ، استحضار أدلة التوحيد ، استحضار أدلة بطلان الشرك ، استحالة إثبات الألوهية لاثنين ، استحالة إثبات الربوبية لاثنين ، إبطال عبادة اثنين ، إنما هو إله واحد ، إبطال التوكل على اثنين ، العبادة لا تصح إلا لإله واحد هو إله الحق ، ورب الحق وهو ا الواحد القهار ، هذه موضوعات التفكر في التوحيد ، يبنى على هذا موضوعات التفكر في البراء والولاء، مادمت توحد ا مادمت تعتقد يقيناً أنه لا موجد بحق إلا ا ، الآن ينبغي أن تتبرأ مما سواه ، وأن توالي من يواليه هذا أيضاً موضوع للتفكر الولاء والبراء قال تعالى :

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾

[سورة الممتحنة]

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾

[سورة الزخرف]

إذاً الحقيقة الأولى التوحيد يبنى عليها البراء مما سوى ا والولاء ورسوله ، وأصحاب رسوله ، والتابعين ، والأولياء ، والعلماء العاملين .

قال بعض العلماء : ينتج عن هذا التفكر ، التفكر في التوحيد والتفكر في نتائج التوحيد الولاء والبراء حقيقة المحو والإثبات فالمؤمن بعد التفكر بالتوحيد يمحو محبة ما سوى ا من قلبه علماً وقصداً وعبادةً ، ويثبت في قلبه ألوهية ا سبحانه وتعالى .

والمؤمن بعد التفكر هذا التفكر يؤمن بحقيقة الجمع والفرق فيفرق بين الإله الحق وبين من دعيت له الألوهية بالباطل ، ويجمع تأليهه وعبادته وحبه وخوفه ورجاءه وتوكله واستعانته على إله واحد هو ا لا إله إلا هو .

وحقيقة التجريد والتفريد ، فيتجرد من عبادة ما سوى ا ويفرده وحده بالعبادة ، والتجريد هو النفي ، والتفريد هو الإثبات ، يعني يجرد ينفي كل عبادة لغير ا ، ويوحد ويثبت العبادة وحده فالولاء والبراء ، والمحو والإثبات ، والجمع والتجريد ، والتفرد والتوحيد هو النافع

المثمر والمنجي الذي به تنال سعادة الدنيا ، يعني هذا الدرس معناه يجب أن نفكر ، يجب أن نجلس لنفكر، يجب أن نفكر لا في كسب رزقنا ولا في حل مشكلاتنا ولا في صعودنا إلى مراتب عليا ، يجب أن نفكر بالحقيقة ، وأن نفكر كيف ننتفع بالحقيقة يجب أن نفكر في موضوع التوحيد وما أدلة التوحيد ، وما أدلة نفي الشرك إذا فكرنا بالتوحيد وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد صار معنا الولاء والبراء ، والمحو والإثبات ، والجمع والتجريد ، والتفرد والتوحيد ، هذه بعد الحقائق المتعلقة بالتفكر .

أيها الإخوة :

الإنسان أحياناً أو في أغلب الأحيان يصل إلى أعلى درجات السعادة بلحظة تفكر صادقة أروي لكم قصة سيدنا نُعيم بن مسعود هذا رجل كان في الجاهلية خليل متعة وشراب ، غارق في الشراب أي شراب الخمر وغارق في متعة النساء وهو من غضفان رجل زير نساء يشرب الخمر من الطراز الأول ، فلما بلغته دعوة النبي عليه الصلاة والسلام شعر أن هذه الدعوة تحد من شهواته وتحرمه من ملذاته فحاربها أشد المحاربة ، فلما كانت معركة الخندق لأنه أحد وجهاء غضفان وغضفان توجهت لمحاربة النبي العدنان لا يستطيع إلا أن يخرج ، فخرج مع قبيلته ليحارب النبي وطبعاً غضفان نصبت الخيام حول المدينة في معركة الخندق يروي قصته بشكل مؤثر قال: في أحد الليالي ، ليالي الحصار كنت مستلقياً في خيمتي بدأت أفكر يقول يا نعيم لماذا جئت لمحاربة هذا الرجل الصالح ، هل تحاربه لأنه سفك دماً حراماً ، هل تحاربه لأنه اغتصب مالاً حلالاً هل تحاربه لأنه فعل ما فعل ، ما فعل شيئاً أيعقل يا نعيم أن تحارب رجلاً صالحاً ، يا نعيم أين عقلك ، أين ذكاؤك ، هؤلاء الذين حول النبي ماذا فعلوا ؟ آمنوا به وصدقوه واتبعوا النور الذي أنزل معه كيف تحاربهم ؟ أيليق بك أن تحاربهم .

رجل مستلق في الفراش أو على أرض الخيمة وهو يستعد لمحاربة النبي ، يجري مع نفسه حواراً ذاتياً ، مناقشة رائعة جداً هذه المناقشة حملته على أن يقف ويتسلل إلى معسكر المسلمين ، ويدخل على النبي صلى ا عليه وسلم ويقول له : يا رسول ا ، قال له النبي نعيم بن مسعود ، قال : نعم يا رسول ا ، قال له : ما الذي جاء بك قال : جئت مسلماً ، جئت لأشهد أنه لا إله إلا ا وأنك رسول ا .

وا قصة مؤثرة إنسان في معسكر العدو أحد وجهاء غضفان جاء ليقاتل النبي العدنان بلحظة حوار ذاتي ، لحظة تفكر هذا محور الدرس ، أيام إنسان بحكم تسميها تقاليد ، عادات ، نمط الحياة استمرارية الحياة ، يؤذي ولا يشعر .

قال : نعم يا رسول ا ، قال له : ما الذي جاء بك قال : جئت مسلماً ، جئت لأشهد أنه لا إله إلا ا وأنك رسول ا ، ائمرني يا رسول ا بما تريد ، قال له : أنت واحد ، لأن في الخندق قال تعالى

﴿ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾

[سورة الأحزاب]

أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته .

قال له النبي الكريم : يا نعيم خذل عنا ما استطعت ، أنت واحد فينا هل تصدقون ، وا شيء لا يصدق أن هذه المعركة ، معركة نكون أو لا نكون ، معركة استئصال المسلمين ، معركة إبادة المسلمين معركة إنهاء الإسلام ، معركة إطفاء نور ا ، هل تصدقون أن النصر الذي تم في معركة الخندق كان بسبب إسلام نعيم بن مسعود رضي ا عنه ، قال له النبي الكريم : يا نعيم خذل عنا ما استطعت وهو أسلم سراً ولم يعلم بإسلامه أحد ، ذهب إلى اليهود وقال لهم أنتم تقطنون حول النبي هؤلاء قريش وغضفان جاؤوا ليحاربوا النبي فإذا انتصروا عليه انتصروا عليه وإن لم ينتصروا عليه عادوا إلى بلادهم وأولادهم ونسائهم وانفرد بكم النبي فقتلكم عن آخركم فلا تقبلوا أن تحاربوا معهم حتى تأخذوا منهم رهائن لئلا يدعوكم لمحمد ، ذهب إلى قريش وقال : هؤلاء اليهود كانوا على عهد مع النبي عليه الصلاة والسلام فلما نقضوا عهدهم ندموا فاسترضوا محمداً على أن يأخذوا منكم رهائن ليضرب أعناقهم فإياكم أن تعطوهم الرهائن .

شخص واحد عمل بلبلة بين معسكر الشرك ، وا أصبت يا نعيم ذهب اليهود ليأخذوا الرهائن من قريش فقالوا : كذبوا وا لا نعطيهم الرهائن ، فصار في شرخ بين معسكر المشركين ، صار في عداوة الذي حصل أن ا أعان على هذا النصر ساق رياحاً اقتلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم ، وقلبت قدورهم ، وملأت عيونهم غباراً ، وولوا مدبرين وكفى ا المؤمنين شر القتال .

كلما نقول نعيم بن مسعود نقول رضي ا عنه ، رجل مشرك زير نساء ، خدين شراب ، وهو مستلق على فراشه حاور نفسه وناقش نفسه وسأل نفسه أيليق بك يا نعيم وقد أوتيت عقلاً أن تحارب رجلاً صالحاً ، ما الذي جاء بك إلى هنا يا نعيم ؟ حاور نفسه وصل إلى قناعة والقناعة إلى قرار ، والقرار نفذه وأجرى ا على يديه هذا النصر المؤزر .

معنى ذلك لحظة تفكر صادقة مع الذات تنقلك من الجحيم إلى النعيم ، ومن الضياع إلى الوجدان، ومن الشقاء إلى السعادة وا يا أيها الإخوة قد لا يحضرني الآن كل القصص لكن أذكر أن عشرات الإخوة الكرام سبب إيمانه لحظة تفكر ، يوجد إنسان يعمل بعمل وهذا العمل غير مشروع يستخدمه لجمع أموال طائلة ، ومبني على ظلم أول ولد جاءه معتوه ، والثاني

معتوه ، والثالث معتوه ، والرابع انتبه استقال من هذا العمل وعمل عملاً شريفاً ونال به سلامة الدنيا وسعادة الآخرة ، ممكن إنسان يبني عمله على إيذاء الناس ، يبني عمله على الغش والاحتيال ، يبني عمله على ابتزاز أموال الناس ، لحظة تفكر حاسمة ، لحظة تفكر صادقة ، لحظة تفكر عميقة ، خصص وقت للتفكر أين تمشي ؟ ذكرت البارحة قصة رجل راكب سيارته وصل إلى إشارة حمراء عند محطة الحجاز انكفأ على المقود وقد أصيب بأزمة قلبية من غرائب الصدف أن زوجته إلى جانبه صرخت فلما صرخت ومن غرائب الصدف أيضاً صديقه وراءه نزل وحمله وأخذه إلى المستشفى ، طبعاً لما استعاد وعيه قليلاً طلب مسجلة واعترف بكل الأموال التي اغتصبها ، محلات بيوت ، وكلها من حق إخوته اعترف بالتسجيل أن هذا المحل لأخي الفلاني ، وهذه الأرض لأختي الفلانية ، بعد يومين أخذ مميع دم فوجد صحته لا شيء فيها أخذ الشريط وكسره وعاد إلى ما كان عليه جاءته نوبة بعد ثمانية أشهر وكانت القاضية ، وكانت النوبة الأولى إنذاراً مبكراً من ا .

فيا أيها الإخوة فكروا ، لا تمش غلط ، لا تمش بحكم العادات والتقاليد ، معظم الناس لِم تفعل هكذا ؟ يقول رأيت الناس يفعلون ففعلت ، لماذا ركبت صحناً ؟ الكل ركبوا وأنا ما ركبت ، لا تكونوا إمعة ، من هو الإمعة ؟ يقول أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت وإن آساؤوا أسأت ، لماذا ترتدي زوجتك هذه الثياب ؟ هكذا الموضة يا أخي ماذا نفعل لا نقدر عليها .

هذا حال المسلمين ، فكر واتخذ قراراً ولو كان القرار صعباً ، إذا يوجد عندك عمل مطعم مصنف خمس نجوم يجب أن تبيع فيه الخمر قال لي أحد شركاء مطعم : برقبة شريكي وأنا ليس لي علاقة إن شاء ا برقبة شريكي أنا علي أن آخذ ربحي آخر السنة ، لا سوف تحاسب مددت يدك إلى الربح معنى هذا أنك شريك في بيع الخمر .

فكر لا تمش بحكم العادة ، هكذا نشأنا ، وهكذا ربينا ، التقاليد والعادات ، هكذا الناس يا أخي ، اسمع القرآن الكريم :

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾

[سورة الأنعام]

فدرسنا اليوم التفكر فكر ، والإنسان يكون ماشياً وحده يجب أن يفكر ، راكباً مركبة يجب أن يفكر، سافر مادمت وحدك في حوار ذاتي مستمر ، اجعل هذا الحوار هادفاً ، أين كنت ؟ ماذا بعد الموت من أين وإلى أين ولماذا ؟ لماذا أنا على وجه الأرض ؟ ما المهمة التي ينبغي أن أقوم بها، ما الرسالة التي ينبغي أن أبلغها ؟ ما العمل الذي ينبغي أن أفعله ؟ لماذا تزوجت ؟

لماذا اخترت هذه الحرفة ؟ لا تكن إنساناً يتحرك بحكم الحركة الطبيعية ، أنت لك رسالة هل عرفتها ، أنت مخلوق أول مكرم هل قدرت ذلك ، أنت أمامك هدف كبير الوسائل لهذا السبب واضحة هل سلكت هذا الطريق ؟

أيها الإخوة :

أختم هذا الدرس بقول ا   عز وجل :

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي
الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا
سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾

[سورة آل عمران]

والحمد   رب العالمين

****

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون : مع الدرس التاسع والأربعين من دروس مدارج السالكين ، في منازل

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

ومنزلة اليوم البصيرة .

هناك بصر وهناك بصيرة ، البصر يريك ظاهر الأشياء ، والبصيرة تريك حقائق الأشـياء ، فالمؤمن يملك بصيرةً ، وأي إنسان يملك بصراً ، فالمؤمن يرى الحقيقة ، أي لو أنك دخلـت إلى محل تجاري في أشهر أسواق المدينة ، وفيه بيع وشراء للنساء ، ولم يكن هـذا المحـل منضبطاً بضوابط الشريعة ، فيه تفلت وأشياء لا ترضي ا ، و ذهبت إلى محل آخر ، مثـل محل فيه تصليح مركبات ، المعاملة فيه طيبة ونظيفة ، بالنسبة للعين ، المحـل الأول علـى شبكية العين أجمل ، أكثر أناقة وأكثر جمالاً ، وأكثر روعة ، وأكثر نعومة ، والمحل الثـاني أخشن ، لكن في الحقيقة المحل الأول طريق إلى النار ، المحل الثاني فيه صدق وأمانة ، أمـا المنظر لا يرضي العين ، بحسب البصيرة العمل النظيف الصادق المخاص الأمين هذا طريق إلى الجنة ، إنسان يملك معمل مواد بناء وملهى ، على الشبكية أيهمـا أجمـل ؟ الملهـى ..! تزيينات وديكورات ، ولوحات فنية ، وأرض وفرش ، أما المعمل الثاني العمـل مشـروع ، بإنشاء البيوت ، وفيه صدق وأمانة و استقامة ، فليس كل ما تسر به العين يكـون خيـراً ، و ليس كل شيء يخدش العين يكون شراً ، طبعاً مثل صارخ .

القلب له بصيرة ، والعين فيها بصر ، فالإنسان الشارد عن ا يعيش في ظـواهر الأشـياء ، يعيش في سطوحها الخارجية ، مثل آخر : أب توفي وترك ثروة ضخمة ، أحد أولاده الخبثاء استولى على الثروة كلها ، وأنشأ بيتاً فخماً جداً ، واسعاً ، مزيناً ، فرشه بـأرقى الأثـاث ، وجعل فيه أجنحة ، على الشبكية البيت جميل جداً ، أما بنور البصيرة فهذا فيه اغتصاب ، فيه عدوان ، ترك إخوته جميعاً بلا مأوى ، وبلا دخل ، جعلهم يتضورون جوعاً ، هو تنعم وحده بهذا البيت الفخم ، وحرم إخوته ، فالبيت من حيث الشكل ، والموقع والتزيينـات ، والأثـاث مريح جداً ، لكن من حيث أن صاحبه أكل المال الحرام ، وحرم إخوته ، وكان سبب شقائهم ، هذا البيت بعين البصيرة قطعة من النار .

مرة دخلت إلى مزرعة ، علمت أن صاحبها دخله ليس حلالاً ، وا شعرت كأن هذه الأشجار تشتعل بالنار ، فالبطولة أن يكون دخلك حلالاً ، وأن تكون مطيعاً ، وأن يكـون مصـيرك

إلى الجنة ، وأن تستحق وعد الله عز وجل ، أخطر شيء هو أن يتـأثر الإنسـان بظـواهر الأشياء ، الله عز وجل قال :

يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧

(سورة الروم)

يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا

لو طالب شرد من المدرسة ، وذهب إلـى الملاهـي والحانات ، ودور السينما ، و صحب رفقاء السوء ، بحسب العـين هـو يسـتمتع بالطعـام والشراب ، والنوم ، والضحك ، أما هذا الطالب النظامي ، الذي يلتزم بالدوام ، ويقعد علـى مقعد الدرس ، ويدرس ، ويؤدي الواجبات ، ويسهر إلى ساعة متأخرة جداً من الليـل ، هـذا سيصبح إنساناً محترماً جداً في المجتمع ، فدائماً العين تغش ، إياك أن تعتمد على البصر ! بل اعتمد على البصيرة ، والإنسان كلما هبط مستواه اعتمد على البصر ، وكلما عـلا مسـتواه يعتمد على البصيرة ، لذلك أخطر شيء في تربية الأولاد ، هو أن الطفل يعتمد على الصورة ، فإذا أريته إنساناً له زي ديني في حالة لا ترضي يكره الدين ، وإذا أريته إنساناً منحرفاً فـي دينه لكن في حالة ترضي يحب التفلت ، لذلك أخطر شيء حينما تربي الطفـل مـن خـلال الصورة ، وهذه فرية جاءتنا من الغرب ، وهي أن لا تلقي عليه كلاماً إعرض عليه صورة ، فالصورة مرغبة ، تجعلك تعيش في ظواهر الأشياء ، لا بحقائقها .

أيها الإخوة : البصيرة مرتبة في الإسلام عالية جداً ، تعيش مع الحقيقة ، تعيش مـع بـواطن الأمور، تعيش مع مؤدى الأمر ، لو أن إنساناً يسرق ، و يدخل البيوت ، و يجمع الأمـوال ، ويسهر في الحانات ، لكن مصير هذا الإنسان إلى الخزي ، والعار ، والسجن ، إذاً لا تغتـر بتفلته، و انغماسه في الملذات ، و لعبه بالأموال ، يجب أن ترى مصيره ، والإنسان المـؤمن يبحث دائماً عن العاقبة .

والله عز وجل قال :

وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٨٣

(سورة القصص)

قال : إذا صحت فكرة الإنسان قادته إلى البصيرة ، والبصيرة في التعريف الدقيق نـور فـي القلب ، يبصر به الوعد والوعيد ، والجنة والنار ، وما أعد الله في هذه لأوليائه ، وفي هـذه لأعدائه ، فأبصر الناس وقد خرجوا من قبورهم ، مهطعين لدعوة الحق ، وقد نزلت ملائكـة

السماوات فأحاطت بهم ، ووضع الكتاب ، وجيء بالنبيين والشهداء ، وقـد نصـب الميـزان وتطايرت الصحف، واجتمعـت الخصوم ، وتعلق كل غريم بغريمه ، ولاح الحوض وأكوابه عن كثب ، وكثر العطاش ، وقل الوارد ، ونصب الجسر للعبور ، ونزل الناس إليه ، وقسمت الأنوار دون ظلمة العبور ، والنار يحطم بعضها بعضاً تحته ، والمتساقطون فيهـا أضـعاف أضعاف الناجين ، انظر إلى المستقبل إلى المصير ، فالمؤمن ببصيرته كل تصـرف يفعلـه يتصور وقد وقف بين يدي الله عز وجل ، ليجيب عن سؤاله ، الكافر يعيش لحظتـه بعينـه ، المؤمن يعيش المصير ببصيرته ، شيء دقيق جداً ، الدنيا محسوسة ، الآخرة خبر آيات القرآن ، أمامك امرأة ، أمامك مركبة ، أمامك بيت ، أمامك طعام نفيس ، الدنيا بشهواتها محسوسة ، أما الآخرة أخبرك الله عنها فقط ، لا ترى منها شيئاً ، فإذا الإنسـان بنـور البصـيرة يـرى المصير ، يرى العاقبة ، لذلك الشيء الذي يرقى بالإنسان عند الله أنه لا يتعامل مع بصره بل مع بصيرته ، الشارد عن الله يعيش لحظته ، يعيش وقته ، أينما وجد مغنماً اقتنصـه ، أينمـا وجد شهوة مارسها ، أينما وجد متعة مارسها ، وينسى ما وراء ذلك ، وهذا هو مرض العصر ، الناس يعيشون لحظتهم ، يعيشون وقتهم ، ولا يفكرون بالمصير ، هل هناك إنسان يسـتطيع أن يتفلت من الموت ؟ ماذا بعد الموت ؟ ترى الإنسان منهمكاً في الدنيا إلى قمة رأسه ، يشيد بيتاً فخماً ، المسبح ، الحديقة ، الأبهاء ، حسناً هل تستطيع أن تبقى في هذا البيـت إلـى أبـد الآبدين ؟ لابد من مغادرته إلى القبر ، ماذا في القبر ؟ أكثر شيء في هذا الـدرس أحـب أن أعلق عليه الأهمية ، تحرك لا وفق البصر ! بل وفق البصيرة، لا وفق ظواهر الأشياء ! بـل وفق بواطنها .

البصيرة كما قلت قبل قليل ، نور يقذفه الله في القلب ، يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسـل ، كأنه يشاهده رأي العين .

مثلاً : رجل عرض عليك عملاً في الدنيا فيه مخالفة للنظام ، الواعي ، والعاقل ، والعميـق ، يرى أنه فعل هذا العمل ، ثم ضبطت هذه المخالفة ، ثم اقتيد إلى السجن ، ومكث فيـه عشـر سنوات ، فلا يقبل هذا العمل ، رفضه ببصيرته ، قد يكون فيه إغراء كبير وربح فاحش ، هو يرى المصير، فالإنسان إن أراد إنفاذ أمرٍ عليه أن يتدبر عاقبته .

العلماء قالوا : البصيرة على ثلاث درجات ، من استكملها فقد استكمل البصيرة ، بصيرة فـي الأسماء والصفات ، وبصيرة في الأمر والنهي ، وبصيرة في الوعد والوعيد .

البصيرة في الأسماء : أن لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه ، ووصفه به رسوله ، فقلبك يشهد أن الله سبحانه وتعالى مستوياً على عرشه ، متكلماً بأمره ونهيه ، بصيراً بحركات العالمين ، علويه وسفليه ، وأشخاصه وذواته ، سـميعاً لأصـواتهم ، رقيبـاً علـى ضمائرهم وأسرارهم ، وأمر الممالك تحته بتدبيره ، نازلٌ من عنده وصاعد إليـه ، وأملاكـه

بين يديه ، تنفذ أوامره في أقطار الممالك ، موصوفاً بصفات الكمال ، منعوتاً بنعوت الجلال ، منزهاً عن العيوب والنقائص ، والمثال ، فهو كما وصف نفسه في كتابه ، وفوق ما يصفه به خلقه حي لا يموت ، قيوم لا ينام ، عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة فـي السـماوات ولا فـي الأرض ، بصير يرى دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، سميع يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات ، تمت كلماته صدقاً وعـدلاً ، هذه رؤية القلب ، المؤمن الصادق بنور البصيرة الذي يقذفه الله في قلبـه يـرى أسـماء الله الحسنى ، وصفاته الفضلى ، يراه مستوياً على عرشه ، بيده مقاليد السماوات والأرض ، إليه يرجع الأمر كله ، يده فوق أيدي خلقه ، أمره نافذ في خلقه ، خلق كل شيء ، فقدره تقديراً ، هذه رؤية لا تقدر بثمن ، هذه الرؤية تجعلك تسمو ، تجعلك تبقى على مـنهج الله المسـتقيم ، تمت كلماته صدقاً وعدلاً ، وجلت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبهاً ومثلاً ، تعالت ذاتـه أن تشبه شيئاً من الذوات أصلاً ، وسعت الخليقة أفعاله عدلاً ، وحكمـة ، ورحمـة ، وإحسـاناً وفضلاً ، له الخلق والأمر ، وله النعمة والفضل ، وله الملك والحمد، وله الثناء والمجد ، أول ليس قبله شيء ، وآخر ليس بعده شيء ، ظاهر ليس فوقه شيء ، باطن ليس دونـه شـيء ، أسماؤه كلها أسماء مدح ، وحمد ، وثناء وتمجيد ، لهذا كانت حسناً ، وصفاته كلهـا صـفات كمال ، ونعوته كلها نعوت جلال ، أفعاله كلها حكمة ورحمة ، ومصلحة وعدل ، كل شـيء من مخلوقاته دال عليه ، مرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه .

كمثل أخ كريم يرتاد المساجد ، يصلي يدعو ويصوم ، يحج بيت الله الحرام ، ينفـق مالـه ، يطلب العلم ، يدعو إلى الله ، يصلي الليل ، يذكر الله كثيراً ، ينفق ماله ، يأمر بـالمعروف ، ينهى عن المنكر ، مع عمر مديد ، في هذا الجهاد العظيم ، تكون له هذه الرؤية ، يوجد بقلبه نور ، إنسان متميز ، من باب المفارقات ، وازن بين قطعة من اللحم المتفسخ ، أحيانـاً لهـا رائحة لا تستطيع أن تحتملها ولا دقيقة ، تكاد تخرج من جلدك حينما تشم رائحتها ، وقطعـة من اللحم الطازج المشوي وأنت جائع ، هذه قطعة لحم ، وهذه قطعـة لحـم ، وشـتان بـين القطعتين ، وهذا إنسان شارد ، تائه ، أعمى ، أحمق ، أرعـن ، قـذر ، مـنحط ، دنـيء ، وصولي ، خائن ، وهذا مؤمن ، صادق ، أمين ، وفي ، محب ، عفيف ، يرى حقائق الأشياء ، العمر المديد في طاعة الله يورث هذه الرؤية ، نتائج هذه الرؤية ، كل شيء من مخلوقاتـه دال عليه ، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه ، لم يخلق الأرض والسماوات وما بينهما باطلاً ، ولا ترك الإنسان سدى عاطلاً ، كم من الناس يعتقد أن هذه الحياة لا يوجد غيرها ؟ هنالـك أقوياء يملكون كل شيء ، و هنالك ضعفاء يسحقون كل يوم ، ويوجد أغنياء يكادون يموتـون من التخمة ، ويوجد فقراء يكادون يموتون من الجوع ، ويوجد إنسان أوتي من حظوظ الـدنيا

الشيء الكثير ، وإنسان حرم الدنيا كلها ، هذا الذي يعتقد أن تنتهي الحياة هكذا ، ولا شيء بعد الموت ، هذا عبث ، هذا العبث لا يليق بكمال الله ولا بجلاله ، يقول تعالى :

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا

(سورة المؤمنون)

أي هل من المعقول أن المستقيم كالمنحرف ؟ المحسن كالمسيء ؟ الصادق كالكـاذب ؟ هـل يستويان عند الله ؟ هذا يتناقض مع وجود الله ، فالمؤمن صاحب رؤيا ، يرى المصير ، أقرب تقدير مؤمن يرى شاباً مستقيماً ، لا يملك شيئاً ، لا درهم ولا دينار ، ولا بيت ، ولا حرفـة ، ولا دخل ، يقول بنور البصيرة : هذا الشاب المعدم الذي ليس أمامه شيء ، سوف يوفقـه الله عز وجل، سوف يوفقه في الدنيا والآخرة ، وقد يرى إنساناً مرابياً خبيثاً منحرفـاً ، زانيـاً ، يقول : هذا سوف يدمر ، بالعين المرابي قوي غني ، يملـك يتصـرف ، والشـاب المـؤمن ضعيف فقير ، بعين البصيرة العاقبة لهذا الشاب ، وبعين البصيرة الهلاك ينتظر هذا المنحرف ، بعين البصر هذا يمشي في طريق مسدود ، وهذا يمشي في طريق كله ورود ، لذلك لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ، ولا ترك الإنسان سدى عاطلاً ، بل خلق الخلق لقيـام توحيده وعبادته ، وأسبغ عليهم نعمه ليتوسلوا بشكرها إلى زيادة كرامته ، تعرف إلى عبـاده بأنواع التعريفات ، وفرق لهم الآيات ، ونوع لهم الدلالات ، ودعاهم إلى محبته مـن جميـع الأبواب ، ومد بينه وبينهم من عهده أقوى الأسباب ، فأتم عليهم نعمه السابغة ، وأقام علـيهم حجته البالغة ، أفاض عليهم النعمة ، وكتب على نفسه الرحمة ، وضمن الكتاب الذي كتبه :

وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ

(سورة الأعراف)

وتفاوت الناس بهذه البصيرة ، بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهمهـا ، والعلـم بفساد الشبه المخالفة لحقائقها .

أيها الإخوة : هذا أثمن شيء بالإيمان ، أن يرى قلبك هذه الرؤيا ، أن يقذف الله في قلبك نوراً ترى به حقيقة الذات الإلهية ، تراها معك ،

وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ

(سورة الحديد)

تراها مالكة ، متصرفة ، إليها يرجع الأمر كله ، علاقتك مع ا ، حيـاة المـؤمن وأسـباب سعادته علاقته مع ا ، مستحيل أن يجتمع الحزن مع الإيمان با ، ا موجـود ، سـميع ، غني ، قوي ، مجيب ، محب ، لم الحزن ؟ لم الخوف ؟ لم القلق ؟

فمن كان في قلبه هذه البصيرة عاش حياة سعيدة ، واثقاً با ، واثقاً بنصر ا ، واثقاً برحمة ا ، واثقاً بتوفيق ا ، واثقاً بعدالة ا ، همه أن يطبق أمر ا ، همه أن يكون على منهج ا المستقيم، وصراته القويم ، هذا همه ، لو كان الإنسان شارداً الحياة موحشة ، كما قلـت قبـل قليل : يوجد قوي ، ويوجد ضعيف ، هو ضائع بينهما ، إن انحاز إلى هؤلاء خسر هـؤلاء ، وإن انحاز إلى هؤلاء خسر هؤلاء ،

مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ

(سورة النساء)

حياة الشرود عن ا حياة موحشة ، مخيفة ، فمحصلة التفكر القويم البصيرة ، فالبصيرة نـور يقذفه ا في قلبك ، يريك به حقائق الأشياء ، يريك به حقيقة الذات الإلهية ، والدليل قوي جداً :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ

(سورة الحديد)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا

(سورة الأنفال)

إخواننا الكرام : قضية رؤية ، القضية بين الناس قضية رؤية ، هل آتيكم بمثل صارخ ؟ سيدنا يوسف ، امرأة زوجة ملك ، طبعاً الملوك يختارون أجمل النساء ، زوجة ملك ، امرأة العزيز ، دعته وهي سيدته ، وهو بعيد عن أهله ، شاب في ريعان الشباب ، غير متزوج ، غريب ، تلقى أمراً منها ، ليس من صالحها أن يعلم بأمرها أحد ، ماذا رأى ؟ رأى أن هذا العمل يبعده عن ا ، رأى أن هذا العمل يجعله في أسفل السافلين ، فقال :

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ

(سورة يوسف)

هذا الذي يتربع على أعلى منصب في العالم الآن ، وقع في المطب نفسه ، ماذا فعل ؟ سقط ، فصار مضغة الأفواه ، أنا ما سمعت عن إنسان بلغ من الذل والإهانة من قبل شعبه ما بلغ هذا الإنسان ، بسبب انحرافه ، الشهوة نفسها ، ماذا رآى ؟ رآها مغنماً ، ومـاذا رآى يوسـف ؟ رآها مغرماً ، هذه هي البطولة ، كإنسان يأكل مالاً حراماً ويتوهم أنه ذكي ، كسـب باحتيـال شديد ثم يكشف أمره ، ويودع في السجن ، وتصدر في حقه مذكرة توقيف ، ويفضـح أمـره ويسقط من عين الناس جميعاً ، كل بطولتك أن تملك البصيرة ، كل بطولتك أن ترى الأشـياء بحقيقتها ، بنتائجها ، بعواقبها ، بنهاياتها لا ببداياتها ، اللهم ألهمنا هذه البصيرة .

والمرتبة الثانية في البصيرة : مرتبة في الأمر والنهي ، فهذا المؤمن الذي ألقي في قلبه نور ، فرأى به الحق حقاً ، والباطل باطلاً ، لا يتأثر لا بتقاليد ولا بعادات ، ولا بأهواء ، الناس الآن عباد لأحدث الأزياء ، امرأة مسلمة ترتدي ثياباً فاضحة ، حجتها أنها هكذا رأت فـي كتـب الأزياء، حسناً أين دينك ؟ أين مرضاة ربك ؟ أين سعيك إلى الجنة ؟ أين التزامك بالإسـلام ؟ لا ترى ! فالمؤمن يرى أن طاعة الله هي أثمن شيء ، أما غير المـؤمن يـرى صـرعات الأزياء ، يرى العادات والتقاليد السائدة ، غير المؤمن إمعة يقول أنا مع النـاس ، إن أحسـن الناس أحسنت ، وإن أساؤوا أسأت ، وكل إنسان يقول لك : هكذا الناس ، هكذا نشأنا ، هكـذا جميع الناس ، كلهم على خطأ ؟ هذا أعمى البصيرة ،

فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

(سورة الحج)

فليس في حياة المؤمن تقليد أو هوى ، ولا شبهة تحول بينه وبين طاعة الله ، ولا شهوة تمنـع تنفيذ أمر الله ، ولا تقليد يريحه عن بذل الجهد في تلقي الأحكام من مشكاة النصوص ، هـذه بصيرة الأمر والنهي ، الأمر والنهي فوق كل شيء ، أكثر كلام يقـال : مـاذا نفعـل نحـن مضطرون ؟ طيب أين المجاهدة ؟ أين مجاهدة النفس والهـوى ؟ لأتفـه سـبب يقـول لـك مضطرين ، ليست هذه هي الضرورة ، الضرورة التي ذكرها الفقهاء أن تخشى الهلاك أنـت وأهلك ومن تعول ، جوعاً وعرياً وتشرداً ، هذه الضرورات التي تبيح المحظورات ، أما لأتفه سبب تأكل المال الحرام ! لأتفه سبب تداهن على حساب دينك ؟ لأتفه سبب تنافق ؟

المرتبة الثالثة في البصيرة : البصيرة في الوعد والوعيد ، الناس كلهم تقريباً متساوون ، كـل الناس لهم بيوت ، لهم غرف نوم ، غرف ضيوف ، مطابخ ، يأكلون ويشـربون ، صـباحاً وظهراً ومساءاً ، ويسهرون على هذه البرامج ، ويلتقون ، ويختلطون ، ويملأ بعضهم عينـه

من محاسن النساء ، والمؤمن بينهم ليس له أي ميزة ، واحد من مجموع ، لكن حينمـا يقـوم الناس لرب العالمين ، يقال لهم :

وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾

(سورة يس)

قفوا هنا على اليسار ، أصبح هناك فرزاً ، الآن لا يوجد فرز ، كالصف أثناء العام الدراسي ، كل الطلاب سواء ، متساوون كلهم يرتدي ثياباً موحدة ، يأتي الساعة الثامنة ويذهب السـاعة الواحدة ، ست حصص ، الحصة خمسين دقيقة ، والفرصة عشرة دقائق ، الأسـتاذ موحـد ، لكن عند الامتحان يفرز الطلاب ، ناجحون وراسبون ، متفوقون وناجحون وراسبون ، متـى كان الفرز ؟ عند الامتحان .

فالمؤمن الصادق يرى مصائب الناس ، يرى المرابي لا بد من أن يهلك ، يرى الزاني لابـد من أن يهلك ، يرى الذي يأكل المال الحرام لا بد من أن يهلك ، يرى الذي يعتدي على حقوق الناس لا بد من أن ينتقم ا منه ، يرى الذي ينحرف لا بد من أن يدفع الثمن باهظاً ، يـرى النتائج ، يكاد المؤمن يرى ما سيكون ، لا عن علم بالغيب ، هذا مستحيل ، ولكن عـن علـم بقوانين ا عز وجل، وا أخ حدثني عن إنسانة ظلمت أخاها ظلماً لايصدق ، فلقـد جعلتـه شريداً هو وأولاده الكثر ، واستولت على بيته لأنه باسمها وقد دفع نصف ثمنه ، أخذت البيت من أخيها ظلماً وعدواناً ، وشردته ، حدثني ابن أخيها عن فعل عمته مع أخيها ، وا من باب المعرفة بقوانين ا عز وجل قلت : هذه ينتظرها هلاك كبير ، وا ما مضى ثلاثون يوماً إلا وأصيبت بمرض عضال ، وبعد ثلاثين يوماً أخرى انتهى المرض بها إلى المـوت ، وعـاد أخوها إلى البيت وارثاً وحيداً ، إلى البيت الذي يملك نصفه ، هذا ليس علم غيب ، لكن علـم بالقوانين ، أي أنت لو نظرت إلى مركبة تنطلق بسرعة كبيرة جداً في طريق نازلـة ، وهـذا الطريق ينتهي بمنعطف حاد، وليس في هذه المركبة مكبح ، فهل مـن الصـعب أن تتوقـع الحادث ؟ بالمئة مليون ، هل أنت تعلم الغيب ؟ لا هذا ليس علم بالغيب ، بل هو علم بالقوانين ، مركبة تنطلق بسرعة مئة وعشرين في طريق مثل هذا ، والمنعطف مثل هـذا ، وفـي واد سحيق ، ومكبح غير متوفر ! هل أنت تعلم الغيب ؟ لا أنا أعلم القوانين ، الحـادث حتمـي ، فالمؤمن ببصيرته التي أكرمه ا بها ، بهذا النور الذي ألقي في قلبه يرى مصائر الناس ، لا عن علم غيب ولكن عن معرفة بقوانين ا عز وجل ، وكم من مرة تتفاءل بمسـتقبل شـاب مؤمن لا يملك من الدنيا شيئاً ، ولكن لأنه مستقيم ، وتقرأ أنت قوله تعالى :

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ

(سورة النحل)

نقول هذا ينتظره حياة طيبة ، تعلم الغيب ؟ لا ، لاأعلم الغيب ، ولكن أعلم قـوانين ا عـز وجل

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾

(سورة السجدة)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

(سورة الجاثية)

أيها الإخوة أما البصيرة الثالثة : أن تشهد قيام ا على كل نفس بما كسـبت ، كـل إنسـان سيحاسب على عمله ، كل إنسان سيدفع ثمن أخطائه ، وكل إنسـان سـيقبض ثمـن أعمالـه الصالحة ، بأعلى سعر ، البصيرة التي تتعلق بالوعد والوعيد أن تشهد قيام ا على كل نفـس بما كسبت ، في الخير والشر ، عاجلاً وآجلاً ، في دار العمل ودار الجزاء ، وأن ذلـك هـو موجب إلهيته وموجب ربوبيته، وا أيها الإخوة حينما نؤمن بعدالة ا ، وا ننضـبط أشـد الانضباط ، وا نضبط كلامنا من أن ننطق بكلمة ، وا نضبط ابتساماتنا ، وا الإبتسـامة تضبطها ، إن وجدت ابتسامة ساخرة تحاسب عليها ، تضبط كل حركاتك وسـكناتك ، وكـل أعضائك وحواسك ، وكل دخلك وإنفاقك ، تضبط بيتك وعملك ، إذا آمنت بعدالة ا ، وبـأن ا قيوم السماوات والأرض ، وأن ا سيحاسب كل إنسان حساباً دقيقاً ، وا يوجد آيات لـو تأملناها تأملاً حقيقياً لكفتنا .

أنت إذا تحققت من قوله تعالى :

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

(سورة الزلزلة)

إذا تحققت من هذه الآية فأنت فقيه ، انتهى الأمر ، لا يوجد في حياة مؤمن مفاجأة ، ولا يوجد دمار ، ولا فضيحة ، ولا هلاك ، لأنه على منهج الله ، لأن كل أبواب الخطر أغلقها ، كل الثغرات سدها ، كل المزالق ابتعد عنها ، كل نقاط الضعف قواها ، أضعف نقطة في حياة الإنسان المال والمرأة ، المؤمن يغض بصره ويتحرى دخله ، فأصبح كالملك ، مرفوع الرأس دائماً .

فالبصيرة في الوعد والوعيد : أن تشهد قيام الله على كل نفس بما كسبت ، في الخير والشر ، عاجلاً وآجلاً ، في دار العمل ، ودار الجزاء ، مثل إنسان يمضي حياته في طاعة الله ، الله عز وجل لحكمة بالغة ، ولكرامة المؤمن عند الله ، يجعل موته ملخصاً لكل حياته ، يموت وهو يصلي ، وهو يقرأ القرآن ، يموت في المسجد ، وهو صائم ، ولإنسان أمضى حياته في المعاصي والآثام ، يموت وهو في المعصية ، وهو يمارس المعصية يأتيه ملك الموت ،

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة السجدة)

أن يقوم الله على كل نفسٍ بما كسبت في الدنيا والآخرة ، في دار العمل ودار الجزاء ، هذا موجب إلهية الله عز وجل ، وربوبيته ، لماذا هو إله ورب ؟ لأنه سيكافئ المحسن ويعاقب المسيء ، موجب ألوهيته وربوبيته وعدله وحكمته ، فإن الشك في ذلك شك في ألوهية الله وربوبيته ، إذا كان من الممكن أن تشك لثانية واحدة ، أنه يمكن للمحسن أن يضيع حقه ، والمسيء ينجو ، تشك أنت بربوبية الله ! وبألوهيته !

إن كان من الممكن أن يأكل إنسان مالاً حراماً ، وأن يتمتع فيه طيلة حياته ، ويعيش في بحبوحة كبيرة ، ثم يموت ويذهب إلى الجنة ، ورجل استقام على أمر الله ، هذا حرام وهذا حرام ، فأصبح وراء الناس ، فقيراً لا يملك شيئاً ، والله أن تعتقد هكذا ، فهذا شك في ألوهية الله وربوبيته ، مستحيل أن تطيعه وتخسر ، مستحيل ومستحيل أن تعصيه وتربح ، مستحيل أن تطيعه وتذل ، مستحيل أن تعصيه وتعز ،

قَالَ الْحسن بن علي رضي اللهم عنْهمما : علمني رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم كلمات أَقُولُهن في الْوِتْرِ : قَالَ ابن جواسٍ في قُنُوت الْوِتْرِ : "... وإنه لا يذل من واليتَ ولا يعز من عاديتَ ...*"

"سنن أبي داوود "

مادياً ومعنوياً ، مستحيل أن تطيعه وأن تخسر الدنيا ، وأن تذل فيها ، ومستحيل أن تعصيه وأن تربح الدنيا وأن تعز فيها ، الشك في ذلك شك في ألوهية الله وربوبيته ، بل شك في

وجوده ، لمجرد أن تعتقد أن القوي الظالم يربح ، والضعيف المظلوم يخسر ، ليس هذا شـك في ألوهيته وربوبيته بل شك في وجوده .

وا ِ قبل أشهر كنت مسافراً في بلد بعيد ، قلت : قوة كبيرة في العالم غاشمة ظالمـة تقـوم على أنقاض الشعوب ، أن تنجح في تخطيطها إلى ما لا نهاية ، وأن تفعل ما تريد إلى مـا لا نهاية ، وأن تقوم على أنقاض الشعوب إلى ما لا نهاية ، وا ِ هذا يتناقض مع وجود ا ، قلت : مع وجوده ، لا مع عدالته فحسب ، بل مع وجوده ، ا موجود ، هو الحق ، هو الذي ينتقم من الظالم.

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾

(سورة ابراهيم)

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾

(سورة آل عمران)

شعوب تقتل كل يوم ، ما لها من ذنب أبداً إلا الجبروت الغربي ، الجبروت والقهر والسيطرة على العالم ،

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾

(سورة آل عمران)

عن ابنِ عباسٍ رضي اللهم عنْهما ، أَنّ النبي صلى اللهم عليه وسلم بعثَ معاذًا إلى الْيمنِ فَقَالَ : اتقِ دعوةَ الْمظْلُومِ ، فَإِنها لَيس بينَها وبين الله حجاب *

(صحيح البخاري)

بل شك في وجوده فإنه يستحيل عليه خلاف ذلك ، ولا يليق أن ينسب إليه تعطيل الخليقة ، وإرسالها هملاً ، أي إن كان لم يرسل للخليقة نظاماً فقد عطلها ، فمثلاً أنـت كـأب إبنك أمامك ، والمدفأة أمامك ، وابنك إدراكه ضعيف ويسير باتجاه المدفأة فهل تبقـى سـاكتاً وأنت أب ؟ هذا مستحيل ، ألا توجه إبنك ألا تعطيه التعليمات والنصائح ؟ هذا مستحيل ، فإذا ترك ا عز وجل عباده دون رسل ، دون أنبياء ، دون دعوات ، دون هدى ، دون دعـاة ، دون كتاب ، يكون قد أهملهم ، وإن كان لم يحاسب الناس فقد خلقهم سدى دون سبب .

مثل موظفان في محل تجاري ، أحدهما يسرق المحل والثاني أمين ، هل يستويان عند صاحب العمل ؟! هذا غير معقول ، هذا إنسان غير إداري ، الذي سرق مقـرب لـك ، والذي كان عفيفاً مبعد عنك ؟

إذاً لايليق أن ينسب إليه تعطيل الخليقة وإرسالها هملاً ، وتركها سدى وتعالى ا عـن هـذا الحسبان علواً كبيراً ، تعالى ا ، لو أن ا أجبر عباده على الطاعة لبطـل الثـواب ، ولـو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة .

هل يعقل أن يترك أباً أولاده يعتدي بعضهم على بعض وهو ينظر إليهم ؟ تصور أنـت أممـاً وشعوباً وغزواً ، وحروباً ، وقهراً ، وذلاً ، ونهباً ثروات ، ا عز وجل ، معنا في الأرض ، ينظر إلينا فقط ولا يتدخل ؟ هذا الكلام مستحيل ، هذا الكلام يتنافى مع كماله أساسـاً ، أبـداً لحكمة بالغة وعلم بالغ ، وقدرة بالغة ، لكن ا له حكمة ، يقوي هؤلاء

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

(سورة القصص)

هذه سنة ا في خلقه ، الذي يؤمن به وقد قصر في طاعته ، يسلط عليه من لا يعرفه ليتوب ، فإذا تاب قواه عليه ، هذه هي سياسة ا عز وجل ، يسلط الذي لا يعرفه على الذي عرفـه وقصر في طاعته ، ودائماً وأبداً هذه سنة ا في خلقه ، فتعالى ا عن هذا الحسـبان علـواً كبيراً .

شهادة العقل في الجزاء كشهادته بالوحدانية ، كيف أنك تؤمن أنه لا إلـه إلا ا ، يجـب أن تؤمن من أنه لابد من أن يحاسب العباد ، إذا كان لابد من المحاسبة من هو العاقل ؟ المستقيم ، إذا كان لا بد من أن تحاسب ، من هو الفالح ؟ المنضبط ، شهادة العقل بـالجزاء كشـهادته بالوحدانية ، لذلك المعاد معلوم بالعقل ، كيف هذا ؟ كلام دقيـق ، الإيمـان بـالآخرة إيمـان إخباري ، ا أخبرنا ، أن هناك آخرة وجنة ونار ، لكن بعض العلمـاء يقولـون : الإيمـان بالآخرة ممكن أن يكون إيماناً عقيماً ، هذه الفكرة دقيقة ، كيف ؟ هذا الكون فيه إعجاز ، فيـه كمال مطلق في الخلق ، فيه حكمة بالغة ، فيه علم عظيم ، فيه قدرة بالغة ، فيه لطف ، فيـه

جمال ، فيه رحمة ، معنى هذا الكلام أن خالق الكون رحيم جميل ، لطيف قوي ، غني ، هذه كلها صفات كمال ، هل يتناسب مع هذه الصفات أن يدع خلقه سدى ؟ دون محاسبة ؟ لا يتناسب معها .

هل يتناسب مع صفات الكمال أن لا يحاسب عباده ؟ أن يدعهم هملاً ؟ أن يدعهم يأكل قويهم ضعيفهم ؟

أنت أب عندك خمسة أولاد ، قام أحد أولادك وضرب أخاه ضرباً مبرحاً ، وأنت تنظر إليهم ؟ ولا تتكلم أي كلمة ؟ ولا تتدخل ؟ ولا تحاسب ؟ معنى هذا أنك لست بالأب ، فإذا فهم الإنسان أن الأمور تجري هكذا ، وأن القوي ينتصر ، إذاً تنازع البقاء ، نحن في مجتمع التجارة مجتمع الحيتان ، الحوت الأكبر يأكل الحوت الأصغر ، العالم كله هكذا ، شركات عالمية تتحد وتحتكر على حساب الشركات الضعيفة ، العالم يتحرك كأنه لا يوجد إله ، الأقوى يأكل الأضعف ، والأغنى يستغل الفقير .

شهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية ، لهذا المعاد معلوم بالعقل ، أما تفاصيله بالوحي ، أن هنالك جنة ونار ، والجنة فيها حور عين ، ويوجد جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأنهار من لبن الذي لم يتغير طعمه ، ويوجد أنهار من العسل المصفى ، ويوجد رضوان من ا ، ويوجد جهنم ، ويوجد زبانية جهنم ، ويوجد كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، هذه التفاصيل علمت بالوحي ، أما بالمنطق والعقل ، لا بد من يوم آخر ، تسوى فيه الحسابات ، أعجبني مرة من أحد الخطباء مثل أنا أرويه عنه ، أن أناساً دخلوا مسرحية ، في المسرح ، رفع الستار ، تحرك الأبطال ، أحد الأبطال قتل البطل ، ثم أسدل الستار ، لا أحد يقوم ! لقد أرخوا الستار ، ألم تنتهي المسرحية ؟ نريد أن نرى ماذا سيحدث مع هذا القاتل ، قد تكون المسرحية خمسة فصول ، أول فصل لم ينته بعاقبة مريحة ، متى تنتهي القصة ؟ تنتهي بنهاية مريحة للقارئ ، أن المعتدي قد نال جزاءه ، والمخلص نال جزاءه ، تنتهي القصة ، أما المعتدي فاز والمعتدى عليه خسر ، والقصة قد انتهت ! هذه ليست قصة ، لا تتناسب ، فالعقل يؤمن لا بد من يوم جزاء ، أما التفاصيل تأتي بالوحي ، لهذا يجعل ا سبحانه إنكار المعاد كفراً به سبحانه وتعالى ، إذا أنكرت يوم القيامة أنكرت عدالته ، إذا أنكرت يوم القيامة أنكرت أسماءه الحسنى ، لأنه إنكار لقدرته ولألوهيته ، وكلاهما مستلزم الكفر به ، قال تعالى :

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾

(سورة الرعد)

بمجرد أن تكفر بعدالة ا فهذا كفر با ، لأنك نسبت له الظلم وهو ليس كذلك

أيها الإخوة : للموضوع تتمة إن شاء ا في الدرس القادم ، لكن أجمل مـا فـي هذا الدرس أنه : إذا أنكرت عدالته فهذا كفر به ، وعدالته قائمة ، ولكن أسماءه الحسنى كلهـا محققة في الدنيا ، أما اسم العدل فمحقق في الآخرة

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾

(سورة الروم)

﴿وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾

(سورة الجاثية)

فلذلك

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾

(سورة آل عمران)

هنالك دفعات على الحساب في الدنيا ، للمحسن دفعات على الحساب ، وللمسـيء دفعات على الحساب ، والخير للأمام ، أما الرصيد يوم القيامة ، للمؤمن يوجد دفعـات علـى الحساب ، وللكافر يوجد ضربات على الحساب ، أما رصيد الدفعات والضربات فيوم القيامة ، وهذا هو الإيمان با عز وجل .

بسم ا الرحمن الرحيم ، الحمد رب العالمين ، والصلاة والسلام على سـيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارض عنا ، وصلى ا على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

والحمد   رب العالمين

****

بسم ا   الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام : مع الدرس الخمسين من دروس مدارج السالكين في منازل

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

والقرآن كله جمع في الفاتحة ، والفاتحة جمعت في

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

فالهدف هو العبادة ، والوسيلة هي الاستعانة ، ومن عبد ا   واستعان به فقد حقق المراد من خلقه ، والعباد كما تعلمون أصناف أربعة ، صـنف عبـدوا ا   واسـتعانوا بـه ، وهؤلاء هم الخيرة من خلقه ، وصنف ما عبدوا وما استعانوا ، وهؤلاء شرار الخلق ، وصنف عبدوه ولضعف توحيدهم ما رأوا أن يد ا   تعمل وحدها ، وأن الأمر كله بيد ا ، وأن الأقوياء عصي بيد ا ، فعبدوه وما استعانوا به ، فكل ما أصابهم من ضعف بسبب ضعف توحيدهم ، وبالتالي ضعف استعانتهم ، والصنف الرابع استعان به ولم يعبده ، وا   عز وجل يمد كلاً من هؤلاء وهؤلاء من عطائه ، وما كان عطاء ربك محظوراً عن أحد .

أيها الإخوة : بينت في درس سابق أن أخطر مرض يصيب الإنسان هو الغفلة عن ا ، الغفلة عن مصيره الأبدي ، الغفلة عن طاعته ، الغفلة عن معرفة أمره ونهيه ، الغفلة عن معرفة ما ينتظر الإنسان من عقاب أليم إلى أبد الآبدين ، إذا خرج عن منهج ا   عز وجل ، هذه الغفلـة علاجها اليقظة ، وقد أمضينا درساً في منزلة اليقظة ، فاليقظة دواء الغفلة ، وبعد اليقظة تبـدأ الفكرة ، والتفكر طريق إلى ا

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾

(سورة آل عمران)

وحينما تصح الفكرة ينتقل الإنسان بعدها إلى البصيرة ، أفكاره والحقـائق التـي اسـتقرت ، تتجمع في بصيرة ، في رؤية ، لذلك أهل الخبرة أهل بصيرة ، كأنهم يرون الحقائق .

أحد أصحاب رسول ا قال للنبي عليه الصلاة والسلام : كأنني أرى أهل النار يتصـايحون ، وأهل الجنة يتنعمون ،

أي أنك لو وجدت إنساناً ينغمس في المعاصي والآثام ، وفي أكل المال الحرام ، وفي المتـع المحرمة ، ويأخذ من المخدرات ويشرب ، ويرتكب الفواحش ، لرؤية تملكها تقول : هذا لـه مصير وخيم ، هذا سيدمر ، أنت لا تعلم الغيب ، ولكنك تـرى الأسـباب ، وتعلـم أن هـذه الأسباب تؤدي إلى نتائج .

فالبصيرة أيها الإخوة كما قلنا في درس سابق : بصيرة في أسماء ا الحسنى ، وفي الوعـد والوعيد ، وفي الجنة والنار .

اليوم المقام الذي يلي البصيرة ، اليقظة فالفكرة ، فالبصيرة ، اليوم العزيمة ، كل شيء أصبح واضحاً ، كل شيء أصبح جلياً ، الأمور واضحة جداً ما بقي إلا أن تتحرك ! أن تقوم ! أن تشمر! ففروا إلى ا .

إني ذاهب إلى ربي ، شمروا فإن الأمر جد ، وتأهبوا فإن السفر قريب ، وتزودوا فإن السـفر بعيد، وخففوا أثقالكم فإن في الطريق عقبة كؤود ، يا أبا ذر جدد السفينة فإن البحر عميـق ، وأخلص النية فإن الناقد بصير ، وأكثر الزاد فإن السفر طويل .

أيها الإخوة : ما من إنسان يدرك أن بيته يحترق ويبقى جالساً ، ينتفض من فراشـه ليطفـئ الحريق، أرأيت إلى هذه الحركة ؟ ينتفض من فراشه ليطفئ الحريق ، ما من إنسان يكتشـف أن ابنه مصاب بمرض يمكن شفاؤه ، ولكنه خطير ، إلا ويلغي كل مواعيده ، يلغي كل أعماله ، ويهب من رقدته ليعالج ابنه .

رأيت شيئاً في المطار تعلمت منه شيئاً آخر ، الطائرة بعد أن يتم ركابهـا وتغلـق أبوابهـا ، تتحرك ببطء ، ببطء شديد ، تسير وتقف ، تقف وتسير ، إلى أن تقف على أول المدرج ، فإذا أخذت الإذن بالطيران اندفعت بسرعة عجيبة ، تزيد عن ثلاثمائة كيلو متر في الساعة ، هـذا الإقلاع ، المؤمن يشبه الطائرة ، يسمع ، يناقش ، يعترض ، يقنع أو لا يقنع ، يغير المسجد ، يقرأ كتاباً ، إلى أن تستقر عنده الحقائق ، إلى أن تتضح عنده الأمور ، إلى أن يرى الطريـق واضحاً ، إلى أن يرى أن المغنم كبيراً ، إلى أن يرى أن الخطر جاثماً ، لـذلك يقلـع ، هـذا الإقلاع ، فإذا أقلع وحلق في الجو حقق الهدف الأكبر ، إلى متى ؟

﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ

(سورة الحديد)

إلى متى أنت باللذات مشغول   وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

متى الإقلاع ؟ متى تترجم القناعات إلى سلوك ؟ متى تترجم القناعات إلى حركة ؟ إلى عطاء ؟ قال بعضهم : ما إن يستقر الإيمان في قلب الإنسان حتى يعبر عن ذاته بذاته بحركة نحـو الخلق ، أي لا يوجد مؤمن سكوني ، المؤمن حركي ، المؤمن فاعل ، حالة الانفعال الدائمة لا تليق بالمؤمن ، هو يغير يبدل ، يتدخل ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، يقنع أهله ، يقنع أولاده ، يقنع زملاءه ، يقنع جيرانه ، هذا حال المؤمن ، حالة حركة

فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ

(سورة الذاريات)

إني ذاهب إلى ربي ، هل قالها أحدنا ؟

فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾

(سورة التكوير)

هذا يذهب ليحقق مكسباً دنيوياً ، وهذا يذهب ليسهر سهرة لا ترضي ا ، وهذا يذهب ليقيم دعوة على فلان ، وهذا يذهب ليبحث عن رزق ، أما هل رأيت إنساناً يذهب إلى ا ؟ يرتاد بيوت ا ؟ يقرأ القرآن ؟ يتفهم كلام ا ؟ يبحث عن سنة رسول ا ؟ الحركة الجادة ، اليقظة ، الفكرة ، البصيرة ، العزيمة ، هؤلاء الذين يتسابقون ، حينما يصلون إلى المنطلق كيف ينطلقون ؟ بسرعة مذهلة ، فنحن في سباق أيها الإخوة ، قال تعالى :

فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ

(سورة البقرة)

قال تعالى :

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمۡ

(سورة آل عمران)

أخ قال لي : أمضيت جل عمري شارداً عن ا ، ولقد ارتكبت معاصي كبيرة ، فجأة أصـبت بمرض ، والمرض مميت ، وأنا في غرفة العمليات قلت له : يا رب ، أتريد أن ألقاك عارياً ، أتسمح لي أن أبقى أياماً معدودات ألقاك بقميص ؟ أي بعمل صالح أستر به عـورتي ، ناجـاه وبكى، ا عز وجل أعطاه فرصة ، وخرج من المستشفى ، وا أصبح يحضر درس الفجر ، والظهر ، والمساء ، والجمعة ، والسبت ، والأحد ، و الاثنين ، قال لي : يوجد ثلاثة أيـام لا أحتمل من دون دروس ! قال لي : في مرة وأنا أناجي ربي ، قال : ناجاه فقال له : يا رب ، كل هذه السعادة بالقرب منك ، لِم لم ترسل لي هذا المرض قبل عشر سنوات ؟ هذا المـرض هو السبب .

الآن الحديث عن الحج ، الحاج يقول : لبيك اللهم لبيك ، ما معنى لبيك ؟ لبيك تعني أنـه قـد سبقها نداء أن تعال ! تعال إلى بيتي الحرام ، تعال إلى بيتي الحرام لتـذوق طعـم القـرب ، لتزيح عن كاهلك هموماً كالجبال ، واخرج من حياتك الرتيبة المملة ، تعال إلى بيتي الحـرام لترى عظيم إكرامي إليك ، الجواب : لبيك اللهم لبيك .

لبيك جواب تعال إلي ، تعال إلي حتى أكرمك ، هذا الجوهر في الدين ، جوهر القرب من ا ضعيف ، فيه مظاهر صارخة ، جامع رائع جداً ، فيه زخرفة رائعة جداً ، لكن نحـن نريـد زخرفة القلوب من الداخل ، نريد قلباً مستنيراً ، نريد قلباً موصولاً با عز وجل ، قلباً منيباً ، قلباً سليماً، نريد حباً ، نريد وداً مع ا ، نريد اتصالاً ، نريد أن نفتح خطاً سـاخناً مـع ا ، نرفع السماعة **إن** لم يكن الخط موصولاً مهما ضغطت الزر فهذا غير مفيد ، كتلة لا معنـى لها ، الهاتف دون خط حارٍ مهما كان أنيقاً يصبح كتلة من البلاستيك لا معنى لها إطلاقاً ، لكن قيمة هذا الجهاز هي أنك لو رفعت السماعة وسمعت الرنة ، فالخط حارٍ ، يوجد خط ساخن ، قال لي رجل : بقي لي خمس وثلاثون عاماً ولم أسجد ، ولم أصم يوماً ، ولم أؤدي طاعة ! قال لي دعتني أختي إلى زيارة كندا حيث هي ، دعتني عشر سنوات متتالية فلبيتها في السـنة العاشرة ، وأنا في طريقي إلى نياغارا شلالات جميلة جداً ، أسمعتني شـريط المهـيمن مـن أسماء ا الحسنى ، قال لي : وا سمعته مرات عديدة ، وأخذت كل ما عند أختي من أشرطة ، عن أسماء ا الحسنى ، وعرفت أن الدين شيء عظيم .

وصار يجمع هذه الأشرطة حتى بلغت ألف شريط ، وقد سمعها كلها ، ثم قال لي : فتحت مع ا خطاً ساخناً ، وقال لي : أسعد لحظات حياتي حينما آتي إلى البيت لأصلي ، لأصلي قيـام الليل ، قال لي : انقلبت حياتي من الجحيم إلى النعيم ، من الشقاء إلى السعادة ، من الضـياع إلى الوجدان، بعد أن اتصل با عز وجل ، هذا هو الدين ، الدين أن تعرف ا ، الـدين أن تحبه ، الدين أن تتصل به ، أن يستنير قلبك بنوره .

فالذي يعنينا الآن هذه العزيمة ، الحركة ، ماذا فعلت من أجلي ؟ قناعات ممتازة عاطفة إسلامية، خلفية إسلامية ، أرضية إسلامية ، اتجاه إسلامي ، شعور إسلامي ، اهتمامات إسلامية ، مكتبة إسلامية ، حتى متى إذاً ؟ متى سيكون هناك حركة إسلامية ؟ متى تستطيع أن تقول :

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾

(سورة الذاريات)

متى تقلع هذه الطائرة ؟ حركة بطيئة ، نتقدم ونتأخر ، وننتقد ، متى تقلع هذه الطائرة ؟ هـذا درس اليوم العزيمة .

قال : فإذا انتبه وأبصر أخذ في القصد وصدق الإرادة ، وأجمع القصد والنية على سفر إلى ا ، وتيقن أنه لابد له منه ، فأخذ في أهبة السفر ، وتعبئة الزاد ليوم المعاد ، والتجرد عن عوائق السفر ، وقطع العلائق التي تمنعه من الخروج ، الإنسان حينما يشتد عزمه كل عقبـة تحـول بينه وبين ا يركلها بقدمه ، وكل صارف يصرفه عن ا يسده بقدمه ، وكل قضية يمكن أن تبعده عن ا يلغيها من حياته ، وكل صديق لا يذكره با يقطعه ، وكل دخل ليس فيه راحـة للنفس يستغني عنه ، لأن ا مطلبه وقصده في الحياة كلها ، فهذا الذي ملك العزم ينبعث إلى السلوك ، يتحرك ، بلا توقف ولا تردد ، ولا علة ولا رغبة في رياء ولا سمعة ، ولا طلـب محمدة ، ولا طلب جاه ومنزلة عند الخلق ، يستوي عنده المادحون والذامون ، يستوي عنـده الثناء والتأنيب

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب
وليت شرابي من ودادك سائغ وشربي من ماء الفرات سراب

هكذا حال المؤمن ،

إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولك العتبى حتى ترضى

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فالذي ملك العزيمة طبعاً بعد اليقظة والتفكر ، بعد البصيرة ، ما بقي له إلا العزيمـة ، مثـل اقبلوه مني ولكنه مضحك ، في أيام الشدة التموينية لا يوجد مواد أوليـة ، ولا يوجـد مـواد

غذائية ، فأنت موظف ، داومت ثماني ساعات بعمل شاق ، ودخلت إلى البيت وأنـت منهـك القوى ، خلعت ثيابك وارتديت ثياب البيت واضطجعت على السرير ، جاء ابنك قـال لـك : يوجد في المؤسسة الاستهلاكية زيت ، ولا يوجد ازدحام ، والسعر رخيص جداً ، والنوعيـة جيدة ، ونحن لا يوجد عندنا زيت ، وأنت قد قبضت راتبك اليوم ، الصفيحة فـي المؤسسـة ثمنها ثمانمائة ليرة ، وخارجها ثمنها ألف ومائتين ، راتبك محدود ، رغم أنك خلعت ثيابـك ، وارتديت ثياب البيت ، وأنت متعب ومنهك ، تجد نفسك قفزت من الفراش وارتـديت الثيـاب ثانية ، وذهبت إلى المؤسسة ، لتشتري هذه الصفيحة ، لأنك ستوفر ستمائة ليرة ، وأنت بأمس الحاجة إلى هذا المبلغ ، ولا يوجد ازدحام، ولا يوجد في البيت زيت وأنت بحاجة إلى الزيت ، وقد قبضت راتبك حديثاً ، والسعر فيه فرق كبير جداً ، أنظر خمس كلمات من ابنـه جعلتـه يتحرك ، هل تستطيع أنت أن تقول لنفسك خمس كلمات لتتحرك ؟ لتقوم وتمشي وتخرج مـن البيت إلى الجامع ؟ أو تعين إنساناً ؟ أو أن تقرأ القرآن ؟ هل عندك هذه الحركية ؟ إن لم يكن هناك حركة فمكانك تحمدي أو تستريحي .

مرة في الحج ، وقد وضعت سلالم للطابق الثاني في الكعبة المشرفة ، وللطابق الثالث السطح ، ففي منظر للحجاج يثير انطباعاً معيناً ، كل شيء واقف والسلم يسير ، متحـرك ، مرتـاح والدرج متحرك ، هكذا وضع المسلمين اليوم ، يريد من يحركه ، يريد من ينهضه ، يريد من يعطيه ، محمول ، أما الصحابة فقد حملوا ، مسلمو اليوم يحبون أن يحملـوا ، أو يحبـون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فرق كبير بين أن تَحمل ، وبين أن تُحمل ، تريد أن تزوجه وأن تؤمن له البيت ، وعمل، وتحل له مشكلته مع زوجته ، ومشكلته مع شركائه ، وكل يوم سؤال ،توفي من الأسرة أحدهم ، يقول : ألا تريدون أن تذهبوا للعزاء ؟ وعلى هذه الحال عندي كل أسبوع خمسين تعزية ، أقول : ولكني لا أعرفه ولا يعرفني ، يقول لك : سيستفيدون من كلمة منكم يا سيدي ، يريد أن يأخذ كل شيء ، ولا يعطي شيئاً يريد من يحمله ولا يحمل أحداً ، نحن نريد من يحمل ، نريد من يساهم ، يقدم للمسلمين شيئاً ، يقدم بين يدي ا عز وجل شيئاً ، يا بشر لا جهاد ولا صدقة فبم تلقى ا إذاً؟

سؤال محرج ! اسأل نفسك إذا وقفت بين يدي ا يوم القيامة ، قال لك : يا عبدي ماذا فعلـت من أجلي ؟ يا رب آمنت بك ، حسناً ماذا فعلت ؟ رجل مريض بمرض جلدي وعلاجه الشمس ، هذا الإنسان المريض آمن أن الشمس ساطعة ، حسناً وماذا لو آمن بهذا ؟ إن قلت ساطعة ما فعلت شيئاً ، وما قدمت شيئاً ، إن قلت ليست ساطعة تتهم بعقلك ، حتى لو آمنت ماذا فعلت ؟ لم تفعل شيئاً ، ماذا قدمت ؟

فَمَن كَانَ

يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلًا صَٰلِحًا

(سورة الكهف)

ماذا قدمت ؟ الصحابة الكرام فتحوا البلاد ، النبي عليه الصلاة والسلام قال

عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ ، أن رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم قَالَ : لَقَدْ أُخِفْتُ في الله عز وجل وما يخَافُ أَحد ، ولقَدْ أُوذِيتُ في الله وما يؤْذَى أَحد ، ولقَدْ أَتَتْ علي ثَلاثُون من بين يـوم وليلة، وما لِي ولا لِبِلالٍ طعام يأْكُلُه ذُو كَبِد ، إِلا شَيء يواريه إِبِطُ بِلالٍ *

(مسند الإمام أحمد)

با عليكم ، هل من أحد منكم دخل بيته مرة ، وسأل أهله : هل عندكم طعام ؟ قالوا : لا ، ولا كسرة خبز ولا كأساً من الشاي ، ولا قطعة جبن أبداً ؟ النبي دخل إلى بيته ذات مرة فقال :

عن عائِشَةَ أُم الْمؤْمنين قَالتْ : دخَلَ علي رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم يوما فقَالَ : هلْ عنْدكُم شَيء ؟ قَالتْ : قُلْتُ : لا قَالَ : فَإِني صائِم *

(سنن النسائي)

وصار المال بين يديه ، قال له أحدهم : لمن هذا المال ؟ قال : هو لك ، لمن هذا الوادي ؟ قال : هو لك ، قال : أتهزأ بي ؟ قال : لا وا هو لك ، قال : أشهد أنـك لرسـول ا ، تعطـي عطاء من لا يخشى الفقر .

ا امتحنه بالفقر فصبر ، وامتحنه بالغنى فشكر ، وامتحنه بالضعف فكُذب ، وعوقب ، وسخر منه .

قال : لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين ، قال : لا يا أخي

قَالَ عبد الله : كَأَني أَنْظُر إِلى النبِي صلى اللهم عليه وسلم يحكي نَبِيا من الأَنْبِياء ، ضربه قَومـُه فَأَدموه ، وهو يمسح الدم عن وجهه ، ويقُولُ : اللهم اغْفر لِقَومي فَإِنهم لا يعلَمون * (صحيح البخاري)

إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي،...، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك

(مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني)

انظر امتحنه بالفقر فصبر ، امتحنه بالغنى فشكر ، امتحنه بالضعف والفقر فصـبر ، امتحنـه بالقوة ففتح مكة ، عشرة آلاف سيف متوهجة ، تنتظر الأمر من شفتيه ، أنقضي عليهم ؟ قال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء

ما تظنون أني فاعلٌ بكم ؟ قالوا : أخٌ كريم وابن أخٍ كريم ، قال : اذهبوا ، فأنتم الطلقاء .
الأمر الذي جعل أبو سفيان يقول : يا ابن أخي ما أحكمك ، وما أرحمك ، وما أعقلك ، ومـا أوصلك .
سؤال محرج : ماذا قدمت ؟ هل تركت علماً ؟ هل تركت عملاً خيراً ؟ هل ربيت إنساناً ؟ هل دعوت إلى ا ؟ هل خدمت أهل الحق ؟ هل بذلت من وقتك لتعليم الآخرين ؟ اسأل نفسك هذا السؤال المحرج ، ماذا فعلت بين يدي ا عز وجل ؟

يا عبدي ماذا فعلت من أجلي ؟ قال : يا ربي زهدت في الدنيا من أجلك ، قال : أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت فيه الراحة لقلبك ، ولكن ماذا فعلت من أجلي ؟ قال : يا رب وماذا أفعل من أجلك ؟ قال : هل واليت في ولياً ؟ هل عاديت في عدواً ؟

أي لو رأيت إنساناً متفلتاً يتهجم على الدين ، ألم تحاول أن تقنعه بالدين ؟ أو تقف موقفاً حازماً يرضي ا ؟ لا يستطيع ، لا خير فيه ، ولا رغبة في إعانة إنسان على الحق ، تـأتي ابنـة أخيك إلى المنزل تلبس الثياب الفاضحة ، أهلاً بابنة أخي ، كيف حالك ؟ لقد اشتقنا لك ، لـم نعد نراك ، ألم يخطر في بالك أن تنبهها إلى هذا اللباس الفاضح ؟ يقـول لـك : دع النـاس وشأنهم ، هذا هو حال المسلمين اليوم .
حال المسلمين اليوم : حي فيه بيت قد احترق ، كل واحد منهم قال : لا دخـل لـي ، إن لـم ينهض كل سكان الحي في إطفاء الحريق ، سوف يصل إليهم جميعاً بيتاً بيتاً

وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً

(سورة الأنفال)

علامة العزيمة الحركة بلا توقف ولا تردد ، قال لهم : أول قائد سيدنا أسامة بـن زيـد بـن حارثة ، ثاني قائد سيدنا جعفر ، الثالث سيدنا عبد ا بن رواحة ، أول قائد أخذ الراية وقاتـل حتى قتل ، أخذها سيدنا جعفر فقاتل حتى قتل سريعاً ، جاء دور سيدنا ابن رواحـة ، فأخـذ الراية وتردد ثلاثين ثانية قال:

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
إن تفعلي فعلهما رضيت وإن تولـيت فقد شقيـت

وأخذ الراية وقاتل بها حتى قتل ، النبي عليه الصلاة والسلام قال : أخذ الراية أخـوكم زيـد فقاتل بها حتى قتل ، وإني أرى مقامه في الجنة ، ثم أخذ الراية أخوكم جعفر فقاتل بها حتـى قتل ، وإني أرى له جناحين يطير بهما في الجنة ، ثم سكت ، فقلق أصحاب النبي على أخيهم

عبد ا قالوا : ما فعل عبد ا ؟ قال : ثم أخذ الراية أخوكم عبد ا ، فقاتل بها حتى قتـل ، وإني لأرى في مقامه إزوراراً عن صاحبيه .

هبط مقامه لأنه تردد ، يجب أن لا يكون هناك تردد ، ولا توقف ، ولا رياء ولا سمعة ، ولا طلب محمدة ، ولا جاه ، ولا منزلة ، بل على العكس أي عائق يزيله ، وأي صارف يغلقـه ، وأي موضوع جانبي ينصرف عنه ، فهو ينقاد إلى العلم ليتهذب به ، ويصلح شأنه ، ويقصـد إجابة داعي العلم كلما دعاه ، يسأل ما الحكم الشرعي في هذا ، إن كان حراماً تركه فوراً بلا تردد ، لا يعلق تطبيق الأمر على معرفة حكمته ، لأنه يعتقد أن علة كل أمرٍ أنه أمـر ، هـو يقبل على تنفيذ الأمر إقبال العابد ، فإذا أقبل على هذا التنفيذ كشف ا له حكمته ، فجمع بـين العلم والعبادة ، هذا لما يتحرك وينهض من فراشه ، ويتوجه إلى بيت ا ، ينهض من فراش وثير ليصلي الفجر في جماعة ، يغلق محله ليحضر درس علم ، يتعلم بـه ، يـذهب لعيـادة مريض ، حينما يتحرك هذه الحركة ، صار قصده عزماً جازماً ، قال تعالى :

فَإِذَا عَزَمْتَ

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

(سورة آل عمران)

باللغة الدارجة قوموا يا شباب ، هيا لا يوجد وقت ، هذا النهوض ، هو الدرس اليوم ، طبعـاً تنطلق إلى البيت إلى المسجد إلى عملك ، إلى جامعتك ، إلى دكانك ، من أجل أن تكسب عملاً صالحاً ترضي ا به .

تعريف العزم : هو القصد الجازم المتصل بالفعل ، ولهذا قيل إنه أول الشروع بالحركة لطلب المقصود .

مثلاً رجل أراد أن يحج ، ينهض الساعة الثامنة ، يذهب إلى مديرية الحج ، مطلـوب ، قيـد نفوس، لا حكم عليه ، موافقة الجندية ، دفع مبلغ ، ذهب الساعة الثامنة إلـى التجنيـد وأخـذ موافقة ، هذا الذي ينوي الحج .

إنسان أخذ شهادة ثانوية ، ويرغب في الجامعة ، يتتبع الصحف ، علامات القبول ، يشـتري إضبارة ، يقدم الوثائق ، يحضر المصدقة ويصدقها ، حركة ، اليوم درسنا حركة إذا لم توجد الحركة لا يوجد شيء ، في الحركة بركة ، تدعو الرجل فيقول لك : إني مشغول ، لا يوجـد رغبة، لا تحرجني ، أميل إلى الاسترخاء والنوم ، و الاعتذار ، أما بموضوع دنيوي للسـاعة الواحدة يسهر ، موضوع متعلق بالدنيا يسهر إلى الساعة الثانية صباحاً ، استوقف أحد ما فـي الطريق قل له : مشروع . تجده يقف نسي نفسه واقفاً ، مضت ساعة ونصف وهو واقف ، إذا

موضوع مشروع ، تكلمه عن ا   تراه يتثاءب ، يقول لك : لا تؤاخذني ، إنـي قـد سـهرت البارحة حتى الساعة الثانية ، وعندي موعد . وعندما تكلمه عن ا   تجـده يريـد أن يغيـر الحديث .

فالعزم هو القصد الجازم المتصل بالفعل ، لذلك قالوا : هو أول الشروع في الحركـة لطلـب المقصود ، والشروع في الحركة ناشئ عن العزم ، أكثرنا دخل الجامعة ، حسناً كيف درست ؟ حتى الساعة الثانية عشرة أو الواحدة ، أنا أذكر عندما دخلت كلية الآداب ، وطنـت نفسـي لأعرب كل يوم صفحة بكاملها ، صفحة كان علي أن أعرف كل كلماتها ، صـرفاً ونحـواً ، وبلاغة ، وعروضاً ، ومعنى ، وتقطيعاً ، أحياناً كانت تأخذ الصفحة من وقتي عشر ساعات ، كل الكتب أمامي ، وكل المراجع ، ما من إنسان يصل لشيء بلا ثمن ، تجد الطبيب قد درس ثلاث وثلاثين سنة ، ما من إنسان وصل إلى شيء دون جهد بالغ ، هذه الدنيا تجد الإعداد لها أربعين سنة والاستمتاع عشر سنوات ، كثير من الناس يموتون في الخمسين ، حتـى اسـتقر أربعين عاماً ، حتى اشترى بيتاً وركب مركبة صغيرة ، معترك المنايا بين الستين والسبعين ، تجده في الثماني والأربعين ، والسبع والأربعين ، في الاثنين والخمسين تجده انتهى ، انتهـت الحياة ، معقول أن تعد أربعين سنة لِعشر سنوات ؟ وا   هذه خسارة كبيرة ، أما أن تعد للأبد فهذه سهلة جداً ، شيء منطقي أن تعيش خمسين سنة تعد فيها لحياة أبدية تمام ، أمـا لعشـر سنوات فهذه مغامرة كبيرة .

العزم نوعان : عزم على الدخول في طريق الإيمان ، وعزم على متابعة السير فـي طريـق الإيمان ، كل شيء أوله له بريق ، أول شهر وحتى أول شهرين من الدخول إلـى المسـجد ، حينما يلتقي بأهل الحق يقول لك المرء : أنا أعيش في جنة ، لأنه منقول نقلة مفاجئة ، من جو بارد ، من صقيع إلى جو دافئ ، أو بالعكس ، من جو حار لا يحتمل إلى جو مكيـف ، نقلـة مفاجئة ، هذا الإنسان كان في مكان حرارته ٥٦° ودخل إلى غرفة مكيفة ، يقول لك : ما شاء ا   ، التكييف نعيم. لكن بعد ساعة لم يعد يشعر بالتكييف ، لأنه استمر ، وإذا دخل أحدهم من صقيع إلى غرفة دافئة ، أول الدخول رائع ، لكن بعد فترة ألفه ، فبالإيمان يوجد في البـدايات مرغبات ، لكن بعد فترة يألف الحق ، يألف المنطق الإسلامي ، يألف الاسـتقامة ، فتضـعف همته ، الآن أنت تريد عزيمة من نوع ثانٍ للمتابعة ، تريد عزيمة دخول ، وعزيمة متابعـة ، العزم نوعان عزم في البدايات ، وعزم في المتابعة ، يوجد نقطة مهمة جداً ، أن مقامات الدين ليست كمقامات الطريق ، كرجل سافر إلى حلب ، انتقل من دمشق إلى القطيفة ، ثم غادرهـا إلى حمص ، ثم غادرها إلى حماه ، ثم غادرها إلى المعرة ، ثم غادرها إلى حلب ، أول منزلة ترافقك دائماً ، تضاف لها الثانية ، تضاف لها الثالثة ، تضاف لها الرابعـة ، منـازل ثابتـة

تتنامى لا تنقطع ، هذا حال أهل الجنة ، بدأ باليقظة فاليقظة مستمرة معه ، انتقل إلى البصيرة فالبصيرة مستمرة ، انتقل إلى العزم فالعزم مستمر ، ا عز وجل قال :

وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ
ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ
بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

(سورة التوبة)

التوبة مستمرة ، واليقظة مستمرة ، والبصيرة مستمرة ، والفكرة مستمرة ، النبي عليه الصلاة والسلام

عن عائِشَةَ رضـي اللهم عنْها قالتْ : ما صلى النبِي صلى اللهم عليه وسلم صلاةً بعد أَن نَزلَتْ عليه "إِذَا جاء نَصر الله والْفَتْح "إِلا يقُولُ فيها : سبحانَك ربنَا وبِحمدك اللهم اغْفر لِي *

(صحيح البخاري)

أليس فيها

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾

(سورة النصر)

الصبر من مقامات العزم ، الإنسان لعمل دنيوي يصبر ، يقول لك : عملـي شـاق ، أحيانـاً الإنسان يضطر أن يصـب سقفاً في أيام الصقيع ، يخرج من بيته الساعة السادسة ، ويقف في الهواء يتحمل الرياح الباردة ، من أجل أجرة مفترضة ، فالإنسان يصبر أحياناً على عمل شاق من أجل الدنيا ، فكيف إذا صبر من أجل ا ؟ فالصبر من لوازم العزيمة .

إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ
ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾

(سورة الأحزاب)

أيها الإخوة : محور هذا الدرس الأمور واضحة ليس إلا ا ، لا إله إلا ا ، وأنت مخلوق للجنة، والجنة تحتاج إلى عمل

ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ

بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾

(سورة النحل)

وكل معصية لها عقاب ، وكل حسنة لها ثواب ، ومستحيل أن تعصيه وتربح ، ومستحيل أن تطيعه وتخسر ، ومستحيل أن تطيعه وتذل ، ومستحيل أن تعصيه وتعز ، هو ا وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وكلنا إلى الموت ، سائرون ، كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل البقيع يقول : أنتم السابقون ونحن اللاحقون .

وكل إنسان كذلك الأمر ، أمير البحرين قابل وزير الدفاع الأمريكي ، وبعد دقائق مات ، الأمير يموت الملك يموت ، الغني يموت ، الفقير يموت ، القوي يموت ، والضعيف يموت ، الذكي يموت ، والغبي يموت ، الصحيح يموت ، والمريض يموت ، الشاب يموت والكبير في السن يموت ، وكل مخلوق يموت ، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت ، لو يعرف الإنسان دقائق جسمه، الموت أقرب إليه من شرك نعليه ، يقول لك : سكتة ومات ، ما هذا القلب ، فيه كهرباء ونبض ، إذا جاءت خارجة انقباض واحدة أطول مما ينبغي يتوقف القلب ، كان شخصاً صار خبراً ، ما الإنسان ؟ كل حياتك و فاعليتك ، ونشاطك ، ومكانتك ، وهيمنتك ، وشخصيتك ، وأموالك كلها المنقولة وغير المنقولة ، وأسرتك وبيتك ومكتبك وسيارتك ، و كل مكانتك ، مربوطة بواحد ميلي وربع هو الشريان التاجي ، مربوطة بنمو الخلايا ، مربوطة بسيولة الدم ، إذا الدم جمد جلطة ، وإذا الخلايا تفلتت سرطان ، وإذا الشريان ضاق يقول : لك خناق صدري ، وكل واحد منا تحت هذا الخطر ، تحت رحمة ا ، ما من أحد يعرف متى ، شخص بأعلى درجة من النشاط فجأة فقد حركته وكلامه ، صار طريح الفراش ، كان له محل تجاري ، له حركة ، ولكنها انتهت ! صار عبئاً ، هكذا الدنيا ، لذلك الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما ، اعمل عملاً صالحاً ثم متى يأتي أجل ا أهلاً وسهلاً

وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

(سورة آل عمران)

وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾

(سورة الزخرف)

قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾

(سورة يس)

والحمد رب العالمين .

بسم ا الرحمن الرحيم ، الحمد رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينـا ، أرضـنا وارض عنا ، وصلى اللهم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

والحمد رب العالمين

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام : مع الدرس الواحد والخمسين من دروس مدارج السالكين في منازل :

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

(سورة الفاتحة)

أيها الأخوة : منزلة جديدة ، ولعلها من أدق المنازل ، وتحتاج إلى دقة انتباه وإعمـال فكر، هذه المنزلة منزلة شهود الأسماء والصفات .

أن ترى حقيقة أسماء ا الحسنى ، هذه منزلة عالية جداً ، هذه منزلـة متعلقـة بأصـل الإيمان ، لأن أصل الدين معرفة ا عز وجل ، وحينما تصح معرفة ا عز وجل يصح كـل شيء ، تخلص له توحده ، توحد وجهتك إليه ، توحد النية ، توحد الهدف ، توحد الوسيلة .

قال بعض العلماء : هذه المنزلة من أجل المشاهد ومن أعظمها ! وهي أعلى منزلة مما قبلها ومما بعدها ، أن تشهد حقيقة الأسماء الحسنى وحقيقة الصفات الفضلى ، أن تكون علـى علم با ، أن تتعرف إليه ، وفرق كبير بين أن تعرف أمره ، ونهيه ، وبين أن تعرف خلقه ، وبين أن تعرف ذاته ، أن تعرف أمره ونهيه ، وأن تعرف خلقه ، هذا شيء يكون بالمدارسة ، وأي إنسان بإمكانه أن يحصل هذا العلم ، لأن هذا العلم يحتاج إلى ذكاء ، وإلى كتاب ، وإلـى مدرس بارع ، يحتاج إلى مذاكرة وإلى إعادة ، هذا اسمه مدارسة .

فمعرفة خلقه ودقائق خلقه ، ومعرفة أمره ودقائق أمره ، هذا علـم مدارسـة ، لكـن أن تعرف ذاته هذا علم مكاشفة ، المدارسة تتأتّى بكل إنسان ، لكن المكاشفة لا تتـأتّى إلا لمـن جاهد في سبيل ا ، لهذا قال بعضهم : جاهد تشاهد .

معرفة أسماء ا الحسنى وصفاته الفضلى ثمنها باهظ ، ثمنها المجاهدة ، نتائجها باهرة ، وكل شيء ثمنه باهظ نتائجه باهرة ، قاعدة ، هذه قاعدة بالحياة ، مـن أجـل أن تسـتمتع بالرخام الصقيل الذي لا يتبدل لونه ولا يتغير له ثمن غالٍ ، من أجل أن ترتـاح بمركبـة لا تقطعك هذه ثمنها غالٍ جداً ، فكل نتيجة باهرة لها ثمن باهظ ، وكل ثمن باهظ له نتيجة باهرة ، قبل أن نمضي في الحديث عن هذا الموضوع ، ا عز وجل يقول :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ

(سورة التوبة)

إنسان منعم كثير المال بإمكانه أن يوافق على إنشاء مسجد فله الأجر وعظيم الأجـر إن شاء ا ، ولكن هذا ما كلفه إلا أن يوافق ، أما حينما يجاهد نفسه وهواه ، وبالمناسـبة يقـع معظم الناس في خطأ لا أقول جسيم ، لكن في خطأ ، كلما سمعوا كلمة جهاد انصرف ذهـنهم إلى الجهاد القتالي ، مع أن كلمة جهاد تعني أشياء كثيرة ، من جملة ما تعنيه الجهاد القتالي ! لكن لها معان أخرى ، فالذي يجاهد نفسه وهواه هذا جهاد بل إن هذا هو الجهاد الأول ، بل إن هذا هو الجهاد الذي ليس قبله جهاد ، جهاد النفس والهوى ،لأن المنهزم أمام نفسه لا يمكن أن يفعل شيئاً ، لا يمكن أن يجاهد العدو ، لا يمكن أن ينشر الحق .

فكلمة الجهاد تعني جهاد النفس والهوى ، وكلمة الجهاد تعني الجهـاد الـدعوي ، قـال تعالى: وجاهدهم به جهاداً كبيراً ، وسمى هذا الجهاد جهاداً كبيراً ، وجهاد الـنفس والهـوى والجهاد الدعوي متاح لكل مسلم في أي مكان وفي أي زمان ، وحينما لا يتـاح لنـا الجهـاد القتالي نمارس الجهاد الدعوي ، وقد سماه ا جهاداً كبيـراً ، علـى كـل معرفـة الأسـماء والصفات بل شهود حقيقة الأسماء والصفات من أعلى منازل مدارج السالكين ، مـن أعلـى منازل :

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥

أن تشهد أسماء ا الحسنى ، من هنا كانت موضوعات أسماء ا الحسنى التـي تفضل ا بها علينا في هذا المسجد مائة موضوع مائة اسم ، ولكل اسم درس ، وقـد لاقـت قبولاً حسناً والحمد ، لأن الإنسان من خلال هذه الـدروس يتعـرف إلـى ا ، المعرفـة التفصيلية المعرفة اليومية المعرفة التي تعطيه دافعاً قوياً كي يتصل بهذا الإله العظيم .

بل إن معرفة أسماء ا الحسنى وصفاته الفضلى ، بل إن منزلة شهود الأسماء الحسنى والصفات الفضلى ، من أجل المنازل ومن أعظمها ، ومعرفة أسماء ا الحسنى مـن أجـل المعارف ومن أشرفها .

الآن كلام مكثّف جداً : تعلمنا في الجامعة أن هناك أسلوب في الكتابة مركـز جـداً لا يمكن أن يلخص ، لا تستطيع أن تحذف كلمة ولا حرف جر ، فمثل هذا الكلام يجب أن يقـرأ كلمة كلمة، كل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة ، فإن أسماءه أوصاف مدح وكمـال ،

اسمه العدل فهو عادل ، اسمه القدير فهو قادر ، اسمه العليم فهو عالم ، علام الغيوب ، كـل اسم يقتضي صفة ، طبعاً في عالم البشر لا ، اسمه كامل وهو ناقص !

فاسمه محسن وهو مسيء ، اسمه أنور وهو أظلم ، في عالم البشر قد يتناقض الاسم مع المسمى ، وقال بعضهم كلمة أعجبتني : التصوف كان مسمى بلا اسم في عهد النبي صلى ا عليه وسلم وأصحابه الكرام ، كان مسمى مضمون ، كان أصحاب النبي في أعلى درجة مـن الإخلاص وفي أعلى درجة من الحب والشوق ، وفي أعلى درجة من البذل والعطاء ، ثمـم ، كان التصوف مسمى بلا اسم ، فانتهى به الأمر إلى اسم بلا مسمى !

فكل اسم من أسماء ا الحسنى له صفة خاصة ، فإن أسماءه أوصاف مدح وكمـال ، وكل صفة لها مقتضى وفعل ، فا عز وجل عدل اسمه العدل ، صفته عادل ، العادل سـوف يبطش بالظالم ، الصفة لها مقتضى ، الاسم له صفة ، والصفة لها مقتضى من فعـل لا زم أو متعد ، لذلك الفعل تعلق بمفعول وهو من لوازمه ، له الخلق وله الأمر ، هناك الثواب وهناك العقاب ، كل هذا من آثار أسماء ا الحسنى ، ا له اسم والاسم له صـفة ، والصـفة لهـا مقتضى ، عدل عادل ينصف المظلوم ويبطش بالظالم ، حتى معنى كلمة منتقم من معانيها أنه يوقف المنحرف عند حده، ينتقم منه أن يقمعه ويكف شره عن الناس ، والمنتقم هو الذي يحق الحق .

الآن يوجد حقيقة : من عادتي في بعض الدروس أن أضع بين أيدي الأخـوة الكـرام حقيقة مركزة جداً ، والحقيقة فهمها سهل ، لكن أن تعيشها هذا يحتاج إلى جهد كبيـر ، قلـت مرة كل شيء وقع أراده ا ، وكل شيء أراده ا وقع ، وإرادة ا متعلقة بالحكمة المطلقة ، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق .

وا أيها الأخوة : لو عقلنا هذه الجملة وهي من العقيدة الصحيحة ، وا الذي لا إلـه إلا هو لا يمكن أن يدخل حزن على قلب إنسان ! كل شيء وقع أراده ا ، الذي وقـع اراده ا ، والذي لم يقع ما أراده ا ، والذي اراده ا وقع ، وا عز وجل حكيم رحيم لطيف قدير غني عدل ، فكل أسمائه داخلة في أفعاله ، وهذا تفسير بعض العلماء حينما يقول ا عز وجل : إنّا تدل على الجمع :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الإنسان)

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ ﴾

(سورة يس)

قال : إذا جاء الحديث عن ا عز وجل بصيغة الجمع فمعنى ذلك أن افعاله كلها داخلـة فيها أسماؤه الحسنى .

الآن من المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها ، مستحيل وألف مستحيل أن تعطل أسماء ا عن صفاتها ، وأن تعطل الصفات عن مقتضياتها ، ا عز وجل عدل مسـتحيل ألا يكون في أفعاله عادلاً ، مستحيل وألف مستحيل أن تعطل أسماء ا عن أوصافها ومعانيهـا ، ومستحيل وألف مستحيل أن تعطل الأوصاف عن ما تقتضيه وتستدعيه من أفعال ، وتعطيـل الفعال عن المفعولات كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعالـه ، وأفعالـه عـن صـفاته ، وصفاته عن أسمائه ، وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته ، ا ذات كاملة ، هذه الذات الكاملة لها أسماء ، هذه الأسماء لها صفات ، هذه الصفات لها أفعال ، فمن عطل فعـل ا ، عطـل فعل ا عن صفاته ، وعطل صفات ا عن اسمائه ، وعطل أسماء ا عـن ذاتـه ، وهـذا مستحيل .

لذلك يمكن أن تستنبط حقائق وأنت مطمئن ، أضرب لكم مثلاً : يكون هناك إنسان داخـل في القضاء بدعوة عمرها عشر سنوات ، والأمر قضية بيت وثمنه ثلاثين مليـون ، وعليـه منازعة على ملكيته بين الورثة ، ويوجد وثيقة من الأب ادعى الخصم أنها مزورة ، وجـيء بخبراء للخط، وقضية وغم وهم عند الأطراف جميعاً ، قد يتصل بك المحامي ويقـول لـك : الدعوة ربحت يقول له : هل صدر القرار ؟ يقول له : لا ولكن وجدت اجتهاداً فـي محكمـة النقض لصالحك ، إذا قرأ كلمتين بمجلة تصدرها وزراة العدل ، وهـاتين الكلمتـين اجتهـاد لمحكمة النقض ، وهي اعلى محكمة لصالح هذا المدعي ، يقول لك المحامي : ربحنا الدعوة ، تفاؤلاً طبعاً ، وإذا كان هناك نص قرآني قال لك :

﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ ﴾

(سورة الأعراف)

وقال لك :

﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ ﴾

(سورة الذاريات)

وقال الله :

مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ

(سورة النحل)

ألا تصدق ؟ قال الله :

وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾

(سورة طه)

قال الله :

وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ

(سورة العنكبوت)

قال الله :

وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ

(سورة النساء)

قال الله :

يوجد ألف آية مطمئنة .

وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ

(سورة المائدة)

معنى ذلك أن الله لا يعذب أحبابه ، فأنت يمتلئ قلبك طمأنينة حينما تقرأ اجتهاداً لمحكمة النقض ، ولا يمتلئ قلبك أمناً وسلاماً حينما تقرأ آية يعد الله بها المؤمنين بالسلامة والنصر .

حينما قال الله عز وجل :

وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾

(سورة الصافات)

زوال الكون أهون على الله من أن تكون جندياً له ثم لا ينصرك ، قال :

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾

(سورة غافر)

قال لك :

﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

قال لك :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ ﴾

(سورة آل عمران)

انظر للكفار كم هم متغضرسون ، جبابرة بطاشون يتحدون الشعوب كلها ، قال لك :

﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ ﴾

إخواننا الكرام : حينما تشهد أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى وتقرأ كلامه تشعر بأنك أقوى إنسان ، إذا كان معك وعد من الله ، وإذا كان وعيد يغطي إنساناً ، يشعر هذا الإنسان أن الله مهلكه لا محالة .

﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾

(سورة الرعد)

أيها الأخوة : من المستحيل تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها ، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال ، وتعطيل الأفعال عن المفعولات ، أنا أركض لأقبض على فلان هذا فعل ، لكن لم أستطع أن أقبض عليه ، عطلت الفعل عن مفعوله ، هل أنتم منتبهون ؟ أحفر بئراً لأصل إلى الماء ، لم أصل إلى الماء ، عطلت الفعل عن مفعوله ، الاسم يقتضي صفة ، والصفة تقتضي فعلاً ، والفعل يقتضي مفعولاً ، فمن عطل المفعول عن فعله ، والفعل عن صفته، والصفة عن اسمه ، والاسم عن ذاته ، هذاصفر بالإيمان .

قال : إذا كانت أوصافه صفات كمال ، وأفعاله حكماً ومصالح ، وأسمائه حسـنى ، ففـرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقه ، أوصافه مثلى فضلى ، أسـماؤه حسـنى ، أفعالـه حكيمة، لذلك اي تعطيل لهذه الأسماء والأفعال والصفات هو إنكار لبعض أسماء ا الحسنى .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ

(سورة فصلت)

لهذا ينكر العلماء على من عطله عن أمره ونهيه وثوابه وعقابه ، وأنه بذلك نسبه إلى مـا لا يليق به ، عطله عن أمره : رجل أنجب أولاداً ولم يتكلم معهم بأي كلمة ، أكلوا حرقوا نفسهم بالمدفأة ، تناولوا طعاماً سيئاً ، جرح يده ، الأب صامت ، ضرب بعضهم بعضـاً ، كسـروا الآنية ، أكلوا طعاماً مسموماً ، أمسكوا بالتيار الكهربائي فصعقوا ، الأب صامت ، هل هذا أب ؟ مستحيل ، الأب له أمر وله نهي ، فإذا قلت ا لم يأمر ولم ينه ، ممكن أن تكون الآن قضية معقدة ، ليست مغطاة بالتشريع ، ا عز وجل عطلناه عن أمره ونهيه ، ا ماذا قال ؟ قال :

فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ

(سورة النساء)

معنى ذلك أنه مامن قضية متنازع فيها ، إلى يوم القيامة إلا وفي الكتاب والسنّة مـا يغطـي حكماً لها ، لكن اقول : علمه من علمه وجهله من جهله .

إذاً كل من عطل ذات ا عن أمره ونهيه أو عطله عن ثوابه وعقابه ، إذا قال لـك : إن ا عز وجل يعطي النعم من ليس أهلاً لها ، معنى ذلك : أنه ليس عنده حكمة ، وليس عنده عدل ، معناها أن الإنسان المنحرف يكرمه والمستقيم يعاقبه ، يقول لك مثلاً شخص : هذا ملكه نحن ليس لنا علاقة ، ممكن أن نعبده طوال حياتنا ويضعنا في جهنم ! ما هذا الكلام ؟ أهكذا ظنـك با ؟ أنت من الظانين با ظن السوء ، عليهم دائرة السوء ، ينصر اعداءه ويقويهم ، ويخذل أولياءه ويضعفهم ، ويجعل الدائرة تدور على أوليائه ويضع من استنفذ عمره كله في طاعتـه في النار ، ومن ناصبه العداء في الجنة ، وتقول : يفعل ما يشاء ويفعل مايريد ، الملك ملكه ، هكذا ظنك با ؟ وا من ظن هذا الظن لا يعرف ا أبداً إطلاقاً ، هذا سوء ظن با ، أساساً ا عز وجل قال :

يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ

(سورة آل عمران)

هناك أناس كثيرون نحن عبيد بملكه ، إن شاء عذبنا ، وإن شاء رحمنا ، من غيرضابط ؟ ا قال:

إِنَّ

رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

(سورة هود)

حيث ماجاءت على مع لفظ الجلالة ، فتعني أن ا ألزم نفسه بالاستقامة ، قال :

إِنَّ

رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

قال :

وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾

(سورة سبأ)

انظر كم هي دقيقة ! قال :

مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ

(سورة النساء)

قال :

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

(سورة الزلزلة)

قال :

لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ

(سورة غافر)

قال :

وَلَا تُظۡلَمُونَ

فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

(سورة النساء)

ولا نقير ولاقطمير .

فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ

(سورة الروم)

إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ

(سورة لقمان)

فمن عطله عن أمره ونهيه ؟ هناك بعض القضايا ليس لها حكم شرعي ، وا يا أخي شيء يحير، أفيدونا ، إذا قال : هناك قضايا ليس لها حكم شرعي معنى ذلك أنه ما قرأ القرآن ! لم يقرأ:

ٱلۡيَوۡمَ

أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ

(سورة المائدة)

لم يقرأ :

مَّا

فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ

(سورة الأنعام)

لم يقرأ :

﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾

(سورة النساء)

من عطله عن أمره ونهيه وثوابه وعقابه ، نسبه إلى مالا يليق به ، ونسبه إلى مايتنزه عنـه ، وأن ذلك حكم سيء مما حكم به عليه ، وأن من نسبه إلى ذلك فما قدره حق قدره ، وما عظمه حق تعظيمه ، كما قال تعالى في حق منكري النبوة .

هل من الممكن الله عز وجل يخلق الخلق ويدعهم بلا أمر ولا نهي ، الآية الكريمة من أدق الآيات:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾

(سورة الأنعام)

عطلوا ذات الله عن الأمر والنهي ، فمعنى ذلك أن الله ليس له تعليمات ليس له توجيهات ، خلق الخلق سدى ! قال تعالى :

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾

(سورة القيامة)

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا﴾

(سورة المؤمنون)

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾

(سورة القيامة)

الجامعة مثلاً : أليس فيها فحص ؟ ولا شهادات ، هذا داوم هذا لم يداوم، هذا سرق كتاباً من المكتبة ، هذا قرأ الكتاب ، طالب قرأه وطالب سرقه هل يستويان ؟ لا يوجد حساب ؟ هذا يتنزه عنه إنسان لا خالق الأكوان .

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾

(سورة الأنعام)

وقال تعالى في حق منكري المعاد والثواب والعقاب :

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾

(سورة الزمر)

يعني ذلك أنه هناك حساب ، وتسوية حسابات ، ووقوف بين يدي الله ، إنسان يعيش على انقاض الناس ، وإنسان يعيش الناس على أنقاضه كالأنبياء ، هل يستويان ؟ إنسان يعيش على انقاض الناس والأنبياء عاش الناس على دعوتهم وعلى جهدهم وعلى بطولتهم وعلى بذلهم وعطائهم .

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾

(سورة الجاثية)

ما أسباب انقباض الناس ؟ لأنها بعيدة عن التوحيد ، إذا رجل بعيد عن الله وسمع ما يقوله الأقوياء وكيف يتحدون الشعوب الضعيفة ، كيف يعيشون على أنقاض العالم ، والله سيختل توازن الإنسان ! لكن بالتوحيد يستعيد توازنه .

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾﴾

(سورة إبراهيم)

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾

(سورة آل عمران)

أيها الأخوة : لله عز وجل في كل وما قضاه وقدره الحكمة البالغة ، حكمة ما بعدها حكمة ، ولكن نحن إما أن نكشف طرفاً منها أو أن نعجز عن فهم هذه الحكمة ، كمثل هذا الرجل الذي جعل من بيت النبوة دار دعارة سلمان رشدي ، كيف سمح الله له بهذا ، حبيبه سيد الخلق وحبيب الحق ، سيد ولد آدم ، كيف سمح لإنسان ساقط حقير من أن يجعل من بيت النبوة بيتاً

للدعارة ، عشرين ألف بريطاني أسلموا بسبب هذا الكتاب ، لما قرأوا هذا الكتاب لم يصدقوه ، فبحثوا عن الحقيقة وأسلموا ، ا عز وجل له حكمة بالغة

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

(سورة الأنعام)

سمح ا عز وجل أن تنشر كتب فيها ضلالات ، فيها انحرافات ، فيها اتهامات ، فيها طعن ، فيها غمز ، فيها لمز ، وتطبع طبعات كثيرة جداً ، لحكمة بالغة ، هذه الكتب تعني اللقاحـات للمؤمنين ، اللقاح جرثوم ولكنه ضعيف ، الجسم يهيء مصلاً مضاداً لهـذا الجرثـوم ، فلمـا تظهر شبهات وضلالات ، المؤمن يبحث عن جواب ، عن رد ، يضـاعف جهـده ، يسـأل علماءه ، يتحقق يدقق فيقوى إيمانه ، لذلك دائماً ا عز وجل يوظف الشر للخير المطلق ، هل تصدقون أن أربعين ألف جندي أمريكي أسلموا في حرب الخليج ؟ لأنك أنت تريد وأنا أريـد وا يفعل ما يريد، الإنسان عليه أن ينتظر حكمة ا عز وجل لعل ا عز وجل حينما قال :

وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾

(سورة القصص)

كل اسم له تعبد مختص به ، كل اسم من أسماء ا الحسنى له تعبد خاص به ، علماً ومعرفةً وحالاً ، وأكمل الناس عبودية عز وجل هو المتعبد له في جميع أسمائه وصفاته ، أي يعبـد اسم ا الحليم ، فيكون حليماً ، ويعبد الحكيم فيكون حكيماً ، ويعبد القوي فيكون قوياً في دين ا ، ويعبد الرحيم فيرحم الخلق ، ويعبد اللطيف فيتلطف في الخلق ، ويعبد العدل فينصف في أحكامه ، كل مؤمن إذا عبد ا بكل أسمائه حق العبادة فهو فـي الصـف الأول ، لا تحجبـه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر ، كمن يحجبه التعبد باسم القدير عن التعبد باسـمه الحلـيم الرحيم ، ا قدير ، فهو إذا بطش بطش ، اعبده باسم القدير ، واعبده باسم الحليم الرحيم .

وقد يحجبه اسم المعطي عن اسم المانع ، أو اسم المانع عن اسم المعطي ، وقد يحجبـه اسـم الرحيم عن اسم المنتقم ، أو المنتقم عن الرحيم ، ويحجبه اسم التودد والبر عن اسـم العـدل والجبروت والعظمة والكبرياء ، يجب أن تعبد ا بكل أسمائه ، مادمت قد عرفت طرفاً مـن كمالاته من خلال أسمائه ، ينبغي أن تعبده بكل أسمائه .

قال : وهذه طريقة الكمل من السائرين إلى ا عز وجل ، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن ، **قال تعالى :**

وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ

(سورة الأعراف)

ادع ا باسم الرحيم تارة ، ليرحم العطشى ، ادع ا باسم الجبار المنتقم لينتقم من الظالمين ، وادع ا باسم اللطيف ليتلطف بنا ، وادع ا باسم المعطي ليعطينا ، اعبد ا بكـل أسـمائه الحسنى، وصفاته الفضلى .

والدعاء كما تعلمون يكون دعاء مسألة ودعاء ثناء ودعاء تعبد ، فهو يدعو عباده ، يعرفونـه بأسمائه وصفاته ، وأن يثنوا عليه بها ، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها ، ادع ا بأسمائه داعياً ، وادعوه مثنياً عليه ، وخذ حظاً من هذه الأسماء .

سيدنا يونس عندما وقع في بطن الحوت نادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، أثنى على ا ، فعد العلماء الثناء دعاء ، والدليل :

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ

(سورة الأنبياء)

لم يقل يا ربي أخرجني ، قال :

فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ

أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾

(سورة الأنبياء)

قال تعالى :

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

(سورة الأنبياء)

آخر نقطة في الدرس : ا عز وجل عليم يحب كل عليم ، يحبك أن تكون فهماً حصيفاً عاقلاً محصلاً للعلم ، ا يحب العلماء ، إن ا عالم يحب كل عالم ، الحقيقة لن تستطيع أن تتقرب إليه إلا بأسمائه ، ا رحيم يحب الرحيم .

إنسان يشاهد حيواناً دهس ومازال على قيد الحياة ، يحمل الحيوان ويركب سيارة خاصة ، ويذهب إلى مشفى بيطري ، ويعالجه هذه رحمة، ليس له علاقة بالحيوان ، لا يوجد أي نفع يأتيه منه ، ا عز وجل غفر لبغي سقت كلباً ، ا يحب الرحيم .

سبحان ا جواد يحب كل جواد ، ا لا يحب البخيل ، إذا أردت أن يحبك ا تقرب له بأسمائه ، هو جواد كن جواداً يحبك ا ، هو عليم اطلب العلم يحبك ا ، هو رحيم ارحم من في الأرض يرحمك ا ، هو عدل كن عادلاً مع أولادك مع من حولك مع موظفيك ، يحبك ا عز وجل ، جميل يحب الجمال ، تنظف رجل شعرك ، تعطر اجعل ثيابك نظيفة ، حاول أن يكون هناك ألواناً منسجمة في ثيابك ، لك مظهر مقبول براق ، ا يحبك ، إن ا جميل يحب الجمال ، بعض الناس فهموها فهماً آخر : يملأ عينيه من الحسناوات ، ويقول لك : إن ا جميل يحب الجمال ! هذا فهم شيطاني .

عفو يحب العفو ، ا يكره المنتقم بالمعنى الأرضي ، أما المنتقم بمعنى كاسم من أسمائه الحسنى، هو الذي يقمع الظالمين ويوقفهم عند حدهم ، حيي يحب الحياء وأهله ، هذا الوقح المتعالي المتعجرف لايحبه ا ، يحب الحيي ، كان عليه الصلاة والسلام أشد حياءً من العذراء في خدرها ، بريحب الأبرار ، شكور يحب الشاكرين ، صبور يحب الصابرين ، حليم يحب الحلماء ، لأنه يحب خلقه يتوب عليهم ويغفر لهم ويعفو عنهم ويصفح عنهم ، ويحب من يعفو ويتوب ويصفح من عباده .

أيها الأخوة : أرجو ا سبحانه وتعالى أن أكون قد وضحت لكم هذه الحقائق ، الذات تقتضي أسماء ، والأسماء تقتضي صفات ، والصفات تقتضي أفعال ، والأفعال تقتضي مفاعيل ، فمن عطّل فعل ا عن مفعوله وصفاته عن أفعاله وأسمائه عن صفاته وذاته عن أسمائه فقد ألحد ، ا عز وجل لا يمكن أن يصف نفسه بصفة لا معنى لها ! مادام سمى نفسه العدل ، فصفته أنه يعدل، ويعدل له فعل ، والفعل هو أنه سينتقم من الظالم ، وسينصف المظلوم ، وهناك شواهد كثيرة جداً:

إنسانة تسكن في بيت أبيها ، فجاء الأخ من بلد راق جداً معه ثروة طائلة احتلّ البيت ! غير ترتيبه ، جدده تجديداً كاملاً ، فرشه بالأثاث ، ومعه زوجة ومعه أولاد ، لا يريد أخته ، وأخته لها حصة في البيت ، عمل على طردها ، قال لها : اذهبي لعند أهلك ، عند إخوتك ، بيتها تسكن فيه ، استولى على البيت وجدده وفرشه ، وهيأ كل شيء ليعيش مع زوجته وأولاده حياة ناعمة في هذا البيت ! وطرد أخته ، بعد أسبوع من سكناه في البيت دخلت زوجته الحمام ،

فارقت الحياة ، وعنده أولاد ، فصار يرجو أخته أن تعود إلى البيت لترعى الأولاد ، يرجوها ويخاف ألا تقبل ! ا عدل ، طبعاً الزوجة ماتت في أجلها ، لكن انتقم منه انتقاماً شديداً .

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾

(سورة البروج)

تعامل مع ا بهذا الفهم الدقيق ، ا له ذات واسم وصفة وفعل ومفعول ، فإياك أن تقع تحت طائلة العدل ، إياك أن تتعامل مع ا ، على أنه لا يعلم أو على أنه لا يرحم أو علـى أنـه لا يعدل إياك .

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾

أيها الأخوة : هذه المنزلة منزلة شهود الأسماء والصفات ، الشـيء الـدقيق فـي الدرس لا تستطيع أن تتقرب إلى ا إلا أن تشتق من أسمائه خلقاً تتقرب به إليه ، هو عـادل يحب العدل ، هو كريم يحب الكرم ، هو عليم يحب العالم ، هو جميل يحب الجمـال ، هـو رحيم يحب الرحيم ، هو حليم يحب الحليم ، لا تتقرب إلى ا إلا أن تشتق من أسـمائه خلقـاً يكون وسيلة لك إليه هكذا ! ا لا يقرب إلا الكامل ، أما الأقوياء يقربون أي إنسـان أعلـن الولاء ، أما ملك الملوك لا يقرب إلا الكامل .

بقدر انضباطك يقربك ا ، بقدر ورعك ، النبي الكريم كان جائعاً رأى على السـرير تمـرة فأكلها، هكذا قرأت ، قُطع الوحي عنه أسبوعين !

ا يحب الورع ، قال أبو حنيفة النعمان : ما وقف في ظل بيت مرتهن عنـده ، لـئلا ينتفـع بالرهن، من شدة الورع ، وركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط ، الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، والحمد رب العالمين .

بسم ا الرحمن الرحيم ، الحمد رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينـا ، أرضـنا وارض عنا ، وصلى اللهم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم ،

والحمد رب العالمين .

*****

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الثاني والخمسين من دروس مدارج المساكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والمنزلة اليوم منزلة الفرار ، هذه المنزلة مستنبطة من قوله تعالى :

فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ

(سورة الذاريات : من آية " ٥٠ ")

وحقيقة الفرار الهروب من شيء إلى شيء ، من شيء مخيف إلى شيء آمن ، من شيء مزعج إلى شيء مطَمئِن .

والفرار أيها الإخوة نوعان ؛ فرار السعداء وفرار الأشقياء ، فرار السعداء إلى ا عز وجل، وفرار الأشقياء فرار منه لا إليه ، فرار منه إلى الدنيا ، إلى المعاصي ، فرار السعداء فرار من الدنيا إلى ا ، أما فرار السعداء الفرار منه إليه ، ففرار أوليائه ، قال ابن عباس في قوله تعالى:

فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ

أي فروا منه إليه ، من عقابه إلى جنته ، من معصيته إلى طاعته ، فروا مما سوى ا إلى ا ، فروا من الأغيار إلى ا ، فروا من الشُركاء إلى ا ، وقال آخرون : اهربوا من عذاب ا إلى ثوابه بالإيمان والطاعة، عملية فرار من شيء مخيف إلى شيء مسعد ، وحينما قال ا عز وجل :

فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ

فالفرار منزلةٌ من منازل السالكين إلى ا عز وجل .

هناك معنى آخر للفرار ، فرار من الجهل إلى العلم ، عقداً وسعياً ، من الجهل إلى العلم ، أن تعتقد وأن تسعى ، ومن الكسل إلى التشمير ، جِداً وعزماً ، ومن الضيق إلى السعة ، ثقةً ورجاءاً ، من الجهل إلى العلم اعتقاداً وسعياً ، من الكسل إلى التشمير جداً وعزماً ، ومن الضيق إلى السعة ثقةً ورجاءاً ، يقول عليه الصلاة والسلام :

" شمروا فإن الأمر جد "

شمروا هذه منزلة الفرار .

" تأهبوا فإن السفر قريب "

" تزودوا فإن السفر بعيد "

" أخلصوا النية فإن الناقد بصير "

" أكثروا الزاد فإن المسافة بعيدة "

" خففوا الأثقال فإن في الطريق عقبةً كؤود "

" جدد السفينة يا أبا ذر فإن البحر عميق "

" شمروا فإن الأمر جد "

عملية الفرار عملية فيها درجة عالية من الاهتمام والجدية والعزيمة.

أيها الإخوة الكرام ... الجهل نوعان : عدم العلم بالحق النافع جهلٌ وعدم العمل بموجبه ومقتضاه جهلٌ ، الجاهل هو الذي لا يعلم ، والجاهل هو الذي لا يعمل ، والدليل :

إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾

(سورة البقرة)

هذا جهل العلم ، أعوذ با أن لا أعلم ، أن الاستهزاء ليس من شأن الأنبياء ، أعوذ با أن أكون جاهلاً بهذا الأمر ، نقلته لكم بأمانة عن ا عز وجل ، فالجهل نوعان : عدم العلم ، وعدم العمل ، أما عدم العمل كقول سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حينما قال :

وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾

(سورة يوسف)

أن يصبو الإنسان إلى امرأة لا تحل له هذا جهل ، ليس جهل علمٍ ولكنه جهـل عمـل ، فالذي لا يعلم جاهل ، والذي يخطئ جاهل ..

ألا لا يجهـلـن أحد علـينـا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أي أعوذ با أن أرتكب ما هو حرام ، هذا معنى جهل العمل ، لذلك: كل من يعصـي ا عز وجل مدموغٌ بالجهل ، كل من يجهل حقيقةً أساسيةً في حياته مدموغ بالجهـل ، مـن يعرفها ويخالفها مدموغٌ بجهلٍ مركب، ا عز وجل في سورة الفاتحة يأمرنا أن نقول :

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

(سورة الفاتحة)

غير المغضوب عليهم هؤلاء الذين عرفوا وانحرفوا ، جهل عمل ، **ولا الضالين** جهل علم ، الضالون ما عرفوا وانحرفوا ، انحرفوا لأنهم ما عرفوا ، أما المغضوب عليهم عرفوا وانحرفوا ، فجهلهم جهل عمل ، ا عز وجل يقول :

إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ

(سورة النساء : من آية " ١٧ ")

هذا الذي لا يعلم ذنبُه سريع الغفران ، الذي يعمل السوء بجهالة هؤلاء توبتهم سريعة ، وسهلة .

وقال قتادة : أجمع أصحاب رسول ا صلى ا عليه وسلم أن كل ما عصـي ا بـه فهو جهالة ، وقال غيره : أجمع الصحابة أن كل من عصى ا فهو جاهل .

" كفَى بِالْمرء علْما أَن يخْشَى الله وكَفَى بِالْمرء جهلا أَن يعجب بِعلْمه"*

(من سنن الدارمي : عن " مسروق ")

" كفى بالمرء علماً أن يخشى ا وكفى به جهلاً أن يعصيه "

من يعصي ا فهو جاهل .

فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ

الفرار هنا من الجهلين ، من الجهل بالعلم إلى تحصيله اعتقاداً ومعرفةً وبصيرةً ، ومن جهل العمل إلى السعي النافع والعمل الصالح قصداً وسعياً ، فإذا الإنسان رأى مكاناص يحترق وفي مكان لا يحترق ، يفر بجدية ما بعدها جدية من مكان الحريق إلى مكان البرد والثلج .

فالفرار فرار من الجهل بالعلم إلى تحصيله اعتقاداً ومعرفةً وبصيرةً، ومن جهل العمل إلى السعي النافع والعمل الصالح قصداً وسعياً .

والفرار أيضاً أن يفر الإنسان من إجابة داعي الكسل إلى داعي العمل، فالإنسان أمام بعض العبادات ، أمام بعض الأعمال الطيبة تحتاج إلى جهد ، إلى عزيمة ، تجد من يقول لك : ابق (خَليك) ، ا يرزق العباد ، في من يدعوك إلى الكسل ، من يدعوك إلى أن لا تنفق ،

إلى أن لا تعمل ، إلى أن تخلُد إلى الراحة ، إلى أن تسترخي ، وفي من يدعوك إلى العمـل ، حي على الفلاح ، الجد ها هنا صدق العمل وإخلاصه من شوائب الفتور ، المنافقون ..

وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾

(سورة النساء)

الجد صدق العمل وإخلاصه من شوائب الفتور ووعود التسويف والتهاون ، وقد هنـاك المسوفون ، كلما هموا أن يتوبوا يقولون : غداً نتوب ، بعد انتهاء الدراسة ، بعد نيل الشهادة ، بعد الزواج ، بعد تأسيس عمل ، بعد شراء بيت ، يمضي كل حياته وهو يسوف إلى أن تأتيـه المنية.

وا عز وجل يأمرنا أن نتلقى أوامره بالعزم والجد ، هذا معنى :

فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ

قال :

خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَـٰكُم بِقُوَّةٍ

(سورة البقرة : من آية " ٩٣ ")

وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِى ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَىۡءٍ مَّوۡعِظَةً وَتَفۡصِيلًا لِّكُلِّ شَىۡءٍ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٍ

(سورة الأعراف : من آية " ١٤٥ ")

يَـٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍۖ

(سورة مريم : من آية " ١٢ ")

أي بجد واجتهاد وعزمٍ لا كمن يأخذ ما أُمر به بتردد وفتور .

من معاني الفرار إلى ا : أن تهرب من ضيق الصدر بالهم والغم والحزن والمخاوف التي تعتري الإنسان في هذه الدار ؛ إلى سعة الإيمان وأُفُق الإسلام ورحابة طاعة الرحمن .

الفرار مما يتعلق بأسباب مصالحه ، الإنسان له مصالح متشابكة ؛ في أرض لم تسجل ، في بيت لم يتم بيعه ، في شركة لم يتخالص فيها الشركاء ، في إرث لم يوزع ، هـذه كلهـا هموم ساحقة وضاغطة وماحقة ، فالإنسان يهرب من هذه المصالح وما يتعلقُ بها مـن مالـه وبدنه وأهله وعدوه ، يهرب من ضيق صدره إلى سعة فضاء الثقة با تبارك وتعالى ، وكأن الإنسان إذا حج بيت ا الحرام يقول : لبيك اللهم لبيك ، استجابةً لك يا رب بعـد اسـتجابة ، وكأن ا يدعوه ويقول: تعال إلي يا عبدي ، تعالَ اخرج من همومك ، ومن ضيق صـدرك ، ومن ثقل مصالحك ، تعال إلي ، حط همومك عندنا .

إذاً المؤمن يفر من ضيق يعتريه ، من ضيق الهم ، وضيق الغم ، وضيق الحزن ؛ إلى سعة فضاء الثقة با تبارك وتعالى ، وصدق التوكل عليه ، وحسن الرجاء لجميل صنعه به ، وتوقع المرجو من لطفه وبره ، ومن أحسن كلام العامة : لا هم مع ا ، أي أنه علـى كـل شيء قدير ، كل من حولك بيد ا ، الأقوياء بيده ، والضعفاء بيده ، وأهلك بيده ، أعضـاؤك بيده ، أجهزتك بيده ، خلاياك بيده ، نمو الخلايا بيده ، أعضاؤك النبيلة بيده، لا هم مـع ا ، من عرف ا ليس له هم ، الأمر كله عائد إليه ، وقال تعالى :

وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ

(سورة الطلاق)

كن عن همومك معرضا ... وكـل الأمور إلى القضا
وابشـر بخـيـرٍ عـاجـلٍ ... تنسـى به مـا قـد مـضـى
يـا رب أمـرٍ مـسـخط ... لـك في عـواقـبه رضـى
ولربمـا ضـاق المضيـ ... ـق وربمـا اتسـع الفضا
الـلـه يـفـعـل مـا يشـ ... ـاء فـلا تكـن مـعتـرضا
الـلـه عـودك الجـمـيـل ... فـقـس على ما قـد مـضى

* * *

يا رب نازلة ضاق بها الفتى ... ذرعا وعنـد ا مـنها المخـرج
نزلت فلما استحكمت حلقاتهـا ... فرجت وكان يظن أنها لا تفرج

* * *

أحد العلماء في تفسير قوله تعالى :

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾

قال : يجعل له مخرجاً من كل ما ضاق على الناس .

وقال بعضهم : مخرجاً من كل شدة ، وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة ، ومضائق الدنيا والآخرة ، فإن ا جل جلاله يجعل للمتقي من كل ما ضاق على الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجاً .

وقال بعضهم والإمام الحسن منهم : مخرجاً مما نهاهم عنه ، ومن يتوكل على ا فهـو حسبه .

الآن كلما كان العبد حسن الظن با ، حسن الرجاء له ، صادق التوكل عليه ، فـإن ا لا يخيب أمله فيه البتة ، سبحانه لا يخيب أمل آمل، ولا يضيع عمل عامل ، وعبر عن الثقـة وحسن الظن بالسعة فإنه لأشرح للصدر وأوسع له بعد الإيمان من ثقته با ورجائه له وحسن ظنه به ، هذا معنى :

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾

من الضيق إلى السعة ، من الخوف إلى الطمأنينة ، من هموم الـدنيا إلى التطلع للآخرة .

الآن لو تعمقنا قليلاً ، هناك فرار من الرسوم إلى الأصول ، من مظاهر الـدنيا ، مـن قصورها ، من بيوتها ، من نسائها ، من مركباتها ، من تجارتها ، من أموالها ، من حدائقها ، من بساتينها ، من الرسوم إلى الأصول ، ومن الحظوظ إلى التجريـد ، أربـاب العـزائم لا يقنعون برسوم الأعمال وظواهرها ؛ بل يعتدون بأرواحها وحقائقها ، فلا يرضى أن يصـلي صلاة جوفاء، ولا أن يصوم صياماً لا معنى له ، ولا أن يحج البيت سائحاً، ولا أن ينفق ماله رئاءاً ، الصور لا تعنيه كثيراً تعنيه الحقائق ، وهم حينما عملوا بهذه الحقائق جعلوهـا هـي المطلوبة ، ولم يجعلوا هذه الصور من مقصدهم ولا منتهى آمالهم بل جعلـوا حقائقهـا هـي المطلوبة .

هناك ولا أعتقد أن هذه الفرق الآن موجوده ، فرقٌ ضالة قالت : نحن مع ا دائماً فلم نصلي ، نحن نريد الحقائق لا الصور ، هذه الفرق في الأعم الأغلب ليس لهـا وجـود الآن ، هؤلاء سعوا في الظاهر إلى حقائق الأمور ، وألغوا ظواهرها ، وإلغاء ظواهرهـا زندقـة ، فالذي لا يصلي ، هناك من يقول ولكن عن جهل : أنا لا أحقد على أحد ، لماذا الصلاة ؟ من أجل أن لا أؤذي أحداً ، وأنا لا أؤذي أحداً ، أظن أنه عندما ترك أمراً إلهياً ا عز وجل أمره

به ، هو أفلح بذلك ، مثل هؤلاء ضلوا ضلالاً بعيداً ، وافتروا على ا كذباً حينمـا أرادوا أن يبحثوا عن حقائق الأمور فألغوا صورها كليةً .

ما معنى أيضاً : فروا من حظوظهم ؟ قال العلماء : كل ما سوى مراد ا الديني منـك كائناً من كان حظٌ يتناقض مع الإقبال على ا ، المطالب الدنيوية ، مطالـب المـادة ، هـذه الحظوظ تعيق حركتك إلى ا عز وجل ، هذا الذي فر من حظوظه إلى حقائق الأشياء ، وفر من صورها إلى جوهرها ، هؤلاء لا يقنعون من ا بأمر يسكن إليه دون ا ، لا يطمـئن إلا لرضاء ا عنه ، لا يطمئن لعمل وهو ليس مقبلاً على ا عز وجل ، لا يفرح بما حصلَ لـه دون ا ، لا يأس على ما فاته من سوى ا ، لا يستغني برتبة شريفة وإن عظمت عنـده أو عند الناس ، لا يستغني إلا با ، فهناك مراتب علية حتى في الدين ، مناصب عاليـة جـداً ، ألفاظ كبيرة ، هذه الألقاب الكبيرة، هذه المناصب الرفيعة الدينية ، هذه لا تغنيني عن القـرب من ا عز وجل ، فر من حظوظه ، وفر من أشكال الأشـياء وصـورها ، إلـى حقائقهـا وجوهرها ، قال : هذا لا يقنع من ا بأمرٍ يسكن إليه دون ا ، لا يفرح بما حصل له دون ا ، لا يأس عل ما فاته سوى ا ، لا يستغني برتبة شريفة وإن عظمت عند الناس ، لا يستغني إلا ، لا يفتقر إلا ، لا يفرح إلا بموافقته لمرضاة ا ، لا يحزن على ما فاته من ا ، لا يخاف إلا من سقوطه من عين ا .

قالوا : سقوط الإنسان من السماء إلى الأرض فتنحطم أضلاعه أهون من أن يسقط مـن عين ا ، الكاذب ، الخائن ، المنحرف ، المؤذي الذي يكذب ويحتال على الناس هذا سقط من عين ا ، لا يخاف إلا من سقوطه من عين ا واحتجابه عن ا ، فكله با ، وكله ، وكله مع ا ، وسيره دائماً إلى ا ، وقد رفع له علمه فَشَمر إليه ، وتجرد له مطلوبه فعمل عليه ، تناديه الحظوظ : إلي إلي ، وهو يقول : إنما أريد ا عز وجل ، ورضوانه ، وتجليه ، وجنته ، وإن فاته ا فاته كل شيء ، فهو مع ا مجرد عن خلق ا ، ومع خلقه مجرد عن نفسه ، ومع الأمر مجرد عن الحظ المزاحم للأمر ، ومع الحظ المعين على الأمر ، فإنـه لا يحطـه تناوله عن مرتبته، ولا يسخطه من عين ربه .

هذه المرتبة عالية جداً ، الفرار إلى ا ، فر من الدنيا ، فر من حظوظـه ، فـر مـن شهواته، فر من همومه ، فر من مشاغل الدنيا ، فر من الأشكال ، الآن تجد جامع فخم جداً ، فهذا شكل ، لكن المضمون الصلاة الصحيحة فيـه ، المضـمون أن يرتـاده طالـب علـم ، المضمون أن يكون هذا المكان مركز إشعاع ، أما في صور جميلة جداً في مساجد ضـخمة ، وقد دخلت لمسجد في المغرب يعد أضخم مسجد في العالم ، تكلف ألف مليون دولار ، مئذنته جامعة ، وهي أطول مئذنة في العالم ، والذي يجلس في حرمه يرى البحر تحته ، حينما بنـي هكذا سمعت عنه ، أن الذي أمر ببنائه أراد أن يتمثل قوله تعالى : **وكان عرشه على المـاء** ،

أن يكون هذا المسجد فوق البحر ، وقد ترى البحر من خلال فتحات في حرم المسجد ، فيـه من الزخرفة ، ومن الأناقة ، والجمال ما لا يصدق ، هذا شكل .

مسجد النبي عليه الصلاة والسلام من سعف النخيل ، أرضه من الـبحص ، لا يوجـد رخام ، ولا يوجد خشب ، ولا يوجد فيسفساء ، ولا يوجد سجاد إيراني ، ولا يوجد شيء مـن هذا القبيل ، ومع ذلك خَرج أبطالاً ملأوا الأرض بالعدل ، والعلم ، والفضيلة ، والإحسـان ، والإنصاف ، ففي شكل وفي حقيقة .

قد زارني أخ أنشأ في أمريكا أضخم مركز إسلامي ، أهداني كُتَيبـاً عنـه ، شـيء لا يصدق ، قاعة المحاضرات تتسع لخمسة آلاف ، كلها كراس من أفخر مـا صـنع ، قاعـات المكتبات ، المعهد، المسجد ، على مساحات شاسعة ، وتكاف إنشاؤه قريباً من خمسين أو ستين مليون دولار، فقال لي : في مشكلة هي مشكلة المشاكل ، لا يوجد دعاة في مستوى هذا البناء ، المسجد بالدعاة فيه ، الجامعة بأساتذتها ، المستشفى بأطبائها ، ففي شكل وفي حقيقة .

هذا الذي فر إلى ا لا تعنيه الأشكال ، لا تعنيه المظاهر ، لا تعنيه الألقاب ، لا تعنيه مرتبة دينية عالية جداً الناس يعظمونها وهو ليس مع ا قريبـاً ، يعنيـه الاتصـال بـا ، الإخلاص ، يعنيه العمل الصالح الذي يرضي ا ، يعنيه الشوق إلى ا ، فـرار ، فـرار داخلي ، فر من نفسه إلى ا ، من حظوظه إلى ا ، من همومه إلى ا ، من رغباته إلـى ا ، من حركاته وسكناته إلى ا .

أيها الإخوة ... الفرق بين واقع المسلمين اليوم أنهم تعلقوا بالصور ، وتعلقوا بالمظاهر ، وتعلقوا بالألقاب العلمية ، وتعلقوا بالكتب، ولكن الإيمان الحقيقي أن تتعلق با جل جلاله ، وأن تصل إليه ، من الممكن أن تقيس إيمانك بقدرتك على الاتصال با عز وجل ، فالـذي لا يقدر أن يتصل با فمعنى ذلك أن عنده مشكلة ، في عقبات ، هناك عقبات كأداء تحول بينـه وبين أن يتصل با عز وجل ، هذه العقبات ينبغي أن تُزال ، فالمؤمن حكيم نفسه ، فإذا صلى ولم يشعر بشيء ، وقرأ القرآو فلم يشعر بشيء ، وذكر ا ولم يشعر بشيء ، فهلناك مشـكلة كبيرة ، معنى هذا أن الطريق إلى ا غير سالك ، معناه في سوء ظن با ، أو في شبهة ، أو في معصية ، أو في مخالفة ، والإنسان حكيم نفسه .

فمن يومين زارني أخ ، وقال لي : لصوص اقتحموا بناء لي وأخذوا حاجات بمئة ألف ، أعجبني منه هذا الورع ، قال لي : وا لم آسف على ما ضاع مني ، ولكنني قلـقٌ علـى مكانتي عند ا ، لعل هذا عقاب أستحقه بذنبٍ لا أعلمه ، فقلقه لا من ضياع هـذا المبلـغ ؛ ولكن خوف أن تكون مكانته عند ا مهزوزة ، قلت له : وا إني أكبرتك ، أكبرت فيك هـذا الورع ، وذاك الحرص .

فالمؤمن الصادق يقلقه ألا يكون الله راضياً عنه ، ولو رضي عنه كل الناس ، الأصـل أن يرضى الله عنك ، الأصل أن يحبك الله ، الأصل أن يقبلك الله ، الأصل أن يقبل عملـك ، فهؤلاء الذين ـ أنا اقول مما يعمل في الحقل الديني ، رواد المساجد ، المؤمنون ، طلاب العلم ـ هؤلاء ينبغي ألا تعنيهم المظاهر ، يجب أن تعنيهم الحقائق ، ينبغي ألا تعنـيهم الرسـوم ، ينبغي أن تعنيهم الحقائق ، هذا الدين على اتساعه فيه كلمات :

وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا

(سورة مريم : من آية " ٣١ ")

السيد المسيح ، جاءت آيةٌ كريمة على لسانه في القرآن الكريم :

وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا

أوصاني أن أتصل به ، وأن أحسن إلى خلقه ، هذا الدين ، الدين ذكر وشكر ، الدين إيمان وعرفان ، الدين إقبال على الله ، الدين إخلاص له ، الدين طاعة تامة ، الـدين أن تشعر أنك أسعد الناس ، قال لي أحد الإخوة بعد أن حج بيت الله الحرام ، قال كلمةً أعجبتنـي ثم ترددت في صوابها ، فأتبعها بكلمة ، فأتمها ، قال لي : والله ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني ، صح ، أتقى إنسان هو أسعد إنسان ، ولا هم مع الله ، ما في هم ، فالله بيده كل شيء ؛ حاضر ناظر، قوي غني ، سميع مجيب ، كل من حولك بيده .

إذاً أيها الإخوة ... هذه المنزلة ، منزلة الفرار إلى الله عز وجل ، تنطلق من قوله تعالى :

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾

(سورة الذاريات)

فر ، حركة سريعة ، حركة فيها عزيمة ، حركة فيها جِد ، حركة فيها اهتمام ، حركة فيها بطوله ، فروا إلى الله ، فهل من الممكن أن تحاسب نفسك قبل عشرين سنة عـن شـيء أكلته ولم تدفع ثمنه في مطعم ؟ ممكن ، من الفرار ، هل من الممكن أن تحاسب نفسك حساب عسير عن كلمة قلتها لا ترضي الله ، عن درهمٍ أنفقته في ما لا يرضي الله ؟ فهذا الـذي فـر إلى الله له اهتمامه الشديد ، وعزيمته الصادقة ، وإقباله على الله ، ولا تعنيه الرسوم .

" رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره " .

(كنز العمال : عن " أبي هريرة ")

" رب درهمٍ سبق ألف درهم درهم أنفق في إخلاص خير من مئة ألف درهم أنفقت في رياء "

والعبرة أن تبتغي الرفعة عند ا ، الرفعة عند الناس سهلة ، كن غنياً يعظمك الناس ، كن قوياً يخافك الناس ، كن وسيماً ينظر الناس إليك بكل عيونهم ، أعطهم سؤلهم يحبك الناس ، العبرة أن تبتغي الرفعة عند ا ، هذا معنى الفرار إلى ا ..

فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ

الفرار فيه سرعة ، لا إنسان يفر ببطء ، هارب مـن عـدو ومـاشٍ خطوة خطوة ، ليس هذا هو الفرار ، الفرار فيه سرعة ، والفرار من شيء مخيف إلى شـيء مسعد ، من مكان مقلق إلى مكان آمن ، الفرار من ضيق إلى سعة ، من خوف إلى طمأنينة ، من قهر إلى سيطرة ، الفرار الذهاب من هم إلى سعادة ، هذا هو الفرار ، فروا إلى ا ، فروا منه إليه، فروا من معصيته إلى طاعته ، فروا من شركائه إليه ، من الأغيار إليه ، الفرار إلى ا منزلة من منازل السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين .

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام مع الدرس الثالث والخمسين من دروس مدارج السالكين ، في منازل إيـاك نعبد وإياك نستعين .

والمنزلة اليوم : منزلة الأدب ، انطلاقاً من قوله تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَـا ٱلَّـذِينَ ءَامَنُـواْ قُـوٓاْ أَنفُسَـكُمۡ وَأَهۡلِيـكُـمۡ نَـارٗا وَقُودُهَـا ٱلنَّـاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ

(سورة التحريم : ٦) .

قال ابن عباس وغيره : أدبوهم وعلموهم .

إنسان في الستين من عمره يقول لك هذا الجهاز أطلع من خلاله على كل ما في العالم ، وأنـا لا أتأثر بسلبياته ، فقلت له ألا تخشى على أولادك ؟ قال بلى : قلت يكفيه شـراً أنـه يـؤذي أولادك ، لأن ا عز وجل يقول : " يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا " فأنت مكلف أن تقي نفسك، وأن تقي أهلك من النار ، فإذا كنت في وضع معين وفي سن معـين، وفـي اهتمامات معينة، وسمحت لأولادك أن يطلعوا على شيء يجعلهم كالبركان الثائر ، فأنت ربما تمكنت أن تقي نفسك ولكنك لم تق أولادك ، و ا عز وجل يقول : " يا أيها الذين آمنوا قـوا أنفسكم وأهليكم نارا " قال ابن عباس وغيره : أدبوهم وعلموهم .

أيها الإخوة : كلمة الأدب ، كلمة جامعة ، كما أن الكريم كلمة جامعة يقابلهـا اللئـيم ، كلمـة جامعة ، الكريم كلمة تجمع كل صفات الخير في الإنسان ، واللئيم كلمة تجمع كـل الصـفات الخسيسة ، والأدب كلمة جامعة تجمع خصالاص كثيـرة ، طبعـاً الأدب كعلـم ، أو كفـن ، الجامعة تمنح لسانس في آداب اللغة العربية وعلومها ، في الآداب والعلوم ، النحو والصـرف ، والبلاغة ، والعروض ، هذه علوم ، أما الأدب ، التعبير المثير عن حقائق الحياة ، التعبيـر الفني ، الصيغة الشعرية ، النثر الفني هذا أدب، من تعريفات الأدب علـم إصـلاح اللسـان والخطاب ، وإصابة مواقعه وتحسين ألفاظه ، وصيانته عن الخطأ والخلل ، وهو شـعبة مـن الأدب العام ، فلان أديب ، يعني يكتب كلاماً جميلاً .

واحد قال تكاثرت علي المصائب ، الأديب يقول :

رماني الـدهـر بالأرزاء حتـى ... فـؤادي في غـشـاء مـن نـبال

فصرت إذا أصابـتني سـهام ... تكسرت النصال على النصـال

* * *

وقول آخر :

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

* * *

نحيل جداً لولا مخاطبتي إياك لن تراني تعبير فني ، جميل ، أحد الشعراء أراد أن يهجو مغنياً قال :

عواء كلبٍ على أوتار مندفـة في قبح قرد وفي اسـتكبار هامان

وتحسـب العين فكـيه إذا اختلفا عـند التنغم فـكي بغل طـحان

* * *

هذا أدب يعني ، وصف بليغ ، الشعر العربي أدب ، والنثر أدب الحجاج خطب فقـال : إنـي لأرى رؤوساً قد أينعت ـ استوت ـ وحان قطافها وإني لصاحبها ـ سأقطعها يعني ، طبعـاً ليس الدرس درس أدب لكن الأدب فرع من فروع الأدب العام ، من عنده أسلوب جميل لفظـاً أو كتابةً ، هذا يقال له أديب ، يعني بالشعر الجاهلي يصف عنترة فرسه قال :

فـازور مـن وقـع الـقـنا بلـبانـه و شـكـا إلي بـعـبـرة وتحـمـحم

لو كان يدري ما المحاورة اشتـكى ولكـان لـو علم الكلام مكلمي

* * *

أبو العتاهية يقول :

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس

وإن تمنعـت بالحجاب والحـرس

فمـا تزال سـهام الـمـوت نافـذة

فـي جـنـب مدرع منها ومتـرس

أراك لسـت بـوقـاف ولا حـذر

كالحاطب الخابط الأعواد في الغلس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها

إن السـفينة لا تجـري على اليـبـس

* * *

يقول عليه الصلاة والسلام :

" **إن من البيان لسحر ، وإن لمن الشعر لحكمة ، والشعر ديوان العرب** "

وكلمة الشرعي أنه كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، وأن إنسـاناً مـدح رسـول ا ..

فليتـك تحلـو والحيـاة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بين وبينك عامـر وبيـني وبين العـالمـين خـراب

* * *

كلام طيب ..

فلو شـاهدت عيناك مـن حسـننا

الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا

خلعت عنك ثياب العجب وجئتنا

ولو ذقت من طعـم المحبة ذرة

عـذرت الذي أضحى قتيلا بحبنا

ولو نسـمت من قربنا لك نسمة

لمت غريبـاً واشـتـياقا لـقـربنـا

ولـو لاح من أنـوارنا لـك لاح

تركـت جمـيع الـكائـنات لأجـلـنا

فمـا حبنا سهل وكـل من أدعى

سـهولته قلنـا له : قـد جهـلـتنـا

* * *

أحد الشعراء أصابته حمى قال :

وزائـرتـي كأن بهـا حياء فلـيـس تـزور إلا فـي الـظـلام

بذلت لها المطارف والحشـايا فعافتها وبـاتت في عـظامي

أبنت الـدهر عنـدي كلُ بنـت فكيف وصلت أنت من الزحام

* * *

كل بناته عندي ، فكيف وصلت أنت من الزحام ، يعني إذا الإنسان قوى أسلوبه ، ودعا إلـى ا ، الأسلوب الحسن يحسن المضمون أنت لو قدمت شراباً نفيساً ، بكأس نظيـف وجميـل ، جمال الكأس ونظافته تزيد الشراب طيباً ، ولو قدمت هذا الشراب النفيس بكأس غير نظيف ، أو كأس قبيح ، لأساء لمضمونه .

على كلٍ كان عليه الصلاة والسلام أفصح العرب قاطبةً ، علمونا بالجامعة أن أعلى نص بعـد القرآن كلام رسول ا ، كان أوتي جوامع الكلم ، وأعلى نصٍ بعد كلام رسول ا كلام سيدنا علي رضي الله عنْه.

فإذا الإنسان قرأ نصاً يجب أن يضع يده على المواطن الجمالية فيه وجد فيه صورة جميلـة ، في أحياناً صور رائعة جداً ، تعبيرية تشبيه استعارة ، كناية ، صورة متحركـة ، عبـارة رشيقة ، حكمة بليغة ما ضاعت عبرةٌ كانت لصاحبها عبرة ..

إذا مـلك لم يكن ذاهبة فـدعـه إن دولته ذاهبة

* * *

طبعاً أعطيتكم نماذج من الشعر والنثر هذا هو الأدب ، من تعاريفه الدقيقة ، التعبير المثير عن حقائق الحياة ، التعبير الفني ، الأسلوب الجميل، إن من البيان لسحرا ، وا عز وجل يقول :

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ﴾

(سورة الرحمن : ١ ـ ٤) .

الأدب كأسلوب في الإلقاء ، أو في الكتابة ، أو في الشعر ، فرع من فروع الأدب العام ، والذي يملك ذوقاً أدبياً ، ويستمع إلى كلمات عامية قبيحة ، يتألم أشد الألم ، وجمال الرجل فصاحته .

كلكم يعلم دخل على عبد الملك بن مروان وفد تقدمهم غلام صغير فغضب غضـباً شـديداً ، فتوجه إلى حاجبه و قال : ما شاء أحد أن يدخل علي حتى دخل ، حتى الصبيان ، فقال هـذا الصبي الصغير : أيها الأمير أن دخولي عليك لم ينقص من قدرك ، ولكنه شـرفني ، كهـذه السنوات العجاف ، قال : أصابتنا سنة أذابت الشحم ، وأصابتنا سنة أكلت اللحـم ، وأصـابتنا سنة دقت العظم ـ ثلاث سنوات عجاف ـ ومعكم فضول مالٍ ، فإن كان هذا المال فـنحن عباده ، وإن كان لكم تصدقوا به علينا وإن كان لنا فعلام تحبسوه عنا ؟ فقـال المـلك أميـر المؤمنين : وا ما ترك هذا الغلام لنا في واحدة عذرا .

سيدنا عمر كان يمشي بالطريق رأى أطفالاً ، لما رأوه ولوا هاربين، بقي واحد منهم بـأدب ، قال: أيها الغلام لِم لم تهرب مع من هرب، قال : أيها الأمير ، لست ظالماً فأخشى ظلمـك ، ولست مذنباً فأخشى عقابك ، والطريق يسعني ويسعك .

أجمل ما في الرجل فصاحته وبيانه ، وكان عليه الصلاة والسلام أوتي جوامع الكلـم ، كـان منطقه كأنه خرزات نظم يتحدرن ، كان كلاماً فصلاً لا هذراً ولا نذرا .

كان عليه الصلاة والسلام يقول :

" إن ا تعالى يكره الإنْبِعاقَ في الكلام فرحم ا عبدا أوجز في كلامه " .

(ورد هذا الحديث في مختار الصحاح) .

اليوم درسنا منزلة الأدب بمعناها الواسع ، أن تكون أديباً مع ا وأن تكون أديباً مع رسول ا ، وأن تكون أديباً مع الخلق ، فقال العلماء الأدب ثلاثة أنواع :

أدب مع ا سبحانه وتعالى ، وأدب مع رسوله وشرعه ، وأدب مع خلقه .

فالأدب مع ا ثلاثة أنواع أيضاً :

أحدها : صيانة معاملته أن يشوبها بنقيصة ، أنت بالصلاة تعامل ا ، وفي الصيام تعامل ا ، وفي الحج تعامل ا ، وفي تنفيذ أوامر ا تعامله ، تغض بصرك عن محارم ا ، تتحرى الحلال ، لا تأخذ ما ليس لك ، صيانة معاملته عن أن يشوبها بنقيصة .

والثاني : صيانة قلبه عن أن يلتفت إلى غيره .

والثالث : صيانة إرادته أن تتعلق بما يمقتك عليه ، يعني لا تريد إلا رضاه ، ولا تنشغل إلا به ، ولا يشوب معاملتك له شائبة ، هذا هو الأدب مع ا .

قال أحد العلماء : " من تأدب بأدب ا صار من أهل محبته " .

وقال ابن المبارك : " نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم " .

الأدب يعقد صلة مع ا ، الأدب يحرك المشاعر ، نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم .

والإمام الحسن البصري سئل عن انفع الأدب فقال : التفقه بالدين والزهد بالدنيا ، والمعرفة بما عليك .

قال بعض العلماء : " القوم استعانوا با على ا على مراد ا وصبروا على آداب ا ، فكيف بالذي يستعين با على معصيته كيف الذي يجاهر ا بالمعصية " .

قال بعض العلماء : القوم - يعني أهل الحق - استعانوا با على مراد ا ، وصبروا على آداب ا .

قال أبو حفص لما قال له الجنيد : لقد أدبتُ أصحابك أدب السلاطين، فقال : حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب بالباطن يعني أنت كيف مع إنسان عظيم تحترمه ، ترتدي ثياباً كاملة أمامه تخاطبه بأدب جم ، تجلس أمامه جلسة أديبة ، كيف تتصرف مع عظيمٍ من بني البشر ، هكذا ينبغي أن تكون مع خالق البشر .

وقال بعضهم : والأدب مع ا حسن الصحبة معه ، بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة ، على مقتضى التعظيم والإجلال والحياء كما لو أنك تجالس ملكاً ، يعني إنسان لا ينام ، والمصحف نحو قدميه لا ينام ، لا يجعل مثلاً في غرفة نومه أشياء مقدسة ، لعله يستحي من ا عز وجل، لا يغتسل عرياناً ، كما خلقه ا ، يعني النبي الكريم رأى رجلاً يغتسل عرياناً ، طبعاً

أمام الناس ليس في الحمام فقال : " خذ أجارتك لا حاجة لنا بك ، فإني أراك لا تستحي من ا
" . يعني الحياء من ا مطلوب .

يلفت نظري بالحج أحياناً ، الحاج نصفه العلوي عارٍ كلياً ، ونساء ورجال ، وا هذا لـيس من الأدب ، يعني في إزار وفي رداء ، الرداء ضعه على كتفيك ، فهناك من يخلـع الـرداء ويبقى على الإزار فقط ، في عرفات وفي أثناء الجلوس في الخيام ، وفي نساء في رجـال ، الإنسان كلما كان أكثر أدباً ، كلما كان أكثر قرباً عز وجل .

" عن أنس رضي الله عنْه قال : ما رؤي قط مادا رجليه بين أصحابه " *.

(أخرجه الدارقطني في غرائب مالك) .

وهو سيد الخلق ، كان يقول :

" آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد " *.

(رواه ابن سعد بسند حسن وأبو يعلى عن عائشة).

قال الأدب مع ا حسن الصحبة معه ، بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنـة علـى مقتضـى التعظيم والإجلال والحياء ، كحال مجالسة الملوك ومصاحبتهم .

وقال بعض العارفين : من قهر نفسه بالأدب فهو يعبد ا بالإخلاص .

ويرى بعضهم أن طريق الأدب أن تعرف رعونات النفس ، وأن تجتنب تلـك الرعونـات ، أحياناً الإنسان يتجشأ بصوت عالٍ ، يجلس جلسة فيها كبر ، يضع رجلاً فوق رجل ، يجلـس ورجلاه متباعدتان ، يتثاءب ويفتح فمه . وا الأدب جميل ، اللهم صل عليه كان مثلاً أعلـى في الأدب، بالتواضع ، دخل مكة خافضاً رأسه ، تواضعاً عز وجل ، حتى كانـت ذؤابـة عمامته تلامس عنق بعيره ، صلى الله علَيه وسلم ، وكان أكثر حياء من العذراء في خدرها .

يعني امرأة سألته سؤالاً محرجاً ، فاحمر وجههه ، قالت : كيف أتتبع مواضع الدم ، في أثنـاء الحيض ، قال يا سبحان ا : تتبعي مواضع الدم ، وما فصل أكثر ، خجلاً ، امـرأة تسـأل سؤالاً على الهاتف لا أدب فيه، بقضايا نسائية محضة ، خاصة جداً وكأنهـا لا تقـول شـيئاً الإنسان كلما أزداد قربه من ا ازداد أدبه .

وقال بعض العارفين : إذا صحت المحبة تأكدت على المحـب ملازمـة الأدب ، إن صـحت محبتك ، كنت أديباً معه .

الآن أضع بين أيديكم طائفة من مواقف الأنبياء مع ا عز وجل ولعله هو محور درسنا هذا .

سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾

(سورة المائدة : ١١٦) .

لو أنه قال لم أقل ذلك ، قال :

﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾

(سورة المائدة : ١١٦) .

في خليفة أموي سأل وزيره ، لِمَ لم ينزل عثمان درجة ، كما فعل عمر ، قال له : و ا لـو فعلها لكنت أنت في قعر بئر ، عملها سيدنا عمر مرة وانتهى الأمر ، إذا ولو عملهـا سـيدنا عثمان لأصبحت سنة . على كلٍ هذا أدب كبير .

سيدنا عمر مع أصحابه ، مدحه أحدهم ، كما هي العادة قال له : وا ما رأينا خيراً منك بعد رسول ا ، قال : فأحد فيهم النظر ، وغضب غضباً شديداً ، إلى أن قال أحدهم لا وا ، لقد رأينا من هو خيراً منك ، قال له : من هو ؟ قال : أبو بكر ، فقال : كذبتم جميعاً وصدق ، عد سكوتهم كذباً ، قال : وا كنت أضل من بعيري وكان أبو بكر أطيب من ريح المسك ، أرأيتم إلى هذا الأدب ، مع الخليفة السابق الراحل ، الناس الآن الحالي يذم السابق دائماً ، أما سـيدنا عمر كان يثني على سيدنا الصديق .

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)

إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(سورة المائدة ١١٦ ـ ١١٨) .

والله هذه الآيات الإنسان إذا قرأها يشعر بهذا المستوى الرفيع من هذا الأدب ، كيف يخاطـب رب العزة .

جاء في بعض الآثار أن حملة العرش أربعة ، اثنان يقولان سبحانك اللهم ربنا وبحمـدك لـك الحمد على حلمك بعد علمك ، واثنان يقولان سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك لأن ا عز يقول :

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) ﴾

(سورة النساء : ١٢) .

الحمد على حلمك بعد علمك ، الإنسان قد لا يعرف عن ابنه شيئاً ساكت ، أما إذا عرف أنه فعل عملاً قبيحاً ، يثور ويغضب ، فربنا عز وجل يعلم ما يفعل عباده ، مرة وقفت على جبل قاسيون نظرت إلى دمشق ، مدينة وادعة ، لطيفة ، هادئة ، لكن يا ترى في البيوت كم بيـت فيه معصية ، كم بيت فيه دعارة ، وكم بيت فيه زنا ، وكم بيت فيه شرب خمر.

﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا (١٧) ﴾

(سورة الإسراء : ١٧) .

الحمد على حلمك بعد علمك ، ا يعلم ، نحن كبشر الإنسان أمامك كلامه لطيف ، أنيـق ، نظيف ، مرتب ، لكن يا ترى له أعمال خسيسة ؟ أنت لا تعلم ، لكن ا يعلم ، ويعلم ويحلم ،

الحمد على حلمك بعد علمك ، وعلى عفوك بعد قدرتك الضعيف إذا عفا لا قيمة لعفوه ، لكن القادر إذا عفا ، العفو عند المقدرة .

النبي عليه الصلاة والسلام ، مكة ناصبته العداء عشرين عاماً وقتلت أصحابه ، ونكلت بهم ، وأخذت أموالهم ، وهجرت النبي ، وحاولت قتله وأخرجته ، وناصبته العداء عشرين عامـاً ، فلما دخل مكة يعني بإمكانه أن يلغي وجودهم بكلمة واحدة ، عشرة آلاف سيف متوهجة تنظر أمراً منه ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما تظنون أني فاعل بكم قالوا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : " اذهبوا فأنتم الطلقاء " .العفو بعد المقدرة .

أهل الطائف بالغوا في الإساءة إلى النبي ، كذبوه ، وسخروا منه وأغروا صبيانهم بإيذائـه ، ا عز وجل مكنه أن ينتقم منهم ، جاءه ملك الجبال ، قال : يا محمد أمرني ربـي أن أكـون طوع إرادتك ، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين ، قال اللهم أغفر لقومي فـإنهم لا يعلمـون ، عسى ا أن يخرج من أصلابهم من يوحده ، ما تخلى عن قومه ، واعتذر عنهم ، ودعا لهم ، وتأمل أن يهديهم ا عز وجل .

ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾

(سورة الشعراء : ٧٨ ـ ٨٠) .

بعض العلماء حملوها على أنه أدباً مع ا ، قال : وإذا مرضت لكن الحقيقة ، هناك معنـى آخر لهذه الآية ، أصل المرض مخالفة لمنهج ا ، يعني أنت مصمم ، تصـميماً رائعـاً ، ألا تمرض ، فإذا خرجت عن منهج ا ، ومنهج رسوله ، فالمرض أصله من مخالفـة القواعـد التي جاء بها الأنبياء ، وأحياناً يكون المرض بأسباب من العصر ، تلوث عام مواد مسرطنة عامة ، ضغط نفسي ، على كل الإنسان مصمم أن يحيا حياة ناعمة هادئة .

مؤمنو الجن قالوا :

وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴿١٠﴾

(سورة الجن : ١٠) .

" لا ندري أشر أريد بمن في الأرض " ما قال لا ندري أشر أراد ا بمن في الأرض ، قال لا " لا ندري أشر أريد بمن في الأرض " هذا من الأدب ، سيدنا موسى قال : !

فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

(سورة القصص : ٢٤) .

سيدنا آدم قال :

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾

(سورة الأعراف : ٢٣) .

سيدنا أيوب قال :

۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾

(سورة الأنبياء : ٨٣) .

يعني ا عز وجل سميع بصير .. " مسني الضر وأنت أرحم الراحمين " هذا دعاؤه .

سيدنا يوسف قال :

وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ

(سورة يوسف : ١٠٠) .

ولم يقل من الجب ، لأنه لو قال من الجب لذكر إخوته بعملهم الشنيع، ولم يقل تأمروا عليه ، قال:

مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ

(سورة يوسف : ١٠٠) .

قال بعض العلماء : إلزم الأدب ظاهراً وباطناً ، فما أساء أحد الأدب في الظاهر ، إلا عوقب ظاهراً ، وما أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً ، الإنسان أحياناً ا يحجبه ، حجابه أكبر عقاب ، إذا كان فيما بينه وبين ا ليس على حال حسن ، يحجبه ، إذا أساء بالظاهر يهينه ، إذا أساء بالباطن يحجبه ، فإذا أساء الأدب ظاهراً يعاقبه ظاهراً وإن أساء الأدب باطناً يعاقبه

باطناً ، لذلك واحد قال : إذا صليت فلم تشعر بشيء ، وإذا قرأت القرآن ولم تشعر بشـيء ، وإذا ذكرت ا فلم تشعر بشيء ، نهاك مشكلة كبيرة في علاقتك مع ا ، معناهـا محجـوب وا عز وجل يقول :

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة المطففين : ١٥) .

صليت ولم تشعر بالقرب ، ذكرت ولم تشعر بالصلة ، قرأت القرآن وأنت بـارد العاطفـة ، معناها محجوب . في مشكلة ، يجب أن تبحث عنها ، في تقصير ، في إساءة ، في مخالفـة ، في سوء ظن با ، في تعلق بالدنيا في تعلق بشخص منحرف ، في إهمال العبادات ، ا عز وجل أغنى الأغنياء عن الشرك ، أن تسوء علاقتك با في حجاب ، من عنده حساسية بالغة ، ومن عنده حكمة يراقب نفسه ، عندما يحجب إنما يحجب لعلة .

وقال ابن المبارك : من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن ومن تهاون بالسـنن عوقـب بحرمان الفرائض ، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة .

﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة المطففين : ١٤) .

في آداب ، في سنن ، في فرائض ، في معرفة ، إن تهاونت بالأدب عوقبت بالحرمـان مـن السنن، إن تهاونت بالسنن عوقبت بالحرمان من الفرائض ، إن تهاونت بـالفرائض عوقبـت بالحرمان من المعرفة ، ران على قلب هذا الإنسان الغشاوة التي تحول بينه وبين الحق.

وقيل الأدب في العمل علامة قبول العمل ، قال بعضهم تاهت الفضيلة تيهاً بفضلها فانكشفت عورتها ، حتى العمل الطيب إذا اقترن بالمن والأذى والفخر ، هذا العمل الطيب تاه صاحبه به فذهبت قيمته .

وقال بعضهم : حقيقة الأدب استعمال الخُلق الحسن ، وقال بعضهم الآخر الأدب استخراج مـا في الحياة من الكمال من القوة إلى الفعل ، يعني أنت مفطور فطرة عالية ، هذه الفطرة العالية الخفية تترجم إلى عمل ، تترجم إلى ابتسامة إلى تواضع ، إلى كلمة شكر ، والشـيء الـذي يوضح الحقيقة الآن قال تعالى :

﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الشمس : ٧ ـ ٨) .

يعني فطرها ، وجبلها على جبلة عالية ، فإن فعلت الكمال ارتاحت، وإن فعلت النقص اكتأبت ، وكل إنسان عمله السيء عقاب له عقاب لفطرته، كل إنسان يخرج عن قواعد فطرته الكاملة ، يتألم وينقبض ويشعر بأنه قد أساء ، وما يقال اليوم عن الكآبة ، وضيق الـنفس والسـأم والضجر ، والملل ، هذا كله من علامات خروج النفس عن قواعد فطرتها، ملخص الملخـص .

قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

(سورة الشمس : ٩ ـ ١٠) .

يعني أعظم عمل على الإطلاق أن تزكي نفسك ، لتكون مؤهلةً لدخول الجنة ، إلى أبد الآبدين ، و ا عز وجل يقول : " قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها " .

والحمد ربّ العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون : مع الدرس الرابع والخمسين من دروس مدارج السـالكين فـي منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، وقد بدأنا في الدرس الماضي بمنزلـة الأدب ، وكـان هـذا الموضوع منشعباً إلى ثلاث شعب : الأدب مع ا ، والأدب مـع رسـول ا ، والأدب مـع الخلق .

تحدثنا عن الأدب مع ا عزوجل وننتقل اليوم إلى الأدب مع رسول ا ، ا عز وجـل وصف أدب هذا النبي الكريم فقال :

مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾

(سورة النجم)

زاغ البصر انحرف ، طغى تجاوز ، فأدبه يتجلى في نظره ،

مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾

لم يلتفت جانباً ولم يتجاوز مارآه ، وهذا كمال الأدب ، والإخلال بـالأدب أن ينظر المرء عن يمينه وعن شماله ، أو أن يتطلع أمام المنظور ، فالإلتفات زيغ ، والتطلع إلى ما أمام الأمام المنظور طغيان ومجاوزة .

شيء آخر : من أدب النبي عليه الصلاة والسلام التوافق التام بين بصره وبصيرته !

مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾

(سورة النجم)

أنت قد تـ ـ رى إنساناً بحالة مادية رائعة جداً فتغتر به ، وينتقل إلى القلب عظيم اللهو ، فإذا كان خارقاً لحدود ا فكيف يتوافق تقييم القلب أي بصيرته مع تقييم العين المبهورة بـه ؟ فمن كمال أدب الإنسان أن لا تتناقض بصيرته مع بصره ، إن رأيت شيئاً جميلاً فيـه تـرف

شديد وعلمت أن صاحب هذا الشيء على انحراف تام ينبغي أن يدخل إلى القلب استصغار لهو على ماعنده من مظاهر الترف !

ذكرت لكم من قبل كيف أن النبي عليه الصلاة والسلام مر به رجل وهو بين أصحابه الكرام، فسألهم عنه ، فيبدو أن أصحابه الكرام رأوه غنياً كريماً معطاءاً ، فقالوا :

" عن سهل بن سعد الساعدي أنه قال : مر رجلٌ على رسول الله صلى اللهم عليه وسلم فقال لرجلٍ عنده جالسٍ : ما رأيك في هذا ؟ فقال رجلٌ من أشراف الناس : هذا والله حري إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، قال : فسكت رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم ، ثم مر رجلٌ آخر فقال له رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم : ما رأيك في هذا ؟ فقال: يا رسولَ الله هذا رجلٌ من فقراء المسلمين هذا حري إن خطب أن لا ينكح ، وإن شفع أن لا يشفع ، وإن قال أن لا يسمع لقوله ، فقال رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم : هذا خير من ملء الأرض مثل هذا"*

(صحيح البخاري)

فالبطولة أن تصل إلى رؤية تقيم الشخص لا وفق مقاييس البشر ، بل وفق مقاييس خالق البشر ، تقييم الشخص وفق مقاييس البشر تعظمه لماله ، وتعظمه لجماله ، وتعظمه لنواله ، ولكن تقييم الشخص بمقاييس خالق البشر تعظمه لعلمه ولورعه لاستقامته لدعوته لإخلاصه .

هذه بطولة أيها الإخوة ، أن تستخدم المقاييس التي يقيم بها ا عباده المؤمنين ، من هنا قيل: ابتغ الرفعة عند ا .

مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾

أي ماتناقضت البصيرة مع البصر ، لو فرضنا أنك ذهبت لمحل تصليح مركبات في حي شعبي ، والمحل بارد وفيه أدوات وأطيان وزيوت وعمل شاق وصاحبه مستقيم ووفي وصادق وعمله متقن وأجره معتدل ، ودخلت إلى محل من أجمل أسواق المدينة يبيع حاجات نسائية ، والمحل فيه نظرات وهمزات ولمسات وكلام فاحش وشباب يتطلعون إلى النساء الغاديات الرائحات ، فإذا أُعجبت بهذا المحل التجاري بأناقته وجماله ونعومته ولم تعجب بذاك المحل القاسي فبصيرتك تختلف عن بصرك ، يجب أن ينبع البصر من البصيرة ، ينبغي أن ترى بحسب الحقيقة لا بحسب ما ترى هذا معنى ماقاله بعض العلماء :

مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾

أيها الإخوة : الأدب قال هو الدين كله ، الدين كله أدب ، ومن قال: لا حيـاء فـي الدين لعله ذكرها على غير ما أرادوها ، الدين كله حياء ، النبي عليه الصلاة والسلام عنـدما قال : يا بنيتي إن هذه الثياب رقيقة تصف حجم عظامك ، اختار كلمة لايمكن أن تثير شـهوة وأية كلمة أخرى تثير الشهوة ، فالنبي يتكلم بأعلى درجات الحياء ، وامـرأة سـألته عـن دم الحيض قال :

" تَأْخُذُ إِحداكُن ماءها وسدرتَها فتَطَهر فَتُحسن الطهور ، ثُم تَصب على رأْسها فَتَدلُكُـه دلْكًـا شَدِيدا حتى تَبلُغَ شُؤُون رأْسها ، ثُم تَصب علَيها الْماء ثُم تَأْخُذُ فرصةً ممسكَةً فَتَطَهر بِهـا ، فَقَالَتْ أَسماء : وكَيفَ تَطَهر بِها فَقَالَ: سبحان الله تَطَهرين بِها ! فَقَالَتْ عائِشَةُ : كَأَنها تُخْفي ذَلِك تَتَبعين أَثَر الدمِ ، وسأَلَتْه عن غُسل الْجنَابة فَقَالَ : تَأْخُذُ ماء فَتَطَهر فَتُحسن الطهور ، أَو تُبلِغُ الطهور ، ثُم تَصب على رأْسها فَتَدلُكُه حتى تَبلُغَ شُؤُون رأْسها ، ثُم تُفيض علَيها الْماء فَقَالَتْ عائِشَةُ : نعم النساء نساء الأَنْصار لَم يكُن يمنَعهن الْحياء أَن يتَفَقَّهن فـي الـدينِ ، و حدثَنَا عبيد الله بن معاذ حدثَنَا أَبِي حدثَنَا شُعبةُ في هذَا الإِسنَاد نَحوه وقَالَ : قَالَ سبحان الله تَطَهرِي بِها واستَتَرِ .. "*

(صحيح مسلم : عن " السيدة عائشة ")

فكان عليه الصلاة والسلام أشد حياء من العذراء في خدرها ، والدين كله حياء ، وهذا الذي لا يستحي بعيد عن الدين ، أنت تستحي بقدر إيمانك ، والحياء من الإيمان ، وورد فـي بعض الأحاديث الشريفة :

عن عبد الله بنِ مسعود قَالَ : قَالَ رسولُ الله صلى اللهـم عليـه وسـلم : ذَاتَ يـومٍ استَحيوا من الله عز وجل حق الْحياء قَالَ قُلْنَا : يا رسولَ الله إِنا نَستَحي والْحمد لله ، قَالَ : لَيس ذَلِك ولَكن من استَحى من الله حق الْحياء فَلْيحفَظ الرأْس وما حوى ، ولْيحفَظ الْبطْن وما وعى ، ولْيذْكُر الْموتَ والْبِلَى ، ومن أَراد الآخرةَ تَرك زِينَةَ الدنْيا ، فَمن فَعلَ ذَلِـك فَقَـد استَحيا من الله عز وجل حق الْحياء *

(مسند الإمام أحمد)

فالأدب هو الدين كله ، وإن ستر العورة من الأدب ، والوضوء وغسل الجنابـة مـن الأدب ، والتطهر من الخبث من الأدب ، حتى تقف بين يدي ا طاهراً ، فالدين كله أدب .

لذلك بعضهم يقسم الدين عقائد ، وعبادات ومعاملات وآداب ، في الدين أربع أركـان ، عقائد وعبادات ومعاملات وآداب ، ولا يغيب عن ذهنكم أن الأصل في الأشياء الإباحة ، ولا يحرم شيء إلا بالدليل ، وأن الأصل في العبادات الحظر ولا تشرع عبادة إلا بالـدليل ، فـإذا قلنا الدين عقائد وعبادات ومعاملات وآداب ، الآداب تاج يتوج به المؤمن !

حتى إن أصحاب النبي عليهم رضوان الله تعجبوا من أدب النبي عليه الصلاة والسلام فقالوا : يا رسول الله ماهذا الأدب ؟ فقال :

" **إن الله أدبني فأحسن تأديبي ثم أمرني بمكارم الأخلاق** ".

(الإصدار للإمام العجلوني : عن " ابن مسعود ")

والله عز وجل فيما يبدو يؤدب المؤمنين ، أحد إخواننا عنده معمل ملبوسات يبيع بالجملة كميات كبيرة ، فدخل إليه شخص من رواد المسجد ، فطمع أن يبيعه بسعر معتدل فقال له : أريد خمس قطع لأولادي ، فصاحب هذا المعمل شعر أن هذا البيع فيه إهانة ، هو يبيع أربعمائة دزينة، ماهذه الكمية أربع قطع فقط ؟ فاعتذر وقال : أنا والله لا أبيع بالمفرق ! فهذا إنكفأ وخرج من محله التجاري ، يقول لي صاحب هذا المعمل : والله ثلاث وثلاثون يوماً لم يدخل لهذا المعمل مشترٍ ! قال: حتى جف دمي ! فقلت : يا رب والله سأبيع قطعة واحدة بالمستقبل ، والله أدبه وعلى هذا فقس ، الله يؤدب ، تتكلم كلمة فيها تجاوز يحجبك الله أو يفعل شيئاً يعلمك أن كلمتك خطأ .

أحياناً الإنسان يعتد بنفسه ، ويعتمد على ماله ، رجل ماله كثير قال : كل شيء ينحل بالمال ، قال : الدراهم مراهم ، انزلق إلى تأليه المال وهو لا يشعر ! وقع بمشكلة بقي بالمنفردة ثلاث وستين يوماً ! ويأتيه كل يوم خمسون خاطراً هل تحل هذه الأزمة بالمال ؟ لا ، فربنا أدبه .

فأنت كلما ازداد إيمانك ازداد أدبك مع الله ، لاتتكلم كلمة فيها تجاوز، الأدب مطلوب والدين كله أدب ، وإذا قال : الدين عبادات وعقائد ومعاملات فالأدب تاج يوضع على رأسك !

قال : النبي عليه الصلاة والسلام ما رؤي ماداً رجليه قط ! من شدة أدبه مع أصحابه هم أصحابه وأحبابه .

كان إذا طرق باباً يعطي ظهره للباب ، إذا سأل ابنته على موضوع زواج يخاف أن تستحي منه يعطيها ظهره ، ويقول : " ***يا بنيتي إن فلاناً قد ذكرك*** ". والحقيقة إذا الإنسان قرأ السيرة يرى من أدب رسول الله الشيء الكثير ، الشيء الذي لا يصدق .

قال : من الأدب في الصلاة ألا ترفع بصرك إلى الأعلى ، هذا من الأدب ، أن ترى مكان سجودك ، إلا في حالة أن تكون في بيت الله الحرام فمستحب أن تنظر إلى الكعبة .

ومن كمال أدب الصلاة أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقاً خافضاً طرفه إلى الأرض ولا يرفع بصره إلى فوق ، ومن الأدب مع الله ألا يستقبل بيته الحرام ولا يستدبره عند قضاء حاجته ، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة وغيرهم.

وقال بعض العلماء : إن هذا الأدب يعم الفضاء والبنيان كما ذكرنا في غير هذا الموضع .

إذا بنى الإنسان بيتاً ليحاول أن لا تكون دورة المياه باتجاه القبلة أو بعكسها شرقاً أو غرباً ، كما ورد هنا ، ومن الأدب مع الله عز وجل السكون في الصلاة ، لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه ، فليس من الخشوع الحركات الكثيرة والتنحنح وتغيير المكان وتعديل وضع الرأس وإصلاح الثياب ، سمعت أن بعضهم يرى ساعته في الصلاة ! وبعضهم الآخر يعد دراهمه ! هكذا سمعت ، لكن لم أر ، فكلما كان الأدب مع الله عالياً تقل الحركات في الصلاة .

حتى إن بعض علماء التفسير قالوا :

﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾

(سورة المعارج)

بمعنى أنهم يخشعون في حركاتهم ، أطرافهم دائمة على سكونها ! وقد فرق العلماء بين أمرين : بين الدوام على الصلاة وبين المداومة عليها، فالدوام على الصلاة سكون الأعضاء أثناء الصلاة ، والمداومة على الصلاة هي الحفاظ عليها .

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ ﴿٣٤﴾

(سورة المعارج)

ومن الأدب مع الله عز وجل استماع القراءة ، أن يلقي السمع وهو شهيد ، أن يصغي .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ ﴿٢٠٤﴾

(سورة الأعراف)

ومن الأدب في الصلاة مع الله عز وجل أن يستوي في الركوع وأن يعظم الله تعالى ، حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه ، سبحان ربي العظيم ، وأن يتضاءل ويتصاغر في نفسه حتى يكون أقل من الهباء ، كلما تصاغرت وعظمت الله عز وجل فأنت في صلاة .

والمقصود من الأدب مع الله تبارك وتعالى هو القيام بدينه والتأدب بآدابه ظاهراً وباطناً .

قال بعض العلماء وهذا شيء مهم جداً : لا يستقيم لأحد الأدب مع ا إلا بثلاثة أشياء : بمعرفته بأسمائه وصفاته ، أن تعرف أسماءه الحسنى ، وصفاته الفضلى ، فهذا من تمام الأدب مع ا عز وجل ، وأن تعرفه بدينه وشرعه ، وأن تعرفه فيما يحب وما يكره .

فأنت إقرأ القرآن وأن ا يحب الصادقين كن صادقاً .

إِنَّ

ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

(سورة البقرة)

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا

أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾

(سورة النساء)

هي تقريباً عشر آيات أو أكثـر مع حذف التكرار ، عشر صـفات يحبـك ا بهـا ، وعشر صفات تقريباً لا يحبك ا بها ، الطرق إلى ا سالكة ، ورضاء ا عز وجل ضـمن إمكانك ومتاح لكل مؤمن أن يرضي ا عز وجل والإنسان القوي قد لايتاح لك أن تراه فـي العمر مرة ، أما ا عز وجل قال :

فَمَن كَانَ

يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا

(سورة الكهف)

يوجد موضوع دقيق جداً أيها الإخوة : أرجو ا عز وجل أن يمكنني أن أشرحه لكـم بدقة قال : هما توحيدان لانجاة للعبد من عذاب ا إلا بهما : توحيـد المرسـل وهـو ا ، وتوحيد متابعة المرسل وهو رسول ا صلى ا عليه وسلم ، فلا يحاكَم إلـى غيـرا ، ولا يرضى بحكم غيره .

مرة جلست مع إنسان يرفض تزويج ابنته فطُلب مني أن أقنعه ، وابنته في سن الزواج ، ورفض والدها عشر خاطبين جيدين لنزوة في عقله ، فذكرت له :

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ

(سورة الأحزاب)

فأنت ينبغي أن ترضى بحكم رسول ا ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

" إذَا جاءكُم من ترضون دينَه وخُلُقَه فأنكحوه إلا تفْعلُوا تكُن فتْنَةٌ في الأرض وفساد ... "*

(سنن الترمذي : عن " أبي حاتم المزني ")

فلما أصر على ذلك نشأت مشكلة كبيرة جداً ، مؤمن يسمع كلام رسول ا الذي لا ينطـق عن الهوى ويحيد عنه ! ينفى عنه الإيمان كلياً !

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

(سورة النساء)

توحيد المرسل ، وتوحيد متابعة المرسل ، فلا يحاكم إلى غيره ولا يرضى بحكم غيره ، دققوا الآن : ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه .

إنسان له شيخ شيء جيد ، سمع آية قرآنية أو حديثاً صحيحاً يقـول: حتـى آخـذ رأي شيخي في الموضوع ، شيخك ليس له دور هنا ! مع القرآن والسنة شيخك ليس له دور إطلاقاً ، لا تستطيع أن تفكر بإنسان بعد أن جاءك النص الصحيح عن رسول ا ، فكل إنسان يوقف تنفيذ أمر ا وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه ، فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره ، وإلا فإن طالب السلامة أعرض عـن أمـره وخبـره وفوضه إليهم أو حرفه عن مواضعه وسمى تحريفه تأويلاً وحملاً فقال : نؤوله ونحمله ، هـذا منزلق أيها الإخوة يقع به المريدون في حلقات الشيوخ !

قرآن بين يديك ، لا حتى أرى رأي شيخي في هذه الآية ، حديث صحيح ينهـاك عـن الغيبة وتغتاب أنت ، حديث صحيح يأمرك بصلة الرحم وتقطع أنت رحمك إرضاء لإنسـان ، هذه طامة كبرى في العقيدة ! أنت أمام نص قرآني واضح جلي قطعي الدلالة ، أمـام نـص

نبوي واضح جلي قطعي الدلالة ، لا يمكن ان تأخذ رأي إنسان في هذا الموضـوع ، وإلا لا تعرف ا ولا تعرف رسوله .

أنا من عادتي إذا فضل إنسان مناقشتي بقضية أقول له : إذا كنـت تعتقـد ؟ أن فـي الأرض كلها إنساناً أورع من رسول ا وقتي لا يتسع للجلوس معك ، طريق مغلق ! إذا كان هناك إنسان في الأرض كائناً من كان مهما كان عظيماً في ذهنك إذا كان في نظرك أورع من رسول ا ، الذي سمح به النبي أنت تحرمه ، أو الذي أمر به النبي أنت تقطعه ، وتأتمر بأمر شيخك وأمر من تأخذ التوجيه من عنده فأنت بعيد بعد الأرض عن السماء عن الإيمان !

لا يسأل إنسان عن رأيه في آية قطعية الدلالة أو حديث صحيح قطعي الدلالة ، قـال : فلا أن يلقى العبد ربه بكل ذنب على الإطلاق ماخلا الشرك با خير له من أن يلقـاه بهـذا الحال ! هذا وا واقع ، ولولا أنه واقع ماذكرته ، نص صريح ، ا عز وجل يقول :

وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا

(سورة الحجرات)

ترى بعض الأشخاص يغتابون بحرية تامة وهم مرتاحون إرضاء لزيد أو عبيـد ، أو ترى أناساً يغتصبون بيتاً معهم فتوى من شيخهم ! الاغتصاب محرم ، إذا كان هنـاك شـيء محرم لايوجد إنسان له رأي بالموضوع .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ

أعطيكم أبلغ من ذلك ؟ لو أنك احتكمت إلى رسول ا وكنت لسناً أي طليق اللسان ، وأدليت بحجة قوية والنبي حكم لك بناء على فصاحتك وعلى إقناعك له ، ولم تكن محقـاً وا الذي لا إله إلا هو لاتنجو من عذاب ا ! هل هناك أبلغ من هذا ؟ لو أن سيد الأنبياء والرسل حكم لك ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب ا .

عن أُم سلمةَ رضي اللهم عنها ، أَن رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم قَـالَ : "إِنكُـم تَخْتَصِمون إِلي ولعل بعضكُم أَلحن بحجته من بعض ، فَمن قضيتُ له بحق أَخيه شيئًا بقَولـه فإِنما أَقْطَع له قطْعةً من النار فلا يأْخُذْها " *

(صحيح البخاري)

أحد العلماء الكبار أراد أن يقنع شخصاً يعتقد أنه يجب أن يرجع إلى شيخه ليأخذ رأيه في كل شيء وهو أمام نص صريح بين واضح قال: خاطبت يوماً بعض أكابر هؤلاء فقالـت

له : سألتك با   لو قدر أن النبي عليه الصلاة والسلام حي بين أظهرنا وقد واجهنا بكلامه وبخطابه، النبي بين لنا وحدثنا وأمرنا ونهانا أكان فرضاً علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه على رأي غيره وكلامه ومذهبه ؟ أم لا نتبعه حتى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس وعقولهم ؟ لو أن النبي في دمشق وتكلم لهؤلاء الناس ورجل قال : أنا لا أعرف حتى آخذ رأي شيخي فيما قاله النبي هل هذا ممكن ؟ مستحيل !

طبعاً الذي يناقشه أحرج قال : بل كان الفرض المبادرة إلى الامتثال من غير التفات إلى سواه .

يروى ولا أدري مبلغ هذا من الصحة أن النبي عليه الصلاة والسلام، طبعاً الحديث واضح ..

" ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير (أبي بكر) " .

(اختصار الصابوني)

كان هناك صحابي صغير جداً ، دعاه للإسلام فقال : سأسأل أبي ثم عاد ، قال : ا   حينما خلقني لم يسأل أبي فأنا علي أن أعبده من دون سؤال ! قال له : مما الذي نسخ هذا الفرض عنا ؟ وبأي شيء نسخ ؟ فوضع إصبعه على فيه وبقي باهتاً متحيراً وما نطق بكلمة ! إذا أنت ممكن إذا أنت رأيت نصاً من النبي الكريم صحيح في الصحاح متفقاً عليه واضحاً لا يحتاج إلى تفسير يأمرك أو ينهاك ، وعلقت التطبيق لتأخذ رأي إنسان كائناً من كان ، فأنت لا تعرف ا   أبداً ، هذا أدب الخواص مع ا   ، لامخالفة أمره والشرك به ورفع الأصوات وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم وعزل كلامه عن اليقين وعن أن يستفاد منه معرفة ا   أو تلقي أحكامه منه ، وجعل المعول في باب معرفة ا   لا على العقول المنهوكة المتحيرة المتناقضة ولاعلى تقليد الرجال وآرائها والقرآن والسنة إنما نقرؤها تبركاً ! هذا ماحصل ، يقرأ القرآن تبركاً والسنة يقرأها تبركاً.

أما الصواب أن نتلقى أصول الدين من الكتاب والسنة ومن طلب غير ذلك ورامه عاديناه وسعينا في قطع دابره وإستئصال شقفته .

دقق في هذه الآية الكريمة :

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا
عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾
لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ
عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا
تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ
﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾
أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ
جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ
أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ
فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ
خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾

(سورة المؤمنون)

معك القرآن والآيات واضحة ، معك السنة الواضحة ينبغي أن تبادر إلى تطبيق الأمر والنهي دون أن تعلق هذا التطبيق على أحد .

قال : الناصح لنفسه العامل على نجاتها يتدبر هذه الآيات حق تدبرها وتأملها ، وينزلها على الواقع فيرى العجب ، ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا ، فالحديث لك واسمعي ياجارة وا المستعان .

أيها الإخوة : ومن الأدب مع رسول ا صلى ا عليه وسلم ألا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي ، تعرض آراء أمامه في حياته خلاف سنته .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ

(سورة الحجرات)

ألا تقدم أمراً لانهياً ولا تصرفاً ولا ما شاكل ذلك ، قد يتوهم بعضهم أن هذا الأمر مقيـد بحياة رسول ا ، قال بعض العلماء : هذا الأمر باق إلى يوم القيامة ولا ينسخ ، فالتقدم بـين يديه في حياته كالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته ! لا فرق بين التقدم بين يديه في حياته والتقدم بين يدي سنته بعد مماته ، قال بعض العلماء : لا تفتئتوا على رسول ا صلى ا عليه وسلم، وقال أبو عبيدة : تقول العرب لا تقدم بين يدي الإيمان وبين يدي الأب ، أي لاتعجلوا بـالأمر والنهي دونه، وقال غيره : لاتأمروا حتى يأمر، ولاتنهوا حتى ينهى ، ومـن الأدب معـه ألا ترفع صوتك فوق صوته ، فإنه سبب لحبوط الأعمال فم الظن برفع الآراء ؟ رفـع الصـوت العادي يحبط العمل ، كيف أن تأتي برأي فوق سنته ؟

يقول لك : السنة مقيدة بعصره سنة النبي فهم مرحلي بالقرآن ، عندما كان العرب تحت الخيام وفي الصحراء فهم النبي للقرآن يتناسب مع عقول هؤلاء البسطاء ، أما الآن لابد مـن فهم عصري لهذا القرآن ، أنت لم ترفع صوتك فوق صوته في حياته رفعت رأيك المخطـئ فوق سنته بعد مماته !

قال : ومن الأدب مع رسول ا صلى ا عليه وسلم ألا يجعل دعاءه كدعاء غيره ، قال تعالى :

لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ

(سورة النور)

قال : هذه الآية فيها قولان الأول أي لاينبغي أن تدعوه باسمه كما يدعو بعضكم بعضـاً ، بل قولوا يا رسول ا ، يانبي ا ، لابد من أن تقول : يارسول ا يانبي ا ، أما يامحمد هذا دعاؤكم له كدعاء بعضكم بعضاً ، والثاني لاتجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضاً ، إن شاء أجاب وإن شاء ترك ، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بد من إجابته ! ولم يسعكم التخلف عنـه البتة، فعلى هذا المصدر لاتجعلوا دعاءه كدعاء بعضكم بعضاً ، إذا كان بعضكم دعـا بعضـاً نجيب أو لانجيب ، إنسان دعاك تعتذر لأنك لست متفرغاً ، أما إذا دعاك النبي ولو بعد موتـه إلى عمل ينبغي أن تلبيه .

ومن الأدب مع رسول ا صلى ا عليه وسلم أنهم إذا كانوا معه على أمر جـامع مـن خطبة أو جهاد أو رباط لم يذهب أحد منهم مذهباً في حاجته حتى يستأذنه كما قال تعالى :

إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ

(سورة النور)

فإذا كان هذا مذهباً مقيداً بحاجة عارضة لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين ؟ في أصوله وفروعه دقيقه وجليله ؟

إنسان يتصرف من تلقاء ذاته دون أن يستأذن رسول ا الرسول انتقل إلى الرفيق الأعلى إستئذانه في حياته أن تساله ، واستئذانه بعد مماته أن ترجع إلى سنته ، أهكذا فعـل النبـي ؟ إستئذانه بعد موته أن ترجع إلى سنته وأن تهتدي بها لا أن تفعل شيئاً دون أن تأخذ رأيـه أو إذنه .

قال : ومن الأدب معه أن لا يستشكل قوله بل تستشكل الاراء لقوله! أنت قرأت مقالـة فوجدت الحديث يتناقض مع المقالة فانزعجت ، يجب عليك إن قرأت مقالة علمية على خلاف حديث نبوي تنزعج على المقالة وليس على الحديث .

الناس ينزعجون إذا حديث شريف لايوجد في العلم شيء يؤيده لا ، يجب أن لا تستشكل قوله، يجب أن تستشكل الآراء لقوله ، لايعارض نصه بقياس بل تهدر الأقيسة وتلقى لنفوسه .

لا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولاً بل ينبغي أن نأخذ قوله على أنـه حقيقة ، هو الأصل ، الإنسان عندما يكون علمانياً إذا رأى بالعلم شيئاً ، إذا رأى بالإسلام شيئاً يطابق العلم يفرح ، هذه خطأ ، يجب إن رأيت في العلم ما يطابق دينك أن تفرح للعلم ، الدين هو الأصل فإذا العلم وافق الدين جيد ، وإذا لم يوافقه إركله بقدمك ! أما العلـم مسـتحيل أن يناقض الدين لأن الدين هو وحي ا ، والعلم قوانين ا عز وجل قننها في كونه لكن يناقض الدين نظرية علمية وليست حقيقة علمية، يناقض العلم نص موضوع ، لانـص صـحيح ، أو نص صحيح مؤول تأويلاً غير صحيح ، فالنص الصحيح المؤول تأويلاً غير صحيح أو النص الموضوع يناقض العلم ، والنظريات التي لم تثبت بعد تناقض الدين ، أمـا العقـل الصـريح والعلم الصحيح لايمكن أن يناقص النص الصريح .

وفي درس قادم إن شاء ا ننتقل إلى الأدب مع خلق ا .

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ... مع الدرس الخامس والخمسين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والمنزلة التي نحن فيها منزلة الأدب استنباطاً من قوله تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ

[سورة البقرة]

قال ابن عباس : قوا أنفسكم وأهليكم نارا أي أدبوهم . وقد ذكرت في مطلع الـدرس قبل الماضي أن الإسلام عقائد ، وعبادات ، ومعاملات ، وآداب ، وأن الآداب بمثابـة التـاج الذي يتوج الإيمان ، وقد حار أصحاب النبي عليهم رضوان ا من أدب النبي العالي فسـئل من قبل السيدة عائشة يا رسول ا ما هذا الأدب فقال عليه الصلاة والسلام: " أدبنـي ربـي فأحسن تأديبي " .

وقد ذكرت قبل درسين أن الأدب على أقسام ثلاثة ، أدباً مع ا ، وأدباً مع رسـول ا ، وأدباً مع الخلق ، في الدرس الماضي بينت أن الأدب مع رسول ا يقتضي أن كـل الآيـات الكريمة التي وردت بحق النبي عليه الصلاة والسلام وهي تتوجه أصحابه الكرام إلى أن يكونوا معه في أعلى درجة من الأدب إنما هي آيات مستمرة لا ينقطع حكمها بوفاة النبي عليه الصلاة والسلام ، فكما أنه لا ينبغي أن يعلو صوتك على صوته في حياته لا ينبغي أن يعلو رأيك على سنته بعد مماته ، ومن أجمل الاستنباطات أن علماء التفسير قالوا في قوله تعالى :

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

[سورة الأنفال]

قال علماء التفسير : طبعاً في حياة النبي مادام النبي عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم هم في بحبوحة من عذاب ا ، في مأمن من عذاب ا ، ولكن ما معنى هذه الآية بعد انتقـال النبي عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى ؟ معنى هذه الآية مادامت سنتك يا محمـد فـي حياتهم ، في بيوتهم ، في تجارتهم ، في كسب أموالهم ، في أفراحهم ، في أتراحهم ، في حلهم

، في ترحالهم ، في شدتهم ، في رخائهم ، ما دامت سنتك مطبقةً في حيـاتهم مـا كـان ا ليعذبهم .

فإن أردت أن تكون في مأمن من عذاب ا فطبق سنة النبي عليه الصـلاة والسـلام ، شيء آخر قال تعالى :

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

[سورة الأنفال]

يعني أنت حينما تندم ، وحينما تستغفر ، وحينما تراجع نفسك ، أنت في مأمن آخر من عذاب ا ، أنت في مأمنين ، في مأمن إتباع المنهج وفي مأمن الندم على خرق المـنهج ، إن ندمت فأنت في مأمن وإن سرت على الحق فأنت في مأمن ، وحاجة الإنسان إلى الأمن حاجة كبيرة.

أيها الإخوة الكرام ... ننتقل إلى القسم الثالث من منزلة الأدب ألا وهي الأدب مع الخلق ، فالأدب مع الخلق معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم ، فلكل مرتبة أدب والمراتـب فيها أدب خاص ، فمع الوالدين أدب خاص ، ومع الأب بالذات أدب متميز ، مع العـالم أدب آخر ، مع السلطان أدب يليق به ، مع الأقران أدب يليق بهم ، مع الأجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه ، مع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته .

قالوا : لك آباء ثلاث ، أب أنجبك ، وأب زوجك ، وأب دلك علـى ا . ولكـل مـن هؤلاء الثلاثة أدب خاص يليق به ، هذا مع الأشخاص فماذا مع الأحـوال ، لكـل حـال أدب فللأكل آداب ، ما كان عليه الصلاة والسلام يأكل متكئاً ، كان يجلس جلسة العبد .

وللشرب أدب ، كان عليه الصلاة والسلام يبعد القدح عن فيه ، وهذه السنة تتوافـق مـع أحدث نظرية في العدوى ، زفير الإنسان قد يعدي فإذا تنفست في أثناء شرب المـاء أبعـدت القدح عن فيك فهذا من الأدب .

" مصوا الماء مصاً ولا تعبوه عباً فإن الكباد من العب " . وكان عليه الصـلاة والسـلام يشرب ثلاثاً ، ويشرب جالساً ، هذه كلها آداب للشرب ، طبعاً نحن نتحدث بشـكل إجمـالي ، وللركوب والدخول ، والخروج ، والسفر، والإقامـة ، والنـوم ، آداب نـوم الملـوك علـى ظهورهم، ونوم الشياطين على بطونهم ، وهناك نوم الأغنياء على شقهم الأيسر ـ لأنه أفرط في الطعام ـ وهناك نوم الأتقياء على شقهم الأيمن ، كان عليه الصلاة والسلام ينام على شقه الأيمن ويضع يده تحت خده الشريف ويقرأ دعاء قبل أن ينام .

وللسكوت أدب ، كان عليه الصلاة والسلام يحسن الاستماع وتراه يصغي للحديث بسمعه وبقلبه ولعله أدرى به ، وهناك أدب للسكوت يسكت عن علم لا عن جهل ، قال العلماء : أدب المرء عنوان سعادته وفلاحه ، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره .

والحقيقة أيها الإخوة أن هناك في السنة مشاهد أو مواقف تلفت النظر، سيدنا العباس سئل أيكما أكبر أنت أم رسول ا ؟ قال : هو أكبر مني ولكني ولدت قبله . أرأيت إلى هـذا الأدب .

امرأة عثمان بن مظعون جاءت إلى السيدة عائشة بثياب مبتذلة ، فسألتها مالك هكـذا ؟ فقالت: إن زوجي صوام قوام ، لا يلتفت إلي إطلاقاً ، فالنبي عليه الصلاة والسلام أرسل فـي طلبه وعاتبه فقال : يا عثمان أليس لك بي أسوة ، أنا أنام وأقوم ، أصوم ، وأفطر ، فيبـدو أن عثمان بن مظعون عاد إلى توجيهات النبي والتفت إلى زوجته ، فجاءت امـرأة عثمـان بـن مظعون إلى بيت السيدة عائشة بعد حين ورأتها عطرة نضرة ، فقالت لها السيدة عائشة : مالك تغير حالك ، قالت : أصابنا ما أصاب الناس .

كلام لطيف لا يجرح الحياء ، والقرآن الكريم :

وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾

[سورة المؤمنون]

أرأيت إلى هذه العبارة التي ينطوي تحتها كل ألوان الشذوذ ، فمن ابتغى وراء ذلك .

يا بنيتي إن هذه الثياب تصف حجم عظامك ، كلمة لا تثير الشهوة تصف حجم عظامك ، فالعظم لا يثير الشهوة ، بل إن بعض الشعراء له بيتان في الغزل يعني كان البيتان فيهما مأخذ عليه قال :

إن سلمى خلقت من قصب ... قصـب السكر لا عظم الجمل

وإذا قـربـت منها بصلاً ... غاب المسك على ريح البصل

* * *

عظم الجمل لا يتناسب مع الغزل ، فكذلك النبي عليه الصلاة والسلام جاء بكلمة تبعدك عن الإثارة كلياً ، إن هذه الثياب تصف حجم عظامك ، لا أذكر كل المشاهد المفعمة بـالأدب من أصحاب رسول ا عليهم رضوان ا فما أكثرها لأنهم تربوا في مدرسـة رسـول ا ، وسيأتي ذكر بعضها .

أحياناً هناك امرأة تعمل بفن ساقط أساسه قلة الأدب وقد تجدها غنية جداً ، كنت في بلـد عربي وأشير إلى بناء في لب المدينة في القاهرة قال: هذا البناء كل بيت فيه يزيد سعره عـن ثلاث مئة مليون تسكنه راقصة ، الذي تعمل بقلة الأدب تسكن في هذا البيت ، والذي يعمل في الأدب لا يجد قوت يومه ، هذا مأخذ على مجتمع يعلو فيه المنحرف ويفتقر فيه المستقيم .

سئلت امرأة تعمل في الفن في بلد غربي ولها شهرة واسعة ما شعورك وأنـت علـى خشبة المسرح ؟ فقالت : شعور الخذي والعار ، وهذا شعور كل أنثى تعرض مفاتنهـا علـى الجمهور ، إن الحب يجب أن يبقى بين الزوجين وفي غرف مغلقة . وهي صادقة مع نفسها.

قال : فانظر إلى الأدب مع الوالدين كيف نجى صاحبه من حبس الغار حينمـا أطبقـت عليهم الصخرة ، تأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدبر، كيف تجد قلة أدبه هي التي ساقته إلـى الحرمان .

موقف لا يتسم بالأدب قد يحرمك شيئاً كثيراً ، أنا لا أنسى هذا الصحابي الجليـل سـيدنا زيد الخيل ، لما التقى النبي عليه الصلاة والسلام ، قال له : ما اسمك ؟ قال : أنا اسمي زيـد الخيل ، فقال عليه الصلاة والسلام: بل أنت زيد الخير ، أعجب به النبي ، قال له : يا زيد ما وصف لي رجل فرأيته إلا رأيته دون ما وصف إلا أنت يا زيد ، أراد أن يكرمه جـاء مـن مكان بعيد من نجد، بلاده في نجد ، فدعاه إلى منزله، في منزل النبي عليه الصلاة والسلام قدم إليه وسادةً ليتكئ عليها ، فقال زيد رضي الله عنه وهو حديث عهد بالإسـلام مضـى علـى إسلامه أقل من ساعة ، قال له : والله يا رسول الله لا أتكئ بحضرتك . ما هذا الأدب ومتـى حصله ؟ والعياذ بالله هناك من يجلس ويضع رجليه على الطاولة قبالةَ الزائر هذا مـن سـوء أدبهم مع زوارهم .

مرة وأنا أمشي في الطريق وجدت قدمين خارجتين من نافذة فعلمت أن صـاحبها درس في بلاد الغرب وهو جالس على كرسي وقد وضع رجليه على النافذة قبالة مـن يمشـي فـي الطريق . المؤمن كله أدب لا يفعلها .

الآن في بيوت كثيرة يرتدي الأب ثياباً متبذلة أمام بناته ، قد يرتدي الثياب الداخلية فقط ، قد ترتدي البنت ثياباً فاضحةً أمام أخيها ، ولو درسنا موضوع العورة لا يجـوز للأخـت أن ترى من أختها ما فوق ركبتها إلى ما تحت ركبتها وما يتناهى إلى أسماع الناس مـن شـذوذ ضمن الأسرة الواحدة سببه هذا التكشف ، ما يتنامى إلى أسماعنا أحياناً من علاقـات آثمـة ، محرمة ، فاضحة ، بين أفراد الأسرة الواحدة سببه هذا التكشف ، ومن قال لك إن محارمـك يمكن أن ترى منهن كل شيء ، من قال لك ذلك ؟ النبي عليه الصلاة والسلام علمنا أن نستأذن على أمهاتنا :

"عن عطاء بن يسار أن رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم سأله رجلٌ فَقَالَ : يا رسول الله أَستأذن على أُمي ؟ فَقَالَ : نَعم ، قَالَ الرجلُ إني معها في البيت ، فَقَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم استأذن عليها ، فَقَالَ الرجلُ : إني خَادمها ، فَقَالَ له رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم : استأذن عليها أَتُحب أَن تَراها عريانَةً ، قَالَ لا قَالَ فَاستأذن عليها " .

[من الإمام مالك]

والأب المؤمن يستأذن على ابنته غرفتها ، يستأذن على أمه ـ موضوع الزوجة موضوع آخر ـ ما سوى الزوجة ، الأم ، البنت ، الأخت، العمة ، الخالة ، وبنت الأخ ، بنت الأخت ، هذه محارم لك أن تراها في ثياب الخدمة ، لا أن تراها في ثياب متبذلة ، ثياب الخدمة قميص مرتفع الصدر ، والكم إلى ما تحت المرفق ، والثوب إلى ما تحت الركبة ، هذه ثياب الخدمة ، ترى أمك بهذه الثياب ، أختك بهذه الثياب ، ابنتك بهذه الثياب ، لا ينبغي أن تراهن إلا بثياب الخدمة ، حتى إن بعض علماء التفسير حينما قالوا في قوله تعالى :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

[سورة النور]

المرأة التي سمح الشرع لك أن تراها يجب أن تراها رؤيةً شمولية دون أن تدقق في تفاصيل خطوط الجسم ، المؤمن أديب لا يدقق في خطوط جسم امرأة من محارمه ، يستأذن عليها في دخوله عليها ، إذا نظر إليها نظر نظرةً عامةً دون تدقيق يثير الشبهات .

أدب سيدنا الصديق رضي ا عنه مع النبي عليه الصلاة والسلام في الصلاة ، لم يتقدم بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام ، قال : ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول ا صلى ا عليه وسلم ، تنحى ، تأخر قليلاً ليبقى النبي في مقدمة الصفوف .

كنت مرةً في العمرة وفي مصلى النبي عليه الصلاة والسلام وضع كرسي مصحف وعليه مصحف كبير بحيث غطى نصف القوس ـ محراب النبي الذي صلى به بأصحابه كهذا المحراب تقريباً نصف دائرة وامتداد ، وضع كرسي مصحف في نصف الدائرة وعليها مصحف كبير ـ هكذا فهمت أنا أنه لا ينبغي أن تصلي في مكان النبي تماماً ـ هذا مقام النبي يجب أن تصلي وراءه خطوةً ، كنت في هذا المكان جالس جاء رجل ضعيف الإحساس فأزاح المصحف وملأ القوس كله بجسمه وصلى .

ما هذا الأدب يا رسول ا ؟ قال : أدبني ربي فأحسن تأديبي سيدنا عمر حينما خطب المسلمين في أول خطبة تسلم فيها الخلافة وقف في الدرجة العليا ثم نزل درجة وقال : ما كان

ا ليراني أن أرى نفسي في مقام أبي بكر ، وهناك تصرف حكيم جداً من سـيدنا عثمـان ، سيدنا عثمان ما نزل درجة ، فعلها الفاروق ولم يفعلها سيدنا عثمـان وكـان حكيمـاً جـداً ، اتضحت هذه الحكمة حين سئل أحد خلفاء بني أمية أنه لم لم ينزل عثمان درجة كما فعل عمر ؟ فقال هذا المسئول ويبدو عالم ، قال : لو فعلها لكنت أنت في قعر بئر . لو سيدنا عثمان نزل درجة ، وسيدنا علي درجة نحفر بئراً ويجلس الخطيب في .

وقال بعض السلف : الأدب بين الغلو والجفاء . يعني من تفسيرات الأدب مثلاً إضـاعة الأدب بالجفاء كمن لم يكمل أعضاء الوضوء ولم يوفي الصلاة آدابها التي سـنها رسـول ا صلى ا عليه وسلم وهي قريب من مئة أدب ما بين واجب ومستحب ، فالجفاء أن تهمل هذه الآداب ، والغلو أن تقع في وسوسة في هذه الآداب ، ترفع يديك ، تقول ا أكبر ما صـحت تعيدها ، هذه وسوسة ، فالجفاء أن تقصر والوسوسة أن تبالغ والأدب بينهما، رفع الصوت بها أو الصمت الكامل ، يعني ترى درساً قائماً بمسجد يأتي أخ يصلي باثنين بأعلى صوته ، يفسد على المتكلم الدرس كله ، أين الملاحظة ، أين الأدب ، أين الذوق ؟ مئات يستمعون إلى درس فصل وأسمع الذي وراءك صوتك أما أن ترفع الصوت إلى أعلى طبقة وأن تطيل في الصلاة ، وأن تفسد على المتكلم درسه ، ليس هذا من الأدب إطلاقاً .

كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيته لف ثوبه ، بربكم لو أن امرأة نائمة هل يوقظهـا صوت حفيف الثوب ، يعني ترى إنساناً لبس ثوباً له صوت أثناء السير حفيف الثوب هل يوقظ امرأةً ؟ من شدة أدبه صلى ا عليه وسلم كان إذا دخل بيته لف ثوبه ، أمـا الجـاف يقـول لزوجته: قومي واصنعي عشاء وتكون قد غفلت الآن ، يقسو عليها في إيقاظهـا كـان عليـه الصلاة والسلام إذا دخل بيته لف ثوبه ، كان يكنس داره ، ويخصف نعله ، ويرفـو ثوبـه ، ويصغو الإناء للهرة ، وكان في مهنة أهله.

في الدعاء مثلاً إنسان تقول له أدع لنا ، فيدعو ساعة من الزمن يطيل ويطيـل ، لـيس متعدلاً، وآخر يدعو بكلمتين فقط ، فالأدب يبدو بين الإفراط والتفريط ، بين الجفاء والغلو هذا هو الأدب ، في الصلاة ، في الدعاء في الذكر ، في كل شيء ، كان عليه الصلاة والسـلام أخف الناس صلاةً في تمام :

" عن أَنَسٍ أَن النبي صلى اللهم عليه وسلم كان أَخَف الناس صلاةً في تَمامٍ " .

[البخاري ـ مسلم ـ الترمذي ـ النسائي ـ ابن ماجة ـ أحمد]

يعني مثلاً لو أطلت الصلاة أكثر من صلاة رسول ا لست أديباً مع رسول ا ، يعني أنت أشد خشوعاً منه ؟ أنت أشد ورعاً منه ، إنسان أراد أن يحرم من مكان أبعد من الميقـات

فقال له تابعي جليل لا تفعل ، قال : ولم لا أفعل وأنا في عبادة ، قال : تفتن ، قـال : كيـف أفتن، قال : وهل من فتنة أكبر من أن ترى نفسك سبقت رسول ا .

هذه أكبر فتنة ، بالمناسبة أي إنسان يدعو إلى ا ويبلغ إخوانه فوق المنهج الذي جاء به النبي فقد وقع في سوء الأدب مع رسول ا هل أنت أشد ورعاً من رسول ا ؟ تكاف الناس ما لا يطيقون ، تكاف الناس فوق المنهج القويم الذي جاء به سيد المرسلين .

النبـ ـ ـ ـي عليه الصلاة والسلام لم يكن ليأمر بأمر ثم يخالفه وقد صانه ا عن ذلـك ، كان يأمرهم بالتخفيف في الصلاة ، حتى سيدنا معاذ صلى وأطال فخرج أحد أصحاب رسول ا من صلاة مع هذا الصحابي ، فاشتكى إلى النبي فقال له عليه الصلاة والسلام : أفتان أنت يا معاذ . كن متبعاً للسنة هي أكمل شيء ، إن السنة هي من وحي ا عز وجل ، لا ينطـق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

" عن ربِيعةَ قالَ : حدثَني قَزعةُ قالَ أَتيتُ أَبا سعيد الْخُدرِي وهو مكْثُور عليـه فلمـا تفَـرقَ الناس عنْه قُلْتُ إِني لا أَسأَلُك عما يسأَلُك هؤُلاء عنْه قُلْتُ أَسأَلُك عن صلاة رسول الله صلى اللهم عليه وسلم فَقَالَ ما لَك في ذَاك من خَيرٍ فَأَعادها عليه فَقَالَ كَانَتْ صلاةُ الظهـرِ تُقَـام فَينْطَلقُ أَحدنَا إِلَى الْبقيعِ فَيقْضي حاجتَه ثُم يأْتي أَهلَه فَيتَوضأُ ثُم يرجِع إِلَى الْمسجِد ورسـولُ الله صلى اللهم عليه وسلم في الركْعة الْأُولَى " .

[مسلم ـ النسائي ـ ابن ماجة]

يكتبون على أبواب المساجد أن الظهر بعد عشرين دقيقة ، العصر بعد عشرين دقيقـة ، المغرب بعد خمس دقائق ، الفجر بعد نصف ساعة ، هذا من السنة أيضاً .

أما الذي يختصر العبادات هذا من سوء الأدب مع رسول ا ، قال هـو كمـن أكـل مضطراً في مخمصة ، أكل ما يسد به رمقه فليته شبع هو كجائع قدم له طعام لذيذ أكل لقمـة واحدة أو لقمتين فماذا يغنيان عنه ؟ قالوا: إن الصلاة غذاء الروح والقلب فإنه بحاجـة إلـى غذائه مما يتنزل من رحمات ربه ، كما أن الجسم بحاجة إلى الغذاء مما تخرج الأرض مـن بقلها.

في حقوق الخلق ، قال : ينبغي أن لا يفرط في القيام في حقـوقهم وألا يسـتغرق فيهـا بحيث يشتغل بها عن حقوق ا ، أحياناً الإنسان ينغمس في خدمة الخلق لدرجة أنه يضيع في عمله حقوقه مع ا سبحانه وتعالى ، وأحياناً يستغرق في عباداته حتى ينسى ما عليـه مـن حقوق ، ينسى أهله بلا طعام ، يهمل أولاده في صلواته وأذكاره ، أعط كل ذي حق حقه .

إن عملاً في الليل لا يقبله في النهار وإن عملاً في النهار لا يقبله في الليل ، وكنت أقول لكم دائماً أيها الإخوة : إن العبادة المطلقة أن تعبد ا فيما أقامك ، وفي الظـرف الـذي وضعك ، وفي الوقت الذي أظلك ، عبادة هوية ، ومكان ، وزمان ، أقامك غنياً أنفـقْ المـال

أقامك عالماً علم الناس ، أقامك قوياً أنصف المظلوم ، أقامك امرأةً أحسني تبعل زوجِك وخدمة أولادك ، أقامك طبيباً اعتن بمرضاك ، أقامك محامياً لا تغش موكليك ، أقامك تاجراً كن صدوقاً ، إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا وإذا اؤتمنوا لم يخونوا، وإذا كان لهم لم يعسروا ، وإذا كان عليهم لم يمطلوا ، وإذا باعوا لم يطروا ، وإذا اشتروا لم يذموا .

أقامك تاجراً طبق هذه الوصايا ، أقامك صاحب حرفة ، إنما أهلك الصنعة قول غد وبعد غد، أنجز وعدك بالوقت المناسب ، أتقن عملك إن الله يحب من عبده إذا عمل عملاً أن يتقنه ، أقامك معلماً علم طلابك بإخلاص فيما أقامك ، وفي الظرف الذي وضعك ، عندك ضيف أهمل الضيف لم يؤمن له الطعام جعله في مكان غير مريح ، لا عبادتك الأولى أن تعتني بالضيف ، عندك مريض عبادتك الأولى أن تخدم المريض ، عندك ابن امتحانه غداً عبادتك الأولى أن تعتني بابنك قبل الامتحان ، هذه العبادة .

الآن وقت سحر هذا وقت صلاة ، وقت ذكر ، وقت تلاوة قرآن ، ليس وقت حسابات ، وقت الفجر ليس وقت عمل وقت ذكر ، يعني كل وقت له عبادة ، رجل جالس مع خطيبته فحدثها عن الموت ، ما كان حكيماً بهذا الحديث ، حدثها عن المستقبل ، عن عش الزوجية ، عن البيت ، عبادة الأدب أن تكون معتدلاً ، أن تكون وسطياً بين الغلو وبين الجفاء ، بين الإفراط وبين التفريط .

يوجد نوع ثالث أدب الأحوال ، الأدب أن تمنع الخوف من أن يحملك على اليأس ، يوجد شيء مخيف إذا حملك هذا الخوف على اليأس معنى ذلك أن توحيدك ضعيف ، تصور أنت جندي والده قائد الجيش ، جاء عريف فهدده فبكى هذا الجندي وارتعدت فرائضه من هذا التهديد ، معنى هذا أنه لا يعرف قدر والده ، أحياناً يوجد شيء مخيف أما هذا الشيء المخيف إذا حملك على أن تيأس من رحمة الله فأنت لست أديباً مع الله كأنك تتهم الله أنه لا يفعل شيئاً ، كأنك تتهم الله عز وجل أنه غير قدير على حفظك ، بصراحة أقول لكم كلمة اقبلوها مني الله عز وجل هو المعبود ، لا معبود سواه لو سلمك إلى أحد من خلقه لا يستحق العبادة ، لا يؤكل مصيرك إلى أحد من خلقه، قال تعالى :

﴿ لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٥٤)

[سورة الأعراف]

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (٦٢)

[سورة الزمر]

وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٤﴾

[سورة الزخرف]

وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ
ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾

[سورة الأنعام]

إذا ورقة يعلمها فكيف بالأشياء الكبيرة ؟! .

فقال : الأدب في الأحوال أن تمنع الخوف من أن يصل بك إلى اليأس بالمقابل أن تمنع الرجاء برحمة ا من أن يصل بك إلى أن تأمن عذاب ا ، فالإنسان أحياناً براحة الرخاء يتوسع، يتساهل ، يطمع بعفو ا ورحمته ، هذا سوء أدب مع ا ، إذا كنت معافى ، صحيحاً ، دخلك جيد، بيتك منتظم ، زوجتك أولادك لا يوجد عندك مشكلة ، تهمل الصلوات ، تهمل الأذكار لا يوجد شيء تخاف منه ، هذا الأمن الذي نعمت به قادك إلى التساهل في العبادة ، وإن جاءتك شدة من ا ينبغي أن لا تقودك إلى اليأس من رحمته ، يجب أن تمنع الخوف أن يأخذك إلى اليأس وأن تمنع الرجاء أن يأخذك إلى الأمن ، والأمن أن تتوسع في الحركة ، أن تبتعد عن الورع .

فالأديب مع ا لا يدع الخوف يفضي به إلى حد يوقعه في القنوط واليأس من رحمة ا فإن هذا الخوف مذموم ، يوجد شخص كأنه متوهم أنه سينسحق ، أنت مؤمن غالٍ على ا ، لك عند ا حقوق ، ا عز وجل أنشأ لك حقاً عليه .

" ... يا معاذُ هلْ تَدري حق الله على عباده وما حق العباد على الله ؟ قُلْتُ : الله ورسوله أعلم، قالَ : فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشْرِك بِهِ شَيْئًا.... "

[البخاري ـ مسلم ـ الترمذي ـ أبي داود ـ أحمد]

الإمام الشافعي استنبط استنباطاً رائعاً إن ا لا يعذب أحبابه ، قال تعالى :

وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم
بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ

[سورة المائدة : آية "١٨"]

لو أن الله قبل دعواهم لما عذبهم ، فإذا عذبهم كذبهم أنتم لستم أحبابي ، أنا لا أريد إنساناً يخاف ، أنت مؤمن والأمر بيد الله ، والله عز وجل يظهر آياته .

أيها الإخوة ... الخوف الذي ينتهي بك إلى اليأس إساءة أدب مع الله عز وجل ، والرجاء الذي يفضي بك إلى الأمن من عذاب الله أيضاً إساءة أدب مع الله عز وجل ، بل حد الرجاء ما طيب لك العبادة وحملك على السير فهو بمنزلة الرياح التي تسير السفينة فإذا انقطعت وقفت السفينة ، وإذا زادت عن حدها ألقتها في المهالك ، وإذا كانت بقدر أوصلتها إلى البغية . فالرجاء كالرياح في البحر تماماً إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده .

الآن السرور ، الإنسان أحياناً يسر ضبط السرور لا يقدر عليه إلا الأقوياء أرباب العزائم الذين لا تستفزهم السراء فتغلب شكرهم ، ولا تضعفهم الضراء فتغلب صبرهم ، شخص تأتيه مصيبة يتحطم ، غلبته الضراء ، أبعدته عن الصبر ، وأحياناً يتألق يأتيه مبلغ كبير يحقق هدفه ويتزوج ، يتعين بوظيفة راقية جداً يختل توازنه ففرحه أبعده عن الشكر ، فالأدب مع الله أن لا تحملك السراء إلى أن تبتعد عن الشكر وأن لا تحملك الضراء إلى أن تبتعد عن الصبر .

كنت أقول مرةً : بلوغ القمة صعب جداً ولكن الأصعب منه أن تبقى في القمة ، وأنت في أعلى درجات القوة متواضع لله عز وجل ، دخل النبي مكة فاتحاً ، دخلها مطأطئ الرأس حتى كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عز وجل ، وطن نفسك السراء ينبغي ألا تحملك على ترك الشكر ، والضراء ينبغي أن لا تحملك على ترك الصبر ، في الرخاء شكور ، وفي البلاء صبور .

" عن صهيبٍ قالَ : قالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم عجِبتُ لأمرِ المؤمنِ إن أمرِ المُؤمنِ كُله له خَير ليس ذَلِكَ لأحد إلا لِلمؤْمنِ إن أَصابتْه سراء شَكَر وكان خَيرا وإن أَصابتْه ضراء صبر وكان خَيرا " .

[أحمد ـ مسلم ـ الدارمي]

قال تعالى :

وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

[سورة آل عمران]

الله عز وجل يحب العبد الصابر ، يوجد آيات إذا قرأتها يقشعر جلدك ..

إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًاۚ

[سورة ص : آية " ٤٤ "]

إنسان تأتيه مصيبة يقول يا رب لك الحمد ، الحمد ثلاثاً ، الحمد إذ لم تكن في ديني ، والحمد إذ لم تكن أكبر منها ، والحمد إذ ألهمت الصبر عليها .

إنسان تأتيه ميزة لا يختل توازنه ، يبقى وقوراً ، هادئاً ، شكوراً ، متواضعاً ، فالبطولة لا أن تصل إلى القمة بل أن تبقى فيها ، طريق القمة صعب جداً وطريق السقوط سهل جداً ، الغرور إياك أن تغتر ، صحابة رسول ا وفيهم رسول ا حينما قالوا لن نغلب من قلة ، عشرة آلاف مقاتل بعد أن فتحوا مكة غلبوا في حنين ، قال تعالى :

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾

[سورة التوبة]

أختم الدرس بهذا القول : درس بليغ أنت بين حالين بين أن يتولاك ا وبين أن يتخلى عنك ، إذا قلت ا تولاك وإذا قلت أنا تخلى عنك ، درس بدر ودرس حنين ، درس بدر ، قال تعالى :

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

[سورة آل عمران]

مفتقرون إلى ا فنصركم ، درس حنين أعجبتم بقوتكم فتخلى عنكم وهذا الدرس نحتاجه نحن كل يوم مئة مرة ، تنجح أحياناً بعملك فتقول : أنا سقطت ، تنجح تقول : يا ربي لك الفضل ـ تعلو وتسمو ـ سمعت عن طبيب جزاه ا خيراً من أنجح الجراحين لا يجري عملية جراحية قبل أن يصلي أمام المريض ركعتين يا رب وفقني ، يارب سدد خُطاي ، ألهمني الصواب، الإنسان بالافتقار ، والمؤمن الصادق إذا أقدم على عمل اللهم إني تبرأت من حوالي وقوتي وعلمي والتجأت إلى حولي وعلمك وقوتك يا ذا القوة المتين .

درس بدر افتقر يتولاك الله ، درس حنين إياك أن تعتد بنفسك فيتخلى الله عنك ، ونحـن في أمس الحاجة إلى هذين الدرسين ، بهذا تنتهي منزلة الأدب مع الله ، فـي الـدرس قبـل الماضي ، والأدب مع رسول الله في الدرس الماضي ، والأدب مع الخلق في هذا الدرس .

والأدب تاج يتوج به المؤمن ، الإسلام عقائد ، وعبادات ، ومعملات ، وآداب ، وقد سئل النبي الكريم ما هذا الأدب فقال عليه الصلاة والسلام أدبني ربي فأحسن تأديبي ، ولم ير ماداً رجليه قط عليه الصلاة والسلام من العظيم أدبه .

والحمد لله رب العالمين

* * *

الدرس ٥٦ – (االذوق).

بسم ا   الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ... مع الدرس السادس والخمسين من دروس مدارج السالكين فـي منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والمنزلة اليوم ، منزلة الذوق تنطلق هذه المنزلة من قولـه تعالى :

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ

[سورة الحجرات : آية " ١٤ "]

في الدين حقيقة يدركها العقل ، وفي الدين طعم يذوقه القلب فالذي يشد الناس إلـى الدين ليست حقائقه الناصعة فحسب ، بل الذي يشد الناس إلى الدين هذا الشعور الـذي يغمـر القلب حينما يتصل با عز وجل ، لأن في الإنسان جانباً عقلياً ، وجانبـاً جسـمياً ، وجانبـاً نفسياً، فالجانب العقلي غذاؤه العلم ، والجانب الجسمي غذاؤه الطعـام والشـراب ، والجانـب النفسي غذاؤه الحب ، الاتصال با ، السكينة التجلي ، أن يمتلئ القلب ثقةً بما عنـد ا ، أن يمتلئ غنى ، أن يمتلئ طمأنينة ، سعادة ، سمها سكينةً ، سمها قرباً ، سمها تجليـاً ، سـمها اتصالاً ، سمها أنساً ، هذه كلها أسماء لمسمى واحد وهي الذوق .

" عن عباس بن عبد المطلب أنه سمع رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم يقُـولُ ذَاقَ طَعـم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيا رسولاً "

[أحمد ـ مسلم ـ الترمذي]

" عن أَنَس بن مالِك رضي اللهم عنْهم عن النبِي صلى اللهم عليه وسلم قَالَ ثَلاثٌ من كُن فيه وجد حلاوةَ الإيمان أَن يكُون الله ورسولُه أَحب إِليه مما سواهما وأَن يحب المرء لا يحبه إِلا لِله وأَن يكْره أَن يعود في الْكُفْر كَما يكْره أَن يقْذَفَ في النار "

[البخاري ـ مسلم ـ الترمذي ـ النسائي ـ ابن ماجة ـ أحمد]

منزلة اليوم ، منزلة الذوق ، قد تعتقد ، قد تفكر ، قد تحاكم ، قد تتخذ قراراً ، هذا كلـه نشاط عقلي أما حينما تتصل وينغمر القلب بمشاعر لا توصف دخلت في مرحلة الذوق .

أيها الإخوة :

مرةً ثانية الذي يشد الإنسان إلى الدين ليس ما في الدين من حقائق ناصـعة ، فـي الـدين حقائق ناصعة ، في الدين تفسير دقيق للكون وللحياة، وللإنسان ، الدين أعطـاك تفسـيراً منطقياً ، تفسيراً متكاملاً تفسيراً متماسكاً ، تفسيراً عميقاً ، تفسيراً مقبولاً ، تفسيراً ينسـجم مع معطيات الإنسان ، ولكن الذي يشدك إلى الدين ليس هذا التفسير الناصع ، الواضـح ، العميق ، المتناسق، القوي فخسب ، بل الذي يشدك إلى الدين حلاوة الإيمان هذا الذي عبر عنه بعض الشعراء :

فلو شـاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيـرنا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلـعت ثياب العجب عنك وجئتنا

ولو ذقت من طعم المحبة ذرةً عذرت الذي أضحى قتيلاً بـحبنا

ولو نسمت من قربنا لك نسـمة لمـت غريباً واشـتياقاً لقـربنـا

ولو لاح مـن أنـوارنا لك لائح تـركـت جـميـع الكائـنات لأجـلـنا

*** * ***

أن تشعر بقربك من ا ، ا عز وجل مصدر الأنس ، مصدر الرضا ، مصدر السعادة ، مصدر الجمال ، مكارم الأخلاق مخزونة عند ا تعالى فإذا أحب ا عبداً منحه خلقاً حسناً ، فمرتبة الذوق أن تذوق من خلال إيمانك حلاوة الإيمان .

الذي ذاق حلاوة الإيمان قيل له : أتحب أن يكون محمد مكانك ؟ وكان علـى وشـك أن يقتل صلباً ذاك خبيب بن عدي رضي ا عنه ، ألقى عليه القبض كفـار قـريش وأرادوا أن يقتلوه صلباً، سألوه قبل أن يقتلوه أتحب أن يكون محمد مكانك وأنت معافى في أهلك ؟ فقال : وا ما أحب أن أكون في أهلي وولدي وعندي عافية الدنيا ونعيمها ويصاب رسول ا بشوكة .

التي ذاقت حلاوة الإيمان بلغها أن النبي قد قتل في أحد ، فانطلقت إلى ساحة المعركـة فإذا أبوها مقتول ، قالت : ما فعل رسول ا ؟ فإذا أخوها مقتول ، قالت : ما فعل رسول ا ؟ فإذا ابنها مقتول قالت : ما فعل رسول ا ؟ فإذا زوجها مقتول ، أبوها ، وأخوها وابنهـا ، وزوجها ، إلى أن وقعت عينها على شخص النبي عليه الصلاة والسلام فاطمأنت ، وقالت: يا رسول ا كل مصيبة بعدك جلل ـ تهون ـ هذه ذاقت حلاوة الإيمان ، الصحابة الكرام ذاقوا حلاوة الإيمان فبذلوا الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس ، كما قال بعض العاشقين :

فليتك تحـلو والحـياة مريرةٌ وليتك ترضى والأنام غـضاب

وليت الذي بيني وبينـك عامر وبيني وبين العالمين خـراب

وليت شرابي من ودادك سـائغ وشربي من ماء الفرات سراب

* * *

هذا حال من ذاق طعم الإيمان ، الذي يذوق طعم الإيمان لـو تقطعـه إربـاً إربـاً لا يتزحزح ، وضعوا على صدر سيدنا بلال صخرةً ليكفر فما زاد عن أن قال : أحد أحد فـرد صمد ، الإنسان حينما يذوق حلاوة الإيمان يفعل المعجزات ، أما إذا بقي في الأفكار ، الأفكار لا تقدم ولا تؤخر ، يعني إذا أنت اعتقدت أن لهذا الكون إلهاً ، ماذا فعلت ؟ ما فعلت شيئاً وهو كذلك ، لو اعتقدت العكس لاتهمت في عقلك ، أما حينما تبذل ، حينما تعطي ، حينما توظـف طاقاتكم وإمكاناتكم في سبيل ا ، عندئذ تتصل ، وإذا اتصلت ذقت حلاوة الإيمان ، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح :

" عن عباس بن عبد المطلب أنه سمع رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم يقُـولُ ذَاقَ طَعـم الإيمانِ من رضي بالله ربا وبالإسلامِ دينًا وبمحمد نَبِيا رسولاً ".

[أحمد ـ مسلم ـ الترمذي]

للإيمان طعم ، وإن القلب إذا ذاق هذا الطعم فلن يعجبه شيء بعد ذلك، من عـرف ا زهد فيما سواه ، أهل الدنيا في الوحول يصطرعـون ، وأهل الإيمان فـي جنـات القربـات يحلقون ، والدعاء الذي يدعوه بعضهم : الحمد الذي أخرجنا من ظلمات الجهل والوهن إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات .

هرقل ملك الروم الذي عاصر النبي عليه الصلاة والسلام ، سأل أبا سفيان هل يرتـد أحد منهم سخطةً لدينه ؟ فقال : لا ، كذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب ، إذا دخل الإيمان إلى القلب أنت إنسان آخر يسعدك أن تعطي لا أن تأخذ عكس الناس ، يسعدك أن تقدم جهدك للآخرين لا أن تأخذ جهدهم ، يسعدك أن تكون أقل الناس شأناً وأحظاهم عند ا عـز وجل .

أيها الإخوة ... حلاوة الإيمان لا يعرفها إلا من ذاقها ، وحينما تصل إلى حلاوة الإيمان كأن موضوع الأخذ والرد مع النفس ينتهي ، الإنسان قبل أن يذوق حلاوة الإيمان تأمره نفسه فيردعها ، يصطرع معها ، يغلبها وتغلبه ، يقودها وتقوده ، هذا الصراع المستمر بين الإنسان ونفسه ينتهي حينما يذوق حلاوة الإيمان ، يعني مثلاً إنسان نزل في البحر في أجمل أوقاتـه ، وفي أجمل حالاته ، مياه صافية زرقاء دافئة الموج هادئ البحر كصـفحة الظـل ، المنـاظر جميلة وهو مغمور في مياه البحر ، والبحر محيط به من كل جانب هل يحتاج إلى دليل أنه في البحر؟ .

يا إمام متى كان ا ؟ فقال : ومتى لم يكن ؟ أحوال العاشقين أحوال المحبـين شـيء آخر في الدين ، أنت حينما تحب ا عز وجل وا الذي لا إله إلا هو لو أردت أن تزيل جبلاً

من مكانه لزال ، رجال إذا أرادوا أراد ، يعني مستجابو الدعوة ، يعني هم حينما اقتربـوا من ا اقتربوا من مصدر القوة ، قوي با .

قصة أرويها لكم دائماً لما الإمام الحسن البصري أدى رسالة العلم فبين بعض الحقـائق في عهد الحجاج فغضب الحجاج وقال لجلسائه وا لأروينكم من دمه يا جبناء ، وأمر بقتله ، وجاء بالسياف ومد النطع وطلب الحسن البصري ليقتل ، دخل الحسن البصري إلـى مجلـس سيقتل فيه فإذا به يحرك شفتيه ويتكلم كلاماً لم يفهمه أحد ، يناجي ربه فإذا بالحجاج يقف لـه، يقول له : أهلاً بأبي سعيد أنت سيد العلماء ، ومازال يدنيه إلى أن أجلسه على سريره وتـأدب معه ، وسأله ، واستفتاه ، وتذكر القصة أنه عطره وضيفه وشيعه إلى باب القصر ، والسياف واقف ينظر ، هو جيئ به ليقطع رأسه بعد دقائق ، والنطع مد ، فلما خرج أبو سـعيد تبعـه الحاجب وقال يا أبا سعيد لقد جيء بك لغير ما فعل فيك فماذا قلت لربك ؟ قال : قلت عز وجل يا ملاذي عند كربتي ، يا مؤنسي في وحشتي اجعل نقمته علي برداً وسلاماً كما جعلـت النار برداً وسلاماً على إبراهيم فما كان من الحجاج وهو الذي حمله غضبه على أن يقتلـه إلا أن أصبح موالياً له .

كن مع ا ترى ا معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعـطـاك مـن يـمـنعـه ثم مـن يعطي إذا مـا منعك

* * *

إذا كنت مع ا سخر ا لك عدوك ليخدمك ، وإذا ابتعدت عن ا تنكر لـك أقـرب الناس إليك ، لذلك قالوا حلاوة الإيمان هي التي تشد الإنسان إلى الدين وبالنهاية يوجد أقوياء ، وأنبياء ، الأقوياء ملكوا الرقاب بقوتهم ، والأنبياء ملكوا القلوب بكمالهم ، والناس جميعاً تبعـاً لقوي أو لنبي ، فالذي يتبع القوي يخضع الناس بقوته ، والذي يتبع النبي يملك قلـوب النـاس بكماله.

الإنسان إذا ذاق حلاوة الإيمان يبتعد عن الآمال ويتجه إلى الأعمال كل إنسان يعيش في الأمل ، يتمنى ويتأمل ولا يعمل ما ذاق حلاوة الإيمان، إنسان فتح محلاً تجارياً متوقع ربحـاً في اليوم عشرة آلاف باع بمئتي ألف ، من اليوم الثاني لا يغيب أبداً يأتي بـاكراً ، أول مـن يفتح المحل، يعتني لما ذاق الغلة الكبيرة ، هذا الذي ذاقه من الربح الوفير حمله على المتابعة ، أما إذا فتح المحل ولا يوجد ولا مشترٍ ، من اليوم الثاني يقول أنا متعب ، لا يهمـه المحـل فتح أو ما فتح ، يقول : لا يوجد شغل السوق بارد ، إذا إنسان ما ذاق لا يتابع ، من علامـة الذي يذوق حلاوة الإيمان أنه يتابع وكل إنسان يقوم إلى الصلاة كسلان يؤدي العبادات بتثاقل ، كل قضية ينسحب منها يعتذر ، لا يرغب هذا ما ذاق حلاوة الإيمـان ، ولـو ذاق حـلاوة الإيمان لكان كالمرجل ، حلاوة الإيمان تعطيك قوةً عجيبة ، تعطيك قوةً تنسى بها كل شـيء

لذلك قالوا : ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ، بالتمني يقول : جعلنا الله من أهل الإيمان، يقول أمين ، اللهم لا تحاسبنا حساباً عسيراً ، اللهم لا تعاملنا على عملنا ، اللهم يتب علينا . وكل هذا تمنيات ، هذا الطالب إذا قال إن شاء الله ننجح ولكن ما درس ، الله كريم لا ينسى أحد من فضله ، ننجح قل **يا رب ، لا** ينجح ، أما لما يتحرك يدرس ، لما انتقل من الأمل إلى العمل صار الوصول إلى الهدف ممكناً ، علامة الذي ذاق حلاوة الإيمان ينتقل من الآمال إلى الأعمال ، من التمني إلى السعي ، قال تعالى:

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾

[سورة النساء]

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾

[سورة فصلت]

وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾

[سورة الإسراء]

قالوا : الذوق شيء باطني والعمل دليل عليه ومصدق له . الذوق شيء باطني إذا إنسان أكل طعاماً وإنسان يراقبه ، المراقب مهما كان ذكياً لا يمكن أن يشعر بما يشعر به من يأكل هذا الطعام ، قضية داخلية ، ولكن إذا كان الطعام طيباً يقول لك : هل يوجد صحن آخر؟ كأس آخر ، علامة الذوق الراقي تطلب المزيد ، المؤمن حينما يطلب المزيد دليل على أن ذوقه للإيمان بمستوى رفيع ، أما إذا ذوقه ضعيف ، يوجد تقصير أو لهمة ضعيفة، أو لمخالفات ، أو لأشياء يفعلها لا ترضي الله عز وجل صار في جفوة ، في بعد ، لذلك ينصرف من كل شيء ديني ، يرجئ لا يلبي ، بينما ذوق الإيمان الصحيح يدفع إلى العمل .

وقالوا أيضاً : من علامات الذوق أن لا يقطع صاحبه عن طلبه أمل الدنيا وطمع في غرض من أغراضها . مستحيل أن تقف الدنيا عقبةً أمام الذي ذاق حلاوة الإيمان ، أحياناً ترى شخصاً أقبل على المسجد لكن ما ذاق حلاوة الإيمان ، يعني شيء تافه جداً يصرفه عن

الدرس عذر صغير جداً يحمله على ترك متابعة طلب العلم ، فكلما صرفك عن الدين صارف صغير هذا دليل على أن حلاوة الإيمان لم تتمكن في قلبك ، من علامات الذوق أن لا يقطـع صاحبه عن طلبه، أمل الدنيا وطمع في غرض من أغراضها .

علماء القلوب يقولون : كل ما سوى ا فإرادته أمل قاطع كائناً من كان ، كلمـا أردت غير ا ، إذا ابتغيت غير ا ، قصدت إلى غير ا ، تعلقت بغير ا ، عظمت غيـر ا ، خفت من غير ا هذا كله من أنواع الشرك ، هذه تقطعك عن ا عز وجل ، أما الموحدون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

من ذاق حلاوة الإيمان ومعرفة ا عز وجل ، والقرب منه والأنس به لم يكن له أمـل في غيره ، وإن تعلق أمله بسواه فهو لإعانته على مرضاته ومحابه ، فهو يؤملـه لأجلـه ولا يؤمله معه . هذا ينقلنا إلى حقيقة الحب في ا والحب مع ا ، الحب في ا عين التوحيـد ، حقيقة الإيمان أن تحب في ا ، والحب مع ا نوع من الشرك تحب ا فتحب رسـول ا فحبك للنبي حب في ا ، تحب ا وتحب رسوله فتحب سنته ، تحب ا فتحب العمل الصالح الذي يرضيه ، تحب ا فتحب العلم الذي تتقرب به إليه ، هذا كلـه حـب فـي ا ، تحـب الوسائل التي توصلك إلى غايتك ، إذا إنسان متعلق بالعلم يحب الكتاب ، يحب القلـم ، يحـب الدفتر ، يحب غرفة التدريس يحب المكتبة ، يحب كل شيء يقربه من هدفه ، فأنت إذا أحببت الوسائل التي تقربك من هدفك فهذا حب في ا مسموح ، أما حينما تحب شيئاً يبعدك عن ا هذا اسمه حب مع ا ، الحب في ا عين الإيمان والحب مع ا عين الشـرك ، إذا أحببـت صديقاً بعيداً عن الدين ، فانصرفت بمحبته عن محبة ا فهذا حب مع ا ، إن أحببت تجـارةً شغلتك عن أداء عباداتك فهذا حب مع ا ، إن أحببت زوجتك محبةً حملتك على أن تقصر في حق ا هذا حب مع ا ، هذا ينقلنا إلى الحب في ا والحب مع ا عز وجل .

فكل ما سوى ا إرادته أمل قاطع كائناً ما كان ، فمن كان ا أمله ومنتهى طلبه فهـو في بحبوحة الإيمان ، وفي رعاية الرحمن ذاق حلاوة ومعرفة ا عز وجل ، لم يكن له أمل في غيره ، إذا تعلق أمله في غيره فهو لإعانته على مرضاته ومحابه ، هذا حب في ا .

والذي يقوله العلماء : من كانت رغبته في المطلب الأعلى الذي ليس شيء أعلى منـه ، ومعرفته بخسة ما يؤمن دونه ، وسرعة ذهابه فيوشك انقطاعه وأنه في الحقيقة كخيال طيـف أو سحابة صيف ، فهو ظل زائل ونجم قد تدلى للغروب ، فهو عـن قريـب آفـل فقـد ذاق حلاوة الإيمان ، قال عليه الصلاة والسلام :

" عن ابنِ عباسٍ أَن رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم دخَلَ عليه عمر وهو على حصيرٍ قَد أَثر في جنْبِه فَقَالَ : يا نَبِي الله لو اتخَذْتَ فراشًا أَوثَر من هذَا ، فَقَالَ : ما لِي ولِلـدنْيا مـا

مثلي ومثلُ الدنْيا إلا كراكبٍ سار في يومٍ صائِف فَاستَظَل تَحتَ شَجرة ساعةً من نَهارٍ ثُم راح وتَركها "

[أحمد]

دققوا في هذه الكلمة ، كان سيدنا عمر بن عبد العزيز إذا دخل إلى مجلس الخلافة يتلو هذه الآية :

أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾

[سورة الشعراء]

متعناهم ، إنسان يذهب إلى بلاد الغرب يرجع ممتلئاً إعجاباً ، بلاد جميلة ، بلاد خضراء ، أمطار غزيرة ، جبال شاهقة ، بحيرات غنى ، مساكن كالقصور ، مركبات تحير العقـول مثلاً ، قال تعالى :

أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾

[سورة الشعراء]

متعناهم سنين ، جاء ملك الموت ، الإنسان يختل توازنه أحياناً إذا رأى أموال الكفار والغنى الذي ينعمون فيه ، والبلاد التي يعيشون فيها ليتلو قوله تعالى :

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾

[سورة آل عمران]

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾

[سورة إبراهيم]

أيضاً أيها الإخوة يقول ا عز وجل :

﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) ﴾

[سورة الشعراء]

سيدنا عمر يقول : لو أن الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيها رجل ثم جاءه الموت لكـان بمنزلة من رأى في منامه ما يسره ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيء . رجل فقير جـداً فـي المنام يشاهد أن معه مئة مليون في المنام يسر فإذا استيقظ وجد نفسه في غرفتـه القميئـة ، وفي فراشه الخشن ، وفي طعامه الخشن ، وفي ثيابه الرديئة ، كل هذه النشوة التي حصـلت في المنام تذهب أدراج الرياح .

الدنيا ساعة اجعلها طاعة ، قال تعالى :

﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ (١١٣) ﴾

[سورة المؤمنون]

ساعة تمر ، إذاً الدنيا بحذافيرها لو ملكها رجل لكانت كالحلم الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا ، في بعض الأشخاص يتعاطون المخدرات هذا المخدر يطير بالصوت العالي ، فرجل أخذ مخدراً ، جاء رجل بآلة حادة أصدر صوتاً شديداً طارت ما تناوله ، فالناس مخدرون في الدنيا ، مخدر في بيته ، في عمله ، في المرأة ، في المال ، في المتع ، فإذا جاء ملك المـوت يصعق .

قال الإمام علي : " يا بني ما خير بعده النار بخير ، وما شر بعده الجنة بشر وكل نعيم دون الجنة محقور ، وكل بلاء دون النار عافية ".

قال بعضهم : " نعيم الدنيا بحذافيره في جنب نعيم الآخرة أقل من ذرة في جنـب جبـال الدنيا " . جبال هملايا ارتفاعها اثني عشر ألف متر ما شأن ذرة أمام هذا الجبـل ، حتـى إن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

" ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر"

إذا الإنسان ضمن الدنيا وجدها كبيرة فإذا خرج منها رأى صغرها وحقارتها ، والـدنيا جيفة طلابها كلابها ، والدنيا دار من لا دار له ولها يسعى من لا عقل له ، في المنطق السديد كل شيء تحصله في الدنيا تخسره في ثانية واحدة .

يسكن رجل في القيمرية في أحد أحياء دمشق الشعبية في بيت صغير قميء رطـوب ، شمالي ، أقسم با أربعة وثلاثين سنة يجمع المال حتى اشترى بيتاً في المهاجرين له إطلالـة جميلة ، له شرفة ، اشترى البيت ورتبه وجلس في الشرفة وشرب فنجان قهوة ، وقال لزوجته : الآن أمنا مستقبلنا هذا هو البيت ، بعد ثلاثة أيام جاءه ملك الموت .

هل معقول أربعة وثلاثون سنة جمع ، حتى تمتع ثلاثة أيام فقط من وضع كل أمله في الدنيا فهو أكبر مقامر ، وأكبر مغامر .

أيها الإخوة ... حقيقة أختم بها هذا الدرس قالوا السعادة في الدنيا الحسية تحتـاج إلـى ثلاثة شروط ، تحتاج إلى وقت ، وإلى صحة ، وإلى فراغ وقت وصحة ومـال ، الإنسـان يمر في ثلاث مراحل ، أول مرحلة في وقت وفي صحة ولا يوجد مـال ، مقيـد ، المرحلـة الثانية أسس مشروع عمل ، صحة جيدة ، ومال وفير ، ولكن لا وقت ، المرحلة الثالثة أسس عملاً وسلم أولاده وصار دخله كبيراً ، وعنده وقت ، مال وفير ، ووقت متسع ولكن صـحة رديئة ، دائماً ينقصك واحدة ، هذه الدنيا يتوافر الوقت والصحة ، ولا تجد المال ، تجد الصحة والمال ولا تجد الوقت ، تجد الصحة والمال أو المال والوقت ولا تجد الصحة ، أما المـؤمن عرف ربه في وقت مبكر فوظف كل طاقاته لهذا الهدف الكبير فهو مع ا دائماً .

هذه الحقيقة التي قلتها قبل قليل تنطبق على أهل الدنيا فقط ، لكنها لا تنطبق أبداً على أهل الإيمان لأن هدفه كبير وهو سـعيد في هذا الهدف ، أقول لكم هذه الكلمة الإنسان متى يشيخ ؟ عندما يختار هدفاً محدوداً ويصل إليه انتهى ، يريد المال جمع المال ، المال صار مملاً هدفك الزواج تزوجت ، شراء بيت اشتريت ، مركبة اشتريت ، إذا كان لك هدف محدود ووصلت إليه أصبحت شيخاً يعني طاعناً في السن ، الحياة أصبحت مملة ، أما إذا كان لك هدف كبير وهو ا عز وجل ، أنت في شباب دائم ، حينما تختار هدفاً كبيراً فأنت في شباب دائم ، حينما تحمل هم المسلمين ، وحينما تنطلق لخدمتهم ولتحقيق آمالهم وأهدافهم فأنت في شباب دائم .

أيها الأخوة ... لهذا الموضوع تتمة نأخذه في درس قادم .

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس السابع والخمسين من دروس مدارج السـالكين فـي منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ولازلنا في منزلة الذوق ، وقد بينت لكم في الدرس السـابق أن حقائق الإيمان شيء وأن حلاوة الإيمان شـيء آخر حقائق الإيمان كخارطة لقصر منيـف على ورق ، أما حلاوة الإيمان أن تسكن القصر نفسه ، وشتان بين ورق عليه صورة قصـر وبين قصر تسكنه وتستمتع به .

وذكرت لكم أيضاً أن الذي يشد الإنسان إلى الدين ليست حقائق الدين الناصعة الواضحة فحسب ، بل حلاوة الإيمان التي جاءت هنا معبراً عنها بكلمة الذوق ، الإيمان فكرة تستوعبها وطعم تذوقه ، إن ذقت طعم الإيمان أصبحت إنساناً آخر ، بذلت الغالي والـرخيص والـنفس والنفيس وكانت راحتك في التعب ، وسعادتك في بذل الجهد وقمة نشوتك في القرب مـن ا عز وجل لأنك ذقت حلاوة الإيمان وذاق حلاوة الإيمان من رضي با ربأ وبالإسـلام دينـاً وبمحمد صلى ا عليه وسلم نبياً ورسولاً .

" من أَنَسِ بنِ مالِكٍ رضي اللهم عنْهم عن النبي صلى اللهم عليه وسلم قَالَ : ثَلاثٌ من كُـن فيه وجد حلاوةَ الإيمانِ أَن يكُون الله ورسولُه أَحب إِليه مما سواهما وأَن يحـب الْمـرء لا يحبه إِلا لِله وأَن يكْره أَن يعود في الْكُفْرِ كما يكْره أَن يقْذَفَ في النارِ "

[البخاري ـ مسلم ـ الترمذي ـ النسائي ـ ابن ماجة ـ أحمد]

" ... ثَلاثٌ من كُن فيه وجد حلاوةَ الإيمانِ أَن يكُون الله ورسولُه أَحب إِليه مما سواهما ... "

وبينت عند التعارض :

" ... وأَن يحب الْمرء لا يحبه إِلا لِله وأَن يكْره أَن يعود في الْكُفْرِ كما يكْره أَن يقْـذَفَ فـي النارِ "

لازلنا في مرتبة الذوق ولكن قمة الذوق في الدار الآخرة ، في الدنيا يـذيقنا ا حـلاوة الإيمان تشجيعاً ، في الدنيا يسمح ا لنا بنفحة من عنده فتحركنا ، في الدنيا نحن بين القـبض والبسط ، مالك يا حنظلة تبكي قال نافق حنظلة :

" عن حنْظَلَةَ الْأُسيدي قَالَ : وكَان من كُتابِ رسول الله صلى اللهم عليه وسـلم قَالَ لَقينـي أَبو بكْرٍ فَقَالَ : كَيفَ أَنْتَ يا حنْظَلَةُ قَالَ قُلْتُ نَافَقَ حنْظَلَةُ، قَالَ : سبحان الله ما تَقُولُ ؟ قَالَ : قُلْتُ نَكُون عنْد رسول الله صلى اللهم عليه وسلم يذَكِّرنَا بِالنارِ والْجنة حتى كَأَنا رأْي عـينٍ

فَإِذَا خَرجنَا من عنْد رسول الله صلى اللهم عليه وسلم عافَسنَا الأزواج والأولاد والضـيعات فنَسينَا كثيرا قالَ أَبو بكْر فَوالله إِنا لنَلقى مثْلَ هذَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وأَبو بكْر حتى دخلْنَـا علـى رسول الله صلى اللهم عليه وسلم قُلْتُ نَافَقَ حنْظَلَةُ يا رسولَ الله فَقَالَ رسولُ اللـه صـلى اللهم عليه وسلم وما ذَاك قُلْتُ يا رسولَ الله نَكُون عنْدك تُذَكرنَا بِالنارِ والْجنة حتى كَأَنا رأْيِ عينٍ فَإِذَا خَرجنَا من عنْدك عافَسنَا الأَزواج والأولاد والضيعات نَسينَا كَثيرا ، فَقَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم : والذي نَفْسي بِيده إِن لو تَدومون على ما تَكُونُون عنْدي وفي الذكْرِ لَصافَحتْكُم الْملائِكَةُ على فُرشكُم وفي طُرقكُم ولكن يا حنْظَلَةُ ساعةً وساعةً ثَلاثَ مرات " .

[مسلم ـ الترمذي ـ ابن ماجة ـ أحمد]

ساعة فيها نشوة ، وساعة فيها فتور ، ويتفاوت المؤمنون في عدد ساعات القرب إلـى عدد ساعات الفتور ، ساعة قرب ومئة ساعة فتور مرتبة متدنية ، خمسـين سـاعة قـرب وخمسين ساعة فتور ، كل ساعة وساعة ، تسعين ساعة قرب وعشر ساعات فتور ، أما مئـة بالمئة الأنبياء وحدهم ، المؤمنون ساعة وساعة يتفاوتون في عدد ساعات القرب إلـى عـدد ساعات الفتور .

وإياكم ثم إياكم ، ثم إياكم ، أن تتوهموا أنه في ساعة الفتور تقع المخالفة ، لا دائماً وأبداً في طاعة الله ولكن بين تألق وبين فتور بين اتقاد وبين خمول ، بين إقبال وبين قعود لا بـين طاعة ومعصية لا ، إذا كان بين طاعة ومعصية ليس هذا حال أهل الإيمان .

أما قمة هذا الذوق في الجنة ، جنات تجري من تحتها الأنهار قال تعالى :

مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٍ وَأَنۡهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَـٰرٌ مِّنۡ خَمۡرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنۡهَـٰرٌ مِّنۡ عَسَلٍ مُّصَفًّىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾

[سورة محمد]

۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٌ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٌ مَّكۡنُونٌ ﴿٢٤﴾

[سورة الطور]

يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾

[سورة الواقعة]

قطوف هذه الأشجار الدانية ، قال تعالى :

﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

[سورة الحاقة]

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾

[سورة الإنسان]

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

[سورة الإنسان]

إلى أبد الآبدين ، قمة الذوق في الجنة ، ذوق مستمر ، ذوق متنامٍ وما هم منها بمخرجين، هل تعتقدون أيها الإخوة أن فوق هذا الذوق ذوق؟ نعم أنا أجيب عنكم ، نعم وألف نعم ، أعلى من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار ، وأعلى من الحور العين ، ومن الولدان المخلدين ومن قطوف الجنة الدانية ، أعلى من ذلك النظر إلى وجه ا الكريم قال تعالى:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

[سورة القيامة]

سؤال ثانٍ ، ورد في بعض النصوص الصحيحة أن المؤمن يرى وجه ربه الكريم في الجنة كما يرى القمر ليلة البدر ، وفي بعض النصوص أنه يغيب خمسين ألف عام من نشوة النظرة ، هل بعد هذا الذوق من ذوق؟ الجواب نعم ، ماذا بعد النظر إلى وجه ا الكريم ؟ قال تعالى :

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ ﴾

[سورة يونس : آية " ٣٦ "]

الحسنى هي الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه ا الكريم .

لو دخلت إلى بيت وكان صاحب البيت على درجة من التألق والجمال يفوق حد الوصف ، هيبة ، وقار ، نور ، جسم جميل ، وجه منير ، حركات متألقة ، أنت ذهلت بهذا الجمال وهذه النورانية ، لكنه لم ينظر إليك ولم يعبأ بك ، ولم يلتفت إليك ، أنت مستغرق في كماله

ونورانيته ، وجماله ، وهو منصرف عنك ألا تتألم ؟ ها أنت تنظر إلى وجهه وتستمتع بتألقه ، وتكتشف نورانيته ، ولكنه لا يلتفت إليك فوق هذه المرتبة ، قال تعالى :

وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ

[سورة آل عمران : آية " ١٥ "]

أكبر شيء في الجنة أن يشعرك ا أنه راض عنك ، وأنه يحبك وأنك تسير عنـده ، فصار في جنات تجري من تحتها الأنهار ، نظر إلى وجه ا الكريم ، رضوان من ا أكبر ، هذه الجنات التي تجري من تحتها الأنهار ، وهذا النظر إلى وجه ا الكريم ، وهذا الرضوان العظيم نضحي به كله من أجل سنوات معدودات في الدنيا مشـحونة بالمتاعـب ، والقلـق ، والخوف ، والمرض ، وما إلى ذلك أليس هذا هو الخسران المبين أن يبيع الإنسـان آخـرت دبنياه ؟ أن يبيع جنةً عرضها السماوات والأرض ، أكلها دائم وظلها إلى أبد الآبدين بسنوات معدودة لا تصفو لإنسان ، إن جاء المال فقد الولد الصالح وإن جاء الولد الصالح فقـد المـال وإن جاء المال والولد الصالح لم تكن زوجته كما يتمنى ، وإن كانت زوجته كما يتمنى يشـكو من بعض الأمراض ، وإن كان صحيح البدن هناك مشكلة في عمله .

إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء ، قد جعلها ا دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبة ، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا ، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي ، أيعقل أن نضيع هذه الآخرة ويقيننا بحصولها يقين قطعي لسنوات معدودات .

قال : من قطعه عن هذه الجنة أمل في الدنيا فقد فاز بالحرمان ورضـي لنفسـه بغايـة الخسران وا المستعان وعليه التكلان وما شاء ا كان .

ومن عاقته أمنية ، وهي ما يتمناه العبد من الحظوظ ، من عاقه أمل أو عاقته أمنيـة ، الأمل ممكن ، الأمنية غير ممكنة ، ألا ليت الشباب يعود يوماً أمنية ، لن تكون هذه الأمنيـة ، من عاقه أمل أو عاقته أمنية فقد فاز بالحرمان ورضي لنفسه بغاية الخسران .

الأماني الباطلة رؤوس أموال المفاليس ، المفلس رأس ماله الأماني يتمنى ، بها يقطعون أوقاتهم وبها يتلذون كتلذذ من زال عقله بالمسكر أو بالخيالات الباطلة ، وفي الحديث المرفوع :

" عن أَبِي يعلى شَدَّاد بنِ أَوسٍ قَالَ : قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم الْكَيس مـن دان نَفْسه وعملَ لِما بعد الْموت والْعاجِز من أَتْبع نَفْسه هواها ثُم تَمنى على الله " .

[الترمذي ـ ابن ماجة]

وقال بعض العلماء : ولا يرضى بالأماني عن الحقائق إلا ذوي النفوس الدنيئة الساقطة .

أيها الإخوة الكرام ... ثم يذوق العبد بالإرادة طعم الأنـس ، والإرادة وصـف للمريـد فالعبد يعتقد بأحقية وعد ا فينطلق هناك مرتبة أعلى ، أنت حينما تعتقد بأحقية وعد ا تنطلق ، أما حينما تأنس با حالاً تزداد انطلاقاً ، واحد وعد أن يدخل بيتاً جميلاً ، هو يسعى أما إذا دخل يسعى سعياً حثيثاً للبقاء فيه ، تضاعفت همته .

الأنس با تعالى أعلى بما يرجوه العابد من نعيم الجنة ، يعني يوجد جنة نسعى إليها ، ويوجد جنة في الدنيا نعيشها ، الجنة التي نسعى إليها جنة الآخرة ، أما الجنة التي نعيشها جنة القرب في الدنيا ومن لم يدخل جنة الدنيا لم يدخل جنة الآخرة ، هناك جنة وعـدنا ا بهـا وجنة ينبغي أن نعيشها ، لأن الجنة التي وعدنا بها أجمل ما فيها الاتصال با وبإمكانك فـي الدنيا أن تتصل با لذلك بعضهم يوجه قول النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال : أبو بكـر في الجنة .

يعني هو الآن في الجنة ، في جنة القرب ، جنة القرب في الدنيا في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، هناك آية تؤكد هذا ؟ قال تعالى :

وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾

[سورة محمد]

أي أذاقهم بعضها ، أذاقهم نموذجاً منها في الدنيا ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم .

الأنس با مقام من مقامات أهل القرب ، هو على التحقيق مقام الإحسان ، هناك مقـام الإسلام ، ومقام الإيمان ، ومقام الإحسان الإسلام أن تنصاع للواحد الديان ، والإيمان أن تقبل على ا والإحسان أن تعبده كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال بعض العارفين : كل ما سوى ا عارض ، شيء طارئ جـاءت موجـة حـر وانتهت ، سحابة صيف عارضة ، سخونة انتهت أما الشيء القائم ، الدائم هو المعول عليـه ، فقالوا : ا عز وجل هو الحي الباقي على الدوام ، ما سوى ا عارض ، من أراد سوى ا وقع في العارض ولم يهتم بالجوهر ، في الحياة حقيقة ليس بعدها حقيقة ولا قبلها حقيقـة ولا فوقها حقيقة ، أن تسعى إلى مرضاة ا عز وجل ، كل شيء يقربك إلى ا أمر به النبـي ، وكل شيء يبعدك عن ا نهاك النبي عنه ، المؤمن همه الأوحد أن يتقرب إلى ا ، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق .

واسم ا الودود هو الذي يكرم عباده متودداً لهم ، وهو الغفور الودود أكرمك بنعمـة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد ، منحك عقلاً ، منحك جسماً ، في أي صورة

ما شاء ركبك ، خلقك في أحسن تقويم ، أكرمك بمأوى ، خلق لك الطعام ، خلق لـك سـائر المخلوقات سخر لك ما في السماوت وما في الأرض جميعاً منه ، منحك نعمة الزوجة ، نعمة الولد ، حدث ولا حرج ، كل شيء تتنعم به هو تودد ا إليك ، هذا معنى .

المعنى الثاني خلق بين عباده وداً ، هناك ود بين المؤمنين ، قال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾

[سورة مريم]

الود بين المؤمنين من خلق ا عز وجل ، قال تعالى :

وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾

[سورة الأنفال]

الود بين الزوجين ، الود بين الأم وأولادها ، الود بين الأولاد والأم الود بـين الأولاد والأب، الود بين الإخوة ، الود بين الجيران ، هذا الود من خلق ا عز وجل ، أمـا المعنـى الثالث مهم وخطير .

المعنى الثالث : لأنه خلقك ليسعدك خلق لك ألف طريق وطريق إليـه الطرائـق إلـى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، رجل قوي ملك لا تسـتطيع أن تصل إليه ، لا أن تقابله ولا أن تزوره ، ولا أن تقدم له هديةً ، ولا أن تتصل به هاتفياً ، لا يوجد طرق سالكة له ، لكـن ا عز وجل خلق لك ألف طريق وطريق إليه ، وأنت في بيتك هناك عشرات الطرق إليـه ، أن تكون زوجاً صالحاً ، أباً رؤوفاً ، أن تكون ابناً باراً ، أن تكد وتسعى مـن أجـل أن تربـي أولادك ، في عملك لك ألف طريق إلى ا ، أن تنصح المسلمين ، أن تكـرمهم ، أن تخفـف عنهم ، أن تنصحهم ، في الطريق لك ألف طريق وطريق إلى ا عز وجل ، فالودود يتـودد إلى عباده بالإكرام ، الودود خلق بين عباده علاقات الود ، والودود خلق لك إليه ألف طريـق كي تتودد إليه ، كي يكرمك بعد ذلك .

أيها الإخوة الكرام ...الأنس با حالة من حالات مقامات الإحسـان، قال : هذا الحـال حالة الأنس با التي هي من مقامات الإحسان تقويها ثلاثة أشياء : دوام الذكر ، قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾

[سورة الأحزاب]

ودليل صدق المحبة ، اتباع سنة النبي ، لقول ا عز وجل :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾

[سورة آل عمران]

ربنا عز وجل ما قبل من أحد من عباده دعوى محبته إلا بالدليل فالذي يقـوي حالـة الأنس با التي هي فرع من حالة الذوق الذوق منزلة من منازل السالكين إلى ا عز وجل ، ويقوي هذه الحالة حالة الأنس با عز وجل إحسان العمل ، عمل طيـب ، محبـة صـادقة علامتها اتباع سنة النبي ، كثرة ذكر ا عز وجل ، هذه تقوي حالة الأنس با عز وجل .

هناك عوارض كثيرة مفسدة ، نحن نعلم أن هناك عوائق وهناك صوارف ، والمـؤمن البطل هو الذي لا يسمح لعائق أن يعيق حركته إلى ا عز وجـل ولا يسـمح لصـارف أن يصرفه عن ا عز وجل يعني طالب ملتفت إلى أستاذه في الصف قد يسمع صوتاً فينظر من النافذة فينصرف عن أستاذه ، فالمؤمن لا ينصرف ولا يعيقه عائق عن ا عز وجـل ، قـال تعالى :

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾

[سورة الإنسان]

يعني يوجد أيام صوارف من حب الشهرة ، قال : هناك إخلاص يحتاج إلـى إخـلاص ، هناك إنسان يحب أن يؤكد ذاته فيتحدث عن أعماله ، وعن إنجازاته ، وعن أقواله ، هـذا انصرف إلى حبه ، لذاته وتأكيد ذاته عن الإقبال عن ا عز وجل .

أيها الإخوة ... هناك موضوع دقيق جداً أوضحه لأنه في هذا الدرس مكانـه الصـحيح الإنسان له حالان ، له حالة مع الخلق وله حالة مع الحق ، البطولة أن تكون مع الخلق ومـع الحق في وقت واحد ، يعني كما ذكرت من قبل العبادة المطلقة ، يعني أحياناً في وقت السحر أن تكون مع ا مصلياً ، ذاكراً ، متهجداً ، تالياً للقرآن ، في وقت جلست إلى أناس يستمعون إليك يجب أن تكون معهم ، وأن تؤثرهم على حظ نفسـك من ا عز وجل ، عندك ضـيف إكرام الضيف هو العبادة الأولى ، أقامك ا رجلاً غنياً عبادتك الأولى إنفاق المـال ، أقامـك رجلاً عالماً عبادتك الأولى تعليم العلم ، أقامك رجلاً قوياً عبادتك الأولى إنصـاف الضـعيف فهذا العبادة المطلقة مهمة جداً أيها الإخوة ، أن تعبد ا فيما أقامك وفي الظرف الذي وضعك فيه وفي الوقت الذي يظلك ، لك هوية ، ويوجد أرضية ، وفي زمان ، فـالظرف لـك ابـن

مريض العبادة الأولى العناية بهذا الابن ، عندك ضيف العبادة الأولى إكـرام هذا الضـيف ، هذا ظرف ، أما أنت من أنت ؟ رجل علم ، علم العلم رجل مال أنفق المال ، رجـل قـوي أنصف الضعيف ، فبهذه الطريقة تجمع بين حالك مع ا وبين حالك مع الخلق .

في القرآن الكريم قصتان نموذجيتان عن سيدنا داود ، وعن سيدنا سليمان ، سيدنا داود آثر أن يكون مع الحق على أن يكون مع الخلق فعاتبه ا عز وجل ، وسيدنا سليمان آثـر أن يكون مع الخلق عن أن يكون مع الحق فعاتبه ا عز وجل فلابد من التوازن ، وهـذا شـأن أكثر المؤمنين ، أحياناً يقبل الناس على الإنسـان يعـيش معهـم ، يـذكرهم يلقـي علـيهم المحاضرات ، كل وقته معهم على حساب وقته مع ا فهذا آثر أن يكون مع الخلق عـن أن يكون مع الحق صار في اختلال توازن ، إنسان آخر ليس له عمل صـالح عملـه تهجـده ، صلاته ، ذكره تلاوته ، ولكن ما علم أحداً، وما وجه أحداً ، ولا سلك أحداً ، ولا أعان إنساناً ، ولا ربى أحداً ، همه صفاؤه ، وهمه ذكره ، وهمه إقباله ، وهمه حظه من ا ، هذا عابـد ، وذاك عالم ، ولكن العالم يحتاج إلى شحنة روحية من شحنات العابد ، والعابد يحتاج إلى عمل صالح من أعمال العالم ، لابد من التوازن الإسلام وسطي ، الإسلام متوازن ، الفضيلة وسـط بين طرفين ، الإسلام بين الإفراط والتفريط بين التطرف والغلو ، الإسلام في الوسـ ـ ـط ، الإسلام اعترف بالإنسان كائناً له جسد قال عليه الصلاة والسلام :

" ... لكني أُصلي وأنَام وأَصوم وأُفْطر وأَتَزوج النساء فَمن رغب عن سنتي فَلَيس مني "

[البخاري ـ مسلم ـ أحمد ـ النسائي]

جاءت امرأة إلى بيت النبي عليه الصلاة والسلام رثة الهيئة وضعها لفت نظر السـيدة عائشة ، سألتها عن حالتها ولما هي كذلك ؟ قالت: إن زوجي صوام قوام ، طلب النبي زوجها وهو سيدنا عثمان بن مظعون ، قال : يا عثمان أليست لك بي أسوة إن لأهلك عليك حقاً ، وإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً فأعط كل ذي حق حقه ، في اليوم التالي جـاءت امـرأة عثمان بن مظعون إلى بيت النبي عطرة نضرة ، فقالت لها السيدة عائشة : مالك هكذا أصبحت ، قالت : أصابنا ما أصاب الناس .

فالإسلام متوازن ، الإسلام اعترف بالجسم له حاجات ، حاجات بقاء الفرد الطعام والشراب، وحاجات بقاء النوع بالجنس ، لكنه أقره قوةً إدراكية فجعل غذاءه العلم قال تعالى :

هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

[سورة الزمر : الآية : " ٩ "]

بل إن الذي يرفع الإنسان عند ا عز وجل هو العلم لقوله تعالى :

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

[سورة الأنعام]

يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾

[سورة المجادلة]

بل إن رتبة العلم أعلى الرتب ، واعترف به كائناً جمالياً ، له نفـس غـذاؤها الحـب وأعلى درجة في الحب أن تحب ا ، يعني أعلى سعادة أن تكـون مـع أصـل الجمـال ، والإنسـان كما تعلمون يحب الجمال والكمال ، والنوال ، فطرته ، جبلته ، تصميمه ، يحـب الجمال يحب الجمال، والكمال، والنوال ، يحب الذي يعطيه ، ويحـب الإنسـان الكامـل ، ويحب الإنسان الجميل ، الإسلام أقر في الإنسان جسده وحاجات جسده ، وأقر فـي الإنسـان عقله وحاجات عقله ، وأقر في الإنسان نفسه وحاجات نفسه ، فلذلك الإسـلام متـوازن فـأي إنسان يسلك طريقاً واحداً ، أي إنسان يؤثر جانباً على حساب جانب ، أي إنسان يتعامل مـع نفسه على أنه قلب فقط ، فقد تطرف ، أي إنسان يتعامل مع نفسه على أنه عقل فقـط ، فقـد تطرف ، أي إنسان يتعامل مع نفسه على أنه جسد فقط ، فقد تطرف ، وهـذا حـال بعـض المسلمون أناس يعتنون بأجسامهم فقط ، يأتي الموت ينهي كل هذه المكتسبات ، مهما اعتنـى الإنسان بجسمه لابد من أن يموت .

أنا سمعت عن إنسان في مصر عنايته في جسمه تفوق حد الخيال في كل حياته ما تناول عشاء إلا الفواكه ، وما أكل إلا اللحم الأبيض وكان يعتني بالرياضة عنايةً فائقة ، وما ركـب طائرةً في حياته ثم مات ، ولابد من أن يموت لأن كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العـزة والجبروت ، والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من نزول القبر ، فأنت حينما تتعامل مع جسمك ومع نفسك ، ومع عقلك ، تتوازن فالإسلام وسطي والإسـلام متوازن .

أيها الأخوة ... العلماء وقعوا في حيرة أيؤثر الإنسان حظوظه من إقباله على ا أم أن يؤثر حظوظه من العمل الصالح بأن يكون مع الخلق، ماذا يفعل؟ قال : المؤمن الصادق يفعل ما يرضي ا فإذا كان الذي يرضيه أن تكون مع الخلق يجب أن تؤثر الخلق على حظك مـن ا وإن كان الذي يرضيه أن تكون مع الحق وجب أن تؤثر حظك من ا على حظـك مـن الخلق ، ما المناسب ؟ وهذا شيء يعرفه الإنسـان بالفطرة ، إنسان لهفان جاءك من أقصـى

البلاد طرق بيتك لتحل مشكلة ، ليستفتيك في قضية ، لتصلح ذات بينهوبين زوجه لتعينه على متاعب الدنيا ، قل له ليس هنا ، أنا مشغول ، هذا وقت ذكر ، استقبله واجلس معه وحل لـه مشكلته ، فأنت في أعلى درجات الذكر .

وا لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر واعتكافه في مسجدي هذا .

سيدنا ابن عباس كان معتكفاً في مسجد رسول ا بعد وفاته ، جاءه رجل رآه كئيبـاً ، قال له : مالي أراك كئيباً ؟ قال : وا ديون لزمتني ما أطيق سدادها ، قال : لمن ؟ قـال : لفلان ، فقال ابن عباس أتحب أن أكلمه لك ، قال : إذا شئت ، فخرج ابن عباس من معتكفه يوجد إنسان استغرب أنت معتكف ، قال له : أما علمت أنك معتكف قال له : بلى ، ولكننـي سمعت صاحب هذا القبر والعهد به قريب وا لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لـي مـن صيام شهر واعتكافه في مسجدي هذا .

كلامي دقيق ماذا أؤثر أن أكون مع الخلق أم أن أكون مع الحق ؟ هناك مـن يـؤثر أن يكون مع الحق ، يعني أكبر همه سـلامة صدره إقباله ، صفاؤه ، لا يعكـر نفسـه أبـداً ، والنبي صلى ا عليه وسلم قال:

" من خالط الناس وصبر على أذاهم خير ممن لم يخالطهم ولا يصبر على أذاهم "

ينسـحب من أي موضوع من بيته إلى عمله ، هذا رجل صـالح وعابـد، ومسـتقيم ، ومصلٍ ، وذاكر ، لكن لا يحب أن يخدم الخلق يحب أن يكون مع ا دائماً هذا عابد ، وعـالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، العابد يعمل لذاته فقط ، يؤثر ذاته على الخلـق امـا الإنسان الآخر الذي يكون مع الخلق يعلمهم يرقى بهم ويرقون به ، ويبدو :

" ... فَوالله لأن يهدي الله بِكَ رجلاً خَيرٌ لكَ مِـن أَن يكُونَ لكَ حمر النعم"

[البخاري ـ مسلم ـ أبي داود ـ أحمد]

فلابد من التوازن .

أيها الإخوة ... القول الفصل في هذا الموضوع ، الإنسان الصـادق فـي طلـب يـؤثر مرضاة ربه على حظه ، فإن كان رضا ا في القيام بذلك العمل وحظه في أن يكون مـع الخلق تخلى عن حظه وقام بما يرضي ا عز وجل ، ومتى علم أن ا عز وجـل راض عنه فقد حقق أمنيته في الحياة .

دائماً وأبداً أنظر أي الأمرين أحب إلى ا لا أحب إلى نفسك إنسان أحياناً يؤاثر يجلس وحده يقرأ قرآن أو يتفكر أو يطالع أو يذكر ا عز وجل عن أن يجلس مع إنسان عنيد غيـر منطقي ، يحتاج أن يبين له الحق مع أدلته ، لكن أنت إذا جلست مع إنسان وهذه الجلسة انتهت هدايته ، قال تعالى :

وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ

[سورة المائدة : آية " ٣٢ "]

ما كل شيء ممتع هو الأنفع ، قد يكون الشيء المتعب هو الأنفع على كلٍ وا أعلـم الإنسان يعلم بفطرته ما الذي يرضي ا عز وجل ؟ أحياناً تشعر أو يلقي ا في روعك أنـك إذا جلست مع الناس كنت أقرب إلى ا مما لو جلست مع نفسك وأحياناً تجد جلسة عادية كلام لا يوجد به صدق ، لا يوجد اهتمام ، دع هؤلاء وكن مع ا يوجد حالات يجب أن تكون مع الخلق بشكل مستمر إذا أمر جامع مشكلة كبيرة حلت بالمسلمين لابد أن تنهض لخدمتهم ، أما أن تنسحب من خدمتهم وأن تؤثر الصفاء والذكر على هذا ، هذا لا يرضي ا وا أعلـم إن كل مؤمن يعلم بفطرته وبحاسته السادسة ما الذي يرضي ربه ، ولا تكن مع ذاتك ، ولا تكـن مع حظك ، كـن مع الذي يرضي ا عز وجل ولو خالف هواك .

على كلٍ الهوى أنواع ، حتى لو كان الهوى أن تكون مع ا حينما ترى أنه لابـد مـن خدمة الخلق وأن تكون معهم ، سيدنا خالد لما فتح البلاد ما كان يبكي كثيراً على مصلاه كمـا يفعل إنسان يصلي قيام الليل لكنه فتح هذه البلاد وجعل أهلها مسلمين ، وهذه البلاد تنعم بنعمة الإيمان بفضل هؤلاء الصحابة الكرام الذين خرجوا وفتحوا البلاد وبذلوا الغـالي والـرخيص والنفس والنفيس .

الملخص : أن مرتبة الذوق هي من أقرب المراتب إلى النفس البشرية ، وهي قمة سعادة الإنسان مع ا عز وجل ، ولكن هذا الذوق أحياناً يزداد بأن تكون مع ا وقد يزداد أحياناً بأن تكون مع الخلق ، ورضاء ا عز وجل مقدم على أي رضى ، وا بصير بالعباد .

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام :

مع الدرس الثامن والخمسين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، وقد مر بنا في درسين سابقين منزلة الذوق وقد ذكرت أن حقائق الإيمان شيء وحـلاوة الإيمان شيء آخر فقد قال عليه الصلاة والسلام :

" عن عباس بن عبد المطلب أنه سمع رسولَ الله صلى اللهم عليه وسـلم يقُـولُ : ذَاقَ طَعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد نَبِيا رسولاً "

[الترمذي ـ مسلم ـ أحمد]

وذكرت لكم أيضاً أن النبي صلى ا عليه وسلم يقول :

" عن أَنَس بن مالِك رضي اللهم عنْهم عن النبي صلى اللهم علَيه وسلم قَالَ : ثَلاثٌ مـن كُن فيه وجـَد حلاوةَ الإيمان أَن يكُون الله ورسولُه أَحب إِليه مما سـواهما وأَن يحـب المرء لا يحبه إِلا لِله وأَن يكْره أَن يعود في الْكُفْر كما يكْره أَن يقْذَفَ في النار "

[البخاري ـ مسلم ـ الترمذي ـ النسائي ، ابن ماجة ـ أحمد]

وبينت كيف أن الإنسان ينبغي أن يوازن بين أن يكون مع الخلق وأن يكون مـع الحـق ، لابد من أن تؤثر ما يرضي ا ، فإذا كان رضى ا أن تكون مع الخلق ينبغي أن تكـون مع الخلق، وإذا كان رضى ا عز وجل أن يكون مع الحق ينبغي أن تكون مع الحق وهذا محور الدرس الثاني .

الدرس الثالث والأخير في منزلة الذوق وهي في من منازل إياك نعبد وإياك نستعين فـي مدارج السالكين إلى رب العالمين ، الموضوع الثالث هو أن الإنسان حينما يصطلح مع ا ويتصل به يفرح ، الفرح الحقيقي، قال تعالى :

قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ



[سورة يونس]

وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

[سورة الزخرف]

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

[سورة آل عمران]

فحينما تفرح برحمة ا التي تنزلت على قلبك ، وحينما تفرح بالعلم الذي امتن ا به عليك ، وحينما تفرح بالحكمة التي آتاك ا إياها ، وحينما تفرح أنك على الصراط المستقيم ، وحينما تفرح أنك في اتجاه الجنة ، وحينما تفرح أن ا راض عنك ، هذا هو الفرح الحقيقي ، هذا الفرح الذي لا يأتي بعده حزن .

بعض الأمثلة يذكرها المفكرون الأجانب : من يضحك أولاً يبكي كثيراً ، ومن يضحك أخيراً يضحك كثيراً ، قال تعالى :

فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾

[سورة المطففين]

إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾

[سورة المؤمنون]

إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾

[سورة الإنشقاق]

ضحك أولاً ، قال تعالى :

وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾

[سورة الإنشقاق]

ضحك آخراً ، فالبطولة أن تضحك آخر الناس لأنك إن ضحكت آخـرهم كـان الضـحك مستمراً ، والضحك هنا أي السعادة ، الآن في مشكلة الإنسان حينما يصطلح مع الله ويتوب إليه ، وحينما يشعر أن الله راض عنه لاشك أنه يفرح ولكن هـذا الفـرح فيـه منزلـق ، المنزلق أن يأمن به مكر الله ، ما مكر الله ؟ التدبير ، الإنسان حينمـا يفـرح بفضـل الله تضعف همته ، حينما يأخذ علامات عليا في المذاكرات تضعف همته في الدراسة ، فيميل إلى الراحة ، يميل إلى أن يأخذ الوظيفة من صديقه ، يميل إلى أن يغيب عن المدرسة لأنه هو حقق علامات عالية .

فالفرح بفضل الله وبرحمته معه منزلق أن تأمن تدبير الله الذي يسوق الإنسان إلى أعلـى المراكز ، لذلك قال العلماء من أعظم مقامات الإيمان الفرح بالله والسرور به :

وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾

[سورة المطففين]

لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾

[سورة الصافات]

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ

﴿٥٨﴾

[سورة يونس]

قل لي ما الذي يفرحك أقل لك من أنت ، هل يفرحك أن تجمع مالاً كثيراً أنت مـن أهـل الدنيا ، هل يفرحك أن ترتقي إلى منصب رفيع؟ أنت من أهل الـدنيا ، هـل يفرحـك أن تنغمس في الملذات الدنيوية ؟ أنت من أهل الدنيا ، هل يفرحك أن الله علمك ما لم تكن تعلم ؟ وكان فضل الله عليك عظيما ، هل يفرحك أن الله آتاك الحكمـة ، هـل يفرحـك أن الله يستجيب دعاءك دائماً ؟ هل يفرحك أن الله استعملك في الخير ؟ هل يفرحـك أن الله عـز وجل أجرى على يدك هداية العباد؟ قل لي ما الذي يفرحك أقل لك من أنت ، ما الذي يدخل على قلبك السرور ؟ أن تكون مع الله أم أن تكون غنياً هل تقول مع الشاعر :

فليتك تحلـو والحياة مريـــــرة ... وليتك ترضى والأنام غـضـــــــاب

وليت الذي بيني وبيـنك عامر ... وبيني وبين العالمين خـــــــــــراب

إذا صح منك الوصل فالـكل هين ... وكل الـذي فوق التـراب تراب

* * *

إخواننا الكرام :

مرتبة الفرح بفضل ا عز وجل مرتبة طبيعية ولكن فيها منزلق أن هذا الفرح قد يقـودك إلى التراخي ، إلى الاسترخاء ، إلى ضعف الهمة ، إلى أن تطمئن إلى أن ا يحبك ، قـد يقودك إلى أن تطمئن إلى أن لك عند ا مقعد صدق عند مليـك مقتـدر ، هـذه الراحـة والاستجمام ، والاطمئنان ، والتساهل ، وضعف الهمة ، هذه تستوجب المعالجـة ، يـأتي تدبير ا عز وجل ليدفعك من جديد إلى هدفك النبيل يأتي تدبير ا عز وجل ليرقى بـك إلى أعلى مستوى ، لذلك المؤمنون لهم مصائب خاصـة بهـم ، المؤمنـون مؤمنـون ، والمؤمنون أطهار ، والمؤمنون مستقيمون ومع ذلك قال تعالى :

وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

[سورة البقرة]

أيها الإخوة :

يقول ا عز وجل :

كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾

[سورة العلق]

يعني بصراحة الأنبياء ، والمرسلون ، والصديقون ، وكبار المؤمنين همتهم إلى ا عاليـة في الرخاء والشدة ، لكن ضعاف المؤمنين ، أو أوساط المؤمنين همتهم إلى ا عالية فـي الشدة أما في الرخاء يميلون إلى الراحة ، فلذلك الفرح بفضل ا عز وجل قد يقودك إلـى التساهل إذاً لابد من أن تكون حذراً وأنت في قمة فرحك بفضل ا عز وجل .

أحياناً شخص يكون له مكانة كبيرة يقرب موظفاً عنده ، يمازحه هذا الموظف إذا كان ذكياً وعاقلاً يتقرب من سيده ويتجاوب معه ولكن لا يغيب عن ذهنه أبداً أنه موظف صغير وأن سيده مدير كبير وأنه إذا قربه ليس معنى ذلك أن يرفع الكلفة بينهما ، فـالموظف الموفـق

مهما قربه مديره يبقى في حدود الأدب والذي هو أحمق إذا قربه مديره يتجاوز حده فيطرد من قربه، هذه قاعدة ، فإذا إنسان فرح بفضل الله عز وجل يجب أن يكون مع هذا الفـرح يقظة وانتباهاً وحذراً شديداً أن ينقلك فرحك إلى ضعف الهمة والتساهل في تطبيق الأمـر والنهي ، وهذه الآية:

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾

[سورة العلق]

حينما يستغني ، الصحيح يتوهم أن صحته طيبة فيستغني ، الغني يتوهم أنه غني والله آتـاه المال يستغني عن فضل الله فإذا استغنى تأتيه مشكلة لا تحلها ألوف الملايين ، أنا مرة كنت عند طبيب قلب فجاء اتصال هاتفي يبدو أهل مريض ، سمعتهم يقولون : أي مكـان فـي العالم نأخذه وأكبر مبلغ ندفعه . قال لهم : لا يوجد أمل الورم الخبيث بالدرجة الخامسـة لا تجدي معه لا عملية ولا مستشفى ولا أي بلد أجنبي ، فالإنسان عندما يعتد بماله له علاج ، ولما يعتد بمكانته له علاج ولما يعتد بعلمه له علاج ، لذلك قالوا الفرح بالنعمة قـد ينسـي المنعم ، إنسان خلع عليك خلعةً ، ثوباً جيداً جداً فهذا انتبه إلى الثـوب ولـون الثـوب ، وقياس الثوب ، وارتداه ووقف أمام المرآة ونسي أن يشكر الذي أهداه هذا الثـوب ، يقـال هذا اشتغل بالنعمة عن المنعم اشتغل بالشيء عن الذي قدره له ، لذلك المـؤمن لا تغيـب عن مخيلته الآية الكريمة :

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

[سورة النحل]

حتى لو إنسان ضحك ، كان بين أهله وأولاده وانطرح موضوع طريف وضحك ، يجب أن يعلم علم اليقين أن الله سمح له أن يضحك لأنه عافاه ، ليس ملاحقاً بجرم سياسي ، لا يوجد بحقه مذكرة بحث بجرم مدني ، ولا يوجد عنده فشل كلوي ، ولا تشمع كبد ، ولا انسـداد شريان ، ولا تبديل صمام ، ولا ورم خبيث لا هو ولا زوجته ولا أولاده، ويسكن في بيت وعنده دخل يكفي لمصروفه فلما طرح موضوع طريف ضحك يجب أن لا تنسى فضـل الله عز وجل وأنه هو أضحك وأبكى ، الذي يضحك يبكي ، وقد ترى رجالاً يبكون .

دخلت إلى عند إنسان صار معه خثرة بالدماغ فشُل ، ما إن رآني حتى أجهـش بالبكـاء ، صار عاجزاً ، كان ملء السمع والبصر شخصية قوية ، أموره مضـبوطة فلمـا شـلت أعضاؤه وانعقد لسانه كلما يدخل عليه إنسان ليعوده يبكي ، قال تعالى :

وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾

[سورة النجم]

فالإنسان إذا ضحك فليشكر المولى على أنه سمح له أن يضحك ا عز وجل يقول :

وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا

زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدًا

[سورة النور : من آية "٢١"]

كلنا في هذا المسجد لولا فضل ا علينا ورحمته ما كنا في هذا المسجد كنا في ملهى ، كنا في مكان يعصى ا فيه ، الآن السجون ملأى ببشر مثلنا ، الزاني ، ومتعاطي المخدرات ، وشارب الخمر والسارق ، والمحتال ، والمهرب ، ا عز وجل تفضل علينا ، وقد يكون إنسان في أعلى مستوى فلما يغضب ا عليه يصبح في أسفل سافلين ويعـذب ، وتـؤتى بأمواله كلها ، وكان فضل ا عليك عظيما .

مرة دخلت إلى عند بعض إخواننا العلماء بيته متواضع ولكن في آية قرآنية لما قرأتها اقشعر جادي ، هو اختار هذه الآية :

وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

[سورة النساء]

هذا هو الفضل العظيم ، الفضل العظيم أن تكون زاكي النفس ، قال تعالى :

﴿٢١﴾ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدًا

[سورة النور]

وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ

ظَهِيرًا لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

[سورة القصص]

أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

[سورة الأعراف]

إخواننا الكرام :

الإنسان في ساعات قوته وجبروته إذا لم يدخل حساب الله عز وجل في خططه فهو أحمق ، وربنا عز وجل لحكمة بالغة يرخي له الحبل وقد يصعد صعوداً حاداً فإذا بلغ قمة الصعود سقط سقوطاً مريعاً وهذا ما يسمى ببطش الله عز وجل ، إن بطش ربك لشديد والله أعرف أناساً تهتز لوجودهم الرجال يعذبون وحكموا بالسجن الله عز وجل منتقم ، الإنسان إذا كان قوياً وظالم ينتقم منه الله عز وجل .

بعض العلماء الصالحين يقول : اللهم لا تخذلني حتى آمن مكرك ولا أخافه . أحياناً الإنسان ينسى أن الله سوف يحاسبه فيرتاح يرى نفسه في بحبوحة وقوي ولا يوجد عنده مشكلة يتخذ مواقف لا مبالية وينسى أن الله سوف يؤدبه ، لذلك الإنسان حينما يذكر بالحق ولا يستجيب يقسو قلبه ثم يكون الران عليه ، قال تعالى :

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

[سورة الأنعام]

بالمناسبة إخواننا الكرام ، قال تعالى :

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

[سورة يونس]

وفي آية ثانية قال :

لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾

[سورة القصص]

كيف نوفق بين الآيتين ، الله عز وجل نهانا أن نفرح بالدنيا لأنه من عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء ، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبى ، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي .

﴿ لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾

[سورة القصص]

لا تفرح بالدنيا لأنها مؤقتة ، افرح بفضل الله عز وجل.

أيها الإخوة :

الشيء الذي ينبغي أن يكون هو أنك حينما تفرح بفضل الله عز وجل هذا الفرح ينبغي أن يقودك إلى الشكر والشكر كما تعلمون على مستويات ثلاثة ، المستوى الأول حينما تعزو النعمة إلى الله عز وجل فهذا أحد أنواع الشكر ، يعني أقرب مثل إذا سمعت في الأخبار أو قرأت في الصحيفة اليومية أن منخفضاً متجهاً نحو القطر هل ترى أنه منخفض أم أنها رحمة الله ، حينما تفرغ المثانة وأنت مرتاح لا يوجد انسداد ولا التهاب ، ولا يوجد بروستات ولا يوجد مشكلة ، هل ترى أن جسمك سليم أم أن الله عز وجل امتن عليك بالصحة ، حينما تصعد درجاً عالياً دون أن تشعر بضيق في صدرك هل تشعر أن هذا بفضل ما تمارسه من رياضة أم أن الله عز وجل تكرم عليك وسلم لك هذا القلب ، لمجرد أن تعزو النعمة إلى الله عز وجل فهذا أحد أنواع الشكر ، قضية فكرية.

والشكر في مستوى أعلى منه مستوى نفسي ، حينما يمتلئ قلبك امتناناً من الله عز وجل لأنه أنعم عليك فهذا مستوى آخر أرقى وحينما تبادر إلى خدمة الخلق إرضاء للحق فهذا مستوى أرقى وأرقى يوجد مستوى فكري ، مستوى نفسي ، مستوى سلوكي ، فإذا عزوت لفكرك هذه النعمة إلى الله كما قال الله عز وجل :

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ (٥٣) ﴾

[سورة النحل]

فهذا مستوى ، وحينما تحمد الله على نعمائه ويمتلئ قلبك حباً لله عز وجل على ما منحك به من خير عميم فهذا مستوى أرقى وحينما تعمل لخدمة الخلق إرضاء للحق فهذا من المستويات الراقية في الشكر .

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾

[سورة النساء]

قد يسأل أحدكم ما علاقة الشكر بالعلم ؟ أنت حينما تقول سمع ا لمن حمده ، حينما تقـول ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً ، ا جل جلاله سمع هذا الحمد ، فأنت إذا شـكرت ا فهو يعلم ، ولو شكرته في قلبك ولم يتحرك لسانك فهو يعلم وكان ا شاكراً عليما .

إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾

[سورة فاطر]

لك ذنب يغفره لك ، لك عمل طيب يشكره لك ، يغفر الذنب ويشكر العمل الصالح .

يقول سيدنا موسى في المناجاة : يا رب هلا ساويت بين عبادك ؟ قال : يا موسـى إنـي أحب أن أشكر . يعني تفاوت العباد فيها حكمة بالغة، إنسان يكون لحكمة بالغة ينبغـي أن يكون بيته بوضع معين الذي عنده بيت أكبر إذا دخل إلى هذا البيت يقول يا ربي لك الحمد بينه وبين نفسه وليس أمام صاحب البيت ، يارب أنت أكرمتني ببيت أوسع ، إنسان غيـر متزوج وأنت متزوج ، يارب أنت أكرمتني بزوجة ، إنسان يعمل وإنسان لا يعمل يـا رب أنت أكرمتني بعمل فهذا التفاوت من أجل أن تشكر لو الناس كلهم فـي مسـتوى واحـد معاشي واحد لا يوجد نعمة ظاهرة تختفي النعم .

أيها الإخوة الكرام :

الموضوع الذي ينبغي ان يعالج قبل أن ينتهي الدرس موضوع دقيق ، كل واحد من الإخوة الكرام في أول بداياته شعر بسعادة لا توصف ، ويسأل بعض الإخوة الكرام يا أخـي أنـا الأحوال التي عشتها في بدايات الطريق الآن لا أشعر بها فما سر ذلك ؟ القضـية بسـيطة جداً إنسان كان في منطقة باردة جداً دخل فجأة إلى مكان مدفأ خلال ربع ساعة يشعر بنعمة الدفء وهو في نشوة حينما شعر بالدفء وتخلل بين ثنايا جسمه ولكن بعد ساعتين ألف هذا الدفء ، والدفء موجود أما إحساسه به ضعف ، إنسان بحالة معاكسة كان في حر شـديد جداً دخل إلى غرفة مكيفة أول عشر دقائق يعني يستمتع بالتكييف استمتاعاً لا حـدود لـه ولكن بعد ساعة ألف هذا الجو .

وهذا الذي يحصل في طريق الإيمان أول انطلاقة إلى ا يوجـد سـعادة لا توصـف ، الانتقال المفاجئ من الكفر إلى الإيمان ، من المعصية إلى الطاعة ، من الشرود إلى اللقية ، من الهبوط إلى الصعود من الوحول إلى الجنات يوجد سعادة كبيرة جداً لكن بعد حين تألف طريق الإيمان وتراه طبيعياً ، لذلك قد تجد إنساناً يحضر أول درس وثاني درس يقول لـك أنا تألقت تألقاً ما له حدود ، بعد سنة ضبط بيته ، وضبط استقامته ، وضـبط جوارحـه ، وأعضاءه ، حواسه ، حرر دخله ، ربى أولاده ، وحجب زوجته ، عاش حيـاة مريحـة ،

لكن لا يجد هذه السعادة كبيرة والسبب أنه ألفها ، أحياناً الإنسان يركب سـيارة والسـيارة واقفة ولكن المحرك يدور هذه الدورة موجودة ولكن أنت لا تشعر بها لأن السيارة واقفة ، أما إذا أطفأت المحرك يوجد فرق واضح.

لذلك الإنسان في البدايات يفرح فرحاً لا حدود له ثم تأتيه حالة فتور هذا شيء طبيعي جداً ، هذا الكلام نقوله لكم مادام لا يوجد معصية أما إذا وجد معصية ، وجد حجـاب ، فـرق كبير بين الفتور والحجاب ، الإنسان بالمعصية يحجب لكن مع تقدمه في طريـق الإيمـان يصاب بفتور، الفتور حالة معتدلة من العبادة .

سيدنا عمر بن الخطاب يقول : إن لهذه القلوب إقبالاً وإدباراً فإذا أقبلت فخـذوها بالنوافـل وإذا أدبرت فألزموها الفرائض .

أحياناً الإنسان يكون نشيطاً يقرأ القرآن ويقوم الليل ويذكر ا   عز وجل ، طليق اللسـان ، وأحياناً تعبر متاعب يصلي الفرض والسنة ويترك النوافل ، يأخذ الحد الأدنى من العبادات ، فسيدنا عمر قال : إن لهذه القلوب إقبالاً وإدباراً فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل وإذا أدبـرت فألزموها الفرائض .

والصادق ينتظر الفرج ولا ييأس من روح ا   ، ويلقي نفسه بالباب طريحاً ، ذليلاً ، مسكيناً ، مستهيناً ، والإنسان كلما عرف ا   أكثر تذلل له أكثر ، بالمناسبة توجد علاقـة عكسـية الذي يستكبر عن طاعة ا   يذله ا   ، أما كل إنسان تذلل على أبواب ا   يعزه ا   عز وجل .

أيها الإخوة الكرام :

حينما تفتر الهمة قبل كل شيء يجب أن نفرق بين الفتور وبين الحجاب ، المعصية تسـبب حجاباً عن ا   عز وجل ، لكن المؤمن ساعة وساعة ، وليس معنى ساعة وساعة أي ساعة طاعة وساعة معصية أعوذ با   ، ساعة وساعة أي ساعة تألق وإقبال ، وساعة فتور لأنه ورد في الحديث الشريف : إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها .

ا   لحكمة بالغة له نفحات فحينما تأتيك نفحة من ا   عز وجل تسعد أيما سعادة وتتـألق ، وإذا غابت عنك هذه النفحة تفتر ، الفتور غيرالحجاب ، المعصية تسبب حجاباً أما حينما لا تأتيك نفحة ا   عز وجل أنت في حالة الفتور ، قال تعالى:

كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥

[سورة المطففين]

أما إذا النفحة غابت عنك لحكمة أرادها ا فأنت في حالة فتور حالة الفتور أحياناً طريـق إلى الرقي ، إذا أردت أن ترفع أسعار مادة ما تختفي من الأسواق ثم تطرح بأسعار جديدة ، ولما الإنسان يفقد شيئاً من التألق الروحي يصبح في حالة اسمها التعطيش فربنا عز وجل يعطشه أي يبحث عن حل يبذل يضاعف جهده فيقفز قفزة نوعية ، إذا أقامك بمقام الفتـور فلعل ا عز وجل سيتفضل عليك بنفحة كبيرة ترقى بها رقياً دقيقاً .
النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

" عن عبد الله بن عمرو قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم لِكُل عملٍ شـرةٌ ولِكُـل شرة فَتْرةٌ فَمن كَانَتْ فَتْرتُه إِلى سنتي فَقَد أَفْلَح ومن كَانَتْ إِلى غَيرِ ذَلِك فَقَد هلَك "

[أ د]

كل عامل له تألق وبعد التألق يوجد فترة ، فالفترة من أجل أن يبقى التالق تألقـاً ، وهـذه الفترة تدفعك إلى تألق جديد ، الجنيد رحمه ا تعالى كان كثير الذكر لبداية سيره وا عز وجل قال:

وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ

[سورة إبراهيم من آية رقم " 5 "]

يعني أيام التألق ، أيام الإقبال ، أيام البكاء الشديد ، أيام التضـحية بالغـالي والـرخيص ، والنفس والنفيس ، هذه أيام ا .

أيها الإخوة :

قال بعضهم : دخلت على بعض أصحابنا وهو يبكي بكاء شديداً فسألته عنه فقال : ـ هـذا بكاء من أرقى أنواع البكاء بكاء الشكر ـ ذكرت ما منّ ا به علي من السنة ومعرفتهـا والتخلص من شبه القوم أي من أهل البدع وقواعدهم الباطلة وموافقـة العقـل الصـريح والفطرة السليمة مع النقل الصحيح لما جاء به النبي عليه الصلاة والسـلام فسـرني ذلـك فلذلك أبكي، هذا أرقى أنواع البكاء بكاء الفرح .

والذين ذاقوا طعم القرب من ا عز وجل يقولون : ما من حالة يسعد بها الإنسـان كـأن يشعر أنه مع ا وعمله في سبيل ا ويبتغي مرضاة ا ، ويسعى لخدمة خلـق ا ، ولا يرجو أحداً إلا ا ، ولا يرجو من أحد شيئاً إلا أن يرضى ا عنه ، هذا الشيء المسعد.

بالمناسبة العلماء يرجحون أن ينطوي القلب على حب وخوف وتعظـيم، ورد فـي الأثـر القدسي أن يا عبدي خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيا بخلقهن أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين، لي عليك فريضة ولك علي رزق فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفـك فـي

رزقك ، وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تـركض فيهـا ركض الوحش في البرية ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموماً ، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد .

ورد أيضاً :

أن يا ربي أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ، قال أحب عبادي إلي تقي القلب ، نقـي اليدين لا يمشي إلى أحد بسوء أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقه ، قال : يارب إنك تعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال : ذكرهم بآلائي ونعمائي ، وبلائي ـ هنا الشاهد ـ ذكرهم بآلائي من أجل أن يعظموني وذكرهم بنعمائي من أجل أن يحبوني ، وذكرهم ببلائي من أجل أن يخافوني .

فأكمل حالة للقلب أن يجتمع فيه الحب والخوف والتعظيم ، النعم تدعوك إلى الحب ، والنقم تدعوك إلى الخوف ، وعظمة الكون تدعوك إلى التعظيم ، فقلب فيه تعظيم عز وجل من خلال آلائه وفيه خوف من ا عز وجل من خلال بلائه وفيه حب عز وجل من خـلال نعمائه هذا قلب سليم موصول يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى ا بقلب سليم .

وفي درس آخر ننتقل إن شاء ا تعالى إلى منزلة أخرى من منازل مدارج السالكين فـي منازل إياك نعبد وإياك نستعين .

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ؛ مع الدرس التاسع والخمسين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والمنزلة اليوم منزلة الحياة ، استنباطًا من قوله تعالى :

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ

[سورة الأنعام]

الضال ميت و الشارد ميت و العاصي ميت ، و الفاسق ميت و المشرك ميت و الكافر ميت و المنحرف ميت ، قال تعالى :

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا

[سورة الأنعام]

أيها الإخوة الكرام ؛ كيف أن الجسم من دون روحٍ تسري في خلاياه فالعين بـالروح ترى، و دون الروح تُلقى في القمامة ، و اللسان ينطق ، و الأذن تسمع و الأنـف يشـم ، و الجلد يحس ، و هذا الجسم يقوم بأعقد العمليات بالروح ، فلو قُطعت عنه الروح لكـان جثـة هامدةً ، لا تساوي شيئاً ، و لو عصرنا الجسم لكان : سبعين بالمائة منه ماء فالذي وزنه مثلا مئة كيلو ، سبعون كيلو منه ماء ، و ثلاثون كيلو من مواد مختلفة من الحديد الذي هو بمقدار مسمار صغير و من الكلس الذي في عظامه يطلى كوخ دجاجٍ صغير أبـيض ، يصـنع مـن بعض المعادن قلم رصاص مثلا الإنسان مادة دون روح لا يساوي خمسةً و عشـرين ليـرة سورية ، أما بالروح مثلا يصير قائدا كبرا ، و عالما كبيرا و مصلحا كبيرا ، فالإنسان بالروح ، كما أن الروح حياة الجسم كذلك معرفة ا وطاعته و الاتصال به وذكره و الإقبـال عليـه والتوكل عليه روح النفس ، هناك نفس ميتة ، ميتـة بكل معنى الكلمة ، يبحث عن طعـام و شراب و امرأة فقط ، ينام كالدابة ويستيقظ كالدابة ، و يتثاءب كالدابة ، يبحث عـن طعـام و شراب من أي طريق ، له أو لغيره ، يأخذ ما له وما ليس له ، أحيانا لا أجد كلمةً معبرة عـن إنسان شارد تائه منحرف ضال مضل فظ غليظ شهواني أناني لا أجد لمثل هذا النموذج مـن وصف يروي الغليل أدنى من كل وصف ، هذا هو موت الإنسان ، أما حينما تـرق حاشـيتُه

تلاطف نفسه يتواضع عزو جل و يرحم الآخرين يتعرف إلى ا و يعرف بـا عزوجـل صار حيا ، قال تعالى :

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ

[سورة الأنعام]

الآية الثانية :

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾

[سورة النمل]

هذا الميت المقبور بشهواته ، بل إن بعض العلماء يرى أن قوله تعالى:

وَمَآ أَنتَ

بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾

[سورة فاطر]

هؤلاء المقبورون في شهواتهم ، إنسان مقبور بامرأة ، إنسان مقبور بالدرهم و الدينار ، إنسان مقبور بالمخدرات ، و إنسان مقبور بالخمور ، و إنسان مقبور بشهوات الدنيا ، إنسان همه بطنُه ، و إنسان همه فرجه ، إنسان همه أناقتُه ،و إنسان همه أن يعيش بملذاته السخيفة، هذا مقبور ..

وَمَآ أَنتَ

بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾

[سورة فاطر]

قال تعالى :

أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

[سورة النحل]

قال تعالى :

﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾

[سورة الأنعام]

ليس من مات فاستراح بميت   إنـمـا الـمـيت مـيـتُ الأحـيـاء

*** * ***

يا بني مات خزان المال و هم أحياء في أوج حياتهم ، نبضهم سبعون ضـغطهم ١٢/٨ ، تحليل دمهم كله طبيعي ، و مع ذلك هم عند ا أموات ، مات خزان المـال و هـم أحيـاء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانُهم مفقودة وأمثالُهم في القلوب موجودة .

مرةً أردتُ أن أداعب طلابي في مسألة ، وقلتُ لهم من يأتي باسم غني عاش في دمشـق عام ١٨٦٥و له علامة تامة ، الطلاب فكروا فكروا فكروا ، فقلت لهم : و أنا مثلكم لا أعرف ، لكن من منكم لا يذكر اسم صلاح الدين الأيوبي ، الشافعي أبا حنيفـة ، مـثلا عمـر بـن الخطاب ، خالد بن الوليد ، القادة العظام ، العلماء الأعلام و المصلحون الكبار، هؤلاء الـذين غيروا مجرى التاريخ هؤلاء الذين تركوا بصماتهم في الحياة ، من منا لا يـذكرهم ؟ مـات خزان المال و هم أحياء .

الآن أدلة أقوى ، طبعا أولُ دليل :

﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾

[سورة الأنعام]

ثاني دليل :

﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٨٠﴾

[سورة النمل]

ثالث دليل

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ٢٢﴾

[سورة فاطر]

الدليل الرابع ، قال تعالى :

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ

[سورة الشورى]

هذا الوحي فيه حياة القلوب الروح التي تعارفنا على أنها قوةٌ تمـد الإنسـان بالحيـاة و الحركة، الروح حياة الأبدان و القرآن حياة القلوب ، قال تعالى :

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ

[سورة الشورى]

الوحي روح ، و الآن يمكن أن نقول : الناس رجلان ؛ ميت و حي الذي عـرف ا َ حي و الذي استقام على أمره حي ، و الذي عمل الصالحات تقربا إليه حي ، و الـذي أقبـل عليه حي ، و الذي غفل عن ا ميت ، و الذي عصى ا َ ميت ، و الذي أساء لخلقه ميـت ، حي و ميت موصول و مقطوع ، مقبل و مدبر ، محسن و مسيء ، منضبط و متفلت ، سعيد و شقي ، هكذا ، وهذا هو التقسيم الحقيقي ، هذا التقسيم الواقعي ، أحيانا يقال لك : بين بلجيكا فرضا و فرنسا الخط الحدودي لو أن قريةً يمر خط الحدود في وسطها ، ما الفرق بين واحد بيتُه في القسم التابع لفرنسا ، و إنسان بيتُه في القسم التابع لبلجيكا ، التقسيم مصـطنع بلـدةٌ واحدة و عاداتها و تقاليدها و جوها الطبيعي و طقسها و ماؤها و امطارهـا و صـناعتها و زراعتها و ثقافتها واحدة ، و لكن بحسب القوانين هذا بلجيكي و هذا فرنسي ، فهـذا التقسـيم مفتعل ، أما التقسيم الحقيقي مؤمن وكافر، مستقيم و منحرف و صادق و كـاذب ، محسـن و مسيء و سعيد و شقي ، هذا التقسيم الحقيقي ، فكما أن الروح حياة الأجسام كـذلك الإيمـان حياة القلوب .

آيةٌ ثانية ، قال تعالى :

يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾

[سورة النحل]

الروح مرة ثانية ، و آية ثالثة ، قال تعالى :

رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾

[سورة غافر]

فالوحي حياة النفس ، و الروح حياة الجسم ، صار الوحي روح النفس و رو ح القلب وطبعا هناك أدلة كثيرة ، انظُر إلى وردة صناعية لا روح لها ، انظُر إلى وردة طبيعية ، بون شاسع و فرق كبير بين وردة طبيعية تفوح منها الرائحة تحس أنك قريب منها ، أمـا الـوردة الصناعية لا تحس بهذا الميل إليها ، لأنها عديمة الروح .

الآن ندخل في آية مهمة جدا ، قال تعالى :

مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾

[سورة النحل]

أولُ مغالطة قد يفهم بعض ضعاف الإيمان أن الذي يؤمن با و يعمل عمـلا صـالحا يحييه ا ُ حياة طيبة ، أي يجعله غنيا ، و يجعله قويا ، و يجعله صحيحا ، لا ، كل إنسان لـه ظروف و له معطيات قدرها ا ُ بحكمة بالغة ، و لكن الحياة الطيبة التي وعد بها المؤمنـون حياة الروح المطمئنة ، و الشيء الذي يلفت النظر حينما يخاف الناس المـؤمن لا يخـاف و حينما يحقد الناس المؤمن لا يحقد ، و حينما تضعف معنويات النـاس المـؤمن لا تضـعف معنوياتُه ، و حينما ييأس الناس المؤمن لا ييأس هذه حياة الروح ، و حينما يفتقـر النـاس و يندبون حظهم المؤمن يصبر ، و حينما يغتني الناس و يتغطرسون ، المـؤمن يتواضـع ، و حينما ينجب الناس أولادا يربونهم تربيةً لا ترضي ا َ ، المؤمن ينشئ ابنه على طاعـة ا ، فقضية حياة الروح ميتٌ و حي ، بأدق ما في هذه الكلمة من معنى ميت وحي ، أي إنسـان متصل با حي ، ومقطوع ميتٌ ، أي ميت تشمئز منه و يشمئز منك ، قياسه مـادي ، فـإذا رآك ذا دخلٍ محدود وضعك خارج الاهتمام ، هو بدخله الكبير لا يحتمل ، و لا يحتمل، يعاف و يعاف ، هذا المنحرف ، أما المؤمن يألف و يؤلَف ، يحب و يحب لين العريكة ، متواضع ، عنده حياء ، واقتبس من كمال ا كمالاً ، و اشتق من الكمال الإلهي الـذي أرادنـا ا ُ أن نتخلق به كمالاً .

و ا ِ يا إخوان ، و مستحيل في عالم الأغنام تجد غنمة ثمنُها مليون ضعف عن غنمـة ثانية، أغلى غنمة ستة آلاف ، و أرخص واحدة ألفان ، الفرق ثلاثة أضعف ، أما فـي عـالم الإنسان ممكن إنسان تكون مكانتُه تزيد عن إنسان مليار ضعف عن سهلٍ قَالَ مر رجلٌ علَـى رسول الله صلى الله علَيه وسلم فَقَالَ :

" ما تَقُولُون في هذَا قَالُوا حرِي إِن خَطَب أَن ينْكَح وإِن شَفَع أَن يشَفَّع وإِن قَالَ أَن يسـتَمع قَالَ ثُم سكَتَ فَمر رجلٌ من فُقَراء الْمسلمين فَقَالَ ما تَقُولُون في هذَا قَالُوا حرِي إِن خَطَب أَن لا ينْكَح وإِن شَفَع أَن لا يشَفَّع وإِن قَالَ أَن لا يستَمع فَقَالَ رسولُ الله صلى الله علَيه وسـلم هذَا خَير من ملْء الأَرضِ مثْلَ هذَا

[رواه البخاري]

من مثل هذا الإنسان ، الأول يعدل مليار إنسان .

العلماء قالوا : فُسرت الحياةُ الطيبة بالقناعة و الرضا و الرزق الحسن و غير ذلك ، و الصواب أنها حياة القلب و نعيمها ، و بهجتُه و سروره و الإيمان با و معرفتُه ، و محبتُه و الإنابة إليه و التوكل عليه ، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها و لا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة .

بعض العارفين يقولون : هذه الحياة الطيبة ، جنةُ القربِ ، والكافر في جفوة البعد ، في شـقاء البعد، و المؤمن في جنة القرب ، يقول: إنه لتمر بي أوقاتٌ أقول فيها : إن كان أهلُ الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيشٍ طيب ، في الدنيا جنة من لم يدخلها من يدخل جنةَ الآخرة ، إنها جنـة القرب ، قال تعالى :

﴿ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ۝٦ ﴾

[سورة محمد]

في الدنيا .

و قال بعض العلماء : إنه ليمر بالقلب أوقاتٌ يرقص فيها القلب طربا، و ا ِ الذي لا إله إلا هو إنسان صدق مع ا و أخلَص له و أناب إليه و تاب توبةً نصوحا ، و ا ِ سيمر علـى قلبه أحوالٌ لا يحلم بها الملوك و ا ِ ، و قد يكون فقيرا و قد يكون من عامة النـاسِ ، و قـد يكون في الدرجة الدنيا في السلم الاجتماعي ، هذه عظمةُ الدين .

المعيشة الضنك لمن أعرض عن ذكر ا ، و الحياة الطيبة لمن أقبل عليه ، أقسم بـا ِ أخٌ قال لي : و ا ِ دخلتُ على تاجرٍ في بعض أسواق دمشق الكبرى ، قال لـي : أنـا و ا ِ تاجر أعرف أن حجمه المالي يزيد عن أربعة آلاف مليون ، أقسم با ، قال لي من كثرة مـا شكا لي همومه ومتاعبه و تشاؤمه و إحباطاته و ضيقَ نفسه ، يكـره بيتَـه و يكـره أولاده

وزوجته و لا يوجد بيع ، و الناس لا يتعاملون ، قال لي : و ا ِ ما كدتُ أمشي على قدمي بعد أن التقيتُ به ، و لحكمة بالغة بالغة أرادها ا ُ عز وجل ، قال لي : جاءتني امرأةٌ في محلـي التجاري محجبة حجابا كاملاً تريد مساعدةً أجرة لبيت ، تريد ألف ليرة ، أين أنت يا أختـي ؟ قالت له : في قرية من قرى ريف دمشق . فقال لها : أنا عندي في المساء اجتماع في جمعية خيرية هناك ، أعطي تعليمات لهذه الجمعية أن يساعدوك ، قال لي: في الاجتماع ذكرتُ لهـم أن هناك امرأةً اسمها كذا و عنوانها كذا تريد مساعدةً ، فيرجى أن تتحققوا من ذلك و تمدوها بهذا المبلغ ، فقالوا : قم معنا نذهب إليها.

قال : فانطلقنا إلى بيتها ، المفاجأة الكبيرة أن البيتَ تحت درجٍ مع فسـحة بسـيطة ، المنطقةُ العالية فيها غرفة ، ومنطقة الزاوية الضيقة للمطبخ والمنافع ، و هناك ساحة ضيقة ، هذا البيتُ أجرتُه ألفُ ليرة في الشهر، في قرية من قرى ريف دمشق غربا ، قال دخلنا بيتًـا نظيفا ، وزوجها مريض مستلق على سرير و الأولاد في وضع جيد جدا ، ثيـابهم نظيفـة و يضحكون و يلعبون ، وجدنا هذا البيت كأنه قطعة من الجنة ، قال : لهـذه الأخـت الكريمـة نعطيكم ألفين في الشهر ، قالت له : لا ألف فقط ، لسنا في حاجة إلى ألفين ، معاشُ زوجـي يكفي للمصروف ، و نحن في حاجة إلى ألف .

قال : وازنتُ بين الذي كنتُ عنده الظهر و له حجم يزيد عن أربعة آلاف مليـون ، و بين هذه المرأة الفقيرة المعدمة التي تسكن مع زوجها في بيت قميء، و كيف أن هـذا البيـت قطعة من الجنة، قال: عرفتُ أن ا على كل شيء قدير ، أي قادر أن يعطيك و يشـقيك ، و قادر على حرمانك و إسعادك ، فاطلُب ما عند ا .

إذا الواحد دخل عند صائغ ، و الصائغ صديقُه ، صاحب محل أراد أن يقدم هدية لعامل عنده فقال : نويتُ أن أهديك قطعة من قطع المحل اختَر واحدةً ، صاحب المحـل مخلـص و فهيم ، و ذوقه مرتفع ، قال العامل: أنت اختر لي ؟ الآن مضطر صاحب المحل أن يقدم لـه أنفس قطعة ، لأنه قال له : أنت اختَر لي .

هذا الدعاء ، عن عائِشَةَ عن أَبِي بكْرٍ الصديق أَن النبي صلى الله عليه وسلم كان إِذَا أَراد أَمرا قَالَ : اللهم خر لِي واخْتَرْ لِي

[رواه الترمذي]

خر لي و اختر لي أنت تحبني ، إذا بعتَ بيتك و قبضتَ حقه بالتمام و الكمال ووقعت العقد و أفرغتَ في السجل الرسمي ، بلغك أن الذي اشترى البيت ألغى حائطا بين غـرفتين ، هل تذهب لتختصم معه ؟ يقول لك: ما شأنك أنت ؟ بعتَ البيت و قبضت ثمنه ، وانتهى الأمر ، يلغي حائطا و يلغي غرفة و يغير مكان الحمام هو حر ، هذا المعنى البسيط اللطيف وسـعه في قوله تعالى :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾

[سورة التوبة]

الثمن هو الجنة ، فا عز وجل أراد أن يبعث لك رزقا وفيرا ، تقول : أنا بعتُ أنا بعت ، أراد أن يجعلك بدخل محدود ، تقول : أنا بعت، أراد أن يجعل صحتك في أعلى مستوى ، تقول : أنا بعتُ ، أراد أن يسوق إليك مرضا ، تقول : أنا بعت ، فإذا أنت بعتَ نفسك حقيقةً فلا تنزعج من شيء ساقه ا ُ إليك و علامةُ أنك بعتَ نفسك بيعةً قطعية عزوجل لا تعترض على حكمه أبدا .

هذا الكلام يجب أن يكون له توضيح ، أنت فقير و بإمكانك أن ترفع مستوى دخلك ، و بإمكانك أن ترفع مستوى معيشة أولادك ، و هناك طرقٌ سالكة ، و لم تسلكها فأنت آثم ، ابذل قصارى جهدك و ينتهي بك الجهد عند هذا الحد ، عندئذ ارض عن ا عزوجل ، يا ربي هل انت راضٍ عني ، فوقع في قلبه أن يا عبدي هل أنت راضٍ عني حتى أرضى عنك ، لقوله تعالى:

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾

[سورة البينة]

أن ترضى عن ا ، أن ترضى بجسمك ، و شكلك و لونك و بشعرك و بإمكاناتك وبحرفتك و بدخلك و بزوجتك و أولادك و بيتك ، هذه أشياء كلها معطيات صارت ثابتةً .

أيها الإخوة ؛ هناك دور ثلاثة ؛ دور جمع دار ؛ دار الدنيا و دار البرزخ و دار الآخرة . و العلماء قالوا : الحياة الطيبة في دار الدنيا و في دار البرزخ و في الدار الآخرة ، و المعيشة الضنك في الدار الدنيا و في البرزخ و في الآخرة ، دار الدنيا سميت دنيا لأن الحياة في الآخرة حياةٌ عليا ، دار البرزخ ممر بين الدنيا و الآخرة ، دار الآخرة دار القرار ، والأبرار قال تعالى :

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾﴾

[سورة الانفطار]

مطلقا ، أي في الدنيا و في البرزخ و في الآخرة ، قال تعالى :

﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾﴾

[سورة الانفطار]

في الدنيا و في البرزخ و في الآخرة ، و القبر كما تعلمون روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران .

قال تعالى :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ

[سورة يونس]

وقال تعالى :

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى
هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾

[سورة النحل]

و قال تعالى :

رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً

[سورة البقرة]

قال تعالى :

وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ

[سورة هود]

دقق الآن :

يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ

[سورة هود]

فذكر ا سبحانه و تعالى ومحبتُه وطاعته والإقبال عليه ضامن لأطيب الحياة الـدنيا والآخرة و الإعراض عنه و الغفلة و معصيته كفيل بالحياة المنغصة و المعيشة الضنك فـي الدنيا و الآخرة ، و معنى ذلك أن يكون قلبك حيا بذكر ا فأنت في حياة طيبة فـي الـدنيا و البرزخ والآخرة، و أن تكون غافلا عن ا فأنت في معيشة ضنك فـي الـدنيا و البـرزخ و

الآخرة ، والحياة مراتب ؛ حياة القلب و حياة الروح مراتب ، المرتبة الأولى حياة العلم مـن موت الجهل ، الجاهل ميت و العالِم حي ، فإن الجهل موتٌ لأصحابه ، قال بعض الشعراء :

و في الجهل قبل الموت موتٌ لأهله و أجسـامهم قبل القبور قبـور

و أرواحهم في وحشة من جسومهم فليس لهم حتى النشور نشور

* * *

الجاهل ميتُ القلب و إن كان حي البدن ، جسده قبر يمشي به على وجه الأرض ، قبـر متحرك ، الكون قرآن صامتٌ ، و القرآن كون ناطق و النبي عليه الصلاة و السـلام قـرآن يمشي، و الكافر قبر يمشي .

دقق في قوله تعالى :

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ

[سورة الأنعام]

قال تعالى :

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾

لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

[سورة يس]

لينذر من كان حيا ، أما الميت دعه فإنه ميت ، و ا ِ الذي لا إله إلا هو المؤمن الصادق أحيانا يلتقي بإنسان ميت ولو كان في الظاهر حياً ، مرة دعاني أخٌ إلى تناول طعام الغداء في منطقة خارج دمشق و هناك واحد من الحاضرين لا أعتقد أن إنسانا يتحمله خمس دقائق هـو ضد كل شيء متعلق بالدين و القيم و الأخلاق لا شيء عنده الحياة بالنسبة له مادة ، مـال و شهوات ، ما شعرتُ بإنسان ينطبق عليه لفظُ الموت كهذا الإنسان .

و مرة التقيتُ بمندوب شركة بعدما انتهى العملُ قلت بضع كلمات عن ا عز وجل في الحج ، قال لي : هذه المعلومات لا تعنيني و لا أهتم بها و لا ألقي لها بـالاً أنـا لا أهـتم إلا بامرأة جميلة و بيت و اسع و سيارة فارهة ، و ما سوى ذلك وراء ظهري ، ميـت ، و كـل واحد من إخواننا الكرام ، ممكن أن يلتقي بشخصٍ ميتاً أنيق جدا ، جميل الصورة ..

جمال الوجه مع قبح النفوس كقـنديل على قبر المجـوس

* * *

جميل الصورة أنيق جدا و حياته في أعلى مستوى و لكنه ميت ، و ا ِ رأيت هذا فـي أمريكا ، رأيت الناس بلا هدف ، استلقاء و راحة و شطرنج ، وورق ، نوم و أكل و عمل بلا قيم و بلا هدف ، بلا أدنى درجة من درجات الخجل و الحياء أبدا .

قال لي أحدهم : إنه ذهب إلى بلد من بلاد أوربا الشرقية ليزورها ، جامعة من أضـخم الجامعات الدورات العامة أين ؟ في الصالون ، لا يوجد جدران أبدا ، أي خمسين قطعة لقضاء الحاجة ، صالون مكشوف كله و الناس يقضون حاجاتهم أمام بعضهم بعضاً كالبهائم تمامـا ، وقال لي إن الحمامات أصعب ، شباب و شابات يغتسـلون أمـام بعضـهم بعضـا ، كـذلك الرشاشات في السقف إلى جنب بعضها بعضا ، لا توجد حواجز أبدا أموات غير أحياء .

أرادوا أن يجربوا قياس الدافع الإنساني بفرنسا جاءوا بإنسان ووضعوا عليه حبرا أحمر كأنه وقع له حادثٌ ، و سيارة مهشمة على أكثف طريق في فرنسا ، بين ليـون و بـاريس ، كثافة الطريق مخيفة ، في بعض الجسور في أمريكا سبعمائة ألف سيارة تقطعه كل يوم فكـل دولة كبرى لها طرقٌ كثيفة جدا ، فأكثف طريق في فرنسا طريق ليون باريس ، و ضعوا هذا الإنسان على جانب الطريق كأنه ميت أو كأنه مجروح ، و سيارته مهشمة ، في شكلٍ تمثيلـي متقَن ، و انتظروا أن تقف بعـض السيارات كي تتفقد حاله أو أن تمد له يد المساعدة ، سـت ساعات لم تقف و لا سيارة ، أموات غير أحياء .

ولي صديق ذهب إلى بريطانيا قال لي : قبل مئة متر وجدتُ امرأةً وقعتْ على الأرض على الرصيف ، و المرور كثيف جدا ، تمنيتُ أن يلتفت لهذه المرأة إنسان ينهضها ، إلـى أن وصلتُ إليها امرأة متقدمة في السن فحاولتُ أن أنهضها ، و قفت و انتعشتْ ، قالت لي : أنت غريب ؟! أول كلمة قالتها : أنت غريب عن هذه البلدة ، فما اعتادت أن يساعدها أحـد مـن بلدتها ، أموات غير أحياء .

يحتمل أن تقتل عشرين مليون غنمةً بالرصاص من أجل أن تحافظ على السعر المرتفع ، و شعوب تموت من الجوع ؟! وأن تتلف مثلا خمس مئة ألف طن حمضيات من أجل السعر المرتفع ، و هناك طبقة فقيرة جداً تموت من الجوع ، أن يتسلى الزنجي يأكل برتقالةً في العام القادم وقد تسمم المحصولُ تسميما ، لو أكل الواحد برتقالة من هذا المحصول المتلَف يمـوت، ممكن ، وحوشٌ ، أموات غير أحياء .

هناك في التاريخ الإسلامي مواقف مشرفة ؛ فحياة العلم من موت الجهل فالجهل موتٌ و العلم حياة ، الجاهل ميت القلب و الروح و إن كان حي البدن ، قال تعالى :

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن
مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ

[سورة الأنعام]

قال تعالى :

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾
لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

[سورة يس]

قال تعالى :

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾

[سورة النمل]

وَمَآ أَنتَ

بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾

[سورة فاطر]

الإمام أحمد ذكر في كتاب الزهد من كلام لقمان أنه قال لابنه : " يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن ا يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل القطر" .

أحد إخواننا الكرام توفي ابنُه و هو من حلب و عمل في الدعوة فذهبنا لتعزيته ، عرفنا على شيخه ، شيخه في التسعين فما فوق ، و ا ِ ما رأيتُ إنسانا له هيبة ونورانيـة و مكانـة كهذا الإنسان ، حياة العلم (الآن إنسان في التسعين يقال عنه : خرفان ، و يقول لك : أبي من الطراز القديم، يحتقره ابنُه أحيانا) وضعوه في غرفة وحده إنسان في التسعين مخدوم محشود محفود ، وحوله إخوانه وطلابه و أولاده ، بأدب جم ودعني لمدخل البيت ، إنسان موصـول با عز وجل شيء رائع جدا ، من لم تكن له بداية محرقة لم تكن لـه نهايـة مشـرقة ، و البطولة في خريف العمر، و الشباب كلهم من حيث النشاط سيان ، أما خريـف العمـر تجـد شخصا - و ا ِ - كأنه ملك، هيبة ووقاراً .

و في الدرس القادم ننتقل إلى موضوعين اثنين من موضوعات الحياة و المـوت ، و هي مرتبة من مراتب مدارج السلكين في منازل إياك نعبد و إياك نستعين

و الحمد   رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الستين من مدارج السالكين في منازل إياك نعبـد و إياك نستعين ، و المنزلة اليوم ؛ منزلة التمكن ، و هي مستنبطة من قوله تعالى :

وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

[سورة الروم]

الإنسان إما أن يكون متمكنا من إيمانه ، متمكنا من هدفه ، متمكنا من منهجـه ، أو أن الذين لا يوقنون يستخفونهم ، يجرونه إليهم ، يحملونه على المعصية و يزهدونه في الآخرة ، يستفزونه فيستجيب لهم ، فالناس رجلان: متمكن و خفيف ، خفيف يستفزه أي إنسان ، يصرفه أي إنسان ويغير وجهتَه أي إنسان ، خفيف ، لا وزن له و تافه ، و مقاومته هشـة ، صـبره قليل و يقينه ضعيف ، و أملُه في الدنيا طويل ، التمكن شيء والخفة شيء ، فا عـز وجـل يصف النبي عليه الصلاة و السلام عن طريق نهيه فيقول تعالى :

وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

[سورة الروم]

أي كن متمكنا و إذا وجه الأمر إلى من اتصف بهذا الأمر ، أي ثابرعلى ذلـك ، إذا قلتَ للمجتهد : اجتهد ، أي حافظْ على اجتهادك ، و إذا قلت للكسول : اجتهد ، أي اجتهد ، أما إذا قلت للمجتهد اجتهد أي ابقَ مجتهدا ، و حافظ على اجتهادك .

في الحقيقة واقع المسلمين يجسد هذا المعنى ، إنسان يلتزم بمسجد ، كلمة طائشة خبيثة هادفة إلى قطعه عن ا عزوجل تفعل فيه فعلَ السحر ينقطع لسبب تافه ، هذا الـذي ينقطـع لسبب تافه أو يلتزم لسبب تافه ، هذا خفيف ، لا وزن له عند ا ، و هناك تؤكد ذلك ، قـال تعالى :

فَلَا

نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾

[سورة الكهف]

لا وزن له ، يسلك طريقَ الإيمان و يرى بأم عينه الحقائق ثم تُغريه فتاةٌ فينصرف عن الدين ، يغريه مبلغٌ كبير فينصرف عن الدين ، هذا إنسان خفيف و مقاومتُه هشة وصبره قليل يقينُه ضعيف ، و أملُه في الدنيا طويل ، مثلُ هذا الإنسان معرض للنكسة في كل آنٍ ، فلا تكن خفيفا ، و لا تكن ساذجا ، مثلاً ؛ ا ُ عزوجل في معركة الخندق زلزل المؤمنين ، قال تعـالى :

هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾

[سورة الأحزاب]

هذه الزلزلة من أجل الفرز ، قال تعالى :

وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾

[سورة الأحزاب]

تشعر أحيانا في أخٍ كالجبل ، لا يزعزعه شيء ، الفقر لا يهزه ومشكلة لا تهزه وعيـد لا يهزه ، تهديد لا يهزه ، مرض شديد لا يهزه ، ماكن متمكن ، و هناك إنسان إذا قيل لـه : تحروا عنك وأخذوا اسمك ، ينتهى كل شيء بالنسبة له ، كلمة ، كل اتجاهه ثمنـه كلمـة ، و بالمناسبة هذا الذي تعبده بيده كل شيء ، هذا الذي توحده بيده مقاليد كل شيء ، و هذا الـذي تحبه بيده كل شيء ، فإذا لم تكن واثقا انه سيحميك و أنه سينصرك لا تعبده ، قال تعالى :

وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ

[سورة هود]

هذا التمكن ، قال تعالى :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ

[سورة الحج]

على طرف ..

فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾

[سورة الحج]

على حرف ، المؤمن في الأعماق ، قال تعالى :

وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾

[سورة الأحزاب]

لكن بعد قليل قال ا ُ عزوجل :

مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾

[سورة الأحزاب]

لا غير و لا بدل و لا ندم و لا ضعف و لا استكان و لا خنَع و لا خضع أبدا ، أحـد أحد، فرد صمد .

ذكرتُ البارحة ، لا أذكـر أين قرأتُ هذه القصة قديما ، هناك ملـك بطـاش أراد أن يقتل إنسانًا قال : ربي ا ُ ، و قبل أن يقتَل -هكذا العادات و التقاليد ، جـيء بشـيخٍ يلقنـه الشهادة ، فقال هذا الإنسان لهذا الشيخ : أنا أموت ، قال : قل لا إله إلا ا ، قال لـه : أنـا سأموت من أجلها لكنك أنت ترتزق بها ، و شتان بين من يموت من أجل هذه الكلمة و بـين من يرتزق بها ، المؤمن متمكن ، قال تعالى :

مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾

[سورة الأحزاب]

هذا التمكن ، القارب موجةٌ خفيفة تقلبه رأسا على عقب ، أما بـاخرة كبيـرة شـامخة راسخة الأمواج تتلاعب على جدرانها و هي ثابتة ، هكذا المؤمن.

إخواننا الكرام ؛ أصحاب النبي عليهم رضوان ا ، عاهدوا رسولَ ا على الطاعـة ، والالتزام في المنشط والمكره ، في إقبال الدنيا و في إدبارها ، في الغنى و الفقر و في الصحة والمرض ، أحيانا تجد زائراً للمسجد شتْويا ، الدنيا شتاء و متغير مزاجه ، برد ، يـأتي إلـى الجامع، و في الصيف لا تجده أبدا ، لا يجد مكانا يسهر فيه فيأتي إلى الدرس جاء الصـيفُ عنده بيت في مصيف ، و ترك المسجد كليا ، هذا الزائر شتوي وهناك إنسان يأتي لأنه مرتاح و ليس له مشكلة ، وعندما يرتبط بزوجة يختفي نهائيا .

عاهدنا رسول ا على الطاعة في المنشط و المكره ، في إقبال الدنيا و إدبارها ، فـي الفقر و الغنى ، في الصحة و المرض ، سيدنا سعد بن أبي وقاص كان معه مرض عضالٌ ، كان يقود المعركة و هو منبطح ، من شدة آلام كانت في ظهره ، هكذا كان أصحاب رسـول ا ، يعني معقول سيدنا جعفر تُقطَع يده اليمنى التي يمسك بها الرايةَ فيمسـك الرايـةَ بيـده اليسرى ، تُقطَع اليسرى فيمسكها بعضديه ، هكذا كان أصحاب النبي ، هؤلاء الذين فتحوا هذه البلاد هكذا كانوا .

إذاً التمكن أن تكون في الأعماق ، تصور إنسانا يقف على الشط و الأمواج عاتية ، فقد تأتي موجةٌ فتأخذه إلى البحر ، تصور إنسانا يقف على قمة جبل ، و الجبل ارتفاعـه ثلاثـة آلاف متر ، و البحر في سفح هذا الجبل، أية موجة يمكن أن تصل إليه ، هكذا ، هذا التمكن ، لا يغير و لا يبدل و لا يطور و لا يعدل و لا يبتدع و لا يقول لك : هناك فتوى ، في مصـر أفتوا بالربا يا أخي ، يسروا وخلصونا قال تعالى :

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

[سورة الأحزاب]

قال : المتمكن لا يبالي بكثرة الشواغل ، ولا بمخالفة أصحاب الغفلات ، و لو أن الناس جميعا وقفوا في وجهه و لو أن الناس جميعا كادوا له ، قال تعالى :

ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

[سورة آل عمران]

و قال تعالى :

وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾

[سورة آل عمران]

هكذا المؤمن ، إذًا المتمكن لا يبالي بكثرة الشواغل و لا بمخالفة أصحاب الغفـلات ، و لا بمعاشرة أهل البطالات ، قد يلتقي مع أناسٍ شاردين تائهين مقصرين ، من أهل الدنيا أقوياء أغنياء ، هدفُه ا ُ ..

إلهي أنت مقصودي و رضاك مطلوبي

في أي مكان يعبد ا َ ، ماذا يفعل أعدائي بي ، بستاني فـي صـدري ، إن ابعـدوني فإبعادي سياحة ، و إن حبسوني فحبسي خلوة ، و إن قتلوني فقتلي شهادة ، فماذا يفعل أعدائي بي ؟

قال : تمكن بصبره و يقينه ؛ نقطتان دقيقتان ، يقين بوعد ا و قوة صبر على تحمل الشدائد ، قال تعالى :

وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ

[سورة الطور]

و قال تعالى :

وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴿٧﴾

[سورة المدثر]

اصبر من أجل ا عز وجل ، و قال تعالى :

وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا
يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾

[سورة النحل]

يعني ممكن سيد الخلق يكون في الطائف سيد الخلق جميعا ، قمة البشرية جميعا ، أكملُ الخلق جميعا ، أقرب الخلق إلى ا جميعا ، و أحب الخلق إلى ا جميعا ، في الطائف يكذب

، ويسخَر منه ، ويضرب و يقول : يا ربي إن لم يكن بك غضب علي فـلا أبـالي ، و لـك العتبى حتى ترضى ، لكن عافيتك أوسع لي .

المسلمون المعاصرون ماذا أصابهم ؟ آكل وشارب و نائم و سيارتُه أمامـه و زوجتـه أمامه ، و بيته و هو مطمئن ، في الصيف البيت مبرد و في الشتاء مدفّأ ، تعالَ إلى الجامع ، و ا ِ لستُ متفرغا ، عندي ضيوف فلا تؤاخذوني ، ماذا تقدم أنت ؟ ماذا قدمت ، الصـحابة قدموا أرواحهم أنت ماذا قدمت للمسلمين ؟ حجمك عند ا بحجم عملك الصالح ، لذلك تمكـن بصبره على الشدائد و بصبره عن الشهوات و بصبره على الطاعات و يقينه بأن الآخرة حـق و أن الجنة حق و أن النار حق و أن وعد ا حق و أن وعيده حق ، و لهذا قال تعالى :

فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

[سورة الروم]

من يصدق أن إنسانا مهدور دمه ، مئة ناقة لمن يأتي به حيـا أو ميتـا، طريـد فـي الصحارى، و الناقة بمئة ألف ، مائة ناقة مئة مئة ألف ، عشرة ملايين ليرة ، تقريبا ، يتبعـه سراقة ، فيقول له النبي الكريم : يا سراقة كيف بك إذا لبستَ سواري كسرى . معنـى ذلـك النبي سيصل سالما، كلام نبي معنى ذلك أنه سيصل سالما ، و سيؤسس دولةً في المدينـة ، و سيحارب كسرى و سيأتي بكنوز كسرى و سيلبسها سراقةُ ، و هذا الذي حصل في عهد عمر ، أين سراقة ؟ ألبسه سواري كسرى ، فقال : بخٍ بخٍ أُعيرابي من بني مدلج يلـبس سـواري كسرى ، قال تعالى:

فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

[سورة الروم]

قال : فمن وفى الصبر حقه و تيقن أن وعد ا حق لم يستفزه المبطلون و لم يسـتخفه الذين لا يوقنون ، و متى ضعف صبره ويقينُه أو كلاهما استفزه هـؤلاء و اسـتخفه هـؤلاء وجذبوه إليهم بحسب ضعف قوة صبره و يقينه ، فكلما ضعف ذلك منه قوي جذبهم إليـه ، و كلما قوي صبره و يقينه قوي انجذابه منهم و جذبه لهم ، هل تعرفـون لعبـةَ شـد الحبـل ؟ المتمكن يشد الآخرين إليه ، أما إذا كان ضعيفا يشده الآخرون ، اجعلْ هذا مقياسا دقيقا ، فـي أي مكان أنت ، هل بإمكانك أن تشدهم إليك ، أم أن يشدوك إليهم ، نصيحة ؛ إذا كنـتَ فـي مجلس و لم تستطع أن تشدهم إليك فلا تجلس معهم ، أما إن استطاعوا أن يشدوك إليهم ، ابتعد عنهم .

قالوا : التمكن هو القدرةُ على التصرف في الفعل و الترك ، أنت حر لـك أن تفعـل بحسب إيمانك ، و لك أن تقول : لا بملء فمك ، لا ، زوجته يبدو أنها جميلة و ضغطت عليه ، أريد كذا و كذا ، قال :يا فلانة إن في الجنةمن الحور العين ما لو أطلـت إحـداهن علـى الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس و القمر ، فلأن أضحي بك من أجلهـن أهـون مـن أضحي بهن من أجلك ، يا بني إما أن تكفر بمحمد و إما أن أدع الطعام حتى أموت ، مـتمكن سيدنا سعد ، قال : يا أمي لو أن لك مئة نفسٍ فخرجت واحدة واحدة ما كفرتُ بمحمد ، فكُلـي إن شئت أو لا تأكلي الإسلام .

الآن بحاجة إلى مسلم قوي ، مسلم متمكن ، مسلم شديد في دين ا ، مسلم لا تأخذه في ا لومةُ لائمٍ ، مسلم لا يبحث عن أنصاف الحلول ، لا يبحث عن فتوى ضعيفة يتعلق بها ، لا يبحث عن فُرجة ينفذ منها ، كلام النبي اللهم صل عليه : " **و ا يا عم لو وضعوا الشـمس في يميني والقمر في شمالي على أن أدع هذا الأمر ما تركتُه ، حتى يظهـره ا أو أهلـك دونه** ".

قال : التمكن فوق الطمأنينة ، لأن الطمأنينة تكون مع نوع المنازعة فيطمئن القلب إلى ما يسكنه و قد يتمكن فيه و قد لا يتمكن ، قانع بالحق فأنت مطمئن أن الحق حق ، لكن أحيانا نفسك تغلبك ، أما المتمكن فوق المطمئن .

قالوا : التمكن هو غاية الاستقرار ، و هو تفعل من المكان ، تمكن من المكان ، لأنه قد صار مقامه مكانا لقلبه ، أضرب مثلا ، عندما كنا صغارا ، كانت هناك حافلات كهربائية ، و هناك خطوط هي صعود الخط في مكان مرتفع ، فهذه الحافلة تصعد ، راكب دراجة يحلو لـه أن يمسك بالحافلة فيستريح ، تسحبه ، تعلق بها فجرته ، أما الذي معه محرك ذاتي ينطلق في الصعود سريعا بقوته الذاتية ، لا بتعلقه بغيره علماء القلوب قالوا: هذا هو الفرقُ بين الحال و المقام ، يعني أنت لا سمح ا إنسان مقصر .

تجلس في مجلس علم تتألق ، وتقول : و ا سررنا ، و ارتحتُ كثيرا ، والجلسة نـور على نور ، هذا الحالُ ليس حالك ،هذا حالُ المجلس تأثرت به ، حال هذه الجماعـة ، حـالُ المتكلم ، كلام واضح ، لكن الإنسان الضعيف إذا جلس في مجلس علـم التقـى مـع مـؤمن موصول با يشعر براحة ، هذه الراحة ليست منه ذاتيا ، هذه الراحة من الذي جلس معـه و اتصل به ، و هذا معنى قول سيدنا حنظلة ،عن حنْظَلَةَ الْأُسيدي قَالَ وكَان من كُتابِ رسول الله صلى الله علَيه وسلم قَالَ :

" **لَقيني أَبو بكْرٍ فَقَالَ كَيفَ أَنْتَ يا حنْظَلَةُ قَالَ قُلْتُ نَافَقَ حنْظَلَةُ قَالَ سبحان الله ما تَقُولُ قَـالَ قُلْتُ نَكُون عنْد رسول الله صلى الله عليه وسلم يذَكِّرنَا بِالنار والْجنة حتى كَأَنَّـا رأْي عـينٍ فَإِذَا خَرجنَا من عنْد رسول الله صلى الله علَيه وسلم عافَسـنَا الْأَزواج والْأَولاد والضـيعات**

فَنَسِينَا كَثِيرا قَالَ أَبو بكْرٍ فَوَالله إِنا لَنَلْقَى مِثْلَ هذَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبو بكْرٍ حتى دخَلْنَـا علَـى رسول الله صلى الله عليه وسلم قُلْتُ نَافَقَ حنْظَلَةُ يا رسولَ الله فَقَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وما ذَاك قُلْتُ يا رسولَ الله نَكُون عنْدك تُذَكِّرنَا بِالنارِ والْجنة حتى كَأَنا رأْي عينٍ فَإِذَا خَرجنَا من عنْدك عافَسنَا الأَزواج والأَولاد والضيعات نَسِينَا كَثِيرا فَقَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم والذي نَفْسِي بِيده إِن لَو تَدومون على مـا تَكُونُـون عنْـدي وفـي الـذِّكْرِ لَصافَحتْكُم الْملائِكَةُ على فُرشكُم وفي طُرقكُم ولَكن يا حنْظَلَةُ ساعةً وساعةً ثَلاثَ مرات ؟

[رواه مسلم]

مع رسول ا فيه هذه الدرجة من التألق ، يأتي إلى البيت حالُـه صـار عاديـا جـدا كالناس فالنبي عليه الصلاة و السلام قال : أما نحن معشر الأنبياء فتنام أعيننا و لا تنام قلوبنا " اتصالٌ دائم ،ولَكن يا حنْظَلَةُ ساعةً وساعةً لو بقيتم على الحال التي أنـتم عليهـا عنـدي لصافحتكم الملائكة و لزارتكم في بيوتكم ، فالحالُ يأتيك ممن تلازمه ، من مجلس علم و مـن أخٍ كريم إيمانه أقوى من إيمانك ، من إنسان متألق متصل با عزوجل فهذا الحال ليس منك ، كما أن راكب الدراجة حينما يمسك بالحافلة تجره هذه السرعة ليست سرعة راكب الدراجـة ،هذه سرعة الحافلة ، لأنك تعلقتَ بها فجرتك ، أما حينما تملك مركبة لها محرك ذاتي .

و حينما تكون في أي مكان موصول با هذا صار مقاما ، و المقام ثابـت ، المقـام ملكك ، وأما الحالُ ليس ملكك ، الحال ملك من تجلس معه ، الحال ملك المجلس ملك من في المسجد ، أما إذا انفردتَ عن هؤلاء تعود إلى الكآبة و إلى الضيق و إلى السأم و إلى الضجر ، فالحال طارئ و الحال مستعار ، و الحال ليس حالك ، أما المقام الشيء الثابـت ، فقـالوا : التمكن هو غاية الاستقرار وهو تفعل من المكان ، فكأنه قد صار مقامه مكانا لقلبه ، أي قلبـه سكن الحق ، قد تبوأه منزلاً و مستقرا و صار معتصما به كما قال ا عزوجل:

وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّـهِ

[سورة النساء]

و قال تعالى :

وَمَن

يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

[سورة آل عمران]

و قال تعالى :

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

[سورة النساء]

و قال تعالى :

وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ

[سورة آل عمران]

التمكن أساسه الاعتصام ، و ذكرت في خطبة سابقة أن الإنسان في الطريق عنده خطران ؛ خطر أن يضل الطريق ، يدخل في طريق فرعي و يضيع عنه الهدفُ الأساسي ، فهذا علاجه أن يعتصم بحبل الله ، أي بالقرآن و بالسنة ، الاعتصام بحبل الله أن تحافظ على المنهج ، أما الاعتصام بالله أن يحافظ الله عليك بحفظه ، إنسان يركب مركبةً في الطريق هو معرض لأن ينحرف عن الطريق الأساسي و يضل هدفَه أو هو معرض أن تأتيه مركبةٌ أخرى فتصدمه ، إذًا هو يعتصم بالله لينجو من الهلاك ، و يعتصم بحبل الله لينجو من الضلال ، إن اعتصمتَ بحبل الله نجوتَ من الضلال و إن اعتصمتَ بالله نجوت من الهلاك .

لذلك العلماء قالوا : الاعتصام به نوعان : اعتصام توكلٍ و استعانة و تفويض و عياذ و إسلام نفسٍ و استسلام له ، و الثاني الاعتصام بوحيه و هو تحكيمه دون آراء الرجال ، و مقاييسهم و معقولاتهم و أذواقهم و كشوفاتهم و مواجيدهم ، فمن لم يكن كذلك فهو منسل من هذا الاعتصام تعتصم بالله لئلا تهلك ، و تعتصم بشرعه لئلا تضل.

و حينما سئل الإمام الشافعي : أندعو الله بالتمكن أم بالابتلاء ؟ فقال: لن تُمكن قبل أن تُبتلى " لن تكون متمكنا قبل أن تُبتلى ، و يروى أن شاعرا كتب الشعر ، أو نظم الشعر ، ثم توفيت زوجتُه و كان يحبها ، فقال بعضهم معلقا على الحدث : الآن صار شاعرا ، دخل في تجربة عاطفية عميقة ، فصار كلامه معبرا عن شعور صحيح ، فلذلك التمكن تسبقه محن، يسبقه ابتلاء ، غير البلاء ، الامتحان فإذا نجح في الامتحان صار متمكنا .

أنا اذكر هذا المثلَ كثيرا ؛ رأيت في متحف في اسطنبول قطعة ألماس سمعتُ أن ثمنها مئة و خمسون مليون دولار ، بحجم البيضة ، هذا حجم نادر جدا ، قلتُ : الألماس أساسه فحم ، لو أتيت بفحمة بحجم هذه الألماسة ، كم ثمنها ؟ ليرة أو أقلّ ، نصف ليرة سورية ، و ثمن الألماسة مائة وخمسون مليون دولار ، والألماسة أساسها فحم ، الألماس فحم لكن بضغط شديد ، هذا الضغط جعله ألماسا ، هذا المثل أتفاءل به ، يعني إذا أخٌ جاءه ضغطٌ شديد صار

ألماسا ، كان يساوي نصف ليرة فصار بمئة و خمسين مليون دولار ، الضغط يعمل خبرات ، و الضغط يعمل شعورا بالتفوق ، والضغط يعمل شعورا بأن هذا الدين حـق و أنـا عنـد ا مرضي .

هنا نقطة دقيقة ؛ قال : التمكن أن يجتمع للعبد صحةُ قصد تسيره و سعة طريق تروحه ، أنا أريد هدفا و طريقا ، فإذا الإنسان لم يعرف ا ما صح هدفُه ، ضائع شارد ، إنسان بـلا هدف، تائه ، قال الشاعر:

جئت لا أعلم من أين و لكني أتيـتُ
فرأيتُ أبصرتُ قدامي طريقا فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقي؟
لســـــتُ أدري

* * *

قصيدة طويلة جد ، عنوانها : " لستُ أدري " ولماذا لستُ أدري ؟ لست أدري ، شارد ، تجد الناس ساعةً تأخذهم الشهواتُ ، و ساعة تأخذهم التحفُ ، و ساعة تأخذهم الـرحلات ، وساعة يأخذهم التباهي ، ثم يأتيهم الموتُ فجأةً فيحبط ا عملَهم ، أما المؤمن هدفه واضح .

إذًا التمكن يحتاج إلى صحة قصد ، يكون هدفُك واضحا و صحيحا، و سـعة طريـق توصلك إلى هذا الهدف ، قال تعالى :

لِكُــلٍّ

جَعَلْنَــا مِنكُــمْ شِــرْعَةً وَمِنْهَاجًــا

[سورة المائدة]

شرع عظيم ، و هناك منهج لهذا الشرع .

قال : فبصحة القصد يصح السير ، و بصحة العلم تنكشف له معالم الطريق ، الآن بسعة السير يهون عليه السير ، دائما شرفُ المؤمن قيامه بالليل و عزه استغناؤه عن الناس ، فكلما شرف قصدك شرفتَ أنت مع هذا القصد ، قل لي ما الذي يهمك أقلْ لك من أنت ، من أصبح و الدنيا أكبر همه جعل ا فقره بين عينيه ، و شتت عليه شملَه و لم يؤته من الدنيا إلا ما قُدر له ، و من أصبح و أكبر همه الآخرة جعل ا غناه في قلبه ، وجمع عليه شملَه و أتتْه الدنيا و هي راغمة .

أحد إخواننا ساكن في شارع برنية ، قال لي : إنسان اشترى طابقين متجاورين ، في الطابق الثاني عشر ، و البيتان جاهزان ، لم يعجبه إكساء وزخرفة هذين البيتين ، فاقتلع البلاط وكسر السيراميك ونزع النوافذَ و لم يبق من البيت إلا الجدران والسقف ، و هو يتمتع بذوق عالٍ جدا ، و وضع البلاط الرائع و السيراميك الغالي و المنجور المدهش ، قال لي : و ا ِ يا أستاذ سنتين بالتمام و الكمال وهو يتمم إكساء هذين البيتين ، قال : حتى وصل الأمر أن أنشأ طاولةً من الرخام الشفاف ، و هذا أغلى نوع من الرخام ، ثابتة ، و جعل تحتها الإضاءةَ ، و البناية لم يكن فيها مصعد ، سنتان وهو صاعد نازل ثم فجأةً وافتْه المنيةُ بعد أن انتهى من إكساء البيتين بأيام ثلاثة ، الطريق مسدود ، هذه حوادث تتكرر كثيرا ، يتوهم أن هذا الشيء يسعده ، ثم يفاجأ بعد فوات الأوان أنه لم يسعده .

ومشكلة أهل الدنيا أنهم كلما وصلوا إلى شيء منها ظهر شيء أجملَ ، فاسود هذا في أعينهم ، تظن أنك قد فعلتَ شيئا جميلا جدا ، بعد سنة تأتي أشياء أجمل ، فالذي هدفُه الدنيا فقط يسود هذا في عينه ، أما المؤمن يستعين بالدنيا استعانة على آخرته ، فيرضيه منها كل شيء ، قال: دخل أحد الصحابة إلى غرفة سيدنا أبي عبيدة الجراح - هكذا قرأتُ - وجد قدر ماء مغطى برغيف خبز ، و سيفا معلقا و جلدا يجلس عليه ، فقيل: ما هذا يا أمين هذه الأمة ، قال: هو للدنيا و على الدنيا كثير ، ألا يبلغنا المقيل ، أي أنت ما صدفت أن عزيتَ في بيت ثمنه حوالي خمسون مليوناً ، و هذا الذي دفن قبل يوم هو الذي أنشأ هذا البيتَ و زين البيت وفرش البيتَ و اعتنى بهذا البيت ، أين هو الآن ؟ هذه أكبرموعظة ، ترك و ذهب .

إذا تحقق العبد بطلب ربه وحده تعين مطلوبه ، فإذا بذل جهده في طلبه صح له طلبه ، و المؤمن الصادق قصده ا ُ عزوجل ،فلذلك أي شيء يقربه إلى ا ِ يفعله ، و أي شيء يبعده عن ا يبتعد عنه .

قال : تمام العبودية أن توافق رسول ا صلى ا عليه و سلم في قصده ومقصوده و طريقه ،فمقصوده ا ُ وحده ، و قصده تنفيذُ أوامره في نفسه وخلقه و طريقه اتباع ما أوحي إليه ، هذا هو أعلى درجة العبودية ، أن يكون قصدك و مقصودك و منهجك ما فعله النبي ، هو قصد النبي و مقصود النبي و منهج النبي .

قال: خيار الناس من وافق النبي عليه الصلاة و السلام في المقصود و الطريق ، وأبعدهم عن ا و رسوله من خالفه في المقصود و الطريق الفكرة دقيقة ، أنت الآن في دمشق، هدفُك حمص ، من أين الطريق ؟ ليس من درعا ، طريق النبك ، يجب أن يكون الهدفُ واضحا و أن تسلك الطريق الموصلَ لهذا الهدف ، و الطريق الموصل لهذا الهدف هو اتباع السنة ، و الهدف هو ا ُ ، كيف وصل النبي إلى ا ؟ يجب أن تسلك الطريق نفسه الذي سلكه النبي .

فالتمكن أساسه وضوح الهدف و صحته ووجود الطريق المفضي إليـه ، و الطريـق المفضي إليه هو الشرع ، و الهدف تعرفه من سر وجودك و غاية وجودك ، فمن كان مـراده ا ُ و الدار الآخرة فقد وافق النبي عليه الصلاة و السلام في المقصود ، فإن عبد ا َ بمـا بـه أمر ؛ و ا ُ عزوجل لا يعبد إل بما أمر ، أناس كثيـرون ، و مسـلمون كثُـر يعبـدون ا بأمزجتهم، لا بما أمرهم ا عزوجل ، لذلك يبتدعون و قد قال عليه الصلاة و السـلام: عـن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ قَالَ :

" كَانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقُولُ في خُطْبته يحمد الله ويثْني عليه بِما هو أَهلُه ثُم يقُولُ من يهده الله فَلا مضل له ومن يضلله فَلا هادي له إِن أَصدقَ الْحديث كتَـاب اللـه وأَحسن الْهديِ هدي محمد وشَر الْأُمورِ محدثَاتُها وكُل محدثَة بِدعةٌ وكُل بِدعة ضلالَةٌ وكُـل ضلالَة في النارِ ثُم يقُولُ بعثْتُ أَنَا والساعةُ كَهاتَينِ وكَان إِذَا ذَكَر الساعةَ احمـرتْ وجنَتَـاه وعلا صوتُه واشْتَد غَضبه كَأَنه نَذير جيشٍ يقُولُ صبحكُم مساكُم ثُم قَالَ من تَرك مالا فَلأَهلـه ومن تَرك دينًا أَو ضياعا فَإِلَي أَو علَي وأَنَا أَولَى بِالْمؤْمنين "

[رواه النسائي]

إذًا أن تُعين الهدفَ ، و أن يكون هذا الهدفُ واضحا ، و أن تبحث عن الطريق الموصل إليه ، هذا يقودك إلى منزلة اسمها التمكن ، أي أنت ممتنع ، و أنت في حصـنٍ حصـين ، لا يستخفنك أحد .

الآن أحد أسباب التمكن ، قال : أن تزيل العلائق التي تصرف عن هذا الهـدف ، فأيـة علاقة بينك و بين الآخرين إذا حجبتْك عن ا عزوجل يجب ان تخرج منها ، لا تصاحب من لا ينهض بك إلى ا حالُه و يدلك على ا مقالُه ، لذلك قضية الصحبة مهمة جدا ، و ا ُ عز وجل قال:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

[سورة التوبة]

ثم يقول :

وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

[سورة التوبة]

كأن الآية تقول : اتقوا ا ولكنكم لن تستطيعوا هذه التقوى إلا إذا كنتم في بيئة مؤمنة ، فأنت بقدرما اجعلْ علاقاتك مع المؤمنين ، اتجاهاتك مع المؤمنين ، و جلساتك مع المؤمنين ، عن أَبِي سعيد أَنه سمع رسولَ الله صلى الله علَيه وسلم يقُولُ :

" لا تُصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكلْ طعامك إلا تقي "

[رواه الترمذي]

فهذه البيئة الطيبة تعينك على أن تكون مثلهم ، و الإنسان عنده صفة أساسـية نسـميها الغيرةَ، و هي أصح تسمية ، إذا جلست مع المؤمنين تتمنى أن تكون مثلَهم بدافع الغيـرة ، إذًا هم يشدونك إلى ا ، و إن جلست مع أهل الدنيا تتمنى أن تكون مثلهم ، إذًا هم يشدونك إلـى الدنيا فلذلك ؛قل لي من تصاحب أقُلْ لك من أنت ،قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

[سورة الممتحنة]

أيها الإخوة الكرام ؛ هذه المنزلة هي منزلة التمكن مستنبطة من قوله تعالى :

وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

[سورة الروم]

المتمكن في حرز حريز ، و في حصن حصين ، و قد عاهد ا على السير إليـه فـي المنشط و المكره و في إقبال الدنيا و إدبارها ، و المتمكن لا يسمح لأحد أن يغير وجهتَه و لا أن يحرفه عن سيره ، و يقابل هذا المتمكن ضعيفُ الإيمان الذي لم يتضح هدفُه و لم يكتشـف الطريق لهدفه الذي رسمه له .

أرجو ا سبحانه و تعالى أن نعالج في درس آخر منزلة من منازل مدارج السـالكين في منازل إياك نعبد و إياك نستعين

و الحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ... مع الدرس الواحد والستين من دروس مدارج السـالكين ، فـي منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ومنزلة اليوم الورع . ا جل جلاله يقول :

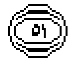
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾

(سورة المؤمنون)

هذه الآية أصلٌ في الورع ، ورد في الأثر أن .. " ركعتين من ورع خير من ألف ركعةٌ من مخلط " ..

والمخلط الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، لأن العمل الصالح قيمته الكُبرى أنه يعينك على الاتصال با ، فإذا رافق هذا العمل الصالح عملٌ سيء كان دور العمل السيء مثبطـاً ، وقاطعاً ، وحجاباً ، فالأعمال الصالحة مع الأعمال السيئة المؤدى في قطيعـة ، إلا أن هـذه الأعمال لها عند ا جزاء ، لكن لا يستطيع المرء أن يستغلها أو أن يعتمد عليها في الاتصال با ، لأن العمل السيء خالطها فعطل قيمتها الإقبالية ـ إن صح التعبير ـ وهناك آيةٌ أخرى هي أصلٌ في الورع ، قال تعالى :

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾



(سورة المدثر)

قال مجاهد : " طهر نفسك من الذنب " فكنى عن النفس بالثوب ، وقال ابن عبـاس : " لا تلبسها على معصية ولا على غدر ". لا تلبس ثيابك على معصية ولا على غـدر ، وقـال الضحاك: " عملك فأصلح لأن عملك ثوب لك ".

الإنسان يرتدي ثوباً من عمله ؛ فهذا مخلص ، وذاك غدار ، وذلك صالح ، وآخر ورع ، وفلان تقي ، وغيره كاذب ، فلان صادق ، سلوكه العام يجعله يرتدي ثوباً من عمله فقـال الضحاك : " عملك فأصلح " . والعرب تقول للرجل إذا كان صالحاً : إنه طاهر الثياب . وإذا كان فاجراً إنه خبيث الثياب . وقال سعيد بن جبير : " وقلبك وبيتك فطهر " . وقـال الإمـام الحسن :

" وخُلُقك فطهر " . فآية :

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾

(سورة المدثر)

أصلٌ في الورع ، إلا أن المعنى الظاهري المادي يمكن أن يكون وارداً ، فا عز وجل أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز فيهـا الصـلاة ، لأن المشـركين كـانوا لا يتطهرون ولا يطهّرون ثيابهم ، وقال بعض العلماء : " وثيابك فطهر أي وثيابك فقصـر لأن تقصير الثياب طهرةٌ لها " .

أيها الإخوة ... المقصود من الورع أن يطهر القلب من الدنس كما يطهر المـاء دنـس الثوب ، والشيء الغريب أن بين الثياب والقلوب مناسبةً ظاهرة ، فالثياب تـدل علـى قلـب الإنسان وحاله ، لأن الإنسان يرتدي ثوباً من عمله . فإخلاصه هو ثوبـه ، وغشـه ثـوب ، تواضعه ثوب ، كبره ثوب ، فهناك مناسبةٌ بين القلب وبين الثياب ، فالمقصود بالورع تطهير القلب من الدنس .

النبي عليه الصلاة والسلام جمع الورع كله في كلمة واحدة :

" من حسن إسلام المرء تَركُه ما لا يعنيه " *

(من سنن الترمذي : عن " أبي هريرة ")

المؤمن مشغول ، له هدفٌ كبير ، ليس في وقته متسع للسفاسف ، هدفه أكبر من وقته ، وهذه حقيقة وهي أنك حينما تختار هدفاً كبيراً أنت أسعد الناس ، لأن هذا الهدف الكبير يأخـذ كل وقتك ، فلا تجد وقتاً لسفاسف الأمور ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

" إن ا يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيها " .

(من الجامع الصغير : عن " الحسن بن علي ")

" من حسن إسلام المرء تَركُه ما لا يعنيه " *

(من سنن الترمذي : عن " أبي هريرة ")

هذا الترك يعم الكلام ، ترك الكلام الذي لا يعنيك ، وترك النظر الذي لا يعنيك ..

" إياكم وفضول النظر فإنه يبذر في النفس الهوى " .

وترك الاستماع الذي لا يعنيك ، التنصت على الآخرين ، تقصي أخبار الآخرين هذا لا يعنيك ..

" من حسن إسلام المرء تَركُه ما لا يعنيه "*

(من سنن الترمذي : عن " أبي هريرة ")

تركه فضول الكلام والنظر والاستماع ، والإنسان حينما يعلم ويوقن أن كلامه جزء من عمله يكون ورعاً ، العوام يتوهمون أن الكلام لا بأس به ويقولون : ما فعلنا شيئاً تكلمنا ، وغاب عنهم ..

" وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم "*

(من مسند أحمد : عن " أبي هريرة ")

وكم من كلمة فرقت بين زوجين ، وكم من كلمة فرقت بين شريكين ، وكم مـن كلمـة فرقت بين أمٍ وابنها ، وبين أخٍ وأخيه ، فالكلمة السيئة وبال على صـاحبها وعلـى النـاس ، والطيبة صدقة..

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً

أي التعريف با عز وجل ..

كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ

(سورة إبراهيم)

فملاك الورع كله ترك المرء ما لا يعنيه من الكلام ، والنظر ، والاستماع ، والـبطش ، والمشي ، والفكر . وغير الورع إنسان ليس له هدف ضائع ، كل شيء يشغله ، يبحث عـن كل شيء ، يتقصى كل شيء ، يهتم بكل شيء ، يقف أمام المناظر يتأملهـا ، أمـام الرجـال يتفحصهم ، أمام الحاجات يقلبها لأنه فارغ ، أما حينما يكون لك هدفٌ كبير ، فالهدف الكبيـر هو الذي يسمو بك ، ويجعلك إنساناً عند ا كبيراً ، ومرة ثانية :

" إن ا يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيها " .

(من الجامع الصغير : عن " الحسن بن علي ")

فلذاك :

" من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه "*

(من سنن الترمذي : عن " أبي هريرة ")

هذا في الكلام ، والنظر ، والاستماع ، والبطش ، والمشي ، والفكر . دقق بطالب يؤدي امتحاناً في الجامعة ، لا يأتيه ولا خاطر في ثلاث ساعات لا علاقة له بالسؤال أبداً ، موضوع طعامه ، وشرابه ، وبيته ، وأصدقائه ، وعلاقاته ، ومشكلاته ، وطموحاته ، ورغباتـه كلهـا مجمدة لأنه أمام ثلاث ساعات مصيرية ، كل جهده متعلق بمادة السؤال ، والمعلومـات التـي يمكن أن تكون إجابةً لهذا السؤال .

الحقيقة الإنسان حينما يشغل با عز وجل صار في عنده اصطفاء، إنسان عنده فحص بعد أيام ، دخل إلى مكتبة فيها آلاف الكُتب ، يأخذ الكتاب المقرر - يصطفي - وهذا الشيء ملاحظ عند بعض المؤمنين ، يقتني مجلة فيها مقالة تهمه ؛ مقالة علمية ، مقالة دينية ، أما القصة والموضوع التاريخي لا يعنيه إطلاقاً ، في قضية معلقة ببلاد بعيد ، لفنان مثلاً ، لشاعر ، فنفسه تعزف عن موضوعات لا تعنيه ، أنت مع مجلة تصطفي منها ما يهمك وما يعينك على أداء رسالتك في الحياة ..

" من حسن إسلام المرء تَركُه ما لا يعنيه "*

(من سنن الترمذي : عن " أبي هريرة ")

من الكلام ، والنظر ، والاستماع ، والبطش ، والمشي ، والفكر ، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة ، فهذه الكلمة كما قال العلماء عنها : كلمةٌ كافيةٌ شافيةٌ في الورع .

وقال بعض العلماء : " الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة ، والزهد في الرياسة أشد منه في الذهب والفضة ، لأنهما يبذلان في طلب الرياسة ". الورع ثمين جداً والزهد أثمن ، وحينما تكون ورعاً وزاهداً فأنت على أول الطريق الصحيح .

أيها الإخوة ... كما قال بعض العلماء : " الورع أول الزهد ، كما أن القناعة أول الرضى". الورع أول الزهد ، حينما تتورع فأنت زاهد ، زاهد في الدنيا الفانية ، لكنك طموح ومتعلق بالآخرة الباقية .

وللورع تعاريف كثيرة : الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل. الملاحظ عند معظم المثقفين الذين لم يرتق إيمانهم إلى المستوى المقبول ، يتساءلون لماذا حرم كذا ؟ يناقش التحريم ، ويحاول أن يبحث عن علة التحريم ثم يقول : هذه العلة غير موجودة الآن . مثلاً لماذا حرم ا الربا؟ لأنه لم يكن في الجاهلية إلا قرض استهلاكي ، فيأتي المرابي فيستغل حاجة الفقير إلى المال ، فيأخذ منه أضعافاً مضاعفة ، يقول لك بعض المثقفين : الآن هناك قرض استثماري ، أي أن شركة تحتاج إلى أن تضيف لمعملها خطاً ، تريد أن تتوسع ، فتأخذ قرضاً ربوياً بنية التوسع لا بنية سد الحاجة ، فهذا القرض لا علاقة له بالربا وإن كان فيه فائدة ربوية، هنا يقول أحد العلماء : " الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل " .

لكن علماء الأصول حلوا هذه المشكلة ، حينما يأتي التحريم مع علته فالتحريم يدور مع العلة وجوداً وعدماً ، أما حينما يأتي التحريم مطلقاً فلذلك لا يمكن أن تعلل هذا التحريم ، ولا أن تبحث في العلل التي اخترعتها أنت، وهي موجودة أو غير موجودة .

مثلاً يقول لك : ألا لا تسافرن امرأةٌ إلا مع ذي محرم .كان ذلك أيام السفر الطويل على الجمال ، أما الآن في طائرات ، هذا التحليل من أجل إلغاء الحكم ، وحينما يأتي التحريم من قبل النبي عليه الصلاة والسلام الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، حينما يأتي

التحريم خالياً من العلة ، فلذلك لا ينبغي أن نضع عللاً وهمية وأن نبحث في وجودها وعدمها، أما حينما يأتي التحريم مع العلة فالأمر يختلف ، لذلك قال بعض العلماء : " الورع الوقـوف على حد العلم من غير تاويل " .

وقال بعضهم : " الورع على وجهين : ورع في الظاهر وورع في البـاطن ، فـورع الظاهر أن لا يتحرك إلا ..". والمؤمن الصادق حركته، ذهابه إيابه ، دخولـه خروجـه ، صلته قطيعته، عطاؤه منعه ، كل شيء يفعله ..

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾

(سورة الأنعام)

" فورع الظاهر أن لا يتحرك إلا ، وورع الباطن هو أن لا تدخل قلبك سوى ا " . القلب له ورع والجوارح لها ورع ، الجوارح أن لا تتحرك إلا ، والإنسان أعلم بنيته ..

بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾

(سورة القيامة)

وقال بعض العلماء : " من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلـى الجليـل مـن العطاء " . أبو حنيفة النعمان رحمه ا تعالى لم يقف في ظلِ بيت مرهونٍ عنده ، لئلا ينتفع بظله ، هذا من باب الورع ، أما ليس من الفتوى في شيء ، أما الورع أن تدع ما لا بـأس به حذراً مما به بأس .

فالحلال بين ، لا أحد يسأل عن الحلال لأنه واضح ، والحرام بين لا أحد يسأل عنـه ، لكن كل الأسئلة تنصب على الشُبهات ، ومعنى الشبهات شبهها بالحلال من جهة والحرام مـن جهة ، الورع ترك الشبهات استبراء للدين والعرض ، لذلك قيل : " من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء " . والإنسان ممتحن ..

لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

(سورة الملك : من آية " ٢ ")

سيدنا عمر بن عبد العزيز ـ كما يروى ـ إذا أراد أن يتكلم مع أهله هنـاك سـراج خاص لأهله ، فإذا أراد أن يقضي شؤون الخلافة هناك سـراج خـاص لشـؤون الخلافـة . والإنسان يظهر ورعه من تعامله ، قال له : هل تعرفه ؟ قال : نعم ، قال : هل سافرت معه ؟

قال لا . قال : هل جاورته ؟ قال : لا . قال : هل عاملته بالدرهم والدينار ؟ قال : لا . قال : فأنت لا تعرفه ائتني بمن يعرفه .

وقيل : الورع الخروج من الشهوات وترك السيئات . بالمناسبة ا عز وجل رحيم ، ا عز وجل كريم ما حرمك ، أية شهوة أودعها فيك جعل لها قناةً نظيفةً تسري خلالها ، فلـذلك الشهوات لها قنوات نظيفة ، لي زميل بالعمل صارحني فقال لي : وا كانت لـي جاهليـةٌ كبيرة ، ثم تبت إلى ا عز وجل ، واصطلحت معه ، وتزوجت ، فيا سبحان ا ! ساعةٌ مـع الزوجة تعدل آلاف البغايا . مع الزوجة الطهر ، وطمأنينة ، والسرور، والحب ، والإخلاص ، والوفاء ، وثمرة لهذا الحب الولد ، ساعةٌ مع زوجة مخلصة تعدل آلاف التجارب التي مـر بها .

فصدق أيها الأخ الكريم أن المؤمن حينما يأتمر بما أمر ا وينتهي عما نهى ا عنه ، يسمو إلى أعلى درجة من السعادة ، وأية سعادة أكبر من أن تشعر أن ا يحبك ، وأنك فـي رضوان ا ، هذا الشعور لا يعرفه إلا من ذاقه ، فأنت في حركتك ، وسفرك ، وزواجـك ، وعملك ، ورحلتك ، وعماك ، وإقامتك ، وابتسامتك ، وزياراتك ، ولقاءاتك ، ونشاطاتك كلها تبتغي رضوان ا ، رضوان ا واسع جداً ، عندما تتقن عماك هذا يرضي ا عز وجل ، إذا أدخات على قلب أهلك السرور هذا يرضيه ، فأنت دائماً تبحث عن رضوان ا عز وجل .

فقيل : " الورع الخروج من كل شهوة ـ طبعاً شهوة محرمة ـ وتـرك كـل سـيئة ، والورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس في كل طرفة عين " .

ومن كان حساب نفسه حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً ، ومن حاسب نفسه حساباً يسيراً في الدنيا كان حسابه يوم القيامة حساباً عسيراً .

" خوفان وأمنان لا يجتمعان ، من خاف ا في الدنيا أمنه يوم القيامة ، ومن أمنه فـي الـدنيا أخافه يوم القيامة " .

الإنسان عندما يتحرك حركة حرة من غير منهج ا يفقد حريته ؛ لو إنسان سرق ، أو قتل انتهت حريته ، وحينما ينضبط يكون حراً ، فعلى المستوى المدني ، مواطن يتقيد بالقوانين والأنظمة ، هو حر لأنه مواطن صالح يسافر إلى أي مكان ، يغادر القطر إلـى أي مكـان ، حريته جاءت من تقيده ، فتتقيد تكون حراً ، تتفلت تكون بقيد ، وأجمل آية :

أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ

(سورة البقرة : من آية " 5 ")

على تفيد العلو ، الهدى رفعهم ..

أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

(سورة الزمر)

الضلال شيء ضمن شيء ، في تفيد الظرفية ، فالإنسان الضال إما في كآبة وإما في سجن، والإنسان المؤمن المستقيم كلما ازداد إيماناً ازداد عزاً ، وازداد رفعةً ، " الورع الخروج من الشهوات وترك السيئات . والورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس في كل طرفة عين " .

سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول : " ما رأيت أسهل من الورع ، ما حاك في نفسك فاتركه " . شيء شوشك اتركه .

" وما ترك عبد شيء لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه " .

في الدين قضايا يوجد معها أدلة ضعيفة ، وفي أدلة تحرمها ، وأدلة تجيزها ، فالشيء المريح أن تترك ما ضعفت ادلته ، هذا سماه العلماء الفقهاء : الخروج من الخلاف ، وسلوك الأحوط . الورع يسلك سلوك الأحوط ويخرج من الخلاف . " ما رأيت أسهل من الورع ، ما حاك في نفسك فاتركه " . وكما قال عليه الصلاة والسلام :

" يا وابصه البر ما اطمأنت إليه النفس ... والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس " .

(من الأذكار النووية : عن " وابصة بن معبد ")

ذكرت لكم مرة أن أخاً من إخواننا كان يعمل في تجارة الأبنية ، كان يبني البيوت ويبيعها ، قال لي : وجدت أرضاً في منطقة مهمة جداً ، في مركز استراتيجي في المدينة ، وتمكنت مع عدة أصدقاء أن ندخل المزاودة بشكل تمثيلي ـ أي أربع خمس أطراف يرفعون السعر قليلاً ـ فاستقرت هذه الأرض على ثمنٍ يعدل ثُلُثي ثمنها الحقيقي ، طبعاً أصحاب هذه الأرض مئات من الناس وفيهم أيتام ، قال لي : بعد أن استقر على سعرٍ مغرٍ جداً ، ورسا علي وشعرت بغبطة شديدة ، ثم تذكرت القبر ، لو أنني وضعت في القبر ، ماذا أقول لله عز وجل ؟ كيف حرمت هؤلاء الأيتام حقهم من السعر الحقيقي ؟ قال لي : والله خفت .

وقال لي : فما رأيك ؟ قلت له : أنت أجبت نفسك إما أن تعطي أصحاب هذه الأراضي الحق الكامل ، وإما أن تنسحب من هذه المزاودة .

" البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك في صدرك ..." .

دائماً يسأل السائل وهو قلق ، أينما ذهبت ، حتى في بلاد الغرب ، اشترى بيتاً بالتقسيط ، هو مرتاح فيه ، لكنه قلق ، يسأل عملي حرام ؟ لماذا يسأل ؟ لأنه قلق . كل شيء فيه

مخالفة النفس تخافه ، وذكاء الإنسان وبطولته في خوفه من ا عز وجل ، كلما ازددت خوفاً منه أمنك .

وقال بعض العلماء : " الحلال هو الذي لا يعصى ا فيه ، والصافي منه الذي لا ينسى ا فيه " . الحلال الذي لا يعصى ا في كسبه ، كل شيء فيه ورع ، وفيه استقامة فهو حلال ، والصافي منه الذي لا ينسى ا فيه ، في أشياء مباحة إذا استغرقت فيها نسيت ا عز وجل ، هذا معنى ما ورد عنى النبي عليه الصلاة والسلام :

" لا تبلغ مرتبة المتقين حتى تدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس " .

في أشياء مباحة لو أخذتها وتعمقت فيها ربما أبعدتك عن ا عز وجل ، لذلك قلت لكـم سابقاً: إن الشيطان ذكي جداً ، أولاً يأمر الإنسان بالكُفر ، فإن لم يستطع أن يحمل هذا الإنسان على الكفر يأمره بالشرك ، فإن رآه موحداً يأمره أن يبتدع ، فإن رآه على السـنة يـأمره أن يفعل الكبائر، فإن لم يستطع يأمره بفعل الصغائر ، فإن لم يستطع يأمره بفعل الشُبهات ، فـإن لم يستطع يأمره بالمباحات ، يغرق في الدنيا إلى درجة أنه ينسى ا فيها .

فإن لم يستطع ، ماذا بقي ؟ بالتحريش بين المؤمنين ، يعيش معهـم ليلقـي البغضـاء والعدوان بينهم .

الكفر ، فالشرك ، فالابتداع ، فالكبائر ، فالصغائر ، فالشبهات ، فالمباحات ، فالتحريش بين المؤمنين ، بشكل تسلسلي ، فالحلال الذي لا يعصى ا فيه ، والصافي منه الذي لا ينسى ا فيه .

سأل الحسن غلاماً فقال له : " ما ملاك الدين ؟ قال : الورع . قال : فما آفته ؟ قـال : الطمع " . فعجب الحسن منه .

ذات مرة قرأت أن أبا حنيفة النعمان رحمه ا تعالى رأى غلاماً أمامه حفرة فقال له : "إياك يا غلام أن تسقط " . كان هذا الغلام فطناً فقال : " بل إياك يا إمام أن تسـقط إنـي إن سقطت سقطت وحدي ، وإنك إن سقطت سقط معك العالَم " .

قال أبو هريرة رضي ا عنه : " جلساء ا غداً أهل الورع والزهد".

وقال بعض السلف : " لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس " . هذا قول لبعض السلف .

* * *

أيها الإخوة ... الآن في الورع موضوع دقيق ، قال صاحب المنازل، مدارج السـالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين : " الورع توق مستقصى على حذر ، وتحرج على تعظيم ـ أي أن يتوق الحرام والشُبه ـ وما يخاف أن يضره أقصى ما يمكنه من التوقي " .

الحقيقة الإنسان حينما يصل إلى ا عز وجل ، ويصطلح معه ، ويتصـل بـه يشـعر بسعادة كبيرة ، وكل واحد من إخواننا الكرام عندما يتألق مع ا عز وجل ، أكبر دعاء له : يا رب أدم هذا الحال ، يا رب أدم هذا الفضل ، أدم هذا الاتصال . فأجمل شيء بالحياة الاتصال ، وأصعب شيء الانفصال . أحب رجل فتاة فاشترط عليه أبوها أن يحضر دروسه ، فحضـر الدروس فنسي الفتاة ، قالت له مرةً : أين الوعد بالزواج ؟ فقال : يـا وصـال كنـت سـبب الاتصال .

الإنسان أحياناً يتصل با عز وجل ، هذه الصلة هي الدين كله ، كل السـعادة فيهـا ، فالذي وصل إلى ثمار الاتصال كيف يحافظ على هذا الاتصال ؟ بالورع يحافظ عليـه ، أمـا حينما يتساهل أي تساهل يحجب عن ا عز وجل ، والقصة التي أرويها لكم كثيراً هي :

" أن شاباً سمع من شيخه أن لكل سيئة عقاباً ، زلت قدمه في سيئة فتوقع أن يعاقبـه ا عقاباً شديداً ، انتظر ؛ فإذا صحته سليمة ، وأولاده جيدون ، ومركبته فارهة ، وتجارته رائجة ، فناجى ربه فقال : يا رب لقد عصيتك فلم تعاقبني . فوقع في نفسه أن يا عبدي قد عاقبتـك ولم تدر ، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟ " .

المؤمن له صلة با ، له حال مع ا ، حينما يخطئ يحجب عن ا ، هذا الحجاب أكبـر عقاب ، والحقيقة اكبر عقاب الحجاب عن ا ..

كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٥﴾

(سورة المطففين)

فالتوقي والحذر متقاربان ، التوقي فعل الجوارح ، والحذر فعـل القلـب ، أي يـوقي جوارحه من المعصية ، ويوقي قلبه من الطمأنينة الساذجة، لكن هناك أشخاص ـ وهذه نقطة مهمة جداً ـ في الخندق الآخر ، ليسوا في الدين ، في خندق معاد للدين ، فيحـافظوا علـى شيء من استقامتهم، وكرمهم ، وعفتهم لكي يثبتوا لأهل الدين أننا نحن الصح ولسـتم أنـتم ، فالإنسان حينما يكون كاملاً بنية أن يدحض الحق هذا الكمال لا أجر له به ، فقال : هناك مـن يظهر نزاهةً ، هناك من يظهر عزة ، هناك من يتوقى أن يفعل فاحشةً ، هناك من يتـوقى أن يفعل دناءةً تصوناً عنها ، ورغبةً عن مواقعتها ، وطلباً للمحمدة عند الناس . الإنسان يجب أن يكون كبيراً ، فإذا ما اتخذ الدين سبباً إلى علوه في نظر الناس ، قد يتخـذ مواقـف أخلاقيـة مصطنعة كي ينتزع إعجاب الناس ، فقال : " الورع هو التوقي ، توقي الجوارح عن معصية أو شبهة ، وحذر القلب أن يلتفت لغير ا " .

وفي تعريف آخر : " تحرج عن تعظيم " . أي أن الباعث على الورع عـن المحـارم والشبه حذر حلول الوعيد ، وإما تعظيم الرب جل جلاله .

الإمام الحسن له كلمة : " لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت " .

قال أحدهم لي كلمة وا تأثرت لها ، قال لي : كنت في بلاد الغرب وفي أجهزة لهو ، وفي مئات القنوات ، وفي مشاهد لا ترضي ا عز وجل، قال لي بـالحرف الواحـد : وا أستحي من ا عز وجل أن أنظر تعظيماً عز وجل .

كل منا إذا زاره إنسان عظيم في بيته ، قد يكون شخصـاً مهمـاً ، عالِمـاً جلـيلاً ، لا يستطيع أن يقابله بلباس مبتذل مبتذل ، يستحي منه لأنه يعرف قيمته ، إذا الإنسان مع إنسـان يرتدي أجمل ثيابه ، ينمق كلماته ، في أول اللقاء الأول تجد أموراً كلها منمقـة ، مرتبـة ، مضبوطة هذا من باب الاستحياء ، فإذا الإنسان يعظم ا عز وجل تكون خلوتـه كجلوتـه ، وسريرته كعلانيته ، وسره كجهره ، وإقامته كسفره ، لذلك العلمـاء قـالوا : "الـورع مـن المعصية إما عن خوف من العقاب ، وإما عن تعظيم عز وجل " . المرتبة الثانية أرقى .

الورع أيها الإخوة يبعث على تجنب القبائح لصون النفس ، وتوفير الحسنات ، وصيانة الإيمان ، فهذه ثلاث فوائد من فوائد تجنب القبائح ، فصون النفس هو حفظها وحمايتها عمـا يشينها، ويعيبها ، ويزري بها عند ا عز وجل وعباده المؤمنين وسائر خلقه ، لأنه من كرمت عليه نفسه وكبرت عنده صانها وحماها ، وزكاها وعلاها ، ووضعها في أعلى محل . كـلام دقيق، إذا الإنسان نفسه كريمة ، لا يخالف قوانين السير لماذا ؟ لكي لا يقف موقفاً ضـعيفاً ، حتى لا يتذلل ، يطبق الأنظمة حتى يبقى عزيزاً ، إذا الإنسان نفسه كريمة يطيع ا عز وجل ، حتى لا يؤدبه ا عز وجل يؤدبه بمصيبة مهينة .. " لا يخافن العبد إلا ذنبه ولا يرجون إلا ربه " ..

ا عز وجل عنده أدوية كثيرة ، من عذاب مهين ، إلى عذاب عظيم ، وإلـى عـذاب شديد ، وله أدويـ ـة لا تعد ولا تحصى ، وا عز جل رحيم ، و المثل الأعلى كيـف أن الأب الطبيب حينما يعلم أن الزائدة عند ابنه قد التهبت ، قد يجري له عملية بيده ، قـد يفـتح بطنه بيده ، وقد يقطع الشرايين ، وقد يستأصل هذه الزائدة وهو يعلم أن هذا ابنه ولابـد مـن ذلك ، فعندما يأثم الإنسان ا يعاقبه ، وقد يهان بهذا العقاب ، فالإنسان كلما كرمـت نفسـه ، كلما أراد أن تبقى مصونة من كل سوء ، من كل إهانة ، من كل إحراج لذا يستقيم ، فالمستقيم دائماً رافع الرأس ـ أبداً ـ لا يستطيع أحد أن يصل إليه ..

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾

(سورة يونس : من آية " ٢٦ ")

ما هذه الزيادة ؟ النظر إلى وجه ا الكريم ـ معنى دقيق ـ من كرمت نفسـه عليـه صانها بالاستقامة .

تسمعون قصصاً كثيرة فلان سرق ويعذب ، هذا العذاب جزاء وفاقاً، لكن لو كانت نفسه كريمة عليه - مثلاً - ما سرق ، حفاظاً على كرامته ، وعلى سمعته ، وعلى راحته ، وعلى سلامة نفسه ، وعلى مكانته ، وعلى تألقه .

فالورع تخوف أو تعظيم ، أول شيء : " صون النفس وهو حفظها وحمايتها عما يشينها ويعيبها ، ويزري بها عند ا عز وجل وعباده المؤمنين وسائر خلقه ، فإن من كرمت عليه نفسه وكبرت عنده صانها وحماها ، وزكاها وعلها ، ووضعها في أعلى محل ، وزاحم بها أهل العزائم والفضل ؛ ومن هانت عليه نفسه وصغرت عنده ألقاها في الرذائل ، وحل ذمامها وأرخاه ، ودساها ، ولم يصنها عن قبيح ، فأقل ما في تجنب القبائح صون النفس " .

تجد الإنسان يعيش سبعين سنة يقول لك : ما دخلت إلى مخفر ، ما دخلت لقصر العدل ، ما أحد أقام عليه دعوى باستقامته عزيز .

الشيء الثاني : توفير الحسنات ، لأن السيئات تعطل فعل الحسنات ، إن أردت أن تستفيد من الحسنات بالإقبال على ا ، فالسيئات إن اجتمعت مع الحسنات تُبطل مفعولها . فالسيئات قد تحبط الحسنات ، وقد تستغرقها بالكلية أو تنقصها ، فلابد من أن تضعفها قطعاً ، السيئات قد تستغرق الحسنات وقد تضعفها ، فتجنبها يوفر ديوان الحسنات ، وذلك من فوائد الورع ، أما صيانة الإيمان ، فلأن الإيمان عند جميع أهل السنة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

بالمناسبة إذا الإيمان اعتقاد لا يزيد ولا ينقص ، أما إذا الإيمان اتصال يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، الإيمان تصديق وإقبال ، والكفر تكذيب وإعراض ، فالتصديق لا يتغير ، إيمانك أن ا موجود ثابت لا يزيد ولا ينقص ، ولكن الذي يزيد وينقص الإقبال ، والفتور، والقطيعة ، فالإيمان يزيد كإقبال بالحسنات ، ويضعف بالسيئات .

قال الإمام الشافعي : " إضعاف المعاصي للإيمان أمر معلوم بالذوق والوجود ، فقد جاء في الحديث :

" إن العبد إذا أخطأ خَطيئَةً نُكتَتْ في قلبه نُكْتَةٌ سوداء فإذا هو نزع واستَغْفَر وتاب سقلَ قلبه وإن عاد زيد فيها حتى تَعلُو قلبه وهو الران الذي ذكر الله :

(من سنن الترمذي : عن " أبي هريرة ")

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ١٤

(سورة المطففين)

فالقبائح تسود القلب ، فالورع يصون نفسه عن أن تُذل ، ويحفظ حسناته من أن تُرد ، ويصون إيمانه من أن ينقص ، هذا هو الورع ، قال تعالى :

وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ

(سورة النساء : من آية " ٨٨ ")

فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ

(سورة المائدة : من آية " ١٣ ")

قال : " صيانة النفس ، وتوفير الحسنات ، وصيانة الإيمان أرفع باعث على الورع " .

هناك مراتب للورع ، قال : يرتقي الورع بصاحبه حتى يؤدي به إلى حفظ الحدود عندما لا بأس به ، إبقاء على الصيانة والتقوى ، وتخلصاً من اقتحام الحدود . أي يدع الورع دائماً بينه وبين الحد هامش أمان ، الزنا له حد الرجم أو الجلد ، هامش الأمان غض البصر ، دائماً الورع بينه وبين الحدود هوامش أمان ، وهذا يؤكده قوله تعالى :

تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ

(سورة البقرة)

قال : " العارف يترك كثيراً من المباح إبقاء على صيانته ، ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخاً بينه وبين الحرام " . في الدين حرام وفيه حلال، وفيه مباح برزخٌ بينهما ، فإذا انتقل الإنسان من حلال إلى حلال هو برزخٌ بين الحلال والحرام يدع هذا البرزخ خوفاً من أن ينتقل إلى الحرام .

" وأما التخاص عن اقتحام الحدود فالحدود هي النهايات ، وهي مقاطع الحلال والحرام ، فحيث ينقطع وينتهي فذلك حده ، فمن اقتحم هذا الحد وقع في معصية " سيدنا عمر كان وقافاً عند كتاب ا . بالمناسبة في آية تقول :

تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ

(سورة البقرة : من آية " ٢٢٩ ")

تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ

(سورة البقرة)

الورع لا يقرب ، أما الأول ورعاً يقف عند الحد تماماً . ورد في بعض الأحاديث القدسية أن ..

" يا عبادي لا تتعدوا ما أبحت لكم ولا تقربوا ما حرمت عليكم " .

الثمار الطيبة اليانعة للورع ؛ الخوف يثمر الورع . هناك معنيان للخوف : الخوف من عقاب ا ، والخوف من انقطاع الصلة با . الخوف الثاني خوف راق جداً ، فـإذا وصـف النبي بأنه يخاف ربه لا بمعنى أنه يخاف عقابه ، بقدر ما هو المعنى بأنه يخـاف أن تنقطـع صلته با ، فالخوف يثمر الورع ، والاستعانة ، وقصر الأمل ، وقوة الإيمـان ، والمعرفـة تثمر المحبة والخوف والرجاء ، والقناعة تثمر الرضى ، والذكر يثمر حياة القلب ، والإيمـان بالقدر يثمر التوكل ، ودوام التأمل بأسماء ا وصفاته يثمر المعرفة ، والورع يثمـر الزهـد أيضاً ، والتوبة تثمر المحبة ، والرضى يثمر الشُكر ، والعزيمة والصبر يثمران جميع أحوال المقامات .

أيها الإخوة ... تقريباً إذا جئنا بمصفاة لها ثقوب ، كلما كنت أشد ورعاً كان الثُقب أصغر ، في إنسان مصفاته قطرها كبير تمر منه برتقالة ، في إنسان قطرها أصغر ، أصغر ، أصغر إلى أن تصبح هذه المصفاة متصلة ، هذا هو الورع ، هذا الكلام وا لي ولكم ، لـيس لكـم وحدكم ، كلما ازددت ورعاً ازددت قرباً من ا عز وجل .

وعود على بدء ..

" ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط " .

و ..

" من لم يكن له ورع يحجزه عن معصية اللّه إذا خلا بها لم يعبأ اللّه بسائر عمله شيئا " .

(من الجامع الصغير : عن " أنس ")

و ..

" لا ألفين أقواما من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء فيجعلهـا ا هباء منثورا أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ويأخذون من الليل كما تأخذون ، ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم ا انتهكوها " .

(من الجامع الصغير : عن " ثوبان ")

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الثاني والستين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والمنزلة اليوم هي منزلة الزهد .

آيات كثيرة جداً ورد في مضمونها معنى الزهد ، أما الآية التي ورد فيها لفظ الزهد بالحرف الواحد هي آية واحدة ، قال تعالى :

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

[سورة يوسف]

العلماء قالوا : الزهد الانصراف عن الشيء احتقاراً له ، وتصغيراً لشأنه ، للاستغناء عنه بخير منه ولم يجئ في القرآن الكريم في شأن الزهد إلا هذه الآية لفظاً .

يوجد نقطة مهمة جداً ؛ أن ترفض نعم ا عز وجل ليس هذا زهداً أن تستخدم نعم ا فيما سمح لك به ، أو أن تستعين بها على الآخرة هذا قمة الزهد ، أن تستخدم نعم ا فيما أمر ، أن تطبق منهج ا عز وجل لأن ا عز وجل يقول :

ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين(٥٠)

[سورة القصص]

عند علماء الأصول المعنى المخالف ، المعنى المخالف المستنبط من هذه الآية أنك إذا أتبعت هواك وفق منهج ا فلا شيء عليك فليس الزهد أن ترفض نعم ا عز وجل التي خلقها ا لك ، ولكن الزهد أن تجعلها أداةً تستعين بها على أمر آخرتك .

مثلاً أوضح شيء المال ، ليس الزهد أن ترفض المال وأن تكون فقيراً ، أن تكون عالةً على الناس ، أن تكون يدك هي السفلى ، ولكن الزهد أن تكسب المال وأن تجعله بيديك لا بقلبك وأن توظفه في الحق سيدنا الصديق قدم كل ماله لسيدنا رسول ا ، والنبي عليه الصلاة والسلام قال :

" عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى اللهم عليه وسلم : ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر فبكى أبو بكر وقال : هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله "

[البخاري ـ مسلم ـ الترمذي ـ النسائي ـ ابن ماجة ـ مالك]

" عن أَبِي هريرةَ يبلُغُ بِهِ النبِي صلى اللهم عليه وسلم قَالَ الْمؤْمِن الْقَوِي خَير وأَحـب إِلَى الله مِن الْمؤْمِنِ الضعِيف وفي كُل خَير ... "

[مسلم ـ أحمد ـ ابن ماجة]

المال قوة ، والعلم قوة ، والقوة في تدبير الأمور قوة .

الزهد لا أن ترفض الدنيا ، أن توظفها للآخرة ، الزهد لا أن تكون أمياً ، أن تكون متعلماً ومعك أعلى شهادة ، ولكن أن توظفها بالحق الزهد لا أن تكون متسولاً ، أن تكون غنياً ويدك هي العليا وهذا المال توظفه في الحق ، هذا هو الزهد ، لأن الآخرة تحتاج إلى عمل والعمل يحتاج إلى مال .

أيها الإخوة الكرام ... إليكم الآيات التي في فحواها معنى الزهد ، قال تعالى :

مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

[سورة النحل]

الذي تجمعه في حياتك الدنيا لبنةً لبنة تخسره في ثانية واحدة أذكر هذا كثيراً ألم تعزي أهل ميت في بيت رفيع المستوى ؟ أين صاحبه ؟ تحت أطباق الثرى ، فاالذي جمعه الإنسـان في عمر مديد يفقده في ثانية واحدة ، أما لو أنك بطاعتك وإخلاصك له حجزت ـ بالتعبير التجاري ـ عند ا مكاناً في الجنة فأنت زاهد حقيقةً .

الزاهد هو الذي يزهد بشيء محتقر ويطمح إلى شيء معتبر الآية الثانية ، قال تعالى :

ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ

[سورة الحديد : آية " ٢٠ "]

يوجد عمل جاد ، وعمل عابث لو إنسان لعب النرد ـ مع أنه محرم ـ حتى ساعة متأخرة من الليل ماذا فعل ؟ هل هناك مردود لهذا اللعب ؟ أبداً ، قد تسهر حتى ساعة متأخرة وليس هناك أدنى فائدة اللعب هو الشيء الذي لا جدوى منه ، لا مردود له ، لا مستقبل له إنما الحياة الدنيا لهو بمعنى اللهو ، يعني يوجد شيء نفيس وشيء خسيس والذي يلهو هو الذي يلهو بالخسيس عن النفيس .

إنسان التحق بجامعة أو بمدرسة ، اهتم بمقعد على النافذة ، اهتم بوسادة تحته مريحة ، اهتم بأشياء يأكلها أثناء الدرس ، اهتم بدراجة يركبها إلى البيت ، لم يهتم بالدراسة ، اهتم بكل شيء إلا الدراسة هذه أشياء خسيسة ألهته عن الشيء النفيس :

﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾

[سورة الحديد : آية " ٢٠ "]

زينة يعني مظاهر ، هذه المظاهر لا تقدم ولا تؤخر .

وتَفَاخُر بينَكُم وتَكَاثُر في الأموال والأولاد

هذه حقيقة الحياة الدنيا ، إنما ، إنما أداة قصر ، يعني الدنيا فقط لعب، ولهو ، وزينـة ، وتفاخر بينكم ، أما حقيقة الدنيا مزرعة الآخرة أئمة عظام جاؤوا إلى الدنيا وغادروها وتركوا علماً ينتفع به ، تركوا أعمالاً كالجبال ، تركوا هدى قد عم الخافقين ، تركوا اتجاهات خيرة في البشرية ، تركوا صلاحاً للأسر ، تركوا توجهاً إلى الله عز وجل فلذلك الحياة الدنيا ظاهرهـا لعب، ولهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد قال تعالى :

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾

[سورة الحديد]

ما معنى متاع الغرور ؟ يعني شيء يبدو لك بحجم أكبر من حجمه فإذا تتبعته أصـبت بخيبة أمل ، أحياناً الإنسان يظن أن هذه علبة فيها هدية ثمينة إذا هي علبة فارغة قد يتـألم ، أحياناً يمسك فاكهة هي قشر فاكهة وضعت بإحكام ليس فيها شيء .

مرة ذكرت قصة رجل توفي رحمه الله كان شاباً يعمل في محل في سوق الحميديـة ، عنده دعابة ، كان يجمع قمامة المحل ويجعلها في علبة يلفها لفاً أنيقاً ـ ورق هدايا ـ ويضع لها شريطاً على شكل وردة ويضعها على الرصيف ، يأتي إنسان ينظر إليها فيأخذها ويعدو ،

يتبعه هو بعد مئتي متر يفك الشريط ، بعد مئة متر ثانية يفك الورق ، يفتح العلبة ويظـن أن فيها قطعة ذهب ، ألماس ، شيء ثمين فإذا فيها قمامة المحل .

هذا هو الغرور بالضبط ، أن تتوهم أن الشيء نفيس فإذا هو خسيس، ا عز وجل سمى الشيطان الغرور ، قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥

[سورة فاطر]

يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠

[سورة النساء]

الاغترار أن تتوهم الشيء بحجم أكبر من حجمه ، سيدنا علي قـال : يـا دنيـا طلقتـك بالثلاث ، غري غيري . من عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء ، قد جعلها ا دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبى .

أحد إخواننا يعمل في بناء بعض الأبنية في المصايف ، شخص اشـترى بيتـاً وأعطـى توجيهات دقيقة جداً لإتمام البناء وزخرفته ، وتابع ذلك بنفسه إلى أن أصـبح البيـت جـاهزاً لاستقباله بقي جهاز كهربائي ـ محول ـ قال له : ضعه وسأكون أنا الخميس في هذا البيـت الخميس لم يأت ، الجمعة لم يأت ، السبت اتصل بصاحب البيت قالوا له مات .

إنسان اشتغل سنتين يشرف على زخرفة بيته لم يتح له أن يسكنه ولا ساعة ، هذه الدنيا تغر، وتضر ، وتمر ، هذه البيوت سكنها قبلنا بشر كثير ، هذه المحلات التجارية في أسـواق دمشق القديمة هناك جيل قبل هذا الجيل استأجروا هذه المحلات وباعوا واشتروا وماتوا ، هذه البيوت دائماً في بيت توفي صاحبه الورثة باعوه واقتسموا ثمنه ، ا عز وجل جعلنا خلائـف يخاف بعضنا بعضاً ، قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥

[سورة فاطر]

المتاع ليس له مردود ، إذا إنسان جلس في حوض ماء ـ ماء فاتر ـ وكان مرتاحـاً ، لو جلس ساعة ، ساعتين ، ثلاثة ، خمسة ، هل يصبح تاجراً كبيراً ؟ هل يصبح عالماً كبيراً ؟ لا هذا المتاع ليس له مردود إذا إنسان أكل ألف وليمة ، في كل وليمة ما لذ وطاب ، ثم أصابه ألم في أسنانه لا يحتمل ، لو أنه استدعى طعوم الطعام التي أكلها هل ينسى هذا الألم ؟ المتاع شيء آني ليس له مردود مستقبلي :

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾

[سورة محمد]

قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾

[سورة إبراهيم]

وكلمة تمتعوا دقيقة جداً سبحان ا ، المتعة : لذة مادية حسية تتنـاقص ، تتنـاقص إن كانت مباحة في الشرع ، أما يعقبها كآبة إن كانت محرمة ، يعني أفضل ما في المتعـة أنهـا تتناقص ، وأخطر ما في المتعة أن كآبة تسحق صاحبها تعقب هذه المتعة . سيدنا عمر أمسك تفاحة قال : أكلتها ذهبت أطعمتها بقيت . يعني يوجد متعة آنية حسية ، ويوجد سعادة أبديـة ، باستهلاك الشيء متعة آنية حسية ، بعمل صالح سعادة متنامية أبدية، متعة محـدودة حسـية سعادة متنامية أبدية .

خالقنا ، وربنا ، ومربينا ، وخالق الأكوان ، الواحد الديان ، الخبير العليم يقول :

قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

[سورة النساء]

ألا تصدق خالق الكون ؟ متاعها قليل ما معنى هذا القول ؟ يعني إذا أعطاهـا لمـن لا يحب لا يمكن أن تكون الدنيا إكراماً للإنسان لأنها منقطعة ، لا يعقل أن يقول لك : خذ هـذه المركبة مدة شهر واحد هذا لا يليق بعطاء الملك ، ملك أحب أن يخدم إنساناً قدم لـه خدمـة كبيرة مستحيل أن يعطيه مركبة لشهر ، ولا لسنة ، بل يملكه إياها ـ أنا أوضـح الفكـرة ـ مستحيل أن يكون عطاء ا في الدنيا منقطعاً والإنسان كلما تأخرت به السن دخل في متاهات

المرض والقلق وما شابه ذلك ، والذي أذكره لكم دائماً أن السعادة الحسية في الدنيا تحتاج إلى ثلاثة عناصر ، الوقت ، والمال ، والصحة ، ودائماً يوجد عنصر مفقود ؛ ففـي أول حياتـك الصحة موفورة والوقت مديد ولكن لا يوجد مال ، في منتصف الحياة الصحة موفورة والمال موجود ولكن لا يوجد وقت ، في آخر الحياة المال موجود والوقت موجود ولكن لايوجد صحة ، فبالنهاية دائماً عناصر السعادة الحسية ، المتع الحسية ينقصها عنصر دائماً ، أما الإنسان إذا عرف ا ووظف هذه الحظوظ في الحق يسعد بها دائماً ولا يأبه لها ، من عرفها لـم يفـرح لرخاء ولم يحزن لشقاء .

﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

[سورة النساء]

في عبارة قرآنية رائعة جداً ، قال تعالى :

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾

[سورة الأعلى]

طبعاً سوف أوضح هذا المثل إذا خيرناك بين مركبة تركبها ساعة وبين دراجة تتملكها ماذا تختار ؟ الدراجة ، لو خيرناك بين مركبتين واحدة تركبها ساعة والثانية تتملكها ، مـاذا تختار ؟ التملك ، لو خيرناك بين دراجة تركبها ساعة وأغلى سيارة تتملكها هل تتردد ثانيـة؟ للتوضيح ، الآخرة خير حجماً ، ونوعاً ، وأبقى أمداً ، والدنيا أقل وأقصر ، أقل حجماً وأقصر أمداً .

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾

[سورة الأعلى]

سحرة فرعون حينما آمنوا بإله موسى العظيم فرعون صعق قال تعالى :

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾

[سورة طه]

هكذا ، قيل قتلهم ولكنهم كسبوا الآخرة لذلك يا بني ما خير بعده النار بخير وما شر بعده الجنة بشر وكل نعيم دون الجنة محقور وكل بلاء دون النار عافية .

لازلنا في الآيات التي تتحدث عن الزهد من حيث المعنى ، أما من حيث اللفظ فآية واحدة :

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ (٢٠)

[سورة يوسف]

من حيث المعنى آيات كثيرة ..

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١)

[سورة طه]

لا تمدن عينيك ، يعني الإنسان إذا شاهد شيئاً جميلاً ، بيتاً جميلاً مركبة جميلة ، لا يقل صاحبها حظه عظيم يا ليت لي مثله ، إذا قال ذلك صار عند ا جاهلاً ، قارون خرج على قومه بزينته :

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا
يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩)

[سورة القصص]

الإنسان إذا تأوه وتحسر ، وتمنى ، وذاب إذا رأى شيئاً جميلاً ونسي أن ا أعد له جنةً عرضها السماوات والأرض هذا إنسان هو عند ا جاهل .

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١)

[سورة طه]

لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧)

[سورة الكهف]

هذه الأشياء الجميلة هي امتحانات ، امرأة جميلة في الطريق هي فتنة للناس ، هناك من يغض بصره عنها فيرقى ، وهناك من يملأ عينه من محاسنها فيسقط ، وقس عليها كل شيء ، المرأة أوضح شيء .

قد يعرض عليك مبلغ من المال كبير فيه شبهة فإذا أخذته سقطت ، إن رفضته نجحـت عند ربك ، قال تعالى :

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

[سورة الزخرف]

لو أن ا خلق الكافر كافراً لا يوجد داعي أن يعذبه لكن لأن جميع الخلق مطلوبـون عز وجل ، مخلوقون لجنة عرضها السماوات والأرض تكون المعالجة ، لو فرضـنا مـدير مدرسة قرأ أسماء الراسبين أول يوم في العام الدراسي وأسماء الناجحين دون امتحـان ، ولا امتحان قبول ، وبفعل عشوائي قال : هؤلاء راسبون وهؤلاء ناجحون لا يعقـل أن يضـرب الراسبين ، هو جعلهم هكذا ، أما إذا كان الطلاب جميعاً مدعوون إلى أداء امتحان ومؤهلـون جميعاً أن يكونوا من الناجحين وطالب قصر يضرب ، يعالج ، فالمعالجـة تقتضـي أن كـل الطلاب مؤهلون للنجاح أما لو كان في اتجاه آخر لما كان من معنى لمعاقبة الكافر .

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

[سورة الزخرف]

أي مدعوون جميعاً إلى الجنة ، قال تعالى :

لَجعلْنَا لِمن يكْفُر بِالرحمانِ لِبيوتِهِم سقُفًا من فَضة ومعارِج عليها يظْهرون(٣٣)

القرآن الكريم أيها الإخوة مملوء بالتزهيد في الدنيا والإخبار بخستها وقلتها وانقطاعها ، يعني بعض الآثار : الدنيا جيفة طلابها كلابها ، الدنيا دار من لا دار له ولها يسـعى مـن لا عقل له ، إن أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها ، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها . القرآن الكـريم مملوء بالتزهيد في الدنيا والإخبار بخستها ، وقلتها ، وانقطاعها ، وسرعة فنائها .

مرة كنت في حلب أخذوني إلى حي من أرقى أحياء حلب ، الحقيقة يوجد قصور لـيس في دمشق مثيلاً لها ، أحد هذه القصور لفت نظري من أجمل قصور حلب ، بني على الـنمط

الصيني، وحدثوني عن تكاليفه أرقام فلكية ، بضع عشرات من الملايين ثمن رخام القصر ، ثم أخبرت أن صاحب هذا القصر توفي في الثانية والأربعين وكان مديد القامة ، وحينما أرادوا دفنه كان القبر أقصر من طوله ، ما كان من الحفار إلا أن دفعه بصدره فجاء رأسه مائلاً صاحب هذا القصر ينام في هذا القبر .

منذ يومين جاء أخ من أمريكا اتصل بي هاتفياً ، قال لي : استأجرت بيتاً ، قلت له : مبارك ، ولكني سمعت أنك اشتريته قال : لا أنا استأجرته حتى الموت ، لا يوجد بيت ملك كله أجرة ، أراد أن يقول كلاماً لطيفاً .

أحد الرعاة معه قطيع إبل ، قيل له : لمن هذا القطيع ؟ يقول علماء البلاغة : أجاب أبلغ إجابة في العربية ، قال : في يدي . يعني بيتك في يدك ، ا قال لك اسكن فيه ، والدليل النعوة وسيشيع إلى مثواه الأخير معنى هذا مؤقت ، راكب مركبة هذه في يدك اركبها إلى حين، كل شيء إلى حين ، قال تعالى :

وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾

[سورة البقرة]

لذلك سيدنا عمر بن عبد العزيز كلما دخل دار الخلافة يتلو هذه الآية وا هذه الآية يقشعر منها الجلد :

أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾

[سورة الشعراء]

أنا أعرف رجلاً سبحان ا في سن مبكر حصل ثروة كبيرة جداً وعنده قدرة على البيع عجيبة ، عنده محل في سوق الحميدية ، إذا مررت على كل محلاتها لا تجد شارياً وعنده يوجد الكثير ، أذواقه عالية جداً في الشراء وعنده قدرة على البيع كبيرة جداً وحقق ثروة طائلة ، وهو في الثامنة والثلاثين أصيب بمرض عضال في دمه - ورم خبيث في الدم - يقول لي ابن عمه مضى شهر وشهران لا يعلم بمرضه ، وهو عنده دعابة ومزاح ولكن غير منضبط كلياً ، وبعيد عن الالتزام بالدين حتى أن بعض المغنيات كانت تأتي إلى بيته ، فلما عرف أنه مصاب بمرض عضال انتابته موجات هستيريا ، يقول لي ابن عمه : كل ربع ساعة يرتجف ويقول لا أريد أن أموت ، قال لي : حينما فارق الحياة أنه صاح صيحة ما من إنسان في البناء الذي يسكنه إلا وسمع صياحه عندما فارق الحياة .

قضية الموت يا إخوان قضية تنهد لها الجبال ، يغادر من كل شـيء إلـى لا شـيء ، عبارتي غير صحيحة ، من كل شيء إلى كل شيء من العذاب ، الإنسان يدخل إلى بيته أبهاء ، غرفة نوم، غرفة ضيوف غرفة جلوس ، براد مثلاً ، ثلاجة ، أجهزة ، بيت مكيف ، والقبر هل يوجد قبر خمس نجوم ؟ ولا نجمة ، القبر صندوق العمل ، روضة من رياض الجنـة أو حفرة من حفر النار.

القرآن مملوء من التزهيد في الدنيا والإخبار بخستها قلتها وانقطاعها، وسرعة فنائهـا ، والترغيب بالآخرة ، والإخبار بشرفها ودوامها ، وإذا أراد ا بعبد خيراً أقام في قلبه شـاهداً يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار . أجمل قول في الزهـد قالـه أحد العلماء، قال : الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة ، والورع ترك ما تخـاف ضـرره فـي الآخرة .

الورع ترك ، والزهد ترك ، لكن الورع ترك ما يؤذي ، والزهد ترك ما لا ينفع .

قال بعض العلماء : الزهد في الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ولا لـبس العبـاءة . قصر الأمل ، أخطر شيء في حياة الإنسان الأمل مرة زرت رجلاً حدثني وا الذي لا إلـه إلا هو عن مشاريعه لعشرين سنة قادمة ، ورأيت نعوته في اليوم نفسه .

مرة كنت في مكان دائرة رجل جالس يحدث رجلاً وأنا أستمع إليهما، قال له : وا يـا أخي هذا الإنسان حيرنا في كسوة بيته ، منذ شهرين ونحن متوقفون عن العمل نعمل التدفئـة المركزية تجديد داخلي أم خارجي ؟ حيرنا ما كان يستقر على حال ، يقول بعد هذا : ثم استقر رأيه أن يجعلها تمديداً داخلياً وبعد عشرين سنة إذا هذا التمديد فسد يقلبها إلى خارجي ، وكأنه سيعيش عشرين سنةً قادمةً ، هذا هو الأمل ، الأمل أن تستبعد الموت.

لي صديق له جلسة أسبوعية ، جالس مع أصدقائه قال لهم : أنا لن أموت إلا بعد زمـن طويل ، قالوا : لماذا ؟ قال : أنا أكلي قليل ، وجسمي رشيق ، وأمشي ، ولا أدخن ، وألقـي بالهموم وراء ظهري . طبعاً كلامه علمي فعلاً لكن أجله كان قبل عشرة أيام في السبت القادم كان مدفوناً تحت الثرى ما أحد يعلم متى الأجل .

مرة استقبلني رجل هنا في مسجد الشيخ محي الدين كان يوجد احتفال بمناسـبة مولـد نبوي ، استقبلني بترحاب منقطع النظير ، جلست على الكرسي ، شعرت في اضـطراب فـي المسجد ، سألت قالوا : هذا الذي استقبلك توفي الآن ، ذهبنا إلى مستشفى أمية ، رأيناه ممـدداً في ثيابه ، ثانية واحدة ، الإنسان ممكن أن يغادر بثانية وبلا سبب ، بلا ألم ، بلا مرض .

الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا لبس الخشن الإمام الجنيد رحمـه ا تعالى فهم الزهد من قوله تعالى :

﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣﴾

[سورة الحديد]

الزاهد لا يتألم لما فاته ولا يفرح لما آتاه ، من عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء .

قال بعض العلماء : الزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود ولا يأسف منها على مفقود .

لي صديق كان من أعظم الناس في عيني - هو أحد الكتاب - وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه ، كان خارجاً عن سلطان بطنه ، فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إن وجد ، وكان خارجاً عن سلطان الجهالة فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يماري فيما علم ، وكان أكثر دهره صامتاً فإذا تكلم بذ القائلين ، وكان يرى ضعيفاً مستضعفاً فإذا جد الجد فهو الليث عادياً .

الزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود ولا يأسف منها على مفقود يوجد إنسانين اشتريا أرضين متجاورتين في منطقة العدوي الأول صمم ورسم خرائط وحفر وأشاد بناء وباعه بأرقام فلكية ، الثاني منع من إنشاء البناء لأنه سيمر تحت أرضه مجاري ، من شدة ألمه لم يعد يحتمل أن جاره أقام البناء وباعه وربح أرباحاً طائلة ، وهو ممنوع أن يشيد عليه بناء ، بعد حين أصيب بأزمة قلبية حادة بسبب الشدة النفسية التي لزمته من هذا الألم والأسف ، ثم إن هذه الأرض التي لم يشد عليها بناء ارتفع سعرها خلال سبع سنوات أكثر من خمسين ضعفاً ، يعني أرباحه من ثمن الأرض دون أن يشيد عليها بناء عشرين ثلاثين ضعفاً عن أرباح جاره لكن من شدة أسفه أصيب بمرض عضال .

فالزهد أن لا تفرح من الدنيا بموجود ولا تأسف منها على مفقود الزهد يورث السخاء في الملك ، والحب يورث السخاء في الروح الزهد يدفعك أن تعطي .

وقالوا في الزهد : هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال فتصغر في عينيك فيسهل عليك الإعراض عنها .

وقيل الزهد : عزوف القلب عن الدنيا بلا تكلف . وقال الجنيد : الزهد خلو القلب عن ما خلت منه اليد . شيء ما بيدك يجب أن ينزع من قلبك ما بيدك ، وأنت تشتهيه أنت في حالة صراع .

الإمام أحمد قال : الزهد في الدنيا قصر الأمل . الإنسان يجب أن يوطن نفسه إذا نام قد لا يستيقظ وإذا استيقظ قد لا ينام ، وإذا خرج قد لا يرجع ، وإذا رجع إلى بيته قد لا يخرج إلا أفقياً.

وعن الإمام أحمد أيضاً : الزهد عدم الفرح بإقبال الدنيا ولا الحزن على إدبارها ، فإنـه سئل عن الرجل يكون معه ألف دينار هل يكون زاهداً فقال : نعم على شريطة أن لا يفرح إذا زادت وأن لا يحزن إذا نقصت ، قد يكون معك مال وأنت زاهد ، المال أداة بيدك توظفه فـي الحق ، تقيم به أود نفسك ، تجعله أداةً للقرب من ا عز وجل وأنت زاهد وبين يديك ملايـين مملينة وأنت زاهد ، وإنسان لا يملك من الدنيا شيئاً وهو راغب ، مفارقة حادة ، لا تملك وأنت راغب وتملك وأنت زاهد .

أبو سليمان الداراني يقول الزهد : ترك ما يشغل عن ا عز وجل. والجنيد مـرةً ثانيـة سئل عن الزهد فقال : استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب .

ولا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال عمل بلا علاقة ـ يعني عمل خالص دون أن يرجو شيئاً ـ وقول بلا طمع وعز بلا رئاسة .

الإمام أحمد رحمه ا تعالى يقول : الزهد على ثلاثة أوجه ترك الحـرام وهـو زهـد العـوام، والثاني ترك الفضول من الحلال ـ يعني عندك ما يكفي تطمح في الحلال إلى أكثر مما يكفيك أنت راغب ولست بزاهد ـ أول أنواع الزهد ترك الحرام ، هذا زهد العوام ، ثاني أنواع الزهد ترك الفضول من الحلال ، قد يأكل ألواناً كثيرة جداً ، قد يشتري ثياباً كثيرة جداً، هذا زهد الخواص ترك الفضول من الحلال .

مرة ملك سأل وزيره قال له : من الملك ؟ الوزير صعق قال : أنت قال له : لا ، الملـك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا له بيت يؤيه وزوجة ترضيه، ورزق يكفيه ، إنه إن عرفنا جهد في استرضائنا وإن عرفناه جهدنا في إحراجه ، من هو الملك الحقيقي ؟ الذي لا يعرفنا ولا نعرفه .

زهد العوام ترك الحرام ، زهد الخواص ترك الفضول مـن الحـلال زهـد خـواص الخواص الفئة العالية جداً ، ترك ما يشغل عن ا وهو زهد العارفين .

أجمع عليه العارفون أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا وأخذه في منازل الآخـرة . أنت جالس مرتاح عادي ، تقرر أن تحج البيت قال لك صديقك ممكن وجاءك الجواز ما الذي يحصل بالضبط نزعت من الشام وعشت في بيت ا الحرام ، قبل أن تسافر ، الإنسان عندما يزمع السفر انتقل نفسياً إلى بلد السفر ، أين سأنزل ؟ من سأقابل ؟ ماذا آخذ معي ؟ متى أعود ؟ ماذا أشتري من هناك ؟ هل ترى الحالة النفسية ، الإنسان إذا أراد شيئاً عاشه قبل أن يعيشه عملياً .

الزهد سفر القلب من وطن الدنيا وأخذه في منازل الآخرة . وقال بعضهم : لا يسـتحق العبد اسم الزهد حتى يزهد فيها وهي المال والصور ، والرياسة ، والناس ، والنفس ، وكل ما سوى ا عز وجل .

رجل أراد أن يوقع بيـن سيدنا الصديق وسيدنا عمر رضي ا عنهما ، يبدو أن سيدنا الصديق أحاله إلى سيدنا عمر وسيدنا عمر رفض أن يوافق له على ما يصبو إليه ، رجع إلى الصديق رضي ا عنه ليوقع بينه وبين عمر ، قال له : الخليفة أنت أم عمر ؟ فقال له : هـو إذا شاء . هذا هو الزهد .

الآن حقيقة ليس الزهد رفض نعم ا عز وجل ، قال : كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما ولهما من المال والملك ما لا سبيل إلى وصفه ، الحقيقة تبدو غريبـة ، قد تكون راغباً وليس في يدك شيء وقد تكون زاهداً والدنيا كلها في يديك ، البطولة أن تكون بين يديك الدنيا وترجو رحمة ا عز وجل .

وكان علي بن أبي طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان من الزهاد مع ما كان لهم من الأموال ، وكان الحسن بن علي رضي ا عنهما من الزهاد مع أنه كان مـن أكثر الأمة مالاً .

دققوا أيها الإخوة ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن أن تكون بما في يدي ا أوثق منك بما في يديك ، قال تعالى :

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ

[سورة الأعراف : آية " ٣٢ "]

ليس الزهد أن تعزف عن الزواج ، الزهد أن تطبق السنة في الزواج وأن تجعـل مـن الزواج زواجاً إسلامياً ، ليس الزهد أن تعزف عن كسب المال ولكن الزهد أن توظف المـال في الحق ، ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن أن تكون بمـا فـي يدي ا أوثق منك بما في يديك وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيمـا لو لم تصبك فهذا من أجمع الكلام في الزهد وأحسنه .

وقال بعض العلماء : إنما الزهد في الحلال لأن ترك الحرام فريضة ليس لك فضل فيها ، الزهد في الحلال .

قال آخرون عكس هذا الكلام : الزهد لا يكون إلا في الحرام وأما الحلال فنعمة مـن ا تعالى على عبده وا يحب أن يرى أثر نعمته على عبده .

الملخص التحقيق في هذه القضية إذا شغلتك الدنيا عن ا فالزهد فيها أفضـل ، وإن لـم تشغلك عن ا فكن شاكراً فيها وهذا الحال أفضل ، إذاً إن تشغلك تركها أولى وإن تعنـك في الآخرة فأخذها أولى .

والحمد رب العالمين

الدرس ٦٣ - التبتل

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الثالث والستين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والمنزلة اليوم التبتل ، وقبل أن نمضي في شرح هذه المنزلة لابد من أن أضع بين أيديكم هذه الحقيقة ، لكل دولة في نظامها الوظيفي مراتب ودرجات ، تبدأ بالمرتبة العاشرة وتنتهي بالمرتبة الأولى ، وكل مرتبة ثلاث درجات فعشرة بثلاثة ثلاثين ، وموظفو الدولة ولو بلغوا مليونين لابد من أن وجودهم في هذه المراتب الثلاثين حصراً .

أما عند ا فعدد المراتب بعدد البشر بلغوا ما بلغوا ، كل إنسان له درجة ، الإنسان لا يستطيع أن يصنف الناس بأكثر من درجات محدودة ، مثلاً إنسان يحمل أعلى شهادة باختصاص نادر جداً من أرقى دولة ومن أرقى جامعة ، دكتوراه دولة يوظف بمرتبة تساوي مرتبة إنسان يحمل شهادة من أسوأ دولة ومن أقل جامعة مكانةً وقد تكون دكتوراه شكلية ، أما عند ا عز وجل كل إنسان له مرتبة بحسب معرفته وبحسب استقامته ، وبحسب عمله الصالح ، وبحسب تضحياته ، وبحسب ميله عن الصوارف ، وبحسب تجاوزه العقبات ، وبحسب صبره على الملمات ، قال تعالى :

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

[سورة الأنعام]

فمن السذاجة أن نتوهم أن الدين مرتبة واحدة ، الدين مراتب تبدأ ولا تنتهي ، طبعاً أنا أمهد لهذا الموضوع التبتل - انقطاع عز وجل - إذا نحن ما وصلنا إلى هذه المرتبة لا يوجد مانع أن نتحدث عنها حتى تكون من طموحاتنا ، أنا حينما أتحدث عن مرتبة رفيعة جداً (قد أقول إن معظم الناس وقد أكون أنا منهم) هذا لا يمنع أن نتحدث عن مراتب عالية حتى نصعد ميولنا ونصعد طموحاتنا .

فالتبتل ورد في القرآن الكريم :

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾

[سورة المزمل]

هذه المنازل منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ولا يمكن أن تكون هناك منزلة إلا ولهـا أصل في القرآن الكريم وكتاب ا عز وجل منهج لنا، ا عز وجل أكبر ، وأعظم ، ومنـزه عن أن يقول كلاماً لا معنى له ، لما ربنا عز وجل يأمر واذكر اسم ربك وتبتل إليـه تبتـيلا معنى هذا أمر وجوب أنت ليس لك خيار فيه ، إن أردت أن تكون محسـوباً علـى ا ، إن أردت أن تكون من أهل الإيمان ، من أصحاب المراتب العلية عند ا عز وجل لابد مـن أن تنتبه إلى هذه المرتبة هذه مرتبة التبتل ، وما الذي يمنع أن تبذل كل جهدك كي تصل إلى ا ، ما الذي يمنع أن تصل إلى المراتب العالية .

ذكرت لكم أن قطعة لحم طازجة وأنت جائع لا تقدر بثمن وقطعة لحم متفسـخة لـو شممت رائحتها تكاد تخرج من جلدك وكلاهما قطعة لحم ، هذا في قطع ، اللحم ، في البشـر أبلغ ، قد تجد إنساناً خيراً من ملء الأرض من البشر ، أعتقد الأرض نعـرف حجمهـا مـن محيطها وحجم الإنسان المتوسط متر مربع مثلاً ، قسمنا حجم الأرض على متر ، نعرف لـو أن الأرض مجوفة كرة مفرغة وملأناها من بني البشر ممكن نعرف كـم إنسـان تسـتوعب الأرض ، فالنبي عليه الصلاة والسلام وهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، هـو رسول ا يقول : هناك رجل يساوي ملء الأرض من غيره .

البشر متشابهون بأشكالهم المادية ولكن بمراتبهم عند ا متفاوتون تفاوتاً عجيباً ، قال تعالى :

وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

[سورة الأنعام]

أنت بمعرفتك ، واستقامتك ، وإخلاصك ، ونواياك الطيبـة وتضـحياتك ، وبـذلك ، وانضباطك ، وورعك ، ومآثرتك ، لك عند ا مرتبة ، هذه المرتبة هي أهم شيء في حياتك ، لأن هذه المرتبة لها منعكس أبدي إلى يوم القيامة ، دقق في هذه الفكرة ، هناك فـي الـدنيا أشياء كثيرة ولكن تنتهي عند الموت لا قيمة لها ، يعني إنسان توفاه ا عز وجل لو أردت أن تؤبنه هل بإمكانك أن تتحدث عن بيته عن مساحة بيته ، عن أناقة بيته ، عن تزيينات بيته ؟ أبداً هل بإمكانك أن تتحدث عن مركبته ، عن حجمه المالي ؟ أبداً ، لا تستطيع أن تتحدث إلا عن عمله الصالح . حضرت جنازة في أحد مساجد دمشق وصاحب الجنازة المتوفى صـناعي ، عنده معمل ، دخلت إلى بيته وكان هناك زيارات متبادلة ، فعلاً شيء مدهش ، صناعي من الطراز الأول ، متفوق جداً ، أذواقه عالية جداً ، رحلاته إلى أوربا وأمريكا سـنوية ، فلمـا وضع في النعش في المسجد قام أحد علماء دمشق لتأبينه وقال بالحرف الواحد : أخوكم أبـو فلان كان مؤذناً ترحموا عليه . أنا صعقت قلت يا رب ألا يمكن أن يقال دقيقة واحدة عنـه ،

دنيوي من الطراز الأول وكان صالحاً وما كان سيئاً ، فيما أظنه ولا أزكي علـى ا أحـداً ، ولكن لا يوجد عمل يلفت النظر ، الدنيا تلفت النظر أما الآخرة لا تلفت النظر ، فماذا يقول هذا العالم الجليل ؟ كان مؤذناً ترحموا عليه ، وأنا قلت في نفسي يا ليت الإنسان يعمل عملاً يؤبن في دقيقة ستين ثانية ، أو في خمس دقائق أو يتحدث عن عمله في ساعة .

أنت لك حجم عند ا عز وجل ، حجمك لا بأناقتك ، ولا بطعامـك ولا بشـرابك ، ولا بأثاث بيتك ، ولا بموقع بيتك ، ولا بمساحة بيتك ولا بنوع مركبتك ، حجمك عند ا بحجـم عملك الصالح فقط ، مع الإخلاص مع الانضباط ، فإذا تحدثنا عن مرتبة التبتل ليس معنى هذا أن هذه مرتبة مألوفة معظم الناس في مستواها ، لا ، قد تكون في مرتبة نادرة وهذا لا يمنـع أن نتحدث عن مرتبة عالية كي ترتفع أهدافنا ، هناك من يأكل ويشرب وتنتهي كل همومه عند طعامه وشرابه ، هناك من يأكل ويشرب ويتزوج وتنتهي كل همومه عنـد طعامـه وشـرابه وزواجه ، وهناك من يطمح إلى أن يعمل عملاً يرضي ا عز وجل ، قل لي ماذا يهمك أقـل لك من أنت .

إخواننا الكرام ... المؤمن الصادق يحمل هموم المسلمين ، المؤمن الصادق له أهـداف في الحياة تسمو عن حاجاته اليومية ، وتسمو عن ميوله ورغباته وتسمو عـن مصـالحه ، المؤمن شخصية فذة لا يسخر القيم ولا يسخر منها ، يقود نفسه ولا تقوده ، يسـير هـواه ولا يسيره ، سما حتى اشرأبت إليه الأعناق ، وارتقى حتى مالت إليه النفوس ، بصراحة المـؤمن الصادق يجب أن تحبه لمزاياه الأخلاقية ، ا عز وجل يقول :

وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

[سورة الأعراف]

أنت لا تستطيع أن تتصل با إلا بكمال مشتق منه ، ا عز وجل رحيم ، لن يسمح ا لك أن تتصل به ولن يلقي في قلبك شيئاً من سكينته إلا إذا رحمت خلقه ، ا عز وجل عـدل لن تستطيع الإقبال عليه إلا إذا كنت عادلاً ، ا عز وجل محسن لعباده لن تستطيع أن تكشف الحجاب بينك وبينه إلا إذا كنت محسناً ، لن تستطيع أن تتصل به إلا بكمال مشتق منـه ، إذاً المؤمن على جانب من الكمال ، المؤمن صبغة ا .

في بعض الشركات الضخمة في العالم حينما ترى العلامة التجارية لهذه الشركة تشتري بلا تردد ، هذه الشركة الفلانية ، الآن يوجد حرب علامات تجارية ، ترى الشركة لهـا اسـم

كبير تدقق تجد مصنوعة في الصين ، آخذة اسم لماع براق ولكنها صنع بلـد مـن الدرجـة العاشرة مثلاً ، فهذه حرب علامات تجارية .

فهو إن صح التعبير المؤمن علامته التجارية صبغة ا ، قال تعالى:

وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾

[سورة البقرة]

يعني من أعلى درجة ، يعني متخلق بالكمال الإلهي ، يشتق كمال ا عز وجل ، فتحتار برحمته ، بعدله ، بإنصافه ، بتواضعه بإنكاره لذاته ، بخدمة الخلق ، هذا التمهيد من أجل أن تعلموا أن هذه المرتبة قد تكون عالية جداً ولكن لابد من شرحها .

التبتل هو الانقطاع وهو التفعل من البتل وهو القطع ، بتل قطع تبتل تفعل ، ما معنـى تفعل؟ العمل المتكرر ، العمل المستمر فيه تفعل مثلاً قد تقول فلان كتب ، كتب مرة واحـدة ، أما اكتتب أصبح كاتباً ، اتخذ الكتابة حرفةً له .

وسميت مريم البتول لانقطاعها عن الأزواج ، وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها ، قال تعالى :

إِنَّ ٱللَّـهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾

[سورة آل عمران]

لماذا الاصطفاء مرتين ؟ الاصطفاء الأول اصطفاء قرب ، معنى ذلك أن الإنسان مخير ، معنى ذلك أن النبوة اصطفاء ، النبوة فيها جانب كسبي وجانب وهبي ، قال تعالى :

إِنَّ ٱللَّـهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾

[سورة آل عمران]

هذا الجانب الكسبي ، بعد أن اصطفاهم وجعلهم أنبياء ورسلاً أعطاهم الوحي ، أعطاهم المعجزات هذا وهبي ، يوجد جزء كسبي وجزء وهبي ، كذلك مريم البتول ، إن ا اصطفاك لمحبتك لمعرفتك ، لإخلاصك ، لإقبالك ، واصـطفاك جعلـك تلـدين مـن دون زوج ، الاصطفاء الأول اصطفاء قرب والاصطفاء الثاني اصطفاء معجزة ، قال تعالى :

ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾

[سورة آل عمران]

ففاقت نساء الزمان شرفاً وفضلاً .

ومصدر بتل تبتلاً كتعلم تعلماً ، يعني بتل تبتلي ، وتبتل ، ما معنى بتل؟ إنسـان قطـع اللحمة ، الفرق بين قَطَع ، وقَطّع ، الفرق واضح يوجد مبالغة ، قَطَعها قطعةً واحدة ، أمـا إذا قطعها قطعها آلاف القطع ، كالفرق بين كسر ، وكسر ، قد يقع هذه الكأس من يدك فينكسـر أما إذا جئت بمطرقة وضربته عشرات الضربات حتى أصبح طحيناً هذا اسمه كسـر ، غيـر كسر ، وغلقت الأبواب ، أغلقت الباب أصبح الباب مغلقاً ، أما غلقت الأبواب أترجتها ، هـل ترى الفرق بين كسر ، وكسر ، وبين غَلَقَ و غَلّقَ ، قَطَع ، وقَطّع ، فالتبتل التفعل من البتل ، قال تعالى :

يَـٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

[سورة آل عمران]

وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾

[سورة المزمل]

فالتبتل المفاعلة من البتل ، البتل مبالغة كماً ونوعاً ، فالتبتل كالتعلم والتفهم ، تفهم تفهماً ، تعلم تعلماً ، لكن الشيء الذي يلفت النظر قال تعالى :

وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾

[سورة المزمل]

ولم يقل تبتلاً بل تبتيلاً ، يوجد سر التبتيل يعطي معنى آخر فربنا عز وجل جاء بالفعل أعطى معنى ، وجاء بمصدر آخر أعطى معنى آخر، فلذلك هذا من أسـرار بلاغـة القـرآن الكريم ، التبتيل فيه تكلف وتعمل ، وتكثر ، ومبالغة ، فصار في تفعيل من تبتل ، وفي تكلف وتعمل وتكثر ومبالغة من تبتيل ، وما قال وتبتل إليه تبتلاً ، قال :

وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾

[سورة المزمل]

فالمصدر أعطى معنى والفعل أعطى معنى ، فأتى بالفعل الدال على أحدهما وبالمصدر الدال على الآخر فكأنه قيل بتل نفسك إلى ا تبتيلاً وتبتل إليه تبتلاً ففهم المعنيان من الفعـل ومصدره وهذا كثير في القرآن الكريم وهذا من أحسن الاختصار ، أضرب مثلاً آخر لكم ، لو

فتحنا المعجم على فعل أحسن في المعجم أحسن إليه ، إلى من لوازم أحسن ، بالقرآن الكـريم قال تعالى :

وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ

[سورة الإسراء]

جاء أحسن بـ ، الباء تفيد الإلصاق ، فمعنى الإحسان أضيف إليه الإلصـاق ، يعنـي يجب أن تحسن إليهما مباشرةً دون وسيط هذا المعنى أخذنا معنى الإحسان من الفعل ومعنـى الإلصاق من الباء ، فجمعنا المعنيين في معنى واحد .

التبتل الانقطاع إلى ا بالكلية ، وقوله عز وجل :

لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ

[سورة الرعد : آية " ١٤ "]

أي يجـب أن تكون خالصاً له وحده ، لأنه أهل أن تكون له ، له دعوة الحق ، فالتبتـل هو الانقطاع عن ملاحظة الخلق بحيث لا يكون المتبتل كالأجير الذي لا يخدم إلا لأجل الأجرة فإذا أخذها انصرف عن باب المستأجر ، قال تعالى :

۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣

[سورة آل عمران]

هذه مرتبة ، أما الآن في واو ..

وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥

[سورة آل عمران]

هذه الواو ليست عاطفة ، هذه واو استئنافية ، يوجد مرتبة أدنى :

وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ

[سورة آل عمران]

الطبقة الثانيـة عملت لمصلحتها ونعم أجر العاملين ، عملت لمصلحتها فنالـت الأجـر كهذا المعنى هنا تماماً ، أحياناً الإنسان يحب الله ولا يسأله شيئاً ، من أحبنا أحببناه ومن طلب منا أعطيناه ومن اكتفى بنا عما لنا كنا له وما لنا .

يوجد إنسان يحب الله حتى يوفقه ويعطيه صحة طيبة ، ويجعله غنياً، يهيء له زوجـة صالحة ، ويجعله محبوباً بين الناس ، يحب الله لعلة يريدها مقبول عنـد الله ، علـى العـين والرأس ولكن الأول أعلى الذي يحب الله من دون شيء ، يعني هكذا يقول بعـض العـارفين بالله ، أو بعض علماء القلوب : هناك من يعبد الله حباً به وهناك من يعبد الله طمعاً في جنته ، وهناك من يعبد الله خوفاً من ناره .

فالأجير همه الأجرة فإذا أخذها انتهى الأمر ، يعني إنسان رغبان بالصحة أعطـاه الله صحة،يبغي تجارة وقد حصلها ، يتوق بزوجة فنالها ، عنده بيت ومركبة ، ماله شيء عند الله ، أراد الاستقامة ليكسب الدنيا فكسبها ، لا يوجد عنده الشوق إلى الله عز وجل هذه المرتبة مقبولـة مادام هو يخافه ويرجو رحمته ، ولكن ليست راقية هذه المرتبة .

صلى الله عليه وسلم كان يصلي حتى تتورم قدماه قالت له السيدة عائشة: يا رسول الله ألـم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال لها : " أفلا أكون عبداً شكورا " .

نحن نعمل عملاً طيباً نرتاح ، نجتهد في عمل نستريح فترة لكن النبي عليـه الصـلاة والسلام طوال النهار في خدمة الخلق وفي الليل في الاتصال بالحق .

يعني الله تعالى صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته ، وإن لم يوجب لداعية بها ثواباً فإنه يستحقها لذاته ، يعني كماله يجعله أهلاً أن تحبه دون أن تطالبه بشيء ، مثلاً إذا صديق غني كل ما زرته قدم عشاء ، يكرمك ويصحبك في نزهة ، فأنت تحبه ولكن يا ترى تحبه لذاته أم لكرمه ؟ الله أعلم ، لو أنك زرته مرتين ثلاثة وما قدم لك شيئاً ولا خدمك أبداً تنصرف عنه ، معنى هذا أن إقبالك عليه لم يكن من أجل كماله بل من أجل نواله .

الإنسان أحياناً يطالب الله عز وجل لمصابه بأمراض مخيفة سرطانات شلل ، جلطـات مبكرة ، حادث سير مخيف ، فقر مدقع ، يخاف يلتجئ إلى الله فطالب السلامة ، طالب الغنـى ، طالب السعادة ، جيد على العين والرأس ولكن هناك مرتبة أعلى بكثير أن تحب الله دون أن

تعلق محبتك بمنفعة تجرها أو كسب توصله ، من أحبنا أحببناه ومن طلب منا أعطيناه ومـن اكتفى بنا عما لنا كنا له وما لنا .

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا   ليس لي عنهم معدل وإن عدلوا

وا   وإن فتتوا في حبهم كبدي   باق على حبهم راض بما فعلوا

* * *

هذا متى يظهر ؟ يظهر لما الإنسان يكون متألقاً عند ا   ثم تأتيه مصيبة فيصبر ، قال تعالى:

إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

[سورة ص]

أحياناً يسوق لك الرب أشياء غير واضحة فعليك أن تقول : يارب أنا راض بما قضيت ، أحياناً أب محترم جداً ، كامل عالم ، مرب ، غني ، مقتدر يعني إذا أعطى أمراً لابنه غير واضح مثلاً لا تأكل يا بني ، فعلى الابن أن يقول : سمعاً وطاعة ، حاضر ، فالأب الذي قـدم لأولاده كل شيء يحق له أن يعطيهم أمراً غير واضح وأن يقبلوه ، ا   عـز وجـل أحيانـاً يمتحننا امتحان عبودية له ، وأحدنا مستقيماً متألقاً عند ا   تأتيه مصيبة لـيس لهـا تفسـير ، المؤمن يقول يا رب أنا راض بقضائك وقدرك ، عندها يكون قد نجح وأخذ درجة تامة .

المؤمن إذا استقام ا   عز وجل أحياناً بعد استقامته مباشرةً يعطيه الدنيا يشـجعه لأنـه ضعيفاً، وإنسان آخر يستقيم ويبقى سنوات وسنوات بوضعه المادي السابق ، هذا أرقى   هـذا ما علق أهمية ، وما اتخذ الاستقامة تجارة بل إن ا   عز وجل لو يعاقـب المـذنب مباشـرةً ويكافئ المحسن مباشرةً انتهى الاختيار ، كل الناس يخـافون العقـاب السـريع فينضـبطون ويرجون العطاء السريع فينضبطون ، أما ا   عز وجل سياسته يسمح لك أن تفعل ما تشاء إلى أمد بعيد ثم يحاسبك .

التبتل هو الانقطاع إلى ا   تعالى لأنه أهل أن يعبد وحده ، ويدعى وحـده ، ويقصـد وحده ، ويشكر وحده ، ويحمد وحده ، ويحب ويرجى ، ويخاف ، ويتوكل عليه ، ويستعان به ، ويستجار به ويرجأ إليه ، ويصمد إليه ، فتكون الدعوة الإلهية الحق له وحده قال تعالى :

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ

[سورة الرعد : آية " ١٤ "]

يعني له وحده أن تدعوه كلياً ، هذه المعاني إذا قامت بنفس الإنسان إذا دعا ا وحده ، قصده وحده تلك دعوة الحق ، السيدة عائشة لما ا برأها قالت لها أمها : قومي إلـى النبـي فاشكريه ، قالت : وا لا أقوم إلا على مسمع من النبي ، فتبسم عليه الصـلاة والسـلام وقال: عرفت الحق لأهله .

فحينما تعبده ، وحده وتدعوه ، وتقصده وحده ، وتشكره وحده وتحمده وحده ، وتحبـه وحده، وترجوه وحده ، وتخافه وتتوكل عليه وحده وتستعين به وحده ، وتستجير به وحـده ، وتلجأ إليه وحده ، فتكون الدعوة الإلهية الحق له وحده ، هذا التبتل ، ليس لك علاقة بـالخلق أبداً تعاملهم، تلاطفهم ، تحسن لهم ، تكرمهم ، أما قلبك معلق با لا تعلق عليهم أية أهمية .

بالمناسبة ا عز وجل من أساليبه العظيمة في تربية خلقه أنه حينما تعتمد على جهـة أرضية لحكمة بالغة بالغة ا عز وجل يلهم هذه الجهة الأرضية التي اعتمدت عليها أن تخيب ظنك فيها ، لأن ا يغار ، حينما تعتمد على جهة أرضية ا عز وجل يلهم هذا الإنسـان أن يتخلى عنك في أحرج وقت ، لو قال لك واحد زرني ، ماذا تريد؟ أحققه لك فأنـت ارتحـت علقت الأمل كله عليه و نسيت ا عز وجل تزوره يتجاهلك يسألك : ما الاسم الكريم ، قـد لا يقول لك تفضل اجلس ، أنت تصعق بهذا الموقف ، هذا الموقف مفتعل ، حينما تعلق أهميـة على جهة أرضية إذا كان ا يحبك ويغار عليك يلهم هذه الجهة الأرضية أن تخيب ظنك بها ، لا تحزن ، رجل افتقر و له قريب يعمل مدير مكتب السلطان عبد الحميد ، شد إليه الرحـال ، وعلق عليه الآمال كلها على قريبه مدير مكتب السلطان ، كان حاكماً لثلـث العـالم ، فقـدم استدعاء مدير المكتب لقريبه بتعيينه بوظيفة فلم يوقعها السلطان ، لمـدة أسـبوع كـل يـوم يعرضها عليه فيهملها ، ومر أول أسبوع ، وثاني أسبوع ، وثالث أسبوع و لم يوقعها ، فهـذا الرجل يبدو على معرفة با أعطى توجيهاً للخادم أن يصرفه ، قال له : يا أخي الضيف ثلاثة أيام ومضى شهر ، كأنه طرده ، فهذا خرج هائماً على نفسه يبكي ، قال له : اتبعه و انظـر أين يسكن فدخل لخان وسكن فيه من اليوم الثاني وضع الاستدعاء للسـلطان فوقعهـا فـوراً فاستدعاه قال له : بقيت شهراً بأكمله معتمداً علي فلما يئست مني واعتمـدت علـى ا وقـع السلطان ، طبعاً قصة لها معنى ، لما علقت الأمل على إنسان خيب ا ظنك بهذا الإنسـان ، فلما علقت الأمل على ا عز وجل ا عز وجل أكرمك بما كنت تريد .

أيها الإخوة ... ندخل في التفاصيل ، التبتل يجمع أمرين اتصالاً و انفصالاً ، لا يصـح إلا بهما ، فالانفصال انقطاع قلبه عن حظوظ النفس المزاحمة لمراد الرب منه ، وعن التفـات قلبه إلى ما سوى ا رغبة فيه ، أو مبالاة به ، أو فكراً فيه .

يعني يجب أن تقطع نفسك عن كل ميل يزاحم مراد ا منك هذا الانفصال ، الـنفس تميل إلى النوم ويوجد دعوة إلى الذكر والاستيقاظ والصلاة فيجب أن تقطع نفسك عن حظهـا

من النوم لأن هذا الحظ يزاحم مراد ا منك في أن تصلي ، والاتصال لا يصح إلا بعد هـذا الانفصال وهو اتصال القلب با وإقباله عليه وإقامة وجهه له حباً ، وخوفاً ، ورجاء، وإنابةً ، وتوكلاً .

التبتل انقطاع واتصال ، انفصال عن ما سوى ا وعن حظوظ النفس وإقبال على ا ، والذي يحسم مادة رجاء المخلوقين من قلبك حينما ترضى بحكم ا عز وجل وقسـمته لـك ، فمن رضي بحكم ا وقسمته لم يبقَ لرجاء الخلق في قلبه موضع .

لا تسـ ـ ـ ـألـن بني آدم حاجة وسـ ـ ـل الذي أبوابه لا تغـلـق

ا يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

* * *

يجب أن تحسم مادة رجاء المخلوقين حينما ترضى بقضاء ا وقدره ، والـذي يحسـم مادة الخوف هو التسليم فإنه من سلم واستسلم له وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه وعلم أنه لم يصبه إلا ما كتب ا له ، لم يبقَ لخوف المخلوقين في قلبه موضع أيضاً ، حينما تعلم أن الأمر بيد ا وأن ا لن يسلمك إلى أحد وأن مصيرك مع ا ، وأن الفعل كله بيد ا لا تخاف أحداً ، والنبي الكريم بحديث جامع مانع موجز قال :

" لا يخافن العبد إلا ذنبه ، ولا يرجون إلا ربه "

إذاً إن بلغت هذه المرتبة لا معنى للخوف من غير ا عز وجل الانفصال عـن الخلـق وعن هوى النفس الذي يزاحم مراد ا منك والاتصال بالإقبال على ا ، في التسليم أيضـاً فائدة لطيفة هو أنه إذا سلمها ا فقد أودعها عنده وأحرزها في حرزه ، وجعلها تحـت كنفـه حيث لا تنالها يد عدو عاد ولا بغي بغي عات ، أنت حينما تدع الأمر عز وجل يتولى عنك كل شيء أما إذا اتكلت على نفسك أوكلك ا إياها ، فلما سلمت ضمنت النجاح ، وإن لم تسلم أخفقت ، هذا هو الانقطاع عن الخلق ولكن التبتل لا يكتمل حتى يكون انقطاع المتبتـل عـن النفس لا عن الخلق وحدهم ولكن عن حظوظ النفس بمجانبة الهوى ، وتنسم روح الإنس ، فإن في جانبة الهوى ومخالفته ونهي النفس عنه تنسم روح الأنس با ، يوجد نقطة دقيقة افـرض نفسك وعاء ممتلئاً بالدنيا لا يوجد مكان لحب ا عز وجل إذا نزعت حب الدنيا مـن قلبـك البديل الطبيعي حب ا عز وجل ، مثل آخر :

نقطتان الآخرة والدنيا ، إن اقتربت من الآخرة ابتعدت حكماً عن الدنيا وإن اقتربت مـن الدنيا ابتعدت حكماً عن الآخرة ، كل فراغ لابد من أن يشغل ، فإذا فرغت نفسك مـن حـب الدنيا لابد وأن تملأ محبة ا قلبك ، وما جعل ا لرجل من قلبين في جوفه .

هذا الروح الذي تشعر به هو بسبب إعراضك عن الهوى ، صار في هوى وروح ، من ترك الهوى امتلأ قلبه روحاً وريحاناً ، من اتجه إلى الهوى خسر إقبال القلب علـى ا عـز وجل .

النفس لابد لها من التعلق فلما انقطع تعلقها من هواها وجدت روح الإنس با عز وجل . كنت أقول هذه الكلمة إما أن تكون عبداً وإما أن تكون عبداً لعبد لئيم ، أنت عبـد فإمـا أن تجعل ا إلهك وإما أن تجعل عبداً لئيماً إلهك ، فإذا أنت رفضت أن تكون عبداً أنت عبـد لمليون شهوة .

" عن أَبِي هريرةَ رضي اللهم عنْهم عن النبي صلى اللهم عليه وسلم قَالَ تَعس عبد الـدينَار والدرهم والْقَطيفَة والْخَميصة ... "

[البخاري ـ الترمذي ـ ابن ماجة]

فإن لم تكن عبداً فأنت عبد لشهواتك ، فإن لم تكن عبداً فأنت عبد لعبد لئيم ، إن لم تخضع سوف تقبل الأرجل لغير ا ، أنت مصمم أن تكون عبداً ، فشـرفك ومكانتـك أن تكون عبداً ، فالمؤمن الصادق يصدع بالحق عند من يخافه ويرجوه ، وقد زهد في مدحهم وثنائهم يصيح فيهم بالنصائح جهاراً ، ويعلن لهم بها ويسر لهم إسراراً .

فالتبتل مرتبة عالية جداً فيها انقطاع عن الخلق وعن هوى نفسك واتجاه إلـى الحـق ، وفي تكامل بقدر ما تنقطع عن الخلق تتجه إلى الحق ، وبقدر ما تفرغ نفسك من حـب الـدنيا تملأ هذه النفس بحب ا ورسوله ، والقضية قضية مرتبة نرجو ا أن نصل إليها ، مرتبـة التبتل ، قال تعالى:

وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾

[سورة المزمل]

التبتل الأول الانقطاع ، لكن مع التفعيل ، انقطاع مع التفعيل ، أما التبتل التبتيل مصـدر آخر فيه معنى التكلف ، والتعمل ، والتكثر والمبالغة ، فمجموع المعاني خمسة .

وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴿٩﴾ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴿١٠﴾

[سورة المزمل]

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الرابع والستين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والمنزلة اليوم منزلة التواضع ، قال تعالى:

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾

[سورة الفرقان]

أي في سكينة ووقار متواضعين ، غير متكبرين ولا مرحين ، قال الإمام الحسن : هـم العلماء الحلماء . وقال بعضهم : أصحاب وقار وعفة لا يسفهون وإن سفه عليهم الآخرون .

أيها الإخوة ... يمشون على الأرض هونا ، الهون الرفق واللين ، والهون هـو الهـوان والذل، فالمفتوح صفة أهل الإيمان ، والمضموم صفة أهل الكفران ، وجزاؤهم من ا النيران ، أهل الكبر .

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾

[سورة الفرقان]

آية ثانية :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ

[سورة المائدة : آية " ٥٤ "]

صفة أهل الإيمان أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، في حـال التخلـف يصـبح المؤمنون أذلاء أمام أعدائهم متكبرين على أبناء جلدتهم .

أيها الإخوة ...هذا الذل الذي وصف ا به المؤمنين أذلة على المؤمنين ، قالوا : هذا ذل الرحمة ، والعطف ، والشفقة ، كيف أن الأم من شدة عطفها على ابنها ومن شدة الرحمة التي

تملأ قلبها تضعف أمام ابنها ، تستجيب له فهذا ذل العطف والرحمة والشفقة ، والإخبـات ، عدي هذا الفعل بعلى ليشير إلى هذه المعاني ، أشفق عليه ، أذلة على المؤمنين يعني مشـفقين على المؤمنين ، رحماء بالمؤمنين ، خاضعين للمؤمنين ، قولاً واحداً لم يرد ا بهذا الذل الذي وصف به المؤمنين أن يكون ذل الهوان الذي صاحبه ذليل ، إنما هو ذل اللين والانقياد الـذي صاحبه ذلول ، أرأيت إلى دقة اللغة ، أذلة على المؤمنين ، مفرد الأذلة ذلول أما أذلة علـى المؤمنين مفرد آخر هو الذليل .

أذلة على المؤمنين جمع ذلول ، فالمؤمن سهل الانقياد ، تقول مثلاً بلابل جمع بلبـل ، وبلابل جمع بلبلة ، وشتان بين المعنيين البلابل جمع بلبلة الاضطراب ، الفوضى ، والبلبل جمعه بلابل ، وهذه الصفة أذلة جمع ذلول لا جمع ذَليل ، أذلة على المؤمنين أعـزة علـى الكافرين .

ورد في الحديث الصحيح أن المؤمن كالجمل الذلول ، انقياده سهل لين العريكة ، يـألف ويؤلف ..

" المؤمن كالجمل الذلول والمنافق والفاسق ذَليل "

[أحمد ـ ابن ماجة ـ والحاكم ـ عن العرباض بن سارية من حديث طويل اسناده قوي]

طبعاً يقوي هذا الحديث أن المـؤمن يألف ويؤلف ، هين لين وهكذا . من لوازم الكذاب ، والنمام ، والبخيل ، والجبار الذل ، المؤمن ذلول لكن الكذاب والبخيل والنمام والجبار لابـد أن ينتهي به تجبره وكذبه و نقله للأحاديث وبخله إلى الذل .

أعزة على الكافرين هو من عزة القوة ، والمنعة ، والغلبة ، وقال عطاء رضي ا عنه : للمؤمنين كالوالد لولده ، وعلى الكافرين كالسبع على فريسته .

إذا أنت احترمت مبتدعاً فقد هدمت الدين ، إنسان مبتدع ، إنسان فاسق ، إنسان كافر ، إنسان يستهزئ بالدين ينبغي أن تكون شديداً عليه ، إن ا ليغضب إذا مدح الفاسـق ، ومـن عظم صاحب بدعة فقد عمل على هدم الدين ، صاحب البدعة لا يعظم ولا يبجل ولا يحترم ، وقد قال ا عز وجل في آية أخرى :

أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ

[سورة الفتح : آية ٢٩ "]

وفي صحيح مسلم :

" عن قَتَادةَ وزاد فيه وإن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفْخَرَ أحد على أحـد ولا يبـغ أحد على أحد ... "

[مسلم ـ أبي داود ـ أحمد ـ ابن ماجة]

" عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى اللهم عليه وسلم قَالَ لا يدخُلُ الْجنةَ من كان في قَلْبِه مثْقَالُ ذَرة من كبرٍ ... "

[مسلم ـ الترمذي ـ أبي داود ـ ابن ماجة ـ أحمد]

" عن معبد بن خَالِد قَالَ سمعتُ حارِثَةَ بن وهبٍ الْخُزاعي قَالَ سمعتُ النبِي صلى اللهم عليه وسلم يقُولُ : أَلا أُخْبِركُم بِأَهل النارِ كُلّ عتُل جواظ مستَكْبِرٍ "

[البخاري ـ مسلم ـ الترمذي ـ ابن ماجة ـ أحمد]

" عن أَبِي هريرةَ أَن النبِي صلى اللهم عليه وسلم قَالَ احتَجت الْجنةُ والنار فَقَالَت الْجنةُ يا رب ما لِي لا يدخُلُني إِلا فُقَراء الناسِ وسقَطُهم وقَالَت النار ما لِي لا يدخُلُني إِلا الْجبارون والْمتَكَبرون فَقَالَ لِلنارِ أَنْت عذَابِي أُصيب بِك من أَشَاء وقَالَ لِلْجنة أَنْت رحمتي أُصيب بِك من أَشَاء ولِكُل واحدة منْكُما ملْؤُها فَأَما الْجنةُ فَإِن الله ينْشئُ لَها ما يشَاء وأَما النار فَيلْقَون فيها وتَقُولُ (هلْ من مزِيد) حتى يضع قَدمه فيها فَهنَالِك تَمتَلئُ ويزوى بعضها إِلَى بعضٍ وتَقُولُ قَطْ قَطْ قَطْ"

[البخاري ـ مسلم ـ الترمذي ـ الدارمي]

لابد من تعليق حول هذا الحديث ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

" عن أَبِي هريرةَ قَالَ : قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم الْمؤْمن الْقَوِي خَير وأَحب إِلَى الله من الْمؤْمنِ الضعيف وفي كُلّ خَير... "

[مسلم ـ ابن ماجة ـ أحمد]

فالنبي عليه الصلاة والسلام أثنى على المؤمن القوي ، والنبي أيضاً أثنى على الضعفاء والمساكين ، قال عليه الصلاة والسلام :

" عن أَنَسِ بنِ مالِك قَالَ : قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم كَم من أَشْعثَ أَغْبر ذي طمرينِ لا يؤْبه له لَو أَقْسم علَى الله لأَبره "

[الترمذي]

كيف نجمع بين الحديثين ؟ نجمع بينهما في أنه إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج ا ينبغي أن تكون قوياً ، وإذا كان طريق الغنى سالكاً وفق منهج ا ينبغي أن تكون غنياً ، وإذا كان طريق أن تكون في منصب رفيع سالكاً وفق منهج ا ينبغي أن تكون في هذا المنصب الرفيع، لأن المؤمن القوي بماله أو بعلمه أو بمنصبه خير وأحب إلى ا تعالى من المؤمن الضعيف ، لأنه أقدر على فعل الخير ، ولأن الخيارات أمامه كثيرة جداً ، ولأنه يستطيع أن ينقذ الآخرين ، فماذا يعني أن يثني النبي صلى ا عليه وسلم على الضعيف ، والمسكين ؟

قال علماء الحديث : حينما يكون طريق القوة الوحيد هو المعصية فالضعف وسام شرف ، وحينما يكون طريق الغنى الوحيد أكل اموال الناس بالباطل فالفقر وسام شرف ، وحينما يكون طريق القوة الوحيد أن تكون منافقاً أو أن تقول كلاماً لا يرضي ا فأن تكون ضعيفاً هو وسام شرف لك، فلذلك إذا كان الطريق سالكاً وفق منهج ا كن قوياً أما إذا كان الطريق ليست سالكةً إلا بمخالفة منهج ا فأنعم بالفقر والضعف .

" عن أَبِي هريرةَ قَالَ سفْيان أَولَ مرة أَن رسولَ الله صلى اللهم عليه وسلم ثُم أَعاده فَقَالَ الأَغَر عن أَبِي هريرةَ قَالَ : قَالَ الله عز وجل الْكبرياء رِدائِي والْعزةُ إِزارِي فَمن نَازعني واحدا منْهما أُلْقيه في النارِ "

[مسلم ـ أبي داود ـ ابن ماجة ـ أحمد]

" عن إِياسِ بنِ سلَمةَ بنِ الأَكْوعِ عن أَبِيه قَالَ : قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم : لا يزالُ الرجلُ يذْهب بِنَفْسه حتى يكْتَب في الْجبارِين فَيصيبه ما أَصابهم "

[جامع الترمذي]

مرة ذكرت مثلاً طريفاً إذا جاءك ضيوف كثر وما عندك شيء تقدمه لهم إلا قليلاً من اللبن يمكن أن تضيف له خمسة أمثال ماء وأن تجعله شراباً سائغاً طعمه ، لكن هذه الكمية من اللبن يفسدها نقطة من النفط ، أما لو أضفت إليها خمسة أمثال من الماء لا تفسدها ، فالكبر كنقطة النفط إذا دخلت كيان إنسان حجبته عن ا عز وجل .

" عن عبد الله بنِ مسعود عنِ النبِي صلى اللهم عليه وسلم قَالَ لا يدخُلُ الْجنةَ من كَان في قَلْبِه مثْقَالُ ذَرة من كبرٍ قَالَ رجلٌ إِن الرجلَ يحب أَن يكُون ثَوبه حسنًا ونَعلُه حسنَةً قَالَ إِن الله جميلٌ يحب الْجمالَ الْكبر بطَر الْحق وغَمطُ الناسِ "

[مسلم ـ الترمذي ـ أبي داود ـ ابن ماجة ـ أحمد]

و ..

" العزة إزاري ، والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبته ، ولا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في ديوان الجبارين فيصيبه ما أصابهم" .

وكان عليه الصلاة والسلام من شدة تواضعه يمر على الصبيان فيسلم عليهم ، وقد قرأت في السنة أيضاً أنه كان يسابقهم أحياناً ، وقد قرأت أيضاً في السنة أنه كان يدعو بعض الصبيان لركوب جمله ليدخل على قلبهم الفرح .

وكانت الأمة ـ أي البنت الصغيرة ـ تأخذ بيده صلى ا عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت من شدة تواضعه ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا أكل لعق أصابعه الثلاث تواضعاً عز وجل .

وكان عليه الصلاة والسلام يكون في بيته في خدمة أهله ولم يكن ينتقم لنفسه قط ، وكان عليه الصلاة والسلام يخصف نعله ويرقع ثوبه ويحلب الشاة لأهله ، ويعلف البعير ، ويأكـل مع الخادم ، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم ، ويبدأ من لقيه بالسلام ويجيـب دعوة من دعاه ولو إلى أيسر شيء ، إلى خل قال : نعم الإدام الخل .

وكان صلى ا عليه وسلم هين المؤونة ، لين الخلق ، كريم الطبع جميل المعاشـرة ، طلق الوجه بساماً ، متواضعاً من غير ذلة ، جواداً من غير سرف ، رقيق القلب ، رحيماً بكل مسلم ، خافض الجناح للمؤمنين ، لين الجانب لهم .

وكان صلى ا عليه وسلم يقول :

" عن عبد الله بنِ مسعود قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم أَلا أُخْبِرُكُم بِمن يحـرم على النارِ أَو بِمن تَحرم عليه النار على كُلِّ قَرِيبٍ هينٍ سهلٍ "

[الترمذي ـ أحمد]

" عن جابِرٍ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم غَفَر الله لِرجلٍ كَان قَبلَكُم كَان سـهلاً إِذَا باع سهلاً إِذَا اشْتَرى سهلاً إِذَا اقْتَضى"

[البخاري ـ الترمذي ـ ابن ماجة]

" عن أَنَسِ بنِ مالِك قَالَ : قَالَ رسولُ الله صلى اللهم عليه وسلم لَو أُهدي إِلَي كُراع لَقَبِلْـتُ ولَو دعيتُ عليه لأَجبتُ "

[الترمذي]

يعني قدم واحد ، أرأيت إلى هذا التواضع ، وكان صلى ا عليه وسلم :

" عن أَنَسِ بنِ مالِك قَالَ كَان رسولُ الله صلى اللهم عليه وسـلم يعـود الْمـرِيض ويشْـهد الْجنَازةَ ويركَب الْحمار ويجيب دعوةَ الْعبد وكَان يوم بني قُريظَةَ على حمارٍ مخْطُومٍ بِحبلٍ من لِيف عليه إِكَافٌ من لِيف "

[الترمذي ـ ابن ماجة]

هذه بعض صفات النبي صلى ا عليه وسلم بالتواضع ، سئل الفضيل بن عياض عـن التواضع فقال : يخضع للحق ، وينقاد له ويقبله ممن قاله . سيدنا عمر بن عبد العزيز اختـار عالماً جليلاً ورجاه أن يكون معه وقال له : إذا رأيتني ضللت فأمسكني من تلابيبي أمام الناس وهزني هزاً شديداً وقل لي اتق ا يا عمر فإنك ستموت .

دخلنا الآن في التفاصيل ، علامة التواضع أن تنقاد للحق وأن تخضع لـه ، وأن تقبلـه ممن قاله ولو كان صغيراً .

أبو حنيفة النعمان قال لغلام : يا غلام إياك أن تسقط ، فقال الغلام بل إياك يا إمـام أن تسقط إنني إن سقطت سقطت وحدي وإنك إن سقطت سقط معك العالم .

وقيل التواضع أن لا ترى لنفسك قيمة فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب ، الجنيد يقول : التواضع هو خفض الجناح ولين الجانب ، قال تعالى :

وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾

[سورة الإسراء]

وقال ابن عطاء ا السكندري : هو قبول الحق ممن كان والعز في التواضع فمن طلبه في الكبر فهو كمن طلب الماء من النار . لا يمكن أن يطلب التواضع في الكبر ، الكبر مهلكة ، الشرف في التواضع والعز في التقوى ، والحرية في القناعة .

وقال عروة بن الزبير رضي ا عنهما : رأيت عمر بن الخطاب رضي ا عنه على عاتقه قربة ماء فقلت : يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا ، فقال : لما أتاني الوفود سـامعين مطيعين دخلت نفسي نخوة أردت أن أكسرها . أمير المؤمنين أعلى إنسان في الجزيرة خليفـة المسلمين ليس بينه وبين ا أحد ، جاءته الوفود من كل جانب تواضعت له وخضعت فخـاف على نفسـه فحمل قربة ماء على عاتقه أمـام النـاس .

ومرة كان يخطب قطع الخطبة وقال : يا ابن الخطاب كنت ترعى غنيمات على قراريط لبني مخزوم ، ما فهم أصحابه ماذا يعني بهذا الكلام ، قطع الخطبة كما تقطع الأخبار وتـأتي الإعلانات مثلاً ، قطع الخطبة وجاء بهذا النص ، قال له بعض أصحابه بعد انتهاء الخطبـة : ماذا قلت يا أمير المؤمنين ؟ قال : جاءتني نفسي وقالت لي ليس بينك وبين ا أحد ـ يعنـي أعلى إنسان ـ أردت أن أعرفها قدرها ، يا ابن الخطاب كنت ترعى غنيمات علـى قـراريط لبني مخزوم.

ومرة قال : كنت عميراً ، فصرت عمراً ، فأصبحت أمير المؤمنين ومر الحسن علـى صبيان معهم كسر خبز فاستضافوه ـ سيدنا الحسن مع أطفال خبز يابس ـ فنزل وأكل معهم ثم حملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم، وقال : اليد لهم ـ الفضل لهم ـ لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعموني ونحن نجد أكثر مما أطعمناهم .

ويروى أن أبا ذر رضي ا عنه في ساعة من الساعات عير بلالاً وقال له : يـا بـن السوداء ، ثم ندم فألقى بنفسه على الأرض وحلف لارفعت رأسي حتى يطأ بلال خدي بقدمه ، فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال ، سيدنا أبو ذر الصحابي الجليل القرشي وقـع علـى الأرض ووطئ بلال خده .

وقال بعض من عاصر عمر بن عبد العزيز : قومت ثياب عمر بن عبد العزيز رضـي ا عنه وهو يخطب باثني عشر درهماً وكانت قباء ، وعمامةً ، وقميصاً ، وسراويل ، ورداء ، وخفين ، وقلنسوة .

سيدنا عمر بن عبد العزيز له ابن اشترى خاتماً بألف درهم فكتب إليه أبوه ، بلغني أنـك اشتريت فصاً بألف درهم فإذا أتاك كتابي هذا فبع الخاتم وأشبع به ألف بطن .

اليوم عقد قران في فندق خمس نجوم يحتاج أموالاً كثيرة ، عقد كلف خمسـة وثمـانين مليوناً ، كم بطن يشبع ؟ كم وجبة طعام تقدم الوجبة بمئة ليرة عد ، كم شاب يتزوج ؟

قال له : فبع الخاتم وأشبع به ألف بطن ، واتخذ خاتماً بدرهمين واجعل فصه حديداً صينياً واكتب عليه رحم ا امرأً عرف قدر نفسه وا أعلم .

لازلنا في التواضع ، روح التواضع أن يتواضع العبد لصولة الحق بأن يتلقـى سـلطان الحق بالخضوع له والذل والانقياد والدخول تحت رقه بحيث يكون الحق متصرفاً فيه تصرف المالك في مملكته ، فبهذا يحصل العبد خلق التواضع ، ولهذا فسر النبي الكبر بضده فقال :

" **... الكِبر بطَر الحق وغَمطُ الناس** "

[مسلم ـ الترمذي ـ أبي داود ـ ابن ماجة ـ أحمد]

بطر الحق رده وجحده ، وغمط الناس احتقارهم وازدراؤهم ومتى احتقرهم وازدراهـم دفع حقوقهم وجحدها واستهان بها . مجتمع الكفر ، والفسق ، والفجور ، القـوي لـه صـولة وأنداده لهم صولة ، إذاً يصطدمون ، قال تعالى :

تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿١٤﴾

[سورة الحشر]

يا أيها الإخوة ... بدأنا ندخل في أدق التفاصيل ، قـال التواضـع للـدين، وهـو أن لا يعارض بمعقول منقولاً ، يعني يوجد نص ثابت صحيح عن رسول ا تقول غير معقـول ، معنى هذا أنك متكبر ، إذا ثبت لك هذا النص ثبت عن رسول ا تشمئز وتقول غير معقول ، فالنبي لا يقول هذا الكلام ، لا يقبله منطق ، لا يقبله عقل أنت متكبر ، التواضـع للـدين ألا يعارض بمعقول منقولاً ، ولا يتهم للدين دليلاً ، ولا يرى إلى الخلاف سبيلاً، هذا التواضع .

التواضع للدين الانقياد لما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام والاستسلام له والإذعان له وذلك بثلاثة أشياء فقال الأول ألا يعارض شيئاً مما جاء به بشيء من المعارضـات الأربـع السارية في العالم المسماة بالمعقول ، والقياس ، والذوق ، والسياسة :

فالأول للمنحرفين من أهل الكبر من المتكلمـين الـذين عارضـوا نصـوص الـوحي بمعقولاتهم الفاسدة وقالوا : إذا تعارض العقل والنقل أنا أقول قدمنا النقل لأن الدين في الأصل

نقل ، وقد يقصر عقلي عن فهم النقل، أما هؤلاء العقلانيون ، هؤلاء المتكلمون يقولـون : إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل وعزلنا النقل ، هؤلاء متكبرون يعبدون عقولهم من دون ا ، فإذا شيء ما راق لهم رفضوه واعتمدوا عقلهم كأداة معرفة يقينية ، الذي يعتمد على عقلـه ولا يعبأ بالوحي هذا متكبر . وهناك متكبرون من المنتسبين إلى الفقه ، فإذا تعارض القيـاس والرأي والنصوص قدموا القياس على النص .

والفئة الثالثة المنتسبون إلى علم القلوب والزهد ، إذا تعارض عندهم الذوق والأمر قدموا الذوق والحال ولم يعبؤوا بالأمر .

والفئة الأخيرة المتكبرون المنحرفون من الولاة والأمراء إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة قدموا السياسة ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة .

يوجد متكلمون ، متفيقهون ، متصوفون ، ولاة وأمراء ، الأولون يقدمون عقولهم علـى النص ، والفئـة الثانية تقدم القياس على النص والفئة الثالثة تقدم الذوق على النص ، والفئة الرابعة تقدم السياسة على النص .

أولاً التواضع للدين ، الشيء الثاني ألا يتهم دليلاً من أدلة الدين بحيث يظنه فاسد الدلالة ، أو ناقص الدلالة أو قاصرها ، أو أن غيره كان أولى منه ، يقول لك ليس في الإسـلام مـا يسمى بالاقتصاد الإسلامي ، لا يوجد ولا قاعدة اقتصادية في الإسلام ، يتهم الـدين كلـه أن الدين يخلو من نظام اقتصادي ، مع أن نظام الزكاة ، نظام الصدقات ، التكافـل الاجتمـاعي، نظام الإنفاق ، يكتب مجلدات على النظام الاقتصادي في الإسلام .

قال : وما اتهم أحد دليلاً للدين إلا كان المتهم هو الفاسد الذهن المأفون في عقله وذهنه ، فالآفة من الذهن العليم لا في الدليل نفسه قال : إذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك وينبـو فهمك عنه فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك وأن تحته كنزاً من كنوز العلم ولم تـؤتى مفاتحه بعد هذا في حق نفسك - يعني إذا شيء ما فهمته قد يكون هذا لقصر فـي ذهنـك لا لضعف في الشيء - والنصيحة أن تتهم آراء الرجال على نصوص الوحي وليكن ردها أيسر شيء عليك فإن لم تفعل ذلك فلست على شيء .

الإمام الشافعي رحمه ا تعالى وقدس روحه قال : أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول ا صلى ا عليه وسلم لم يحل له أن يدعها لقول أحد ، الشيء الثـاني أن لا تتهم دليلاً من أدلة الدين .

الشيء الثالث : ألا يجد إلى خلاف النص سبيلاً البتة ، لا بباطنه ولا بلسانه ، ولا بفعله ، ولا بحاله .

أيها الأخوة ... من علامات التواضع أن تكون متبعاً لسنة رسول ا صلى ا عليه وسلم ، فكل من خالف سنة رسول ا لقول متبوعه ، أو شيخه أو مقلده ، أو لرأيه ، أو لمعقولـه ، أو لذوقه ، أو لسياسته ، فهو ممن اتسم بالكبر ، الذي يقدم سياسته ، أو ذوقه ، أو عقلـه ، أو رأيه ، أو يقلد شيخاً ، أو مقلداً ، أو متبوعاً ويخالف السنة فهو ليس من التواضع في شيء.

التواضـع الانقياد للحق ، سيدنا الصديق في أول خطبة خطبها قال : إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، قال تعالى :

إِنْ أَتَّبِــعُ إِلَّا مَـا يُوحَـىٰٓ إِلَـىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيـرٌ مُّبِيـنٌ ﴿٩﴾

[سورة الأحقاف]

تلك مقولة سيد الخلق وحبيب الحق ، فالاتباع هو دليل التواضع ، والتأبي وعدم الاتباع ، وتحكيم العقل في النقل ، وتغليب الذوق والحال وتغليب قـول إنسـان دون رسـول ا ، وتغليب قياس أو فكرة من يفعل هذا فقد ابتعد عن التواضع واتصف بنوع من أنواع الكبـر ، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، وأحياناً ا عز وجل لحكمـة يريـدها يأمرك بعبادة قد لا تفهم معناها ، أو يأمرك بشيء يستعصي فهمه عليك فهذا امتحان تعبـد عز وجل ، فأي شيء أمرنا ا به نطبقه ولكن حينما نقبل على تطبيـق أمـر دون أن نفقـه حكمته نجحنا في امتحان العبودية ، فإذا فعلنا هذا تفضل ا علينا وكشف الحكمة فجمعنـا بين العبادة والعلم ، ونرجو ا تعالى أن نكون ممن تواضع عز وجل حتى يرفعنا ا عـز وجل ، ومن تواضع رفعه .

والحمد رب العالمين

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون مع الدرس الخامس والستين من دروس مدارج السالكين ، فـي منـازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ومنزلة اليوم هي الاجتباء، وقد سمعتم قبل قليل في سورة يوسف :

وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ

(سورة يوسف : ٦) .

الاجتباء منزلة من منازل مدارج السالكين في إياك نعبد وإياك نستعين ، الحقيقة هذه المنزلـة منزلة خاصة جداً ، يبلغها المؤمن متى بلغ ذروة الإيمان ، فللإيمان ذروة .

كيف أن الطالب أحياناً ينال وثيقة إتمام المرحلة الابتدائية ، ثم ينال الشهادة الإعدادية ، ثم ينال الشهادة الثانوية ، ثم يحصل على إجازة باختصاص معين ، ثم هناك دبلوم عامـة فـي هـذا الاختصاص ، ثم هناك دبلوم خاصة ، ثم هناك ماجستير ، ثم هناك دكتوراه ، وفي أعلى مـن دكتوراه ، دكتوراه دولة، وفي أعلى من دكتوراه دولة أن يمنح بعض الألقاب العلمية الخاصة جداً.

فإذا بلغ المؤمن ذروة الإيمان يجتبيه ا عز وجل ، ويصطفيه ويجذبه إليه ، المقياس عنـد ا دقيق جداً ، يعني لا يمكن أن يجتبي مؤمناً إلا إذا كان كاملاً ، إلا إذا كان مخلصاً ، إلا إذا كان ورعاً ، إلا إذا كان مستقيماً ، إلا إذا كان محباً ، إلا إذا كان منضبطاً ، إلا إذا كان محسناً إلا إذا كان منصفاً ، إلا إذا كان رحيماً ، مرتبة عالية جداً أن يجتبيك ا عز وجـل ، ورد في بعض الأحاديث أنه إذا أحب ا عبده ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، فإن شكر اقتناه .

قال صاحب المدارج : و قد استبد الأنبياء عليهم السلام بهذه المنزلة، احتكروها ، وكـادوا أن يحتكروها ، وشغلوا محلها وفناءها إلا حيزاً قليلاً جداً أخلاه ا تعالى ، ووقفه ، وادخره ، ليهبه ثلة من المؤمنين، في كل جيل يصدقونه الحب ، فيحبهم ، ويريدونه فيريدهم من أحبنـا أحببناه، ومن طلب منا أعطيناه ، ومن اكتفى بنا عن مالنا ، كنا له ومالنا .

مراتب محبة ا عز وجل مراتب عالية جداً ، وهذا الحب يحتاج إلـى دليـل وا سـبحانه وتعالى لم يقبل دعوة محبته من دون دليل قال :

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾

(سورة آل عمران : ٣١) .

دعوة المحبة تحتاج إلى دليل ، و أن تحب ا عز وجل هذه أعلى مرتبة تنالها في حياتك ، وا مرة سمعت أحد الدعاة في عقد قران يذكر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم حينما قال : وا يا معاذ إني لأحبك وا ما رأيت في الأرض من آدم إلى يوم القيامة مرتبة أعلى من هذه المرتبة، أن يحبك رسول ا ، ومحبة رسول ا عين محبة ا ، ومحبة ا تترجم بمحبة رسول ا ، والدليل قوله تعالى :

وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ

(سورة التوبة : ٦٢) .

بضمير المفرد ، قال علماء التفسير : إرضاء رسول ا عين إرضاء ا ، و إرضاء ا عين إرضاء رسول ا ، وبالمقابل محبة رسول ا لك عين محبة ا لك ، ومحبة ا لك عين محبة رسول ا .

كنت أضرب مثلاً ، أن الداعية الصادق ، أو ولي ا عز وجل الذين قال ا عنهم :

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

(سورة يونس : ٦٢ ـ ٦٣) .

هذا الولي يشبه لوحاً من البلور المتقن لشدة صفائه ، ونظافته ودقة صنعه ، لا تراه أبداً ، ترى ما خلفه ، إذا اجتزت ممشى بابه بلور نظيف نظافة بالغة تظن الممشى سالكاً لا باب يحجزه ، لشدة صفاء البلور ونقائه واستقامته واستوائه ، كأنه غير موجود ، و يجب أن نعلم علم اليقين أن النبي عليه الصلاة والسلام لشدة اتصاله با وإنكاره لذاته، كل أقواله وأفعاله تعبر عن الحقيقة ، لا عن ذاته ، عن الحقيقة .

إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ

(سورة الأنعام : ٥٠) .

لذاك في آخر الزمان قال ا عز وجل :

وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾

(سورة الواقعة : ١٠ ـ ١٤) .

قلة ، هذا الذي اختار ا ورسوله ، سيدنا الصديق خرج من ماله خمس مرات ، كلياً ، قال يا أبا بكر ماذا أبقيت ، قال : ا ورسوله إذا الإنسان وصل إلى محبة ا ، وإلى القرب منـه ، ما فاته من الدنيا شيء، يا رب ماذا فقد من وجدك ، وماذا وجد من فقدك .

من اجتباء الأنبياء أن ا تعالى ألقى إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم كتابه ، اجتباه بهـذا الكتاب ، وخصه بكرامته ، وأهله لحمل رسالته ، وأنعم عليه بنبوته ، من غير أن يكون ذلـك منه على رجاء هنا في نقطة دقيقة جداً يجب أن توضح ، النبوة هبة من ا ، لكن بلا سبب ؟ بلا مؤهلات ؟ مستحيل ، والدليل :

۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ

(سورة آل عمران : ٣٣) .

لماذا اصطفاهم ، في بالنبوة جانب وهبي .

يعني لما الدولة تعين سفيراً تعطيه جواز سفر دبلوماسي ، تعطيه حقيبة ممنوع فتحها ، تعطيه مبالغ طائلة ينفقها بمعرفته ، بحكمته ، في تلك البلاد ، تعطيه كتاباً اعتماد ، يقدمه لرئيس البلد الذي سيعمل فيه حتى تعطيه جهاز اتصال ماله علاقة بشبكة الهواتف هناك ، هذه الميـزات كلها يأخذها السفير هبة ، لكن السؤال ، كيف اختير هذا السفير ؟ من عامـة النـاس ؟ مـن صفوف الجهلة ؟ من صفوف الأغبياء ؟ مستحيل ، في اصطفاء لعلـم ، لثقافـة ، لخبـرة ، لحنكة ، لتفوق دراسي لطلاقه في اللسان، لقوة في شخصيته ، لوسامة في منظره ، لعراقـة في نسبه ، هذا يمثل أمة ، أضرب مثالاً لأوضح لكم توضيحاً فقط ، إذا قلنا فلان سفير هـذه الدولة ، يعني في ملكات خاصة فيه ، ذكائه الفطري ذكائه التحصيلي ، ذكائه الاجتماعي ، مع طلاقة لسانه ، مع إتقانه لعدة لغات ، مع أصالته ، مع حسن سياسته ، مع حكمته مـع افقـه الواسع ، مع حسن تخلصه بالمواقف الحرجة ، هذه كلها صفات فيه من أجلها اختارته الدولة، ومن بعد أن اختير لهذه المهمة يعطى جواز السفر الدبلوماسي يعطى الحقيبة الدبلوماسـية ، يعطى الاتصال المباشر ، يعطى المبالغ الطائلة .

ففي جانب كسبي ، وفي جانب وهبي ، وهذا ما أراه وا أعلم أن في النبوة جانبـاً كسـبياً ، وجانباً وهبياً ، الرسالة هبة من ا ، والنبوة هبة ، والكتاب هبة ، والمعجزات هبة ، والعصمة هبة ، أما من النبي الحب ، والإخلاص ، ومجاهدة النفس والهوى ، وإنكار الـذات ، وحـب الخلق، وخدمة الخلق ، لذلك :

وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

(سورة القصص : ٨٦) .

طبعاً النبي ما أراد أن يكون نبياً ، ولكن تفتت كبده واحترق قلبه على ضلال النـاس ، فلمـا أرسله ا نبياً ، وحمله الرسالة انشرح صدره، لأنه رأى الطريق إلى هداية الخلق .

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾

(سورة الشرح : ١ ـ ٤) .

في آية قرآنية ، يقول ا عز وجل مخاطباً سيدنا موسى عليه السلام :

وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾

(سورة طه : ٤١) .

يجب أن تهتز مشاعرك إذا قرأت هذه الآية ، ا عز وجل يختص أناسـاً لخدمـة الخلـق ، إمكاناته ، قدراته ، وحركاته ، وسكناته وليله ، ونهاره ، وماله ، وعضـلاته ، وخبرتـه ، وعلمه ، في سبيل ا نذر نفسه ليكون في خدمة الخلق لعل ا يرضى عنه ، فهنـاك مـن يعمل هذا.

و منها أنه اصطفى موسى واستخلصه لنفسه ، يعني حينما قال ا عز وجل لسـيدنا موسـى حينما كلمه :

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾

(سورة طه : ١٧) .

وا سؤال يحير ، أيعقل أن ا عز وجل لا يعلم ما بيمينه ؟ لماذا يسأله ؟ لما سأل ا عـز وجل سيدنا موسى طار فرحاً ، أراد أن يطيل الجواب كي ينعم بهذا الكلام مع ا عز وجـل قال :

قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾

(سورة طه : ١٨) .

ثم استحى ، قال : " ولي فيها مآرب أخرى " يعني يارب إن سمحت لي أن أتابع سـأتابع ، و تقول لي يا موسى وما هذه المآرب لكن الذي حصل أن ا أراد أن يلفت نظر هـذا النبـي الكريم إلى أن هذه التي بيدك عصا ، انتبه ، دقق ، بعد حين سوف تكون حية ، حينمـا كـان وحده جعلها ا حية تسعى ، أما حينما كان مع السحرة ، وبين جمهور غفير والإنسـان مـع الناس يستأنس :

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾

(سورة الأعراف : ١٠٧) .

" فإذا هي ثعبان مبين " ، ثم يقول ا عز وجل :

إِنَّنِي أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

(سورة طه : ١٤ ـ ١٦) .

يعني الإنسان يخاطب من قبل خالق الأكوان " إنني أنا ا لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصـلاة لذكري " هذا اجتباء أن يكلمك ا عز وجل طبعاً للأنبياء فقط ، هذا اجتبـاء ، أن يؤتيـك ا المعجزات ، هذا اجتباء أن يؤتيك ا ذاكرة لا تنسى .

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ

(سورة الأعلى : ٦ ـ ٧) .

هذا اجتباء الأنبياء ، اجتباهم بالنبوة ، واجتباهم بالرسالة واجتباهم بـالمعجزات ، واجتبـاهم بالكتاب، واجتباهم بالدعاء المستجاب واجتباهم بالنصر ، النبي يقينه بالنصر كيقينه بوجوده ، والدليل : حينما وصل كفار قريش إلى غار ثور قال سيدنا الصديق : يا رسول ا لقد رأونا ، قال يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى :

﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

(سورة الأعراف : ١٩٨) .

وحينما كان في الهجرة وأهدر دمه ، ووضعت ألف ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتـاً ، وتبعـه سراقة ليقتله ، قال يا سراقة كيف بك إذا لبست سواري كسرى ، واثق مـن النصـر عليـه الصلاة والسلام، وحينما عاد من مكة إلى الطائف وقد خذله أهلها ، وكفروا بدعوته ، وسخروا منه وبالغوا في إيذائه ، قال له سيدنا زيد : كيف تعود إلى مكة وقد أخرجتـك فقـال عليـه الصلاة والسلام : إن ا ناصر نبيه .
أيها الإخوة ... هذا الاجتباء ، لو أردنا أن ننزل قليلاً ، اجتباء الأنبياء ، النبـوة والرسـالة ، والمعجزة ، والكتاب ، والنصر ، والفطنة ، وما إلى ذلك اجتباء الأولياء توفق في دعوتـك ، يجعل ا في قلوب الخلق محبتك .

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾

(سورة طه : ٣٩) .

إذا أخلصت جعل ا قلوب المؤمنين تهفو إليك ، بالمودة والرحمة ، وإذا لم تكن على مـا ينبغي ألقى ا في قلب الخلق بغضك أحياناً تجد إنساناً محبوباً جداً ، وآخر غير محبوب ، هذه المحبة من خلق ا عز وجل " وألقيت عليك محبة مني " .

﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة طه : ٤١ ـ ٤٢) .

ربنا عز وجل اصطفى سيدنا موسى واستخلصه لنفسه ، وجعله خالصاً له من غير سبب كان لموسى ، ولا وسيلة ، لكن بأهلية حتى تكون دقيقاً ، من غير سبب منه ، ولا وسـيلة ، لكـن بأهلية، فإنه خرج ليقتبس النار فخرج يقتبس النار فرجع وهو كليم الواحد القهار ، لذلك قالوا :
كن لي ما لا ترجو أرجى لما ترجو ، إنسان أصابه البرد الشديد رأى عن بعد ناراً فقال :

لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى
١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ
إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ
١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤

(سورة طه : ١٠ ـ ١٤) .

هو ذهب ليأخذ قبساً من النار ، فكان كليم الواحد الديان ، هذا الشيء بحياة المـؤمنين وارد ، سافر إلى بلد للتجارة يهتدي بهذه البلدة على يد أحد العلماء لينتقل من حال إلى حال ، وأحياناً لأسباب صغيرة جداً ، فالإنسان ينبغي أن يرجو رحمة الله ، كن لي ما لا ترجو أرجى منـك لما ترجو ، وسيدنا موسى أكبر شاهد ، يعني الله عز وجل جعله كليمه ، مع أنه كـان ذاهبـاً ليأخذ قبساً من النار ، بعضهم قال أيها العبد :

أيها العبد كن لما لست ترجو صلاح
مـن صلاح أرجى لما أنت راجِ
إن موسـى أتى ليقبـس نـاراً
مـن ضياء رآه والليـل داجـن
فانـثنى راجعاً وقـد كلمـه الله
ونـاجـاه وهـو خيـر منـاجِ

*   *   *

يعني لا تعلم متى الله عز وجل يفتح عليك ، كن ملازماً لأسباب الفتح ، عرض نفسك لرحمة الله ، لا تدري متى يفتح الله عليك أخذه من نفسه ، واصطنعه لنفسـه ، واختـاره مـن بـين العالمين وخصه بكلامه .

قال والأنبياء عليهم السلام يتفاوتون في ذلك تفاوت أتباعهم فمن ذلك قصة موسى حين ألقـى الألواح ، وجر بلحية أخيه وهو نبي مثله ولم يعاتبه الله على ذلك ، كما عاتب آدم عليه السلام في أكل لقمة من الشجرة، يعني أحياناً يكون الدافع نبيلاً جداً ، وقد يرتكب خطأً ووراءه هـذا الدافع النبيل فالله عز وجل طليق الإرادة قد يعفو ، يعني قد يقدر هذا الدافع النبيل، أما لعامـة المؤمنين العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً وصواباً ، خالصاً ما ابتغي به وجه الله ، وصـواباً ما وافق السنة.

الآن غير الأنبياء كيف يجتبون ؟ قال من أنواع الاجتبـاء لهـم أن يعصـم ا عبـده وهـو مستشرف للجفاء اضطراراً لتنغيص الشهوات ، وتعويق الملاذ ، وسد مسالك العطـب عليـه إكراماً .

المؤمنون درجة ثانية ماشي بطريق غلط ، يريد شيئاً لا يرقى به عند ا فربنا عـز وجـل يفسد عليه هدفه ، وهذا الإفساد لهدفه من الاجتباء، له عمل بالتعليم ، تمنى مـثلاً أن يكـون مضيفاً بالطائرة ، هو يطير ، يوم بدمشق ، يوم بلندن ، يوم بباريس ، في جو غير مريح دنياً أحياناً ، يعني في تفلت في العواصم الأجنبية ، بالفنادق فربنا عز وجل لم يسمح له بذلك أفسد عليه خطته ، هذا اجتباء ، خاف عليه من الهبوط ، فلم يسمح له أن يصل إلى هدفـه ، هـذا اجتباء ، أن يعصم ا عبده وهو مستشرف للجفاء اضطراراً لتنغيص الشـهوات ، وتعويـق الملاذ ، وسد مسالك العطب عليه ، إنسان ماشي بطريق يؤدي به إلى غلط ، فعندما أغلق ا عليه هذا الطريق ، فقد اجتباه .

تفصيل آخر : العبد الصادق إذا استشرفت نفسه للجفاء بينه وبين ا تعالى ، يعني بدأ بعمـل يوسع الهوة بينه وبين ا تعالى ، بدأ بعمل يبعده عن ا تعالى ، بدأ بعمل يحجبـه عـن ا تعالى ، بدأ بعمل لا يرضي ا تعالى ، فقال إذا استشرفت نفسه للجفاء بينه وبين ا تعـالى كيف ؟ بموافقة شهواته في لحظة غفلة عصمه ا اضطراراً ، بـأن يـنغص عليـه بعـض الشهوات .

حدثني أخ ذاهب إلى مكان ليأخذ قسطاً من المتعة ، وما عنده ورع زائد ، فشعر بـآلام فـي ظهره فسأل الطبيب قال له وا ورم خبيث بالنخاع الشوكي ، فارتمى أرضاً ، وقطع رحلته ، وعاد إلى بلده ليصطلح مع ا فا عز وجل نغص عليه هذه الرحلة بهذا الخبـر السـيء ، وبعد أن استقر به المقام في بلده ، وبعد أن اصطلح مع ا تبين أن التشخيص لم يكن صحيحاً .

اجتباه ، وحفظه ، عصمه ، إذا واحد حرم من شيء لا يصب نقمته على إنسان ، لعل ا عز وجل لا يريد هذا المسعى ولا هذا المسلك ، ولا هذا الطريق ، ولا هذه التجـارة ، ولا هـذا السفر ، ولا هذه الدراسة ، ولا هذا اللقاء ، ولا هذا الاحتفال ، طبعاً اجتباء الأنبيـاء بـالنبوة، والرسالة ، والكتاب ، والمعجزة ، والكرامة ، أما اجتباء المؤمنين ، أحياناً بتنغيص أهـدافهم التي لا تقربهم من ا عز وجل .

أيها الإخوة الكرام ... النبي عليه الصلاة والسلام أكمل من اجتباه ا عز وجل من الأنبياء ، لقد أقسم بعمره الثمين ، فقال تعالى :

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

(سورة الحجر : ٧٢) .

سيدنا موسى كان في مظهر الجلال ، ولهذا كانت شريعته شريعة جلال وقهر ، وكان من أعظم خلق ا هيبة ووقاراً ، وأشدهم بأساً وغضباً تعالى ، وبطشاً بأعداء ا ، وكان سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام في مظهر الجمال ، وكانت شريعته شريعة فضل وإحسان ، فكان لا يقاتل ، بل إنه يحرم في دينه القتال ، والإنجيل يأمرهم من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، ومن نازعك ثوبك أعطه رداءك ، ومن سخرك ميلاً فامش معه ميلين ، أما نبينا عليه الصلاة والسلام فكان في مظهر الكمال ، في جلال ، وفي جمال والكمال يجمع بينهما.

وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾

(سورة الشورى : ٤٠) .

فقد جمع بين قوة العدل وقوة الإحسان ، جمع بين اللين والرأفة والرحمة ، وبين القوة والبأس والعزة ، فهو نبي الكمال ، وشريعته شريعة الكمال ، وأمته أكمل الأمم ، أمته إن استجابت عز وجل فهي أكمل الأمم، وإن لم تستجب فهي كأي أمة أخرى ، لا ميزة لها إطلاقاً .

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ

(سورة المائدة : ١٨) .

وأحوال أمته ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات ، لذلك اتصفت شريعته إيجاباً له وفرضاً ، وبالفضل ندباً له واستحباباً ، العدل قسري والإحسان طوعي ، هكذا شريعة الكمال ، والشدة في موضع الشدة .

وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا

رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ

(سورة النور : ٢) .

واللين في موضع اللين .

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾

(سورة آل عمران : ١٥٩) .

﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾

(سورة فصلت : ٣٤) .

وضع السيف في موضعه ، ووضع الندى في موضعه ، يذكر هذا الدين العظيم الظلم ويحرمه ، ويذكر العدل ويوجبه ، ويذكر الفضل ويندب إليه " وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على ا " هذا فضل " إنه لا يحب الظالمين " هذا تحريم للظلم ، لكن :

﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾

(سورة النحل : ١٢٦) .

هذا إيجاب للعدل ، شريعة وسطية ، متوازنة ، متماسكة متكاملة " ولئن صبرتم لهو خيـر للصابرين " ندب إلى الصبر .

﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾

(سورة البقرة : ٢٧٩) .

لك أن تأخذ رأس مالك إذا كنت قد أخطأت في الربا .

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٨٠﴾

(سورة البقرة : ٢٨٠) .

أيها الإخوة الكرام ... أمة محمد صلى الله عليه وسلم أمة كاملة في الأصل ، وشريعتها كاملة ، و نبيها سيد الأنبياء والمرسلين ، هذا إن استجابوا والرسول أما إن لم يستجيبوا شـأنهم كأية أمة أخرى ، حرم عليهم كل خبيث وضار أباح لهم كل طيب ونافع ، فتحريمـه علـيهم رحمة، وعلى من قبلهم لم يخلو من عقوبة .

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾

(سورة النساء : ١٦٠) .

ا   حرم على اليهود الطيبات ، لأنهم ظلموا ، أما عندنا في شريعتنا ما حُرم علينا إلا الخبائث و أحلت لنا الطيبات .

قال بعض العلماء : كان لهذه الأمة العظيمة من المحاسن ما فرقه في الأمم قبلهم ، كما كمـل لنبيهم من المحاسن ما فرقه بين الأنبياء قبله وكمل لهم من المحاسن ما فرقها في الكتب قبلـه ، وهذه هي شريعته ، ثم في النهاية أمة محمد صلى الله عليه وسلم التي استجابت   اجتباهـا ا   .

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

(سورة الحج : ٧٨) .

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾

(سورة البقرة : ١٤٣) .

أيها الإخوة ... مرتبة الاجتباء مثل ما بدأت الدرس إذا في شيء اسمه وثيقة تحصيل ، إتمـام مرحلة ابتدائية ، أقل شهادة في بلدنا ، بعدها إعدادي ثانوي ، جامعة ، دبلوم عـام ، دبلـوم خاص، ماجستير دكتوراه   دكتوراه دولة ، بعدين في مراتب علمية عالية جداً ، جائزة نوبـل مثلاً أو بورد، أو إف آر إس ، أكريجه ، هذه كلها مراتب تفوق الدكتوراه .

لاجتباء مرتبة عالية جداً يعني لا يصل إليها إلا من بلغ قمة الإيمان، إلا من بلغ ذروة الإيمان ، وإذا وصلت إلى هذه المرتبة فحدث ولا حرج عن دعائك المستجاب وعن توفيق ا   لـك ، وعن إجراء الخير على يديك ، وعن القرب من ا   عز وجل ، هذا الذي وصل إلى ا   عـ ز وجل وصل إلى كل شيء .

فليتك تحـ ـلـو والحياة مـريرة

وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيـني وبيـنك عامر

وبيني وبـين العالمـين خـراب

إذا صح منك الوصل فالكل هين

وكل الذي فـوق التراب تراب

* * *

والإنسان أيها الإخوة إذا طلب الاجتباء نجا ، أما إذا طلب النجاة لا ينجو ، كالطالب تمامـاً إذا طلب التفوق ينجح ، أما إذا طلب النجاح فقط في الأعم الأغلب لا يـنجح ، يقـول : يكفينـي خمسين درجة يكفيني أربعين درجة، يكفيني أخذ مساعدة ، هنا يصبح في ترميم للعلامة ، هنا في مساعدة عامة لا ينجح ، إذا متعلق بالوسط لا ينجح ، أما إذا أراد التفوق قد ينجح ، فنحن إذا طلبنا الاجتباء لعلنا ننجو من عذاب ا عز وجل .

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ؛ مع الدرس السادس و الستين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد و إياك نستعين ، و المنزلة اليوم استئناف التوبة .

قد يتوهم الإنسان أن المؤمن يتوب في حياته مرة واحدة ، و الحقيقة إن المؤمن كثير التوبة أي يتوب عند كل ذنب وقع فيه ، و في كل وقت و في كل مرحلة من مراحل حياته حتى في نهاية حياته يتوب إلى ا تعالى ، كل هذا استنباطا من قوله تعالى :

لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

[سورة التوبة]

فالتوبة شيء و استئناف التوبة شيء آخر .

الإنسان لماذا يتوب ؟ و قد يسأل سائل لماذا تستغفر ا َ عقب الصلاة النبي عليـه الصـلاة والسلام عقب الصلوات الخمس كان يستغفر ا عزوجل ، قال بعض العلماء : الإنسـان فـي أثناء الصلاة لعله سها ، لعله جاءه خاطر لا علاقة له بالصلاة ، لعله قصر في الركوع ، لعله في السجود لم يكن ساجدا بقلبه قبل جسمه ، أي تقصير في الصلاة يرمم بالاسـتغفار عقـب الصلاة ، وأي مؤمن وفى ربه حقه ؟ ا عزوجل أثنى على بعض الأنبياء و علـى رأسـهم سيدنا إبراهيم ، قال تعالى :

وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾

[سورة النجم]

و لكن أنا كمؤمن هل وفيت ؟ هل أديت حقوق ا عزوجل كاملة ؟ هل قدرت ا َ حق قدره ؟ هل كان اتصالي به اتصالا محكما مكثفا مركزا ؟ هل مع كان الاتصال شرود ؟ هل كان مـع الاستقامة عوج ؟ من هذا الذي أدى كل ما عليه ؟! من هذا الذي وصل إلى نهاية العبوديـة عزوجل ؟ ما دام الإنسان مقصر فعليه ان يتابع التوبة ، ا عزوجل يقول :

وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾

[سورة النساء]

لذلك قالوا : من منازل إياك نعبد و إياك نستعين منزلة استئناف التوبة وهو تمكن يؤدي إلى استئناف التوبة من التقصير الذي رافق نزول المنازل السابقة و جمع القلب على المعبود وحده ، أي المنازل السابقة إذا كان فيها تقصير فلا بد من استئناف التوبة .

قال : من مبررات استئناف التوبة حض الهمة على تنفيذ أوامر الله في الخلق دعوةً و جهادا ، هل أديت الواجب الدعوي تماما ؟ و هل جاهدت في الله حق الجهاد ؟

التوبة قال بعض العلماء : كما أنها بداية منازل السائرين و أول مدارج السالكين فإنها نهايةُ هؤلاء أيضا ، كما أنها بداية منازل السائرين و أول مدارج السالكين ، هي في الحقيقة نهاية هذه المنازل ، و لعل الإنسان ينفر من هذا غاية النفور ، و يقول : هذا كلام من لم يعرف شيئا في طريق القوم ، و لا نزل في منازل الطريق ، و لعمر الله إن كثيرا من الناس ليوافقك على هذا ويقول : أين كنا ، أي إذا واحد يحمل دكتوراه سألته أنت : هل تقرأ و تكتب ؟ طبعا سؤال غير مقبول و غير معقول ، و مرفوض ، ما هذا السؤال ؟ أنا أحمل دكتوراه ، كيف أقرأ و أكتب ؟ شيء بديهي ، و لو قلت له : هل تقرأ ما بين السطور ؟ اختلف السؤال ، هل عندك الإمكان أن تستنبط ما بين السطور ، البواعث و الخلفيات و الملابسات ، نريد نحن أن نفهم النص فهما عميقا جدا ، مثلا الله عزوجل أنزل سورة :

إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾

[سورة النصر]

النبي عليه الصلاة و السلام فهم هذه السورة على أنها نعوتُه ، إنها نعوةُ النبي و الأنبياء هممهم عالية جدا ، مقاصدهم نبيلة جدا ، أهدافهم كبيرة جدا ، فإذا حققوا أهدافهم فلا معنى لحياتهم :

إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾

[سورة النصر]

فالنبي عليه الصلاة و السلام رأى في هذه السورة نعوته ، و سيدنا ابن عباس كان يحبه عمر كثيرا ، فكان يدخل على أشياخ الصحابة ، شعر أنهم تألموا فسألهم عـن هـذه السـورة فلـم يفهموها كما فهمها ابن عباس قال :" إنها نعوة النبي عليه الصلاة و السلام" فأنت حينما تسأل إنسانا هل تقرأ ؟ أحمل دكتوراه في الآداب ، ما هذا السؤال ؟ المقصود : هل تقرأ مـا بـين السطور ؟ هل تفهم النص فهما عميقا ؟ أين كنا ، أين صرنا نحن قد قطعنا منزلة التوبـة ، و بيننا و بينها مائة عام ، فنرجع من مائة مقام إليها و نجعلها غاية مدارج السـالكين ، الحقيقـة نقول لهذا السائل المنكر: أن تكون التوبة نهاية مدارج السالكين ، أن تكون التوبة نهاية آمـال المؤمنين نقول له : لا تعجل بالإنكار و لا تبادر بالرد و افتح ذهنك لمعرفة نفسك ، و حقوق ربك ، و ما ينبغي لك منه ، و ما له من الحق عليك ثم انسب أعمالـك و أحوالـك و تلـك المنازل التي نزلتها و المقامات التي كنت فيها و بنا إلى عظيم جلاله ، أنسب هذه الأعمال إلى عظيم جلاله ، وما يستحقه و ما هو أهل فإن رأيتها وافية لذلك مكافئة له فلا حاجة لـك حينئذ إلى التوبة ، و الرجوع إليها رجوع عن المقامات العلية.

تعليق الآن ؛ أنت وفيت ا َ حقه ، هل كنت تائبا حقيقة ؟ هل كنت مستقيما حقيقـة ؟ هـل كنت مع ا في صلواتك حقيقة ؟ هذه المنازل التي نزلتها وفيتها حقها ؟ هل أديت كـل مـا عليك ، إن كنت كذلك فلا حاجة لك إلى استئناف التوبة .

قال : إذا كان هناك تقصير و هناك أحيانا إعجاب ، مع عظيم جلال ا أي عمل لا يعـد شيئا أمامه ، لذلك النبي عليه الصلاة و السلام حينما قال ،عن أَبِي هريرةَ قَالَ سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقُولُ: لَن يدخلَ أَحدا عملُه الْجنةَ قَالُوا ولَا أَنْتَ يا رسولَ الله قَالَ لَا ولَا أَنَا إِلَّا أَن يتَغَمدني الله بِفَضلٍ ورحمة فَسددوا وقَارِبوا ولَا يتَمنين أَحدكُم الْمـوتَ إِمـا محسنًا فَلَعله أَن يزداد خَيرا وإِما مسيئًا فَلَعله أَن يستَعتب *

[رواه البخاري]

كيف ؟ عملك لا يكفي ، مثل بسيط للتوضيح ، أنت دفعت ثمن مفتـاح بيـت ، البيـت حقـه خمسون مليون ، دفعت ثمن مفتاحه ، و توهمتَ أنك دفعت ثمنه ، لا ، كل عملك فـي الـدنيا ،وكل طاعتك ، و كل عطاءك للخلق ، و كل جهادك و استشهادك لا يساوي ثمن مفتاح هذا البيت ، أما ابيت فهو فضل من ا عزوجل ، أنت قدمت السبب و لم تقدم الثمن أنا أستطيع أن أدخل بيتا بمفتاح ، و المفتاح سبب دخول البيت ، لكن هذا المفتاح الذي ثمنه عشرون ليرة لا يعد ثمنا لدخول البيت البيت غالي جدا ، فأعمال الإنسان في الدنيا لا تساوي سبب دخول الجنة قال تعالى :

ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ

بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾

[سورة النحل]

أي بسبب من عملكم الصالح ، دخلتم الجنة ، و لكن الجنة لم تدفعوا ثمنها إنما قدمتم سبب دخولها فقط ، إنها فضل من ا عزوجل .

إخواننا الكرام ، لو تعمقنا قليلا ، كل إنسان يرى أن عمله كاف لدخول الجنة فهو مغتر ، و قد يكون العملُ الصالح حجابا بينك و بين ا .

هناك أحد إخواننا كان يرأس جمعية خيرية ، فرجل من المحسنين قدم بيتا ليكون مقرا لنشاط طيب ، و نشاط فيه نفع للأمة ، أي مركز تأهيل الفتيات لحرفة تقيهن الفقر ، فقدم بيتا في حي من أحياء دمشق ذات السعر المرتفع ، أُقيم لهذ المحسن حفل تكريم ، لأنه قدم هذا البيت ، فأحد المتكلمين قال كلاما عميقا ، طبعا كلهم أثنى على هذا المحسن ، على كرمه و على جوده وعلى عمله الطيب ، إلا أن هذا الأخ قال لهذا المحسن : أيها الأخ الكريم كان من الممكن أن تكون أحد المنتفعين من جمعيتنا ، كان من الممكن أن تكون فقيرا ، و تأتي إلى هذه الجمعية كي نعطيك مساعدة شهرية ، و لكن ا كرمك فجعلك غنيا و قدمت هذا البيت ، فاشكر ا ، على أنه مكنك أن تفعل هذا العمل الطيب " فالإنسان أحيانا لضعف توحيده يتوهم أن عمله كاف لدخول الجنة ، لا هذا العمل سبب ، أما الجنة فهي فضل من ا عزوجل ، لا تنالها إلا بفضل ا ، عملك قد يكون سببا .

مثلا ، لو أن أبا قال لابنه : انجح بدرجة عالية و لك دراجة غالية جدا أغلى دراجة ، فهذا الابن لضيق أفقه لما نجح بدرجة عالية أخذ الجلاء و توجه إلى بائع الدراجات ، و انتقى أعلى دراجة و قال : اعطني هذه الدراجة و هذا هو الجلاء ، هل يعطيه إياها ؟ الأب سيدفع الثمن ، أما هذا فلا يعطيه إياها ، فالإنسان أحيانا و لو كان مستقيما و لو كان له عمل طيب قد يكون هذا العمل الطيب لضعف توحيده حجابا بينه و بين ا ، لذلك من مراتب الفناء أن تغيب عن شهود عملك الصالح ، و كل إنسان له عمل صالح ليشكر ا عزوجل ، فا ُ عزوجل سمح لك أن تكون محسنا ، و مكنك في الدنيا و أعطاك المال و أعطاك طلاقة اللسان و أعطاك علما تنفقه مما علمك ا ُ ، لذلك حينما تثني على إنسان أنت في الحقيقة لا تثني عليه ، و إنما تثني على الذي منحه هذه الميزات ما مدحك من مدحك إلا بما منحك ا فيك ، الذي مدحك، لولا أن ا منحك لم يمدحك بما منحك ، فالفضل لمن أعطاك ، و أنت تستقبل العطاء .

أيها الإخوة ؛ إن رأيت أضعاف أضعاف ما قمت به من صدق و إخلاص و إنابة و توكـل وزهد و عبادة ، إن أضعاف أضعاف ما قمت به من صدق و إخلاص و إنابة و توكل و زهد وعبادة لا يفي بأي حق له عليك و لا يكافئ نعمة من نعمه عندك ، و إنما يستحقه لجلالـه و عظمته أعظم و أجل و أكبر مما يقوم به الخلقُ ، لذلك أنت ينبغي أن تستأنف التوبة ، و أنا ما رأيت إنسانا معجبا بنفسه إلا وهو محجوب عن ا ، و الأنبياء الصادقون و الأولياء الكبـار هؤلاء كلما تفوقوا ازدادوا شعورا بفضل ا عزوجل ، و كلما ازدادوا تفوقـا كلمـا ازدادوا إحساسا بفضل ا عزوجل ، لذلك إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل و نسبه إليك ، ما مدحك من مدحك إنما يمدح من منحك ، الذي يمدحك لم يكن ليمدحك لـولا أن ا قـد منحك ، منحك شيئا ، و مكنك من شيء فاستحققت عند الخلق المديح ، أما عند ا فأنت مفتقر إليه ، لذلك إذا قرأت قوله تعالى:

وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

[سورة النساء]

اعلم أيها الأخ الكريم أن التوبة نهاية كل عارف و غاية كل سالك ، و كما انها لا بداية هي نهاية ، و الحاجة إليها في النهاية أشد من الحاجة إليها في البداية ، بل هي في النهاية في محل الضرورة ، أي في الإنسان لما ينجح ينتظره أخطبوط هو الغرور ، والغرور أكبر مرض في الناجحين في الحياة ، في كل المجالات ، والغرور شعور أنك أنت شيء كبير ،شيء عظـيم ، سيدنا عمر كان على المنبر يخطب ، قطع الخطبة و قال كلاما لا معنى له ،قال : يـا عمـر كنت راعي إبل ترعى إبل بني مخزوم على قراريط في مكة " ما علاقة هذا الكلام بالخطبة ؟ لم يفهم المسلمون هذا الكلام ، بعد انتهاء الخطبة سـأله أبو ذر الغفاري رحمه ا تعـالى و رضي ا عنه : يا أمير المؤمنين ما هذا الذي قلته على المنبر ؟ قال : جاءتني نفسي فقالت : ليس بينك و بين ا أحد " أي أنت نهاية المجتمع الإسـلامي ،أميـر المـؤمنين ، "أردت أن أعرفها قدرها "سيدنا عمر بن عبد العزيز طلب من أحد كبار العلماء أن يلازمه ، اسمه عمـر بن مزاحم قال له :" يا عمر إن رأيتني ضللت فأمسكني من تلابيبي وهزني هزا شديدا و قـل لي : اتق ا يا عمر فإنك ستموت " إذا الواحد من إخواننا الكرام اُ عزوجل وفقه في عمـل صالح في دعوة إلى ا والتف حوله الناس و استفادوا منه ، إذا كان اغتر و رأى هذا العمل من عمله و تفوق به ، فهو بعيد عن مقام التوحيد ، " ما مدحك من مدحك إلا بسبب من منحك " فالمديح عزوجل ، سيدنا الشافعي يقول : كلما ازددت علما ازددت علما بجهلي " لا تجـد عالما كبيرا إلا تراه متواضعا ، و لا تجد متكبرا إلا تراه جاهلا التكبر من صفات الجاهلين و التواضع من صفات العلماء ، فكلما تواضعت رفعك ، أما إذا ارتفعت وضعك ، سيدنا أبـو

حنيفة رأى طفلا أمام حفرة قال له : إياك يا غلام أن تسقط - فكان هذا الطفل نبيها قـال -: بل إياك يا إمام أن تسقط إني إن سقطت سقطت وحدي، و إنك إن سقطتَ سقط معك العالَم "

ا عزوجل خاطب رسوله الكريم في آخر حياته ، فقال له :

لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

[سورة التوبة]

أي الأخطار محدقة بالإنسان طوال حياته ، فكلما ازداد علما يزداد الخطر عليه ، لأن ا عزوجل قال :

وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾

[سورة الإسراء]

قد يقول أحدكم لِم لم يقل ا عزوجل : رب اجعلني صادقا ، لكن هناك تفاصيل دقيقـة ، قـد تدخل في عمل طيب صادقا ، و لا تخرج منه صادقا قد تؤسس عملا صالحا ، عمـلا طيبـا ،عملا إحسانيا ، إلى آخره ، قد تعمل عملا طيبا في بدايته و لا تستطيع أن تتابع ذلـك حتـى نهايته ، فلذلك أيها الإخوة العبرة أن تخرج صادقا ، العبرة أن تنتهي حياتـك بصـدق هنـاك أعمال كثيرة طيبة تبدأها صادقا ، و لا تنتهي منها صادقا ، ا عزوجل أنزل هذه الآيات بعد غزوة تبوك ، وهي آخر الغزوات التي غزاها صلى ا عليه و سلم بنفسه ، فجعل ا ُ سبحانه و تعالى التوبةَ عليهم شكرانا لما تقدم من تلك الأعمال و ذاك الجهاد ، و قال تعالى في آخر ما أنزل على رسوله:

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾

[سورة النصر]

في الصحيح أيها الإخوة

عن عائِشَةَ قَالَتْ ما رَأَيتُ النبِي صلى الله عليه وسلم مُنْذُ نَزَلَ عليه ِإذَا جـاء نَصـر اللـه والْفَتْح يصلي صلاةً ِإلا دعا َأو قَالَ فيها سبحانَك ربي وبِحمدك اللهم اغْفر ِلي*

[رواه مسلم]

كلما قرأ هذه السورة ، و كلما صلى صلاة كان يقول :

" **سبحانَك ربي وبِحمدك اللهم اغْفر ِلي** "

بعض الصحابة الكرام فهموا كسيدنا عمر بن الخطاب و سيدنا ابن عباس رضي ا عـنهم فهموا أن هذه السورة أجلُ رسول ا صلى ا عليه و سلم أعلمه ا إياه فامره ا سـبحانه بالاستغفار في نهاية أحواله و آخر ما سمع من كلامه صلى ا عليه و سلم عند انتقاله إلـى الرفيق الأعلى

عن عائِشَةَ قَالَتْ كَان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ِإذَا اشْتَكَى منا ِإنْسان مسحه بِيمينـه ثُم قَالَ َأذْهب الْباس رب الناس واشْف َأنْتَ الشافي لَا شفَاء ِإلا شفَاؤُك شفَاء لَا يغَادر سـقَما فَلَما مرِض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وثَقُلَ َأخَذْتُ بِيده ِلَأصنَع بِه نَحو ما كَان يصـنَع فَانْتَزع يده من يدي ثُم قَالَ اللهم اغْفر ِلي واجعلْني مع الرفيقِ الَْأعلَى قَالَتْ فَذَهبتُ َأنْظُر فَِإذَا هو قَد قَضى *

[رواه مسلم]

و كان عليه الصلاة و السلام يختم كل عمل صالح بالاستغفار، الصوم و الصلاة و الحج و الجهاد ، فإنه كان إذا فرغ منه أشرف على المدينة يقول،

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنْهما َأن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كَان ِإذَا قَفَلَ من غَزوٍ َأو حج َأو عمرة يكَبر علَى كُل شَرف من الَْأرضِ ثَلَاثَ تَكْبِيرات ثُم يقُولُ لَـا ِإلَه ِإلا الله وحده لَا شَرِيك لَه لَه الْملْك ولَه الْحمد وهو علَى كُل شَيء قَدير آيِبـون تَـاِئبون عابِدون ساجِدون ِلربنَا حامدون صدقَ الله وعده ونَصر عبده وهزم الَْأحزاب وحده *

[رواه البخاري]

كل عمل قد يكون فيه شيء ، تعليم لنا ، لعل في الصلاة تقصير ، لعل فـي الصـيام فيـه تقصير، و لعل في الحج تقصير ، لعل في هذه الصدقة أردتَ بها السمعة ، لا يوجد عمل من أعمال البر إلا قد يشوبه شيء فكان عليه الصلاة و السلام يستغفر ا عقب كل عبادة و عقب كل عمل صالح حتى الجهاد ، إلى أين يذهب النبي إلى ساحة الجهاد ، أعلى عبادة و الجـود بالنفس أقصى غاية الجود ، و مع ذلك حين العودة ،

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنْهما َأن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كَان ِإذَا قَفَلَ من غَزوٍ َأو حج َأو عمرة يكَبر علَى كُل شَرف من الَْأرضِ ثَلَاثَ تَكْبِيرات ثُم يقُولُ لَـا

إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده *

[رواه البخاري]

الإنسان بحاجة إلى ان يقبل عمله ، فإذا تاب الله عليك ، معنى ذلك أنه قبل عملك ، فكما أن الإنسان في حاجة إلى التوبة في أول حياته ، بل إن التوبة مفتتح عمله ، و مفتتح علاقته بالله عزوجل ، هو بحاجة ماسة إلى توبة في نهاية حياته كي يقبل عمله ، ما قيمة العمل إذا لم يقبل ، قال تعالى :

وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾

[سورة الفرقان]

و قال عليه الصلاة والسلام ،

عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأعلمن أقواما من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضا فيجعلها الله عز وجل هباء منثورا قال ثوبان يا رسول الله صفهم لنا جلهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم قال أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ويأخذون من الليل كما تأخذون ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها *

[رواه ابن ماجه]

و الله هذا الحديث يقسم الظهر ، الذي إذا خلا مع نفسه ينتهك حرمات الله ، و له سمعة طيبة جدا، هذا كل عمله لا قيمة له عند الله ، لعل الله عزوجل يجعله هباء منثورا ، فالإخلاص الإخلاص أيها الإخوة .

أيها الإخوة ؛ استئناف التوبة فيه تحقيق للعبودية ، لا يوجد إنسان " أنا وصلت إلى مكان عالٍ " و استغنى ، أنت عبد الله دائما ، في كل أحوالك أنت في حالة العبودية ، فاستئناف التوبة تحقيق العبودية و القيام بأعباء ها و احتمال فرائضها و سننها و أداءها ، و الجهاد لأعداء الله ، والدعوة إلى الله و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و تحمل الأذى من أمر الله معرفة الأسماء والصفات و معرفة ما يحبه الله و ما يكره و معرفة خير الخيرين ، و شر الشرين و العلم بمراتب العبودية و منازلها ، هذا كله مما يتحقق باستئناف التوبة .

درس اليوم دقيق ، أول شيء تفعله إذا أردت أن تصل إلى الله عليك أن تتوب ، لكن هذه التوبة يجب أن تلازمك إلى نهاية حياتك ، فالمؤمن كثير التوبة .

الله عزوجل شهد لإبراهيم الخليل صلوات الله و سلامه عليه ، شهد له بأنه وفى ، و أما سيد ولد آدم صلوات الله و سلامه عليه فإنه كمل مرتبة العبودية ، فاستحق التقديم على سائر الخلائق، فكان صاحب الوسيلة ، كان عليه الصلاة و السلام يقول ،

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاةً صلى الله عليه بها عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلةَ فإنها منزلةٌ في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلةَ حلتْ له الشفاعةُ *

[رواه مسلم]

فكان عليه الصلاة و السلام يقول : أنا لها ، ولهذا ذكره ا سبحانه و تعالى بالعبودية في أعلى مقاماته ، في أعلى مقام ناله النبي وصفه أنه عبد ، في أشرف أحواله ، وصف بأنه عبد فقال تعالى :

سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا

[سورة الإسراء]

و قال تعالى :

وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴿١٩﴾

[سورة الجن]

و قوله تعالى :

وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ

[سورة البقرة]

و في قوله :

تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾

[سورة الفرقان]

أيها الإخوة ؛ معنى ذلك أن ا عزوجل شهد لسيدنا إبراهيم خليل الرحمن أنه وفى ، و ذكر النبي في أشرف أحواله و مقاماته بأنه عبد و أنت لا تكون في حالة هي أرقى حالة على الإطلاق إبلا حينما تكون عبدا .

الحال الذي حصل لمن قام بذلك هو حال الأنبياء و الرسل و خلفاءهم هو جمع الهمة لمن قام بذلك ، محبة ا و الإنابة إليه و التوكل عليه و الخوف منه و رجاء رحمته و مراقبته و جمع الهمة على تنفيذ أوامر ا في الخلق دعوةً و جهادا ، فهما حالان ؛ جمع القلب على المعبود وحده و جمع الهم له على محض عبوديته ، هذا هو ما يعني استئناف التوبة .

أيها الإخوة نحن في مدارج السالكين في منازل إياك نعبد و إياك نستعين ، فكان القرآن كله جمع في الفاتحة ، و الفاتحة جمعت في :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ  ﴾

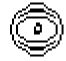
[سورة الفاتحة]

أي أنت مخلوق للعبودية ، يقول ا عزوجل :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾

[سورة الذاريات]

علة وجودك على سطح الأرض أن تعبد ا ، و العبادة كما كنت أقول دائما : هـي طاعـة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية أساسها معرفة يقينية تُفضي إلى سعادة أبديـة ، العبوديـة علـة وجودك ، و سبب وجودك و نهاية المطاف أن تكون عبدا ، قال تعالى :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ  ﴾

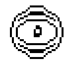
[سورة الفاتحة]

لو أن ا عزوجل قال : نعبد إياك ، هذا التركيـب لا يفيـد التخصـيص، و لاى القصـر و الحصر ، نعبد إياك ، و نعبد غيرك ، أما حينما قال ا عزوجل :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾

[سورة الفاتحة]

أي نعبدك وحدك ، لذلك ينبغي أن تعبد ا وحده وأن لا تعبد أحدا معه أما قوله تعالى :

﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ  ﴾

[سورة الفاتحة]

أنت مفتقر إليه ، أنت اك انى تطلب و لك أن تنبعث إلى العبادة ، و لكن ا عزوجل هو الذي يعينك على هذه العبادة :

﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٤﴾ ﴿٥﴾

[سورة الفاتحة]

العبادة الظاهرة ، عبادة الأعضاء و الجوارح ، و العبادة الباطنة عبادة القلب ، قال تعالى :

﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾

[سورة الزمر]

القلب عبادته الإخلاص ، و الجوارح عبادتها أن تنصاع إلى أمر ا تطبيقا .

و بالمناسبة ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمانك ان الأمر كله بيده فالتوحيد من لوازم العبودية ، لا يمكن أن تعبده إذا توهمت أن في الأرض جهة قوية مصيرك بيدها ، وهذا ما يحصل للناس كلهم الآن بضعف إيمانه و ضعف توحيده يرى أن هناك جهات قوية جدا بإمكانها أن تعطي أوتمنع ، أن ترفع أو أن تخفض ، فهذا الوهم يحول بينك و بين أن تعبد ا ، لذلك هناك من يعصي ا إرضاء للخاق ، من أرضى الناس بسخط ا سخط ا عنه و أسخط عليه الناس ، و من أرضى ا بسخط الناس رضي ا عنه و أرضى عنه الناس .

الشيء الثاني ؛ ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله بيده فا عزوجل ربط التوحيد مع العبودية ، لذلك قال :

﴿ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

[سورة الشعراء]

الشيء الثالث ، ما أمرك أن تستعين به إلا ليعينك و ما أمرك أن تدعوه إلا ليستجيب لك ، و ما أمرك أن تتوب إليه إلا ليتوب عليك ، و إلا كلام ا لا معنى له ، أمرك أن تتوب من أجل أن يتوب عليك لذلك قالوا : العبودية غاية الحب مع غاية الخضوع ، فمن أحب و لم يخضع ما عبد ا :

تعصي الإله و أنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيع

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

غاية الخضوع مع غاية الحب .

أيها الإخوة الكرام ، ا جل جلاله يحب التوابين و يحب المتطهرين و المؤمن مذنب تواب ، و التواب أي كثير التوبة ، وليس لنا إلا التوبة لو أن الإنسان زلت قدمه ماذا يفعل ، و لـ و أنه فعل الذنب االذي تاب منه قبل وقت ، ماذا يفعل ؟ ليس له إلا التوبة ، و لو أن ا أغلـ ق باب التوبة لهلك الخلقُ ، و لكن رحمة ا عزوجل تتمثل في دعوتنا إلى التوبة إليه قال تعالى :

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

[سورة الزمر]

لو جئتني بملء السماوات و الأرض خطايا غفرتها لك و لا أبالي ، قال تعالى :

﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

[سورة الحجر]

فليجعل المؤمن همه التوبة ، و لكن ا عزوجل وصف المؤمنين:

إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾

[سورة النساء]

لا يدعون مسافة زمنية طويلة بين الذنب و بين التوبة الإنسان إذا استمر على الذنب قسا قلبه و قد يصبح منافقا ، قال تعالى :

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ

[سورة التوبة]

فالعبرة في الإنسان أن يتوب من قريب و أن يكثر التوبة إلى ا عزوجل .

آخر مشكلة ؛ إنسان وقع في ذنب و تاب منه ، التوبة سهلة ، لو وقع فيه ثانية أصعب ، ماذا يفعل ؟ يضيق إلى التوبة عملا صالحا ، لقوله تعالى :

إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ

ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾

[سورة هود]

ففي المرة الثانية يفضل أن تدعم التوبة بعمل صالح ، بصدقة أو بصيام أوبعمل صالح معين ، العبرة أن تكون متابعا لأحوال قلبك ، قال تعالى :

يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾

[سورة الشعراء]

و الحمد رب العالمين .

*****

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ... مع الدرس السابع و الستين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والمنزلة اليوم استئناف التوحيد ، وفي الدرس الماضي كانت المنزلة استئناف التوبة ، واليوم استئناف التوحيد .

قد نفهم من هذا العنوان أن التوحيد مراتب لا تنتهي ، فكلما بلغت مرتبة ينبغي أن تطمح إلى مرتبة أعلى ، والإنسان حينما يجمد في الدين يصاب بمرض اسمه السأم ، إذا قـام إلـى الصلاة قام كسلانا ، هذه الفكرة قال : أنا أعرفها ، وهذه سمعتها ، السبب أنه بقي في مكانـه ثابتا ، أما لو طور نفسه ، و طمح إلى مرتبة أعلى ، كل مرتبة هي مرتبة فوقها مرتبة، فلذلك هذا الذي دفع مؤلف كتاب مدارج السالكين في منازل إياك نعبد و إياك نستعين ، إلـى إدراج هاتين المنزلتين ، استئناف التوبة ، واستئناف التوحيد .

أيها الإخوة ... التوحيد أولُ دعوة الرسل ، أول الدعوة ، و أول منازل الطريـق ، و أول مقام يقوم فيه السالك إلى ا تعالى ، الخطوة الأولى و الحركة الأولى ، و الـدرس الأول ، والكتاب الأول ، و السنة الأولى أول حركة تخطو بها إلى طريق ا عزوجل أن توحـده ، الأدلة: قال تعالى :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ

[سورة الأعراف]

توحيد ، و قال هودٌ لقومه

۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾

[سورة الأعراف]

وقال صالح لقومه :

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ

[سورة الأعراف]

وقال شعيب لقومه :

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ

[سورة الأعراف]

وقال تعالى :

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ

[سورة النحل]

وقال تعالى :

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

[سورة الأنبياء]

أول خطوة ، أول يوم من العام الدراسي .

التوحيد أيها الإخوة مفتاح دعوة الرسل ، لهذا قال النبي صلى ا عليه و سلم لسيدنا معاذ بن جبل رضي ا عنه ،

عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنْهما أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لما بعثَ معاذًا رضي الله عنْه على اليمنِ قالَ إنكَ تَقْدم على قومٍ أهلِ كتابٍ فلْيكُن أولَ ما تدعوهم إليه عبادةُ الله فإذَا عرفُوا الله فأخْبِرهم أن الله قد فرض عليهم خَمس صلَوات في يومهم وليلتهم فإذَا فعلُوا فأخْبِرهم أن الله فرض عليهم زكاةً من أموالِهم وترد على فُقرائِهم فإذَا أطَاعوا بِها فخُذْ منْهم وتَوق كرائِم أموال الناسِ *

[رواه البخاري]

بين معترضتين ؛ وإن كان هذا خروجا عن خط الدرس ، العلماء استنبطوا من هذا الحديث مبدأ الأولويات ، فإذَا عرفوا ا شهدوا أن لا إله إلا الله فأخْبِرهم أن الله قد فرض عليهم خَمس صلَوات في يومهم ولَيلَتهم فإذَا فعلُوا فأخْبِرهم أن الله فرض عليهم زكاةً من

أَموالِهم وتُرد على فُقَرائِهم أي ليس من المعقول أن تدخل بيتا فترى فيه صورة ، تقول لصاحب البيت وهو لا يصلي أساسا هذه الصورة حرام ، هناك تسلسل ، إذا آمن بالله ادعه إلى أن يصلي ، صلى ، ادعه إلى غض بصره ، ادعه إلى تحرير دخله ، فالإنسان قد يتلبس بآلاف المعاصي ، ينبغي أن تبدأ بتعريفه بالله بعدئذ تنتقل إلى المنهج فقرة فقرة ، أما إذا كان أصلُ العقيدة مهزوزا عنده ، إذا كان إيمانه بالله متضعضعا ، فما قيمة أن تذكر له تفاصيل الشريعة ، بعض الإخوة الكرام سامحهم الله بنية طيبة قد يجد صديقه وهو لا يصلي بيده خاتم ذهب ، يقول له : هذا حرام ، وهو فعلا حرام ..

عن أَبِي موسى الأَشْعرِي أَن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ :

"حرم لِباس الْحرِيرِ والذهبِ على ذُكُورِ أُمتي وأُحل لِإِنَاثهم "*

[رواه الترمذي]

طبيعي ، و لكن هذا بند من بنود الشرع يجب أن تعرفه بصاحب الشرع يجب أن تعرفه بالآمر ، أن تعرفه بالله بعدئذ هو يسألك عن أدق دقائق الشريعة ، و القاعدة التي أذكرها كثيرا " إن عرفته بالآمر قبل الأمر تفانى في طاعة الآمر ، أما إن عرفته بالأمر و لم تعرفه بالآمر تفنن في التفلت من هذا الأمر .

وقال عليه الصلاة و السلام عن ابنِ عمر أَن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ :

" أُمرتُ أَن أُقَاتلَ الناس حتى يشْهدوا أَن لا إِله إِلا الله وأَن محمدا رسولُ الله ويقيموا الصلاةَ ويؤْتُوا الزكَاةَ فَإِذَا فَعلُوا ذَلِك عصموا مني دماءهم وأَموالهم إِلا بِحق الإِسلامِ وحسابهم على الله"*

[رواه البخاري]

ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف أن يشهد أنه لا إله إلا الله ، و شيء آخر ، درسنا استئناف التوحيد ، إذن كما أن التوحيد أول ما يدخل به في الإسلام فإنه آخر ما يخرج به من الدنيا ، أول خطوة ، و آخر خطوة ، قبل الموت ، فقد قال عليه الصلاة والسلام،

عن معاذ بن جبلٍ قَالَ : قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم :

" من كَان آخر كَلامه لا إِله إِلا الله دخَلَ الْجنةَ "*

[رواه أبو داود]

أول مرحلة لا إله إلا الله و آخر مرحلة لا إله إلا الله فهو أول واجب وآخر واجب .

هناك موضوع دقيق جدا أرجو الله أن يمكنني أن أوضحه لكم قال بعض العلماء : مجرد تنزيه الله عن الحدث لا يدل على التوحيد ، وما معنى الحدث ؟ الشيء الحادث الذي سبقه عدم ، و ينتهي إلى عدم فما سوى الله حدث ، كان الله و لم يكن معه شيء ، فهذا الكون سبقه عدم ، فالكون كله حادث ، أي سبقه عدم ، و سينتهي إلى عدم ، قال تعالى :

ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾

[سورة التكوير]

إلى آخر الآيات ، الفرق الصارخ بين خالق الكون و بين الكون ، أن الله قديم ، ليس له بداية ، هو الأول و لا شيء قبله ، و هو الآخر و لا شيء بعده ، أزلي أبدي ، فالله عزوجل قديم و ما سواه حادث ، فإذا أنت قلت الله قديم ، أي هو الذي خلق العالم ، هل وحدته ؟ لا ، مجرد تنزيه الله عن الحدث ، أنت آمنت أنه قديم ، هو الذي خلق الكون ، هذا التنزيه لا يدل على التوحيد الذي بعث الله به رسله و أنزل به كتبه و ينجو به العبد من النار ، و يدخل به الجنة ، و يخرج من الشرك ، أن تؤمن أن الله قديم و ليس حادثا ، هذا الإيمان مشترك بين جميع الفرق كل من أقر بوجود الخالق سبحانه أقر به ، عباد الأصنام المجوس أهل الكتاب المشركون كلهم ينزهون الله عن الحدث ، يؤمنون أن الله قديم وهو خالق الكون ، يثبتون قدمه ، حتى أن أعظم الطوائف على الإطلاق شركا و كفرا وإلحادا إنهم يقولون : هو الله عزوجل صاحب الوجود المطلق ، هو قديم لم يزل منزهاً عن الحدث ، و لم تزل المحدثاتُ تكتسي من وجوده وتقوم بمدده أي أية فرقة و أية طائفة و أي دين أي جنس ، وأية ملة في الأرض تؤمن ان لهذا الكون خالقا عظيما ، خلقه ، هو قديم ، والكون حديث ، ليس هذا هو التوحيد ، حتى الفلاسفة هم أبعد الخلق عن الشرائع يثبتون واجب الوجود قديما و ممكن الوجود ، هذه عبارة فلسفية ، واجب الوجود و ممكن الوجود ، حتى عباد الأصنام الذين يعبدون معه آلهةً أخرى يقولون :

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ

[سورة الزمر]

فالإيمان بالله خالقا قديما كان و لم يكن معه شيء ، هذا قدر مشترك بين كل الملل و النحل، و ليس هذا هو التوحيد .

سئل أحد كبار العلماء عن التوحيد فقال: إفراد القديم عن المحـدث أي ا عزوجـل لا يكمن أن يحل بإنسان ، كائنا من كان ، فإذا حل القديم بالمحدث ، اختلطت الأوراقُ و فسـدت العقيدة ، ليس هناك ما يسمى بوحدة الوجود ، ماذا قال الحلاج ؟ قال :ليس في الجبـة إلا ا فقُتل، و الذي أفتى بقتله عالم كبير ، هذا كلام فيه زندقة ، ليس هناك وحدة الوجـود و لكـن هناك وحدة الشهود ، لك أن ترى ا من خلال خلقه ، لك أن ترى علمه من خلال خلقـه ، و لك أن ترى قدرته من خلال خلقه ، لك أن ترى حكمته من خلال خلقه ، هذه وحدة الشهود ، كل ما في الكون ينطق بوحدانية ا ، ينطق بجلال ا و ينطق بكمال ا ، ينطق برحمـة ا ينطق بعظمة ا ، هناك وحدة شهود و ليس هناك وحدة وجود ، أي أن ا عزوجل لا يمكـن أن يحل بإنسان ، و قول الحلاج : ليس في الجبة إلا ا " كلام مرفوض .

أيها الإخوة ... فرق قديمة تتوهم أن ا سبحانه و تعالى يحل في الصـورة الجميلـة المستحسنة ، و فرقة تزعم أن ا سبحانه و تعالى يحل في الكُمل من الناس ، هـؤلاء الـذين تجردت نفوسهم عن الشهوات واتصفوا بالفضائل و تنزهوا عن الرذائل وهناك من يـزعم أن ا حل في بعض الأنبياء ، فهذا كلام مرفوض رفضا قاطعا ، نحن يمكن أن نرى وحدة فـي الكون ، أن نرى لهذا الكون خالقا واحدا ، ربا واحدا مسيرا واحدا هناك وحدة و هناك تنوع ، فبرأي بعض العلماء أن تبعد القديم عن الحدث القديم لا يحل في المحدث ، العبد عبدٌ و الرب رب ، فكل من يزعم هناك كلمات قالها بعضهم لا أصل لها في الدين ، سبحاني ما أعظم ذاتي ، ا حل به فقال: " سبحاني ما أعظم ذاتي " هذا كلام مرفوض .

على كل نحن لا نتهم أحدا و لكن أمامنا كلام مرفوض ، كلام سأقوله لكم و لكنه دقيق ، إذا قرأت كتابا لبعض العلماء السابقين ، كلاما لا يتفق لا مع الكتاب و لا مع السنة ، فما الموقف الذي ينبغي أن تقفه ،أنت كباحث و كإنسان موضوعي ، طالب علم ، قرأت في كتـاب قـديم لبعض العلماء الكبار أو بعض الصوفيين كلاماً مرفوضاً من خلال الكتاب و السنة، ماذا تقول ؟ أنا أقول لكم : هناك أربعة احتمالات :

أول احتمـال : أن هذا الكلام ما قاله هذا العالم ، و قد دس عليه ، و إن شئتم هنـاك بحوث كثيرة حول ما دس على كبار علماء المسلمين ، دسوا تحت وسادة الإمام أحمد بن حنبل عقائد زائغة ، و دسوا على بعض العارفين با كلمات فيها زندقة ، ما قالوها أبـدا ، فـأول موقف لعل هذا الإنسان العالي العالم الجليل الذي عرف ا ً لا يمكن أن يقول هذا الكلام هـذا احتمال ، و هناك دليل ورد في كتاب الشعراني أن أحدهم اطلع على بعض كتب الشيخ محيي الدين رحمه ا تعالى فرأى فيه كلاما لا يقبل إطلاقا فذهب إلى بيت ا الحرام و التقى بعالم جليل من علماء مكة هكذا قرات أنا ، و أنقل لكم ما قرأت ، قال : فدخل هـذا العـالم إلـى

غرفته و أطلعني على كتاب " الفتوحات " بخط يد الشيخ محيي الدين ، فلم يجد فيه شيئا مما أسند إليه ، الكتاب بخط الشيخ محيي الدين، إذًا هناك احتمال أن هذا الكلام ما قاله هذا العالم .

الاحتمال الثاني : قاله ولكن لم يقصد المعنى الذي فهمته أنت منه على كل ينبغي أن نراعي سنة رسول ا صلى اله عليه وسلم في نقل العلم ، وقَالَ علي :

" حدثُوا الناس بِما يعرِفُون أَتُحبون أَن يكَذب الله ورسولُه " .

[رواه البخاري]

الذي يخاطب الناس بما لا يفهمون خالف سنة رسول ا صلى ا عليه وسلم ، و لكن كتب بعض الصوفيين الذين شطحوا محرمٌ أن تُقرأ ، لما فيها من مغالطات ، و ما فيها من شطحات فالاحتمال الثاني، أنه قال هذا الكلام وخالف سنة رسول ا لكن لم يقصد المعنى الذي فهمته أنت بعضهم كان يقول : كان يقف على كنز من الذهب فقال : معبودكم تحت قدمي ، هذا الذهب الذي تعبدونه أنتم من دون ا تحت قدمي هذا كلام ولكن لا ينبغي أن يقال ، قد يفهم فهما آخر ، و هذا مخالف للسنة مرة ثانية ، وقَالَ علي :

" حدثُوا الناس بِما يعرِفُون أَتُحبون أَن يكَذب الله ورسولُه " .

[رواه البخاري]

هناك احتمال ثالث : أنه قاله ثم تراجع عنه بعد حين ، لكن بعضهم علق تعليقا رائعا على كتاب فيه نزعة اعتزاليه ، في التفسير ، فقال : أن المؤلف تاب في أواخر حياته ، فقال : ولكن كشافه لم يتُب ، رجل أصدر فتوى بضغوط معينة ، أرضى بها من هم أكبر منه ، وهو على فراش الموت رفع يديه هكذا و قال : يا ربي أنا بريء من كل فتوى أفتيتها في المصارف ، هذا تُبت إلى ا فيما بينك وبين ا ، لكن الفتوى طُبِعت و عمل بها ، هناك إنسان أفتى فتوى ، وفي اليوم التالي دخل المصارف ثلاثة وثمانون مليار ، في بلد عربي ، على هذه الفتوى فإذا تاب هذا العالم بينه و بين ا قبل أن يموت ، فتواه مسجلة ومطبوعة ، وقد عمل بها ، فالاحتمال الثالث أنه قال هذا الكلام ثم راجع نفسه فرأى نفسه مخطئا فتراجع .

والاحتمال الرابع : أنه قاله و أخطأ و لم يتراجع ، فنقول : أخطأ لأن كل إنسان يؤخذ منهو يرد عليه إلا صاحب هذه القبة الخضراء ، ما جاءنا عن رسول ا عليه الصلاة و السلام فعلى العين والرأس ، وما جاءنا عن صحابته فعلى العين والرأس ، وما جاءنا عن التابعين فعلى العين و الرأس، لقول النبي عليه الصلاة و السلام ،

عن عبد الله رضي الله عنْه عن النبِي صلى الله عليه وسلم قَالَ :

" خَير الناس قَرني ثُم الذين يلُونَهم ثُم الذين يلُونَهم ثُم يجِيء أَقْوام تَسبِقُ شَهادةُ أَحدهم يمينَه ويمينُه شَهادتَه قَالَ إِبراهيم وكَانُوا يضرِبونَنَا على الشهادة والْعهد " *

[رواه البخاري]

فقد شـهد النبي عليه الصلاة و السلام بالخيرية للقرون الثلاثة ، فورد عنه :

" تسمعون و يسمع منكم و يسمع من يسمع منكم " .

فالاحتمال الرابع أنه اخطأ و نقول له بملء فمنا : قد أخطأت ، نحن عندنا القرآن و عندنا السنة .

عن جابِرِ بنِ عبدِ الله قالَ رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في حجته يوم عرفَةَ وهو على نَاقته الْقَصواء يخْطُب فَسمعتُه يقُولُ :

" يا أَيها الناس إِني قَد تَركْتُ فيكُم ما إِن أَخَذْتُم به لَن تَضلوا كتَاب الله وعتْرتي أَهلَ بيتي "*

[رواه الترمذي]

أنت مع نص قرآني ليس لك إلا أن تفهم النص ، لأنه قطعي الثبوت مع نص نبوي ينبغـي أن تتحقق من صحته لأن كلام النبي عليه الصلاة والسلام الذي وصلنا بعضه قطعي الثبـوت و بعضه ظني الثبوت ، مع النص النبوي ، لك عملان ؛ أن تتحقق من صـحته أولاً ثـم أن تفهمه ثانيا مع أي نص آخر غير نص النبي عليه الصلاة والسلام لك ثلاثة أعمال أن تتحقق من صحة نسبة هذا النص إلى صاحبه ، ثم أن تفهمه وفق ما أراد صاحبه ثم أن تقيسه بالكتاب والسنة ، فإن وافقه فعلى العين والرأس وإن خالفه لا نقبله ، هذا منهج البحث في الإسلام .

التوحيد أيها الإخوة إفراد القديم عن المحدث ، الرب رب و العبد عبدٌ تداخل لا يوجد ، أن ا حلَ بفلان مستحيل ، ليس في ديننا هذا الاعتقاد أبدا ، فقال : هذا الإفراد في الاعتقاد والخبر هو نوعان : إثباتُ مباينة الرب تعالى لمخلوقاته ، وعلوه فوق سبع سماواته كما نطقت به الكتب الإلهية ، من أولها إلى آخرها ، و كما أخبرت به جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم ، أي ليس كمثله شيء ، أي شيء خطَر ببالك فا ُ خلاف ذلك ، لا يشبهه أحـد ، و الشـيء الثاني : إفراده سبحانه بصفات كماله ، وإثباتها على وجه التفصيل كما أثبتها لنفسه ، وأثبتهـا له رسلُه ، منزهةً عن التعطيل والتحريف والتكييف والتمثيل والتشبيه ، وا ُ عز وجـل لـه صفات وله أسماء .

أيها الإخوة الكرام ... أن يتمايز عندك القديم والحديثُ ، ما سوى ا ِ محدث ، وا وحده قديم ، ولا يوجد أي تداخل بين ذات ا وبين مخلوقاته ، لكن هناك وحـدة الشـهود ، إنـك تتعرف إلى ا عزوجل من خلال خلقه ، أما أن يحل ا ُ في خلقه ، فهـذه وحـدة الوجـود مرفوضة يجب ان نعتقد مكانها بوحدة الشهود ، الشيء الثاني أن تفرد القديم عـن المحـدث بالعبادة ، أي يجب أن تحب ا وحده و أن تخاف منه وحده وأن ترجوه وحده وأن تعظمـه وحده وأن تتوب إليه وحده ، وأن تستعين به وحده ، وأن تبتغي له الوسيلة وحده ، هذا الإفراد به بعث الرسلُ وبه نزلت الكتب وشرعت الشرائع ، ولأجل ذلك خُلقـت السـماوات والأرض والجنة والنار ، وقام سوقُ الاثواب والعقاب ، فتفريد القديم عن الحديث أو عن المحدث فـي

ذاته وصفاته وأفعاله وفي إرادته وحده ومحبته وحده والخوف منه ورجائـه والتوكـل عليـه والاستعانة به والحلف به والنذر له والتوبة إليه والسجود له والتعظيم والإجلال وتوابع ذلك ، أي ا خالق الكون ، ولكنه هو فعال ، بيده كل شيء ، هو المعطي وهو المانع وهو الخـافض وهو الرافع وهو المعز وهو المذل ، هو المقرب هو المبعد ، هو المغني هو المفقر ، هو الذي يمنح الأمن ، وهو الذي ينزع الأمن من قلب الإنسان ، حينما تعلم أن الأمر كله بيده تتجه إليه وحده ، مثل بسيط جدا ، ينبغي أن تسافر إلى بلد وهذا البلد له ظـروف خاصـة ، إعطـاء التأشيرة بيد أعلى إنسان في إدارة الهجرة و الجوازات ، المدير العـام ، فأنـت إذا بلغـك أن التأشيرة لا يعطيها إلا المدير العام ، هل يمكن أن تقف أمام شـرطي وتتضعضـع أمامـه ، وترجوه ان يوافق على السفر ، معناه أنك مجنون ومادام الأمر بيد واحد العقـل يقتضـي أن تتجه لهذا الواحد و ان تعرض عن كل هؤلاء ، مائة موظف لا يستطيع واحد منهم أن يمنحك هذه التأشيرة ، إلا المدير العام ، لذلك لا ترجو إلا أعلى إنسان في هذه الدائرة ، تدخل عليـه وتقف أمامه وتقدم له الطلب ، وتقدم له المبررات ، له وحده ، ولا ترجو إنسانا لا يملك مـن أمرك شيئا .

يروى أن أحد كبار العلماء كان في الحرم ، و دخل أحد الخلفاء الكبار فلما التقى به أراد أن يكرمه ، قال : سلني حاجتك ، قال له : إني وا ِ أستحي أن أسأل غير ا في بيـت ا ، التقى به خارج الحرم ، قال له : سلني حاجتك ؟ قال له : وا ِ ما سألتها من يملكها ، أفأسألها من لا يملكها، قال له : ما حاجتك ؟ قال له : أدخلني الجنة وأنقذني من النارقال لـه : هـذه ليست في يدي ، فقال له : ليست لي عندك حاجة ، أي أفرد ا بالرجاء والطلب والـدعاء و التوكل .

بقي موضوع دقيق جدا ؛ كيف نوفق بين التوحيد و بين التوكل ؟

أولا : الإنسان حينما يترك الأخذ بالأسباب استغناء بالتوكل هذا توكل ـ لماذ أذهب إلـى الطبيب ؟ إذا ا كتب لي عمرا ليس لي حاجة لطبيب وسأبقى حياً ، و لو لم أتحكم ، إذا ا لم يكتب لي عمرا فإني أموت ولو تحكمت ، هذا كلام مضحك ، إذًا أمتنع أن آخذ بالأسـباب ـ هذا الكلام غير صحيح ، أن تأخذ بالأسباب لا يتناقض هذا مع التوحيد أبدا ، تأخذ بالأسـباب وكأنها كل شيء وتتوكل على ا وكأنها ليست بشيء ، أنت في طريق عن يمينه واد سـحيق وعن يساره واد سحيق ، إن أخذت بالأسباب واعتمدت عليها فقد أشركت ، وإن لم تأخذ بهـا فقد عصيت ، تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، وتتوكل على ا وكأنها ليست بشيء ، هـذه واحدة .

العلة الثانية ، أن يتوكل على ا في حظوظه و شهواته دون حقوق ربه ، يتوكل علـى ا في حصول المال ، أوالزوجة أو الرياسة ، أما التوكل في نصرة دين ا وإعـلاء كلمتـه

وإظهار سنة رسوله وجهاد أعدائه فليس فيه علة ، فلذلك لا تختار التوكل في الأشـياء التـي تنفعك ، والأشياء التي من حق ا عزوجل تقول : لا استطيع ، كما أنك تتوكل على ا فـي حظوظك ، ينبغي أن تتوكل على ا من حقوق ربك .

العلة الثالثة ، أن يرى توكله منه و يغيب بذلك عن مطالعة المنة وشهود الفضل ، أحيانا الإنسان يعزو الشيء لذاته ، وقع في الشرك ، هذا التوكل ، أو هذا الأخذ بالأسباب على أنها منك وعلى أنها من قدرتك، قال تعالى :

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾

[سورة الكهف]

إذا ا أراد أن يعطيك يعطيك سبب العطاء ، فحتى السبب بفضل ا ومنته ، و الإنسان إذا طلب أن يأخذ شهادة عليا ، ا تعالى يفتح له ذهنه ويقوي له ذاكرته و يجعله على قـدرة عالية للفهم ، وا ً أعطاك الأسـباب فإذا توهمت أن هذه الأسباب من عندك فقد أشركت ، قال تعالى:

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ

[سورة الأنعام]

أي لن تستطيع أن تكون إماماً إلا إذا كنت موحدا أي نوع من أنواع الشرك يلغي إماماتك ، وأنت إمام ، والدعوة كلها توحيد ، فإذا لم تكن موحدا كما أراد ا ، لن تستطيع ان تكون إماما للناس . سيدنا إبراهيم حينما خاطبه ا عز وجل قال :

قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ

[سورة البقرة]

وقال تعالى :

﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ
إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

[سورة البقرة]

أيها الإخوة ... لهذا الدرس تتمة نتابعه إن شاء ا في درس قادم، واستئناف التوحيد من أدق موضوعات الدين ، بل هو الدين كله ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، والآية التي اذكرها كثيرا ، قال تعالى :

﴿ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

[سورة الشعراء]

وأحد أكبر أسباب عذاب الناس الشرك الخفي ، الشرك الجلي غير موجود لكن هناك شرك خفي ، حينما تعتمد على غير ا وحينما ترجو غير ا ، و حينما تخاف من غير ا ، وحينما تعلق الآمال على غير ا فقد أشركت شركا خفيا ، قال تعالى

﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

[سورة يوسف]

نعوذ با من الشرك الخفي ، وكلما ارتقى الإنسان ارتقى توحيده، وكلما ارتقى توحيده زاد إخلاصه ، وكلما زاد إخلاصه ثُمن عملُه ، ارتقى التوحيد صار معه إخلاص ، مع الإخلاص ثُمن عمله فكان من سعداء الدنيا والآخرة .

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون مع الدرس الثامن والستين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ومنزلة اليوم تعظيم الحرمات ، قال تعالى :

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ

[سورة الحج]

أية منزلة من منازل مدارج السالكين وردت فيها آية أو حديث ، هي منزلـة ، تعظـيم حرمات ا منزلة من منازل مدارج السالكين .

الأصل أيها الإخوة أن الإنسان إذا تعرف إلى ا وعرف طرفاً من جلاله ، يجل أمره ، و يجل نهيه ، و يجل طاعته و يجل عباده المؤمنين و يجل كل شيء يتصل به ، يجل المسـجد ويجل المصحف ، أي إنسان وأي جهة أو أي كتاب يتصل بجلال ا عز وجل يجله ، قـال تعالى :

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ

[سورة الحج]

لذلك حال المسلمين اليوم أنه هان أمر ا عليهم فهانوا على ا ، سلط عليهم أعداءهم ، جعل بأسهم فيما بينهم ، ليست كلمتُهم هي العليا لأعدائهم عليهم ألف سبيل وسبيل ، لأنهم لـم يجلوا ا ولم يجلوا أمره قال تعالى :

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ

[سورة الحج]

قال الليثُ ـ أحد العلماء ـ : **حرمات ا ما لا يحل انتهاكُه** ، و قال عالم آخر : **الحرمات هي الأمر و النهي** ، و قال عالم ثالث : **الحرمة ما وجب القيام به و حرم التفريط فيـه** ، و قال قوم : **الحرمات هاهنا المناسك مناسك الحج زمانا و مكانا** ، " و الصواب أن كل هذه من الحرمات ، أي شيء مقدس ، شيء يتصل بالدين ، يتصل بالإله فالقرآن مقـدس ، و كتـب السنة مقدسة ، وكتب العلم الشرعي مقدسة ، و من يعمل بالعلم الشرعي مقدس ، و بيوت ا

مقدسة ، أمر ا مقدس ، و نهيه مقدس ، فكلما ازددت إيمانا و إجـلالا عزوجـل تعظـم حرمات ا بل إن من إجلال ا إكرام ذي الشيبة المسلم ..

عن أَبِي موسى الأَشْعرِي قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله علَيه وسلم :

" إِن من إِجلال الله إِكْرام ذي الشيبة الْمسلمِ وحاملِ الْقُرآنِ غَيرِ الْغَالِي فيه والْجـافي عنْـه وإِكْرام ذي السلْطَانِ الْمقْسط " *

[رواه أبو داود]

مسلم متقدم في السن وأمضى حياته في طاعة ا يجب أن تجله، يجـب أن تحترمـه يجب أن تيسر له أمره ..

عن أَبِي موسى الأَشْعرِي قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله علَيه وسلم :

" إِن من إِجلال الله إِكْرام ذي الشيبة الْمسلمِ وحاملِ الْقُرآنِ غَيرِ الْغَالِي فيه والْجـافي عنْـه وإِكْرام ذي السلْطَانِ الْمقْسط "*

[رواه أبو داود]

إن من إجلال ا توقير الإمام العادل ، إنسان في منصب ، مستقيم يعمل للصالح العام يجب أن تحترمه ، له صدر المجالس ، مادام أنه مخلص و له نفع عام ، و يسهر على راحـة الناس و على أمنهم و سلامتهم ، فأي شيء يتّصل با عزوجل المسلم الصادق يجله ، الصلاة مقدسة ، لا يؤخرها عن وقتها ، و لا يضيعها ، الصيام مقدس ، لو كان معذورا في الإفطـار لما أفطر علانية ، حرمة للشهر .

قال بعضهم : الحرمات تعم هذا كله ، وهي جمع حرمة ، وهو ما يجـب احترامـه و حفظه من الحقوق و الأشخاص و الأزمنة و الأماكن والحقوق ، فتعظيمها توفيتها حقهـا ، و حفظها من الإضاعة ، و الخروج من حرج المخالفة و جسارة الإقدام عليها وبتعظيم الأمـر و النهي خوفا من العقوبة و طلبا للمثوبة ، إنسان قوي إذا أعطى توجيها ينفذ بحذافيره خوفـا من بطشه ، وخالق الكون أعطاك أمرا و أعطاك نهيا ، فكلما ازددت تمسكا بـأمر ا كـان مقامك عند ا أعلى.

الآن من قدوتنا ؟ الأنبياء و المرسلون و الصديقون في دعائهم وسؤالهم و الثناء علـيهم بخوفهم من النار ورجائهم للجنة ، قال تعالى :

وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾
فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ
يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ
﴿٩٠﴾

[سورة الأنبياء]

الأنبياء و المرسلون سألوا ا َ الجنة و استعاذوا به من النار ، و أنا لا أرضى أن يقـول قائل: أنا لا أرجو الجنة و لا أخشى النار ، و لكن أعبد ا لأنه أهل للعبادة ، هل هـو فـوق مقام الأنبياء ؟ الأنبياء رجوا رحمته و خافوا من عذابه ، و الأنبياء قمم البشرية ، و الذي يقع في قمة السلم رجا ربه و رجا الجنة و خاف من النار ، لا ينبغي أن يقول إنسان ليس نبيا ، أنا لا أعبد ا طمعا في جنته و لا خوفا من ناره ، و لكني أعبده لأنه أهل للعبادة ، هذه مزايدة ، فالأنبياء جميعا يدعون ربهم رغبا و رهبا ، هذا هو القرآن وهذه هي السـنة ، والإنسـان لا يمكن أن يكون أعبد من رسول ا ، ولا أكثر قربا من رسول ا ..

عن أَنَس بن مالِك رضي الله عنْه يقُولُ :

" جاء ثلاثَةُ رهط إِلى بيوت أَزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسأَلون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فَلما أُخْبِروا كَأَنهم تَقَالوها فَقَالُوا وأَين نَحن من النبي صلى الله عليه وسلم قَد غُفر له ما تَقَدم من ذَنْبِه وما تأَخر قَالَ أَحدهم أَما أَنَا فَإِني أُصلي الليلَ أَبدا وقَالَ آخَر أَنَـا أَصوم الدهر ولا أُفْطر وقَالَ آخَر أَنَا أَعتَزِلُ النساء فَلا أَتَزوج أَبدا فَجاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إِليهم فَقَالَ أَنْتُم الذين قُلْتُم كَذَا وكَذَا أَما والله إِني لأَخْشَاكُم لِله وأَتْقَاكُم له لكنـي أَصوم وأُفْطر وأُصلي وأَرقُد وأَتَزوج النساء فَمن رغب عن سنتي فَلَيس مني "*

[رواه البخاري]

فالمنهج الذي جاء به النبي عليه الصلاة و السلام كامل وتام ، ولا تحتاج إلـى مـنهج آخر ، لذلك لا تفكر أن تنتقص من الدين شيئا ، ولا أن تضيف عليه شـيئا ، أية إضافة وأي إنقاص اتهام للدين بالزيادة والنقص.

خواص خلقه أثنى ا عليهم بأحسن أعمالهم ، و جعل من أعمالهم الطيبة أنهم استعاذوا به من النار ، قال تعالى :

وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾
وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا
﴿٦٥﴾

[سورة الفرقان]

هذا الذي يدعو ا   أن يصرف عنه عذاب جهنم هو يعظم حرمات ا   .

أيضا قوله تعالى :

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾

[سورة آل عمران]

سيدنا إبراهيم ، قال تعالى :

ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا
مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ
أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا
وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾
وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ
﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾
إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾

[سورة الشعراء]

أيها الإخوة الكرام ؛ ما أدري ما السبب أن الإنسان يقرأ قصص الأنبياء في القـرآن و يقرأ مناجاتهم و أدعيتهم ، يظن أنه لا علاقة له بهذا هؤلاء الأنبياء قدوة لنا ، كلامهم منهج ،

ودعاؤهم علم ، موقفهم طريق إلى اله عزوجل ، فأنا من أنصار أن كل آية فيها ذكـر لنبـي ينبغي أن تقف عندها ، و أن تجعل هذا الموقف قدوة لك .

النبي عليه الصلاة و السلام أمر أمته أن تسأله في وقت الإجابة عقيب الأذان ، هذا الوقت هو وقت الإجابة ..

عن أَبِي هريرةَ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله علَيه وسلم لِرجلٍ :

" ما تَقُولُ في الصلاة قَالَ أَتَشَهد ثُم أَسأَلُ الله الْجنةَ وأَعوذُ بِه من النارِ أَما والله ما أُحسـن دنْدنَتَك ولا دنْدنَةَ معاذ قَالَ حولَها نُدنْدن "*

[رواه أحمد]

وكان هناك كلام بين صحابيين لم يفهم منه شيئا ، " أنا لا أحسن دندنتك " فقـال : أنـا ومعاذ حولها ندندن"

في الصحيح من حديث الملائكة ، عن أَبِي هريرةَ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله علَيـه وسلم :

" إِن لِله ملائِكَةً يطُوفُون في الطرق يلْتَمسون أَهلَ الذكْرِ فَإِذَا وجدوا قَوما يذْكُرون الله تَنَادوا هلُموا إِلَى حاجتكُم قَالَ فَيحفونَهم بِأَجنحتهِم إِلَى السماء الدنْيا قَالَ فَيسأَلُهم ربهم وهو أَعلَـم منْهم ما يقُولُ عبادي قَالُوا يقُولُون يسبحونَك ويكَبرونَك ويحمدونَك ويمجدونَك قَالَ فَيقُولُ هلْ رأَوني قَالَ فَيقُولُون لا والله ما رأَوك قَالَ فَيقُولُ وكَيفَ لَو رأَوني قَالَ يقُولُون لَو رأَوك كَانُوا أَشَد لَك عبادةً وأَشَد لَك تَمجِيدا وتَحميدا وأَكْثَر لَك تَسبِيحا قَالَ يقُـولُ فَمـا يسـأَلُوني قَـالَ يسأَلُونَك الْجنةَ قَالَ يقُولُ وهلْ رأَوها قَالَ يقُولُون لا والله يا رب ما رأَوها قَالَ يقُولُ فَكَيفَ لَو أَنهم رأَوها قَالَ يقُولُون لَو أَنهم رأَوها كَانُوا أَشَد علَيها حرصا وأَشَد لَها طَلَبا وأَعظَم فيهـا رغْبةً قَالَ فَمم يتَعوذُون قَالَ يقُولُون من النارِ قَالَ يقُولُ وهلْ رأَوها قَالَ يقُولُون لا والله يـا رب ما رأَوها قَالَ يقُولُ فَكَيفَ لَو رأَوها قَالَ يقُولُون لَو رأَوها كَانُوا أَشَد منْها فرارا وأَشَد لَها مخَافَةً قَالَ فَيقُولُ فَأُشْهِدكُم أَني قَد غَفَرتُ لَهم قَالَ يقُولُ ملَك من الْملائِكَة فيهِم فُـلان لَـيس منْهم إِنما جاء لِحاجة قَالَ هم الْجلَساء لا يشْقَى بِهِم جليسهمْ"*

[رواه البخاري]

يعني معقول إنسان ضائع شارد غافل ما سأل الله ولا مرة الجنة ، ولا استعاذ بـه مـن النار ، أن يعامل هذا العبد كعبد آخر ليل نهار يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار ؟

أيها الإخوة ؛ هؤلاء الأنبياء و الرسل في قصص القرآن التي ذكرت مواقفهم وأحـوالهم وأدعيتهم واستعاذتهم ورجاؤهم ، وما جاء في السنة من وصف العباد المـؤمنين ومـواقفهم واستعاذتهم ، منهج لنا نحن المؤمنين .

هناك حقيقة أتمنى أن تكون واضحة لديكم ، إذا خلا القلب من ملاحظة الجنـة و النـار ، ورجاء هذه و الهرب من هذه ، فترت عزيمتُه و ضعفت همتُه ، ووهى باعثُه ، و كلما كـان أشد طلبا للجنة و عملا لها كان الباعثُ أقوى ، و أنا أقول لك كلاما صريحا : أكبـر باعـث للعمل الصالح رجاء الجنة ، و أكبر رادع عن المعصية خوفُ النار ، و ما سوى ذلك كلام لا معنى له يقولون : فلان عنده ضمير مسلكي يقظ ، وفلان يخشى على سمعته ، كلام لا طائـل فيه ، حينما تخلو له الفرصة يقتنصها فأي رادع غير رادع خوف النار رادع وهمي ، و أي باعث غير باعث الجنة باعثٌ خُلبي ، الباعث الحقيقي أن ترجو جنة ا إلى الأبد ، و الرادع الحقيقي أن تخاف من النار ، فلذلك ما الذي يجعل المؤمن مقيدا الإيمان قيد الفتك ، و لا يفتك مؤمن لأنه يعلم علم اليقين أن ا كبير ، وأن بطش ا شديد ، وأن عذابه في الدنيا لا يحتمل ، وأن في الآخرة أشد وأبقى ، فالإنسان حينما يعلم ما عند ا من العقاب ومـا يرجـو مـن رحمته من ثواب لاستقام على أمره ، وإن أردتم أضعكم مع حقائق تعيشونها جميعا ، إنسـان أقوى منك إذا قال فعل ، هل يمكن أن تقع تحت مخالفة أمره ؟ إنسان عادي لكنه أقوى منـك بإمكانه أن يوقع بك الضرر وهو مطلع عليك ، فهل يمكن أن تعصيه جهارا ؟ هذا شأنك مـع إنسان أقوى منك ، فكيف شأنك مع ا جل جلاله ؟ لذلك الإمام الغزالي رحمه ا تعالى يقول : يا نفس لو أن طبيبا حذرك من أكلة تحبينها ، لا شك أنك تمتنعين عنها ، أيكـون الطبيـب أصدقَ عندك من ا ؟ طبيب نهاك عن أكل الملح ، وحذرك من مغبة جلطة وارتفاع ضـغط وتصلب شريان ، تترك الملح كليا ، الطبيب تحذيره مقبول عندك، والطبيب صـادق وتأخـذ بتوجيهه ، وتنسى أن تأخذ التوجيه من ا عزوجل ؟

إخواننا الكرام ؛ هناك حقيقة أتمنى أن تكون واضحة لديكم ، الجنة التي ينبغـي ان نسـعى إليها ليست اسما لمجرد الأشجار و الفواكه ، و الطعام و الشراب و الحور العين و الأنهـار و القصور، و أكثر الناس يتوهمون في مسمى الجنة أن الجنة اسم لدار النعيم ، أي أن المكـان جميل جدا ، بساتين ، أرض خضراء و أشجار قطوفها دانية ، فيهـا حـور عـين و ولـدان مخلدون ، و فيها نهر من عسل مصفى ، و فيها نهر من لبن لم يتغير طعمه ، و فيها ماء غير آسن ، و فيها خمر لذة للشاربين ، هذه جنة و لكن ليست هي الجنة التي أطلقها ا علـى دار النعيم ، هذه الجنة هذه المحسوسات ، ما بين أنهار و أشجار و حور عين وولدان مخلدون لكن الجنة التي أرادها ا فوق هذا ، نظر إلى وجه ا الكريم. قال عليه الصلاة و السـلام عـن جرير بن عبد الله قَالَ كُنا جلُوسا لَيلَةً مع النبي صلى الله علَيه وسلم فَنَظَر إِلَى الْقَمرِ لَيلَةَ أَربع عشْرةَ فَقَالَ :

"إنكم سترون ربكم كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب "*

[رواه البخاري]

وقد ورد تفاصيل عن هذه الرؤية أن المؤمن إذا نظر إلى وجه ا الكريم يغيب من نشوة النظرة خمسين ألف عام ، و هل هناك فوق ذلك ؟ طبعا ، لو دخلت بيتا وكان صاحب البيت له جمال أخاذ ، فأنت جلست في مكان متعت عينيك بجمال وجهه ، شيء جيد ، ولكن هناك مرتبة أعلى بكثير ، أن يقف لك صاحب البيت و أن يستقبلك بحرارة بالغة وأن يدعوك بأحب الأسماء إليك وأن يرحب بك وأن يقربك من مجلسه هذا هو التكريم الحقيقي ، لذلك قال تعالى :

وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ

[سورة التوبة]

صار هناك مستوى محسوس ، أنهار وأشجار وقطوف وولدان وحور عين وأنهار من عسل مصفى ولبن وخمر وماء غير آسن ، هذا مستوى ، ومستوى آخر النظر إلى وجه ا الكريم ، مستوى أعلى أن يرحب ا بك ، وأن يرضى عنك وأن يقربك ، قال تعالى :

وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ

[سورة التوبة]

إخواننا الكرام ؛ قال تعالى :

لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾

[سورة الصافات]

اشترى بيتا بأحد شوارع دمشق الغالية جدا ، البيت الطابق الثاني عشر ، فيه شقتان ، والبيتان مهيئان للسكن كسر البلاط وأزال النوافذ وكسر المرافق العامة ، وأعادها بتؤدة وإتقان منقطع النظير ، واستغرق العمل سنتين بالتمام والكمال ، الوصف الذي سمعته لا يصدق ، طاولات من الرخام الشفاف ، والإضاءة مخفية ثابتة وبعد أن انتهى البيتُ بأيام معدودة جاءته المنيةُ ، هذه هي الدنيا ، ومثل هذه القصة تتكرر كثيرا ، بيت لم يسكن ، وزواج لم يتم ، شهادة لم تحضر سفر لم يعد منه ، دخل البيت ولم يخرج ، خرج ولم يعد وسافر ولم يعد ، قال تعالى :

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

[سورة الصافات]

وقال تعالى :

﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾

[سورة المطففين]

ما خير بعده النار بخير ، و ما شر بعده الجنة بشر وكل نعيم دون الجنة محقور ، و كل بلاء دون النار عافية ، و عزتي و جلالي لا أقبض عبدي المؤمن و أنا أحب أن أرحمه إلا ابتليتُه بكل سيئة كان عملها سقما في جسده ، أو إقتارا في رزقه أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددتُ عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه .

بعض العلماء يتمثل هذا البيت ، فقال :

قليل منك يكفيني ولكن قليلُك لا يقال له قليلُ

* * *

نظرة عزوجل تكفي الإنسان ، الآن في الدنيا ـ كلامي دقيق ـ في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنةَ الآخرة ، إنها جنة القُرب ، اسع إليها ، وا ِ الذي لا إله إلا هو لو سعيتَ إليها وذقتَ ومضة من ومضاتها ، وا ِ لتحتقرن نعيم الدنيا كله ، نعيم الدنيا كله تحتقره أمام هذه الومضة ، تجد إنسانا غارقاً في العمل الصالح ، والجاهل يشفق عليه نقول له : أشفق على نفسك، هو غارق في سعادة لا توصف ، المنهمك في عمل طيب و في عمل صالح وفي عمل مخاص عزوجل ، هذا سعادته في التعب ، و شقاوته في الراحة ، لو أرحتَه يتألم أشد الألم .

أيها الإخوة ... هذا عن الجنة ، فماذا عن النار؟ قال : و كذلك النار أعاذنا ا منها ، فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن ا ، الحقيقة أشد أنواع العذاب أن يحجب الإنسان عن ربه ، قال تعالى :

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾

[سورة المطففين]

يقابل ذلك قوله تعالى :

وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾

[سورة القيامة]

وجه نضير متألق ينظر إلى ا عزوجل ، ووجه عليه غبرة محجوب عن ا عزوجل ، وجه ابيض لعمله الطيب ، ووجأ اسود لعمله السيء قال : الحجاب عن ا واستحقاق غضـب ا وسخط اللهو والبُعد عن ا و الطرد من رحمة ا أعظم منة التهاب النار في أجساده ، ورد في الجامع الصغير هذا الحديث :

" **إن العار ليلازم المرء يوم القيامة حتى يقول : يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون علي مما ألقى ، و إنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب** ".

العذاب الحسي ، لهيب النار الذي يحرق الجلد قال تعالى :

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ

[سورة النساء]

ومع ذلك العذاب النفسي الحاصل من استحقاق النار ليس قلـيلا ، فلـذلك النـار اسـم لمجوعة من العذابات بربكم ، نأتي بمثل بسيط ؛ أنت مقدم على زواج ومعك فرضا حـوالي ثلاثمائة ألف، ووجدت بيتـا بثلاثمائة ألف ضمن دمشق ، فرضا ؛ موقعه مناسب جدا ، وأي بيت آخر قيمته مليون ، و ذهبت إلى صاحب البيت لتشتريه ، وقال لك : وا ِ لقـد بعتُـه لا تنام الليلَ ، وما أحد ضربك ولكنه شعور بالندم ، أنت قصرت كان لا بد أن تتابعه قبل يومين ، وكان لا بد أن تسأل ، فندم على فوات شراء بيت ، وندم على فوات الـزواج بفتـاة يبقـي صاحبه في ألم لا يحتمل فكيف الندم على فوت الجنة و استحقاق النار ؟ إن العار ليلازم المرء يوم القيامة حتى يقول :

" **يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون علي مما ألقى ، و إنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب** ".

يا رب ...." فلذلك عذاب النار منوع ، هناك عذاب حسي ، قال تعالى :

فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ

وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٠﴾

[سورة البروج]

وهناك عذاب نفسي ، والعذاب النفسي بعضه ندم ، و بعضه حسرة ، و بعضه خـزي وبعضه عار وبعضه أن هذا الذي استحق دخول النار استحق غضب ا وسـخط ا والبعـد عن ا ، لذلك مطلوب الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصـالحين هـو الجنـة ، ومهربهم من النار ، وخير العباد من يريد ا َ يريد ثوابه ، وهؤلاء خواص خلقه، قال تعالى :

وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ

[سورة الأحزاب]

فالدار الآخرة ، أي الجنة مطلوبة من قبل خواص خلقه ،

فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ

لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

[سورة الأحزاب]

هذا خطابه لخير النساء ، أزواج النبي عليه الصلاة و السلام ، و قال تعالى :

وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾

[سورة الإسراء]

فأخبر أن السعي المشكور سعي من أراد الآخرة ، و أبلغُ من هذا قولُه لخواص أوليائـه وهم أصحاب نبيه صلى ا عليه و سلم :

مِّن

يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ

[سورة آل عمران]

فخواص خلقه أصحاب نبيه ، يريد الآخرة ، فإذًا لا ضير أن نرجو الجنة وأن نتعوذ من النار ، وهذه مرتبة الأولياء و المرسلين .

أما الذي يقول : هذه الولية الصالحة التي قالت : " **أنا لا أعبدك طمعا في جنتك و لا خوفا من نارك ، وإنما أعبدك لأنك أهل للعبادة** " نحن نأخذ ديننا من القرآن الكـريم و سـنة سـيد المرسلين ، وأما هذه ـ رحمها ا و أكرمها ا و لعله ولية حقا و لعلها موصـولة بـا ـ

ولكن هذه ليست مشرعة ، نحن لا نعتقد العصمة إلا لرسول ا ، هو المشرع ونحسن الظن بالمؤمنين ، دون أن نعلق كبير أهمية على أقوالهم ، هم ليسوا مشرعين ، وهذا الذي ركب ناقته و حمل عليها زاده و شرابه ، و جلس ليستريح من وعثاء السفر ، أخذته سنةٌ من النوم فأفاق فلم يجد الناقةَ ، فأيقن بالهلاك قطعا ، و صار يبكي و يبكي حتى نام مرة ثانية فلما استيقظ رأى الناقةَ أمامه ، من شدة الفرح اختل توازنُه ..

عن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم :

" للهُ أَشَدّ فَرحا بِتَوبة عبده حين يتُوب إِلَيه من أَحدكُم كَان على راحلته بِأَرضٍ فَلَاة فَانْفَلَتَتْ منْه وعليها طَعامه وشَرابه فَأَيِس منْها فَأَتَى شَجرةً فَاضطَجع في ظلها قَد أَيِس من راحلَته فَبينَا هو كَذَلك إِذَا هُو بِها قَائِمةً عنْده فَأَخَذَ بِخطَامها ثُم قَالَ من شدة الْفَرحِ اللهم أَنْتَ عبدي وأَنَا ربك أَخْطَأَ من شدة الْفَرحِ " *

[رواه مسلم]

خيرا إن شاء ا ، و نعذره ، هل كلامه صحيح ؟ أعوذ با ، كلامه كفر و لكن قال بعض العلماء : ما كل من وقع في الكفر وقع عليه الكفر من شدة الفرح اختل توازنه ، قال : اللهم أنت عبدي و أنا ربك " هذا لا نؤاخذه .

الآن إذا إنسان آخر اختل توازنه فتكلم بكلمات تخالف الكتاب والسنة نرجو له الرحمة والمغفرة ولعله أقرب إلى ا منا ولكن لا نأخذ بهذا الكلام ، بل نأخذ بالقرآن والسنة القرآن و السنة صرحا في آيات كثيرة جدا أن خواص أوليائه وخواص أصحاب نبيه و أن أنبياءه وهم قمم البشر سألوا ا الجنة واستعاذوا به من النار ، فهل يعقل أن ياتي إنسان ليس رسولا ولا نبيا ويتأبى أن يستعيذ با من النار وأن يسأله الجنة ، بل هو فوق ذلك ، يسأله النظر إلى وجهه الكريم ، لا يعبده خوفا من ناره و لا طمعا في جنته ، و لكن يعبده لأنه أهل للعبادة ، هذا كلام يخالف الكتاب و السنة ، و نحن نرجو لصاحبه المغفرة و الرحمة و لعله لم يقُله أيضا .

أختم هذا الدرس بهذه الحقيقة ؛ لو أنك قرأتَ كلاما لعالم كبير يخالف الكتاب والسنة ، ما موقفك ؟

أول احتمال أنه ما قاله ، ودس عليه ، وثاني احتمال أنه قاله وما أراد المعنى الذي أنت فهمته منه ، واحتمال ثالث أنه قاله وأراد المعنى الذي فهمته منه ولكن ترك هذا المعنى بعد حين، وتراجع عن هذا المعنى ، والاحتمال الرابع أنه قاله وأراد المعنى الذي فهمته ولم يتراجع عنه فهو مخطئ ، وانتهى الأمر ، نحن عندنا رسول ا هو المعصوم وحده ، النبي وحده معصوم ، أمته معصومة بمجموعها ، النبي عليه الصلاة و السلام معصوم وحده ، أمتُه بمجموعها ، هذه عقيدتُنا العصمة لرسول ا وحده ، أما أمته بمجموعها معصومة ، فإذا

إنسان في ساعة من الساعات اختل توازنه وقال كلاما يخالف الكتاب والسنة لعله ما قاله ولعله قاله في ساعة غيبوبة ، ليس مشرعا وليس حجةً نحن منهجنا كتاب ا ، ومنهجنا سنة رسول ا ، ولا شيء غيرهما.

و الحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس التاسع والستين من دروس مدارج السـالكين فـي منازل إياك نعبد و إياك نستعين ، و المنزلة اليوم منزلة الغيرة ، و قبل أن نمضي في الحديث عن هذه المنزلة و عن خصائصها وعن شروطها لا بد من مقدمة .

الانسان كجسم فيه أعضاء و فيه أجهزة وفيه حواس وفيه نُسج وفيه هيكل عظمي ، أمـا كنفس فيه خصائص ، وا ً عزوجل سوى هذه النفس وفق خصائص ، وهذه الخصـائص أولُ صفة فيها أنها حيادي يمكن أن تكون سلما نرقى بها أو دركات نهوي بها ، هذه الخصـائص حيادية لأن الإنسان مخير .

نضرب لذلك مثلا ؛ من أدق خصائص الإنسان يتمنى أن يكون كالآخرين الناجحين فـي الحياة، سمها إن شئت غيرةً ، سمها إن شئت حب التنافس ، سمها إن شـئت حسـدا ، هـذه الخصيصة تتمنى أن تكون كفلان ، وتتألم إن لم تكن مثله ، هذه حيادية ، فلـو وظفتهـا فـي الخير رأيتَ إنسانا طالب علم شرعي ، إنسانا يتقن كتاب ا ، إنسانا ضـبط نفسـه وحـزم أموره وله اطلاع واسع ، أجرى ا ً على يديه أعمالا طيبةً، فيه خصيصة تتمنى أن تكون مثله ، فهذه الخصيصة وظفتها في الخير فبعثتك إلى أن تنافسه ، فتفوز بالجنة ، هذا توظيفها فـي الخير أما توظيفها في الشر ترى إنسانا معه مالٌ كثير أو له جاه عريض فتنافسه على المال ، تريد أن تكون **مثله في الغنى و الفجور ، الخصيصة نفسها وظفتها في الشـر ، فبينمـا أن تكون هذه الخصيصةُ سلما نرقى به أو دركات نهوي بها ، فالخصيصة حيادية .**

عن ابنِ مسعود رضي الله عنْه قالَ سمعتُ النبِي صلى الله علَيه وسلم يقُولُ :

" لا حسد إِلا في اثْنَتَينِ رجلٍ آتَاه الله مالا فَسلطَه علَى هلَكَته في الْحق ورجلٍ آتَاه الله حكْمةً فَهو يقْضي بِها ويعلمها "*

[رواه البخاري]

فمعناه أن الإنسان تمنى أن يكون عالما أو تمنى أن يكون غنيا منفقا تمنـى أن يكـون عالما عاملا معلما ، أو غنيا منفقا ، هذا شيء طيب ، إذًا باعثُ من البواعث التي تدفعك إلـى نيل الخيرات في أعلى الدرجات في الدنيا و الآخرة هذه الخصيصة ، هي نفسها لو وجهتهـا إلى الدنيا فتمنيتَ أن تكون غنيا ـ لا سمح ا ـ تمنى هذا الحاسد أن يكون غنيا فاجرا غنيـا غارقا في متع حسية أودت به إلى النار ، فالخصيصة نفسها ، والسمة نفسها تقوده إلى الجنـة

أو تقوده إلى النار ، إذًا هي حيادية ، وكل سمات النفس ، وكل خصائصها وكل فطرها وكل جبلتها حيادية تُوظف في الخير أو تُوظف في الشر .

الإنسان يحب أن يكون مهما ، مبرزا متفوقا ، سم هذا الميلَ تأكيد الشخصية ، تأكيد الذات ، الشعور بالأهمية ، هذا الميل يمكن أن يروى بالخير ؛ تطلب العلم وتعلم العلم ، تعمل الأعمالَ الصالحة فترقى ، أو تؤكد الذات بإيذاء الآخرين وإرهابهم وإيقاع الأذى بهم كي يهابونك أكدت ذاتك .

أحيانا لك قضية عند إنسان ، إما أن يخلق لك العراقيلَ كي يشعرك أنك لا شيء أمامه ، أو أن يعاونك فتشعر أن هذا إنسان عظيم ، إنسان طيب ، في كلا الحالين يريد أن يلفتك إلى خطورته ، وإلى أهميته ، إما عن طريق خدمتك ، وإما عن طريق إيقاع الأذى بك ، والميلُ واحد ولكن هذا الميل يوظف في الخير كما يوظف في الشر ، لأن الإنسان مخير كل خصائصه ومفردات جبلته وتسوية نفسه ـ إن صح التعبير ـ قال تعالى :

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾

[سورة الشمس]

حيادي .

هذه المقدمة من أجل أن أصل إلى منزلة الغيرة ، هذه المنزلة كما قال مؤلف الكتاب : من منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، قال تعالى :

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ

[سورة الأعراف]

وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنْه قالَ قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم :

" لا أَحد أَغْير من الله فَلذَلِك حرم الْفَواحشَ ما ظهر منْها وما بطَن ولا أَحد أَحب إِليه الْمدحةُ من الله فَلذَلِك مدح نَفْسه "*

[رواه البخاري]

طبعا أغير خبر " ما " التي تعمل عمل ليس ، وما أحد أحب إليه المدح من ا ومن أجل ذلك أثنى على نفسه ..

عن الْمغيرة قَالَ قَالَ سعد بن عبادةَ : لَو رأَيتُ رجلا مع امرأَتي لَضربتُه بِالسيف غَير مصفَحٍ فَبلَغَ ذَلِك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فَقَالَ :

" أَتَعجبون من غَيرة سَعد والله لأَنَا أَغْيَر منْه والله أَغْيَر مني ومن أَجل غَيرة الله حرم الْفَواحشَ ما ظَهر منْها وما بطَن ولا أَحد أَحب إِلَيه الْعذْر من الله ومن أَجل ذَلك بعث الْمبشرين والْمنْذرين ولا أَحد أَحب إِلَيه الْمدحةُ من الله ومن أَجل ذَلك وعد الله الْجنةَ " * فا ُ يغار .

[رواه البخاري]

أضرب مثلا ؛ أب يمشي في الطريق ، رأى ثلاثة شباب ، أحدهم ابنُه والثاني ابن أخيه ، والثالث لا يعرفه ، والثلاثة يدخنون ، بماذا يشعر هذا الأب ؟ يشعر بمرجلٍ اتجاه من ؟ اتجاه ابنه، قد يضربه ، وقد يعنفه ، من شدة محبته له ومن شدة حرصه على سلامته ، ومن شدة غيرته عليه يعنفه ، التعنيف ، لابن أخيه ينزل إلى الربع ، لماذا يا عمي تدخن ؟ ابنه أدبه وضربه ، ابن أخيه كلمة ، الثالث ولا كلمة ، فهذا الانفعال وهذا الألم وهذا الصوت المرتفع وهذا الضرب أحيانا، وهذا التعنيف بسبب المحبة والحرص ، فلذلك الغيرة من صفات كمال الإنسان، فهذا الذي لا يغار ليس من بني البشر ، ومن هو الديوث ؟ قال الذي لا يغار على عرضه ويرضى الفاحشة في أهله ، لا يغار ، لو برزتْ زوجتُه بأجمل زينة ، ولو بدا معظم ما في جسمها من فتن ، لا غيرة أبدا ، لا يغار على أهله ويرضى الفاحشة فيهم ، هذا ديوث ، والديوث كما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام : " لا يروح رائحة الجنة "

وفي الصحيح أيضا من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة رضي ا عنه أن رسول ا صلى ا عليه و سلم قال :

عن أَبِي هريرةَ رضي الله عنْه عن النبِي صلى الله عليه وسلم أَنه قَالَ :

" إِن الله يغَار وغَيرةُ الله أَن يأْتي الْمؤْمن ما حرم الله " *

[رواه البخاري]

وبالمناسبة قد يسأل أحدكم لماذا يضرب الأب مثلا في كثير من القضايا المتعلقة با عز وجل ؟ لأن نظام الأبوة وحده يدلك على ا أي هناك إنسان واحد يتمنى أن تكون خيراً منه ، هو الأب هناك إنسان واحد قد يعمل ليلا نهارا من أجل ابنه ، وا ِ حدثني أخٌ عن إنسان يعمل عملا شاقا جدا ، نقل أكياس ، ينوء بحملها ، جاء الساعة الثامنة تماماً وبدأ يعمل حتى الساعة الثامنة مساء ، المبلغ زهيد ، فقال له صاحب العمل : أتعمل حتى الساعة الحادية عشرة وتأخذ خمسة وعشرين ليرة إضافية ، قال : نعم ، لماذا ؟ عنده زوجة وأولاد ، عمل يهد الجبالَ ، بأجر زهيد جدا لأن له زوجة وأولاد ، وهذا المبلغ اليسير قد يأتي بخبز، وقد يأتي بفاكهة لأولاده وزوجته ، هذا بطل عند ا عز وجل ، وهو لماذا يعمل هذا العمل الشاق ؟ من شدة حبه لأهله وأولاده ، من أجل أن يفرحهم بفاكهة و بطعام ، يجهد هذا الجهد لذلك .

عن أَبِي هريرةَ رضي الله عنْه عن النبِي صلى الله عليه وسلم أَنه قَالَ

" إن الله يغَار وغَيرةُ الله أن يأْتي المؤْمن ما حرم الله "*

[رواه البخاري]

فإذا وجد ابنَه مثلا يعمل عملا يسيء إلى سمعته ، أو إلى صحته أو إلى مستقبله ، يتألم الأب ، وهذا الألم هو الغيرة ، هو الذي يدفعك إلى أن تؤدب ابنَك ، نظام الأبوة يـدل علـى ا ، رحمة وعلماً ، فالعبد حينما يعصي ا َ يغار ا ُ ، وبصراحة وإذا كنت جالسـا فـي غرفـة الجلوس مرتاحا أيام الشتاء على مقعد وثير وقد أتيت البيتَ وأنت في غاية التعـب، و مـا إن استرخيتَ على هذا المقعد الوثير ، والمدفأةُ مشتعلةٌ حتى استرختْ أعضاؤك فرأيـت ابنـك الصغير يقترب نحو المدفأة وهو يجهل ما سيكون ، هل هناك أب في الأرض يبقى جالسا ؟ لو كان منهكاً من التعب إلا ويقفز من مجلسه ليمنع ابنَه من أن تحترق يده بالمـدفأة ، مـا هـو التفسير ؟ غيرة وأساس الغيرة الحب والرحمة إذًا الغيرة مظهر سلوكي ينطلـق مـن حـب ورحمة ، فإن ا يغار ، عبد يشرب الخمر ، اتركه لجهنم ، أعوذ با ، عبد يزني ، اتركـه لجهنم ، أو شعوب ضالة مضلة، فسق وفجور وبلاد سياحي جميل وجبال خضـراء ، وطعـام طيب ومناظر جميلة ، و تجارة رائجة ، وكل شيء ميسور وكل الموبقات موجـودة وكـل الأشياء القذرة موجودة ، لا يحدث مع الشعب شيء إلى يوم القيامة إلى جهنم كله ، لا هنـاك زلزال ، وهناك شح المياه ، هناك قحط وهناك ضيق في الأرزاق ، حتى يعودوا إلى ا عـز وجل ، وهذه غيرة ا عز وجل .

أضرب مثلاً حفرة عميقة جدا وترى طفلا أعمى يمشي باتجاه الحفرة ، تبقى ساكتا ؟ وهو ليس ابنَك ؟ مستحيل ، هذه الغيرة ، قال تعالى :

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ

[سورة الأعراف]

ولماذا حرم الفواحش ؟ لأنه يغار ، والفواحش طريقٌ إلى النار ، ولو أنه أباحها وانتهت بصاحبها إلى النار أين غيرةُ ا عزوجل ، ولأنه يغار حرم الفواحش ، ولأنه يغـار يسـوق لعباده بعض المصائب ، ولأنه يغار يغضب من عبد أتى ما حرم عليه لأنه حرم نفسـه هـذه السعادة .

وفي الصحيح أيضا عن الْمغيرة قَالَ قَالَ سعد بن عبادةَ :

" لَو رأَيتُ رجلا مع امرأَتي لَضربتُه بِالسيف غَير مصفَحٍ فَبلَغَ ذَلِك النبِي صلى اللـه َعليـه وسلم فَقَالَ أَتَعجبون من غَيرة سعد لَأَنَا أَغْير منْه والله أَغْير مني " *

[رواه البخاري]

إنسان لا مبالٍ كل شيء يراه من أهله لا يأبه له تخرج زوجتُه إلى الشرفة بالثياب الفاضحة لتنشر الغسيل والشرفة على الطريق العام تراه مرتاحاً ولا يغار ، لا يخجل من الله أن تظهر امرأتُه بهذا الشكل أمام الرجال ، فالغيرةُ من صفات المؤمنين .

عن الْمغيرة قَالَ قَالَ سعد بن عبادَةَ :

" لَو رَأَيتُ رجلا مع امرأَتي لضربتُه بِالسيف غَير مصفَحٍ فَبلَغَ ذَلِك النبِي صلى الله عليه وسلم فَقَالَ أَتَعجبون من غَيرة سعد لَأَنَا أَغْيَر منْه والله أَغْيَر مني " *

[رواه البخاري]

إخواننا الكرام ؛ هناك غضب شريف ، وهناك غضب يعد نقيصة في الإنسان ، المؤمن يغار إذا انتُهكت حرماتُ الله ، ولا يثور لأكل أما قضية الأكل تأخر ، لآنية كُسرت ، لزوجة غابت عند أهلها فترة أطول ، هذا هين لين ، يألف ويؤلف ، أمور الدنيا لا شأن لها عنده ، أما أمور الآخرة، هي الزوجة تشعر ما الذي يغضب زوجها إن أغضبته الدنيا سقط من عينها ، وإن أغضبته الآخرة عظُم في عينيها ، ولا يوجد إنسان لا يغضب ، والغضب ضروري ، لكن ما الذي يغضبك؟ يغضبك أن الأولاد ناموا ولم يأكلوا ؟ أم يغضبك أنهم ناموا ولم يصلوا ؟ أول تسأله : كتبوا وظائفهم ؟ قلما تجد أبا يقول : هل صلوا العشاء ؟ كتبوا وظائفهم وتعشوا ، الحمد لله ، والصلاة ، أين قوله تعالى :

﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ ﴾

[سورة طه]

قد يكون صاحب محل تجاري وعنده موظف ، إذا تأخر ربع ساعة يقيم عليه النكير ، الظهر والعصر والمغرب ما صلاها أين الدين ؟ مرتاح ولا يشعر بغيرة الموظف ، وأمانة في عنقك ، أفلا توجهه ولأن الله يغار حرم الفواحش ، ولأنه يغار ساق المصائب ، ولأنه يغار أدب عباده ، ولأنه يغار ساق لهم ما يرجعهم إلى الله عز وجل .

قال : ومما يدخل في الغيرة قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴿٤٥﴾ ﴾

[سورة الإسراء]

قال بعض العلماء : أتدرون ما هذا الحجاب ؟ قال : هذا حجاب الغيرة فلا أحد أغير من الله ، إن الله تعالى لم يجعل الكفار أهلا لفهم كلامه ولا أهلا لمعرفته وتوحيده ومحبته ،

جعل بينهم و بين رسوله وكلامه وتوحيده حجابا مستورا عن العيون ، غيرةً عليه أن يناله من ليس أهلا له " لا ترضى إذا كان عندك سبيكة ذهب " كيلو " قيمتها خمسمائة ألف ، أن تجدها في القمامة ، تقيم النكير وقد تجد قطعةً ثمينة في المطبخ مهملة أو غير منظفة أو غير ملمعة ، أو ليست في مكانها الصحيح تغار ، وإذا الشيء مهان و هو ثمين تغار ، وكل إنسان في بيته أشياء ثمينة ، إن رآها مهملةً أو غير معتنى بها يتألم ، هذه قطعة ثمينة ، مكانها في غرفة الضيوف ، الأولى أن تكون نظيفةً وملمعة ، وموضوعة بشكل يلفت النظر ، لذلك ا عز وجل جعل هذا الحجاب المستور بين الفجار والكفار وبين أنبيائه ورسله وكتابه وأسمائه .

قال : والغيرة نوعان : غيرة من الشيء وغيرة على الشيء فالغيرة من الشيء كراهةُ مزاحمته ، ومشاركته لك في محبوبك ، طفل آخذٌ أعلى مكانة من والديه ، فإذا أنجبت أمه طفلا آخر تبدأ الغيرةُ والطفل يريد أن يستأثر بأمه ، وهناك أزواج يشكون من غيرة زوجاتهم لو لم تكن زوجاتُهم بهذه الغيرة لتألموا ألما شديدا ، من شدة محبتها لك تسألك أين كنت ، طبعا الغيرة لها حد طبيعي سوي ، و لها حد مرضي الحد المرضي لا يحتمل ، مثلاً رجل صالح مؤمن مستقيم معروف مكشوف ، له أصدقاء صالحون ، تسأله أين كنت ؟ عند أصدقائنا ، تعيد الكرة : معك واحدة ؟ هناك مثل هذه الحالات ، وهذه الحالات غير معقولة هذه اسمها غيرةٌ مرضية ، تتوهم أن زوجها ينحرف وهو أنقى من ماء السماء ، لأنه تأخر عن البيت فقط ، غيرة بحدها المعتدل ممتازة وجيدة وضرورية وحيادية ، وسلم نرقى به ، أو دركات نهوي بها ، وا ُ لأنه يغار جعل هذا الحجاب بينه وبين عباده العصاة ، لأن هذا الشيء الثمين ليس لهم ، لذلك قالوا : من حدث بالحكمة لغير أهلها فقد ظلمها ، ومن منعها أهلَها فقد ظلمهم "

مرة قال لي طالب في التعليم ، وهو ضعيف في اللغة ، الناس وصلوا إلى القمر ، ونحن لازلنا في الفاعل والمفعول بعيد جدا أن أجيبه إجابة جادة ، قلت له : هذه المادة بلاء من ا ، وهو يسخر من هذه المادة ، ويسخر من لغة أمته ، ويسخر من لغة وطنه ، وليس هناك أمة إلا وتفتخر بلغتها ، فهو يرى أن هذه المادة لا حاجة لنا بها ، يجب أن تُلغى ، لأنها صعبة ، فقلتُ له : هذه بلاء من ا ، تحملْ ، لأنه يسخر، فهو ليس أهلا أن تجيبه إجابة جادة .

يقال مرة أحد كبار فلاسفة البريطانيين " برنارد شو " في حفل جلست إلى جانبه امرأةٌ حسناء ، وهو كان دميما جدا ، فقالت : لو تزوجتَني فأنجبنا ولدا يجمع بين ذكائك وجمالي ؟ وكان ذكيا جدا ، قال : وإذا كان العكس ، فجمع بين غباءك ودمامتي ، فالنقطة دقيقة جدا ، فا ُ عز وجل إذا الإنسان لم يكن مستقيما ولم يكن طاهرا القرآن محجوب عنه هناك دليل أقوى ، قال تعالى :

﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ

إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾

[سورة الإسراء]

ودليل أقوى ، قال تعالى :

﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ ﴾

[سورة فصلت]

القرآن ، قال تعالى :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

[سورة فصلت]

تجد إنسان مستواه هابط جدا ، هذا ليس أهلا أن تعطيه الحق ، الحق لأهله ، وله أهل ، وبالمناسبة إذا وجدتَ إنسانا معدنه طيب ، كما قال عليه الصلاة والسلام ..

عن أَبِي هريرةَ رضي الله عنْه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قَالَ :

" تَجِدون الناس معادن خيارهم في الْجاهلية خيارهم في الْإِسلامِ إِذَا فَقهـوا وتَجِـدون خَيـر الناسِ في هذَا الشأْنِ أَشَدهم له كَراهيةً وتَجِدون شَر الناسِ ذَا الْوجهينِ الذي يـأْتي هـؤُلاء بِوجه ويأْتي هؤُلاء بِوجه "*

[رواه البخاري]

معدن هذا الإنسان طيب وفيه حياء وفيه أدب وفي قلبه رحمة ، ولو كان غير ملتـزم ، احرص على هدايته ، أما إنسان وقح متجهم لا يستحي من ا تعليقاته لاذعـة جـدا ، هـذا انصرف عنه أشرف لك وله ، لا تضع الحكمةَ في غير أهلها ، ومن وضعها في غير أهلهـا كمن يقلد الخنازير عقود الماس ، عقد الماس قيمته ثمانون أو تسعون ألـف ووضـعه علـى خنزير ، هذا العقد ليس لهذا الحيوان ، واحد قدم لحمار زهرة فلةً فأكلها الحمار فكان تعليـقُ أحدهم أن الحمار هو الذي أعطاه إياها ليشُمها فأكلها ، والفلة ليست له ، الفلة تُشم من إنسان ..

الغيرةُ نوعان : غيرةٌ من الشيء ، وغيرة على الشيء ، فالغيرة مـن الشـيء كراهـةُ مزاحمته ومشاركته لك في محبوبك ، هذه صفة مذمومة طبعا الدنيا محدودة ، ففيها غيـرة ، وفيها تنافس ، وفيها حسد وفيها بغضاء ، أما الآخرة مفتوحة للكل ، ولا يوجد إنسان ينـافس

إنسانا وا ذو الفضل العظيم ، ورحمة ا تسع كل الناس ، عندنا وظيفة واحدة مدير عام ، و هناك مئتا موظف ، هذا المدير العام نُقل ، تنافس على هذه الوظيفة ، الواحدة ، مئتا موظف في الدنيا الفانية عند ا عز وجل لو فرضا مائة ألف مليار إنسان ارتقى إلى مرتبة الصديقين تسعهم رحمةُ ا عز وجل ، لا توجد غيرةٌ ، ولا تنافس أخاك ، رحمة ا واسعة ، وفضـله عميم ، ورزقه وفير ، فالغيرة من الشيء كراهةُ أن يزاحمك أحد في محبوبك ، وا للجميع ، بل إن من صفات النبي عليه الصلاة والسلام أنه ما من أحد من أصحابه إلا وكان متأكداً أنه أقرب الناس إليه، والغيرة على الشيء هي شدة الحرص على المحبوب أن يفوز بـه غيـرك دونك ، أن تغار عليه محبة بالغة له ، أن تغار منه في أمور الآخرة محبوبة ، وفي أمور الدنيا مذمومة ، أن تغار من إنسان لأمر من أمور الآخرة غيرة محمودة ، وأن تغار من إنسان لأمر دنيوي هذه غيرة مذمومة ، أما أن تغار على إنسان فهذه صفةٌ محمودة دائما ، حرص شديد .

الآن والغيرة أيضا نوعان : غيرة العبد من نفسه على نفسه ، داخلية من إعراضه علـى إقباله، من صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة من النفس الدنية على الـنفس الشـريفة ، فهناك صفات مذموة ، فيغار من هذه الصفات أن تحتل مكان الصفات العالية ، دائما المـؤمن في قلق يغارمن نفسه على نفسه ، فصار هناك شخصيتان ، نفس مقصرة ونفس متفوقة ، يغار على نفسه المتفوقة من نفسه المتخلفة .

والغيرة أيضا نوعان : غيرة الحق تعالى على عبده وغيرة العبد لربه ، أما أن يغار ربه جل جلاله على عبده ، فهي أن لا يكون للخالق عبدا ، أنت ، فإذا كنتَ لغيره يغار عليك ، قال تعالى

﴿ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ﴾

[سورة طه]

أنت ، فإذا كنت لغيره ا عز وجل يغار عليك ، لذلك غيرة ا علـى عبـده أن لا تكون للخالق عبدا ، أما غيرة العبد لربه ، هذه نوعان غيرة من نفسه وغيرة من غيره ، فالتي من نفسه أن لا يجعل شيئا من أعماله وأقواله وأوقاته وأنفاسه لغير ا ، قال تعالى :

﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

[سورة الأنعام]

والتي من غيره يغضب إذا انتُهكت محارم ا عزوجل والمؤمن يرتجـف إذا انتهكـت محارم ا عزوجل ، امرأة مستورة تُهان أو شيخ وقور يهان .

أيها الإخوة ... الأنبياء والرسل من شدة غيرتهم على البشرية كانوا يتألّمون أشـد الألـم حينما لا يستجيب الناس لهم ، قال تعالى :

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾

[سورة طه]

من شدة غيرته على الخلق كان يتألم ، قال تعالى :

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾

[سورة الشرح]

كان منقبض الصدر ، لأن أهل مكة منحرفون ، وغارقون في الربا والخمور والزنا ، ولا يعرفون ا َ عز وجل ، فكان في ضيق فلما جاءه الوحي انشرح صدره ، قال تعالى :

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾

[سورة الشرح]

فالأنبياء يغارون ويتألمون أشد الألم من أقوامهم حينما لا يستجيبون لهم .

مثلا ؛ أم هيأتْ طعاما نفيسا جدا ، جاء ابنُها من المدرسة فأكل أخشن طعام ، جائع ، تقول له: انتظر ربع ساعة تأكل أطيب الطعام لا يستجيب ، أحيانا تذمه ، وهذا حب ورحمة ..

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾

[سورة التوبة]

من شدة غيرة ا علينا ..

إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ

[سورة التوبة : آية " ٣٩ "]

وما ذلك على ا بعزيز .

إخواننا الكرام ... ورد عن رسول ا ،

عن أبي هريرةَ قالَ قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم

" من ماتَ ولم يغْزُ ولم يحدثْ به نَفْسه ماتَ على شُعبة من نفَاق "*

[رواه مسلم]

والجهاد كما هو مقرر عندنا جهاد النفس والهوى ، وهناك الجهاد الدعوي ، والجهاد الدعوي متاح لكل مسلم ، أن تجاهد الناس أي أن تعلمهم القرآن ، قال تعالى :

فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾

[سورة الفرقان]

يخطر ببال أحدهم أن لا يقرب إنساناً ليهديه أو ينصحه ، يقول : ادعهم وشأنهم فالنـاس لا خير فيهم .

عن أبي هريرةَ أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قالَ :

" إذَا قـالَ الرجلُ هلكَ الناس فهو أهلكُهم قالَ أبو إسحقَ لا أدري أهلكَهم " *

[رواه مسلم]

ما خطر بباله أن يتكلم كلمة حق في مجلس وما خطر بباله أن يسمع شريطا لإنسان ، وما خطر بباله أن يدل إنسانا على مسجد فيه درس علم ، هذا الذي لا يحدث نفسه في كل حياته أن يدل إنسانا على ا يموت منافقا .

حقيقة الإيمان أيها الإخوة ما إن تستقر في القلب حتى تعبر عن ذاتها بذاتها ، بحركة نحو الخلق ، لا يوجد إنسان مؤمن منسحب من الحياة إنسان مؤمن متقوقع ، إنسان مؤمن سلبي ، إنساني مؤمن بعيد عن هدي الآخرين يقول : الناس ليس فيهم خير ، الانسحاب وعدم الاهتمام بالآخرين هذا يدل على النفاق ،" من مات و لم يحدث نفسه بالغزو" ولحد الأدنى " ولم يحدث نفسه بالغزو" والجهاد كما ذُكر ؛ جهاد النفس والهوى أولا ، وثانيا : الجهاد الدعوي ، ثالثـا : جهاد قتالي ، وإذا الجهاد القتالي اليوم غير متاح الآن فالجهاد الدعوي ميسر لكـل النـاس ، سمعت خطبةً انقلها للآخرين ، سمعت درس علم ، سمعت تفسير آية ، سـمعت قصـة عـن صحابي ، سمعت حكما شرعيا ، سمعت طُرفةً عن عالم جليل تهز المشاعر ، انقلها للآخرين فهذا الذي لا يغار على عباد ا يموت منافقا ، فالغيرة من صفات ا عزوجل ، ومن صفات الأنبياء والرسل، ومن صفات المؤمنين ، والغيرة يعني الرحمة والغيرة يعني الحب ، والغيرة يعني الحرص ، قال تعالى :

﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾

[سورة التوبة]

بقي موضوع في الغيرة ؛ أن المؤمن عنده حرص بالغ على وقته يغار أن يضيع وقتُـه سدى ، يغار أن تفوته طاعةٌ ، يغار أن يمضي اليوم دون أن يرزق عملا صالحا يرقى به عند ا ، هذه غيرة المؤمن فلذلك الوقتُ أثمن عنده من كل شيء ، لأنه هو وقت ، وما الإنسان إلا بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه .

والحمد رب العالمين

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس السبعين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والمنزلة اليوم منزلة الفراسة .

لا تنسوا أيها الإخوة أن كل هذه المنازل إنما هي مستنبطة من كتاب ا ، ومما صح من سنة رسول ا صلى ا عليه وسلم ، فالفراسة مأخوذةٌ من قوله تعالى :

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾

(سورة الحجر)

فقال مجاهد رحمه ا : **أي للمتفرسين .**

وقال ابن عباسٍ رضي ا عنهما : **للناظرين .**

وقال قتادة : **للمعتبرين .**

وقال مقاتل : **للمتفكرين .**

المتوسمين ، المتفرسين ، الناظرين ، المعتبرين ، المتفكرين ، فالتفكر ، والاعتبار ، والنظر ، والفراسة من صفات المؤمن ، وقبل أن نمضي في الحديث عن تفاصيل هذه المنزلة ، لابد من أن أشير إلى أن المؤمن حينما آمن با ، وحينما اصطلح معه ، وحينما استقام على أمره، وحينما عمل الصالحات تقرباً إليه ، ماذا يكافئه ا على هذا في الدنيا ؟

يكافئه بأن يملأ قلبه أمناً ورضى ، يكافئه بأن يملأ قلبه سعادةً وسروراً ، يكافئه بأن ييسر أموره ويدافع عنه ، يكافئه بأن يحفظه ويتولى أمره .

وا آية لعلها في سورة محمد عليه الصلاة والسلام :

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

(سورة محمد)

فهل شيء قليل أن يكون ا مولاك ؟ كل شيء بيده ، علمه مطلق ، غناه مطلق ، قدرته مطلقة ، هو وليك ..

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

(سورة محمد)

وازن بين طفلين ؛ طفل له أب ، عالم ، مربٍ ، مقتدر ، يرعى خلقه ، ويرعى جسمه ، ويرعى دينه ، ويرعى علمه ، ويرعى نفسه ، ويرعى حياته الاجتماعية ، فالطفل مهـذب ، متفوق ، أنيق ، نظيف ، مضبوط ، وبين طفلٍ آخر لا أب له يرشده ، فالطفل شريد ، كلامـه بذيئ، ينام في الطرقات ، منحرف الأخلاق . هذا الطفل له أب ، وله مرجع ، ولـه تربيـة ، وهذا الطفل بلا أب ، بلا مرجع ، بلا تربية ..

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾

(سورة محمد)

فأنت حينما تصطلح مع ا ، وحينما تقبل عليه ، بماذا يكافئك ؟ يكافئك بوعود قطعهـا على نفسه ، يكافئك أن ينصرك ، أن يقربك ، أن يحفظك ، أن يوفقك ، أن ييسر لك أمورك ، يكافئك بأن يملأ قلبك غنى، يملأ قلبك أمناً ، سعادةً ، رضى ، هذه النعم التي هي فـي الـدنيا يجعلها ا عز وجل متصلةً بنعم الآخرة ، هذه مكافأة ا لك ، يلهمك رشدك ، يسدد خطاك ، يعطيك رؤيةً ، الآن وصلت إلى محور الدرس ، يعطيك فراسةً .

إنسان يتدمر برؤية خاطئة بإنسان خدعه ، إنسان يتدمر بزوجة تشقيه ، بشريك مزعج ، يتدمر بورطة كبيرة ، يهلك بسوء نظر ، فالمؤمن محصن من أن يهلك برؤية ضـبابية ، أو بموقف مرتجل ، أو بورطة لا طاقة له بها ، ا عز وجل يكرمه فيعطيه هذه الفراسة هـذا الإدراك العميق الذي يتميز به عن بقية الناس ، المؤمن إنسان متميز يرى ما لا يراه الآخرون ، ويسمع ما لا يسمع الآخرون ، ويشعر بما لا يشعر الآخرون .

من فترة قريبة وجد رجل جامع أموال ، أرقامه فلكية ، وأرباحه خيالية وثق بـه النـاس ووضعوا بين يديه أموالهم إلا أن بعض المؤمنين انقبضت نفوسهم ، فسحبوا أمـوالهم ، بعـد حين كان هذا الجامع لأموال الناس محتالاً ، فضاعت الأموال كلها ، إلا لفئة قليلـة بالفراسـة استرجعت أموالها في الوقت المناسب هذه مكافأة من ا عز وجل .

قصص كثيرة ، صفقة تبدو لك وكأنك ستصبح بسببها غنياً ، الفراسة قد ترشدك إلـى انقباض ، هذا الانقباض سبب حفظ مالك أحياناً ، في مكافأة من ا للمؤمن هي هذه الفراسة ، الفراسة ثابتة بالكتاب والسنة ، تعرفها العوام وتقول : الحر قلبه دليله . عندك قدرة على كشف الحقيقة بشكل متميز ، هذه القدرة هي الفراسة ، إنسان مخادع تحس بانقباض ، إنسان طيـب تثق به ، إنسان بريئ تحس ببراءته ، إنسان مخادع تقول : ما اطمأننت له . بالرغم مـن أن كلامه مقنع ، كلامه رائع، مؤيد بكل الأدلة ومع هذا لم ترتح له ، هذه هي الفراسة .

الفراسة كشفت حقيقة هذا المخادع ، الفراسة كشفت براءة هذا البرئ، فهذه الفراسة جزء من إكرام ا للمؤمن ، جزء من ثمرات الإيمان ، جزء من الثواب الذي يعود عليك من عملك الصالح ..

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾

(سورة الحجر)

للمتفرسين ، للناظرين ، للمعتبرين ، للمتفكرين .

في شيء آخر أيها الإخوة ا عز وجل يقول :

وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ

(سورة محمد : من آية " ٣٠ ")

هذه آية أوضح :

وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ

(سورة محمد : من آية " ٣٠ ")

فكم إنسان خدع إنساناً ؟ وكم إنسان احتال على إنسان ؟ وكم إنسان دمر إنساناً ؟

يعطيك من طرف اللسان حلاوةً ويروغ منـك كما يروغ الثعلب

* * *

فالمؤمن محصن من أن يكون ضحية خديعة ، أو ضحية مراوغة، أو ضحية احتيال ، ا عز وجل يعطيه فراسة ، وهذا الشيء ثابت .

علماء الحديث أحياناً ، يقعون على حديث سنده صحيح ، ومتنه متماسك ، يقول : هـذا الحديث ليس فيه رائحة النبوة ، صنفه العلماء حديث معال ، أي فيه علة باطنة ، المتن صحيح ، والسند صحيح ، إلا أن عالم الحديث لفراسته شعر أن هذا الحديث لا تفوح منه رائحة النبوة ، قال لك : هذا الحديث ما قبلته . هذه فراسة .

الفراسة للمؤمن وحده ، وغير المؤمن لا فراسة له ؛ له حماقة ، وله تورط ، وله إيهام ، المؤمن له فراسة ، والقول الذي يتردد على كل الألسنة : " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظـر بنور ا وينطق بتوفيق ا ".

هذا القول رواه الإمام الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول ا صلى ا عليه وسلم :

" **اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور ا** "

وله زيادة : " **وينطق بتوفيق ا** " .

إذن ..

وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ

(سورة محمد : من آية " ٣٠ ")

إنسان دخل المسجد ليبحث عن رجلٍ صالح يعطيه أمانةً كبيرةً قبل أن يذهب إلى الحج ، لفت نظره إنسان يصلي بخشوع ، ويغمض عينيه ، ويطيل الركـوع والسـجود ، أعجبتـه صلاته ، قال له بعد أن انتهى من الصلاة : وا أنا أريد أن أضع عندك أمانة ، أنا ذاهب إلى الحج وقد أعجبتني صلاتك ، وتوسمت فيك الخير . قال له : وأنا أيضاً صائم يا سيدي . قـال له : وا ما أعجبني صيامك ..

وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ

(سورة محمد : من آية " ٣٠ ")

دائماً الإنسان له فلتات لسان ، هذه الفلتات تكشف عن حقيقته ، تكشف عن خبثه أحياناً ، تكشف عن دناءته دون أن يشعر ، المنافق ا عز وجل يكشفه بهذا الكاشـف مـن فلتـات اللسان ..

وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ

(سورة محمد : من آية " ٣٠ ")

لكن ا سترهم ، لو نشاء لرأيت النفاق عليهم ظاهراً ، ولكن سترناهم لعلهم يعـودون إلى ا ، لكنك يا محمد لتعرفنهم بسيماهم ..

وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ

(سورة محمد : من آية " ٣٠ ")

تجد وجهه لا ترتاح له ، فيه مشكلة ، ما في براءة ، المؤمن نوره في وجهه ، ضـوء وجهه بريئ ، فيه طهر ، فيه بساطة ، والحقيقة الوجه مرآة النفس ، فنفسـك تـنعكس علـى

وجهك ، لذلك الوجه هي وجه ذات، الخبث يظهر في الوجه ، والطيب يظهر فـي الوجـه ، والمخادعة تظهر في الوجه ..

وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ

(سورة محمد : من آية " ٣٠ ")

فالأول فراسة النظر والعين ، والثاني فراسة الأذن والسمع ، واللحن ضربان ؛ صواب وخطأ ، فلحن الصواب نوعان أحدهما الفطنة ومنه الحديث :

" ... ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض "*

(من صحيح البخاري : عن " أم سلمة ")

أيضاً الفصاحة الزائدة ، والتشدق بالألفاظ ، والتقعر ، وأن تأتي بشواهد ، وأن تحفـظ الشعر، هذا يبطن شيئاً ، قد لا يرضي ، فيه تصنع ، وتكلف ، والنفس تكره التصنع والتكلف ، والكلام البسيط أشد تأثيراً ووقعاً في النفس .

فقال : اللحن ضربان ؛ صواب وخطأ ، الصواب نوعان أحدهما الفطنة ومنه الحـديث لعل بعضكم ألحن بحجته من بعض . ذكي ويستخدم ذكاءه شبكةً يوقع بها خصومه ، فطنتـه خبيثة ، والثاني التعريض والإشارة وهو قريب من الكناية ، بالمناسبة أناس كثيرون يتكئـون على فتوى لعالم ، أنا أقول لهم : هل من عالمٍ أعظم من رسول ، من سيد الخلق وحبيب الحق ، ومن أوحى الله إليه ، ومن أيده بالمعجزات ، ومن جعله في قمة البشر ؟ ومـع ذلـك لـو استطعت أن تستنبط أو أن تنتزع من فمه الشريف حكماً لصالحك ، ولم تكن محقاً في دعواك ، لا تنجو من عذاب الله ، وهذا الحديث شاهد :

" ... ولعـل بعضكم ألحن بحجته من بعض فمن قضيتُ له بحق أخيه شيئًا بقوله فإنما أقطع له قطعةً من النار فلا يأخذْها "*

(من صحيح البخاري : عن " أم سلمة ")

فأنا اطمئن كل واحد معه فتوى من عالم بأن لا يرتاح لأنها لا تنفعه ، لا تجديه فتوى عالم ولا تنفعه يوم القيامة ، لا ينفعه إلا أن يكون مخلصاً لله عز وجل .

" ... ولعـل بعضكم ألحن بحجته من بعض فمن قضيتُ له بحق أخيه شيئًا بقوله فإنما أقطع له قطعةً من النار فلا يأخذْها "*

(من صحيح البخاري : عن " أم سلمة ")

فالكياسة والذكاء والفطنة ، طلاقة اللسان هذا من لحن القول ، وفساد المنطق في الإعراب أيضاً من لحن القول ، وبالمناسبة اللحن في اللغة هو الخطأ في الإعراب ، ولحن أمام النبي عليه الصلاة والسلام أحدهم فقال عيله الصلاة والسلام :

" ارشدوا أخاكم فإنه قد ضل " .

(من كنز العمال)

ممكن أن يضاف إلى هذا فلتات اللسان ، كتعبر أحدهم عن نفسيته بكلمة قد تأتي عرضاً ، مدح رجل أحدهم وهو لا يحبه ، فقال له بيتاً قاله الإمام الشافعي :

أحب الصالحين ولستَ منهم لعلي أن أنال بهم شفاعة

وأكره من بضاعته المعاصي ولو كنا سواءاً في البضاعة

*** * ***

أحب الصالحين ولستَ منهم ، هو يقصد أحب الصالحين ولستُ منهم، قال له : ولستَ منهم . فهذه من فلتات اللسان ، بغضه ظهر ، عبر عن نفسيته .

أثناء الحديث بين الناس تسمع كلمات تظن أنها خطأ ، هي ليست خطأً ، خرجت لتعبر عن حالة نفسية .

لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

" اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور ا وينطق بتوفيق ا "

العلماء قالوا : لعل حقيقة الفراسة أن ا عز وجل يقذف نوراً في قلب عبده المؤمن ، فيرى بهذا النور الحق حقاً والباطل باطلاً ، يكشف الخبايا ، نور يخترق ، فالمنافق مخترق من قبل المؤمن ، مكشوف ، وهذه كرامةٌ للمؤمن أن يخترق الإنسان ظواهر الناس .

وكان عليه الصلاة والسلام يحترس من الناس ويحذرهم من غير أن يطوي بشره عن أحد.

وقال بعضهم : الفراسة فوق أنها نور يقذف في القلب ، خاطر يهجم على القلب ينفي ما يتراءى للإنسان في ظاهر الأمر ـ بالظاهر إنسان برئ لكن يأتي خاطر يهجم على القلب ـ يثب على القلب كوثب الأسد على فريسته .

وقال بعض العلماء وكان حاد الفراسة ، لا يخطئ من يقول : من غض بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعمر باطنه بالمراقبة ، وظاهره باتباع السنة ، وتعود أكل الحلال ، لم تخطئ فراسته .

وقال بعض العلماء : الفراسة أول خاطرٍ بلا معارض ، فإن عارضه معارض آخر من جنسه فهو حديث نفس وليس فراسةً . بلا معارض .

أحد العلماء يقول : الفراسة لا تكون إلا من غرس الإيمان - ليس هناك فراسـة دون إيمان أبداً . شبه الإيمان بالغرس لأنه يزداد وينمو ويزكو على السقيا ، ويأتي أُكُلَه كل حـينٍ بإذن ربه ، أصله ثابتٌ في الأرض وفرعه في السماء ، فمن غرس الإيمان فـي أرض قلبـه الطيبة الزاكية ، وسقى تلك الغراس بماء الإخلاص ، والصدق والمتابعة ، كان مـن بعـض ثمره الفراسة .

فالفراسة رؤية عميقة ، قلما تقع بورطة ، قلما تقع ضحية خديعة ، عندك فراسة .

ابن مسعود رضي ا عنه يقول : أفرس الناس ثلاثة ؛ العزيز في يوسف ، إذ قال لامرأته:

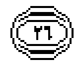
أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ

نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ

(سورة يوسف : من آية " ٢١ ")

وهم لا يشعرون ، وابنة شعيب حين قالت لأبيها :

يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ



(سورة القصص : من آية " ٢٦ ")

وسيدنا أبو بكر في عمر رضي ا عنهما حينما استخلفه - فراسته - قيل له : يا أبـا بكر، يا خليفة رسول ا أتولي علينا أشدنا ، ألا تخاف ا ؟ فبكى وقال : " لو أن ربي سـألني لقلت له يا رب وليت عليهم أرحمهم ، هذا علمي به فإن بدل وغير فلا علم لـي بالغيـب " . فراسة .

أفضل إنسان بعده سيدنا عمر ، وامرأة فرعون وهي صديقة كما قال عليه الصلاة والسلام:

" كَمَلَ من الرجال كثير ولم يَكْمُلْ من النساء إلا آسيةُ امرأةُ فرعون..."*

(من صحيح البخاري : عن " أبي موسى ")

قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾

(سورة القصص)

هذه أربع فراسات وردت في كتاب ا .

وكان الصديق رضي ا عنه أعظم الأمة فراسةً ، وبعده عمر بن الخطاب رضي ا عنه، ووقائع فراسته مشهورة ، فإنه ما قال لشيء أظنه كذا إلا كان كما قال ، ويكفي في فراسته موافقته ربه في المواضع معروفة ـ أي أنه له عدة رؤى ، واجتهادات جاء الوحي بها ، حتى هناك كتاب اسمه موافقات سيدنا عمر ، له رؤى واجتهادات الوحي نزل باجتهادات عمر رضي ا عنه ، فكان من أعظم أصحاب رسول ا فراسةً .

فمن عصى ا من أجل إنسان وأرضاه ، هذا الذي أرضيته وأسخطت ا عز وجل ، لابد من أن يسخط ا عليك ويسخط عليك هذا الإنسان ، وإذا أغضبت إنساناً في طاعة ا لا بد من أن يرضى ا عنك وأن يرضي عنك هذا الإنسان ، فهذه الكلمة : " من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً ، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً " .

فموضوع الحفظ ا عز وجل يقول في محكم كتابه :

فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾

(سورة يوسف : من آية " ٦٤ ")

الإنسان أحياناً يسافر ، فأثناء سفره هل يضمن أن ابنه خرج من البيت ، وسيارة طائشة أصابته بحادث ؟ أيضمن حدوث خلل بالبيت ؟ ارتعب الأهل ؟ دخل غريب الدار ؟ مرض الأهل والولد ؟ أما المؤمن إذا أزمع السفر يدعو بهذا الدعاء :

" اللهم أَنْتَ الصاحب في السفَر والْخَلِيفَةُ في الأَهل "*

(من صحيح مسلم : عن " الحجاج بن محمد ")

بهذا الدعاء تحس أعصابك تخدرت ، ا خليفتك بالبيت ، يحفظ أهلك وأولادك ومالك وكل شيء ، وترى أدلة ، ترى كيف أن ا عز وجل حفظ لك ولدك من حادث خطير ، نجا بأعجوبة، هذا حفظ ا عز وجل قال :

فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾

(سورة يوسف : من آية " ٦٤ ")

لكن ما عند ا لن تناله إلا إذا اتبعت منهجه ، حفظ المال بتأدية الزكاة ، حفظ الجوارح بطاعة ا ، عين تغض عن محارم ا ، عين تبكي من خشية ا ، ترثها ؟ لا ترثـك ، فـي فرق بين أن ترثها وأن ترثك..

" ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا "*

(من سنن الترمذي : عن " ابن عمر ")

فالإنسان المؤمن ما دام لسانه ينطق بالحق ، وبصره ينظر إلى آيات ا لا إلى عورات المسلمين ، وسمعه يستمع به الحق ، ما دام المسلم هكذا أغلب الظن أن ا سـبحانه وتعـالى يحفظ له هذه الجوارح ، أي أن في حالة اسمها حالة الأمن ، المؤمن يشعر بـأن ا سـبحانه وتعالى لن يضيعه هذا معنى قوله تعالى :

فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

(سورة الأنعام)

إذن :

فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾

(سورة يوسف : من آية " ٦٤ ")

أحياناً الأب عنده حرص على ابنه لا حدود له ، أب ، لكن لو حصـل خلـل بالخلايـا الداخلية ، ونمت هذه الخلايا نمواً عشوائياً ، الأب ماذا بيده أن يفعل ؟ بيده أن يتألم فقط ، أما الإله كل شيء بيده ..

فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾

(سورة يوسف : من آية " ٦٤ ")

فالذي يحفظ هو ا عز وجل ، أقسم لي با رجل يقود سيارته في طريـق طويـل ، وسرعته عالية ، ونام وهو يقود السيارة ، ورأى مناماً ، واستيقظ في الوقت المناسب قبـل أن يقوم بحادث مروع مدمر ، فإذا كان ا معك فمن عليك ؟ وإذا كان ا عليك فمن معك ؟

تلاحظ أن من حكمة ربنا عز وجل أنه أحياناً من اعتمد على ذاته، من اتكل على نفسه ، من اعتمد على ذكائه ، على ماله ، على معارفه ، على أصدقائه ، على اتصالاته ، مثل هـذا

الإنسان على أتفه الأسباب يدمر ، وربنا عز وجل حينما يدمره على أتفه الأسـ ـباب يجعلـه عبرة للناس ..

" ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده السموات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا ، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعـت أسباب السماء بين يديه وأرسخت الهوى من تحت قدميه ، وما من عبد يطعينـي إلا وأنـا معطيه قبل أن يسألني ، وغافر له قبل أن يستغفرني ".

(من الجامع الصغير : عن " كعب بن مالك ")

لذلك أقوى شيء يشدك إلى الدين معاملة ا اك ، بعد أن تصطلح معه ، تشعر بعنايتة ، وتوفيقه ، وإلهامه ، وتسديده ، وحفظه وتأييده ونصره ، في إلهام ، فا عز وجل يلهمك أن لا تسافر، لأن بالسفر هلاك ، أحياناً تنشأ حوادث ضخمة ، قبل يوم من الاجتياح سحب كـل ماله وجاء به إلى بلده ، من اليوم الثاني فقد كل ماله ، يوم واحد من ألهمك ؟ ا عز وجل ..

فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ

(سورة يوسف : من آية " ٦٤ ")

كلمة خير حافظاً أي إن اعتمدت على ذكائك ، أو على عقلك ، أو على مالك ، أو على أتباعك ، أو على جماعتك ، أو على صلاتك ، أو على أشخاص أقوياء ، أو على تخطيطك ، أو على تدبيرك لا ينفعك..

فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾

(سورة يوسف : من آية " ٦٤ ")

كفار قريش أليست معارضتهم لرسول ا هدفها الحفاظ على ما هم فيه ، فبشكل واقعي ودعك من القيل والقال ، زعماء قريش حينما عارضوا النبي ، وكفروا بـه ، وكـادوا لـه ، وأخرجوه ، وحاربوه ، واضطهدوا أصحابه ، أليس من أجل أن يحافظوا على مكانتهم في مكة ، وعلى زعامتهم ، وعلى أموالهم ، وعلى شأنهم في الجزيرة فما الذي حصل ؟

دمروا ، وقتلوا ، ومزقوا ، وشردوا ، من الذي انتصر عليهم ؟ رسول ا وأصحابه ، الذين اتبعوه ، هذا شيء متكرر دائماً يؤكده قوله تعالى :

وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾

(سورة الأعراف)

الأمور تدور وتدور وتدور ، لا تستقر إلا على تكريم المؤمن وحفظه ..

وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾

(سورة الأعراف)

الحقيقة كلمة حفيظ لها معنيان ؛ المعنى الأول : حفيظ بمعنى عليم، ا لا ينسى ، حفيظ لا ينسى ؛ كل أعمالك ، كل أقوالك ، كل مواقفك ، كل عطاءاتك ، كل منعك ، كل الصراعات التي في ذهنك ، كل ما أنت فيه محفوظٌ عند ا عز وجل .

أيها الإخوة الكرام ... من أمثلة الفراسة التي كان سيدنا عمر متفوقاً بها ، أنه مر بـه سواد بن قارب ولم يكن يعرفه ، فقال سيدنا عمر: " لقد أخطأ ظني ، أو أن هـذا كـاهن ، أو كان يعرف الكهانة في الجاهلية ـ رجل لا يعرفه ، قال : هذا كاهن إن لم يخطئ ظنـي ، أو يعرف الكهانة في الجاهلية ـ " . فلما جلس بين يديه قال له عمر ذلك : " هل أنت كـاهن؟ أو تعرف الكهانة ؟ ".

قال : " سبحان ا يا أمير المؤمنين ما استقبلت أحداً من جلسائك بمثل ما استقبلتني بـه ـ لماذا اخترتني بالذات ؟ لماذا قلت لي : هل أنت كاهن ؟ ـ " .

فقال له عمر رضي ا عنه : " ما كنا عليه في الجاهلية أعظم من ذلك، ولكن أخبرنـي عما سألتك عنه " .

قال : صدقت يا أمير المؤمنين ، كنت كاهناً في الجاهلية . ثم ذكر القصة .

العلماء قالوا : أصل هذا النوع من الفراسة ، من الحياة والنور الذين يهبها ا عز وجل لمن يشاء من عباده ، فيحيا القلب بذلك ، قلب حي وفيه نور فلا تكاد فراسته تخطـئ ، قـال تعالى :

أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ

(سورة الأنعام : من آية " ١٢٢ ")

آية واضحة ، قلبه كان ميتاً فأصبح حياً ، وفي هذا القلب نور يمشي به في النـاس ..

كَمَن

مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ

(سورة الأنعام : من آية " ١٢٢ ")

كان ميتاً بالكفر والجهل ، فأحياه ا بالإيمان والعلم ، وفي بعض الأدعية التي أفتتح بها بعض الخطب : " اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفـة والعلـم ، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات".

فالآية مصداق ذلك :

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ

(سورة الأنعام : من آية " ١٢٢ ")

والقرآن هو النور ، يستضئ به في الناس على قصد السبيل ، ويمشي به في الظُّلَم .

العلماء قالوا : فراسة المتفرس تتعلق بثلاثة أشياء ؛ تتعلق بعينه ، وبأذنـه ، وقلبـه ، فعينه للسيماء والعلامات ، وأذنه للكلام والتصاريح ، والتعريض ، والمنطوق ، والمفهـوم ، وفحوى الكلام ، وإشارات الكلام ، ولحن الكلام ، وإيماء الكلام ، وقلبه للعبور والاستدلال من المنظور والمسموع إلى باطنه وخفيه ، فيعبر إلى ما وراء ظاهره ، كعبور النقاد من ظـاهر النقش والسكة إلى باطن النقد والاطلاع عليه هل هو صحيح .

في فراسة بالعين ، في فراسة بالأذن ، بالعين سيماء ، علامة ، حركة ، حركة غيـر معقولة ، بالأذن لحن القول ، كلام منمق ، مديح غير معقول ، في وراءه قصد ، مرة إنسـان وسطني أن أقنع جهة أن تقبل تبرع أرض لمسجد ، وا ما كان يخطر في بالي على الإطلاق أن يتبرع إنسان بأرض لمسجد لمصلحة مادية محضة ، في أراضي غير منظمة فإذا تبـرع بمسجد تنظم هذه الأراضي ، وترتفع أسعارها إلى أرقامٍ عالية جداً ، هو يجني أرباحاً طائلـة من تقديم أرضٍ لبناء مسجد ، من يعرف ذلك ؟ لو ذكرت هذا لآلاف الأشخاص يكبرون هـذا العمل ؛ ولكن ا عز وجل يعلم الحقيقة ، فالإنسان حينما يكون مع ا عز وجل أحد ثمـرات هذا القرب من ا أنه يجعل له نوراً يمشي به في الناس .

الإنسان ولا سيما القاضي يميز بين الصادق والكاذب ، الخبراء أحياناً بكل قضية فيهـا مشكلة في تحكيم ، من عنده فراسة يكشف الحقيقة بشكل سريع ـ إنسان رافـق قافلـة فـي الصحراء ـ معه مبلغ كبير من الذهب ، افتقد المبلغ ، فجاء شيخ القافلة وحدثه بالقصة ، فجاء شيخ القافلة بخيمة ووضع بها حمار ، وأمر أتباعه أن يدخلوا لهذه الخيمة وأن يمسـكوا ذيـل الحمار، وأوهمهم أن السارق إذا أمسك ذيل الحمار ينهق الحمار ، وأجبرهم ، فـي الحقيقـة الحمار ما نهق .

ولكن بعد أن دخلوا وخرجوا ، قال : مدوا أيديكم . وضع بذيل الحمار نعنع له رائحـة عبقة، فشم أيديهم ، أحدهم لم يظهر على يده أثر النعنع ، قال : أنت الذي أخذت المبلغ ، هـو خاف، صدق هذا الكلام ، فلم يمسك بذيله في الخيمة ، فكُشف . في أيام أشياء معضـلة ، ا عز وجل يلهم القاضي أو المحقق فيكشفها ، هذه من الفطنة .

فقالوا : للفراسة سببان ؛ أحدهما جودة ذهن المتفرس ، وحدة قلبه وحسن فطنته .

أي أنه قضية ملكات عالية جداً ، وفي قصص كثيرة كيف إنسان عرف الحقيقة بسـبب تافه، امرأتان جاءتا إلى قاضٍ ، تدعي كل منهما أن هذا الولد ابنها ، فقال : أقسموه نصـفين واعطوا كل مرأة نصف . فالأم الحقيقية قالت : لا هو لها . لأنها شـعرت بعطـف عليـه ، فعرف أمه الحقيقية من أمه الكاذبة .

فالفراسة تحتاج إلى حدة ذهن ، وإلى جودة ، وإلى حدة قلب ، وحسن فطنة .

والشيء الثاني ظهور علامات خفية ، وأدلة على المتفرس فيه ، فإذا اجتمع السببان ؛ حدة ذهنٍ ، وعلامات خفية ، ظهرت على وجه المتفرس به ، تكاد الفراسة لا تخطئ ، أما إذا كانت واحدة ، تخطئ وتصيب ، أما إن لم يكن هذا ولا ذاك قلما تصيب الفراسـه ، أي ذهـن محدود وعلامات غير موجودة ، فالفراسة ليس لها معنى .

قال : إياس بن معاوية من أعظم الناس فراسةً ، وله وقائع مشهورة .

والإمام الشافعي أيضاً كان له فراسة رائعة جداً ، وإنه له فيها تآليف.

أيها الإخوة ... عود على بدء ، الفراسة أحد ثمار الإيمان ، والحياة فيها مطبات كثيرة جداً ، فيها أشخاص مخادعون ، فيها أشخاص خبثاء ، في أشخاص لهم مظهر حسن ، ومخبر سيء ، فمن أجل أن تنجو من ورطات ، من إشكالات ، من احتيالات ، ا عز وجـل كـرم المؤمن بفراسة تكاد لا تخطئ .

" اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور ا وينطق بتوفيق ا " .

وهذه الفراسة جزء من النور الذي يقذفه ا في القلب ، والآية الكريمة :

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ

(سورة الأنعام : من آية " ١٢٢ ")

هذا النور هو الفراسة ، فأنت تختار أحسن النـاس ، وأحسـن الأصـدقاء ، وأفضـل الزوجات بهذه الفراسة الصادقة ، فتعرف الطرف الآخر إما بعينك من علامات خفية ، أو من لحن القول ، أو بحدة ذهنك تستنبط من هذه العلامات حكم ، أو بنورٍ يقذف في قلبك كما قلت قبل قليل يكشف لك الحقيقة .

والحمد رب العالمين

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الواحد والسبعين من دروس مدارج السـالكين فـي منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ومنزلة اليوم منزلة **السر** . ا عز وجل يقول :

رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمۡ‌ۚ

(سورة الإسراء)

هنـ ـاك أناس أتقياء ، أخفياء ، أولياء ، يعلم ا طيب سرائرهم ، ويعلم ا إخلاصهم ، ويعلم ا عن همتهم العالية كل شيء ، لذلك خصهم بشيء ، هؤلاء ليس لهم وجود قوي ، ولا سمعة متألقة ، إن حضروا لم يعرفوا ، وإن غابوا لم يفتقدوا . هذه منزلة ، ولعل هذه المنزلـة تغطي كل إنسان في التعتيم ، لا أحد ينتبه له ، لا أحد يأبه له ، لعلـه فـي الدرجـة الـدنيا الاجتماعية ، لعله في وظيفة بسيطة جداً ، لعله يعيش على كفاف هؤلاء أصحاب منزلة رفيعة عند ا عز وجل ، هذا الدين لكل الخلق قويهم وضعيفهم ، من كان تحت الأضواء متألقـاً ، ومن كان في التعتيم هذه المنزلة يختص بها ربنا عز وجل من يشاء ، الانطلاق من هذه الآية

رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمۡ‌ۚ

(سورة الإسراء)

ولقد قال عنهم بعض العلماء : أصحاب السر هم الأخفياء .

هناك مصطلح نقول نجـوم المجتمع ، يعني بالعام هناك أشخاص يشار إليهم بالبنان ، في التجارة ، في الصناعة ، في الزراعة في القيادة، في العلم الجـامعي ، في التـأليف ،هـؤلاء يسمونهم أعلام المجتمع ، ميول المجتمع ، وهناك أشخاص لا أحد يعـرفهم ، يعملون عمـلاً طيباً فيمـا بينهم وبين ربهم ، لهم إخلاصهم ، ولهم محبتهم ، ولعل أصدق شاهد علـى ذلـك أويس القرني . النبي عليه الصلاة والسلام قال :

"إذا لقيتم أويس فاطلبوا منه الدعاء."

سيدنا عمر عشر سنوات يدعو أهل اليمن لعل فيهم أويساً ، في السنة العاشرة سأل رئيس وفد اليمن أبقي أحد من جماعتك ، قال : لا لم يبق أحد ، قال : أبداً . قال : راعي إبل وأجير قوم تركناه مع الإبل . فانطلق إليـ ـه سيدنا عمر . رجل فقير .. هذا أويس القرنـي ، مـن

يعرفه؟.. لضآلة شأنه ترك مع الإبل ، وكان تابعياً ، وكان من أصحاب المقام الرفيع عند ا عز وجل .

قصة ذكرتها مرات عديدة في دروس ، وفي خطبة .

قال : هؤلاء الذين اتبعوا الرسل في ساعة الشدة ، الذين صدقوا الرسل وآثروا ا والدار الآخرة على قومهم وأصحابهم ، أودع ا في قلوبهم سراً من أسرار معرفته ومحبته ، والإيمان به ، هذا السر خفي على أعداء الرسل ، فنظروا إلى ظواهرهم .

والآن هناك شخص غني قوي ، بيت ، مكانة ، مركبة ، يلتقي صدفةً مع شخص قد يكون حاجباً ، قد يكون آذناً ، قد يكون يبيع بضاعة على الطريق ، يحتقره ، يزدريه ، لو علم ما في قلبه من أسرار ، ومن إقبال ومن إخلاص ، ومن أشواق لصغر هذا القوي الغني أمام هذا الفقير الضعيف .

ليس كل إنسان فقير عنده سر ، ما كل إنسان يبدو أنه أقل من طبيعي عنده سر ، يجب أن يكون متصلاً با ، مقيماً على أمره ، مطيعاً له ، مقبلاً عليه.

وأكبر شاهد .. قال : أعداء الرسل انظروا إلى أتباع الرسل فازدروهم فقالوا : اطرد هؤلاء عنك حتى نأتيك ونسمع منك ، قالوا :

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾

(سورة الأنعام)

فقال نوح عليه الصلاة والسلام لقومه :

وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

(سورة هود)

المقياس عند ا مقياس الطاعة لا مقياس الغنى ، مقياس الإقبال لا مقياس القوة ، مقياس الإخلاص لا مقياس الجمال ، مقياس التوحيد لا مقياس الأتباع ، هذه مقاييس دنيوية لم يعترف القرآن بها إطلاقاً .

قال بعض العلماء : كلام سيدنا نوح : إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني في بادئ الرأي وظاهره فليس علي أن أطلع على ما في أنفسهم فإذا رأيت من يوحد ا علمت من ظاهره ،

ورددت علم باطنه إلى ا عز وجل . أنا لي أن أحكم بالظاهر..

هذا الكلام أيها الإخوة من أجل أن لا تحتقر أحداً ، قد تكون رفيع الشأن في الدنيا وعندك خادم ، ومن يدري أن الخادم له عند ا مكانة تعلو على مكانتك . وقد تكون غنياً في الـ دنيا وعندك موظف بسيط يتقاضى أجراً محدوداً ، ومن يدري أن يكون هذا الموظف البسيط له عند ا مكانة تسمو على مكانتك . لا تزدري أحداً ، لا تنظر إلى الناس بمقياس المال ، هذا مقياس شيطاني ، ولا تنظر إلى الناس بمقياس الجمال هذا مقياس شيطاني.

كان قصير القامة ، أسمر اللون ، مائل الذقن ، غائر العينين ، ناتئ الـ وجنتين ، ضـ يق المنكبيـ ن ، أحنف الرجل ، ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بنصيب ، وكان مـ ع ذلك سيد قومه إذا غضب غضب لغضبته مائة ألف سيف لا يسألونـ ه لم غضـ ـ ب . اجعـ ل مقياسك مقياس القرآن . قال تعالى :

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

(سورة الأنعام)

يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ

دَرَجَٰتٍۚ

(سورة المجادلة)

هذا هو المقياس العلم والعمل ، ولا تعبأ بمقياس آخر .

هناك استنباط رائع ، حينما قال : ا يعلم ما في أنفسهم إذ أهلهم لمرتبة عليا في الـ دين . يعني لماذا أسمع ا زيداً الحق ، ولماذا أبقى عبيداً خارج الحق ، لأن ا يعلم بما في نفـ وس العباد .. في نفس هذا الإنسان طالب للحق ، في نفس هذا الإنسان حب ، فـ ي نفـ س هـ ذا الإنسان شوق إلى الحقيقة ، في نفس هذا الإنسان رغبة أن يكون كاملاً ، لذلك ييسر ا عـ ز وجل طريق معرفته .

يعني نقطة دقيقة جداً ، لك موقف ، هذا الموقف سبب عطاء ا لك ا عز وجل يعلم بما في نفس الإنسان فيعطيه ما يتناسب مع ما في نفسه. إنسان طالب للحقيقة لابد من أن يجمعـ ه ا مع أهل الحق ، إنسان طالب للإيمان العالي ، لابد من أن يجمعه ا مـ ع أهـ ل الإيمـ ان العالي ، لذلك قوله تعالى في سورة الإنعام :

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾

(سورة الأنعام)

ترى أخوين من أب وأم ، من بيئة واحدة ، من معطيات واحدة ، من ظروف واحدة ، أخ همه المال ، أخ همه معرفة ا ، الأخ الذي همه معرفة ا ييسر له ا أن يطلب العلم ، وأن يرقى في مدارج السالكين وأن يجري على يديه أعظم الأعمال ، والثاني ييسر له المال الوفير.

قال تعالى :

كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا

(سورة الإسراء آية ٢٠)

اطلب أنت ، أي طلب تطلبه بصدق يحققه لك . يمد هؤلاء إن صدقوا فيما طلبوا من عطائه ، ويمد هؤلاء إن صدقوا في طلبهم من عطائه.

كُلا نُمد هؤُلاء وهؤُلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظُورا

الإنسان إذا أراد ا تراه يبحث عن علم ، عن عمل صالح ، عن فهم لكتاب ا ، عن فهم لسنة رسول ا ، يبحث عن طريق للدعوة إلى ا يبحث عن شيء يقربه إلى ا ، يحب المؤمنين ، يكره الفسقة والكافرين ولاؤه للمؤمنين ، براءته من أهل الفجور والمعصية . هذا الإنسان تيسر له سبل الإيمان ، وسبل التقوى ، وسبل الرقي ، وسبل العمل الصالح .

هؤلاء من أصحاب السر ، الذين علم ا ما في قلوبهم فأهلهم لمرتبة تتناسب مع طلبهم.

أنت كأب عندك أولاد عدة ، ابن همه مظهره ، ابن همه دراسته الذي يهمه دراسته لا يبالي كثيراً بمظهره ، أحياناً يعتذر من سهرة ممتعة عنده مذاكرة في اليوم التالي ، يعتذر عن نزهة رائعة عنده فحص ، أحياناً يعتذر من صديق عنده مذاكرة ، يقرأ الكتاب ، يقرأ كتاباً آخر ، يسأل يناقش يكتب ، يلخص - الابن الثاني همه مظهره ؛ عطورات ، وألبسة ، وتنزه في الطرقات ، وسهرات - هذا بواد وهذا بواد . فإذا علم ا عز وجل سر الذي يطلب الحقيقة ، ويطلب مرضاة ا عز وجل أهله ، ورفع مقامه ، ودله على طريق الخير ، وأجرى على يديه كل خير ، هذا هو السر .

أيها الإخوة ... هناك مشكلة ، أهل الدنيا يستنبطون من دنياهم العريضة أن ا يحبهم لذلك يزدرون كل من حرم الدنيا ، الآية واضحة:

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

هؤلاء هم الأتقياء الأخفياء ، أنت لك سر ، هذا السر يطلع الله عليه بحسب ما في هـذا السر من محبة ، وإخلاص ونقاء ، وصفاء ، وطيب يؤهلك الله عز وجل إلى مقام يتناسب مع هذا السر ، أما من كان له دنيا عريضة ، وسره لا يرضي الله عز وجل ، هذا محجـوب عن الله بدنياه .

يروى أن سيدنا سعد بن أبي وقاص قال له ابنه : يا أبت أنت هاهنا والناس يتنازعون في الإمارة ، فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله يحب العبد التقـي الغني الخفي.

هناك إنسان يحب أن يكون تحت الأضواء ، يحب الشهـرة ، يحب أن يكـون عالياً فـي الأرض ، وهذه مشكلة ، لقوله تعالى :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة القصص)

إنسان يدعى إلى عقد قران ، إن لم يكن في الصف الأول ينقم أشد النقمة . فمرةً قلـت : ليتنا نبني صالة فيها صف واحد ، طولها خمسة كيلومترات ، هذه مشكلة كبيرة ، إذا لم يكـن في أول صف معناه مكانته ليست معروفة في هذا المجالس .

كلمة دقيقة أقولها لكم : هل تصدقون أن سيد الخلق ، سيد الخلق قاطبة دخل أعرابي إلـى مجلسة فقال : أيكم محمد ـ من منكم محمد ، ماذا نستنبط ؟ ليس له مكان معين أبـداً ، كـان واحدا من إخوانه ، واحداً من أصحابه . هكذا علمنا النبي ـ

قال : تيامنوا، بكل شيء باليمين ، اجلس حيث ينتهي بك المجلس ..

عالم من علماء الشام الكبار ، بل هو سيد علماء الشام ، أين كان يجلس؟ في طرف غرفتـه ، إخوانه يجلسون في الصدر ، وهو جالس في طرف الغرفة . تواضعاً لله عز وجل .

قيم جديدة ، هالة كبيرة جداً ، وتعظيم ، ومراتب كراسٍ ، وهيئة ، وأبهه ، وعظمة ، هذه ليست من الدين في شيء .

وقد ورد في صحيح مسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

"رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لا يؤبه له لو أقسم على ا لأبره."

الحقيقة هؤلاء الأتقياء الأنقياء على طبقتين ، قال : الطبقة الأولى طائفة علـت هممهـم ، وصفت مقاصدهم ، وصح سلوكهم ، حتى سبقوا السائرين فلم يوقف لهم على رسـم ، ولـم ينسب إلى اسم ، ولم يشر إليهم بالأصابع يريد الظل ، يريد أن لا يعرفه أحد.

الآن في أشخاص كثيرون يفعلون أجل الأعمال ولا ينطقون بكلمة يعملون بصمت ، ولكن وا قلوبهم مفعمة بمحبة ا ، قلوبهم عامرة بذكر ا ، هؤلاء أخلصوا .

قال : هؤلاء لهم ثلاث صفات إيجاب ، وثلاث صفات سلب ، ثـلاث صـفات ثبوتيـة ، وثلاث صفات سلبية ، هؤلاء الأتقياء الأنقياء أصحاب السر الذين علم ا ما في قلوبهم.

الصفة الأولى : علو هممهم ، أهل الدنيا يميلون إلى الدعة ، يخمدون إلى الأرض ، قـال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾

(سورة التوبة)

هؤلاء الأتقياء الأخفياء أصحاب همم عالية ، لا يفترون عن العمل الصالح ، ليلهم ذكـر ، ونهارهم ذكر ، وعملهم خدمة ، ومتواضعون يبذلون من وقتهم ، وجهدهم ، وأموالهم الشـيء الكثير ، قال : هؤلاء هممهم عالية ، علو همتهم لا تقف دون ا ، ولا تتعوض عنـه بشـيء سواه ولا ترضى بغيره بدلاً ، ولا تبيع حظها من ا ، وقربه ، والأنس به والفرح والسـرور والابتهاج به بشيء من الحظوظ الخسيسة الدنيوية الفانية ، هؤلاء أولى صفاتهم علو هممهم ، ا عز وجل يبارك لهم في وقتهم ، في وقت قليل يفعلون الشيء الكثير ، يبـارك لهـم فـي أموالهم ، بمال قليل ينتفعون منه الشيء الكثير ، يبارك لهم في زوجاتهم ، تأتيهم زوجات على شاكلتهم ، معهم على طريق الإيمان ، يبارك لهم في أولادهم ، أولادهم عون لهم في الإيمان .

أول علامة : علو الهمة ، هذا الكسول يميل للاسترخاء ، والراحة والتأجيل ، يقول : مـا عندي متسع من الوقت ، جسمي له حق ، أريد الراحته ، لا توقظني من النوم ، هـذا وقـت متأخر اعذرني ، قولوا ليس في الدار . الانسحاب من العمل الصـالح سـهل ، ولكـن مـع الانسحاب من العمل الصالح هناك انسحاب من رحمة ا .

العلامة الثانية : صفاء القصد ، يعني قصدهم خال من الشوائب قصدهم مجرد من حظوظ الدنيا ، والقصد له آفتان ، الآفة الأولى : أن يشترك في هذا القصد عمل للدنيا وعمل للآخرة ،

والآفة الثانية : أن يكون لغير ا أن يكون مع قصده قصد آخر ، أو أن يكـون لغير ا .

يعني خلوص القصد من كل إرادة تزاحم مراد ا عز وجل ، بل يصير القصـد مجـرداً لمراده الديني الأمري فقط ، وعلامته انبذاج حظ العبد في حق الرب تعالى . صار ميلك وفق ما جاء به القرآن ، حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به.

العلامة الثالثة : صحة السلوك ، في انضباط ، يقف عند الحلال والحرام ، تجده حيث أمر ا ، تفتقده حيث نهى ا عز وجل ، فسلوكه سليم من الآفات والعوائق والقواطع والحجـب ، وإنما يصح هذا السلوك بثلاثة أشياء ، أحدها أن يكون على الدرب الأعظم درب محمد صلى ا عليه وسلم ، عمله وفق السنة ، لا بدع ، لا خرافات ، لا إضافات ، لا حذف من السـنة ، عمله وفق السنة ، هذه أول صفة صحة السلوك.

الصفـة الثانية : أن لا يجـب على الطريق داعي البطالة والوقوف والدعة ، وهـو فـي الطريـق إلى ا هناك مغريات ، وسماها العلماء صوارف ، يعني جلسة ، نزهـة ، دعـة ، استرخاء ، إهمال العمل الصالح هو على السنة ولا يستجيب لأي صارخ ، ودائماً ينظر إلـى مقصودة .

إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي ، هذه الأشياء الثلاثة يصح بها السلوك . الأتقيـاء الأخفياء أول خصائصهم الهمة العالية ، وثاني خصائصهم صفاء قصدهم ، وثالث خصائصهم صحة سلوكهم ، هؤلاء أتقياء أخفياء ، ودعك من الأضواء والشهرة وما إلى ذلك . مـن هـو أشهر مخلوق ؟ إبليس . ليست الشهرة مقياساً أبداً ، المقياس أن تكون على منهج ا .

أيها الإخوة ... من تمام إحسان الرب إلى عبده وتعريفه قدر نعمته، أن أراه النفس التـي كانت حاكمة عليه ، قاهراً لها ، مقهور مغلوبة .

الآن كل واحد من عامة الناس عبد لنفسه ، يفعل ما تشتهيه نفسه ، يتحرك بـأمر هـواه ، مقهور لها ، يعني أعلى مرتبة لهؤلاء الأتقياء الأخفياء أصحاب السر أنهم قهروا أنفسهم . إن اتبـاع الهوى هـوان..

يا خجلتي من عـتاب ربـــي إذا قال لي أسرفت يا فلان
إلى متى أنت في المعاصـــي تسير مرخى لك العنـان ؟
عندي لك الصلح وهو بري وعندك السـيف والسنان
ترضى بأن تنقضي الليالـــي وما انقضت حربك العوان
فاســـتحي من كتـاب كريـم يحصى به العقل واللسان
واســـتحي من شـيبة تراها في النار مـسـجورة تهان

* * *

أيها الإخوة ... من تمام إحسان الرب إلى عبده لهؤلاء الأتقياء الأصفياء الأخفياء أن يزيل

من قلبه آفة الركون إلى نفسه ، أو عمله ، أو حاله ، لو كان حاله متألقاً ، ولـو كـان عملـه عظيماً ، ولو كانت نفسه طاهرة ، لا يركن إلا إلى ا ، دائماً يتهم نفسه .. فـي الطـريق مزالق، أحد هذه المزالق أن تعجبه نفسه ، عملاً صالحاً ، فتألق فاكتفى به ، صار يمدح نفسه، يكيل المديح لنفسه بغير حساب .

من إكرام الرب إلى عبده أن يزيل عن قلبه آفة الركون إلى نفسه أو عمله أو حاله ، كمـا قيل : إن ركنت إلى العلم أنساكه ا ، يغيب عنك العلم ، أو ركنت إلى الحال سلبه منـك ، أو ركنت إلى المعرفة حجبت عنك ، إن ركنت إلى قلبك ، أُفسد قلبك ، فلا يركن العبد إلى شيء سوى ا البتة ، ومتى وجد في قلبه ركون إلى غير ا عز وجل فليعلم أنه قد أحيـل علـى مفلس.

لا تركن لا إلى قلبك ، ولا إلى مالك ، ولا إلى معرفتك ، ولا إلى حالك ، اركن إلـى ا وحده.

أيها الإخوة ... من أعظم الضر الحجاب عن ا عز وجل ، قال تعالى :

كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥

(سورة المطففين)

يعني أكبر مصاب أن يصاب به الإنسان في الدنيا أن يكون عن ا محجوباً . بيت فخم ، مكانة عالية ، دخل كبير ، أولاد ، زوجة ، ولكن عن ا محجوب.

الصلة با واحد ، والمال صفر ، الزوجة صفر ، الأولاد صفر ، التجارة صفر ، الصحة صفر ، الوسامة صفر ، الذكاء صفر . اسحب الاتصال با ، هذا الواحد ، أنت أمام أصفار . قال : من أعظم الضر حجاب القلب عن الرب ، وهو أعظم عذاباً من الجحيم ، قال تعالى :

كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥

(سورة المطففين)

فالعـارف قلبه غير محجوب ، بل يعيش في نور ظفره بإقبال قلبه على ا عز وجـل ، وجمع همه عليه ، وفنائه بمراده ، فصار واجداً لما أكثر الخلق فاقداً له ، لقد لبس قلبه نـور ذلك الوجود ، حتى فاض على لسانه وجوارحه ، وحركاته وسكناته .

أيها الإخوة ... الدرس القادم إن شاء ا ، أتصور أنه درس مهم جداً ، هـو مـا الـذي يحجبك عن ا عز وجل.

هناك عشرة أشياء تحجب الإنسان عن ا عز وجل ، ولأن الحجاب عن ا أكبر عقـاب يعاقب به الإنسان في الدنيا والآخرة ، يكون محجوباً عن ا عز وجل :

كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥

(سورة المطففين)

والحمد رب العالمين

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الثاني والسبعين من دروس مدارج السالكين فـي منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والمنزلة التي نحن فيها والتي بدأتها في الدرس الماضي هي منزلة السر أي أن ا سبحانه وتعالى يعلم ما تنطوي عليه نفوس عباده فيحلهم بالمكان الـذي يليق بهم ، وقد انتهى الدرس الماضي إلى موضوع الحجب التي تحجب الإنسان عن ا عـز وجل ، ولا تنسوا أن أشد عقاب يعاقب به الإنسان يوم القيامة أن يحجب عـن ا ، والـذي يحجب عن ا يوم القيامة محجوب عنه في الدنيا فالمحجوب في الدنيا هـو محجـوب فـي الآخرة ، ما الذي يحجبك عن ا عز وجل :

كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥

(سورة المطففين :١٥)

ما من مصيبة تصيب الإنسان في الدنيا كأن يكون محجوباً عن ا لو فقد ماله كلـه وكان موصولاً هو الرابح الأكبر ، لو فقد أعز شيء يملكه وكان موصولاً هو الرابح الأكبر ، لو فقد شيئاً من صحته ، أو بعض صحته وكان موصولاً هو الرابح الأكبر ، أما إذا ملك الدنيا بحذافيرها وكان محجوباً عن ا هو الخاسر الأكبر ، وبشكل موجز إجمالي المعصية تحجبك عن ا ، ومتى حجب الإنسان عن ا أصبحت التكاليف عبئاً عليه .

وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ

(سورة النساء النساء : ١٤٢)

حضور الدرس عبء عليه ، العمل الصالح عبء عليه ، غض بصره عبء عليه ، ضبط لسانه عبء عليه ، التكاليف التي كلفنا بها تصبح على المحجوب أثقل من الجبال ، أمـا حينما تكون موصولاً تصبح الأعمال التي لا يقوى عليها معظم الناس هينة سـهلة للمـؤمن ، الشيء العجيب ، تقوى همته ، فتخضع له الجبال ، يكبر ولا ترى كبره فيصغر أمامـه كـل عظيم ، وحينما يحجب عن ا يصغر الإنسان ولا ترى صغره فيتعاظم عليـه كـل حقيـر ، الموصول يكبر ولا ترى كبره ، فيضؤل أمامه كل عظيم ، حتى في التضحيات ، حتـى فـي بذل الأموال ، حتى في ركوب المخاطر ، يصغر أمامه كل عظيم ، والإنسان حينما يحجـب

عن ا يصغر .

صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ

(سورة الأنعام : ١٢٤)

ولا ترى صغره ، فيتعاظم عليه كل حقير ، لذلك قالوا واحد كألف وألـف كـأف ، واحد يفعل المستحيل ، وواحد لا يقوى على بذل القليل قضية الحجاب من أخطـر قضـايا الإيمان .

يا أيها الأخوة الكرام :

معاناة المؤمن كل يوم من الحجاب ، الحج بالعمر مرة ، الصيام من عام إلى عام ، الجمعة من أسبوع إلى أسبوع ، أما الحجاب كل يوم ، كل ساعة ، كل لحظـة ، في مخالفـة محجوب ، في طاعة موصول ، إذا في طاعة وأنت موصول يصغر أمامك كل عظـيم وإذا في معصية وأنت محجوب يعظم عليك كل حقير ، وا حياة المؤمن عجيبـة ، فبينمـا هـو يطاول السماء رفعة ، هو يداني الحضيض ضعةً ، إن كان موصول أو محجوب ، يجـب أن يكون حرصنا لا حدود له على أن نكون مع ا ويجب أن نبتعد عن كل مخالفة تحجبنا عـن ا أن نبتعد عنها بعد الأرض عن السماء ، ومن ذاق عرف ، الإنسان إذا ذاق طعم القـرب يصعب عليه أن يضيع هذا القرب بمخالفة بسيطة .

النقطة الدقيقة التي أحب أن تكون واضحة أمامكم هي : أن الإنسان إذا كان محجوباً لكبيرة ارتكبها ، طبعاً الكبيرة تستدعي الحجاب ، أما أن يحجب عن ا عز وجل ، ويخسـر كل ثمار الإيمـان لمخالفة بسيطة مقيم عليها ، هذه وا خسارة كبيرة ، لو فرضنا أن إنسـاناً يشنق لجريمة ارتكبها هذا منطقي معقول ، أما أن يشنق لكلمة قالها ، وكـان بإمكانـه أن لا يقولها ، هو خاسر خسارة كبيرة .

هذه مقدمة أيها الأخوة ، أما التفصيل :

الحجب التي تحجب عن ا عشرة ، أخطر حجاب حجاب **التعطيـل** ويقصـد بـه المؤلف حجاب **الجهـل** ، الجاهل عدو نفسه الجاهل يفعل بنفسه مالا يستطيع عدوه أن يفعله به ، **الجهل** ؛ إذا حجبت عنك حقائق الذات الإلهية ، حقائق الأسماء والصفات ، لا تعرف عن ا شيئاً ، شيء طبيعي جداً أن ترتكب كل الموبقات وأنت مرتاح ، لا تعلم من هـو ا ولمـاذا خلق ا الإنسان ، وماذا بعد الموت ، وماذا قبل الموت ، وماذا في الحياة وما الرسالة ، ومـا السر ، وما الهدف ، الإنسان يحجبه عن ا جهله .

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

(سورة الزمر : ٩)

إنسان يحمـل دكتوراه بالرياضيات ، وإنسان لا يستطيع أن يجمع اثنين واثنـين ، هل يستويان ؟ نأخذ الذي يحمل الدكتوراه بالرياضيات قيمته من قيمة علمه ، فإن كان علمـه متعلقاً بشيء دنيوي وإنسان يعرف ا ، ما بين الذي يعرف ا ويعرف الرياضيات كما بين ا وخلقه، ألم يقل ا عز وجل :

فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾

(سورة الفرقان :٥٩)

معناه في إنسان خبير با عز وجل " **فاسأل به خبيرا** " يعلم عن ا شيئاً جيداً جداً ، يعلم عن ا صفاته وأسمائه وكمالاته ووحدانيته ويعلم عن ا عدله ورحمته ولطفه وقدرته وغناه وحكمته ، فإذا كان الذي يعلم علماً أرضياً له أعلى مكانة في المجتمع فكيف الذي يعرف ا عز وجل ، لذلك هذا أول حجاب ، من كان جاهلاً با ، من كان غافلاً عن ا لا يمكـن أن يصل إليه بتة ، أكبر حجاب هو الجهل ، وأكبر كرامة هي العلم ، وا قرأت آية قرآنيـة كتبت على لوح ووضعت بصدر بيت فاقشعر جلدي منها :

وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾

(سورة النساء : ١١٣)

يعني إذا ا عـز وجل تفضل علينا ، أن عرفنا بذاته ، وعرفنا بمنهجه ، وعرفنا برسوله ، وعرفنا بدينه فهذه نعمة عظيمة لا تعدلها نعمة على الإطلاق ، لقول ا عز وجل :
" **هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** " .

يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾

(سورة المجادلة : ١١)

الذي لا يعرف ا عز وجل يكون حجابه حرمان الخير الذي يأتيه من الاتصال با ، إنسان لا يعرف ا يأكل مالاً حراماً ، أو يغتصب مالاً ليس له لأيتام ، أو يأخذ مال شريكه ، أو يغش الناس غشاً يحصل منه أرباحاً طائلة ، فحينما يأتي دور العقاب والتأديب ، يكـون سبب البطش به جهله .

يروى أن غلاماً غمز أمير المؤمنين سيدنا معاوية ، وهو يصعد المنبر ، كان حليماً ، وكان ذكياً ، قال اذهب وخذ الرهن يا غلام ، فغمز أميراً آخر فقطع رأسه فقالوا حلم معاوية قتل الغلام .

يعني الإنسان جهله أحياناً هو الذي يهلكه .

أحفظ لســـانك أيهـا الإنســـــان لا يلدغنــك إنـــــــه ثـعبـان

كـم فـي المقـابر مـن قتيـل لسانـــه كانـت تهـاب لقـاءه الشجعــــــان

فالجهل أعدا أعداء الإنسان ، يعني إنسان أراد أن يظهر براعته بالقيادة فداس على يدي كلب فقطعهما ، القصة ذكرتها لكم كثيراً ، في الأسبوع الثاني قطعت يداه الاثنتان معاً ، من الرسغ ، هذا لو كان يعلم أن ا سينتقم منه ، لأنه قطع يدي كلب ، ما كان يفعل هذا ، ما الذي جعل يداه تقطعان ، جهله با عز وجل .

إنسان قد يأكل المال الحرام ، فالحرام يذهب ويذهب معه أهله ما الذي جعله يهلك ؟ أكله المال الحرام ، لماذا أكل المال الحرام ؟ لأنه يجهل الواحد الديان .

القضية دقيقة جداً حينما لا تعرف ا ، في الأعم الأغلـب تعتـدي علـى حقـوق الآخرين ، وا البلاد الإسلامية فيما أعلم طافحة باعتداءات لا حدود لهـا ، اذهـب إلـى أي وزارة عدل ، إلى أي محكمة ، تلاقي آلاف الدعاوى ، كلها احتيال ، وكلها اغتصاب أموال ، واغتصاب محلات واغتصاب شركات ، شيء لا ينتهي ، هـؤلاء جميعـاً يجهلـون أن ا سينتقم وسيحاسب ، ثم يأتي التأديب فيسحقهم ، إذاً ما الذي جعلهم يدفعون هذا الثمن الباهظ ؟ هو جهلهم با عز وجل .

قصص كثيرة جداً ، الجهل حجاب ، الجهل يحملك على أن تعتدي والعدوان له من الواحد الديان عقاب شديد ، فالعقاب الشديد الذي ينزل بساحة إنسان اعتدى على أخيـه هـو عقاب عدوانه ، والعدوان سببه الجهل با عز وجل ، هذا أكبر حجاب .

قال الحجاب الثاني : هو حجاب **الشرك** ، يعني أن تعبد ا ، وأن تعبد جهة أخرى غير ا ، هذا حجاب **الشرك** ، فأنت بين أنك تخاف من ا وتخاف من هذا الإنسان ، بين أن ترجو رحمة ا وترجو رحمة الإنسان ، فإذا تعارض أمر ا مع أمر هذا الإنسان ، الإنسان محسوس ا لطيف ، إذا أمرك جبار قوي بمعصية ، بيده السلاح ، وأشهره عليك وقال لـك افعل ، أنت ماذا ترى ؟ ترى إنساناً بيده سلاح ، يهددك أما قوة الإيمان تريك ا .

سحرة فرعون ، حينما جاء بهم فرعون ، ليكيدوا لسيدنا موسى هم سحرة ، ما أن رأوا عصاً تصبح ثعباناً كبيراً يلتهم كل عصيهم .

فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ
لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ
أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾

(سورة طه : ٦٩ – ٧١)

تصـور فرعون ، فرعون الآن قصة ، الآن فرعون خبر ، أما فرعون في عصر فرعون ، في حياة فرعون ، يهدد بقطع الأيدي والأرجل .

قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ
قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ
لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾

هي تهديد من طاغية مخيف ، يفعل ما يهدد به ، ومن الإيمان با قوي إيمانهم ، سيدنا موسى مع أصحابه ، فرعون وراءهم ، والبحر أمامهم .

فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ
إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾

(سورة الشعراء :٦١ – ٦٢)

فالحجاب الثاني حجاب الشرك ، سحرة فرعون لم يروا إلا ا سيدنا موسى لم يـر إلا ا ، سيدنا إبراهيم لم ير إلا ا ، سيدنا يوسف :

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ

(سورة يوسف : ٢٣)

لم ير إلا ا ، سيدنا محمد وا يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمـر فـي شمالي ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره ا أو أهلك دونه .

إذاً الإيمان يعطي قوة كبيرة جداً ، الشرك هو حجاب يصرف الإنسان عن وعد ا ووعيده فيقع ضحية وعد العبيد ووعيدهم ، يطمع بوعد عبد ، ويخاف من وعيد عبد ، وينسى وعد ا ووعيده ، هذا الشرك ، **فالجهل حجاب ، والشرك حجاب** .

قال هناك حجاب **البدع القولية** ، في كلمات يقولها العوام دائماً عند النـاس يعنـي بديهية ، مثلاً نحن عبيد إحسان لا عبيد امتحان ، اللهم لا تمتحنا ، كلمات ، يا رب لا تسـألنا عن شيء ، هو يقول لك :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾

(سورة الحجر : ٩٢ ـ ٩٣)

تقول أنت يا رب لا تسألنا عن شيء ، هذه كلها بدع قوليه ، أحياناً الإنسان دون أن يشعر يلاقي شخصاً منعماً ، وشخصاً محروماً ، وقد يكون المنعم فاجراً ، وقد يكون المحروم مستقيماً ، يقول بدعة قوليه ، الله عز وجل يطعم الحلاوة لمن ليس له أسنان ، يعني الله غيـر حكيم، وهكذا كلمات لا تنتهي ، إذا واحد رأى منكراً أمامه يقول : دعهم اللهـم سـلامتي إذا واحد اضطر أن ينافق مثلاً يقول لك من تزوج أمي هو عمي ، هذه كلهـا بـدع قوليـه ، لا تعترض بتنطرد ، كن حر التفكير ، فكر واسأل ، تراكمات عصور الانحطاط سـببت بـدعاً قوليه لا أصل لها ، أو أن إنساناً غارق بالمعصية ويقولون هنه قد يكون ولياً ، إنسان متلـبس بمعصية ولي لله عز وجل ؟ أو إنسان يهمل نفسه إهمالاً شديداً ، هذا ولي هذا من أهل الخطوة ، هذه كلها بدع قوليه ، هدفها أن تحدث اختلاف توازن ، أو أن تقرأ بكتاب أن الإمام الغزالي رحمه الله تعالى هذا كان أعلم علماء عصره ، وترك كتاب الإحياء و و و ، حينما توفـاه الله عز وجل لم يدخل الجنة إلا بسبب أن دودية وقفت على كلمة كتبها بالحبر فجعلت تشرب مـن هذا الحبر فانتظرها الغزالي حتى ارتوت ، فدخل الجنة بهذه ، كل أعمال الغزالي مهدورة لا قيمة لها ، معقول هذا الكلام ، هذه كلها بدع قوليه ، حجاب .

إنسان يشرب الخمر ، يقول لك الله يعلم ، كاسات معدودة بأماكن محدودة ، مقـدر عليه ذلك ، أو يقول لك الله خلقه كافر ، قدر عليه الكفر وسوف يدخله إلى النـار إلـى أبـد الآبدين أنت بهذا الكلام تحجب عن الله ماله ذنب ، الله خلقه كافر ، قدر عليه الكفر قبل أن يخلق ، ثم جعل مصيره إلى النار ، هذه بدعة قوليه ، تحجب الإنسان عن الله عز وجـل أو يقول لك مثلاً ، ممكن أن تعبده طوال حياتك ، ثم يجعلك في النار و لا تستطيع أن تعترض ، يمكن أن تعصيه طوال حياتك ويكون مصيرك إلى الجنة ؟ في أشياء ، إنسان أمضى طـول حياته بالمعاصي والأثام ، وهو على فراش الموت قال لا إله إلا الله دخل الجنة ؟ اقعد وصـل واقرأ خمس مرات قل هو الله أحد ، يغفر لك كل ذنب ؟ أعمال بسيطة ، وكلمات تقولها تلغي معاصي عمر ، أو إنسان قد يعصي الله ، وقد قدر الله له الجنة هكذا أو يقول لـك ، الله عـز وجل لا يجب عليه الأصلح ، يفعل ما يشاء وقد يتفننون في شرح المعاني هذه ، لكن الله قال :

إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

(سورة هود : ٥٦)

ا عز وجل ألزم نفسه بالاستقامة ، قال اك :

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ

(سورة الزلزلة : ٧ ـ ٨)

قال اك :

وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾

(سورة سبأ : ١٧)

يعني في آيات كثيرة جداً ، واضحة وضوح الشمس ، فهذه البدع القوليـة تشـكل حجاباً بين العبد وربه ، هي كلمات شيطانية ، حتى أن هناك أحاديث موضوعة تيئس الإنسان ، كل الناس هلكة إلا العالمون والعالمون هلكة ، أعوذ با ، قال : إلا العـاملون ، عـالم عامل نفذ ، لا قال : والعاملون هلكة ، معقول ، إلا المخلصون ، عالم عامل مخلص ، نفـذ قال : لا ، والمخلصون على خطر عظيم ، هذا حديث وضعته الزنادقة من أجل التيئيس ، مـا في أمل ، هذه كلها بدع قوليه ، إن في القضاء والقدر وإن في بعض الأحاديث الموضوعة ، أو كلمات عامية ، أو كلمات أساسها القهر والخنوع الذي عانـاه المسـلمون فـي عصـور الانحطاط ، هذه كلها بدع إما أن تنفي عن ا الحكمة أو :

وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً

(سورة الأنفال : ٢٥)

يقول : البلاء يعم ، والرحمة خاصة ، أعوذ با هل الكل سواء ؟ هذا كـلام غيـر معقول لأن ا يقول "**وهل نجازي إلا الكفور**" الآية معروفة :

فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾

(سورة الذاريات : ٣٦)

ا نجاهم وحدهم :

وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

(سورة الأنبياء : ٨٨)

فالبدع القولية كثيرة جداً ، بعضها تفسير للقرآن غير صحيح :

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾

(سورة الشمس : ٧ - ٨)

ا ألهمه الفجور ، تفسير ما أنزل ا به من سلطان ، الآية الكريمة ، عن النفس البشرية :

وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

(سورة الإسراء : ١٦)

وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾

(سورة السجدة : ١٣)

ا لا يريد أن يهدي الناس جميعاً ، لكن يريد أن يملأ جهنم " **من الجنة والناس أجمعين** " تأويل خطأ لآيات ، أو أحاديث موضوعة ، أو كلمات عوام ، أو أمثال شعبية ، هذه البدع القولية هي حجاب بين العبد وربه ، أو **بدع عملية** ، كا لاختلاط ، يقول : هذه مثل أختي ، لا هي ليست أختك أبداً ، هي مثل والدتي إن شاء ا ، لا هي ليست والدتك تقول : أنا لا أنظر بشهوة يسهر سهرة للساعة الواحدة ، ومزح ، وغمز ولمز ، وقال هو بريء هذه بدع عملية ، اختلاط ، أو لا يدفع زكاة ماله يقول : أنا لا أملك أموالاً طائلة ، أو أنا قدرت ، يضع ربع التقدير الحقيقي .

في عندنا **بدع قوليه ، وبدع عملية** ، إما للتهرب من الزكاة ، أو أن إنساناً يموت وهو تارك صلاة ، يدفعون سقوط صلاة وا مسألة سهلة إذا كان واحد لا يصلي كل حياته ، وغني ومعه مائة مليون دفع مليوناً وارتاح من الصلاة ، العريس يظهر أمام النساء الكاسيات العاريات في العرس ، تُصور المدعوات بفلم والفلم يتناقله الرجال من بيت لبيت ، وكل رجل يرى مجموع النساء في هذا الحفل ، وهن بأبهى زينة ، هذه بدعة عملية .

ثم هناك حجاب أهل **الكبائر الباطنة ، الكبر** ، هذه كبيرة باطنة الاعتداد بالنفس كبيرة باطنة ، حب الذات كبيرة باطنة ، التألي على ا كبيرة باطنة ، توهم أنك على الحق وحدك كبيرة باطنة ، توهم أن الجنة لك وحدك هذه كبيرة باطنة ، كبائر باطنة خطيرة جداً ،

لأن الكبائر الظاهرة يتوب الإنسان منها ، أما الباطنة تصبح جزءاً من كيانه ، فالكبائر الباطنة كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد والفخر والخيلاء ونحوها ، ذلة قدم كبيرة عندما يقول : هذا عندي جائز ، من أنت ؟ أنت مشرع نبي أنت ؟ من أنت ، ما معنى عندي .

يقولون هذا عندنا غير جائز فمن أنتم حتى يكون لكم عند

يقول : رأيي كذا ، اك رأي مع الشرع أنت ، أنت مشرع ، أين الدليل ، ما في إنسان بعد رسول ا يقول كلمة إلا يجب أن يأتي بالدليل واحد بحياتنا هو سيدنا رسول ا كلامه دليل، فقط ، ما سواه يفتقر كلامه إلى الدليل ، فحجاب أهل الكبائر الباطنة ، وحجاب أهل الكبائر الظاهرة يعني عامل مسبح مختلط ، مسبح يسبح به النساء والرجال .

مقيم على الصغائر ، اختلاط ، وإطلاق بصر ، ومصافحة ، وغيبة ونميمة ، فهذه حجاب أهل الصغائر .

في عندنا حجاب **أهل المباحات** ، التوسع في الدنيا ، يمضي من حياته سنوات طويلة لاعداد شيء مريح له ، لا يستمتع به سنة أحياناً ولا شهر ، لنا أخ بنى بيتاً لرجل ، وبقي سنتين يزينه بهدوء ، يوم الخميس سيستقر بهذا البيت ، الجمعة توفي ، هي المباحات ، ما ارتكب صغيرة ولا كبيرة ، ولكن المباحات وحدها هي تنهي عن ذكر ا عز وجل .

هذه أيها الأخوة حجب كثيفة جداً تحول بين الإنسان وبين أن يقطف ثمار هذا الدين العظيم ، إذا دعيت إلى طعام ، صحون فخمة جداً ، مع ملاعق ، أدوات الطعام جيدة جداً ، لكن لا طعام بالصحون ، أتلبي الدعوة مرة ثانية ؟ لا تلبيها ، يعني مظاهر فارغة لا شي فيها ، أما إذا في طعام نفيس تلبي الدعوة ثانية ، فإذا العبادات لا ثمرة يانعة منها ، يملها الإنسان إذا لم يطبق الإنسان يمل من أي شيء .

أيها الأخوة :

أرجو ا سبحانه وتعالى أن يعيننا على هتك هذه الحجب ، حجاب الجهل ، حجاب الشرك ، حجاب البدع القوليه ، حجاب البدع العملية حجاب أهل الكبائر الباطنة ، حجاب الكبائر الظاهرة ، حجاب أهل الصغائر ، حجاب الغارقين في التوسع في المباحات .

والحمد ا رب العالمين .

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون :

مع الدرس الثالث والسبعين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد و إياك نستعين ، و المنزلة التي نحن فيها منزلة السر ، و قد مضى فيها درسان ، و نصل إلى الموضوع الثالث في هذه المنزلة .

في الدرس الأول بينت أن ا سبحانه لا تخفى عليه خافية ، يعلم سر العبد ، فإذا كان سره ينطوي على حب عز وجل و على إخلاص له و على شوق إليه ، وضعه في منزلة تليق بسره ، فهو من أصحاب السر و قد يكون من عامة الناس ، لا يشار إليه بالبنان ، إذا حضر لم يعرف وإذا غاب لم يفتقد ، و لعل هذه المنزلة تغطي كل هؤلاء الذين أخلصوا عزوجل ، لكن شاءت حكمة ا أن يكونوا في مرتبة دنيا في السلم الاجتماعي .

عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ قَالَ : قَالَ رسولُ الله صلى الله علَيه وسلم :

كَم من أَشْعثَ أَغْبر ذي طمرينِ لا يؤْبه له لَو أَقْسم على الله لأَبره منْهم الْبراء بن مالِك *

(رواه الترمذي)

أيها الإخوة ؛ هنا مكان الإشارة إلى موضوع دقيق ، يقول ا عزوجل :

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

(سورة الحجرات)

فالطائع عزوجل هو الكريم عند ا و قد يكون فقيرا ، و قد جعل بعض الأنبياء فقراء ، فنبينا عليه الصلاة و السلام أجير راعٍ كان يرعى شياها على قراريط ، وهل في الحياة الاجتماعية مرتبة أدنى من هذه المرتبة ؟ و هو سيد الخلق و حبيب الحق أحد الأنبياء الكرام سجن، فإذا دخل مؤمن السجن مظلوما فله في هذا النبي أسوة حسنة ، أحد الأنبياء الكرام كان عقيما ، سيدنا زكريا ، فإذا لم ينجب الإنسان فله في هذا النبي أسوة حسنة ، أحد الأنبياء كانت زوجته سيئة ، سيدنا نوح و سيدنا لوط فمن كانت له زوجة سيئة و صبر عليها فله بهذين النبيين أسوة حسنة ، أحد الأنبياء كان أبوه كافرا ، من كان شابا و له أب منحرف

انحرافا شديدا ويقسو عليه و يضطهده لأنه مسلم أو لأنه متدين فله في هذا النبي الكريم أسوة حسنة ، نبي كريم كان يعمل بيده.

عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أن داود النبي عليه السلام كان لا يأكل إلا من عمل يده *

(رواه البخاري)

أصحاب الحرف المتعبة الذين يحفرون الطرقات ، و يصنعون الحديد و يشيدون الأبنية، يقول .

عن الْمقْدامِ رضي الله عنْه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده *

(رواه البخاري)

فإن كنت فقيرا فعلى العين و الرأس و إن كنت ذميما فعلى العين والرأس ، و إن كنت وسيما ، و إن كنت غنيا ، و إن كنت ضعيفا ، و إن كان لك أولاد أبرار ، و إن كان لك أولاد ليسوا أبراراً ، و لم تقصر أنت في تربيتهم فهذا من شأن ا عزوجل ، لك زوجة صالحة جيدة ، لك زوجة سيئة العبرة أن تكون مطيعا ، العبرة أن تكون محبا ، و لا تعبأ بأي شيء آخر ، و قد تكون فقيرا فقرا مدقعا و قد مر على النبي أيام يدخل بيته فيسأل : هل عندكم شيء ؟ يقولون : لا يقول .

عن عائِشة أُم الْمؤْمنين رضي الله عنْها قالتْ : قال لِي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ذات يومٍ :

يا عائِشةُ هلْ عنْدكُم شيء قالتْ فقُلْتُ يا رسول الله ما عنْدنا شيء قال فإِني صائِم قالتْ فخرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فأُهديتْ لنا هديةٌ أَو جاءنا زور قالتْ فلما رجع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قُلْتُ يا رسول الله أُهديتْ لنا هديةٌ أَو جاءنا زور وقد خبأْتُ لك شيْئًا قال ما هو قُلْتُ حيس قال هاتيه فجِئْتُ بِه فأكل ثُم قال قد كُنْتُ أَصبحتُ صائِما قال طلْحةُ فحدثْتُ مجاهدا بِهذا الْحديث فقال ذاك بِمنْزِلة الرجل يخْرِج الصدقة من مالِه فإِن شاء أَمضاها وإِن شاء أَمسكها *

(رواه مسلم)

و قد آتاه ا المال فساله أحدهم : لمن هذا الوادي ؟ فقال : لك قال : أتهزأ بي يا رسول ا ؟ قال : و ا هو لك ، قال : أشهد أنك رسول ا ، تعطي عطاء من لا يخشى الفقر" و قد انتصر على قريش التي ناصبته العداء عشرين عاما " ما تظنون أني فاعل بكم ، أخ كريم و ابن أخ كريم ، قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء .

امتُحن بالنصر ، و امتحن بالقهر في الطائف ، قال عليه الصلاة والسلام :

اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين إلى من تكلني ؟ إلى عدو يتجهمني ، أم إلى قريب ملكته أمري ؟ إن لم تكن ساخطا علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات والأرض وأشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن تحل علي غضبك ، أو تنزل علي سخطك ، ولك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

(الطبراني في الكبير عن عبد ا بن جعفر)

امتحن بالفقر و بالغنى و بالنصر و بالقهر و بالصحة و بالمرض وموت الولد ، وزوجة متعبة ، جاءت هدية طعام إلى النبي الكريم من زوجته صفية ، فلما رأتها عائشة رضي ا عنها أصابتها الغيرةُ فكسرت الطبق ، فما كان من النبي عليه الصلاة و السلام الحديث .

عن أَنَسٍ رضي ا عنه قَالَ :

كان النبِي صلى الله عليه وسلم عنْد بعض نسائِه فأَرسلَتْ إِحدى أُمهات الْمؤْمنين بِصحفَة فيها طَعام فَضربتْ التي النبِي صلى الله عليه وسلم في بيتها يد الْخَادمِ فَسقَطَتْ الصحفَةُ فَانْفَلَقَتْ فَجمع النبِي صلى الله عليه وسلم فلَقَ الصحفَة ثُم جعلَ يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفَة ويقُولُ غَارتْ أُمكُم ثُم حبس الْخَادم حتى أُتي بِصحفَة من عنْد التي هو في بيتها فَدفَع الصحفَةَ الصحيحةَ إِلى التي كُسرتْ صحفَتُها وأَمسك الْمكْسورةَ في بيت التي كَسرتْ *

(رواه البخاري)

كان من الممكن أن يكون له زوجات كالدمى ، لكن له زوجات متعبات أحيانا ليكون أسوة لنا ، هذا الحديث يطول ، و لكن أردت منه شيئا واحدا ، كن بأي وضع شئت ، بأي مستوى اجتماعي اقتصادي علمي جمالي ، كن بأي شكل ، العبرة أن تطيع ا عزوجل ، و انتهى الأمر قال تعالى :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

و لا تنسوا ، عن أَبِي هريرةَ أَن رسولَ الله صلى الله علَيه وسلم قَالَ :

رب أَشْعثَ مدفُوعٍ بِالأَبوابِ لَو أَقْسم علَى الله لأَبره *

(رواه مسلم)

لا أبالغ أيها الإخوة قد يكون الإنسان له شأن كبير ، و لا تستطيع أن تصل إليه إلا بصعوبة بالغة ، و عنده حاجب ، و قد تكون قلامة ظفر هذا الحاجب أكرم على ا من هذا

السيد، فالدنيا لها مقاييس ، و ا عزوجل عنده مراتب ، قال تعالى :

أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ (٥٥) هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ (٥٦) لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ (٥٨) وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ (٥٩) ۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ (٦٠)

(سورة يس)

فالعبرة بمراتب الآخرة ، لأنك في الدنيا لا تجد ؟ إلا إنساناً يملك ملايين مملينة ، هذا " بيل قيت " يملك تسعين مليار دولار ، أو قد تجد إنسانا لا يملك أجرة طريق ، يذهب إى بيته ماشيا في أيام البرد و المطر و قد تجد إنسانا قويا ليس فيمن حوله من يحاسبه ، و قد تجد إنسانا لو تكلم كلمة واحدة لحوسب عليها ، في الدنيا قوي و ضعيف ، و غني و فقير وصحيح و مريض ، قال تعالى :

ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا (٢١)

(سورة الإسراء)

العبرة بمراتب الآخرة ، لأن مراتب الآخرة أبدية ، قال تعالى :

لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ (٤٨)

(سورة الحجر)

في مراتب الدنيا هناك قلق عميق ، القلق العميق أن يذهب الذي بين يديك أو أن تذهب أنت عنه ، يكون الإنسان في أوج تألقه المالي والاجتماعي و الصحي ، يأتيه ملك الموت فيجعله خبرا في طرفة عين هو ذهب عن هذه النعمة ، و قد تذهب عنه ، أكبر قلق يصيب الإنسان في الدنيا أنه في نعمة ، فإما أن تذهب عنه ، وإما أن يذهب عنها ، أما إذا كان في الجنة لا يذهب عنها و لا تذهب عنه ، في عيشة راضية ، راضية عنهم فلا تغادرهم ، قال تعالى :

لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ (٤٨)

(سورة الحجر)

أيها الإخوة :

هذه المنزلة ؛ منزلة السر يتولى ا ً عزوجل حفظ هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين هم في الدرجات الدنيا الاجتماعية ، فالمجتمع فيه إنسان له حجم و له مكانة و له هيمنة و له أتباع ، و هناك إنسان لا أحد يعرفه وقد ضرب النبي عليه الصلاة و السلام لنا المثل بأويس القرني أويس القرني .

عن أُسيرِ بنِ جابِرٍ قال :

كان عمر بن الخَطابِ إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم أفيكم أويس بن عامر ، حتى أتى على أويسٍ فقال : أنت أويس بن عامر ، قال : نعم ، قال : من مراد ثم من قرنٍ ، قال: نعم ، قال : فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهمٍ قال : نعم ، قال : لك والدةٌ ، قال: نعم قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ :

يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرنٍ ، كان به برص فبرأ منه ، إلا موضع درهمٍ ، له والدةٌ هو بها بر ، لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعلْ .

فاستغفرْ لي ، فاستغفر له ، فقال له عمر : أين تريد ؟ قال : الكوفة قال : ألا أكتب لك إلى عاملها ، قال : أكون في غبراء الناس أحب إلي قال : فلما كان من العام المقبل حج رجلٌ من أشرافهم فوافق عمر فسأله عن أويسٍ ، قال : تركته رث البيت قليلَ المتاع ، قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ :

يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن ، من مراد ، ثم من قرنٍ كان به برص فبرأ منه ، إلا موضع درهمٍ ، له والدةٌ هو بها بر ، لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعلْ .

فأتى أويسا فقال : استغفر لي ، قال : أنت أحدثُ عهدا بسفرٍ صالحٍ فاستغفر لي ، قال: استغفر لي ، قال : أنت أحدثُ عهدا بسفرٍ صالحٍ فاستغفر لي قال : لقيت عمر ، قال : نعم فاستغفر له ، ففطن له الناس فانطلق على وجهه قال أسير وكسوته بردةً فكان كلما رآه إنسان قال من أين لأويسٍ هذه البردةُ .

(رواه مسلم)

مرتبته الاجتماعية أجير قوم و راعي إبل ، سأل سيدنا عمر أهل اليمن : هل بقي منكم أحد ؟ قال : لا كلنا جئنا ، أبدا ، لا هناك رجل أجير قوم و راعي إبل لا شأن له ، هو من ضعف المكانة أنه لك يذكر ، وكان من كبار التابعين و لا أحد يدري .

أيها الإخوة :

قضية أن يكون لك مقام عند ا هذا تحصله باجتهادك

كن ابن من شئت واكتسب أدبا   يغنيك محموده عن النسب

إن كنت فقيراً و مستقيماً على أمر ا فأنت رفيع المقام عند ا وإن كنت ضعيفاً ، و كنت على أمر ا مستقيما لك عند ا منزلة رفيعة العبرة بالطاعة ، و الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

وكفاك عن عدوك نصرا أنه في معصية ا ، هذا ملخص الدرس الأول .

الدرس الثاني قلت : هناك عشر حجب تحجبنا عن ا عزوجل ذكرت منها حجاب الجهل ، وحجاب الشرك ، و حجاب البدع القولية وحجاب البدع العملية ، و حجاب أهل الكبائر الباطنة ، و حجاب أهل الكبائر الظاهرة ، و حجاب أهل الصغائر ، و حجاب أهل المباحات وحجاب أهل الغفلة ، و حجاب المجتهدين السالكين في السير عن المقصود .

و أما اليوم وهو الدرس الأخير فالحديث عن عناصر هذه الحجب من أين تنشأ ، أحد العلماء يقول : إنها تنشأ من عنصر النفس و عنصر الشيطان و عنصر الدنيا وعنصر الهوى ، النفس والشيطان والدنيا والهوى ورد ، هكذا سمعت و لم أقرأ ، سمعت هذا من عالم توفي رحمه ا قال : لا بد لك من كافر يقاتلك ، و من منافق يحسدك ، و من الشيطان يغويك ومن نفس ترديك ، أربعة أعداء ، شيطان والنفس و المنافق والكافر .

قال : هذه العناصر الأربعة ؛ النفس ، العوام يقولون " ست نفوس " الإنسان أحيانا ينتصر لنفسه ، و لو جانب الحق ، و لو أدلى بشهادة كاذبة و لو فعل شيئا لا يرضي ا عزوجل قال البوصيري :

و خالف النفس والشيطان و اعصهما   و إن هما محضاك النصح فاتهم

و الشيطان مهمته إغواء الإنسان ، و إبعاده عن الرحمن ، و التفريق بينه وبين أهله ، و تخويفه من أداء ا عزوجل ، و تخويفه من الفقر ، قال تعالى :

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

و يخوفهم من أعداء ا ، و يفرق بينهم و بين أزواجهم ، من الناس من يحب أي امرأة ويبادلها المودة والهوى ، وزوجته لا يحبها ، شيطان يوسوس له ويزين له الدنيا بشهواتها و بلذائذها و بمالها وبنسائها و بمكانتها و بما فيها .

قال : هذه العناصر ؛ النفس و الشيطان و الدنيا و الهوى تفسد القول و تفسد العمل

و تفسد القصد و تفسد الطريق ، هناك قول ، و القول عمل ، و هناك عمل حقيقي مادي ، و هناك قصد و هناك طريق ، فإذا دخلت النفس أو الشيطان أو الدنيا أو الهوى صار القول فاسدا ، اللهم صل عليه بماذا وصف قوله بأنه :

وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾

(سورة النجم)

كثير من الناس لا يتكلمون إلا بالهوى ، حتى في بيعهم و شرائهم ، هذا كلام غير موضوعي صادر عن الهوى ، إذا كان وكيل شركة كل البضاعة التي تأتي من هذه الشركة يمدحها مديحا غير معقول ، فإن سحبت منه هذه الوكالة تكلم العكس ، هذا ميثاق ، مديحك لا قيمة له ، و ذمك لا قيمة له ، أحيانا تلاحظ معصية من صديق لا تتكلم فإذا نشأ خلاف بينك وبينه تتكلم عن معاصيه ، لماذا لم تتكلم بها حينما لم يكن بينك و بينه شيء لماذا لم تنصحه ؟ هذا موقف شيطاني ، لماذا حينما لاحظته لا يصلي لم تعاتبه فلما اختلفت معه أصبحت الصلاة عنصراً في الخصومة ، هذا ينطق عن الهوى .

وا ـِ أحيانا تجد إنسانا ينطق و لكنه ينطق بلسان الشيطان ، يصغر الإنسان و يفرّق بين الإنسان و أهله ، يطعن في عمله ، يضعف له همته و يثبط عزيمته ، شيطان ينطق .

حدثني أخٌ ، قال لي : كنت في مؤتمر ، رجل محسوب على المسلمين سمع الكفر البواح فلم ينبس ببنت شفة ، فلما تكلم مسلم و دافع عن الدين و اعترض ، بدأ يعترض ، ماذا تفسر هذا ؟! شيطان ينطق باسمه ، أنا أعتقد أن نسبة كلام الناس في الهوى كثير ، و الكلام الصحيح قليل ، وا عزوجل قال :

وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾

(سورة النجم)

فإذا دخل الهوى صار الكلام غير صحيح ، أروي قصة يمكن أني ذكرتها مرة أو مرتين ، أريد أن اشتري ستائر ، فأقنعني البائع قائلاً : يا أستاذ إذا أردت ستائر جميلة جدا يجب أن تقيس عرض الحائط و تأخذ قماشاً بما يعادل ضعف العرض زائد متر ، كلام دقيق ، اخترت القماش الذي أعجبني ، قاسه فوجده ضعف العرض ناقص متر ، قال لي : يا أستاذ هذا المطرز على الفرد يكون أحلى عكس الآية ، الآن أقنعني بقاعدة قبل دقيقة و جاء بأدلة ، فلما تضررت مصلحته بهذه القاعدة لا بد أن يبيع القماش ، و أنا أعجبني قال لي : هذا المطرز يا أستاذ على الفرد يأتي أحلى ، هو ينطق عن الهوى ، لا ينطق عن الحقيقة .

لو لا حظت نفسك تجد نصف كلام الناس عن هوى يأتي الخاطب يصبح وليا من

أولياء ا ، وإذا لم تتم الخطبة يصبح شيطانا ، قبل شهر قلتم : لا يوجد مثله ، ما الذي حدث ؟ لا المديح له قيمة و لا الذم له قيمة ، يكون شريكا يقول لك : ملك من السماء بعثه ا لي ، اختلف الشريكان أصبح شيطانا .

عن أبي هريرةَ أُراه رفَعه قالَ :

أحبِب حبيبك هونًا ما عسى أن يكُون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونًا ما عسى أن يكُون حبيبك يوما ما *

(رواه الترمذي)

دائما اترك شعرة معاوية .

إذًا النفس و الشيطان و الدنيا و الهوى تفسد القول ، صار القول غير موضوعي والمديح غير صحيح ، الذم غير صحيح ، هوى ، الأم مع ابنتها ، و هي ضد زوجة ابنها لأنها غريبة ، أتى ابنها بغسالة أوتوماتيك لزوجته أقامت عليه النكير ، فلما جاء صهرها في اليوم نفسه بغسالة أوتوماتيك لزوجته التي هي ابنتها ، كانت راضية عنه ، في دقيقة واحدة توبخين إنسانا وترضين على إنسان بعمل واحد ، هي تنطق عن الهوى معقول أن يكون للإنسان صانع في المحل و عنده ابن في سن واحدة يحمل الصانع أول ثوب و الثاني و الثالث و الرابع ، لا يستطيع أن يحمل ، قال له : أنت شاب ، فإذا حمل ابنه ثوبا واحدا قال له : احذر ظهرك ، معقول هو ينطق عن الهوى ، و الإنسان الذي ينطق عن الهوى يسقط عن عين ا ، و لئن تسقط من السماء إلى الأرض فتنحطم أضلاعك أهون من أن تسقط من عين ا ، تجد نمدح ونذم و ننتقد ، أحيانا ننتقد فقط حسدا إنسان تفوق لا بد أن ننزله ، لماذا تفوق هو كان يعمل ليلا و نهارا و أنت كنت نائما ، هناك شخص تجده نائما ليس عنده أي رغبة أن يخدم الناس هناك إنسان شمر و قال : يا رب ، ا وفقه و تألق ، يقال هذا إدعاء للمعرفة زعبرة ، هذا شيطان يتكلم ، لِم لم تعمل مثله لِم لم تجتهد كما اجتهد ، لِم لم تشمر كما شمر ، لِم لم تفر إلى ا كما فر إلى ا ، لِم لم تجاهد نفسك و هواك كما جاهد هو ، لكن أنا أنتقده فقط ، و أطعن فيه و أحطمه ، حتى أنتصر لنفسي ، و ا الذي لا إله إلا هو لو برئت نفوسنا من الحسد لكنا في حال غير هذا الحال ، أي ستة أعشار تقييم الناس بعضها بعضاً حسد ، حتى في حقل الدعوة إلى ا ، حتى في حقل الجماعات الإسلامية حسد ، إذا تألق إنسان ، من أين صعد هذا ؟ لا يتحمل هؤلاء أصحاب الوجاهة و أصحاب الاحتكار ، لا يتحملون ، قال : هناك عالم تألق جدا في العصر العباسي أحد كبار العلماء المحسوبين على أنه من أساطين العلم ووحيد عصره و فريد زمانه و قُدس سره أراد أن يحضر درس هذا الشاب ليصغره حسدا فقط ، و الآية تؤكد ذلك ، قال تعالى :

وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ

(سورة آل عمران)

علة الاختلاف هو البغي فقط ، قال له أمام الناس : يا هذا ، هذا الكلام الذي قلته ما سمعناه ، من أين جئت به ؟ فقال له الشاب : يا سيدي هل حصلت كل العلم ؟ قال : لا ، قال : هذا من الذي لم تحصله .

أيضا عالم آخر شاب تألق نجمه و ذاع صيتُه و انتشر ذكره في الآفاق قال : و ا إني أشفق عليك مما يقوله الناس عنك ، قال له : و هل سمعت مني عنهم شيئا ؟ قال : لا ، قال : عليهم فأشفق ، أنت راقب نفسك تسعة أعشار كلام الناس عن هوى ، ليس هناك موضوعية يمدح بلا سبب يمدح لمصلحة ، و يذم لمصلحة ، يظهر العيوب عند الضرورة لمصلحة ويخفي العيوب لمصلحة ، فالنفس و الشيطان و الدنيا و الهوى ، هذه تفسد القول ، كما أنها تفسد العمل ، يغش الناس هذا داخل في العمل ، يقول اك : أنا عندي أولاد ، و ا ُ لا يؤاخذني إن شاء ا ، فمال الحرام عند الناس ليس مشكلة ، فيخترع أدلة و يخترع تعليلات مضحكة شيطانية ، قال له : و ا يا أستاذ أنا لي مطعم يقدم الخمر ، إن شاء ا في رقبة شريكي و أنا لا دخل لي ، كيف لا دخل اك ، يصلي في أول صف في المسجد والمطعم يبيع الخمر ، قال " إن شاء ا في رقبته هو هكذا ماذا أفعل له أنا علي ان آخذ ربحي فقط ، هذا الذي أخذته إثم لماذا مددت يدك لأخذ الربح ؟ فغير الكلام عمل ، والعمل فسد ، صار هناك كذب و صار هناك غش ، و صار هناك إساءة و صار هناك حسد والقصد ، كان قصده ا عزوجل ، فصار قصده الدنيا ، قال واحد: لزم صلاة الفجر أربعين عاما يكبر مع الإمام ، ففي يوم تغيب تألم ألما غير معقول ، قال : ماذا يقول الناس عني اليوم ؟ أي أن الأربعين سنة ليست انتبه ، القصد ، صححوا قصدكم ، وصححوا نواياكم ، ماذا يقول الناس عني اليوم ؟ أنت فاتتك هذه الصلاة و لم تخش من ا شيئا ، لكنك خشيت الناس ، و الطريق إلى ا عزوجل صار غير سالك ، قال تعالى :

قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

(سورة التوبة)

صار الطريق مغلقاً ، هذه الأربع النفس و الشيطان و الهوى و الدنيا تفسد القول و العمل و تفسد القصد و تفسد الطريق ، بحسب غلبتها و قلتها ، تقطع طريق القول و العمل و القصد أن يصل إلى القلب ، و ما وصل منه إلى القلب قطعت عليه الطريق إلى أن يصل إلى الرب ،تُقطع الطريق إلى القلب ، فإن وصلت إلى القلب قطعت الطريق إلى الرب قال تعالى :

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾

(سورة النجم)

و قال تعالى

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾

(سورة الأنعام)

قال تعالى :

فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ

(سورة فصلت : ٦)

يجب أن تكون الاستقامة خالصة له ، و يجب أن توصلك استقامتك إليه لا إلى سمعة ولا إلى مكانة و لا إلى مديح و لا إلى ثناء .

يا إخوان ، الآن كيف تُحارب الدنيا ؟ قال : بالزهد فيها ، مادام أنه عندنا أربعة عناصر مخيفة ، الدنيا و النفس والهوى ، كيف نحارب هذه العناصر الهدامة ؟ هذه القواطع التي تقطعنا عن ا ؟ تقطع علينا صواب القول و العمل و القصد و الطريق ، قال : الدنيا تُحارب بالزهد فيها، قال سيدنا عمر لأويس القرني ، ألآمر لك بصلة ، قال : معي أربعة دراهم ، متى تُراني أنفقتها ، و علي إزار و ثوب متى تُراني خرقتهما ، الزهد ، فالإنسان حينما يغتني با يزهد في الدنيا ، و من عرف ا زهد فيما سواه ، إذًا يجب أن يزهد فيها ، و الحد الأدنى أن يخرجها من قلبه ، و لا يضره أن تكون في يديه إنسان غني في يده أموال طائلة ، و إنسان فقير هل تصدقون - طبعا هذه من المفارقات الحادة - هل تصدقون أن هذا الفقير الذي لا يملك ثمن طعام قد يكون متعلقا بالدنيا أضعافا مضاعفة عن هذا الغني الذي بيده كل شيء و المؤمنون يبيعون و يشترون و لكن تجارتهم لا تلهيهم عن ذكر ا صلواته و عباداته و دروسه إقباله حرصه و أعماله الصالحة فوق كل شيء ، لذلك أنا أتمنى على كل أخ أن ينظم وقته ، و الذي أراه أن

المؤمن القوي كما قال النبي الكريم .

عن أَبِي هريرةَ قَالَ : قَالَ رسولُ الله صلى الله علَيه وسلم :

الْمؤْمن الْقَوِي خَير وأَحب إِلى الله من الْمؤْمنِ الضعيف ، وفي كُلٍ خَير ، احرِص علَى ما ينْفَعك واستَعن بِالله ، ولا تَعجز وإِن أَصابك شَيء فَلا تَقُلْ لَو أَني فَعلْتُ كَان كَذَا وكَذَا ، ولَكن قُلْ قَدر الله وما شَاء فَعلَ فَإِن لَو تَفْتَح عملَ الشيطَانِ .

(رواه مسلم)

و القوة تحتاج إلى أسباب ، من أجل أن تكون حاملا للدكتوراه لا بد لك من دراسة ، أن تكون تاجرا كبيرا لا بد أن تهتم اهتماما شديداً ، فإذا اهتممت أنت و حصلت مرتبة عالية ووظفتها في الحق ، فهذا عمل عظيم لكن ينبغي أن تكون الدنيا في يديك لا في قلبك ، فتُحارب الدنيا بالزهد فيها و إخراجها من القلب ، و لا يضر أن تكون في يديه و بيته و لا يقال ذلك بقوة يقينه بالآخرة ، سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي ا عنه كان يقول : **ماذا أفعل إذا كنت أنفق مائة في الصباح فيؤتيني ا ألفا في المساء** ، ماذا أفعل ؟ هناك إنسان رزقه ا ، و يوظف هذا المال في خدمة هذا الحق ، قال سيدنا عبد الرحمن : وا ِ - من باب التفاؤل و الاعتماد على رحمة ا - **و ا ِ لأدخلن الجنة خببا** " وهو غني كبير ، و يحارب الشيطان بترك استجابته لداعي الهوى ، قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ

(سورة الأنفال)

الذي يستجيب للهوى قال تعالى

فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ

(سورة القصص)

تُحارب الدنيا بالزهد ونقلها من القلب إلى اليدين و يحارب الشيطان بعدم الاستجابة له ، حدثنا أخٌ بكلام طيب ، قال : والدي - المتكلم أحد علماء دمشق - قال لي مرة : يا بني إذا وسوس لك الشيطان فعاقبه ، قال له : كيف ؟ قال إذا أردت أن تدفع ألف ليرة و جاءك الشيطان وقال لك : لا تدفعها ، أولادك أولى ، عاقبه و ادفع ألفي ليرة ضاعفْ المبلغ ، قال لك لا تصل ، صل ضعف ، أي وسوسة وسوس لك بها افعل عكسها و زيادة هذه معاقبة الشيطان ، لا تستجب له ، يقول لك حارب فلانا : اذهب إليه وأستسمحه ، و صله ، الإنسان عليه أن يعاقب الشيطان ، و الشيطان يستعين بالدوافع الأساسية ، أهانك فلان إذهب إليه

وتجاوز عن إهانته أتى رجل إلى الرسول قال : يا رسول إنني نؤوم ، فقال عليه الصلاة والسلام : **اللهم أذهب عليه النوم ، فقال سيدنا عمر : و يحك يا رجل لقد فضحت نفسك فقال النبي عليه الصلاة و السلام : دعه يا عمر فإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة "**
.

و يحارب الهوى بتحكيم الأمر المطلق ، كل واحد منا له أهواء وشهوات ، و ا سمح بشهوة في قناة نظيفة ، أنا أسمح لنفسي ما سمح ا لي فقط ، من النساء زوجة ، ومن المال ما كان حلالا ، من النزهات ما خلا من معصية ، أنا أمارس الذي سمح ا لي به ، و هذا معنى قوله تعالى :

بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ

(سورة هود)

لذلك ورد : **لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به** *

(رواه الطبراني)

و يحارب النفس بقوة الإخلاص ، إذا استيقظ الإنسان في الليل وصلى و لم يتحدث بكلمة للآخرين ، هل تستطيع نفسه أن تقول له : لقد نافقت في هذه الصلاة ، ما تكلم ، الإنفاق دون الذكر دليل إخلاص ، وغض البصر دليل إخلاص ، النوافل دليل إخلاص ، صلاة الليل دليل إخلاص فأنت تحارب نفسك بقوة إخلاص ، و تحارب الهوى بتحكيم الشرع وتحارب الشيطان بعدم الاستجابة له ، و تحارب الدنيا بالزهد فيها و نقلها من القلب إلى اليدين ، هذه الموانع و القواطع .

الآن عندنا منزلق يقال لخاصة المؤمنين ، زهد فلان في الدنيا و أخلص و حكم الشرع و لم يحكم الهوى و لم يستجب للشيطان ، نال مكانة عند ا ، فظن أن هذه المكانة حصلها بقوة إرادته فاستكبر بها حتى في الاستقامة ، و حتى في الإخلاص ، هناك منزلق الكبر و العجب أنا قرأت عن عالم في الهند صار أتباعه قريبا من مائة ألف ، يعني ذاع صيتُه و اشتهر و تقلب في مراتب الدين العليا ثم ادعى الألوهية .

إخواننا الكرام حتى النجاح فيه مخاطر ، فيه مخاطر انزلاق بالعجب والغرور و الكبر، لذلك ابن عطاء ا السكندري يقول : رب معصية أورثتْ ذلا و انكسارا ، خير من طاعة أورثت عزا و استكبارا قال : وانظر إلى الشريد السكير ، هذا بالمقابل الذي كان كثيرا ما يلقى به إلى النبي مخمورا ، فيحده على الشراب ، كيف قامت به قوةُ إيمانه و يقينه ومحبته و رسوله و تواضعه و انكساره حتى نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن لعنه ، وهو

عياض بن حمار رضي ا عنه ، و تاب .

عن عمر بنِ الْخَطابِ أَن رجلا علَى عهد النبِي صلى الله علَيه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلَقب حمارا وكان يضحك رسولَ الله صلى الله علَيه وسلم وكان النبِي صلى الله علَيه وسلم قَد جلَده في الشرابِ فَأُتي بِه يوما فَأَمر بِه فَجلد فَقَالَ رجلٌ من الْقَومِ اللهم الْعنْه ما أَكْثَر ما يؤْتَى بِه فَقَالَ النبِي صلى الله علَيه وسلم : **لا تَلْعنُوه فَو الله ما علمتُ إِنه يحب الله ورسولَه ***

(رواه البخاري)

فهذا السكير و الخمير انتهت حياتُه بتوبة نصوح ، وهذا الذي أخذه الغرور و العجب حتى لو نجوتَ من هذه المعوقات ***، لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أكبر ، العجب*** " أنا ذكرت مرة مثلا لطيفا ، أنه جاءك عشرون ضيفا ، ليس عندك شيء ، عندك في البيت كيلو لبن ، أضفت له خمس أمثاله ماء ووضعت ثلجا وملحا وقدمته شرابا عيران ، تحمل الكيلو خمسة أمثال ماء هذا اللبن ، لو وضعت فيه نقطة كاز واحدة لفسد ، خمسة أضعافه ماء يشرب الكبر كنقطة الكاز تفسد العمل ، فانتبوا يا إخوان .

عن أَبِي سعيد الْخُدرِي وأَبِي هريرةَ قَالا : قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : الْعز إِزاره والْكبرِياء رداؤُه فَمن ينَازِعني عذبتُه *

(رواه مسلم)

طبعاً هذه الفكرة الأخير لخاصة الخاصة ، هذا الكلام موجه لواحد ناجح نجاحا كبيرا ، دخل ابن المبارك على طلابه لقي عشرة آلاف أمامه قال : **يا ربي لا تحجبني عنك بهم ، و لا تحجبهم عنك بي** " و ا قال :

ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

(سورة التوبة : ٣١)

الإخلاص ، أنت مع ا ، أديب محب متواضع ، تخدم ، لكن مقصودك هو ا ،أحيانا ينسى الإنسان ا فيعبد سوى ا وهو لا يشعر ، و قع في شرك " **لا تحجبهم عنك بي ، و لا تحجبني عنك بهم** ".

عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنْهما ، عن النبِي صلى الله عليه وسلم قَالَ : لَو كُنْتُ متخذًا من أُمتي خَليلًا لَاتخَذْتُ أَبا بكْرٍ ولَكن أَخي وصاحبِي *

(رواه البخاري)

هكذا . هؤلاء أصحاب السر قال : لهم صفات ، صفاته الإجابية أنهم سبقوا و لم يوقف لهم على رسم ، سبقوا بلا ضجيج ، هناك إنسان في دهره صلى قيام ليل ، يحكي

القصة مائة مرة، هذا الإنسان سبق من دون ضجيج ، لأنه مخلص ، يصوم فلان يوما ، يقول : أنتم لستم صائمين اليوم ؟ يباهي بصيامه ، وجد أحد لوزةً أثناء الطواف صاح : من صاحب هذه اللوزة ؟ من صاحب هذه اللوزة ؟ قال له سيدنا عمر : كلها يا صاحب الورع الكاذب"، كلها و " خلصنا " هناك عمل مع ضجيج ، قال : هذا الإنسان صاحب السر يعمل بلا ضجيج ، و من دون تبجح ، ومن دون تعليقات ومن دون لفت نظر.

العلامة الثانية أنهم لم ينسبوا إلى اسم ، لم يشتهروا به ، هناك إنسان يحب الألقاب ، عضو مثلا المجمع الفلاني دكتوراه في كذا ، قديما كانوا : الفقير إليه تعالى ، ويكون عالما من كبار علماء الأرض ، الفقير إلى ا تعالى ، لا يهتمون بالأسماء و الألقاب و المراتب ، احذر أن تقول لدكتور : أستاذ ، أخطأت معه ، خطأ تكفره ، "دكتور" لها رنين خاص أصحاب السر لا يهتمون بالألقاب و لا بالمراتب أما ألطف شيء في مقام هؤلاء أن عبادتهم مطلقة و ليست مقيدة ، هناك شخص ليس له عمل غير الفقه فقط ، أم هذا صاحب السر يخدم في جامع و ينظف و يمشي مع إنسان ، و يتفقد إخوانه ، و يفعل كل شيء ، ليس له عمل واحد ، عالم فقط أو مؤلف ، أو مفكر ، يمكن أن يدخل وساطة بين اثنين ، و يمكن أن يساعد إنسانا ، و يمكن أن ينظف مسجدا ، تجد نفسه هينةً ، هذه العبادة المطلقة أمر كبير ، أن تعبد ا َ فيما أقامك ، أقامك غنيا أول عبادة إنفاق المال ، اقامك عالما أول عبادة تعليم العلم ، اقامك قويا أول عبادة تساعد الضعيف ، أقامها امرأة ، أول عبادة رعاية زوجها و أولادها ، هذه فيما أقامك ، هناك ظرف وضعك فيه ، الأب مريض ، أول عبادة تمريض الأب ، الابن عنده امتحان أول عبادة معاونة الابن ، الزوجة مريضة ، أول عبادة مراعاة الزوجة ، عندك ضيف ، أول عبادة إكرام الضيف ، في الوقت الذي أذن له وقت فجر ، و قت صلاة ، و ليس لغسيل سيارات كل وقت له ترتيبه ، فهذا صاحب السر كل الأعمال يفعلها ، تريدون دليلا من السنة ؟ هل هناك مقام أعلى من مقام رسول ا ؟ مقامه مقام الدعوة ، قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾

(سورة الأحزاب)

في بدر هناك ثلاثمائة راحلة و ألف صحابي ، قال النبي : كل ثلاثة على راحلة ، و أنا و علي و أبو لبابة على راحلة " النتيجة ركب النبي الكريم وانتهت نوبته ، جاء دوره في المشي ، فصاحباه توسلا إليه ، قالوا : يا رسول ا ابقَ راكبا ، أي أكرمنا ، ماذا قال : ما أنتما بأقوى مني على السير ، و لا أنا بأغنى منكما على الأجر" أنا أريد أجر المشي هو داع إلى ا كبير ، و إن كنت أنت داعية كبيرا و دعيتَ لفض نزاع ، لا تقل أخي أنا ليس لدي

وقت ، دعيت إلى وساطة ، اذهب معي إلى فلان أذهب معه مرة قرأت أن سيدنا ابن عباس كان معتكفا ، فجاء رجل و رآه كئيبا ، قال له : ما لي أراك كئيبا ؟ قال له : ديون لزمتني لا أطيق سدادها ، قال : لمن ؟ قال : لفلان قال سيدنا ابن عباس : أتحب أن أكلمه لك ؟ قال له : إذا شئت ، فقام ليكلمه قالوا : يا ابن عباس أنسيتَ أنك معتكف ، أنت لك اعتكافك و مقامك و إقبالك و بكاؤك ، أين ذاهب ؟ قال له : سمعت صاحب هذا القبر - و العهد به قريب - " لأن أمشي مع أخي في حاجته خير لي من صيام شهر و اعتكافه في مسجدي هذا " انظر كيف فهم العبادة ، خير لي من صيام شهر و اعتكافه في مسجدي هذا " أحيانا يقتضي أن تمشي مع أخيك و يقتضي أن تعينه ، و تأخذه إلى مستشفى ، و تمرضه و تقرضه و تشتري له حاجاته من السوق ، أنت لك خبرة ، وهو ليس له خبرة ، لا بد أن تأخذ له غرفة نوم كيف تشتريها و تساعده ، و ا ِ عندنا أخٌ من إخواننا ، وا ِ أنا أثق ببراءته ثقةً مطلقة ، حصل خطا إداري دخل السجن ذهبت إلى زيارته في السجن ، استغرب مدير السجن كثيرا ، احتفى احتفاء غير طبيعي لما دخل الأخ ، قلت له نبي كريم دخل السجن ، جبرا لخاطره أي مؤمن دخل السجن بسبب أو لآخر ، هذه الزيارة لن ينساها إلى الموت كلفتني و قتا و جهدا و إجراءات صعبة للدخول إلى هناك فالأعمال الصالحة أنواع كثيرة ، بالمساعدة وبالنصح ، وأن تعود مريضا ، أو تسعف هرة ، و ا ِ وجدت هرة مدعوسة أخذتها إلى مستشفى بيطري قال تعال غدا ، هذا عمل صالح ، هؤلاء أصحاب السر أعمالهم منوعة ؛من دعوة إلى خدمة إلى تنظيف مسجد إلى اجتماع إلى وساطة إلى مساعدة إلى كتابة استدعاء أحيانا ، و شكل .

شيء آخر في هؤلاء أصحاب السر ليس عندهم كهنوت و زي خاص لباس خاص فخم جدا يكلف مئات الألوف ، لا ، ليس لهم رسم خاص و أختام خاصة و هيئة خاصة و جلسة خاصة ، لا يوجد شيء من هذه دخل أعرابي "**أيكم محمد**" لم يعرفه ، أين كان جالسا النبي ؟ مع أصحابه على الأرض ، أيكم محمد ؟ قال هؤلاء لا يتقيدون لا بإشارة و بلا رسم و باسم و لا بزي و لا بطريق وضعي اصطلاحي ، من شيخك ؟ قل " رسول ا ، طريقك ، الاتباع ، اتباع النبي ، من ؟ أنا متبع لرسول ا فقط ، مذهبك ؟ السنة .

هناك صفات كثيرة جدا لهؤلاء ، اللهم اجعلنا من هؤلاء ، و اجعلنا من أصحاب السر الذين أخلصوا عزوجل ، و لو كنا في الدرجة العادية في المجتمع ، قال : أهلا بمن خبرني جبريلُ بقدومه ، قال : أومثلي ؟ قال : نعم يا أخي ، خامل في الأرض علَم في السماء .

و الحمد رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الرابع والسبعين من دروس مدارج السالكين ، في منازل إياك نعبد وإياك نستعين . والمنزلة اليوم منزلة **المعاينة** .

المعاينة نوعان : معاينةُ بصرٍ ، ومعاينة بصيرة . قد تمسك شيئاً بيدك تقول : هذا الشيء أخضر اللون . عاينته ببصرك ، أو عاينته بحسك أو عاينته بجلدك ، أو عرفت وزنه ، أو عرفت شكله ، أو عرفت رائحته أو عرفت أبعاده ، هذه معاينة بصر ، الناس جميعاً مشتركون بهذه المعاينة إلا من ابتلاه الله بفقد أحد حواسه .

وهذه المعاينة هي أقل معاينة تُفيد الإنسان ، الدنيا كما قال عليه الصلاة والسلام :

"خضرةٌ حلوة. "

(من مسند الإمام أحمد : عن " أبي سعيد الخدري)

"الدنيا تغر وتضر وتمر. "

(من شرح الجامع الصغير)

قد تجد بيتاً جميلاً ، اشتراه صاحبه بمالٍ حرام ، الإنسان العادي يقول : هنيئاً له على هذا البيت . أما المؤمن يرى أن هذا البيت سيكون ناراً تحرقه يوم القيامة . الأشياء الظاهرة جميلة جداً ؛ لو ذهبت إلى بلاد الغرب لوجدت من الجمال الطبيعي ، وجمال الأبنية ، وجمال الطرق ، وجمال الحدائق الشيء الكثير، كل شيء يمتع العين ، ولكن المصير !!

أضرب لكم مثلاً : هناك قاعة قمار في لبنان قرأت عنها ثمنها ثلاثون مليون دولار ، قاعة واحدة ، وقد تجد مدرسة مبنية من مائة سنة متداعية ، هذه تُخَرِج علماء ، وهذه تخرج مقامرين إما إلى السجن ، أو إلى الانتحار . مدرسوا المدرسة أكْفاء ، مخلصون ، يقدمون العلم العميق والصحيح ، ويؤدبون الطلاب ، البناء متداعٍ ، أما في النهاية هذه المؤسسة تخرج أبطالاً أو علماء ، بينما هذه القاعة الفخمة جداً التي ثمنها بضع عشرات ملايين ، هذه تخرج مقامرين إما إلى سجنٍ ، أو إلى كآبة ، أو إلى انتحارٍ ، أو إلى جريمة ، أو إلى انحراف .

فالعبرة لا بالظاهر ؛ العبرة بالباطن ، فالشيء الذي ينفرد به المؤمن هو البصيرة .

فمثلاً : قد تُعرض عليه وظيفتان ؛ وظيفةٌ دخلها كبير ومعها بيت ومركبة ، ووظيفة دخلها لا يكفيه نصف شهر ، الوظيفة الثانية فيها مرضاة الله عز وجل ، فيها نفع للناس ، فيها صدقٌ وأمانة، والوظيفة الأولى تُبنى على أنقاض الناس ، وعلى عذاباتهم ، وعلى فقرهم ، وعلى ابتزاز أموالهم ، فالمؤمن إذا ملك البصيرة اختار الوظيفة ذات الدخل القليل.

مثل بسيط : إنسانة فقيرة جداً قد تعمل ثماني ساعات بمبلغٍ بسيط في خدمة المنازل ، وقد تعمل امرأةٌ ثانية لساعة أو أقل فتأخذ أضعاف ما تأخذه الأولى ، ولكن تأكل بثديها ، تبيع جسدها ، هنا تعب ، هنا في الظاهر متعة ، ولكن هنا تنتظرها جنةٌ عرضها السماوات والأرض ، وهذه تنتظرها نار جهنم . فالأمر بحقيقته ، والأمر بخاتمته ، والأمر بمصيره فأكثر الناس عندهم معاينة بصر .

فلما خرج قارون بزينته على قومه قال الذين يريدون الحياة الدنيا :

يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾

(سورة القصص)

لكن الذين أوتوا العلم ماذا قالوا ؟ ..

وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا

(سورة القصص: من آية " ٨٠ ")

إلى آخر الآية . معنى هذا أنك إذا نظرت إلى بناء ، إلى بيت فخم وعلمت أن صاحبه جمعه من مالٍ حرام . إذا نظرت إلى مركبة فخمة وعلمت أن صاحبها جمعها من مالٍ حرام . هل تقول : هنيئاً له على هذا البيت ، أو على هذه المركبة ؟ . لا ، المؤمن لا يضحي بطاعته عز وجل ولو قطعوه إرباً إرباً ، ولو أعطوه أموال الدنيا ، المؤمن صامد أمام سياط الجلادين اللاذعة ، وأمام سبائك الذهب اللامعة ، لا يخضع لتهديد ولا ينهار لإغراء ، هو يطبق منهج ا عز وجل ويرجو رحمة ا ..

أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

(سورة القصص)

معاينة البصر وقوع الشيء على نفس الرائي ؛ إما بألوانه ، أو بحجمه ، أو بشكله ، أو بأبعاده ، أو برائحته ، رؤية الشيء أو رؤية مثاله. لو وقف إنسان في شرفة ، وفي هذه الشرفة توجد مغسلة ، وأمامها مرآة ونظر إلى جارته ، هو لم ير شخصها لكن رأى صورتها ، فهؤلاء الذين يقولون : هذه صورة ، هذا خيال . هذا كلام مضحك جداً ، وقد تكون الصورة أبلغ من الحقيقة ، وقد تفعل فعلاً أشد من فعل أصل الشيء ، لذلك هناك من يصر على أن رؤية المرأة الأجنبية حرام حقيقةً ، أو صورةً ، أو خيالاً ، أو ما إلى ذلك ، العبرة بالتأثير .

فإذا إنسان خرج إلى الشرفة لبعض شأنه ، فرأى امرأةً في المرآة في الطرف الآخر بثياب متبذلة ، فلو أنه التفت هكذا ونظر إليها ، أو لو أنه دقق في المرآة الأثر واحد ، والشيء واحد لا يتغير ، فالبصر وقوع المرئي على ساحة البصر ، أو على الحواس الخمس .

قال : أما البصيرة فهي وقوع القوة العاقلة على المثال العلوي المطابق للخارجي .

الآن لو شخص في أمس الحاجة إلى المال ، رآى ملايين أمامه وهو أمين صندوق ، لو نظر إلى هذا المال بشكل ظاهري وأخذه خلال أيام أو أشهر يتمتع بسهرات ، وبأكل ، وبسفر ، لكن بعد أن ينكشف أمره قد ينتحر ـ رب أكلة منعت أكلات ـ فأكثر المنحرفين يعيشون لحظتهم. في علم النفس يصنفُ المجرم غبياً ، أكثر المجرمين بعد حين يشنقون ، ويعدمون وتنتهي حياتهم ، تنتهي نهايةً وضيعةً دنيئةً قاطعةً .

أما حينما يكون عقلُ الإنسان راجحاً يقول : هذا الشيء محرم لا أفعله . ودائماً الدنيا محسوسة والآخرة معقولة ، وهذا أحد أنواع الامتحانات؛ أمامك امرأة ، أمامك مركبة ، أمامك بيت ، محسوس ، أما بالمصحف تفتح مثلاً على سورة معينة ، على آية معينة :

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الضحى)

الدنيا محسوسة أمامك ، تملأ العين والسمع والأذن ، أما الآخرة معقولة تستنبطها من نص ، فما الإيمان بالغيب ؟ هذا هو الإيمان بالغيب ، تعرض عن شيء محسوس صارخ أمامك ، وتنتظر ما وعد به خالق السماوات والأرض ..

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة القصص)

ثمن الجنة الإيمان بالغيب ، فلو كانت الآخرة محسوسة فلا جنة مثلاً قل للناس : أي إنسان يدفع مئة ليرة مساعدة لمشروع خيري نعطه ألف بعد ساعة ، ستجد الناس واقفين بالطرقات زرافات ووحدانا ، بالمئات بالألوف ، بما يقارب الملايين ، منهم المؤمن ومنهم الكافر ومنهم الملحد ولو قلت للناس : لو نظرت لأطلق عليك الرصاص . لا أحد ينظر خوفاً من الرصاص ، لم يعد هناك اختيار ، ا عز وجل قادر أن يحمل عباده جميعاً على الطاعة ، ولكن هذه الطاعة القسرية لا تسعد صاحبها ، و..

﴿ لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ ﴾

(سورة الرعد : من آية " ٣١ ")

في بعض البلاد الغربية الناس جميعاً مستقيمون ، استقامةً لا تسعدهم ، استقامة إلكترون ـ ضبط إلكتروني ـ مخيف ، فأكبر سوق فيه ما يقارب ألف مليون من البضائع ، فيه خمسة موظفين على الصندوق ، أي سلعة في هذا السوق فيها مادة إن لم تدفع ثمنها يصدر صوت مخيف وأنت خارج من السوق ، إن دفعت ثمنها تمرر على جهاز ، يلغى أثر هذه المادة، يا ترى الكل دفعوا فمن هو الأمين ؟ من هو الخائن ، من هو السارق ؟ من هو الصادق ؟ من هو الكاذب ؟ أُلغيت كل هذه القيم لأن هناك ضبط شديد جداً .

فهذه الاستقامة الناتجة عن الضبط الخارجي ، القهري ، القسري ليست مسعدةً لصاحبها ، ا يريدك أنت ، يريد قلبك ، يريد اختيارك يريد محبوبيتك ، يريد مبادرتك ، لا يريد خضوعك .

لذلك أنا أقول دائماً : الأنبياء ملكوا القلوب ، والأقوياء ملكوا الرقاب فيمر على النبي عليه الصلاة ولا السلام ألف عام كلما ذكرت قصته تبكي ملك القلب ، والقوي ملك الرقبة ، وشتان بين من يملك القلوب بكماله وبين من يملك الرقاب بقوته .

لا بد للمؤمن من بصيرة ، هذه البصيرة تخترق ظواهر الأشياء ، إنسان قال لي : عنده محل صعب أن يوصف لأنه فخم ، لكنه يبدو أنه يوجد فيه معاصي كثيرة ، فيه موبيقات كثيرة ، فيه بضاعة محرمة ، إلخ .. فقال لي : أنا عملي قذر .

تذهب إلى مكان تصليح السيارات تجد الشحوم ، والزيوت والأطيان ، والمحل لا يحتمل ، لكن صاحبه أصلح السيارة بإتقان وأخذ أجراً معتدلاً ، ومساء اغتسل ، ولبس أجمل ثيابه، نقول هذا العمل الثاني عمل نظيف ، أما الأول قذر ، بالعين الأول نظيف والثاني قذر ، بالبصيرة الأول قذر والثاني نظيف .

لكن النقطة الدقيقة أن البصيرة لا ترى ذات الشيء ، ترى مثالها ..

﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ ﴾

(سورة الأعراف : من آية " ١٤٣ ")

معنى ذلك أن الإنسان يدرك مثال الأنوار الإلهية ببصيرته ، أما إن أدركها بذاتها

احترق .. يقول عليه الصلاة والسلام :

"إِذَا مررتُم بِرياض الْجنة فَارتَعوا قَالُوا وما رياض الْجنة قَالَ حلَقُ الذكْرِ *"

(من سنن الترمذي : عن " أنس بن مالك)

درس علم بمسجد ، لا تجد مقعداً وثيراً ولا وسادة مريحة ، جلسة على الأرض ، بينما بمطاعم فخمة جداً ، مقاعد وثيرة ، وطعام طيب ونفيس ، واختلاط وموسيقا وغناء ، بحسب الحس ذاك المطعم ممتع أكثر بحسب البصيرة في مجلس العلم هنا السعادة ، وهنا التوفيق ، وهنا السكينة وهناك الشقاء .

البصيرة تعني أنه يجب أن تعتقد جازماً أنه مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر ، ومستحيل وألف وألف مستحيل أن تعصيه وتربح . فدائماً أهل الدنيا يصعدون صعوداً حاداً ثم يسقطون سقوطاً مريعاً، كل شيء جمعه في الحياة يخسره في ثانية واحدة ، أما المؤمن تراكمي كلما امتد عمره اقترب من ا عز وجل ، ازداد قُربه ، فإذا جاءه ملك الموت كانت هذه اللحظة كعرسه تماماً .

"تحفة المؤمن الموت. "

(من الجامع الصغير : عن " ابن عمر ")

"الموت عرس المؤمن. "

وظل خَطه البياني صاعداً ، لذلك من الأدعية التي أُثرت عن النبي صلى ا عليه وسلم

"اللهم اجعل نعم الدنيا متصلةً بنعم الآخرة. "

مستمرة ، المؤمن يموت إلى جنة عرضها السماوات والأرض ، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

"الْجنةَ تَحتَ ظلال السيوف *"

(من صحيح البخاري : عن " أبي أوفى ")

فهذا الذي قدم حياته عز وجل ، قدم أثمن شيء يملكُه ، وقد ورد في بعض الأحاديث أن الذي يقتل في سبيل ا يرى مقامه في الجنة ولا يتألم ، ولدمه رائحة المسك ، وأن هناك من يموت بمعصية . لذلك باللغة في إنسان مضرج بدم الشهادة ، وإنسان ملطخ بدم الجريمة وشتان بين أن يضرج الإنسان بدم الشهادة وبين أن يلطخ بدم الجريمة .

وقد قال عليه الصلاة والسلام :

ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما ترجع .

لو غمس إنسان إصبعه في البحر المتوسط ، ورفعها ، بما ترجع ؟ هذا الذي علق على يده من الماء هي الدنيا والبحر هو الآخرة .

فالكلام الدقيق والصحيح وقد يكون مراً : إن لم تر الدنيا وحقارتها وقلة وفائها ، وكثرة جفائها ، وخسة شركائها ، وسرعة انقضائها ، وإن لم تر أهلها وعشاقها صرعى حولها ، قد عذبتهم بأنواع العذاب ، وأذاقتهم أمر الشراب ، أضحكتهم قليلاً وأبكتهم طويلاً ، سقتهم كؤوس سمها بعد كؤوس خمرها ، فسكروا بحبها وماتوا بهجرها . إن لم تر هذه الرؤية فأنت خاسر إنسان يرى الدنيا فيذوب حباً لها ، وإنسان يرى عاقبتها .

وإن لم تر بالبصيرة ، إن لم تر الدنيا بالبصيرة ، وإن لم تر الآخرة ودوامها ، وأنها هي الحياة الحقيقية ، أهلها لا يرتحلون منها ، ولا يظعنون عنها ، بل هي دار القرار ، ومحط الرحال ، ومنتهى السير ، وأن الدنيا بالنسبة إليها كما قال عليه الصلاة والسلام :

"ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس بمياه البحر."

فأنت أعمى ، أيها الإخوة ... سأوضح لكم بمثل أوضح : إنسان يركب مركبة والطريق شديد الانحدار ، والهواء عليل والمناظر خلابة والمركبة مريحة، هو يضحك ، ويتنعم بالمناظر وبالنسيم العليل ، لو أنه شعر فجأةً أن مكبحه معطل ، وأن هذا المنحدر الشديد ينتهي بمنعطف حاد وبينه وبين هذا المنعطف تقريباً أربع دقائق ، بحسب سرعته العالية لماذا يصيح ويقول : انتهينا ومتنا ، ورحنا ؟ بقوة بصيرته أدرك المكبح معطل والسرعة متسارعة ، والمنعطف حاد ، والوادي سحيق معناها متنا . المؤمن وهو في الدنيا ، يدرك كما أدرك هذا السائق الذي فقد مكبحه في طريق شديد الانحدار ، مع منعطف حاد ، وواد سحيق ، أما الغافل والجاهل هو يضحك ويلعب ، متى يبكي ؟ حينما يقع في الوادي ، أما إذا الإنسان أدرك ، قبل أن يقع الشيء أنه يوجد خطر ، هذا معنى قوله تعالى :

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة التكاثر)

لما الإنسان يقبض مبلغاً ضخماً بالحرام ، تجده يضحك لشعوره بالتفوق والنجاح ما دام المال بالحرام ..

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة التكاثر)

لما يعتدي على عرض إنسانة ، يغرر بها ، ويقضي شهوته منها ثم يشعر بلعنة ا له وإبعاده عنه ، يدخل في متاهة وفي آلام نفسية لا تُحتمل ، لذلك :

وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا



(سورة الكهف)

هذه النار التي كنتم بها تكذبون ..

لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ

(سورة الأعراف : من آية " ٤١ ")

سؤال : لو إنسان لا يوجد عنده هذه الرؤية ، ماذا يفعل ؟ متعلق بالدنيا ، متعلق بمالها ، بنسائها ، بشهواتها، بطعامها ، بشرابها ، ببيوتها بمركباتها ؟ نقول له : اقرأ كلام ا صدق ما قاله ا لك ، إما أن تكون مع النص أو مع الرؤية ، الرؤية أقوى بكثير ، فمثلاً طبيب قلب عنده كل يوم عملية جراحية ، عملية قلب مفتوح ، وأكثر عمليات القلب انسداد بالشريان التاجي ، وانسداد الشريان التاجي أساسه المواد الدسمة والدهنية هذا الطبيب نفسه لو جلس إلى مائدة فيها حلويات نفيسة جداً لكن كلها مواد دهنية ؛ قشطة ودسم ، تجده لا يأكل مع أنها لذيذة الطعم ، هو يرى بعينه كل يوم انسداد الشريان ، وكيف أزال قطعة من شريان رجله ووضعها في قلبه ، وأوقف القلب ، وعمل للقلب صعقة مع المبالغ الكبيرة التي تدفع ، هو رأى مخاطر الدسم ، مخاطر الشحوم الثلاثية ، مخاطر الأكلات ، لذلك لم يأكل لرؤية رآها ، أنا أريد هذه الرؤية .

دائماً الإنسان الشقي يعيش لحظته ، رأيت إنساناً في أيام الشتاء الباردة والماطرة ، يجري في شارع في دمشق ، فكل أبناء دمشق في البيوت وحول المدافئ ويأكلون ويتنعمون ، ماذا في ذهن هذا الإنسان من قناعات بالرياضة والجري ، وصحة القلب وقوة القلب ، والنبض البطيء وتمرين عضلة القلب على جهد عالٍ ، حتى لا يلهث من أدنى جهد فهؤلاء الذين يجرون عندهم قناعات عالية جداً بجدوى الرياضة وخطر الراحة .

وهؤلاء الذين يمتنعون عن التدخين ، الذين عندهم معلومات دقيقة عن أخطار التدخين ، وقد يكون المدخن متمتعاً بدخينته ومعطلاً عقله .

مرة ذكرت قصة مشابهة لهذه القصص ، فأحياناً تجد مركبة عامة واقفة باتجاه ، عليها أن تدور دورة كاملة كي تتابع سيرها ، أنت قد تجلس في الشمس لأنك تحسب أنها بعد أن تدور هذه الدورة تنعكس الآية ، فأنت تجلس في مكان غير معقول ، الناس جالسون بالظل وأنت جالس بالشمس ، أنت فكرت فوجدت أن دقيقة شمس أحسن من نصف ساعة شمس ، آثرت التعب القليل أوالمشقة القليلة ، وطلبت الراحة المديدة .

لذلك قال بعض العلماء : في الدنيا جنةٌ من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

إذا الإنسان اصطلح مع ا تماماً وصدق في توبته وفي إقباله يلقي ا في قلبه من النَعيم والسعادة ما لا يوصف ، سعادته في بيت ا عز وجل ، سعادته في أداء فريضة ، سعادته في أداء واجب ، سعادته في خدمة الخَلق ، سعادته في تقديم شيء للناس ، هذه سعادته ، بينما هؤلاء الذين يتمتعون بحسهم بمباهج الدنيا يشقون بقلوبهم .

هذه الرؤية من أين ؟ قال : من نور يقذف في قلب المؤمن ، يريه الحق حقاً والباطل باطلاً ، الشاهد ، الدليل :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورًا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ

(سورة الحديد : من آية " ٢٨ ")

آية قُرآنية صريحة : **يجعل لكم نوراً تمشون به** . كل واحد إذا عرض له شيء يغضب ا يقول : لا أفعله معاذ ا . عنده رؤية هذا العمل يشقيه ، وإذا في طاعة وعمل صالح يفعله ، معناها أن كل إنسان يتحرك برؤية ، لكن هذا الذي أقدم على قتل إنسان طمعاً بماله ، ماذا رأى؟ رأى رؤية معكوسةً ، من هنا كان الدعاء النبوي الشريف :

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه .

عامةُ الناس والجهلة يرون الباطل حقاً والحق باطلاً ، الذي يغُش المسلمين ماذا يرى ؟ يرى الربح فقط ، ولا يرى عقاب ا عز وجل الذي يعتدي على أعراض الناس ، ماذا يرى ؟ المتعة الآنية ولا يرى أن ا سيلعنه ، وستغدو حياته شقاء بشقاء ، لا يرى ، فأنت مبدئيا إما أن تكون مع النص ، وإما أن تكون مع الرؤية ، في نص ، وفي رؤية ، الحد الأدنى الذي يحميك من أن تقع بمعصية النص ، ا عز وجل حرم هذا الشيء ، فانتهى الأمر ، أما في مستوى أرقى ، معك النص ولكن معك رؤية ..

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا

(سورة الأنفال : من آية " ٢٩ ")

فرقان ، تُفَرقُ به الحق من الباطل ، لذلك قلما تجد مؤمناً في مخفر أو في قصر عدلي، لأنه يسير على المنهج ، الانضباط والاستقامة تنتهي إلى حرية ، وعدم الاستقامة تنتهي إلى قَيد ، إما قيد نفسي كآبة ، أو قيد حسي سجن .

وا عز وجل أكرمنا بالعقل ، والعقل أداة معرفة ا عز وجل وأداة فعالة ،

فالإنسان إذا استخدم عقله ، وفكر بأعماله ، وفكر بماله كيف اكتسبه ؟ كيف أنفقه ؟ فكر بعلمه ماذا عمل به ؟ فكر بنهايته . لا أنسى طالباً مرة سألوه وقد نال الدرجة الأولى في الشهادة الثانوية : لم نلت هذه الدرجة ؟ قال : لأن لحظة الامتحان لم تُغادر مخيلتي ولا ساعةً في العام الدراسي . يعيش مع الامتحان ، فكل واحد منا يعيش يوم القيامة كيف سيسأله ا عز وجل ؟ لم فعلت ؟ لم تركت ؟ لِم وصلت ؟ لم قطعت ؟ لم غضبت ؟ لم رضيت ؟ لم طلقت ؟ لِم وافقت ؟ لِم خُنت ؟ لِم أكلت مالاً حراماً ؟ ألف سؤال وسؤال .

هذه الرؤية التي أكرمنا ا بها ، أن ترى الحق حقاً والباطل باطلاً وأنا أعتقد أن كل مؤمن مهما دنت مرتبته على شيء من هذه الرؤية والدليل يقبل على طاعة ا ، يقبل على خدمة الخَلق ، يقبل على طلب العلم ، يسعى أن يكون بيته إسلامياً ، أن يكون عمله إسلامياً ، هذه الرؤية تدفعه إلى طاعة ا عز وجل .

- في مرتبة بعد أن تحمل نصاً فيه أمر ونهي .
- في مرتبة ثانية أن تشعر ذوقاً أن هذا العمل لا يرضي ا .
- في مرتبة ثالثة أن ترى حقيقته ، وما ينطوي عليه .

فالإدراك البياني أول مرتبة ، والذوق النفسي ثانيها ، والرؤية العميقة ثالثها ، من وصل إلى هذه الرؤية العميقة ، قطع مرحلة عالية جداً في الإيمان .

والانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به ، كما أنك تستمتع بمكيف وأنت لا تدري كيف يعمل ، وتستمتع بآلات كثيرة جداً وأنت لا تفقَه كيف تعمل ، تستمتع بها وتنتفع بها دون أن تعلم حقيقة بنْيتها ووظيفة عملها كذلك منهج ا عز وجل في دقة بالغة بحيث لو طبقه إنساناً وكفى ، ولم يعلم حكمته ولا حقيقته هذا الإنسان يقطف كل ثماره ، لكن هذا يكون عابداً ولا يستطيع أن يكون عالماً ، والعابد مرتبة أقل من مرتبة العالم .

أمر ا بغض البصر ، فغض إنسان بصره ، أمر بالصدق ، صدق لا يوجد عنده درة على تحليل الأمور ، ولكن عنده قدرة على إطاعة ا عز وجل ، وهذا أيضاً يقطف كل ثمار الطاعة ويوفقه ا عز وجل ولكن هذا الإنسان مقاومته هشة ، فقد لا يحتمل إغراء شديداً ولا ضغطاً شديداً .

أما العالم الذي عنده رؤية لو قطعته إرباً إرباً لا يلين : لا تؤثر فيه لا سبائك الذهب اللامعة ، ولا سياط الجلادين اللاذعة . يقول سيدنا بلال : " أحد أحد " . وفي إنسان على قدر ما ضغطت يخرق منهج ا عز وجل فبقدر هذه الرؤية وبقدر هذه الاستقامة يكون التوفيق والأجر.

والحمد رب العالمين

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الخامس والسبعين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ومنزلة اليوم " **الفتوة** ".

هذه المنزلة كما قال عنها العلماء : حقيقتُها الإحسان ، الإحسان نهاية النهاية لقوله تعالى:

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

أنت حسنةٌ من حسنات ا ، خَلَقَك ليسعدك ، ليحسن إليك ، خلقك لجنة عرضها السماوات والأرض ، فإذا كان رد فعلك الإحسان فقد حققت غايتك من وجودك ، لذلك ؛ هذه المنزلة في حقيقتها هي الإحسان إلى الخلق ، محبةً بالحق .

لو أردنا أن نُبسـط هذا المعنى . قد تحسن إلى طفلٍ من أجل أبيه إكراماً لأبيه ، أو وفاء مع أبيه ، أو تكريماً لأبيه .

قال بعض العلماء : " هي الإحسان إلى الخلق وكفّ الأذى عنهم بل احتمال الأذى منهم" . أول مرتبة الإحسان ، أو كف الأذى ، أو احتمال الأذى ، أي استعمال حسن الخُلق معهم، ومن زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الإيمان . الإيمان حسن الخُلق ، وذهب حسن الخُلق بالخَير كله وسوء الخُلق يفسد العمل كما يفسد الخَل العسل .

قال بعض العلماء : والفرق بين هذه المرتبة " **الفتوة** " وبين المروءة أن المروءة أعم منها ، فالفتوة نوع من أنواع المروءة ، فإن المروءة بمعناها الدقيق : استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد وترك ما يدنس ويشين مما هو مختص به أيضاً . فالموقف الكامل وترك الموقف الناقص هو مروءة ، كأن مكارم الأخلاق كلها جمعتْ في المروءة والفتوة فرع من المروءة ، المروءة أعم ، أن تقف الموقف الكامل من كل شيء ، إن تكلمت تتكلم بكلامٍ فَصل ، إن سكتْ تسكُت عن حلم ، إن أعطيت تعطي عن كرم ، إن منعت تمنع عن حكمة ، إن غضبت تغضب ، إن رضيت ترضى ، أن تقف الموقف الكامل في كل شؤون حياتك هذا مروءة .

وكأن علماء الأخلاق جمعوا كل خصال الخَير بكلمة مروءة وجمعت كل خصال

الشر بكلمة لؤم ، هناك إنسان ذو مروءة ، وإنسان لئيم. وقيل : ما الذُل ؟ قال : أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يرده .

قالوا : هي ثلاثُ منازل ؛ منزلة التَخاق ، ومنزلة الفتوة ، ومنزلة المروءة . فالتخاق ؛ يتحلم الإنسان فيكون في النهاية حليماً ، يتكرم فيكون في النهاية كريماً ، وبعد هذه المرتبة تأتي مرتبة الفتوة ، وقد عبر عنها باسم " مكارم الأخلاق " . وقد قال عليه الصلاة والسلام :

"بعثْتُ لأتَمم مكَارِم الأخْلاق. "

(من الجامع الصغير : عن " معاذ بن جبل ")

وفي رواية أخرى :

"<u>إنما بعثت معلماً</u> ، إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " .

(من كشف الخفاء : عن " أبي هريرة ")

يا أيها الإخوة ... إتمام المكارم له معنى دقيق ، هو أن النفس جبلت جبلةً عالية ؛ جبلت على حب الكمال ، فإذا اتصلت بخالقها اصطبغت بالكمال ، فكأن الاصطباغ إتمام للفطرة ، الفطرة حب الكمال ، والصبغة اصطباغٌ بالكمال ، فالإنسان يحب الخير ، يحب العدل ، يحب الرحمة ـ فطرة ـ صار خيراً عادلاً رحيماً ـ فطرة ـ فالحاجة إلى الشيء وإملاء هذه الحاجة ، إذاً الإتمام، معنى ذلك أن النفوس فُطرت فطرةً عالية في الأصل في أصل الخَلق الإنسان فُطر فطرةً عالية ، فإن تدين واتصل بخالقه حقق هذه الفطرة ، الفطرة تَمني ، الفطرة ميل ، الفطرة محبة ، أما إذا تخاق بهذا الخُلُق أصبح ذا صبغة .

الشركات الضخمة التي تُعلق أهميةً كبرى على تفوقها تعتمد على الشباب ، الشباب طاقة كبيرة جداً ، طاقة هائلة ، فإذا رشـدت ، ووجهت آتت أُكلها ضعفين ، لذلك قال تعالى :

إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾

(سورة الكهف)

سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾

(سورة الأنبياء)

"ريح الجنة في الشباب " **.** ولعل النبي عليه الصلاة والسلام أراد بعداً عميقاً جداً

حينما عين قائد جيشٍ شاباً لا تزيد سنه عن ثمانيةَ عشر عاماً ، وكان تحت إمرة هذا الشاب سيدنا عمر بن الخطاب ، وسيدنا عثمان بن عفان ، وسيدنا علي بن أبي طالب ، كبار الصحابة تحت إمرة هذا الشاب ، بل إن الصديق رضي ا عنه مشى في ركابه ، فلما رأى خليفة المسلمين يمشي وهو راكب قال : " وا يا خليفة رسـول ا لتركبن أو لأنزلن" .

قـال : " وا لا ركبت ولا نزلت وما علي أن تغبر قدمايا سـاعةً في سبيل ا " . أراد الصديق رضي ا عنه أن يبقي عمر ـ دقق في نظام التسلسل ـ أليس بإمكانه أن يقول له : يا عمر ابقَ معي ؟ عمر جندي تحت إمرة قائد اسمه أسامة ، فلابد من أن يستاذن أسامة في أن يسمح له في عمر .

قال : " يا أسامة أتأذن لي بعمر أن يبقى معي ؟ " . لماذا عين النبي عليه الصلاة والسلام أسامة بن زيد ؟ وتابع هذا التعيين سيدنا الصديق ؟ ليشْعرنا أن الشاب إذا عرف ا كان شيئاً كبيراً ، ما من شيء أكرم على ا من شابٍ تائب .. " إن ا ليباهي الملائكة بالشاب التائب، يقول : انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي " .

ورد في الأثر : " **أحب الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد ...** " .

فإذا الإنسان كان يغلي بالميول والرغبات وضبطها في سبيل ا فالدين كله ضبط . وتقريباً ـ للتوضيح ـ أي شهوة مفتوحة مئة وثمانون درجة ، في زاوية محدودة مسموح بها ، شهوة الجِنس مفتوحة مئة وثمانون درجة ، في زاوية أربعين درجة هي الزواج ، من هو المؤمن؟ هو الذي ضبط شهوته في هذه الزاوية المشروعة . شهوة المال مفتوحة مئة وثمانون درجة ، مسموح منها أربعين درجة بالكسب المشروع . فالدين كله ضبط هذه الشـهوات من مئة وثمانون درجة إلى أربعين درجة ، ثلاثون درجة هذه مسموح بها ، هذا الشيء المشروع ، هذه القناة النظيفة ، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة :

بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ

(سورة هود : من آية " ٨٦ ")

الذي بقي لك من هذه الشهوة ما سمح ا لك به ، هذا هو الخير الخير في الزوجة ، والخير في المال الحلال ، والخير في العمل الطيب والخير في التفوق في الدين . الإنسان يحب التفوق فإن تفوق في الدين كان هذا التفوق مستمراً ..

أجمل نقطة في الدرس أن الخط البياني للمؤمن صاعد صعوداً مستمراً ، حتى لو مات ، وما الموت إلا نُقطة على هذا الخَط الصاعد ، بينما غير المؤمن خطه البياني صاعداً صعوداً حاداً، وبعد هذا الصعود الحاد هناك هبوطٌ وسقوطٌ مريع ..

إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾

(سورة الكهف)

سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾

(سورة الأنبياء)

قال الفُضيل بن عياض : " الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان " هذه فتوة ، بطولة ، مروءة ..

إذا خَـلـيـلـي لـم تـكـثـُر جـنـايـتـه

فأيـن موضع إحسـاني وغُفراني؟

ما كنت مذ كنْت إلا طوع إخواني

ليـست مؤاخـذة الإخوان مـن شاني

* * *

أول صفة من صفات الفتوة الصفْح عن الزلات ، هو يعامل ا عز وجل . سألني أخ : ما موقف مؤمن أحسـن إلى إنسان ثم أساء إليه ؟ أحسن لهذا الإنسان وهذا الذي تلقى الإحسان بالغ بالإساءة إلى المحسن ؟! قلت : وا إن كان يحسن إليه فهي خَيبةُ أملٍ مرة ، وإن كان يعمل فإنه لا يتأثر أبداً ، إن كنت ترجو رحمة ا ، رحمة ا واصلة ومحققة ، هو شَكر أو لم يشكر، قدر أو لم يقدر . ورد في الأثر أن : " اصنع المعروف مع أهله ومع غير أهله ، إن أصبت أهلـه أصبت أهله ، وإن لم تُصب أهله فأنت أهله " .

إذا كان إخلاصك عالياً لا تتأثر بردود الفعل إطلاقاً ، إذا إنسان شكرك قل : جزاك ا خيراً . لم يشكرك قل : أنا عاملت ا حسبي ا ونعم الوكيل .

فقال الفُضيل : " الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان " .

وقال الإمام أحمد : " ترك ما تهوى لِما تخشى " . الإنسان أحياناً يكون عمله في الطب فيترك أكلة لذيذة جداً خشية أن تسهم في إضعاف قوته أو إضعاف شرايينه ، أو ضيق لَمعة الشُريان ، يخاف من المواد الدسمة مع أنها لذيذة جداً ، يخاف أن تَسلُك في شرايينه سلوكاً فتضيق لمعتها فيدخل في متاعب لا حصر لها ، إذاً : " ترك ما تهوى لما تخشى ".

وقال بعض العلماء : " الفتوة حسن الخُلُق " .

وقال بعضهم الآخر : " الفتوة كف الأذة وبذل النَدى " .

وقال بعض الأئمة : " الفتوة هي اتباع السنة " . منهج كامل ، اتباع السنة هي الفتوة

.

وقال بعضهم : " الفتوة فضيلةٌ تأتيها ولا ترى نفسك فيها " .

إن فعلت خيراً يجب أن تنساه وكأنك لم تفعله ، وإن صنع معك معروف يجب ألا تنساه مدى الحياة . هذا خُلُق راق جداً ، هناك أُناس إذا فَعل معروفاً لا يزال يذكره ، ويبالغ فيه ، ويمنن، إلى درجة أن الطَرف الآخر يكاد يخرج من جلده ، وإذا فُعل إليه معروف يقول لك : الفضل أنا لا يوجد إنسان له فضل علي . ولكن اسمع كلام النبي عليه الصلاة والسلام :

"من لم يشكر الناس لم يشكر ا . "

قال : " الفتوة فضيلةٌ تأتيها ولا ترى نفسك فيها " .

وقيل : " الفتوة ألا تَحتَجِب ممن قَصدك " . فلا توصد الباب في وجه من أتاك طالباً معونة ، ومساء لا تسحب مأخذ الهاتف ، لست فتى لست في هذه المرتبة إذا حجبت نفسك عمن قصدك ، هذا الذي قصدك ساقه ا إليك ، إذا أحب ا عبداً جعل حوائج الناس إليه، إذا قصدك الناس فهذا فضلٌ من ا عز وجل . " ألا تحتَجب ممـن قصدك " . أو " ألا تهرب إذا أقبل طالب معروف " .

وقيل : " الفتوة إظهار النعمة وإسرار المحنة " .

وقيل : " الفتوة ألا تدخر وألا تعتذر " . أي لا تفعل عملاً تحتاج أن تعتذر منه ، و ألا تدخر وسعاً ، بإمكانك أن تقدم خدمة لإنسان ، فأنت ادخرت وسعاً ، لم تبذله في سبيل ا . أو فعلت عملاً تحتاج أن تعتذر منه مع أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

"إياك وما يعتَذَر منْه. "

(من الجامع الصغير)

الفتى ـ كما عرفه بعضهم : أرض خيرة معطاءة ، لذلك قالوا : "الفتوة استرسال الناس في فضلك " . الكُل يطمع فيك ، يطمعون بحلمك يطمعون بكرمك ، يطمعون بقلبك الواسع ، يطمعون بحبك للخير ، يطمعون برحمتك ، فإذا استرسل الناس بفضلك فأنت فتى ، وهذه مرتبة عالية عند ا . طبعاً هم لا يسترسلون بفضلك إلا إذا استرسلت أنت معهم، أعطيتهم وجهاً باشاً ، أعطيتهم عبارةً لطيفة ، يقول له : أنا بخدمتك ، أنا سعيد جداً لأنني خدمتك ، إذا احتجت شيئاً فارجع إلي ، هذا الكلام الطيب استرسلت معهم فاسترسلوا في فضلك .

... "ولم تجذب عنهم عنانك " . الإنسان أحياناً يقَطب ، يكفهر يتَجهم ، الضيف لا يعود ، لا يبالي ، يسوف ، يماطل ، يتأفف ، يغضب فصرف الناس . صرف الناس سهل جداً .

ألف تصرف ذكي ، ومخاص ، ورحيم يشد الناس لك ـ ألف ـ وتصرف واحد لئيم يسلخهم عنك .

الفتوة أن تسع الناس بخلقك ، قال عليه الصلاة والسلام :

"إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم. "

(من شرح الجامع الصغير)

ا عز وجل أمر النبي الكريم فقال له :

خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾

(سورة الأعراف)

إذاً أن تَسع الناس ، أن يكون لك قلب كبير ، أن تَحلُم عليهم " كاد الحليم أن يكون نبياً **.** " الحلم سيد الأخلاق " **.**

الحلم أعلى درجات الضبط ، أعلى درجات الضبط هو الحلم والإنسان أحياناً يخرب بكلمة واحدة ما بناه في عامٍ بأكمله .

بل قال بعضهم : " الفتوة أن تَدع الناس يطَؤوا عليك من شدة لينك وتواضعك وخَفْض جناحك " .

أحد العلماء كان يمشي مع إخوانه ، يبدو أن بعض جواربه نزل فأحد الإخوة ابتسم ، فقال له : ما الذي يدعوك إلى التَبسم ؟ فاستحى فنظر الشيخ فرأى جرابه قد نزل . فقال : اللهم أضحكه وأدخل على قلبه السرور . هذا تواضع .

مرة سيدنا عمر ـ هكذا قرأت ـ كان يمشي في المسجد في الليل وكان غير مضاء ، يبدو أنه داس على رجل أحد المصلين ، غضب المصلي ، أو هو في حالة غفلة ، قال له : أأعمى أنت ؟ قال له : لا لست أعمى . فقال رجل لسيدنا عمر: معقول ؟! فقال له سيدنا عمر : " سألني فاجبته " صدر واسع ، رحمة ، وحب . غلط الرجل ، تجاوز حده ، يرحمه ولا ينتقم منه .

قال : " الفتوة ألا تترك لنفسك بينهم رتبةً تتقاضاهم " . أنت من مستواهم ، فإذا أنت رفعت نفسك فوق الناس ، وفرضت عليهم مقاماً معيناً وهيمنة معينة ، وكهنوتاً معيناً ، وإذا لم يؤدوا طقوس الاحترام تغضب عليهم ، وتوبخهم ، وتعنفهم ، هذه مرتبة تتناقض مع الفتوة . الفتوة، أن تكون واحداً منهم .

دخل أعرابي إلى النبي ، وقال : أيكم محمد ؟ كم تفهمون من هذا النَص : أيكم محمد ؟ وا أحياناً ترى رجل دين يلبس ثياباً بمئتي ألف هكذا في بعض الديانات ، أما الرسول فلباسه بسيط ، وجلسته عادية ليس له ولا ميزة ، فسأل الرجل : أيكم محمد ؟ هكذا

كان النبي عليه الصلاة والسلام .

- قال : علي ذبحها .
- فقال له الثاني : وعلي سلخها .
- فقال الثالث : وعلي طَبخها .
- فقال عليه الصلاة والسلام : " وعلي جمع الحطب " .
- قالوا : نكفيك ذلك .
- قال : " أعلم أنكم تكفونني ولكن ا   يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه " .

هناك تحفظ لابد منه ، أنت لين ، وكريم ، ورحيم ، وصدرك واسـع ، وترحم الناس ، وتتحملهم ، وتسعهم بحلمك ، ولا تحرجهم ، ولا تضيق عليهم ، لكن هذا الاسترسال في لينك ، وذاك الاسترسال في فضلك أنت استرسلت بلينك ، وهم استرسلوا بفضلك ، هذا اللين وذاك الفضل يجب ألا يخرج عن حدود الشَرع وآدابه ، بحيث لا تحملُهم على تعدي حدود ا   .

قال رجل : وا   لزمت دروس العلم عشرين سنةً ، أمضيت ثمانية عشر عاماً في تعلم الأدب ، وأمضيت عامين في تعلم العلم ، أما الآن كنتُ أتمنى أن ُأمضي عشرين سنةً في تعلم الأدب .

الدين كله أدب ، الدين كله حياء ، الدين كله احترام ، تسال بأدب تَصل إلى كل أهدافك بأدب ، بسؤال لطيف ، بتعليق لطيف ، تستفهم ، وقد تعترض ، وقد تنتقد ، وتناقش لكن بأدب ، دون أن تجرح ، دون أن تطعن دون أن تؤذي ، دون أن تُحرِج .

أيها الإخوة ... الفتوة الحفاظ على القلب مع ا   ، ودوام الإقبال عليه ، فإن كنتَ كذلك أنت مع الناس مسترسلٌ برسمك وصورتك ، أنت معهم في صورتك وفي جسمك ، ولكنك لست مع سقطاتهم ولست مع وحولهم ، هذا ينقُلنا إلى تعبيرين لطيفين ، يجب أن تكون في برجٍ عاجيٍ أخلاقي ، لا أن تكون في برجٍ عاجيٍ فكري ، يجب أن تعيش مع الناس وأن تخالطهم ، وأن تصلحهم ، وأن ترشدهم ، وأن توجههم ، لكن يجب ألا تكون معهم في سقوطهم ، أنت في منأى عن سقطاتهم ، منأى عن وحولهم، لكنك معهم لتأخذ بيدهم إلى ا   عز وجل ، ومنتبه لا تسمح لأحد ان يجرك إليه ..

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا

(سورة الفرقان : من آية " ٦٣ ")

ما معنى : هوناً ؟ أي في بطء ، السنة خلاف ذلك ، كان إذا سار أسرع ، كان إذا مشى كأنه ينْحط من صبب ، والآية هوناً .

قال علماء التفسير : هوناً أي لا يسمحون لمشكلة أن تأخذهم ، ولا لشغلٍ أن يأخذهم ، ولا لهمٍ أن يسحقهم ، هدفهم كبير ، وطريقهم واضحة فيمشون هوناً أي يفكرون لماذا خلقوا ؟ من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ يفكرون في رسالتهم في الحياة .

دائماً السائق يراقب الطريق ، مرة يراقب الطريق من أمام، مرة على اليمين ، مرة على اليسار ، ومرة ينظر في المرآة ليرى من خلفه هذه المراقبة الدائمة تجعله على الطريق ، وعلى اليمين ، وفي سلام والمؤمن يراقب ؛ هل هناك موقف غَلط ؟ أو موقف فيه تقصير ؟ أو موقف فيه خيانة ؟ أو موقف فيه شُبهة ؟ إذا لم يراقب نفسه يتورط ويقع في شر عمله .

قال : " الفتوة ألا تشهد لك فضلاً ، وألا ترى لك حقاً " . هناك شخص نَصب نفســه فوق الناس ؛ يقول بملء فيه يجب أن تعرفوا فضلي لي حق عليكم . " الفتوة ألا تشهد لك فضلاً، وألا ترى لك حقاً " . " أن تفنى بشهادة نقصك وعيبك عن فضلك ، وتغيب بشهادة حقوق الخَلق عليك عن شهادة حقوقك عليهم " حق الآخرين عليك كبير جداً ، وحقك عليهم صغير جداً ، أن تشهد بفعلهم معك لا بفعلك معهم ، أي إنكار الذات ، الفتى إن أنكر ذاته فا يعرفه .

ذات مرة جاء أحد الرسل من معركة نهاوند وخاطب سيدنا عمر .

ـ قال له : ماذا جرى ؟

ـ قال : مات خلقٌ كثير .

ـ قال : من هم ؟

ـ قال : أنت لا تعرفهم .

ـ قال : ما ضرهم َأني لا أعرفهم إذا كان ا يعرفهم ؟!

فيجب أن تغيب عن ذاتك ، عن شهود عملك ، وأن يكون متفانياً في شهود عمل الآخرين ، أن تكون غائباً عن شهود فضلك عليهم وحقك عليهم، وأن تكون متَفانياً بشهود حقهم عليك وفضلهم عليك .

فهل تصدقون أن النبي عليه الصلاة والسلام ُأمر أن يحاور الطرف الآخر وكأنه مثلهم؟..

﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ ٢٤

(سورة سبأ)

إذا النبي سيد الخلق ، قمة المجتمع البشري يخاطب كافراً ، مشركاً شارب خمر ، عابد صنم ، قال له : الحق معي أو معك ؟ تعالَ كي نتحاور، الحق معك أو معي . فالنبي جعل الطرف الآخر في مستواه تماماً ـ هكذا الأدب ـ إن أردت أن تنقل الحق للآخرين يجب

ألا تسـتعلي عليهم .

الإمام الشـافعي له كلمة : " الحق معي وقد أكون مخْطئاً ، وخَصمي مبطل وقد يكون مصيباً " . اترك احتمال ، أنت على حق هذا جيد ، أحياناً تُخطئ . " وقد أكون مخطئاً ، وخصمي مبطل وقد يكون مصيباً " .

الناس في هذا مراتب ، أشرفُها أهل هذه المرتبة ، أن تتفانى في رؤية حق الناس علي، وأن تتفانى في رؤية فضل الناس عليك ، وأن تَغيب في رؤية حقك عليهم وفضلك عليهم ، هذه أعلى مرتبة . أخس هذه المراتب أن ترى فَضلك عليهم وألا ترى فضلهم عليك .

هناك مثل وإن كان قاسياً : هذا الذي أعطيته مالاً فأنت ارتقيت إلى ا ، ألك فضلٌ عليه ؟ هناك من يرى العكس ، لولا أنه قَبِلَ منك هذا المال لحرمك هذا العمل الصالح . إنسان علمته ، فالذي قبل أن يتعلم منك له فضل عليك ، الذي قَبلَ أن يأخذ منك له فضل عليك ، كن بهذا المستوى هكذا يجب أن تكون نفسية الداعية ، أنت في خدمة الخلق .

كان عليه الصلاة والسلام يشرب آخر أصحابه ، وكان في خدمتهم وكان يصغي الإناء للهرة ، وكان يرفو ثوبه ، وكان يكنس داره ، وكان في خدمة أهله ـ في مهنة أهله ـ وتأخذ بيده الجارية . طفلة صغيرة تأْخُذه .

مرة كنت ببلد في الخليج ، مدير أضخم شركة في الخليج ، فهي شركة بمستوى دولة ، جاءه هاتف ، أنا لم أعرف من كان يكلم ، قال لي : هذا الأفندي أعطاني توجيهات أن أوصله لعند رفيقه وأرجع ـ كان ذاك ابنه طفل صغير بالحضانة ، رجل كبير هو في بيته واحد من أهل البيت يعاون بكل شيء ، يجلس مع أولاده ، وقد يركبون على ظهره ، هكـذا فعلوا مع النبي ، كانوا يرتحلونه ، كان إذا دخل بيته بساماً ضحاكاً ، كان يقول :

"أكرموا النساء ما أكرمهن إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم. "

كان يقول :

"فَإنهن الْمؤْنساتُ الْغَالِياتُ *"

(من مسند أحمد : عن " عقبة بن عامر ")

إذا دخل أحدنا بيته فهو واحد من أهل البيت ، قد يأكل آخرهم أو يأكل وحيداً ، إذا جاء لأهله ضيوف لا مانع أن تأكل منفرداً ، ما الذي حصل ؟ هناك أشخاص يعمل في البيت هيمنة ، وعظمة ، وسلطنة وكهنوت ، لا ، الزوجة مريضة اخدمها ، ابنك بحاجة إليك قدم له المعونة .

قال : هذه المرتبة أرقاها أن تتفانى في رؤية فضل الناس عليك تتفانى في رؤية حقهم عليك ، وأن تغيب عن رؤية حقك عليهم ، وفضلك عليهم . أخس هذه المراتب أن ترى فضلك عليهم ولا فضل لهم عليك ، وأن ترى حقك عليهم وألا ترى حقهم عليك .

هناك مرتبة وسط ، أنا أقول : الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا ، وهناك أقوياء أخذوا ولم يعطوا ، وهناك وسط أخذ وأعطى .

هناك إنسان أعطى ولم يأخذ ، فاللهم صل عليه سيد الخلق ، الذي عاش للخَلق ، الذي ترك حينما توفاه الله عز وجل الفضل ، نشر الخير نشر الإيمان ، نشر الهدى أين سكن ؟ ماذا ركب ؟ إلى أين سافر ؟ كان بيته إذا أراد أن يصلي لا تسمح مساحة غرفته أن يصلي وأن تبقى زوجته نائمة ، بيت صغير جداً .

قال : " أوسطهم من شهد هذا وذاك " . أي عرف حقه على الناس وحق الناس عليه ، وفضله على الناس ، وفضل الناس عليه .

ذات مرة قدم أخ من أمريكا ليس عنده إلا أن يمدح ، يمدح ، يمدح فقلت له : أطلب منك شيئاً ؛ كلما ذكرت ميزة تكلم عن سيئة ، وكلما تكلمت عن سيئة في الشرق تكلم عن ميزة ، ساعة إذ اسمع منك ، أما كل السلبيات تحكيها عن بلادك والإيجابيات كلها عن الغرب ، ألا توجد هناك سلبيات ؟ ألا توجد جرائم ؟ ألا يوجد تفكك أسرة ؟ ألا يوجد انهيار مجتمعات ؟ ألا يوجد شـيوع جريمة ، ألا يوجد شذوذ ؟ ألا يوجد زنا محارم ؟ . كل شيء عندهم ، إن تكلمت عن ميزة تكلم عن سيئة، وإن تكلمت عن سيئة في الشرق تكلم عن ميزة ؛ ألا يوجد تماسك أُسر ؟ ألا توجد بقية أخلاق ؟ ألا يوجد بعض الحياء ؟ .

من مظاهر هذه المرتبة : ترك الخصومة ، والتغافُل عن الزلة ونسيان الأذية . فلا يخاصم بلسانه ، ولا ينوي الخصومة بقلبه ، ولا يخطرها على باله ـ هذا في حق نفسه ـ وأما في حق ربه أن يخاصم بالله وفي الله ، ويحتكم إلى الله كما كان النبي عليه الصلاة والسـلام يقول:

"وبك خاصمت وإليك احتكمت . "

أيها الإخوة ... هناك عمل لعله فَوق طاقة عامة المؤمنين ، وهي المعاكسة البناءة ، أي إذا إنسان أساء لك تحسن له ..

"أمرت أن يكون صمتي فكراً ، ونُطقي ذكراً ، ونظري عبرةً ، وأن أعفوا عمن ظلمني ، وُأعطي من حرمني ، وأن أصل من قطعني. "

هذه مرتبة عالية جداً ، أي أن تقرب من يقْصيك ، وأن تقرب من يؤْذيك ، وأن تعتذر إلى من يجني عليك سماحةً لا كظْماً .

أيها الإخوة ... آخر فكرة في الدرس ، عندما مدح الله عز وجل النبي بماذا مدحه ؟ بالخُلُق ، ولكن ألم يكن النبي قائداً فذاً ؟ فعلاً ، ألم يكن قاضياً حكيماً ؟ ألم يكن متكلماً بارعاً ؟ ألم يكن رجلاً سياسياً من الطراز الأول ؟ ألم يكن زعيماً سياسياً ؟ ألم يكن قائداً عسكرياً ؟ ألم يكن ذكياً ذا فطانة عجيبة ؟ ألم يكن ذا ذاكرة مذْهلة ؟ لكن كل هذه الصفات ما مدح بها لكنه

مدح بخُلُقه العظيم ، قال :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة القلم)

لأن كل هذه القُدرات من الله عز وجل أما الخلق منْه ، الخُلُق عملية معاكسة للميول ، فالحلم عملية ضبط ، والكرم معاكسة لحب المال والشجاعة معاكسة لحب السلامة ، والحلم معاكسة للانتقام ، فالأخلاقي إنسان ضابط أموره ، ضابط مشاعره ، ضابط حواسه ، ضابط لسانه..

احـفـظ لســـانك أيـها الإنســان لا يـلـدغـنـك إنـه ثـُـعـبـان

كم في المقابر من قتيل لســانـــــه كانـت تهاب لقاءه الشجعـــــان

* * *

إذاً لما مدح النبي عليه الصلاة والسلام بحسن الخُلُق معنى ذلك أن الخُلُق من كسبه ، أما القُدرات العالية جداً التي وهبه الله إياها من أجل الدعوة هذه من الله ، ما الذي منه ؟ حسن الخلق . أب يشتري لابنه سيارة ويقيم حفل تكريم لابنه بمناسبة أنه اشترى له سيارة . هذا حفل تكريم مضحك ، اشترى بيتاً لابنه فأقام حفل تكريم لابنه لأنه تملك بيتاً ، البيت منك . أما إذا ابنه أخذ الدرجة الأولى في الدراسة وأقام له حفل تكريم فهذا صح ، لأنه من الابن ، الدراسة والتفوق من الابن ، أما المركبة والبيت من الأب ، فلا معنى لتكريم الابن باقتناء بيت ، أو باقتناء مركبة ومعنى كبير إذا كرمت ابنك لانه تفوق في الدراسة .

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة القلم)

الخلق العظيم كسبي ، أما القُدرات الفكرية ، والذاكرة ، وطلاقة اللسان ، والفصاحة ، والحكمة ، وحسن السياسة هذه إمكانات أعطاها الله للأنبياء لينقلوا هذه الدعوة للناس ، هذه وسائل نشر الدعوة .

يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج امرأة محدودة جداً فوجهت أنه إذا دخَل عليك قولي : أعوذ بالله منك . يبدو أنها محدودة جداً فلما قالت له ذلك قال :

"الحقي بأهلك. "

(من سنن الترمذي : " السيدة عائشة :)

هذه دعوة ، فإذا كانت إنسانة محدودة إلى هذه الدرجة قد تسيء في نقل الدعوة ، فالنبي لم يبقها عنده ، فإذاً الدعوة تحتاج إلى فطانة ، تحتاج إلى اهتمام ، تحتاج إلى إدراك عميق ، تحتاج إلى إحاطة ، تحتاج إلى فهم مرشد ، هذه من وسائل الدعوة ، لذلك ا عز وجل يهبها للأنبياء .

ما الذي يرقى بالأنبياء ؟ الخُلُق العظيم . ونحن ما الذي يرقى بنا إلى ا عز وجل ؟ الخُلُق الحسن ، ومن زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الإيمان .

أرجو ا سبحانه وتعالى أن تنقلب هذه الحقائق إلى سلوك ، وإلى واقعٍ نعيشه ، نرقى بهذه الخُلُق .

والحمد رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس السادس والسبعين من دروس مدارج السالكين ، في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والدرس اليوم ، أو المنزلةُ اليوم " منزلةُ التعظيم " .

بادئَ ذي بدء كيف أن ا سبحانه وتعالى يقول :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾

(سورة الأحزاب)

الأمر يتعلق بالذكر الكثير ، لا بمطلق الذكر لأن المنافقين يذكرون ا ، قال تعالى :

وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾

(سورة النساء)

فالمؤمن الصادق يذكر ا ذكراً كثيراً ، الأمر هنا متعلق بالذكر الكثير ، قياساً على هذه الآية ..

إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾

(سورة الحاقة)

آمن با ..

مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ

(سورة الزمر : من آية " ٣ ")

إبليس قال : ربي ..

فَبِعِزَّتِكَ

(سورة ص : من آية " ٨٢ ")

آمن به رباً ، وآمن به عزيزاً ، وآمن به خالقاً ، وآمن بالآخرة ..

أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾

(سورة الأعراف)

ولكن ما آمن بالله العظيم ، يبدو أن إيمانك بالله العظيم يحملك على طاعته ، فكل إيمانٍ لا يحملك على طاعة الله معنى هذا أنه إيمان لا ينفعك ولا يجدي ، إن لم تعمل وفْقَ ما تعلَم فلا قيمة لعلمك ، العلم ما عمِلَ به فإن لم يعمل به كان الجهل أولى ، فإذا قال الله عز وجل :

إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾

(سورة الحاقة)

ضعف إيمانه بالعظمة الإلهية حملته على المعصية ، فهناك آلاف الحالات ؛ موظف يخالف تعليمات المدير وهو يعلم أنه موجود ، ويعلم أن هذه التعليمات تعليماتُه ، ويعلم أنه يخالفها، يبدو لسببٍ أو لآخر أن هذا المدير غير محترم في نظره ، وإذا سأله هو يسأله أيضاً ، إذا حاسبه يحاسبه أيضاً لأنه لم يره عظيماً ، فأجاز لنفسه أن يخالفَ تعليماته مثلاً . فيبدو أن الإيمان بالله العظيم لابد من أن يحملك على طاعة الله .

الآن يوجد لدينا استنباط معاكس ؛ لو أن الإنسان ضعفت همته في طاعة الله ، أو انتهك حرمات الله ، أو قصر فيما أمره الله به ، معنى ذلك أن إيمانه باللـه العظيم أقل مما ينبغي ، ضعف إيمانه حمله على المعصية .

هذه المنزلة ـ منزلة التَعظيم ـ التي هي إحدى مدارج السالكين ، في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، هذه المنزلة تابعةٌ للمعرفة، تعظمه بقدر معرفتك به ، ولو جدلاً عرفته كما عرفه صديقٌ لعظمته كما عظمه صديق التعظيم متعلق بالمعرفة ، أذكر لكم بعض الأمثلة :

لو أننا دعونا أكبر جراح قلب في العالم إلى زيارة بلدنا ، وخرج لفيفٌ من كبار أطبار بلدنا لاستقباله ، في المطار يوجد ألوف الأشخاص هذا الذي وصل إلى بلدنا إنسان قد يرتدي ثياباً بسيطة ، قد يراه بضع مئات من الناس في أرض المطار ولا يعرفون من هو ، أما هذا الذي جاء لاستقباله ، ويعرف حجمه العلمي ، ويعرف سمعته العالية ، ويعرف براعته في إجراء العمليات الجراحية ؛ يستقبله ويسلم عليه سلاماً حاراً مفْعماً بالتعظيم .

كنت مرة في مسجد ُأصلي المغرب ، وكان يصلي في المسجد رجل قصير القامة منحني الظهر ، يرتدي ثوباً أبيض ، بسيط المظهر ، أقبلت عليه وسلمت عليه سلاماً فيه

منتهى التكريم ، صديقٌ لي كان معي قال لي : من هذا الذي أقبلت عليه هكذا ؟ قلت : هذا كان عميد كُليتنا ، وهو من أعلام علماء بلدنا في النحو والصرف . كنت تلميذه ، وكان عميد كُليتنا ، وأعرف مؤلفاته، أعرف باعه الطويل في اللغة العربية وفي علومها ، أقبلت عليه ـ دون أن أشعر ـ بسلامٍ مفْعمٍ بالتعظيم ، فأنت تعظم بني البشر بقدر ما تعرفهم .

أهل الدنيا لو التقوا بإنسان حجمه المالي خمسة آلاف مليون مثلاً يكادون ينحنون أمامه، الذين يحبون المال يعظمون أهل المال ، هذا " بل جتس " معه مئة مليار دولار ، هذا أكبر غَني في العالم ، هو صاحب شركة ميكروسوفت ـ للكمبيوتر ـ إنسان يحب المال ، يلتقي ببل جتس يكاد يركع أمامه تعظيماً له ، المؤمن يعظم ا عز وجل .

من علامة المؤمن أنه يعظم ا ، وأنه يعظم رسله وأنبياءه ويعظم المؤمنين ، ويوالي كل ما يتصل بأهل الإيمان ، ولا يملأ عينه إلا أهل الحق ، ولا يتأثر إلا بأهل الحق ، ولا يعبأُ بإنسان يعصي ا .

التقيت مرة إنساناً يحمل شهادتي دكتوراه ، وشهادتين في حقلين متباعدين ؛ واحدة في الفيزياء ، والثانية في التربية . قال لي دون أن يشعر : أنا لا أصلي . سبحان ا سقط من عيني! فهذا الذي خلقك من ترابٍ ، ثم من نطفة ، ثم سواك رجلا ألا ينبغي أن تعبده ؟ ألا ينبغي أن تخضع له ؟ ألا ينبغي أن تُقر بنعمه عليك ؟ فالمؤمن يعظم أهل الإيمان أما أهل الكفر والعصيان لا يعبأُ بهم ، ولا يلقي لهم بالاً ..

يروى أن أحد العلماء الكبار كان في الحرم المكي ، فجاء أحد الخلفاء .

ـ قال له : سلني حاجتك ؟ ـ هذا رأس مجتمع ـ

ـ قال له : وا إني أستحي أن أسأل غير ا في بيت ا ، أنا في هذا المكان لا أسأل إلا ا . فلما التقاه خارج البيت الحرام .

ـ قال له : سلني حاجتك ؟

ـ قال : وا ما سألتها من يملكها ، أفأسألها من لا يملكها ؟! فلما أصر عليه .

ـ قال : حاجتي أن تُدخلني الجنة .

ـ قال له : هذه ليست بملكي .

ـ فقال له : إذاً ليس لي عندك حاجة .

يروى أن أبا جعفر المنصور التقى أبا حنيفة بن النعمان .

ـ قال له : يا أبا حنيفة لو تغشيتنا ؟ أي تعالَ زرنا .

ـ قال له : ولِم أتغشاكُم وليس لي عندكم شيئاً أخافكم عليه ؟ وهل يتغشاكم إلا من خافكم على شيء ، إنك إن أكرمتني فتنتني ، وإن أبعدتني أزريتني . ليس لي مصلحة .

ذكرت أن أهل الدنيا يعظمون الأغنياء ، أما المؤمنون ، وا المؤمن الصادق قد

يعظم إنساناً فقيراً جداً ، في أدنى درجة اجتماعية ولكن لأنه مؤمن ، ومستقيم يحتفل به ، سيدنا الصديق من أرقى أرومات قُريش ، سيد ، فلما اشترى بلالاً من سيده ، قال له سيده :

ـ وا لو دفعت به درهماً لبعتكه .

ـ قال له : وا إن طلبت مني مئة ألف لأعطيتكها . وضع يده تحت إبط بلال وقال : هذا أخي حقاً .

وأنتم يجب أن تعظموا أهل الدين ؛ المؤمنون ، المستقيمون الأطْهار ، الأعفة ، أما إنسان تارك صلاة ، إنسان تارك السنة ، إنسان يتحرك وفق شهوته ، هذا إنسان مسموح لك أن تعامله معاملةً محدودة مسموح لك أن تقيم معه علاقات عمل فقط ، أما العلاقات الحميمة لا تكون إلا مع المؤمنين الصادقين .

فعلى قَدرِ المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القَلب . أعرف الناس با عز وجل أشدهم له تعظيماً وإجلالاً ، وقد ذم ا تعالى من لم يعظمه حق عظمته ، ولا عرفه حق معرفته ، ولا وصفه حق صفته ، وأقوالهم تدور على هذا فقال تعالى :

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾

تعظيماً ..

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة نوح)

قال ابن عباس ومجاهد : " ما لكم لا ترجون عظمةً ؟ " .

وقال سـعيد بن جبير : " ما لكم لا تعظمون ا حق عظمة ؟ " .

وقال بعضهم : " ما لكم لا تخافون ا حق الخوف منه " .

وقال بعض العلمـاء : " ما لكم لا ترجون في عبادة ا أن يثيبكم على توقيركم إياه خيراً ؟ ".

قال بعض العلماء : " روح العبادة الإجلال والمحبة ، فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت " .

فكما أقول لكم دائماً : العبادة غاية الخضوع مع غاية الحب ، إجلال ومحبة ، إجلال بلا محبة العبادة فاسدة ، محبة بلا إجلال كذب والعبادة فاسدة . " روح العبادة الإجلال والمحبة فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت، فإذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب المعظم فذلك حقيقة الحمد وا سبحانه وتعالى أعلم " . إجلال ومحبة وثناء .

لو دخلنا في تفاصيل هذا الموضوع ، أول التعظيم تعظيم الأمر والنهي ، " ليس الولي الذي يمشي على وجه الماء ، وليس الولي الذي يطير في الهواء ، ولكن الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام " " أن يجدك حيث أمرك ، وأن يفتقدك حيث نهاك " .

إذاً أول أنواع التعظيم تعظيم الأمر والنهي ، ومن علامات تعظيم الأمر والنهي ألا يشوبهما تَرخص جاف ، أو تشدد غالٍ ، فهناك وضع وسطي ، وضع معتدل ، وضع سليم ، وضع قياسي ، فإذا تساهلت هذا التساهل يعني أنك لا تعظم ا عز وجل ، وإذا غاليت معنى ذلك أنك لا تعظم ا عز وجل ، فالغلو يقابل التفريط ، أو العبادة الحقة بين الإفراط والتفريط .

قال : هناك أمران ينافيان تعظيم الأمر والنَهي ، أحدهما التَرخص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال ، أي يصلي كنَقر الديك ، يصوم ويغتاب ، يصوم ويطلق بصره في الحرام ، يحج بيت ا الحرام وهو ساه ولاه ، ولا يعنيه إقباله على ا بقدر ما يعنيه أداء المناسك فقط .

حدثني أخ ، قال لي : أصلي العصر يوم عرفة بجدة . ما هذا الكلام ؟ أركب سيارتي من جدة إلى مكة الطريق خالٍ لا يوجد فيه إنسان أدخل الكعبة أطوف سبعةَ أشواط في أقل من ربع ساعة، لا يوجد أحد فالناس كلهم في عرفات ، ثم أتجه نحو عرفات وأوقف سيارتي في أول عرفات ، فإذا غابت الشمس عدت أدراجي إلى منى والطريق فارغ ، لأنني أول سيارة ، قال لي: أصلي المغرب والعشاء في مزدلفة ـ جمع ـ ثم أتجه إلى منى ، وأرجم الجمرات أول إنسان ، وأنزل وأطوف البيت طواف الإفاضة في الليل ، وأوكل برجم الجمار في الأيام التالية ، وأعود إلى بلدي . وا قلت له : هذا حج ، ثماني ساعات فقط . قلت له : هذا الحج يشبه من دعي إلى طعام نفيس ، والمضيف واضع سجل زيارات ، فجاء ووضع "م " أي موجود ، ووقع ، ورجع ولكن لم يأكل شيئاً ، سجل حضور ولكنه لم ينتفع بالدعوة .

فالعبادة إذا تساهلنا بها فهذا من عدم تعظيم ا عز وجل ، قال تعالى :

﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ (٣٢)

(سورة الحج)

تعظيم شعائر ا من تقوى القلوب ، وإذا شددنا على الناس ضاقت عليهم الأرض بما رحبت . امرأة جاءتها الدورة قبل طواف الإفاضة والمسؤول صاحب مذهب متعصب ، قال لها : عليك بدنة ، بركت كالبدنة امرأة لم تستطع أن تطوف طواف الإفاضة بسبب الدورة ، فعند بعض المذاهب عليها بدنة أي مئة ألف ليرة ، وهي لا تملك شيئاً منها ، شدد ، لا يوجد

عندي غير هذا الحل . ألا يوجد مذهب ثانٍ ؟ أبداً .

كذلك التشدد ، تكليف الناس ما لا يستطيعون ، وحملهم على ما لا يستطيعون ، والتضييق ـ تضيق المسار ـ إلى درجة ممر إجباري ضيق هذا ليس من شأن الدين العظيم ، طبعاً عند السادة الشافعية تغدو أميرة الحج ، ينتظرها فوجها ، وعند المالكية تطوف البيت ولا شيء عليها ، فإذا كانت موسرة نقول لها : عليك بدنة ، انفعي الفقراء ، وإن كانت مقيمةً ، إن كان لها قريب مقيم في جدة أو في مكة نقول لها : اجلسي عند ابنك وانتظري سبعة أيام ، وطوفي وعودي إلى بلدك ، هذا عند السادة الشافعية، وإن كانت ملْحقَةً بفوجٍ وفقيرةً ، وليس لها أحد في هذه البلاد نقول لها : طوفي البيت ولا شيء عليك على مذهب الإمام مالك ، ولولا مالك لكان الدين هالك .

هذه توسعة ، لا تضيق ، هناك من يضيق إلى درجة الاختناق فالمتشدد يقابل المتساهل، وكلاهما لا يعظمان أمر ا عز وجل .

آتي بمثل قريب : كنا بالخدمة الإلزامية ، ففي نظام بالطعام ، إذا كان هناك أمر معين صدر أثناء الطعام يجب أن تقف عن الطعام ، طالب ضابط يصب شاي ، فإذا سمع أمر التوقف لا يغير يده ولا شعرة ، هذا الإبريق يفرغه في الكأس وينساب الشاي ، ينفذ الأمر ، قال الآمر : اسكت . فانتهى ، مرة فرغ إبريق بأكمله على الطاولة ، إنه ينفذ الأمر ، أليس هذا مستهزئاً بالآمر ؟ تثبيت يدك بصب الـشاي في كأس ، حتى يفرغ الإبريق كله ، وأنت تنفذ التعليمات بدقة، قال لك : اسكت ، انتهى الأمر ، وا هذا استهزاء ، فالمغالي كالمفرط ، فالذي يبالغ كأن يقول لك : بسورة الفاتحة أربعة عشر شدة ، إذا نقصوا واحد فكل صلواتك باطلة . وا هذه مغالاه ـ غلو ـ فإذا شخص من غير العرب وعنده لكنة في كلامه ، وعنده حال مع ا رائع جداً ولكن ضبطه غير صحيح ، فهل هذا ذهب لجهنم ؟! .

ذات مرة كنا في درس من دروس جامع النابلسي ، دخل رجل توفي رحمه ا ، بأعلى صوت والجامع ممتَلئ عن آخره وقال : كل واحد ليس على رأسه طاقية فصلاته باطلة . قلت : بهذه البساطة ؟ فالذي يغالي كالذي يفرط ، من علامة تعظيم أمر ا ألا تغالي وألا تفرط ، كان عليه الصلاة والسلام أخف الناس صلاةً في تمام .

حدثني أخ ذات مرة كان في تعزية ، قال لي : بعدما انتهى القرآن دعا الشيخ خمس دقائق ، عشر دقائق ، ربع ساعة ، ثلث ساعة ، خمسة وعشرون دقيقة ، قال لي : غفلت ، متعب فنمت ، استيقظت قال له : أين وصل ؟ أيعقل أن يكون الدعاء ساعة مثلاً ؟! هذا غلو ، عندما تحمل الناس فوق طاقتهم يملوا الدين .

أخ قال لي : لماذا لا يكون درسنا ما بين المغرب والعشاء بالضبط؟ قلت له : في الصيف بين المغرب والعشاء ساعة ونصف بالضبط فهل أنت تتحمل درس مدته ساعة

ونصف؟! أول ربع ساعة نشيط ، ثاني ربع ساعة متحمس ، ثالث ربع ساعة تضجر ، الرابعة يجوز أن تسب المتكم ـ مثلاً ـ المفروض أن تجلس إلى الدرس وأنت تشتهي سماع الدرس وأن ينتهي الدرس وأنت تشتهي متابعة الدرس ، أنا درسي خمسين دقيقة وأحياناً أربعين دقيقة ، أنا هكذا قناعتي ، فخلال تعليم ثلاثين سنة وجدت أن الإنسان طاقة استماعه خمسين دقيقة أعلى شيء ، وأربعين أفضل فاجعله يأتي بشوق ، وينتهي الدرس وهو بشوق أفضل .

بالمناسبة : مرة في العمرة وفي المسجد النبوي ، أنا أحب أن أحضر دروس علم وأنا في العمرة أو الحج ، وهناك في المدينة المنورة رجل أحترمه جداً له درس فقه ، ودرسه عميق ، فأنا حريص على حضور درسه ، فذات مرة حضرت الدرس فإذ بي أتعب تعباً شديد جداً ، وطال الوقت بشكل غير معقول ، قلت : سبحان ا يجب على كل الدعاة حضور درس علم لغيرهم ، كي يعرفوا قيمة الوقت . فالمتكلم لا يشعر بالوقت ولا يتعب ، ولا يعطش ، ولا يشعر بالحر ، ولا بالبرد لأنه في نشاط .

أقل لك مثلاً أوضح ؟ حينما كنت طالباً في الجامعة ، كيف تمضي الساعات الثلاث في الامتحان ، وا كانت تمضي كلمح البصر ، ثلاث ساعات ، من شدة الاهتمام والتفاعل مع الأسئلة والورقة تمضي بسرعة وبعد هذا علمت في الجامعة حوالي خمس وعشرين سنة ، قل لي: ما هو أصعب شيء في الجامعة ؟ المراقبة ، نجلس ، يمضى وقت طويل ، ثلاث دقائق مضت ، أعوذ با ، فأقلب الساعة بالعكس ، أصبر أصبر وا ثلاث ساعات تمضي وكأنها دهر، الوقت نسبي يثقل ويخف ، هكذا قال الشاعر :

إن يطُل بعـ دك ليلي فلـ كم بِت أشكو قصر الليل معك

الشاعر مع المحبوب لا يشعر بطول الليل ويعاني من طوله بعد الفراق .

فالمتكلم لا يتعب ، ولا يشعر بالحر ، ولا بالقَر ، ولا بالجوع ، ولا بالشبع ، ولا بالعطش ، ولا بالري ، ولا بالوقت ، من الذي يشعر بثقل ؟ المستمع ، فكان عليه الصلاة والصلام يتخول أصحابه في الموعظه ، وأنا أفضل أن أُنتقد بقصر الدرس عن أن أنتقد لطول الدرس ، وأرجو ا أن أكون على صواب .

إذاً التعظيم بين الإفراط والتفريط ، فالترخص كما هذا الذي حج في ثماني ساعات ، فالترخص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال ، والغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي . هناك إنسـ ان يبقى في الحمام أربع ساعات ، هذا عنده داء الوسوسة ، في إنسان يقضي حاجة بساعة أحياناً .

"وما أمر ا بأمرٍ إلا وللشيطان فيه نزغتان ، إما إلى تفريط وإضاعة ، وإما إلى إفراط وغلو. "

أبداً ، كل أمر إلهي الشيطان له نَزغَتان إما إلى إفراط وغلو ، أو إلى تفريط

وإضاعة ، ودين الله وسطٌ بين الجافي والغالي ؛ كالوادي بين الجبلين ، والهدى بين الضلالتين ، والوسطُ بين الطرفين ، فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له ، فالغالي فيه مضيع له ، هذا بتقصيره عن الحد وهذا بتجاوزه الحد .

هناك كثير من الفتاوى فيها تشدد غير معقول ، فكلمة خطأً قالها الزوج طلقوا له زوجته ، والله أعرف أُناساً إذا لبس نعل زوجته تطلُق امرأته ، لماذا ؟ قال : لعن الله المتشبهين بالرجال من النساء ، والمتشـبه ملعون ، والملعون كافر ، والكافر تطلُق زوجته ، ما هذا الكلام؟ هذا غلو غلو أو تفريط ، هذا من عدم تعظيم الآمر .

أما الغلو ، قال الله تعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾

(سورة المائدة : من آية " ٧٧ ")

الغلو نوعان : نوع يخرجه عن كونه مطيعاً ، كمن زاد في الصلاة ركعةً ، أو صام الدهر مع أيام النهي ، أو رمى الجمرات بالصخرات الكبار، أو سعى بين الصفا والمروة عشراً ، أو نحو ذلك عمداً ، ففي زيادة تقلب الطاعة معصيةً . وقد قال عليه الصلاة والسلام :

"إِني لَأَخْشَاكُمْ لِله وَأَتْقَاكُمْ له لكني أَصوم وُأُفْطِر وُأُصلي وَأَرقُد وَأَتَزوج النساء فَمن رغب عن سنتي فَلَيس مني*"

(من سنن البخاري : عن " أنس بن مالك ")

وكل إنسان يزيد على منهج رسول الله ، فإنه يفعل مزاودةً رخيصة، أنا أسميها مزاودة لا أسميها ورع ، لست أورع من النبي ، وليس منهجك أقوم من النبي ، ومنهج النبي عليه الصلاة والسلام كاف كي ترقى به إلى أعلى عليين .

أحد الناس أراد أن يحرم قبل الميقات ، نهي عن ذلك . فقال : كيف تنهاني وأنا في عبادة ؟ فقال له المنتقد : وهل من فتنة أشد من أن ترى نفسك سبقت رسول الله ؟! . الآن يوجد أشخاص ـ هكذا بلغني ـ يمنعون الزوج من رؤْية أم زوجته ، هكذا أورع ، هذا غلو ، الله سمح لك أن ترى أم زوجتك ، هناك أُناس يمنعون زوجاتهم من المعالجة عند الأطباء أحياناً يكون مرض ما فيه اختصاص إلا عند طبيب ، لا توجد امرأة .

قال : وهناك غلو يخاف منه الانقطاع والاستحسار ، كقيام الليل كله ، هذا فوق طاقة الإنسان ، الصحابة ما صلوا من الليل إلا ثمان ركعات فقط ، طوال الليل ألا ينام أبداً ؟ غير معقول هذا الكلام ، لو حمل نفسه على قيام الليل كله هذا الشيء لابد من أن ينقطع ولا يستمر ، إذاً هناك غلو يخاف معه الانقطاع والاستحسار كقيام الليل كله ، وصيام الدهر جميعاً بدون صوم أيام النهي ، والجور على النفوس في العبادات والأوراد خمسة آلاف مرة أذكر

ا عز وجل ، مئتي مرة تحتاج إلى ربع ساعة الخمس مئة تحتاج ربع ساعة ، قد يكون خمس أو ست ساعات ، أو انفق مالك كله ، هذا غلو أيضاً ، المال قوام الحياة ، عندك زوجة وأولاد ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

"إِن هذَا الدين يسرٌ ولن يشَاد الدين أَحدٌ إِلا غَلَبه فَسددوا وقَاربوا وأَبشروا ويسروا واستَعينُوا بِالْغَدوة والروحة وشَيء من الدلْجة "*

(من سنن النسائي : عن : " أبي هريرة ")

أي ارتاح ، فإذا الإنسان أقال في رمضان ، قال ظهراً فالقيلولة كانت له عوناً على قيام الليل ، الإنسان ينام ، وينام بعد الظهر ، ويرتاح ويصلي ، لكي يكون نشيطاً . أنا أنصح إخواننا المعتمرين والحجاج : إذا وصلت إلى بيت ا الحرام إياك أن تدخل بيت ا الحرام مباشـرةً . لماذا؟ أنت منهك من السفر ، الطائرة عدة ساعات ، وعلى الحدود ، وفي المطار ساعتين أو ثلاثة، والتفويج ساعتان ، أنت منهك ، فالجسم له حق فإذا دخلت مباشرةً قد لا تجد نفسك هذا الإقبال ، وهذا التألق ، فتصاب بنكسة ، فاذهب إلى البيت وارتح ساعات طويلة ، واغتسل وادخل بيت ا الحرام نشيطاً ، كي يكون النشاط عوناً لك على الاتصال با عز وجل .

وقد قال صلى ا عليه وسلم :

"لِيصل أَحدكُم نَشَاطَه فَإِذَا فَتَر فَلْيقْعد*"

(من صحيح البخاري : عن " أنس بن مالك ")

لِيصل أَحدكُم نَشَاطَه ـ أي مادام نشيطاً ـ **فَإِذَا فَتَر فَلْيقْعد** ـ يرتاح ـ .

وفي صحيح مسلم عن النبي صلى ا عليه وسلم أنه قال :

"هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون . " قالها ثلاثاً.

وهم المتشددون ، أي أن النبي قال :

"من كانت ناقته حرون فلا يذهب معنا. "

هناك إنسان من الصحابة خالف ، وذهب مع النبي في الجهاد بناقة حرون ، فوقع من على ظهرها ودقت عنقه فلم يصل الرسول صلى ا عليه وسلم .

وفي صحيح البخاري عن النبي صلى ا عليه وسلم :

"عليكم من الأعمال ما تطيقون فوا لا يمل ا حتى تملوا. "

(من زيادة الجامع الصغير : عن " عائشة ")

فترة ربع ساعة كل يوم اقرأ خمس صفحات قرآن ، لو ألزمت نفسـك بجزء قد لا تستطيع ، لديك وقت ، وطاقة اقرأ جزءاً ، أما الحد الأدنى خَمس صفحات ، اعمل لنفسك برنامجاً معقولاً تستطيع أن تفعله كل يوم ، إذا لزمت درس علمٍ حافظ عليه .

... "أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل. "

(من زيادة الجامع الصغير : عن " عائشة ")

وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولا تبغضن إلى نفسـك عبادة الله .

(من تخاريج أحاديث الإحياء : عن " أبي هريرة ")

وقال بعض العلماء : " أشد أنواع التعظيم تعظيم الحق سبحانه وتعالى وهو ألا يجعل دونه سبباً ، ولا يرى عليه حقاً " .

من تعظيم الله عز وجل أن تعتقد أنه ليس بينك وبينه حجاب وليس بينك وبينه واسطة، إذا قلت : يا رب . قال لك الله : لبيك يا عبدي يا رب تبت إليك . يقول لك : يا عبدي وأنا قد قبلت . من البدع مثلاً أن نُكّلف إنساناً يعمل لنا استخارة ، استخر أنت ، ليس بينك وبين الله حجاب أنت استخر الله في هذا الأمر ، الاستخارة بالنيابة لم ترد عن رسول الله أبداً . النبي علمنا أن نستخير الله نحن مباشرةً .

"فلا يوصل إلى الله إلا الله ، ولا يقرب إليه سواه ، ولا يدني إليه غيره ، ولا يتوصل إلى رضاه إلا به ، فما دل على الله إلا الله ولا هدى إليه سواه ، ولا أدنى إليه غيره ، فإنه سبحانه هو الذي جعل السبب سبباً فالسبب وسببيته وإيصاله كله خلقه وفعله. "

لا يوجد إلا الله عز وجل ، أما إنسان له شيخ ، عالم جليل ، مرشد حكيم هذا مسرع ، وأقوى دليل ، قال :

﴿ يَـٰلَيۡتَنِى ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

هذا رفيق من أعلى مستوى ..

﴿ ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ ﴾

الشيخ ، والمرشد هذا يعينك بعلمه أو بحاله ، أما أن يكون هو الوسيط الوحيد ، لا ، ليس بينك وبين الله حجاب أبداً .

والشيء الثاني في تعظيم الله عز وجل : ألا ترى لأحد من الخلق لا لك ولا لغيرك حقاً على الله ، بل الحق لله على خلقه .

إذا أحد من الناس وجد بيتاً ، هو إنسان غني وجد بيتاً بثلاثمئة مليون ، أربعمئة متر له إطلالة جميلة ، فيه كل وسائل الراحة ، فدفع المبلغ عداً ونقداً ، وسجله بالدوائر الرسمية ،

لو أنه التقى مع صاحب البيت الأول هل يرى لصاحب البيت عليه فضلاً ؟ لا ، أخذ حقه الكامل ، وقد يكون دفع أغلى من ثمنه . يقول له : ليس لك فضل ، أخذت حقك كاملاً .

بيت ثمنه ثلاثون مليوناً ، قدمه لك صاحبه وقال لك : ادفع فقط ثمن المفتاح ، أنا معي مفتاح واحد خذه وانسخ منه نسخة واسكن في البيت ، لو التقيت مع صاحب البيت بعد يومين ، كيف تسلم عليه ؟ .

حينما تعتقد أنك دخلت الجنة بعملك فأنت لا تعرف الله ، أنت دخلت الجنة بسبب لا بثمن ، أنت لم تدفع ثمنها بل دفعت سببها ، كل عملك الصالح في الدنيا هو سبب لدخول الدنيا ، كل العمل الصالح ؛ من صلاة وصيامٍ ، وحجٍ ، وزكاة ، وغض بصرٍ ، وتحرى حلالٍ ، وخدمة الخلق كل هذا العمل يساوي ثمن مفتاح الجنة ، فأنت دخلتها بسبب لا دخلتها بثمن، فالجنة محض فضلٍ ، والنار محض عدلٍ ، فأنت حينما ترى أن لك حقاً عند الله ، أنت بهذا لا تعرف الله ولا تعظمه ، ليس لك عنده شيء ..

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾

(سورة الإنسان)

خلقك ولم تك شيئاً ، هو من كرمه وفضله أنشأ لك حقاً عليه إذا عبدته حق العبادة .

قال : " وأما حقوق العبيد على الله عز وجل من إثابته لمطيعهم وتوبته على تائبهم ، وإجابته لسائلهم ، فتلك حقوقٌ أحقها الله سبحانه على نفسه بحكم وعده وإحسانه ، لا أنها حقوقٌ أحقّوها هم عليه " .

أنت وجدت إنساناً ليس لك عنده شيء أبداً قال لك : أنا سأعطيك بيتاً . إذا أنت قلت له: أين البيت ؟ ـ بنبرة قاسية ـ سيقول لك : أي بيت هذا ؟ هل لك عندي شيء ؟ يجب أن تطلب منه البيت بلطف لأنك ليس لك عنده شيء أبداً ، فإذا توهم الإنسان أن له حقاً على الله ، هذا فيه جهل كبير ، وهذا من عدم تعظيم الله عز وجل ، أنت عبد إحسان ، أنت خُلقت للجنة برحمة الله عز وجل ، والجنة محض فضلٍ .

تعظيم الله عز وجل من مدارج السالكين ، في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والتعظيم مقترن بالمعرفة .

أنا التقيت مرة مع إنسـان لا أعـرفه أبداً ـ وبيننا عمل علمي ـ فقلت له : إذا احتجت لشيء باللغة العربية فأنا مختص . قال لي : أنا معي اختصاص عربي كذلك ، وبعد هذا ظهر لي أنه خطاط كذلك ، ورسام وشاعر ومخرج للمقالات ، فأنا كلما ذكر صفة لي وأراني الأدلة والخطوط، والقصائد الشعرية ، والاختصاص ، كلما قدم لي ميزة من ميزاته كبر بنظري .

أحياناً إنسان لا تعرفه فإذا جلست معه عرفته ، فأنت تعظم الناس بقدر معرفتك بهم ، وقد لا تعظمهم بقدر جهلك بحقهم ، على كلٍ تعظيم ا عز وجل مقترن بالمعرفة ، فمن عرف ا عظمه ، والتعظيم من أكبر ثمراته طاعة ا عز وجل ، وأي عبد لا يطيع ا التشخيص المرضي لهذه الحالة : أن تعظيمه ضعيف ، لأن تعظيمه ضعيف حمله على معصيته .

ويستوي المفْرِط والمفَرط ، والمبالغ والمقصر ، أنت بالمبالغة تكره الناس بدين ا . مثلاً : ورد أن الكحول نجسة ، فالكحول خمر ، فإذا أحد عطرك عطراً كحولياً ـ استعمال خارجي ـ هناك من يخْرِج من جلده نجس ، فهل هو كالغائط ؟ لا ، مجمع الفقه أقر أن هذه نجاسة مخففة حكْمية ، وتذهب بطيرانها ، طبعاً الأولى ألا تتعطر قبل الصلاة بعطر كحولي ، أما لو أحد عطرك وهذا اسـتعمال خارجي وليس داخلي ونجاسةٌ حكميةٌ معفو عنها ، ومؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقد في جدة أقرها ، إنسان يكره الناس ، يكون إيمانه ضعيفاً ، أو حديث عهد بالإسلام إذا معه زجاجة عطر ، فيقول له أحدهم : هذه نجسة . هذه مبالغة ، أنت ورع لا تستعلمها ، أما إذا عطرك لا توجد مشكلة الآن ، فهناك أمامه مراحل طويلة جداً قبل أن يصل إلى هذا الحكم الشرعي ، هناك من يشَدد يبالغ ، يدخل إلى بيت يجد فيه صورة ، صاحب البيت في الأصل لا يصلي ، فيقول له منكراً : حرام . كلم إنساناً عرف ا عز وجل وبقي عليه الفروع ، أما هو أصول الدين مهزولة عنده ، فإذا خاطبته بفروع الدين أنكر عليك أشد الإنكار . قال تعالى:

ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ

(سورة النحل : من آية " ١٢٥ ")

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس السابع والسبعين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والمنزلة اليوم منزلة البرق ، كتقديم لهذه المنزلة ، العبد أحياناً يطيع ربه فيكرمه ، وفي أحيان أخرى يكرمه فيطيعه ، فا عز وجل خبير بالنفوس ، أحياناً يكون سير المؤمن طبيعياً ، تبرق له ومضات من أنوار ا عز وجل ، فيمتلئ قلبه سعادة ، ويشعر أنه يحب ا حباً شديداً ، فهذه البوارق التي تلوح أمامه قد تدفعه إلى السير الحثيث في طريق الإيمان ، وقد يسأل أحدكم ما دليل هذه المنزلة في كتاب ا ، أقول وهل يغيب عن الوجدان قوله تعالى :

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾

(سورة طه : ٩ – ١٠)

كم سمعت من أخ كريم دخل مسجداً شعر براحة لا توصف استمع إلى شريط وجد أنه اهتدى إلى نفسه فعرفها ، هذه معونة من ا الأمور قد تكون أقل من ذلك ، ولكن ربنا عز وجل حينما يعلم صدقك وإخلاصك ، وحينما يرى أن لك مطلباً عالياً ، يجذبك إليه بطريقة أو بأخرى ، ا عز وجل يملأ قلب المؤمن سعادة ، يملأ قلبه طمأنينة ، يملأ قلبه راحة ، يملأ قلبه غناً ، يشعره أنه في رعاية ا وحفظه ، طريق الإيمان يحتاج إلى جهد كبير ، والذي ينسيك هذا الجهد ثمرات هذا الطريق الحقيقة الإيمان كله قيود ، المؤمن مقيد ، والإيمان قيد الفتك ، ولا يفتك مؤمن ، في كل حركة ، وفي كل سكنة ، في بيتك ، في فراشك ، مع أهلك مع أولادك ، في أثناء استحمامك ، في أثناء سيرك في بيعك ، في شرائك في سفرك ، في إقامتك ، في علاقاتك ، في أفراحك ، في اتراحك ، في منازل دقيقة ، أفعل ولا تفعل ، يجوز ولا يجوز حرام وحلال ، ينبغي ولا ينبغي ، فحياة المؤمن كلها قيود ، والقيود سميتة مجازية ، هي في الحقيقة حدود ، حدود لسلامتك لا قيود لحريتك ، أنظر إلى إنسان يطبق منهج ا عز وجل تراه رافع الرأس دائماً ، تراه يعيش في نفسية ملك ، لأنه حر لا مأخذ عليه ، لا إنسان يهدده بتهمة مالية ، لا إنسان يهدده بتهمة أخلاقية لا إنسان يهدده بتهمة سياسية ، لأنه طبق منهج ا فاصبح حراً .

كن للحق عبـ ـ ـ ـ داً فعبد الحق حـ ـ ـ ـ ر

قد تجد إنساناً درجته متوسطة في الحياة ، أو ربما كان في الدرجات الدنيا ، ولكنه رافع الرأس ، غني با ، راضي عن ا ، فهذه البارقة ، لولا أن ا يجعل لك من أنواره بروقاً ، تبرق أمامك ، لما أقبلت على هذا الدين ، ا جل جلاله .

حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ

(سورة الحجرات : ٧)

فالإيمان محبب ، أنت لما تخطب ود ا ، ا يقابلك بأضعاف مضاعفة من الود ، قد لا تراه بعينك ، ولكن تشعر به في قلبك ، تشعر أنك في عين ا ، تشعر أنك في حفظ ا ، تشعر أن الخلق كلهم ممنوعون أن يصلوا إليك ، تشعر أن لك معاملة استثنائية ، هذه من البروق ، التي تجلبك إلى ا عز وجل ، كما أنك تخطب ود ا ا عز وجل يكافئك على هذا الإخلاص بعطاء من نوع خاص ، بعطاء عز على أهل الأرض جميعاً على أهل الأرض الشاردين ، قد يعطي ا المال لمن يحب ولمن لا يحب وقد يعطي الصحة لمن يحب ولمن لا يحب وقد يعطي الذكاء لمن يحب ولمن لا يحب ، وقد يعطي الجمال لمن يحب ولمن لا يحب ، ولكن هذه السكينة التي هي تملأ قلب المؤمن ، والتي تبرق أنوارها أمام عينيه ، لا يعطيها إلا لمن يحب ، إن ا يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه ، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين.

من آيات القرآن الكريم التي تهز مشاعر المؤمن ، حينما خاطب ا سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال له :

وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾

(سورة طه : ٤١)

ا عز وجل اشترى من هؤلاء السابقين أنفسهم وباعوها بيعاً صحيحاً ، اشترى أنفسهم وأموالهم ، ا اشترى وقتهم اشترى طاقاتهم ، اشترى قدراتهم ، اشترى اهتماماتهم ، اشترى فراغ وقتهم .

بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ

(سورة التوبة : ١١١)

هؤلاء ، السابقون السابقون ، لهم عند ا شأن كبير ، لا تشفق لحالهم ، أشفق أنت على حالك ، قال مرة عالم ، عالم شاب أقبل الناس عليه إقبالاً شديداً ، فأثار حسد الخبراء ،

الحسد موجود ، يبدو أنهم كادوا له وطعنوا به ، واستسهلوا أن يصغروه أمام الناس فجاءه أحد الناصحين، قال له وا يا فلان إنني أشفق عليك مما يقوله عنك الناس ، قال هل سمعت مني عنهم شيئاً ، قال لا ، قال عليهم فأشفق ، عليهم فأشفق .

المؤمن حينما خطب ود ا عز وجل ، وملأ ا قلبه سعادة وطمأنينة ، لا تشفق عليه أشفق على نفسك ، أهل الدنيا بموازين الدنيا السخيفة يقيموا بها أهل الإيمان ، فقد تجد إنساناً من أهل الدنيا ، من أهل اليسار ، يسأل مؤمناً كم دخلك ؟ فإذا ذكر الحقيقة قال له : كيف ترضى به؟ كيف تعيش به ؟ أنت الآن تقيسه بمقياس مادي سخيف لو أنك قست نفسك بميزانه لكنت دون الصفر ، هذا يعرف ا ، هذا يعرف منهج ا هذا يسعى لمرضاة ا ، اللهم كما أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر أعيننا من رضوانك ، إذا تباهى الناس بدنياهم ، بقصورهم ، بمزارعهم بمركباتهم ، بأرصدتهم المكدسة ، بأولادهم النجباء ، بزوجاتهم الحسناوات تباه أنت برضوان ا ، لأن هذا الرضوان هو الذي يبقى بعد الموت ، أما هذه الدنيا العريضة تنتهي في ثانية واحدة ، الذي جمعه الإنسان في عمر مديد يخسره في ثانية واحدة ، إذاً :

"وهل أتاك حديث موسى ، إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا " فهذه النار التي رآها موسى عليه السلام كانت مبدءاً في طريق نبوته ، والبرق كما قال العلماء مبدأ طريق الولاية التي هي وراثة الأنبياء ، وليست الولاية بالمعنى القرآني ، أن يكون الإنسان نصف مجنون شكله رث ، هذه معانٍ لا علاقة لها بالولاية القرآنية .

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

(سورة يونس : ٦٣)

وعلى كلٍ منا أن يكون ولياً ، والبرق مبدأ في طريق الولاية التي هي وراثة النبوة .

يعني قال بعض العلماء الراشدين البرق نور يقذفه ا في قلب العبد ويهديه له ، فيدعوه بهذا البرق إلى دخول طريق الإيمان طريق الصادقين ما الذي يدفع الإنسان إلى بيت ا ؟ إلى إنفاق ماله ؟ إلى إنفاق وقته ؟ إلى خدمة المؤمنين ؟ أحياناً فتاة فيها مسحة جمال تبرق لشاب فينسى دراسته وينسى مستقبله ، وينسى عمله ، وقد ينفق عليها كل ثروته ، وهي فتاة من خلق ا ، فكيف إذا لاح لك من أنوار ا لائح ؟.

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي

رأوه لما وليت عنا لغيرنـ ـ ـ ـ ـ ـا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنـ ـا

خلعت عنك ثياب العجب وجئتنـ ـ ـا

ولو ذقت من طعم المحـ ـبة ذرة

عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنـ ـ ـا

ولو نسمت من قربنا لك نسـ ـمة

لمـ ـ ـت غريـ ـباً واشـ ـتـ ـياقاً لقربنا

ولو لاح من أنوارنا لك لائـ ـح

تـ ـ ـركت جميـ ـع الكائـ ـنات لأجلـ ـنا

قد يقول أحدكم ليس في هذه الأرض كلها أسعد مني وذلك عندما يكون في ساعة من ساعات الوصال مع ا ، بساعة من ساعات القرب بساعة من ساعات المناجاة ، في ساعة من ساعات السكينة ، قد تشعر أنك ملكت الدنيا ، أنك في أعلى مرتبة في الدنيا إذا سمح ا لك أن تتصل به عندما يحفظ الإنسان حدود ا جيداً ، يقف ليصلي ، فتأخذه الخشية في الصلاة ، تصبح الصلاة متعته الوحيدة ، وصدق رسول ا : أرحنا بها يا بلال .

هذا الذي اندفع مع بوارق أنوار ا عز وجل ، ما صفاته ؟ العبد الذي برقت له أنوار ا عز وجل يستكثر القليل من عطاء ا ، إذا سلمه يقول ربي لك الحمد يشكر ا على أي عطاء إلهي ، كان عليه الصلاة والسلام إذا خرج لقضاء حاجته يقول الحمد الذي أذهب عني ما يؤذيني وأبقى لي ما ينفعني ، كانت تعظم عنده النعمة مهما دقت ، إذا ارتدى ثوباً إذا نظر إلى المرآة يقول : يا رب كما حسنت خلقي فحسن خلقي ، نعمة السلامة ، ونعمة الصحة ، ونعمة أمن لك مأوى وبيت وأولاد ، هذه نعم كثيرة ، فعلامة هذا الذي برقت له أنوار ا عز وجل ، أدق النعم سيعظمها أدق النعم يستعظمها ، والشارد عن ا عز وجل أجل النعم يستصغرها أنت من خوف الفقر في فقر ، من خوف المرض في مرض ، توقع المصيبة مصيبة أكبر منها ، أول علامة من علامات منزلة البرق من برقت أمامه أنوار ا عز وجل فهام بها ، هذا تعظم عنده النعمة مهما دقت ، إذا نظر بعينيه ، إذا سمع بأذنيه ، إذا ضحك ، يتلو قوله تعالى :

وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾

(سورة النجم : ٤٣)

أحياناً وأنت قاعد مع أهلك طفل صغير يملأ البيت فرحاً وضحكاً وخبر مؤلم يقلب الحبور والفرح ترحاً ، إذا ضحكت اشكر ا ، واذكر قوله تعالى : " **وأنه هو أضحك وأبكى** "

عشرات وعشرات ، بل مئات من الرجال على مكانتهم يبكون ، ا يبكي ، يبكي الرجال ، والرجال قلما يبكون ، لكن إذا أصابهم قهراً وضيم تسألهم عن حالهم فيكون الجواب الدموع ، إذا ا عز وجل سمح لك أن تضحك فاشكر ا عز وجل فهذه من نعم ا الكبرى ، وجدت أمامك زوجتك ، زوجة تحصنك عن الحرام فهذه من نعم ا ، أتألم كثيراً من رجل لا يقدر نعمة الزواج، ومن امرأة لا تقدر نعمة الزوج ، وأية امرأة لا تشكر زوجها وهي لا تستغني عنه لا تروح رائحة الجنة ، نعمة الولد ، دائماً يتشكى من أولاده وقد أنعم ا عليه بهم ، وإنسان يدفع كل ما يملك ، ليأتيه ولد ، لذلك اللهم أرنا نعمك بكثرتها لا بزوالها .

إذاً هذا الذي برقت له أنوار الحق من صفاته أنها تعظم عنده النعمة مهما دقت ، رجل قدم بيتاً ثميناً لعمل خيري ، فأقيم لهذا المحسن حفل تكريم ، وكل هؤلاء الخطباء أثنوا على إحسانه وكرمه إلا واحد لفت نظره لشيء ، قال له أيها المحسن الكريم كان من الممكن أن تكون أحد المنتفعين من جمعيتنا ، وكان من الممكن أن تقف في صف طويل ومعك هويتك ، من أجل أن تأخذ بضع مئات من الليرات كل شهر ، ولكن ا عز وجل جعلك تعطي ولا تأخذ فمن يعطي يجب أن يذوب شكراً .

فهذا الذي برقت له أنوار الحق من صفاته أنه تعظم عنده النعمة مهما دقت ، كأس الماء ثمين جداً ، مرة إنسان توفي رحمه ا أصيب بفشل كلوي ، قال لي مرة الممرضة صرخت صوتاً قالت لا تشرب ماء كثيراً هذا الأسبوع الآلة معطلة ، إذا كانت أجهزتك سليمة ، الكليتان تعملان بنظام فاحمد ا ، لو كان في فشل كلوي لا تستطيع أن تشرب لأن الآلة معطلة ، ومعك ثمان ساعات مضجع على السرير ، مرة باليد اليمين ومرة باليسار ، مرة بالأرجل ثمان ساعات وانتظار ، والكلية الصناعية لا تصفي إلا ثمانين بالمئة فقط من عمل الكلية الطبيعية ، ويبقى بعض حمض البول وهذا يسبب ضيق وسرعة تأثر ، وردود فعل قاسية جداً هذه واحدة .

الصفة الثانية ممن برقت أمامه أنوار الحق ، فدخل في منزلة البرق احتقاره لنفسه ، فإن المحبة إذا تمكنت من العبد يعني يزدري نفسه يا ربي من أنا ، مرة نور الدين الشهيد ، كان في معركة حاسمة مع الكفار سجد ـ هكذا سمعت أو قرأت ما أدري ما صحة هذا الكلام ـ قال يا رب من هو الكلب نور الدين حتى تنصره ، انصر دينك يا رب ، يعني إنسان بهذه المكانة العلية ، يواجه قوى البغي والعدوان بنفسه في تواضع شديد ، يا رب لا تنصرني ، انصر دينك ، أنا لا شيء فكلما تضخمت الأنا معناها في بعد عن ا ، كلما صغرت النفس معنى أنت أمام حضرة ا لا شيء أمام ملكوت ا لا شيء ، علامة التفوق أن تستصغر نفسك أمام ا عز وجل فهذه الصفة الثانية ، لا كبر أبداً ، في تواضع ، ولنا في رسول ا أسوة حسنة يوم قام يجمع الحطب وهو مع صحبه ، قال له أحدهم علي ذبح الشاة والثاني قال

له علي سلخها ، وقال أحدهم علي طبخها ، فقال عليه الصلاة والسلام علي جمع الحطب ، معقول سيد الخلق! قالوا يا رسول ا يكفيك ذلك ، قال لا ، أعلم أنكم تكفونني ولكن ا يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه ، سيد الخلق أنت يا رسول ا سيد العالمين ، لا ، أبداً ، يا من هيأك تفوقك لتكون واحداً فوق الجميع فعشت واحداً بين الجميع ، المقام العالي في الإيمان إذا لاحت لك أنوار الحق ، برقت أمامك أنوار الحق فأنت متواضع إلى درجة مذهلة .

الشيء الثالث : محبته عز وجل ، في حب حقيقي ، والحب إذا تمكن من القلب فعل المستحيل ، فالمحبة إذا تمكنت من العبد استكثر قليل ما يناله من محبوبه ، والحب العارم من نعم ا عز وجل .

مرة جاءت موجة حر شديدة فشكا رجل لوالده الحر الذي لا يحتمل وفي الوقت ذاته كان في زلزال بتركيا ، قال له يا بني اشكر ا أنت ساكن ببيتك خمسين ألف بالعراء ، بلا مأوى، في صفة لهذا الذي برقت أمامه أنوار الحق ، يستقل الكثير من الأعباء ، مهما كان العمل شاقاً يستقله في جنب ا ، قد يمضي ساعات طويلة في خدمة المؤمنين ، قد يمضي ساعات طويلة في الدعوة إلى ا ، قد يمضي ساعات طويلة في إطعام المساكين قد يمضي ساعات طويلة لا يستكثر ، يستقل كل الأعمال الصالحة يستقلها ، لا يستكثرها ، الرسول الكريم طوال النهار في الدعوة إلى ا فإذا جاء الليل وقف في صلاته طويلاً ، حتى تورمت قدماه قالت له السيدة عائشة يا رسول ا لقد غفر ا ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال أفلا أكون عبداً شكوراً ، أحدنا إذا كان عمل عملاً طيباً بالنهار يرتاح شهراً ويحدث الناس عما فعل وقدم بكل غرور بينما اللهم صل عليه كل وقته في خدمة الخلق ، وفي الليل في محبة الحق ، مرة قال بعض الذين يناجون ا عز وجل يا رب لا يطيب الليل إلا بحلاوة مناجاتك ، ولا يطيب النهار إلا بخدمة عبادك ، المؤمن يصل إلى درجة أسعد لحظات حياته وهو في خدمة الخلق ، يرأب الصدع ، يلم الشمل يصلح ما فسد ، يصلح ذات البين يطعم فقيراً يجبر كثيراً ، يرعى أرملة يرعى يتيماً ، يتوسط لإنسان يصلح بين زوجين ا عز وجل وظفه في خدمة الخلق .

إذا لاحت أمامك أنوار الحق فجذبتك إلى ا فهذه منزلة البرق من لوازم هذه المرتبة أنك تستعظم نعم ا عليك ، تراها نعماً عظيمةً ومن لوازمها أنك تستقل عملك أمام هذه النعم ، ومن لوازمها أنك تستصغر نفسك ، ومن لوازمها أنك تستقل كل الأعباء التي ألقيت عليك .

أيها الأخوة :

هذه الأنوار التي برقت أمام المؤمن لها نتيجة أخرى تجعله حذراً جداً ، إذا مسك الإنسان حبلاً يكون تمسكه بهذا الحبل شديداً عندما يدرك أنه لو تركه سقط في واد سحيق ربما

دقت عنقه ، وكذلك لو أن ا عز وجل منحك نعمة القرب ، سمح لك أن تتصل به ، صار عندك حفاظ على هذه الصلة تفوق حد الخيال ، أنت بالصلاة خاشع ، أنت في رضوان ا ما لا تضحي بهذا الرضوان من أجل نظرة إلى امرأة حسناء ، لا تضحي من أجل كلمة باطلة ، أبداً ، تتكلم كلمة الحق ولو كانت مرةً تضبط حواسك جميعها ، تضبط أعضاءك جميعها ، هذا الحرص على الاستقامة سببه أنك وصلت إلى جوهرة ثمينة .

أضرب مثلاً إذا أنت موظف ، والمدير العام أحبك وأعطاك سيارة مع الوقود ، وعمل لك تعويضات مائة بالمائة ، وأعطاك إجازة مفتوحة مثلاً والمدير العام يكره شخصاً حذرك من محادثته ، فلو لمحك تلقي عليه سلاماً لسحب منك كل هذه الميزات ، إذا رأيته بالطريق هل تسلم عليه ؟ من أجل حفاظك على هذه المكتسبات وثباتها معك ، تتحرى كل ما يرضي هذا الذي أعطاك ذلك ، وتحذر من كل ما يثير غضبه أليس كذلك ؟

فإذا خالق الكون منحك أن تتصل به ، منحك نعمة الإيمان ، منحك نعمة الأمن ، لاحت لك بوارق أنواره ، هل أنت مستعد أن تضحي بكل ما وصلت إليه من أجل نظرة لامرأة حسناء ، ماذاق طعم القرب حتى يغض بصره ، لو ذاق طعم القرب لبالغ في غض البصر ، المؤمن لا يكذب أبداً لا يكذب ، ولا يبني رزقه على معصية ، أبداً ، ا الغني ، يركل المال الحرام بقدمه، ذاق طعم القرب ، حينما تستطيع أن تتصل با يهون عليك كل شيء ، تهون عليك التكاليف مهما بدت لك صعبةً ، يقول لك لا أترك فلاناً حتى ولو كان فلان فاسقاً ، لأننا ربينا معاً ، ونشأنا معاً ، دعه ، من أجل ا دعه .

وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ

(سورة القصص : ٥٧)

أكثر المقصرين يقولون : إذا استقمت لا ربح وربما أخسر مكانتي موازناته غير صحيحة ، الجواب الآمر ضامن ، الذي أمرك أن تفعل كذا يضمن لك سلامتك وسعادتك ويحميك، فإذا كنت تتوهم أن الذي خلقك لا يحميك إذا أطعته ، لماذا تعبده ، لا معنى لهذه العبادة ، تعبد القوي ، تعبد الغني ، تعبد القدير ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك بشيء قد كتبه ا لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك بشيء قد كتبه ا عليك، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف أمرك متعلق با وحده علاقتك مع ا وحده ، فهذه من صفات هذا الذي لاحت له أنوار الحق شديد الحذر ، هذا الورع ، يحرص على هذه الصلة يتمسك بها .

المؤمن ، روحه هذا الدين ، ابن عمر دينك دينك إنه لحمك ودمك خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا ، دينه روحه من أجل دينه يضحي بكل شيء ، و بعض

الناس لا يضحي بأي شيء من أجل الدين ، يقول : هي مصلحتي ، لا أتركها ، مع أنها كلها معصية ، لا يرى ا ، يرى المادة فقط ، ومن صفات هذا الذي لاحت له أنوار الحق أنه متمسك تمسكاً عجيباً ، العوام يقولون : متعصب ، كلام غلط ، متمسك .

في صفة أخيرة لعلها هي التي ذكرها بعض العلماء ، قال في الدنيا جنة ، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، جنة الدنيا هي جنة القرب من ا عز وجل ، إنسان كبير في السن لكن باعه في الإيمان طويل ، تحسه يعيش بجنة ، في كل الظروف ، في كل الأحوال ، مهما تكن قاسية ، الذي اتصل با عز وجل يعيش في حياة في نوع من الشعور بالتفوق لا يوصف ، فهذا ثمرة هذا الطريق ، وثمرة هذا الجهد ، أن ا يمنح هذا الإنسان سعادة يستصغر أمامها كل الدنيا.

لما النبي الكريم يقول وا يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره ا أو أهلك دونه ، ربما إنسان لو أعطيته مبلغاً لفسد، والتغت كل مبادئه ، التغى كل تشدده ، التغى كل كلامه ، معناها هذا الإنسان ثمنه هذا المبلغ ، وانتهى عند ا ، أما في إنسان لو وضعوا الشمس في يمينه ، والقمر في شماله على أن يترك هذا الأمر ما تركه ، حتى يظهره ا أو يهلك دونه ، أما إذا إنسان جاهل يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل ، مثلاً فرن وضع بالخبز الذي يباع بأعلى سعر مادة مسرطنة ، رخيصة جداً ثمن الكيلو ٣٥ ليرة حتى الخبز يضخم حجمه بينما المادة السليمة ثمن الكيلو ٣٥٠٠ ليرة ، مادة مؤذية من أجل الربح فقط طبعاً عوقب أشد العقاب ، وإن ا يدع في السلطان ما لا يدعه في القرآن ، من أجل الربح ، يضحي بصحة الناس فإذا الإنسان عرف ا عز وجل الناس يعيشون بخير فهو مستعد أن يقدم ما عنده في سبيل ا ، أما الجاهل يأخذ من الناس كل ما عندهم ولا يعطيهم شيئاً أبداً .

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾

(سورة السجدة : ١٨)

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾

(سورة القلم : ٣٥ – ٣٦)

أرجو من ا سبحانه وتعالى أن نكون من هؤلاء الذين برقت أمام أعينهم أنوار

الحق ، فاستقلينا كل جهد في سبيله ، وعظمت عندنا تكاليفه وكنا شديدين الحذر من أن نخرج عن منهجه، ثم قطفنا ثمار هذا القرب سعادة في الدنيا وفي الآخرة .

والحمد رب العالمين .

بسم ا   الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثامن والسبعين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، وقد سبق وأن تحدثنا عن منزلة الحياة ، وهذا الدرس جزء ثاني لِمنزلة الحياة التي عدها مؤلّف الكتاب أحد مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين .

أيها الإخوة الكرام :

بادئ ذي بدء ؛ أحد كبار العلماء يقول : الإيمان هو الخُلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان ، ولعلّه قال هذا القول استنادا إلى أن ا   جلّ جلاله حينما أثْنى على نبيه المصطفى صلى ا   عليه وسلّم أثْنى عليه بِخُلقه العظيم ، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام كان قائدا وكان زعيما ، وكان محاربا ، وكان زوجا ، وكان مجتهدا وكان قاضيا وكان وكان ، كلّ هذه الخصائص الفائقة والمتميزة أغفلها القرآن الكريم حينما أثنى على نبيه صلى ا   عليه وسلّم ، أثنى عليه بِخُلقه العظيم ولعلّكم تتساءلون ما السبب ، السبب أن كلّ هذه القدرات الفائقة التي تحلّى بها النبي إنّما منَحه ا   إياها لِتَكون أداةً فعالةً في دعوته ، هي ليستْ منه ولكن من ا   تعالى، قد يعطيك ا   ذاكرةً دقيقة جدا ، قال تعالى :

سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾

(سورة الأعلى)

كان عليه الصلاة والسلام إذا نزلت عليه السورة حفظها من أول مرة ، هذه قدرة عالية جدا ، وهذه القدرة من ا   تعالى ، آتاه الحكمة وهي هبة من ا   ، وقوة في القلب ، وآتاه حسن القيادة ، وآتاه الرحمة ، قال تعالى:

فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ

(سورة آل عمران)

ولكن بماذا أثنى عليه ؟ أثنى عليه بما هو منه ، وبما هو من كسبه وبما هو نتيجة انتصاره على نفسه ، إذًا لا يعقَل أن يمنَح أب ابنه سيارةً ثم يقيم حفلاً تكريميا لهذا الابن لأنّه منح هذه السيارة ! لأن الابن لا دور له إلا أنه أخذ هذه السيارة واستمتَع بها ، أما إذا نجح

الابن بدرجة عالية جدا في الامتحان يقام له حفل تكريم ، لأن هذا التفوق في نجاحه من جهده ، إذًا اجعل في ذهنك أن الذي يرفعك عند الله تعالى لا ذكاء فطري منحه الله إياك ، ولا شكلٌ وسيم جبلك الله عليه ، ولا قد رشيق ، ولا نسب عريق ولا إمكانات عالية ، ولا ذكاء عالٍ ، ولا عقلٌ راجح ، هذه كلّها خصائص خص بها بعض عباده ، فهذا العبد إذا أراد أن يفتخر لا ينبغي أن يفتخر بشيء ليس من عنده ، ولكن بماذا يفتخر الإنسان ؟ بأخلاقه ، لذلك الخُلُق هو الإيمان ، والإيمان كسبي ، والخُلُق كسبي ، وهذا الذي أراده الله عز وجل حينما أثْنى على نبيه فقال :

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

(سورة القلم)

هناك نماذج مؤلمةٌ حقا ؛ يصلّي ويصوم ويحج ويؤدي الزكاة وطبعه شرس ، وكلماته قاسية ، وقلبه قاسٍ كالصخْر ، لا يلين ولا يرحم ولا يتساهل ، لا يبتسم ، ما قيمة هذا الإيمان ؟ وما قيمة هذه العبادات ؟ إذا كنت أداة تنفير من المجتمع ، قال تعالى :

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

(سورة القلم)

هناك قاعدة لهذا الخُلق العظيم ، قال تعالى :

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ

(سورة آل عمران)

يا محمد بسبب رحمة استقرتْ في قلبك من الله من خلال اتصالك به كنتَ لينًا لهم ، فالرحمة غير مرئية ، أما اللين فهو شيء مرئي منعكس الرحمة اللين ، منعكس الرحمة التساهل، منعكس الرحمة إشفاق منعكس الرحمة الخدمة ، منعكس الرحمة العفو ، منعكس الرحمة الحلم منعكس الرحمة العطاء ، فالرحمة شيء داخلي ، إنسانة تنام وقد عملت عملاً شاقا، وإنسانةٌ أخرى تنام جنبها ، إذا بكى طفل الواحدة استيقظت أمه لماذا ؟ لأن الله أودع في قلبها الرحمة ، لا يهدأ لها نوم إذا كان ابنها يبكي فالرحمة شيء لا تظهر إلا منعكساته ، قال تعالى :

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ

أعود وأُكرر من لا يرحم لا يرحم ، صاحب القلب القاسي بعيد عن ا عز وجل ، علامة إيمانك رحمةٌ في قلبك ترحم بها عباد ا ، وخلق ا ، مرة مررتُ أمام بائع دجاج يذبح الدجاجة ويضعها فورا في ماء يغلي من أجل أن يسهل عليه نتْفُ ريشها ، في ماء يغلي ! مخلوق لها إحساس ذبحتها وحرقتها بالماء الذي يغلي ، من لا يرحم لا يرحم ، علامة اتصالك با رحمتك ، ا رحيم ، كلّ من اتصل به اشتق من رحمته فإن اتصلْت به أصبحت رحيما ، والعكس ؛ إن لم تكن رحيما فهذا دليل أنك لستَ متصلاً به ، وهذا دليل قطعي ، وعليه الصلاة والسلام لحكمة بالغة قال :

فعن أَبِي هريرةَ قَالَ : قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم :

إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُم مَن تَرضَون دينَه وخُلُقَه فَزوجوه إلا تَفْعلُوا تَكُن فتْنَةٌ في الأَرض وفَساد عريض

(رواه الترمذي)

أضاف إلى الدين الخلق ، قد يصلي صلاةً شَكلية وقلبه قاسٍ كالجلمود ، وهذا عند ا مطرود ، وقد يصوم صياما شَكليا ، وهو متكبر عتُل جبار ، وقد وقد ، إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، قلتُ مرة لأخٍ لماذا يفحصون من يرغب نَيل إجازة سياقة ، الشكل التالي يكلفونه أن يرجع بالمركبة إلى الوراء ، وفي طريق ضيق لا يزيد عن عرض عجلات السيارة ، والطريق منعطفات ، وهناك علامات على طرفي الطريق ، فلو أخطأ عدة سنتمترات ، وأبعد هذه الإشارة عن مكانها يرسب سؤال دقيق ، هذا أصعب شيء في القيادة ؛ أن ترجع إلى الوراء في طريق ضيق جدا ، وهناك علامات تظهر واضحةً إذا أخطأت والطريق متعرج فإن أحسنْتَ الرجوع ، فقد تُحسن أي نوعٍ من القيادة والنبي عليه الصلاة والسلام قال :

فعن عائِشَةَ رضي ا عنها قَالَتْ : قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم :

خَيركُم خَيركُم لِأَهله وأَنَا خَيركُم لِأَهلي وإِذَا ماتَ صاحبكُم فَدعوه

(رواه الترمذي)

الإنسان خارج بيته له قواعد عامة ، إذا تجاوز الإشارة هناك شرطي وإذا تهجم على إنسان هناك محكمة ، وإذا استعلى على مدير عمله يطرده ، وإذا تكلّم كلاما بذيئًا يحتقره الناس ، وإذا ضرب من دونه يحقد عليه الناس هناك روادع وضوابط ، أما في البيت لا يوجد من يحاسبه فهو رب الأسرة ، فإذا انضبط الإنسان في بيته وكان رحيما ومتواضعا ، معنى ذلك أنّه في الأعم الأغلب منضبط خارج المنزل ، من هنا قال عليه الصلاة والسلام :

خَيرُكُم خَيرُكُم لِأَهله وَأنَا خَيرُكُم لِأَهلي وَإذَا مَاتَ صَاحِبُكُم فَدَعوه .

أعجب أحيانًا أستمع إلى قصص لِهولها لا تُصدق ، إنسان يضرب زوجته ضربا مبرحا وهو يصلي ، يضرب زوجته أمام أولاده وبناته ، أو يحقد على أولاده فيطردهم خارج المنزل ! ولا يعبأ أين ناموا ؟ ومع من أقاموا ؟ ويصلّي !! هذا القلب القاسي ما ذاق طعم الصلاة ، هذا القلب القاسي ما ذاق طعم القرب من ا عز وجل ، ا رحيم ، وكلّ من اتصل به اشْتقّ من رحمته ، فأنت علامة إيمانك رحمتك ، وعلامة إيمانك عدلك وعلامة إيمانك تواضعك ، وعلامة إيمانك بذْلُك ، وعلامة إيمانك كرمك وعلامة إيمانك شجاعتك ، الإيمان هو الخُلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان ، والذي ذكرتُه قبل قليل من أن ا عز وجل ما أثنى على نبيه إلا بخُلقه العظيم ، وما سوى ذلك منَح من ا عز وجل ، مرةً كنتُ في عقْد قران ، وقد أُثْني على أحد الحاضرين ثناء عاطرا ، وكان أحد الحاضرين من علماء دمشق ، وقف وخطب وقال : نقل كلمة لابن عطاء ا السكندري ، ما مدحك من مدحك إلا ومدح من منحك ، فإذا آتى ا حكمة لإنسان ، فالمانح هو ا تعالى ، آتاه رحمة المانح هو ا آتاه إدراكاً دقيقاً المانح هو ا ، ما الذي نلْت ؟ الخُلق ، الخُلُق عملية ضبط فقط ، أن تقول أية كلمة وقلتَ كلمة الحقّ ، يمكن أن تنظر إلى أي جهة ونظرت إلى الحقّ ، ولم تنظر إلى الباطل ، ويمكن أن تستمع إلى كلّ شيء فاستمعت إلى ذكر ا وحده ، عملية ضبط اللّسان والسمع والبصر والرجل ، ضبط العلاقات ، ضبط الدخل ، ضبط الإنفاق الدين كلّه ضبط يحلُو لي أحيانًا أن أقول عن إنسان لا دين له ، وقاسٍ ، ووقح ، متَهجم فأقول هو دابة بهيمة ، المؤمن كائن راق منضبط ، يضبطُ لسانه وعينه وسمعه وبصره ، وحركته ، إنفاقه ودخله ، والإيمان هو ضبط ، والضبط خُلُق كلّ إنسان إذا أخطأ ابنه خطأً شديدا بإمكانه أن يضربه ضربا مبرحا ولكن أن ينصحه أولى ، والنبي عليه الصلاة والسلام قال : علموا ولا تُعنفوا ، فإن المعلّم خير من المعنّف ، فالأخلاقي حي ، وغير الأخلاقي ميت ، الشيء الثابت أن حياة الجسد لا قيمة لها إطلاقًا ، العبرة حياة القلب والدليل ا عز وجل قال :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ

(سورة الأنفال)

فأنت حي إذا استجبت ولرسوله ، حياتك بهذه الاستجابة ، فإن لم تستجب فأنت مع الموتى :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميتُ الأحياء

أحيانًا تجلس مع إنسان ، مادي وشهواني ، أية قيمة دينية ، أو قيمة أخلاقية تحت قدمه، مستَعد أن يفعلَ كلّ شيء من أجل مصلحته مستعد أن يفعل أي شيء ولو كان محرما

من أجل الدرهم والدينار ، هذا ميتٌ ، ولا نبض له ، لأنّه عديم الأخلاق ، لا يستحي ، ولا يخجل ، ولا يشعر بِذَنب ، ولا يندم إطلاقًا ، ويأخذ ما حلى له ، ويضرب ويشتم ، وا الذي لا إله إلا هو بالصحاح أحاديث لو عقلَها الناس لارتَعدت فرائصهم .

فعن أَبِي هريرةَ أَن رسولَ الله صلى الله علَيه وسلم قَالَ :

أَتَدرون ما الْمفْلس قَالُوا الْمفْلس فينَا يا رسولَ الله من لَا درهم له ولَا متَاع قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الْمفْلس من أُمتي من يأْتي يوم الْقيامة بِصلَاته وصيامه وزكَاته ويأْتي قَد شتَم هذَا وقَذَفَ هذَا وأَكَلَ مالَ هذَا وسفَكَ دم هذَا وضرب هذَا فَيقْعد فَيقْتَص هذَا من حسنَاته وهذَا من حسنَاته فَإِن فَنيتْ حسنَاتُه قَبلَ أَن يقْتَص ما عليه من الْخَطَايا أُخذَ من خَطَاياهم فَطُرِح عليه ثُم طُرِح في النارِ

(رواه الترمذي)

إنسان عاتب إنساناً ، فقال له : لقد اغْتبتني ، وبلغني ذلك ، فقال له : ومن أنت حتى أغْتابك ؟ لو كنتُ مغتابا أحدا لاغْتَبتُ والدي لأنهما أحقّ بحسناتي منك ! هذا الإنسان مؤمن وموقن أن المغتاب سوف يخسر من حسناته ، وسوف يأخذها من يغتابه ، وهذا بِنَص حديث للنبي عليه الصلاة والسلام ، فإذا لم يستمع الإنسان للغيبة يصبح إنسانًا راقيا .

وقد سمعتُ عن الشيخ بدر الدين رحمه ا تعالى ما تجرأُ أحد أن يغتاب أحدا أمامه كان يقول : يا أخي أُسكتْ أظلم قلبنا ! تجد المجالس فيه راحة ، وفي مجالس أخرى يغتاب فيها الناس، يعرون ، كلّ مسالبهم تُفْتضح في مجالس ، أما المؤمن لا يسمح أن يغتاب في حضرته أحد النبي الكريم قال : من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته ، وحرمت غيبته ، كلّ إنسان صحتْ عقيدته ، وصح عمله ، وأدى عباداته ممنوع أن تغتابه .

الأخلاقي حياته أخلاقه ، لو عملَ عملاً فيه خطأً يتألم ألما لا حدود له ، إنسان وثقَ بك فأسأتَ به الظن ، إنسان تقرب إليك فنَهرته ، إنسان علق عليك الأمل فيأسته ، إنسان ما ارتكب ذنْبا ، وبخْته ، إنسان يجهد لإرضائك فَغَضبتَه ، فالإنسان حينما يسيء ولا يتأثّر فمعنى ذلك أنه ميت المؤمن إذا ارتكب خطأً لا ينام الليل ، هناك حديث يحار الناس في تفسيره .

عن أَبِي أَيوب رضي ا عنه أَنه قَالَ : حين حضرتْه الْوفَاةُ قَد كَتَمتُ عنْكُم شَيئًا سمعتُه من رسول الله صلى الله علَيه وسلم ، سمعتُ رسولَ الله صلى الله علَيه وسلم يقُولُ :

لولَا أَنكُم تُذْنبون لخَلَقَ الله خَلْقًا يذْنبون ويغْفر لهم

(رواه الترمذي)

الحديث على ظاهره غير مقبول ، مع أنّه في الصحاح ولكن المعنى هناك أنه لولم تُحسوا بِذُنوبكم لكنتم هلكى عند ا ؛ لذهب ا بكم ، علامة حياة إخوتنا الكرام إذا أذْنَب يعتذر

، يقول لك : سامحني أخطأتُ نسيتُ   ما قصدتُ ، أتمنى أن لا تغضب علي ، يقدم هدية تكفيرا لِذَنبه ، أما إن لم يحس بما فعل فمعناه أنّه ميت ، إذا الإنسان ارتكب الذّنب ولم يعبأ باعتذارٍ ولا بإصلاح ذات بينٍ هذا إنسان ميت ، فلذلك الفقرة الثانية من منزلة الحياة هناك حياة الأخلاق ، فأنت حي لأنّك أخلاقي ، فإن لم تكن أخلاقيا فأنت في حكْم الموتى ، هناك أزواج يتزوجها يحملُها على تسجيل بيتها له ، وتُسجلُه ثم يطلّقُها ، أو يطردها ، أسمع قصصا أحيانًا لا أصدقها ، طرد زوجته وتركها بالطريق ؛ الساعة الثانية ليلاً !! هذا ميت ، أنت حي إذا كنتَ أخلاقيا ، قد تكون فقيرا ، وقد يكون الفقْر وِسام شرف لك ، ولكنك تحرص على أهلك ، هناك إنسان دخْلُه محدود وقد يكون في أعلى عليين أساسا النبي عليه الصلاة والسلام كان فقيرا ، وقد يسألك أحدكم لماذا كان النبي عليه الصلاة والسلام إنسانًا فقيرا وضعيفًا ؟ سؤال وجيه ، لو كان غنيا مترفًا لما صدقه الناس ، ثم هناك أمر مهم جدا أنت حينما تقول لفقراء اصبِروا وأنت غني هذا الكلام يجرحهم ، ماذا يقولون لك ؟ لو ذُقْت طعم الفقْر لما قلتَ هذا الكلام ! أما النبي فقد كان فقيرا ، كان إذا دخلَ بيته ولم يجِد طعاما يقول : اللهم إني صائم ، الآن لا يوجد منا من يدخلُ بيته ولا يجد شيئًا إطلاقًا يأكله ، فالقضية الحياة هنا هي حياة الأخلاق ، فقد تكون فقيرا ، وصاحب دخْل محدود ، وقد يكون الإنسان مريضاً ومعذباً في بيته وفي عمله ، كلّ هذا ممكن ، أما إذا كان غير أخلاقي هذا الذي هو وصمةُ عارٍ في الإنسان .

حياة الأخلاق تطبع على الحياء والعفة والجود والسخاء والمروء والصدق والوفاء ونحوها ، وهذه الحياة حياة الأخلاق حياةٌ مسعدة تجد الإنسان بحسب فطرته بالدرجة الدنيا أخلاقيا، وتجده يعيش بسعادة لا توصف ، هو موصول با ، وقد يكون إنسانًا لا أخلاقيا ، وجمع المال بالحرام ، ويعيش بمظهر فخْم جدا ، وداخله فارغ منهار ، أما الأخلاق فهي الحياة ، أضرب لكم مثلاً دقيقًا لو أن أحدكم دخل بيته الساعة الواحدة ليلاً قالتْ له : أُمه يا بني أنا أُعاني من وجعٍ في الرأس وأريد حبة دواء مسكنَة فيقول لها : كلّ المحلاّت مغلقة الآن ، وهو يعلم أن في البلد عدة صيدليات مناوبة ، لو عنده حس أخلاقي سليم لا يرتاح بالنوم ، والدته سبب وجوده وحياته تتألم ، لو أن هذا الإنسان استيقظ عنده الحس الأخلاقي لارتدى ثيابه وخرج يبحث لها عن هذا الدواء ، وفعلاً بحث في كلّ الصيدليات المناوبة ولم يجد هذا الدواء ، ورجع وقال لها : لا يوجد ، هذه المرة ينام مرتاحا ، وبالحالتين ؛ الأم لم تستعمل الدواء ، لكن أول مرة هناك محاسبة داخلية ، أما المرة الثانية أصبح معذورا ، خرج من بيته وبحث ولم يجد فاعتذَر ، فالإنسان لا يستطيع تحمل وِزر الذّنب ، قد لا يستطيع تحمل وزر العمل السيء ، إذا كان هناك أربعة أو خمسة أولاد لهم أم توفيت ، الذي يبكي عليها أشد البكاء ؟ هو الذي قصر في حقّها ، يبكي عليها أشد البكاء لأنّه يوجد إحساس داخلي بأنه

مذنب ، بقدر ما تُحاسب نفسك فأنت عند ا غال ، حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا ، حاسب نفسك على كلمة ، على نظرة ، على تعليق في غير محلّه ، على إنسانٍ ما رحبتَ به ، حاسب نفسك على إنسانٍ أهملتَه ، وقد أقْبلَ عليك ، هذا هو الحساب ، من حاسب نفسه حسابا عسيرا كان حسابه يوم القيامة يسيرا .

قال : وكلّما كانت هذه الأخلاق في صاحبها أكْمل كانتْ حياتُه أقوى وأتم ، الإنسان المستقيم عنده قوة ، عنده جرأة وشجاعة ، يعتمد على ا ويتوكل عليه ، الإنسان لما ينحرف يضعف ، ويصبح خرقة بالِية ، لأنه لما ترك الأخلاق أصبح خائفاً من ا وضعيف النفس ، حينما الإنسان يرتكب عملاً لا أخلاقياً ، أو حينما يشْرك يقذف ا في قلبه الخوف ، قال تعالى :

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (151)

(سورة آل عمران)

وقد يكون الذي يخاف أقوى الأقوياء ، وقد تكون أمةً ومع ذلك يقذف ا في قلبها الخوف .

قال : لذلك كان خُلُق الحياء مشتقا من الحياة اسما وحقيقةً ، الذي عنده حياة عنده حياء، والذي عنده حياء عنده حياة ، والحياء من الإيمان قال له : خُذْ أجارتَك لا حاجةَ لنا بك فإني أراك لا تستحي من ا الإنسان يستحي أن يتكلم كلمةً بذيئة ، يستحي أن يكذب وأن يخون العهد ويستحي أن يتجاوز ، يستحي أن يقصر .

قال : أكْملُ الناس حياء أكْملُهم حياةً ، ونُقصان حياء المرء من نقصان حياته ، ونقصان حياته من نقصان إيمانه ، والإنسان إذا مات لا يحس ما يؤلمه من الجروح ، هناك حديث صحيح ورد في الصحاح :

عن أَبِي مسعود رضي ا عنه قَالَ : قَالَ رسولُ الله صلى الله علَيه وسلم :

إِن مما أَدرك الناس من كلَام النبوة الْأُولى إِذَا لم تَستحِ فَافْعلْ ما شئْتَ .

(رواه أبو داود)

من أدقّ معاني هذا الحديث ، أنّك إذا لم تستحِ من ا في عمل فافْعلْه ولا تعبأ بالناس ، أحيانًا الإنسان يتحرج ، أو يتهيب الناس وهو على حقّ ، فإذا كنت على حقّ وكان ا راضيا عنك فافعل ما تشاء ولا تعبأ بأحد .

بتَعبير دقيق ، من هو أقرب إلى الحياة ؛ الشّجاع أم الجبان ؟ حياة الشجاع أكْملُ من

حياة الجبان ، حياة السخي أكملُ من حياة البخيل ، حياة الفطن الذكي أفضل من حياة البليد ، فالأنبياء عليهم صلوات ا كانوا أكمل الناس حياةً ، تجد إنساناً عادياً ولكنه محترم ، بيته مضبوط وأخلاقه عظيمة صادق ولا يكذب ، ربى أولاده وضبطهم ، قانع بزوجته ، وزوجته راضية عنه ، والبيت صغير جدا ، والدخْل قليل ، ولكن النفسية نفسية ملك ، وتجد شخصا آخر دنيء النفْس خسيس الصفات ، قد يكون معه الملايين ، وقد يكون بمركز جيد ، وقد يكون بيته قصر ، ولكنّه منهار داخليا ، فأنت تشعر أنّك أحسن منه ، وكثير من الأشخاص من الطّبقة الدنيا لهم نفسية الطّبقة العليا ، وهناك من عندهم نفسية الطبقة الدنيا وهم من الطّبقة العليا ، لِبعدهم عن ا تعالى .

وصفُ ا تعالى من أدقّ الأوصاف ، قال تعالى :

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

(سورة القلم)

حلاّف مهين ، مهين أمام نفسه ، وكثير الحاف ، هماز مشّاء بِنَميم ودائما يطعن ، ويمن بين الناس ، ويفسد العلاقات بينهم منّاع للخير ، لا يكتفي أنه لا يفعل الخير ، بل يمنع فعل الخير، معتَد أثيم يعتدي ويأثَم يأثَم بمعاصي الشهوات ، ويعتدي بمعاصي العدوان ، يأخذ أموال الناس بالباطل ، وهذه هي المعصية ، وهي العدوان ، وحينما ينتهك الحرمات والأوامر الإلهية عندئذ يكون مهينًا .

قال : والبسط من أجلّ هذه الأخلاق ، وأقواها في صفة الحياة وهو ما كان عليه النبي صلى ا عليه وسلّم مع أهله وأصحابه ، النبي كان لطيفًا باشّ الوجه ، ومتواضعاً ، إذا الإنسان عاشره أحبه ، ومن رآه بديهةً هابه ومن عامله أحبه ، وكان عليه الصلاة والسلام مع أصحابه ومع أهله ، ومع القريب والبعيد في سعة صدر ، ودوام بِشْر ، وحسن خلق يسلم على من لقيه ، ويقفُ مع من استَوقفَه ، يمزح بالحقّ ، مع الصغير والكبير ، يجيب دعوة الداعي ، ولين الجانب، حتى يظن كلّ واحد من أصحابه أنّه أحبهم إليه ، وهذا الميدان لا تجد فيه إلا واجبا أو مستحبا ، أو مباحا يعين عليهما ، وهذه هي حياة الإنسان ، لذلك قال تعالى : فما بكت عليهم السماء والأرض.. ا يصف الكفار أنهم ما بكتْ عليهم السماء والأرض ،

معنى ذلك أنّها تبكي على المؤمن ، قال علماء التفسير : موضع سجود المؤمن يبكي عليه عند الموت ، وموضع رفع عمله إلى السماء يبكي عليه عند الموت ، المؤمن خير ومؤنس ، ووجوده محبب ، قد يكون أب بخيل أقرب الناس إليه يتمنون موته ، حدثني مريض استَدعوه إلى عند مريض على وشك الموت ، وكان أولاده قلقين جدا أن يكون المرض غير شديد ، فلما قال لهم : عرضية انْزعجوا كثيرا !! هم أرادوا أن تكون القاضية عليه كي يتخلصوا منه !! فالمؤمن وجوده محبب ، وكلّ من حوله يتمنى وجوده ، كان عليه الصلاة والسلام يقول : أعرف حجرا بمكّة كان يسلم علي وأُسلم عليه ، دخل مرةً بستاناً فرأى ناقة فلما رآها ذرفَت عيناها حنتْ إليه وقال : من صاحب هذه الناقة ؟ قالوا: فتًى من الأنصار فقال : آتوني به ، فلما جاءوا به قال : يا صاحب الناقة ألا تتقي ا في هذه البهيمة التي ملكك ا إياها فإنّها شكت إلي أن تجيعها و وتتعبها !! كان عليه الصلاة والسلام يصغي الإناء للهرة ، وكان أن يرى أن من ذَبح شاةً أمام أختها فقد أخطأ ، فقال : أتُريد أن تُميتها مرتَين ؟ هلا حجبتها على أختها ، كان عليه الصلاة والسلام يقول :

إن الله عز وجل كتَب الْإِحسان على كُل شَيء فَإِذَا قَتَلْتُم فَأَحسنُوا الْقتْلَةَ وإِذَا ذَبحتُم فَأَحسنُوا الذبح وليحد أَحدكُم شَفْرتَه وليرِح ذَبِيحتَه .

(رواه ابن ماجة عن شَداد بن أَوسٍ)

هذا هو نبينا ، وهو قُدوتُنا ، ونحن كلّما اقتربنا من سنّته كنّا أقرب إليه .

خطر ببالي مثال ؛ أستاذ جامعي كبير جدا ، له مئات المؤلّفات ويحمل أعلى الشهادات، وله مكتب فخْم ، وله آذن لا يقرأ ولا يكتب فَبِغياب هذا الدكتور أو البروفسور يجلس هذا الحاجب على مكتبه ويأخذ وضعية معينة وهو لا يقرأ ولا يكتب ، جلوسه بهذا المكان هل يرفع قدره ؟ فنحن لا يرفعنا عند ا مديح النبي فقط ، يرفعنا عند ا اتباع سنته .

فمن شدة أخلاقه العلية كلّ من أصحابه صلى ا عليه وسلّم كان يظن أنّه أقرب الناس إليه ، فقال : ومن العبادة من وفقه ا فنال حظا من هذا البسط النبوي الكريم ، وجعل انبساطه مع الخلق رحمةً لهم ، كما قال تعالى :

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ

(سورة آل عمران)

هذه الآية معادلة رياضية ، ولكن فيها بلاغة رائعة ، فالباء للسببية حينما تتّصل با تستقر في قلبك رحمة تجاه الخلق ، وهذه الرحمة تنعكس ليناً في المعاملة هم يلْتفّون حولك ، فاللين الذي هو انعكاس الرحمة التي هي بسبب الاتّصال با ، هذه الرحمة انعكست لينًا ،

وهذا اللّين جذب الخلق إليه فالْتَفوا حوله الآن الطرف الثاني ، قال تعالى :

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾

(سورة آل عمران)

يعني لو لم تتصل بنا لامتلأ قلبك قسوةً مكان الرحمة ، والقَسوة انعكست غلْظةً وفظاظة ووقاحة ، واتهام مفاجئ من دون برهان ومواجهة الناس بما يكرهون ، والتحطيم والتوبيخ والتعنيف ، والموقف القذر ، والوقاحة ، قال تعالى :

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾

(سورة آل عمران : ١٥٩)

فالقسوة منعكسها الفظاظة ، والفظاظة من لوازمها نفور الناس منك إذًا اتّصال رحمة لين التفات ، انقطاع قسوةٌ فظاظة انفضاض ، وهذه معادلة رياضية ، قال تعالى :

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾

(سورة آل عمران)

النبي عليه الصلاة والسلام له مهمتان كبيرتان ؛ الأولى هي التبليغ والثانية هي القدوة ، أما لو سألتموني أن أُوازن بين هاتين المهمتين ، مهمة التبليغ بالنسبة إلى مهمة القدوة صغيرة جدا، التبليغ سهل ، أما أن تكون أخلاقيا فهذه بطولة ، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان مبلغًا وقُدوةً لنا لذلك جاع فصبر ، واغْتنى فأعطى ، قُهر فاعتذر ، سيطَر فعفَا ، في الطائف قُهر قال: إن لم يكن بك غضب علي فلا أُبالي ولك العتبى حتى ترضى ، ففي فتح مكّة انتصر فقال : اذْهبوا فأنتم الطلقاء ، دخل بيته فلم يجد طعاما فقال : إني صائم ، جاءه مالٌ كثير ، فقال : لِمن هذا الوادي ؟ قال : هو لك ، قال : أتهزأ بي ؟ فقال : هو لك ! ذاق موت الابن ، إن العين لتَدمع، وإن القلب ليحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي الرب ، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون ، ذاق الهجرة استئْصال من الجذور ، وذاق زوجةً مشاكسة لِيكون قدوةً لنا ، ذاق أن يقال عن زوجته الأقاويل هذه لا تُحتَمل ، وصبر ، وانتظر تبرئة ا لها ، هناك أناس هجوه ، واستطالوا عليه بالهجاء من كفار مكّة فصبر عليهم ، وأنت يمكن أن تكون قُدوة وتأثيرك بعد أن تكون قدوة أضعاف تأثيرك إن لك تكن قدوةً لغيرك هؤلاء الذين أكرمهم ا وجعلهم دعاةً إليه هؤلاء يقتدي بهم السالك ويهتدي بهم الحيران ، ويشْفى بهم العليل ، ويستضاء بِنُور هدايتهم ونُصحهم ومعرفتهم في ظلمات دياج الطّبع والهوى ، هؤلاء الدعاة

إلى ا   الصادقين هم خلفاء الرسل حقا ، وهم أولو البصر واليقين فجمعوا بين البصر والبصيرة ، قال تعالى :

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ 

(سورة السجدة)

استنباطًا من هذه الحقيقة ، العلماء ثلاثة ؛ عالم استنار بِنُوره واستنار الناس به ، وهذا من خلفاء الرسل ، وعالم استنار بِنُوره ، ولم يستنر به أحد فهذا من العباد ، وغيره لا استنار بِنُور ، ولم يستنر به أحد فهذا من ضعفاء الناس ، فإما أن تستنير وتُنير ، وإما أن تستنير لِنَفسك   أما أن لا تستنير ولا تُنير ، فهذا عبء على الناس .

أيها الإخوة أرجو ا   سبحانه وتعالى أن يكون هذا الدرس مترجما لواقع ، فأنت بِقَدر ما أنت أخلاقي أنت مؤمن ، أما إذا تخليت عن أخلاقك بعدت عن الإيمان ، فحياة النفس حياة الأخلاق .

والحمد   رب العالمين

بسم ا   الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس التاسع والسبعين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ومنزلة اليوم منزلة الرغبة قال تعالى

إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾

(سورة القلم)

قال تعالى :

وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ

(سورة الأنبياء)

ما من منزلة من منازل مدارج السالكين إلا ولها أصلٌ في الكتاب الكريم ، أو سنّة النبي عليه أتم الصلاة وأتم التسليم ، فا   سبحانه وتعالى يقول :

وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ

(سورة الأنبياء)

ولا بد لنا من وقْفة عند هذه الآية ، من السهل أن ترجو رحمته دون أن تدفع الثمَن ، ومن السهل أيضا أن تقنط من رحمته ِلجَهلٍ مستحكم ولكن البطولة أن تعبدَه راجيا وخائفًا ، راغبا وراهبا ، رغبةً ورهبةً الوضع المتوازن يحتاج إلى بطولة ، أما التطرف فسهلٌ جدا أب بإمكانه أن يكون سهلاً فيَعصَر ، وبإمكانه أن يكون عنيفًا جدا ، كلا الحالتين سهلةٌ على الأب ، أما الأب الذي يرجو أولاده عطاءه ، ويخافون غضبه في الوقت نفسه هذا أب مرَب حكيم ، وبالمقابل المؤمن الصادق يعبد ا   رغبا ورهبا ، إذا عرف من رحمته لا يطمع بها فيَقصر ، وإذا عرف من عقابه لا يدفعه العقاب إلى أن ييأس ، أكمل موقف قاله سيدنا عمر : وا   لو علمتُ أن ا   معذب واحدا لَخفْتُ أن أكون أنا ، ولو علمتُ أن ا   راحما واحدا لرجَوتُ أن أكون أنا .

لكن العلماء فرقوا بين الرغبة والرجاء ، قالوا : الرجاء طمع والرغبة طلب ، طمع وطلب ، أو الرجاء ثمرةُ الطمع ، تطْمع فترغَب فإنه إذا رجا الشيء طلبه ، والرغبة من

الرجاء كالهرب من الخوف ، فمن رجا شيئًا طلبه ورغب فيه ، ومن خاف شيئًا هرب منه .

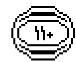
وهذا يقودنا إلى قانون ، قانون التعامل مع المحيط ، الإنسان في تعامله مع المحيط يسلُك القانون التالي ؛ يدرك فَيَنْفَعِلُ فَيَسلُك يتحرك أوضح مثلٍ : كنتَ في بستانٍ فرأيتَ أفعى انطبق شكلها على شبكية العين إحساس انتقلَتْ هذه الصورة إلى الدماغ ؛ إدراك ، يحكم المفهومات التي تعرفها في المدارس ومن خلال التعامل الاجتماعي أن فلاناً لَدَغَتْه الأفعى فمات، الأفعى سمها قاتل ، وهناك أفعى خطيرة جدا ، معلومات وصلَت إليك فكونَتْ مفاهيم ، فهذه الصورة حينما تنتقل إلى الدماغ تصبح مفهوما مدركًا ، الإدراك يحدث اضطراباً ، ما دامَتْ أفعى وهي قريبة منك ، وهناك خطر أن تلدغكَ فلا بد أن تضطرب ، علامة صحة الإدراك الاضطراب، وعلامة صحة الاضطراب السلوك ، إما أن تقتلها وإما أن تهرب منها ، إدراك انفعال سلوك ، فإن لم يصح الإدراك لا يكون انفعال ، وإن لم يكن هناك انفعال ليس هناك سلوك، مثلاً لو أن واحدا قال للآخر انتبه على كتفك عقرب ! وبقي هادئاً جدا ، ثم التفت إليه وابتسَم وقال له : أنا أشكرك على هذه الملاحظة ، وأرجو ا سبحانه وتعالى أن يمكنني أن أكافئك عليها!! هذا الموقف الهادئ جدا ، هل معنى ذلك أن الذي سمع كلمة عقرب فهمها ؟ لم يفهمها أبداً إدراك انفعال سلوك ، هذا هو القانون ، ومن ألطف ما في الأمر أن النبي عليه الصلاة والسلام قال :

الندمُ توبةٌ

(رواه أحمد عن عبد ا بن مغفل)

التوبة تحتاج إلى علم وإلى حال وإلى سلوك ، فالنبي اختصر بالندم وهو الحال ، شرح الحديث قالوا : هذا الحال يوجبه علم ، وينتُج عنه سلوك ، هذا الحال له سبب ، وله نتيجة ، سببه العلم، نتيجته السلوك فالراجي طالب ، والخائف هارب ، والدليل قوله تعالى :

فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا



(سورة الكهف)

علامة صدق الرجاء العمل ، ا عز وجل ربط الرجاء بالعمل فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل ، قال تعالى :

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

(سورة الإسراء)

أراد الآخرة وسعى لها سعيَها وهو مؤمن ، يعني بشكلٍ أو بآخر إن لم يترجم العلم إلى عمل فلا قيمة له ، إن لم يترجم الإيمان إلى سلوك فلا قيمة له ، إن لم يترجم التوحيد إلى تقوى لا قيمة له :

وعالم بعلمه لم يعملن مُعذب من قبل عباد الوثن

الراجي طالب ، والخائف هارب ، والرغبة هي الرجاء حقيقة الرجاء طمَع يحتاج إلى تحقيق ، طمع في مغيبٍ عنك مَشْكوك في تَحصيله وإن كان متحققًا بِذاته ، الجنّة متحققة بذاتها، ولكن القلق أن يسمحَ لي أن أدخلها أو أن لا أدخلها ، بالمناسبة الشيء بالشيء يُذْكر ، الإنسان أحيانًا يستمع إلى الأخبار يتوهم أن الإسلام انتهى ، الإسلام يواجه معركة مصير في كل مكان في العالم ، في شمال الأرض وجنوبها ، وفي شرقها وغربها أعداء المسلمين أقوياء وأشداء ، وقُساة ، ويرَون الإسلام عدوا لدودا ، لا تقلق على الإسلام إنّه دين الله ، والله بيَده كلّ شيء ، إن أراد شيئاً يقول له : كُن فيكون ، زلْ فيَزول ، أضرب لكم مثالاً ، في بعض الروافع الكهربائية في معامل الحديد ترفع عشرون أو ثلاثون طنا عن طريق الكهرباء ، وكلّكم يعلم أن الكهرباء تشكل مساحة مغناطيسية ، فإذا أحطْنا سطح الرافعة بِوَشيعة كهربائية يصبح فيها قوة جذب كبيرة جدا ، فقد تحمل هذه الرافعة عشرون طُنا ، ولا يستطيع أقوى الرجال أن يأخذ منها قطعة واحدة ، أما عامل هذه الرافعة لو ضَغَط الزر ربع ميلي لسقَطَ كلّ ما عليها قطَعَ الكهرباء، وانتهى المغناطيس، ووقع كلّ الحديد ، أقوى قوة في الأرض لو أراد الله عز وجل تدميرها لقال: كُن فيكون ، زل فيَزول ، قال تعالى : فجعلنا عاليَها سافلها .." أقرب مثل زلزال تركيا الأول ، والثاني كذلك زلزال كبير جدا ذهب ضحيته مئات القتلى وآلاف الجرحى وعشرات ألوف المشردين .

هم يبنون السدود لِيَمنعوا الماء عنا ، الخبراء قالوا لا بد من تفريغ السدود وإلا كانتْ الطامة الكبرى ، وأُفْرِغَت السدود وانتقلت المياه إلى أصحابها قهرا ، الله عز وجل قهار ، فالراجي طالب ، والخائف هارب والرغبة هي الرجاء بالحقيقة ، والرجاء طمع يحتاج إلى تحقيق، أي طمع في مغَيبٍ عن الراجي مَشكوك في تحصيله وإن كان متحققًا في ذاته كالجنّة هي متَحَققة ، ولكن القلق أن يسمح لنا بِدخولها أو أن لا يسمح .

النقْطة الدقيقة جدا ؛ متى تتولد الرغبة ؟ إنسان عنده محلّ ، وهذا المحلّ يعجبه ،

وعينه تقر به ، جاءه إنسان وقال له : اعمل مكتب استيراد تبيع زبوناً واحداً وتربح عشرة أضعاف ربحك الحالي ، تربح أرباحا طائلة ومكانتك ستصبح عالية ، لأنه لا علاقة لك بالتعامل اليومي مع الزبائن فصاحب المحلّ لما سمع هذا الكلام رغب أن يكون بائع جملة ومستورداً متى تولدَت الرغبة ؟ من الإدراك ، العلم ، وكذا الأمر في الدين إذ لا يمكن أن تتولّد لك رغبة في الدار الآخرة ولا في السعي إلى الجنّة ، ولا في طاعة ا إن لم تعلَم ، فالعلْم أساس ، وبالمقابل كما أنّه لا يمكن أن ينشأ لَديك خوفٌ حقيقي من مَعصيَة إلا إذا أدركْتَ ماذا تعني المعصيَة ؟ تعني حجابا عن ا عز وجل ، بل إن أشد عقابٍ يعاقب به الإنسان كما قال تعالى :

كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥

(سورة المطففين)

الحجاب ، فأنت تُطيع بِقَدر علْمك ، وتنتهي عن مناهي ا بِقَدر علمك ، فالعلم يوَلّد الرغبة في العمل ، والرغبة في الترك ، مثلاً إنسان يدَخن ، تقول له : يا أخي التدخين قد يسبب سرطاناً وأزمة قلبية ، جلْطة يسبب داء ، الموات ، تأتيه بالأدلّة القاطعة وبالبحوث العلمية الجامعة والحقائق الناصعَة ، ومع ذلك يدَخن ، أما حينما يصاب في قلبه ، أو بِجَلْطة في دمه ، أو بِوَرمٍ في صدره ، يدع الدخان فورا ، ولكن متى ودعه ؟ حينما يدرك خطر الدخان عن طريق المعايَنَة ، من هو العاقل ؟ هو الذي لا يحتاج أن يكون هو التجربة ، لا يتعظ بنَفسه بل بِغَيره ، لي صديق له خال دارس في جامعات غَربية ، وله منْصب رفيع ، وله مكانة كبيرة ولكنّه مدمن على الدخان ، اُصيب بِمَرض خبيث ، زاره صديقي في المستشفى ، فقال هكذا باستكبار : هذه السيجارة لها معي حساب طويل لقد سببَتْ لي ورما في الرئة ، وبعد أن اُشْفى من هذا المرض ، سأُحاسبها حسابا عسيرا ، لكن هذا المرض لم يمهلْه حتى يحاسبَها حسابا عسيرا قضى عليه ! قرأتُ بِكتاب عن الدخان أن إنسانًا مَشْهور جدا في الترويج لبعض أنواع الدخان وله قوام معَين ، ويلبس لباس راعي البقر ، إلخ ... هذا الإنسان مات في رَيعان الشباب بِسَرطان في الرئة بِسَبب الدخان وهو على فراش الموت قال هذه الكلمات : كنتُ أكذب عليكم ؛ الدخان قتَلني ، إذًا حينما يترسخُ العلم تُخْلقُ الرغبة في الطاعة ، أو الرغبة في ترك المعصيَة ، أوائلُ هذه الرغبة تتولد من العلم ، لذلك إن أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإن أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإن أردتهما معا فعليك بالعلم ، الخُطْوَة الأولى والأساسية والمهمة أن تعلَمَ ، العلْم حاجةٌ عليا في الإنسان ، حاجةٌ تليقُ بإنسانيته ، كل مَن طلبَ العلم أكدَ أنه إنسان ، ومن عزَفَ عن طلب العلم ألْغى إنْسانيته ، وحافظ على بَهيميته

.

كلكم يعلم أن في الإسلام مقامات ثلاث ؛ مقام الإسلام ، ومقام الإيمان ، ومقام الإحسان ، وبالمناسبة أنا لا أرغب أبدا أن أضيف مصطلحا لم يرِد لا في الكتاب ولا في السنّة ، لا أستخدم أي مصطلح ونحن مع المضامين ، ولسنا مع العناوين ، هذه المصطلحات مزقّت الأمة وهذه المصطلحات شقت صفوف الأمة ، مصطلحات كثيرة ، أنت مع الكتاب والسنّة ، مع ما جاء في القرآن ، ومع ما جاء من النبي العدنان صلى الله عليه وسلّم وهذا هو الإسلام ، مصطلحاً الإسلام أن تنْصاعَ لأمر الله ، والإيمان أن تقْبِلَ عليه ، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ، هذا مقام الإحسان ؛ أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ، تحقيق مقام الإحسان أن يفْنى الإنسان بحب الواحد الدَيان ، أن يفْنى بحبه وأن يخاف منه ، وأن يرجوَ رحمته ، وأن يتوكل عليه ، وأن يتبتلَ إليه ، وليس فوق ذلك المقام مقام ، مقام الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ، والله أيها الإخوة الإنسان إذا تعمق في الإيمان الحقائق تتضح له شامخةً صارخة ، يكاد المؤمن يعلم الغيب ، وهو لا يعلم الغيب ، وذلك لِمَعرفته بالقوانين ، الإنسان منْحرِف ولا بد من أن يؤدِبَه الله تعالى، وإنسان محسن ، لا بد من أن يكرمَه الله تعالى ، معرفته بالقوانين تعطيه نفسا في الفراسة الصحيحة .

الرغبة من لوازمها الرعايَة ، إن كنتَ راغبا في شيء عليك أن ترعاه ، إن اكْتَمَلَتْ الرغبة اكْتَمَلَ معها خُلُق الرعاية ، الرعاية الإيمانية العلْم كيف يراعى ؟ يحفظ ويعمَلُ به ، آفاتا العلم أن ينْسى وأن لا يعمَلَ به الآن إذا كان هناك رغبة صادقة لا بد من أن يتْبَعَ هذه الرغبة الصادقة عملٌ يؤكدها ، فَرِعايَةُ العلم بالحفْظ ، ورِعايَة العلم بالعمل .

هناك نقطة أتمنى أن تكون واضحةٌ لديكم ، إخواننا الكرام يحضرون دروس العلم كثيرا ، ويتأثرون ويخرجون بانطباع عن الدرس هذا الانطباع لا يلْبث أن ينسى ، فإذا كلّما حضرت الدرس ، ترك الدرس انْطباعاً ضبابياً ثم لا تلْبُث أن ينسى الدرس ، هنا مشكلة ، هذا العلم كيف يتراكم ؟ وكيف ينقلب إلى تعليم ؟ وكيف ينقلب إلى طلاقة لِسان ؟ وكيف ينقلب إلى دعوَة إلى الله عز وجل ؟ فالشيء الثابت أن الإنسان يطلب العلم ثم يعَلم ، يتلقى ثم يلْقي ، يأخذ ثم يعطي ، هل يعقل أن يعيش الإنسان طوال عمره في طلب العلم ؟ هذا كلام غير مقبول ، فما السبيل إلى أن أتذكّر ما سمعته ؟ هذا يحتاج إلى مذاكرة ، وأنا أنصح كلّ إخواننا أربعة أو خمسة يحَسب القرابة ، ويحَسب المسكن ، يحَسب الجِوار ، والزمالة بالعمل على مستوى أسرة داخلية ، إذا جلستَ مع أخيك ساعةً واحدة ، ومع بعض إخوانك الذين تجمعهم معك جامعة ، جامعة الجِوار ، أو جامعة العمل ، أو جامعة القرابة ، يتّفقون بعد انتهاء العمل يجلسون ويتذاكرون ، أنت بالنّهاية تطلب العلْم كي تُعَلم ، تتلقّى كي تُلقي ، وتأخذ كي تُعطي ، العطاء

يحتاج إلى تركيز ، لذلك الذاكرة تُدرب حاولْ أن تكتب أجمَلَ ما سمعت ، ثم حاول أن تحفظَ أجمَلَ ما كتبتَ ، وأنت عند أهلك طالب علم ، فأنت مظنة علْم ، ومظنة صلاح ، لك أب بعيد عن جو العلم ، ولك أخ ، ولك جار ، ولك صهر ، ولك ابن عم ، تُسأل أنت دائما ، وتُدعى إلى احتفال ، إلى عقْد قران ، إلى نُزهة ، إلى سهرة ، إلى وليمة ، إلى لقاء ، تبقى ساكتًا !! هذا غير معقول !! تطلب العلم كي تُعَلم ، من أجمل ما في الحياة أن تأخذ وان تعطي ، فإذا الإنسان حاوَلَ أن يكتب في البيت أجمَلَ ما سمع ويحفظ أجمل ما كتب ، بعد حينٍ تصبح له ذخيرة كبيرة جدا من المعلومات ، دفتر صغير ورقيق في الجيب ، سمع آية ، وطرب لِمَعناها سجلها ، سمعَ مرةً قوله تعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥ ﴾

(سورة النور)

الدين موصوف ، ما قال : وليمَكنَن لهم دينهم ولكن قال : الذي ارتضى لهم ، معنى ذلك أن الدين الذي يرتضيه ا لنا هو سبب تمكيننا في الأرض ، استنباط منطقي صرف فإن لم نُمَكن معنى ذلك أن الدين الذي نُمارسه لم يرتضه ا لنا ، لذلك لم يمَكنا في الأرض ، وهذا معنى لطيف جدا ، وهو يحلّ مشكلة كبيرة ، فهذه الآية تُكْتب على دفْتر ، ويشار إلى المعنى ، دفتر صغير ، سمعت معنى آية ، أو حديث ، أو حكْمَة ، حقيقة حكم فقهي ، هذه ذخيرة في جَيبك ، فإن أردت أن تحفظ فاكتُب ، وإن أردت أن تُلقي فسَجل ، إن أردت أن تعظ فدَقق ، فالعلْم آفته أن تنساه ، لو قال الواحد حدثنا سفيان بن عيينة عن فلان عن فلان عن فلان فساق ثلاثة وثلاثين راوِيَة والحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : من كان فيه خَصلتان دخل الجنة ، أما الأولى فقد نسيَها الراوي ، وأما الثانية فقد نسيتها أنا !! لم يبقَ شيء ، هذه مشكلة ، يأتي لِيَتكلم فلا يذْكُر شيئًا ، فقَيدوا العلْم بالكتابة .

قال : إذا اكتَمَلَتْ رغبَتُه اكْتَمَلَ مع رغْبته خُلقُ الرعاية ، يرعى العلم فيحفظُه ويعمل به، ويرعى العمل بالإحسان والإخلاص ، والإحسان هو الإتقان ، والإخلاص أن يكون خالصا تعالى ، يرعى العلم فيحفظُه ويعمل به ، ويرعى العمل بالإحسان والإخلاص .

ويحفظ العمل من مفْسداته ، مثلاً أعطى ثم من بعد عطائِه ، فالمن أذْهَبَ ثواب

عطائه، وقال العلماء مراتب العلم والعمل ثلاثة : رواية هي مجرد النقل وحملُ المروي ، ودرايَةٌ هي فهمه وتعَقلُ معناه ، ورعايةٌ هي العمل بموجِبِه ، ما علمه ، وبحَسب مقتضاه ، ما قولكم بهذا المثل ؛ أنت أمام خارطة لِقَصر ، الخارطة واضحة جدا ، وقد رسمها أكبر مهندس مساحات ، الطابق الأول والثاني والثالث ، غرف النوم ، وغرف الجلوس الشرفات الحدائق ، نسب الجدران ، كلّ التفاصيل في هذه الخارطة ، هذا نوع من العلم ، فالذي أعطاك هذه الخارطة أعطاكَ علما ، ولكن أنت ليس عندك بيت ، معك خارطة فقط ! أما هناك عالم يدلّك على طريق القصر كي تسلُكها ، وهناك عالم ثالث يدخلك إلى القصر لِتَسكنه ، فإنسان قدم لك خارطته ، وإنسان دلك على الطريق الموصل إليه ، وإنسان أعانك على أن تدخله ، وأن تسكنه وأن تستقر به ، وفرقٌ كبير بين أن تمتلك خارطة قصر وبين أن تملك قصر ، وبين أن تمتلكَ صورة سيارة وبين أن تملك السيارة فمراتب العلم ثلاثة : رِوايَةٌ ؛ حدثنا فلان عن فلان ، وهي مجرد النقل وحملُ المروي ، ودرايةٌ هي فهمه وتعقل معناه ، ورعايةٌ هي العمل بموجبه روايةٌ ودراية ورعاية ، تروي النص، وتفهم النص ، وتعمل بالنص لذلك قال ا عز وجل في معرض مديح المؤمنين ، قال :

﴿ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾

(سورة البقرة)

علماء التفسير فسروا حقّ تلاوته أن تنطق به صحيحا ، وأن تفْهمه وأن تعمل به .

قال : النقَلة همهم الرواية ، والعلماء همهم الدراية ، والعارفون با همهم الرعاَية ، واحد روى ، والثاني درى ، والثالث رعى ، وقد ذم ا عز وجل من لم يرعَ ما اختاره وابتدعه من الرهبانية حقّ رعايتها ، ما معنى قال ا تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾



(سورة آل عمران)

أي ارعَوا التقوى ، قال : حقّ التقوى أن تُطيعه فلا تعصيه ، أن تذكره فلا تنساه ، أن تشكره فلا تكفره ، قال تعالى :

وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ

(سورة الحديد)

هناك تعليق رائع : لأن ا ما كتبها عليهم ، لم يستطيعوا رعايتها من هو الخبير ؟ ا جلّ جلاله ، إذا سمَحَ ا لك بالزواج ، وحرمت أنت نفسكَ من الزواج زهدا وورعا ، أنت تحركْتَ حركة بخلاف فطْرتك التي فُطرت عليها ، لن تستطيع رعايَة هذا المسلكَ الذي ابتَدَعته ، أجمَل ما قيل في هذا المقام ؛ أشدكم خشيَةً عز وجل أنا ، أنام وأقوم ، أصوم وأفطر اتزوج النساء، آكل اللّحم ، هذه سنّتي ، فمن رغب عنها فليس من أمتي قال تعالى :

وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا

(سورة الحديد)

لأنهم ابتَدَعوها ولم تَرِد في منهجهم إذًا لن يستطيعوا رعايتها حقّ الرعاية ، ما كتبناها عليهم هم حينما كتَبوها على أنفسهم ادعَوا أنه ابتغاء رضوان ا ، ولأنها لم تُكْتَب عليهم لم يستطيعوا رعايتها ، فما رعَوها حقّ رعايتها .

في هذا المعنى الدقيق ، ا جلّ جلاله ذم من لم يرعَ قُربةً ابتَدَعها تعالى ، لم يرعها حقّ رعايتها ، فكيف بِمَن لم يرعَ قُربةً شرعها ا ؟ القُربة التي لم يشَرعها ا عاتب الذين ابتَدَعوها أنهم لم يرعَوها حق رعايتها ، فكيف بالذي لا يرعى عبادة شرعها ا عز وجل، وهي متوافقةٌ مع طبعه ، ومع طاقته وقدرته وإمكاناته .

الآن من أركان الرعاية رعايَة الأعمال وفْق النمَط الأوسط مع استصغارها والقيام بها من غير نظرٍ إليها ، ثلاث صفات ؛ رعايَة الأعمال أن تأخذ الوضع المعتدل منها ، فالإفراط تطرف ، والتفريط تطرف ، وأن تُلقي بنفسكَ إلى التهلكة تهور ، وأن تجمد عن ملاقاة العدو جبن، والوضع الوسَطي أن تكون شجاعا بتَعَقل ، أن تمسكَ المال بخلاً ، وأن تُلقَيه جزافًا إسرافًا ، أما الوضع الوسطي كما قال تعالى :

وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

أول شيء رعاية الأعمال وفْق النمَط الأوسَط ، وقالوا الفضيلة وسَطٌ بين طرفين ، مع استصغارها والقيام بها من غير نظرٍ إليها ، الإنسان إذا راى عمله كبيرا حجَبَه عن ا عز وجل ، لو كان لك عملٌ كالجبال يجب أن ترى أن ا تفضل به عليك ، ولولا أن ا عز وجل تفضل به عليك لأخذْت ولم تُعط ، مرةً أخ طابَ مني أن يشتغل اتصَلْتُ بإنسان عنده معمل ، أخٌ كريم وأنا أحسن الظن به ، فاعتذَر اعتذارا لم أقْبلْه ، وهو ذكي جدا ، قلتُ له : وا الذي لا إله إلا هو مع أنك ذكي جدا ا عز وجل قادر أن يجعلكَ تقف في صفٍّ طويل عند جمعية خيرية لتأخذ خمس مائة ليرة وتُوَقع !! فأنت إذا أعطيت هذا من فضل ا عليك ، الذي يعطي يجب أن لا يرى أنّه يعطي ، يجب أن يرى أن ا تفضلَ عليه ومكنَه من أن يعطي ، والذي يتكلّم ويلقي درساً يجب أن يشعر أن ا تفضل عليه أن جَعَلَ قُلوب المؤمنين تهفو إليه ، ولو انْصرفوا عنه من يستمع إليه ، أنا أرى أن الذي يأخذ منك المال له فضلٌ عليك ، ولو رفضَ حرمَكَ هذا العمل والذي يأخذ منك العلم له فضلٌ عليك لأنه لو انصرفَ عنك تُلقي الدرس على مَن ؟ العبرة أن لا ترى لك عملاً ، أن لا تزهوَ به ، أن لا يكون العمل حجابا بينك وبين ا .

أن لا ترى هذا العمل ، وأن تستصغرَه ، إذا إنسان أسدَى إليك معروفًا يجب أن تستكبره ، وأن لا تنْساه مدى الحياة وأنت إن قدمت لإنسانٍ معروفًا يجب أن تستصغرَه وأن تنْساه، وهناك أناس بالعكس ، إذا عملَ معه أعمال كالجبال ينْساها ، وإذا قدم لإنسان شيئاً بسيطاً لا يزال يمن به عليه حتى يخرج من جِلْده ، يقول له : لحم كتفك من خيري ! كلام فيه حمقٌ وتَطاول ، وسوء أدبٍ مع ا ويقول لك : أنا معيل !! أنت معال ولستَ معيل ، المعيل هو ا ، يقول الإمام الشافعي : لو أن السماء من رصاص ، والأرض من نُحاس ، والخلقُ كلّهم عيالي ما حملْتُ هما ، لأن ا هو الرزاق ذو القوة المتين .

وقد قيل علامة رضاء ا عنك : إعراضك عن نفسك ، وعلامة قبول عملك احتقاره واستقلاله وصغَره في قلبك ، ما قولكم بِعَمل النبي عليه الصلاة والسلام ؟ الإسلام الآن مليار ومائتا مليون إنسان !!!! في مشارق الأرض ومغاربها ، أينما ذهبت ؛ في أمريكا هناك ثلاثة آلاف مسجد وبفرنسا هناك ألف مسجد ، بأمريكا هناك عشرة ملايين مسلم ، بفرنسا الإسلام هو الدين الثاني ، أينما ذهبت تجد منارات إسلامية ، مَن نشَرَ هذا الحق ؟ في صحيفة من نحن؟ سيدنا رسول ا صلى ا عليه وسلّم ومع ذلك استَمع إلى قوله : جهد المقلّ! فالتواضع أمر أساسي بالإيمان ، ومن علامة إعراضك عن نفسك ، وعلامة قبول عملك احتقاره واستقلاله وصغَره في قلبك .

لماذا تستغفر ا عقبَ الصلاة ؟! أول ما تنتهي الصلاة تقول : أستغفر ا العظيم

الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ، لماذا ؟ أنت كنتَ في عبادة ، وكنت قائما تصلّي ، علمَنا النبي عليه الصلاة والسلام وأنت في عبادة راقيَة يجب أن تستغفر وأن تشكر ا عز وجل أن قواك على هذه العبادة ، وإن كان هناك تقصير فيها لا بد أن تستغفر .

هناك شيء طريف سأقوله لكم ، سمعتُه مرةً من طبيب فتأثرتُ قال : هناك حب نفسي، وحب عقلي ، وهناك بغض نفسي ، وبغض عقلي الإنسان أحيانا بالشتاء يجد فاكهة حامضة لا يحبها ، أما إن قالوا له أن هذه الفاكهة تُذيب الكولسترول ، وتذيب الشحوم ، ولها أثر كبير جدا ، وفيها فيتامينات ، ومعادن ، هو لا يحبها ، ولكن يقَدر ما سمعَ عن فوائدها فصار يشربها ويأكلها، هذا نُسَميه حب عقلي ، أحيانا تكون أمامك أكلة من أطيَب الأكلات لكن لا تُناسبك ، تبغضها لأنك لا تحبها بل لأنّها تؤذيك ، فالإنسان كلّما ارتقى مستواه لا يتعامل مع الحب النفسي ، والبغض النفسي ، يتعامل مع الحب العقلي ، والبغض العقلي ، إذًا في النهاية ينبغي أن نتعامل مع أنفسنا بالحب والبغض العقلي لا بالحب والبغض النفسي الحب العقلي أن تطبق منهج ا عز وجل ، ولا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئتُ به ، كلما ارتَقَيت تصبح ميولك وفق منهج ا عز وجل .

اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علّمتنا ، وزدنا علما .

والحمد رب العالمين

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، لازلنا في مدارج السالكين ، مع الدرس الثمانين من هذه الدروس، والمدرج اليوم منزلةُ الهمة .

أيها الإخوة الكرام ، النوع البشري شيء عظيم ، لو نظرتَ إلى طبق من البيض ، التفاوت بين حبات البيض تفاوتٌ بسيط ، لا يزيد على بضع غرامات ، ولكن في عالم البشر قد تجِد إنسانًا يقَليه الكبير ، وهمته العلية وأهدافه النبيلة كالجبل ، وتجِد إنسانًا آخر ، لِضعف همته ولسخْف مطليه كأنّه ذُبابة ، النوع البشري نوع مكرم ، أُعطي الإنسان طاقات هائلة فالإنسان الذي يستخدم هذه الطاقات الهائلة في معالي الأمور ، سيكون عظيما من عظماء البشَر ، وإن كان معه رسالة فهو نبي كريم ، أو رسول عظيم وهناك من لا يستخدم هذه الطاقات فيتحملُ من أجلها الحسرات إلى أبد الآبدين ، وهناك من يستخدم هذه الطاقات في الشر فهم المجرمون والطّغاة ، النوع البشري نَوع محير ! من إنسانٍ يكْبر ولا ترى كبره فيتضاءلُ أمامه كلّ كبير ، إلى إنسان يصغُر ولا ترى صغَره ، فيتعاظَم عليه كلّ حقير ، العامل المؤثّر في هذا الموضوع هو الهمة ، لو سألْت إنسانًا ضعيف الهمة ، ما هدفُك ؟ أن يأكلَ وأن يشْرب !! أن يسكُن في بيت وأن يتزوج امرأة ، فإذا حقّق هذه المطالب تنتهي كل أهدافه ، أما النبي عليه الصلاة والسلام همه هدايةُ الخلق، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام : لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلاً ...." فا عز وجل لا ينظر إلى شكلك ، ولا إلى صورتك ، ولكن إلى همك وهمتك إنسان جد همه أن يأكل ، ويستمتع بالحياة ، همه أن يعيشَ وحيدا مرتاحا من كلّ هم ، لكن هناك من همه هداية الخَلْق ، فأنت تكْبر عند ا يقَدر ما تحملُ من هموم المسلمين ، والإنسان كما قلتُ قبل قليل طاقات كبيرة جدا فقد تجد إنسانًا ترك آثارا علْمية مذْهلة ، وعاشَ عمرا محدودا كأي عمر ترك مائتي مؤلّف ، هناك علماء كبار يعدون من المجددين في الدين ، يعني فكره وكتُبه على كل لِسانٍ ، بعد ألف عامٍ ، وفي كلّ قُطرٍ من أقطار المسلمين ، ما هذه الهمة التي كان ينْطوي عليها يوم كان حيا يرزق ، على كل الإنسان يصلَ إلى أعلى عليين إذا استغل هذه الطاقات التي أودعها ا فيه ، فعلى مستوى الدنيا ، الإنسان شاب في الأربعينات ، ثروته تزيد عن تسعين مليار دولار، صاحب مايكروسوفت ، شاب بالأربعينات ، هل حصل هذه الثروة جزافًا ؟ لا ، همته في تَحصيل المال مذْهلة ، وإنسان آخر ترك خمسين مليونًا قتيلاً مثل هتلر ، في الحرب العالمية الثانية وحش وطاغية وجبار ، فالإنسان والنوع البشري عجيب ، هناك طاقات كبيرة جدا ، وليس

هناك حلّ وسط إذا صعدت بهذه الطاقات فتكون أعلى من كلّ ملَك كما قال الإمام علي كرم ا وجهه : ركب الملَك من عقْلٍ ولا شهوة ، وركب الحيوان من شَهوة ولا عقْل ، وركب الإنسان من كلَيهما فإن سما عقله على شهوته كان فوق الملائكة ، وإن سمت شهوته على عقله كان دون الحيوان .

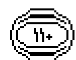
ما الذي يهمك ؟ وما الذي يقلقك ؟ ما الذي تصبو إليه ؟ ما الذي ترجوه ؟ تعيشُ مع من؟ وتعيشُ لِمن ؟ تُرضي من ؟ وتُغْضب من ؟ تنفقُ على من ؟ تَصلُ من ؟ تَقْطَع من ؟ من أنت؟ قلْ لي ما الذي يغضبك أقول لك من أنت ؟ قل لي ما الذي يرضيك أقلْ لك من أنت ؟ قلْ لي ما مقياس الفوز عندك أقل لك من أنت ؟ قلْ لي إلى ما تسعى أقُل لك من أنت ؟ ما الذي يحزِنُك أقل لك من أنت ؟ أي شخْصٍ ترنو إليه أقُلْ لك من أنت ؟ فالمسافات كبيرة جدا ، والإنسان مخلوق ، ومجبول ، لِيكون أعلى المخلوقات ، قال تعالى :

﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾

(سورة الإسراء)

لتصل إلى ا وسائل هي في متناول يديك ، شرع ا واضح لديك الحلال بين والحرام بين ، بمجرد أن تَدع الحرام ، وأن تقبلَ على الحلال فقد ارتقيت عند ا عز وجل ، لا يزال ابن آدم يتقرب إلي بالنوافل حتى ُأحبه ، بالنوافل ، بصلاة النافلة ، بصدقة النافلة ، بِطَلَبِ العلْم ، وخدمة أخٍ مؤمن بتَربية ولد ، بدعوة إلى ا تعالى ، إذا أحببتُه كُنْتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطشُ بها ، ورجله التي يمشي بها ولِئِن سألني لأعطينّه ، ولِئِن دعاني لأجيبه ، فأن تكون عند ا محبوبا شيء في متناول يدك ، هناك ملوك بيدهم شُؤون كلّ المملكة ، ولكن لن تستطيع أن تصلَ إليه ، هو بيده كلّ شيء ، يملك مال مملكته ، يملك كلّ شيء فيها ، ولكن لا سبيل إلى أن تصلَ إليه ، لكن ملك الملوك قال :

فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا



(سورة الكهف)

اعمل عملاً صالحا لا تبتغي به إلا وجه ا تعالى ، أقْرِض ا قرضا حسنًا ، أي

إنسان، أي مخلوق ، أي نبات ، هو مخلوقٌ عز وجل إذا اعتَنَيت بِنبات سقَيتَه ماء ، إذا اعتنيتَ بِهرة عمل صالح ، تعرف قصة المرأة التي غفر ا لها سقَتْ كلبا في الصحراء ، طريق الوصول إلى ا بين يديك ، كلّ هؤلاء الذين هم أمامك مخلوقات عز وجل فإن أحببتَ ا أحببتَ مخاوقاته فكُنْتَ بهم رحيما ، وكنت بهم رؤوفًا ، كنت لهم منصفًا ، أعنْتَهم على شؤون دينهم ، الإنسان التافه هو الذي يعيشُ لِشَهوته ، تافه لا قيمة له ، قال تعالى :

سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ

وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

وقال تعالى :

فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا

نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾

(سورة الكهف)

قال تعالى :

كَأَنَّهُمۡ

خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ

(سورة المنافقون)

قال تعالى :

كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ﴿٥٠﴾ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ﴿٥١﴾

(سورة المدثر)

قال تعالى :

إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ

أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

(سورة الفرقان)

قال تعالى :

فَمَثَلُهُۥ

كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ

(سورة الأعراف)

قال تعالى :

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ

(سورة الجمعة)

فالقضية مصيرية ، والقضية خطيرة ، أنت المخلوق الأول ، أنت المخلوق المكرم ، وأنت المخلوق المكلّف ، تجد إنسانًا همه شيء تافه جدا همه مركبة أحيانًا ، وهمه بيت ، وهمه زوجة ، ولا يريد فوق ذلك شيئًا علُو الهمة من الإيمان ، سيدنا عمر رضي ا عنه ماذا أراد ؟ أراد أن يقيم الحقّ في الأرض ، سيدنا الصديق ؛ هذا الإنسان اللطيف الناعم الرقيق النحيل ، جيشَ جيشًا بعد حروب الردة ، وفتَح به بلاد المسلمين ، وقال : وا لو منعوني عقال بعيرٍ كانوا يؤدونه لِرسول ا صلى ا عليه وسلّم لقاتلْتُهم عليه ، همة عالية ، وهذا سيدنا عثمان أنفقَ ماله كلّه ، جيشَ جيشًا بأكمله ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما ضر ما فعل عثمان بعد اليوم إذا قرأنا تاريخ الصحابة ، وا نجد أنفسنا لا شيء أبدا ، مرة ركبت من المدينة إلى مكّة بسيارة ، طريق طويل ، أربع مائة وخمسين كيلو متر والمركبة تسير على المائة والثمانين ومكيفة ، كيف قَطَع النبي هذا الطريق على ناقة ، هل هناك ناقة مكيفة ؟! لا ، فكيف قَطَع الطريق على ناقة وكان مطاردا ؟ وكان مهدورا دمه ، وقد وضعت مئة ناقة لِمن يأتي به حيا أو ميتًا ، وكيف تبعه سراقة؟ وقال : يا سراقة كيف بِك إذا لبست سواري كسرى ؟! إنسان ملاحقٌ ومهدور دمه يدفع لمن يقتله مئة ناقة ، يقول لِسراقة : يا سراقة كيف بِك إذا لبست سواري كسرى ؟! معنى ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام كان موقنًا أنّه سيصلُ إلى المدينة ، وسينشأُ دولةً هناك ، وسيحارب الفرس ، وسوف تأتي الغنائم إلى المدينة ، وهذا الذي حصلَ بعد موت النبي عليه الصلاة والسلام جاءت الغنائم إلى المدينة فلم ير الرجلان بعضيهما ، وقد رفعا رمحيهما من ارتفاع كتلة الغنائم ، فسيدنا عمر قال : وا إن الذي أدى هذا لأمين ، جواهر وتيجان وحلي ، فقال سيدنا علي كرم ا وجهه : يا أمير المؤمنين أعجبت من أمانتهم؟ لقد عففْتَ فعفوا ، ولو رتعت لرتعوا ، أُناس عظماء قال له : قلْ لي من الذي مات في نهونْد ؟ فقال الرسول : ماتَ خلق كثير لا تعرفهم ، فبكى سيدنا

عمر وقال : ما ضرني أن لا أعرفهم إذا كان ا يعرفهم ؟

أن يكون لك عمل عظيم لا يعرفه أحد تبتغي به وجه ا تعالى وكخدمة للخلْق ، تركْت بصمات في المجتمع ، وتركْت أثرا ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

(سورة النحل)

كان أمة ، يعني هو في قلب أمة ، فأنت يقلب كم من واحد ؟ هل تركْت بصمات في المجتمع ؟ هل تركْت علما ؟ أو ولدا صالحا ؟ أو مؤلّفات ؟ تركْت مؤسسة خيرية ؟ أو دعوة إلى ا تعالى ناصعة واضحةٌ بينة ؟ الإنسان إذا انتقلَ إلى رحمة ا تعالى ، ماذا يقول الناس عنه ؟ إذا كان ترك الدنيا فقط لا يقال ولا كلمة ، ا يرحمه ، فقد كان بيته جميلاً رائعاً !! هذا كلام لا يقال ، أو لقد كان عنده ثلاث سيارات أحدها للسفر والثانية للبلد ، والأخيرة للنقل !! هذا كلام لا يقال ، ولكن يقال : انتفَع الناس بعلْمه ، أو عملَ عملاً عظيما . هذا موضوع خطير ، منزلة الهمة منزلةٌ من منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والهمة فعلَةٌ من الهم ، وهو مبدأ الإرادة ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ ﴾

(سورة يوسف)

الهم مبدأ الإرادة ، الانبعاث ، الإنسان ما الذي يبعثُه ؟ خُذْ ألْف إنسانٍ نائمٍ على فراشٍ وثير ، في أيام الشتاء الباردة ، والفراش دافئ ونام قبل ساعتَين ، وقد أذن لِصلاة الفجر المؤذن ، فصاحب الهمة العالية يتجافى جنبه عن المضاجع ، وينطلقُ إلى ا لِيصلّي ، وصاحب الهمة القليلة يبقى نائما ، صاحب الهمة العلية ينفقُ ماله ابتغاء مرضاة ا وصاحب الهمة القليلة ينفق ماله على نفسه مستمتعا به ، والحقيقة أن الهمة هي المحرك والهمة لها علاقة بالمعرفة . مرة كنا في جلسة فقُدمت حلويات فاخرة جدا ، هناك طبيب قلب ما أكلَ ، فيها قشطة فهو من شدة ما يرى من انسداد الشرايين عند مرضاه كلّ يوم ، وهو يعلم أن هذه المادة الدسمة هي التي تسُد هذه الشرايين ، كرِهها كراهية علمية ، فهي طيبة جدا لكن كرهها ، تجد إنسانًا يجري في أيام البرد ، في أيام المطر ، والناس جميعا في بيوتهم جالسون ، عنده قناعات قناعاته العالية أعطَتْه هذه الهمة هناك طالب يدرس حتى الثانية فجرا ، في همته أن يكون طبيبا لامعا وهو في الشهادة الثانوية ، وتحتاج كلية الطب إلى علامات عالية ، لذلك يعزفُ عن لقاء مع صديق ، عن نزهة ، عن سهرة مع أهله ، عن وليمة عن خروجٍ من

البيت ، يعكف على الكتاب ، لأن هدفه كبير ، فهمته عالية كلّما كبر الهدف تعلو الهمة ، وكلّما اشتْد العلم تعلو الهمة ، فالهمة متعلّقة بالعلم ، ومتعلّقة بعظم الهدف ، أحيانًا تجد إنسانًا بالستين أو السبعين ، لا رغبةَ له في تأسيس مشروعٍ ضخم ، لأن لا همة له ، أما الشاب في أول حياته تجده يندفع إلى تأسيس أي مشروع ، عنده آمال كبيرة ، هذا في الدنيا أما في الآخرة ، إذا الإنسان تطلّع إلى الآخرة تعلُو همته ، ويزداد شَوقُه ، ويبذلُ الغالي والرخيص ، والنّفْس والنفيس ، بين العامة مقولةٌ يقولونها دائما ، أن قيمة كلّ امرئ ما يحسن ، وهناك مقولةٌ أصح من هذه المقولة ، قيمة كلّ امرئ ما يطلب ، فما الذي تطلبه أنت ؟ أحدهم وقفَ على باب ملك ، طلب قلم رصاص ثمنه نصف ليرة كم هو ضعيفُ الهمة ؟ ما دمتَ وقفْت على باب ملك فاطْلُب سيارة أو بيتًا أُطْلُب منصبا رفيعا فا عز وجل خلقَنا لِيسعدنا ، فإذا رآنا نختار الدنيا يعاتبنا ، قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

قال تعالى :

﴿ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾

(سورة النساء)

معظم الناس ، يتجه إلى المباحات ، يعتني بها إلى أقصى درجة فجأةً تأتيه المنية في أوج نشْوته ، يغادر الدنيا وهو حريص على البقاء فيها حدثني أخٌ يعمل بأمريكا بالطب ، قال لي : كلّما وجدتُ مريضا على وشك الموت ، يعاني من انهيار أعصاب ، أحيانًا يصيح ، وأخرى يشتم وأحيانًا يقول : أُعطيك كلّ ما تريد اشْفني ، لأنّه وضع البيض كلّه في سلّة واحدة ، الإنسان العاقل يوزع أهدافه بين الدنيا والآخرة ، أما الذي وضع كلّ أهدافه في الدنيا ثم اكْتشفَ فجأةً أن الدنيا زائلة فقد خسر خسراناً مبيناً وا تأتي ساعات على من يفارقُ الدنيا ينسى فيها كلّ اللّذائذ التي في الدنيا يقول : لم أر خيرا قطّ !

قيمة العبد إذا تعلقَت بالحقّ تعالى طلبا صادقًا محضا ، فتلْك هي الهمة العالية ، فأي همة تعلّقت في الدنيا فهي همة دنية ، وأي همة تعلقَتْ بالحق تعالى فهي همة علية ، ومن

شَغَلَه ذكْري عن مسألتي أعطيتُه فوق ما أُعطي السائلين ، أنت همتُك تتجه إلى من ؟ إن كانت همتُك تتجه إلى الحقّ جلّ جلاله فأنت من عظماء البشَر ، سموت عن الضعف البشري ، فالأنبياء هم بشر في الأساس ، لكنّهم لأنّهم تَجري عليهم كلّ خصائص البشر كانوا سادة البشَر ، هم قمم لأنّهم بشر ، انتَصروا على ضعفهم البشري ، أما إذا الإنسان خضع لضعفه البشري أصبح تافها ، لكلّ عصرٍ هناك للبيئة معالم الخطّ العريض للمجتمع ، دهماء الناس ، وسوقتهم يستجيبون لهذه البيئة يقول لك : أنا مع الناس ، إن أحسنوا أحسنْت ، وإن أساؤوا أسأْت والناس يقلد بعضهم بعضا ، فالخطّ العريض في المجتمع ، والأكثرية مقلّدة قال عليه الصلاة والسلام : لا يكن أحدكم إمعة........" أما الأبطال فلا يتأثّرون بالبيئة ، ولا يستجيبون لِضغْط البيئة ، بل هم يؤثرون في البيئة يحدثون تغْييراً جِذرياً في المجتمع ، هؤلاء الذين تركوا بصمات كما يقولون فقال : همة العبد إذا تعلقَت بالحقّ تعالى طلبا صادقًا خالصا محضا فَتلْك هي الهمة العالية التي لا يقْدر معها على المهلة ، ولا يتمالك صبره ، لِغَلَبة سلطانه عليه ، وشدة إلزامها إياه لِطلَابِ المقصود ، ولا يلتفتُ عنها إلى ما سوى أحكامها وصاحب هذه الهمة سريع وصوله ، وظفره بمطلبه ، ما لم تُعقْه العوائق ، أو تقطعه العلائق ، أو تصرفْه الصوارف ، والإنسان يلاحظ نفسه حينما يستيقظ صباحا أول خاطر يأتي إليه ، هناك أشخاص وهم على فراش الموت يسألون عن أشياء دنيوية ، يقول : هل وصلَتْ البضاعة ؟! هل خلُصتْ ؟! هل صببتُم السقف ؟! أما سيدنا عمر بعد أن طُعن ، وكان يصلّي بالمسلمين الفجر ، أول ما فعله بعد أن صحا قال : هل صلّى المسلمون الفجر ؟ انظروا إلى همته ، همته في الاتّصال بالله عز وجل سيدنا عمر كان في المدينة ، ومعه سيدنا ابن عوف ، وجدا قافلةً قد استقرت في ظاهر المدينة، فقال : تعالى نحرس هذه القافلة ، عملٌ صالح لِوجه الله ، وهو خليفة المسلمين ، يبدو أن طفلاً بكى ، فقام عمر إلى أُمه وقال : أرضعيه ، فلما بكى ثانيةً قال : أرضعيه ، فلما بكى ثالثةً ويبدو أنّه غضب ، فقال : ألا ترضعينَه ؟ فقالَتْ : ما شأنُك بنا ؟ قالَت : إنني أفْطمه قال : ولِم تُفطميه؟ قالت : لأن عمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام ، يقال أن هذا الخليفة العظيم ضرب جبهته وقال : ويحك يا عمر ، كم قتَلْت من أطفال المسلمين ؟! وصلّى صلاة الفجر ، فلم يستمع أصحابه إلى قراءته من شدة خُشوعه وبكائِه ، وكان يدعو ويقول: يا رب ، هل قبلْت توبتي فأهنئ نفسي أم رددتها فأُعزيها ، خوفه من الله ، وهمته في رعاية رعيته وإكرامهم ، هو اجتهد أن يعطي العطاء بعد الفطام ، يعني التعويض العائلي لكن ما كان يخْطُر في باله أنه حينما أمر أن يعطَى العطَاء بعد الفطام هناك أُم تفْطم ابنها قصرا ، ثم أمر أن يعطي العطاء بعد الولادة .

أولُ ملامح هذه الهمة العالية هي صون القلب عن وحشَة الرغبة في الفاني لا يرتاح من الدنيا ، له من الدنيا ما يقيم أوده ، ويستر عورتَه ، هو يلبي رغْبتَه المشروعة ، أما

التوسع ، البذخ ، الترف ، الإسراف ، العلو في الأرض ، هذا ليس من همة المؤمن ، قال تعالى :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة القصص)

يأكلُ ليعيش ، يستر جسمه كما أمره الله عز وجل ، يتزوج وفْق سنة النبي صلى الله عليه وسلّم ، يأكل ، ويشرب ، ويلبس من دون إسراف ولا مخْيلَة ، هذا هو شأن المؤمن ، أما الإسراف ، الترف ، التبذير الظهور بمظهر كبير جدا ، هذا ليس من شأن المؤمن ، أول نبضات هذه الهمة أن قلْب صاحبِ هذه الهمة يستوحش من الدنيا الفانية ، ويتعلّق بالباقية المؤمن وهو في المسجد كالسمكة في الماء ، المنافق كالعصفور في القفص وإن كان اسم العصفور لا يليق به ، أو كالجرذ في المصيدة ، منافق ضعه في مكان ، في سوق فيه نساء حسناوات غاديات ينْتعش قلبه هناك أما إن أتَيتَ به إلى المسجد يتضايق ، هو يحب المناظر ، ويحب الناس ، كثير من المؤمنين أسمع عنهم إذا أقاموا نزهةً بمكانٍ جميلٍ مع أهلهم ، الطرف الآخر ينتقدونهم ، ما هذه النزهة ؟! النزهة في نظرهم أن يقْعدوا بمقهى مزدحم ، والأغاني تصدع ، وصوت الطاولات ، والنرد ، والنّساء كاسيات عاريات ، وغناء عالٍ ، وازدحام ، هناك يجد السرور ، أما المؤمن يجد السرور بمكانٍ جميلٍ بعيد عن الناس ، يوحد ربه ويدعو ربه ، فالهمة العالية أن من لوازمها أن القلب يستوحش الدنيا ، ويأْنس بالحق ، الإنسان يسافر أحيانا ، فإذا به من جامعٍ إلى جامعٍ ، يعيش في جنّة ، ويسافر إنسان آخر فتَجِده من ملهى إلى ملهى .

مرة كنتُ بدرسٍ في الطاوسية فجاء أخٌ من الخليج حضر الدرس وأراد أشرطة ، وكُتباً ، فقال لي : الْتَقيت بالعالم الفلاني ، والجامع الفلاني وحضرت درسا لفلان ، وحضر عندنا وحضر الدروس ، فهو جاء من بلد إلى بلد ليبحث عن العلماء ، والدعاة إلى الله ، وهناك إنسان يبحث ببعض الأحياء ، هناك أحياء بالشام لا ترضي الله عز وجل يذهب ، يقول لسائق السيارة خُذني إليها مباشرة ، فالهمة العالية تستوحشُ من الدنيا الفانية والفانية هي الدنيا وما عليها ، فالقلب قلب صاحب الهمة العالية يزهد فيها وفي أهلها ، إليك عنّي يا دنيا فقد طلّقْتُك بالثلاث كما قال سيدنا علي شأنك خطير ، أمدك قصير ، غُري غيري ، وأما الراغبون فيها فأرواحهم وقلوبهم في وحشة من أجسامهم ، إذْ فاتها ما خُلقَت له فهي في وحشة لفواته فرق كبير بين زاهد في الدنيا ، وبين متعلّق بها ، الزاهدون في الدنيا يرونها موحشةً

لهم لأنّها تحول بينهم وبين مطلوبهم ومحبوبهم .

أحيانًا اخوة كرام يجلسون في مجلسٍ ، في بيت ، يدور حديثٌ عن ا عز وجل ، عن الآخرة ، وعن كمال ا ، وعن كمال الأنبياء ، يقول لك وهو صادق : كُنا في جنة ، وقد تكون الغرفة متواضعة جدا ، جلسوا على الأرض ، وقُدمت لهم ضيافة بسيطة جدا ، يقول لك : كنا في جنّة وأحيانًا تكون في مكانٍ جميلٍ جدا ، وفخْمٍ جدا ، ولكن لا سرور ، هذه السكينة يلقيها ربنا على من يشاء من عباده ، الزاهدون في الدنيا ينظرون إليها بالبصائر ، والراغبون فيها ينظرون إليها بالأبصار ، الراغب يراها بعينه ، هناك مركبة جميلة جدا ، وهناك امرأة جميلة ، وهناك بيت جميل وقصر جميل ، أما المؤمن فهو يرى بالبصيرة ، يرى أنّها فانية ، لا بد من أن يدعها إلى جنّة عرضها السماوات والأرض ، طالبته زوجته بشيء من الدنيا فقال : وا إن في الجنّة من الحور العين ما لو أطلتْ إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشّمس والقمر، فلأن ُأضحي بكِ من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلك .

فصاحب الهمة العالية تحملُه همته على الرغبة في الدار الباقية لا في الدار الفانية ، وبالمناسبة المؤمن الصادق هدفه ا عز وجل ، همته العالية تقتضي أن أي شيء يقربه من ا عز وجل يتعلّق به ، وأي شيء يبعده عن ا ينقطع عنه ، صديق مؤمن ، وحديثه عن ا ، يتعلّق به يزوره ، ويحرص على صحبته ، وصديقٌ آخر دنْيوي ، كلّ حديثه عن الدنيا ، والطّعام والشراب والنّساء ، يبتعد عنه المسجد يأوي إليه والأسواق ينفر منها ، فكُلّ شيء يقربك من ا تتمسك به ، وكلّ شيء يبعدك عن ا تعالى تبتعد عنه .

تكاد تكون الهمة محرك ، والمركبة بلا محرك ولو أنّها جميلة ولونها زاه ، وفَخْمة في مقاعدها ، ولكن من دون محرك لا قيمة لها فالمحرك أساس المركبة ، وأنت في الطريق إلى ا عز وجل أهم شيء في حياتك هذه الطاقة المحركة ، وهذه الهمة العلية ، ولا تَنْسوا المقولة الثابتَة التي وردت في الأثر علُو الهمة من الإيمان ، كلّما ازداد إيمانك علَتْ همتك ، يصبح همك طلب العلم ، هناك بالإنسان حاجات عليا ، وحاجات دنيا ، صاحب الهمة العلية تستيقظُ عنده الحاجات العليا ، طلب العلم يأتي في رأس هذه الحاجات العليا ، وصاحب الهمة الدنية حاجاته دنيا ، حاجاته كما ورد تعس عبد الدرهم والدينا ، تعس عبد البطن ، تعس عبد البطْن تعس عبد الخميصة ، الذي يعتني بثيابه إلى درجة أنّه يكره أن يصلّي للحفاظ على اناقة ثيابه مثلاً ، هذا عبد للخميصة ، والذي همه الطعام والشراب ، وهمه النّساء ، وهمه الدرهم والدينار ، هؤلاء عبيد ، من هم الأحرار ؟ الذين همهم ا عز وجل ، كان عليه الصلاة والسلام تعظُم عنده النّعمة مهما دقتْ ، لأنّه يعظّم المنعم ، لكن لم يكن يغضب للدنيا أبدا سيدنا الصديق لم يندْم على شيء فاتَه من الدنيا قطّ .

صاحب الهمة العالية يأنَفُ أن ينْزلَ من مقامه العالي إلى مقام أهل الدنيا ، فهو ليس

متكبرا ، ولكن في مستوى رفيع ، أضرب لكم مثلاً ؛ لو أن طالبا حصل علْما من أعلى مستوى، وكان في صفوف عالية في الجامعة واختصاصه نادر ، وأمامه آفاق واسعة جدا ، هذا لو جلس مع ُأناسٍ تافهين من سوقة الناس وعامتهم ، حديثهم كلّه مزاح رخيص تعليقات سخيفة وكلمات ساذجة ، ينفر منهم نفورا شديدا ، لأنّه هو في واد وهم في واد ، فأكْبر نعمة من نعم ا أن يكون هؤلاء الذين على شاكلتك وفي المستوى العلمي الذي أنت فيه ، في مستوى التّقاء الذي أنت فيه ، في مستوى الطهر الذي أنت فيه ، وفي مستوى الهمة العلية التي أنت فيها ، هذا أعظم عطاء إلهي ، لذلك ا عز وجل اختار النبي واختار له أصحابه ومن مهمات المؤمن ، ألا يصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامه إلا تقي صاحب مؤمنًا تتذاكر معه العلْم ، فتَرقى به ، ويرقى بك ، صاحب مؤمنًا عنده حياء لا يتكلّم إلا الكلمة الراقية ، صاحب مؤمنًا عنده كرم صاحب مؤمنًا عنده رحمة ، صاحب مؤمناً ستير لا يفْضحك ، صاحب مؤمنًا شُجاعا ، لا يخذلُك ، صاحب مؤمناً مخلصا لا يسلمك ، وا صحبة المؤمنين جنّة في الدنيا ، إذا كان بالدنيا جنّة ، هي أن تصحب مؤمنًا ، كلّه أخلاق عالية ، أدب ، وورع ، أنَفة وعفّة وحشْمة ، و لا تصاحب إنساناً دنيوياً دنيئاً ، خسيساً ، غداراً ، كذّاباً ، أنانياً ، مخادعاً .

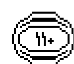
قال : صاحب الهمة العالية يطلب ربه طلبا تاما بكلّ معنًى واعتبار في عمله ، يطلب ربه بعمله ، فعملُه متقَن ، فيه صدق وأمانة ، وعبادته ومناجاته ، ونومه ، ويقظته ، وحركته ، وسكونه ، وعزلته ، وخلْطَته وسائر الأحوال ، لقد انْصبغَ قلبه بالتوجه إلى ا تعالى أيما صبغة، وهذا الأمر إنما يكون لأهل المحبة الصادقة .

شيء عجيب ، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام بشر سيدنا عمر بالجنّة سألَ عمر سيدنا حذيفة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام : بربك هل أنا مع المنافقين ؟ فقال حذيفة : معاذ ا يا أمير المؤمنين ، ما تفسير ذلك ؟ من شدة خوفه من ا تعالى ، ومن شدة حرصه على طاعة ا تعالى ، ومن شدة تعلقه بالآخرة ، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام بشره بالجنّة قال له: ُأنْشدك ا ؛ هل جاء اسمي مع المنافقين ؟ كان حذيفة أمين سر رسول ا صلى ا عليه وسلّم ، أما الآن تجِد إنسانًا غارقًا بالمعاصي ويقول لك : أنا إيماني أقْوى من إيمانك ! غارقٌ بالمعاصي والموبقات ويدعي أن إيمانه إيمان الصديق ، وهذه وقاحةٌ في **الإنسان .**

قد تَجِد ملكا بيده كلّ أمور مملكته ، ولكن لا طريق إليه ، لا سبيل إليه ، لكن ا عز وجل ملك الملوك ، قال تعالى :

فَمَن كَانَ

يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا



(سورة الكهف)

أنت حينما تنتهي عما نهاك ا عنه ، وحينما تعملُ صالحا تصلُ إلى ا تعالى ، وا عز وجل ينتظرك .

والحمد رب العالمين

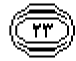
بسم ا   الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام :

مع الدرس الواحد والثمانين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والمنزلة اليوم "منزلة التوكل" ..

هذه المنزلة وردت في القرآن الكريم في آيات كثيرة جداً ، فا   سبحانه وتعالى ربط التوكل مع الإيمان ، فقال تعالى :

وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ



(سورة المائدة)

فمن علامة إيمانكم ، ومن لوازم إيمانكم ، بل من خصائص إيمانكم أن تتوكلوا على ا   .

وفي آية ثانية :

وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

(سورة إبراهيم)

فإن كنت متوكلاً على جهة ما ، ينبغي أن تتوكل على ا   .

وفي آية ثالثة يقول ا   عز وجل :

وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ

(سورة الطلاق : من الآية " ٣ ")

قد تتوكل على إنسان فيقصر ، أو لا يستطيع ، أو ينسى ، أما إن توكلت على الواحد الديان فهو حسبك ؛ يكفيك، ويحميك ، ويغنيك .

وفي آية أخرى :

رَّبَّنَا عَلَيْكَ

تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾

(سورة الممتحنة)

وفي آية أخرى :

قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا

(سورة الملك : من آية " ٢٩ ")

فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ

(سورة النمل : من الآية " ٧٩ ")

يا محمد ..

إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾

(سورة النمل : من الآية " ٧٩ ")

وفي هذه الآية ملمح رائع ، حينما تكون على الحق ، تتوكل على ا . وإن توكلت على ا فهو حسبك ، يكفيك ، ويغنيك ، ويؤيدك ، وينصرك ، ما دمت على الحق ، فتوكل على الحق ، وهو ا عز وجل ..

فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾

(سورة النمل : من الآية " ٧٩ ")

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ

وَكِيلًا ﴿٨١﴾

(سورة النساء)

هو الذي يكفي ، ولا يكفي سواه ، إن توكلت على حي يموت فقد يخيب ظنك ، وقد تصاب بالإحباط ، أما إن توكلت على الحي الذي لا يموت ، أنت الفالح والناجح ، **فإذا عزمت** وتولدت عندك إرادة جازمة في فعل شيء توكل على ا ، لأن ا قادر على أن يحبط

عزيمتك ، وقد قالوا : عرفت ا من نقض العزائم ، فمهما درست الموضوع ، وأحكمته ومهما غطيت كل الاحتمالات ، ومهما تمكنت من السيطرة عليه ، فإن لم تأتك معونة ا عز وجل ، لن تنجح في عملك ، وتوكل على الحي الذي لا يموت ..

فَإِذَا عَزَمۡتَ

فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

(سورة آل عمران)

كل آية تتحدث عن التوكل من زاوية .

آيةٌ أخرى ..

وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ

(سورة إبراهيم : من الآية " ١٢ ")

فا عز وجل بين ووضح السبيل إلى التوكل عليه ، وقد وصف المؤمنين بأنهم ، قال تعالى :

ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

(سورة آل عمران : الآية " ١٧٣ ")

علامة المؤمن الثبات مهما أوهمه خصومه أنهم سيدمرونه ، أو سيغلبونه ، أو يكيدون لأنه متوكل على ا عز وجل ..

فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾

(سورة هود)

وفي آية أخيرة يصف ا المؤمنين فيقول :

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾

(سورة الأنفال)

أستخاص من هذه الآيات أنك لن تستطيع أن تتوكل على ا إلا إذا كنت على الحق وكنت مؤمنًا ، وإذا توكلت عليه يكفيك ، وإذا أحكمت أمرك ، ولم تتوكل على ا ، فكل هذا الجهد الكبير ضائع لأن ا هو الموفق ..

وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ

(سورة هود : من الآية " ٨٨ ")

من أسماء النبي صلى ا عليه وسلم المتوكل ، وتوكله أعظم توكل ، لأن التوكل يتبع الإيمان ، فكلما ازداد إيمانك ازداد توكلك ، لذلك آية كريمة خاصةٌ بالنبي عليه الصلاة والسلام يقول ا فيها :

فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾

(سورة النمل : من الآية " ٧٩ ")

والذي يدعو إلى العجب أن تجد إنسانًا مستقيما ، وهو خائف ، لماذا الخوف ؟ ألا تعبد إلهاً قوياً ، ألا تعبد إلهاً بيده كل شيء ؟ ألا تعبد إلهاً هؤلاء الأقوياء بيده ، في قبضته ..

مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ
رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

(سورة هود : من الآية " ٥٦ ")

كيف تعبده ولا تثق بقدرته ؟! كيف تعبده ولا تثق بعدله ؟! كيـ ـ ـف تعبده ولا تثق بحمايته لأوليائه ؟!!

وفي الصحيحين عن عمران بن حصينٍ أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال **يدخُلُ الجنةَ من أُمتي سبعون ألفًا بغيرِ حسابٍ قالُوا من هم يا رسولَ الله قالَ هم الذين لا يستَرقُون ولا يتَطَيرون ولا يكْتَوون وعلى ربهم يتَوكلُون ***

(رواه مسلم)

مقام التوكل مقام كبير جداً ، مقام التوكل من لوازمه أنه يملأ قلب الإنسان أمناً .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس **حسبنَا الله ونعم الْوكيلُ قالها إبراهيم عليـــه السلام حين أُلقي في النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالُوا إن الناس قَد جمعوا لَكُم فَاخْشَوهم فَزادهم إيمانًا وقالُوا حسبنَا الله ونعم الْوكيلُ** *

(رواه البخاري)

فإن كنت مستقيماً ، وكنت في مرضاة ا ، وكنت في مظلة الإسلام والمنهج ، فالتوكل سهل جداً ، أما حينما تنحرف تخجل أن تتوكل على ا ، لأنّك محجوب ، والحجاب كما أنه يمنع الصلاة يمنع التوكل ، والتوكل يحتاج إلى قرب من ا ، وإلى إخلاص وصدق واستقامة ، فإن كنت على الحق فست توكل على ا .

ومن أدعية النبي عليه الصـلاة والسلام : **اللهم لَك أَسلمتُ وبِك آمنْتُ وعلَيك تَوكلْتُ وإِلَيك أَنَبتُ وبِك خَاصمتُ اللهم إِني أَعوذُ بِعزتك لَا إِله إِلا أَنْتَ أَن تُضلني أَنْتَ الْحي الذي لَا يموتُ والْجِن والْإِنْس يموتُون***

(رواه مسلم عن ابن عباس)

لَك أَسلمتُ وبِك آمنْتُ وعلَيك تَوكلْتُ

ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام الترمذي عن عمر بنِ الْخَطابِ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله علَيه وسلم **لَو أَنكُم كُنْتُم تَوكلُون على الله حق تَوكله لَرزقْتُم كما يرزقُ الطير تَغْدو خماصا وتَروح بِطَانًا***

قبل أن يسافر أحدنا يهيئ كل شيء في البيت ، يهيئ طعاما يكفيه مدة سفره ، ويعطي الأهل مبلغًا من المال ، ويوصي بهم من يمد لهم يد العون عند الحاجة ، ويعطيهم رقم هاتفه في السفر ، وهو على صلة دائمـة بهم ، ويقول : توكلت على ا ، وسلمتهم إلى ا ، ما تركت سببا من أسباب الرعاية إلا اتّخذته ، بعد ذلك يتوكل على ا ، وسيد المتوكلين هو رسول ا صلى ا عليه وسلم .

وهناك توكل غريب جداً ، هو توكل سيدنا إبراهيم حينما أمره ا عز وجل أن يضع زوجته وابنه في واد غير ذي زرع ، وأن يغادر ، فقالت له زوجته : إلى أين ؟! تعجبت ؛ ماء ما في ، لا ماء ولا طعام ، أرض جرداء قاحلة جافة ، إلى أين ؟ ثم استدركت ، قالت : آ أمرك بهذا ؟ قال : نعم . هذا التوكل المطلق ، من دون أي سبب ، والعبودية المطلقة أيضاً فعلها سيدنا إبراهيم ، حينما قال له ربه أن يذبح ابنه :

قَالَ يَـٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ
مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ

(سورة الصافات : من الآية " ١٠٢ ")

عن عمر بن الْخَطابِ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم **لو أَنكم كُنْتُم تَوكلُون على الله حق تَوكله لرزقْتُم كما يرزقُ الطير تَغْدو خماصا وتَروح بطَانًا***

(رواه الترمذي)

تروي الكتب ، أن رجلاً صالحاً اسمه حاتم الأصم ، هذا الرجل أراد أن يحج بيت ا الحرام ، ويبدو أنه لا يملك ما يكفي للنفقة على عياله ، وتاقت نفسه إلى الحج ، فاستأذن أولاده وزوجته فلم يأذنوا له ، إلى أين ؟ إلى من تتركنا ؟ إلا أن بنتاً له صالحةً قالت له : يا أبت اذهب فأنت لست برازق ، ا يرزقنا ، فيبدو أنهم سكتوا ، وكأن كلمتها ألقت على قلبه طمأنينةً ، فرحل ، وذهب إلى بيت ا الحرام حاجاً ، بعد أيامٍ نفد الطعام والشراب ، فدخل أولاده وزوجته على هذه البنت الصالحة الطيبة ليعنفوها ، أين الطعام ؟ من يأتينا بالطعام ؟ أنت قلت لأبيك : اذهب وحج بيت ا الحرام فإنك لست رزاقاً ، ماذا نفعل ؟

تروي القصة ، أن هذه البنت دخلت إلى غرفتها ، وتوسلت إلى ا عز وجل أن يرزقها ، فالذي حصل أن أمير المدينة كان في جولة تفقدية ، وصل إلى بيت حاتم الأصم فشعر بعطشٍ شديد ، فقال لأحد رجاله : آتوني بكأسٍ من الماء ، طرقوا باب حاتم الأصم وقالوا : الأمير يطلب كأس ماء ، أهل البيت اجتهدوا أن يكون الكأس نظيفاً ، والماء بارداً هذا الأمير شرب حتى ارتوى ، وأذاقه ا أطيب طعمٍ لهذا الماء ، فلما انتهى من شربه قال :

ـ بيت من هذا ؟

ـ قالوا : بيت حاتم الأصم .

ـ قال : هذا الرجل الصالح ؟

ـ قالوا : نعم .

ـ فقال : لنسلم عليه .

ـ قالوا : هو في الحج .

ـ قال : إذاً له علينا حق ، معه صرة من ذهب فأعطاهم إياها ، ولم يكتف بهذا ، قال لمن حوله : من أحبني فليفعل فعلي .

فجأة انهالت الدنانير الذهبية على أهل هذا البيت ، واغتنوا لعام تقريباً ، دخلوا على هذه البنت الصالحة ، فإذا هي تبكي ، قالوا لها :

ـ مالك تبكين ، وقد أغنانا ا عز وجل ؟!

ـ قالت : أبكي لأن إنساناً نظر إلينا فأغنانا ، فكيف لو نظر إلينا خالق الأكوان ؟!

فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾

(سورة النمل : من الآية " ٧٩ ")

عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال **إِذَا خَرَجَ الرجلُ من بيته فَقَالَ بِسم الله تَوكلْتُ على الله لا حولَ ولا قُوةَ إلا بِالله قَالَ يقَالُ حينَئِذ هديتَ وكُفيتَ ووقيتَ فَتَتَنَحى له الشياطين فَيقُولُ له شَيطَان آخَر كَيفَ لك بِرجلٍ قَد هدي وكُفي ووقي** *

(رواه الترمذي)

كلما خرجت من بيتك لاقتْك أخطـار ؛ حادث سير ، طغيان ظالم ، صفقة خاسرة جهل عليك ، ضللت ، عصيت ، كذبت ، فإذا قلت قبل أن تخرج من البيت : **بِسم الله تَوكلْتُ على الله لا حولَ ولا قُوةَ إلا بِالله قَالَ يقَالُ حينَئِذ هديتَ وكُفيتَ ووقيتَ فَتَتَنَحى له الشياطين فَيقُولُ له شَيطَان آخَر كَيفَ لك بِرجلٍ قَد هدي وكُفي ووقي** .

وقال بعض العلماء : التوكل نصف الدين ، والنصف الثاني هو الإنابة ، ذلك أن الدين استعانةٌ وعبادة ، جمع القرآن في الفاتحة ، وجمعت الفاتحة في إياك نعبد وإياك نستعين فالدين استعانة وعبادة ، فالتوكل هو الاستعانة ، والإنابة هي العبادة ، التوكل نصف الدين .

لبعض العلمـاء قول رائع ، يقول : العلم كلـه باب من التعبد ، والتعبد كله باب من الورع ، والورع كله باب من الزهد ، والزهد كله باب من التوكل .

قال : هذه المنزلـة من أوسع المنازل وأجمعها ، ولا تزال معمورةً بالنازلين لسعة متعلق التوكل ، وكثرة حوائج العالمين ، فأهل السماوات والأرض المكلفون وغيرهم في مقام التوكل ، وإن تباين متعلق توكلهم فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في الإيمان ، ونصر الدين وإعلاء كلمة ا ، وجهاد أعدائه ، وفي محابه وتنفيذ أوامره .

إنسان يتوكل على ا لنشر الدين ، لإقرار الحق ، لتفريج غم المسلمين ، لهداية الناس وإنسان يتوكل على ا لشراء بيت مثلاً ، أو لزواج ، وإنسان يتوكل على ا لشيء صغيرٍ جداً ، كلهم متوكلون ، ولكن التفاوت بين المتوكلين في مضمون التوكّل .

ومن دون هؤلاء ، إنسان يتوكل على ا في استقامة ، وحفظ حاله مع ا ، تعنيه نفسه فقط ، فتوكله متعلّق بذاته ، يرجو ا أن يبقيه مستقيماً منيباً خاضعاً ، الأنبياء والصديقون يتوكلون على ا من أجل عموم الناس ، من أجل هداية الناس ، من أجل ترسيخ الحق ، وإبطال الباطل .

ومن دون هؤلاء أناس يتوكلون على ا في شؤون الدنيا ؛ من رزق ، أو عافية ، أو زوجة ، أو ولد ونحو ذلك .

العلماء قالوا : أفضل أنواع التوكل على الإطلاق التوكل في الواجب ، أي واجب الحق ، واجب الخَلق ، واجب النَفس ، وأوسعه التوكل في التأثير في مصلحة دينية ، أو دفع مفسدة دينية ، أعلى أنواع التوكل أن تتوكل على ا لجلب مصلحة دينية للخلق ، أو لدفع مفسدة عنهم ، هذا أعلى توكل ، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين ا ، ودفع فساد المفسدين

في الأرض ، وهذا توكل ورثتهم ، ثم الناس بعد في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم فمن متوكل على ا في حصول ملْك ، ومن متوكل على ا من أجل رغيف .

ثم قالوا : ومن صدقَ توكله على ا في حصول شيء ناله ، فإن كان محبوباً له كانت له فيه العاقبة المحمودة ، وإن كان مسخوطاً مبغوضاً كانت العاقبة مفسدة كبيرة له - الفكرة هنا دقيقة - إنسان يتوكل على ا في معصية ؟ ذلك إنسان جاهل ، همه أن ينجح في هذا الدور في التمثيل ، أو همها أن تنجح في هذا الدور في التمثيل : تدعو ربها وتتوكل عليه في أمر لا يحبه ا ، فقد تنجح ، لكن هذا الشيء إذا نجحت فيه ، حصل من نجاح توكلها على ا مفسدةٌ لها كبيرة ، وهذا شيء مشهور بين من يعمل في حقل الفن ، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه إن لم يستعن به على طاعة ، وا أعلم .

والخلاصة توكل في شأن سامٍ ، واجب ديني ، الواجب الديني إما عام أو خاص الأنبياء والمرسلون ومن ينوب عنهم في إبلاغ الحق ، يتوكلون على ا لترسيخ الإيمان في قلوب الناس ، ولدفع المفسدة الدينية عنهم ، دون هؤلاء ؛ من يتوكل على ا من أجل سلامة استقامته وحسن خاتمته ، وحده ، أما الذين يتوكلون على ا في شأن من شؤون الدنيا ، فإن كان طاعة ، أو كان مباحاً نجوا ، وإن كان مفسدة هلكوا .

العلماء قالوا : التوكل من أعمال القلب ، ومعنى ذلك أنه عمل قلبي ليس بقول اللسان ولا بعمل الجوارح ، ولا هو من باب العلوم والإدراكات ، فالقلب حينما يعبد ا يتوكل عليه وهلك المسلمون لأن التوكل نُقلَ من القلب إلى الأعضاء ، لا ، التوكل داخلي ، الأعضاء يجب أن تأخذ بالأسباب ، أما القلب يفوض أمره إلى ا ، أما إذا عكست الآية ، نُقلَ التوكل من القلب إلى الأعضاء ، صار تواكلاً .

أناس كسالى سألهم عمر رضي ا عنهم :

ـ من أنتم ؟

ـ قالوا : نحن المتوكلون .

ـ قال : كذبتم المتوكل من ألقى حبة في الأرض ثم توكل على ا .

من الناس من يتوهم أن التوكل باب من أبواب المعارف والعلوم فيقول : هو علم القلب بكفاية الرب .

ومنهم من يفسره بالسكون ، وخمود الحركة ، اجلس ، دبر ألا تدبر ، توكّل على ا لا تفعل شيئاً ، يأتيك رزقك إليك ، هذا أسوأ أنواع التوكل ، توكل الكسالى ، توكل الحمقى توكل العاطلين عن العمل .

وقال بعضهم : التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب ، وهو ترك الاختيار

والاسترسال مع مجاري الأقدار ، هذا أسوأ نوع من أنواع التوكل ، يتوكل بأعضائه وأجهزته ، لا بقلبه ، التوكل مكانه القلب ، والأعضاء من أجل العمل ، والحركة ، والسعي .

قال بعضهم ، ولهذا القول معنى : التوكل الاسترسال مع ا مع ما يريد ، هذا معنى جيد .

وقال بعضهم الآخر : التوكل هو الرضا بالمقدور .

وقال بعضهم ـ وعلى هذا القول تحفظ ـ : التوكل هجر العلائق ، ومواصلة الحقائق يعني لا يتزوج ، ولا يعمل ، ولا يسعى ، هجر العلائق ومواصلة الحقائق .

أما الحقيقة أن التوكل حالٌ مركبة من مجموع أمور ، لا تتم حقيقة التوكل إلا بها وكل إنسان عرف التوكل من زاوية أشار إلى أحد عناصر التوكل ، ولم يشر إلى كل شروط التوكل ، قال : أولى هذه الشروط : معرفة بالرب وصفاته ؛ من قدرته ، وكفايته ، وقيومته وانتهاء الأمور إلى علمه ، وصدورها عن مشيئته وقدرته ، وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل . أول شيء في التوكل أن تعرف ا الذي ينبغي أن تتوكل عليه ، أن تعرفه قوياً ، وأن تعرفه قادراً ، وأن تعرفه غنياً ، وأن تعرفه رحيماً ، وأن تعرفه سميعاً ، وأن تعرفه بصيراً ، وأن تعرفه مجيباً ، وأن تعرف أن الأمر كله بيده ، إن عرفت هذا توكلت عليه .

لا يصح التوكل من فيلسوف ، ولا ممن يؤمن بأن للإنسان فعل ، فا عز وجل هو الفعال ، لا يقع شيء في كونه إلا بأمره ، فإذا توهمت أن إنساناً ما ، له قدرة على أن يفعل شيئاً دون أن يرجع إلى ا أو دون أن يريد ا ، فهذا شرك ، كل من ينسب الفعل للمخلوق فقد أشرك ، فقال : هذا لا يتوكل على ا ، ما يربط بين أفعال العباد وبين مشيئة ا عز وجل .

وهناك من يعتقد أن ا لا يعلم جزئيات العالم ، ولا هو فاعل باختياره ، ولا له إرادة ومشيئة ، هذا الإنسان لا يمكن أن يتوكل على ا ، فلابد من أن تصح عقيدتك ، حتى يصح توكلك .

أولاً ، شيء دقيقٌ جداً ينبغي أن تعلمونـه : لا يمكن أن يتناقض التوكل مـع الأخذ بالأسباب ، بل يتكاملان ، ليس معنى المتوكل أنه لا يأخذ بالأسباب ، المتوكل يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، ثم يتوكل على ا وكأنها ليست بشيء ، الموقف الكامل للمؤمن ، وما أندر هذا النموذج ، أنت ماذا تجد ؟ تجد مؤمنًا يتوكل ولا يأخذ بالأسباب ، أبسط شيء يأكل فاكهة دون غسيل ، فإن قيل له : يا أخي اغسلها . قال : سم ا ، لا يضر مع اسمه شيء ، هذا جهلٌ ، يتوكل دون أن يأخذ بالأسباب .

إنسان آخر يأخذ بالأسباب ولا يتوكل ، الغرب مثلاً يأخذون بالأسباب بأروع ما تكون

ولا يتوكلون على ا ، يتوكل عليها ، وقع في الشرك ، الشرق ، لا يأخذ بها ويتوكل ، الأول أشرك والثاني عصى ، وكلاهما لا يوفـق ، ينبغـي أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، ثم تتوكل على ا وكأنها ليست بشيء ، كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام .

ففي الهجرة لم يدع سبباً إلا أخذ به ، فلما وصلوا إلى الغار توكل على ا ، واستسلم له ، فَعن أَبِي بكْرٍ رضي الله عنْه قالَ قُلْتُ لِلنبِي صلى الله علَيه وسلم وأَنَا في الْغَارِ **لَو أَن أَحدهم نَظَر تَحتَ قَدميه لَأبصرنَا فقَالَ ما ظَنك يا أَبا بكْرٍ بِاثْنَين الله ثَالِثُهما** *

(رواه البخاري)

سافر صلى ا عليه وسلم مساحلاً واختبأ في غار ثـور ، وكلف إنسانًا يمحو الآثار وإنسانًا يأتيه بالأخبار ، وإنسانًا يأتيه بالطعام ، واستأجر خبيرا مشركًا ، ولم يترك حيلةً إلا وأخذ بها ، هذا التعبد ، هذا الأخذ بالأسباب ، ولما وصلوا إليه توكل على رب الأرباب ، هذا الكمال ، أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، ثم تتوكل على ا وكأنها ليست بشيء ، تريد أن تسافر ، لا بـد من فحصٍ دقيق للسيارة ؛ العجلات ، ضغط العجلات ، الزيـت ، المكبح جهاز التوازن ، ثم تقول : يا رب سلمني ، يا رب أنا بحفظك ورعايتك ، أخذتَ بالأسباب وتوكّلت على ا ، أما إذا لم تفحص المركبة وقلت : يا من لا يوجد غيرك ، فقد اختل شرط التوكل ، لم تأخذ بالأسباب .

إن أخذت بالأسباب واعتمدت عليها ، فقد أشركت ، وإن لم تأخذ بها فقد عصيت والمؤمن الكامل يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، ويتوكل على ا وكأنها ليست بشيء .

نصف الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، العبادة إنابة إلى ا اتصال ، ونستعين توكل فإن تحدثنا عن التوكل نتحدث عن نصف الدين ، ولن تستطيع أن تتوكل على ا إلا إذا كنت على الحق المبين ، أما إنسان شارد ، ولا يخطر في باله أن يتوكل ، بل لو خطر في باله أن يتوكل يستحي أن يتوكل ، يتوكل على من يعصيه !! يتوكل على من يغضبه !! مستحيل .

بسم ا الرحمن الرحيم

الحمد رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين اللهم أعطنا ولا تحرمنـا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثـر علينا ، أرضنا وارض عنا وصلى ا على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

والحمد رب العالمين

*** * ***

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ؛ مع الدرس الثاني والثمانين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والمنزلة التي كنا فيها في الأسبوع الماضي منزلة التوكل ، ونستمر في هذا الدرس إن شاء ا على هذه المنزلة .

أيها الأخوة الكرام ؛ لا بد من ربط التوكل بالأخذ بالأسباب ، ولا أبالغ إذا قلت إن هذا الموضوع خطير ، ذلك أن مشكلة العالم الإسلامي هو أنه فهم التوكل قعوداً ، وكسلاً ، وتواكلاً ونسي أن الأخذ بالأسباب جزء من الدين ، وأن المؤمن الصادق يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ويتوكل على ا وكأنها ليست بشيء ، وأن عالم الغرب أخذ بالأسباب واعتمد عليها فأشرك ، وأن عالم الشرق لم يأخذ بها فعصى ، والأخذ بالأسباب والتوكل على ا عز وجل كلاهما شرط لازم غير كافي ، وهذا الدرس تحتاجونه في كل دقيقة من دقائق حياتكم ، في كل وقت ، في الصباح والمساء في العمل وفي البيت ، قد تأخذ بالأسباب وتنسى ا ، وتظن أن هذه الأسباب وحدها كافية لتحقيق الهدف ، وقعت في الشرك الخفي وأنت لا تدري ، فإذا تابعت هذا الموقف لا بد من أن يؤدبك ا فمع أنك أخذتَ بالأسباب يبطل فعلها ، ويصاب بخيبة أمل ، ويصعق ، ما الذي حصل ، إنه أله الأسباب ، واعتمد عليها ونسي ا عز وجل ، ولا تقل أن هذا شيء بعيد ، إن أصحاب النبي عليهم رضوان ا وهم على ما هم عليه من قرب من ا عز وجل توهموا بعد فتح مكة ، أنهم أقوياء وأنهم كثر ، فاعتمدوا على كثرتهم وقوتهم وقالوا ، لن نغلب من قلة ، فجاءت غزوة حنين قال تعالى :

وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾

(سورة التوبة : الآية "٢٥") .

وفيهم النبي عليه الصلاة والسلام ، وكنت أقول لكم دائماً : نحن في درسين بليغين ؛ درس بدر ودرس حنين ، درس بدر افتقر أصحاب النبي إلى ا عز وجل فتولاهم ا ، ودرس حنين قالوا نحن اعتمدوا على قدرتهم ، وعلى قوتهم ، وعلى عددهم ، فتخلى ا عنهم ، وهذا الدرس يقع كل يوم مع كل مسلم ، إن كنت مدرساً تعد الموضوع إعداد جيداً ، وتظن أن هذا الإعداد وحده كاف لإنجاح الدرس ، وتنسى أن تقول : يا رب إني تبرأت من حولي

وقوتي وعلمي ، والتجأت إلى حواك وقوتك وعلمك ، إن كنت طبيباً تعتمد على علمك وتنسى أن تتوكل على ا ، إن كنت مهندساً ، إن كنت موظفاً ، إن كنت تاجراً ، تستخدم خبرتك في التجارة ، وتنسى أن تقول : يا رب هيئ لي صفقة رابحة فحينما تنسى أن تدعو ا عز وجل وتعتمد على خبرتك ، وعلمك ، وقوتك ، ومالك ، وأسرتك وعلى من حواك ، وعلى من فوقك ، وعلى من تحتك ، وعلى اتباعك ، يتخلى ا عنك ، هذا درس بليغ ، بل إن أكثر شيء يعانيه المؤمن هو أنه يأخذ بالأسباب ويخيب ظنه ، لأنه اعتمد عليها ، ولا يأخذ بالأسباب ويخيب ظنه لأنه لم يأخذ بها ، موقف دقيق ، طريق ضيق ، عن يمنيه واد سحيق وعن يساره واد سحيق ، إن أخذت بالأسباب واعتمدت عليها وقعت في واد الشرك ، وإن لم تأخذ بها وقعت في واد المعصية ، ولعل الشيء الذي يحتاجه المسلمون اليوم ، وقد تألب عليهم كل الناس ، وكل الشعوب وواجهوا حرباً عالمية ثالثة ، إنما هم محتاجون إلى أن يأخذوا بالأسباب ويتوكلوا على ا فلو توكلوا ولم يأخذوا بالأسباب ا لا يستحقون نصر ا عز وجل ، ولو أخذوا بالأسباب ولم يتوكلوا لا يستحقون نصر ا عز وجل ، النصر يحتاج إلى إعداد وهو أخذ بالأسباب ، وإلى إيمانٍ وهو توكل على ا .

قال العلماء : من نفى الأسباب فتوكله مدخول ، أي فيه خلل توكله غيـــر صحيح ، وهذا عكس ما يظهر من رأي السذج من الناس ، كل وسم ا لا تغسلها ، لا يضر مع اسمه شيء ، ابنه مرض ا هو الشافي ، هذا كله كلام جهل مطبق ، خذ ابنك إلى الطبيب ، واختر طبيباً جيداً ، واشترِ الدواء الجيد ، ونفذ تعليمات الطبيب بحذافيرها وبعدها قل يا رب أنت الشافي ، لا شافي غيرك ، إن قلت أنت الشافي ولم تعالج ابنك ، لست مطبقاً لمنهج ا ، وإن عالجت ابنك ونسيت أن تقول : يا رب أنت الشافي لم تكن مطبقًا لمنهج ا ، يجب أن تعالجه ، وأن تفتقر إلى ا ، يجب أن تأخذ موقفاً علمياً إن لم تأخذ موقفاً علمياً لا تعد مطبقاً لمنهج ا عز وجل .

إن نفاة الأسباب ؛ من ينفي سببا لا يستقيم لهم توكل البتة ، وإن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه ، فهو كالدعاء الذي جعله ا سبباً في حصول المدعو به .

إن اعتقد الإنسان أن توكلَه لا قيمة له ، يقول : المقدر كائن توكلت أو لم أتوكل ، المقدر كائن أخذت بالأسباب أو لم أخذ ، الشافي هو ا ، تداويت أو لا ، هذا كلام مرفوض كلياً ، وكلام غير صحيح ، وغير شرعي ، وغير أصولي ، ولا يقبل ، وا عز وجل جعل الدعاء أحد الأسباب .

هل هناك إنسان يشبع من دون أن يتناول الطعام ؟ أو إنسان ينجب من دون أن يتزوج ؟ أو إنسان يقطف ثمرة من دون أن يزرعها ؟ هذا مستحيل ، فإن ا جعل النبات سببه إلقاء البذرة في الأرض ، وجعـتل خروج الماء من الأرض بسبب حفـــر البئر ، وجعل إنجاب

الولد بسبب الزواج وجعل الشبع بسبب تناول الطعام ، وجعل الري بسبب شرب الماء ، فلو قلت : هذا الري مقدر من ا عز وجل شربت أما لم أشرب ، ومقدر لي أن أشبع أكلت أو لم أكل ، لماذا أنت في أمور الطعام والشراب ، وحفر الآبار ، واستنبات النبات ، وإنجاب الأولاد ، تعتمد على الأسباب ، ولا تعتمد عليها في شؤون حياتك كلها ، أعداء الدين يأخذون على المسلمين تواكلهم ، بينما المؤمن الصادق يأخذ بكل الأسباب ويتوكل على ا .

سيدنا عمر رضي الله عنه ، مر بقرية فوجد أن كل الفعاليات فيها بيد غير المسلمين ، فعنفهم تعنيفاً شديداً ، فقالوا : كما يقول الآن من أخرج ا من أرضهم ثروة طائلة فعاشوا في بحبوحة كبيرة يقول لك ا عز وجل سخر لنا هؤلاء ، يركبون مركباتهم ، ويستخدمون آلاتهم ، ويتنعمون بكل وسائل الحضارة اليوم على أنها من صنع الكفار ، ونحن مكرمون عند ا ، سخرهم ا لنا ، هذا كلام يقوله الجاهل .

قال عمر رضي الله عنه :" **كيف بكم إذا أصبحتم عبيدا عندهم** "، أدرك بعمق إيمانه وصواب نظرته أن المنتج قوي ، والمستهلك ضعيف.

قبل أشهر تقريباً قرأت خبرا طريفًا عن أضخم شركة صوتيات في اليابان هي شركة سوني توفي صاحب الشركة ، فقبل أن يموت قال كلاماً فيه مغزى ، قال : حينما احتلت أمريكا بلادنا وقهرتنا أردت أن أنتقم منها ، أتقنت صنعتي إلى درجة أنها غزت أسواق أمريكا ، وأن هذا البلد الكبير القوي المتحكم اشترى مني ، من أجهزتي ، وصناعتي ، أكثر من ما باع العالم كله من هذا الشراب المعروف هذا نوع من أنواع القوة .

إذا أتقنا عملنا ، أتقنا صناعتنا ، اكتفينا بزراعتنا ، لم نكن عالة على أحد ، أكرمنا ا عز وجل أما قولنا : سخرهم ا لنا ، هذا كلام مضحك ، نحن مستهلكون ، والمستهلك فقير جداً ، والمنتج قوي وغني ، فتعمير محرك طائرة يكلف خمسة ملايين دولار والدولار بخمسين ليرة سورية فالحاصل ٢٥٠ مليون ليرة سورية ، محصول قمح كم دونم ، تعمير محرك واحد ، هم يأكلون ثروتنا إن هم اشتروا منها ، بأبخس الأسعار ، وينهبوننا ثانية إذا هم باعونا ، قد نبيعهم ثرواتنا بأرخص الأسعار جاءت فترة على دول النفط باعوا نفطهم بأقل من كلفته ، برميل النفط بـ ٦.٥ دولار ، وبيع بـ ٨ كلفته ٨.٥ فإذا باعونا التكنولوجيا نشتريها بأثمان خيالية ، بأرقام فلكية ، لأنهم منتجون ونحن مستهلكون ، نحن كمسلمين يجب أن نعي المشكلة ، هم يريدوننا أن نبقى مستهلكين ، وهذا يعجبهم يأخذون ثرواتنا بأقل الأثمان ، ويبيعوننا بضاعتهم بأعلى الأثمان ، لأننا متوكلون ، نحن لنا ا ، هذا كلام مضحك ، اعقل وتوكل ، عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ قَالَ رَجُلٌ **يَا رَسُولَ اللهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ قَالَ اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ** *

(رواه الترمذي)

كل واحد منا بحرفته ، يجب أن يكون الأول ، أن يتقن ، أن يعمـ ـل ليلاً نهاراً ، أنت مسلم أنت سفير المسلمين .

صاحب الحرفة أتقنها ، وإتقان العمل جزء من الدين ، إن ا يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه ، فإذا أتقنت عماك ارتقيت ، لماذا أنت تعيش في الدنيا ، من أجل عمل صالح وهل من عمل صالح أعظم من أن تتقن عماك ، وأن تنفع به المسلمين في مجالات نصدر ، المصدر المسلم غير متقن ، وغير صادق ، وغير مخاص ، يبيع بضاعة عينات ، ويقدم لهم بضاعة أخرى ، فنصدر مرة واحدة ، وتغلق الأسواق في وجوهنا ، هذا هو التواكل .

إن كُتّاب السيرة حينما يذكرون أن النبي عليه الصلاة والسلام قبيل معركة بدر ، رفع يديه إلى السماء حتى كاد رداءه ينزاح من كتفه ، يقول يا رب إن تهزم هذه الجماعة ، أو هذه الفئة ، لن تعبد بعد اليوم ، لماذا كان النبي قلقاً ؟ أنجح تفسير لهذا القلق أنه خشي أن يكون مقصراً في الأخذ بالأسباب، أنت حينما تأخذ بالأسباب وتتوكل على ا ا عز وجل لن يخيبك ، أما نحن فأعمالنا غير متقنه ، نرجئ ، ونسوف ونستهلك ، الإنسان الشرقي في أوربا اسمه " **أي بي أم** " أما " **إن شاء ا** " تعني لا يحقق وعده ، ويتهرب من تحقيق وعده بكلمة "**إن شاء ا** " التي لم يعد مفهومها إسلاميا ، لأنه يسوف ويماطل ، إن شاء ا ، معناها ما بيدفع أما إذا عقد العزم على إنجاز ما وعد فإنه يقول : إن شاء ا تعالى ، إن أبقاني ا حياً ، يقولها بطريقة إسلامية صحيحة .

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ

(سورة الكهف : الآية "٢٣ ـ ٢٤ ") .

لكن يستخدمها المسلمون للتنصل من أداء الحقوق ، تأتي غداً ؟ إن شاء ا آتي ، معناها لن آتي ، اسمه آي ، إن شاء ا ، بي ، بكرة تأجيل ، كله تأجيل ، الشيء بين يديه ، أعطني هذه المعلومة غدا ، بي ، الأم ، لا بأس ماذا حصل ؟ قصرنا ، وأتلفنا المادة وخسرنا المناقصة ماذا حصل ؟ يسمونه أي ، بي ، أم ، هذا من تقصير المسلمين ، أما المؤمن ، أولاً لا يسوف ، ولا يستخدم كلمة إن شاء ا إلا كما أرادها ا عز وجل ، ولا يسمح لنفسه أن يكون سبباً في ضياع المال ، عليه الصلاة والسلام توضأ من قعبٍ ، من إناء ، ففضلت فيه فضلة فقال عليه الصلاة والسلام ردوها في النهر ينفع ا بها قوما آخرين ، حفاظًا على الماء ، عقيدة ربما آمن بها بعض الناس ، يقولون : إن التوكل والدعاء عبودية محضة ، لا فائدة لهما إلا ذاك ، ولو ترك العبد التوكل والدعاء ما فاته شيء مما قدر له ، هذا الكلام مرفوض ، فإن ا جعل التوكل سببا للعطاء ، وجعل الدعاء سببا للإجابة وبالمناسبة ما أمرك أن تتوكل عليه إلا ليعينك ، ما أمرك أن تستعين به إلا ليعينك ، وما أمرك أن تكون معه إلا ليكون معك

، وما أمرك أن تدعوه إلا ليجيبك ، وما أمرك أن تعبده إلا ليكرمك ، هذا شيء دقيق .

من سنن ا في خلقه ، أنه قضى بحصول الشيء إذا فعل العبد سببه ، فمن لم يأت بالسبب امتنع المسبب ، هذا قانون ، فالولد يأتي بعد الزواج ، والشبع يأتي بعد الأكل ، والري يأتي بعد الشرب والحج يأتي بعد السفر ، إنسان لا يتحرك ، ولا يسأل ، ويدعـو ا أنييسر له حجة ، وهو يقـول : ومقتدر وقادر ، لا يتحرك ، ولا يسعى ، دخول الجنـة تحتاج إلى إسلام ، وإلى إيمان ، وإلى طاعة للواحد الديان ، فكل إنسان ترك الأخذ بالأسباب حرم المسبب ، و إن ا عز وجل لا يمكن أن يستجيب لإنسان قاعد : يارب ارزقني ، يارب اعطنـي ، يارب ارفع شأني ، يارب علمني ، أما حينما تقوم وتتحرك فحينها يستجيب ا عز وجل لك .

أضرب مثلاً ؛ مركبة توقفت ، ترفع يديك إلى السماء يارب لا تقطعني ، يارب أصلحها لي يارب أنت الواحد الأحد ، هذا لا يجدي ، افتح غطاء المحرك ، وابحث عن سبب التوقف ، وقل : يارب ألهمني العلة ، فإن ا يعينك ، ما دمتَ آخذًا بالأسباب فإن ا يعينك ، فلا يستجيب ا للداعي إلا إذا تحرك في الأخذ بالأسباب ، والعوام لهم كلمة لطيفة ؛ "عبدي قم أقم معك" ، أرأيت إلى الطير التي ضرب ا بها مثلاً في التوكل تغدو من العش خماصاً وتعود بطاناً ، لقد تحركت ، وخرجت من عشها ، والحركة بركة ، تحرك ، وابحث ، واسأل ، واطرق الأبواب ، ولا تقل : أُغلقت في وجهي .

[إن الله تعالى يلوم على العجز، ولكـن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقُلْ حسبي الله ونعم الوكيلُ] .

[أخرجه أبي داود ، عن عوف بن مالك رضي الله عنه] .

هناك من يترك الأخذ بالأسباب ويقول : إذا كان قد قضى لي وسبق في الأزل حصول الولد والشبع ، والري ، والحج ونحوها ، فلابد من أن يصل إلي ، تحركت أو سكنت ، تزوجت أو تركت سافرت أو قعدت ، وإن لم يكن قد قضى لي فلن يحصل لي أبداً فعلت أو تركت ، هذا كلام مرفوض ولقد سمعتُ مرات عديدة من بعض الأشخاص المرضى يقولون : إذا ا كاتـب لي الشفاء أشفى عولجت أو لم أعالج ، وإذا كتب ا لي المرض سأمرض ، عولجت أو لم أعالج ، هذا كلام مرفوض وهو منتشر بين العوام لا بين طلاب العلم .

يقول أحد العلمـاء : هل يعد هذا من العقلاء ، بل إن البهائـم أفقه منه ، فإن البهيمة تسعى بالهداية العامة بالسبب ، تذهب لتشرب ، تبني عشاً كي يقيها الحر والقر .

وقال بعض العلماء : التوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بهـا المطلوب ، ويندفع بها المكروه ، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل الآن التوكل أحد شروطه الأخذ

بالأسباب ، التوكل والدعاء يلتقيـان أحد شروطهما الأخذ بالأسباب ، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب صار الأخذ بالأسباب أحد شروط التوكل ، ومن تمام التوكل ألا تركـن إليها ، أن تأخذ بها دون أن تركن إليها ، وعبادتي الشهيرة تأخذ بها وكأنها كل شيء ، وتتوكل على ا وكأنها ليست بشيء ، في الدراسة ، في التجارة ، في السفر ، في الصحة ، في الزواج .

خطـب امرأة ، فوافق وقال قبل الرضى بها : هي نصيبي ، اسأل عنها ، ربما يمثلون دور الأتقياء ، وربما يكذبون ، أو يدلسون ، وقبل أن تقول : هي لي ، وا ُ كتبها زوجا لي ابحث وتحر لعلك تجد في هذه الزوجة حقائق مرة .

إن أروع ما قرأته في تفسيره قوله تعالى " **الطيبون للطيبات** " قال ينبغي أن يكـون الطيبون للطيبات ، هذا معنى ، يعني احرصوا أن يكون الطيبون للطيبات ، يعني أمرا تكليفيا ، وليست أمراً تكوينياً ، يجب أن تجتهد ، وأن تسأل ، وأن تحقق ، وأن تدقق ، وأن تتمهل ، قبل أن تبرم ، وإلا تندم إن ا أمرك أن تأخذ بالأسباب ، وجعلك خليفتـ ـه في الأرض ، وأعطاك حرية الحركة ، وقال لك استشر ، واستخر ، وارجع إلى أهل الذكر .

فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾

(سورة النحل : من الآية "٤٣ ") .

وقال لك :

فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾

(سورة الفرقان : ٥٩) .

هكذا المسلمون بعامة ، والمسلمون في بلاد الشرق بخاصة ، في أمس الحاجة إلى أن يعلموا أن التوكل شيء ، والأخذ بالأسباب شيء آخر ، وأنهما لا يتناقضان ، بل يتكاملان ، بل إنه من شروط التوكل أن تأخذ بالأسباب .

أحياناً طفل يرسب في صفه ، ويقصر في دراسته ، مباشرة يقول الأب هذا لا يصلح للدراسة كن حكيما عالِج سبب تقصيره ، هيئ له أستاذًا خاصا ، اجلس معه قليلاً ، حبب إليه المدرسة ، خذ بالأسباب ، أنا أعرف امرأة طموحها أن يكون ابنها طبيباً ، رسب في البكالوريا فأخذت بكل الأسباب رسب عددا من المرات ولم تيأس إلى أن أصبح طبيباً ، كل قضية لها أسباب ، كره المدرسة ، غير له المدرسة ، كره الأستاذ وفق بينهما ، ارفع معنوياته ، كل شيء له سبب ، معلم عنده طفل مشاكس مشاغب بحث فوجد أمه مطلقة ، سلوكه الشاذ

بالمدرسة سببه أن أمه مطلقة ، يفتقد للعطف والحنان وعوضه المعلم بطريقة أو بأخرى ، كاف والده أن يأتي بهدية للصف ، تقويم يعلق ، وانضبط الابن كل شيء له حل ، لما يكون تفكيرك تفكيرا سببيا تتفوق ، وعندما يكون تفكيرك تواكلاً وإرجاء تكون الأمور كلها جامدة ، لفت نظري في الشعوب الأخرى دأبها على العمـــل ، وإتقانها له ، ويؤلمني في بلاد المسلمين عدم إتقانها للعمل ، وميلها إلى الراحة .

النبي صلى ا عليه سلم قال : **اللهم بارك لِأُمتي في بكُورها** *

[رواه الترمذي عن صخْر الغَامدي] .

وا في سفرتي الأخيرة إلى أمريكا ، وكان شروق الشمس على الساعة الثامنة ، في الخمسة والنصف الطرقات مزدحمة بالناس الذاهبين إلى العمل ، عندنا للحادية عشر لا توجد حركة والمحلات التجارية مغلقة ، ولا دائرة ، هل هذا من الإسلام ، أين قول الرسول صلى ا عليه وسلم : **اللهم بارك لِأُمتي في بكُورها**" ، فإذا برمج الإنسان نفسه ؛ رتب أموره ، سجل مواعيده ، ومنجزاته تفوق ، نحن بحاجة إلى نظام ، بحاجة إلى أن نأخذ بالأسباب ، معنا الحق ، وغيرنا معه الباطل ، على باطلهم يتفوقون ، وعلى حقنا نقصر .

لا يستقيم توكلُ العبد حتى يصح له التوحيد ، إذا رأيت الأمر بيد زيد أو عبيد ، وتوكلتَ على من ليس بيده الأمر ، فهذا من ضعف التوحيد ، ورأيت أن الأمر بيد فلان ، فلا تأخذ بالأسباب ، ولا تتوكل على ا ، ولكن تتجه إلى فلان ، فلان عبد ضعيف فقير ، وهذا مما يتناقض مع التوكل لأنه الشرك الخفي ، كل إنسان يتعامل مع أشخاص على أنهم يرفعون أو يخفضون ، يعطون أو يمنعون يسعدون أو يشقون ، ويعتقد أنهم كذلك ، فإن توكله ضعيف ، لك قريب قوي ، فتعلق الأمل عليه ، ولا تسأل ا َ ذلك ، بل نسيت ا عز وجل ، هذا هو الشرك الخفي ، لذلك لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له التوحيد ، بل التوحيد حقيقة التوكل ، وا عز وجل وحده هو المعطي والمانع والرافع والخافض والمعز والمذل ، وحده ، فأي توحيد اختل ميزانه اختل معه التوكل ، فأنت إن أيقنت أن ا بيده الأمر كله ، تتوكل عليه ، أما إن توهمت أن الأمر بيد غيره تتوجه إلى غيره .

وقال العلماء : حقيقة التوكل توحيد القلب ، فما دامت فيه علائق الشرك فالتوكل معلول ومدخول ، وعلى قدر التوحيد يكون التوكل ، فالعبد متى التفت إلى غير ا عز وجل أخذ الإلتفات شعبة من شعب قلبه ، فنقص من توكله على ا ، بقدر ذهاب تلك الشعبة ، ومن هنا ظننا الظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب ، أنت مؤمن وموحد وترى أن الأمر كله بيد ا ، ولكن ا جعل لكل شيء سببا ، تتوسط فلانًا ، وتكتب استدعاء ، وتقدم اعتراضا ، وترفع مذكرة ، وتقيم دعوى وتأخذ بالأسباب كلها ، هذا التوكل صحيح ، إياك ثم إياك أن تتوهم أن الأخذ بالأسباب يتناقض مع التوكل ، لا وا ، أما التوكل يتناقض مع الشرك الخفي

، الإنسان حينمـ ـا يشرك مع ا جهة قوية عندئذ ينسى ا عز وجل ، ولا يتوكل .

التوكل محله القلب ، والأخذ بالأسباب محله الجوارح ، فإذا عكس الأمر انتهى التوكل ، التوكل مكانه القلب ، فأنت تأخذ بالأسباب وقلبك معلق با ، أما الذي لا يأخذ بها وقلبه معلق بغير ا هذا فقد ركني التوكل .

التوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب ، وتعلق الجوارح بها الأعضاء والجوارح مكان الأخذ بالأسباب ، القلب مكان التوكل ، هذا نقطة ثانية .

النقطة الثالثة : علاقة التوكل بالتوحيد ، أنت تتوكل ويصح التوكل إذا أخذت بالأسباب ، سيدنا عمر سأل أناسا فقراء : من أنتم ؟ قالوا : نحن المتوكلون ، فقال رضي الله عنه : كذبتم ، المتوكل من ألقى حبة في الأرض ثم توكل على ا ، كذبتم .

مرة رجل وجد بالطواف في أثناء الحج ، لوزة ، رفع عقيرته ونادى من صاحب هذه اللوزة ؟ سمعه عمر رضي الله عنه ، وكان يكره التظاهر ، قال له كلها يا صاحب الورع الكاذب ، لوزة تقول من صاحبها .

إن شاء ا في درس قادم نتابع موضوع التوكل والحمد رب العالمين .

بسم ا الرحمن الرحيم

الحمد رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وأرضى عنا ، وصلى ا على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبة وسلم .

والحمد رب العالمين .

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون ؛ مع الدرس الثالث والثمانين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ولا نزلنا في منزلة التوكل ، تحدثت في الدرس الماضي عن علاقة التوكل بالأخذ بالأسباب ، وبينت أنه لا يتناقض الأخذ بالأسباب مع التوكل ، لأن التوكل محله القلب ، والأخذ بالأسباب محله الأعضاء ، ومتى نقل التوكل إلى الأعضاء كان التواكل ، والتواكل دمر الأمة الإسلامية ، وما من موضوع المسلمون في أشد الحاجة إليه أكثر من أن يفهموا معنى التوكل ، أن يأخذوا بالأسباب وكأنها كل شيء ، ثم يتوكلون على ا وكأنها ليست بشيء ، يأخذ بالأسباب على أنها أسباب وقد أُمر الإنسان أن يأخذ بالأسباب ، لكن قلبه معتمد على ا ، مستسلم له مفوض له ، راض بحكمه ، وبينت أيضاً علاقة التوكل بالتوحيد ، وأن الإنسان إن ضعف توحيده ضعف توكلـه ، أنت حينما تدعى إلى أن تعتمد على زيد ، وتتوهم أن الأمر بيد عبيد ، يضعف اعتمادك عليه ، إذا دعيت إلى أن تعتمد على زيد ، وأنت متوهم أن الأمر بيد عبيد ، لن تتوكل على زيد ، لأن وهمك يصور لك أن الأمر بيد عبيد ، فكلما ضعف التوحيد ضعف التوكل ، وكلما أيقن الإنسان أن الأمر بيد ا وحده وأنه لا رافع ولا خافض ، ولا معز ولا مذل ، ولا معطي ولا مانع ، ولا قابض ولا باسط ، إلا ا جعل همه هماً واحداً فكفاه ا الهموم كلها ، وعمل لوجه واحد فكفاه ا الوجوه كلها ، هذا في الدرس الماضي .

وأقف مليا عند علاقة التوكل بحسن الظن با ، ذكرت مرة أن الإنسان في علاقاته مع بني البشر ، يدعو إنساناً إذا كان موجوداً ، و يدعوه إذا كان قريباً منه ، ويدعوه إذا كان يسمعه ، ويدعوه إذا كان قادراً على تلبية طلبه ، ويدعوه إذا كان محباً له ، فإذا دعوتَ ا عز وجل ، فأنت مؤمن بوجود ا مؤمن بسمعه وبصره وعلمه ، مؤمن بقربه ، مؤمن بقدرته ، مؤمن بمحبته ، فكيف يتوكل الإنسان على ا وهو سيئ الظن به .

حينما تقرأ قوله تعالى :

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الأنبياء : من الآية "٢٣") .

بإمكانك أن تفهم هذه الآية كما ورد تفسيرها في بعض الكتب ، أضرب مثلاً ؛ لو أن نجارا عنده لوحتان من خشب ، وضـ ـع إحداهما باباً لمرحاض ، ووضـ ـع الأخرى

باباً لقصر ، ألك أن تقاضيه ؟ لا ، لأن اللوحتين ملكه ، هكذا كلام يقال ، ولكن ما قولك لو فهمنا قوله تعالى " لا "

لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾

وأضرب لذلك مثلاً آخر ؛ أجرى أستاذٌ امتحاناً وصحح الأوراق ، وعرض السلم على السبورة ووزع الأوراق ، فكل طالب تتبع ما كتب وما يستحق فإذا بدرجته أخذها دقيقة جداً ، دون زيادة أو نقصان ، فقال الأستاذ هل من سؤال ؟ كل الطلاب سكتوا ، ما الذي أسكتهم ؟ عدله .

لِم لا تفهم قوله تعالــى هكذا ، عدلُه أسكت الألسنة ، أم هناك معنًى آخر ، وهو أن الإنسان مقهور بالوسيلة ، أنت ينبغي أن تكــون في حلب غداً ، فلا بد من سيارة ، فالسيارة وسيلة ، والغاية حلب ، أنت مضطر إلى الماء لمزرعتك ، لا بد من حفر بئر ، فحفر البئر وسيلة ، والهدف إخراج الماء ، أنت مضطر أن تأكل قمحاً ، لا بد من زرع القمح ، الإنسان ضعيف ، ومن أنواع ضعفه أنه مقهور بالوسائل ، الإنسان لضعف بصره يستخدم الميكروسكوب ، ولقصور بصره يستخدم التلسكوب ولضعف يده يستخدم المباضع ، لا يستطيع بإصبعه فتح بطن إنسان ، لا بد له من مشرط فكل أداة يستخدمه الإنسان هي امتداد لأعضائه ، أو وسيلة يتغلب بها على ضعفه ، فالإنسان مقهور بالوسيلة أما ربنا عز وجل لكمال قدرته كن فيكون ، ما في عند الله وسائل ، فإذا إنسان تطفل وسأل لماذا فعل الله هكذا ، كأنه يجعل الله عز وجل في صفة الإنسان ، يعني يحتاج إلى وسيلة ليحقق غاية ، لذلك جاء الجواب من الله عز وجل " **لا يسأل عما يفعل** " .

إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾

(سورة يس : ٨٢) .

الإنسان مقهور بالوسيلة ، لكن الله عز وجل منزه ، ولكمال قدرته أمره ينفذ فوراً ، حتى أن بعض علماء التوحيد قالوا كلمة كن تحتاج إلى وقت ، هذه قالها الله للتقريب ، بين أمره وبين تحقيق أمره مسافة زمنية ، قال هذا تقريباً لعلمنا ، أما أن تفهـــم " **لا يسأل عما يفعل** " أنّه قد يضع إنسانًا أمضى حياته في طاعة الله في النار ، لماذا ؟ لأنــه " **لا يسأل عما يفعل** " ولماذا يضع إنساناً أمضى حياته في المعاصي في الجنان ؟ قال لأنه " **لا يسأل عما يفعل** " فإذا توهمت أن الله قد لا تتوكل عليه فإن سوء الظن بالله يضعف التوكل ، كما أن عدم الأخذ بالأسباب يتناقض مع التوكل ، وكما أن ضعف التوحيد يضعف التوكل ، فإن سوء

الظن با   عز وجل يضعفه أيضا ، أنت حينما تتعامل مع إنسان قوي ليس عنده قاعدة ، ولا يسأل عن أخطائه ، قلما تعتمد عليه ، أما إذا كان يملك قواعد واضحة فأنت مطمئن ، قال تعالى :

وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾

(سورة سبأ : من الآية "١٧") .

قاعدة هي :

وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ

(سورة الشورى : ٣٠) .

قاعدة هي :

مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ

(سورة النساء : من الآية "١٤٧ ") .

قاعدة هي :

وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾

(سورة الجن : ١٦) .

قاعدة هي ؛ يعني أن القرآن كله قواعد ، نبحث في القرآن الكريم عن القواعد ، أو عن السنن ، أو بحسب مصطلح القرآن الكريم عن الكلمات .

وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ

(سورة الأنعام من الآية"٣٤ ") .

في القرآن قوانين المقدمات تفضي إلى النتائج ، حتماً .

مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً

(سورة النحل : من الآية "٩٧ ") .

في أي بلد ، وبصرف النظر عن أوضاع أي بلد ، وبصرف النظر عن الشدة التي قد تحيط ببلد ، وبصرف النظر عن تفلت الناس من منهج ا   " **من عمل صالحا من ذكر أو**

أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة " .

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾

(سورة طه : ١٢٤) .

التعامل مع ا سهل جداً ، إنه تعامل مع قوانيـ ـن ، لأن ا من رحمته جعل للتعامل معه قواعد ، وا عز وجل رسم لنا كي نصل إليه ألف طريقٍ وطريق ، منها الصدقة قال عليه الصلاة والسلام :

باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطى الصدقةَ .

[رواه الطبراني في الأوسط من حديث علي وأبو الشيخ من حديث أنس رضي الله عنه] .

صدقة السر تطفئ غضب الرب .

[أخرجه الطبراني في الصغير عن عبد ا بن جعفر] .

الصدقة طريق ، والدعاء طريق ، الاستغفار طريق ، والصلاة طريق ، والصيام طريق وبر الوالدين طريق ، ورعاية الأيتام طريق ، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، لأن ا يحبنا ، ويحب أن يرحمنا ، لذلك رسم لنا ألف طريقٍ وطريق ، أما الإنسان القوي ، قد لا تستطيع أن تصل إليه طوال حياتك ، أما ربنا عز وجل ، رسم لنا آلاف الطرق ، فلذلك حسن الظن با ، يحبنا يريد أن يتوب علينا ، خلقنا ليسعدنا .

إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ

(سورة هود : من الآية "١١٩") .

خلقنا ليسعدنا ، خلقنا ليرحمنا ، خلقنا ليغفر لنا إذا استغفرناه ، ليعيننا إذا أستعن به ، ليجيبنا إذا دعوناه ، ليعطينا إذا سألناه ، ليتوب علينا إذا تبنا إليه ، حسن الظن با يحملك على التوكل عليه .

وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

(سورة المائدة : من الآية "٢٣") .

فالتوكل من لوازم الإيمان ، ومن لم يتوكل على ا فهو بعيد عن الإيمان ، قال العلماء : على قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه ، وهذا ما دفع بعض العلماء إلى أن يفسروا التوكل بحسن الظن با ، والنبي عليه الصلاة والسلام وهو في مرض

الموت ، قدم له دواء لذات الجنب ، وهو مرض خطير ، فقال عليه الصلاة والسلام : ذلك مرض ما كان ا ليصيبني به ، من باب حسن الظن با ، وأنا أقول لكم : المؤمن المستقيم لا يفضحه ا ، يلبسه تهمة باطلة ، يدمره هذا مستحيل ، من باب حسن الظن .

فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا

(سورة الطور من الآية "٤٨") .

بل إن بعض العلماء قال : الآيات التي هي موجهة للنبي عليه الصلاة والسلام ، هي بشكل أو بآخر بحسب إيمان المؤمن موجهة إليه أيضاً بالتبعية ، فإذا قال ا عز وجل " **فإنك بأعيننا** " وكل مؤمن على قدر إيمانه ، وعلى قدر توحيده ، وعلى قدر استقامته ، وعلى قدر إخلاصه هو بعين ا عز وجل ، يجب أن تعتقد أن ا لا يتخلى عنك ، يجب أن تعتقد أن ا حينما قال :

قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا

(سورة التوبة من الآية"٥١") .

" **لنا** " ، لم يقل علينا ، فرق شاسع بين أن تقول : " **قل لن يصيبنا إلا ما كتب ا لنا** " وبين أن تقول : قل لن يصيبنا إلا ما كتب ا علينا ، الكلام الدقيق أن حسن الظن با يدعو إلى التوكل عليه ، إذ لا يتصور توكلٌ على من ساء ظنك به ، ولا توكل على من لا ترجوه ، وا أعلم ، إذاً أحد أسباب حسنِ التوكل حسن الظن با ، أحد أسباب التوكل الصحيح التوحيد ، أحد شروط التوكل الأخذُ بالأسباب .

وهناك علاقة أخرى بين التوكل وبين استسلام القلب عز وجل ، طفل صغير عمره أربع سنوات في بيت والده ، إذا ارتفع سعر الوقود السائل لا يهتم الطفل ، والده لا يملك قوت يومه لا يهتم الأب يحمل هما كبيرا ، والابن مرتاح ، لا يهتم لطعام ، ولا لشراب ، ولا لتدفئة ، ولا لثياب ، همه عند والده ، يعني المؤمن من باب أولى ، ما دام ا عز وجل هو الغني ، الغنى المطلق ، وهو القادر على كل شيء ، وهو الرحيم ، وهو اللطيف ، وهو السميع ، وهو المجيب ، ينبغي أن يستسلم ، لك أيها المؤمن مهمة واحدة أن تطيعه فقط ، والباقي على ا ، قال تعالى :

بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾

(سورة الزمر من الآية "٦٦") .

انتهت مهمتك عند الطاعة ، ولا تسأل يا ترى يعطيني ، هو حكيم ، يعطيني كثيراً لا أدري يعطيني قليلاً فأنا راضٍ ، يعافيني فالحمد ، مرضتُ فأنا صابر على حكم ا ، يعطيني زوجة من الدرجة الأولى الحمد ، من الدرجة العاشرة الحمد ، يعطيني أولادا متفوقين يا ربي لك الحمد مقصرين يا ربي أعني على تربيتهم ، حالة استسلام رائعة ، المؤمن لا هم له ، همه ا ُ عز وجل وهو حكيم ، وعليم ، وسميع ، ومجيب ، وقريب ، فحينما تضع همك في ا عز وجل يكفيك الهموم كلها ، وهذا يحتاج إلى استسلام ، طفل لا يملك دينارا ولا درهما والده مليونير ، هل يشعر هذا الطفل فالعلماء قالوا هذا الطفل غني بغنى أبيه ، لو لم تجد بجيبه ولا درهم فهو غني ، والآن أقول لكم ، لو أن المؤمن فقير بالمعنى المادي هو غني عند ا ، لأنه إذا سأله أعطاه ، وإذا دعاه أجابه ، وإذا ابتهل إليه لباه ، وإن استغاثه أغاثه ، وإذا استنصره ينصره ، وإن استعان به أعانه ، وإن سأله أعطاه ، وإن تاب إليه تاب عليه ، فالمؤمن غني با عز وجل ، هناك حالات للتعفف لا يمكن أن تفسر ، إلا بحالة واحدة هي ثقة الإنسان با عز وجل .

أحد الخلفاء حج بيت ا الحرام والتقى بعالم جليل ، وقال له : سلني حاجتك ، أراد أن يتقرب إلى ا في تلبية حاجة هذا العالم ، فقال له : وا إني لأستحي أن أسال غير ا في بيت ا فالتقاه خارج بيت ا ، قال له : سلني حاجتك ، قال له : وا ما سألتها من يملكها ، أفأسألها من لا يملكها ، ثم ألح عليه ، قال له : سلني حاجتك ، قال له : أريد أن تدخلني الجنة ، وأن تنقذني من النار قال له : هذه ليست لي ، قال له : إذًا ليس لي عندك حاجة .

ما هذه العفة ، المؤمن عزيز ، لا أجمل من إكرام الغني للفقير ، والأجمل من ذلك تعفف الفقير عن مال الغني ، ثقة با عز وجل ، ملك الملوك إذا وهب هذا بيت شعر ، والبيت أصله لا تسألن عن السبب ، أنا عدلته :

ملك الملُوك إذَا وهـ ب ... قُم فَاسأَلن عن السبـ ب

الله يعطي من يشَـ ـاء ... فَقفْ علَى حـ ـد الأدب

الذي أعطاه يعطيك ، والذي أكرمه يكرمك ، والذي قربه يقربك ، والذي أعانه على حفظ كتاب ا يعينك أنت أيضاً ، والذي يسأله يعطيه ، لماذا تحب أن تكون تحت رحمة إنسان ، كن تحت رحمة الواحد الديان ، فاستسلام القلب إلى ا ، وانجذابه إليه ، وقطع المنازعات ، هو التوكل .

في قلب المؤمن من التوكل والاستسلام والراحة ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم ، وفي قلب غير المتوكل من القلق والخوف والضياع والتوتر ما لو وزع على أهل بلد لأشقاهم .

يقال : المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي المغسل ، لا ، ليس هذا صحيحاً ،

والدليل أن النبي عليه الصلاة والسلام أمر أنصارياً على بعض أصحابه ، وقد ورد في السيرة أن هذا الأنصاري كان ذا دعابة ، فعن علي رضي الله عنه قَالَ **بَعَثَ النَّبِي صلى الله عليْه وسلم سَرِيةً وَأَمر عليْهِمْ رجلًا مِنْ الْأَنْصارِ وَأَمرهمْ أَنْ يطِيعوه فَغَضِب عليْهِمْ وقَالَ أَلَيْس قَدْ أَمر النَّبِي صلى الله عليْه وسلم أَنْ تُطِيعونِي قَالُوا بلَى قَالَ قَدْ عزمْتُ عليْكُمْ لَما جمعْتُمْ حطَبا وَأَوْقَدْتُمْ نَارا ثُم دخَلْتُمْ فِيها فَجمعوا حطَبا فَأَوْقَدوا نَارا فَلَما هموا بِالدخُولِ فَقَام ينْظُر بعْضهمْ إِلَى بعْضٍ قَالَ بعْضهمْ إِنما تَبِعْنَا النَّبِي صلى الله عليْه وسلم فِرارا مِنْ النَّارِ أَفَنَدْخُلُها فَبيْنَما همْ كَذَلِك إِذْ خَمدتْ النَّار وسكَن غَضبه فَذُكِر لِلنَّبِي صلى الله عليْه وسلم فَقَالَ لَوْ دخَلُوها ما خَرجوا مِنْها أَبدا إِنما الطَّاعةُ فِي الْمعْروفِ ***

(رواه البخاري)

لا تقبل من إنسان شيئًا إلا بالدليل ، ولا ترفض شيئاً إلا بالدليل ، والكلمة القاطعة الحاسمة الدليل من كتاب ا أو سنة رسوله ، كان عمر وقافاً عند كتاب ا ، فا عز وجل هو الحكيم ، وهو العليم ، وهو القوي ، هناك ملمح لطيف في قول ربنا عز وجل :

وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ

(سورة الممتحنة من الآية ٢ ") .

قيدت معصية النبي في معروف ، مرة كنت في الحج أو العمرة لا أذكر ، حضرت درسا في الحرم بين المغرب والعشاء ، الذي يلقي هذا الدرس قال : رجل محب عز وجل قال له ابنه : إنني لا أحب اليقطين فقتله ، لأن النبي كان يحب اليقطين ، حبه لليقطين ليس حكماً شرعياً ، هو قضية شخصية ، أنا وا استنكرت هذا الكلام ، إنه كلام غير منفر ، تسمع أن ثلاثين رجلاً قتلوا في تركيا جريمة من غير ذنب ولا جريمة ، لا ، هذا ليس من الدين في شيء ، يا ربي أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ، قال أحب عبادي إلي ، تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يمشي لأحد بسوء أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي ، قال يا ربي إنك تعلم أني أحبك ، وأحب من يحبك ، فكيف أحببك إلى خلقك ، قال ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي ، دائماً عدو الدين يسعى جاهداً لتنفير الناس من الدين ، أو لتشويه صورة المؤمن ، بشكل يدعو للنفور الشديد ، إذا كان ابن ما أحب اليقطين ، لا شيء عليه ، أما إذا ما صلى ، إذا ما صام ، هنا المشكلة ، فدائماً الإنسان قبل أن ينطق ، يجب أن يقول كلاماً يحبب العباد إلى ا عز وجل ، لذلك قال بعض العلماء : العوام لئن يرتكبوا الكبائر أهون من أن يقولوا على ا ما لا يعلمون ، أهون بكثير ، بل إن ا عز وجل حينما ذكر بعض المعاصي والأثام ، رتبها ترتيباً تصاعدياً بدأ بالفحشاء والمنكر والأثم والعدوان والشرك والكفر وجعل في رأس هذه المعاصي .

وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾

(سورة الأعراف من الآية"٣٣") .

كتب عليه الكفر قبل أن يخلق ، وجاء إلى الدنيا وأجبره على أن يكون كافراً ، أجبره على أن يزني ، أجبره على أن يشرب الخمر واستحق جهنم إلى الأبد ، ما قولك بهذا الكلام .

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا

(سورة الأنعام من الآية "١٤٨") .

عقيدة الجبر عقيدة أهل الشرك ، فهناك كلام منفر ، هناك من يقول كلاما فيقطع الناس عن ا عز وجل ، ينفرهم من ا عز وجل ، يبعدهم عن الدين ، إذاً استسلام القلب ، وانجذابه إليه وأن يكون العبد بين يدي ربه كالميت بين يدي مغسله .

اللهم كما دعا النبي الكريم في الطائف : **اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس يا رب المستضعفين ، إلى من تكلني ـ** إلى أن يقول ـ **أن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، لكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أضاءت له الظلمات ، و صلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بي سخطك ، أو تحلّ علي غضبك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا با العلي العظيم .**

يجب أن تستسلم ، لأن ا كماله مطلق ، و الأسماء الحسنة فادعوه بها ، وقال بعضهم : التوكل إسقاط التدبير ، والاستسلام لتدبير الواحد الكبير ، في غير الأمر والنهي ، وفوق الاستسلام التفويض ، وهناك علاقة بين التوكل والتفويض ، والتفويض هو روح التوكل ، وهو إلقاء الأمور كلها إلى ا عز وجل ، وإنزالها به طلباً واختياراً ، لا كرهاً واضطراراً ، كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كل أموره إلى أبيه ، العالم بشفقته عليه ورحمته به ، وتمام كفايته ، وحسن ولايته وتدبيره ، فالابن الضعيف يرى أن تدبير الأب خير من تدبيره لنفسه ، ورد في بعض الأدعية النبوية : اللهم خر لي واختر لي ، بربك لو دخلت إلى صديق لك يبيع قطع الذهب والماس ، قال لك عندي هدية ، اختر من هذه القطع ما يعجبك أنت ذكي جداً ، قلت لا وا ، أنت اختر لي ، إذا كان يحبك حباً جما ماذا يفعل ، أنت استعرت خبرته ، واستعرت محبته وإخلاصه ، فانتقى لك أغلى قطعة ، لأنك قلت له أنت اختر لي ، قال لك اختر قطعة من هذه القطع ، قد يكون حجمه كبيرا ، وقد يكون حجمها صغيرا فيها الماس ، وثمنها خمسة أضعاف ، لما قلت له : اختر لي أنت ، وهو يحبك ، وهو

كريم سوف يختار لك أغلى قطعة في محله ، لأنك قلت له خر لي واختر لي ، وأنت حينما تفوض ، وحينما تستسلم ، وحينما تحسن الظن با ، وحينما توحد ، بعد أن تأخذ بالأسباب ، وتتوكل عليه ، سيأتيك أفضل من أي سعي وكد ، من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين ، لكن نحتاج إلى حسن ظن با ، فإذا أخذت بالأسباب وكأنها كل شيء وتوكلت على ا وكأنها ليست بشيء ، ثم قوي توحيدك ، وحسن ظنك واستسلمت إلى ا ، وفوضت أمرك إليه ، فإنه ينقلك إلى درجة هي أروع درجة في الدين ، درجة الرضا عن ا .

رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ

(سورة المائدة من الآية "١١٩") .

كان رجل يطوف حول الكعبة فقال : يا رب هل أنت راضٍ عني ، وكان وراءه الإمام الشافعي ، فقال له : يا هذا هل أنت راض عن ا حتى يرضى عنك ، قال : يا سبحان ا ، من أنت يرحمك ا ؟ قال له : أنا محمد بن إدريس ، قال له : كيف أرضى عنه وأنا أطلب رضاه ، قال له يا هذا إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن ا ، فأي إنسان حتى إذا كان ضعيف الإيمان ، حتى إذا كان ما في إيمان إطلاقاً ، إن أعطاه ا صحة رضي عن ا ، وأعطاه ا مالاً رضي ، أو أعطاه ا عزاً ، وزوجة ، وأولاداً ، ومكانة رضي عن ا ، هذا شيء بديهي ، لكن البطولة أن ترضى عنه وأنت مريض ، وأنت ضعيف ، وأنت فقير ، وفي بيتك مشكلة ، وفي أولادك مشكلة ، هنا الامتحان ، بربكم هل رأيتم إنساناً واحداً يمتحن مركبة في طريق نازل ؟! لا تمتحن المركبة إلا في الطريق الصاعد ، والإنسان لا يمكن أن يمتحن في الرخاء ، لا يمتحن إلا في الشدة والأنبياء الكرام وعلى رأسهم النبي عليه الصلاة والسلام مروا بمضائق صعبة جداً ، وكل مؤمن صادق لا بد من أن يمر بمضائق على قدر إيمانه ، أشد الناس بلاء الأنبياء وأنا أشدهم بلاء ثم الأمثل فالأمثل ، وطن نفسك ، أنت راضٍ عن ا في الرخاء والشدة ، وفي المنشط وفي المكره ، وفي إقبال الدنيا وإدبارها ، بزواج أو من دون زواج ، بدخل أو من دون دخل ، بالصحة أو بالمرض بإقبال الدنيا أو بإدبارها ، أنت راضٍ عن ا ، هذا المؤمن .

مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾

(سورة الأحزاب من الآية "٢٣") .

أما ضعاف الإيمان قالوا :

﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (١٢)

(سورة الأحزاب من الآية "١٢") .

هؤلاء ضعاف سقطوا ، إذاً هذا الحال ؛ حال التفويض ينقلك إلى مرتبة الرضا عن الله عز وجل ، والرضا عن الله عز وجل من أعلى الدرجات ، بل هو ثمرة من ثمار التوكل .

حدثني إنسان يعمل في فعل الخير ، قال لي : دخلت على إنسان حجمه المالي كبير جداً فشكا لي حاله وبيته وزوجته وأولاده ، هموم كالجبال ، قال لي : لحكمة أرادها الله عز وجل ، في اليوم نفسه جاءتني امرأة محجبة تطلب مساعدة ، سألتها عن مكان سكنها ، فقالت خارج دمشق ، في المساء التقى مع جمعية خيرية ، أخذ عنوانها ، بعد ما انتهى الاجتماع قال لهم : هناك امرأة يجب أن نزورها لنتحقق من حالتها ، فقاموا معه ، ودخلوا البيت ، والبيتُ تحت درج المنطقة المنخفضة دورة مياه ، الأعلى بقليل حمام الأعلى غرفة ، مع فتحة صغيرة سماوية ، تحت درجة ، البيت نظيف أولاد كالزهور ، لباسهم نظيف ، والزوج مريض ، مستلقٍ على السرير ، البيت قطعة من الجنة المرأة المحجبة المؤمنة طلبتْ المساعدة ، هي ألف ليرة في الشهر ، قالوا بل هي ألفا ليرة ، فقالت له : لا ألف تكفي أجرة البيت ، الله عز وجل على كل شيء قدير ، يشقي الإنسان وهو غني ، وقد يسعده وهو فقير ، هي السكينة ، تسعد بها ولو فقدت كل شيء ، فربنا عز وجل إذا تجلى على قلب إنسان ملأه غنًى ، وملأه طمأنينة ، واستقراراً ، وتفاؤلاً ، فأنت ترضى عن الله .

لذلك يا ربي لك الحمد والشكر والنعمة والرضى ، بعد أن تقول سمع الله لمن حمده ، ربنا لك الحمد والشكر والنعمة والرضى ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً ، أن ترضى عن الله هذا قمة الإيمان تعرفه ، ترضى عنه في كل ما يعطيك ، إذا قلت : يا ربي لك الحمد أنا راضٍ عنك فقد نجحت ، وإذا نجحت أزاح الله عنك كل بلاء ، فإذا رضيت ارتقيت عند الله عز وجل ، بطولتك أن تقول وأنت في محنة : يا ربي لك الحمد ، لأن المحن هي في الحقيقة منح ، المحنة منحة ، والشدة شَدة إليه .

أخ من إخواننا كان شاردا ، وكان مسرفاً على نفسه في المعاصي ، لا صلاة ، ولا صوم ولا شيء إطلاقاً ، ثم عرف الله عز وجل ، على أثر محنة قاسية جداً مرض مرضا شديدا ، أدخله المستشفى ، قال لي وأنا على طاولة العناية المشددة بكيت ، قلت له : يا رب أتحب أن ألقاك عارياً أعطني فرصة كي أتوب إليك ، فمنحه الله فرصة ، ولزم الدروس ، وأحكم صلاته ، وشعر أنه هو إنسان آخر ، قال لي مرة : أناجي ربي قلت له : يا رب كل هذه السعادة في القرب منك لِم لَم ترسل لي هذا المرض قبل عشر سنوات ، كل هذه السعادة .

إذاً التوكل له علاقة ، التوكل ينتهي بك إلى الرضى .

رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ

(سورة التوبة من الآية "١٠٠") .

وهناك معنى آخر ؛ إذا لم تكن الآن راضيا فسوف ترضى .

وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾

(سورة الضحى الآية "5") .

يرضيك فيما بعد ، يقول الطبيب للمريض : تحمل الآن وسترتاح بعد ذلك ، نحن الآن بطور المعالجة ، الحزن خلاق ، والإنسان أيام الشدة يتألق ، والحزن يقربك من ا عز وجل ، ويدعوك إلى الاستسلام ، الحزن يذيقك طعم القرب منه ، هذا كلام قطعي ، عن جابِرِ بنِ عبد الله َأن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم دخَلَ على ُأم السائِبِ َأو ُأم الْمسيبِ فَقَالَ **ما لَكِ يا ُأم السائِبِ َأوْ يا ُأم الْمسيبِ تُزفْزِفين قَالَتْ الْحمى لَا بارك الله فيها فَقَالَ لَا تَسبي الْحمى فَإِنها تُذْهب خَطَايا بني آدم كَما يذْهب الْكير خَبثَ الْحديد** *

(رواه مسلم)

كل ما يبتلى به المؤمن تكفير وتقريب .

ورد في الأثر القدسي وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها ، سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه .

إذا كان ا عز وجل فضل علينا ، وكنا على شفي القبر طاهرين ، موفية معنا المؤمن حينما يرى مقامه في الجنة وهو على فراش الموت يقول لم أر شراً قط ، والكافر والعياذ با حينما يرى مكانه في النار يقول لم أر خيراً قط ، بكون ساكن بأحلى بيت معزوم شي ألفين عزيمة ، مو مخلي محل بالعالم مو زايرو ، ونازل بمئة فندق خمس نجوم بقلك لم أر خيراً قط .

سيدنا علي يقول : **يا بني ما خير بعده النار بخير وما شر بعده الجنة بشر ، وكل نعيم دون الجنة محقور وكل بلاء دون النار عافية .**

قد يكون الإنسان في الدرجة الاجتماعية السفلى ، ولكنه عند ا كبير ، فلا توازن نفسك مع أحد ، وازن نفسك مع منهج ا ، فإذا كنت مطيعاً أنت الأولي فأنت في الدرجات العليا ، وإن قلامة ظفرك تساوي مليار إنسان مترف غني بعيد عن منهج ا .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة إبراهيم الآية"٤٢") .

كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله ، إذًا أنت بالطاعة نم قرير العين ، فأنت الفائز .

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة الأحزاب من الآية "٧١") .

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يعيننا على أن نتمثل هذه المنازل، ومن هذه المنازل منزلة التوكل .

والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارض عنا وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبة وسلم .

والحمد لله رب العالمين

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون ؛ مع الدرس الرابع والثمانين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والمنزلة اليوم منزلة الشوق إلى ا عز وجل أصل هذه المنزلة من قوله تعالى :

مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ

(سورة العنكبوت من الآية "5") .

" **يرجو لقاء ا** " أي هو مشتاق إلى ا ، هذه المنزلة تنطلق من هذه الآية ، وكأن ا عز وجل يطمئن هذا المشتاق ، أنه لا بد من أن تصل إلى مطلوبك ، لا بد من أن تصل إلى محبوبك ، لا بد من أن تقر عينك با عز وجل "

مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ

أنتم الآن في دار عمل ، والآخرة دار الجزاء ، نحن في دار التكليف والآخرة دار التشريف نحن في دار السعي ، والآخرة دار اللقاء ، لذلك المؤمن وعده ا عز وجل بجنات عرضها السماوات والأرض هذا ورد في معنى قوله تعالى :

۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ

(سورة يونس من الآية ٦ ") .

الزيادة النظر إلى وجه ا الكريم ، وهناك مرتبة فوق الزيادة .

وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ

(سورة التوبة من الآية "٧٢") .

فالدرجة الأولى الجنة وما فيها ، من أنهار ، وأشجار ، وحور عين ، وولدان مخلدين ، ثم ما فيها من نظر إلى وجه ا الكريم ، ثم ما يناله المرء من رضوان ا عز وجل لقول ا عز وجـل " **ورضوان من ا أكبر** " هذه الجنة تحقق للمشتاق بغيته ، ولكن المشتاق في دار العمل فلو غرق في أحوال أضعفت عمله ، لذلك قال ا عز وجل :

مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ

اطمأن أيها المؤمن ، ولعله إذا قرأت قوله تعالى يذوب قلبك :

وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥

(سورة الضحى من الآية "5") .

وكأن هذه الآية تشير إلى أن المشتاق سيصل إلى محبوبه ، قال هذه الآية في قوله تعالى

مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ

في هذه الآية تعزية للمشتاقين ، وتسلية لهم ، أي أن الله عز وجل يعلم أنه من كان يرجو لقاءه فهو مشتاق إليه ، لقد أجل له اللقاء ، ولكن كل آت قريب ، وفي النهاية سيصل إلى محبوبه ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يسأل الله عز وجل في دعائه الشريف الطويل :

أَسأَلُكَ لَذةَ النظَرِ إلى وجهِكَ والشوقَ إلى لِقائِكَ في غَيرِ ضراءَ مضرةٍ ولا فتْنَةٍ مضلةٍ اللهم زينا بِزينَةِ الإيمانِ واجعلْنَا هداةً مهتَدين *

(رواه النسائي عن عمار)

بعضهم يدعو عقب الصلاة فيقول : اللهم أعني على دوام ذكرك وشكرك ، وحسن عبادتك وارزقني الشوق إلى لقائك ، ولذة النظر إلى وجهك الكريم .

فهنيئاً لمن اشتاق إلى الله ، سيغدو الموتُ تحفتَه ، وسيغدو الموتُ عرسَه ، حدثني بعض الأطباء الذين يعيشون في بلاد أمريكا قال : الإنسان يتوافر في حياته الغنى ، والرفاه ، والراحة والأشياء التي يحرص عليها ، لذاك من أكبر مصائبه قرب الموت منه ، فيصاب بانهيار عصبي وبحالة فزع ، أو هلع لا توصف ، لماذا ؟ لأن آماله كلها وضعها في الدنيا ، والموت مصير كل إنسان أما هذا المؤمن ماذا فعل ، وضع آماله في الآخرة ، قدم ماله أمامه ، فسره اللحاقُ به ، جاهدَ نفسه وهواه ، فسره أن يلقى الله وهو عنه راضٍ ، بذل من ماله ومن وقته وجهده وعلمه الشيءَ الكثيرَ ، فهو في رضوان الله عز وجل .

إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦

(سورة الغاشية الآية ٢٥ ـ٢٦) .

تصور إنسانًا قيل له : اذهب إلى بلاد أوربا واحصل بالدكتوراه ولك في بلدك

أعلى منصب وأجمل بيت ، وأفضل امرأة ، وأغلى سيارة ، فهناك درس ، وعمـل في مطاعم ، و الحراسة ، إنه عمل شاق مجهد خطر ، عاش حياةً خشنة ، ذاق من الحياة ما فيه مشقة وجهد ، نال الدكتوراه ، صدق الشهادة ، اشترى بطاقة العودة ، ذهب إلى المطار وضع رجله في سلم الطائرة ، هذه اللحظة هي أسعد لحظة في حياة هذا الطالب ، لأنه انقضى عهد التعب ، والعمل الشاق ، والسهر ، والجهد ، والطعام الخشن ، والمأوى القنوء ، والدخل القليل ، والجهد الكبير ، إلى أعلى منصب ، وأجمل بيت وأفضل امرأة ، وأغلى سيارة ، هذا هو المفهوم المادي .

فهكذا حال المؤمن ، انقضى وقـت التكليف ، وانقضى مجاهـدة النفس والهوى ، وانقضت متاعب الحياة ، وانقضت مقلقاتها ، وبقيت الجنـة ، فلذلك لا يعقل أن يكون المؤمن إلا مشتاقاً عز وجل .

من سيرة رسول ا صَلى الله عَلَيه وَسَلَمَ أنه عقب إحدى الغزوات تفقد أحد أصحابه ، وهو سعد بن الربيع ، سأل عنه فلم يدرِ عنه شيئاً ، كلف أحد أصحابه أن يتفقده في أرض المعركة ذهب فوجده في النزع الأخيـر ، قال يا سعد بن الربيع أنت بين الأموات أم مع الأحياء ؟ قال : أنا مع الأموات ، قال له كلفني النبي أن أتفقد حالك ، قال له : أبلغ رسول ا مني السلام ، وقل لأصحابه لا عذر لكم إذا خلص إلى نبييكم وفيكم عين تطرف ، لا عذر لكم ما معنى ذلك ، أنه كان في أعلى درجات الشوق إلى ا عز وجل وأعلى درجات السعادة .

أحد إخواننا الكرام توفاه ا قبل شهرين ، مرة حج بيت ا الحرام ، ولما عاد ذهبت لتهنئته فقال لي كلمة طربت لها ؛ قال لي : وا يا أستاذ ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني ، فقال لي ابنه البارحة كتبت هذه العبارة على شهادة قبره ، ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني ، فهذا المؤمن الذي أمضى حياته في طاعة ا ، وضبط أعضاءه وجوارحه وأنفق من ماله ووقته وجهده وخبرته وعلمه ، وكان مصدر رحمة للناس ، ومصدر أمن وعطاء للناس هذا الذي أمضى حياته كلها ، أيعقل أن لا يشتاق إلى الجنة .

سيدنا عمر بن عبد العزيز يقول : تاقت نفسي إلى الإمارة فلما بلغتها تاقت نفسي إلى الخلافة فلما بلغتها ، تاقت نفسي إلى الجنة .

فالجنة مطلـب كل مؤمن ، لذلك الفارق الصارخ بين حياة المؤمن وحياة غير المؤمن ، أن المؤمن مشتاق إلى الجنة ، بينما غير المؤمن تعد مقدمات الموت مفزعة له ، رجل صالح ، وكان محسنًا ، وله أياد بيضاء ، كان إذا دخل عليه إنسان يسأله صدقة لجمعية خيرية ، أو لمشروع إنساني يقول له افتح الصندوق وخذ ما تريد ولا تعلمني ، أنشأ مسجدا

، ثم أصيب بمرض عضال ، ُأخبِر من المستشفى ، واتصلوا بأهله ليعلموهم أنه سيموت بعد يومين ، له صديق حميم طلبه ، وقال له : أنا قرب أجلي ، وأعطاه تعليمات كيف ينهي علاقاته التجارية ، قال له في ثلاث صفقات ، صفقة دفع ثمنها ، باعها وانتهت ، ووزع أرباحها على أولادي الصفقة الثانية والثالثة هذه ألغهما فلم يعد في عمري بقية ، وفي اليوم الثاني جمع أهله وأصهاره وبناته وأولاده جميعاً وودعهم ، وله شيخ بالشام الآن ليس في دمشق رده ا بالسلامة ، في اليوم الثالث جاء شيخه مع نخبة من إخوانه ، وقرؤوا له القرآن ، والتهليل ، وكما قيل له بالهاتف في الساعة الواحدة رجعت نفسه إلى بارئها بعدما اغتسل وأنهى كل علاقاته ، الشيء العجيب في القصة أنه إنسان لا يخاف الموت ، لأن عمله طيب .

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

(سورة آل عمران من الآية "١٥٨") .

وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

(سورة آل عمران من الآية " ١٥٧") .

أنا أقول لكم بشكل واقعي الموت يخافه الإنسان ، يخافه حينما يرى نفسه مقصراً ، سيدنا علي يقول : **وا لو علمت غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي .**

قصص كثيرة جداً تجد فيها المؤمن يستقبل الموت وهو راضٍ وهو مستبشر ، قرأت تاريخ سبعين صحابياً جليلاً ، لفت نظري في هذه التواريخ كلها شيئٌ مشتركٌ واحدٌ يجمع بين هؤلاء كلهم كانت أسعد لحظات حياتهم ساعة لقاء ربهم ، هذا كله يندرج تحت الشوق إلى ا عز وجل .

قال لي أخ : أنا أخاف الموت ، قلت له : وا ِ أعلم إذا ضبطت نفسك ضبطاً شديداً واستقمت وعملت أعمالاً صالحة يومية متكررة ، فإن عملك الصالح ، واسقامتك الشديدة هذه تجعلك تشتاق إلى ا ويخف قلقُ الموت عندك ، ومن الواضح جليا أنه كلما ازدادت الذنوب ، وانكشفت العيوب ، وابتعد الإنسان عن ا عز وجل ازداد خوفه من الموت ، بل إن الشارد عن ا عز وجل يكاد قلبه ينخلع من منظر الآس والقبور ، وبعض الناس يخافون ، أو يتشاءمون إذا سمعوا القرآن الكريم ، بينما المؤمن استقامته وعمله الطيب ، يدفعانه إلى أن يشتاق إلى لقاء ا عز وجل .

إذاً أصل هذه المنزلة

مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ

فا سبحانه وتعالى جعل من هذه الآية تعزية للمشتاقين وتسلية لهم وكان عليه الصلاة والسلام يدعو ويقول :

اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم ، والشوق إلى لقائك .

وكان عليه الصلاة والسلام دائم الشوق إلى لقاء ا ، لم يسكن شوقه إلى لقائه قط ، ولكن الشوق مئة جزء ، تسعة وتسعون له وجزء مقسوم على الأمة بأكملها .

فعلى المرء أن يقيم علاقة متينة مع ا ، وأن يكون له اتصال شديد ، وإقبال عالٍ ، ومحبة عز وجل ، هذه تمتص كل آلام الدنيا ومتاعبها ومقلقاتها ، وا ِ الذي لا إله إلا هو إن لم يكن القلب مشتاقًا عز وجل لامتلأ خوفاً ، وقلقاً ، وندماً ، وحزناً وأسفاً ، وضياعاً ، وقلقاً ، وتشتتاً ، هذا القلب لا يطمئن إلا بذكر ا ، فإذا ذكرت ا عز وجل أنساك ا ُ همومَ الدنيا ، وإن غفلت عن ا فوا ِ الذي لا إله إلا هو والشقاء لتَنْبعَن المقلقات والمثبطات وأسباب الحزن نبعاً أمامك ، قال تعالى :

فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

(سورة الشعراء : ٢١٣).

وأضح آية في هذا الموضوع .

أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

(سورة الرعد من الآية "٢٨") .

فالقلوب لا تطمئن إلا بذكر ا .

إن الشوق أثر من آثار المحبة ، المحبة شعور ، من آثار المحبة الشوق إلى ا عز وجل وحكم من أحكامها ، بل إن الشوق هو سفر القلب إلى المحبوب في كل حال ، ولعلّ بعضكم مر بهذه التجربة ، فلو خطبت فتاة راقت في عينك ، وأحببتها حباً جما ، وأنت جالس في البيت تتصورها الآن نائمة ، الآن تدرس ، صورة هذه الفتاة لا تغادر مخيلتك ، هذا هو الشوق ، فإذا كنت مشتاقاً لها فأنت معها ، شئت أم أبيت ، ولو أنها في طرف الدنيا الآخر ، الإنسان جسمه مقيد ، أما نفسه فطليقة أم لها ابن في أمريكا ، هي معه ، في غرفته ، وهي في بلادها تتصوره .

فالشوق إلى ا من نتائجه الحتمية أنك معه ، فهو سفر القلب إلى المحبوب على كل

حال وقال بعضهم : الشوق هو اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب ، وأركز على قضية أحوال القلب ، لأن الدين من دون أحوال يغدو ثقافة وحذلقة ومعلومات ، وكل إنسان يحصل هذه المعلومة ، حتى كما قال بعضهم : " إن حال رجل في ألف أبلغُ من مقالة ألف في واحد "، إنسان محب حقيقة ، وقافٌ عند كتاب ا ، مشتاقٌ إلى ا ، حال إنسان مؤمن صادق في ألف ، بينما ألف مقال لا يؤثر في واحد وألف مقالة فصيحة لا تغير واحدا ، وواحد يغير ألفًا بحاله ، واتصاله با وشوقه إلى ا ، وعزيمته القوية ، وصدقه الشديد ، بينما ألف قول أجوف خال من الإخلاص ، لا يؤثر في واحد ، لهذا الأنبياء كانت حياتهم معجزة .

أحد الصحابة كان يخدم النبي عليه الصلاة والسلام ، يصرفه مساء ، فينام على عتبة البيت يخدم النبي عليه الصلاة والسلام في انجذاب شديد ، فأنت كلما انجذبت إلى ا انجذب الناس إليك .

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ

(سورة آل عمرانمن الآية "١٥٩") .

بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد ، كنت ليناً لهم ، والاتصال من ثماره الرحمة والرحمة من ثمارها اللين ، واللين يجعل الناس يلتفون حولك ، والانقطاع عن ا عز وجل ، من نتائجه الوبيلة قسوةُ القلب ، والقلب القاسي صداه غلظة وفظاظة ، والغلظة والفظاظة يجعلان الناس ينفضان عنك ، فاتصال ورحمة ولين والتفاف ، و انقطاع وقسوة وغلظة وانفضاض ، معادلة رياضية فالشوق أثر من آثار المحبة ، وحكم من أحكامها ، و ا الذي لا إله إلا هو ، إيمان من دون حب إيمان من دون شوق ، علم غزير من دون حال صادق ، كالجسد من دون روح .

لا أحد يتأمل ميتاً ، ربما كان هذا الميت محبوبا مؤمنا لطيفا ، إذا دخل إلى بيته ، هش له أولاده وبشوا ، فإذا مات خافوا أن يدخلوا غرفته ، ما الذي حدث ؟ سحَبت الروح ، فصار مخيفاً وسع الأمرَ ؛ إسلام من دون حب ، جسدٌ من دون روح ، أما الدين فحب وشوق ، تجد المؤمن كالمرجَل لا يتعب ، يعمل ليلاً ونهاراً ، دون تعبٍ أو كلل ، عنده محرك ، هو الحب .

أستاذ بالجامعة له باع طويل في علم النفس ، يعد أحد كبار علماء النفس ، أحيل إلى التقاعد أول مرة يقام له حفل وادع من أرقى الحفلات ، وقد كنت حاضر ، قام وألقى كلمة قال فيها : كل إنسان يجد في نفسه حاجة إلى أن يحب ، أو أن يحَب ، فليس من بني البشر ، لأنك إنسان ينبغي أن تحب ، وينبغي أن تحرص على أن تحب ، وقال بعدها ، والحب أنواع ، في أعلاها أن تحب ا لأنه منحك نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد ،

ثم أن تحب الحقيقة ، وأن تكون مع الحقيقة ، ولو أزعجتك ، أنا أعبر عن هذا لأن الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح ، ثم أن تحب من أمرك ا أن تحبهم ، ولبعض العلماء قولٌ رائع ، قال : هناك حب في ا ، وهو عين التوحيد ، وحب مع ا وهو عين الشرك ، فإذا أحببت إنسانًا فمحبته زادتك حباً في ا ، ومحبة هذا الإنسان عين التوحيد .

وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ

(سورة التوبة من الآية " ٦٢") .

بضمير المفرد ، لأن إرضاء رسول ا عين إرضاء ا وإرضاء ا عين إرضاء رسول ا ، أما إذا أحببت إنساناً ، وحبك لهذا الإنسان أبعدك عن ا ، فهذا حب مع ا ، إذا كانت محصلة هذا الحب قرباً من ا فهذا حب في ا ، وإذا كانت محصلة هذا الحب بعداً عن ا فهذا حب مع ا الحب في ا عين التوحيد ، والحب مع ا عين الشرك .

إنسان له شريك قوي في التجارة ، وإدارته للشركة عالية ، أرباح طائلة ، هذا يحبه فجلس معه ونسي صلاة العصر ، اقترح رفع مستوى المطعم فوافقه ، واقترح بيع الخمر في المطعم ففرح بفكرته ، لقد رضي أن يباع الخمر في هذا المطعم ، لأنه حريص على الدخل ، وهو يحب شريكه هذا حبا مع ا ، هذا حب هو عين الشرك .

أما إذا أحببت إنسانًا فزادتك محبته حباً فهذا الحب في ا ، لذاك حب المؤمنين حب في ا ، وحب العلماء العاملين المخلصين حب في ا ، وحب التابعين حب في ا ، وحب تابعي التابعين حب في ا وحب أصحاب رسول ا حب في ا ، وحب النبي حب في ا ، وحب المساجد ، وحب الأعمال الصالحة ، وحب كل شيء يقربك من ا عز وجل هو حب في ا ، وكل شيء إذا أحببته ضعفت صلاتك ، أو سهوت عن صلاتك ، وإذا أحببته نسيت أمر ربك ، هذا حب مع ا .

والشوق هو احتياج القلوب إلى لقاء المحبوب ، وقيل هو احتراق الأحشاء وتقطيع الأكباد المحب يبكي .

حدثني أخ قال لي : كنت في الحج فأصابني حال عالية صرت أبكي ، قال : كل من حولي : ما بالك ؟ الأصل أن تبكي ، والأصل أن الشوق يجعله يبكي ، ويضطرب ويتحرك الشوق ، فالأصل في الحاج المؤمن أن يبكي ، وهو حول الكعبة ، وفي عرفات ، وفي أثناء السعي ، والطواف .

وقال يحيى بن معاذ :"**علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات**" علامة الشوق أن تبتعد عن كل شهوة تقطعك عن ا عز وجل .

مرة رجل له دعوة سأل تلاميذه الصغار ، قال له يا بني أنت لماذا تغض بصرك

عن النساء في طالب أراد أن يتملق شيخه ، قال له يا سيدي أنا إذا نظرت إلى فتاة أكرهها ، أمقتها ، قال له كلامك غير واقعي ، فإن ا عز وجل زين المرأة في قلوب الرجال ، ثم سأل طالبا ثانيا وثالثًا ، حتى أجابه أحدهم إجابة رائعة ، قال له : يا سيدي أنا لي اتصال با عز وجل ، ولحرصي على هذه الصلة أغض بصري ، لأني لو أطلقت بصري لانقطعت صلتي با ، فما دامت هذه الصلة أنا حريص عليها حرصاً شديداً إذاً أنا أغض بصري ، مع أن النظرة للمرأة محببة ، هذا الواقع ، الكلام الواقعي مريح بالعكس العلماء قالوا : العلم الوصف المطابق للواقع مع الدليل الآية الكريمة لعلها مناسبة لهذا المقام :

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ

(سورة الجمعة الآية ٦ ـ ٧) .

معنى ذلك الإنسان الذي يكون عمله سيئًا لا يتمنى الموت ، ولا يشتاق إليه ، وا كربتاه يا أبتي ، قال لا كرب على أبيك بعد اليوم ، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه ، هذا مؤشر قوي جداً .

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾

(سورة الجمعة : ٦ ـ ٧) .

قال أحد العلماء : علامة الشوق حب الموت ، مع الراحة والعافية ، لا تخلصا من مرض عضال .

حدثني أخ قال لي : كنت في فرنسا وعرضوا برنامجا عن مأوى العجزة ، وكل من فيه كبار في السن فكلما سئِلت واحدة : ما هي أمنيتك ؟ تقول : الموت ، فالإنسان يتمنى الموت في حالات صعبة فلا يجده .

هناك حالات يتمنى الإنسان فيها الموت ، أما علامة الشوق إلى ا حب الموت مع الراحة والعافية ، لعل هذا شيء يفوق مستوانا ، أن تحب الموتَ وأنت في عافية تامة ، وأنت في راحة تامة .

سيدنا يوسف لما أُلقيَ في الجب لم يقل توفني وألحقني بالصالحين ، ولما أُدخل

السجن لم يقل توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ، ولكن قال توفني مسلماً وألحقني بالصالحين لما صار عزيزَ مصرَ ، في أعلى درجة من القوة ، والهيمنة ، والغنى ، والمكانة .

تَــوَفَّنِى مُسْــلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

(سورة يوسف من الآية " ١٠١") .

النبي عليه الصلاة والسلام ، ألم يخيره ا عز وجل بين زهرة الدنيا وبين أن يرفعه إليه فقال : بل الرفيق الأعلى ، النبي قبل وفاته بقليل ماذا قال ؟ عَن أَبِي سَعِيد الْخُدرِي قَالَ خَطَبَ النبي صَلى الله عَلَيه وَسَلَمَ فَقَالَ **إِن الله خَير عبدا بين الدنْيا وبين ما عنْده فَاخْتَار ما عنْد الله فَبكَى أَبو بكْر الصديقُ رضي الله عنْه فَقُلْتُ في نَفْسي ما يبكي هذَا الشيخَ إِن يكُن الله خَير عبدا بين الدنْيا وبين ما عنْده فَاخْتَار ما عنْد الله فَكَان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هو الْعبد وكَان أَبو بكْر أَعلَمنَا قَالَ يا أَبا بكْر لَا تَبك إِن أَمن الناس علَي في صحبته وماله أَبو بكْر ولَو كُنْتُ متخذًا خَليلًا من أُمتي لَاتخَذْتُ أَبا بكْر ولَكن أُخُوةُ الْإِسلَامِ ومودتُه لَا يبقَين في الْمسجِد باب إِلا سد إِلا باب أَبِي بكْر** *

(رواه البخاري)

وقد يقول أحدكم ما الفائدة من ذكر أحوال نحن لسنا في مستواها ، هي هدف ، اجتهد كي تكون في هذا المستوى ، نحن بعيدون عن هذه الأحوال ، ونرجو ا أن نكون في مستواها ، علينا أن نجتهد حتى نصل إلى مستوى هذه الأحوال .

وقال بعضهم : الشوق ارتياح القلوب للوجد ، ومحبة اللقاء بالقرب ممن أكرمه ا عز وجل بحجة مقبولة ، وهو في عرفات قد يبكي كثيراً ، هذا البكاء يورثه طمأنينة ما بعدها طمأنينة يشعر أن ا قَبلَه ، وأن ا عفا عنه ، وقد قال بعض العلماء : من وقف في عرفات فلم يغلب على ظنه _أن ا قد غفر له فلا حج له ، يجب أن يغلب على ظنك أن ا غفر لك .

سؤال ؛ هل الشوق يزول باللقاء أم لا ، إنسان مشتاق إلى ا عز وجل ، إذا اتصل با يا ترى هذا الاتصال يخفف الشوق ؟ بعضهم قال : نعم ، وبعضهم قال لا ، الذين قالوا نعم ، الشوق هدفه الاتصال ، فلما صار الاتصال برد الشوق ، وآخرون قالوا : لا ، هناك فرق بين الشوق وبين الاشتياق ، أنت كلما رأيت من جمال المحبوب زدت شوقاً إليه ، لذلك المؤمن الصادق لا يضعف شوقه مع شدة قربه ، اللهم صل عليه كان يمضي بعض الليل في صلاة وتهجد .

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ
ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن
يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ
وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا

(سورة الإسراء الآية : ٧٨ ـ ٨٠) .

قال بعضهم : الشوق سفر القلب إلى المحبوب ، فإذا قدم عليه ووصل إليه ، صار مكان الشوق قرة عينه به ، وهذه القرة تجامع المحبة ولا تنافيها .

قيل لبعضهم هل تشتاق إلى ا ، قال لا ، أعوذ با ، ما هذا الكلام ، قال : إنما الشوق إلى غائب ، وهو حاضر معي ، هكذا أجاب إنما الشوق إلى غائب ، وهو معكم أينما كنتم ، وفعلاً ، في أي مكان لك أن تناجيه ، في أي مكان لك أن تدعوه ، في أي مكان لك أن تسأله ، في أي مكان لك أن تسبحه ، وأن توحده ، وأن تكبره .

وقال الجنيد : الشوق أجل مقام للعارف إذا تحقق فيه ، أجل مقام أن تكون مشتاقاً إلى ا عز وجل ، لذلك النبي الكريم كان يقول **يا بِلَالُ أَقِمِ الصلاةَ أَرِحنَا بِها**

(رواه أبوداود عن عبد ا بن محمد بن الحنفية)

نرجو ا أن نكون كذلك .

تقول السيدة عائشة : كان عليه الصلاة والسلام ، يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه ، يحدثنا ونحدثه كواحد منا ، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه من شدة شوقه إلى ا عز وجل .

وقال بعضهم : أهل الجنة دائماً في شوق إلى ا ، مع قربهم منه ورؤيتهم له ، وكل واحد منا يحاسب نفسه ، له ساعة مع ا ، يبكي فيتأثر فيشعر أنه ملك شيئًا عظيما ، هذا من حب ا لك عَن مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ **أَن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أَخَذَ بِيده وقَالَ يا معاذُ والله إِني لَأُحبك والله إِني لَأُحبك فَقَالَ أُوصيك يا معاذُ لَا تَدعن في دبرِ كُل صلَاةٍ تَقُولُ اللهم أَعني على ذكْرِك وشُكْرِك وحسنِ عبادتك ***

(رواه أبوداود)

وا ما رأيت في الدنيا مقاماً أعلى من هذا المقام ، أن يحبك رسول ا .

إذا أحبك المؤمنون يحبونك فهو علامة طيبة جداً ، أما إذا كان أهل الفسق والفجور يحبونك فهذه وصمة عار في حقك ، يجب أن يحبك المؤمنون ، يجب أن يشتاق لك المؤمنون

، وأن يأنس بك الناس ، لا أن يحبك أهل الغرور ، وأهل الفسق والفجور .

لا أحد يذهب إلى بيت ا الحرام إلاّ وهو مشتاق إلى ا عز وجل ، يلبي دعوة ا قائلاً : لبيك اللهم لبيك ، فكأن ا يقول له : تعال يا عبدي ، تعال إلي كي تذوق طعم القرب مني ، تعال إلي كي أريحك من هموم كالجبال ، تعال إلي وذق حلاوة مناجاتي ، يقول له العبد : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك اك لبيك ، إن الحمد والنعمة اك والماك ، لا شريك اك ، هذه التلبيةُ إجابةٌ لنداء يقع في قلب المؤمن ، الآن وصل إلى بيت ا الحرام ، أيعقل أن يدعوك ا ُ إليه ، ولا تجد شيئاً هناك ، لابد من أن تجد شيئاً نفيسا ، أجمل ما قرأت عن قوله تعالى :

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا

(سورة البقرة من الآية "١٢٥") .

مثابة مصدر ميمي ، من ثاب ، وثاب بمعنى رجع ، من علامة الحج المبرور ، أنك إذا حججت بيت ا الحرام ، تتمنى أن تعود إليه كل عام ، لذلك بعض الحجاج دون أن يشعروا ، في أثناء طواف الوادع يقولون اللهم لا تجعل هذا الحج آخر عهد لنا بالبيت ، كل إنسان حج حجاً مقبولاً يتمنى أن يحج كل عام ، حتى إنه قد ورد في بعض الأحاديث أنه إذا أصححت لعبدي جسمه ، ووسعت عليه في المعيشة ، وأتت عليه خمسة أعوام ، لم يثب إلي لمحروم .

هناك آية ثانية لها علاقة بهذا المقام .

وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾

هو مشتاق إلى ا عز وجل ، يروى أن سيدنا موسى عليه السلام وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، لما قال له ربنا عز وجل في المناجاة :

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾

سيدنا موسى من شدة شوقه إلى ا أراد أن يطيل الحديث ، هو يخاطب رب العزة .

قَالَ هِيَ عَصَايَ

أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا

هذا اسمه تفصيل .

وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي

يريد أن يطيل اللقاء ، ثم قال في استحياء :

وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾

هنا غلب عليه الأدب ، أطال الحديث ، ثم غلب عليه الأدب ، فإذا سمح ا ُ عز وجل له أن يتابع الحديث يقول له يا موسى وما تلك المأرب ؟.

قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾

(سورة طه الآية" ١٨") .

هذه الإطالة في الحديث في أثناء المناجاة أيضاً من شوق هذا النبي الكريم إلى ا عز وجل الإنسان يقف أمام حجرة النبي عليه الصلاة والسلام ، ويبكي ، هذا الإنسان الذي جاء الحياةَ الدنيا فأعطى ولم يأخذ ، هذا الذي بذل كل جهده من أجل سعادتنا ، هذا الذي كرم الإنسان ، هذا الذي قدس العقل ، هذا الذي أعطى ولم يأخذ ، هذا الذي جعله ا فوق الناس جميعاً فعاش بين الناس كأنه واحد منهم ، هذا الذي قال : اللهم أهد قومي إنهم لا يعلمون ، فقد يبكي الإنسان وهو أمام مقام النبي عليه الصلاة والسلام ، بكاء شوق إليه ، والشوقُ إلى النبي الكريم شوقٌ إلى ا ، والشوق إلى أصحاب رسول ا شوقٌ إلى ا ، كل أنواع المحبة للنبي وأصحابه ، وللمؤمنين الصادقين هي عينُها محبة ا عز وجل ، فهذا حب في ا ، وهوعين التوحيد .

ورد في الأثر ، أنه خرج داود عليه السلام يوماً إلى الصحراء منفرداً فأوحى ا تعالى إليه : ما لي أراك منفردا ، فقال : إلهي استأثر على قلبي شوقي إلى لقائك ، فحال بيني وبين صحبة الخلق ، فقال ا عز وجل : ارجع إليهم ، فإنك إن أتيتني بعبد آبق أثبتك في اللوح المحفوظ جهبذاً .

الإنسان يؤثر الوحدة ، يصلي ويقرأ قرآن فيبكي ، أما إذا أنت ذكرت ا بتعريف

الخلق به هذا أوقع عند ا ، هناك ذكر تعبدي ، وهناك ذكر تعريفي با عز وجل ، وهناك ذكر لبيان عظمة ا وهناك ذكر أساسه أن توضح للناسَ أمر ا ونهيَه ، وقد تبادر إلى فعل الأمر وترك النهي فهذا أعظم أنواع الذكر ، وهذا معنى قوله تعالى :

فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ

اذكروني لعبادي ، أذكركم ، ارجع فإنك إن أتيتني بعبد آبق أثبتك في اللوح المحفوظ جهبذاً ، هذا معنى قول النبي الكريم **لأن يهدي الله بك رجلًا خَير لك من أَن يكُون لك حمر النعم** *

(رواه البخاري عن سهل بن سعد)

خير مما طلعت عليه الشمس ، وخير لك من الدنيا وما فيها ، وخير من حمرِ النعم ، يبدو أن الأنعام ذات اللون الأحمر هي أغلى شيء.

أرجو ا سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علمنا ، وأن يلهمنا الخير.

والحمد رب العالمين

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ؛ مع الدرس الخامس والثمانين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والمنزلة اليوم هي منزلة الوقت ، ولا أُبالغ إذا قلتُ : إن الوقت أخطر شيء في حياة الإنسان لأنّه رأس ماله الوحيد ، ولأنّه أثمن ما يملك ، بل إن الإنسان هو وقت ، هو بضعةُ أيام ، كلّما انقضى يوم انقضى بضع منه .

مفهوم الزمن مفهوم دقيق ومعقّد ، ا سبحانه وتعالى خلق الكون ، وجعله متحركًا ، قال تعالى :

وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ

يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

(سورة يس) .

والزمن هو البعد الحركي الرابع للأشياء ، فالنقطة إذا تحركت رسمت خطّا ، والخطّ إذا تحرك رسم سطحا ، والسطح إذا تحرك رسم حجما ، والحجم إذا تحرك شكل وقتًا ، فكلّ شيء متحرك يتحرك ضمن زمن ، بمعنى آخر أن الحدث الشيء الذي يقع لابد له من مكان يحويه ، فالإنسان لا يمكن أن يتصور حدثًا بلا مكان ، يقول لك : فلان هدم بيته ، أين بيته ؟ فلان مرض ابنه ، أين يقيم ابنه ؟ فكلّ حدث يحتاج إلى مكان ، كما أن كلّ حدث يحتاج إلى زمان ، مكان يحويه ، وزمان يضمه ، وكلّ حدث يحتاج إلى محدث ، وكلّ حدث يحتاج إلى غاية ، فالإنسان لا يفهم حدثًا بلا غاية ، فالحدث له مكان زمان ومحدث وغاية .

الزمن أخطر شيء في حياة الإنسان لأنّه وعاء عمله ، انظر إلى إنسانٍ يملك الملايين ، في أوربا وأمريكا أغنياء بأرقام فلكية ، سبعةٌ وتسعون مليار دولار يملكها شاب في الثانية والأربعين ! هذا لو جاءتْه المنيةُ فجأةً ما قيمة هذا المال ؟! الوقت أهم من المال ، والدليل أن إنسانًا ُأصيب بمرضٍ عضال وهناك جهة في بعض البلاد الغنية يمكن أن تُجرى له عملية في هذا البلد ، لكن كُلفة العملية بثمن بيته لا يتردد ثانيةً واحدة في بيع البيت وإجراء العملية ، ذلك لأنّه مركب في أعماقه أن الوقت أثْمن من المال يبيع بيته الوحيد الذي لا يملك غيره ليجري هذه العملية التي يتوهم أنها تُمد في أجله بضع سنين ، هكذا الإنسان ، وكلّنا نعلم أن الإنسان إذا أمسك مئة ألف ليرة ، وأحرقها أمامك تحكم عليه بالسفه والجنون والخلل العقلي قطعا ، لأن إتلاف المال يعد سفاهةً ، وقد قال ا عز وجل :

وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ

(سورة النساء) .

وبما أن الإنسان إذا أتلف ماله يعد سفيها ، فإذا أتلف وقته فهو أشد ، سفاهةً فالعاقل يرشّد استهلاك الوقت ، كما قال ا عز وجل :

قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾
وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾

(سورة المؤمنون) .

عن عملٍ لا قيمة له ، عن حديث فارغٍ ، عن متعة رخيصة ، عن مناقشة لا جدوى منها ، عن خصومة لا يعد المنتصر فيها منتصرا ، ولا المنهزم منهزما ، وكم من قضية تافهة تستهلك أوقات الناس وقد مر بعض الصالحين بمقهى ورأى فيه أُناسا يلعبون النرد فقال : يا سبحان ا ، لو أن الوقت يشترى من هؤلاء لاشتريناه منهم !

إن المؤمن الصادق الذي عرف ا عز وجل ، وعرف سر وجوده وغاية وجوده ، لا يجد شيئًا أثمن في حياته من الوقت ، ينفقه بتَخطيط دقيق ، وحرصٍ شديد ، ومتابعة دائمة ، لأن الإنسان بضعة أيام كلّما انقضى يوم منه انقضى بضع منه ، ولكن أين نجد معنى الوقت في القرآن الكريم ؟

أليست هذه منزلة من منازل مدارج السالكين ؟ أين نجد معنى الوقت في القرآن الكريم ؟ في سورة العصر ، يقول ا تعالى :

وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾

(سورة العصر) .

كيف يخسر ؟ مضي الزمن وحده يستهلكه ، نحن جميعا من دون استثناء ينقص عمرنا ، كلّ واحد منا له نهاية ثابتة ، ونحن متحركون نحو نهاية ثابتة ، كلّ ثانية ، وكلّ دقيقة تقربنا من هذه النهاية الثابتة ، إذًا نحن في خسارة ، لأن مضي الزمن يستهلكنا ، هذا الشيء يتّضح فيمن يستأجر بيتًا سياحيا الأيام تمضي سريعا ، أول الشّهر وآخر الشّهر ! الشّهر الأول والثاني والثالث والرابع والخامس ثم تفضل! ينتقل إلى بيت آخر ، يقول لك : مضتْ علي هذه الشّهور كلمح البصر ، فلو أن إنسانًا استأجر سيارة يمر الوقت معه سريعا ،

فالوقت شيء دقيق جدا ، هو أنت ، ورأس مالك ، ووعاء عملك ، والعاقل هو الذي ينفق وقته إنفاقًا مرشدا ، إنفاقًا استثماريا لا إنفاقًا استهلاكيا ، قال تعالى :

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

(سورة العصر) .

وقتٌ تُمضيه في معرفة ا هو وقتٌ مستثْمر ، وليس ضائعا ، وقتٌ تمضيه في معرفة منهجه هذا وقتٌ مستثمر ليس ضائعا ، وقتٌ تمضيه في العمل الصالح ويخدمة الخلق ، وفي رعاية الضعيف ، وفي رعاية اليتيم ، وفي عيادة المريض ، وفي تعليم العلم ، وفي الدعوة إلى ا ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتفقّد الفقراء والمساكين والبائسين ، وإقامة بيوت ا تعالى ، كل عملٍ يفضي بك إلى الجنّة فعله هو استثمار للوقت ، ثم كل وقت تتواصى بالحق به مع الناس هو استثمار له ، ومصيبة تأتيك وأنت صابر عليها ، فتتحملها ، فإن وقتَ هذا التحمل مستثمر وليس ضائعا ، هذه الصورة تُعد أصلاً في موضوع الوقت الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ، هناك آيةٌ أخرى تُشير إلى معنى الوقت ؛ قال تعالى :

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ

(سورة البقرة) .

الإنسان مخير ، وهو يولي وجهته نحو الخير ، أو نحو الشر ، نحو الحقّ أو الباطل ، نحو المبدأ أو الشّهوة ، نحو خدمة الناس أو استهلاك جهودهم ، خدمتهم أو استخدامهم ، نحو إكرام الناس أو ابتزاز أموالهم ، الوقت يجري ، فاستبقوا الخيرات ، قال تعالى :

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ

(سورة البقرة) .

أنت في فرصة ذهبية محدودة ، تصور إنسانًا يؤدي امتحانًا لمادة أساسية في سنة التخرج والأسئلة كثيرة ، هل يمكن أن يعبث بأشيائه ؟ مثلاً هل رأيتم طالبا في الأرض وهو على منضدة الامتحان يعبثُ بساعته ؟ أو يعد ما في جيبه من مال ؟ مستحيل ، هو في امتحان ، وكلّ دقيقة متعلّقة بمصيره وكلّ دقيقة متعلّقة بعلامة من علامات النجاح ، أنا أضرب لكم أمثلة في أوقات حرجة ، قضية وقت الامتحان ، ووقت أداء امتحان شفوي ، هو أيضا وقت حرج ، كلمة وسارعوا ، الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك ، فالآية الكريمة :

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾

في أية مكانة أنت ، أو في أي مكان أنت ، قال الشاعر :

لا تأمنِ الموتَ في طَرف ولا نَفَسٍ وإن تَمنعتَ بالحجابِ والحـ ـ ـ ـرسِ
فما تَزالُ سهام الموت نَـ ـ ـ ـافذَةً في جنْبِ مدرعٍ منْها و متـ ـ ـ ـرسِ
أراك لستَ بوقاف ولا حـَ ـ ـ ـذرٍ كالحاطبِ الخَابِط الأعواد في الغَلسِ
تَرجو النجاةَ ولَم تَسلُك مسـالِكَـها إن السفينَةَ لا تَجري علَى اليـ ـبسِ

إنسان غارقٌ في عملٍ لا يرضي الله تعالى فوافتْه المنية ، هذه مصيبة ، وإنسان غارق في المال الحرام فوافتْه المنية ، إنسان غارقٌ في المباحات فوافتْه المنية ، انتقل من كلّ شيء إلى لا شيء ، معنى ذلك :

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)﴾

(سورة آل عمران) .

"**سارعوا**" هنا فيها ملْمح للوقت .

الوقت يمضي سريعا ، يوم ، ثم أسبوع ، ثم شهر ، ثم سنة ، وعقْد ، كلّ واحد منكم يسترجع بعض ذكرياته سنة الثمانين ، الآن نحن في سنة ألفين ! كيف مضت هذه السنوات العشرون ؟ والله كلمح البصر ، أنا كنت مدير ثانوية في إحدى المحافظات دعاني أحدهم إلى وليمة في هذا المكان ، مضى على عملي التدريسي والإداري في هذه الثانوية ثلاثون عاما ، أكثر الطلاّب أصبحوا بسن كبيرة ، بعضهم أطباء ، وبعضهم في سلك الجيش ، وفي سلك الشّرطة ... سبحان الله ثلاثون عاما كيف مضتْ ؟ بينما كنتُ في هذه البلدة مديرا للثانوية ، وبعد زيارتي الثانية بعد ثلاثين سنة ، كيف مضت هذه الأعوام الثلاثون ؟ كلَمح البصر ، فالوقتُ يمضي سريعا ، نحن كلّنا حاضرون ، لكن ما بين غمضة عينٍ وانتباهها يعلّق نعيه على الجدران ، رحمه الله تعالى ، لقد كان صالحا ، سبحان الله لم تكن به علّة ، حدثني أخ فقال : أنا أُصلّي في أحد مساجد المزة ، وهناك أخٌ يصلّي معنا دائما ، لا يغيب ولا يوما ، لكنه ذو دعابة وكلّ يوم له طرفة ويسمعني إياها في الطريق بعد انتهاء الصلاة ، والبارحة خرجنا معا من المسجد وكان في حالة عادية جدا ، بكامل صحته ، وحيويته ، ونشاطه ،

بكمل تألّقه ومرحه ، فَذَكَر بعض الطرف وذهب كل منا إلى بيته ، ورأيتُه ظهرا في بعض مواقف السيارات بدمشق ، أقْسم لي با العظيم أنّه صلى عليه بعد العصر! كان معنا في المسجد فجرا ، ولمحته ظهرا في موقف السيارات ، وصليتُ عليه صلاة الجنازة وقْت العصر ، هكذا الدنيا ! الموت يأتي فجأةً والقبر صندوق العمل .

ما رأيتُ أعقلَ من إنسانٍ يعمل لهذه الساعة التي لا بد منها، كل ما تجمعه في الدنيا تخسره في ثانية واحدة إلا أن تكون تقيا ، وا كربتاه يا أبتاه ، قال : لا كرب على أبيك بعد اليوم غدا نلقى الأحبة؛ محمدا وصحبه .

إذًا المعنى الثاني للوقت ، هو قوله تعالى :

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾

(سورة آل عمران) .

الآية الثالثة ؛ قوله تعالى :

سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١

(سورة الحديد) .

الآية الرابعة ، قوله تعالى :

ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ٤٠

(سورة طه) .

جئتَ في الوقت المناسب ، وفي الوقت الذي أنت في أشد الحاجة إلى المناجاة ، "على قدر " يعني في الوقت المناسب ، لذلك قالوا : كلّ شيء له أوان ، ومن تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه ، كلّ شيء له أجل ، قال تعالى :

مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ

(سورة العنكبوت) .

قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾

(سورة العنكبوت) .

إذا هناك وقت مناسب للعطاء ، اُطلُب واصدقْ ، وأخْلص ، وألِح في الدعاء ، لكن الجواب يأتي بحكمة حكيم في الوقت المناسب ، أحيانًا الإنسان يضجر من بقائه عازبا بلا زوجة ، ولكن الله عز وجل قد هيأ له امرأةً صالحةً تسره إن نظر إليها ، وتحفظه إن غاب عنها ، وتطيعه إن أمرها ، هيأ له هذه الفتاة في وقت مناسب ، فالإنسان صابر ، ويرضى بقضاء الله وقدره ، فلو تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه ، قال تعالى :

﴿ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة طه) .

أي جئتَ في الوقت المناسب ، وقد قال بعض الشعراء :

نَالَ الْخلافةَ إِذْ كانَتْ له قَدرا كما أَتَى ربه موسى علَى قَدرِ

هناك معنى آخر ، لما جاء موسى برسالة الله عز وجل كان الناس أحوج ما يكونون إلى رسالته وحينما جاءتْ بعثة النبي عليه الصلاة والسلام كان الناس أحوج إلى بعثته ، وكلّ شيء يأتي في الوقت المناسب بتقدير حكيم عليم ، إذْ آن أوانُه .

بعض التعاريف للوقت ، قال : ظرف الكون ، أي ظرف الفعل ، وعاء العمل ، العمل يحتاج إلى مظلّة من وقت ، وأرضية من مكان ، وهذا في اللّغة العربية يسمى ظرف مكان ، وظرف زمان تقول : جلستُ جنْب النهر ، فإعراب جنب : ظرف مكان ، وسافرت صباحا ، إعراب صباحا ظرف زمان عندنا ظرف مكان وظرف زمان ، لكن إياك أن تقول : متى كان الله تعالى ؟! لأن الله خالق الزمان، فلا يقال متى كان ؟ ومتى لم يكن ؟ الزمان من خلْق الله عز وجل ، فأن تقول : متى كان الله كلام لا معنى له أحيانًا الإنسان يتورط في تَساؤلات غير صحيحة ، يقول لك : الله ، هل يعلم ما سيكون ؟! الله يعلم ما سيكون يوم الخميس ؟!! هذا جعل الله قد احتواه الزمان ، الزمان من خلْق الله عز وجل ، لا يمكن أن يحتوي اللهَ شيء ، لا مكان ولا زمان ، لذلك قالوا ، والقول منسوب إلى سيدنا علي كرم الله وجهه : علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

بالمناسبة ؛ شيء بديهي أن الزمن أقسام ثلاثة ؛ اللّحظة الراهنة ؛ الساعة التي أنت فيها الآن وزمن مضى ، وزمن لم يأت ، والحقيقة الخطيرة أنّه ما مضى فات ، ولا يمكن أن يسترد ، ولا أن يستعاد والعقلاء دائما لا يفكّرون في الماضي إطلاقًا ، كان البيت ثمنه ستّة آلاف ليرة ، والآن ثمنه ستّة ملايين ليتني أخذتُ بيتًا في ذلك الوقت ، هذا الكلام فارغ ، شيء كان ولن يعود ، ما مضى فات ، يقول لك : أيام زمن البعثات سهل ، ولو ذهبتُ لرجعتُ بدكتوراه ، وصرت في الجامعة ، ما رضيتُ أنا حينها ويندم الأغبياء دائما يتحسرون ، ويندمون ، ويجترون همومهم ، ليس من صفة العاقل أن يبحث في ما مضى فإن ما مضى فات ، انتهى بخَيره وشره ، جملةً وتفصيلاً ، ما مضى فات ، والمؤمل غيب ، يقول لك : غدا أبيع هذا القدر من العسل فأشتري به قطيعا من الغنم ، أربي هذا الغنم ، ويتوالد ويكثر ، وأبيعه فأُصبح غنيا ، ثم أشتري بيتًا ، وأخطب فتاةً جميلةً وأتزوجها ، وأُنجب أولادا وسأؤدبهم تأديبا دقيقا فأمسك العصا وضرب بالقدر فسال العسل عليه ، وطارتْ كلّ أحلامه !! هذا هو المستقبل ، ما مضى فات والمؤمل غيب ، ولك الساعة التي أنت فيها ، فلا نملك إلا هذه الساعة ، لذلك ورد في الأثر أنّه هلك المسوفون ، المتخلّفون في الحياة دائما يربط همه العالية بحدث مستقبلي لن يصل إليه ، يقول لك : بعد أن أُنهي دراستي أُصلّي !! علق بالجامعة اثنى عشرة سنة ، كلّ سنة بثلاث سنوات ، ويقول لك : حتى أتزوج ! أول الصيف ، بمجيء رمضان ، هلك المسوفون ، كلّ إنسان يربط توبته إلى ا بزمن مستقبلي هو إنسان ضعيف الإرادة والشّخصية ، يجب أن تتوب في لحظتك الراهنة ، أما أن تقول غدا ، فالهمة تبرد ، قال لي أحدهم : خدمتُ إنسانًا ِلوجه ا تعالى ، فجاءني مساء ووضع لي مبلغًا ضخما في ظرف وقال لزوجته : هذا لفلان نظير خدمته ، قال لي : ارتعدت فرائسي ، وغضبتُ ، وزمجرتُ ، ونويتُ توبيخه ، وتعنيفه ، وسأُلقي هذا المبلغ في وجهه لأنّه يحتقرني ، أنا خدمتُه لوجه ا ، يعطيني هذا المبلغ نظير خدمتي له ، ألا يعرف نزاهتي وإخلاصي ، في اليوم الثاني وجد نفسه أنّه قد برد ، وثالث يوم قلت : ربما هذه طيبة نفس ، ورابع يوم قلت دعهم لي !! قال : فجاء لص فسرقَ كلّ ما في البيت فعرفْتُ الذنْب ، هلك المسوفون ، لا تسوف ، نويت أن تفعل الخير افْعلْه فورا ، ما مضى فات ، والمؤمل غيب ، ولك الساعة التي أنت فيها ، لا نملك إلا هذه الساعة ، والدنيا ساعة اجعلها طاعة ، والنفس طماعة عودها القناعة .

الإمام الشافعي رضي ا عنه يقول : صحبتُ علماء القلوب ، وانتفعتُ منهم بكلمتَين ، سمعتهم يقولون : الوقت سيف ، إن قطعته وإلا قطَعك ، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام : اغتنم خمسا قبل خمس ، شبابك قبل هرمك ، في أثناء الحج ما غبطْتُ أناسا كما غبطْت

الشباب في الحج ، الطواف والسعي يحتاجان إلى جهد ، والمتقدم في السن يطوف ويسعى بشكلٍ صعب .

اغتنم خمسا قبل خمس ، شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وحياتك قبل موتك ، وفراغك قبل شغلك ، وغناك قبل فقرك .

(الجامع الصغير) .

إن زوجي تزوجني وأنا صغيرة ، ذات أهلٍ ومالٍ وجمالٍ وأولاد ، فلما كبرت سني ، وذهب بطني وتفرق أهلي ، وذهب مالي طلقني ، كلّ إنسان لا بد أن يتغير ، هو شاب كله طاقة حيوية ونشاط ، تجد الشاب يصعد الدرج وينزل في لمح البصر ، أما المتقدم في السن فيصعد درجة ويرتاح ، سمعتُ عن رجلٍ كان شرسا مع والده يحملُ بغْلاً ، ويصعد به في الدرج إلى أبيه ، ويقول له : أعطني دراهمه وإلا ما أنزلته لك ، قال لي أحدهم : رأيته في آخر حياته يرجو سائق الحافلة أن ينزله قبل الموقف أمتار ، لأنّه لا يستطيع المشي فالإنسان يتغير ، اغتنم شبابك قبل هرمك ، هناك أشخاص يأتون إلى بيوت ا ، ولكن في الثمانينات ، ليتهم جاؤوا وهم شباب ، ما من شيء يحبه ا كشاب مؤمن ، وما من شيء أكرم على ا

من شاب تائب ، عن عقْبَةَ بن عامرٍ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليستْ له صبوةٌ *

(رواه أحمد) .

شاب في مقتبل الحياة يغض بصره ، ويضبط لسانه ، ويصلّي أوقاته ، وينفق ماله ، ريح الجنّة في الشباب ، أما الآن فتجد الرجلَ أمضى حياته في المعاصي والآثام والغفلة والتّرف والفجور ، ولما دنا منه الموت جاء فصلّى ، لم يعد له شيء ، فجاء إلى المسجد ، ونحن نتمنّى أن نرى الشباب في المساجد أن نرى الواحد في مقتبل الحياة يصطلح مع ا تعالى ، ويطيع ا عز وجل .

ما مضى فَاتَ والْمؤَملُ غَيب ولَكَ الساعةُ التي أَنْتَ فيها

هناك كلام لطيف ؛ وقد قيل : أنت بين خمسة أيام ؛ يوم مفقود وهو ما مضى ، ويوم مشهود وهو ما أنت فيه ، ويوم مورود وهو ساعة الموت ، ويوم موعود وهو يوم القيامة ، ويوم ممدود إما في جنّة يدوم نعيمها ، أو في نارٍ لا ينفذ عذابها ، وأخطر هذه الأيام الخمسة اليوم المشهود ، ما أنت فيه .

الشاعر أحمد شوقي له بيت مشهور :

دقاتُ قَلبِ الْمرء قَائِلَةٌ له إن الْحياةَ دقَائِقُ وثَوانِ

القلب يدقّ ، فتوقّف ، وانقطع نفسه ، جاء الطبيب ووضع المصباح في عينه فما تأثّر ، ثم جاء بمرآة ووضعها على أنفه فلا يوجد بخار ماء ، أمسك بيده فلم يجد نبضا ، حينها يقول : عظم ا أجركم ! هل يوجد منّا من لا يصير إلى هذا الحال ؟! القلب يضخّ في الساعة ثمان متر مكعب من الدم ، إنسان عاش ستّين سنة تقريبا يضخّ من الدم ما يملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم ! لكن عند الموت يصير من أهل الآخرة ، وانتهى الأمر .

أيها الإخوة الكرام ؛ رأى بعضهم الصديق رضي ا عنه في منامه فقال له : أوصني ، فقال له : كُن ابن وقْتك ، وقت الفجر في الصلاة ، أما في النهار فهناك عمل صالح ، والليل في بيتك ، كُن ابن وقْت .

بالمناسبة هناك موضوع فرعي ، الوقت نسبي يطول ويقصر ، قال بعض الشّعراء الأندلسيين :

إن يطُلْ بعدك ليلي فلَكم ... بِت أَشْكُو قصر الليل معك

دقيقَةُ الأَلَمِ ساعه ... و ساعةُ اللذة دقيقه

أكثركم يسهر مع شخصٍ يحبه حبا جما ، يبدأ اللّقاء الساعة السابعة ، وينتهي الساعة الواحدة ليلاً كيف مضت هذه الساعات الخمس أو الستّ ؟ كلمح البصر ، إذا كان هناك انتظار لسؤال وجواب ، يمكن خمسة دقائق تمر كساعة فالوقت يخفّ على المؤمنين ، ويثقل على الكافرين ، قال تعالى :

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة غافر) .

من ستّة آلاف سنة ، كلّ سنة ثلاث وخمسة وستون يوما ، وكلّ يوم مرتين صباح مساء ، كما قال تعالى :

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة غافر) .

فالإنسان المؤمن ينور ا عز وجل له قبره ، والقبر إما حفرة من حفرِ النار ، أو روضة من رياض الجنة ، فَوقْت العذاب يطول كثيرا ، ووقت السرور يمضي سريعا ، إذا

كان أحدنا عند طبيب الأسنان ولا يتحمل قلبه البنج ، وفي أثناء حفر السن وصل إلى العصب ، فلو استمر الحفر دقيقة لكان بالنسبة للمريض ساعة ، دقيقة الألم ساعة ، وساعة اللذّة دقيقة ، فالوقت يطول ويقْصر .

كان أحد علماء دمشق الأجلاّء عنده معهد شرعي ، ا عز وجل أمد بعمره ، وقد قال عليه الصلاة والسلام كما في حديث **عبد الله بن بسر أن أعرابيا قال يا رسول الله من خير الناس قال من طال عمره وحسن عمله ***

(رواه الترمذي) .

كان يرى الشاب في الطريق فيقول له : يا بني ، أنت تلميذي ، وكان أبوك تلميذي ، وكان جدك تلميذي ! عاشَ ستّةً وتسعين عاما ، وبدأ بالتدريس في الثامنة عشر ، وتوفّي في الثامنة والتّسعين ، ثمانون سنة في تدريس أجيال تلو أجيال ، وكان منتصب القامة ، حاد البصر ، ومرهف السمع ، لم تسقط له سن وكان حيويا ونشيطًا ، وإذا سئِلَ ما هذه الصحة التي حباك ا بها ؟ يقول : يا بني حفظناها في الصغَر فحفظَها ا علينا في الكبر ، من عاش تقيا عاش قويا ، وكل منّا يطمح أن يجعله ا في صحة تامة في خريف عمره ، وهذا يحتاج إلى تقوى عز وجل واستقامة ، وإن هذه الجارحة إن حفظتها حفظها ا لك والعين إذا بكتْ من خشْية ا فإن ا عز وجل يضمنها لك أن تبقى سليمةً إلى نهاية الحياة، وكذا السمع والأذن ، واللّسان ، والبصر ، والدعاء الشريف ، **عن ابن عمر قال قلما كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لِأصحابه اللهم اقْسم لنَا من خَشْيتك ما يحولُ بيننَا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تُبلغُنَا به جنتَك ومن الْيقين ما تُهون به علينَا مصيبات الدنْيا ومتعنَا بِأسماعنَا وأَبصارِنَا وقُوتنَا ما أَحييتَنَا واجعلْه الْوارِثَ منا واجعلْ ثأْرنَا على من ظَلَمنَا وانْصرنَا على من عادانَا ولا تَجعلْ مصيبتَنَا في ديننَا ولا تَجعلْ الدنْيا أَكْبر همنَا ولا مبلغَ علْمنَا ولا تُسلطْ علينَا من لا يرحمنَا***

(رواه الترمذي) .

أيها الإخوة ، الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطَعك ، الوقت هو أنت ، كلّما انقضى يوم انقضى بضع منك ، الوقت رأس مالك الوحيد ، الوقت أثْمن شيء تملكه ، الوقت وعاء عملك ، والمؤمن يرشّد استهلاك وقته ، ولا يستهلك وقته إلا فيما يجدي ، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام بهذا العمر القصير ؛ ثلاث وستين سنة قلب وجه الأرض ، ونشر الحق في المشرقين ، والخافقَين ، وفي أطراف الدنيا ، لذلك أقسم ا بعمره فقال تعالى :

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

(سورة الحجر) .

والحمد   رب العالمين

****

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ؛ مع الدرس السادس والثمانين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، وفي هذا الدرس نتحدث عن مراتب الهداية ، أعلى هذه المراتب على الإطلاق من حيث النوع تكليم ا عز وجل لعبده يقظةً بلا واسطة ، بل منه إليه ، وهذه أعلى مراتبه كما كلّم ا ُ موسى بن عمران صلوات ا وسلامه عليه ، قال تعالى :

وَكَلَّمَ

ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾

(سورة النساء)

أي لا يوجد اتّصال أشد وأقوى من أن يكلم ا ُ إنسانًا .

أيها الإخوة ، هناك نقطة ينبغي أن تكون واضحةً لديكم ؛ وهي أن الاختصاص ليس من لوازمه التفضيل ، فلو أن ضابطًا كبيرا يركب طائرة ويطير ، لا يمكن أن يكون أعلى من قائد الجيش كلّه ، مع أن هذا الضابط الطيار له اختصاص في الطيران ، بينما قائد الجيش قد لا يطير ، إلا أن مرتبة قائد الجيش أعلى من مرتبة الطيار ، فذكرتُ هذا التحفّظ لأن النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق قاطبةً ، وحبيب الحق ، وهو سيد ولد آدم ، وهو أعلى مخلوق خلقه ا عز وجل ، ومع ذلك لم يكلّمه ، فالعلماء قالوا : الاختصاص لا يقتضي التفضيل ، أما من حيث طبيعة العلاقة بين الإنسان وخالقه ، فأعلى درجة هي التكليم .

قال تعالى :

وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ

(سورة الأعراف)

لم يقلْ هذا شكا في وجوده كما يدعي بعضهم ، بل قال هذا طمعا في رؤيته بدافعٍ من شوقه فقال تعالى :

قَالَ

لَن تَرَىٰنِي

إن الطبيعة البشرية في الحياة الدنيا لا تحتمل رؤية ا تعالى ، لكن ا عز وجل وعد المؤمنين بأنهم سوف يرون ربهم في الجنّة ، كما يرون القمر ليلة البدر ، وقد أثبتَ ا تعالى هذا في قرآنه الكريم ، فقال:

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾

(سورة القيامة)

وبين ا عز وجل أن أشد عذابٍ على الإطلاق أن يحجب الإنسان عن ربه ، قال تعالى :

كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾

(سورة المطففين)

هذه مرتبة من حيث نوع العلاقة هي أعلى مرتبة ، لكن من اختص بها لا يعد في أعلى مقام عن أَبِي هريرةَ قَالَ قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم **سلُوا الله لِي الْوسيلَةَ قَالُوا يا رسولَ الله وما الْوسيلَةُ قَالَ أَعلَى درجة في الْجنة لَا ينَالُها إِلَّا رجلٌ واحد أَرجو أَن أَكُون أَنَا هو** *

(رواه الترمذي)

لذلك نقول بعد الأذان كما علمنا رسول ا صلى ا عليه وسلم في حديث جابِرِ بنِ عبد الله أَن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ **من قَالَ حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلَاة الْقَائِمة آت محمدا الْوسيلَةَ والْفَضيلَةَ وابعثْه مقَاما محمودا الذي وعدتَه حلَّتْ له شَفَاعتي يوم الْقيامة** *

(رواه البخاري)

قال تعالى :

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾

(سورة الإسراء)

ما علاقتنا بهذا الكلام ؟ بِقَدرِ قوة اتّصالك يعلو مقامك ، وبقدر إحكام اتّصالك يعلو

مقامك عند ا تعالى ، بشكلٍ أو بآخر ، إذا كان هناك مركز كبير لتحويل الكهرباء ، يتلقّى المد من خطّ توتّر عال ؛ قوتُه ثمانون ألف فولط ، هذا المركز يمكن أن يضيء مدينة ، و المثل الأعلى ، النبي عليه الصلاة والسلام من شدة قربه من ا يتلقّى من ا تعالى شيئًا لا يوصف ، قال تعالى :

إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾

(سورة النجم)

قال علماء البلاغة : هذا هو الإيجاز الفني ، قال تعالى :

إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ

(سورة الأحزاب)

هذه التغذية ، أما الأخذ :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ

وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

(سورة الأحزاب)

فالتغذية من ا والاقتباس من المؤمنين ، لذلك أنت قد تلتقي بإنسان صالح تقول : أنس قلبي به وشعرتُ بسعادة ، قد تكون السهرة متواضعة ، وفي بيت متواضع ، والضيافة متواضعة ، تقول : ما شعرنا بالوقت ، وكان هناك سرور ، لأن حال هذا الصالح انْعكس عليك ، فشعرتَ بهذه السعادة فكيف لو ُأتيح لك أن تتّصل بنبي ؟ سيدنا ربيعة خدم النبي عليه الصلاة والسلام فلما أمره أن ينصرف إلى البيت مساء بقي نائما على عتبة باب النبي من شدة انجذابه إلى النبي صلى ا عليه وسلّم ، فإذا ُأتيح لك اللّقاء برجل صالحٍ تقول : أنس قلبي به ، لأنّك شعرت بقربٍ من ا تعالى ، ولاشك أنّكم تعرفون هذه الحقيقة ، فقد يتجلّى ا على ُأناسٍ في مجلس ذكْر كهذا المجلس ، والملائكة تحفّهم والرحمة تغشاهم ، والسكينة تتنزل عليهم لأنّهم ذكروا ا عز وجل ، فالنبي عليه الصلاة والسلام لشدة اتّصاله با تعالى صار التجلّي الإلهي عليه كثيفًا ، وأي إنسان يتّصل به بطريقة أو بأخرى ؛ يذكره ويذكر سنّته ومواقفه وشمائله وأدبه الرفيع يذوب شوقًا إليه ، وهذا الكلام تقريب لقوله تعالى :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾

(سورة الأحزاب)

فقد تنور آلاف البيوت من مركز تحويل واحد ، لكن هذا المركز التحويلي يقتبس من التوتّر العالي أعلى طاقة ، إن صح أن في الحياة إنسان سعيد بحاله فهذا هو ، أذكر لكم شاهدا على هذا ، عن حنْظَلَةَ الْأُسيدي قَالَ وكان من كُتابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم قَالَ **لَقِيني أَبو بكْرٍ فَقَالَ كَيفَ أَنْتَ يا حنْظَلَةُ قَالَ قُلْتُ نَافَقَ حنْظَلَةُ قَالَ سبحان الله ما تَقُولُ قَالَ قُلْتُ نَكُون عنْد رسول الله صلى الله عليه وسلم يذَكِّرنَا بِالنارِ والْجنة حتى كَأَنا رأْي عينٍ فَإِذَا خَرجنَا من عنْد رسول الله صلى الله عليه وسلم عافَسنَا الْأَزواج والْأَولَاد والضيعات فَنَسينَا كَثيرا قَالَ أَبو بكْرٍ فَوالله إِنا لَنَلْقَى مثْلَ هذَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وأَبو بكْرٍ حتى دخَلْنَا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قُلْتُ نَافَقَ حنْظَلَةُ يا رسولَ الله فَقَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وما ذَاك قُلْتُ يا رسولَ الله نَكُون عنْدك تُذَكِّرنَا بِالنارِ والْجنة حتى كَأَنا رأْي عينٍ فَإِذَا خَرجنَا من عنْدك عافَسنَا الْأَزواج والْأَولَاد والضيعات نَسينَا كَثيرا -** الآن دقّقوا - **فَقَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم والذي نَفْسي بِيده إِن لَو تَدومون على ما تَكُونُون عنْدي وفي الذِّكْرِ لَصافَحتْكُم الْملَائِكَةُ على فُرشكُم وفي طُرقكُم ولَكن يا حنْظَلَةُ ساعةً وساعةً ثَلَاثَ مراتٍ** *

(رواه مسلم)

وأما نحن معاشر الأنبياء فتنام أعيننا ولا ينام قلبنا .

فإذا كنت أنت عند رسول ا صلى ا عليه وسلّم كان لك حالٌ مسعد ، وإذا كنت عند صديق فلك حال مسعد ، إذا كنت عند مؤمن كبير فلك حال مسعد ، إذا كنت عند عارف با تعالى فلك حال مسعد ، وإذا كنتَ مع موصول فأنت موصول ، هذا معنى قول بعض علماء القلوب :"**لا تصاحب من لا ينهض بك إلى ا حاله ، ويدلّك على ا مقاله** "، ولا يستطيع المؤمن مهما سما وعلا أن يفعل شيئًا أكثر من ذلك ، يدلّك على ا بكلامه ، وينهض بك إلى ا بحاله ، لذلك قالوا : حال واحد في ألف أبلغ من ألف قول في واحد ، ألف إنسان ، وكل إنسان يحضر محاضرة بقي فيها شهرين ، معلومات وأدلّة وشواهد ، وقصص ، ومنطلقات وموازنات ، ألف محاضرة تلقى على واحد يفوقُها أن واحدا موصولا با يؤثّر في ألف ، وألف ليسوا موصولين لا يؤثّرون في واحد ، لذلك كانت حياة الأنبياء إعجازا ، فهل يعقل من إنسان يعيشُ ثلاثًا وستين سنة ، جاءه الوحي في الأربعين ، ثلاثة وعشرون سنة عاشَ في بلاد قاحلة مجدبة جافّة ، لا زرع فيها ، مع أُناسٍ بدو رحل ، بعيدين عن الثقافة والعلم

والحضارة والتفوق ، إنسان واحد في ثلاث وعشرين عاما يصنع معجزةً ، مليار ومئتا مليون مسلم وقد مضى على إسلامهم أكثر من ألف وخمسمئة عامٍ ، هذا معنى قول بعض علماء القلوب ، حالٌ واحد في ألف أقوى من قول ألف في واحد .

المرتبة الثانية مرتبة الوحي المختص بالأنبياء ، أعلى مرتبة من حيث النوع :

وَكَلَّمَ

ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴿١٦٤﴾

(سورة النساء)

والمرتبة الثانية الوحي المختص بالأنبياء لماذا قيدتُ هذه الكلمة ، ذلك لأن الوحي في القرآن على أربعة مراتب ، قال تعالى :

إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾

(سورة الزلزلة)

إذا توجه الوحي إلى جماد فهو أمر تكويني ، لكن ا سبحانه وتعالى أوحى إلى النحل ، قال تعالى :

وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾

(سورة النحل)

وحي الحيوانات هو وحي غريزي ، أما حينما أوحى ا إلى أم أن أرضعيه ، قال تعالى :

وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧﴾

[سورة القصص]

هذا وحي إلهام ، أما إذا قال ا عز وجل :

أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ

(سورة يوسف)

هذا وحي نبوة ، فالوحي أمر تكويني ، أو أمر غريزي ، أو إلهام ، أو إرسال رسول من الملَك إلى نبي من الأنبياء ، فالمرتبة الثانية ، قال تعالى :

﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ

(سورة النساء)

المرتبة الثالثة هي مرتبة إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري فيوحي إليه ما أمره ا عز وجل أن يوصله إليه ، قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾

(سورة الشورى)

وهناك مرتبة رابعة اسمها مرتبة التحديث ، ونحن الآن دخلنا بمـراتب لا علاقة لها بالنبوة مرتبة التكليم ، ومرتبة وحي النبوة ، ومرتبة إرسال الرسول ، هذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء الآن نزلنا إلى درجة تحت الأنبياء ، هي مرتبة التحديث ، فعن أَبِي هرَيرةَ رضي الله عنْه عن النبِي صلى الله علَيه وسلم قَالَ **إِنه قَد كَان فيما مضى قَبلَكُم من الْأُممِ محدثُون وإِنه إِن كَان في أُمتي هذه منْهم فَإِنه عمر بن الْخَطابِ** *

(متفق عليه)

من شدة قربه من ا ، فا عز وجل يحدثه بطريقة أو بأخرى ، أرأيتم إلى مراتب الهدى أما هذا المقطوع عن ا تعالى من أي مرتبة هو ؟ المقطوع عن ا تعالى بمعصية ، أو المحجوب بعيبٍ ، الدعاء الشريف : اللهم لا تقطعنا بقَواطع الذنوب ، ولا تحجبنا بقَبائح العيوب ، الخُلُق السيء والعيب الذميم هذه تحجب ، والذنب يقطع ، لذلك أشد شيء على الإنسان أن يحجب بعيبٍ قبيح ، أو أن يقطع بذنبٍ قبيح ، عن أَبِي هرَيرةَ رضي الله عنْه عن النبِي صلى الله علَيه وسلم قَالَ **إِنه قَد كَان فيما مضى قَبلَكُم من الْأُممِ محدثُون وإِنه إِن كَان في أُمتي هذه منْهم فَإِنه عمر بن الْخَطابِ** *

(متفق عليه)

العلماء قالوا : إن الصديق أعلى من المحدث ، المرتبة التي تأتي بعد الأنبياء هي

مرتبة الصديقين ، قال تعالى :

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾

(سورة النساء)

السيدة مريم كانت صديقة النساء ، وسيدنا أبو بكر كان صديق هذه الأمة أي إنسان قريب من مقام النبوة ، فكلّ ما يقوله النبي يصدقه ، لأنّه يراه فمثلاً لو ذهب شخص إلى بلدة ، وعرف معالمها وهو جالس في مجلس إنسان تحدث عن هذه البلدة ، يقول له : صحيح ، صدقت ، لأن الذي يقول هذا يعرفه ، فمرتبة الصديقية هي أول مرتبة تأتي بعد مرتبة النبوة ، ومرتبة المحدث تأتي بعدها ، فسيدنا عمر رضي الله عنه كان محدثًا ، كان يقول : **ما أنا إلا حسنة من حسنات أبي بكر** .

قال بعض العلماء : الصديق استغنى بكمال صديقيته ، ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشْف لكن لا تسمحوا لأحد أن يقول لكم : حدثني قلبي عن ربي ، بشيء يخالف الشريعة ! فكلّ ما من شأنه أن يكون إشراقًا أو إلهاما ، أو كشفًا ، أو... أو ... فلابد من أن ينضبطَ بالكتاب والسنّة .

يروى أن أحدهم في عهد العز بن عبد السلام رأى النبي عليه الصلاة والسلام يقول له : إن في مكان كذا وكذا كنزا فخُذه ، ولا تدفع زكاته ، فجاء هذا الإنسان إلى العز بن عبد السلام ، وقال : رأيتُ كذا وكذا فقال : اذْهب إلى مكان كذا وكذا واحفر وخُذ الكنز وادفع زكاته ، لأن فتوى النبي عليه الصلاة والسلام في حياته أبلغ من فتواه في منامك ،

فأي منامٍ يعزى إلى النبي يخالف الشريعة ينبغي ألاّ نصدقه ، هناك طرفة يقولون : قام المسؤول الكبير في الأوقاف ، وقال له شخص : رأيت النبي عليه الصلاة والسلام البارحة وهو يهديك السلام ، ويطلب منك أن أكون عندك في الوزارة موظفًا ، وأن تعتني بي ، فهذا المسؤول على جانبٍ من الذّكاء ، قال : الساعة الثانية عشرة ، فقال هذا المسؤول : وأنا رأيته الساعة الرابعة بعدك ، وقال لي : إنّه كذّاب فلا تصدقه !

ديننا ليس ديـ ـن منامات ولا كرامات ، ولا ديـ ن شطحات وخزعبلات ، وتأملات وتأوهات ديننا دين منهج ووحي ، من أدقّ ما تعني به كلمة " فاسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون "، من هم أهل الذكْر ؟ الذكْر في أي معنى ورد في القرآن الكريم ، اسألوا أهل الوحي ، نحن عندنا حقّ لا يأتيه الباطل أبدا هو الوحي ، فكلّ إنسان مختص بالوحي متقن له ويعرف معاني كلام الله تعالى ، ومعاني سنّة رسول الله ، " اسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون "،

فهذه المرتبة مرتبة الصديقية فوق مرتبة المحدث .

المرتبة الخامسة هي مرتبة الإفهام ، وهذه المرتبة يمكن أن تجتمع في ولي وفي نبي ، قال تعالى :

وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ

(سورة الأنبياء)

عن أبي الطفيل قال سئل علي **أخصكم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بشيء فقال ما خصنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بشيء لم يعم به الناس كافةً إلا ما كان في قراب سيفي هذا قال فأخرج صحيفةً مكتوب فيها لعن الله من ذبح لغير الله ولعن الله من سرق منار الأرض ولعن الله من لعن والده ولعن الله من آوى محدثًا ***

(رواه أحمد)

إذًا أن تفهم عن الله شيئًا ونص الوحيين الكتاب والسنّة فهذه مرتبة ، قال تعالى :

فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمًا وَعِلۡمًاۚ

(سورة الأنبياء)

فهم النص فهما عميقًا ، فإذا قرأت قوله تعالى :

فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾

(سورة الشمس)

وفهمت من هذا النص أن الله خلق في النفس الفجور ، وخلق فيها التقوى من دون سبب منها فأنت لم تؤتَ فهم كلام الله تعالى ، أما إذا فهمتَ معنى قول الله تعالى :

وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾

على أن الله تعالى خلق الإنسان على جِبِلّة عالية راقية بحيث إن فجرت أو اتّقيت تعرف معرفةً ذاتية من دون وسيط أنّها فجرت أو اتقَتْ ، هذا فهم صحيح ، وفهم راق لكتاب الله تعالى ، قال تعالى :

فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمًا وَعِلۡمًاۚ

(سورة الأنبياء)

سيدنا عمر رضي الله عنه كتب كتابا لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما يقول فيه : **الفهم الفهم فيما أُدلي إليك** "، فالفهم مرتبة عالية جدا يؤتيها الله عز وجل للصادقين ، يفهم النص على ما أراده الله تعالى ، كنت أقول مرة : لو قال لك إنسان اسقني ماء ، فأنت قد تجتهد أن تأتيه بكأس فضية نقشَ عليها آية الكرسي مثلاً ، أو بإبريق ، أما أن تأتيه بخُبز فأنت ما فهمت كلامه ، فقد تجتهد في الوعاء ، وفي الأسلوب .

قال تعالى :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) ﴾

(سورة السجدة)

إن أوتيتَ فهما لكتاب الله عز وجل تفهم هذه الآية على أن الله عز وجل أكرمك بالاختيار وأكرمك بالتكليف ، وبحمل الأمانة ، فلو ألغى هذه الكرامة ، ألغى اختيارك وتكليفك وحملك للأمانة وأراد أن يجبرك على شيء ، ما أجبرك إلا على الهدى ، وهذا هو المعنى الصحيح ، وليس المعنى الذي يتبادر إليه الذّهن ، وهو أن الله تعالى ما أراد الهداية للبشرية.

قال : فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية ، ومنشـــر الولاية النبوية ، وفيه تفاوت بين مراتب العلماء ، حتى عد ألف لواحد ، وواحد لألف ، وهذا حسب الفهم .

سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما كان شابا صغيرا ، قرأ قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾

(سورة النصر)

عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان عنده شيوخ الصحابة ، وكان أحدثَهم سنا ابن عباس فتألّموا على أن هذا الصغير ليس في مستوانا ، وأدرك عمر اعتراضهم ، فجمعهم وسألهم عن هذه الآية ، فإذا ابن عباس رضي الله عنه الذي هو أحدثهم سنا يقول : إن نَعوة النبي عليه الصلاة والسلام نُعي النبي عليه الصلاة والسلام بهذه الآية :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ
أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣ ﴾

(سورة النصر)

وعندنا مرتبة سادسة هي مرتبة التبيين ، وقد تحدثنا عن مرتبة التكليم ومرتبة الوحي ، ومرتبة إرسال الرسول ، وعن مرتبة التحديث ، وعن مرتبة التصديق ، ومرتبة التفهيم ، والآن ننتقل إلى مرتبة التبيين .

الإنسان حينما تتّضح الحقائق أمامه اتّضاحا جليا ، يصبح طليقًا في بيانه ، وكلّ إنسان يتعثّر في البيان معنى ذلك أن الحقيقة غير واضحة أمامه ، بشكلٍ مبسط إنسان ألقى نظرة على ساحة عامة عيناه حادتان والساحة قريبة منه ، تجده يصف لك ما رأى بدقّة متناهية ، من أين جاء صوابه في الوصف ؟ من رؤيته الصحيحة ، ووضوح الأشياء أمامه ، أما إذا كان بعيدا ، قال تعالى :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤ ﴾

(سورة فصلت)

قد لا تتّضح لديه الرؤية ، فالذي يبين أسماء ربنا الحسنى ، وصفاته الفضلى ، وأخلاق الأنبياء وكمالهم ، وانسجام القرآن ، وصحة السنّة ، وعلّة كلّ شيء ، وحكمة كلّ شيء ، فهذا الذي يبين ينطلق من رؤية صحيحة ، وأعلى أنواع العلم ما كان رؤيةً ، والدليل قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾

(سورة الأنفال)

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن
رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ
رَّحِيمٞ ٢٨ ﴾

(سورة الحديد)

إنسان يركب مركبة ، والطريق فيه حفر ، وآكام ، وتحويلات ، وصعوبات ، وصعود ونزول إن كان معه إضاءة شديدة ، فكلّ شيء أمامه واضح ، ولا يتعثّر .

فيا أيها الإخوة ؛ قضية التبيين أساسها الوضوح ، ولنا متابعة لهذا الموضوع في درسٍ آخر .

والحمد رب العالمين

بسم ا الرحمن الرحيم

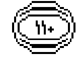
أيها الإخوة المؤمنون ؛ مع الدرس السابع والثمانين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، و المنزلة اليوم منزلة الدهشة .

أولا هذا الموضوع ، ما من مؤمن على وجه الأرض إلا وله منه معاناة ، ذلك أن المؤمن لمجرد أن يصطلح مع ا ، و يتوب إليه و يقبل عليه و يلتزم منهجه ، يدخل في سعادة لا توصف ، وكأن الأرض كلها لا تَسعه ، من شدة السعادة التي يمتلئ بها قلبه ، وهذا الكلام ينطبق على كل مؤمن ، تعرف إلى ا واصطلح معه و تاب إليه و أقبل عليه ، هذه منزلة الدهشة .

لأقرب لكم هذه المنزلة ، إنسان يكون في حالة برد شديد ، يكاد عظمه يتصدع من شدة البرد ، فإذا دخل بيتًا فيه تدفئة راقية ، خلال عشر دقائق يشعر براحة لا توصف ، لكن بعد عشر دقائق يألف هذا الجو الدافئ ، الجو الدافئ هوهو لم يتغير ، لكنه أَلِفَ هذا الجو ، فإذا توهم أن هذه السعادة التي حصلها حينما دخل هذا البيت فُقدت فهو واهم ، لكن تأثيرها فيه ضعف ، يقول سيدنا الصديق : بكينا حتى جفت مآقينا " فكل واحد مع ا شهر عسل ، في أول الأيام ، ساعات الإقبال ، ساعات التوبة ، ساعات الإنابة ساعات الدخول إلى عالم الإيمان ، ساعات الطهارة هي سعادة ما بعدها سعادة ، إنسان تاب إلى ا يقول : أنا بقيت عمرا مديدا أدخل بيتي بعد صلاة الفجر عائدا من الملاهي ، في أول ليلة تاب فيها إلى ا استيقظ قبل صلاة الفجر ، و كأن الدنيا كلها لا تسعه من شدة الفرح ، أقول لك كلمة صريحة : إن لم تشعر بهذا الفرح الذي لا يوصف لأنك أصبحت عبدا منيبا ، عبدا طائعا له ، لأنك اصطلحت مع خالقك، لأنك أقبلت عليه ، لأنك أخلصت له ، إن لم تقل : أنا أسعد الناس قاطبة ، أو إن لم تقل : أنا أسعد الناس إلا يكون أحدهم أتقى مني ، فهذا ضعف في الإيمان ، لكن هذه المرحلة لا تستمر .

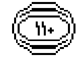
لنضرب مثلا آخر ؛ إنسان خطب فتاة ، شاب مستقيم بعيد عن كل معصية ، وكل انحراف ، أيام الخطبة يقول لك : أنا أعيش في الجنة ، يجلس معها ساعات طويلة وهو في غاية الشوق ساعات على الهاتف ، بعد سنتين يأتي من عمله متعبا لا تستطيع أن تكلمه كلمة ، أين الساعات على الهاتف ، الزوجة هي هي ، شكلها هو هو ، أخلاقها هي هي ، و لكن أَلِفَها ، لك مع ا دهشة ، و لكن ا عزوجل لو أبقاك في هذه الدهشة في شكل مستمر لا تعمل ، بل تجلس ، لأنك سعيد ، لكن ا عزوجل لحكمة بالغة يحجب عنك هذه الأحوال ، من

أجل أن تقوم و أن تسعى إلى ا عزوجل ، والإنسان في أي لحظة يستطيع أن يستعيد أيام شبابه الروحي مع ا ، قال تعالى :

فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا 

(سورة الكهف) .

آيةٌ واحدةٌ وا ِ لو لم يكن في كتاب ا إلا هي لكفت ، فمن كان يرجو لقاء ربه في الدنيا ، أن تتصل به ، وتقبل عليه ، وتلوذ بحماه ، تشعر أن ا يحبك ، و أنك بعين ا عزوجل ، قال تعالى :

فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا 

(سورة الكهف) .

فليكن عمله صالحا ، وليكن في خدمة الخلق .

مرة سمعت مناجاة فاهتز لها قلبي ، يا ربي لا يحلو الليل إلا بمناجاتك ، و لا يحلو النهار إلا بخدمة عبادك ، تجد المؤمن قد بنى حياته على العطاء ، يعطي من ماله ووقته وعلمه وخبرته وجاهه ومكانته وإتقانه لبعض الحرف ، هو يعطي من أجل أن يرضى ا عنه ، بنى حياته على العطاء والعطاء سمة أساسية في حياة المؤمن ، أنت اسال نفسك سؤالا : ماذا أعطيت ؟ وماذا قدمت عزوجل ؟ وماذا قدمت للمسلمين ؟ وماذا فعلت من فعل تلقى ا به ، ناصع الجبين مستنير الوجه ، اسأل نفسك كل يوم لأن حجمك عند ا بحجم عملك الصالح ، فالمؤمن بنى حياته على العطاء ، والكافر بنى حياته على الأخذ ولذلك الأنبياء أعطوا كل شيء ، ولم يأخذوا شيئا ، والأقوياء أخذوا كل شيء ولم يعطوا شيئا ، والناس جميعا أتباع قوي أو نبي ، والأنبياء ملكوا القلوب بكمالهم ، والأقوياء ملكوا الرقاب بقوتهم ، و كل واحد من البشر تابع لقوي أو نبي ، فإن كان تابعا قويا فسلاحه قوتُه يقهر بها الناس ، ويبتز بها أموالهم ، وإن كان سلاحه كماله ملك قلوب الناس ، والمؤمن سلاحه الكمالُ ،

والكافر سلاحه القوة ، والمؤمن يملك القلوب ، والكافر يملك الرقاب ، بالبر يستعبد الحر ، قال تعالى :

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾

(سورة الليل) .

أعطى أعطى بشكل مطلق ، و في علم الأصول الفعل إذا غاب مفعوله أطلق مدلوله ، أعطى ماذا ؟ أعطى كل شيء ، لا يوجد إنسان على وجه الأرض ليس عنده ميزة ، يقول الطبيب : أنا يمكن أن أعالج بعض المرضى الفقراء مجانا لوجه ا ، ويقول المحامي : أنا يمكن أن أدافع عن إنسان فقير لا يملك أجور المرافعة لوجه ا ، ويقول إنسان معلم : أنا يمكن أن أعلم طالبا فقيرا لوجه ا ، ومرة قال لي طبيب أسنان : جاءتني مريضة تعمل في حقل التعليم و مقدمة أسنانها تالفة ، فمظهر فمها حينما تبتسم أو تتكلم منظر غير مريح ، و طالباتها لعلهن يضحكن إذا انفرجت شفتاها ، فجاءته لتصلح أسنانها ، و المبلغ فوق طاقاتها فاعتذرت ، قال لي : أردت أن أقوم بهذا العلم لوجه ا ، قال لها : لا عليك من الأجرة تعالي قال لي : بقيت شهرين أو ثلاثة أصلح لها أسنانها ، يقول هذا الطبيب : وا ِ شعرت بسعادة لا توصف لأن هذا العمل خالص لوجه ا ، هكذا قال ا عزوجل :

إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾

(سورة الإنسان) .

فأنت علام تبني إيمانك ؟ الإيمان يبنى على العطاء ، والكفر يبنَى على الأخذ ، هذا يذكرني أن النملة كما قرأت عنها فيها جهاز ضخ و جهاز مص ، فإن التقت النملة الشبعى نملًة جائعة تعطيها من عصارة هضمها عن طريق جهاز الضخ ، وإن كانت جائعةً تأخذ من رحيق أختها عن طريق جهاز المص ، قلت : الناس رجلان ؛ رجـل يستخدم جهاز المص دائما ، ورجل يستخدم جهاز الضخ دائما المؤمن يضخ دائما ، والكافر يمص ، يقول لك : مص دمي ، أحيانا الإنسان يبتزك و يجعلك بقرة حلوبا وهو لم يقدم لك شيئا ، قال تعالى :

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾

(سورة الليل) .

ومع إعطائه اتقى أن يعصي ا ، أعطى و اتقى ، لكن هذا العطاء وهذا التقوى مبنيان على إيمان با ، لأنه صدق بالحسنى ، صدق أن الإنسان مخلوق لجنة عرضها السماوات والأرض ، صدق أن الإنسان مخلوقٌ للجنة ، وأن ثمن الجنة الإحسان ، قال تعالى :

هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾

(سورة الرحمن) .

صدق بالحسنى واتقى أن يعصي ا عزوجل ، وأعطى من كل ما أعطاه ا ، المكافـأة العاجلة في الدنيا ، قال تعالى :

فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾

(سورة الليل) .

الأمور ميسرة ، قال تعالى :

فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ

(سورة الطور) .

الأمور سهلة ، اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا ، بالمقابل قال تعالى :

وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ

(سورة الليل) .

هذا يسمونه في البلاغة المطابقة ، قال الشاعر :

*****

فَتَرفع بِالإِعزازِ من كان جاهلاً وتَخْفَض بالإِذْلال من كان يعقلُ

المطابقة معنيان متعاكسان ، خير وشر ، حق وباطل ، ليل و نهار ، أبيض وأسود ، فإذا جاءت مجموعة معان تقابل مجموعة معان على التسلسل هذه صارت مقابلة ، قال تعالى :

فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾

(سورة الليل) .

﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ ﴾

(سورة الليل) .

أعطى واتقى ، واستغنى ، وصدق بالحسنى ، و كذب بالحسنى ، هذه في البلاغة المقابلة ، الطرف الثاني بخل أن يعطي ، يستخدم جهاز المص فقط ، يأخذ كل شيء ولا يعطي شيئا ، واستغنى عن طاعة ا ، ولم يعبأ ، ذنب المنافق كالذبابة على وجهه ، و ذنب المؤمن كالجبل جاثم على صدره :

﴿ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ ﴾

(سورة الليل) .

لم ير مبلغ علمه و منتهى أمله إلا الدنيا .

الآن أول عقاب له في الدنيا ، قال تعالى :

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ ﴾

(سورة الليل) .

وا عزوجل لحكمة يريدها يسقط الإنسان من علو ، انظر إلى هذا القانون :

﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ ﴾

(سورة الليل) .

هو حينما بخل ، وحينما استغنى عن طاعة ا من أجل أن يجمع المالَ الوفير ، وحينما لم يعبأ بالآخرة فلم ينفق منه شيئا ، من أجل أن تنمو ثروتُه ، قال تعالى :

﴿ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ ﴾

(سورة الليل) .

فالإنسان ما جمعه في عمر مديد يخسره في ثانية واحدة ، إذًا لكل داخلٍ دهشةٌ ، هذه الدهشةُ يذوقها كل مؤمن ، لكن هذه الدهشة لا تلبث أن تفتر ، إن لكل شيء فورة ، ثم هذه

الفورة تهدأ ، فمن هدأت فورته على طاعة ا فهنيئا له ، والإنسان يبكي في الصلاة ، يبكي أثناء القراءة ، و يأتي وقت هذه المعاني القدسية أَلِفَها ، والأحوال النفسية عاشها ، وهو في طاعة ا دائما ، فالدهشة انتهت ، فهناك أخ حينما ضعف تأثير هذا الحال عنده تراجع ، لذلك هذه الدهشة و هذه الفترة ذاقها سيدنا حنظلة ، **فَعن حنْظَلَةَ الْأُسيدي قَالَ وكَان من كُتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قَالَ لقيني أَبو بكْر فَقَالَ كَيفَ أَنْتَ يا حنْظَلَةُ قَالَ قُلْتُ نَافَقَ حنْظَلَةُ قَالَ سبحان الله ما تَقُولُ قَالَ قُلْتُ نَكُون عنْد رسول الله صلى الله عليه وسلم يذَكرنَا بِالنارِ والْجنة حتى كَأَنا رأْي عينٍ فَإِذَا خَرجنَا من عنْد رسول الله صلى الله عليه وسلم عافَسنَا الْأَزواج والْأَولَاد والضيعات فَنَسينَا كَثيرا قَالَ أَبو بكْر فَوالله إِنا لَنَلْقَى مثْلَ هذَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وأَبو بكْر حتى دخَلْنَا علَى رسول الله صلى الله عليه وسلم قُلْتُ نَافَقَ حنْظَلَةُ يا رسولَ الله فَقَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وما ذَاك قُلْتُ يا رسولَ الله نَكُون عنْدك تُذَكرنَا بِالنارِ والْجنة حتى كَأَنا رأْي عينٍ فَإِذَا خَرجنَا من عنْدك عافَسنَا الْأَزواج والْأَولَاد والضيعات نَسينَا كَثيرا فَقَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم والذي نَفْسي بِيده إِن لَو تَدومون علَى ما تَكُونُون عنْدي وفي الذِّكْرِ لَصافَحتْكُم الْملَائِكَةُ علَى فُرشكُم وفي طُرقكُم ولَكن يا حنْظَلَةُ ساعةً وساعةً ثَلَاثَ مرات ***

(رواه مسلم) .

وهذا من أدب الصديق الرفيع ، الأدب الرفيع ألا تمدح نفسك في معرض إنسان شقي بنفسه إنسان قال لك : وا ـِ عندي ولد متعب ، لا تقل : ا يرضى عن ابني لا يوجد أبر منه ، وهذا كلام مزعج إنسان شكا لك زوجته ، لا تقل : أنا لي زوجة ا يرضى عنها ، لا يوجد منها ، هذا نوع من التحدي المؤمن وهو في الدرس له حال عال ، هو مع المؤمنين في مذاكرة علم ، حال عالٍ هو في صلاته ، في ذكره في تلاوته له حال ، أما أحيانا دخل إلى بيته و يريد أن يأكل ، هذه الحال العالية غاب عنها ، إذا غاب عنه حال فهذا شيء طبيعي ، لأن دوام الحال من المحال ، وما سمي الحال حالا إلا لأنه يحول ويتحول ، العبرة أن تكون مستقيما ، والحال إن أتى فرحب به ، وإن غاب عنك وأنت مستقيم فلا تتأثر لأن ا عزوجل يقلبنا ذات اليمين وذات الشمال .

مرة نجد في قلوبنا حالا راقية نسعد بها ، و مرة ننكر قلوبنا ، العبرة أن تكون مستقيما دائما لذلك أخطر شيء في الدين ما يطرحه العامة ، من أنه ساعة لك و ساعة لربك ، ساعة له يعصي ا فيها و ساعة لربك يطيع ا فيها ، هذا مرفوض كليا ، لكن ساعة وساعة ، أي ساعة إقبال ، وساعة فتور ساعة تألق ، وساعة عادية ، كيف في الجامعة هناك مقبول ، وهناك جيد ، وجيد جدا ، وامتياز ، وشرف في ساعة الفتور عند ا مقبول ، وفي الساعة لربك هناك تألق وإقبال ، فلذلك حالة الدهشة هذه تصيب كل مؤمن في أول الطريق ،

لكن بعد حين يألف الإيمان ، ويألف القرآن ، ويألف طاعة الواحد الديان ، يألف أن يكون مستقيما ، ويألف أن يضبط بصره ، ويألف أن يحرر دخله ، ويألف أن يكون إنفاقه فيما يرضي ا عزوجل ، فهذه النقطة دقيقة جدا ، و الحقيقة ليس في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة إلا آية واحدة تصف حالة الدهشة ، قال تعالى :

فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ

(سورة يوسف) .

زرتُ حاجا جاء فسألته عن شيء تأثر له ، فقال لي : وا ِ حينما رأيت الكعبة دهشت ، وبكيت فاللقاء الأول مدهش ، لكن اللقاء الثاني و الثالث أقل دهشة ، فأنا أطمئن الإخوة الكرام ، أنه إذا كان يشكو ضعف أحواله مع دوام استقامته فلا ضير عليه ، أما إذا كان هناك تقصير في الاستقامة ، أو هناك خرق لحدود ا ، أو هناك مخافات ، نقول له : هذا الحال الذي يزعجك هو انعكاس المعاصي.

على كل ورد عند بعض الصالحين : لا تصاحب من لا ينهض بك إلى ا حاله ، ولا يدلك على ا مقاله " وورد أيضا أن قولَ واحد في ألف أبلغُ من قول ألف في واحد ، فالإنسان الموصول إذا تكلم يؤثر في ألف ، وألف متكلم مقطوعون عن ا عزوجل لا يؤثرون في واحد ، لذلك سر نجاح الدعوة الإخلاص لذلك هذا يقودنا إلى قانون آخر ، وما أروع هذا القانون ، قال تعالى :

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ

(سورة آل عمران) .

هذه الآية معادلة رياضية ، أي يا محمد بسبب رحمة استقرت في قلبك من خلال اتصالك بنا كنت لينا ، فلما كنت لينا التف الناس حولك و أحبوك وانتفعوا بك ، و فدوك بأرواحهم ، و لو كنت مقطوعا عنا لاستقر في قلبك القسوة ، والقسوة تنعكس غلظة و فظاظة ، ولانفض الناس من حولك ، أين المعادلة ، اتصال ، رحمة ، لين ، التفاف ، انقطاع ، قسوة ، غلظة ، انفضاض ، فإن أردت أن يلتف الناس حولك فكن متصلا با ، حتى تستقر الرحمةُ في قلبك ، و حتى تنعكس لِينًا ، و حتى يألفك الناس وقد قال عليه الصلاة و السلام : **الْمُؤْمِن مؤْلَفٌ ولَا خَير فيمن لَا يأْلَفُ ولَا يؤْلَفُ**

(رواه أحمد عن أبي هريرة) .

في قلبه رحمة متأججة ، و كأن رحمة ا عزوجل هي مطلق عطائه ، الراحمون يرحمهم ا إن أردتم رحمتي فارحموا خلقي ، الراحمون في رضوان ا عزوجل ، هذه واحدة .

عندنا حال الذي هو الدهشة ، وعندنا علم ، فدائما العلماء قالوا : العلم حكم على الحال ، لو أن إنسانا رأيته طليق الوجه ، منبسط السرائر ، حيوي المظهر ، لأنه ارتكب معصية ، العلم أقوى من الحال، هذه المعصية معصية و لها عقاب ، وكان جاهلا ، فرح بهذه المعصية ، فمن هو الحكم على الآخر ؟ الحال على العلم ، أم العلم على الحال ؟ العلم على الحال ، والعلماء قالوا : هناك حال شيطاني ، إذا الإنسان يبتغي أن يقترف معصية فيها لذة له ، و تمكن من هذه المعصية تراه فرحا ، لكن ا عزوجل ماذا قال ؟ قال :

قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ

(سورة يونس) .

عليك أن تفرح بالطاعة ، و أن تفرح بالقرب من ا ، لا أن تفرح بالمعصية ، والعلماء قالوا : هناك حال شيطاني ، الحال السارة التي تأتي عقب معصية ، هذه حال شيطانية ، والكآبة التي تأتي عقب المعصية حال رحمانية ، هذه الفطرة ، أما السرور الذي يأتي عقب طاعة ، هذه حال رحمانية ، فأنت انظر العلم هو الحكم ، العلم دائما و أبدا حكم على الحال ، لا تعبأ بحال لا يغطيه العلم ، وأنا أقول لكم بصراحة : ممكن لإنسان في ذهنه رغبة جامحة لشيء لا يرضي ا ، فإذا وصله تألق وجهه ، حقق مراده ، فالعبرة أن تفرح بطاعة ا ، قال تعالى :

قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْۖ

(سورة القصص) .

" طغى و بغى ، و نسي المبتدا والمنتهى ، قال تعالى :

وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ
إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ٧٦

(سورة القصص) .

لا تفرح بما أوتيت من الدنيا فإن ا لا يحب الفرحين ، قل ما الذي يفرحك أقلْ لك من أنت المؤمن يفرح بطاعة ا ، يفرح المؤمن إذا أجرى ا على يديه خيرا ، والمؤمن يفرح أشد الفرح إذا وفق لطاعة ، وفق لهداية إنسان ، وفق لفهم كتاب ا ، وفق لشرح كتاب ا ، لأن النبي عليه الصلاة و السلام يقول : **خَيركُم من تَعلم القُرآن وعلمه ***

(رواه البخاري عن عثمان) .

و الكافر يفرح لأنه ملَك الدنيا ، أحد زعماء بريطانيا له كلمة ، قال : ملكنا العالم و لم نملك أنفسنا لذلك علق بعضهم على أن الحضارة الإسلامية حضارة ضبط الذات ، بينما حضارة الغربيين حضارة السيطرة على الطبيعة ، والمسلم مسيطر على ذاته ، هناك حماقات و جرائم يرتكبها الكفار ، وهذا تحت سمعكم و بصركم ، يندى لها الجبين ، مرة قرأت مقالة في مجلة أصيلة ، عن بيع العبيد في أمريكا ، تأتي البواخر إلى إفريقيا ويسوقون العبيد سوقا بقوة الحديد و النار و يضعونهم في عنابر البواخر مقيدين بالسلاسل ، ويموت نصفهم في الطريق ، و يبقى الميتون إلى جانب الأحياء طوال الطريق إلى أمريكا ، إلى أن تتفسخ جثثهم ، يأخذونهم ليعملوا في الحقول بلا مقابل ، وا ِ بعدما قرأت هذه المقالة ، استعباد العبيد من إفريقيا ، وا ِ خجلت من أن أنتمي إلى الجنس البشري ، الكافر قلبه كالصخر ، وحش ، قال تعالى :

وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾

(سورة الشعراء) .

وليس بعيدا عن سمعكم وأبصاركم ما يجري في العالم اليوم ، مئات الألوف ، في إفريقيا الجنوبية تم ذبح خمسمائة ألف في يوم ، راوندا ، وفي كوسوفو ، وفي البوسنة ، وفي ألبانيا ، و في الشيشان ، يقولون : تطهير عرقي ، من علامات قيام الساعة موت كعقاص الغنم ، لا يدري القاتل ِلم يقتل ولا المقتول فيما قتل "

لما فتح الفرنجةُ القدس ، سبعون ألف إنسان ذُبحوا في ليلة ، لما سيدنا صلاح الدين رحمه ا تعالى فتح القدس ، جاءته امرأة ضاع ابنُها ، بقي واقفا إلى أن أعادوا لها ابنها ، وما ظلم واحدا ، ولا أخذ جندي من إنسان حاجته ، بل إن هؤلاء الذين خرجوا من القدس سمح لهم أن يبيعوا حاجاتهم بأثمانها هكذا الإسلام ، الإيمان قيد الفتك ، و لا يفتك مؤمن ، تصور ما جرى في البوسنة و الهرسك ، وما جرى في ألبانيا وكوسوفو ، وما جرى في الشيشان ، لو أن المسلمين ملكوا ، لا يفعلون شيئا من هذا القبيل المؤمن مقيد بمنهج ، قيل : يا رسول ا مثل بهم ، فقد مثّلوا بعمك ، قال : لا أمثل بهم فيمثل ا بي و لو كنت نبيا " هناك إله ، وهناك أمر ونهي ، وهناك حق وباطل ، وهناك شيء يجوز ولا يجوز ، المؤمن

يعيش منظومة قيم ، ويحلو لي أن أشبه الإنسان الكافر بدابة متفلتة ، أما المؤمن فمنضبط بمنهج ا ، فأنت سعادتك أن تكون منضبطا ، في حياتك محرمات ، أنت لست تتحرك كما تتمنى ، هناك شخص يعمل في تصليح السيارات ولي قريب كان جارا له ، جاء شخص بسيارة جديدة جدا ، وفيها خلل ، الذي جاءه أدرك أن صاحب السيارة جاهل ، و حريص على سيارته ، فحصها فقال له : في المحرك خلل كبير ، تكلفك عشرة آلاف ليرة ، صاحب السيارة لا يعرف أن يناقشه ، قال له : أصلحها ، يقول لي قريبي وهو جار له : أصلحها في خمس دقائق ، لا تكلف إلا مائة ليرة ، أول يوم أخذ أهله إلى الزبداني بها ، وثاني يوم ذهبوا إلى المطار ، وثالث يوم إلى وادي بردى ، في رابع يوم جاء صاحب السيارة استلمها ودفع عشرة آلاف ليرة ، قال لي : وا ِ دفعها نقدا وعدا ، لكن هذا المصلح ذكي جدا ، ذكر له أشياء معقدة في المحرك ، وخوفه ووهمه ، وابتز ماله ، و دفعه ، فقال له قريبي : أيعقَل ما فعلت ؟ فقال له : هكذا أصول العمل ، وهو يضحك ، و مسرور ، عشرة آلاف ، مع ثلاث نزهات بها ، وكان له ابن يعمل في مخرطة تدخل ذرة فولاذ في عينه في القرنية ، أخذه على لبنان ، كلفته العملية ستة عشر ألف ليرة لبنانية ، والليرة اللبنانية مائة وستون قرشا سوريا ، يقرب من خمسة و عشرين ألف ، قال : يا رب لقد عصيتك فلم تعاقبني ، قال : عبدي قد عاقبتك و لم تدر " يفرح الإنسان أنه ذكي وحصل مالا حراما بذكائه ، لن تكون ذكيا في تحصيل أموالك إلا إذا كنتَ في طاعة ا ، وأي إنسان لا يدخل ا َ جل جلاله في حساباته اليومية يكون أحمقَ ، قال تعالى :

إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾

(سورة البروج) .

وفي الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنْهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ الظلْم ظُلُماتٌ يوم الْقيامة

(رواه البخاري) .

بطولتك أن تضع رأسك على الوسادة وليس لأحد من الخلق حق عندك ، و لا دابة و لا كلب و لا قطة ، ليس لمخلوق له حق عندك ، هذه بطولتك ، و لو كنت فقيرا ، ولو كنت ضعيفا ، ولوكنت مريضا ولو كنت مضطهدا ، بطولتك أن تكون بريئا من تعلق الحقوق بك ، أما إذا كان الإنسان ظالما و بنى مجده على أنقاض الآخرين ، و بنى غناه على إفقارهم ، و بنى أمنه على خوفهم ، و بنى حياته على موتهم فهو جبان ، أقول لك هذه الكلمة : هناك إنسان يعيش للناس ، هم الأنبياء ، وهناك أناس يعيشون لإنسان ، فبين أن تكون في خدمة الخلق ، وبين أن يكون الخلق في خدمتك ، لا تفرح لا بمال وفير ، ولا بمكانة عالية ولا

بحظ رائع ، افرح بطاعة ا ، وكل إنسان يفرح بشيء لا يرضي ا أحمق ، غبي ، و العلم حكم على الحال ، و ليس الحال مقياسا ، ضعاف العقول بين الناس ، ترقص لهم الدنيا أحيانا ، تجدهم يضحكون ، ضحك ، واستعلاء ، و تعليقات لاذعة ، و مشية فيها كبر ، وسيارته فارهة ، يفرح بشيء سخيف ، أما المؤمن فيفرح بطاعة ا ، يفرح أنه في رضوان ا ، يفرح أنه في خدمة الخلق ، يفرح أنه ينام الليل و ليس لأحد عنده حق أبدا ، قيل لأحدهم يبدو أنه داعية شاب أحبه الناس كثيرا والتفوا حوله فالطرف الآخر أصابتهم الغيرة والحسد ، بدأوا يتكلمون في حقه كلاما غير صحيح ، فجاء رجلٌ بشخص إلى هذا الداعية فقال له : إنني أشفق عليك مما يقوله الناس عنك ، قال له : هل سمعت مني عنهم شيئا ؟ قال له : لا ، قال له : عليهم فأشفق " عود نفسك لا تقابل من عصى ا فيك إلا أن تطيع ا فيه ، قال شخص لآخر : لقد اغتبتني ، قال له : ومن أنت حتى أغتابك ، لو كنت مغتابا أحدا لأغتبت أبي وأمي لأنهم أولى بحسناتي منك ، المؤمن موقن أنه إذا اغتاب ، فإن هذا المغتاب سيقف لك يوم القيامة ويأخذ من حسناته ، والمؤمن وقاف عند كتاب ا ، و مقياس الدنيا لا قيمة له ، قد تكون فقيرا وتكون عند ا كبيرا وقف النبي لأحد أصحابه فقال له : أهلا لمن خبرني جبريل بقدومه ، قال : أومثلي يا سول ا ؟ قال له : نعم خامل في الأرض علَم في السماء ، قد تكون شابا لا تملك من الدنيا شيئا ، قلت مرة : كنت في مؤتمر في المغرب ، وجلسنا في أرقى فندق في المغرب ، واستيقظت على صلاة الفجر ، وسمعت صوت قرآن ندي مع الفجر ، نظرتُ من الشرفة فإذا عامل الحديقة يصلي الفجر على الحشيش بصوت شجي وا ِ غلب على ظني أن هذا الذي يصلي بهذا الصوت الشجي أقرب إلى ا من كل من في الفندق والمؤتمر إسلامي طبعا ، إنسان موصول با هذا بطل ، ومرتبتك الاجتماعية لا قيمة لها أبدا ، قال تعالى :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ ﴾

(سورة الواقعة) .

من كان في أعلى عليين ولم يكن يعرف ا عزوجل يهبط إلى أسفل سافلين ، والذي كان في أسفل سافلين و كان قد عرف ا عزوجل ، لذلك : خافضة رافعة "

هذا الحديث يقصم الظهر ، **عن أَبِي هريرةَ أَن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ أَتَدرون ما الْمفْلس قَالُوا الْمفْلس فينَا من لَا درهم له ولَا متَاع فَقَالَ إِن الْمفْلس من أُمتي يأْتي يوم الْقيامة بِصلَاة وصيامٍ وزكَاة ويأْتي قَد شَتَم هذَا وقَذَفَ هذَا وأَكَلَ مالَ هذَا وسفَك دم**

هذَا وضرب هذَا فَيعطَى هذَا من حسنَاته وهذَا من حسنَاته فَإِن فَنيتْ حسنَاتُه قَبلَ أَن يقْضى ما علَيه أُخذَ من خَطَاياهم فَطُرِحتْ علَيه ثُم طُرِح في النار *

(رواه مسلم) .

تعريف المفلس بالسهل البسيط : من لا درهم له و لا متاع ، المفلس يصلي ، ويصوم ، لكنه شرس في تعامله مع الخلق ، عباداته التعاملية سيئة جدا ، لذلك هذا مفلس ، **وعن ثَوبان عن النبِي صلى الله عليه وسلم أَنه قَالَ لَأَعلَمن أَقْواما من أُمتي يأْتُون يوم الْقيامة بِحسنَات أَمثَالِ جِبالِ تهامةَ بِيضا فَيجعلُها الله عز وجل هباء منْثُورا قَالَ ثَوبان يا رسولَ الله صفْهم لنَا جلهم لنَا أَن لَا نَكُون منْهم ونَحن لَا نَعلَم قَالَ أَما إِنهم إِخْوانُكُم ومن جِلْدتكُم ويأْخُذُون من اللَّيلِ كَما تَأْخُذُون ولَكنهم أَقْوام إِذَا خَلَوا بِمحارِمِ الله انْتَهكُوها ***

(رواه ابن ماجه) .

لهم خلوات فيها معصية ، أما مواقفهم المعلنة رائعة ، ممثلون ، والتمثيل الآن دقيق ، يمثل عليك فتظنه تقيا نقيا ورعا ، فإذا هو فاجر ، أقول هذه الكلمة واحفظوها : إذا كان معك كيلو من الذهب الخالص و ظن الناس أن هذا من المعدن الخسيس ، من هو الرابح ؟ أنت ، الآن لو أن معك كيلو من المعدن الخسيس وأوهمتَ الناس أنه ذهب ، فصدق الناس كلامك ، فمن هو الخاسر ؟ أنت ، خيرك منك ، و شرك منك ، كن مع ا واضحا .

والخلاصة أن كل مؤمن يدخل في عالم الإيمان له دهشة ، عالم الإيمان له دهشة ، وله أحوال مسعدة و لكن هذه الأحوال لا تلبث أن تضعف ، ضعف هذه الأحوال مع بقاء الاستقامة لا ضير فيه أبدا ، الحال موجود لكن بشكل أَلِفْتَه أنت ، وأحيانا يدخل الإنسان إلى بيت فيدهش ، له إطلالة رائعة ، ومساحة كبيرة أثاث فاخر ، منطقة هادئة ، اسال أصحاب البيت هل هم مدهوشون كهذا الداخل ؟ أبدا ، لأنهم أَلِفُوه ، قد تدخل إلى مكتب وزير ، مكتب فخم جدا ، وأثاث من افخم ما يكون ، اسأل صاحب المكتب هل هو مندهش مثلك ؟ أبدا ، الدهشة مؤقتة ، فإذا دهش الإنسان ، قال تعالى :

فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ

(سورة يوسف) .

أحيانا الإنسان يدهش بفتاة ، تزوجها ، هل يبقى مدهوشا بها ؟ تخف الدهشة إلى أن تتلاشى فلذلك الدهشة مؤقتة ، العبرة بالاستقامة ، و احفظ هذه الكلمة " دائما العلم حكم على الحال " لأن هناك حالا رحمانيا و حالا شيطانيا .

شاهدت شخصا فرض على إنسان مدان مبلغا ضخما جدا ، في وقته كان مبلغا ضخما ، ثلاثمائة ألف ، كان الدولار بثلاثة ليرات و ثمانين قرشا ، فرض عليه مبلغا ضخما ،

فخضع له ، الأول يستطيع أن يدفعه عشرين ضعفا ، طلب منه ثلاثمائة ألف ، وجد الذي قبض المبلغ في وجهه تألقا ، و يكاد وجهه يضيء من الإشراق ، هل هذا موصول با ؟ لا هذا شيطان ، فيمكن أن يتألق وجهك ، ويمكن أن تشعر بسرور بالغ متى حقت هدفك ، و قد يكون الهدف غير مشروع عند ا عزوجل ، فلا تعتد بالحال ، اعتد بالعلم ، أما إذا كان حالك مغطى بالعلم ، أنت جالس جلسة مع بعض الناس و تكلمت كلاما طيبا ، كلاما واضحا ، كلاما معه دليل ، بحال قوي ، فتأثروا تأثرا بالغا ، و رأيت معظمهم عقد التوبة ، أنت فرحت وا ِ معك الحق بفرحك ، هذا من أعظم الأعمال ، هذه صنعة الأنبياء ، فأنت يمكن أن تفرح مليون مرة و كل هذا الفرح مغطى بالقرآن و السنة ، فرحك مشروع ، دائما زن فرحك بمقياس الشرع ، وإياك أن تقيم فرحك بمطلق الفرح ، قال تعالى :

لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ

ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾

(سورة القصص) .

قال تعالى :

فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ

(سورة يونس) .

ينبغي أن تفرح بفضل ا عزوجل ، قال تعالى :

قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ

(سورة يونس) .

و بالمقابل قال تعالى :

لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ

ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾

(سورة القصص) .

معنى ذلك أن هناك فرحا لا يحبه ا ، وهناك فرح يحبه ا ، قال تعالى :

قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ

(سورة يونس) .

هذا فرح مشروع ، وقال تعالى :

لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ

ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦

(سورة القصص) .

هذا فرح غير مشروع ، فالبطولة أن تفرح فرحا مشروعا .

والحمد رب العالمين .

****

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ؛ مع الدرس الثامن والثمانين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والدرس اليوم منزلة الأمل ، الأمل في الدنيا مهلكة ، والأمل في الآخرة رحمة ، يقول ا عزوجل :

أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

(سورة القصص)

شتان بين من يعده ا وعدا حسنًا ، وبين من ينطبق عليه قول ا عزوجل :

فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

(سورة الأنعام)

الأمل في الدنيا مهلكة ، والإنسان يفكر أن يعيش عمرا مديدا ، وأن يبني بيوتًا ، وأن يمتع نفَسه بمباهج الحياة ، وأن يكون كزيد أو عبيد ، وأن يشتري مركبة و أن يؤسس عملاً ، وأن يعيش في مكان جميل ، الأمل في الدنيا مهلك ، ولكن الأمل نفسه إذا كان في الآخرة فهو مسعد ، لأن الأمل في الآخرة يمتص كل متاعب الدنيا ، أراد إنسان أن يجري مداخلة في موضوع ذكرته ، كلمة مداخلة كلمة حيادية ، قلت : المؤمن سعيد ، قال لي : لا وا ليس سعيدا ، هو مثل الناس تماما ، يصيبه ما يصيبهم و يقلقه ما يقلقهم ، ويتعبه ما يتعبهم ، خرجت من مداخلته بمثل ، قلت له : تصور إنسانًا عنده ثمانيةُ أولاد ، و له دخل محدود جدا ، أربعة آلاف ، و بيته بالأجرة ، و عنده دعوى إخلاء ، كيف يعيش هذا الإنسان ؟ هذا الدخل ماذا يفعل به ؟ لو أن لهذا الإنسان عما لا ينجب أولادا ، يملك خمسمائة مليون مات في حادث فجأة ، هذه الثروة الطائلة لهذا الابن الأخ الفقير ، بحكم القوانين والأنظمة وبراءة الذمة لا يستطيع أن يأخذ من إرث عمه قرشا واحدا قبل سنة ، لماذا هو في هذه السنة من أسعد الناس ، مع أنه لم يتمكن أن يأخذ قرشا واحدا ، ولا أن ينال لقمة طيبة ، ولا أن يرتدي ثوبا جميلاً ، الذي أسعده هو الأمل ، كلما رأى بيتا جميلا يقول : هذا سأشتريه ، و كلما رأى

مركبة فارهة قال : هذه سأقتنيها دخل فى الأمل ، فالأمل مسعد ، قال تعالى :

أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

(سورة القصص)

ما الذي يسعد المؤمن ؟ وما الذي يمتص كل هموم المؤمن ؟ وعد ا له بالجنة ، والجنة وعد حق من قبل الحق ، فيها ما لا عين رأت و لا أذن سمعت ولا خطر على قلبِ بشرٍ ، لا هم ولا حزن، و لا ولد عاق ، ولا زوجة سيئة ، و لا مغص ولا التهاب ولا ورم خبيث ، ولا دسام قلب ولا شريان قلب مسدود ، ولا قسطرة ولا أزمة ، ولا أزمة نقود ، هناك جنة عرضها السماوات والأرض ، لهم ما يشاءون فيها ، الدنيا دار عمل ، قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾

(سورة الانشقاق)

أما الآخرة فدار جزاءٍ ، الدنيا دار تكليف ، والآخرة دار تشريف ، الدنيا دار عمل ، والآخرةُ دار أملٍ ، الدنيا دار التزام ، والآخرة دار جزاء ، فالأمل منزلة يتمتع بها المؤمنون ، ولكن الأمل عند المؤمنين في الآخرة ، بينما أهل الدنيا يتأملون في الدنيا ، هذا الذي استلقى على ظهره وفوقه قدر عسل ، وقال : سوف أبيع هذا العسل ، وسوف أشتري غنما ، والغنم يتوالد ، وسأغدو إنسانا غنيا وسوف أتزوج ، وأنجب أولادا ، وإذا عصاني ولد ربيته ، فرفع عصاه وضرب فانكسرت القدر وسالت فوقه ، هكذا أهل الدنيا يأتيهم ملك الموت في أحرج الأوقات .

هناك قصة رمزية تقول : إنسان كان ضائق النفس أراد أن ينتحر ، من شدة فقرِهِ ويأسه من الحياة ، جاءه ملك الموت فقال له : أنا أدلك على حرفة تغتني بها ، اعمل طبيبا ، قال له : ماذا أفعل ؟ قال له : إن رأيتني أقف إلى رأس المريض فإياك أن تعالجه ، لأنه سيموت قطعا ، اهرب ، وإن وجدتني أمام رجلي المريض فعالجه ، فلا بد من أن يشفى ، أي شيء تعطيه إياه سيشفى به ، قال الشاعر :

إن الطبيب له علْم يدل بِهِ إن كان لِلناسِ في الآجال تأْخير
حتى إذَا ما انْتَهتْ أيام رِحلَتِه حار الطبيب وخَانَتْه الْعقَاقير

فهذا نفّذ وصية ملك الموت واشترى محفظة ، ووضع فيها سوائل ملونة ، فإذا دعي إلى مريض ، إن رأى ملك الموت عند رأسهم يعود راجعا ، إن رآه عند قدميه يعالجه ، هذه

النقطتان قبل الطعام ، هذه بعد الطعام ، يتفنن في وصفاته ، لأن المريض سوف يشفى ، ذاع صيتُه ، وتألق نجمه وزاد دخلُه ، و عاش في بحبوحة ، وإذا بِبنْت الملك تَمرض ، فاستُدعي هذا الطبيب الألمعي المشهور الذي ما من إنسان عالجه إلا وشُفي على يديه ، لأنه على اتفاق مع ملك الموت ، فهذا الملك لشدة تعلقه بابنته قال : من يعالج لي ابنتي ويشفها أجعلْه وليا للعهد ، دخل على هذه البنت المريضة ، فإذا ملَك الموت عند قدميها ، فكاد يختل توازنه من شدة الفرح ، عالجها كما هي العادة وشُفيت شفاء تاما والملك نفّذ وعده وجعله ولي العهد ، وصار ملكا ، ويوم عرسه وزواجه وتسلمه منصب ولي العهد جاءه ملك الموت ، تفضل ، قال له : الآن ، قال : الآن ، قال له : لو أنك أخذتني وقتها لكان أيسر لي فأهلُ الدنيا يصعدون و يصعدون ، و يصعدون ، وهم في أعلى نقطة يسقطون ، هذا هو الأمل في الدنيا ، قد تعتني ببيتك ، ويوم الانتهاء من كسوته يأتيك الأجل ، يوم نيله الدكتوراه يأتيه الأجل ، يوم زواجه يأتيه الأجل ، يوم رواج تجارته يأتيه الأجل ، فمن كان أملُه في الدنيا فهو هالك ، عن عبد الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنْه قالَ **خَطَّ النبِي صلى الله عليه وسلم خَطًا مربعا وخَطَّ خَطا في الْوسط خَارجا منْه وخَطَّ خُطَطًا صغَارا إِلى هذَا الذي في الْوسط من جانبِه الذي في الْوسط وقَالَ هذَا الْإِنْسان وهذَا أَجلُه محيطٌ بِه أَو قَد أَحاطَ بِه وهذَا الذي هو خَارج أَملُه وهذه الْخُطَطُ الصغَار الْأَعراض فَإِن أَخْطَأَه هذَا نَهشَه هذَا وإِن أَخْطَأَه هذَا نَهشَه هذَا** *

(رواه البخاري)

كنت أدرس في ثانوية ، و نشأ عندي ساعة فراغ ، فدخلت على مدير الثانوية أجلس عنده هذه الساعة وكان صديقي ، شكا لي همه وضجره ، و قال : أنا سأسافر إلى بلاد شمال إفريقيا لأدرس هناك خمس سنوات ، كان هناك نظام اسمه نظام الإعارة ، يبدو أنه هيأ موافقة ، وقال لي : لن آتي في أيام الصيف إلى بلادي ، أمضي صيفية في فرنسا وإسبانيا وبريطانيا وإيطاليا ، أربع بلاد ، أريد أن أشاهد معالمها ؛ ريفها ، متاحفها ، طبيعة الحياة فيها ، بعد خمس سنوات أعود إلى بلادي وأقدم طلبا للتقاعد ، وآتي بمبلغ لا بأس به أفتح به محلاً تجاريا أبيع فيه التحف ، عندئذ يكبر أولادي ويتسلمون العمل مكاني ، وآتي بعد الظهر ساعة أسمر فيها مع أصدقائي ، وتابع الحديث ، والساعة انتهت ، وقد حدثني فيها عن عشرين سنة قادمة ، فودعته و ذهبت إلى درسي ، ثم ذهبت إلى بيتي ظهرا ، وعندي عمل في مركز المدينة مساء ، ذهبت إلى هذا العمل و أردت أن أذهب إلي بيتي مشيا ، نظرت إلى أحد الأعمدة ، أعوذ با ، نعيه في اليوم نفسه ، وا ِ الذي لا إله إلا هو في اليوم نفسه رأيتُ نعيه هذا هو الأمل المهلك ، فالإنسان يحلم و يأتيه ملَك الموت فيلغي كل آماله ، وكل شطحاته و تصوراته الأمل في الدنيا مهلك ، أما إذا علّق الإنسان أمله في الآخرة وعمل للآخرة ، وقدم ماله أمامه سره اللحاق به ، و علّم العلم ، و بذل من ماله الشيء الكثير ، و أمر بالمعروف و نهى عن

المنكر ، وتعلم القرآن و علّمه ، وأطعم الجائع ، وكسا العريان ، ورحم المصاب وآوى الغريب ، ولزم دروس العلم وخدم المؤمنين ، واتصل برب العالمين ، هذا ماذا يفعل ، هذا عقَد أمله في الآخرة .

إنسان يحج ، أو لا يحج ، يسمحون له ، أو لا يسمحون له ، قدم طلبا للسفارة فأعطوه الموافقة ويوم أخذ الموافقة صار في الحج ، هو لا يزال في دمشق ، صار في مكة والمدينة ، يذهب إلى المدينة أولا أو إلى مكة ، مع أي فوج يذهب ، أم يذهب وحدي ، أرأيت إلى هذا الإنسان لأنه عقد أمله بالحج ، فصار في الحج ، لذلك قالوا : المؤمن يعيش في الآخرة وهو في الدنيا ، سألوا مرة طالبا نالَ الدرجة الأولى على مدارس البلد كلها في الشهادة الثانوية : ما سر هذا التفوق ؟ فأجاب إجابة رائعة قال : لأن لحظَة الامتحان لم تفارق مخيلتي أبدا ، المؤمن الصادق يعيش في الآخرة ، هو من أبناء الآخرة ، يعيش في جنة قبل أن يصل إليها ، فلذلك قال تعالى :

وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾

(سورة محمد)

في الدنيا ، لقد عاش في الجنة وهو في دنياه .

مرة حدثني إنسان فقال لي : عندي سفرة إلى بلد بعيد ، لما أخذت الموافقة كنت هناك فورا نفسيا وشعوريا ، فالمؤمن له أمل في الآخرة ، أمله أن يرحمه ا ، ويعفو ا عنه ، وأمله أن يدخله الجنة ، و أمله أن يكون مع الصديقين النبيين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ، هذا الأمل ينسيه كل متاعب الدنيا ، فهذه مرتبة ، ولكن بشرط أن يكون هذا الأملُ متوجها إلى الآخرة ، قال تعالى :

ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

(سورة الإسراء)

وأنت في الدنيا وازن بين بيت وبيت ، حدثني أخ كان في مؤتمر في الهند ، قال لي : وا ِ رأيت شيئا لا يصدق ، قال لي " بيت قطعة من النايلون ، مع قطعة من قماش ، مع قطعة من كرتون متران في مترين ، و الأرض تراب ، قال لي : هذا بيت ، وهناك بيت في القاهرة ثمنه واحد وعشرون مليون دولار ، ألف مليون ليرة سورية ، هذا بيت وهذا بيت ، قال تعالى :

ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ
تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

(سورة الإسراء)

في أي بلد قد تجد بيتا ، قال لي أحدهم : هناك حنفية تساوي ثمن بيت ، فإذا بيت مساحته أربعمائة متر ، كلّف مئات الملايين يشبه بيتا مساحته خمسون مترا ثمنه مائة وخمسون ألف ، قال تعالى :

ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ
تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

(سورة الإسراء)

مراتب الدنيا لا تعني شيئا ، قد تعني العكس ، قال تعالى :

فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا
فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

(سورة الأنعام)

لا تعني شيئا ، بحدها الأدنى ، و قد تعني العكس ، لكن مراتب الآخرة مراتب تعني كل شيء مراتب ثابتة و أبدية .

هناك نقطة ؛ إنسان سألني ، ما الفرق بين اللذة و السعادة ؟ قلت له : أين الثرى من الثريا اللذة أولاً : طبيعتُها حسية ، ومصدرها خارجي ، وتأثيرها متناقص ، تعقُبها كآبة ، تنتهي بموت الإنسان ، فانتهت كل اللذائذ ، فلما يموت الإنسان هل يأكل شيئا ؟ والسعادةُ طبيعتُها نفسيةٌ ، ومصدرها ذاتي ، متناميةٌ ، وتتصل بنعم الآخرة ، فالإيمان يهيئ لك سعادة ، بينما الدنيا تقدم لك لذة ، وفرق كبير بين اللذة و بين السعادة ، و لا أمل إلاّ أن تعقد الأمل على ا عزوجل ، كن بما في يدي ا أوثقَ منك بما في يديك ، قالوا : إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على ا ، و إن أردت أن تكون أكرم الناس فاتق ا ، و إن أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يد ا أوثق منك بما في يديك ، لذلك هذه السكينة التي يلقيها ا في قلب عبده المؤمن ، فيسعد بها ولو فَقَد كل شيء ، و إذا حجبتْ عنه هذه السكينةُ يشقى بفقدها ولو ملك كل شيء ، هذه السكينةُ إحدى ثمار الإيمان اليانعة ، فالمؤمن يلقي ا ُ في قلبه

السكينةَ ، وتحفه الملائكةُ ، و تغشاه الرحمةُ ، ويهديه ا ُ إلى سواء السبيل .

أرجو ا سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علمنا ، وأن يلهمنا الخير .

و الحمد رب العالمين .

الدرس ٨٩ - الرياضة .

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس التاسع والثمانين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، و المنزلة اليوم منزلة الرياضة .

الفرق بين الرياضة و الترويض فرق كبير جدا ، الوحوش تُروض ، بينما الإنسان يتريض فالرياضة من التربيض ، التدريب ، الوحوش تروض ، أي تدرب بحسب طريقتها ، قد تقول : فلان يده ملطّخة بدماء الجريمة ، و فلان مضرج بدماء الشهادة ، فالتضريج غير التلطيخ ، الدم الذي يسفك في حرام أو في جريمة ، نقول : ملطّخ بدم الجريمة ، أما الدم الذي يبذل في سبيل عقيدة أو هدف نبيل نقول : مضرج ، فهذه المنزلة أساسها ما ورد عن النبي عليه الصلاة و السلام : **إنما العلم بالتعلم ، و إنما الحلم بالتحلم ، وإنما الكرم بالتكرم ......"** إنسان في البدايات ليس حليما لكن يتصنع الحلم ، بعد التصنع المستمر يصبح الحلم عنده طبعا ، كان تكلفا فصار طبعا ، إنسان في الأصل ليس كريما يتصنع الكرم إلى أن ينقلب التصنع إلى طبع ، الإنسان ليس عليما ، يتعلم إلى أن يصبح العلم عنده ثابتا فهذا معنى الحديث **إنما العلم بالتعلم ، و إنما الحلم بالتحلم ، وإنما الكرم بالتكرم ......"**

كتعليق سريع على قول النبي عليه الصلاة و السلام :**إنما العلم بالتعلم ، و إنما الحلم بالتحلم ، وإنما الكرم بالتكرم ......"** ليس هناك علم من دون تعلم ، كما يدعي بعض الناس أن هناك علما يأتي من قبل ا مباشرة ، هناك وحي يأتي الأنبياء ، و هناك علم يتأتى من التعلم ، و هناك فهم دقيق لكتاب ا عزوجل ، هذه خصيصة يمنحها ا لبعض عباده الصالحين ، قال تعالى :

فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ

[سورة الأنبياء]

أن يؤتى فهما في القرآن ، فهناك وحي ، هذا متعلق بالأنبياء و المرسلين ، و هناك فهم لكتاب ا فضلٌ من ا عزوجل ، و هناك تعلم، و قد ورد في الأثر : **من عمل بما علم أورثه ا علم ما لم يعلم ..."** .

فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ

[سورة الأنبياء]

إذا هناك شيء اسمه وميض و كشف و إشراق ، هذا ثمنه تطبيق ما تعلم ، إن طبقت ما تعلم كشف ا   لك عن شيء لا تعلمه ، لكن هذا الإشراق و ذاك الكشف إن صح التعبير مربوطان بالكتاب و السنة ، فأي ادعاء لإدراك الحقيقة إدراكاً مباشراً من دون وساطة ، هذه الحقيقة تُعرض على كتاب ا   و سنة رسوله ، فإن توافقت مع الكتاب و السنة ، على العين و الرأس ، أما إن خالفت لا نقبلها   ثم إن هناك في ما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام : **إنما العلم بالتعلم ، و إنما الحلم بالتحلم ، وإنما الكرم بالتكرم .....**" هناك حقيقة هي الفطرة و الصبغة ، الفطرة أن تحب الكرم ، و لست كريما   الفطرة أن تحب العدل و لست عادلا ، أن تحب الرحمة و لست رحيما ، و لكن الصبغة أن تصطبغ بالرحمة و أن تصطبغ بالعدل ، و أن تصطبغ بالكرم ، فالتكرم فطرة ، أما الكرم صبغة ، التحلم فطرة ، أما االحلم صبغة ، يعني كل مولود من دون استثناء يولد على الفطرة ، يحب مكارم الأخلاق ولا يصطبغ بها ، فإذا اتصل الإنسان با   عزوجل اصطبغ بهذه المكارم ، فغدا متواضعا منصفا عدلا رحيما وقورا حليما .

هذه المنزلة ، منزلة الرياضة هي تمرين النفس على الصدق والإخلاص ، تحضرني قصة أحد علماء الأزهر الكبار الذي صار شيخ الأزهر في أول حياته طلب العلم فلم يفلح ثم عزف عن العلم وهو جالس يوما في مكان ، فإذا بنملة تصعد إلى جدار ، فلما وصلت إلى مكان ما وقعت ، أعادت الكرة فوقعت ، أعادت الكرة فوقعت ، فعد محاولاتها فكانت ثلاثا و ثمانين محاولة ، فهذه النملة علّمته درسا لا ينسى ، فالإنسان ينبغي أن يصمم ، لي قريب أمه حريصة على أن ينال أعلى درجة ، ففي الشهادة الثانوية لم ينجح ، أصرت على أن يعيد الامتحان مرة تلو المرة حتى نجح في المرة الخامسة ولازالت أمه تشد عضده إلى أن أصبح طبيباً ناجحاً .

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته   ومدمن قرع الأبواب أن يلجا

العبرة أن الإنسان يحتاج إلى تصميم و إلى صدق في الطلب ، فالرياضة تعويد النفس على الصدق والإخلاص ، الصدق له معان عديدة ، من معاني الصدق أن يأتي كلامك مطابقا للواقع ، هذا الصدق الإخباري ، و المعنى الأخطر أن يكون واقعك مطابقا لقولك ، أن يأتي القول مطابقا للواقع هذا صدق الإخبار ، أما أن يأتي العمل مطابقا للواقع هذا صدق التطبيق ، لذلك قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ١١٩ ﴾

[سورة التوبة]

هنا ليس معنى " الصادقين " هم الذين يصدقون إذا حدثوا ، الذين تأتي أعمالهم مطابقة

لأقوالهم كل يدعي أنه مؤمن بالآخرة ، لكن لو تفحصت أعمال الناس لا تجد أثرا لهذا الادعاء إطلاقا ، فهؤلاء يكذبون بأعمالهم لا بأقوالهم ، هم يتكلمون كلاما طيبا ، وإذا أخبروك أخبروك صادقين ، و لكن أعمالهم لا تؤكد صدق كلامهم ، فمنزلة الرياضة التمرين على الصدق و الإخلاص ، عملك مطابق لادعائك و قولك ، و يأتي الإخلاص ليبين نزاهتك عن مطلب سوى ا عزوجل .

سألني أخ من ما علامة الإخلاص ؟ قلت له : علامة الإخلاص أن يستوى ظاهرك مع باطنك و أن تستوي علانيتك مع سرك ، و أن تستوي خلوتك مع جلوتك ، أنت إنسان واحد ، في خلوتك وفي جلوتك ، في بيتك و أمام الناس ، في سرك و علانيتك ، أروع ما في الإنسان هذا التوحد ، لا يوجد ازدواجية ، للمنافق موقفان ، موقف معلن وموقف حقيقي ، قال تعالى :

وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

[سورة البقرة]

إذًا التدريب على أن تأتي أعمالك مطابقة لأقوالك ، كأن تقول : أنا مؤمن بالآخرة ، هنا ينبغي ألاّ تقبل درهما واحدا من حرام ، النبي عليه الصلاة و السلام رأى على سريره تمرة ، فقال : يا عائشة لولا أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها ، تمرة في بيته و على السرير ، و لكن داخله الشك لعلها من تمر الصدقة ، لذلك قالوا : **ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط ..**" و قالوا : **من لم يصده ورع عن معصية ا إذا خلا لم يعبأ ا بشيء من عمله** "

أعمالك تأتي مطابقة لأقوالك فأنت صادق ، يستوي سرك مع علانيتك وظاهرك مع باطنك وخلوتك مع جلوتك فأنت مخلص ، و علامة أخرى للإخلاص ، أنك إذا فعلت عملا طيبا تبتغي به وجه ا وحده لا تعبأ كثيرا بمدح الناس لك ، بل لا تستجدي منهم المديح ، يستوي عندك أنهم ذكروا أو لم يذكروا ، شكروا أو لم يشكروا ، قدروا أو لم يقدروا ، لا تعلق أهمية على ردود الفعل ، لكن ليس معنى هذا ألاّ تبالي بسمعتك ، النبي عليه الصلاة و السلام كان حريصاً على سمعته ، عن صفيةَ بِنْت حيي قالَتْ **كانَ رَسولُ الله صَلى الله عَليه وَسَلمَ معتكفًا فَأتَيته أَزوره ليلًا فَحَدثْته ثم قُمتُ فَانْقَلبتُ فَقَامَ مَعي لِيَقْلبَني وَكانَ مَسكنُهَا في دَار أُسَامَةَ بن زَيد فَمَر رَجلان من الْأَنصَار فلما رَأَيا النبي صَلى الله عَليه وَسَلمَ أَسرَعَا فَقَالَ النبي صَلى الله عَليه وَسَلمَ عَلى رِسلكُمَا إنهَا صَفيةُ بِنْتُ حيَي فَقَالا سبحَانَ الله يَا رَسولَ**

الله قالَ إن الشيطانَ يَجري من الإِنْسَانِ مَجرَى الدمِ وَإِني خَشيتُ أن يَقْذفَ في قُلُوبِكُمَا سوءا أو قالَ شَيئًا

[رواه البخاري]

وهذا درس بليغ لنا ، عود نفسك أن توضح و تبين ، أذكر إنساناً جاء إلى محله التجارى امرأة رحب بها كثيراً ، عنده ضيف في المكتب ، قال لي : غريب ، ليس هذا من أخلاق فلان ، قلت له : هذه أخته يقينا ، أنا لا أعرفها ، و لكني أعرفه ورعا ، كان الأولى أن يدخل إلينا و يقول : جاءت أختي ، حتى لا يستغرب الضيف هذا الترحيب ، لأن المؤمن يتكلم مع المرأة التي تحل له كلاماً عادياً جدا دون زيادة ، ودون إلانة قول. إذن هناك صدق الأقوال و صدق الأعمال ، و حيثما وردت كلمة الصادقين في الأعم الأغلب تعني صدق الأعمال ، و قلما تجد إنسانا تأتي أفعاله مطابقة لأقواله .

و مستوى آخر من الصدق ، ألاّ ترد الحق ، قد يأتي إنسان يقول لك : هذا الذي قلته غير صحيح ، و الصواب هو كذا ، و الدليل هو الآية و الحديث ، فإن لم تقل له جزاك ا خيرا ، فقد أكرمتني بهذه النصيحة ، فأنت لست صادقا ، إذا كان في الإمكان أن ترد الحقّ و أن تستنكف عن قبوله و أن تستعلي عن أن تأخذه من إنسان تظنه دونك ، لكن المؤمن الصادق يتعلم و لو من غلام أبو حنيفة النعمان كان يمشي في الطريق فرأى غلاما أمامه حفرة ، قال له : **يا غلام إياك أن تسقط فقال له الغلام : بل أنت يا إمام إياك أن تسقط ، إني إن سقطت سقطتُ وحدي ، و إنّك إن سقطتَ سقط معك العالم** " إذا كان الإنسان قدوة وأخطأ يكون ارتكب عملا خطيرا جدا ، لأن هذا المثل الأعلى اهتز ، أن تتعامل مع ألف إنسان ، يصيبون و يخطئون ، ولكن إذا كان في ذهنك مثل أعلى ، تعلق عليه أملاً كبيراً تراه إنساناً مستقيماً ، إذا أخطأ فتلك قاصمة الظهر ، أنت ترضى أن يخطئ الناس جميعاً ، إلا مثلك الأعلى الذي تقتدي به و تراه في موطن منزه عن كل خطأ ، فإن رأيته يخطئ عمداً فتلك الطامة الكبرى ، لا أحد معصوم إلا النبي ، المؤمن غير معصوم ، و لكنه لا يرتكب الكبائر وليس معنى هذا أنه يصر على الصغائر ، المؤمن غير معصوم ، لا يمكن أن يصر على صغيرة مهما بدت صغيرة ، وقّافا عند كتاب ا ، سريعا ما يتراجع و يستغفر و يشكر الذي نصحه ، لذلك قالوا : النبي معصوم و الولي محفوظ ، النبي لا يفعل خطأ ، بينما الولي لا يضره خطؤه ، لأنه سريعا ما يتوب منه و يستغفر ، و القاعدة " ما من أحد أكبر من أن ينقَد، وما من أحد أصغر من أن ينقُد " قال تعالى :

وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾

[سورة الزمر]

جاء بالصدق أي أفعاله تؤكد أقواله ، كان صادقاً ، وعظمة الأنبياء في صدقهم ،

الأنبياء فعلوا المعجزات ، لا لأنهم فوق البشر ، هم بشر ، ولولا أنه تجري عليهم خصائص البشر لما كانوا سادة البشر ، و لكن الأنبياء فعلوا ما **قالوا ، وأي إنسان يفعل ما يقول له تأثير يشبه السحر، يفعل ما يقول، كان مع أصحابه في سفر أرادوا أن يعالجوا شاة ، قال أحدهم : علي ذبحها ، و قال الثاني علي سلخها ، و قال الثالث : علي طبخها ، وقال عليه الصلاة و السلام : وعلي جمع الحطب ، فقالوا : نكفيك ذلك ، قال : أعلم أنكم تكفونني ، و لكن ا يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه ..**" شيء لا يصدق ، نبي هذه الأمة يعمل كأحد أصحابه ، موقف عظيم في معركة بدر كانت الرواحل قليلة والعدد قريب من ألف ، و الرواحل ثلاثمائة ، فالنبي أعطى توجيها " كل ثلاثة على راحلة ، قال: وأنا وعلي و أبو لبابة على راحلة ، القائد العام للجيش يعامل نفسه كما يعامل الجندي ، فركب الناقة وانتهت نوبته في الركوب ، و جاء دور علي و أبي لبابة ، فتوسلا إليه أن يبقى راكبا ، فقال عليه الصلاة و السلام قولة تكتب بماء الذهب : **ما أنتما بأقوى مني على السير ، و لا أنا بأغنى منكما عن الأجر ..**" أنا مفتقر إلى أجر المشي ، و أنا قوي البنية ، قادر على المسير ، لو تخلق الناس بهذه الأخلاق لكنا في حياة غير هذه الحياة .

العلماء قالوا : " الرياضة على ثلاث درجات ؛ رياضة عامة و هي تهذيب الأخلاق بالعلم وتصفية الأعمال بالإخلاص ، و توفير الحقوق في المعاملات ، أخلاقك يوجهها العلم ، وأعمالك يتوجها الإخلاص ، و معاملاتك يضبطها أداء الحقوق ، إن تكلم فهو صادق ، و إن تعامل مع الناس تعامل بخلق كريم ، فورد عن النبي عليه الصلاة و السلام : **من عامل الناس فلم يظلمهم ، و حدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته و ظهرت عدالته ووجبت أخوته و حرمت غيبته ..**" تهذيب الأخلاق بالعلم ، و تصفية الأعمال بالإخلاص ، و توفير الحقوق في المعاملات .

الأخلاق حركة الإنسان ، تحرك ، تاجر ، باع ، اشترى ، عزى ، هنأ، تنزه ، سافر ، نام تزوج ، طلق ، الحركة ما الذي ينظمها عند المؤمن ؟ الأخلاق التي جاء بها النبي ، كنت أقول دائما : القرآن كون ناطق ، و الكون قرآن صامت ، و النبي عليه الصلاة و السلام قرآن قرآن يمشي ، عن سعد بنِ هِشَامِ بنِ عامِرٍ قَالَ أَتَيتُ عائِشَةَ فَقُلْتُ يا أُمَّ الْمُؤْمنين أَخْبِريني بِخُلُقِ رسول الله صلى الله عليه وسلم قَالَتْ **كَانَ خُلُقُه الْقُرآنَ أَمَا تَقْرَأُ الْقُرآنَ قَولَ الله عَز وَجَل وَإِنكَ لَعَلى خُلُق عَظيم قُلْتُ فَإِني أُرِيد أَن أَتَبَتلَ قَالَتْ لا تَفْعَلْ أَمَا تَقْرَأُ لَقَد كَانَ لَكُم في رَسول الله أُسوَةٌ حَسَنَةٌ فَقَد تَزَوجَ رَسولُ الله صَلى الله عَلَيه وَسَلمَ وَقَد وِلدَ له ***

[رواه أحمد]

إن تكلم فهو صادق ، و إن تعامل مع الناس تعامل بخلق كريم ،ورد عن النبي عليه الصلاة و السلام : **من عامل الناس فلم يظلمهم ، و حدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم**

فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته و حـــرمت غيبته .." تهذيب الأخلاق بالعلم ، و تصفية الأعمال بالإخلاص ، و توفير الحقوق في المعاملات .

المؤمن الصادق يضبط أموره ، و يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه مكلف ، **العلم بالتعلم ، و إنما الحلم بالتحلم ، و الكرم بالتكرم ......**" إذا غضبت في هذه المرة ، في المرة الثانية كن حليما ، هذه المرة تسرعت ، في المرة الثانية كن متأنيا .

هناك قصص كثيرة جداً ، لو الإنسان تسرع ندم ندماً لا حدود له ، قبل أن تتهم ، قبل أن تأخذ أقوالاً مضادة و قبل أن تلتقي مع صاحب الحق حقق ، سيدنا سليمان قال :

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧)﴾

[سورة النمل]

قال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)﴾

[سورة الحجرات]

حركة الحياة يضبطها العلم بالسنة ، الإنسان أحيانا يكون في دعوة ، أكل ، وهناك عشرون آخرون يأكلون ، شبع ، انسحب من المائدة انسحابه يحرج الباقين ، شبعت ابق في مكانك و لا تأكل هناك إنسان جاء متأخراً ، و هناك إنسان جائع ، و هناك إنسان يأكل ببطء ، أنت أحرجته ، فالسنة ألاّ تقوم عن الطعام إلا بعد أن ينتهي آخر إنسان ، لست مكلفا أن تتابع الطعام ، و لكن ينبغي ألاّ تقوم عن الطعام حتى ينتهي آخر إنسان ، هذا من السنة ، فما الذي يضبط لك سلوكك ؟ السنة ، أحيانا تجد شخصاً جالساً مع عمه ، والد زوجته ، يدخل في موضوع العلاقات الحميمة بينه و بين زوجته ، هذه ابنته ، لما صهره يتكلم كلاما متعلقا بالعلاقات الزوجية ، الأب يخجل ، قد يذهب به التخيل ، فمن السنة ألاّ تتحدث أمام والد الفتاة أو إخوتها عن موضوعات في العلاقة الزوجية ، هكذا من السنة فكلما تعلمت عن سنة النبي العملية شيئا و طبقته جاء علمك ضابطا لسلوكك .

لما النبي عليه الصلاة و السلام ورد عنه : **أتدرون ما حق الجار " إذا استعان بك أعنته ، و إذا استنصـرك نصرته ، وإذا استقرضك أقرضته ، وإذا أصابه خير هنّأته ، و إذا أصابته مصيبة عزيته و لا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، و إذا اشتريت فاكهة فأهد له منها ، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ، و لا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، و لا**

تؤذه بقتار قدرك ، إلا أن تغرف له منها ..." عطاؤك ابنك عندما يذهب إلى المدرسة مبلغاً كبيراً أو طعاماً باهظ الثمن ، هذا مخالف للسنة أطعمه هذا الطعام في البيت ، و أعطه إلى المدرسة الطعام العادي الذي يأكله جميع الطلاب ، هناك آباء بعيدون عن السنة ، قطعة ثمنها ثمانون ليرة ، أو خمسمائة ، و في الحضانة ، هذا لا يجوز شيء يثير التقزز ، اجعل ابنك كالباقين ، من أجل أخلاقه ، الطفل الصغير قد يفتخر ، و قد يغيظ أصدقاءه ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، و لا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها فالأخلاق تُهذب بالعلم ، النبي عليه الصلاة و السلام كان أديبا إلى درجة غير معقولة ، قيل : ما رئي مادا رجليه قط ، و لا بين أصحابه مع أنه سيد الخلق ، أما إذا كان الإنسان معذوراً فالمعذور لا علاقة له بالحديث ، في المركبة العامة ، مقعدان ، يجلس إنسان و لا يترك لجاره إلا قدراً يسيراً ليجلس هذا القدر ، لا ينتبه ، يجب أن نجلس بأدب ، سبحان ا كلما ارتقى الإنسان مقاما تجده أديبا جدا ، في حركاته و سكناته و تناول طعامه ، في كل حاجاته ، فعن أَبِي هريرةَ **أَن رَجلًا أَسوَدَ أَو امرَأَةً سَودَاءَ كَانَ يَقُم الْمَسجِدَ فَمَاتَ فَسَأَلَ النبِي صَلى الله عَليه وَسَلمَ عَنْه فَقَالُوا مَاتَ قَالَ أَفَلَا كُنْتُم آذَنْتُمونِي بِه دلونِي عَلَى قَبرِه أَو قَالَ قَبرِهَا فَأَتَى قَبرَهَا فَصَلى عَلَيهَا** *

[رواه البخاري]

وهو نبي هذه الأمة ، يعلمك التواضع ، أنت قد تكون مدير شركة و عندك مستخدم ، هذا المستخدم في الدنيا مستخدم ، أما في الآخرة فقد يكون أعلى منك درجة عند ا عزوجل ، فالإسلام يعلمك التواضع و يعلمك الإنصاف .

توفير الحقوق أيضا من الرياضة ، الأخلاق تهذب بالعلم ، و الأعمال تتوج بالإخلاص والحقوق تتوافر بالمعاملة ، أو تعطي ما أُمرت به من حقوق ا و العباد كاملة غير موفورة

الآن قليل من الناس يموت والده فيوزع التركة بالعدل التام ،له أختان متزوجتان لاترثان البيت الذي يسكنه الأخ ثمنه اثنا عشر مليوناً يقول لأخته ، تعالي اجلسي ، من منعك ؟ هذا بيت العائلة لما الأب مات لم يعد بيت العائلة ، صار بيت الورثة ، فهذه الأخت لها حق في هذا البيت ، عملياً لا تُعطى شيئاً ، حتى أثاث البيت يكون من نصيب الأخ و لا يوزع على الإناث منه شيئاً ، فالبطولة أن تؤدي الحقوق ، أعرف أخاً من إخواننا ، كلما يسلم علي أكبره ، له أخت فقط ، أخته متزوجة وزوجها له بيت ، و دخله جيد ، و ليست بحاجة أبداً ، بيت الأب يسكنه الابن مع والدته ، قال لي : وا ِ قيمت البيت على أنه فارغ ، لا على أنه مستأجر و أعطيت أختي حصتها بالكمال و التمام .

لي قريبة تزوجت في سن متأخرة ، من رجل له أولاد صالحون ، فقالت لأولاد زوجها : وا ِ والدكم قبل أن يموت وهب لي شفهياً مبلغ خمسمائة ألف يستثمرها عند فلان ، قال لي : هذه لك فقالوا : سمعاً و طاعة ، و قالوا للمستثمر أعطها إيصالا باسمها بدل إيصال

والدي ، وا ِ شيء جيد ببساطة ، لكن من دون دليل مادي ، مهرها خمسة عشر ألف ، أعطوها إياه بالتمام و الكمال قبل توزيع الإرث ، بعد أيام جاؤوا فقالوا : سألنا عالمـ ـاً ، فقال : لا بد أن يعطى المهر على السعر المعاصر، فأعطوها مقابله مائة و ثمانين ألف ليرة ، و كل حاجاتها مؤمنة بعد وفاة والدهم ، ثم اشتروا لها بيتا بما تملك ، وأسسوه لتسكنه ، هم لم يفعلوا إلا الحق ، ولكن لأن العمل نادر صار يلفت النظر هذا شيء طبيعي ، حقوق ، فالإنسان إذا لم يؤد الحقوق فلا مقطوع عن ا عزوجل .

توفير الحقوق في المعاملة أن تعطي به من حق ا و حقوق العباد كاملا موفورا ، قال رجل لسيدنا عمر : أتحبني ؟ قال له : وا ِ لا أحب، قال له : هل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي ؟ قال له : لا وا ِ ، قال له : إذًا إنما يأسف على الحب النساء " ليس هناك مشكلة ، فأن تصحح العمل بالعلم ، وأن تصحح النية بالإخلاص ، وأن تؤدي الحقوق لأصحابها بالتمام والكمال ، هذه هي الرياضة ، هذه المنزلة التي أدخلها صاحب المدارج ، مدارج السالكين في منازل إياك نعبد و إياك نستعين .

عندنا رياضة بمستوى أعلى ، رياضة المؤمنين ، قال : هناك رياضة خاصة ، هناك إنسان متفوق ، من خصائص هذه الرياضة قطع ما يفرق قلبك عن ا ، كل شيء يصرفك عن ا تقطعه هذه رياضة ، حتى المباحات ، شيء مباح ، لكن قلبك تعلق به ، دعه ، لأن ا عزوجل هو المقصود قال : قطع ما يفرق قلبك عن ا بالجمع عليه ، والإقبال بكليتك عليه ، حاضرا معه ، بقلبك كله ، لا تلتفت إلى غيره ، هذه مرتبة أعلى .

هناك شيء آخر الإنسان أحيانا يتعلق برأي و يبحث له عن أدلة ، هذا موقف خطأ ، الأصل أن متعلق بالحق و أن تسعى لتطبيقه ، أينما كان الحق.

أيها الإخوة ، رياضة الخاصة أن تقطع كل ما يبعدك عن ا ، قطع ما يفرق قلبك عن ا بالجمع عليه ، و الإقبال بكليتك عليه ، هناك نقطة ثانية ، أن تحكم العلم لا أن تحكم الحال ، الإنسان أحيانا يكون له إقبال على ا شديد ، يعيش من الغمرة من الحال المسعد ، هذه الغمرة من الحال المسعد قد تحمله على أن يقول شيئا غير صحيح ، فهو دائما يحكم العلم بالحال ، ولا يحكّم الحال بالعلم الحال خطير ، سمي حالا لأنه يحول ، مثلا ، هذا الذي فَقَد ناقته وهو في الصحراء فأيقن بالهلاك وبكى ، هذه قصته ، عن الْحارِث بن سويد حدثَنَا عبد الله بن مسعود حديثَين أَحدهما عن النبِي صلى الله علَيه وسلم والآخَر عن نَفْسه قَالَ إِن الْمؤْمن يرى ذُنُوبه كأَنه قَاعد تَحتَ جبلٍ يخَافُ أَن يقَع علَيه وإِن الْفَاجِر يرى ذُنُوبه كذُبابٍ مر علَى أَنْفه فَقَالَ بِه هكَذَا قَالَ أَبو شهابٍ بِيده فَوقَ أَنْفه ثُم قَالَ **للَه أَفْرَح بِتَوبَة عَبده من رَجلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وَبِه مَهلَكَةٌ وَمَعَه رَاحلَتُه عَلَيهَا طَعَامه وَشَرَابه فَوَضَعَ رَأْسَه فَنَامَ نَومَةً فَاستَيقَظَ وَقَد ذَهَبَتْ رَاحلَتُه حَتى إِذَا اشْتَد عَلَيه الْحَر وَالْعَطَشُ أَو مَا شَاءَ الله قَالَ أَرجِع إِلَى مَكَاني فَرَجَعَ**

فَنَامَ نَوْمَةً ثُم رَفَعَ رَأْسَه فَإِذَا رَاحلتُه عندَه

[رواه البخاري]

حاله الشديد بالعثور على ناقته أخلّ بتوازنه فقال كلاماً كفراً ، هناك من يلتفت إلى قلبه و يتصل بربه ، فيشعر بنشوة كبيرة جدا ، هذه تبعده عن العلم ، فيحكم حاله لعلمه ، و الأولى أن يحكم علمه بحاله .

والحال أنواع ؛ هناك حال شيطاني ، إذا دخل أحدهم بيتاً مثلاً و استطاع أن يأخذ منه مليون ليرة ، الطريقة سهلة ، و لم ينتبه أحد ، قعدت مع هذا السارق ، تجد إشراقة في وجهه ، لأنه حقق هدفه ، فهل يسمى هذا الحال راقياً ، كل إنسان يحقق هدفاً و لو كان خسيساً يشعر بنشوة ، أما نحن فعندنا العلم يتحكم في الحال ، العلم حكَم على الحال ، وليس الحال حكما على العلم ، هناك أناس كثيرون أحوالهم تتحكم بعلمهم ، تأخذه نشوة فيتكلم كلاما غير صحيح ، قد يستعلي و قد يطعن في الآخرين ، أساسه نشوة ، فمن لوازم رياضة الخاصة أن علمه متحكم بحاله ، و ليس العكس .

أما هناك رياضة خاصة الخاصة ، هؤلاء المتفوقون ، مرتبتهم مرتبة الامتياز ، قال : هذه المرتبة لا يرى إلا الله ، لا يرى عمله ، حتى لو أن الله عز وجل أجرى على يده خيرا كبيرا لا يرى عمله ، قال : ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي ، ما قال : فهديتكم ، هداكم الله بي ، حتى الإنسان في المرتبة العالية لا يرى عمله ، يرى فضل الله عليه ، حتى لو كنت مستقيماً ، لو أنك في زمن الفتنة تجاهد نفسك و هواك ، لولا أن الله عزوجل أعانك على الاستقامة لما كنت مستقيما ، و الدليل سيدنا يوسف ، حينما قال :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

[سورة يوسف]

أي عفّتي بمعونتك يا رب ، عفتي و استقامتي و ورعي بدعم منك ، من أنا لولا دعمك لي هذا مستوى عال جدا ، حتى بالتفوق ، حتى بالإيجابيات ، حتى بالإنجازات لا ترى إلا فضل الله عليك.

مرة كنت في جلسة ، وهناك إنسان فيه روح من الدعابة اللطيفة أضحك من في المجلس مرتين أو ثلاثا ، قلت لهم : اشكروا الله على هذا الضحك ، قالوا : ولِم ؟ قلت لهم : لأن الذي أضحككم قادر على أن يبكيكم ، أضحككم ، لأنه يوجد ما يسيئكم من مرض أو هم و غم ، فإذا ضحك الإنسان معنى ذلك أن الله سمح له أن يضحك ، فكلما تفوقت عند الله عزوجل

ترى فضل ا   عليك ،

إذا كنت في كل حال معي   فعن حمل زادي أنا في غنى

فأنتم هو الحق لا غيركم   يا ليت شعري أنا من أنـ ـا

تتلاشى ذاتك أمام عظمة ا   ، عبر عنها علماء القلوب بالفناء ، أنت ليس لك وجود ، النبي الكريم حدثنا عن أعماله العظيمة ، قال : هذه جهد مقل ، فكلما كبرت عند ا   ، رأيت فضله و لم تر عملك ، وكلما صغرت عند ا   رأيت فضلك و عملك و لم تر فضل ا   عليك .

والحمد   رب العالمين .

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس التسعين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين .

أيها الإخوة ، ينبغي من حينٍ إلى آخر أن نرجع إلى محور هذا الموضوع فالإنسان يمشي في طريق عريض ، ثم ينتقل إلى طريق فرعية ، من حينٍ إلى آخر ينبغي أن يعود إلى أصل الطريق فنحن في مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، نتبين أن علة وجود الإنسان على سطح الأرض أن يعبد ا تعالى ، أنت موجود هنا في هذه الحياة الدنيا من أجل أن تعبد ا تعالى ، والمؤمن كلّ تصوراته تنطلق من آية كريمة ، أو من حديث صحيح فا عز وجل يقول :

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

[سورة الذاريات]

و أعلى مرتبة وصلها بشر على الإطلاق ، هي سدرة المنتهى التي وصلها النبي عليه الصلاة و السلام، قال تعالى :

فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾

[سورة النجم]

أعلى مقامٍ تصلُ إليه أن تكون عبدًا تعالى ، وكلّما ضعف إيمان المؤمن ضاقتْ عنده مفاهيم العبودية ، وكلّما ارتقى إيمان المؤمن اتّسعت عنده مفاهيم العبودية ، العبودية ليست كما نتوهم ؛ حركات وسكنات يؤديها الإنسان وهو غافل ، العبودية منهج كامل ، للقلب عبادة ، وللسان عبادة ، وللعين عبادة ، وللأذن عبادة ، وللفكر عبادة ، وللجسم عبادة ، فكلّ عضو في جسمك له عبادة ، في كل وقت له عبادة ، وفي كل ظرف له عبادة ، وفي كلّ مقام له عبادة ، فالعبادة تدور مع الإنسان حيثما دار ، حتى في أفراحه وأحزانه ، وحتى في لهوه مع أهله ، حتى في أشد العلاقات خصوصية هناك عبادة ، أما المسلمون حينما ضعفوا ، مسخوا الإسلام إلى عبادات شعائرية ، مع أن كلّ آية في القرآن الكريم تقتضي الوجوب .

ما يمنع أن نقرأ كتاب ا عز وجل وأن نشير إلى أية آية فيها أمر ، وإلى أي آية فيها نهي بإشارتين، لأن كلّ أمر في كتاب ا تعالى يقتضي الوجوب ، وإن كلّ نهيٍ في كتاب ا يقتضي الاجتناب ، فأنت كمؤمن عندك بنود كثيرة جدا ، ومتنوعة جدا ، وتغطّي كلّ نشاطات

حياتك ، وكلّ أوقاتك ، وكلّ الأماكن التي أنت فيها ، وفي الأزمان التي أنت فيها ، وفي النشاطات التي أنت فيها ، فالعبادة منهج كامل ، أما حينما أخذنا منها ما يعجبنا ، وتركنا ما لا يعجبنا صرنا في مؤخّرة الأمم.

و من عبادات بعض الجوارح و أوسعها نشاطاً في كلّ الأوقات هو الكلام، من عد كلامه من عمله نجا، قال : **وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتْك أُمك، وهلْ يكُب الناس في النارِ على وجوههم إلا حصائِد ألْسنَتهم؟"**

[رواه الترمذي]

لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، فقال: ثكلتْك أُمك، وهلْ يكُب الناس في النارِ على وجوههم إلا حصائِد ألْسنَتهم؟ وقد عد بعض العلماء آفات اللّسان ما يزيد عن أربع عشر آفةً مهلكةً ، فالنمام لا يدخل الجنّة ، والمسلم بسذاجة مضحكة ، يظن أنّه إن ترك الكبائر نجا بها، يقول : ما قتلتُ ، وما شربت خمرًا ، وما زنيتُ ! و الأفعال والأقوال التي يقوم بها أكثرها مهلك ، لا يدخل الجنّة قتّات أي نمام ، لا قتل ، ولا زنا ، ولا شرب خمرًا ، و لكن تكلّم ، وإن الرجل ليتكلّم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنّم سبعين خريفًا .

العبادة هي علّة وجودنا ، وسر وجودنا ، وغاية وجودنا ، وأن ا عز وجل خلقنا لنعبده ، فإذا عبدناه سعدنا بقربه ، ، فهو تعالى خلقنا ليسعدنا، إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم خلقنا ليسعدنا عن طريق عبادته ، والعبادة معرفة وطاعة وسعادة .

فعبادات اللّسان كثيرة ، أول عبادة للّسان النّطق بالشهادتين ، لو رجعت إلى القرآن الكريم لوجدتَ أن النطق وحده لا يكفي ، قال تعالى :

فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ

[سورة محمد]

هذه الكلمة ، كلمة التوحيد ، وهي كلمة الإسلام الأولى ، معناها لا معبود بحقّ إلا ا تعالى ، ليس في الأرض جهةٌ تستحقّ العبادة غير ا تعالى وليس في الأرض جهةٌ تستحقّ أن تهبها عمرك إلا ا تعالى ، وليس في الأرض جهة تستحقّ ان تلتفت إليها إلا ا تعالى ، وأن تخاص لها إلا ا وأن تقبل عليها إلا ا ، وهذا معنى لا إله إلا ا ، ولا معطي ولا مانع ولا معز ولا مذلّ ولا رازق ، ولا قابض ، ولا باسط ، ولا رافع ، ولا خافض إلا ا ، فهذه الكلمة هي أول كلمة في الإسلام ؛ لا إله إلا ا محمد رسول ا .

و العبادة الثانية لهذا اللّسان هي تلاوة القرآن ، والقرآن كتاب ا المنزل على نبيه عليه الصلاة والسلام ، المتعبد بتلاوته ، أنت إذا قرأته وتلوته آناء الليل وأطراف النهار ، فأنت في

عبادة لأنّه كلام ا عز وجل ، تلاوته على نحوٍ صحيح من أجل أن تصح صلاتك ، ثم إن من عبادات اللّسان التلفّظ بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر ا بها رسوله ، فقولنا ا أكبر ، سمع ا لمن حمد ، ربنا لك الحمد والشكر والنعمة والرضا ، ربي لك السجود وأنت الرب المعبود ، هذه الأذكار التي ذكرها النبي في الصلاة ، والتي هي من لوازم الصلاة هي أيضًا من عبادات اللّسان .

كالتسبيح في الركوع والسجود ، و الاعتدال والتشهد والتكبير ، أذكار الصلاة مع تلاوة القرآن في الصلاة ، مع النّطق بالشهادتين ، هذه من عبوديات اللّسان والواجبة .

و الأحكام بين واجب ، ومستحب ، ومباح ، ومكروه ، ومحرم ، على اختلاف بين المذاهب ، عند بعض المذاهب الفرض ثم الواجب ، وبينهما درجة واحدة ، فالواجب أقل من الفرض بدرجة ، والفرض أعلى بدرجة من الواجب ، أما في بقية المذاهب فالواجب هو الفرض ، فهنا اختصارًا ؛ واجب مستحب مباح مكروه حرام فالخمر حرام ، وكذا الخنزير ، أما الصلاة ففرض ، والإقامة سنّة ، وأن تأكل فاصولياء فهذا مباح ، وإنسان لبس ثيابًا بيضاء أو خضراء أو زرقاء جاس على كرسي ، أو على الأرض ، هذا مباح ، فالمباح لا أمر فيه ولا نهي ، ويستوي فيه الفعل والترك ، والمستحب يفضل أن تفعله والواجب يجب أن تفعله ، والمكروه يفضل ألاّ تفعله ، والحرام يجب ألا تفعله ، وحياتنا كلّها هكذا ؛ واجب مستحب مباح مكروه حرام ، ما من شأن أو شيء في الحياة ، وما من حركة أو تصرف ، أو نطق ، إلا وينطبق عليه أحد هذه الأحكام الخمس، المؤمن بعد أن يعرف ا عز وجل شغله الشاغل ، وهمه الأول أن يتعرف إلى أمره ونهيه ، هذا مباح ، وهذا حلال ، وهذا حرام ، وهذا مكروه ، وهذا مستحب ، فالواجب الذي هو الفرض ، للسان أن ينطق بالشهادتين ، والفرض أن يتلو القرآن في الصلاة تلاوةً صحيحة تصح بها صلاته ، والواجب ، هذه الأذكار التي ذكرها النبي في الصلاة ، كالتكبير والتشهد ، وأذكار الركوع والسجود وما إلى ذلك .

ومن الواجبات على اللّسان رد السلام ، ابتداء السلام سنّة مؤكّدة ، أما رد السلام فهو فرض واجب ، قال تعالى :

وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ

[سورة النساء]

فرد السلام من واجبات اللّسان ، ومن واجبات اللّسان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، و هذه هي الفريضة السادسة ، بل إن هذه الأمة التي كرمها ا عز وجل والتي وصفها بأنّها خير أمة أُخرجت للناس ، هذه الأمة علّة خيريتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾

[سورة آل عمران]

لذلك تكاد تكون هذه الفريضة معطّلة في العالم الإسلامي ، يسكت ، ويجامل ولا يستنكر ، ولا يعلن ولاءه وبراءته ، ولو تُرِك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، كان هذا الترك سبب هلاك هذه الأمة ، والدليل ، ا عز وجل أهلك بني إسرائيل لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، انْظر إلى بيوت المسلمين ، قد تأتي بنت الأخ بأبهى زينة كانت في الطريق ، العم يرحب بها ، ويكرمها ، ويستقبلها ، ويثني عليها وعلى أناقتها ، ولا يلفتُ نظرها إلى خروجها غير الشرعي ، لذلك لما أراد ا إهلاك قرية أرسلَ ملائكته لإهلاكها ، فإذا فيها رجل صالح ، فقال الملك : إن رجلاً صالحا فيها ، قال : به فابدؤوا !! عجيب ! لأنه كان لا يتمعر وجهه إذا رأى منكرًا ، فهذا الذي لا يأمر ولا ينهى ، ولا يستنكر ، لا بيده ولا بلسانه ولا بقلبه ، وكأنّه راضٍ عما يفعله الناس هو شريك هؤلاء الناس في الإثم ، ومن واجبات اللّسان الأمر بالمعروف ، والنّهي عن المنكر، وتعليم الجاهل ، فلو سألك إنسان يجب أن تُجيب ، أما إن سئلت عن شيء لا تعلمه يجب ألاّ تجيب ، رجل كان في سفر مع أصحاب رسول ا ، وقد أصابته الجنابة فسأل أحدهم فأفتى له أن يغتسل فاغتسل فمات ، فلما بلغ النبي صلى ا عليه وسلم ذلك غضب من فتواهم .

لأنّه كان يكفيه أن يتيمم ، فلما أشار عليه أن يغتسل اغتسل والتهب جرحه ومات ، فقال عليه الصلاة والسلام غاضبًا أشد الغضب : قتلوه قاتلهم .

فإن كنت تعلم فتكلّم ، وإلا فاسكت وعبادتك أن تصمت ، قال تعالى :

﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

[سورة النحل]

من هم أهل الذكْر ؟ هم أهل الوحي ، أي القرآن ، فالدين هو الوحي والقرآن ، والبشر على سطح الأرض ، ورحمة ا تقتضي أن ينبههم ، وأن يرشدهم ، وأن يعرفهم ، ويهديهم سواء السبيل ، فأنزل على نبيه القرآن الكريم ، وأمره أن يبين هذا القرآن الكريم ، وهذا هو الدين كلّه ؛ قرآن منزل ، وسنّة مبينة ، من هم أهل الذّكر ؟ هم الذين يعرفون كلام ا وكلام نبيه ،

قال تعالى :

﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ

لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ ﴾

[سورة النحل]

فمن واجبات اللّسان تعليم الجاهل ، وألا تقول على ا ما لا تعلم ، لأن هذا من أعظم المعاصي ، وربنا عز وجل ذكر المعاصي ورتّبها ترتيبًا تصاعديًا ، فذكر الإثم والعدوان والفحشاء والمنكر ، وذكر الشّرك والكفر، وجعل على رأس هذه المعاصي : أن تقولوا على ا ما لا تعلمون .

الإمام الغزالي يقول : العوام لأن يرتكبوا الكبائر ، أهون من أن يقولوا على ا ما لا يعلمون ، ففي العقيدة لا يوجد تقليد ، لو أن ا قبِلَ من عباده عقيدةً تقليدًا ، لكانتْ كلّ الفرق الضالة على حقّ ، ما ذنب أتباعها؟ ما فعلوا شيئًا ، لقّنوا عقيدة فقبلوها ، في العقيدة لا تقبل إلا تحقيقًا ، ولا تقبل تلقينًا ، ولعلّ المستند في ذلك قوله تعالى :

﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾

[سورة محمد]

والعلم يقتضي البحث والدرس والأدلة والتحقيق والموازنة إلخ ...

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبات اللّسان ، وتعليم الجاهل، حدثني أخٌ فقال لي : يعود الفضل في توبتي إلى سائق تاكسي ، كنتُ أشرب الخمر ، اشتريتُ زجاجات ، ركبتُ سيارةً في أيام الصيف ، وكان هناك ازدحام شديد ، فلما لمح السائق الخمرة في يدي ، أوقفَ السيارة ، وطردني من سيارته ، وبقيتُ ساعةً عندها تبتُ إلى ا عز وجل .

سمعتُ قصة لطيفة ، سائق تاكسي على خط بيروت ، جاءه شاب وشابة يركبان معه إلى دمشق ، ثم سألاه أن ينتظر قليلاً لأن شخصًا سيأتي بحقيبة ، فانتظر السائق فترةً طالتْ ، بدأ يتبرم ، فجاء رجل في الثمانين أو السبعين ، يحملُ على رأسه حقيبة ، فأخذها الشاب منه ، ووكزه على صدره ، وقال له لماذا تأخّرت ؟ السائق لم ينتبه ، وبعد عدة كيلو مترات من المسير تقول الزوجة لزوجها : لماذا ضربت أباك ؟ فوقف السائق ! وقال له : هل هذا أبوك ؟ فقال : نعم ، فقال السائق : انْزل من هنا ! هذا هو الأمر بالمعروف ، فإذا تكلّمت بكلمة غلط ورد عليك كلّ الناس ، حينها لا تتكلم أو تعمل عمل غلط ، قال لي شخص : سائق باص متفلّت جدا كان يسمع أُغنية ساقطة ، وقفَت امرأة محجبة ، وقالت لهذا السائق وكان هناك

بالباص خمسون رجلاً ، هذا الشريط اسمعه في بيتك ، أما هذه السيارة فليستْ ملكك ، ولكن هي ملك هؤلاء الركاب جميعًا ، فاستحيى ! وآخر يسب الدين وكلّهم ساكتون ، ويفعل المنكر ، والكلّ ساكتون ، لذلك هؤلاء الذين لا يتناهون عن منكر فعلوه يستحقّون غضب ا عز وجل، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب.

وعدم الأخذ به سبب هلاكهم ، ويتجملون بكلام لا أصل له ، يقول لك : امش بجنازة ولا تمش بزواج! أعظم شفاعة بين اثنين هي شفاعة النكاح، لذلك صار عندنا عادات وتقاليد لا علاقة لها بالدين إطلاقًا .

تعليم الجاهل من واجبات اللّسان ، وإرشاد الضالّ من واجبات اللّسان ، وأداء الشهادة ، فلو كنت راكبًا سيارة ، والسائق يمشي من اليمين بسرعة نظامية ؛ وطفل قفز أمامه ومات ، وأنت الشاهد الوحيد وا إن لم تذهب مع هذا السائق إلى المحكمة ، وتعطّل عملك يومًا أو يومين وتنقذ هذا السائق من عقاب شديد جدا ، أو من تكليف لا يحتمله فأنت لستَ مؤمنًا ، لا تقل سوف أعطّل عملي يومين ! عدلُ ساعة أفضل من عبادة ثمانين عامًا ، لذلك قالوا أن حجرًا ضج بالشكوى إلى ا عز وجل ، قال : يا رب عبدتك خمسين عامًا وتضعني في أس كنيف ، فقال ا له : تأدب يا حجر إذ لم أجعلك في مجلس قاضٍ ظالم ، والقصة هنا رمزية ، فأن يكون الحجر في أس كنيف خير من ذاك المجلس .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتعليم الجاهل ، وإرشاد الضالّ وأداء الشهادة المتعينة ، وصدق الحديث ، هذه كلّها واجبات ، أما المستحبات فتلاوة القرآن ، فالواجب فيـــه تلاوته في الصلاة المفروضة تلاوةً صحيحة ، أما المستحب أن تتلو القرآن الكريم ، وتداوم على ذكر ا تعالى لقول ا عز وجل :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾

[سورة الأحزاب]

والمذاكرة في العلم النافع وتوابع ذلك ، ذكر ا عز وجل بأوسع معاني هذه الكلمة ، بدءاً من الدعاء والاستغفار وأذكار النبي عليه الصلاة والسلام والدعوة إليه ، وسماع العلم وتلاوة القرآن ، وكلّ هذا متّصل بالذّكر ، عن أبي الدرداء قال: قال رسول ا صلى ا عليه وسلم **"ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم؟ قالوا: بلى. قال: ذكر ا .**

[رواه الترمذي]

أما ما هو محرم على اللّسان ، قال : النّطق بكلّ ما يبغضه ا ورسوله فالغيبة تغضب ا ،

وكذا النميمة والمحاكاة ، والتحريش بين المؤمنين ، والسخرية ، والإفك ، وكلّ كلامٍ يغضب ا تعالى كالفحش ، وتتبع العورات ، ثم النطق بالبدع المخالفة لما بعث ا به رسوله ، كأن يكون لا أصل له في الكتاب أو السنّة ، نروجه ونذكره ونبتدعه ، والدعاء إلى هذا الشيء المبتدع ، والدعوة إليه ، هذا محرم ، وكذا تحسينه وتقويته ، فلان يدعي أنّه يعلم الغيب ، يقرأ الكف و الفنجان ، ويمسك بأبراج السماء ، هذا كلّه محرم ، فالحديث عنه والدعوة إليه ، وترويجه ، وتحسينه حرام ، عن عبد ا بن مسعود قال: من أتى كاهنا أو ساحرا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد .

[رواه الحاكم]

فمن المحرمات النطق بالبدع التي ما أنزل ا بها من سلطان ، كأن يقول: فلان يفك السحر ! وفلان يوفّق بين الزوجين ، وهذا الشيخ مثلاً يجاب الرزق ، هذا كلّه باطل ، قال تعالى :

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ

[سورة الأعراف]

فإذا كان عليه الصلاة والسلام لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًا ، فمن نكون نحن ؟ و ماذا نملك من قدرات حتى ندعي ما ليس نملكه .

و القذف أن تتّهم امرأة بالزنا وهي ليست كذلك ، هناك شكل من أشكال القذف كأن يذكر اسم امرأة ولا يتكلّم كلمة ، هو من باب القذف ، وأحيانا حركات بالوجه أو الحواجب ، تمطّي ، يقول : فلان صاحب دين ! وهو يمثّل بفكّه شيئًا! هذا قذف ، وقد ورد في الأثر : أن قذف محصنة يهدم عمل مئة سنة وهذا من معاصي اللّسان الكبيرة ، وكذا سب المسلم ، يقول لك : هذا لص ! هل أنت متأكّد ؟ كلّكم يعلم أنّه من قذف امرأة يجلد ثمانين جلدة ، وكذلك الحكم نفسه إذا قذف رجلاً ، إذا قال عن إنسان زانٍ يجلد ثمانين جلدة ، امرأة كانت تغسل ميتةً ، فإذا بيدها تلتصق بجلد هذه الميتة ، وبعد محاولات يائسة لم تستطع نزع يدها من جلدها ، فقالوا : ما الحل ؟ أنقطع جزءاً من جلد الميتة ؟ أم نقطع يد هذه المغسلة، يروى أن هذه القصة وقعت في عهد الإمام مالك إمام دار الهجرة ، فقال الإمام مالك : لعلّ هذه المغسلة اتهمتها بالزنا ، اجلدوها ثمانين جلدة ، وبعد هذا الجلد فُكت يدها ! والمقذوفة ميتة ، فقذْف محصنة من الكبائر ، وسب المسلم من الكبائر ، وإيذاء المسلم بالقول ، كالسباب الفاحش ، وكذا الكذب، والمؤمن لا يكذب ، أخرج ابن عدي والبيهقي عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى ا عليه وسلم قال: **يطبع المؤمن على كل شيء إلا الخيانة والكذب .**

وشهادة الزور التي تجعل الحق باطلا ، والباطل حقّا ، حدثني أحدهم أنه ارتكب مخالفة و احتاج لشاهد يشهد أن هذه المخالفة لم تقع ، فيعفى من الحكم ، و الحكم سجن شهرين ، بحث

عن شاهد فطلب منه خمسة آلاف، قال له لأنّني لم أر ما فعلت ، وأريد ثمن شهادة الزور ، فلما دخل إلى المحكمة ، فوجد المصحف ، فقال له أريد عشرة آلاف الآن ، لأن هناك يمين !

فشهادة الزور من المحرمات وكذا الكذب ، وإيذاء المسلم بالقول ، وسبه ، وقذف المرأة المحصنة ، والحديث عن البدع والدعوة إليها وترويجها ، وتحبيبها للناس ، والقول على ا بما لا تعلم ، تقول : ا خلق الإنسان كافرًا ، وسوف يضعه بالنار ، إلى أبد الآبدين ! كيف يفسر قوله تعالى :

فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى

ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

[سورة الحج]

هذه دعوة أساسها الجهل ، قال تعالى :

قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ

لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

[سورة الأعراف]

هناك دعوة إلى الجبرية ، وهي أن الإنسان مجبور على كلّ أعماله ، ا عز وجل لا يجبر أحدا على معصية ، ولا يكتب شيئًا على إنسان ، فالجاهل يصور ا عز وجل على أنّه خلق الكافر كافرًا ، وقدر عليه الكفر ، وقدر عليه المعاصي والآثام ، ثم يضعه في النار إلى أبد الآبدين ، ويفعل ما يريد ، وهذا من أشد المحرمات في اللّسان ، وهي أن يقول على ا ما لا يعلم ، وهو أشدها تحريما ، ومكروه التكلّم ما تركه خير مثلاً يقول : كم يعطونك بالشهر ؟ دعه فإنّه راضٍ ، يقول له : قليل ، من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ، لماذا طلّقها ؟ وما السبب ؟ سؤال ثم سؤال ثم سؤال ، أين تسكن ؟ وهل هو أجرة أو ملك ؟ وهل العقد سياحي ؟ من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ، وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس .

هناك كلام على خلاف بين العلماء يستوي فيه الكلام وعدمه ، وهو الكلام الذي لم يتعلّق به طاعة أو معصية ، كأن تقول : هذا اللّون مناسب لهذا البيت ، إن قلت مناسب لا تؤجر ، وإن قلت غير مناسب لا تأثم ، كلام لا يتعلّق به طاعة ولا معصية ، فهذه عبادات اللسان ، ويجب أن نعلم أن كلّ عضو وجارحة في الإنسان له عبادة ، والمؤمن الصادق يسأل نفسه دائمًا ما

حكم الشرع في هذا ؟ والمؤمن بعد معرفته با ، لا هم له إلا أن يطيعه ، والطاعة تحتاج إلى معرفة الأمر والنهي ، فلذلك معرفة منهج ا عز وجل وأمره ونهيه جزء أساسي من الدين .

والحمد رب العالمين

بسم ا الرحمن الرحيم

منزلة عامة حول إياك نعبد و إياك نستعين ، فقد قال بعض العلماء : مقام إياك نعبد و إياك نستعين أربعة أصناف ، يعني ما حقيقة التعبد ؟ الصنف الأول عند هؤلاء القـوم أنفـع العبادات و أفضلها أشقها على الأنفس وأصعبها ، يعني عند هؤلاء المشقة مطلوبة لـذاتها ، و قد قيل الأجر على قدر المشقة ، وورد حديث لا أصل له ، أفضـل الأعمـال أحمزهـا ، أي أصعبها وأشقها ، هؤلاء الفريق من الناس هم أهل المجاهدات و الجور على النفوس ، أسـاس العبادة المشقة ، أساس العبادة أن تُحمل النفس ما لا تطيق ، أساس العبادة تجشُم الصـعاب ، حرمان النفس ، تحميلها فوق طاقتها ، هؤلاء فريق من المؤمنين تصوروا أن المشـقة أصـل العبادة ، و عللوا بأن النفوس تستقيم بالمشقة ، إذ طبعها الكسل والمهانـة ، و الإخـلاد إلـى الأرض ، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال و تحمل المشاق ، هذا صنف و ا ُ أعلم ليسوا على صواب ، لأن المشقة لا يمكن أن تكون مطلوبة لذاتها ، و لأن دين ا عزوجل دين يسر ، لا دين عسر ، عن أَنَسٍ قَالَ **رَأَى النبي صلى الله عليه وسلم رجلًا يهادى بين رجلين فَقَالَ مَـا هذَا قَالُوا نَذَرَ أَن يمشي إِلى بيت الله قَالَ إِن الله غَني عن تَعذيبِ هذَا نَفْسه مره فَلْيركَب** *

[رواه النسائي]

فالمشقة لا يمكن أن تكون مطلوبة لذاتها ، أما حينما تُفرض علينا نرحـب بهـا ، أن تذهب إلى بيت ا الحرام مشيا على الأقدام هذه مشقة لا تُحتمل و ليست مطلوبة لـذاتها و لا ترقى بها ، ما دام أن ا عزوجل قد سخر للإنسان وسائل المواصلات السريعة ، أما حينمـا يطلب من المؤمن أن يطوف البيت طواف الإفاضة هناك ازدحام و مشـقة ، فهـذه المشـقة فرضتها العبادة ، و حينما يذهب المؤمن إلى الجهاد قد يحتمل ما لا يطيـق مـن الجـوع و العطش والحر والقر ومكابدة الأعداء ، هذه مشقة فرضها الجهاد أهلاً بها و مرحباً ، أمـا أن أبحث عنها أنا ، أما أن أريدها لذاتها ، أما أن أجعل المشقة طريقاً إلى عبادة ا ، فهذه و ا ُ أعلم مشقة لا ترضي ا ، لأنه شيء مفتعل .

قسم آخر قالوا : العبـادة أفضلها التجرد و الزهد في الدنيا ، و التقلل منها غايـة الإمكان وطرح الاهتمام وعدم الاكتراث بكل ما هو منها ، المشقة تحمل الصـعاب ، أمـا الزهد العزوف عن الدنيا ، يعني أخشن طعام، أخشن لباس ، أصغر بيت ، حياة فيها حرمان ، لا يوجد اهتمام بشيء قالوا : هؤلاء الفريق قسمان ؛ عوامه ظنوا أن الزهد غاية ، و التجرد غاية فشمروا إليه و عملوا عليه و دعوا الناس إليه ، وقالوا : هو أفضل من درجـة العلـم و

العبادة ، فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة و رأسها ، هؤلاء عوامهم ، أما خواصهم رأوا هذا مقصوداً لغيره ، و أن المقصود به العكوف على الله عزوجل ، و جمع الهمة عليه ، وتفريغ القلب لمحبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه والاشتغال بمرضاته ، فرأوا أن أفضل العبادات اجتماع القلب على الله ، و دوام ذكر الله بالقلب واللسان ، و الاشتغال بمراقبته ، والبعد عن كل ما يفرق القلب و يشتته عن الله ، فأهل الزهد والحرمان و الانسحاب من الدنيا أهل البعد عن نعيم الحياة و عن رفاه العيش ، وعن الطيبات التي رزقنا الله منها ، هؤلاء عوام و خواص ، العوام لجهلهم توهموا أن الحرمان مقصود لذاته ، و أن الحرمان هو العبادة ، احرم نفسك كل شيء ؛ الطعام الطيب و الشراب البارد ، والفراش الوثير ، اجهد أن تكون محروماً ، احرم من حولك ، فهذه هي العبادة ، الله أعلم أنهم ليسوا على صواب ، لأن الله عزوجل قال : **قُلْ من حرم زينَةَ الله التي أَخْرَجَ لِعباده والطيبات من الرزق**

[سورة الأعراف]

من حرمها ؟ لماذا خلق الله الورد ؟ للكفار فقط ، لماذا خلق الله الشيء الذي يريح النفس ؟ للكفار فقط ، ثم إن هؤلاء أيضا قسمان ؛ عارفون متّبعون ، إذا جاء الأمر و النهي بادروا إليه ، و لو فرقهم و أذهب جمعهم ، أي واحد منهم في حالة طيبة مع الله ، مستغرق بكمال الله ، دعي إلى عمل صالح ، رفض ، هؤلاء أيضا ليسوا على حق ، لأن العمل الصالح يرقى بك ، أما هذا الركون إلى هذه السعادة لا ترقى بك ، سيدنا ابن عباس كان معتكفاً في مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم ، رأى رجلا كئيبا ، قال له : **ما لي أراك كئيبا ؟ قال : يا ابن عباس ديون لزمتني ، ما أطيق سدادها قال : لمن ؟ قال :لفلان ، قال : أتحب أن أكلمه لك ؟ قال : إذا شئت ، فخرج ابن عباس من معتكفه قال له رجل : يا ابن عباس أنسيت أنك معتكف** ، الاعتكاف فيه راحة نفسية ، أنت تصلي ، وتقرأ القرآن ، مستغرق ، منسجم ، مسرور، جاءك إنسان يستغيثك ، يريد أن تخدمه ، يريد أن تعينه بعض هؤلاء لا يستجيب ، لأنه يفضل سروره باعتكافه على خدمة الخلق ، و بعضهم يستجيب هؤلاء الذين توهموا أن حقيقة العبادة هي الزهد و التجرد ، لكنهم إذا دعوا إلى عمل صالح بادروا " أن أنعم و أكرم " أما إذا تنصلوا من عمل صالح ، هؤلاء أيضا ليسوا على الحق ، الله أعلم ، هؤلاء الذين لا يلتفتون لعمل صالح وهم معتكفون لهم بيت من الشعر يستشهدون به :

يطالَب بالأوراد من كان غافلا فكيف بقلب كل أوقاته ورد

***

هو سعادته بأوراده فقط ، و العمل الصالح لا يعبأ به ، وهؤلاء موجودون في بعض بلاد المسلمين ، بل إن هؤلا ء أيضا قسمان ، قسم منحرف أشد الانحراف ، يترك الفرائض و الواجبات ويقول : أنا مع الله دائما فأين الصلاة ؟ الإنسان إذا ترك الجماعة ينحرف ، و

يتوهم ، و يبتعد وهؤلاء كُثر ، أنا مع ا ، الشي المألوف عند المتفلتين يقولـون : أنا إيماني في قلبي ، لا تصلي وإيمانك في قلبك ؟ يقـ ـول : الشيء ليس بالصلاة ، و لا بالصوم و لا بالحج ، و لا بالزكاة ، لكن الإيمان في القلب.

منهم من يترك السنن و النوافل ، و سأل بعض هؤلاء شيخًا عارفـا فقـال : إذا أذن المؤذن فأنا في جمعيتي على ا ، فإن قمت و خرجت تفرقت ، و إن بقيت على حالي بقيت ، فما الأفضل في حقي ؟ فقال الشيخ : إذا أذّن المؤذن و أنت تحت العرش فقم و أجب داعي ا ، ثم عد إلى موضعك و هذا لأن الجمعية على ا حظ الروح و القلب ، و إجابة الداعي حق الرب ، ومن آثر حق حظ روحه على حق ربه فليس من أهل إياك نعبد و إيـاك نسـتعين ، هؤلاء الذين يقصرون في عباداتهم بدعوى أنهم مجموعون على ا ، هؤلاء أيضا ابتعدوا عن الصلاة .

الصنف الثالث ؛ رأوا أن أنفع العبادات و أفضلها ما كـان فيه نفع متعد فرأوا أفضل من ذي النفع القاصر ، النفع المتعدي ، أن تخدم الخلق ، فرأوا خدمـة الفقـراء و الاشـتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ، ومساعدتهم بالمال و الجاه و النفع أفضل ، فتصـدوا لـه وعملوا عليه ، و احتجوا بما ورد عن النبي صلى ا عليه و سلم : **الخلـ ـق كلهم عيال ا ، و أحبهم إليه أنفعهم لعياله ...**" واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفّـاع متعد إلى غيره ، و اين أحدهما من الآخر ؟

أنا أعتقد أن هناك رأيا وسطا هو أن تجمع بين خدمة الخلق و عبادة الحـق ، و بـين بذل الجهد واحتجوا أيضا بقول النبي عليه الصلاة و السلام عن أَبِي الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قَالَ سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقُولُ **من سلك طَرِيقًا يبتَغي فيه علما سلك الله به طريقًا إِلى الجنة وإِن الْملَائِكَةَ لتَضع أَجنحتَها رِضاء لِطَالِبِ الْعلْـم وإِن الْعالِم ليستَغْفر له من في السموات ومن في الْأَرض حتى الْحيتَان في الْماء وفَضْـلُ الْعـالِمِ على الْعابِدِ كفَضل الْقَمرِ على سائِرِ الْكَواكبِ إِن الْعلماء ورثَةُ الْأَنْبِياء إِن الْأَنْبِياء لم يورثُـوا دينَارا ولَا درهما إِنما ورثُوا الْعلْم فَمن أَخَذَ بِه أَخَذَ بِحظ وافر***

[رواه الترمذي]

وقالوا : وقد ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام بأنه قال لعلي بن أبي طالب : **لـئن يهدي ا بك رجلا واحدا خير لك حمر النعم**" وهذا التفضيل إنمـا هـو للنفـع المتعـدي ، واحتجوا بقول النبي عليه الصلاة و السلام : - نقترب نحن شيئا فشيئا من حقيقة العبادة -عن أَبِي هريرةَ أَن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ **من دعا إِلى هدى كان له من الْأَجرِ مثْـلُ أُجورِ من تَبِعه لَا ينْقُص ذَلك من أُجورِهم شَيئًا ومن دعا إِلى ضلَالَة كان عليه من الْإِثْمِ مثْـلُ آثَامِ من تَبِعه لَا ينْقُص ذَلك من آثَامهم شَيئًا**

[رواه مسلم]

أحاديث كلها صحيحة ، واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، و صاحب النفع لا ينقطع عمله ، مادام نفعه الذي نُسب إليه مستمراً ، و احتجوا بأن الأنبياء إنما بعثـوا بالإحسان إلى الخلـق ، وهدايتهم و نفعهم في معاشهم ومعادهم ، و لم يبعثوا بـالخلوات و الانقطـاع عن الناس والترهب ، ولذاك أنكر النبي عليه الصلاة و السلام على أولئك النفـر الذين هموا بالانقطاع للتعبد وترك مخالطة الناس ، و رأى هؤلاء التفرق في أمر ا و نفـع عباده و الإحسان إليهم أفضل من الجمعية عليه من دون ذلك ، و قالوا : إن العبادة هي نفـع يصل إلى الآخرين ، كنا في المشقة فانتقلنا إلى التجرد أي الزهد ، ثم انتقلنا إلى النفع المتعدي ، و أما الصنف الرابع ، و لعل هؤلاء على صواب قال : هؤلاء قالوا : إن أفضـل عبـادة العمل على مرضات الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك ، بما يقتضيه الوقت ووظيفتـه ، و هذا أرقى اتجاه ، قالوا: العبادات في وقت الجهاد هو الجهاد ، عدو اقتحم علينا بلادنا ، أول عبادة أن نقاوم العدو ، الجهاد ، و لو آل هذا إلى ترك الأوراد ، من صلاة الليل وصيام النهار ، بل ومن ترك النوافل ، و العبادة في وقت حضور الضيف القيام بحقه والاشتغال بـه عـن الورد المستحب ، و كذلك في أداء الزوجة حق زوجها وأهلها و أولادها .

وقت السحر للصلاة و القرآن و الدعاء و الذكر و الاستغفار ، إنسان استرشدك إلـى مكان أول عبادة أن ترشده إلى المكان ، جاهل أرادك عليك تعليم هذا الجاهل ، أنت لك هوية ، أنت رجل قد تكون ابناً أول عبادة بر والديك ، أنت رجل قد تكون غنياً أول عبـادة إنفـاق مالك ، أقامك ا عالماً أول عبادة تعليم العلم ، أقامك ا قويا أول عبادة نصرة الضـعيف، أقامك زوجة أول عبادة رعاية الزوج و الأولاد ، هذه هويتك ، في ظـرف وضـعت فيـه ، ظرف استثنائي ، الأب مريض أول عبادة العناية بالأب ، الابن عنده امتحـان ، أول عبـادة معاونة الابن ، الزوجة مريضة أول عبادة تمريض الزوجة ، عندك ضيف أول عبادة إكـرام الضيف ، أن تعبد ا فيما أقامك و في الظرف الذي وضعك فيه ، و في الزمان الذي أظلك ، أفضل عبادة وقت قراءة القرآن ، أن تجمع قلبك على ا ، وأن تتـدبر آيـات القـرآن و أن تفهمها حتى تشعر كأن ا يخاطبك فتجمع قلبك عليه .

أفضل عبادة في وقت عرفة الاجتهاد في التضرع و الـدعاء و الـذكر دون الصـوم المضعف للجسم ، أفضل عبادة في ايام عشر ذي الحجة الإكثار من التعبد ولاسيما التكبيـر و التهليل و التحميد فهو أفضل من الجهاد غير المتعين .

أول عبادة في العشر الأخيـر من رمضان لزوم المسجد و الخلوة والاعتكـاف دون التصدي لمخالطة الناس و الاشتغال بهم ؛ حتى إنها أفضل من الإقبال على تعلـيم العلـم ، و إقراء القرآن عند كثير من العلماء.

وأول عبادة في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادته أو حضور جنازته و تشييعه ، وتقديم ذلك على خلواتك و جمعيتك .

وأول عبادة وقت نزول النوازل و أذاة الناس لك أداء واجب الصبر مع خلطتك بهـم دون الهرب منهم ، فإن المؤمن الذي يخالط الناس و يصبر على أذاهم أفضل مـن الـذي لا يخالطهم و لا يصبر على أذاهم .

الملخص ؛ أن تؤثر مرضات ا ، فيما أقامك ، وفي الظرف الذي وضعك فيه ، وفي الزمن الذي أظلك ، وفي الوضع الاستثنائي الذي حلّ بك ، هذا أرقى أنواع العبادة .

هؤلاء هم أهل التعبد المطلق ، و الأصناف قبلهم أهل العبد المقيد ، هناك تعبد مطلـق ، و تعبد مقيد ، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقض و ترك العبادة ، لأنه يعبد ا على وجه واحد ، لو واحد غذيناه أن العبـادة فقـط أن تذكر ا ، فإذا قام بعمل جليل و خطير و ذي نفع عظيم لكنه ترك ذكره يشعر بالخطأ الشديد ، هذا غُذي خطأ ، هناك وقت للذكر ، وقت للعمل الصالح ، وقت لأن تكون مـع الأهـل و الأولاد ، وقت لتربية الأولاد ، وقت لكسب الرزق، وقت لتؤنس إخوانك ، وقت للدعوة إلـى ا ، وقت للعمل الصالح، وقت لراحة الجسد ، هذه العبادة المطلقة .

و أهل العبادة المطلقة ينتقلون من حال إلى حال ، ومن مقام إلى مقام، ومن منزلة إلى منزلة و كلما اشتغل بنوعٍ من العبادة لاح له نوع آخر فأقبل عليها ، قلما يصـاب بالملـل ، أصحاب العبادة المقيدة يصابون بالملل والسأم والضجر ، أما أصحاب العبادة المطلقة فهم في تجدد دائم ، من صلاة إلى ذكر إلى عيادة مريض إلى تشييع جنازة إلى إنفاق مال إلى جلوس مع الأهل ، إلى زيارة للأقارب إلى كسب للرزق إلى بر بالوالدين ، أمامه مجال واسع جدا ، و يفعل كل عبادة وهو مقبل عليها راغب فيها ، إن رأيت العلماء رأيت هذا الإنسان معهـم ، وإن رأيت العباد رايته معهم ، وإن رايت المجاهدين رأيته معهم ، وإن رأيت الذاكرين رأيتـه معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم ، و إن رأيت أرباب القلوب رأيته معهم ، هو العبد المطلق ، الذي لم تملكه الرسوم المقيدة ، و لا النماذج الرتيبة ، ولم يكن عمله علـى مراد نفسه ، وما فيه لذتها و راحتها في العبادات ، بل هو على مراد ربه العبادة المطلقة هي على مراد ا ، لا على مراد حظ النفس .

قال : هذا الإنسان هو المتحقق في منزلة إياك نعبد و إياك نستعين، يا رب نعبدك فيما أقمتنا نعبدك في الظرف الذي وضعتنا فيه ، نعبدك في الزمان الذي أظلّنا ، نعبدك في وقـت راحتنا ، ووقت تعبنا و نصبنا ، نعبدك في كل ظرف استثنائي ، نؤثر مرضاتك في عبادتك ، ولا نؤثر حظوظ نفسنا في عبادتك .

هذا هو المتعبد حقًا ، القائم بالعبادة صدقا ، ملبسه ما تهيأ له ، مأكله ما تيسـر لـه ،

اشتغاله بما أمره ا به في كل وقت من وقته ، و مجلسه حيث انتهى به المكان ، ووجده خاليا ، لا تملكه إشارة ولا يتعبده قيد ، ولا يستولي عليه رسم ، حر مجرد ، دائر مع الأمر حيـث دار ، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه ، و يدور معه حيث استقلت مضاربه ، يأنس به كل محق ، و يستوحش به كل مبطل ، كالغيث إذا وقع نفع ، و كالنخلة لا يسقط ورقهـا ، و كلها منفعة حتى شوكها ، وهو موضع الغلظة منه ، على المخالفين لأمـر ا و الغضـب إذا انتهكت محارم ا فهو ، و با ومع ا صحب ا َ بلا خَلق ، و صحب الناس بلا نفس ، بل إذا كان مع ا عزل الخلائق عن البين و تخلى عنهم ، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه مـن الوسط و تخلى عنها ، فواها له ما أغربه بين الناس، وما أشد وحشته منهم ، بل مـا أعظـم أنسه با و فرحه به ، وطمأنينته و سكونه إليه .

و الحمد رب العالمين

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثاني والتسعين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والحديث اليوم عن عبادة القلب .

لا شك أن عبادة الظاهر يعرفها معظم الناس ، و هي موضوع دروس كثيرة في أكثر المساجد ولكن عبادة القلب مهمة جدا ، لأنه إذا استقام القلب استقامت الجوارح ، لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولأن ا عزوجل يقول :

يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

[سورة الشعراء]

عَن النعمَان بن بَشير يَقُولُ سَمعتُ رَسولَ الله صَلى الله عَلَيه وَسَلمَ يَقُولُ **الحلالُ بينٌ والحرام بينٌ وبينَهما مشبَهاتٌ لا يعلمها كثيرٌ من الناس فمن اتقى المشبَهات استبرأَ لِدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات كراعٍ يرعى حولَ الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإن لِكل ملك حمى ألا إن حمى الله في أرضه محارمه ألا وإن في الجسد مضغَةً إِذا صلحتْ صلح الجسد كله وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ألا وهي القلب ***

[رواه البخاري]

عبادة القلب ، وننطلق من قوله تعالى :

قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾

[سورة الزمر]

اعبد ا في أعضائك و جوارحك و كسب مالك و إنفاق مالك و تربية أولادك و علاقاتك و في أفراحك و أتراحك و في حلك و ترحالك الظاهر، اعبد ا مخلصا ، و الإخلاص عبادة القلب .

قال : هناك عبادة واجبة ، فالمتفق على وجوبه الإخلاص ، و التوكل و المحبة و الصبر والإنابة والخوف و الرجاء و التصديق الجازم والنية في العبادة ، هذه واجبات عبادة القلب ، لابد من أن تكون مخلصا ، ولا بد من أن تتوكل على ا ، ولا بد من أن تحب ا

وأن تصبر على قضائه وقدره وأن تنيب إليه و أن تخاف منه وأن ترجو رحمته و أن تصدق بكلامه و كلام أنبيائه ، أن تنوي في العبادة التقرب إليه ، لئلا تكون العبادة عادة .

الحقيقة الإخلاص شيء و النية في العبادة شيء آخر ، نية العبادة تفرقها عن العادة ، الإنسان حينما يألف العبادات يفعلها وكأنها عادات ، يفعلها و يتأثر بها ، يفعلها و لا يرقى بها ، فإذا نوى في عباداته التقرب إلى ا عزوجل تكون هذه العبادة كاملة ، بل إن بعض النـاس يقول لك : الصلاة رياضة والصيام صحة ، هذا كلام خطير ، لو أنك انبعثت إلى الصلاة من أجل صحة جسدك ، إذا ليست هي عبادة ، حينما تصلي هناك نتائج إيجابيية كبيرة جـدا مـن الصلاة ، أما حينما تنوي بالصلاة لتروض جسمك فجعلتها عادة ، و لم تجعلها عبادة ، النيـة مطلوبة ، لذلك علماء العقيدة و الفقهاء رجحوا أن تتلفظ بالنية ، مع أنها من عمل القلـب ، و لكن التلفظ بها يذكرك بهذه النية ، بل إن السلف الصالح - هل تصدقون - كان أحدهم إذا فتح دكانه يقول : نويت خدمة المسلمين ، انقلبت تجارته إلى عبادة ، طبيب دخل إلى عيادتـه إذا قال : يا رب وفقني لمعالجة هؤلاء المسلمين وشفائهم من أمراضهم و تقريبهم منـك ، كأنـه يصلي في عيادته ، لو محامٍ دخل إلى مكتبه فقال : يا ربي هيئ لي إنسـانا مظلومـا يكـون صادقا معي ، و أبعد عني الإنسان الظالم الذي يريد أن يستخدم علمي ليأخذ ما ليس له هـذا المحامي مكتبه أصبح مسجداً ، أصبحت حرفته عبادة ، لو مدرس لم يربط بين دخله القليل و بين تعليم الطلاب ، أي لم يعلمهم على قدر معاشه ، نوى بحرفته خدمة المسلمين ، و تعلـيم أبنائهم ، و أن يكون قدوة لهم ، أصبح تدريسه عبادة ، تاجر جاء ببضاعة جيـدة و سـعرها بسعر معتدل و نوى بها خدمة المسلمين ، أصبحت تجارته عبادة ، المنافق عبادته عـادات لا قيمة لها و المؤمن عاداته عبادات فلذلك كي نميز العبادة عن العادة لا بد من النية ، أنوي أن أصوم رمضان تقربا إلى ا عزوجل ، أنا أصلي لأن ا أمرني بالصلاة ، لا أفكر أبـدا أن هذه الصلاة تريض جسمي و تخفف وزني و تنشطني هذا بحث آخر .

هناك إخلاص و هناك صدق ، الإخلاص ألاّ يكون المطلوب منقسما ، أي مطلوبـك ليس مع جهات ، أنت ترضي زيدا و عبيدا و فلانا و علانا و ترضي ا ، لست مخلصـا ، ينبغي أن يكون المطلوب واحداً هو ا ، إلهي أنت مقصودي و رضاك مطلوبي ، أما فلان له علي يد ، يجب أن أرضيه ، وفلان قوي أحتاجه في المستقبل ، سأزوره ، فالمقصود متعدد ، فلست مخلصا ، أما المؤمن فمقصوده هو ا وحده ، لا إله غيره ، هـذا الإخـلاص عـدم انقسام المطلوب ، أما الصدق عدم انقسام الطلب ، طالب الآخرة و طالب الـدنيا ، و طالـب الراحة و طالب السمعة و طالب المجد ، فالطلب انقسم ، فالصدق عدم انقسام الطلـب ، أمـا الإخلاص عدم انقسام المطلوب .

الواجبات القلبية هي الإخلاص و التوكل و المحبـة والصبر و الإنابـة الرجـاء و

التصديق الجازم و النية في العبادة ، نحن أَلِفنا أن نفعل واجبات الجسد ، و قد يضيق قلبنا ، قد لا نسعد ببعض عباداتنا لأننا أهملنا عبادة القلب ، طبيعة الحياة المعاصرة فيها أخطار صحية ، وهناك تلوث عام هناك أخطار السير ، هناك أخطار أن تُتهم بتهمة أنت بريء منها ، هنـاك سيوف مسلّطة على الإنسان هكذا شاءت حكمة الواحد الديان ، فالتوكل يريحك من هذا الضغط ، إذا أردت أن تعدد الأخطار التي تحدق بالإنسان لا تُعد و لا تُحصى أبسطها عامل بمطعـم من أرقى المطاعم ، من أنظف المطاعم عنده موظف يحمل فيروس التهاب الكبد الوبائي ، هذا مرض قاتل ، و يكفي ألا يبالغ في تغسيل يديه عقب دخوله للحمام حتى يصيب ثلاثمائـة إنسان من رواد هذا المطعم بمرض التهاب الكبد الوبائي دخلت مطعما و أكلت طعاما حـلالا و دفعت ثمنه من كسبك الحلال ، فهذا خطر ، الأخطار التي تهدد الإنسان لا سيما فـي هـذا العصر لا تعد و لا تحصى ، دخل إلى الحمام و في أرض الحمام ماء و لم يلبس حـذاء ، و مسك التيار الكهربائي يموت فوراً ، فهناك أخطار كبيرة جداً ، كيف نسعد مع هذه الأخطار ؟ بالتوكل ، الأمر بيد ا ، أنا آخذ بالأسباب و انتهى الأمر ، وعلى ا الباقي .

الصبر مثلا من عبادت القلب ، أخ كريم سألني : إذا أصيب إنسان بمصـيبة و تـألم منها ، هل هذا الألم يلغي صبره ؟ قلت له : لا ، نحن بشر ، و تجري علينا كـل خصـائص البشر ، فالإنسان إذا فقد ابنه يتألم ألما شديدا ، وهذا الألم لا يلغي صبره ، ذلك لأن النبي عليه الصلاة و السلام حينما مات ابنه بكى ، عَن أَنَسِ بنِ مَالِك رَضيَ الله عَنْه قَـالَ **دخلْنَـا مـع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي سيف الْقَين وكان ظئْرا لإبراهيم عليه السلام فأخَذَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم فَقَبلَه وشَمه ثُم دخَلْنَا عليه بعد ذَلك وإبراهيم يجود بِنَفْسه فَجعلَتْ عينَا رسول الله صلى الله عليه وسلم تَذْرِفَانِ فَقَالَ له عبد الرحمن بن عـوف رضي الله عنْه وأَنْتَ يا رسولَ الله فَقَالَ يا ابن عوف إنها رحمةٌ ثُم أَتْبعها بِأُخْرى فَقَالَ صلى الله عليه وسلم إن الْعين تَدمع والْقَلْب يحزن ولَا نَقُولُ إلا ما يرضى ربنَا وإنـا بِفراقـك يـا إبراهيم لَمحزونُون ***

[رواه البخاري]

فالإنسان قد يتألم لضيق مادي ، و قد يتألم لمرض مؤلم ، و قد يتألم لولد فقده ، هـذا الألم لا يلغي الصبر ، أما الصبر أن تقول : الحمد رب العالمين .

الإمام أحمد يقول : ذُكر الصبر في تسعين موضعا في القرآن و أعظم آية تبين منزلة الصبر عند ا قوله تعالى :

إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ



[سورة الزمر]

و هناك آية كريمة يقرأها الإنسان يقشعر جلده ، لما ربنا قال :

إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ

[سورة ص]

إنسان يصاب بمصيبة يشكو و يبكي و يصيح و يتشكى و يتبـرم ، و إنسـان آخـر مصيبته أشد وأقوى تراه ساكتا ، أخ طبيب حدثني عن قصة مستشفى دخله مريض معـه ورم خبيث في أمعائه ، يبدو مؤمنا ، قال لي: عجيب ، كلما دخل عليه زائر يقول له : اشهد أنـي راض عن ا ، يا ربي لك الحمد قال لي : وجهه منير ، لايتبرم ولا يسخط يتهافت الأطبـاء إلى خدمته ، ما من واحد دخل إلى غرفته إلا و شعر بالراحة ، رائحة الغرفة عطرة ، كلامه طيب ، مستبشر ، و بعد يومين توفاه ا عز وجل على أحلى حال ، لحكمـة بالغـة بالغـة أرادها ا عزوجل جاء بعده مريض لهذه الغرفة مصاب بالمرض نفسه ، سباب شتام ، وجه أسود مكفهر ، نفسية غريبة جدا ، كلام قاس ، كلام كفر ، لا أحد يدخل عليه ، من شدة رائحة غرفته التي لا تقابل ، و بعد يومين توفي المريض ، فالأطباء في المستشـفى و الممرضـون رأوا نموذجين لمرض واحد، و هذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام ، عَن صهَيبٍ قَـالَ قَالَ رَسولُ الله صَلى الله عَليه وَسَلمَ **عجبا لِأمرِ المُؤْمنِ إِن أَمره كُله خَيرٌ وليس ذَاك لِأَحد إِلا لِلمُؤْمنِ إِن أَصابتْه سراء شكَر فكَان خَيرا له وإِن أَصابتْه ضراء صبر فكَان خَيرا له ***

[رواه مسلم]

وليس ذلك لغير المؤمن ، فللصبر في القرآن الكريم تسعون موضعا .

لكن هناك صبر جميل ، عَن أَنَسِ بنِ مَالِك رَضيَ الله عَنْه يَقُولُ **اشْتَكى ابـنٌ لِـأَبِي طَلْحةَ قَالَ فَماتَ وَأَبو طَلْحةَ خَارِجٌ فَلما رأَتْ امرأَتُه أَنه قَد ماتَ هيأَتْ شَيئًا ونَحتْه في جانـبِ البيت فَلما جاء أَبو طَلْحةَ قَالَ كَيفَ الْغُلَام قَالَتْ قَد هدأَتْ نَفْسه وأَرجو أَن يكُون قَد اسـتَراح وظَن أَبو طَلْحةَ أَنها صادقَةٌ قَالَ فَباتَ فَلما أَصبح اغْتَسلَ فَلما أَراد أَن يخْرج أَعلَمتْه أَنه قَـد ماتَ فَصلى مع النبِي صلى الله عليه وسلم ثُم أَخْبر النبِي صلى الله عليه وسلم بِمـا كَـان منْهما فَقَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لعل الله أَن يبارِك لَكُما في ليلَتكُما قَالَ سـفْيان فَقَالَ رجلٌ من الْأَنْصارِ فَرأَيتُ لهما تسعةَ أَولَاد كُلهم قَد قَرأَ الْقُرآن ***

[رواه البخاري]

هذا صبر ، والصورة القابلة ، أعرف رجلا مات ابنه في الخامسة عشر، ترك الصلاة و كأنه ارتد عن الدين ، لأن ا عزوجل ؟ قبضه فالصبر دليل الرضا .

السخط حرام ، و لا خلاص منه إلا بالرضا ، لذلك رضي ا عنهم ورضوا عنـه ، الإمام الشافعي كان يمشي وراء إنسان يطوف حول الحرم، قال الرجل : يا ربي هـل أنـت راض عني ؟ فقال له الإمام الشافعي : وهل أنت راض عن ا حتى يرضى عنك ، قال : يا سبحان ا من أنت ؟ أنا أرجو رضاه ، و تقول : أرضى عنه ، كيف أرضى عنه و أنا أتمنى رضاه ، قال : يا هذا إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقـد رضـيت عـن ا " و البطولة أن ترضى عن ا في الامتحان ، أن ترضى عن ا في المصيبة ، أما أن ترضـى عن ا و أنت في بحبوحة هذا شيء بديهي لا يقدم ولا يؤخر .

وفي الأثر : من لم يصبر على بلائي و لم يرض بقضائي فليتخذ ربا سـواي " والإنسان عندما يقول : الحمد رب العالمين فقد نجح في الامتحان ، و الصبر عند الصدمة ، الصبر مع تلقي الخبر، لكن بعد حين سوف تصبر مقهورا ، هناك عوام لهم كلمات و العياذ با شيطانية ، يقولون : مـا بعد الصبر إلا المجرفة و القبر " هذا شيطان يتكلم ، أما الصبر عند ا :

إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

[سورة الزمر]

وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ

[سورة النحل]

وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾

[سورة المدثر]

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ

[سورة آل عمران]

إلهٌ يأمرنا أن نصبر ، يأمرنا ان نرضى بقضائه و قدره ، هذا النبي الكريم الذي قـال ا عنه :

إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ

ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

[سورة ص]

ومن عبادة القلب التوكل ، والتوكل فيه أمر ، قال تعالى :

إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم

مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾

[سورة يونس]

أحيانا يقول لك أخ : خائف ، تعبد من ؟ تعبد من بيده كل شيء ، وهذا الإله العظـيم الذي تعبده ألا تعتقد أنه يحميك ، ألا تعتقد أنه يدافع عنك ، أضرب مثلاً شـاب دعـي إلـى الخدمة الإلزامية تعامل مع رتبة أعلى منه بقليل و هددته هذه الرتبة ، وكان أبوه قائد الجيش ، أمعقول أن يبكي ، أمعقول أن ينخلع قلبه من الخوف ، معنى ذلك أن في عقله خلـلا ، أنـت تعبد ا ، وا بيده كل شي ، بيده الأقوياء و بيده كل أسباب الأمراض ، و بيده السـلامة و بيده السعادة و بيده الغنى ، مع الإيمان با ليس هناك شقاء ، أكبر سلاح هو سلاح الـدعاء ، بالدعاء أنت مع ا ، أنت تستفيد من قدرة ا ومن علم ا ومن رحمة ا ومن فضل ا ، ليس مع الإيمان شقاء أبدا ، هذا الإيمان فيه سعادة ، سمها إن شئت سكينة ، تسعد بها و لـو فقدت كل شيء ، و تشقى بفقدها و لو ملكت كل شيء ، وا عزوجل قادر أن يهبك السعادة و أنت في أصعب الأحوال و أنت على الشوك ، أين وجد السعادة أهل الكهف ؟ فـي الكهـف ، كانوا في القصور فأووا إلى الكهف ، فنشر ا لهم من رحمته ، ورحمة ا مع الكهف أعظم بكثير من حجب رحمته و أنت في بيت فخم ، رحمة ا وأنت في سرير المرض أفضل بكثير من حجب رحمة ا عنك و أنت في صحة تامة ، رحمة ا و أنت في الفقر أفضل بكثير من أن تُحجب عنك رحمته وأنت في الغنى ، قال تعالى :

إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم

مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾

[سورة يونس]

إذًا التوكل أيضا من عبادات القلب .

وكذلك الإنابة ، قال تعالى :

وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ

[سورة الزمر]

أمر إلهي ، ارجع إليه ، المؤمن له مرجعية ، أعظم مرجع هو ا عزوجل ، يحاسب نفسه يا ربي هل أنت راض عني ؟ هل لي عمل لا يرضيك ؟ هل هناك خطأ لا أعرفه ؟ هل تحبني ؟ هل أنت راض عن سلوكي ؟ هل أنت راض عن معاملتي للخلق ؟ أقم معه علاقة ، ناجه جاءني أخ كريم و قال لي : كنت عند طبيب غير مسلم ، طبيب نفسي ، حدثته عن قصتي و عن مشكلتي النفسية وأعالج عنده ، قال : قال لي : أنت مشكلتك أنك تشعر أن ا لا يحبك ، لا بد من أن تناجي ربك ولابد من أن تستغفره ، ولا بد من أن ترضيه ، وإذا سلكت هذا المسلك شفيت من مرضك ، فعجب وهذا كلام حق ، أنا ليس عندي حالة صحة نفسية إلا بالقرب من ا عزوجل ، إذًا أُمرنا أن نتوكل عليه :

إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾

[سورة يونس]

وأمرنا بالإنابة إليه فقال :

وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ

[سورة الزمر]

و أمرنا بالإخلاص ، فقال :

وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ

[سورة البينة]

الخوف من ا من عبادات القلب ، " يا موسى خف ثلاثا ؛ خفني و خف نفسك وخف من لا يخافني " أبعد إنسان عن ا هو الذي لا يخاف ا ، و خف من لا يخافني ، طبعا الذي لا يخاف ا أحمق و محدود و مطبوع على قلبه ، قال تعالى :

فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم

مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥

[سورة آل عمران]

حقيقته أنتم في أمس الحاجة إليها في علاقاتكم اليومية ، وفي بيعكم و شرائكم وتعاملكم مع كل الجهات القوية ، أنا أعتقد أنه مستحيل و الف ألف مستحيل أن تخاف منه فيما بينك ثم يخيفك من أحد خلقه ، دقق في هذه الكلمة " مستحيل و الف ألف مستحيل أن تخاف منه فيمـا بينك ثم يخيفك من أحد خلقه ، أما إذا لم تخفه فيما بينك و بينه و تجاوزت حدك لا بد من أحد من خلقه ، تأديبا لك ، أنت إذا خفت من ا خافك كل شيء ، و إن لم تخف من ا أخافك من كل شيء ،

فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم

مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥

[سورة آل عمران]

فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ

[سورة المائدة]

أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ

[سورة التوبة]

وَإِيَّـٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠

[سورة البقرة]

هناك علاقات بالقلب رائعة ، علاقات ، هناك علاقـة طرديـة وعكسـية ، العلاقـة الطردية ، إذا زاد (أ) زاد الباء ، هذه علاقة طردية ، والعلاقـة العكسـية إذا الأِلـف زادت نقصت (ب) ، نأتي بمثل نقطتان نقطة بينهما، فإذا اتجهت بهذه النقطة إلى اليمين إذا قلّت هذه المسافة ، بالمقابل زادت هذه المسافة عن اليسار، إن اتجهت بها إلى اليسـار فقلـت مسـافة اليسار زادت مسافة اليمين ، هذه اسمها علاقة عكسية ، أما العلاقة الطردية كلما ارتفعت نسبة

الملح في الطعام ارتفعت نسبة الضغط ، علاقة الضغط مع الملح علاقة طردية ، كلما زدت من الملح ارتفع ضغطك ، و كلما قللت من الملح انخفض ضغطك ، هذه علاقة طردية ، يبدو أن بين بعض الصفات و بين نتائجها علاقة عكسية ، إذا افتقرت إلى ا أصبحت غنيا إذا خفت من ا أصبحت آمنا ، إذا أعلنت جهلك أمام ا أصبحت عالما، إذا تبرأت ممن حولك أصبحت محفوظا من ا عزوجل ، ا عزوجل أكثر الصفات معه علاقة عكسية كلما ازددت تواضعا زادك عزاً ، كلما ازدد افتقارا له زادك قوة ، لذلك قال بعض العارفين :

وما لي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع

الصدق أيضا من عبادات القلب ، قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

[سورة التوبة]

و المحبة أيضا من عبادات القلب ، لذلك قال سيدنا عمر :" تعاهد قلبك "

الرضا جاء في القرآن مدح أهله و الثناء عليهم ، و في الحديث المعروف عن النبي صلى ا عليه و سلم : **إن استطعت أن تعمل الرضا مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن مع الصبر على ما تكرهه النفس خيرا كثيرا** ، ورد أيضا في الأثر : " إذا أحببت عبدي ابتليته ، فإذا صبر اجتبيته ، وإذا شكر اقتنيته " أب يؤدب ابنه و بعد هذا التأديب يأتي ابنه و يقبل يد أبيه ، يقول له : جزاك ا خيرا عن هذا التأديب ، هذا هو الولد البار وهو نادر من أندر الأولاد ، كيف المؤمن يسوق ا له المصيبة و قد تؤلمه ، لكنه في سجوده يقول : يا ربي لك الحمد ، على ما ألم بي من مصيبة ، فهو ضمن العناية المشددة ، انظر إلى طبيب وجد مع إنسان التهاب معدة حادا ، يعطيه تعليمات شديدة ، و إذا وجد معه ورماً خبيثاً منتشراً يتساهل معه ، يقول له: كل ما شئت ، لما ربنا يؤدبك معنى ذلك أنت داخل بالعناية المشددة ، لما ربنا يهملك معناه المرض خطير جدا ، وبعبارة أخرى إذا ا عزوجل ساق لك مصيبة فهذه محض رحمة منه ، محض اهتمام ، لذلك الصحابة الكرام يشكرون ا على المصيبة يا ربي لك الحمد ، قال الشاعر :

لئن ساءني إن نلتني بمساءة فقد سرني أني خطرتُ ببالك

معنى أني ضمن اهتمامك يا ربي ، هذه حالة نفسية عالية جدا .

الرضا أعلى مرتبة من عبادات ا ، و أسوأ مرتبة من حالات القلب أن تسخط على ا عز وجل ، الصبر من دون رضا بينهما ، أعلى شيء الرضا ، و أسفل شيء السخط ، و بينهما الصبر من دون رضا .

هناك أناس أشكل عليهم العلاقة بين الرضا و بين الألم ، قد تتألم وأنت راض عن ا

، تماما كما أن المريض الذي يشرب الدواء المر وهو راض عنه ، لأنه سبب صحته ، كمـا أن المسلم يصوم رمضان في أيام الصيف وهو يعطش عطشا لا حدود له ، و يجـوع جوعـا شديدا ، و مع ذلك راض عن ا في هذا الصيام ، لذلك الألم لا يتناقض مع الرضـا ، هـذه ناحية مهمة جدا .

ينبغي أن ترضى عن قضاء ا و قدره و ينبغي أن ترضى عن أمـره التشـريعي ، الصلات ينبغي أن ترضى بهذه الفريضة ، الصوم والحج و الزكاة ، لو فيها ازدحام ولو فيها حر و لو فيها إنفاق ، فينبغي أن ترضى عن أمره التكليفي و ينبغي أن ترضـى عـن أمـره التكويني ، الرضا هنا نوعان ، عن قضاء ا وقدره ، و أن ترضىعن أمره التكليفي .

ثم إن الخشوع في الصلاة من عبادات القلب ، الخضوع في الصلاة ، عَن عَبد الله بن عَنَمَةَ قَالَ رَأَيتُ عَمارَ بنَ يَاسرٍ دَخَلَ الْمَسجِدَ فَصَلى فَأَخَف الصلَاةَ قَالَ فَلَما خَرَجَ قُمـتُ إِلَيـه فَقُلْتُ يَا أَبا الْيَقْظَانِ لَقَد خَفَفْتَ قَالَ فَهَلْ رَأَيتَني انْتَقَصتُ من حدودهَا شَيئًا قُلْتُ لَـا قَـالَ فَـإِني بَادَرتُ بِهَا سَهوَةَ الشيطَانِ سَمعتُ رَسولَ الله صَلى الله عَلَيه وَسَلَمَ يَقُـولُ **إِن الْعبـد ليصـلي الصلَاةَ ما يكْتَب له منْها إِلا عشْرها تُسعها ثُمنُها سبعها سدسها خُمسها ربعها ثُلُثُها نصـفُها**

*

[رواه أحمد]

وقم فصل فإنك لم تصل .

الآن وقفة سريعة عند معاصي القلب ، تحدثنا عن عبادات القلب ، و الآن الحديث عن معاصي القلب ، الرياء ، الكبر و العجب و الحسد و الغفلة والنفاق ، الفخر و القنـوط مـن رحمة ا ، و اليأس من روح ا و الأمن من مكر ا و الفرح و السرور بأذى المسلمين ، و الشماتة بمصيبتهم ، ومحبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا و حسدهم على ما آتاهم ا مـن فضله ، و تمنى زوال ذلك عنهم وتوابع هذه الأمور ، شيء خطير ، هي من كبـائر القلـب وهي كبائر مهلكة

و عندنا كبائر ظاهرة ، الباطنة مهلكة ، الكبائر الظاهرة يمكن أن يتوب الإنسان منها ، أما الكبائر الباطنة مستحكمة .

الآن صغائر المحرمات ، شهوة المحرمات و تمنيها ، ما فعلها ، لكن يتمناهـا ، هذه معصية القلب ، شهوة البدعة فسق ، شهوة الكبائر معصية، إن تركها مع القـ ـ ـدرة عليهـا أثيب ، و إن تركها عجزا بعد بذله مقدوره لتحصيلها استحق عقوبة فاعلها .

هذه بعض عبادات القلب و بعض المعاصي الكبيرة منها والصغيرة المتعلقة بالقلـب ، سـيدنا عمر كان يقول : " تعاهد قلبك

يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ
﴿٨٩﴾

[سورة الشعراء]

و الحمد رب العالمين .

الدرس ٩٣ ـ عبادة السمع .

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثالث و التسعين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والموضوع متعلق بالعبادة ، و العبادة علّة وجودنـا علـى وجـه الأرض ، لقوله تعالى :

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

(سورة الذاريات) .

و العبادة عند العـ ـوام ضيقة جدا ، أن تصلي و أن تصوم و أن تحج ، وأن تـ ـؤدي الزكاة ، أما العبادة عند المؤمنين الصادقين تشمل كل شيء ، تشمل كل الأوقات ، وتشمل كل الأماكن ، و تشمل كل النشاطات ، و كل الأعضاء ، فكيانك بكل جزئياته متعـ ـلق بالعبـ ـادة ، فالقلب له عبادة ، و العين لها عبادة والأذن لها عبادة ، و اللسان له عبادة ، و اليد لها عبادة ، و الرجل لها عبادة ، بل إن الإنسان حينما يفعل شيئاً أباحه ا له ، يفعله في موضعه و مع الشيء الذي سمح ا به هو في عبادة ، حينما نفهم العبادة فهماً واسعاً نكون في المستوى الذي أراده ا لنا ، أرأيتم إلى النبي عليه الصلاة و السلام وهو في أقرب حالة مع ا قال تعالى

فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾

(سورة النجم) .

أيها الإنسان تبلغ أعلى درجة الرقي حينما تكـ ـون عبداً ، لأن الرب رب و العبد عبد ، العبد يغتني بافتقاره إلى ا و يقوى بإعلان ضعفه ، ويعلم بالشعور أنه لا يعلم ، لأنـ ـك مفتقر إلى ا ، تأتيك الإمدادت من ا عزوجل ، لو أننا وقفنا وقفة قصيرة عند عبادة الأذن ، قال : من أولى عبادات الأذن الإنصاتُ للحق ، أن تصغي ، و الإصغاء عنـ ـد ا عزوجـ ـل السماع الذي يعقبه التطبيق ، و الدليل قول ا عزوجل :

إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ

(سورة التحريم) .

علامة الإصغاء أن يترجم الذي سمعتَه إلى سلوك ، و إلا فليس هذا عند ا إصغاءً ، لقوله تعالى:

وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾

(سورة الأنفال) .

تسمع أنت حينما تستجيب ، و تُسمى عند ا سامعاً حينما تفعل ، حينمـا تتحـرك ، والإيمان حركة ليس في الإيمان سكون ، الإيمان إيجاب ، ليس في الإيمان سـلب ، الحالـة السلبية ، الانسحاب ، و الإنزواء و التقوقع ، هذه كلها صفات لا يقرها الإيمـان ، الإيمـان حركة ، ما أن تستقر حقيقة الإيمان في نفس المؤمن حتى تُعبر عن ذاتها بـذاتها ، بحركـة ، الإيمان وقوف ، والإيمان خروج من البيت ، الإيمان مساعدة ، الإيمان نصح ، الإيمان دعوة ، الإيمان أمر بالمعروف ،الإيمان نهي عن المنكر ، أما الوضـع السـلبي و الانهزامـي ، و انسحب ، وتقوقع ، و لم يفعل شيئا ، هذا ليس من صفاء المؤمن ، لذلك مـن عبـادات الأذن الإنصات إلى الحق ، و أنت في درس العلم في عبادة ، لأنك تتلقى العلم ، و التلقي عبادة من أجل العبادات ، لأنك إن أردتَ الدنيا فعليك بالعلمِ ، وإن أردتَ الآخرة فعليـك بـالعلم ، و إن أردتَهما معا فعليك بالعلم ، إن أردت النجاة فعليك بالعلم ، و إن أردت السلامة فعليك بـالعلم ، وإن أردت السعادة فعليك بالعلم ، أنت مخلوق ميزه ا ُ بالعلم ، ما من مخلـوق فـي عـالَم الأرض إلا و يفوق الإنسان ، الحوت الأزرق وزنه مائة و خمسون طناً ، أنت مـا وزنـك ؟ أعلم علماء الأرض الذي معه أعلى شهادة في الزلازل لا يمكن أن يتنبأ الزلزال قبل وقوعه و لا بثانية ، أما الحمار فيتنبأ بالزلزال قبل وقوعه بخمسة عشر دقيقة للكلاب حاسة شم تفوق شم الإنسان بمليون ضعف ، الصقر يرى ثمانية أضعاف ما يراه الإنسان ، الصقر وهو في علياء السماء يرى السمكة تحت الماء ، وينقض عليها ، هناك حيوانات تبلغ سرعتها مائة وخمسـة وعشرين كيلو متراً في الساعة ، في أعماق المياه تعيش أسماك في خليج مريانة ، هذا أعمق مكان في الأرض ، اثنا عشر ألف متر تحت سطح الماء ، خليج مريانة في المحيط الهـادي ، غواصة مبنية من الفلاذ المصفح بعد مئتي متر تُحطم من ضغط الماء ، وهذه السمكة تمشـي وتسبح في خليج مريانة ، ما من صفة مركبة في الإنسان إلا و في الحيوان ما يزيد عليهـا ، طب أسنان متفوق ، هناك حيوانات إذا فسد أحد أسنانها نما مكانه سن جديد ، أين هـو طـب الأسنان ؟ هناك حيوان لو قطعت يده لنمت له يد جديدة ، هذا فوق طاقة البشر ، هناك نـوع من الديدان لو قسمتها قسمين ينمو برأسها ذنَب ولذنَبها رأس .

إذًا أنت كائن ميزتك الوحيدة العلم ، العلم هي الحاجة العليا في الإنسان، أنت تؤكـد أنـك إنسان إذا طلبت العلم ، فإذا عزفت عن العلم تؤكد أنك لست من بني البشر ، و مشكلة النـاس اليوم أنهم يعيشون لحظتهم ويعيشون وقتهم من دون أن يدركوا ما سيكون بعدها ، الإنصات

، الإصغاء عند ا هو التطبيق ، السماع و التطبيق ، أما سماع بلا تطبيق فلا يكون ، واليهود ماذا قالوا ؟ قالوا سمعنا و عصينا ، أما المؤمنون قالوا سمعنا و أطعنا ، فالطاعة تؤكد سلامة السماع .

أيضا الاستماع لما أوجبه ا و رسوله عليك ، أن تستمع إلى الشهادتين ، أن تستمع إلـى أركان الإيمان و أركان الإسلام ، أن تستمع إلى تفسير القرآن ، أن تستمع إلى بيـان الحكـم الفقهي ، أن تستمع إلى سيرة سيد الأنام ، فهذه الأذن ينبغي أن تستمع إلـى الحـق ، لا إلـى الغناء ، و الغناء ينبت النفاق ، ورد في الأثر - عن أنس بن مالك أن النبي صلى ا عليه و سلم قال :

من استمع إلى قينة صب في أذنيه الآنك يوم القيامة *

(السيوط في الجامع الصغير) .

والآنك : الرصاص المذاب .

استماع القراءة في الصلاة ، إذا جهـر بها الإمام ، هذه من عبادات الأذن ، واسـتماع خطبة الجمعة هناك إنسان أحيانا يجلس في خطبة جمعة و لا يفهم شيئا ، خاطـره يجـول في تجارته ، في بيته ، في نزهته، في جمع ماله ، يقول لك : وا ما فهمت شيئا ، لكـن ا عزوجل كتبها لي جمعة ، لما ربنا عزوجل قال :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ

(سورة الجمعة) .

قال علماء التفسير : ذكر ا سماع الخطبة :

فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ

ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ

(سورة الجمعة) .

قال : الاستماع إلى خطبة الجمعة ، استماع القراءة إذا جهر بها الإمام، الاستماع إلـى أركان الإيمان و أركان الإسلام ، الاستماع لما أوجبه ا عزوجل ، الإنصات للحـق ، هـذا أدب عظيم ، أحياناً تكون في جلسة و المتكلم يتلو قصة تعرفها ، الأدب أن تصغي ، و لو أنك تعرفها ، لأنه كان عليه الصلاة و السلام يصغي لمحدثه ، و هذا من أدبـه العـالي ، فتـراه يصغي للحديث بسمعه و قلبه و لعله أدرى به ، هذه القصة ينتفع بها طالب علم جديد ، تعلمها

أنت وغيرك لا يعلمها ، إذا تكلمت يتكلم معك ، يقول هذه أعرفها ، تحكي كلمة فيكملها ، هذا من سوء الأدب .

يحرم استماع الكفر و البدع ، مجلس يقال فيه كفر ، يحرم عليك أن تجلـس فـي هـذا المجلس ، قال : إلا هناك استثناءات ، لأن الإنسان يجب ألا يمكن نفسه من سماع الكفر ، لعله في ضعف فيتمكن ، قال الشاعر :

عرفتُ هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا فارغا فتمكنا

لذلك حينمـا يجرون حوارا في بعض المحطات الفضائية يأتون بملحِد و رجل مسـلم و يتحاوران ويكادان يتجاذبان ويختصمان ، قال : هذا خطا كبير ما فعله النبـي ، ذلـك لأن كلام الملحد و حججه قد تصادف قلباً فارغاً فتتمكن منه ، أنـت مسـتحيل كـأب أن تسـمح لأولادك يشاهدون مناظر إباحية، من أجل أن يحتاطوا ، قد يقعون في شراك هذه المنـاظر ، فكما أنك لا ترضى لأولادك أن يشاهدوا شيئا يفسد أخلاقهم، كذلك لا يمكن أن نسمح لطالـب علم شرعي أن يشاهد شيئا يفسد عقيدته ، قال : هناك استثناء إلا أن يكـون فـي اسـتماعه مصلحة راجحة ، إذا إنسان إيمانه قوي جدا إذا استمع إلى الباطل بحث عن رد له ، بحث عن حجة تدحضه ، فحينما يستمع إنسان متفوق ، إلى بدعة ، إلى مذهب وضعي ، إلى فرية إلى تزوير على ا عزوجل ، إلى افتراء على ا و على رسوله ، عنده ألف دليل و دليل علـى بطلان هذا فقد يستمع العلماء الكبار ليردوا عليهم أو ليشهدوا على قائلهم ، أو ليزدادوا إيمانـا مع إيمانهم ، لأنه بضدها تتميز الأشياء ، معنى ذلك أن الإنسان قبل أن يقوى ينبغي أن يكون في حمية ، أما بعد أن يقوى نقول له : أنت وربك ، يعني وا ُ أعلم الإنسـان فـي البـدايات ينبغي أن يكون له مرجعية واحدة ، أو تغذية واحدة أو منبع واحد، أو اتجاه واحد ، أو جـامع واحد ، السبب لا يوجد عنده في البدايات قدرة على التمييز ، فلو نوع المصادر سيفاجأ بما هو متناقض بين مكان و مكان و فئة و فئة ، قد يحتار ، الآن ائت بمريض ذهب إلى طبيب فقال له : أنت دواؤك الراحة ، اذهب إلى الفراش و استلق ، معه بوادر أزمة قلبية ، لو ذهب هـذا المريض إلى طبيب آخر درس في جامعة أخرى يقول له : المشي ضروري جدا لك ، المشي يقوي القلب، تمزق المريض ، فماذا يفعل ؟ يحتار ، أما لو اكتفى بطبيب موثـوق بعلمـه و بخبرته ، و حافظ على توحيد التوجيه يرتاح ، أنا أنصح الإخوة الكـرام طـلاب العلـم فـي البدايات أن يحافظوا على وحدة منهجهم ، و على وحدة التلقي ، و على وحدة المصدر حتى لا يكون هناك تناقضات توقعهم في حيرة ولا يملكون الدليل على أيها أرجح ، فلذلك يمكـن أن تستمع إلى بدعة أو إلى كلام مناقض للشرع و الدين دون أن تتأثر ، بالعكس تحتقره ، بالعكس تجد تناقضه ، و تجد صفاقته ، و تجد أنه هزيل غير متماسك ، معك على نقيضه ألف دليل و

دليل ، أما طالب علم عوده رقيق ، إدراكه ضعيف و حجته ليست قوية ، قد يستمع إلى كـلام يلقيه كافر أو ملحد أو منحرف فيقنع به .

لو عرفت هذه الحقيقة لأنقذت مسلماً ، أو نصحت مسلماً ، فالأصل ينبغي أن تستمع إلـى القرآن وإلى السنة وإلى السيرة و إلى الفقه و إلى موجبات الإيمان و إلى موجبات الإسـلام ، لكن محظر عليك أن تستمع إلى الكفر و البدعة و الشرك و ما إلى ذلك ، إلا أن تكون هنـاك مصلحة راجحة .

يحرم الاستماع إلى صوت النساء الأجنبيات ، و لا سيما إذا خضعن بالقول ، قال تعالى :

فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ

فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾

(سورة الأحزاب) .

فالمرأة إذا تكلمت كلاما معروفا جادا يمكن أن تستمع إليها ، مـن وراء حجـاب ، و الهاتف حجاب أما حينما تلين كلامها ، و تخضع بالقول ، سماع صوت هذه المـرأة أصـبح محرماً ، و لا سيما إن لم تكن هناك حاجة إلى سماع صوتها ، لذلك علمنا ا ، فقال تعالى :

قَالَ مَا خَطْبُكُمَا

(سورة القصص) .

سيدنا موسى تكلم كلمة مختصرة جامعة مانعة لا تحتاج إلى تفاصيل

قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ

وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾

(سورة القصص) .

لو أنهما قالتا : لا نسقي حتى يصـدر الرعاء ، لماذا تقول له : و أبونا شيخ كبيـر ، صار هناك حوارا ، فالأولى أن تلقي كلاما لا يحتاج إلى مناقشة ، فالاسـتماع إلـى صـوت المرأة إذا خشي السامع الفتنة ينبغي أن لا يسمع هذا الصوت إلا لحاجة ماسـة ، و الصـوت ليس فيه تكسرو لا خضوع بالقول ، كشهادة أو ما إلى ذلك ، الطبيب مـثلا لا بـد أن يسـأل المرأة : ما الألم الذي تشكين منه ، والمحامي يسأل : ما الموضوع ، و القاضـي يسـأل ، والطبيب و المحامي ، و البائع : ماذا تريدين ؟ لكن في الأعم الأغلب حينمـا يكـون الكـلام

واضحاً بنبرة جادة ليس معه خضوع و لا تكسر ، هذا كلام لا يفتن، قال : و كذلك اسـتماع المعازف ، وآلات الطرب و اللهو كالعود و الطنبور ونحوهما ، أي سماع الموسيقى ، و هذا محرم ، لكن كأن النبي عليه الصلاة و السلام فرق بين السماع و الاستماع ، أنت مـاش فـي الطريق وهناك مقهى أو محل يبيع الأشرطة وتصدح مكبرات الصوت ببعض الأغنيات ،أنت سمعت هذه الأغنية و لكن لم يكن لك مشيئة في سماعها ، هذا هـو السـماع ، وأرجـو ا سبحانه و تعالى أن يعفو عن المؤمن في سماع ما لا يرضي ا ، أما حينما تجلس في البيـت و تأتي بشريط غناء ، و تضعه في المسجلة فهذا هو الاستماع المحرم ، عن أنس بن مالك أن النبي صلى ا عليه و سلم قال :

من استمع إلى قينة صب في أذنيه الآنك يوم القيامة *

(سورة السيوطي في الجامع الصغير) .

والآنك : الرصاص المذاب .

أحياناً يذهب الإنسان في مركبة عامة إلى بلد آخر ، هكذا ، وهو مضـطر أن يسـمع الأغاني لأنه لا يملك تغييراً لهذا الواقع ، هذا سماع ، أما الاستماع فهو المحرم ، أن تجلس و تستمع .

هناك رأي لطيف ، لو خشي الإنسان الفتنة من سماع هذا النغم أو تلك الأغنية الأولى أن يسد أذنيه هذا رأي ، إذا كانت أغنية يحبها في الجاهلية كثيراً ، ثم تاب إلى ا توبة نصوحاً فلما سمعها بعد أن تاب إلى ا تحركت نفسه الأولى أن يتشاغل عنها ، أو كما قال ابن القـيم رحمه ا تعالى : أن يسد أذنيه ، أي يحتاط بقليل من القطن ، وفي الحقيقة قالوا : يجب سـد الذريعة ، لم يقل سد الاذن ، سد الذريعة ، أي يتحول من المكان إلى مكان آخر ،والاسـتماع مستحب أن تستمع إلى العلم و إلى قراءة القرآن، و إلى ذكر ا عز وجل ، و إلى الاسـتماع إلى كل ما يحبه ا و رسوله.

هناك نقطة دقيقة ؛ أحيانا هناك منشد يبتهل إلى ا عزوجل بكلام طيب وصوت شـجي ، لا مانع ، لكن كنت أقول مرة : إن في الإرشاد إنشاداً ، و إن في الإنشاد إرشاداً ، الإنسان حينما يستمع إلى الحقيقة وتأتي في مكانها الصحيح و في وقتها المناسب ، و تكون هذه الحقيقة شفاء له ودواء يطرب له ، أحيانا يكون هناك تساهل ، هناك مشكلة ، تأتي الآية و يـأتي الحـديث يوضح ، فيطرب الإنسان لحقيقة هو مفتقر إليها ، أما حينما يستمع ابتهالاً و مـديحاً جـل جلاله أو لأنبيائه يطرب ، لأن المؤمن يطرب للمعنى ، مرة ضربت مثلا ، قد تشرب شـرابا نفيسا جدا في كأس غالٍ جداً ، فإذا جمعت بين نفاسة الشراب وجمـال الإنـاء فقـد جمعـت الحسنيين ، الإنسان الذي يتكلم الحق بلغة فصيحة ، بعبارة أدبية ، بتعبير متين ، بإشراق فـي التعبير ، جمع الحسنيين ، عمق المضمون و جمال الأسلوب ، مثلاً ؛ واحد أصيب بمصـائب

كثيرة ، قد يقول : تكاثرت علي المصائب ، هذا تعبير علمي ، لكن من غير جمال ، أما لـو كان بعيداً عن الثقافة يقول لك : " تُضرب هذه المعيشة " هذا التعبير العامي ساقط ، التعبيـر السليم ، تكاثرت علي المصائب ، أما هناك تعبير أدبي ، يقول المتنبي :

***

بلاني الدهر بالأرزاء حتـى فؤادي من غشاء من نبـال
فصرتُ إذا أصابتني سـهام تكسرت النصالُ على النصال

شبه المصائب بسهام مجتمعة على قلبه ، اجتمعت لدرجة أنه لم يبق هناك مكان لسهم جديد ، مرة الشاعر نفسه قال يصف الحمى ، قال :

***

و زائرة كأن بها حيـ ـ ـاءً فليس تزور إلا في الظ ـ ـلام
بذلت لها المطارفَ والحشايا فعافتها وباتت في عظام ـ ـي
أبنتَ الدهر عندي كل بنـ ـت فكيف وصلتِ أنتِ من الزحام

المصيبة هي بنت الدهر ، الدهر يلد المصائب ،

أبنتَ الدهر عندي كل بنـ ـت فكيف وصلتِ أنتِ من الزحام

فهنا تعبير أدبي ، سمعت صوتاً سيئاً ، تقول : هذا المغني سيئ الصوت ، هذا تعبير عـادي ، أما شاعر ساخر كالحطيئة قال :

عواء كلبٍ على أوتار منتفة وقبح قرد و في استكبار هامان
وتحسب العين فكيه إذا اختلفا عند التنغم فكي بغل طـ ـحان

أي أعطى صورة معبرة تماما ، فالأدب هو التعبير المثير عن حقائق الحياة، تعبير عالٍ جدا ، فأنت حينما تلقي الحقّ بأسلوب أدبي هذا أكمل شيء ، المضمون حقّ ، و الشكل أدب ، أمـا حينما تلقي الحق بلغة عامية كأن تقدم شرابا نفيسا بإناء غير مقبول أبداً ، و أحيانا تجد أديبـاً بعيداً عن الدين بعد الأرض من السماء ، عنده قدرة تعبيرية عالية ، و لكن أفكاره منحطة جداً ، يقول المتنبي :

أي محل أرتقي وأي عظيم أتقي
وكل ما قد خلق ا و ما لم يخلق
محتقر في هبتي كشعرة في مطرفي

موزونة لكن المعنى كفر ، البطولة أن تأتي بمعانٍ صحيحة و دقيقة وعميقة بأسلوب أدبي راق ، الأقل من ذلك أن تأتي بمعانٍ صحيحة ودقيقة و عميقة بأسلوب بسيط علمي ، أما أن تـأتي بمعانٍ ساقطة مهما ارتفع الأسلوب لا قيمة له ، و الدليل قول ا عزوجل :

وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ
﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾

(سورة الشعراء) .

و القصة الشهيرة أن المتنبي حينما قال :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعتْ كلماتي من به صمـــم

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلقُ جراها ويختصـــم

فالخيل والليل والبيداء تعرفنـي والسيف والرمح والقرطاس والقلم

كان في طريقه من شيراز إلى الكوفة أو بالعكس ، هجم عليه بعـض أعدائـه فـولى هارباً ، فقال له غلامه : ألست القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفنـي والسيف والرمح والقرطاس والقلم

قال له : قتلتني قتلك ا ، فعاد و قاتل حتى قُتل ، قتل في الطريق ، لأن الكلام سهل جداً البطولة أن تكون في مستوى الكلام ، فلذلك أيها الإخوة السماع المستحب أن تستمع إلى العلم ، وقراءة القرآن ، وذكر ا ، و أن تستمع إلى كل ما يحبه ا ، و السماع المكـــروه أن تستمع إلى ما يكره و لا يعاقب عليه ، اما أن تستمع إلى البدع و إلى الغنـاء و إلـى مـا يغضب ا ، فهذا السماع المحرم ، هذه الأذن سوف تُسأل عنها ، قال تعالى :

إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ
كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

(سورة الإسراء) .

ومعنى الفؤاد هنا الفكر ، العقل ، أحياناً الإنسان يفكر تفكيراً شيطانياً ، أحيانـاً يفكـر تفكيراً لإيقاع الأذى بالناس ، قال تعالى

ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ

(سورة الإسراء) .

"إذا جاء الفؤاد مع السمع و البصر فهو العقل و الفكر :

كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ

كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾

(سورة الإسراء) .

الأنبياء صلوات ا   عليهم ، بماذا جاؤوا ؟ جاؤوا بكلمـ ـة الحق ، فمعنـى ذلـك أن إلقاء الكلمـة والاستماع إلى الكلمة أحد وسائل الهدى .

هناك تكامل بين اللسان و الأذن ، اللسان ينطق ، والأذن تستمع ، **سيدنا معـاذ قـالَ كُنْتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفَرٍ فأَصبحتُ يوما قَريبا منْه ونَحن نَسير فقُلْتُ يـا رسولَ الله أَخْبِرني بِعملٍ يدخلُني الْجنةَ ويباعدني عن النارِ قَالَ : لقَد سأَلْتني عن عظيمٍ وإِنه ليسير على من يسره الله عليه تَعبد الله ولا تُشْرِك بِه شَيئًا وتُقيم الصلاةَ وتُـؤْتي الزكَـاةَ وتَصوم رمضان وتَحج البيتَ ، ثُم قَالَ : أَلا أَدلك على أَبوابِ الْخَيرِ الصوم جنـةٌ والصـدقَةُ تُطْفئُ الْخَطيئَةَ كَما يطْفئُ الْماء النار وصلاةُ الرجل من جوف الليل قَالَ ثُم تلا تَتَجافَى جنُوبهم عن الْمضاجِعِ حتى بلَغَ يعملُون ثُم قَـ ـ ـالَ : أَلا أُخْبِرك بِرأْسِ الأَمرِ كُلِّـه وعمـوده وذروة سنَامه ، قُلْتُ : بلَى يا رسولَ الله ، قَالَ : رأْس الأَمرِ الإِسلام وعمـ ـ ـُوده الصـلاةُ وذروةُ سنَامه الْجِهاد ، ثُم قَالَ : أَلا أُخْبِرك بِملاك ذَلك كُله ، قُلْتُ : بلَى يا نَبِي الله ، فَأَخَذَ بِلسـانه قَالَ : كُف عليك هذَا ، فَقُلْتُ : يا نَبِي الله وإِنا لمؤَاخَذُون بِما نَتَكَلم بِه ، فَقَالَ : ثَكلَتْك أُمك يا معاذُ وهلْ يكُب الناس في النارِ على وجوههم أَو على منَاخرِهم إِلا حصائِد أَلْسنَتهِم ***

(رواه الترمذي) .

لا أبالغ إذا قلت : نصف المعاصي سببها اللسان ، الغيبـ ـة و النميمـة ، و البهتان ، و السخرية والاستهزاء و الكفر والنفاق ، والشرك ، كلها من فعل اللسان ، حتى العلماء قالوا : هناك كفر اعتقادي وهناك كفر قولي ، وهناك كفر عملي ، لو أن واحدا - و العياذ با   - أمسك المصحف و ألقاه في الأرض هذا كفر ، لم يقل و لا كلمة ، لكن هذا السلوك كفر ، لو أن إنسانا اعتقد أن ا   ليس على كل شيء قدير هذا كفر اعتقادي ، لو قال كلمة الكفر فهـذا كفر قولي ، أحد المنافقين قال مرة بينه و بين زوجته على مسمع من طفل صـغير : لـو أن محمدا صادقا فيما يقول لكنا شرا من الحمر، و لكنه كما يتوهم ليس صادقا هذا الطفل قال له : هذه كلمة الكفر وذكر الطفل الحادثة للنبي عليه الصلاة و السلام ، فهناك كفر قـولي وكفـر اعتقادي ، و كفر سلوكي ، فهذا اللسان قد ينطق بالكفر ، و قد ينطق بالشرك ، و قـد ينطـق بالبدعة و قد يحض على كبيرة ، و قد يسهل معصية ، وقد يرغب في الدنيا ، و قد يثير فتنة ، و قد يلقي شبهة   قد يدحض حقا ، و قد يزين باطلا ، شيء مخيف .

إذًا اللسان و الأذن متكاملتان ، و قد ورد أيضًا عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ قالَ قـَالَ رسـولُ اللهِ صلى الله عليهِ وسلم :

لا يستَقيم إيمان عبدٍ حتى يستَقيم قلبه ولا يستَقيم قلبه حتى يستَقيم لِسانُه ولا يدخُلُ رجلٌ الجنةَ لا يأمن جاره بوائِقَه *

(رواه أحمد) .

لا بد من أن يستقيم اللسان ، لا بد من أن يصدق اللسان ، لا بد من أن ينضبط اللسان ، الدين كله ضبط ، عن أَبِي هريرةَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليهِ وسلم :

إن الرجلَ ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوي بها سبعين خَرِيفًا في النار*

(رواه الترمذي) .

كلمة واحدة ، و لعلها إشارة تحبط عملك .

ضبط اللسان ، قبل أن تتكلم بالكلمة تريث ، قبل أن تفسد علاقة بين اثنـين تمهـل ، لا تخبب امرأة على زوجها ، وهو يحبها و تحبه ، وراضية عنه ، لا تكن شـيطاناً يـتكلم ، و النساء أكثرهن شيطانة تفسد علاقة المرأة بزوجها ، أحيانا الإنسان يخبب عبدا على مـولاه ، يخبب امرأة على زوجها، يفسد العلاقة بين اثنين ، يلقي شبهة ، يثير قضية ، يدحض حقـا ، ويزين باطلاً .

فاللسان اداة خطيرة جداً ، و الإنسان بكلمة يسقط ، و بكلمة يرقى ، الأنبيـاء جـاؤوا بكلمة الحق ، والملحدون و الكفار جاؤوا بكلمة الباطل ، قال تعالى :

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

(سورة إبراهيم) .

فكلمة الحق تطير في الآفاق و تؤتي أكلها كل حين ، و كلمة الباطل ما لها من أصل ، و ما لها من قرار ، لكن صاحبها يهوي بها إلى سبعين خريفا في النار .

يجب أن نعلم علم اليقين أن كل عضو من أعضائنا و أن كل حاسة من حواسنا و أن كل جهاز من أجهزتنا يمكن أن نعبد ا ً به ، و العبادة شاملة واسعة لكل أعضائنا و أجهزتنـا ، و كل أوقاتنا و أمكنتنا وكل نشاطاتنا وأفعالنا .

والحمد رب العالمين .

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام :

مع الدرس الرابع والتسعين ، من دروس مدراج السالكين في منازل إياك نعبد وإيـاك نستعين العبادات تشمل كل الحياة ، وكل الأوقات ، وكل الأماكن ، وكل النشـاطات ، وكـل النواحي فكيان الإنسان مرتبطٌ بالعبادة ، لأن علة وجود الإنسان على وجه الأرض عبادة ا عز وجل ، والعبادة معرفة وطاعة ، أنت إن فكرت في خلـ ـق السماوات والأرض عرفته ، وإن عرفت منهجه أطعته فيمكن أن يلخص الدين كله في كلمتين: معرفته وطاعته ، توحيده وعبادته ، أن تؤمن به وأن تتقرب منه .

الحديث الآن عن النظر ، قلت النظر الواجب النظر في المصحف وفي كُتُب العلـم ، فهذه العين سميت (كريمة) لعلها أكرم عضوٍ في الإنسان، وأية عينٍ تغض عن محارم ا ، أو تنظر إلى آيات ا ، ففي الأعم الأغلب أن ا يحفظها لك ، وترثك ولا ترثها ، ومن أدعية النبي عليه الصلاة والسلام :

" ومتعنا اللهم بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا "

(الأذكار النووية)

ترثنا ولا نرثها ، عين غضت عن محارم ا ، وعين حرست في سبيل ا ، وعـين بكت من خشية ا ، هذه العين في الأعم الأغلب ا جل جلاله يحفظها للمؤمن .

هذه العبادة أو هذه الجارحة الثمينة أحد أنواع شكرها أن تستخدمها في طاعة ا . لو وسعنا هذه الحقيقة : اليد ينبغي أن تستخدمها في طاعة ا فلا تصافح بها امرأةً لا تحل لك ، ولا تمسك بها شيئاً محرماً ، ولا تعتدي بها على الآخرين ، فالمؤمن يستخدم رجله في طاعـة ا ؛ يمشي بها إلى المساجد ، وإلى الطاعات ، وإلى إصلاح ذات البيـ ـن ، وإلـى صـلة الرحـ ـم ، وإلى كل عملٍ طيب المؤمن يستخدم كل أعضائه ، بـل إن المـؤمن يسـتخدم تفكيره في الخير ، لا يفكر في معصية ، لا يفكر في عدوان ، فالمؤمن يستخدم فكره ، وعينه ، وسمعه ، وبصره ، ولسانه ، ويده، ورجله في الحق .

إذاً ، أحد أنواع الشكر أن تستخدم هذه الجارحة في طاعة ا تعالى، بل إنـه حينمـا تستخدم الجارحة في معصية ا تعالى ، فهذا نوع من كفر النعمة ، تسـتعين بنعمـه علـى معصيته .

قصة رويتها لكم من قبل : أن إنساناً سأل شيخه أن يأذن لي أن يعصي ا . سـؤال

غريب جداً يبدو أن شهوته عارمة وأنه أضعف من أن يقف في وجه شهوته ، فسأل هذا الشيخ فقال له :

ـ خمسة أشياء إن فعلتها لا تضرك معصية .

ـ قال : وما هي ؟

ـ قال إن أردته أن تعصيه فلا تسكن أرضه .

ـ قال له : وأين أسكن إذاً ؟!

ـ قال له : تسكن أرضه وتعصيه ؟!!

فهل من المعقول أن تزور إنساناً يقدم لك كل ما يملك من حق الضيافة فتقابل عملـه بضرب ابنه ، في بيت المضيف ، في البيت الذي استقبلك وأكرمـك ، وقـدم لـك الطعـام والشراب ، تضرب ابنه؟!

ـ قال : هات الثانية .

ـ قال له : إن أردت أن تعصيه فلا تأكل من رزقه .

ـ قال : وماذا آكل إذاً ؟

ـ قال : تسكن أرضه ، وتأكل رزقه ، وتعصيه ؟!

فأحياناً إنسان أعطاه ا المال يشرب الخمر ، يشتري الخمر ، يعصي ا بالمال الذي أكرمه ا به .

ـ قال له : هات الثالثة .

ـ قال : إن أردت أن تعصيه فابحث عن مكانٍ لا يراك فيه .

ـ قال له : وكيف وهو مع الخلق كلهم ؟

ـ قال له : تسكن أرضه ، وتأكل رزقه ، وتعصيه وهو يراك ؟

ـ قال له هات الرابعة .

ـ قال له : إن جاءك ملك الموت فلا تذهب معه .

ـ قال له : لا أستطيع .

ـ أعاد له الأربعة : تسكن أرضه ، وتأكل رزقه ، وتعصيه ، ولا تستطيع أن تتفلت من ملك الموت ؟!!

ـ قال له : هات الخامسة .

ـ قال له : إن جاءك الزبانية إلى النار فلا تذهب معهم .

فالإنسان في قبضة ا عز وجل فكيف يعصيه .

قال يمكن أن تنظر إلى الشيء كي تميزه حلالٌ أو حرام ؟ والعلماء يبينـون تفاصـيل عبادة هذه الجارحة الثمينة ، الآية الكريمة المتعلقة بالأمانات :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾

(سورة النساء : من آية " ٥٨ ")

والآية واسعة جداً ، فالأمانة شيء أودع عندك ، شيء جعلَ تحت سيطرتك ، شـيء جعل في تصرفك ، ينبغي أن تؤديه إلى صاحبه كاملاً مكملاً ، لو وسعنا هذه الآية :

فجسمك أمانةٌ بين يديك ، عليك أن تعتني به ، كي يعينك على طاعة ا ، وكي تصل به إلى دار السلام بسلام ، أما الذي لا يعتني بجسمه ، أو يحمله ما لا يطيـ ـ ـق ، ويصـاب بالعطب والعطل عندئذ يكون قد خان الأمانة .

زوجتك أمانةٌ ، ينبغي أن تأخذ بيدها إلى ا عز وجل ، أولادك أمانـة ، ينبغـي أن تدلّهم على ا .

أنت معلم ، طلابك الذين هم في الصف أمانةٌ في عنقك ، ينبغـي أن تعلمهـم علمـاً صحيحاً ، وأن تربيهم تربية صالحة ، أنت طبيب ، فالمريض أمانة ، سلمك نفسه ، ووثق بك ، ويأتمر بأمرك : كل هذا الطعام تأكل ، اشرب هذا الدواء تشرب ، ابتعد عن هذا تبتعد ، إن لم تقدم له التعليمات الدقيقة ولم تتأكد من حالته الدقيقة ، وكان وصفك للدواء غير دقيـق ، فإذا أصاب جسمه العطب فأنت مسؤول. أنت حينما تشعر أن ا سيسألك عن كـل شـيء ، تنجح في علاقتك مع ا ، فالمريض أمانة .

أنت محامٍ ، الموكل أمانة لأنه لا يعرف القوانين ، أنت قلت له : الـدعوى رابحـة ، وهو قد صدقّك ، قلت له: القضية سهلة ، الحق معك ، والاجتهاد القانوني معـك ، ومحكمـة النقض معك فصدقك الموكل ، وتعلم أنت أنك لن تستطيع أن تأخذ له حقه ، أو هذه الـدعوة ليست رابحة ، وجعلته يعيش سنوات وسنوات في طمأنينة ، ثم فوجئ بأن القاضي حكم عليـه ، وخسر الدعوة ، فأنت خنت الأمانة ، إذا فهمنا الأمانة بهذا المعنى ، كنا في حال غير هـذا الحال .

صانع المواد الغذائية ، محاسب عن كل مادة ضارة تؤذي المسلمين، فكثير من الأشياء مربحة ولكنها مؤذية ، تحقق لك ربحاً كبيراً ، ولكنها تـؤذي صـحة المسـلمين ، فهـؤلاء المسلمون الذين يشترون من عندك الخبز ، هم أمانةٌ في أعناقك ، سمعت عـن خبـز معـين يحتاج إلى مادة ثمن الكيلو منها خمسة آلاف ليرة ، وهناك مادة مسـرطنة وسـامة ، وهـي رخيصة جداً تستخرج من النشاء ، وثمن الكيلوغرام منها أقل من خمس ليـرات ، فضـبطت بعض الأفران في دمشق تستعملها لأنها مادة رخيصة ، لكن من أجل أن يحقق ربح كبيـر ، وأن يوفر هذا المبلغ الكبير ، لم يعبأ بصحـ ـة الناس ، إذاًهؤلاء الذين يشترون عندك أمانة .

فالمرضى أمانة بعنق الطبيب ، والموكلون أمانة بعنق المحامي ، والطلاب أمانة بعنق المدرس وهذا الشاري أمانة بعنق هذا البائع ، قد يكون الدواء قد انتهى مفعوله ، وثمنه غالٍ ، ولم تنبه هذا الشاري الجاهل البسيط الساذج ، فبعت له الدواء ، وتناوله ، وقد انتهى مفعوله ، فالحقيقة الدين هنا يظهر ..

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا

(سورة النساء : من آية " ٥٨ ")

والعلماء قالوا : " **الأمانات** " جاءت جمعاً ، ليفيد الجمع أن الإنسان في عنقـه مئـات الأمانات وآلاف الأمانات .

سئل عليه الصلاة والسلام :

" ما الدين ؟ قال : الدين النصيحة . فقالوا : لمن يا رسول ا ؟ قال : ولكتابـه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " .

(الأذكار النووية)

فمن التعريفات الجامعة المانعة الدين هو النصيحة ، أن تنصح إنساناً، أن تنصح عامة المسلمين أن تنصح أئمتهم ، أن تنصح لكتاب ا ، أن تنصح لسنة رسول ا ، أن تنصـح عز وجل .

النظر المباح هو أن تنظر في آيات ا الدالة على عظمته ، قد تنظر إلى وردة فتسبح ا وقد تنظر إلى جبلٍ شامخ فتعظم ا ، وقد تنظر إلى بحرٍ هادئ فتسبح ا ، فالنظر إلى الآيات الكونية أحد أسباب تعظيم ا عز وجل ، والنظر إلى نبات يسبح ا ، تسبح ا معـه أنت ، النظر إلى من يحل لك أيضاً مباح ، وبالعكس هذا شيء أباحه ا لـك ، النظـر إلـى المصحف هذه عبادة ، النظر في كتب العلم .

قال : هناك نظـر مكروه ، وهو فضول النظر . كأن يرى إنسان مركبة فخمة جـداً حديثة ، واقفـة بمكان ما ، فيتأمل فيها ، وتنظر إلى مكان السائق ، وإلى أجهزتهـا ، تنظـر ملياً ، هذا اسمه فضول النظر ، وقد ورد في بعض الأثر : " أنه يبـذر الهـوى " . فالتأمـل والمبالغة في التأمل ، استيعاب الشيء والتدقيق به ، هذا يبذر في قلبـك محبتـه ، والإنسـان يعيش في حياته أياماً معدودات ، الإنسان بضعة أيام ؛ كلما انقضى يوم انقضى بضع منـه ، لذلك فضول النظر الذي لا مصلحة لك فيه .

انظر إلى شيء تنتفع بـه ، هذا سماه العلماء (فضول النظر) ، كما أن هناك فضول للكلام وهناك فضول للسماع ، فهناك فضول للنظر ، والنبي عليه الصلاة والسلام قال :

" من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه ".

(تخريج أحاديث الإحياء)

و ..

" طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ".

(مجمع الزوائد)

وفضول النظر طبع سيء ، ذات مرة زار شخص مكاناً ، فوجد كتاباً ففتحـه ، وجد أوراقاً داخل الكتاب فقلبها ، سبحان ا شعرت أن هذا الإنسان بعيد عـن أدب النبـي عليـه الصلاة والسلام الإنسان لا ينظر لشيء ليس له بهذا الفضول ، تمسك ورقة ، فتجـد رجـلاً بجوارك يقرأ معك ، تفتح أحياناً دفتراً وأنت راكب في سيارة ، جارك يمعن النظر في دفترك ، الكمبيوترات الحديثة فيها مستوى أعلى، إذا كنت في طائرة ، وتستخدم هذا الكمبيـوتر ، لا يقدر جارك في المقعد أن ينظر ، لأن الشاشة لا تظهر إلا بالنظرة القائمة على سطحها ، فإذا كانت الشاشة أمامك مباشرةً تقرؤها ، أما إن نظرت إليها جانبياً لا تقرؤها ، هذا مـن أجـل فضول النظر .

وهناك فضول نظـر من نوع آخر ، أنت ببيت قاعد وسمعت مشية ، والنافذة مفتوحة قليلاً تطلعت ماداً رأسك لترى فإذا بامرأة تمر كان عليك أن تغض بصـرك ، مـا دام فـي الخارج حركة .

حتى النبي علمنا إن وقفنا أمام الباب أن نعطي ظهرنا للباب ، تجد إنساناً لـم يتـأدب بأدب رسول ا ، يطـرق الباب ، ويقف أمام الباب مواجهةً، فإذا امرأة فتحت ، رآهـا كمـا هي ، أما المؤمن يقف ويعطي ظهره للباب ، هذا من أدب رسول ا ، وقد علمنا هذا صـلى ا عليه وسلم .

قال : كان بعض السلف يكره فضول النظر ، كما يكره فضول الكلام.

في الدين الفرض والواجب والمستحب والمكروه والمحرم ، وما من حركة ولا سـكنة إلا ويجب أن تندرج تحت أحد هذه الأحكام ، عود نفسك أن كل شيء تفعله لابد من أن يندرج تحت أحد هذه الأبواب .

فالعين لها أن تنظر إلى سجادة ، وهذا مباح ، فلا هناك أذى ، ولا نفع ، إن نظـرت إلى شيء خلقه ا عز وجل ، وكانت هذه النظرة سبباً لمعرفة ا ، فصار هذا نظر واجب ..

قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ

(سورة يونس : من آية " ١٠١ ")

فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾

(سورة عبس)

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾

(سورة الطارق)

ففي أمر ..

ـ النظر إلى آيات ا فيها أمرها ، النظر إلى شيء أباحه ا لك ، وفيه سرور ، قد يكون سنة .

ـ النظر إلى شيء عادي لا تنتفع من النظر إليه ، ولا تتأذى من عدم النظر إليـه ، هذا مباح .

ـ أما النظر إلى شيء جميل ، وهذا الشيء لا تملك ثمنه ، واستغرقت فيه ، وتمنيت أن تملكه ، هذا شيء مكروه ، فضول النظر مكروه .

ـ أما الشيء المحرم النظر إلى العورات ، العلماء قالوا : العورات نوعـان عـورةٌ وراء الثياب وعورةٌ وراء الأبواب .

الآية الكريمة :

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ

(سورة النور : من آية " ٣٠ ")

" **من** " هنا للتبعيض ، فأنت مكلف أن تغض البصـــر ، ولكن أحياناً تنظر فجأة إلى امرأة النظرة الأولى ولا حد لأقلها فهي كلمح البصر، هذه لك ، والثانية عليك ..

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ

(سورة النور : من آية " ٣٠ ")

وهناك نوع ثانٍ : فالإنسان لو نظر إلى ابنته ، أو إلى أخته ، أو إلى عمته ، أو خالته ، أو إلى أمه ، يجب أن يغض بصره ، كيف ؟ يجب أن ينظر دون تدقيق ولا يتتبع التفاصيل ، مع تتبع خطوط الجسم ، هذا منهي عنه للمحارم ، لك أن تنظر إلى ابنتك نظرةً عامة ، أمـا خطوط جسمها بالضبط هي مضجعة ، هي جالسة ، هي تصعد إلى درج ، هذا لا يجـوز ، فمن أدب النظر إلى المحارم أن تنظر نظرةً إجمالية ، ولا شيء عليك بها إطلاقـاً بـالعكس مباحة ، أما التدقيق في النظر ، وفي تتبع خطوط الجسم ، وفي تتبع حالات الجسم فـي كـل حركاته وسكناته ، هذا منهي عنه، وينطوي تحت قوله تعالى :

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ

(سورة النور : من آية " ٣٠ ")

لو إحدى محارمك تصعد درجاً ، لا ينبغي أن تنظر إليها من ورائها، لو نظرت وهي منحنية قد تنظر إلى صدرها ، فالمؤمن لا ينظر إلى محارمه إلا نظرةً إجمالية ، لا يتتبع ما ينبغي ألا تكشفه لا يدخل على إحدى محارمه فجأة من غير استئذان ، ولو أنها أمه ، قال : إنها أمي يا رسول ا ؟ قال له :

" **أتحب أن تراها عريانة** " .

(الجامع لأحكام القرآن)

فهذا معنى آخر للغض من البصر ، ينبغي ألا تنظر إلى محارمك إلا بثياب الخدمة ، أما الآن ما يجري في البيوت والعياذ با ، الأخت تبدو أمام أخيها بثياب شفافة ، قد تبدو الأم أمام ابنها بثياب غير منضبطة ، والأخت أمام أخيها ، والبنت أمام أبيها .

فهنا المعنى الثاني للآية : الغض ، هو غض البصر عن المحارم بحيث لا يتبع خطوط الجسم ولا بعض ما ينبغي أن يكون مستوراً .

غض بصر عن بعض النساء اللواتي لا يحللن لك ، لا يحل لك أن تنظر إليهن وهن الأجنبيات بالمقابل لك أن تنظر إلى محارمك ، وعندنا غض بصر نوعي : لو نظرت إلى محارمك ينبغي ألا تدقق في التفصيل ، وغض بصر زمني : فجأةً وجدت نفسك أمام امرأة ، النظرة الأولى لك والثانية عليك ، فهذه مراتب غض البصر ، غض بصر زمني ، وغض نوعي ، وغض جنسي .

قال : النظر المحرم ، النظر إلى العورات وهي قسمان ؛ عورةٌ وراء الثياب ، وعورةٌ وراء الأبواب . كالنظر إلى باب مفتوح ، أو إلى نافذة مفتوحة ، هذا أيضاً فيه تحريم .

والنبي عليه الصلاة والسلام قال :

"لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح"

(مختصر تفسير ابن كثير)

هكذا ورد بالحديث ، والعلماء لهم في هذا الحديث شروحات لطيفة : فهو لو فقأ عينه يحاسب ولكن لبيان عظم حق الجار ، فلا يحق له أن ينظر إلى جاره من ثقب الباب ، وهذا يقابله المنظار أحياناً يكون في البيت منظار ، الابن يستخدمه ليرى الجار البعيد من نافذة مفتوحة ، لعل بها امرأةً تخلع ثيابها مثلاً ، هذا محرم تحريماً شديداً ، لأن آداب الإسلام تمنع اختلاس النظر إلى الجار .

فقال : العورات نوعان ؛ عورة وراء الثياب ، وعورة وراء الأبواب ، يقاس على

عورة وراء الأبواب استخدام المناظير ، لذلك في بعض الحرف تكاد تكـ ـ ـون محرمـة ، فالذي يربي الحمام أين يجلس ؟ على السطوح ، ومن كان على السـطوح كشـف عـورات المسلمين .

قال : عبادة الذوق ، تناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه وخوف الموت ، فمن ترك الطعام والشراب حتى مات ، مات عاصياً ، قاتلاً لنفسه .

وقد قال بعض العلماء ، من اضطر إلى أكل ميتة ، فلم يأكل حتى مات ، دخل النار . الميتة محرمة ، ولكن أنت حياتك مقدمة على هذا التحريم ، فمن اضطر إلى أكل ميتـة ولـم يأكل ، دخل النار كأنه قتل نفسه، والنبي عليه الصلاة والسلام في بعض أحاديثه يقول : " **من ركب ناقةً حرون ومات مات عاصياً** " .

من نام على سطحٍ غير مسور ، ووقع فمات ، مات عاصياً ، الإنسان لو نـزل مـن سيارة عامة وهي تمشي ، ومات ، مات عاصياً ، فإن ركبت مركبةً ولم تراجع مكابحها قبـل أن تسافر ، ومت مت عاصياً .

الإسلام دقيق ، حياتك ليست ملكك ، حياتك ملك أهلك ، وملك زوجتك ، وملك أولادك ، وملك المسلمين ، وجسمك أمانةٌ في عنقك ، تجد مأخذاً كهربائياً بالحمام شدة تيـاره مئتـين وعشرين ، وابنتك تدخل الحمام حافية القدمين ، وفي الأرض ماء ، هذا التيار قاتـل ، نَبـه ابنتك أن هذا التيار مميت ، نبه أهلك .

فأخذ الاحتياطات ، أخذ وسائل الأمان هذا من الدين ، سمعت عن امرأة قبـل أشـهر ذهبت إلى سهرة ، وتركت ابنتها تدرس ، على ضوء شمعة نامت البنت ، فلما ذابت الشـمعة أحرقت ما على الطاولة من قماش ، القماش احترق وأحرق البيت كله ، جاءت من سـهرتها رأت ابنتها ميتة ، والبيت كله محروق ، الإنسان حينما يهمل يحاسب حساباً شديداً .

هذا الدين منهج كامل ، منهج تفصيلي طوال حياتنا ، إذا الإنسان تيقن أن هذا الـدواء فيه شفاء ولم يأخذه ، مات عاصياً ، تناول الدواء الذي يغلب على ظَنك أن فيه الشفاء ، أخـذه واجب ، إذا ظن الشفاء به فهو مستحب .

أما الشيء المحرم : أن يشرب الإنسان ما نهى ا عنه ، كالخمرة والسموم القاتلـة . هذا فيما يتعلق بالذوق أو الطعام والشراب .

أما المكروه قال : ذوق المشتبهات ، كطعام ليس حلالاً ، إنسان دخله كلـه حـرام ، الأكل فوق الحاجة ، ذوق الطعام دون أن تريد أن تشتري من عنده شيئاً ، كأن تقول للبـائع : أذقني إياه ، وليس في نيتك أن تشتري .

فالعلماء قالوا : هناك أشياء تجرح العدالة ، منها أكل لقمة من حرام، منهـا تطفيـفٌ بتمرة ، وهي أشياء لطيفة جداً ، منها أن تمشي حافياً ، منها أن تبول في الطريق ، منهـا أن

تأكل في الطريق ، منها أن تتنزه في الطريق ، طريق فيه نساء كاسيات عاريات ممنوع التنزه في هذه الطُرقات، منها صحبة الأراذل ، منها من أطلق لفرسه العنان ، الذي يقـود مركبتـه بسرعة عالية هذا يجرح عدالته ، منها من قاد برذوناً ، منها من كان حديثـه عـن النسـاء ، تجرح العدالة ، منها من علا صياحه في البيت فسمعه الجيران .

منها أن تأكل طعاماً فيه شبهة ، يقول لك : وا   كنا بالحج وجدنا بيرة بـلا كحـول ، هذه العملية تحتاج إلى تحقيق ، بيـرة بلا كحول ، كلمة بيـرة تكفـي ، فالمؤمـن يتقـي الشبهات ، نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن تلبية دعوة المتباريين ، كعزيمة لغير وجه ا ، عملية استعراض ، استعلاء ، أحب أن يطلع الناس على بيته وعلى إمكانياته وعلى غنـاه ، وجاء من الطعام ما لذ وطاب . فهذا الذي يتبارى مع أنداده ينبغي ألا تلبى دعوته .

أحياناً تدخل على جماعة يتناولون الطعام ، والأكل قليل ويكفيهم فقط فإذا دعوك حياء فيجب ألا تأكل ، ولو كنت جائعاً ، أما إنسان دعاك إلى طعام قبل يوم أو يومين ، هذا شـيء طيب .

الأكل مع الضيف أكل مستحب ، أن تأكل مع الضيف ، وأن تأكل أكلاً يعينـك علـى طاعة ا   لذا يمنع صوم يوم عرفة ، من أجل أن تستعين بالطعام على كثرة العبادة والذكر .

والحمد   رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون :

مع الدرس الخامس والتسعين ، من دروس مدراج السالكين في منازل إيـاك نعبـد وإيـاك نستعين .

لا يخْفى أن أهمية العبادة تأتي من أن العبادة علة وجودنا في حياتنا الدنيا ، نحن هنـا في الدنيا من أجل أن نعبد ا ، والعبادة من أجل أن نسعد بقربه في الدنيا والآخرة ، فمفهـوم العبادة واسع جداً .

تحدثنا عن عبادة السمع ، وعن عبادة البصر، وعن عبادة الذوق ، ونتحدث الآن عـن عبادة اليد ، هذه العبادة مستنبطة من حديث رسول ا صلى ا عليه وسلم ، الذي حدثنا عن ربه ، يقول ا عز وجل :

" ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسـمع بـه ، وبصره الذي يبصر به ، ويـده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، ولئن سألني لأعطينه " .

(كنز العمال)

قد تؤدي الواجبات ، فتنجو من عذاب ا ، تماماً ، و المثل الأعلى ، لو أن إنساناً أدى ما عليه من ضريبة ، نجا من الغرامات والمصادرات والعقوبات ، أما إذا قدم مستوصفاً قدمه لوطنه، يستحق حفل تكريم ، دفع الضريبة شيء ، وبناء مستوصف وتقديمه هدية للوطن شيء آخر ، في الحالة الثانية تستحق التكريم ، أن يقام لك حفلٌ تكريمي لما قدمت لوطنك وأمتـك ، من هذا البناء الذي يعود على الناس منفعةً كبيرة .

إذاً الفرائض توجب السلامة ، أما النوافل توجب المحبة ، الفرائض توجـب السـلامة لأنها فرض ، أما النوافل توجب المحبة ، لذلك :

" ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل ..."

(كنز العمال)

وكأن أداء الفرائض شيء مفروغٌ منه ، هو الحد الأدنى ، إن ا لا يقبل نافلة ما لم تؤد الفرائض .

" ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ..." .

(كنز العمال)

هنا في وقفة متأنية ، كيف يكون الله سمع هذا الإنسان ؟ كنت سمعه، وكنت بصره ، وكنت يده ، وكنت رجله . والحديث صحيح ، في أعلى درجات الصحة ، ما معنى هذا الحديث ؟

فهذه العين قد تنظر إلى حرامٍ أو إلى حلال ، إلى مباحٍ أو إلى واجب، ولكن عين المؤمن لا تعمل إلا وفْق منهج الله ، المؤمن منضبط ، أما غير المؤمن متفلت ، هذه العين تملكها أنت ، وتحركها أنت كما تشاء ، ولكن عين المؤمن لا تعمل إلا وفق منهج الله ، لا ينظر إلا إلى ما يحل له، فإذا وقعت عينه على ما لا يحل له ، غض بصره ، لا ينظر إلا متأملاً عظمة الله عز وجل ، لا ينظر إلى ما حوله نظرة شهوة ، بل نظرة عبرة، وقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام :

" أمرني ربي بتسع الإخلاص في السر والعلانية والعدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر وأن أعفو عمن ظلمني وأصل من قطعني وأعطي من حرمني وأن يكون نطقي ذكراً وصمتي فكراً ونظري عبرة "

(الجامع لأحكام القرآن)

فمعنى أن الله عز وجل يكون سمع هذا المؤمن ، أي لا يسمع هذا المؤمن إلا وفق ما سمح الله له به ، يستمع إلى صوت المؤذن ، فيُردد معه الشهادة وبعض فقرات الآذان ، يستمع إلى القرآن ، يستمع إلى أصوات سمح الله له بها أن يستمع إليها . فكنت سمعه ، فهو لا يسمع إلا وفق منهج الله .

معنى آخر أعمق ، أي شيء يسمعه لا يقبله إلا إذا كان وفق منهج الله ، لو أنك سمعت قصةً عن عالمٍ اخترع دواء يطيل العمر ، وأنت معك قرآن يقول :

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ

(سورة الأعراف : من آية " ٣٤ ")

إذا جاء الأجل لا يتقدم ولا يتأخر ، فما سمعته مفروض لأن كل شيء تسمعه تعرضه على كتاب الله ، فإن وافقه قبلته ، وإن عارضه رفضته ، صار الإنسان غير المؤمن يسمع مئات ، أو ألوف القصص والمقولات كلها يقبلها ، وكلها متناقضة ، بعضها خرافة ، وبعضها كذب ، وبعضها دجل ، وبعضها تزوير ، لكن المؤمن إذا استمع لا يُخَزن من الذي استمع إليه إلا ما كان وفْقَ الكتاب والسنة ، إلا ما كان وفق كلام خالق الكون ، إلا ما كان وفق وحي

السماء ، فكنت سمعه ، أي كل شيء يسمعه يعرضه على الكتاب والسنة ، فإن وافقه قبلـه ، وإن عاكسه رفضه .

إذاً كنت سمعه ، لا يستمع إلى صوت امرأة لا تحل له ، لا يتجسس، لا يتحسس .

" ولا تجسسوا ، ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونـوا عباد اللّه إخواناً " .

(مختصر ابن كثير : عن " أبي هريرة ")

لا يستخدم أذنه إلا وفق منهج ا .

يهتدي بهدي ا ، يستنير بنور ا ، يتلقى وحي ا عز وجل من كتاب ا ومن سُـنة رسول ا ، فما من شيء يسمعه إلا ويقيمه .

اجلس في مجلس فيه أناس ليس من اهتمامهم العلم الشرعي ولا معرفة لهم فـي شـأن آخرتهم ، يروون لك قصصاً منها ما يعقل ومنها ما لا يعقل ، منها ما هو واقع ، ومنها ما هو غير واقع ، منها ما هو مقبول ، ومنها ما هو غيرمقبول ، لايوجد عندهم مقياس يقيسون بـه الأمور ، مثلاً لو أنك متفوقٌ باللغة العربية ، وقرأ أحد أمامك نصاً ، قد تكشـف لـه مئـات الأغلاط، أما إن لم تكن مُلماً بهذه اللغة ، يقرأ لك النص ، وقد وقع في مئات الأغلاط ، فتثني عليه ، لماذا أثنيت عليه ؟ لأنك لا تعرف دقائق العربية ، لجهلك بدقائق هذه اللغة لم تكشـف هذه الأخطاء ، أما لو كنت ملماً بدقائق العربية ، مباشرةً تكشف الخطأ .

" كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به..."

أي لا يستخدم عينه إلا وفق منهج ا ، فإن رأى امرأةً لا تحل له غض بصره عنهـا ، وإن رأى شيئاً جميلاً سبح ا ، يستخدم عينه لتحرس في سبيل ا ، ويستخدم عينه للتأمـل فـي ملكوت ا ، فإن رأى عورةً غض بصره ، حركة العين وفق منهج ، هذا معنى :

"وبصره الذي يبصر به..."

(كنز العمال)

الإنسان الشارد التائه ، يلفت نظره بيتٌ فخم جداً ، يتمنى مثيله ويرى مركبةً فارهةً جداً ، فتحدثه نفسه بأنه لو يملك نظيرها . ما نظر إلى هذا الشيء من زاوية إسلامية ، ولكن مـن زاوية دنيوية ، وقد قال ا عز وجل متحدثاً عن أهل الدنيا :

يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾

(سورة الروم)

مقاييسه دنيوية ، والإمام الحسن البصري قال : " لعل أحدهم إذا وضع الـدرهم علـى ظفره، عرف وزنه ، وهو لا يعرف أن يصلي " . ومعظم الناس الآن في شؤون الدنيا ، فـي

شؤون الدرهم والدينار ، في شؤون التّزْيينات ، في شؤون الأذواق ، في أعلى درجة ، يحدثك ساعات طويلة وهو لا يكل ولا يمل ، فإذا جاء موضوع الدين تثاءب ، فإذا حدثته عن الآخرة تململ ، فإذا ذكرته بما سينتهي إليه ، اعتذر بموعد تذكره فجأةً ..

يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾

(سورة الروم)

أعرف إنساناً له عمل لا يرضي ا أبداً ، لكن مركز العمل فخم جداً وأنيق جداً ، فقـال لي : أنا عملي قذرعلى الرغم من جمال المكتب الذي يفوق حد الخيال ، في اليوم التالي أردت أن أصلح مركبتي ، وكان الطقس شتاء ، ومطر شديد ، وذهبت إلى من أثق به ، نزل تحـت المركبة بثيابٍ أصلها زرقاء أصبحت سوداء ، مبللة بالماء ، مُلَطخة بالزيت ، فهذا الذي يلبسه لا لون له ، والأرض فيها وحل وفيها مطر ، فقام بفك هذه القطعة ، وأصلحها إصلاحاً جيداً ، وأتقنها إتقاناً جيداً ، وأخذ أجرةً معتدلة ، فقلت : وا هذا عمله نظيف . وازنت بـين كلمـة الأول الذي قال : أنا عملي قذر . وبين الثاني الذي قلت عنه : عملـه نظيـف . وجـدت أن النظافة في الحقيقة ، هو عمل شريف وكسب مشروع .

إحدى قاعات القمار في دولة مجاورة ، ثمنها مئات ملايين الدولارات ، فيها من أرقى أنواع الرخام ، من أرقى أنواع الأثاث ، من أرقى أنواع الثريات ، بـذخ مـا بعـده بـذخ ، ومدرسة ثانوية ، بناؤها قديم ، المقعد غير مريح ، و لا يوجد تدفئة والإضاءة ضعيفة ، يخرج من هذه المدرسة علماء وأطباء ومهندسون ،ويخرج من قاعة القمار مجرمون ينتحرون ، فهم إلى جهنم وبئس المصير ، فما يقع على شبكية العين قاعة القمـار فخمـة جـداً ، وبـالعين وبالشبكية قاعة الدرس متواضعة جداً . فالمؤمن الذي يرى بنور ا يعظم المدرسة ويحتقـر قاعة القمار .

قد تجد إنساناً مستقيماً دخله مشروع ، يتحرى الحلال ، بيته صغير، وأثاثه متواضـع ، وطعامه خَشن ، وثيابه رخيصة ، ولكنه أسعد الناس برضوان ا ، وقد تدخل بيتاً ، لا تملـك إلا أن تقول : ما هذا البيت ؟!! ما هذه المساحة ؟! ما هذه التزيينات ؟ ما هذا الأثاث الفخـم ؟ ما هذا الذوق الرفيع ؟ وصاحبه جمع ثمنه من مالٍ حرام . فبالعين على الشبكية البيت جميـل جداً ، وبيت الإنسان المستقيم متواضع جداً غير مقبول ، ولكن لو نظرت بنور ا ، لرأيـت صاحب البيت المتواضع ينتهي به أجله إلى الجنة، وصاحب البيت الفخم قد ينتهي إلى النار .

إنسان أدار عدة دور قمار ، وجمع أموالاً طائلة بلغت ثمان مئة مليون ، وهـو علـى فراش الموت طلب بعضاً ممن يعمل في الحقل الديني ، من شدة خوفه من الآخرة ، قال له :

ماذا أفعل حتى أنجو من عذاب ا ؟ قال له : وا ، لو أنفقت كل هذا المبلغ دفعةً واحدة مـا نجوت من عذاب ا ، هكذا كان اجتهاد الرجل .

فبطولتك أيها المؤمن أن تنظر بنور ا ، لا أن تنظر بمقاييس الأرض ، المنافق ينبغي ألا يعجبك ماله ، ولا أولاده ، ولا أهله ، ولا أدواته ، ولا مكانته ، ينبغي أن تقيم المؤمن .

ذات مرة كنت في مؤتمر في المغرب ، وكنا في فندق فخم جداً ، مع وقت الفجر سمعت قراءة قرآن ، فأطللت من الشرفة ، يبدو أنه عامل الحديقة يصلي الفجر فـي وقتـه ، ويقـرأ القرآن بصوت شَجِي ، وا امتلأ قلبي خشوعاً من قراءته ، قلت : وا لعل هـذا المسـتخدم بحديقة الفندق قلامة ظفره تعدل كل نزلاء ذلك الفندق ، العبرة بالنهايات ، العبـرة بالخاتمـة، وهذا الشيء ترونه كل يوم ، الأمور بخواتيمها ، الإنسان قد يصعد ثم يسقط فجأة ، فـالعبرة بالخواتيم .

إذاً هو معنى :

" كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به "

هناك معنيان : لا يعمل عينه إلا وفق منهج ا ، وإذا نظر نظر بنور ا .

لو ترك إنسان مبلغاً ضخماً من المال ، وعنده عدة أولاده ، أكبر أولاده اغتصب المال كله، وأنشأ بيتاً فخماً ، وأثثه بأفخر الأثاث ، وبأرقى أحياء دمشق ، ولـه مركبـة فارهـة ، وإخوته لأنهم حرموا من ثروة أبيهم عاشوا فقراء ، ولكنهم أتقياء ، فإذا دخلـت إلـى بيـت المغتصب ، هل تعجب ببيته ؟ إن أعجبت ببيته فأنت لا تعرف الحق ، يجب أن تحتقر بيتـه ، لأنه من مالٍ حرام ، ويجب أن تقدر إنساناً فقيراً دخله حلال ، وينبغي أن تشجعه .

ذات مرة زرت أخاً ، غرفة الضيوف لا تتسع إلا لبضعة أشخاص ، غرفة صغيرة جداً ، فلما دخلت هذه الغرفة استحيا وقال : أستاذ نحن بيتنا صغير ، قلت له : ما قولـك أن سـيد الخلق وحبيب الحق كان إذا أراد أن يصلي الليل ، لا تتسع غرفته لنوم زوجته وصلاته ، وهو سيد الخلق وحبيب الحق .

إخواننا الكرام ... يجب أن تعتمـــد مقاييس القرآن ، وإلا لست مؤمنـاً، ينبغي ألا تقيم الأشخاص من زاوية مادية ، ينبغي أن تقيمهم من زاوية أخلاقية ، ينبغي أن تعظم أهـل العلم ، وأهل الخُلُق ، وأهل الإيمان ، وألا تعبأ بما عند هؤلاء الشاردين عـن ا مـن دنيـا عريضة ، والآية التي تعرفونها جميعاً :

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

(سورة الأنعام)

قد تذهب إلى بلاد الغرب فترى البلاد كلها خضراء ، والبيوت في أعلى درجـة مـن الفخامة والمواصلات راقية جداً ، ولكن ترى الخمور ، والملاهـي ، ودور القمـار ، ودور البغاء ، أما إذا ذهبت إلى بلد إسلامي ، قد تجده متواضعاً في مظهره ، ولكن فيه صلاح ، في راحة نفسية ، في روحانية ، زارنا أخ من بلد بعيد ، عاش هنا في الشام شهراً ، أرسـل لـي رسالة قال لي : وا عندنا كل شيء مريح ، ولكن عندكم حُب ، وعندكم روحانية ، وعنـدكم إيمان ، وعندكم سعادة ، وعندكم تماسك وترابط ، فقد عاش شهراً ، فعرف ما عنده وعرف ما عندنا، وميز بين النوعين فوجد أن أهل الإيمان في سعادة كبيرة .

أجدادنا ، سلفنا الصالح ، حياتهم خشنة ، ولكنهم كانوا سُعداء ، لأن دينهم كان متينـاً ، ومحبتهم كانت قويةً ، فلذلك عاشوا حياةً سعيدة دون أجهزة حديثة .

إذاً :

" ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسـمع بـه ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها .. " .

(كنز العمال)

قال : ومن البطش الواجب " كلمة البطش : العمل " اليد تتحرك ، وتعمل ، في الحديث الصحيح اليد **تبطش** أي تعمل ، قال : ومن البطش الواجب إعانة المضطر . إنسـان وقـع ، أعنته ، فتجد المؤمن يهرع لخدمة المضطرين ، فإعانة المضطر من واجبات اليـد ، أحيانـاً رجل كبير بالسن يحمل حاجةً ينوء بها ، فأنت حملتها عنه ، أحياناً في مركبة عامة ، تصـعد امرأة مسنة، محجبة ، لا تجد مكاناً تجلس به ، قمت أنت ودعوتها إلى مكانك ، فلابد مـن أن تغيث المضطر ، هذا من واجبات البطش ، إعانة المضطر ، ورمـي الجمـار ، ومباشـرة الوضوء والتيمم .

والبطش الحرام ، قتل النفس التي حرم ا قتلها ، المؤمن عنده منهج ، لا يقتـل كـل شيء ، المؤمن لا يقتل النفس التي حرم ا قتلها إلا بالحق ، حتى إذا قتل ، في قتله إحسان ، " إن ا كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتل ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح " .

والحرام كقتل النفس التي حرم ا قتلها ، ونهب المال المعصوم ، وضرب من لا يحل ضربه . ذات مرة جاءت لسيدنا عمر رسالة ، قال كاتبها :

ـ يا أمير المؤمنين ، إن رجالاً قد اغتصبوا مالاً ليس لهم ، لست أقدر على استرداده منهم إلا أن أمسهم بالعذاب ، فإن اذنت لي فعلت .

ـ قال : يا سبحان ا !! أوتستأذني في تعذيب بشر ، وهل أنا لك حصن من عـذاب ا ؟ وهل رضائي عنك ينجيك من سخط ا ؟ أقم عليهم البينة ، فإن قامت فخُذْهم للبينة ، وإن لـم

تقم فادعوهم إلى الإقرار ، فإن أقروا فخذهم بإقرارهم ، فإن لم يقروا فادعهم لحلف اليمـين ، فإن حلفوا فأطلق سراحهم ، وايم ا ، لأن يلقوا ا بخيانتهم أهون من أن ألقى ا بدمائهم .

فإذا شخص أتيح له أن يكون ضابطاً في الأمن الجنائي ، هذا عمل مشـروع وجيـد ، وجاءه مُتهم ، ما الذي يفعله ؟ بعض من يعمل في هذا السلك يعذبه إلى أن يعترف ، فإذا كان بريئاً لا يعترف ، لم يعترف ولكنه أذاقه ألوان العذاب . من أجل أن ترتاح ، استخدم أسـلوباً ذكياً علمياً متعباً في التحقيق ، وتحفظ له كرامته ، وتحفظ له كبرياءه ، وتحفظ له إنسـانيته ، ولا تسلك أقصر الطرق ، فتعذبه لأنك ستحاسب لأنه بريء !

فعلى الإنسان قبل أن يفعل شيئاً ، الإنسان بُنْيان ا ، وملعون من هدم بنيان ا ، فمن بطش اليد المحرم أن تضرب من لا يحل ضربه . والأصل كما تعلمون الإنسان بريء ما لـم تثبت إدانته .

من بطش اليد المحرم اللعب بالنرد ، من لعب النرد فكأنما غمس يده في لحـم خنزيـر ودمه ، لعب النرد محرم قطعاً ، وكل شيء على شاكلة النرد يُحْمل على النرد ، كالبرسيس ، أليس هناك حظ في الودع ، فاللعب المبني على حظ محرم . وأكثر العلماء حرم الشطرنج .

كتابة قصة باليد ، قصة إباحية ، كتابة كلام باطل ، كتابة اتهام كاذب، كتابة معـروض فيه افتراء على إنسان ، كله باليد ، ومن أعان ظالماً سلطَهُ ا عليه ، ومن أعان ظالماً ولـو بشطر كلمة ، جاء يوم القيامة مكتوباً على جبينه آيس من رحمة ا .

كتابة كلام زور ، يقول لك : في مئة ألف دعوة كيدية ليس لها أصـل لكـن المـؤمن منضبط ، هذه اليد لا تكتُب إلا الحق ، ولا تفعل إلا الحق ، ولا تعتدي على مخلوق .

حدثني أخ فقال لي : عندي أرض ثمنها مليونين . موظف بسيط جاء للتحديد والتحرير ، فطلب مبلغاً من المال رشوة فرفض صاحب الأرض، فسجلها الموظف أملاك عامة ، حـرم منها، وهي مال أولاده ، حرم أولاده منها ، أحياناً دعوة فيها افتراء ، تقرير كاذب ، قد يسبب متاعب لا حصر لها ، وا هذه اليد التي تكتُب الباطل ، أو تكتب الافتراء ، أو تكتب الكذب، هذه اليد سوف تُلقى في النار .

والقذف ، قذف محصنة يهدم عمل مئة سنة ، والتشبيب بالنساء ، الشعر الغَزلي ، في شعراء دواوينهم كلها غزل بالمرأة ، وببعض أعضائها هذا إن قرأت شعره تُثار كل الشهوات من شعره ، فاليد التي كتبت هذا الشعر لتثير الشهوة عند الشباب ، وقد تنتهي هذه الشهوة إلى معصية كبيرة، في صحيفة من كتب هذا الشعر ، وكتابة ما فيه مضرةٌ للمسلمين في ديـنهم أو دنياهم ، أو كتابة الباطل ..

فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

(سورة البقرة)

هذه اليد ؛ قد يكتب بها تقرير باطل ، قد يكتب بها كلام فيه ضلال ، أليس هناك كُتُب باسم (قراءة معاصرة) كل السلوك الإباحي في هذا العصر غطي بالقرآن الكريم ، زوراً وافتراء ؟!!

إنسان يعمل مفتياً ، كتب فتوى وهو لا يعلم ، فهو آثم عند الله ، أو كتب فتوى بخلاف ما يعلم ، فهذا أشد إثماً ، تفتي بخلاف ما تعلم إرضاء لزيد أو عُبيد ، فتوى بمصر من عالم ، في اليوم التالي وضعت ثلاثة وثمانين مليار جنيه في البنوك ، لأنه أباح التعامل مع البنك بفتوى كتبها بيده ووقع عليها ، هذا كله بعمل اليد ، إلا أن يكون مجتهداً مخطئاً فله أجر.

إذاً ، تحدثنا عن البطش الواجب ، وعن البطش المحرم ، عن عمل اليد الواجب ، وعن عمل اليد المحرم . وأما المكروه فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام ، وكتابة ما لا فائدة منه ..

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

(سورة المؤمنون)

عندنا بطشٌ واجب ، وبطشٌ حرام ، وبطشٌ مكروه ، وبطشٌ مستحب، كتابة كل ما فيه منفعةٌ في الدين . كأن تلخص كتاباً في القواعد أو تؤلفه ، القواعد تنفع الدين ، تعلموا العربية فإنها من الدين كما قال سيدنا عمر ، أو فيه مصلحة لمسلم ، أو إحسان إلى مسلمين ، سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ ما ينجي العبد يا رسول الله يوم القيامة ؟

ـ قال : **إيمان بالله** .

ـ قال : مع الإيمان عمل ؟

ـ قال : **أن ينفق مما رزقه الله** ؟

ـ قال : فإن كان لا يجد ؟

ـ قال : **فليأمر بمعروف أو ينهى عن منكر** .

ـ قال : فإن كان لا يحسن ؟

ـ قال : **فليعن الأخرق ، بيده .**

ـ قال : فإن كان لا يستطيع ؟

ـ قال : **أوما تريد أن تدع لصاحبك من خير ، ليمسك أذاه عن الناس.**

ـ قال : أو إن فعل هذا دخل الجنة ؟

ـ قال : **ما من عبد مسلم يصيب خصلة من هذه الخصال ، إلا أخذت بيده حتـى تدخلـه الجنة.**

(مجمع الزوائد)

أن تعين صانعاً ، أن تصنع لأخرق ، أن تُفْرِغ دلوك في دلو المستسـقي ، أن تحمـل إنساناً على دابته ، أو أن تمسكها له حتى يصعد عليها ، فأحياناً إنسان في الطريـق ، يحمـل أشياء ثمينة ووقعت على الأرض، والطريق فيه ازدحام ، فالمؤمن عنده مروءة يعينـه علـى جمع هذه البضاعة المبعثرة ، هذا من عمل اليد الذي يرضي ا عز وجل .

لمس الركن باليد ، هذا من البطش المستحب .

المباح ، ما لا مضرة فيه ولا ثواب .

واجب ، محرم ، مكروه ، مستحب ، مباح ، خمسة أحكام هذا فعل اليد فما هـو فعـل الرِجْل؟

قال : أما الرِجْل ، أول عبادة لهذه الرجل أن تنتقل بها إلى المسجد ، إنسان جاء مشياً ، فهذه عبادة الرِجْل أن تنقلك إلى طاعة ، إلى الجُمع والجماعات ، في أصح الأقوال ، وهنـاك بضعةٌ وعشرون دليلاً على أن عبادة الرِجْل الأولى أن تنقلك إلى الجُمع والجماعـات ؛ إلـى مجالس علم ، والمشي حول البيت طائفاً ، والمشي بين الصفا والمروة ساعياً ، والمشـي إلـى حكم ا وحكم رسوله إذا دُعي إليه ، دعيت إلى شيء شرعي ، يجب أن تذهب إليه ، ورد في الأحاديث :

"من لم يجب الدعوة فقد عصى أبا القاسم "

(نصب الراية)

قد تدعى إلى حفل فخم جداً ، هذا من الدنيا ، تلبية هذه الدعوة من الدنيا ، ولكـن إذا دعيت إلى عقد متواضع في أطراف المدينة ، ولابد من تحمل مشاق الوصول إلـى هنـاك ، ولابد من تضييع وقت كثير ، تلبية دعوة الفقراء من الآخرة .

والمشي إلى صلة الرحم ، والمشي إلى بر الوالدين ، وإلى مجالس العلم ، وإلى الحج إذا قَرُبت المسافة ، هذه الرِجْل ينبغي أن تنقلك إلى طاعة ، أما إذا سار بها إلى ملهى ، أو إلى معصية ، أو إلى فجور والعياذ با ، استخدم هذه النعمة في معصية ا عز وجل .

أما المشي الحرام قال : المشي إلى معصية ا ، وهو من رِجْل الشيطان ، قال تعالى :

وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ

(سورة الإسراء : من آية " ٦٤ ")

قال مقاتل : استعن عليهم برُكْبان جندك ومُشاتهم ، فكل راكبٍ وماشٍ في معصـية ا فهو من جُند إبليس ، يمشي إلى المسبح ، مسبح مختلط ، مكشوفةٌ العوْرات ، هذا مشي إبليس ، مشى إلى معصية هو من رِجْل الشيطان ، فكل راكبٍ وماشٍ في معصية ا فهو من جُنْـد إبليس .

المشي الواجب : الركوب إلى الغزو والجهاد والحج الواجب، سياحة أمتـي الجهـاد ، ومن مات ولم يحدث نفسه بالجهاد فقد مات على ثُلْمة من النفاق ، الحد الأدنى الجهاد الدعوي ، أخ لم يحضر ، فذهبت إلى بيته تتفقده ، تراه قد انتعش ، وجد نفسه له قيمة ، فلما غاب عن الدرس ، له أخ زاره وتفقد أحواله ، فأنت حينما تتحرك لتَشُد إنساناً إلى مسجد أو إلى دعوة أو إلى الحق ، فهذا عمل دعوي .

فحرام المشي : الركوب إلى معصية .

والمكروه : الركوب للهو واللعب ، وكل ما تركه خير من فعله .

ومباحه : الركوب إلى شيء ليس فيه وزر ولا عليه أجر ، هذا المباح .

لا زلت أؤكد لكم أن العبادة علة وجودنا على وجه الأرض ، وأن العبادة تشـمل كـل الأوقات ، وكل الأماكن ، وكل الأعضاء ، فإذا وفقْنا إلى أن نعبد ا كما أراد ، فـنحن قـد حققنا الهدف من وجودنا ، وا سبحانه وتعالى أسأل أن يُلْهمنا رشدنا .

والحمد رب العالمين

* * *

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السادس والتسعين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، والدرس اليوم استنباطات عديدة من موضوع العبادة .

نعلم أن علة وجودنا في هذه الدنيا عبادة ا ، و المؤمن لا يقبل شيئا إلا بالدليل ، و لا يرفض شيئا إلا بالدليل ، و لعل هذا مستنبطك من قوله تعالى :

قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ

[سورة يوسف]

فمعنى قول ا : "على بصيرة " أي بالدليل و التعليل ، ذلك أن ا رب السماوات وللأرض حينما أمرنا أن نصلي قال :

إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ

[سورة العنكبوت]

ا قدم التعليل ، و حينما قال لنا :

خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ

[سورة التوبة]

جاء التعليل " تطهرهم وتزكيهم ، و حينما قال ا عزوجل :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾

[سورة البقرة]

فأنت لا تقبل شيئا إلا بالدليل و لا ترفض شيئا إلا بالدليل ، و قد قال بعضهم : لـولا الدليل لقال من شاء ما شاء " لك أن تقول : كل أبنية دمشق ملكي ، و لكن مـن دون دليـل ، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء ، وإذًا ربنا عزوجل أمرنا أن ندعو إلى ا على بصـيرة ،

قال تعالى :

قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ

[سورة يوسف]

إذًا علة وجودنا على هذه الأرض أن نعبد ا ، و العبادة كما أذكر دائما هي طاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية .

لا بد من وقفة متأنية عند التفوق و التطرف ، التطرف أن تأخذ ناحية من نواحي الدين وتكبرها و تجعلها الدين كله ، هذا تطرف ، أما أن تتحرك مع كل كليات الدين حركة متوازنة هذا هو التفوق ، فمن خلال هذا التعريف البسيط طاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية ، اسأل نفسك هذا السؤال : هل عندك نشاط تعلمي و نشاط سلوكي و نشاط جمالي ؟ أنت في هذه الأرض من أجل أن تعبد ا ، و في عبادة ا كليات ثلاث ؛ كلية معرفية وكلية سلوكية و كلية جمالية ، فالكلية المعرفية أن تطلب العلم ، ورد في بعض الأدعية : **أن لا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من ا علما ، و لا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من ا قربا ،** فالمغبون من تساوى يوماه ، ومن لم يكن في زيادة فهو في نقصان ، أنت لو توقفت فالركب يمشي ، إذًا أنت متأخر ، ليس التأخر أن ترجع إلى الوراء ، التأخر أن تبقى واقفا ، والركب يمشي .

والكلية الجمالية ، ا جل جلاله أصل الجمال ، كل شيء تراه جميلا في الكون له مسحة من ا ، المنظر الجميل ، الورد الجميل ، الشاطئ الجميل ، الجبال الرائعة ، هذه أخذت مسحة من جمال ا ، فدهشت بها ، فكيف لو اتصلت بأصل الجمال ؟

الصلاة قسم جمالي في الدين لذا جعلها ا عز وجل قرة عين ، جعل الصلاة قربى ، الآية الكريمة ، قال تعالى :

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾

[سورة طه]

و قال تعالى :

وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩ ﴿١٩﴾

[سورة العلق]

و ورد في الحديث : **ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها ...**" إذًا الصلاة

والاتجاه إلى ا   مع الدعـاء ، و مع الاستغفار ومع التهليـل والتكبيـ ـر مع الأذكار النبوية ، قسم جمالي في الدين ، والحركة اليومية السلوك هذا قسم سلوكي ، وطلب العلم قسم معرفي ، فأنت حينما تطلب العلم وتتحرك وفق منهج ا   و تسعى أن تتصل با   فقد تفوقـت لأنـك تحركت على الخطوط الثلاثة معا ، طلبت العلم وتحركت وفق مـنهج ا   وأردت أن تسـعد بقربك من ا   ، هذه هي العبادة ، العبادة هي سر وجودنا على وجه الأرض ، علة وجودنـا ، الذي يصحح مسارنا في الكون عقيدتنا ، تصوراتنا الصحيحة عن الكون والدنيا و الإنسـان ، لو أردنا أن نعالج ربط الكليات بالجزئيات مثلاً ، أنت ذهبت إلى الفراش كي تسـتلقي قُـرع الباب ، جاء إنسان يطلبك ، أنت بإمكانك أن تعتذر عن مقابلته أو أن تلبي رغبته ، إذا كـان إيمانك بالآخرة كبيراً وعقيدتك أنك مخلوق للعمل الصالح و أن العمل الصالح هو أكبر ثمـرة في الدنيا ، وأن العمل الصالح ثمن الجنة و أن ا   يرضى عنك إذا خدمت عباده ، وأنـك إذا أردت أن تتصل با   فالعلم الصالح أكبر وسيلة، قال تعالى :

فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا



[سورة الكهف]

تنهض و تلبي حاجة هذا الطارق ، وتضحي براحتك و استجمامك ، أما إذا كانت هذه المعاني ليست واضحة تغضب أشد الغضب من هذا الذي جاء ليقلق راحتك ، فـأيّ تصـرف يفعله الإنسان فهو انعكاس لفهمه للحياة ، لو أنه لم يؤمن بالآخرة يرى الفلاح في الأخذ لا في العطاء، ولا فلاح في الراحة لا في بذل الجهد ، و الذكاء في استهلاك جهد الآخرين، لا فـي خدمتهم ، والذكاء في الانغماس في الملذات ، لا في التعفف عن الموبقات ، لـو أنـه آمـن بالآخرة ينعكس الميزان انعكاسا كليا ، يرى الذكاء في إنفاق المال لا في أخذه ، يرى الـذكاء في بذل الجهد للآخرين ، لا في استهلاك جهدهم   يرى الذكاء فـي التواضـع لهـم لا فـي الاستعلاء عليهم ، يرى الذكاء في خدمتهم لا في استخدامهم ، لذلك ترى بونًـا شاسـعا بـين المؤمن و بين غير المؤمن ، المؤمن في خدمة الخلق ، وغير المؤمن الخلـقُ فـي خدمتـه ، المؤمن يعطي و غير المؤمن يأخذ ، المؤمن يتواضع و غيره يستعلي ، المؤمن يصبر وغيره يفجر ، إن كانت عقيدتك صحيحة و كان تصورك   ولحقيقة الكـون و الحيـاة و الإنسـان صحيحا هذا الفهم الدقيق ينعكس سلوكا قويما ، لو أن الإنسان يمشي فـي الطريـق و مـرّت

أمامه امرأة بارعة الجمال فالمؤمن يرى فلاحه في غض البصر عنها ، و غير المؤمن يـرى أن يملأ عينيه من محاسنها هو الفلاح ، مثلنا الأعلى سيدنا يوسف الذي ملك مصـر وصـار عظيمها ملك نفسه فملك ، قال تعالى :

﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ

[سورة يوسف]

من أروع ما قرأت عن هذه الآية أن الملك الذي ذكر في هذه الآية لـيس أنـه حكـم مصر ، أي إنسان تولى شؤون بلد يقول لك : و أنا آتاني ا الملك ، لكن الملك أنه ملك نفسه عند الشهوة ، هذه هي البطولة ، ذلك أن حضارة الغربيين سـيطرة علـى الطبيعـة ، بينمـا حضارة المسلمين سيطرة على الذات ، قال بعض زعمائهم عقب الحرب العالمية الثانيـة : " ملكنا العالم و لم نملك أنفسنا "

أردت أن أربط بين كليات الديـن و جزئياته ، أنت حينما تدخل إلى البيت وحينما تجد شيئا مزعجا إذا كان فهمك للحياة عميقا تقلد رسول ا صلى ا عليه وسلم في حلمه و فـي صبره ، أما إن لم يكن فهمك عن الحياة و لا عن الزواج و لا عن مهمتك في الحياة صـحيحا تنفجر ، لماذا انفجر هذا و صبر هذا ؟ لماذا أعطى هذا ومنع هذا ، لماذا رنا هذا وغضّ هذا ؟ لماذا تكلم هذا وسكت هذا ؟ التكلم و السكوت أساسه التصور ، الغضـب و الحلـم أساسـه التصور ، صحيح أو غير صحيح ، المنح أو الأخذ أساسه التصور ، فيجب أن تعلم أنه كلمـا تعمق فهمك لحقائق الكون و لحقائق الدين انعكس هذا الفهم سلوكاً صحيحاً هو ثمن الجنة ، و كلما ابتعد الإنسان عن حقائق الدين سلك سلوكاً بهيمياً لذلك أساس صحة العمـل معرفـة ا عزوجل .

لو إنسان ذهب إلى بلد غربي ، ونزل في أحد الفنادق و نام الليلة الأولـى و اسـتيقظ صباحا وتناول طعام الفطور و ارتدى ثيابه و قال : إلى أين أذهب ؟ إن كان طالب علم ذهب إلى الجامعة ، وإن كان تاجراً ذهب إلى الأسواق ، و إن كان سائحاً ذهب إلى المتنزهـات ، هذا الذي جاء لهذا البلد لا يصح عمله ؟ إلا إذا عرف سر وجوده ، الناس يمشون في طـرق مسدودة ، يتوهم أحدهم أن المال كل شيء ، فينكب على جمعه وكسبه من طريق مشـروع و غير مشروع ، من طريق حلال أو حرام ، إلى أن يجمع ثروة طائلة ، حينما يبدا يستمتع بهذا المال تكون صحته قد تراجعت ، فيحتقر المال و يحتقر هذه الحياة الدنيا ، معنـى ذلـك أنـه يمشي على غير هدى من ا .

الغربيون يرون أن اللذة لا بد لها من ثلاثة شروط : من شرط المال و الصحة والوقت ، و مع الإنسان التائه الشارد في أيّة لحظة من حياته يفقد أحدها ، ففي شبابه يتوافر له الصحة

و الوقت ، يفتقد المال ، إذًا لا يتاح له أن يستمتع بالحياة ، في المرحلة الثانية يتوافر له المال والصحة ، لكنه ليس عنده وقت ، إذًا لا يتاح له أن يستمتع بالحياة ، الحالة الثالثة يتوافر المال والوقت و لكن لا توجد صحة ، إذًا الذي شرد عن ا يعيش في أوهام السعادة ، أو يعيش في سراب السعادة ، أو يعيش كما يسعى الحمار إلى الفجلة التي أمامه و المسافة بينه و بينها ثابتة ، قصة مشهورة جدا ، إنسان ركب حمارا و مسك عصا ووضع في نهايتها فجلة ، و الحمـار يركض ليأكلها ، و المسافة ثابتة بينهما ، أما لو أنه عرف ا ، لقال لك : السـعادة الحقيقيـة تحتاج إلى معرفة با ، وطاعة له و خدمة لخلقه ، و هذه الثلاثة متوافرة دائما ، أنت شاب ، و أنت كهل ، و أنت شيخ ، بإمكانك دائما أن تعرف ا و أن تستقيم على أمـره وأن تسـعد خلقه ، فأنت في سعادة دائمة ، و ذكرت ايضا أن هذه السعادة التي هي روح حياة المؤمن تنبع من داخله ولا تنبع من خارجه ، ولا تأتي من خارجه ، هو يملكها ، كل واحد منا يملك أسباب سعادته ، بصرف النظر عن عمره وعن دخله و عن ثقافته و عن صحته و عن مكانته و عن دوره الاجتماعي ، السعادة أن تصل إلى ا ، بينما اللذة إلى أن تصل إلى جزء منها يكون قد مضى الخمسون عاما .

نحن الآن في حياتنا المعاصرة المعقدة حتى الإنسان يرتاح ، لـه بيـت و زوجـة و مركبة وهو في بحبوحة من العيش ، لا بد من أن يكون قد بلغ الأربعين أو الخمسين من عمره ما الذي بقي من الحياة ؟

العلاقة بين الكليات و الجزئيات ، العلاقـة بين صحة العقيدة و بين حسن التصـور ، و بين حسن الفهم ، و بين الحركة اليومية ، و قد لا تصدق أنك إذا رأيت حجراً في الطريق أن تزيحه أو أن تدعه ، متعلق بعقيدتك ، تجد إنساناً يركب مركبته في طريق سفري ، يـرى حجراً كبيراً ، يعترضه ربما سائقو الشاحنات أحياناً يضعون هذا الحجر وراء إحدى عجـلات المركبة ، حجر كبير قد يؤدي إلى حادث كبير إن لم ينتبه إليه السائق ، تجد رجـلاً مؤمنـاً يقف ليزيح هذا الحجر ، هذا التصرف الجزئي متعلق بعقيدته ، لو تتبعت حركتـك اليوميـة لوجدت و أنت في البيت أن أعمالك تنطلق من موقفك مـن زوجتـك وموقفـك مـن أولادك وموقفك من أي إنسان ، حتى لو سرت في الطريق لوجدت نظراتـك و سـمعك و بصـرك ومطالعاتك تنطلق من عقيدتك ، تطالع مقالة توازنها مع كلام ا ومع سنة رسول ا ترفضها أو تقبلها ، عندك ميزان ثابت تقبل به و ترفض به ، ذهبت إلى عملك قد يأتيك إنسان يشتري و هو جاهل ، تنوره وتبين له ، و لا تفرح وتقول : زبون غشيم ، إذا كان مع أحدهم مال يتيم ، إذا عقيدته صحيحة خاف على المال خوفه على ماله ، وإذا كانت عقيدته غير سليمة يجعـل مال اليتيم حقل تجارب لتجارته ، يجعل مال اليتيم دريئة لماله ، و قد ورد عن النبـي عليـه الصلاة والسلام : **و لا تجعل مالك دون ماله ....**" فتجد المؤمن في أدق حركاته التجارية ،

حتى في أفراحه و حتى في أتراحه ، حتى في سفره ، وحتى في إقامته ، في نشاطاته ، كلياته تتحكّم في جزئياته، منذ استيقاظه يفعل كما فعل النبي وكما نبه ، عن أَبِي هريرةَ رضي اللـه عنْه أَن رسولَ الله صلى الله علَيه وسلم قَالَ **إِذَا قَام أَحدكُم عن فراشه ثُم رجع إِلَيه فَلْينْفُضـه بِصنفَة إِزارِه ثَلَاثَ مرات فَإِنه لَا يدرِي ما خَلَفَه علَيه بعد فَإِذَا اضطَجع فَلْيقُلْ بِاسـمك ربـي وضعتُ جنْبِي وبِك أَرفَعه فَإِن أَمسكْتَ نَفْسي فَارحمها وإِن أَرسلْتَها فَاحفَظْها بِما تَحفَـظُ بِـه عبادك الصالِحين فَإِذَا استَيقَظَ فَلْيقُلْ الْحمد لِله الذي عافَاني في جسدي ورد علَي روحي وأَذن لِي بِـذكْرِه** *ميزان ثابت تقبل به و ترفض به ، ذهبت إلى عمالك قد يأتيك إنسان يشتري و هـو جاهل ، تنوره وتبين له ، و لا تفرح وتقول : زبون غشيم ، إذا كان مع أحدهم مـال يتـيم ، إذا عقيدته صحيحة خاف على المال خوفه على ماله ، وإذا كانت عقيدته غير سليمة يجعل مال اليتيم حقل تجارب لتجارته ، يجعل مال اليتيم دريئة لماله ، وكما ورد عنه عليه الصلاة و السـلام : **و لا تجعل مالك دون ماله ....**" فتجد المؤمن في أدق حركاته التجارية ، حتى في أفراحـه و حتى في أتراحه ، حتى في سفره ، وحتى في إقامته ، في نشاطاته ، كلياته تتحكّم في جزئياته، منذ استيقاظه يفعل كما فعل النبي وكما نبه ، عن أَبِي هريرةَ رضي الله عنْه أَن رسولَ اللـه صلى الله علَيه وسلم قَالَ **إِذَا قَام أَحدكُم عن فراشه ثُم رجع إِلَيه فَلْينْفُضه بِصنفَة إِزارِه ثَـلَاثَ مرات فَإِنه لَا يدرِي ما خَلَفَه علَيه بعد فَإِذَا اضطَجع فَلْيقُلْ بِاسمك ربي وضعتُ جنْبِـي وبِـك أَرفَعه فَإِن أَمسكْتَ نَفْسي فَارحمها وإِن أَرسلْتَها فَاحفَظْها بِما تَحفَظُ بِه عبادك الصالِحين فَإِذَا استَيقَظَ فَلْيقُلْ الْحمد لِله الذي عافَاني في جسدي ورد علَي روحي وأَذن لِي بِذكْرِه** *

[رواه الترمذي]

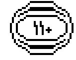
" معنى ذلك أن ا سمح لك بيوم جديد ، و **الْحمد لِله الذي عافَـاني فـي جسـدي**" الأجهزة في أعلى درجة ، **وأَذن لِي بِذكْرِه** * إنسانة تعمل في الفن قالت : دخلـت أول ليلـة تبت فيها قمت عند صلاة الفجر بعد أن كنت عمري كله أدخل بيتي بعد أذان الفجـر ، شـتان بين من يستيقظ ليصلي الفجر وبين من يأتي بيته و هو في معصية بعد الفجر ، قالت : ما من ليلة نمت إلا بمنوم ، وبعد أن تبت إلى ا نمت كالطفل الصغير ، في نوم عميق ، الإنسان لما يكون مستقيماً ولم يتعلق به حق أحد ، ينام نوماً عميقاً ، نوماً مريحاً ، أما هذا الـذي لا ينـام لعل فطرته تؤنبه ، حدّثني أخ كان في ألمانيا نزل في أحد فنادقها وجد كلمة كُتبت على طرف السرير " إذا لم تنم وتقلبت في فراشك ، ففرشك وثيرة ، لكن العلة في ذنوبك " الإنسان حينما يأوي إلى الفراش و قد بنى ماله على إفقار الآخرين ، أو بنى سعادته على شـقاء الآخـرين تؤنبه فطرته .

حقيقة يجب أن تكون واضحة جدا ؛ السلامة و السعادة مطلبان ثابتان لكل إنسان كائناً من كان أبداً السلامة و السعادة ، السلامة في طاعة ا ، و السعادة في القرب منه ، قال تعالى

:

فَمَن كَانَ

يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا



[سورة الكهف]

قال ا عز وجل :

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا

[سورة الفرقان]

ولو قرأت السنة لفوجئت ، عن علي رضي الله عنه قال **كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل ولا بالقصير ضخْم الرأْس واللحية شثْن الكفين والقدمين مشْرب وجهه حمرةً طويلُ المسربة ضخْم الكراديس إذا مشى تكفأَ تكفؤًا كأنما ينْحط من صببٍ لم أَر قبله ولا بعده مثْله صلى الله عليه وسلم ***

[رواه أحمد]

و السيدة عائشة تقول : **رحم ا عمر ما رأيت أزهد منه ، كان إذا سار أسرع ، وإذا أطعم أشبع ، إذا قال أسمع ، وإذا ضرب أوجع** " كيف نوفّق بين الآية و بين هذين النصين من السنة ؟ لعل علماء التفسير حينما فسروا هذه الآية قالوا : يمشي هوناً ، أي لا يسمح لهموم الدنيا أن تستهلكه الإنسان من هم لهمّ ، ومن مشكلة لمشكلة ، ومن قضية إلى قضية ، ومن أزمة إلى أزمة ، إلى أن يأتيه ملك الموت ، ما استعدّ للموت ، ولا استعد للآخرة ، الحياة قد استهلكته .

ومعظم الناس تستهلكهم هموم الحياة ، ليس عنده وقت يفكّر في سر وجوده ، و لا أن يسأل من أنا ؟ ليجد أنه المخلوق الأول ، المخلوق المكرّم، المخلوق المكلف ، قال تعالى :

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ

[سورة الجاثية]

الكون كله مسخّر لك ،و أنت الإنسان الذي قبل حمل الأمانة ، والإنسان الذي خُلق ليعبد ا عز وجل ، اسأل : من أنا ؟ اسأل : لماذا أنا في الدنيا؟ اسأل : ما الشيء الذي ينبغي

أن نفعله ؟ ألم تقرأ قوله تعالى :

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾

[سورة الكهف]

تجده يعمل ليلا نهارا ، قال تعالى :

كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾

[سورة المدثر]

ثم يفاجأ بالموت ، من بيت ثمنه مائة مليون إلى قبر وضيع ، نقلة كبيرة جداً ، من بيت في أرقى أحياء دمشق إلى قبر ، ما هذه الحياة .

رجل مقيم في بلد عربي ، جاء إلى تركيـا ليمضي إجازة فوافته المنية بالفندق ، ترك هذا الرجل أربعة آلاف مليون و كان يقيم في السعودية وما صلّى فرض صلاة ، ولا أدّى حجاً و لا عمرة كان شارداً عن ا ، وافته المنية وهو يملك هذه الثروة الطائلة ، خسر كل شيء ، كل شيء جمعه في عمر مديد خسره في ثانية واحدة ، كان عليه أن يقف ويسأل : من أنا ؟ أنا من ؟ لماذا أنا في الدنيا ؟ ماذا ينبغي أن أفعل ؟ إذا جاءه ملك الموت ماذا يقول ؟ القرآن يقول :

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ
صَٰلِحًا

[سورة المؤمنون]

سر وجودك العمل الصالح ، إذا هناك نشاط لا يتصل بالعمل الصالح خسارة ، ا عز وجل قال :

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾

[سورة العصر]

الإله يقسم و يقول لك : أنت أيها الإنسان خاسر ، خاسر لا محالة ، يا ربي لماذا أنا خاسر ؟ لأن مضي الزمن وحده يستهلك الإنسان ، وسوف ترى بعد حين أن أثمن شيء تملكه

على الإطلاق هو الوقت ، الوقت وعاء عملك ، لو إنسان أصيب بمرض عضـال ، ويحتـاج لعملية بأمريكا تكلف أربعة ملايين ، و ثمن بيته أربعة ملايين ، لا يتردّد ثانية واحدة في بيـع بيته و استئجار بيت سياحي لإجراء العملية ، يرى أن يعيش سنوات معدودات زيادة أفضـل من هذا البيت الذي يملكه ، إذًا الإنسان يؤمن بأعماقه أن الوقت أثمن من المال ، انظـر إلـى إنسان أمام الحاوية مسك بيده مبلغاً من المال وأحرقه ، تقول هذا مجنون ، هذا ليس من عمل العقلاء .

هناك ألماسة شاهدتها في إستنبول في متحف ثمنها مائة و خمسون مليون دولار ، هي بحجم البيضة ، موضوعة على قماش أخضر ، وعليها إضاءة شديدة ، و ا ِ كأنهـ ـا شمس ، لو فرضنا وضعت على طاولة ، ووضع إلى جانبها كأس كريستال ثمنه ألف ليرة ، وبجانبها وعاء أزرق ثمنه عشرون ليرة ، وطلب منك أن تختار فاخترت الرخيص وتركـت الثمـين ، فمثل هذا كمثل الذي يختار الدنيا ويدع الآخرة قال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

[سورة الكهف]

فالذي يتلف ماله يحكم عليه بالسفه ، و يحجـر على تصرفاته ، و الذي ينفـق وقتـه سدى في متابعة المسلسل أو في لعب النرد أو في الغيبة و النميمة أليس ينفق وقتـه جزافـاً ، الذي أحرق مائة ألف اتهمته أنت بالجنون ، و الذي أتلف وقته أشد منه جنونـاً ، مـر أحـد العلماء أمام مقهى يلعب فيه من يلعب النرد فقال : "يا سبحان ا لو أن الوقت يشـترى مـن هؤلاء لاشتريناه منهم "

عود على بدء أقول كلما صحّت عقيدتك كلما أدركت من أنت ، كلمـا ازداد تعلقـك بالدار الآخرة انعكس هذا على حركتك اليومية انعكس على نظرتك ، على استماعك ، علـى لسانك ، المؤمن يلغي ألف قصة ، و يهم أن يحكي قصة ، هذه لا تفيد ، هذه تعمـل تفرقـة ، هذه القصة تعمل حزناً ، مثلاً رجل غني سافر ورجع ، جاء أقرباؤه لزيارته وفـيهم موظـف دخله محدود ، و له أخ صغير لا يملك قطمير ، جلس يحدثهم نزلنا في فندق كلفني ثمانين ألف ، ذهبنا إلى المحل الفلاني ، هذا الكلام ما فائدته ؟ تتباهى بدخلك الكبير ، بإنفاقك العالي ، أنت كسرت قلبه ، فلما يعرف الإنسان سر وجوده في الحياة ، هناك رقابة ذاتيـة عاليـة جـداً ، فيضبط كلامه ، المؤمن يتمنى هداية الخلق ، لأنه هو بالتعبير الحـديث اسـتراتجيته العـام الصالح ، حتى لو حاور إذا نصح ينصح على انفراد ، الفرق بين بين النصيحة والفضـيحة ،

الفضيحة أمام ملأ ، أما النصيحة على انفراد ، هدفه أن يأخذ بيد الأخ ، وليس هدفه أن يحرجه ، الكافر هدفه يحرج ، عنيف ، المؤمن رفيق ،وقد قال عليه الصلاة و السلام عن عائِشَـةَ أن النبِي صلى الله علَيه وسلم قَالَ :

"ما كان الرفْقُ في شَيء قَط إلا زانَه ولا عزِلَ عن شَيء إلا شَانَه"

[رواه أحمد]

و أنت في عملك التجاري تأتيك صفقة رابحة جدا ، لكن لا ترضي ا ، ارفضـها ، أما غير المؤمن لا يرفضها ، بالعكس يتهم من رفضها بالجنون ، فالعبرة أن تكـون قناعـات صحيحة و عقيدة صحيحة و تصورات صحيحة عن الكون و الحياة و الإنسان تجـد أن هـذا الفهم العميق و العقيدة المتينة انعكست سلوكاً ، قويماً في حياته ، وهذا السلوك القويم هو ثمن الجنة .

وفيهم موظف دخلـه محدود ، و له أخ صغير لا يملك قطمير ، جلس يحدثهم نزلنـا في فندق كلفني ثمانين ألف ، ذهبنا إلى المحل الفلاني ، هذا الكلام ما فائدته ؟ تتباهى بـدخلك الكبير ، بإنفاقك العالي ، أنت كسرت قلبه ، فلما يعرف الإنسان سر وجوده في الحياة ، هناك رقابة ذاتية عالية جداً فيضبط كلامه ، المؤمن يتمنى هداية الخلق ، لأنه هو بالتعبير الحديث استراتجيته العلم الصالح ، حتى لو حاور إذا نصح ينصح على انفـراد ، الفـرق بـين النصيحة والفضيحة ، الفضيحة أمام ملأ ، أما النصيحة على انفراد ، هدفه أن يأخذ بيد الأخ ، وليس هدفه أن يحرجه ، الكافر هدفه يحرج ، عنيف ، المؤمن رفيق ،وقد قال عليه الصلاة و السلام عن عائِشَةَ أن النبِي صلى الله علَيه وسلم قَالَ :

"ما كان الرفْقُ في شَيء قَط إلا زانَه ولا عزِلَ عن شَيء إلا شَانَه"

[رواه أحمد]

و أنت في عملك التجاري تأتيك صفقة رابحة جدا ، لكن لا ترضي ا ، ارفضـها ، أما غير المؤمن لا يرفضها ، بالعكس يتهم من رفضها بالجنون، فالعبرة أن تكـون قناعـات صحيحة و عقيدة صحيحة و تصورات صحيحة عن الكون و الحياة و الإنسان تجـد أن هـذا الفهم العميق و العقيدة المتينة انعكست سلوكاً ، قويماً في حياته ، وهذا السلوك القويم هو ثمن الجنة .

وبالمناسبة قال تعالى :

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

[سورة البقرة]

نهاية الآية ، قال تعالى :

فِى ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ

[سورة البقرة]

الإنسان في هذا العصر آلاف السيوف مسلّطة عليه ، أحدها سيف الأمـراض ، مـن يضمن لليوم القادم أن تعمل أجهزتـه عملاً سليماً ؟ لا أحد يضمن ، هناك أمراض مخيفة ، هناك أمراض عضالة وهناك أمراض مميتة ، من يضمن سلامته من حـادث سـير ؟ مـن يضمن أن يقع في ورطة وهو بريء منها ؟ طبيعة العصر الحياة معقدة جداً ، معنى ذلـك أن الإنسان محطم نفسياً ، الإنسان قلق ، هذا ما عبّر عنه الأطباء بالشدّة النفسية ، ضغط شـديد ، اسمع ما قال النبي عليه الصلاة والسلام :

" **عن معاذ بن جبلٍ قالَ : كُنْتُ رِدفَ النبي صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينَه إلا مؤْخرةُ الرحل ، فَقالَ : يا معاذَ بن جبلٍ ، قُلتُ : لبيك رسولَ الله وسعديك ، ثُم سار ساعةً ثُم قالَ : يا معاذَ بن جبل ، قُلتُ : لبيك رسولَ الله وسعديك ، ثُم سار ساعةً ثُم قالَ : يا معـاذَ بن جبلٍ ، قُلتُ : لبيك رسولَ الله وسعديك ، قالَ : هلْ تَدرِي ما حق الله على الْعباد قـالَ : قُلتُ : الله ورسولُه أَعلَم ، قالَ : فَإِن حق الله على الْعباد أَن يعبدوه ولا يشْرِكُوا به شَيئًا ثُم سار ساعةً قالَ : يا معاذَ بن جبلٍ ، قُلتُ: لبيك رسولَ الله وسعديك ، قالَ : هلْ تَدرِي ما حق الْعباد على الله إِذَا فَعلُوا ذَلك ؟ قالَ : قُلتُ : الله ورسولُه أَعلَم ؟ قالَ : أَن لا يعذِّبهم** . "

[رواه مسلم]

يطيعوه ، اسمع أنت الحديث و اطمئن ، أن يا ربي عليّ أن أطيعك و عليّ أن أعبدك ، علي ألاّ أخالف أمرك ، و الباقي عليك ، أن تحفظني ، أن ترحمني ، أن تسدد خطـاي ، أن تلهمني رشدي أن ترزقني رزقاً حلالاً ، أن ترزقني زوجة صالحة ، أن ترزقني أولاداً أبراراً ، أن تسعدني بقربك أنت عليك شيء ، قال تعالى :

ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ

[سورة الزمر]

الإنسان أحياناً يعتدّ بقوته فيؤدبه ا ، فالإنسان حينما يكون مع ا عمله سديد ، فأنت جئت إلى الدنيا فماذا فعلت في الدنيا ؟ المؤمن يستغل حياته الدنيا ، ا عزوجل يبـين قيمـة عملك في الحياة الدنيا فيقسم بعمر إنسان ، لقد أقسم بعمر النبي ، قال تعالى :

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

[سورة الحجر]

لأنه جاء إلى الدنيا و ما فرّط بثانية ، و لا بدقيقة ، ترك الهدى في الأرض ، و كـل من اهتدى في صحيفته .

لا تسمح لهموم الحياة أن تنسيك هدفك الكبير ، يمكن أن يكون لك عمل له دخل كبير ، لكنه استغرق كل وقتك ، فالعمل الذي يمتص كل وقتك خسارة كبيرة ، لأنه ألغى وجودك ، ألغى سر وجودك في الأرض ، ولا بد من وقفة من حيـن لآخر مع نفسك ، لا بد من وقفة متأنية بينك و بين ذاتك، يا ترى أنا عملي صحيح أم غلط ، ، يا ترى هـل يرضـي ا أم لا يرضي ا ؟ أهل الدنيا ما حجّتهم ؟ وجدنا الناس يفعلون هذا ففعلناه ، قـال عليـه الصـلاة والسلام :

ـِ" عن حذَيفةَ قاَلَ : قاَلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : لا تكُونوُا إِمعةً تقَُولُون إِن أَحسن الناس أَحسنا وإِن ظلَموا ظلََمنا ، ولكَن وطنوُا أَنفْسُكمُ إِن أَحسن النـاس أَن تحُسـنوُا وإِن أَساءوا فلَا تظَلْموا ."*

[رواه الترمذي]

أسباب سعادته بيده ، سعادته تنبع من طاعته عزوجل ، فلا بد من طلـب العلـم ، الإنسان إن لم يطلب العلم تحرك كالبهائم تماماً ، و لا بد مع طلب العلم من تحقق هذا العلم في الحركة اليومية ولا بد من أن تجعل سعادتك بالقرب من ا عزوجل ، عن طريق الصلاة و الصيام و الحج والزكاة .

و الحمد رب العالمين

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع السابع السادس والتسعين من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ونحن على وشك الانتهاء من هذه الدروس ، فإذا وصلت إلى المائة بتوفيق ا عزوجل ننتهي من هذه المجموعة من الدروس ، أردت أن تكون الدروس الأخيرة ، تلخيصاً لهذه المجموعة من دروس مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، أعظم كتاب بين أيدينا كلام ا عزوجل ، إليكم طائفة من الآيات الكريمة التي تبين أن العبادة هي كل شيء في حياة الإنسان خُلق ليعبد ا ، و العبادة تشمل كل أوقاته و كل أحواله و كل حركاته و سكناته ، بل إن أعلى مرتبة يصل إليها الإنسان على الإطلاق أن يكون عبداً ، يقول ا عزوجل :

لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾

[سورة النساء]

هذا مقام الأنبياء ، قال تعالى :

لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾

[سورة النساء]

وقال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

[سورة الأعراف]

في هذا العصر مفهوم التألّق ، هذا المفهوم جاءنا من الغرب ، الإيمان بالإنسان المتجبر القوي المتغطرس ، الذي يعيش على أنقاض الآخرين ، الذي يبني مجده على تدمير الآخرين ، هذا الإنسان المتألق الذي جاء نموذجه من الغرب يتناقض مع العبودية ، المسلم

عبد ، له منهج وله كتاب ، وله سنة ، مقيد بالشرع ، يعتقد ما في القرآن و يرفض ما يناقضه، يطبق ما جاء به النبي العدنان ويرفض ما يخالفه ، أنا أؤكد على مفهوم العبودية ، أنت لأنك مسلم فأنت عبد ، ليس معنى أنك عبد أنك ضعيف ، قد تكون قويا بقوة ا ، و قد تكون عليما بعلم ا ، و قد تكون شجاعا بمدد من ا عز وجل ، هؤلاء الذين عبدوا ا هم في أعلى درجات القوة ، و في أعلى درجات الحكمة ، وفي أعلى درجات الشجاعة، أما حينما يعبد المرء شهوته ، أو يعبد جهة دون ا عزوجل يذلّ أيما إذلال ويضعف ايما ضعف ، لأنه ترك ا عزوجل فأوكله ا إلى نفسه ، قال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢٠٦﴾

[سورة الأعراف]

وقال تعالى :

وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ

عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ

﴿٢٠﴾

[سورة الأنبياء]

و قال تعالى :

وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ

عِبَادَتِهِۦ

[سورة الأنبياء]

"عنده" ماذا تعني ؟ أي في ملكه ، هل هناك مخلوق خارج عن ملكه ، كل المخلوقات في ملك ا عزوجل :

لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ

عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾

[سورة الأنبياء]

وقال تعالى :

وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا

[سورة الفرقان]

" عباد ا لرحمن " أضيف العباد إلى الرحمن إضافة شرف ، نحن أُضفنا في هذه الآية إلى الرحمن ، كأن تقول : هذا من عندي ، وهذا يخصني ، هذا منتمٍ إلي ، هذا محسوب علي ، وقال تعالى :

عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ٦

[سورة الإنسان]

عباد ا ، و قال تعالى :

وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ

[سورة ص]

عبدنا ، وصف بأنه عبد ، إذًا الأنبياء العظام و المرسلون الكرام وصفوا بأنهم عبيد عزوجل ، فمن نحن حتى نستنكف ، و قال تعالى :

وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ

[سورة ص]

و قال تعالى "

وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ

[سورة ص]

و قال تعالى :

نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٣٠

[سورة ص]

و قال تعالى :

إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ

[سورة الزخرف]

و قال تعالى :

كُنتُمۡ فِى رَيۡبٍ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا

[سورة البقرة]

على محمد عليه الصلاة و السلام ، و قال تعالى :

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ

[سورة الفرقان]

و قال تعالى :

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَـٰبَ

[سورة الكهف]

نبينا عليه الصلاة و السلام ، و سيدنا إبراهيم ، و أيوب ، و موسى ، كلّهم عباد عزوجل كيف تقول الآن : أعلى مرتبة علمية الدكتوراه مثلا ، فلان حاز لقب الدكتوراه ، أنت وصفته بأعلى مرتبة علمية ، في الدنيا إن أردت أن تصف إنسانا بأعلى مرتبة دينية تقول : هو عبد ، و لماذا يحب المؤمن ؟ لأنه عبد ، متواضع ، يتواضع لكل الخلق ، منصف لا يجحد ، شكور لا يكفر عفيف لا يفجر ، صادق لا يكذب ، و أمين لا يخون ، لماذا يحب الناس المؤمن ؟ لن اشتق من أسماء ا الحسنى كمالات عاش بها ، بل إن الآية الكريمة :

وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ

[سورة الأعراف]

أنت لن تستطيع أن تدعو ا عزوجل و لن تستطيع أن تتصل به و لن تستطيع أن تقبل عليه إلا بكمال مشتق من كمال ا ، إن أردتم رحمتي فارحموا خلقي ، إن أردت أن تقبل على الرحيم و أن يقبلك الرحيم ينبغي أن تكون رحيماً ، إن أردت أن تقبل على العادل و يقبلك العادلُ ينبغي أن تكون عدلا ، فتجد المؤمن منصفا ، يقول الحق و لو على نفسه ، يكثر من كلمة أخطأت و اعذروني ، لم أكن منتبها لهذا الموضوع فسامحوني ، لا يركب رأسه ، و

لا يكابر ، ولا يتعنت ولا يبالغ ، النفس البشرية تكره الصفات الخسيسة و تحب الكمالات البشرية ، قال تعالى :

وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩

[سورة الجن]

و قال تعالى :

سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا

[سورة الإسراء]

أرايتم أن النبي عليه الصلاة و السلام حيثما وصف وهو في سدرة المنتهى وهو في أعلى مقام وصله مخلوق على الإطلاق قال تعالى :

فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١

[سورة النجم]

هناك علاقة طردية ، و أن هناك علاقة عكسية ، العلاقة الطردية أن شيئا إذا تحرك نحو الأمام تبعه الثاني نحو الأمام ، تتابع ، أما لاعلاقة العكسية الشيء إذا تقدم نحو الأمام تقدم الثاني نحو الخاف ، فالعلاقة بين العبودية وبين العزة علاقة ترابطية ، كلما ارتفع مستوى تعبدك عزوجل أعزك ا .

الأنبياء العظام رأوا من العز ما لا يوصف ، المؤمنون الكرام رأوا من العز ما لا يوصف قال تعالى :

فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ

[سورة الطور]

إذا كانت عين ا ترعاك من يستطيع أن يطالك ، إذا كنت مع ا فمن عليك ، وإذا كان ا عليك فمن معك .

كان يزورني شخص توفي - رحمه ا - ظلم زوجتين اثنتين ، تزوج الثالثة فكالت له الصاع عشرة أصوع ، يأتي و يبكي من شدة ما تقسو عليه زوجته الثالثة ، قال تعالى :

وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ

[سورة الحج]

قد يتطاول عليك أقرب الناس إليك ، قد يتطاول عليك من أنجبته أنت و من ربيته أنت ، أما إذا كنت مع ا يأتي عدوك اللّدود فيخدمك ، إن كنت مع ا خدمك عدوك ، و إن لم تكن معه تطاول عليك أقرب الناس إليك ، يقول عليه الصلاة و السلام كما في حديث :

"عن ابن عباس عن عمر رضي الله عنه أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قالَ : لا تُطْروني كما أَطْرتْ النصارى عيسى ابن مريم عليه السلام فإنما أنَا عبد الله ورسوله *."

[رواه أحمد]

مرة خطيب قال له كما جاء في حديث :

"عن عبد الله بن يسار عن قُتَيلةَ امرأة من جهينةَ أن يهوديا أتَى النبي صلى الله عليه وسلم فقَالَ : إنكم تُنَددون وإنكم تُشْركُون تَقُولُون ما شَاء الله وشئْتَ وتَقُولُون والكعبة فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذَا أرادوا أن يحلفُوا أن يقُولُوا ورب الكعبة ويقُولُون ما شَاء الله ثم شئْتَ."*

[رواه النسائي]

ماهذا القول : ما شاء ا و شئت ، و المؤمن الصادق لا يقبل أن يخضع الناس له خضوع العبيد ، لا يرضى لأخ من إخوانه أن يرفعه فوق مقامه ، هذا مقام ا عزوجل :

عن ابن عباس عن عمر رضي الله عنه أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قالَ : لا تُطْروني كما أَطْرتْ النصارى عيسى ابن مريم عليه السلام فإنما أنَا عبد الله ورسوله ."*

[رواه أحمد]

هل تصدق أنه ما من علاقة بين اثنين على وجه الإطلاق كعلاقة سيدنا رسول ا و سيدنا الصديق ، أعطاه ماله كله ، قال **: ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة ، إلا أخي أبا بكر ......"** قال عليه الصلاة و السلام : **ما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر ...."** وقع تحت يدي كتاب في فضائل الصحابة ، مؤلف الكتاب أحصى ثلاثمائة حديث صحيح لرسول ا في الثناء على سيدنا الصديق ، و مع ذلك حينما مات النبي عليه الصلاة و السلام ماذا قال الصديق ؟ أتصور أن قلبه تفطّر ، قال : **من كان يعبد محمداً فمحمد قد مات "** هكذا محمد ، لا كلمة نبي ا و لا رسول ا **" من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد ا فإن ا حي لا يموت "** أراد ترسيخ التوحيد ، سيدنا عمر عزل سيدنا خالدًا ، فقال له : **لِم عزلتني يا أمير المؤمنين** ؟ أمير المؤمنين ، و ثاني الخلفاء الراشدين حينما يعزل قائدا عسكريا معنى ذلك أن هناك وزراً قد ارتكبه سيدنا خالد ، أراد أن يطمئن على نفسه ، **يا أمير المؤمنين لِم عزلتني ؟ فقال له : و ا ِ إني**

لأحبك ، لِم عزلتني ؟ فقال له : و ا ـِ إني لأحبك ، وللمرة الثالثة قال له : لم عزلتني ؟ قال : وا ـِ ما عزلتك يا ابن الوليد إلا مخافة أن يفتتن الناس بك لكثرة ما أبليت في سبيل ا "، توهم الناس أن معركة فيها خالد لا تُهزم ، خاف على الناس من الشرك ، أراد أن يرسخ التوحيد فعزل خالدا و النصر مستمر ، من هو الذي ينصر إذًا ؟ هو ا .

أرأيتم إلى أصحاب رسول ا كيف كانوا على أعلى درجة من التوحيد ، و النبي عليه الصلاة و السلام يرسخ هذا المعنى ، يقول : **أنا عبد آكل كما يأكل العبد و أجاس كما يجاس العبد .....**" وسيدنا عمر بن عبد العزيز كان عنده ضيف ، و السراج انتهى زيته فانطفأ ، فقام عمر و أملا المصباح زيتا ، فالضيف استحيا ، قال له : **أنا أتمنى أن أفعل هذا عنك ، قال له : عندي خادم رأيته نائما كرهت أن أوقظه ، أما أنت فضيف ، و استخدامك من اللؤم ، قمت و أصلحت السراج و أنا عمر و عدت وأنا عمر** كان عليه الصلاة و السلام يخصف نعله و يحلب شاته و يرفو ثوبه ، و كان يصغي الإناء للهرة وكانت الجارية الصغيرة تأخذ بيده فتمشي فيلحقها إكراما لها ، هكذا كان عليه الصلاة و السلام ، أنا عبد آكل كما يأكل العبد و أجاس كما يجاس العبد ....." بل إن ا عزوجل بشّر عباده ، فقال تعالى :

فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ

[سورة الزمر]

ثم يخاطب ا عباده الطائعين قال تعالى :

يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾

[سورة الزخرف]

أما هذا الشيطان الذي أراد أن يغوي بني آدم قال ا له :

إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾

[سورة الحجر]

وقال تعالى :

إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

[سورة النحل]

بل إن النبي عليه الصلاة و السلام جعل الإحسان أعلى مراتب الإيمان ، هناك الإسلام و هناك الإيمان و هناك الإحسان ، وهذه مصطلحات النبي عليه الصلاة و السلام ، هناك الإسلام و هناك الإيمان ، قال تعالى

۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ

[سورة الحجرات]

الإسلام أولاً والإيمان ثانياً ، وثم الإحسان ، فما الإحسان ؟ أن تعبد ا كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، أعلى درجات القرب أن تكون محسنا ، و الإحسان أن تعبد ا .

علة وجودك على وجه الأرض أن تعبد ا ، قال تعالى :

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

[سورة الذاريات]

هنا نقطة دقيقة نحتاجها اليوم ؛ الإنسان له فورة ، في البدايات يتألّق ، ثم تخبو فورته و تبرد همته و تنقلب عباداته إلى عادات ، ا عزوجل يقول :

وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

[سورة الحجر]

يجب أن تعبد ا من المهد إلى اللحد ، لأن ا عزوجل يقول :

وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾

[سورة المدثر]

- أهل النار -

حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾

[سورة المدثر]

ما هو اليقين ؟ الموت :

وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾

[سورة المدثر]

اليقين هو الموت بإجماع المفسرين ، فإذا قال ا عزوجل :

وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

[سورة الحجر]

معنى ذلك أنه الموت ، سيدنا عثمان بن مظعون بلغ النبي أنه توفي ، فقال عليه الصلاة والسلام : **أما عثمان فقد جاءه اليقين ....**"

هناك تعليق لطيف لسبب تسمية الموت باليقين ، لأنك تتيقن عند الموت من كل حقيقة جاء بها الأنبياء ، فرعون الذي قال : أنا ربكم الأعلى، و الذي قال :

مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى

[سورة القصص]

فرعون نفسه حينما أدركه الغرق أيقن بما جاء به موسى ، قال تعالى :

ءَامَنتُ

بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾

[سورة يونس]

أي إنسان يموت تُكشف له الحقائق التي جاء بها الأنبياء ، و لكن تُكشف له بعد فوات الأوان ، أما المؤمن تُكشف له في الوقت المناسب ، لذلك حينما قال ا عزوجل :

وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

[سورة الحجر]

أي من المهد إلى اللحد ، يعني ما أدري أن الشيء انقرض ، هناك في بعض العصور من يتوهم شطحاً أنه من بلغ اليقين سقطت عنه التكاليف ، قال : من يقول بهذا فهو زنديق كافر ، لأنه أنا بلغت درجة من الرقي لا أحتاج إلى صلاة ، و لا إلى غض بصر ، و لا إلى فعل المعروف ، يجب أن تعبد ا حتى يأتيك اليقين ، حتى يأتي الموت ، يروى أن الإمام

أحمد بن حنبل قبل موته كان يقول : كلا بعد ، كلا بعد ، من حوله تعجب ، ما معنى هذا الكلام ؟ فلما توفي رحمه ا تعالى رآه بعضهم في المنام ، قال: يا سيدي لِم قلت : كلا بعد قال : جاءني الشيطان فقال لي : لقد نجوت يا أحمد، قلت : كلا بعد ، لا أنجو إلا حينما أموت على الإيمان ، قال تعالى :

وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾

[سورة الحجر]

حتى النهاية ، حتى الموت .

العبودية عامة وخاصة ، العامة ما من مخلوق شاء أم أبى ، آمن أم كفر ، أقبل أم أدبر صدق أم كذّب إلا وهو عبد ، واحد منا هل يدري متى سيموت ، وا ِ قبل أيام لي صديق عمره أقل من خمسين سنة لا يشكو شيئا إطلاقا ، في أقل من عشر دقائق كان من الموتى ، فهو عبد إذًا ، هل يملك حياته ، من منا يملك حياته ، من منا يملك بقاء حركته ؟ خثرة من الدم أقل من عشر الميليمتر المكعب ، إذا تجمدت في بعض أوعية الدماغ شلّ الإنسان ، لا نملك بقاء حركتنا و لا نملك سمعنا و لا نملك بصرنا ، لا نملك نطقنا ، ولا نملك ذاكرتنا ، رجل وا ِ أحسبه صالحا ، ضعفت ذاكرته دخل عليه ابنه فقال له : من أنت ، لا تملك قوتك ، و لا سمعك و لا بصرك و لا ذاكرتك و لا نطقك و لا دسامات قلبك ، و لا الشريان الأبهر و لا الشريان التاجي ، ولا عمل الكليتين ، من منا يملك جهازاً من أجهزته ، إذا تعطل ؟ وأي جهاز إذا تعطل دخل الإنسان في حياة هي كالجحيم لا يطاق ، إذًا نحن عبيد ، نحن عبيد قهر ، أي إنسان يتحرك لأن ا سمح له أن يتحرك ، يتكلم لأن ا سمح له أن يتكلم يأكل لأن ا سمح له أن يأكل ، ينام لأن ا سمح له أن ينام ، و في آية لحظة يريد ا شيئا آخر تتعطل أجهزته ، إذًا هذه عبودية ، و لكن هذه عبودية القهر ، والإنسان الملحد لو تجمدت خثرة دم في دماغه فأصيب بالشلل ، هذا الملحد هو عبد ، هو في قبضة ا ، هذه عبودية القهر ، كيف عبر عناه القرآن ؟ عبر عنها بكلمة عبيد ، قال تعالى :

وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ

﴿٤٦﴾

[سورة فصلت]

أما هذا الذي فكّر في خلق السماوات و الأرض فعلم أن لهذا الكون إلهاً عظيماً فاستقام على أمره و أحبه و اقبل عليه و عمل الصالحات و بذل الغالي و الرخيص و النفس و النفيس

، هذا عبد آخر ، هذا عبد الشكر ، كل مخلوق عبد قهر ، و المؤمن عبد شكر ، و كلمة عبد الشكر يجمع على عباد ، قال تعالى :

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا

[سورة الفرقان]

و قال تعالى :

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ

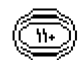
[سورة الحجر]

لو تتبعت كلمة عباد في القرآن لوجدت في الأعم الأغلب أن كلمة عباد تعني جمع عبد الشكر و لو تتبعت كلمة عبيد في أكثر آيات القرآن لوجدت أن كلمة "عبيد" تعني جمع عبد القهر ، فأنت عبد شئت أم أبيت، أحببت أم كرهت ، آمنت أم لم تؤمن ، رضيت أم لم ترض ، أما عبد الشكر فشيء آخر .

مثل بسيط ؛ جندي في قطعة عسكرية ، طبعا تحت أمر قائد القطعة ، يأمره أن يجلس فيجلس أن ينام فينام ، أن يأمل فيأكل ، أن يزحف فيزحف ، تحت أمره ، أما لو أن جنديا أحب قائده حبا جما و رأى في بعض الأيام ابنه على وشك الغرق ألقى بنفسه و أنقذه ، هذا المجند له مكانة كبيرة جدا عند قائد الثكنة ، لأنه قدم شيئا ، أنقذ ابنه من الغرق و ضحى بحياته ، فهذا هو في الحقيقة أمر قائد السرية نافذ فيه ، لكن هذا العبد له مكانة كبيرة عند قائد السرية .

مجند غر التحق بلواء ، بآمرية لواء ، على رأس هذا اللواء لواء ، قائد كبير ، بحسب التسلسل العسكري لا يستطيع مجنّد غر أن يدخل على اللواء ، هناك تسلسل ، قدم طلبا وأعطاه لأعلى منه ، بعد شهرين يسمح له بالدخول ، أما لو أن هذا المجند رأى ابن قائد هذا اللواء يكاد يغرق فأنقذه ، ألا يستطيع في اليوم التالي أن يدخل عليه من دون استئذان ؟ قال تعالى :

فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا



[سورة الكهف]

أبواب ا مفتحة ، الطرق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، أتحب أن تلتقي مع ا ؟ أن تتصل به ؟ اعمل صالحا ، يا موسى أتحب أن أكون جليسك ؟ قال: كيف ذلك يا ربي ؟ قال : أما علمت أنني جليس من ذكرني، وحيثما التمسني عبدي وجدني .

هناك عبد القهر و هناك عبد الشكر ، عبد القهر تجمع على عبيد ، و عبد الشكر تجمع على عباد ، عبد القهر في قبضة ا ، أما عبد الشكر تفكر في كونه و آمن به و أحبه و استقام على أمره و اصطلح معه ، ، أقبل عليه وسعد بقربه ، لذلك قال ا تعالى :

فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ

[سورة الطور]

أنت بعنايتنا و لطفنا .

للعبودية مراتب بحسب العلم و العمل ، فأما مراتب العلم فمرتبتان ، العلم با ، و العلم بأمره هناك آيتان ، قال تعالى :

فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾

[سورة الفرقان]

من أجل أن تعرف ا فاسأل به خبيرا ، من أجل أن تعرف أمره و نهيه:

فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾

[سورة الأنبياء]

إن أردت أن تعرفه فاسال به خبيراً ، لذلك قال العكبري في كتاب " إعراب القرآن الكريم" : تؤخذ ألفاظه من حفاظه - تؤخذ ألفاظ القرآن الكريم من حفاظه - وتؤخذ معانيه ممن يعانيه " لو أن امرأة عاقراً لا تنجب وضعها مع زوجها خطر ، على وشك أن يطلقها ، كلما رأت أما تحتضن ابنها تذوب الماً ، و لأنها حرمت هذه النعمة ، هناك قصة لبعض الأدباء اسمها " العاقر" فيها وصف دقيق جدا لمشاعر المرأة العاقر ، لو أن هذه المرأة العاقر قرأت قصة " العاقر" أنا متأكد أنها ستبكي لأن ما يقوله مؤلف هذه القصة تعانيه هي ، لأنه يعزف على أوتار قلبها ، لأنه يضع يده على جرحها ، و لأنه يصف تجربتها ، ولأنه يحال مشكلتها ، فتأثر هذه المرأة العاقر بقصة العاقر كبير جدا لأنها تعاني كل شيء يذكره الكاتب في هذه

القصة ، لو أن امرأة عندها أولاد كُثُر وقرأت هذه القصة لا تتأثر أبداً هذا مثل تمهيدي ، الآن اجلس في المجالس و استمع إلى كتاب ا ، تجد رجلاً يبكي، ورجلاً آخر لا يبكي أبداً ، و كأنه حائط ، الذي بكى له مع ا تجربة ، له مع ا معاناة ، مرة ذكرت حديثا قدسيا لإنسان له عمل طيب جداً ، له أعمال كالجبال ، في خدمة الناس ، إطعام جائعيهم ، و العناية بمرضاهم ، قلت : **ليس كل مصل مصليا ، إنما تقبل الصلاة لمن تواضع لعظمتي ، و كف شهواته عن محارمي ، ولم يصر على معصيتي ، وأطعم الجائع و كسا العريان ، ورحم المصاب ، وآوى الغريب ، كل ذلك لي ، و عزتي و جلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس ...**" وا ِ بكى بكاء خفت عليه ، أن هذا الحديث أشعره بعمله الصالح ، إذًا كل هذا بترجيح أن معانيه تؤخذ ممن يعانيه ، إذا كنت تعاني القرب من ا تذوب شوقا إليه ، تبكي إذا سمعت كلامه ، تتأثر إذا سمعت كلام نبيه ، أما إذا كنت بعيدا ، فقال تعالى :

أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾

[سورة فصلت]

فالعبودية لها مراتب بحسب العلم و العمل ، مرتبة العلم مرتبتان ؛ إحداهما العلم با تغطيها آية كريمة :

فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾

[سورة الفرقان]

و العلم بأمره :

فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾

[سورة الأنبياء]

أما العلم بذاته سبحانه و تعالى فالعلم بذاته و صفاته و أفعاله و أسمائه و تنزيهه عما لا يليق به .

أما العلم بأمره و نهيه ، العلم بأمره الشرعي وهو الصراط المستقيم :

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

[سورة الفاتحة]

و الشيء الثاني العلم بالأحكام الجزائية المتضمنة الثواب و العقاب ، كل معصية مع عقابها فصار هناك العلم بالله و بأمره و نهيه ، العلم بالله بذاته ، و بأسمائه و صفاته و أفعاله و تنزيهه والعلم بأمره ونهيه الصراط المستقيم و الجزاء الذي يتوعد كل من يخالف هذا الصراط .

أما المراتب العملية فهناك مرتبة لأصحاب اليمين ، و مرتبة للسابقين المقربين ، أما مرتبة أصحاب اليمين أداء الواجبات و ترك المحرمات ، مع ارتكاب المباحات و بعض المكروهات ، و ترك بعض المستحبات ، هذه مرتبة أصحاب اليمين ، أي ناجح مقبول ، حول المعدل ، أصحاب اليمين يؤدون و يدعون المحرمات ، لكن يتوسعون في المباحات ، و قد يقعون في بعض المكروهات ، وقد يتركون بعض المستحبات ، أما المقربون ، أما السابقون السابقون أؤلئك المقربون يقومون بالواجبات والمندوبات و يدعون المحرمات و المكروهات زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم متورعين عما يخافون ضرره ، قال تعالى :

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

[سورة المؤمنون]

منهم مقتصد و منهم سابق بالخيرات ، هناك مرتبة شرف أولى ، جيد جداً، وهناك مقبول ، فأهل اليمين مقبولون عند الله ، و السابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم .

خاصة هؤلاء المقربين انقلبت في حقهم طاعات وقربات بالنية ، إذا أكل ينوي بطعامه التقوية على طاعة الله ، المباحات عندهم عبادات ، بينما المنافقون عباداتهم آثام .

و الحمد لله رب العالمين .

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، لازلنا في مدارج السالكين وفي منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، و لكن نحن في الدروس الأخيرة ، بقي درسان ، ومن أصول عرض الموضوعات الطويلة أنـه في النهاية يلخص الأسس الكبرى لهذا الدروس .

كلمة التوحيد الأولى ، ولا بد من أن أنوه إلى أن هذه الكلمات الكبرى في الإسـلام مـع مضي الزمن ومع ضعف الإيمان ومع الانغماس في الدنيا أصبح المسلمون بعيدين عن حقيقتها ، و كأنه فُرغت من معناها ، ككلمة لا إله إلا ا يقولها المسلم في اليوم مئات المرات ، ولـو فقه حقيقتها لارتعدت مفاصلُه قالوا : شدة القرب حجاب ، والنبي عليه الصلاة و السلام حينما سأله أعرابي :

"عن سفْيان بن عبد الله الثقفي قَالَ : قُلْتُ يا رسولَ الله قُلْ لِي في الإِسلامِ قولاً لا أَسأَلُ عنْه أَحدا غَيرك ، قَالَ : أَبو معاويةَ بعدك ، قَالَ : قُلْ : آمنْتُ بِالله ثُم استَقم ."*

[رواه أحمد] .

قل ، لأن القول يعبر عن حقيقة ، و لأن الأنبياء جاؤوا بالكلمة الصادقة ، فلذلك في البـدايات يكفي أن تقول : لا إله إلا ا فأنت مؤمن ، أما مع مضي الزمن هناك من يقول لا إله إلا ا و لكنه لا يفقه معناها هناك من يرددها و لا يدرك أبعادها ، و سأقدم لكم بعد الأدلـة ، كلمـة (ا أكبر) أكبر من كل شيء فالإنسان حينما يطيع زوجته و يعصي ربه ، بجرأة بالغة لماذا فعل هذا ؟ لأنه رأى أن إرضاء زوجته أكبر عنده من ا ، فهل قال هذا الإنسان : ا أكبـر حقيقة ؟ مستحيل و ألف ألف مستحيل ، إنسان يغش المسلمين في بضاعتهم هو مـاذا رأى ؟ رأى أن هذا الربح الحرام الذي يأتيه من غش المسلمين أغلى عنده مـن طاعـة ا ، ومـن رضوان ا ، فهل يصح أن يقول هذا الإنسان : ا أكبر ؟ كم إنسان يغش المسلمين ويقـول : ا أكبر في الصلاة ، كلام لا معنى له إطلاقا ، لا يعني شيئا ، تأكل المال الحـرام ة تـؤذي المسلمين و تقول : ا أكبر ، أكبر من ماذا ؟ لذلك كنت أقول : من قال : ا أكبر بلسـانه و رأى أن إرضاء أهله أكبر عنده من إرضاء خالقه ، أو رأى أن ربحه من بضاعة مغشوشـة يؤذي بها المسلمين أكبر عنده من رضوان ا ، فهو ما قال : ا أكبـر و لا مـرة ، و لـو رددها بلسانه ألف مرة ، صار هناك كلمات كبيرة مفرغة من مضمونها ، شدة القرب حجـاب .

لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولُها ، ينبغي أن نعود إلى الينابيع الصـافية ، ينبغي أن نعود إلى كتاب ا ، و إلى سنة رسول ا ، كلمات الإسلام الكبرى ، ا أكبر ، لا إله إلا ا ، الحمد سبحان ا ، كم إنسان يقول : سبحان ا ، و لا يعي ما يقول ، إن أراد أن يستهزئ بإنسان : سبحان ا يستخدمها ليستهزئ بأخيه ، قد يستخدمها ليعجب بامرأة شبه عارية ، سبحان ا ، هكذا ، هذه الكلمات الكبرى فُرغت من مضمونها ، و لا معنـى لهـا ، وشدة القرب حجاب ، نريد أن نعيد إلى هذه الكلمات مضامينها ، لهذه الكلمات الأولى أبعادها .

اليوم أردت أن يكون هذا اللقاء حول : لا إله إلا ا ، كلمة التوحيد الأولى ، الكلمـة التي هي فحوى دعوة الأنبياء جميعـ ـا ، كم كتاب في الإسلام؟ في العالم الإسلامي ، ملايين الملايين ، المكتبة الإسلامية اليوم فيها من المجلّدات و الكتب و العنوانات و الموضوعات مـا لا سبيل إلى إحصائه ، أيمكن أن تُضغط كل هذه الكتب بكلمة واحدة ؟ هـي لا إلـه إلا ا ، أيمكن أن تُضغط كل أفكار الديانات السابقة السماوية بكلمة واحدة هي لا إله إلا ا ، قـال تعالى :

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾

(سورة الأنبياء) .

لا إله إلا ا حصن ، لا إله إلا ا نور ، و لكن المسلمين بعيدون جـدا عـن فهـم أبعادها ، لأنها كلمة التوحيد الأولى ، و لأنها كلمة العبادة الأولى ، لا معبود بحـق إلا ا ، " إِله " أي وله ، أحب ، أساس هذا الدين المحبوبية ، كان من الممكن أن يجبرنا ا على طاعته جميعاً ، بالخمس قارات لا يوجد و لا معصية ، كل المخلوقات عدا الإنس و الجن مسيرون ، قال تعالى :

لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾

(سورة يس) .

أيعقل أن تقول الشمس يوماً : أنا اليـ ـوم لا يعجبني أن أشرق ، مزاجي لا يتفق مع الإشراق نستيقظ ليس هنـ ـاك شمس ، لا ، الشمس مسيرة و مسخرة ، والقمر كذلك ، وكل

أنواع المعادن وأشباه المعادن ، كل أنواع النبات و الحيوان ، كل أنواع المخلوقات مسـيرة ، ليس لك خيار ، كان من الممكن أن يكون هذا الإنسان مسيرا أيضـا ، لا تجـد فـي الأرض معصية واحدة ، لماذا أراد ا أن نكون مخيرين ؟ لأن الكون بنـي علـى المحبوبيـة، و ا ُ عزوجل لا يرضيه أن تأتيه خائفا ، و لا أن تأتيه مقهوراً ولا أن تأتيه مجبوراً ، يريد أن تأتيه محبا ، ويكون الإنسان محبا لما يكون مختاراً، يعني مثلاً ، لماذا شاءت حكمة ا أن يجعـل الأنبياء ضعفاء في بداية الدعوة ؟ سيد الخلق و حبيب الحق يمر على عمار بن ياسر يعذب لا يستطيع أن يخلصه ، ولا يستطيع أن يخفف من عذابه من شيء ، كان النبي مستضعفاً ، ماذا قال : صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة ..." استطاع أن يخلصهم ؟ سيد الخلق و حبيب الحق لم يتمكن أن يخاص عمار بن ياسر من التعذيب ، ولا بلالاً ، معنى ذلك أن النبي ضـعيف ، لماذا أراده ضعيفاً ؟ لو أنه كان قوياً دعا إلى ا وكل من دونه خضعوا له ، هذا الخضوع لا قيمة له ، هذا حضوع الرقاب لا خضوع القلوب ، أنت بالقوة تملـك الرقـاب ، و لا تملـك القلوب ، ولكنك بالحق و الكمال تملك القلوب فشاءت حكمة ا أن يكـون النبـي ضـعيفا ، ليكون الذي آمن به عن قناعة تامة ، وعن صدق شديد و عن حرية مطلقة و عن حب شديد ، لأن ا يريدنا أن نأتيه محبين طائعين مختارين كان الأنبياء ضعفاء ، لا أملك لكم نفعـا و لا ضرا ، لا أملك لنفسي نفعا و لا ضرا :

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ

(سورة الأعراف) .

قال تعالى :

قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾

(سورة الأنعام) .

ضعف شديد ، لماذا ؟ ليكون الذي آمن به آمن مختاراً عن حب و شوق و تقدير ، إذًا ا ُ عزوجل أراد المحبوبية ، وجعل الإنسان مخيرا ، لو كان مسيرا لانتهى .

تصور جامعةً أراد رئيسها أن ينجح كل الطـلاب مـن دون اسـتثناء ، وزع أوراق الإجابة و عليها الإجابة كاملة مطبوعة ، وما على الطالب إلاّ أن يكتب اسمه و رقمه ، خلال دقيقة ، و العلامة مائة على مائة كاملة ، طلاب الجامعة نالوا شهادات بدرجة امتيـاز ، مـا

قيمة هذا النجاح ؟ لا قيمة له إطلاقا ، لا يبنى له إطلاقا لا عند الناس ولا عند الطـلاب و لا عند الجامعة .

كلمة التوحيد أن تقول : لا إله إلا ا ، تنفي و تثبـ ـت ، تنفي الشرك ، أطمئـنكم : ليس في العالم الإسلامي شرك جلي ، لو ذهبت إلى آسيا لوجدت شركا جليا ، لوجـدت مـن يعبد النار ، لوجدت من يعبد البقر ، لوجدت من يعبد الحجر ، لوجدت من يعبـد الجـرذان ، هناك معبد كبير جدا فيه مائة ألف جرذ والإنسان إذا دخل هذا المعبد يعبد هـذه الجـرذان ، لوجدت من يعبد موج البحر ، هكذا ، فالمسلم يعبد ا عزوجل ، إذًا " لا إله " نفي الشركاء ، ليس في العالم الإسلامي شرك جلي ، و لكن في العالم الإسلامي شرك خفي ، الإمام علي كرم ا وجهه يقول : الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء على الصخرة الصـماء فـي الليلـة الظلماء " نملة سمراء تمشي على صخرة صماء في ليلة ظلماء ، لها صوت ، و أدناه أن تحب على جور ، و أن تبغض على عدل ، يعني ، إنسان قدم لك شيئا نفيسا وهو منحرف أحببتـه علامة توحيدك و علامة حبك في ا أنه إذا وصلك من مؤمن ضرر تبقى تحبه ، و أنـه إذا وصلك من منافق خير تبقى تبغضه ، أبدا هذا الإيمان ، وهذا هو الحب في ا و البغض فـي ا ، يأتيك خير من كافر أو منافق تبغضه ، يأتيك أحيانا إيذاء من مؤمن ، اجتهد فأخطأ فـي الاجتهاد ، أراد الخير فلم يصبه ، نالك منه أذى ، على أنه نالك منه أذى تبقى تحبه ، قضـية أن تحب في ا و أن تحب مع ا قضية خطيرة جدا الحب في ا عين التوحيد ، و الحب مع ا عين الشرك ، أن تحب في ا ، يعني إنك تحب ا ، و من لـوازم حبـك أن تحـب رسول ا ، ومن لوازم حب ا أنت تحب أصحاب رسول ا ، ومن لوازم حب ا أن تحب المؤمنين ، و من لوازم حب ا أن تحب القرأن الكريم و أن تحب المساجد وأن تحـب كلمـا يمت بصلة إلى ا ، هذا كله حب في ا ، ومن لوازم الحب مع ا أن تحب شيئا لا يحبه ا ، أن تحب شيئا يبغضه ا ، أن تحب صديقا ليس مطيعا ، شيء خطير جدا ، أن تحب في ا أو أن تحب مع ا أراد ا أن تأتيه محبا ، لا إله ، لا شريك لا فعال لا معط ، لا مانع ، لا قابض ، لا باسط ، لا معز ، لا مذلّ ، لا رافع ، لا خافض ، إلا ا ، نفي الشرك ، هـذه العين ترى القوم ، أما الإيمان فلا يرى إلا ا القوي ، قال تعالى :

وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ

رَمَىٰ

(سورة الأنفال) .

وقال تعالى :

فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ

(سورة الأنفال) .

في اللغة يمكن أن ينسب الفعلُ إلى الذي باشره أو إلى الذي أمر به ، بنى الأمير قلعـة ، هذا الآمر ، بنى البناء قلعة ، من القرآن قال تعالى :

ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ

(سورة الزمر) .

وقال تعالى :

۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ

(سورة السجدة) .

هذا الفعل عزي مرة إلى ا و مرة إلى ملك الموت ، فيمكن أن يعزى الفعـل إلـى المباشر أو إلى الآمر ، قال تعالى :

وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

رَمَىٰۚ

(سورة الأنفال) .

وقال تعالى :

فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ

(سورة الأنفال) .

هذا هو التوحيد ، لا إله ، هؤلاء الأشخاص الأقوياء الذين تراهم عينـك مـن هـم ؟ هؤلاء عصي بيد ا ، أدواتٌ تأديب للخلائق ، هذه رؤية المؤمن .

هناك آية في كتاب ا دقيقة جدا ، قال تعالى :

أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ

ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾

(سورة الشورى) .

قد نمر على هذا المعنى بشكل سريع ، لو دققت المشكلة كبيرة جدا ، قال تعالى :

أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ

ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

(سورة الشورى) .

الأمور صارت إلى ا ، بيد من كانت ؟ كأنها لم تكن بيد ا فصارت بيد ا ، وهو معنى فاسد قال علماء التفسير : الأمر كله بيد ا ، أزلاً أبدا، و لكن أهل الدنيا يرون الأمور بيد عبد ا ، لا بيد ا فإذا انتقلوا إلى دار الحق رأوها بيد ا ، أما المؤمن وهو في الـدنيا وهو في الآخرة لا يراها إلى بيد ا يرى يد ا تعمل في الخفاء ، الأحداث الكبـرى التـي تجري في العالم يراها بيد ا ، يرى أقوياء ا كأحجار الشطرنج ، يحركهم ا عزوجـل ، القوى العاتية يراها مسلطة من قبل ا ، لحكمة أرادها ا قال تعالى :

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ

عَلَيْكُمْ

(سورة النساء) .

أولاً ينبغي أن تؤمن أنه لا يعقل و لا يقبل و لا يستساغ أن يجري في ملـك ا مـا لا يريده ا ، إذا مدير حازم لمؤسسة أو مدرسة أو مستشفى لا يمكن أن يدخل طبيب لا علاقـة له بهذا المستشفى و يعالج مرضى ويتقاضى أجراً و المدير لا علم له ، مستحيل ، هذا لـيس مديرا ، إذا كان مديراً حقيقياً حازماً لا يمكن أن يدخل طبيب إلى هذا المستشفى و يعالج الناس بأجر دون أن يعلم المدير العام ، إله عظيم لا يجري في ملكه إلا ما يريد ، إذًا : لا إله إلا ا ، ا صاحب الأسماء الحسنى و الصفات الفضلى ، ا هو الخالق وهو المربي وهو المسير ، هو الموجود وهو الكامل ، ا عزوجل علَم على الذات ، علَم على واجب الوجود ، صـاحب الأسماء الحسنى و الصفات الفضلى ، لا إله إلا ا ، ممرض في المستشفى والمـدير العـام انتقل ، يقول لك ، من عينوا ؟ أول كلمة : من عينوا ؟ تقول له : فلان ، يقول لـك : كيـف أخلاقه ؟ الإنسان يريد أن يعرف من و كيف ؟ لا إله إلا ا وحده لا شريك له - منذ الصباح عقب صلاة الفجر - له الملك وله الحمد ، والإنسان قد يملك و لا يحمد ، وقد يحمد و لا يملك ، قد تجد إنساناً لطيف الأخلاق ، و لكن ليس بيده شيء ، و قد تجد إنسانا قويا جدا و لكن لا يحمد ، أما ا عز وجل فله الملك و له الحمد ، تبارك اسم ربك ذي الجلال و الإكرام .

في حياتنا اليومية ، قد تكون تحمل أعلى شهادة و لك أم أمية تحبها محبة لا يعلمها إلا ا ، لكن من حيث العلم لا شيء ، ابنها يحمل أعلى شهادة في الأرض ، عنده أفق واسع جدا ، و إدراك عميق اطلاع واسع ، وثقافة عالية ومؤلفات ، أمه أمية ، يحبها و يكرمها ، و لكن لا يمكن أن يقدر جهلها ، إذًا هو أكرمها و أحبها ، و لكنه لا يجلها علمياً ، طالب في الجامعة عنده أستاذ عظيم ، و لكنه لئيم أيما لؤم يقدره و يجل علمه و لكن لا يحبه ، ولكن انظر إلى هذه الآية :

تَبَـٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَـٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾

(سورة الرحمن) .

بقدر ما تعظمه تحبه ، و بقدر ما تحبه تعظمه ، شيء دقيق ، ذو الجلال الإكرام :

تَبَـٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَـٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾

(سورة الرحمن) .

هكذا ، "إذًا لا إله " لا معبود بحق إلا ا ، ينبغي أن نعبد الذي خلقنا ، ينبغي أن نعبد ربنا ، الذي يمدنا بما نحتاج ، ينبغي أن نعبد المسير ، الذي يسير كلّ الخلائق ، ينبغي أن نعبد الرحيم ، أن نعبد الحكيم، إذًا لا معبود بحق إلا ا ، هذا الذي تعبده ينبغي أن تحبه .

كنتُ في عيادة مريض هذا اليوم ، قلت له : ألا تحب ا ؟ الذي تحبه هو الذي ساق لك هذا المرض قلت له : وا ِ حديث قدسي صحيح ، لكن كلمة فيه لم أكن منتبها إليها ، يا داوود مرضت فلم تعدني قال : كيف أعودك و أنت رب العالمين ؟ قال : مرض عبدي فلان فلم تعده ، أما علمتَ لو أنك عدته لوجدتني عنده ، فبكى المريض ، قلت له : حينما يأخذ ربنا من عبد بعض صحته ، ليعوضه أضعافا مضاعفة في التجلي على قلبه، أما علمت أنك لو عدتـه لوجدتني عنده، " يا موسى أتحب أن أكون جليسك ؟ قال : و كيف ذلك يا رب ؟ قـال " أمـا علمتَ أنني جليس من ذكرني ، و حيثما التمسني عبدي وجدني هذه كلمة التوحيـد ، يعنـي الإنسان أحيانا يقيس ، قلت لكم من قبل : إن ضباط الأمن الجنائي أينما رأوا جريمة يطرحون هذا السؤال : فتش عن المرأة ، و أنا أقول لكم : أينما وجدت ضعفا فتش عن ضعف التوحيـد ، أينما وجدت تقصيراً فتش عن ضعف التوحيد ، أينما وجدت خوفاً مريعاً فتش عن ضـعف التوحيد ، إلى أن أقول لكم : هناك أعراض كثيرة جدا لمرض واحد ، لمرض الإعراض عن ا ، كل ما تعانيـه المجتمعات هي أعراض لمـرض الإعراض عـن ا ، أحيانـا يكـون الطبيب متمكنا يقـول له المريض: أشعر بصداع ، هذا من أعراض التهـاب الأمعـاء ،

أشعر بقيء ، هذا من أعراض مرض التهاب الأمعاء ، أشعر بقشعريرة ، هذا من أعـراض التهاب الأمعاء، أشعر ببعد عن الطعام ، هذا من أعراض التهاب الأمعاء ، ثم يقول : كل هذا الذي ذكرته لي أعراض لمرض واحد هو التهاب الأمعاء ، و أنا أقول لكم : كل مـا يعانيـه المسلمون أعراض لمرض واحد هو ضعف التوحيد ، لو أردت أن تأخذ تأشيرة خروج لبلـد معين ، أو لبلد له معاملة خاصة ، إذا تيقنت أن هذه التأشيرة لا يمنحها إلا المدير العـام هـل تبذل ماء وجهك أمام أحد الموظفين ، أنت حين تعلم أن هذه التاشيرة لا تُمـنَح إلا مـن قبـل المدير العام ، لا ترجو إلا هذا المدير العام ، ولا تعقد الأمل إلا عليه ، و لاتبذل ماء وجهـك إلا إليه ، ولا تتضعضع إلا أمامه ، هذه النقطة الدقيقة ، حينما تعلم أن الـرازق هـو ا ، لا تكذب من أجل أن تُرزق ، حينما تعلم أن العمر بيد ا كلمة الحق لا تقطع رزقا ولا تقـرب أجلا .

كلمة التوحيد " لا إله إلا ا محمد رسول ا ، فلا إله إلا ا كلمـة التوحيد الأولى ، فيها نفي وإثبات ثم إن هذا الإله هو ا ، صاحب الأسماء الحسنى و الصـفات الفضـلى ، " محمد رسول ا ، ا عزوجل كامل ، ولكن الكمال البشري مجسد برسـول ا ، رسـول ا عليه الصلاة والسلام سيد الخلق و حبيب الحق بلغ سدرة المنتهى :

ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾

(سورة النجم) .

هذا النبي الكريم بلغ أعلى مقام وصله بشر ، و مع ذلك كان عليه الصلاة و السـلام متواضعا أشد التواضع ، قال : من كنتُ جلدتُ له ظهرا فهذا ظهري فليقتد مني ، و من كنت أخذت له فهذا مالي فليأخذ منه ، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليقتد منـه ....." هو لا يخشى الشحناء فإنها ليست من شأنه و لا من طبيعته .

في السيرة مواقف لا تُصدق ، النبي عليه الصلاة و السلام طبعا وصل إلى قمة قوته ، عقب معركة حنين ، دانت له الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، كـان قويـاً ، بـدأ ضعيفا ثم صار قويا حينما قال لقريش : ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم و ابن أخ

كريم، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء " جاءه صحابي جليل فقال له : يا رسول ا إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم ، من أجل هذا الفيء الذي وزعته في العرب ، ولم تعط الأنصار منه شيئا " يا ترى أنت ناقل أم متبن ، قال له : يا سعد - سعد بن عبادة سيد الأنصار - أين أنـت مـن قومك ؟ قال : ما أنا إلا من قومي ، أي أنا كذلك قال : اجمع لي قومك فجمع قومه ، وقـف النبي فيهم خطيبا ، قال : أما بعد : مقالة بلغتني عنكم ، وجِدة وجدتموها علي في أنفسكم ، من أجل لعاعة من الدنيا تألفتُ بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، يا معشـر الأنصـار - وهو في أعلى درجة من القوة أما إنكم لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم و لصدقتم به ، ذكرهم بفضلهم عليه بمقدوره كما يفعل الأقوياء أن يلغي وجودهم ، وأن يهدر كرامتهم ، وأن يهملهـم ، وأن يعاتبهم لصالحه ماذا فعل ؟ ذكرهم بفضلهم عليه ، قال : يا معشر الأنصار ، أما إنكم لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم و لصدقتم به أتيتنا مكذبا فصدقناك ، وطريدا فآويناك ، و عائلا فأغنيناك ، لو قلتم هذا فأنتم صادقون ، أنتم تفضلتم علي جئتكم طريدا فآويتموني ، جئتكم مكذبا فصدقتموني ، جئتكم عائلا فأغنيتموني " مرة السيدة عائشة - وهي شابة في ريعان الشـباب ، وضـيئة ، وهي من أحب زوجاته إليه ، ولكنه لا يفتـأ يذكر خديجة بالخير فضجرت ، فقالت : هـذه العجوز الشمطاء ، ألا زلت تذكرها ، ألم يبدلك ا خيرا منها ؟ قال : لا وا لا وا لا وا ، صدقتني حين كذّبني الناس ، وآمنت بي إذ كفـر بي الناس ، وواستني بمالهـا إذ حرمنـي الناس ، ورزقني ا منها الولد ، فوا لا أنساها ، وكانت في سن أمه ، اليوم إذا رجل عنـده زوجة في مثل سنه يندب حظه ، ويقول غلطات غلطة كبيرة جدا ، أي إنسان يتـزوج امـرأة شابة ، و له زوجة توفيت يقول لك : ا خلصنا منها ، وا لا يوجد مثلك أنت ، قمة وفاء ، عثرت في بعض كتب السيرة ، على ومضة أنا لا أصدق مـا أرى ، النبـي عليـه الصـلاة والسلام حينما فتح مكة ، طبعا دعي أن يبيت في أي بيت يريد ، كل أهل مكة يتمنون أن يبيت عندهم ، ماذا قال؟ قال : انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة ونصب عند قبر خديجـة رايـة الإسلام ، ليشعر الناس أن لهذه المرأة فضلاً كبيراً في هذا النصر ، هي الدعم الداخلي ، الآن يأتي الواحد أحيانا من البيت ، ضغط من زوجته، الدخل محدود والطلبـات كثيـرة السـيدة خديجة إن صح التعبير امرأة لا كالنساء ، كانت الدعم الداخلي للنبي عليه الصلاة و السـلام ، كان يقيم في غار حراء الليالي ذوات العدد ، ما قالت كلمة : تركتنا لحالنا ، إذا كان يرضـيه أن يعبد ربه فأنا معه ، كانت تأتيه بالطعام إلى غار حراء ، قال : انصبوا لي خيمة عند قبـر خديجة ، ليشعر الناس أن لهذه المرأة البطلة مساهمة في هذا النصر ، هناك امرأة عبء على زوجها ، و هناك امرأة في خدمة زوجها هناك امرأةتدعمه ، تعينه ، وهناك امرأة عبء عليه .

لا إله إلا ا   محمد رسول ا   يمثل الكمال البشري ، مرة قال لي واحد: سمعت مـن يقول أن هذا الكون كله خُلق من أجل محمد ، قلت له : وا ِ هذا ليس بصحيح ، هذه شطحة ، و لكن البشر جميعاً خُلقوا ليكونوا على شاكلة محمد ، هو القدوة ، هو الأسوة ، خُلقنا لنكـون على شاكلته ، هو المثل الأعلى ، هو القدوة ، وهو النموذج ، لم نُخلق من أجله ، خُلقنا لنكون على شاكلته ، لهذا الآية الكريمة :

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

(سورة الأحزاب) .

لا معبود بحـق إلا ا   ، اعبد من اتصف بالكمال المطلق ، اعبد الرحيم و لا تعبـد اللئيم ، اعبد القوي و لا تعبد الضعيف ، اعبد الحكيم و لا تعبد غير الحكيـ ـ ـم ، فلـذلك ، بقولك : "لا إله إلا ا   " أي لا معبود بحق إلا ا   ؛ هو أهل التقوى و أهل المغفرة ، أهـلٌ أن تعبده .

و الحمد   رب العالمين .

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس التاسع والتسعين من دروس مـدارج السـالكين فـي منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ولأن هذه الدروس التي يفضل ا بها علينا ، علـى وشـك الانتهاء ، فلابد من أن نتجه إلى تلخيص هذه المعاني المستفادة من أن الإنسان مخلوق لعبـادة ا عزوجل ، بل إن عبادة ا علة وجوده ويمكن للقلب أن يمتلئ طمأنينة حينما يستمع إلـى قول رسول ا صلى ا عليه وسلم ، وهو يسأل سيدنا معاذ بن جبل قال:

"يامعاذ! هلْ تَدري ماحق ا ـ على العباد، وما حق العباد على ا ـ؟ قُلتُ: ا ُ ورسوله أَعلم. قال : فإن حق ا ـ على العباد أَن يعبدوه ولا يشْرِكُوا بِه شَيئاً ـ الآن السؤال المعاكس ، الذي يمـلأ القلوب طمأنينة ـ **وحق العباد على ا ـ، إِذَا فَعلُوا ذلِك، أَن لايعذبهم."**

[رواه ابن ماجة]

حينما تعبد ا عز وجل ، أنشأ ا لك حقا عليه ، ألا يعذبك ، من منا يحب أن يعذب ؟ من منا يحب أن يفتقر ؟ من منا يحب أن يمرض ؟ من منا يحب أن يخاف ؟ حينما تعبد ا ، انت تحت مظلة ا عزوجل ، أنت في ظل ا يوم لا ظل إلا ظله ، أنـت فـي رعايتـه ، وعنايته ، وتوفيقه ، وحفظه ، بل إن قول ا عزوجل مخاطبا النبي عليه الصلاة والسلام :

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾

[سورة الطور]

تنسحب عليك ، بطريقة ، أو بأخرى هذه الآية ، بقدر إيمانك ، وإخلاصك، والإنسـان كما تعلمون ، خُلق هلوعا ، خلق شديد الخوف ، وهذا ضعف في أصل خلقه ، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾

[سورة المعارج]

ما دمت متصلا با ، فأنت بعيد عن الجزع ، بعيد عن الهلع :

﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ
جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴾

وانحرف المسلمون ، حينما عبدوا ا ، وفق أمزجتهم ، ووفق اجتهاداتهم ، ووفق بدع ما أنزل ا بها من سلطان ، ا جل جلاله لا يعبد ، إلا وفق ما شرع ، فأية عبادة مبتدعة ، لم ترد لا في القرآن الكريم ، ولا في سنة النبي عليه أتم الصلاة والتسليم ، فهـذه عبـادة لا يقبلها ا عزوجل ، بل إن الفضيل بن عياض رحمه ا تعالى ، سئل عن العمل الصالح الذي يرضاه ا عزوجل ، في قوله تعالى :

﴿ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ ﴾

[سورة النمل]

سئل عن العمل الصالح الذي يرضي ا عزوجل ، قال : ما كان خالصا وصـوابا ، وشرح هذا فقال : خالصا ، ما ابتُغي به وجه ا ، وصوابا ، ما وافق السنة .

فهذا مقياس دقيق ، النية الطيبة ، وموافقة السنة ، كلاهما شرط لازم ، غير كاف ، لا يكفيي أن تكون النية حسنة ، ولا يكفي أن تطبق السنة ، من دون نية ، فلابد من نية حسـنة ، مع تقيد بالسنة ، حتى يقبل العمل ، وحتى تكون العبادة منجاة للإنسان من عذاب ا .

لعل النجاة في أن تُقايس ، أو أن تقارن ، أو أن توازن ، بين ما لك ، وما عليك ، ما عليك من أخطاء ، وما لك من ميزات ، أو أن توازن بين ما قدمت ، وبينما قدمه ا لك مـن نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد .

الإنسان حينما يغفل عن سر وجوده ، عن غاية وجوده ، يتيه فـي الأرض ، وكلمـة ضياع ، وتيه ، وحيرة ، وسوداوية ، وانقباض ، وكآبة ، هذه كلها من صفات الشاردين عـن ا عزوجل ، أنت حينما تتعرف إلى ا ، تتعرف إلى منهجه ، توقع حركتك اليوميـة وفـق منهج ا ، فإنه من المستحيل أن تكون شقياً ، قال تعالى :

﴿ وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ
رَبِّ شَقِيّٗا ٤ ﴾

[سورة مريم]

يعني ما من مخلوق يدعو ا عزوجل ، يشقى بهذا الدعاء :

وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ

رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾

قالوا الإنسان حينما يحاسب نفسه ، يحتاج إلى خصائص ثلاث ، يحتـاج إلـى نـور الحكمة ، ويحتاج إلى سوء الظن بالنفس ، ويحتاج إلى تمييز النعمة من الفتنة ، فكم من فتنة ، توهمها الإنسان نعمة ، وهي فتنة ، معنى فتنة بالضبط ، يعني شيء تُمتحن به ، فإما أن تنجح ، وإما أن ترسب ، قال تعالى:

أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾

[سورة العنكبوت]

لابد من أن تُفتن ، وإياكـم أن تفهموا من كلمة الفتنة المعنى السلبي ، مجرد امتحان ، فقد تنجح وقد تتفوق ، وقد تعلو عند ا عزوجل ، أما لابد من امتحان ، لذلك الإمام الشافعي رحمه ا تعالى سئل أندع ا بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال : لن تُمكن قبل أن تبتلى .

إن صح التعبير ، هناك مرحلة التأديب ، وهناك مرحلة الابـتلاء ، وهنـاك مرحلـة التمكين ، وهذه المراحل الثلاث ، إما أن تتمايز ، وإما أن تتداخل ، فلابد أن تُميز بين النعمة ، وبين الفتنة ، قد يأتي المال وفيرا ، ويكون فتنة، وليس نعمة ، فيحملك علـى المعصـية ، والكبر ، والإسراف ، والتبذير ، وتحقير الناس لأنهم فقراء ، هذا المال ليس نعمة ، بل هـو فتنة ، إن صح التعبير ، كل حظ من حظوظ الدنيا ، هو في الوقت نفسه ، نعمـة ، وفتنـة ، نعمة إذا حملك على طاعة ا ، وفتنة ، إذا حملك على معصية ا ، إذاً حظوظ سلم نرقى به أو دركات نهوي بها ، فكل حظ أوتيته لا يكون نعمة إلا إذا وظف في طاعـة ا وأي حـظ أوتيته يعد نقمة إذا كان مسخرا في معصية ا ، والحظوظ تعلمونها ، طلاقـة اللسـان حـظ والوسامة حظ ، والغنى حظ ، والقوة حظ ، والصحة حظ ، ووقت الفراغ حظ ، هذه الحظوظ ، إذا وظفت في الحق كانت نعمة ، وأية نعمة ، أما إذا وظفت في الباطل كانت نقمة ، وأيـة نقمة، فلابد من التمييز بين النعمة والفتنة ، أعجبني قول أحد العلماء ، قال : هناك خيط رفيع جدا بين الخشوع وبين الطرب ، أحياناً الإنسان يستمع إلى القرآن الكريم مـن قـارئ شـجي الصوت، حسن الأداء فيطرب ، وهو يظن نفسه خاشعاً هناك خشوع ، وهناك طرب ، يخشى أن لا نميز بين الخشوع وبين الطرب ، الخشوع له صفات، أما الطرب له صـفات ، فحينمـا يعلو الصوت ، وحينما تتجاوب مع نغم شجي في تلاوة القرآن ، وحينما تضطرب فهذا طرب ، وليس خشوعا ، كذلك قد يتوهم الإنسان أن هذه نعمة ، وهي في الحقيقة فتنة يعني أي حظ

جرك إلى معصية ، جرك إلى تساهل ، جرك إلى تقصير ، جرك إلى عزوف عن طلب العلم ، جرك إلى إيثار الدنيا على الآخرة ، هذه فتنة وليست نعمة ، وشتان بين النعمـة والفتنـة ، فمن أجل أن تُحاسب نفسك حسابا عسيرا ، لابد من أن تمتلك القدرة على التمييز بين الفتنـة ، وبين النعمة ، أشخاص لا يرون لأنفسهم خطيئة ، يقدسون ذواتهم ، ويرفضون أي نقص فيها ، يرفضون اي انتقاد لتصرفاتهم هؤلاء يعبدون ذواتهم من دون ا ، لن تستطيع أن تُحاسب نفسك حسابا دقيقا إلا إذا تمكنت من أن تسيء الظن بنفسك .

عود نفسك أن تُحسن الظن بالآخرين ، وبشكل أخص بـالمؤمنين ، عـود نفسـك أن تلتمس لهم عذرا عود نفسك أن ترى الوجه الإيجابي ، عود نفسك أن تُحسن الظن بهم ، وعود نفسك أيضا أن تُسيء الظن بنفسك ، ألا تُحابيها ، ألا تُجاملها ، ألا تمتدحها ، ألا تُسوغ خطأها ، لذلك الصالحون شديدو المحاسبة لأنفسهم ، سيئُو الظن بها ، سبحان ا ، إذا أضل ا إنسانا أسبغ على نفسه مديحا لا نهاية له ، كأنه لا يخطئ ، كأن كل أفعالـه جيـدة ، أمـا المـؤمن الصادق ، عمله الطيب يتهمه ، لعل نيتي لا ترضي ا ، لعلي بهذا العمل ، فرحت بمدح الناس لي ، فالمؤمن الصادق ، أعماله الخالصة يشك فيها ، بينما المنافق أعماله السيئة يمتدحها ، هذا معنى قول أحد التابعين : التقيت أربعين صحابيا ، مامنهم واحد إلا وهو يظن نفسه منافقـا ، يتقلب المؤمن في اليوم الواحد في أربعين حالا ، بينما المنافق يستقر في الحال الواحد أربعين سنة يحسن الظن في نفسه ، ويسبغ على نفسه كل صفات العظمة ، وينتقد الناس جميعا ، وهو ليس كذلك ، إذاً لابد من تمييز النعمة من الفتنة ، ولابد من سوء الظن بالنفس .

فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها إن الطعام يقوي شهوة النهم

يروى أن سيدنا عمر كان يخطب بالمؤمنين ، في أيام خلافته ، يعنـي فجـأة، قطـع الخطبة ، وقال كلاما لامعنى له ، قال كلاما لا ينسجم مع موضوع الخطبة ، قال : يـا ابـن الخطاب ، كنت راعيا ترعى الغنم على دريهمات لأهل مكة ، وتابع الخطبة ، فلمـا انتهـت الخطبة ، سأله بعض أصحابه ، لماذا قلت هذا الكلام ؟ وما علاقته بالخطبة ، فقال سيدنا عمر : جاءتني نفسي ، وقالت لي ، ليس بينك وبين ا أحد ، يعني أنت قمة المجتمع ، هـو فعـلا خليفة المسلمين ، كل الناس دونه ، خليفتهم ، هو أمير المؤمنين ، ثاني الخلفاء الراشدين ، قال عنه النبي :

"لو كان نبي بعدي لكان عمر بن الخَطّاب".

[رواه الترمذي]

سماه المؤرخـون عملاق الإسلام ، أتت آيات كثيرة موافقة لاجتهاده ، حتى سـميت هذه القضايا بالموافقات ، كان النبي يحبه حبا جما ، فلما قالت له نفسه ليس بينك وبين ا أحد ، أعجبته نفسه ، وأراد أن يعرفها قدرها وهو على المنبر ، قال : ياابن الخطاب كنت ترعـى

الغنم على قراريط لأهل مكة، من أنت ؟ وفي بعض الروايات ، يقول لنفسه : كنت عميـرا ، فأصبحت عمرا ، فأصبحت أمير المؤمنين ، لا تتساهل مع نفسك ، حاسبها حسابا عسيرا ، لا تحابها ، أسيء الظن بها ، وعلى العكس افعل مع إخوانك المؤمنين ، أحسـن الظـن بهـم ، إلتمس لهم المعاذير ، أناس إذا أصابتهم مصيبة ، قال هذه ترقية ، أمـا إذا أصـابت غيـرهم مصيبة ، قال هذا عقاب ، يتهم إخواه بالتقصير ، ويمتدح نفسه ، ويصف كل مصائبها علـى أنها ابتلاء ، تحتاج أن تُوازن بين الفتنة والنعمة ، وأن تُسيء الظن بنفسك، وتُحسـن الظـن بغيرك وأن تمتلك نور الحكمة كما قال ا تعالى :

وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ

[سورة البقرة]

من أوتي الحكمة ، عاش سعيداً ، ومات حميداً ، من أوتي الحكمة ، كان أسعد النـاس في الدنيا وأنجاهم من عذاب ا في الآخرة ، بل إن الحكمة هي نـور ا ، فحينمـا تفتقـد الحكمة فمعنى ذلك أن القلب مغلف ، بشيء لا يرضي ا عزوجل ، أما إذا كان القلب مفتوحا ، فالحكمة ضالة المؤمن ، أينما وجدها أخذها .

الذي يحاسب نفسه حساباً عسيراً ، لابد من أن يعرف الأمر التكليفي والأمر التكويني ، الأمر التكليفي ، يعني افعل ، ولا تفعل ، كيف تُقيم نفسك، ولا تعرف المقياس الذي ينبغـي أن تقيس به نفسك الشريعة ميزان، وقد قال بعض علماء التفسير ، في قوله تعالى:

وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧

[سورة الرحمن]

ا أعطانا ميزاناً ، هو ميزان العقل ، وهناك ميزان الفطرة ، أما العقل قـد يضـل ، والفطرة قد تنطمس ، أما الميزان الذي لا يضل ولا ينطمس ، هو الشـرع ، لـذلك قـالوا : الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع . الشرع ميزان الموازين ، ميزان مركـزي ، ميزان تُوزن به الموازين ، تماما كما لوأعطيت طالبا مسألة في الرياضيات ، وكتبت له رقما في نهاية المسألة ، قلت له هذا الرقم هو جواب حل المسألة ، فإن حللت المسألة في سـاعات طويلة ، ووصلت إلى هذا الجواب ، فحلك صحيح ، وإن انتهيت إلى حل آخر ، فحلك غيـر صحيح ، فأنت فكر ، وحلل ، وادرس ، إن وجدت تفكيرك ينتهي بك إلى طاعة ا ، فالتفكير سليم ، والعقل صريح ، أما إذا انتهى تفكيرك ، وعقلك إلى شـيء آخـر ، لا يرضـي ا ، فالتفكير غير سليم ، يعني إذا قال إنسان معي مبلغ من المال ، لا أستطيع أن أدعه مجمداً هكذا

، أخاف أن يفقد قيمته مع التضخم النقدي ، فلا بد من استثماره في جهة آمنة ، وليس هنـاك من جهة أشد أمناً من البنوك ، هكذا فكر ، نقول له ، إذا انتهى بك التفكير ، وانتهـت بـك المحاكمة إلى أن تستثمر مالك في مؤسسة ربوية ، وقد قال ا عزوجل :

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

[سورة البقرة]

نقول له تفكيرك غير صحيح ، إنسان آخر قال لك المرأة نصف المجتمع ، إن وجدت في مجتمع الرجال ، يتجملون ، يضبطون كلامهم ، يحسنون ألفاظهم ، فكأنها عنصر ضابط ، عنصر مهدئ ، يعني لابد من الاختلاط ، نقول له تفكيرك غير سليم ، لأن هذا التفكير انتهى بك إلى شيء حرمه ا عزوجل ، تماما كأن تُعطى مسألة رياضيات ، ومعها رقم ، فإذا انتهى بك الحل إلى هذا الرقم فالحل صحيح ، إذا انتهى بك الحل إلى رقم آخر ، فالحل غير صحيح ، هذا معنى قوله تعالى:

وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾

أعطاك ميـزان العقل ، وأعطـاك ميزان الفطرة ، ولعـل الفطرة تنطمس ، ولعـل العقل يضل أعطاك ميزانا لا يخطئ ، إنه الشرع ، فالحسن ما حسنه الشرع ، والقبـيح مـا قبحه الشرع ، فأنت في مجال محاسبة نفسك ، لأنه ليس له ، أحدهم يتحرك حركة عشوائية ، يتحرك بنزوات ، يتحرك بشهوات يتحرك بمصالح ، لا شرع يضبطه ، ولا معلومات تقيده ، كيف يحاسب نفسه إن لم يملك الميزان ؟ الميزان هو الشرع ، إذاً ما دمنا في محاسبة النفس ، ومحاسبة النفس تمهيد لطاعة ا عز وجل ، لابد من أن تعرف منهاج ا ، كي تجعل من هذا المنهاج ميزاناً لأعمالك ، بالفقه فروع دقيقة جداً ، منها آداب الطعام ، فإنسان مثلاً دعي إلـى طعام ، وأناس كثيرون ، يأكلون معه ، هو انتهى ، يبتعد عن المائدة ويجلس في مكان بعيد ، أو يغسل يديه ، وهو يرى أنه يقوم بألطف عمل ، أنت لما ابتعـدت عـن المائـدة أحرجـت الآخرين ، فالسنة تقتضي أن تبقى معهم ، أن تبقى في مكانك ، حتى ينتهـي الحاضـرون ، وجودك على المائدة عمل لطيف ، فهناك دقائق في الشرع دقيقة جداً ، كيف تُحاسب نفسك إن لم تعرف هذه الدقائق، لذلك لابد من معرفة دقائق الشرع حتى تكون هذه الدقائق ميزاناً لك في محاسبة النفس ، شيء آخر ، حينما تعرف أن الأمر التكويني بيد ا عز وجل ، الآلام التـي تُحطم النفس قد لاتأتيك ، ذلك أن الإنسان إذا وحد ا عز وجل ارتاحت نفسه ، فهذا الذي وقع أراده ا ، وهذا الذي أراده ا وقع ، وهذه الإرادة متعلقة بالحكمة المطلقة ، وهـذه الحكمـة

متعلقة بالخير المطلق ، لكل شيء حقيقة ، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصـابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، انتهى الأمر ، التوحيد هو الدين ، التوحيد هـو العلم ، التوحيد هو نهاية العلم ، وماتعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، التوحيد أن لا ترى مـع ا أحداً ، أن لا ترى فاعلاً إلا ا ، ألا ترى رازقاً إلا ا ، ألا ترى معزاً إلا ا ، ألا ترى مذلاً إلا ا ، ألا ترى معطياً إلا ا ، ألا ترى مانعاً إلا ا ، ألا ترى رافعاً إلا ا ، ألا ترى خافضاً إلا ا ، علاقتك مع واحد ، فإن أرضيته فقد بلغت المنى :

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب

وما دمنا في محاسبة النفس فهناك موضوع الحال ، المؤمن تعتريه أحوال، بعض هذه الأحوال مسعد ، وبعض هذه الأحوال مزعج ، أحيانا يشعر بالانشراح ، والتألق ، والسرور ، والتفاؤل ، ويظهر هذا في حركاته ، وفي لمعان عينيه ، وفي تورد خده ، وأحياناً ينقـبض ، هذا الحال هناك من يتعلق به ويراه كل شيء ، هناك من يراه حكماً حاسماً الحـال مسـعد ، لكن العلم حاكم عليه ، مثلاً رجل فقير جداً جداً ، أعطيته ورقة مالية بمئة ألف ، أو بمليون ، وقلت له هذه لك ، هذه الورقة قد تكون مزورة ، هو لا يعلم أنها مـزورة ، يشـعر بسـعادة وطمأنينة ، وثقة ، وامتلاء ، صار معه مبلغ ضخم ، أليس هذا الحال وهماً ، إذاً ما كل حـال صحيح ، هناك حال رحماني ، وهناك حال شيطاني ، من الذي يحكم على هذا الحـال أهـو صواب أم خطأ ؟ هو القرآن والسنة ، إذا أنت أديت طاعة ، وتألقت بها ، فهذا الحال رحماني إذا أنفقت مالك في سبيل ا وشعرت بتألق بعد إنفاق هذا المال ، فهذا الحال رحماني ، أما إذا استطعت أن تقترف إثماً وأن تُمتع نفسك إلى حين ، وفرحت بهذا الإثم ، فهذا حال شيطاني ، فالفرح مطلقاً ، والتألق مطلقاً ، والشعور بالامتلاء ، هذا يحتاج إلى علم ليكون حكمـاً علـى الحال ، مع أن الحال سمي حالا لأنه يحول ، لا يستقر ، لكن خير شاهد على هـذا ، علـى الحال الرحماني ، أن النبي عليه الصلاة والسلام جاءه الصديق مع سيدنا حنظلـة ، وكـان حنظلة في الطريق يبكي ، مر به الصديق، قال له : ياحنظلة ما لك تبكي ؟ قال : نافق حنظلة ، قال : ولم ياأخي ، قال: نكون مع رسول ا ونحن والجنة كهاتين ، فإذا عافسنا الأهل ننسى ، هذا شيء يقع في حياتنا ، نكون بالجامع مع إخواننا ، في جلسة روحانية ، يقول لك وا ، أنا مسرور جداً ، أما إذا ذهب إلى البيت ، وواجه بعض الصعوبات ، هذا الحـال الرحمـاني يضيع منه ، هكذا نكون مع رسول ا ، ونحن والجنة كهاتين ، فإذا عافسنا الأهـل ننسـى ، سيدنا الصديق ، لشدة كماله ، وتواضعه ، قال لحنظلة ، أنا كذلك ياأخي ، انطلـق بنـا إلـى رسول ا صلى ا عليه وسلم ، فلما جاءا النبي عليه الصلاة والسلام ، قـال النبـي عليـه الصلاة والسلام : نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ، ولا تنام قلوبنا ، أما أنتم يا أخـي فسـاعة

وساعة ، لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي ، لصافحتكم الملائكة ، ولـزارتكم في بيوتكم . هذا ما يعبر عنه بالشفافية ، كان عليه الصلاة والسلام يقول : أعرف حجراً بمكة ، كان يسلم علي وأسلم عليه .

دخل إلى بستان فرأى فيه ناقة ، فلما رأته الناقة ، ذرفت عيناها ، فجاءها النبي عليه الصلاة والسلام ومسح لها دفريها ، وقال : من صاحب هذه الناقة ، قالوا فتى من الأنصار ، قال ائتوني به ، فلما جاءه ، قال : ياهذا ألا تتقي الله في هذه البهيمة ، التي ملكك الله إياها ، فإنها شكت إلي أنك تُجيعها وتُدئبها هناك تواصل ، كان النبي عليه الصلاة والسلام يخطب على شجرة ، ثم نُصب له منبر ، حنت إليه الشجرة فكان يضع يده عليها في أثناء الخطبة ، تكريماً لها ، هذا مقام الأنبياء ، لكن المؤمن على شيء من هذه الأحوال ، فهناك انسجام مع الطبيعة والكون .

كل حال صحبه تأثير في نصرة دين الله عزوجل ، والدعوة إليه ، فهو منّة ، وإلا فهو حجة ، وكل قوة ظاهرة ، وباطنة ، صحبها تنفيذ لمرضاته، وأوامره ، فهي منة ، وإلا فهي حجة ، وكل مال اقترن به اشتغال بما يرضي الله عزوجل ، فهو منة ، وإلا فهو حجة ، وكل قبول في الناس ، وتعظيم ، ومحبة اتصل به خضوع لله عزوجل ، ذل وانكسار ، ومعرفة بعيب النفس والعمل ، فهو منة ، وإلا فهو حجة العلم حكم على الحال ، إن الله عزوجل ، لا يعبد ، إلا وفق شرعه ، وأية إضافة على الدين بدعة، وأي حذف من الدين بدعة :

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾

[سورة المائدة]

لابد من أجل أن تعبد الله ، من أن تعرف الأمر التكليفي ، والأمر التكويني ، ولابد من أن تُفرق بين الفتنة والنعمة ، ولابد من أن تسيء الظن بنفسك ، ولابد من حكمة تكشف بها الحق من الباطل ، ثم إن الحال والعمل، الحال والعلم متكاملان ، فالعلم حكم على الحال ، وليس الحال حكماً على العلم ، وأرجو الله أن ينفعنا بما علمنا، وأن يلهمنا تطبيق ما تعلمناه .

والحمد لله رب العالمين .

بسم ا الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام :

مع الدرس المتم للمئة ، من دروس مدارج السالكين في منازل إيـاك نعبـد وإيـاك نستعين ، وهذا الدرس الأخير من سلسلة هذه الدروس ، أردت أن أجمع فيه بعض الخصائص الكبرى للعبادة ، لأنه خاتمة هذه السلسلة الطويلة .

هناك حقائق واضحة وضوح الشمس ، نحن مخلوقون في هذه الأرض للعبـادة ، لأن ا عزوجل يقول :

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

[سورة الذاريات]

أيها الإخوة ، قبل أشهر ، ولد في الهند طفل ، أتم عـدد سـكان الأرض سـتة آلاف مليون ، وما من واحد من هؤلاء الستة آلاف مليـون ، إلا ويتمنى السـلامة والسـعادة ، وأقول السلامة في طاعة ا والسعادة في العمل الصالح ، أي مخلوق على وجـه الأرض ، من المخلوقات العاقلة ، يبحث عن سلامته وسعادته ، وسلامته في طاعة ا ، أو في تطبيق منهج ا ، أو في تطبيق تعليمات الصانع ، والجهة الصانعة ، هي الجهة الوحيدة التي ينبغـي أن تُتبع تعليماتها ، وما من سعادة إلا في القرب من هذا الخالق الذي هو منبع الجمال ، منبع الكمال ، منبع النوال ، وأنت أيها الإنسان تحب الجمال ، والكمال ، والنوال فمنبع الجمال هو ا ، وكل مافي الكون من جمال ، مسحة من جماله ، أنت تشعر بلذة ، حينما تتصل بمخلوق جميل ، أنت حينما تأكل طعاماً طيباً ، ويلتصق الطعام بأعصاب الذوق ، بسقف اللسان ، فـي سقف الفم أثناء البلع ، تشعر بطعم هذا الطعام، لأنك اتصلت بعنصر جميل في طعمه ، وقـد تتصل بعنصر جميل في شكله، تنظر إلى جبل أخضر ، وبحر جميل ، ووردة متألقة ، تشـعر بلذة ، ومتعة، فكيف إذا سمح لك أن تتصل بأصل الجمال في الكون ، هذا معنى قـول النبـي عليه الصلاة والسلام :

"أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني "

[رواه البخاري]

هذا معنى قول النبي : أرحنا بها يابلال ، أحدكم حينما يحكم اتصاله با ، أو يعمـل عملاً صالحاً كبيراً ، يبيض وجهه عند ا ، حينما تنهمر دموعه من خشية ا ، يشعر بسعادة

وا لاتُوصف ، متع الأرض كلها لايمكن أن تصمد أمام هذه المتعة ، متعة الاتصال بـا ، هذا الاتصال با يجعلك إنسانا آخر موازينك مختلفة اختلافاً كلياً عـن مـوازين الآخـرين ، مقاييسك مختلفة ، تسعد بالعطاء لابالأخذ ، تسعد بالاندفاع ، لا بالانسـحاب ، تسـعد بتقـديم جهودك للآخرين لا باستغلال جهودهم ، هذا هو سر التدين السلامة والسعادة مطلبان ثابتـان لكل إنسان في كل زمان ومكان ، لماذا الشقاء ؟ هناك شقاء في العالم لايعلمه إلا ا ، هنـاك أناس ، بحسب القرآن الكريم سوف يكون مصيرهم إلى النار ، إستمع إليهم ماذا يقولون :

وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾

[سورة الملك]

هي أزمة علم ، لأن كل إنسان يحب وجوده ، ويحب سلامة وجوده ، وكمال وجوده ، واستمرار وجوده ، فلو أُتيح له أن يعرف أسباب سعادته ، لثبت فيها ، إنسان شقي ، لو أُتـيح له أن يعرف ا ، وأن يعرف طريق سعادته كما عرفها المؤمن ، لكان مثله ، إذاً سبب الشقاء ، نقص العلم ، نقص التوحيد الشرك ، تغييب الحقائق الأساسية عن الإنسان ، هذا معنى قول ا عزوجل :

وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾

في آخر الزمان ، العبادات الشعائرية ، يؤديها الناس جميعا ، ويغيب عنهم أن مـنهج ا فيه عبادات شعائرية ، وفيه عبادات تعاملية ، وأنا أرى أن العبادات الشعائرية لا يمكن أن تقطف ثمارها ، ولا يمكن أن تسعد بها ، إلا إذا كنت ملتزماً بالعبادات التعاملية ، ومعي ألـف دليل ودليل :

"عن أَبِي هريرةَ عن النبي صلى الله عليه وسلم قالَ : هلْ تَدرون مـن المفْلـس ؟ قالُوا : المفْلس فينَا يا رسولَ الله من لا درهم له ولا متَاع ، قـَالَ : إِن المفْلس من أُمتـي من يأْتي يوم القيامة بِصيامٍ وصلاة وزكَاة ويأْتي قَد شتَم عرض هذَا وقَذَفَ هذَا وأَكلَ مالَ هذَا فَيقْعد فَيقْتَص هذَا من حسنَاته وهذَا من حسنَاته فَإِن فَنيتْ حسنَاتُه قَبلَ أَن يقْضي ما علَيه من الْخَطَايا أُخذَ من خَطَاياهم فَطُرِحتْ عليه ثُم طُرِح في النار ."*

[مسلم ، الترمذي ، أحمد]

قال رجل :

"عن أَبِي هريـ ـْرةَ قَالَ : قَالَ رجلٌ : يا رسولَ الله إِن فُلانَةَ يذْكَر من كَثْرة صلاتها وصيامها وصدقَتها غَير أَنها تُؤْذي جِيرانَها بِلسانها ، قَالَ : هي في النارِ ، قَالَ : يا رسـولَ

الله فَإِن فُلاَنَةَ يُذْكَر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها وإنها تَصدقُ بِالأَثْوارِ من الأقـط ولا تُؤْذي جِيرانَها بِلسانها ، قَالَ: هي في الْجنة ."*

[رواه أحمد]

وقَالَ:

"دخَلَت امرأَةٌ النار، في هرة ربطَتْها، فَلاَ هي أَطْعمتْها ولاَ هي أرسلتْها تَأْكلُ من خَشَاش الأَرضِ حتى ماتَتْ .".

[رواه ابن ماجة]

ويقول:

" قَالَ حذَيفَةُ : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : يقُولُ لا يدخُلُ الْجنةَ قَتاتٌ ".

هذا النمام

[البخاري ، أبي داوود ، مسلم ، أحمد ، الترمذي]

لو استعرضت الأحاديث الصحيحة المتعلقة بالمعاملات ، لوجدتها أكثر من أن تُحصى ، ولوجدت أن العبادات الشعائرية مرتبطة بالعبادات التعاملية ، فقد ورد عن السـيدة عائشـة رضي ا عنها وهذا حديث مشكل ، لكن يعنيني منه جانب واحد ، قالت ، قولوا لفلان : إنـه أبطل جهاده مع رسول ا .

أنت حينما تأكل المال الحرام ، وحينما تعتدي على الأنام ، وحينما تُوقع بين اثنـين ، وحينما ترتكب شيئاً منكراً ، كأنك قلت يارب ، أبطل لي صلاتي ، لا تقبل مني صـلاتي ، لا تقبل مني صيامي ، لا تقبل مني حجي، أريد أن أضع يدي على بعـض الحقـائق ، الحقيقـة الأولى ، العبادة ليست شيئا تفعله أو لا تفعله لا ، هي قدرك خُلقت من أجلها ، علة وجودك أن تعبد ا ، ويجب أن تعلم علم اليقين أنه من عبد ا ولم يحبه ، من أطـاع ا ولـم يحبـه ، ماعبده ، ومن أحبه ولم يطعه ، ما عبده ، إنها طاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسـها معرفة يقينية ، تؤدي إلى سعادة أبدية ، إن أكثر الفرق التي انحرفت ، اعتمدت أحـد كليـات الإسلام، وركزت عليه ، وأهملت الكليتين الباقيتين ، جماعات اعتمدوا على القلـب وحـده ، وأهملوا العلم والعمل ، وجماعات اعتمدوا على العلـم وحده ، وأهملـوا القلـب والعمـل ، وجماعات اعتمدوا على العمل وحده ، وأهملوا القلب والعلم ، كل هؤلاء عرجوا ، وكل هؤلاء انحرفوا ، وكل هؤلاء تطرفوا لكن تتفوق إن فهمت العبادة بالتعريف الأصـولي ، طاعـة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تؤدي إلى سعادة أبدية .

إذاً أنت مخلوق للعبادة ، والعبادات نوعان ، عبادات تعاملية ، فالمسلم صادق ، أمـين ، ومما يوقع في الحيرة أننا نجد في العالم الإسلامي مسلم يصلي ، ويكذب ، يصـلي ويأكـل

المال الحرام ، يصلي ويخون للإمام علي كرم ا وجهه ، قول رائع ، يقول : قـوام الـدين والدنيا أربعة رجال ، عالم مستعمل علمه وجاهل لا يستنكف أن يتعلم ، وغني لا يبخل بماله ، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه . فإذا ضيع العلم علمه استنكف الجاهل أن يـتعلم ، وإذا بخـل الغني بماله ، باع الفقيرآخرته بدنيا غيره .

والنوع الثاني من العبادات العبادات الشعائرية وهـي ثمـرة للجانـب التعـاملي ، كساعات الامتحان تماما ، لامعنى لها إن لم تدرس ، إذا صح أن تكون العبادة التعاملية هـي العام الدراسي ، فإن العبادة الشعائرية هي ساعات الامتحان الثلاثة ، بقدر دراستك ، تتألق في امتحانك ، فلو فرضنا أنك لم تدرس الامتحـــان ليس له معنى إطلاقا ، الشـيء الثـاني ، حينما يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح :

" .... اتق المحارم تكن أعبد الناس ..."

[الترمذي ، أحمد]

فهناك نوافل ، وهناك أذكار ، وهناك أعمال صالحة ، لكن قبل كل هـذه الأذكـار ، وقبل كل هذه النوافل ، وكل هذه الأعمال ، يجب أن تتقي المحارم ، كي تكون أعبد النـاس ، فإن ا لا يقبل نافلة ، ما لم تُؤدى الفريضة ، كما أنه لا يقبل عملاً صالحاً إلا إذا بني علـى استقامة ، وطاعة، فإذا أردت أن أبرز معالم الطريق إلى ا ، أول معلم من معالم الطريق إلى ا ،أن تعرفه ، مع أن جماعات كثيرة ، تهمل معرفته ، وتركز على معرفة منهجـه ، مـع التقدير اللامتناهي لمعرفة منهجه ، ومع التقدير الكبير لضرورة معرفة منهجه ، لكن معرفـة منهجه وحدها لا تكفي ، لابد من أن تعرف الآمر من أجل أن يكون الأمر عظيماً عندك ، قال تعالى:

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾

[سورة الحج]

أول معلم من معالم الطريق أن تجتهد في معرفة ا ، لأنه آمر ، إن عرفت الآمـر ، ثم عرفت الأمر ، تفانيت في طاعة الآمر ، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر ، تفننت في التفلت من هذا الأمر وهذا ما تجده واضحاً في العالم الإسلامي ، بلد إسلامي ، قال الربـى ، يجوز أن تضع مالك في المصارف وأن تأخذ فائدة ، سنسميها عوائداً ، لا فوائد ، في مكـان آخر سمح بالغناء والتمثيل ، والموسيقى ، في مكان ثالث ، سمح بأكل الربى أضـعافا غيـر مضاعفة ، يعني من يشتغل بالعلم الشرعي ، يقرب هذا الدين من انحراف النـاس ، ليغطـي انحرافهم ، السبب بسيط ، لأنهم ما عرفوا الآمر ، عرفوا الأمر ، أنا أضرب مثلاً ، قد تأتيك ورقة ، تُدعى فيها إلى أن تذهب إلى البريد ، لتستلم رسالة مسجلة ، ورقة ، حجمهـا بحجـم

الكف ، تعالَ الساعة الثانية عشر من يوم الخميس ، وقد تأتيك ورقة بحجم الأولـى تمامـاً ، وببساطتها ولكن جهة قوية ، تقول لك ، تعال قابلنا يوم الخميس ، الساعة الثانيـة عشـر ، الورقة الثانية ، لا تنام الليل هماً وغماً، ثلاثة أيام وأنت في خوف شديد ، والورقة الأولى لـم تعبأها ، ولم تذهب إلا بعد شهر لاستلامها أما الورقة الثانية لم تنم الليل ، لثلاثة أيـام ، لأن الجهة الأولى غير قوية ، أما الجهة الثانية قوية ، تعلم علم اليقين ، من مرسل الورقة الثانية ، وماذا يعني أن تصل إليك ، فأنت ببساطة بالغة ، حينما تعرف الآمر ثم تعرف الأمر ، تتفانى في طاعة الأمر ، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر ، تتفنن في التفلت من الأمر ، تـارة بلوى عامة ، وتارة في رأي بعض المذاهب تجوز ، وتارة ، ا يغفر لنا ، نحن عبيد إحسان ولسنا عبيد امتحان ، إذاً أنت كمسلم يجب أن تعرف الآمر قبل الأمر ، كي يكون لهذا الأمـر شأن كبير عندك ، كي تقبل على هذا الأمر ، رغباً ورهباً ، خوفاً وطمعاً ، ترجو رحمـة ا بهذا الأمر ، وتخشى عذابه ، كيف أعرف الآمر؟ الجواب ، ا جل جلاله خلق هذا الكـون ، فكل شيء في هذا الكون يدل عليه فالتفكر في خلق السماوات والأرض ، أحد الوسائل الفعالة لمعرفة الآمر ، التفكر في خلق السماوات والأرض أقصر طريق إلى ا ، وأوسع باب تدخل منه على ا ، لابد من معرفة أمره ، حينما تعرف ا تندفع اندفاعاً شديداً لمعرفة أمره ، لأنك بالكون تعرفه ، وبالشرع تعبده ، لاتجد مسلماً وصل إلى حد المعقول من معرفة ا ، دفعـه إلى طاعته ، إلا ويبحث ويدقق ، ويسأل عن حكم ا في كذا وكذا ، شيء طبيعـي ، جـداً ، حينما تتعرف إلى ا ، تبحث عن شيء يوصلك به ، ويقربك منه ، إنه تنفيذ أمـره ، هنـاك محرمات ، هناك مكروهات ، هناك مباحات ، هناك مندوبات ، هنـاك واجبـات ، وهنـاك فروض ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

" .... اتق المحارم تكُن أعبد الناس ..."

[الترمذي ، أحمد]

المعلم الثاني من معالم الطريق ، الاستقامة على أمر ا ، لا تفكر أن تسعد بهذا الدين ، ولا أن تقطف ثماره ، ولا أن تكون من المتدينين عند ا ، إلا أن تستقيم على أمر ا ، في عالم التجارة ، هناك نشاطات لا تُعد ولا تُحصى ، من هذه النشاطات ، شراء محل تجـاري ، شراء مستودع، شراء مكتب استيراد ، تعيين مندوبي مبيعات ، تعيين هيئة محاسبة ، مخاطبة الشركات ، تعيين مترجم ، ثم عرض هذه البضائع ، ثم بيعها وجمـع ثمنهـا ، هنـاك آلاف النشاطات في التجارة ، لكن التجارة كلها ، مبنية على كلمة واحدة ، هي الربح ، فإن لم تربح ، فلا معنى لكل ذلك ، كل ما تقرأ وكل ما تسمع ، من خطب ، أو شـريط درس علـم ، أو كتاب من أندر الكتب ، وكل شيء تُعجب به ، وكل مؤتمر تحضره ، وكل كتاب تؤلفه ، وكل درس تلقيه ، ما لم ينته بك إلى الاستقامة على أمر ا ، لا معنى له ، وبالتجارة ، ما لم تربح

لامعنى لكل نشاطاتك ، المعلم الأول أن تعرف الآمر قبل الأمر ، ما قلت أن تعـرف الآمـر دون الأمر ، أن تعرف الآمر والأمر معاً ، إنني لا أقلل من قيمة معرفة الأمر ، ولكن معرفة الأمر من دون أن تعرف الآمر لا تنفع كثيرا ، ثم لابد من أن تتحرك لتستقيم على أمـر ا ، لابد من أن تأخذ موقفاً ، قال تعالى :

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ
يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ

[سورة الأنفال]

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ
يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ

مالم تتخذ موقفاً عملياً ، ما لم تعط ، مالم تمنـع ، ما لم تصل ، مـا لـم تقطع ، ما لم تغضب ، مالم ترض ، مالم تقم علاقة مع زيد ، ما لم تقطـع هـذه العلاقة ، فكل شيء نظري كل شيء تعتقد به ، لا جدوى منه ، مثلاً ،إنسان معه مـرض جلدي ، بحاجة إلى أشعة الشمس ، والشمس ساطعة ، فلو قال الشمس ساطعة لا يستفيد ، أولا لأنه ما فعل شيئا ، هي ساطعة ، فلو قال هي ساطعة ما زاد شيئا ، ما أضاف شـيئا ، وإن أنكر سطوعها ، يتهم عقله ، وما لم يخرج هذا الإنسان المريض بجلده ليتعرض لأشعة الشمس ، فتصريحه ، واعتقاده ، ويقينه لا قيمة له ، أبدا إذاً ، المعلم الثاني الاستقامة على أمر ا :

ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ

[سورة النساء]

أحيانا الإنسان يتوهم أنه يرضي ا بسماع درس العلم ، ا عزوجل لا يرضى إلا إذا طبقت العلم قال تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ

[سورة الصف]

يتعرف إلى الله من خلال خلقه ، ومن خلال أفعاله ، ومن خلال كلامه ، ثم تتعـرف إلى منهجه ثم تستقيم على أمره ، المعرفة ، والاستقامة ، قلت بالاستقامة تسلم ، وبالعمـل الصالح تسعد ، فأول معلم معرفة الله ، المعلم الثاني ، معرفة أمـره ، المعلـم الثالـث ، أن تستقيم على أمره ، المعلم الرابع، أن تعمل صالحا ، أن تبذل مما آتاك الله ، من علم ، من مال ، من قوة ، من جاه ، من خبرة ، من وقت ، لابد من أن تبذل ، لأن حجمك عند الله ، كحجم عملك الصالح ، نعرفه ، ونعرف أمره ، ونتقرب إليه ، هذه المعالم الأساسية للطريق إلـى الله عزوجل ، الآن ، نعرفه وهو أصل الدين ، ونعرف منهجه ، كي نتقرب إليه نطيعه كي نسلم ، نعمل الصالحات كي نسعد ، لابد من الاتصال به ، الصلاة مناسبة كي نتصل به والزكـاة من أجل أن نتصل به ، أن يكون هذا المال الذي دفعته سببا للإقبال على الله ، والحج من أجل أن نتصل به ، والصيام من أجل أن نتصل به ، والأذكار من أجل أن نتصل به ، والدعاء من أجل أن نتصل به ، وكل أنواع العبادلات التعاملية والشعائرية من أجل أن نتصل به ، بـل إن كل شيء يقربك من الله عزوجل ، ينبغي أن تفعله ، وكل شيء يبعدك عـن الله عزوجـل ، ينبغي أن تبتعد عنه ، هذه معالم الطريق إلى الله عزوجل ، ديننا بسيط ، وأنا أتمنى أن تفهـم هذا الدين فهماً مبسطاً ، لأنه كالهواء ، يحتاجه كل إنسان ، هذا الهواء قاسم مشـترك للنـاس جميعا ، والدين كذلك ، أينما ذهبت ، الإنسان بحاجة إلى تدين صحيح ، بحاجة إلى أن يعرف الله ، أن يتصل به ، أن يلوذ بحماه ، أن يفهم أن الجهة القوية تحبه ، فياأيها الإخوة من أجل أن نكسب الوقت ، من أجل أن نتحرك دون أن نتقدم ، من أجـل أن نكسـب أعمارنـا الثمينـة والقصيرة ، العمر ثمين ، ما دام العمر ثميناً ، والوقت قصيراً ، والمهمة كبيـرة ، ينبغـي أن نصطفي الشيء النافع .

فينبغي أن نعمل الصالحات من أجل أن نسعد ، ثم ينبغي أن نذكره من خلال صلواتنا وصيامنا وحجنا ، وزكاتنا ، ودعائنا ، واستغفارنا ، وبذلنا، وخدمتنا لبعضنا بعضاً ، هذا هو الطريق ، معرفة واستقامة ، وعمل صالح ، وذكر ، لو أردت أن تضغط ، مؤلفات كثيرة جدا تجدها لا تزيد عن هذه المعالم الأساسية ، التي أرادها الله لتكون طريقا إليه أتمنى أن يبسـط الدين لا أن يعقّد ، وأتمنى أن يتوافق مع العقل لأن العقل أصل من أصول معرفة الله عزوجل ، لماذا يقول الله عزوجل : أفلا تعقلون ، أفلا ينظرون أفلا يتفكرون ، طُبع مرة قبل خمسين عاماً ، طُبع خمسون ألف مصحف ، حذفت منه كلمة واحدة ، قوله تعالى:

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ

[سورة آل عمران]

مصحف بخط عثماني ، وفيه تقرير ، وفيه مراجعة ، وفيه وفيه ، حذفت منه لن هذه الكلمة ، من الذي يكشف لك أن هذا المصحف مزور ، هو العقل السليم الذي أودعه ا فيك ، لايمكن للعقل الصريح أن يتناقض مع النقل الصحيح ، لأن العقل مقياس أودعه ا فينا ، ولأن النقل كلامه ، والأصل واحد أضيف على ذلك ، كما أنه لايمكن أن تتعارض الفطرة السـليمة ، مع النقل الصحيح ، كما أنه لايمكن أن يتعارض الواقع الموضوعي مع النقـل الصـحيح ، الواقع الموضوعي خلقه ، والفكرة السليمة جبلته ، والعقل مقياسه ، والنقل كلامه ، وسنة النبي بيان لكلامه ، الواقع الموضوعي خلقه ، الهاء تعود على من؟ على ا ، والفطـرة السـليمة جبلته ، هو جبلنا عليها ، تعود على ا ، والنقل الصحيح كلامه ، والعقل الصريح مقياسـه ، هذا هو الحق ، فحينما ننطلق في حياتنا عمرنا قصير :

كم من صحيح مات من غير علة وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

هناك ظاهرة جديدة ، أزمات قلبية بالثلاثين ، أزمات قلبية قاتلة بالخامسة والعشرين ، ضغوط الحياة قاسية جدا ، الإنسان له أجل ، لكن هذا الوهم المريح ، يقول له لن أموت حتى الستين ، لي صديق في التاسعة والأربعين، طبيب ، لا يشكو من شيء ، غادر الدنيا في دقائق ، ظاهرة منتشرة ، لذلك :

تزود من الدنيا فإنك لاتدري إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر

فكم من عروس زينوها لزوجها وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر

وكم من صحيح مات من غير علة وكم من سقيم عاش حينا من الدهر

مفهوم الزمن ، هو أخطر مفهوم في حياة الإنسان ، إنك بضعة أيام ، كلما انقضى يوم ، انقضى بضع منك ، وهذا الوقت الذي هو أنت ، أو هو رأس مالك ، أو هو أثمـن شـيء تملكه على الإطلاق ، إما أن تُنفقه إنفاقاً استهلاكياً، أو أن تنفقه إنفاقاً استثمارياً ، أن تسـترخي ، وأن تستمتع بالحياة، هذا إنفاق إستهلاكي ، أما أن تُوظفه في معرفة ا ، ومعرفة منهجـه ، وطاعته ، وفي معالم الطريق ، والعمل الصالح ، والاتصال به ، فهذا استثمار للوقت ، لـذلك قال تعالى:

وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾

[سورة العصر]

والحمد رب العالمين

الفهرس